



(٣)

مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين
في العراق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

محتويات العدد

هيئة التحريـر

المراسـلات

جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق
العراق . بغداد . ص.ب (٢٧٠٨٩)
شارع ١٤ رمضان .

الاشتراك السنوي

- الجامعات والمؤسسات في العراق (٢٠) دينار سنويا
- اعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا .
- الافراد عموما (١٠) دنانير سنويا .
- تدفع الاشتراكات مقدما وكالآتي :
  أ - صكوك لآمر الجمعية
  ب - نقداً لآمر الجمعية

مطبعة الامـة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

المقدمة

تكتسب دراسة موقف عرب العراق من الاحتلال الساساني اهميتها ليس فقط للاعتبارات التي تتعلق بنزوع سكان العراق للتحرر من الاحتلال، ولكن لان تطور هذا الموقف وكشف عمقه التاريخي زمنا وممارسات يكشفان المأزق الحضاري الذي واجه الاحتلال الساساني بشكل خاص والفارسي بشكل عام ، فحتى وقت قريب كان بعض الباحثين يعتقد بوجود صلة للفرس بطبيعة النشاط الحضاري في العراق في حين تكشف المقاومة المستمرة والمتصلة لعرب العراق للاحتلال الفارسي عن رفضهم للاحتلال ونظرتهم له ، سيطرة اجنبية طارئة على تاريخ العراق غريبة عن دوره الحضاري وقوة متغلبة ليس الا . واذا اخذنا بنظر الاعتبار تفاصيل هذا الموقف عسكريا وثقافيا تبين لنا صدق الاعتقاد بأن الفرس دخلوا العراق قوة محتلة وغادروه قوة محتلة حملوا سمات حضارته أكثر مما منحوه . غير ان الباحث يجابه بمشكلة المعلومات فتلك الحقبة الطويلة لم تصل الينا عنها روايات واضحة تفيد في دراستها والواقع ان ما وصل فقير جدا قد لايكفي في تكوين كل تفاصيل الصورة لا بل ملامحها الاساسية ان اقدم المصادر عن دراسة تاريخ الفرس (كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء لمؤلفه حمزة بن الحسين الاصفهاني (ت قبل ٣٦٠ هـ) لايبدو وثيقة تأريخية عن الفترة بقدر ما هو محاولة شعوبية متأخرة كثيرا عن القرن الثالث الهجري يبدو عليها طابع التشابه لموارد التاريخ العربي في الانساب خاصة وتحمل روحا يهودية في محاولتها احتواء التاريخ العالمي وتصييره فارسيا اما بقية المصادر فانها قدمت لنا روايات مقتضبة ومتناثرة فالطبري في تاريخه (كان حيا ٣١٠ هـ) نقل لنا روايات متناثرة عن مصادر متعددة فقد نقل رواية عن قيادة هانيء بن قبيصة للجيش في معركة ذي قار عن ابي

عبيدة (ت ٢١١)[١] ونقل رواية عن وفادة المثنى بن حارثة الشيباني على الخليفة ابي بكر عن ابي مخنف[٢] (ت١٥٧) ٠ ورواية اخرى عن دور المثنى عن الشعبي[٣] (ت١٠٣ ـ ١٠٥ هـ) بينما اورد رواية عن عمليات قطبة بن قتادة السدوس نقلا عن المدائني[٤] اما روايته عن بني العم في الاحواز فمصدرها السري[٥] (ت١٤٧ او ١٥٨) واورد البلاذلى (ت٢٧٩ هـ) رواية قطبة عن ابي مخنف (ت١٥٧) او عوانه بن الحكم بطريق عباس بن هشام الكلبي ٠[٦] بينما جاءت روايات الدينورى (ت٢٨٢ او ٢٩٠ هـ) عن ابي الكبس النمري النسابه وعبيد بن شرية ٠[٧] بينما اخذ ابن عبد ربه رواياته عن ابن القطامي عن الكلبي ٠[٨] ونقل البكري رواية عن ذي قار عن ابي عبيده ورواية عن افتراق العرب عن ابن عباس بطريق ابن الكلبي[٩] واخرى عن اياد في العراق[١٠] ونقل عن ابن شبه (٢٦٣ هـ) رواية عن اياد ورواية عن ربيعة[١١] وعن ابي علي النقالي رواية اخرى اما ياقوت الحموي فروايته عن اياد كانت عن طريق ابن الكلبي[١٢] وفيما عدى هذا لاتحفل المصادر بروايات اخرى واذا اخذنا بنظر الاعتبار منهج كل من المؤرخين او الجغرافيين المذكورين في تناول الرواية ادركنا كيف

(١) تأريخ الطبرى/٢/٢٠٥
(٢) المصدر نفسه /٢/٢٠٥
(٣) المصدر نفسه /٣/٣٤٦
(٤) المصدر نفسه /٣/٥٩٣
(٥) المصدر نفسه /٣/٧٢
(٦) فتوح البلدان/٤٧٢
(٧) الاخبار الطوال/٧
(٨) العقد الفريد /٢/١٠
(٩) معجم ماستعجم /٢/١٠٤٢
(١٠) المصدر نفسه /١/٢٢ـ٢٤
(١١) المصدر نفسه /١/٩٨
(١٢) المصدر نفسه /١/٩٩ ، ٨٦

ساهم التشتت في افقاد الروايات الصورة التاريخية التـــي تتشكل منها وبالتالي صعوبة تكوين تصور تاريخي سليم لتطور الاحداث في العـــراق ان ندرة الروايات ومحدودية موضوعاتها تجعل من الصعب تحديد جملـة الدوافع الكامنة وراء موقف عرب العراق من الاحتلال الفارسي ومما لاشك فيه أن تنوع الدوافع يرتبط بمعرفة شرائح المجتمع وعناصره فهناك اضافة الى عرب العراق الذين دخلوه بعد سقوط بابل على يد الاخمينيين الفرس (٥٣٩ ق٠م) يوجد الكلديون الذين هم بقايا المجتمع البابلي ، والعباديون في الحـيرة ٠

عبر موقف عرب العراق عن نفسه بأتجاهين الاول رفض الاحتلال الذي اخذ شكل عمليات عسكرية رغم تباين تلك العمليات من حيث حجم الممارسـة واهدافها ٠ والثاني ٠ الحرص على الاحتفاظ بكيان عراقي بغض النظر عن الحيز الذي يشغله فبعد الاحتلال الفرنســي ظهرت امارة بيت عديني وفي الاحتلال الساساني ظهرت مكانها امارة الحيرة وكلا الامارتين شغلت نفس المنطقة التي ظهرت بها فيما بعد الكوفة٠لقد ارتكز هذا الموقف الى الاعداد المستمر بالقبائل الذي جاءت به شبه جزيرة العرب والواقـــع ان اندفاع القبائل العربية نحو العراق يعبر عن اصرار فريد من نوعه على ابقاء سمة العروبة والتميز الثقافي قائمة في العراق بوجه الاحتلال الاجنبي ، وهـــو الذي اتاح استمر الهوية القومية والحضارية ، وعلى جهود الذين ساهموا في مقاومة الاحتلال من عرب العراق استكملت الامة العربية تحريره فـي معركة القادسية التي كان اخر جيل من المقاومين جزء مـن مادتها افراداً وقيادات ٠

---

(١٣) المصدر نفسه /١/٧٠

(١٤) معجم البلدان /٢/٦٥٢ ، ٣/١٦٤

تحريــر العراق

دراسة لجهود عرب العراق للتحرر من الاحتلال الفارسي

الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي
عميد معهد الدراسات القومية والاشتراكية

مدخــل

دخل العراق عام ٥٣٩ ق٠م تحت الاحتلال الفارسي ، عندما قــام الملك الاخميني كورش (٥٥٨ ــ ٥٣٠ ق٠م) بغزو بابل ، وعندما تقــدم خلفاؤه فيما بعد نحو الشام ومصر كان واضحا ان الفرس اعتبروا الارض العربية فيما بين جبال لورستان وسواحل البحر المتوسط ميدانا لاطماعهم في الغزوا والسيطرة ٠ ولابد ان الفرس الاخمينيين افادوا مــن متغيرات توفرت آنذاك في المرحلة التاريخية وتظافرت مع نجاحهم في بناء دولـــة «مركز قوة» في جنوب شرقي جبال لورستان ، وابرز تلك المتغيرات وجود اليهود المرحلين من فلسطين وانتشارهم في العراق ودورهم التخريبي المتمثل في اضعاف الدولة البابلية التي كانت تعاني من اوضاع غريبة[(١)] ٠ ومع ان الدراسات التأريخية لم تسلط الضوء على تلك الفترة غير ان بعض ما ورد من اشارات الى حالة الملك البابلي نبونائيد تعطي الانطباع بأن الدولـــة كانت تواجه مشاكل في البناء الاجتماعي والفكر[(٢)] ٠

---

(١) د٠نزار الحديثي : العلاقات العربية ــ الفارسية ، دراسة تاريخية «دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع ، بغداد ١٩٨٢» ص٢٠ــ٢١٠ وانظر ايضا طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة «مطبوعات دار المعلمين العالية ، بغداد ، ١٩٥٦» جـ٢ ، ص٣٩٨ وما بعدها ٠

(٢) طه باقر واخرون : تاريخ العـــراق القديم (جامعة بغداد ، ٩٨٠) جـ١/٢٥٣ ٠

تعاقبت اشكال السيطرة الاحتلالية للاقوام الشرقية على العراق ، وباستثناء الفترة «٣٣٢ ـ ١٣٥ ق٠م» حيث سيطر الاسكندر وخلفاءه السلوقيون على العراق فأن الاقوام الشرقية سيدت الموقف حتى سنة ٦٣٦ م وقد تعاقب على حكم العراق في هذه الفترة اضافة الى الاخمينيين كل من الفرثيين «٢٤٧ ق٠م ـ ٢٢٦ م» والساسانيين «٢٢٦ م-٦٣٦م»(٣)

انتشار العرب في العراق

تشير المعلومات التاريخية الى الصراع العنيف الذي خاضه سكان العراق ضد الاحتلال الاجنبي ، ومحاولاتهم الافادة من الصراع الدولي لانتزاع بعض الانتصارات والمكاسب ، وقد ساعدهم على ذلك استمرار اندفاع حركة القبائل العربية من الجزيرة العربية شمالا نحو العراق وحول الخليج العربي ، وتوغلها في المنطقة العازلة بين العراق وبلاد ايران ويعبر ظهور امارة ميسان العربية فيما بعد بين اعلى الخليج العربي والعراق ، وبين جبال لورستان عن النجاح الذي حققه العرب في صراعهم ضد الاحتلال(٤) ، كما يعبر نشوء الحيرة واستمرارها الى قبيل ظهور الاسلام بقليل عن ذات التوجه ٠

اخذ الصراع بين العرب والمحتلين الساسانيين شكلا جديدا ، تركز على استمرار الاندفاع نحو العراق والانتشار فيه حيثما امكن ، ومع ان الساسانيين لجأوا الى الافادة من ضغط الظروف الاقتصادية والتخلف في استخدام بعض العرب ضد البعض الاخر الا ان نهاية العلاقة كانت

---

(٣) طه باقر : مقدمة في تاريخ العراق القديم ٤٦٥/١ وما بعدها وانظر ايضا د٠ نزار الحديثي وآخرون : الحدود الشرقية للوطن العربي «دراسة تاريخية» «جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق» ، بغداد ١٩٨١ ص١٩ ٠

(٤) د٠ نزار الحديثي «وآخرون» :الحدود الشرقية للوطن العربي ص١٩٠

بأستمرار الوصول الى نقطة افتراق ، عندما يلجأ الطرف المتفاهم الى تعزيز مواقعه من اجل امتيازات ومكاسب اوسع • لقد اخـذت موجات الاندفاع القبلي ابعادها كاملة في الانتشار في العـراق ، ويشير البكري في مقدمته عن حركة القبائل العربية وحراكها الى هذا الانتشار بوضوح ، فقد دخلت العراق بعض بطون قضاعة يوم بدأت قبيلة الازد حركتها الواسعة فنزلت في حافات الفرات حول الحيرة والسماوة وتوغلوا في منطقة الجزيرة ، عندما شعر سابور ذو الاكتاف بخطر انتشارهم خاض معهم حروب طاحنة فأجلاهم الى الشام ، بينما بقيت بعض جموعهم في الانبار[٥] •

ثم دخلته بعض بطون قنص بن معد فأنتشروا على حافات الفـرات حول الانبار والحيرة وهم الذين اسسوا امارة الحيرة ومنهم ملوكها ال نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث ، رهط النعمان بن المنذر[٦] ، كما انتشرت فيه بطون اياد بدء من كاظمة جنوبا الى سنداد «قرب الكوفة» حتى اعالـي الفرات مما قارب الجزيرة ، وتكاثرت جموعهم واندفعوا عبر الفرات نحـو تكريت والموصل • وخاضوا حروبا طاحنة مع الفرس على عهد انو شروان بن قياذ وكسرى بن هرمز ثم انسحبوا نحو الشام وبقي بعضهم منتشرا فيما حول الفرات وبين تكريت والموصل[٧] ، وانتشرت ايضا بطون ربيعة بعد خروجها من جزيرة العرب فاستقرت بكر بن وائل وعنزة وضبيعة في

---

(٥) البكري : معجم ما استعجم (عالـم الكتب ، بيروت) ج١/٢٢ بنو تغلب بن حلوان في الحيرة وص٢٣ بنو تزيد بن حلوان في الجزيرة، ص٢٤ بنو ريان بن حلوان في السماوة ، وانظـر ايضا حروبهـم مع سابور ص٢٦ • وانظر البلاذري ، فتوح البلدان ٣٤٥ •

(٦) البكري : معجم ما استعجم ، ١/٥٢ •

(٧) البكري : معجم ما استعجم ، ١/٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ وانظـر ايضـا البلاذري : فتوح البلدان ، ١٥٢ المسعودي : مروج الذهب ، ١/٢٧٩، تاريخ اليعقوبي : ١/٢٠٨ •

حافات السواد فيما بين الابلة الى هيت فكانت سدوس حول الابلة وعجل حول السماوة وشيبان حول الحيرة ، وانجازات النمر وغفيلة الى اطراف الجزيرة وعانات وقد عرفت منطقة الجزيرة قبل الاسلام بديار ربيعة ، وديار بكر لكثرة من دخلها من بكر بن وائل خاصة كما دخلتها بعض بطون مضر ، والجزيرة ما بين دجلة والفرات[8] كما استقرت فيه بعض بطون كندة التي بقيت بعد سقوط امارة كندة سنة ٥٢٤ م[9] وانتشر بنو العم في الاحواز[10] .

شهد الربع الاول من القرن السادس الميلادي محاولة عربية مهمة عندما حاولت دولة اليمن في عهد ملكها الحميري أبي كرب اسعد مجابهة الاحتلال الساساني واقامة حاجز عسكري بينه وبين جزيرة العرب تمثل في امارة كندة التي اندفعت نحو الحيرة واسقطت تحالف ال نصر بن ربيعة مع الساسانيين[11] غير ان هذا المتغير هو الآخر لم يكن بمستوى الوضع الدولي آنذاك فاليمن نفسها تعاني من تعدد الضغوط الخارجية اولا ومن تطورات داخلية مهمة ثانيا ، تمثلت في الاضطرابات التي اججها صراع الاديان المرتبطة بقوى اجنبية «الصراع بين اليهود والنصارى في نجران» والذي انتهى باحتلال الاحباش لليمن ثم الفرس بعد ذلك .

---

(٨) البكري : معجم ما استعجم ، ١/٨٦ وانظر ٢٧٣ ، ٣٨١ ، ٥٦٨ـ٩٦٨، وانظر ايضا البلاذرى : فتوح البلدان ٣٣٧ ، ٣٤٥ تاريخ الطبري : ٣/٣٤٣ . ابو حنيفة الدينوري : الاختيار الطوال ، ص١١١ .

(٩) البلاذري : فتوح البلدان ١٥٢ ، جونار اوليدر : ملوك كندة ص١٤٤

(١٠) د. نزار الحديثي : المقاومة العربية للاحتلال الساساني آفاق عربية ، ١٩٨٢ ، العدد ٨ ، ص٧٤ .

(١١) محمد عبدالقادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص١٥٩ ، جونار اوليندر : ملوك كندة ، ص١٤٤ .

النعمان بن المنذر في الحيرة

حصلت في أواخر القرن السادس الميلادي تطورات مهمة احدها تمثل في الصراع بين الساسانيين والبيزنطيين الذي انتهى بانتصار ساساني أما الثاني فتمثل في بدء الرسول القائد محمد بن عبدالله (ص) جهاده في مكة لتغيير الواقع العربي وقيادة الامة العربية في عملية تجدد قومي قوامها الدعوة الى التوحيد وبناء الامة العربية ونشر العدل والسلام الاسلامي في العالم ، في هذه الاثناء كان هرمز انوشروان يحكم الدولة الساسانية ويعاصره النعمان ابن المنذر في حكم الحيرة وعندما تولى كسرى ابرويز الحكم كان النعمان لايزال في حكم الحيرة ، فقد استمر حكمه اثنين وعشرين عاما(١٢) .

يمتاز حكم النعمان بن المنذر بجو السلام الذي ساد علاقته بالغساسنة في الشام فلم يعرف عنه انه حارب في بلاد الشام اطلاقا غير انه كان يغزو البيزنطيين(١٣) .

وتبرز علاقات النعمان برجالات العرب المشهورين في عصره من الحكماء والشعراء ورؤساء القبائل الكبرى في الجزيرة كأحد ابرز ظواهر حكمه ونستطيع ان نميز في عصره الظواهر الايجابية التالية :

اولا ـ لقاءاته المستمرة مع حكماء العرب ومشهوريهم من رؤساء القبائل ، فقد التقى النعمان بأكثم بن صيفي رئيس حكومة عكاظ وحاجب بن زرارة وهما من «تميم» ومواقعها شرق الجزيرة العربية في اطراف نجد الشرقية والدهناء . كما التقى بالحارث بن عياد وقيس بن مسعود من «بكر بن وائل» ومناطقها اليمامة وجنوب العراق والتقى بخالد بن جعفر وعلقمة بن علامة وعامر بن الطفيل من « عامر بن

(١٢) تأريخ الطبري : ٢/٢١٣ .
(١٣) حمزة الاصفهاني : ٩٥ .

صعصعة، ومناطقها الفلج فيما بين اليمامة واليمن ، والتقى بعمرو بن بن الشريد السلمي من «بني سليم» شرق المدينة ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي من «مذجح» في اليمن · والحارث بن ظالم المرى[١٤]·

ثانيا ــ اتخاذه من خالد بن جعفر الكلابي والربيع بن زياد العبسي نديمان له ...[١٥]

ثالثا ــ علاقته الواسعة بشعراء عصره فقد كان على اتصال بحسان بن ثابت والنابغة الذبياني والمنخل اليشكرى والمثقب العبدى والاسود بن يعفر وحاتم الطائي وكان النابغة الذبياني اكثرهم صلة به[١٦]·

رابعا ــ علاقته بمكة وتردد رجالاتها على الحيرة في رحلاتهم التجارية اذ يشار الى علاقات تجارية مع عبدالله ابن جدعان وسهل بن عمرو[١٧]·

لقد ساهمت هذه العلاقات في تكوين مناخ ثقافي مؤثر في بلاط النعمان ولابد انها كانت تنقل له اخبار التطورات الجديدة في الجزيرة العربية التي يحدثها جهاد الرسول القائد (ص) ولابد ايضا انهم كانوا ينقلون اخبار لقاءاتهم الى قبائلهم ويسهمون في تكوين رأي عام عربي مشترك عن قضايا تتجاوز المكاسب والمفاخر القبلية ·

لقد شعر النعمان بالاوضاع غير الطبيعية التي تسود الدولة الساسانية والتي في مقدمتها صراعها المنهك مع البيزنطيين وانقسام الاسرة الحاكمة ، وحاول ان يوظف هذا الظرف من اجل الخلاص من السيطرة الساسانية ، اتخذ التحدي الجديد شكل المراسلات[١٨] والتعبير الثقافي

---

(١٤) ابن عبد ربه : العقد الريد ، ٣/٩ ، بلوغ الارب : ٣/١٤٧ ·
(١٥) المسعودى : مروج الذهب ، ٢/٢٥ · الاغاني : ١٦/٢٢ ·
(١٦) الاغاني : ١٥/٢٧ ، ١٦/٢٢ · المسعودى : مروج الذهب ٢/٢٥
(١٧)
(١٨) الدينوري : الاخبار الطوال ، ١١٠ ·

عندما شعر النعمان ان كسرى يستخف بالعرب اذا ذكروا امامه فحشد له رجالات العرب البارزين ونظم لقاءا ثقافيا مع كسرى يؤصل العرب امامه ويبرز مزاياهم ، واذا دققنا في مخاطبة النعمان لرجالات العرب تحسسنا بشكل واضح اتجاهات الوعي عنده ، يقول ابن عبد ربه انه خاطب رجالات العرب بقوله : «انما انا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم وليس شيء احب الي مما سدد الله امركم ، واصلح به شأنكم وادام به عزكم ، والرأي ان تسيروا ايها الرهط ... وليعلم كسرى ان العرب على غير ما ظن او حدثته نفسه[19]» .

وقد اعتنق النعمان النصرانية على المذهب النسطوري وبهذا اضاف الى المناخ الثقافي مناخا دينيا في جوهره تعبير عن اعتناق النصرانية كما نزلت في الوطن العربي وقبل التحريف البيزنطي لها[20] فعارض الساسانيين حيث لم يعتنق المجوسية وعارض البيزنطيين حيث لم يعتنق النصرانية على مذهبهم والراجح ان كسرى شعر بالاوضاع الجديدة في بلاط النعمان وخطورتها فقرر اقصاءه عن الحكم فترك النعمان الحيرة والتجأ الى طيء غير انهم رفضوا الوقوف معه بأستثناء بني عبس[21] وقد كافأهم كسرى على موقفهم عندما عين آياس بن قبيصة الطائي محل النعمان[22] التجأ النعمان الى بكر بن وائل التي وقفت معه بأكبر قبائلها بني شيبان بقيادة هاني بن مسعود ويقال بقيادة هاني بن قبيصة بن هاني[23] وبني عجل[24] غير

---

(١٩) ابن عبد ربه/العقد الفريد ، ٢/١٠ .
(٢٠) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ، ٣/٢٨٤ .
(٢١) تأريخ الطبري : ٢/٢٠٥ .
(٢٢) الدينوري : الاخبار الطوال ، ١١٠ .
(٢٣) تاريخ الطبري : ٢/٢٠٦ .
(٢٤) تاريخ الطبري : ٢/٢٠٩ .

ان كتيبة عسكرية لكسرى اعترضت طريق النعمان اثناء تنقلاتـه والقت القبض عليه واخذته اسيرا الى العاصمة المدائن حيث قتل • وقد حاولت بعض الروايات تصوير مقتله لاسباب تتعلق برفضه رغبة كسرى في تزويج بناته لابناءه غير ان اسباب القتل الحقيقية كانت تتعلق بموقفه المشار لـه سابقا فقد اورد الدينوري رواية عن كسرى انه قال : «واما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر وازالتي الملك عن آل عمرو بن عدي الى اياس بن قبيصة فأن النعمان واهل بيته واطئوا العرب واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم وقد كانت وقعت الي في ذلك كتب فقتلته[٢٥]» •

احدث مقتل النعمان رد فعل ايجابي في الجزيرة العربية وتصدى الشعراء الذين كانوا يترددون عليه لرثاءه مشيرين الى مواقفه تلك ، فقد رثاه هاني بن مسعود وسلامة بن جندل وغيرهم[٢٦] • وترتب على مقتله ابرز احداث ذلك العصر وهو معركة ذي قار بين العرب والفرس •

معركة ذي قار

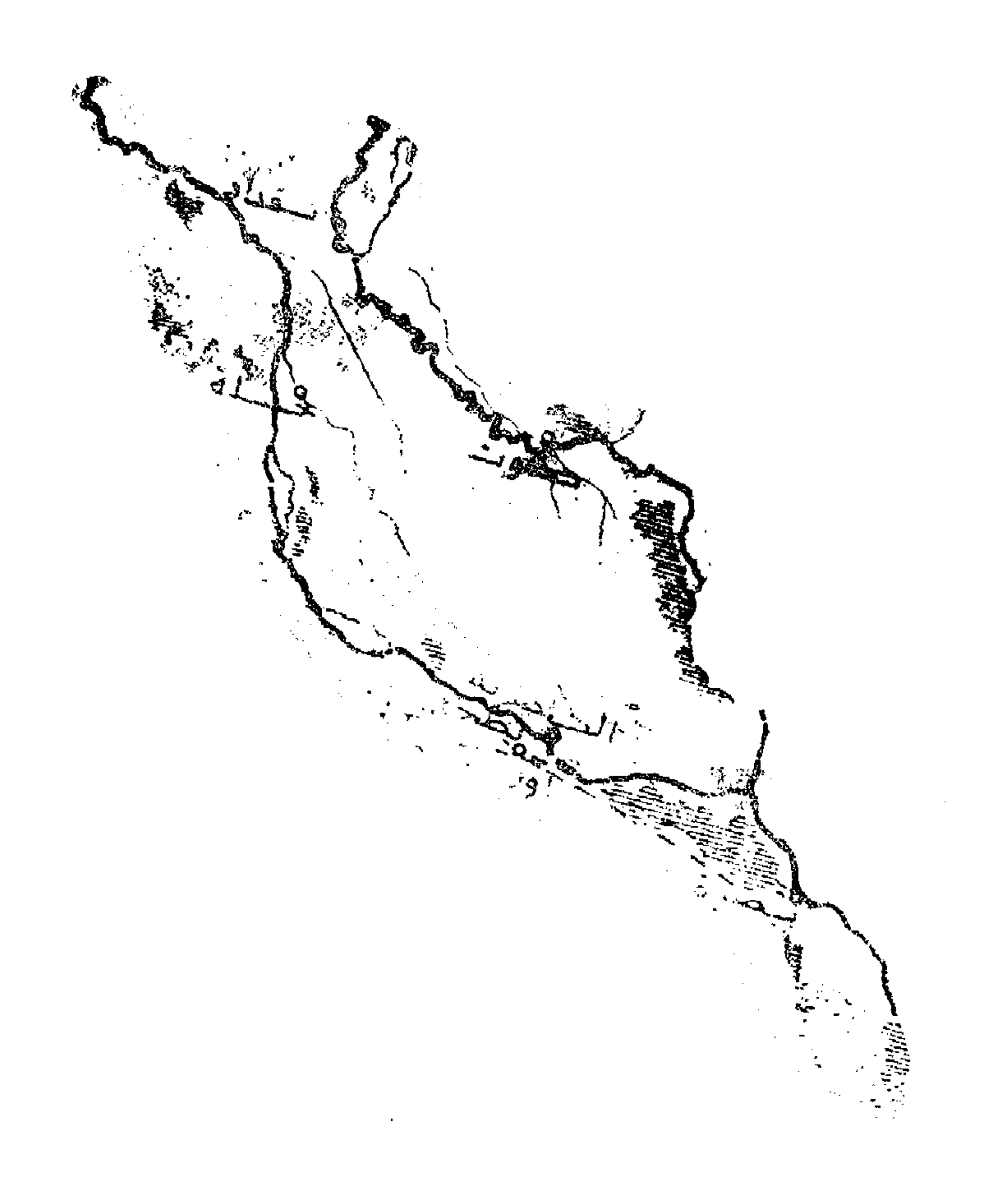
حدثت معركة ذي قار بين العرب والفرس في العراق في موضع ماء يعرف بذي قار على طريق الحج البصري فيما بين عين ماء صيد وموقع اور غرب نهر الفرات والراجح ان الارض منطقة منخفضة تنحدر نحو الفرات حيث تنتهي ببطحاء ذي قار وقد ذكرت الروايات مواضع عديدة توحي جمعيا بانها مواضع ماء مثل «ماء ذي قار» و «بطن ذي قار» و «وادي ذي قار»[٢٧] والظاهر ان قبائل بكر بن وائل وبني شيبان

---

(٢٥) الدينوري : الاخبار الطوال ، ١١٠ •

(٢٦) شعراء النصرانية : ٤٦٤ ، ٤٨١ •

(٢٧) البكري •• معجم ما استعجم ، ١٠٤٢/٢ • ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١٣/٢ ، ١٠/٤ ذكر منطقة (المقير) وذكر عدة مواضع ماء حول ذي قار •



موقع متصور لمعركة ذي قار

ملاحظة : الاسمر الحديثة وضعت للتحديد الدقيق للمنطقة .

خاصة كانت تسكن المنطقة وتستثمر مياهها في فصل الصيف[٢٨] .

اسباب المعركـــة ..

اختلفت الروايات في اسباب المعركة ، فقد اعتمد اليعقوبي الروايـة القائلة ان سببها رفض هاني بن قبيصة تسليم ودائع النعمان بـن المنذر لكسرى[٢٩] وان مقتل النعمان على يد كسرى كان بسبب رفضه تزويـج بناته له ..[٣٠] غير ان الدينوري يذكر في قتل كسرى للنعمان سببا اخر يوضح حقيقة الاوضاع التي سادت المنطقة وشكل العلاقة بين العـرب والفرس . ففي كلام ورد على لسان الملك الفارسي في حوارة مـع ابنه يقول .. «واما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر وازالتي الملك عن ال عمرو بن عدي الى اياس ابن قبيصة فان النعمان واهل بيتة واطئوا العرب واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم ، وقـد وقعت الى ذلـك كتب فقتله»[٣١] ويكمل ياقوت هذه الرواية ببعض التفاصيل عند اشارته الـى اجتماع قبائل العرب من عبس وشيبان وغيرهم للخروج على كسرى مؤازرين النعمان بن المنذر[٣٢] ان هذه التفاصيل تعطي الانطباع ان سبب المعركـة كون بكر بن وائل وشيبان خاصة ، كانوا جزء مـن قوة بشريه عربيـة التفت حول المناذرة وهيأت لاستقلال الحيرة عـن الفـرس ، وطبيعي ان كسرى قد اجهض المحاولة بقتل النعمان ، ان يتجه الى تصفية حلفائـه الذين ازروه . وهنا تصبح الاشارة الى التفاصيل الاخرى على انها جزء من

---

(٢٨) انظر اليعقوبي .. التاريخ ، ١/٢٩٥ . تاريخ الطبري .. ، ٢/٢٠٧

(٢٩) التاريخ . ، ١/٢٩٥

(٣٠) تاريخ الطبري . ، ٢/٢٠٦ وانظر ايضا المسعودي .. مروج الذهب ، ٢/٢/٧٨ .

(٣١) الاخبار الطوال . ، ١١٠

(٣٢) ياقوت .. معجم البلدان ، ٤/١٠

حالة عامة مسألة طبيعية عندما يكون النعمان بن المنذر يخطط للاستقلال فمن الطبيعي الا يزوج بناته (!) لكسرى ونفس الامر ينطبق على مسألة الودائع التي من المحتمل أنها الاسلحة التي بدان القوة المتحالفة هيأتها لاستخدامها في محاولتها الاستقلال . والراجح ان تركيز الفرس على شيبان جاء بسبب تفرق القبائل بعد مقتل النعمان والرواية التي اشارت الى رفض طيء ايواء النعمان باستثناء عبس تعطي صورة من صور التفرق اما شيبان فالراجح انها بقيت على ولاءها للنعمان ولم تتهاون بعد قتله(٣٣) وتكشف شروط كسرى التي نقلها رسوله الى بكر ابن وائل عن هذه الحقيقة حيث ركز على اجلاءهم عن العراق وليس بينها شرط يتعلق بودائع النعمان(٣٤) استلمت بكر شروط الملك الفارسي وعقدت مؤتمرا لمناقشتها وتشير الروايات الى اتجاهين في موقف القبيلة ، الاول .. عبر عنه هانيء بن قبيصة ويدعو الى عدم الاشتباك والانسحاب الى الصحراء ، والثاني عبر عنه حنظلة بن ثعلبة العجلي ويدعو الى القتال ، حتى قطع (وطن الهوادج) ليبقى النساء في ارض المعركة ويضع القبيلة أمام الامر الواقع.(٣٥) غير ن هذه الرواية لاتتفق ومسار الاحداث فذي قار كلها ارتبطت بشيبان ورئيسها الذي وضعته الاحداث في موضع القائد قبل وبعد المعركة فمن غير المعقول ان يتراجع بهذا الشكل والا فكان بامكانة تنفيذ شرط كسرى والقبول بالامر الواقع بالانسحاب الى الصحراء ولكن يبدو ان ابا عبيدة

---

(٣٣) ابن عبد ربة .. العقد الفريد ، ٥/٢٦٣ اشار الى اعتزال طي وبهراء واياد والعياد .

(٣٤) تاريخ الطبري . ، ٢/٢٠٧ اورد شروط كسرى التي نقلها النعمان ابن زرعة التغلبي الى بكر بن وائل وهي «اما ان تعطوا بايديكم فيحكم الملك بما شاء ، واما ان تعروا الديار او ان تاذنوا بحرب».

(٣٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٥/٢٦٣ . تاريخ الطبري : ٢/٢٠٨ اليعقوبي : التاريخ ، ١/٢١٥ .

معمر بن المثنى لم يكن دقيقا في روايتـه ، ويشير الاصمعي في روايتـه الى مايخالف ابا عبيدة عندما يذكر لهاني بن قبيصة مخاطبة قومه يحظهم على الاستعداد للحرب[٣٦] لذلك ابتداءت القبيلة باتخاذ الاحتياطات اللازمة حيث قام هاني بتوزيع السلاح ، وامر اتباعه التزود بالماء بما يكفي معركة طويلـة[٣٧] .

قوات الطرفـين ..

انتدب الملك الفارسي أياس بن قبيصة الطائي عامله على الحيرة لقيادة جيشه كما ذكرت الروايات ، وحشد له قوات مختلطـة قوامها مسلحـة القطقطانة الفارسية بقيادة الهامرز التستري ومسلحه بارق الفارسية بقيادة الجلايزين ، وقوة بقيادة قيس بن مسعود من طف سفوان ، وبعض طـي واياد وبهراء والعبادة.[٣٨] اما قوات العرب فقوامها بكر بن وائل ومنهـم شيبان خاصة وبني عجل والسكون من كنـدة وبعض عبد القيسي وحنيفة ويشكر اضافة الى اسرى تميم لدى بني شيبان الذين آثروا القتال ضـد العدو المشترك .[٣٩] ويبدو ان في قوات العرب حوالي خمسمائة وتسعون فارسا[٤٠] وتشير الروايات الى تسليح الجيش العربي والملائكة حوالـي (٤٠٠ ـ ٨٠٠) درع وقبل ٧٠٠٠ درع.[٤١]

---

(٣٦) العبيدي .. بنو شيبان ، ص١٤١ راوية الاصمعي .

(٣٧) تاريخ الطبري .: ٢/٢٠٨

(٤٨) تاريخ الطبري .: ٢/٢٠٧ . ابن عبد ربه .: العقد الفريد ،٥/٦٣

(٣٩) العبيدي .: بنو شيبان ، ص١٤٣

(٤٠) تاريخ الطبري .: ١/٢٠٩ ـ ٢١٥

(٤١) تاريخ الطبري .: ٢/٢٠٧ . ياقوت .: معجم البلدان ، ٤/١٠

(٤٢) المسعودي .: مروج الذهب ، ١/٣٠٧ . ابن عبد ربه .: العقـد الفريد ٥/٢٦٢ تاريخ الطبري .: ٢/٢٠٧

اولا ـ ميدانها : حدثت المعركة في ميدان واسع يسيطر عليه العرب ويتحكمون في ابرز عناصره الارض والماء .

ثانيا ـ توقيتها : حدثت المعركة في الصيف ، واختلفت الروايات في سنتها فقيل انها وقعت عند مبعث الرسول (ص)(٤٢) وقيل انها وقعت قبل الهجرة الى يثرب .(٤٣) وقيل بعد الهجرة الى يثرب فيما بين بدر واحد (٢ ـ ٣ هـ)(٤٤) .

ثالثا ـ تعبية الطرفين

وكانت تعبية العرب قلب قيادة هانيء بن قبيصة وميمنة بقيادة يزيد بن سهر الشيباني ، وميسرة بقيادة حنظله بن ثعلبة العجلي ، وقوة فرسان احتياط قوامها خمسمائة فارس بقيادة يزيد بن حمار السكوني ، اما جيش الفرس فكان اياس على القلب وفيه قوة اياد والهارمز على الميمنة والجلايزين على الميسرة .

رابعا ـ الاشتباك .

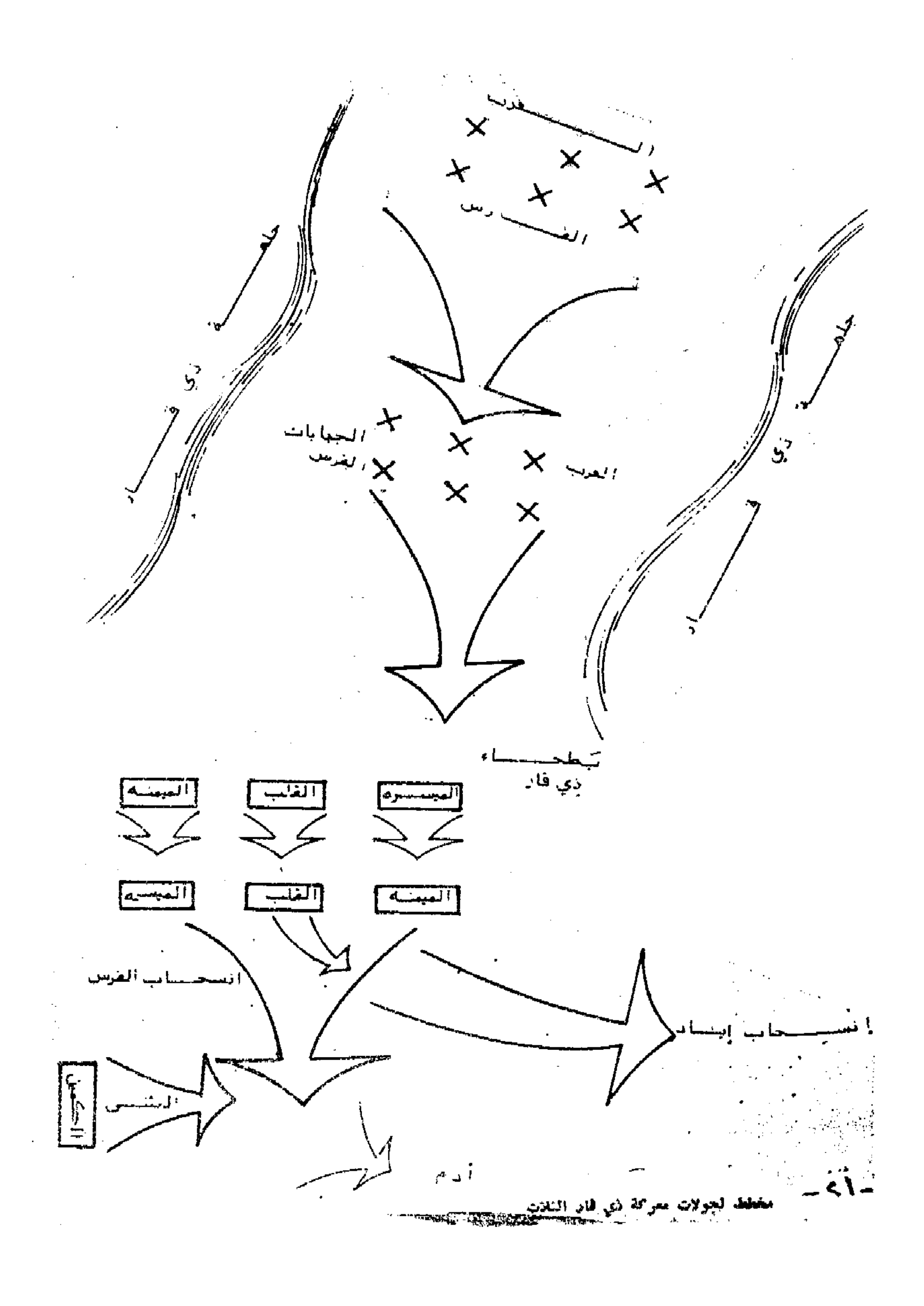
ابتدأت المعركة في ابعد نقطة من ذي قار باتجاه الصحراء (حنو ذي قار) واستخدمت الخطب والشعر لرفع معنويات المقاتلين ، وبادر العرب بالهجوم ، فانسحب الفرس باتجاه الجبابات تحت تاثير العطش والحر حيث دار الاشتباك الثاني ثم انسحب الفرس نحو بطحاء ذي قار ، حيث دار الاشتباك الثلث وحلت الهزيمة النهائية بالفرس .(٤٥)

---

(٤٣) ابن حبيب .: المحبر ، ص٣٦٠

(٤٤) ابو الفرج الاصفهاني.: الاغاني ، ٥٣/٢٤ ، وانظر ايضا العبيدي.: بنو شيبان ص١٥١ ناقش الروايات الحديثة حول الموضوع .

(٤٥) تاريخ الطبري .: ٢٠٨/٢



مخطط لجولات معركة ذي قار الثلاث

وفي رواية اخرى ان الطرفين التقيا في ذى قار بين الجلهتين (جلهتي الوادي) حيث بدأت المعركة بالمبارزة بين يزيد بن حارثة اليشكري والهامرز وانتهت وانتهت بقتل الاخير ، ومع ذلك فالتفوق كان الى جانب الفرس وفي اليوم الثاني حدث الاشتباك الثاني في الجبابات وكان التفوق فيه للعرب فانسحب الفرس تحت تاثير العطش الى بطحاء ذي قار حيث دارت المعركة الفاصلة(٤٦) .

والراجح ان الرواية الثانية اكثر دقة أذ يبدوا من تفاصيل الروايات ان العرب عانوا من رماة الفرس في اول يوم الى ان اكتشفوا ذلك فغيروا خطتهم في القتال حيث لجأوا الى الاشتباك وترك اسلوب الغارات والراجح ان اليوم الثالث بدأ بهجوم العرب بالميسرة والميمنة على ميمنة وميسرة الفرس ، فلما بدأ القلب الفارسي بهجومة لتخفيف ضغط العرب انسحبت قبيلة اياد من صفوفه فتخلخل فقام القلب العربي بالهجوم فلم يستطع الفرس الصمود لذلك انسحبوا واثناء انسحابهم فاجأهم الكمين بقيادة يزيد بن حمار السكوني في موقع (الخبيء) فانسحب الفرس الى موضع (ادم)(٤٧) حيث اجهز على الجلايزين وقواته وفرضت الهزيمة على الفرس .

تقييم المعركة .

نكشف تفاصيل المعركة على مذرتها عن العوامل التي لعبت دورا فيها فالمعنويات ووحدة القيادة وطبيعة ميدان المعركة عوامل اساسية غير ان العوامل الاخرى كانت مهمة فمتابعة قيادة العرب لسير القتال وتطوير خططهم اثناء القتال كان من الامور المهمة ، كذلك انسحاب قبيلة اياد من قلب الجيش الفارسي ، والافادة من الفرسان في الكمين .

---

(٤٦) ياقوت . : معجم البلدان ، ٤/ ١١

(٤٧) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/ ٤٠٠

اما على صعيد الاثر البعيد فالمعركة فتحت سجل الكفاح المسلح في العراق ضد السيطرة الفارسية واصبحت شيبان في خفان وعجل في السماوة وسدوس في الابلة من قواعده الاساسية . وكانت على المستوى القومي معركة فاصلة تغنى بها الشعراء وتناقل اخبارها العرب وقال عنها رسول الله (ص) .. «هذا اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بي» .(٤٩)

من ذي قار الى القادسية

تمثلت ابرز نتائج انتصار العرب في معركة ذي قار ، في مباشرة بكر بن وائل خاصة وعرب العراق عامة الكفاح البطولي لتحرير العراق . خاصة وقد رأوا امكانية هزيمة الفرس وكيفية فرض الهزيمة عليهم ، فتلك المعركة بقدر ما كانت درسا في موقف الشعوب المحتلة من قوى الاحتلال فهي ايضا درس في قيمة الوحدة كأساس في ممارسة التحرر ولان نتائجها جاءت بمستوى طبيعتها فقد احدثت صدا ، وولدت استجابة جدية في مجابهة الاحتلال الساساني ، فقد ظهرت بعدها عمليات عسكرية قامت بها تجمعات قبيلة عربية صنعت لنفسها قواعد انطلاق واتخذت لها اهداف تغير عليها وقد برز من قادة تلك العمليات .

---

(٤٨) تاريخ الطبري : ٢٠٨/٢ . ياقوت : معجم البلدان ، ١٦٩/١ اشار الى مقتل الهامرز هنا تحيا ذكر في رواية سابقة ان الهامرز قتل بالمبارزة ، ١١/٤ .

(٤٩) المسعودي .. مروج الذهب ، ٣٠٧ وورد بصيغة اخرى في الطبري : ١٩٣/٢ وبقية المصادر التي ذكرناها . انظر بخاصة تاريخ اليعقوبي : ٢١٥/١

اولا ـ المثنى بن حارثة الشيباني(٥٠) .

يبدو من الروايات ان منطقة حركات المثنى بن الحارثة الشيباني شملت الارض الممتدة بين السماوة والحيرة حيث كان يغير على الفرس في الحيرة وكسكر واسفل الفرات(٥١) ويشتبك معهم منطلقا من معسكره في خفان(٥٢) وتختلف الروايات في اسلامه ، ويشير بعضها الى انه اسلم في عام الوفود وانه لعب دورا في مقاومة ردة بكر ابن وائل مع العلاء بن الحضرمي في منطقة البحرين(٥٣) .

فلما تولى الخليفة ابو بكر الصديق الخلافة قدم عليه المثنى يطلب عون الخليفة ويعمله بما يفعل هناك طالب منه توليته ، ففعل الخليفة ، وعاد المثنى الى العراق يمارس عملياته العسكرية . الراجح ان الفرس تنبهوا له ولتحركاته فشددوا ضغطهم عليه وشعر من ناحيته بحاجته الى الامداد فارسل اخاه مسعود الى الخليفة يستمده ، فوجه الخليفة ابا بكر

---

(٥٠) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعدة بن مرة بن ذهل ابن سفيان الربعي الشيباني . اول من حارب الفرس . وتشير الروايات الى انه قدم على الخليفة وقبل كتب اليه ، وطلب منه استخدامه على قومه ووصفهم بقوله (فيهم اسلاما) . فأستخدمه وسماه عمر بن الخطاب (مؤمر نفسه) وفي روايات اخرى ذكر انه قدم على الرسول (ص) واسلم سنة تسع . توفي سنة ١٤ قبل القادسية .
تاريخ الطبري : ٣/٣٣٤ . ابو حنيفة الدينوري /الاخبار الطوال ١١١ ، ابن حجر : الاصابة ، ٩/٨٦ . ابن حزم ٣٠٥ والاضافة بن قوسين من عنده .

(٥١) تاريخ الطبري : ٣/٣٣٤ ، ابو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال، ١١١ .

(٥٢) تاريخ الطبري : ٣/٣٣٤ . ابو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال، ١١١ .

(٥٣) تاريخ الطبري : ٣/٣١٠ وما بعدها .

خالد بن الوليد الى جبهة العراق طالبا الى المثنى ان يسمح له • ونقدر الروايات جيش المثنى بالفي مقاتل[٥٤] •

ثانيا ـ قطبة بن قتادة السدوسي[٥٥]

يبدو من الروايات ان منطقة عمل قطبة كانت حول الايلة «البصرة» وانه انما انحاز لها باتفاق مع المثنى بن حارثه الشيباني • وتشير الروايات الى انه وفد على رسول الله (ص) وبايعا عن نفسه وعن قومه وان حيهم تعرض لهجوم بقيادة خالد ابن الوليد فلما علم بأسلامهم اشركهم في عملياته العسكرية في المنطقة ، والراجح ان ذلك كان قبل توجه خالد الى العراق اذ تشير الروايات الى عمليات قطبة العسكرية حول الخريبة • وعلى عكس المثنى فأول اتصال لقطبة بعد وفاته كان مع الخليفة عمر بن الخطاب وانه طلب معونته فأرسل عتبة بن غزوان وضم له قطبة بمن كان يقاتل معه من بكر بن وائل وتميم[٥٦] •

بنــو العــم

ترد الاشارة الى بني العم عند الطبري[٥٧] ويفهم منها انهــم تجمع قبلي ضم بعض بطون ربيعة وتميم وانهم كانـوا منتشرين فيما بين مناذر

---

(٥٤) تاريخ الطبري : ٣/٣٤٧ •

(٥٥) قطبة بن قتادة بن حريز السدوسي ابو الحويصلة ابن حجــر : الاصابة : ٨/١٦٤ وانظر ايضا اخباره في البلاذري : فتوح البلدان : ٤٧٥ وتاريخ الطبري : ٣ : ٥٩٣ ابــو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال ، ١١١ •

(٥٦) تاريخ الطبري : ٣/٥٩٣ • البلاذري فتوح البلدان : ٤٧٥ ، ٧٤٩•

(٥٧) تاريخ الطبري : ٤/٧٣ ـ ٧٤ •

ونهر تيري واسفل دجيل «الكارون» وانهم ناهضوا الهرمزان وكانوا يغيرون على المواقع حولهم فلما بدأت العمليات العسكرية لتحرير العراق انضم لها بنو العم واختلفت الروايات في تحديد البداية فقيل انها بدأت مع تقدم خالد بن الوليد سنة ١٣ هـ الى العراق وقيل انها بدأت مع عمليات ابو موسى الاشعري لتحرير الاحواز غير ان الواضح لدينا انهم كانوا مع الجيش العربي الذي تقدم نحو ميسان بقيادة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة ، وبرز من قادتهم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي ٠

اضواء على دور الانصار
في مغازي وسرايا الرسول (ص) حتى غزوة بـدر

للدكتـور
هاشم يحيى المـلاح
استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الاداب جامعة الموصل

تمهيـد :

بعد ان فرغ الرسول (ص) من تنظيم العلاقات الداخلية بين سكان المدينة في الاشهر الاولى من هجرته اليها اخذ يعمل من اجل تنظيم علاقات المدينة الخارجية مع القبائل العربية المجاورة للمدينة . وقد كان الرسول (ص) حرصا على اقامة علاقات سليمة مع جميع الاطراف كي يتفرغ لنشر الدعوة الاسلامية بين الناس . ولكن موقف قريش المعادي للرسول (ص) ودعوته كان يحول بينه وبين تحقيق هذا الهدف وكان يدفع القبائل العربية المختلفة الى معاداة دولة المدينة وعدم اقامة علاقات سليمة معها . لذا كان لابد للرسول (ص) من أن يعمل على اقناع قريش وكافة القبائل العربيـة المحيطة بالمدينة ان دولة المدينة قوية وانها قادرة على تهديد مصالح قريش التجارية وغيرها من القبائل بحيث تقنعها بالدخـول فى علاقات سـلمية طبيعية معها .

ومن ثم فقد اخذ الرسول (ص) بتنظيم غزوات وسرايا ذات اهداف تعرضية محدودة تستهدف تحقيق الامور الاتية[1] :ـ

١ ـ لقد كانت القبائل البدوية التي تعيش حول المدينة او على الطريق بين المدينة ومكة مثل قبيلة ضمرة وجهينة وغفار، لاتقيم وزنفي علاقاتها العامة الا للقوة . لذا فقد اراد الرسول (ص) ان يستعرض امامها قوته من اجل حملها على التحالف معه او فك ارتباطاتها مع قريش

واتخاذ موقف محايد بينهما .

٢ ـ لقد بادات قريش المسلمين بالعدوان ، واخرجتهم من ديارهم وكانت لاتزال مصرة على سياستها في اضطهاد المستضعفين من المسلمين المقيمين في مكة ، وتحريض القبائل العربية ضد الرسول (ص) ودولته في المدينة . لذا اراد الرسول (ص) من تنظيمه لهذه الغزوات والسرايا ان يفرض نوعا من الحصار الاقتصادي على مكة من خلال التعرض لقوافلها التجارية المتجهة الى الشمال عسى ان يجعلها ذلك على اعادة النظر في موقفها من المسلمين .

٣ ـ ربما اراد الرسول (ص) بالاضافة الى الاهداف المتقدمة اشعار اهل المدينة وعلى الاخص غير المسلمين منهم ، انه ليس مجرد نبيا فقط ، وانما هو قائد سياسي وعسكري يمتلك القوة المادية التي تساعده على تنفيذ مايريد ، ومن ثم فأن عليهم ان يأخذوا ذلك بنظر الاعتبار، والا يفكروا في الخروج على سلطته .

٤ ـ لقد كان المهاجرون يعانون من ضائقة اقتصادية شديدة نظرا لمصادرة قريش لاموالهم عند الهجرة . لذا فقد اراد الرسول (ص) من توجيه المهاجرين للمساهمة في الغزوات والسرايا ان يعوضهم عما اصابهم بمصادرة قوافل قريش التجارية وبذلك تتحسن احوالهم الاقتصادية .

بدء الغزوات والسرايا :ـ

اختلف كتاب المغازي في تحديد التاريخ الذي بدأ فيه الرسول (ص) في تنظيم غزواته وسراياه ، فبينما يذكر الواقدي وابن سعد ان اول سرية ارسلها الرسول (ص) لاعتراض قوافل قريش التجارية كانت سرية حمزة ابن عبدالمطلب التي خرجت في رمضان على رأس سبعة اشهر من هجرة الرسول (ص) الى المدينة(٢) . يؤكد ابن هشام ان سرية حمزة لم تكن

السرية الاولى التي بعثها الرسول (ص) ، وانما كانت السرية الاولى هي سرية عبيدة بن الحارث · وان تاريخ ارسالها كان بعد عودة الرسول (ص) من غزوة الابواء التي قام بها في «صفر على رأس اثني عشر شهرا من مقدمة المدينة»[٣] مما يدل على ان السرية الاولى قد بعثت في مطلع السنة الثانية للهجرة ·

يستنتج مما تقدم ، ان اختلاف اصحاب المغازي لاينحصر فقط في تحديد من هي السرية الاولى التي بعثها الرسول (ص) وانما يتجاوز ذلك الى تحديد تاريخ بدء هذه السرايا ، ليمتد ذلك الى التساؤل حول مسألة هل بدأ الرسول (ص) نشاطه الحربي بأرسال السرايا اولا ام قام في البداية بتنظيم الغزوات التي كان يقودها بنفسه ·

يبدوا للباحث ان مسألة الخلاف حول اى السريتين اسبق اهي سرية حمزه ام سرية عبيدة بن الحارث ليست بالمسألة الكبيرة لان ابن هشام يذكر ان بعث حمزة وبعث عبيدة «كانا معا فشبه ذلك على الناس»[٤]· ويذكر ابن حزم «وكان هذان البعثان متقاربين جدا او معا ، فلذلك اختلف في ايهما كان قبل»[٥] ·

اما بالنسبة للخلاف حول تاريخ بدء النشاط الحربي للرسول (ص) فيبدو ان ماذهب اليه ابن هشام من ان تاريخ بدء هذا النشاط كان في نهاية السنة الاولى للهجرة وبداية السنة الثانية لها هو الاقرب للصواب وذلك لان الطبري حينما عرض لهذه المسألة في تاريخه ضعف رواية الواقدي بقوله · «وزعم الواقدي ···»[٦] في الوقت الذي وثق فيه رواية ابن هشام بقوله : «وقال ابن اسحاق في امر كل هذه السرايا التي ذكرت عن الواقدي قوله فيها غير ما قاله الواقدي ، وان ذلك كله كان في السنة الثانية من وقت التاريخ»[٧] اى الهجرة ·

ان من الامور التي ترجح الرأي الثاني – في نظـــر الباحث – أن الرسول (ص) كان في خلال السنة الاولى منشغلا في تنظيم شؤون المدينـــة الداخلية وتقوية مركزه فيها فلا يعقل ان يتجه نحو بدء نشاطه الحربي مع خصومه في الخارج قبل ان ينتهي من تثبيت قواعد حكمه في الداخـــل . كما يبدو لنا ان رواية ابن هشام التي تذهب الى ان الرسول (ص) قـد افتتح النشاط الحربي بنفسه عن طريق قيادة غزوة الابواء – ودان – في نهاية السنة الاولى للهجرة[٨] هي الرواية الارجح لانها تتفق مـع اسلوب الرسول (ص) في القيادة حيث كان يميل الى اخذ زمام المبادرة بنفسه في شتى الامور كي يكون قدوة لاتباعه فلا يأمرهم بشيء الا ويكون قد سبقهم الى فعله لذا فقد جاء في القرآن الكريم : «ولقد كان لكم في رســول الله اسوة حسنة»[٩] .

تخلص مما تقدم ان النشاط الحربي للدولة العربية الاسلامية قد بدأ في نهاية السنة الاولى للهجرة ، وانه بدأ بغزوات الرسول (ص) ثم اعقبتها البعوث والسرايا .

دور الانصار في الغزوات والسرايا :ـ

لقد رأى معظم الباحثين والكتاب المعاصرين ان الغزوات والســرايا التي ارسلها الرسول (ص) قبل معركة بدر قد تألفت مــن المهاجرين ، وانه لم يكن للانصار اى دور فيها . فقد ذكر الشريف ان «السرايا الثمانية الاولى التي وقعت من قبل كانت كلها من المهاجرين ، ولــم يبدأ اشتراك الانصار الا في غزوة بدر سنة ٢ هـ»[١٠] . وقد ذهب دروزة الى نفس هذا الرأي وعلله بقوله : «والمتبادر ان النبي عليه السلام لم ينتدب الانصار للخروج في هذه السرايا والغزوات لانها تعد بشكل ما عمــلا تحرشيا او هجوما في حين ان العهد الذي بينه وبينهم ان يدافعوا عنــه ويحموه بما

يدافعون ويحمون نساءهم واولادهم» .(١١)

اما سرور فقد ذهب الى ان الرسول (ص) قد بعث المهاجرين دون الانصار في هذه السرايا والغزوات «لانهم تعرضوا وحدهم لايذاء قريش بمكة وقاسوا الام الهجرة ، وكان الغرض من هذه السرايا ان يظهروا لقريش قدرتهم على الدفاع عن انفسهم ودرء اى خطر يحيق بهم . هذا الى استطاعتهم التعرض لقوافلهم التجارية المارة ببلدهم» .(١٢)

ويبدو ان اراء الباحثين المعاصرين في عدم مساهمة الانصار في الغزوات والسرايا قبل معركة بدر قد تأثرت بالروايات التي وردت في المصادر التاريخية القديمة حول هذه المسألة . فقد ذكر ابن سعد ان رسول الله (ص) «لم يبعث احدا من الانصار مبعثا حتى غزا بهم بدرا وذلك لانهم شرطوا له ان يمنعونه في دارهم . وهذا الثبت عندنا»(١٣) ويلاحظ ان الواقدي كان قد اشار الى مثل هذا الرأي الذى تبناه كاتبه ابن سعد ولكن في صيغة التضعيف فذكر انه : «يقال.. لم يبعث رسول الله (ص) احدا من الانصار مبعثا حتى غزا بهم بدرا ، وذلك لانهم شرطوا ان يمنعوه في دارهم »(١٤) . اما ابن هشام فقد ايد هذه الروايات ضمنا حينما تحدث عن مشاورة الرسول (ص) لاصحابه قبل معركة بدر لانه كان حريصا على معرفة رأي الانصار حيث انهم «حين بايعوه بالعقبة ، قالوا : يارسول الله: انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فكان رسول الله (ص) يتخوف الا تكون الانصار ترى عليها نصره الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وان ليس عليهم ان يسير بهم الى عدو من بلادهم»(١٥) . ويلاحظ من مجمل الروايات التي اوردها الطبري عن غزوات الرسول (ص) وسراياه قبل معركة بدر الى انه يتفق مع الروايات التي تذهب ان ان الانصار لم

يشاركوا في هذه الغزوات والسرايا حيث لم يشر في اي موضع من تاريخه الى مساهمة الانصار بينما اكد في اكثر من غزوة او سرية انها كانت تتألف من المهاجرين .(١٦)

ان الروايات التي اوردتها المصادر التاريخية حول عدم مساهمة الانصار في الغزوات والسرايا قبل معركة بدر تكاد تحمل القارىء على اعتقاد ان المسألة منتهية وانها موضع اجماع المؤرخين وبالتالي فليس هنالك من مجال لابدأ القول فيها او اعادته . غير ان القراءة المتمعنة للروايات التاريخية الواردة في هذا الخصوص تشعر الباحث بوجود بعض النواحي الغامضه او حتى المتناقضة في البعض من هذه الروايات كما ان هنالك نصا صريحا عن اشتراك الانصار في سرية حمزة بن عبد المطلب لدى الواقدي مما يحمل الباحث على التساؤل ومحاولة الرجوع الى دراسة موقف الانصار منذ بدايته لاعادة تقديم موقفهم بصورة سليمة خدمة للحقيقة التاريخية وانصافا لمن نصروا الدعوة الاسلامية في احلك الظروف والاحوال .

حقيقة تعهدات الانصار في بيعة العقبة الثانية :ـ

ان الاتفاق الذي تم بين الرسول (ص) وبين الانصار عن العقبة لم يتم تثبيته في نص مكتوب على شكل وثيقة تتحدد فيها التزامات الطرفين بشكل واضح . ومن ثم فليس امام الباحث لفهم حقيقة ماتم من تعهدات في بيعة العقبة الثانية سوى قراءة مجمل الروايات التي نقلتها لنا المصادر التاريخية عن الكلام والحوار الذي دار بين الرسول (ص) وبين من حضر هذا اللقاء من الانصار .

١ ـ لقد بدأ الاتفاق بين الرسول (ص) وبين الانصار بأن قال الرسول (ص) لهم : «ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم

وابناءكلاء(١٧) فاخذ البراء بن معرور بيد الرسول (ص) ثم اجابه بقوله :

«نعم — والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله ابناء الحروب ، واهــل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر»(١٨) .

يفهم مما تقدم ان الشرط الوحيد الذي قدمه الرسول (ص) للانصار وطلب منهم التعهد بالوفاء به هو حمايته كما يحمون نساءهم واولادهم . وقد قبل الانصار هذا التعهد بكل حماس .

ولكن هل طلبوا من الرسول (ص) تعهدا مقابلا لتعهدهم ؟

٢ ـ لقد تساءل ابو الهيثم بن التيهان ان كان في نية الرسول (ص) أن يترك المدينة ويرجع الى قومه في مكة ـ اذا اظهره الله ـ اى نصره . «فتبسم رسول الله (ص) ثم قال : بل الدم الدم الهدأ الهدأ ، انا منكم وانتم مني ، احارب من حاربتم واسالم من سالمتم»(١٩) . وهذا يدل على ان الرسول (ص) قد تعهد تجاه الانصار بأن يصبح منهــم ويحمل السلاح معهم في قتال من يقاتلون وبذلك لم يقبل ان يعيش بينهم عيشة الرجل الضعيف الذي يحمونه كما يحمون نساءهــم واولادهــم .

٣ ـ ان ماتقدم هو الحد الادنى مما تضمنته العقبة الثانية مــن تعهدات الانصار . اما الحد الاقصى فهو حرب جميع الناس دفاعــا عــن الرسول (ص) والدعوة الاسلامية . وقد اوضح ذلك العباس بــن عبادة الانصاري حينما خاطب قومه قائلا قبل مبايعة الرسول (ص) : «هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم، قال انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس ، فان كنتم ترون انكــم اذا

نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتلا اسلمتموه ، فمن الان : فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والاخرة»(٢٠) ومع هذا التحذير فقد مضى الانصار في مبايعة الرسول (ص) مما يدل على استعدادهم لتحمل كافة التبعات التي تترتب على هذه البيعة :

٤ ــ بعد ان تمت المبايعة طلب الرسول (ص) ان يعودوا الى رحالهم بهدوء كي لاتشعر بهم قريش فقال له العباس بن فضلة «والله الذي بعثك بالحق ! ان شئت لنميلن على اهل منى غدا بأسيافنا»(٢١) فأجابه رسول الله (ص) : «لم نؤمر بذلك»(٢٢) . فاذا صحت هذه الرواية فلابد ان الانصار كانوا على استعداد للمضي في القتال من اجل الدعوة الى ابعد الحدود .

٥ ــ حينما بلغت اخبار مبايعة الانصار للرسول (ص) قريشا ، جاءوا اليهم فقالوا : «يامعشر الخزرج ، انه قد بلغنا انكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا»(٢٣) . مما يدل على ان قريشا كانت تعتبر مبايعة الرسول (ص) بمثابة اعلان الحرب عليها من قبل الانصار .

٦ ــ عندما تأكدت قريش من صحة الخبر القت القبض على احد زعماء الانصار وهو سعد بن عبادة وكادوا يفتكون به لولا ان استجار باثنين من زعماء مكة فمنحوه الجوار لانه كان يجير قوافلهم حينما تمر في المدينة(٢٤) وبذلك اصبح اهل المدينة في حالة حرب مع قريش نتيجة لبيعة العقبة الثانية .

٧ ــ ويبدو انه نتيجة للمعطيات السابقة فقد وصف عبادة ابن الصامت احد نقباء الانصار ــ بيعة العقبة الثانية بانها بيعة الحرب فقال : «بايعنا رسول الله (ص) بيعة الحرب»(٢٥) .

بينما وصفت بيعة العقبة الاولى ببيعة النساء لانه لم يرد فيها ذكر للحرب وكان الرسول (ص) يبايع النساء طبقا لها حيث لم يفرض الاسلام القتال على النساء .(٢٦)

هذه هي حقيقة التزامات الانصار في بيعة العقبة الثانية وهي تنحصر في حدودها الدنيا في الدفاع عنه في المدينة ، اما في حدودها العليا فهي تصل الى قتال الاحمر والاسود دفاعا عن الدعوة ومن ثم فان استشارة الرسول (ص) لهم فيما يفعل قبل معركة بدر ليس مردها تخوفه من الا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا ضد من دهمه في المدينة - كما ذهب ابن هشام - وانما كان يريد ان يشركهم كما اشرك المهاجرين في مسؤولية اتخاذ قرار الحرب لانه حينما خرج من المدينة من اجل الاستيلاء على القافلة التجارية التي يقودها ابو سفيان لم يكن يتوقع تطور الموقف الى حرب شاملة بل كان يظنها ستقتصر على قافلة ابي سفيان والاستيلاء عليها كما كان يحصل في الغزوات والسرايا السابقة . اما قول الانصار للرسول (ص) بانهم غير مسؤولين عن حمايته حتى يصل الى ديارهم فذلك امر طبيعي حيث كان يستحيل عليهم القيام بواجب حمايته قبل ان يهاجر الى ديارهم .

التزامات الانصار الحربية بموجب احكام الصحيفة :-

لقد كتب الرسول (ص) بعد استقراره في المدينة كتابا نظم فيه العلاقات بين المهاجرين والانصار واليهود بصورة شاملة حتى اعتد عده الكثير من الكتاب المعاصرين دستورا للمدينة .(٢٧) وعلى الرغم من ان ابن هشام الذي اورد النص الكامل للصحيفة لم يذكر تاريخ كتابة هذه الصحيفة الا ان ايراده لها بعد حديثه عن هجرة الرسول (ص) الى المدينة وقبل ذكره لموضوع المؤاخاة بين المهاجرين والانصار يوحي بان الصحيفة

قد تثبت في خلال السنة الاولى للهجرة .(٢٨) وهنالك مناقشات مطولة بين الدارسين للصحيفة لتحديد تاريخ كتابتها ليس هنا مجال لاستعراضها ومناقشتها .(٢٩) كما ان هذا البحث لايتسع للحديث عن كافة المسائل التي تعرضت لها الصحيفة لذا سنقتصر معالجتنا على مايتصل منها بشؤون الحرب مع التركيز على التزامات الانصار في هذا المجال :-

١ - لقد ورد في الفقرة الاولى من الصحيفة ان المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب «ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم امة واحدة من دون الناس»(٣٠) وبذلك اعتبرت الصحيفة المهاجرين والانصار ومن يتبعهم ويجاهد معهم امة واحدة متميزة عن غيرها من الناس .
ان مفهوم الامة الواحدة يقتضي تضامن افراد هذه الامة في السراء والضراء كما ان اعتبار الاستعداد للجهاد مع هذه الامة الشرط الاساسي لقبول انتماء الفرد اليها دليل على مدى اهمية الجهاد في توجهات الامة الناشئة .

٢ - وانسجاما مع هذا المفهوم الذي اكدته الفقرة الاولى من الصحيفة جاءت النصوص الاخرى لتوضح حدود الالتزامات الحربية لفئات وافراد الامة بأعتبارهم وحدة متضامنة في احوال السلم والحرب : «ان سلم المؤمنين واحدة . لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم . وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا . وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله»(٣١).
ان النصوص الواردة آنفا تؤكد وحدة الامة في حالات الحرب ومن ثم فانه ليس من الجائز ان يتجه المهاجرون للقتال ويقف الانصار موقف المتفرج . كما وردت اشارة الى «الغزو والغزوات» مما يوحي

بان هذه الصحيفة قد كتبت بعد بدء الرسول (ص) في ارسال السرايا والغزوات او انه كان يخطط للقيام بها على اقل تقدير .

٢ ـ لقد اعتبرت الصحيفة قبيلة قريش وحلفاءها العدو الاساسي للامة لذا حرمت الصحيفة منح الجوار لها ولمن يناصرها «وانه لاتجار قريش ولا من نصرها» (٣٢) مما يلهم بان الرسول (ص) كان عازما حين كتابة هذه الصحيفة على سلوك سياسة فرض الحصار الاقتصادي على قريش ومنع قوافلها التجارية من استخدام الطريق الذي يمر بالقرب من المدينة للذهاب الى الشمال .

ولم يكن تحريم منح الجوار مقصورا على المسلمين بل امتد ليشمل كافة سكان المدينة حتى المشركين منهم . وقد اكدت الصحيفة على ذلك بوضوح وصراحة : «وانه لايجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن» . (٣٣)

وبذلك تكون الصحيفة قد وضعت كافة فئات الامة وحلفاءها في حالة استعداد للحرب مع مشركي مكة وحرمت منحهم الجوار او اية تسهيلات للاستفادة منها في حركتهم التجارية .

البعد الحربي للمؤاخاة :ـ

لقد اخى الرسول (ص) بين المهاجرين والانصار في السنة الاولى للهجرة فقال : «تآخوا في الله اخوين أخوين» (٣٤) . وقد اعتبرت المؤاخاة «حلفا» ، فقد اورد ابن سعد في طبقاته عن انس بن مالك ان «رسول الله (ص) حالف بين المهاجرين والانصار» (٣٥) .

لقد اراد الرسول (ص) ان يقيم عن طريق المؤاخاة حلفا بين المهاجرين والانصار على اساس «الحق والمواساة ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الارحام» (٣٦) وبذلك يكون الرسول (ص) قد عمل على تقديم رابطة العقيدة

على النسب . وقد كلف ذلك طبيعا لانه بهجرته الى المدينة كان قد خلع رابطة النسب وانحاز الى رابطة العقيدة وكذلك فعل اصحابه المهاجرين ثم انه شرع بعد استقراره في المدينة يهيء اصحابه للدخول في حرب مع قومهم قريش فكيف يمكن ان يتم ذلك لو لم يدر رسول الله (ص) ظهره ولو مؤقتا لرابطة النسب ليستنده الى رباط العقيدة .

على ضوء ماتقدم . يمكن فهم البعد القتالي للمؤاخاة حيث ان من مقتضيات المؤاخاة ان يتعاون الاخوان الجديدان في القتال بحيث لايترك احدهما الاخر اثناء المعركة وبذلك تقود المؤاخاة ـ كما يقول وات ـ الى «منع مختلف فرق المحاربين من ان ترد على هجوم العدو بشكل موزع . فاذا قتل احد الاخوين ورثه الاخر»(٣٧) . لذا فقد اوصى حمزة بن عبدالمطلب ـ عم النبي (ص) في معركة احد وحين حضره القتال اذا حدث به حادث الموت»(٣٨) لزيد بن حارثة لان الرسول (ص) كان قد اخى بينهما بعد الهجرة الى المدينة .

وهكذا فان الرسول (ص) حينما عقد حلف المؤاخاة بين المهاجرين والانصار فانه اراد ان «يشد ازر بعضهم ببعض»(٣٩) . ليتمكنوا من مواجهة اعدائهم بصفتهم امة موحدة متماسكة كالبنيان المرصوص . وقد جاء في القرآن الكريم : «ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كالبنيان المرصوص»(٤٠) .

اشتراك الانصار في غزوات وسرايا الرسول (ص) قبل بدر :ـ

لقد وجدنا من خلال العرض انف الذكر انه لم يكن هنالك مايمنع الانصار من مشاركة اخوانهم المهاجرين في الغزوات والسرايا . بل ان روح التضامن التي قامت عليها الامة الناشئة كانت تدعوهم الى هذه المساهمة . فهل استجاب الانصار لهذه الدعوة ام انهم تاخروا عن الاستجابة لها حتى

واقعة بدر كما ذهب الى ذلك اغلبية المؤرخين ٠

١ ـ لقد ذكر الواقدي في المغازي ان اول سريه ارسلها الرسول (ص) لاعتراض قوافل قريش التجارية كانت سرية حمزة بن عبدالمطلب التي خرجت في رمضان على رأس سبعة اشهر من هجرة الرسول (ص) الى المدينة ٠ وكانت هذه السرية تتالف من ثلاثين رجلا خمسة عشر من المهاجرين وخمسة عشر من الانصار ٠ ولم يكتف الواقدي بايراد العدد الاجمالي للذين ساهموا في هذه السرية من المهاجرين والانصار بل قدم لنا قائمة باسماء عشرة من المهاجرين يتقدمهم حمزة بن عبدالمطلب قائد السرية وعشرة من الانصار ٠(٤١)

وقد ذكر الواقدي ان هذه السرية اعترضت قافلة لقريش قد جاءت من الشام تريد مكة فيها ابو جهل في ثلاثمائة راكب من اهل مكة عند مكان يدعى سيف البحر «فالتقوا حتى اصطفوا للقتال ، فمشى بينهم مجدي بن عمرو ، وكان حليفا لفريقين جميعا ، فلم يزل يمشي الى هؤلاء والى هؤلاء حتى انصرف القوم وانصرف حمزة راجعا الى المدينة باصحابه وتوجه ابو جهل في بعيره واصحابه الى مكة ، ولم يكن بينهم قتال» ٠(٤٢)

ان توسط مجدي بن عمرو وهو من بني جهينه لحسم النزاع بين الطرفين يدل على وجود جماعة من الانصار في السرية التي كان يقودها حمزة بن عبدالمطلب لان قبيلة جهينة كانت تربطها علاقات تحالف مع اهل المدينة وفي ذلك يقول وات : ان «عمل مجدي بن عمرو من بني جهينة خلال غزوة حمزة وقيامه بالوساطة بين المسلمين ، وبين قوة ضخمة من المكيين ، سببه وجود مدنيين متحالفين مع جهينة بين المهاجمين» ٠(٤٣)

ان ماتقدم ، يكاد يحملنا على القناعة بصحة رواية الواقدي حول اشتراك الانصار في هذه السرية ٠ غير ان ثمة ما يدعونا الى التروي

والبحث عن ادلة اخرى قبل الجزم في هذه المسألة وذلك لان الواقدي نفسه فقد عمد بعد ان انتهى من سرد خبر هذه السرية الى ايراد رواية اخرى عن ابن المسيب وعبدالرحمن بن سعيد ابن يربوع ، قالا : «لم يبعث رسول الله (ص) احدا من الانصار مبعثا حتى غزا بنفسه الى بدر ، وذلك انه ظن انهم لاينصرونه الا في الدار ، وهو اثبت» (٤٤) .

٢ ـ لقد اورد ابن سعد في طبقاته ان الرسول (ص) خرج في غزوة بواط على رأس ثلاثة عشر شهرا من هجرته الى المدينة لاعتراض قافلة لقريش في قوة مؤلفة من مائتين من اصحابه (٤٥) .

ولم يحدد ابن سعد في هذه الرواية الفئات التي كانت تتكون منها هذه القوة . ولكن دراسة عدد المهاجرين في المدينة خلال تلك الفترة تقودنا الى استنتاج ان اغلبية افراد هذه القوة كانت تتألف من الانصار وذلك لان عدد المهاجرين الذين آخى الرسول (ص) بينهم وبين الانصار في السنة الاولى للهجرة كان يتراوح بين الـ ٤٥ ـ ٥٠ مهاجرا حسب الروايات التي اوردها ابن هشام وابن سعد (٤٦) كما ان عدد المهاجرين الذين ساهموا في معركة بدر لم يتجاوز الـ ٨٣ رجلا (٤٧) . علما بأن معظم المهاجرين قد اشتركوا في هذه المعركة وانها قد وقعت بعد غزوة بواط بعدة اشهر مما كان يفسح المجال لزيادة عدد المهاجرين في المدينة .

٣ ـ لقد ذكر الواقدي وابن سعد ان الرسول (ص) خرج بعد مضي ستة عشر شهرا على هجرته الى المدينة في غزوة ذي العشيرة على رأس قوة مؤلفة من خمسين ومائة ويقال في مائتين من اصحابه (٤٨) لمهاجمة قافلة مكية كبيرة كانت متجهة الى الشام .

ويلاحظ انه في الوقت الذي اكتفت فيه رواية الواقدي ان القوة التي خرجت مع الرسول كانت مؤلفة من مائة وخمسين من «اصحابه»

فصيبت الرواية التي اوردها ابن سعد ان هذه القوة كانت مؤلفة من «المهاجرين» فقط ·

ان المعطيات التي سبق لنا تقديمها عن عدد المهاجرين في المدينة خلال هذه الفترة لاتساعدنا اطلاقا على قبول رواية ابن سعد من ان جميع القوة كانت تتالف من المهاجرين · ومن ثم يجوز لنا ان نقرر انه لو صح ماذكره الواقدي وابن سعد من ان عدد افراد القوة كان مائة وخمسين او مائتين فلا بد ان يكون اكثر من نصفهم من الانصار ·(٤٩)

لقد حمل هذا التناقض بين العدد الذي اورده الواقدي وابن سعد عن عدد افراد الغزوة وبين قول ابن سعد انه لم يكن احد بينهم من المهاجرين بروفيسور وات الى البحث عن مخرج لازالة هذه الصعوبة فذكر انه قد اتيحت للرسول (ص) «الفرص للحصول على غير المهاجرين الاصليين · وانضم اليه مكيون آخرون ، فلقد ترك عياش بن ابي ربيعة (من مخزوم) وهشام بن العاص (من سهم) مكة خلال السنة الاولى للهجرة ··· وانقلب مقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان ··· اثناء غزوة عبيدة · كما مال اليه بعض البدو طمعا في المال»(٥٠) ·

يبدو ان الجواب الذي طرحه بروفيسور وات لايحل المشكلة كما انه يدعونا لتسجيل بعض الملاحظات عليه · ذلك لانه لايوجد تقسيم معترف به بين مهاجرين اصليين وبين مهاجرين (غير اصليين) من المكيين بين الصحابة الذين هاجروا في السنوات الاولى للهجرة وانما وجدت التفرقة بين من هاجر قبل فتح مكة وبين من هاجر بعد فتحها · كما ان العدد الذي قدمه لايزيد عن اربعة مهاجرين ومن ثم

فهو لايساعد على رفع مجموع عدد المهاجرين بصورة واضحة . اما افتراض بروفسور وات بان بعض البدو قد مالوا الى الرسول (ص) طمعا في المال فيبدو لنا ان ذلك في حالة صحته لايدل على مساهمة البدو في الغزوة فعلا لان مجرد ميل بعض البدو الى الرسول لايعني مشاركتهم اياه في غزواته . ومن ثم فلايمكن ان يساعد مجرد الميل الى الرسول في زيادة عدد الرجال المساهمين معه في الغزوة . اما اذا قصد بروفسور وات من هذا التعبير الغامض المشاركة الفعلية في الغزوة كما يوحي سياق كلامه فان مقتضيات البحث التاريخي تطالبه بان يقدم لنا بعض النصوص او الروايات التاريخية التي تؤيد رايه وهو امر لم يفعله . كما كان من المفروض ان يعطينا فكرة عن عدد البدو الذين مالوا الى الرسول (ص) او شاركوا معه في غزوته وهو امر لم يقم به ايضا . يبدو ان بروفسور وات قد شعر بضعف الطروحات التي قدمها في هذا المجال فقرر في النهاية انه «لاتستطيع هذه المساعدات ان ترفع العدد الى ١٥٠»(٥١) رجلا . ومن ثم فقد بقي التعارض قائما بين العدد الذي قدمه الواقدي وابن سعد عن عدد المساهمين في غزوة ذي العشيرة وبين نفي اشتراك الانصار فيها ، لانه لو صح هذا العدد فلا بد ان يكون الانصار قد شاركوا في هذه الغزوة وبنسبة قد تزيد على النصف كما قدمنا .

٤ ـ لقد ذكر ابن هشام ان الرسول (ص) حينما سمع بخبر عودة قافلة تجارية كبيرة لقريش من بلاد الشام يقودها ابو سفيان ويقوم على حراستها ثلاثون رجلا من قريش او اربعون ، «ندب المسلمون اليها وقال : هذا عير قريش فيها اموالهم فاخرجوا اليها لعل الله

يملكوها»(٥٢) . فاستجاب لدعوة الرسول (ص) ثلاثمائة واربعة عشر رجلا ، ثلاثة وثمانون منهم من المهاجرين ومائتان وواحد وثلاثون من الانصار(٥٣) . وكان ذلك في اوائل شهر رمضان من السنة الثانية اى على رأس تسعة شهرا لهجرته (ص) الى المدينة (٥٤).

ان الامر الجدير بالملاحظة هنا ، ان المصادر التاريخية تجمع على واقعة اشتراك الانصار في الخروج لمهاجمة قافلة ابي سفيان جنبا الى جنب مع اخوانهم المهاجرين . كما نتفق على ان حجم مشاركة الانصار كان كبيرا بحيث بلغ عدد الانصار المساهمين في هذه الغزوة حوالي ثلثي عدد المجموع الكلي . ولم تكن مساهمة الانصار في هذه الغزوة بهذا العدد الكبير نتيجة الزام او اكراه لاحد لان الرسول (ص) اكتفى بـ «ندب المسلمين» للمساهمة في هذه الغزوة كما تؤكد المصادر التاريخية(٥٥) . فما هي العوامل التي كانت تقف وراء عدد المساهمين في هذه الغزوة قياسا الى الغزوات السابقة وخصوصا ما يتصل منها بدور الانصار .

يبدو ان تطور سياسة الرسول (ص) في قطع الطريق على تجارة قريش وفرض الحصار عليها قد تصاعدت وتطورت بشكل تدريجي بحيث بدأت بسرايا وغزوات صغيرة ثم توسعت نتيجة لنجاح هذه السياسة حتى وصل عدد المساهمين في الغزوات الاخيرة «غزوة بواط وذي العشيرة» الى مائتي رجل كما قدمنا آنفا . وكان من الطبيعي ان تعتمد الزيادة في عدد المساهمين في الغزوات على الانصار لانهم اهل المدينة وغالبية سكانها اما المهاجرون فكان عددهم محدودا منذ البداية وكانت زيادة عدد المساهمين منهم في الغزوات تعتمد على عدد المهاجرين الجدد الى المدينة . ولم يتم ذلك خلال السنوات الاولى

للهجرة الا باعداد ضئيلة .

وتنبهم الروايات التاريخية الى ان من اسباب زيادة الاقبال على المساهمة في غزوة بدر هو الرغبة في الاستيلاء على القافلة حيث كانت تتالف من الف بعير «وكانت فيها اموال عظام ، ولم يبق بمكة قريشي ولا قريشية له مثقال فصاعدا الا بعث به في البعير ، حتى ان المرأة لتبعث بالشيء التافه . فكان يقال : ان فيها لخمسين الف دينار»(٥٦)

وقد اعتقد المسلمون ان بأمكانهم الاستيلاء على القافلة بسهولة وذلك لضعف الحامية التي تتولى حراستها . وفي ذلك يقول الطبري:

فلما سمع رسول الله (ص) بخبر القافلة «ندب اصحابه وحدثهم بما معهم من الاموال ، وبقلة عددهم ، فخرجوا لايريدون الا ابا سفيان والركب معه ، لايرونها الا الغنيمة لهم ، لايظنون ان يكون قتال كبير اذا لقوهم ، وهي التي انزل اليه عز وجل فيها : وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم (٥٧)»(٥٨) .

ان الدافع الاقتصادي للغزوات الذي ابرزتــه كتب السيرة والتاريخ بشكل قوي لاينبغي ان يحجب الدافع العقائدي لهــذه الغزوات والذي كان هو الدافع المركزي لها كما يفهم مــن الايات القرآنية التي اذنت للمسلمين في القتال : «اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا والله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ، ولو لا دفــع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسـم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز»(٥٩) .

ومهما يكن الامر بشان دوافع المساهمة في غزوة بدر ، فــان القافلة التي خرجوا للاستيلاء عليها قد تمكنت من النجاة وقامــت

قريش بارسال قوة مؤلفة من ٩٥٠ رجلا تقريبا لمحاربة قوة المسلمين التي كانت بحدود ثلث قوة قريش . لذا فقد استشار الرسول (ص) اصحابه بخصوص الموقف الواجب اتخاذه لمواجهة تحدي قريش للمسلمين بالحرب . ولم يكن ثمة مناص في مثل هذه الحالة سوى الموافقة على الحرب والا فقد المسلمين مكانتهم في نظر العرب(٦٠) . لذا رحب زعماء المهاجرين بقرار القتال ولكن الرسول (ص) كان حريصا على معرفة رأى زعماء الانصار لانه كما تذكر المصادر التاريخية كان «يتخوف الا تكون الانصار ترى عليها نصره الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وان ليس عليهم ان يسير بهم الى عدو من بلادهم» .(٦١)

يبدو ان حرص الرسول (ص) على معرفة راى زعماء الانصار لم يكن بدافع التخوف من نصرتهم له خارج المدينة كما تذكر المصادر التاريخية لانهم بمجرد موافقتهم على الخروج معه من اجل الاستيلاء على القافلة المكية كانوا قد حسموا هذه المسألة وذلك لان مهاجمة القافلة يعد من الاعمال الحربية التعرضية ولايمكن ان يعد بأن حال من الاحوال من اعمال حماية الرسول (ص) في المدينة . ان الدافع الذي كان يقف وراء رغبة الرسول (ص) في التعرف على راى زعماء الانصار هو حرص الرسول على استشارتهم لانهم يمثلون ثلثي القوة التي سيخوض بها المعركة . وقد جاء موقف سعد بن معاذ الذي تحدث عن الانصار متفقا مع راى زعماء المهاجرين في ضرورة التصدي لقريش ونصرة الرسول (ص) الى ابعد الحدود .(٦٢)

ان دراسة مواقف الانصار قبل واثناء معركة بدر تبرهن على مدى صدق وقوة موقف الانصار في الدفاع عن قضية الامة فقد

ساهموا بشكل متميز في اتخاذ قرار الحرب وتحديد الموقع الذي ستدور عليه رحى المعركة والتخطيط لكيفية ادارتها .(٦٣) وحينما اصطفت الصفوف للمبارزة كان اول المتقدمين من الانصار . غير ان الرسول (ص) كما يذكر الواقدي استحي من ذلك «وكره ان يكون اول قتال لقي المسلمون فيه المشركين في الانصار ، واحب ان تكون الشوكة لبني عمه وقومه . فامرهم فرجعوا الى مصافهم وقال لهم خيراء .(٦٤) وحينما اسفرت معركة بدر عن انتصار المسلمين على المشركين انتصارا مبينا كانت الخسائر التي قدمها المسلمون من اجل احراز هذا النصر الكبير اربعة عشر شهيدا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار(٦٥) اما خسائر المشركين في الارواح فكانت بحدود سبعين قتيلا عدا الجرحى والاسرى .(٦٦)

ويلاحظ ان سعد بن معاذ احد ابرز زعماء الانصار الذين شاركوا في معركة بدر لم يكن ميالا الى اخذ اسرى من المشركين رغم ما قد يعود عليه وعلى قومه منهم من اموال الفداء ـ بل كان يميل الى قتلهم . وقد لاحظ ذلك الرسول (ص) فقال له : «يا أبا عمرو، كانه شق عليك الاسرى ان يؤسروا . قال : نعم يارسول الله ، كانت اول وقعة التقينا فيها والمشركين ، فاحببت ان يذلهم الله وان يثخن فيهم القتل»(٦٧) .

ان ماتقدم ، يثبت ان موقف الانصار قد اتسم بالصدق والبداية العالية في نصرة الدعوة منذ بايعوا الرسول (ص) عند العقبة وانهم قد وقفوا الى جانبه يدافعون عنه ويقاتلون معه الى جانبه منذ شرع في سياسة فرض الحصار على تجارة قريش الخارجية عن طريق ارسال الغزوات والسرايا حتى واقعة بدر . ومع ذلك فان من الملاحظ

ان هناك ميلا قويا لدى اصحاب السير والمغازي لنفي اية مساهمة للانصار في الغزوات والسرايا التي وقعت قبل معركة بدر . فما هي الدوافع التي تكمن وراء هذا الموقف .

ان محاولة تفسير الدوافع النفسية عملية تتسم دائما بالصعوبة والتعقيد خصوصا عندما تغيب النصوص الصريحة ولا يبقى امام الباحث سوى الاستعانة ببعض القرائن والملابسات العامة للحكم على الاشياء . وهو ما سنحاول اللجوء اليه في هذا المجال .

من المعروف ان معظم الروايات التاريخية عن المغازي قد كتبت خلال العصر الاموي وأوائل العصر العباسي حيث كانت السلطة والنفوذ متمركزة بشكل اساس في قبيلة قريش . لذا لايمكن استبعاد عنصر المحاباة لابناء هذه القبيلة من المهاجرين حين رواية اخبار المغازي من خلال ابراز دورهم وتلوينه بالشكل الذي يدخل الرضا الى نفوس الخلفاء والحكام . وفي المقابل فان التقليل من دور الانصار او انكاره في المغازي والسرايا الاولى يلتقي مع ميول الخلفاء الامويين الذين اتسمت علاقتهم بالانصار بشكل عام بالطابع السلبي بسبب معارضتهم للحكم الاموي . لذا فقد لوحظ ان الروايات التي انكرت دور الانصار في السرايا والغزوات الاولى قد وصلتنا عن طريق اشخاص تظهر اسماؤهم في الخلافات الفقهية بالاضافة الى انهم جميعا ينتمون لبني مخزوم من قبيلة قريش من امثال عمر بن عثمان المخزومي .(٦٨)

وهنالك مسالة اخرى ، ربما كانت جديرة بالملاحظة ، وهي ان جميع الغزوات والسرايا التي وقعت قبل معركة بدر ـ عدا سرية عبدالله ابن جحش التي حصل حولها لغط كثير ـ لم يقع فيها قتال

ولم تسفك فيها دماء . ومن ثم فان ابراز دور المهاجرين فيها لايثير اية ذكريات سلبية بينهم وبين قومهم من قريش بعد استقرار السلطه في ايديهم منذ بداية الحكم الاموي . اما غزوة بدر وما تلاها من غزوات فقد جرى فيها قتال وسفك دماء مما يجعل الحديث عنهما وابراز دور المهاجرين فيها مصدرا لاذكاء بعض الذكريات السلبية بين افراد قبيلة قريش . ومن ثم ، فربما كان هنالك ميل لدى الرواة للتعتيم على دور المهاجرين في هذا المجال مع الرغبة في نسبة دور اكبر في هذه الغزوات الى الانصار الذين لاتربطهم علاقات عشائرية بقريش . وهكذا فقد تعرض دور الانصار للتعتيم والانكار في الغزوات والسرايا التي سبقت بدر بينما أصبح موضع اهتمام وتضخيم منذ معركة بدر لاعتبارات تتصل بمصالح قريش القبلية في عصر التدوين التاريخي .

ويبدو ان الحرص على وحدة قبيلة قريش والسعي للمحافظة على مايمكن المحافظة عليه من الروابط الحسنة بين افرادها رغم الاختلاف في العقيدة كان يجد له انصارا اقوياء بين المشركين والمهاجرين المؤمنين على حد سواء في عصر الرسالة . فقد ذكر ابن هشام ان عتبة بن ربيعة وقف خطيبا في قومه قبل معركة بدر يدعوهم الى تجنب قتال المسلمين بقوله «انكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا واصحابه شيئا ، والله لئن اصبتموه لايزال الرجل ينظر في وجه يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه او ابن خاله او رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فان اصابوه فذاك الذي اردتم وان كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا عنه ماتريدون»(٦٩) .
كما جاء ابو بكر الصديق بعد معركة بدر الى الرسول (ص) يرجوه

ان يكتفي بأخذ الفدية من اسرى قريش بدلا من القتل فقال له : «يارسول الله ، بأبي أنت وامي ، قومك فيهم الاباء والابناء والعمومة والاخوان وبنو العم ، وابعدهم منك قريب ، فامنن عليهم مـــن الله عليك ، او فادهم يستنقذهم الله بك من النار فناخذ منهم ما اخذت قوة المسلمين فلعل الله يقبل بقلوبهم اليك»(٧) .

ان ماتقدم يثبت ان اعتبارات وحدة القبيلة والمحافظة عـــلى الروابط التي تشد افرادها ببعضهم قد لعبت دورها في اتخاذ اخطر القرارات المتصلة بامور الحرب والسلام فما الذي يمنع ان يكون لها دورها فما هو أقل منها خطرا ونعني به امر نقل الاخبار وتدوينهـا بالشكل الذي يخدم المصالح الحيوية للاسر الحاكمـــة في الفترات اللاحقة لعصر الرسالـة .

---

(١) راجع على سبيل المثال ، هيكل ، محمد حسين ، حياة محمد ، مصر ١٩٥٦ ، ص٢٤٤ ـ ٢٤٦ ، فرج ، صالح محمد ، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول (ص)، مصر ١٩٥٨ ص١١٦، سرور د٠محمد جمال الدين ، قيام الدولة العربية في حياة محمد (ص) ، مصـــر ١٩٦٤ ص٨١ ـ ٨٢ ٠

(٢) الواقدي ، المغازي ، بيروت ١٩٦٦ (تحقيق مارسدن جونس) ج١ص٩، ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير ، ليزمن ١٣٢٥ هـ مجلد ٢ص٢ ٠

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، مصر ١٩٥٥ مجلد ١ص٥٩٠ ـ ٥٩١ ٠

(٤) المصدر نفسه ، قسم١ ص٥٩٥ ـ ٥٩٦ ٠

(٥) ابن حزم ، علي بن احمد ، جوامع السيرة ، مصر (تحقيق دراسات عباس ود٠ ناصر الدين الاسد) ص١٧ ٠

(٦) الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، مصر ١٩٦٨ ، ج٢ ص٤٠٢ ٠

(٧) المصدر نفسه ج٢ ص٤٠٣ ٠

(٨) ابن هشام ، السيرة قسم١ ص٥٩٠ – ٥٩١ ٠
(٩) قرآن كريم ، سورة الاحزاب : ٢١ ٠
(١٠) الشريف ، احمد ابراهيم ، الدولة الاسلامية الاولى ، مصر ١٩٦٥ ص١٠٩ ٠
(١١) دروزة ، محمد عزة ، تاريخ العرب في الاسلام تحت راية النبي (ص) بيروت ، (المكتبة المصرية) ص١٨١ ، وذهب الى نفس الراي محمد فرج ، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول (ص) ، ص١١٦ ٠
(١٢) سرور ، قيام الدولة العربية ، ص٨١ ٠
(١٣) ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير ج١ ص٢ ٠
(١٤) الواقدي ، المغازي ج١ ص١١ ٠
(١٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، مجلد ١ ص٦١٥ ٠
(١٦) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ص٤٠٢ – ٤١٠ ٠
(١٧) ابن هشام ، السيرة ، مجلد ١ ص٤٤٢ ٠
(١٨) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٢ ٠
(١٩) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٢ ٠
(٢٠) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٦ ٠
(٢١) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٨ ٠
(٢٢) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٨ ٠
(٢٣) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٨ ٠
(٢٥) المصدر نفسه قسم ١ ص٤٥٤ ٠
(٢٤) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٩ – ٤٥٠ ٠
(٢٦) المصدر نفسه قسم ١ ص٤٥٤ وص٤٦٧ ٠
(٢٧) راجع على سبيل المثال : الشريف ، احمد ابراهيم ، الدولة الاسلامية الاولى ص٦٩ – ٧٠ ٠
(٢٨) ابن هشام ، السيرة ، المجلد ١ ص٥٠١ – ٥٠٤ ٠
(٢٩) يراجع بحثنا
في مجلة آداب الرافدين ، العدد الخامس ، الموصل ١٩٧٤ ٠
(٣٠) ابن هشام ، السيرة ، مجلد ١ ص٥٠١ ٠
(٣١) المصدر نفسه مجلد ١ ص٥٠٣ ٠
(٣٢) المصدر نفسه مجلد ١ ص٥٠٤ ٠
(٣٣) المصدر نفسه مجلد ١ ص٥٠٣ ٠
(٣٤) المصدر نفسه مجلد ١ ص٥٠٥ ٠

(٣٥) ابن سعد ، الطبقات الكبير ، مجلد ١ ص٤ ·
(٣٦) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص١ ·
(٣٧) وات ، مونتغمري ، محمد في المدينة (تعريب شعبان بركات) بيروت ، ص٢٧٨ ·
(٣٨) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٥٠٥ ·
(٣٩) السهيلي ، الروض الانف ، مصر ١٩١٤ ، ج٢ ص٨١
(٤٠) سورة الصف : ٤
(٤١) الواقـــدي ، المغازي ، ج١ ص٩ - ابـــن ســـعد ، الطبقـات مجلد ٢ ص٢ ·
(٤٢) المصدر نفسه ج١ ص٩ ـ ١٠ ·
(٤٣) وات ، محمد في المدينه ص ٧ ·
(٤٤) الواقدي ، المغازي ج١ ص١٠ ·
(٤٥) ابن سعد ، الطبقات الكبير مجلد ٢ ص٤ ·
(٤٦) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٥٠٤ ـ ٥٠٧ . ابـــن سعد ، الطبقات مجلد ٢ ، ص١ ·
(٤٧) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٦٠٧ ·
(٤٨) الواقدي ، المغازي ، ج١ ص١٢ ـ ١٣ ، ابـــن سعد ، الطبقات مجلد ٢ ص٤ ·
(٤٩) وات ، محمد في المدينة ص٧ ·
(٥٠) المرجع نفسه ص٦ ـ ٧ ·
(٥١) المرجع نفسه ص٧ ·
(٥٢) ابن هشام ، السيرة ، مجلد ١ ص٦٠٦ ـ ٦٠٧ ·
(٥٣) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص٦٠٧ ·
(٥٤) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص٦١٢ ·
(٥٥) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص٦٠٧ ، راجع ايضا الواقدي ، المغازي ج١ ص١٩ ، الطبري ، تاريخ ج٢ ص٤٢١ ·
(٥٦) الواقدي ، المغازي ج١ ص٢٧ ·
(٥٧) سورة الانفال : ٧ ·
(٥٨) الطبري ، تاريخ ج٢ ص٤٢١ ·
(٥٩) سورة الحج ٣٩ ـ ٤٠ ·
(٦٠) وات ، محمد في المدينة ص ١٧ ـ ١٩ ·
(٦١) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٦١٥ ، يراجع ايضا ، الواقدي ، المغازي ج١ ص٤٨ ، الطبري التاريخ ، ج٢ ص٤٣٥ ·
(٦٢) ابن هشام ، السيرة ، مجلد ١ ص٦١٥ ·

(٦٣) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص٦٢٠ – ٦٢١ .
(٦٤) الواقدي ، المغازي ج١ ص٦٨ .
(٦٥) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٧٠٧ – ٧٠٨ .
(٦٦) المصدر نفسه ص ٧٠٦ – ٧١٥ .
(٦٧) الواقدي ، المغازي ج١ ص١٠٦ .
(٦٨) وات ، محمد في المدينة ص٦ ، راجع ايضا ابن سعد ، الطبقات ج٢ ص١ .
(٦٩) ابن هشام ، السيرة المجلد ١ ص٦٢٣ .
(٧٠) الواقدي ، المغازي ، ج١ ص١٠٨ .

نظـام المعاون
من نظم الأمن الداخلي في الدولـة العربية الاسلامية

د . فاروق عمر فوزي
كلية الاداب/جامعة بغـداد

مقدمـــة :

أشرنا في بحث سابق(1) الى ان الدولة العربية الاسلامية كانت تدرك جيداً بان أمن البلاد (دار الاسلام) واستقرارها وطمأنينة مواطنيها عوامل مهمة للنهوض الحضاري والتقدم الاقتصادي والاقتدار العسكري والثقـل السياسي ... ولهذا عملت بكل الوسائل لتحقيق اكبر قدر ممكن منه . ومما يدلل على اهتمام الدولة بالاستقرار الداخلي كثرة المؤسسات والنظم التي ابتدعت الاشاعة هذا الاستقرار مثل نظام الشرطة والحسبة والمظالم والقضاء وغيرها . ولم يكن نظام المعاون او المعونه الا واحـداً من هـذه الانظمة التي تختص بالأمن الداخلي .

لقد كان الوالي أو الأمير هو المسؤول المباشر والأول امام الخليفة أو الوزير عن الأمن الداخلي وتبدو اهمية الاستقرار الداخلي من أقوال بعض الولاة. فقد خاطب والي المدينة المنورة أهل المدينة قائلا :

«ايها الناس انا والله مارأينا شعاراً قط مثل الأمـــن فالزمـــوا الطاعة ....(2)» وكانت الدولة تعتبر الناس او الرعية متضامنين مع الدولة في حفظ الأمن الداخلي وتؤكد على ضرورة اشراكهم في ذلك سواء من كان يستقر في الامصار والمدن او من كان يستوطن القرى وأرياف - فقد طلب والي العراق زياد بن ابيه من زعماء كل ناحية ان يضمنوا له الطريـق وقد نجح في ذلك لأنه كان يقول :

«لو ضاع حبل بيني وبين خراسان عرفت من أخذ به»(3) !!

كما اقامت الدولة مراكز من مواقع استراتيجية على الطريـــق بين الاقاليم ينزلها المجيرون الذين يحفظون الطريق ويجيزون السابلـة، اي يراقبون المسافرين ويأذنون لهم بالعبور بعد تفتيشهم . وكان المسؤول من هـذه المراكز صاحب السكك[٤] .

ولم تدخر الدولة العربية الاسلامية وسعاً في تطوير مؤسساتها خدمة للأمن الداخلي ولهذا نراها لاتعتمد فقط على المؤسسات التقليدية بل تحاول ان تطور مؤسسات اخرى او توســـع في اختصاصات مؤسسات موجود لهذا الغرض . فلم يكن من اختصاص ديوان البريد على سبيل المثال نقل الرسائل والاخبار فقط بل كان صاحب البريد عين الخليفه وأذنه المخلصه على كل ما يحدث في الاقليم حيث ينقله الى العاصمة بكـل أمانة . كما استعانت الدولة بالمخابرات برئاسة صاحب الخبر وهم مجموعة من العيون والجواسيس والمخبرين للتحري عن المشاغبين ومثيري الاضطرابات وكان شعار الدولة على لسان أحد ولاتها حيث يقول : «والله أني لأعد للأمـــر عسى الا يكون ابداً»[٥]

وينقل الرواة والاخباريون روايات تاريخية عديدة تشير الى الوعي العالي لدى المسؤوليين بأن التدهور السياســي والتفكك الاداري انما يبـــدأ بتضييع الاخبار وباستتار الانباء عن السلطة المركزيـــة في العاصـمة . ويجعل المؤرخون الرواد ذلك سبباً رئيسياً من اسباب سقوط الخلافـــة الاموية والعباسية[٦] .

الأصل اللغوي والتاريخي :

ان الأصل اللغوي الذي اشتق منه لفظ معاون هو العون كما جـاء في تاج العروس وجمعه (معونه) او لعله اشتق من معن كما في لسان العرب ومعناه الاقرار بالحق ، وتمعن اي تصاغر وتذلل انقياداً ، من قولهم أمعن

بحقي اذا أذعن واعترف • وقال ابن منظور والمعونة الاعانة ورجل معوان حسن المعونـة[٧] •

اما في الاصطلاح التاريخي فقد اختلف المؤرخون والكتاب من رواد ومحدثين بشأنه • ففي رواية تاريخية أن المعاون جمع معونة وصاحب المعونة قيل في تسميته عامل المعونة ووالي المعونة ويتولى المعونة وصاحب للبلد هو الأمير دون الحاكم والمرتب لتقويم أمور العامة فكأنه معين المظلوم على الظالم وهو بمثابة والي الجنايات[٨] •

ومن تعريفات الجرجاني «ان المعونة مايظهر من قبل العوام تخليصاً لهم عن المحن والبلايا[٩]» وكان غالباً مايطلب الي أصحاب المعاون مساعدة القضاة والحكام ومعونتهم بما يقضـــي بلم شمل الصـــلاح في تنفيذ القضايـــا والانتضام[١٠] •

وللمعاون ديوان يضم صاحب المعونة وحملة من كتاب المعونة الذين يجب أن يكونـــوا «علماء بالقصاص والحـــدود والجراحـــات والمراقبات والسياسات»[١١] • ولصاحب المعونة مع كتابه دار يسمى (دار المعونـة) ولهم أيضاً حبس المعونة •[١٢]

اختصاص المعاون :

ان الروايات التاريخية حول اختصاص صاحب المعونة وصلاحياتـه نادرة • ومن هنا جاء اختلاف المؤرخين حول هذه الاختصاصات • والذي يبدو ان صلاحيتهم تنوعت وتعددت لأنها شملت كلما يتعلق بحفظ الأمن الداخلي والاستقرار • وكانت بعض الاحكام والغرامات التـــي يصدرها القاضي يقوم ولاة المعاون باستيفائها بأمر من القاضي[١٣] ، ومعنى ذلـك أن المعاونة كانت تقوم بأعمال الشرطة القضائية في تنفيذ الاحكام الصادرة من القضاة • وهـــذا بعض اختصاصها • مما اعتبرت دائـــرة المعارف

الاسلامية[114] المعاون جزءاً من الشرطة . فاختصاص الشرطة يكون في العاصمة والمدن الكبيرة في حين نجد «فرقة المعونة في غير ذلك من الاماكن الأقل شأناً حيث تناط بها واجبات مماثلة لما ينط بالشرطة . وكان الضابط المنوط به القوة من الجند هو صاحب الشرطة (في المدينة الكبيرة) وصاحب المعونة (في المدن الصغيرة والقرى) وفي مصر كان يسمى (والي الاحداث والمعاون) ... » وكان يصدر أحكام وفقاً للعرف وان يتصرف لمنع الجرائم او القلاقل معتمداً على التقارير التي تصله . في حين ان القاضي والمحتسب كانا موكلين بالشرع .

ومن اختصاص صاحب المعونة كذلك على ما أورده الماوردي اختيار الحراس في القبائل . يقول : «أما اختيار الحراسين في القبائل والاسواق فالى الحماة وأصحاب المعاون»[115] ، كما وان من واجبات الحماة وولاة المعاون النظر في أمر الحاكة والصاغة والقصارين والصباغين وهم — في رأي الماوردي — أخص بالأمر من المحتسب لأن هؤلاء الحرفيين ربما هربوا بأموال الناس فيراعي اهل الثقة والامانة منهم فيقرهم ويبعد من ظهرت خيانته وشهر أمره لئلا يغتر به من لايعرفه ... فالخيانة تابعة للسرقة . ومما يدل على حسن التنظيم الاداري وضبطه في الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي أن مدينة صغيرة على نهر الفرات مثل مدينة الرقة[116] كان تضم من الموظفين الاداريين بالاضافة الى الوالي او الأمير مما يلي : (١) القاضي ، (٢) كاتب سلعة يسمى (البندار) يطالب بالخراج ووجوه المال (٣) صاحب جند (٤) صاحب بريد ينهي الاخبار للخليفة (٥) متول للضياع السلطانية (الصوافي) (٦) صاحب معونة ، وذلك في بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي . ويبدو من كلام قدامة في كتابه الخراج أن أصحاب المعونة كانوا معروفين في الدولة ومنتشرين في اقاليمها وان

الكتب والمراسلات كانت تجرى اليهم من العاصمة حيث ان من جملة واجبات كاتب التحرير هو تحرير الكتب الى «اصحاب الدواوين او اصحاب المعونة أو القاضي أو من جرى مجراهم[17] .

ويؤكد ادم متز ماذهب اليه ليفي فيقول بأن الذي يعنى بالأمن من مقر الأمير هو الوالي وصاحب الشرطة ، أما من في المدن الاخرى فكان يتولى ذلك صاحب المعونة ...»[18] .

ولعل مما يدخل ضمن اختصاص صاحب المعونة ماورد في مقامات الحريري (ت٥١٦ هـ) حيث يقول : «فاذا .. شيخ طويل اللسان قصير الطلسان . قد لبث فتى جديد الشباب خلق الجلباب فركضت في اثر النظارة حتى وافينا باب الامارة . وهناك صاحب المعونة متربعا في دسته . ومروءة بسمته فقال له الشيخ : اعز الله الوالي ، وجعل كعبه العالي . أني كفلت هذا الغلام فطيما وربيته يتيما ثم لم آله تعليما ، فلما مهر وبهر . جرد سيف العدوان وشهر ولم اخله يلتوي علي ويتقح حين يرتوي مني ويلتقح .

فقال له الفتى : «علام عثرت مني حتى تنشر هذا الخزي عني ؟ .»[19]

نشوء نظام المعاون وتطوره :

لعل اقدم نص تاريخي حول بدايات نشوء نظام المعونة هو نص الطبري في حوادث سنة ٤٠هـ في خلافة علي بن ابي طالب (رض) حيث يقول :

«وكان واليه على البصرة في هذه السنة عبدالله بن العباس ... واليه وكانت الصدقات والجند والمعاون ايام ولايته كلها»[20]

وفي تاريخ اليعقوبي ان المنصور أول من ولى قضاة الامصار ممن قبله ، وكان يجمع اليهم كذلك[21] . ويشير هلال الصابي ان مذهب صاحب

المسوحة كان في زمانه يضم عادة الى صاحب الجند والحرب وكثيراً مايطلب من اصحاب المعون مساعدة القضاة في تنفيذ احكامهم(٢٢) ٠

وفي رواية في الطبري عن احداث سنة ٢٣٨هـ أن والي معونة مصر عتبة بن اسحق الصبي أمر الجند الذين بدمياط ان يحضروا الفسطاط وأخلى دمياط من الجند(٢٣) ٠

ويقول مسكويه في حوادث سنة ٢٥٠هـ(٢٤) :

لما ظهر يحيى بن عمر الزيدي بالكوفة وجمع كثيراً من الاعراب وأهل الكوفة كتب محمد بن عبدالله طاهر الي عاملة على معاون السواد عبداللهبن محمود السرخس والي عامل الكوفة يأمرهما بالاجتماع لمحاربته ٠

وفي رواية تاريخية ان الخليفة العباس المعتصمبالله غضب حين وصل الى سمعه أن أحد القاطنين قد قال في السوق «ليس للمسلمين من ينظر في امورهم» فاعتذر القطان مؤكداً انه لم يقصد بذلك الخليفة بل المحتسب٠ وقد أدهش هذا الفعل القاضي ابو علي الحسن بن اسماعيل نديم الخليفة وتسأل من الخليفة عن سبب ذلك الاهتمام الشديد بقول القطان مشيراً الى انه كان يكفي هذا القطان «ان يصيح عليه رجل من رجال المعونة» وان امثال هذه الاقوال تقولها العامة دائما ولايتميزون فيها فقال الخليفة : «ياحسن انت تعلم مايجره هذا القول اذا تداولته الالسن ودعته الاسماع»(٢٥) ٠ وفي رواية للطبري عن استعانة عبدالله بن طاهر بأصحاب المعاون ببغداد حين تأزمت العلاقة بينه وبين أهل بغداد حيث :

«تقدم الي اصحاب المعاون ببغداد بتسخير ماقدروا عليه من الابل والبغال والحمير لينتقل عنها» ولكن عاد فطاب منهم بترك السخرة بعد ان صلحت الحال(٢٦) ٠

ويبدو ان المعاون لم تكن من المناصب الهينه فقد تولاها الولاة وامراء الجند

والحرب كما تولاها ابناء الخلفاء • فقد اشار ربيعة الجرشي على عبدالملك بن مروان ان يولي ابنه الوليد «على المعاون والصوائف يكن ذلك له شرفا وذكراً» • كما قلد المقتدربالله سنة ٣٠١هـ ابنـــه علي «الصلاة وأعمال المعاون والحرب بالري ودربناوند وقزوين ورنجان • وكان القائد نزوك صاحب معونة في عهد المقتدر كذلك • وولى المقتدر ياقوتاً اعمال الخراج والمعاون بفارس وكرمان ، وولى العباس بن عمر الغنولي الحرب والمعاون بمصـــر(٢٧) •

وحين ضعف امر الدولة في عهد الراضي نصب هذا الخليفة محمد بن وائق اميراً للامراء وقلده امارة الجيش والخراج والمعاون وجميع الدواويـــــن سنة ٣٢٤هـ وبطلت الوزارة واصبح امير الامراء هو الناظر من جميع الامور وصارت الاموال تجمع الي خزائنه»(٢٨) •

وفي عصر التسلط البويهي على بغداد ٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ غدا وزيـر الامير البويهي هو الذي يقلد صاحب المعاون سلطاته(٢٩)•

«قال ابو اسحق : قلدني الوزير ابي محمد المهلبي دواوين الرسائل والمظالم والمعاون تقليداً سلطانياً كتب عن المطيع لله الى اصحاب الاطراف»

كما ويبدو ان المعونة صارت تشمل بغداد كذلك فقد تقلد سنة٣٨٩هـ ابو الحسن علي بن أبي علي المعونة بجانبي مدينة السلام وضلع عليه وغدا من واجب صاحب المعونة استتاب الأمن والنظام في العاصمة •

«ففي سنة ٤٢٤ هـ ثار العوائل من جامع الرصافة ومنصور الخطيب من الخطبة ورجموا القاضي أبا الحسن بن المرديـــف الخطيب وقالوا ان خطبت للبرجمي والا فلا تخطب لخليفة ولا لملك •

ثم اقيم على المعونة أبو الغنائم بن علي فركب واطف وقتل فوقعت الرهبة •••» ويبدو من النصوص التي لدينا عن مصر من العصر الايوبي

ارتباط المعاون بالشحنة حيث كانت(دار الشحنه) تسمى(دار المعونة)(٣٠).
وفي نص تاريخي آخر ارتباط اصحاب المعاون بالقضاة حيث يساعدون القضاة والحكام ويعينونهم في تنفيذ احكامهم(٣١) .

وهذا ما كان عليه الحال في المغرب والاندلس كما تشير رواية من صبح الاعشى حيث تسرد واجبات اصحاب المعاون والشروط التي يجب ان يتحلوا فيها . كما وتشير نفس الرواية الي ارتباط اصحاب المعاون بالقضاة في المغرب ، كما هو الحال في مصر حيث تقول :

«يأمره (يوسف بن كاشفين) ان يوعز الى اصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام ، ويجدوا من اجراء امورهم على أوفى شروط الضغط والانفاذ ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ احكامهم وأمضائها .. والتصرف معهم في أحضار الخصوم اذا ما امتنعوا وسوقهم الي والواجب اذا زاغوا عنه وانحرفوا وان يتقدم بامداد عمال الخراج بما يؤدي الى قوة ايديهم في استيفاء مال الفتى واجتبائه ، واعتماد ماينصر الحقوق في مطاويه واثنائه .. قال الله تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب»(٣٢) .

ولعل الحريري(٣٣) في مقاماته قد لخص كل هذه الصفات والصلاحيات بجملة واحدة واضحة حيث عرف صاحب المعونة بأنه «المرتب لتقويم أمور العامة فكأنه معين المظلوم على الظالم..» . ولعل ذلك جعل بعض المؤرخين الغربين او الآخرين الذين تثقفوا ثقافة اوربية الى اعتبار صاحب المعاون مقابلا لمنصب في الشرطة هو

و واعتبره آخرون أقرب مايكون في اختصاصاته الى الشرطة القضائية بينما ذهب آخرون الى تشبيهه بالمحتسب وسماه آخرون برئيس الدرك . الا ان صاحب المعاون ليس احد من هؤلاء

على وجه الدقة رغم أنه من صلاحياته يأخذ منهم جميعاً فهو مثلا اوسع في اختصاصه من الشرطة القضائية ولكنه أقل من الشرطة العامة وأقل كذلك من المحتسب ٠ والقاضي وصاحب المظالم

الخاتمـة :

لقد اختلفت اختصاصات نظام المعاون في الدولة العربية الاسلاميـة عبر العصور ، كما تداخلت هذه الصلاحيات مع أنظمة ومؤسسات أخرى ٠ وليس هذا غريباً في النظم الاسلامية كما اوردتها كتب التراث فالباحـث المتمعن يلاحظ تداخلا مثلا بين صلاحيات صاحب الشرطـة وصاحب الخبر وبين هذا الأخير وصاحب البريد ٠٠٠ وهكذا نجد التداخل بين اختصاصات صاحب المعونة وصاحب الشرطة والخبر والبريد أو انه كان يأخـذ جزءاً من صلاحياتهم في اماكن واوقات معينة وحسب الظروف ٠ وكذلك كـــان صاحب المعونة يساعد أو يعين المحتسب والقاضي وصاحب المظالم وربما كان يتمتع ببعض صلاحياتهم بتقليد من الخليفة او الوالي لكي يتصـرف طبقاً للعرف والقانون دون الرجوع الى القاضي أو الوالي خاصة مايتعلق منها بالجرائم وتعكير الأمن والنظام ٠

ويبدو ان نظام المعاون المكون من صاحب المعونة وكتابه وشلة مـن الجند كان من بداياته يهتم باقرار الأمن والنظام بكل ماتعنيه هـذه الكلمة من معنى شامل في الاماكن خارج المدن الكبيرة والامصار اي في المدن الصغيرة والقرى والارياف(٣٤) على عكس صاحب الشرطة الذي يقصر اهتمامه بالمدن الكبـيرة ٠

لقد اهتمت الدولة العربيـــة الاسلاميـة بتامين السبل والسـكك والطرقات بين المدن وفي اقاليم الدولة ٠ وكان هناك على عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز الاموي موظفاً يسمى (صاحب السكك) وفي رواية تاريخية

ان بشر بن نافع كان على سكك العراق ـ وأستمر الحال في العصر العباسي حيث كان الخلفاء يولون موظفيين خاصيين على الطرق ، ففي سنة ١٨٩هـ ولي محمد بن الجنيد الطرق مابين همدان والري ، وفي سنة ٢١٦هـ ولي محمد بن أوس البلخي طريق خراسان • وربما تداخلت واجبات هؤلاء مع واجبات صاحب المعونة او صاحب البريد حيث ان من جملة واجبات هذا الأخير حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والسراق وانسلال الجواسيس في البر والبحر ، على ان واجبات صاحب المعونة الرئيسية كانت في القرى والارياف اى في الحواضر وليس الطرق والسكك•

واذا كان المؤرخون والكتاب المحدثون قد اختلفوا في تعريف نظام المعاون فمنهم من قال أنه اشبه بالشرطة القضائية ومنهم من أشار الى انه اقرب الى الحسبة ، فانهم لم يختلفوا في كونه واحداً من أنظمة الأمن الداخلي في الدولة وان ارتباطه كان وثيقاً بالمؤسسات الاخرى ذات الاختصاص المماثل مثل الشرطة والقضاء والمظالم والحسبه وانه كان يعين مؤسسات اخرى من أجل الاقتصاص من المذنب أو المقصر او الممتنع عن الازعان للحق والواجب ، ومن هنا جاء التدخل بين صلاحيات صاحب المعونة وصلاحيات المؤسسات الاخرى التي لها ارتباطات وثيقة ومصالح مشتركة معه •

والذي نراه أن صاحب المعونة يتمتع بالعديد من صلاحيات مؤسسات حفظ الأمن والاستقرار الداخلي دون أن يمس بها أو يتعدى على اختصاصات اصحابها • وان حدود سلطته في البدء كانت من القرى والارياف والبودي التي تتواجد فيها القبائل ثم امتدت هذه السلطة لتشمل العواصم والمدن الكبيرة في القرن الرابع الهجري او قبله بقليل •

الهوامش والتعليقات

(١) فاروق عمر ، **الأمن في الدولة العربية الاسلامية** ، افاق عربية، ١٩٨٤

(٢) الطبري ، تاريخ ، جـ٦ ص٤٨٦ طبعة القاهرة
(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ص٧
(٤) البلاذري انساب (مخطوطه) ورقة ٤٦ ، ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص١٥٦ .
(٥) القالي ، الآمالي ، جـ١ ص٨٧ (ط دار الكتب المصرية)
(٦) راجع مثلا : الطبري ، تاريخ ، القسم الثالث ص٤١٤ ليدن
(٧) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد ١٣ ، ص٤٠٩ مادة «معن» بيروت ١٦٥٦ انظر تاج العروس مادة «عون» .
(٨) هلال الصالحي ، أقسام ضائعة من الشحفة الوزراء جـ١ ص٧٨
(٩) المرجاني التعريفات ، ص٢٣٤
(١٠) هلال الصالحي ، المصدر السابق ، جـ١ ص٧٨
(١١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، جـ٣ ص٣٠٩
(١٢) هلال الصالحي : أقسام ضائعة من تحفة الوزراء ص٧٨
(١٣) الماجدي ، أدب القاضي جـ١ ص١٧١ ، وهنا يشبه الدكتور محي هلال السرحان أن ولاة المعاون أشبه مايكون بالمحتسبين (راجع كلام المحقق في حاشية (١) من نفس الصفحة) بينما شبهها ظافر القاسمي في كتاب نظام الحكم بالشرطة القضائية ص٤١١ ، في حين يعرف محققوا كتاب الجهشياري (طبعة ١٩٣٨) المعاون بالجنايات والمظالم .
(١٤) دائرة المعارف الاسلامية م١٣ ص١٩٣ فما بعد الطبعة القديمة . ويشير ليمي في نفس المقالة ان من جملة واجباته التعسس ليلا لمنع الجرائم مستندا على خطط المقريزي جـ٢ ص٢٢٠ . مادة (شرطة)
(١٥) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص٢٥٤ ، ٢٥٦
(١٦) ادم قز ، الحضارة الاسلامية جـ١ ص١٥٧ ـ ١٥٨
(١٧) عن حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية ، ص٢٦٥ ـ ٢٦٦
(١٨) ق. ، المصدر السابق ، ١٥٨
(١٩) الحريري ، المقامات ص١٧٩ ـ ١٨٠ ، سنة ١٩٥٨ بيروت
(٢٠) الطبري ، تاايخ ، جـ٣ ص١٢٣
(٢١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٣ ص١٢٣
(٢٢) هلال الصابي ، المصدر السابق ، ص٧٨
(٢٣) تاريخ ، جـ٩ ص ١٩٤

(٢٤) مسكويه ، تجارب الامم ، جـ٦ ص٥٦٦ ـ ٥٦٧
(٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم طبعة ١٣٥٧ هـ م/الخامس القسم الثاني ص١٢٩ ـ ١٣٠ كذلك التنوخي ، نشوار المحاضرة جـ١ ص٣٢٧ ٠

(٢٦) الطبري ، جـ٩ ص٣٣٩ فما بعد
(٢٧) حول هذه الاخبار راجع الجهشياري ص٣٧ ٠٠ العيون والحدائق جـ١ ص٢٥٥ ، ٣٥٢ ، ٢٦٧ ٠

(٢٨) التنوخي ، نشوار المحاضرة ص٢٥ كذلك ابن الاثير ، جـ٨ ص٢٢٢
(٢٩) حول نصوص الفترة البويهية راجع ابو شجاع ، ذيل تجارب الامم القاهرة ١٣٢٧ هـ جـ٤ ص٣٣٧ ، الصابي ، ص٤٢ ، ابن الجوزي ، المنتظم م٨ ص٧٥ ٠

(٣٠) ابن الوردي ، تاريخ ، القاهرة ١٢٨٢ هـ ، جـ٢ ص٧٩ ٠ـ كذلك في بغداد في عهد المقتدر بالله تقلد نازوك الشحنة والمعونة (راجع الصابي ، رسوم دار الخلافة ص٨ ـ ٩ ٠ والشحنة منصب ظهر في العهد العباسي المتاخر ويتولاه من فيه الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان وله صلاحيات ادارية وعسكرية وكان الشحنة حاكما عاما لبغداد والعراق معا ٠

على أن الجواليقي يذهب الى ان الشحنة اسم للرابطة من الخيل في البلد لضبط أهله وليس باسم للأمير أو القائد ٠ والكلمة عربية صحيحة واشتقاقها من شحنت البلد مالخيل والفلك المشحوت اي المملوء (راجع تاج العروس ٩/٢٥١ مادة شحن) ٠

(٣١) القلقشندي ، صبح الاعشى ، طبعة القاهرة ، جـ١٠ ص١٥٠
(٣٢) المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص٣٨ ، ٣٩
(٣٣) الحريري المصدر السابق ، ص١٥٨
(٣٤) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص٣٢ فما بعد ٠ ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ١٩٧٩ ص٣٦٠ فما بعد ٠ـ قز ، الحضارة الاسلامية ، م/٢ ص٢٧٩ ٠

الماوردي : الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ ٠ـ أدب الوزير ، طبعة بغداد ٠

القلقشندي ، صبح الاعشى ، القاهرة ، ١٩١٣ ـ ١٩١٧

الحريري ، مقامات ، باريس ١٨٢٢ م ٠

ابن الوردي تاريخ ، مصر ١٢٨٥ هـ
ابن منظور ، لسان العرب ، بولاق ١٣٠٠ ـ ١٣١٧ هـ
الزبيدي ، تاج العروس ، القاهرة ١٣٠٦ هـ
الطبري ، تاريخ ، طبعة ليدن والطبعة المصرية الحسينية
مسكويه ، تجارب الامم ، ليدن ١٨٦٩
ابن الجوزي ، المنتظم ، حيدر أباد ١٣٥٧ هـ
المجهول ، العيون والحدائق ، ليدن ١٨٦٩
قز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجم ، القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ ٠

القاسمي ، نظام الحكم ، دار الفقائس ، بيروت ، ١٩٧٨
حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية ، بغداد ، ١٩٧١

أثر الاسلام في نضوج الحرف اليدوية الفنية

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

اسهم اصحاب الحرف والمهن الشعبية اسهاما بارزا في بناء صرح الحضارة العربية الاسلامية من خلال ما قدموه من جهود وخدمات في مختلف الميادين ، وفي شتى المجالات ، فكان منهم الفلاح والبناء والنساج والخزاف والحداد والنجار والحجام والبراز وغيرهم .

ولابد لي وانا اعرض لهذا الموضوع من ان اشير الى ما قدمته كتب الحسبة من معلومات تخص الحرف والصناعات فكتاب الشيرزي (نهاية الرتبة في طلب الحسبة)[1] يقدم اربعين حرفة وكتاب (معالم القربة في احكام الحسبة)[2] لأبن الأخوة يقدم اكثر من ستين حرفة ومهنة ، ويضم كتاب (نهاية القربة في طلب الحسبة)[3] لأبن بسام حوالي ثمانين حرفه ومهنة .

والحرفة الصناعة وحرفة الرجل ضيعته او صنعته والحرفة الصناعة وجهة الكسب ومنه الحديث «اني لأرى الرجل يعجبني فاقول : هل له حرفه ، فأن قالوا لا ، سقط من عيني»[4] .

والصنعة حرفة عرفها الانسان منذ ان ادرك سر الحياة وانتظم في مسيرتها ، وان ملازمة الانسان لها قديمة وبراعته في خدمتها متميزة .

ولكن الذي يؤسف له ان هذا الموضوع لم يحظ من عناية الباحثين بالنصيب الذي حظيت به الموضوعات الأخرى ، فالكتب العربية لاتفرد كتابا واحدا يقتصر على دراسة الموضوع وليس هناك فيما اعلم كتاب لباحثين محدثين يتناول هذا الموضوع وان كانت هناك فصول وابحاث متفرقة

ولكن ليس فيها الا القليل النادر ولايتناول ابعاده كلها او يمس زواياه جميعا .

لذلك كان لابد من توجيه العناية لدراسة هذا الجانب المهم من تاريخ الحضارة الاسلامية واخترنا هذه المرة الكلام عن موقف الاسلام من هذه الطبقة من طبقات المجتمع الاسلامي واعمالهم وتأثير ذلك في الصناعات اليدوية وتقدمها وتطورها وجمالها ونضوجها .

والمعروف ان الاسلام اعطى للعمل قيمة واهمية كبيرة عندما جعله في مصاف العبادة بل اعتبره من الواجبات المفروضة على المسلم والحقوق التي تؤديها الدولة له .

وقد اكد القرآن الكريم على العمل وعده شرطا اساسيا من شروط الرزق فأشاد بالعمل اليدوي حتى عده نعمة عظمى لابد للانسان من حفظها والمداومة عليها (ليأكلوا من ثمرة وما عملته ايديهم افلا يشكرون)(٥) وقوله (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور)(٦) .

كما اكد الاسلام على كل مؤمن ان يتفق عمله كل الاتقان كما قال النبي (ص) أن «الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه»(٧)

وعن الرسول (ص) ايضا قوله (ان الله يحب اذا عمل العبد عملا ان يحسنه ويتقنه)(٨) .

ولقد كان لهذه التعاليم ابلغ الاثر في نفوس المسلمين فأقبلوا على العمل وعلى الانتاج واتقان العمل وتطويره والتفوق في شتى مجالاته كما يظهر لنا ذلك من خلال الاعمال الجليلة التي قدمها الحرفيون العرب والمسلمون مما كان له اكبر الاثر في ازدهار الصناعات الفنية وكانت الدولة ترعى اصحاب الحرف والمهن وتقدم لهم ما يحتاجون لاعمالهم كما انها تراقب مصنوعاتهم

وانتاجهم عن طريق الحسبة التي تمثل السلطة الحكومية التي كانت تشرف على نقابات الحرف وتتصل اعمالها باعمال اعضاء هـذه النقابات وتمنح رجالها من النفوذ والسلطة مايمكنهم من حسن اداء واجباتهم ٠

واول من اوجد هذه الوظيفة في الاسلام هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) المحتسب الاول الذي كان اول من اشرف بنفسه على الاسواق٠

وكانت مهام المحتسب واسعة شملت النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية والصناعية والذي يهمنا هنا هو الجانب الذي يتعلق بالحرف والفنون الصناعية ٠

ولعل اهم وظيفة للمحتسب تلك التي تتصل باشرافه على الصناعات اذ كان يرسم للصانع طريق العمل بارشاد شيخ الصنعة ويحدد له الهدف الاسمي الذي ينبغي ان يتجه اليه وهو اتقان العمل والاخلاص فيه ٠

كما امتدت واجبات المحتسب لتشمل حماية الصانع والمستهلك على السواء لتحقق للصانع سهولة الحصول على المواد الاولية التي تدخل في الصناعة ، وتمنع الاحتكار وتسعى لرفع مستوى الصانع الاجتماعي ويضمن للمستهلك جودة المصنوع واتقان الصناعة ويضرب على كل يد تحاول الغش والتدليس ٠

ومن الذين شملتهم رقابة المحتسب البزازون فكان على البزاز ان يعمل ذراعا من خشب طوله بعرض الابهام اربعة وعشرون اصبعا محزوزة وينقش على طرفه الاول اسم الامام وعلى الطرف الثاني اسم المحتسب يتعيشون به ليرتفع الشك في طول امتعة الناس وعرضها في الزيادة والنقصان وان يعتبر موازينهم كل وقت(٩) ٠

اما بالنسبة للمطرزين فقد امرهم المحتسب الا يطرزا بقز ويدعوا انه حرير وان لايطرز احد شيئا حتى يزنه بالميزان ويكتب وزنه بطرفه اذا اتاهم

احد بثوب يطرز والاينقلوا رقم ثوب على ثوب آخر غيره[١٠] .

كما امتدت رقابة المحتسب بالنسبة الى بعض انواع الملابس تذكر منها على سبيل المثال نوعا من اغطية الرأس تعرف بالقلانس والقلانس مايلاث على الرأس تكويرا .[١١]

وقد نصت تعليمات المحتسب لصناع القلانس ان لايعملوا القلانس من الخرق البالية التي يلقونها بالقراطيس والاشراس ولايخيطوا عتيقا الا ان يكون فتيقا مقلوبا ويكتب على بطانة الجديد جديدا والعتيق عتيقا بخط المحتسب .[١٢]

اما بالنسبة للخياطين واعمالهم فأن المحتسب طالبهم بتضييق الابدان وسعة التخاريص وان تكون خياطتهم دززا ولا تكون شلا وان لاتكون الخيوط طوالا فانها تضعف من التكرار[١٣] . والزم الخياطون بجودة التفصيل وحسن فتح الجيب وسعة التخاريص واعتدال الكمين والاطراف واستواء الذيل[١٤] .

ومن بين واجبات المحتسب ايضا ملاحظة الانسجة ومنع الغش فيها كما يجب على الحاكة الجودة في العمل وان يسيروا على الطول والعرض المتعارف عليه في الحياكة ، وتنقية الغزل من القشرة السوداء[١٥] .

وكان الحاكة يجهزون القماش حسب رغبة الزبائن وكان بعضهم يحيك الخيوط المغزولة التي يحضرها لهم الزبائن ولذلك ربما اتهم الحاكة بامانتهم فيهربون بما يودع لديهم من خيوط او يبدل الغزل وكثرة اهمالهم للمواعيد الامر الذي استلزم اخضاع صناعة المنسوجات واصحابها للاشراف الحكومي عن طريق المحتسب ، واشترطت قوانين الحسبة على الحاكة ايضا ان يراعوا جملة تعليمات اخرى تتعلق بامانتهم والمحافظة على مواعيدهم وتجويد منتوجاتهم فقد طلب اليهم مثلا ترك مطل الناس وان يشترطوا على

الزبون مدة فراغهم من حياكة غزله(١٦) .

واغرب ما نصادفه عند حديث هؤلاء المؤرخين عن هــذه المهنة وجود عريف عليهم يراقبهم ويتفقد امورهم ويأمرهم ان يعطوا لكل من عمل عندهم ملاكا من غزله ، لتزول التهمة ويرتفع الشك فاذا جرى في ذلك دعوة مـن صاحب الغزل ان غزله قد ابدل رجع العريف واهل الصنعة الى ذلك المسلك ونظر ما رسمناه للصناعة ورسم نقص الغزل درهم واحد لكل ذراع ويتقدم اليهم بأن يكروا عقد كل شيء يعملوه للناس وللبيع ايضا ويصفقوه ولايحلو لأحد من سائر الحاكة الشرب والصفيق وغيرهم الخيانة جملة كافية ومـن خالف أدب(١٧) .

وقد اشارت الكتب الى اوامر اخرى تخص الحاكة ، فقد ورد في كتاب (مفيد النعم ومبيد النقم) للسبكي الاوامر التي تصدر الىالحائكاىالنساج، يقول السبكي ، ومن حقه ان لاينسج مايحرم استعماله لئلا يكـون معينا فلا يمنع لانه لم يتعين ان الذي يلبسه رجل بالغ ، اما عن المخلوط مـن الحرير وغيره فان كان الحرير اكثر وزنا حرم وان كان غيره اكثر وزنا او استويا لم يحرم ويجوز جعل طراز من حرير وبشرط ان لايتجاوز قــــدر اصابع(١٨) .

وخضع الغزالون لمراقبة المحتسب ايضا ويمدنا صاحـب كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، وبصورة دقيقة وغنية بالتفاصيل عن الامور الواجب اتباعها وتطبيقها من قبل الغزالين فقد ذكر انه «ينبغي ان يعرف عليهم عريفا طاهرا مأمونا بصيرا بما يجرى في السوق من الخطا والتدليس ويجعل كـــل جزء من النساء منفردا غير مختلط وقــــد يشترى بعض السماسرة الغـزل الرخيص ويعيدة الى السوق مع غيره الى من يساله شراء مثله فيبيعه لـــه بزيادة متفاوته ، وينبغي ايضا ان يتامل من يشتري الغزل فان كان مظنونا

به او مواصيا للمشتري اكثر ما يحتاج اليه ، حل غزله وبل بالماء قبل دفعه اليه ويستحلف سماسرته اتم يمين ان لايدلوا غـزلا ولايشاركـوا في ذلـك ولايواطئوا عليه احدا ومتى ما اطلعوا على هذا من غيرهم نموا عليـه ولـم يسكنوا عنه واظهروا فعله ولم يستروه كائنا ما كان من المسلمين وغيرهم.

ولاتبخس الموازين ولايظلمون احد من البائعين والبائعات وان يتقدوا لهم نقدا جيدا يغني عن المعاودة والمراجعة ويعتبر موازينهم وصنجهم كـل وقت ولايترك عند احد منهم دستي صنج ولا صنجة ثلـث درهـم ولاثلث اوقية(١٩) .

ولدينا خبر آخر عن الغزالين في العصر العباسي فقد نقل الى الخليفة المعتضد خبر عن قطان شيخ بن بركة زازل انه قال ليس للمسلمين ناظر في امورهم واستدعى القطان الى المعتضد ، وقال الشيخ انا رجل سوقـي لا اعرف غير الغزل والقطن ومخاطبة النساء والعامة وانما اجتاز بنا رجـل بايعنا شيئا كان معه ، فوجدنا ميزانه نقصا وانما قصدت بكلامي المحتسب، فامر المعتضد باحضار المحتسب والمبالغة عليه في انفضله عن أنكار مراقبة الغزالين وضبط معا بيرهم(٢٠) .

كما ان الدولة كان لها موظفون يشرفون على مصانع النسيج ومنهم والى الطراز او صاحب الطراز كما يسميه ابن خلدون(٢١) مهمته الاشراف وادارة كل ما يتعلق بدور الطراز ، ويذكر الصابي ان من بين واجبات والي الطراز الاشراف على الصناع فيما يأخذونه من المناسج حتى يجوده واخذهم باثبات اسم امير المؤمنين على ما يصنع من الاعلام والبنود وما ينسج مـن الكسي والفروش(٢٢) .

ولما كانت صباغة المنسوجات تشكل عنصرا اساسيا في الصناعـة النسيجية لذا فقد ادرجت ضمن واجبات المحتسب فكانت التعليمات تقتضي

ان يعرف على اصحابها عريفا ثقة عارفا بغشي هـذه الصنعة ويمنعهم ان يطرحوا في حوانيتهم الحناء فأن اكثر صباغي الحرير الاحمر يصبغونه بالحناء عوضا عن الفوة فيخرج الصبغ حسنا مشرقا فأذا اصابته الشمس تغير لونه وزال اشراقه وكذلك صبغ الغزل اذا دكن بالعفص والزاج وصبغ ذلـك تغير وانتقص ولم يثبت(٢٣) .

كما كان المحتسب يطلب الى صانع الخزف ان ينتقي من الطين احسنه ومن الوقود افضله وانظمه فلا يستعمل روث الادمي ولاشيئا من الازبال فأنها نجسه بل يستعمل الحلفاء وقشر الارز وما اشبهه(٢٤) .

وعليه ان يحرص على جعل الاواني معتدلة تامة الشيء حتى لاتتفت اذا ما وضع الطعام فيها وتكون كاملة الادهان ولايستعمل في الصبغة الا أحسن المـواد(٢٥) .

وكان من واجبات المحتسب ايضا مراقبة باعة الفخار ، ويتقدم اليهم بأن لايدلسوا على الناس بسد المثقوب والمشقوق ومن سائر ما يبيعونـه بالشحم والجير وماء البيض ويبيعونه على انه سالم ومتى وجد عندهم شيئا بهذه الصفة كسر . (٢٦) .

كما الزم صناع الامشاط بالصناعة الجيدة . ولم تغفل الحكومـة مراقبة النجارين لذلك فرضت رقابتها عليهم عن طريق المحتسب . ومهمته التدخل في شؤون هذه الحرفة واصحابها وتوجيـه فعالياتهم بحيث لاتترك مجالا لمن تحدثه نفسه بالشر ان يعبث بمصالح الناس . ونظرا لعدم تخصص المحتسب في هذه الصناعة كان يجعل عريفا من خيرة اهلها بصيرا بصناعتهم مشهورا بالثقة والامانة له دين ، فقد يوافق اكثر الصناع على اجرة معلومة كل يوم فيتأخروا عنه الغد وينصرفوا قبل المساء فينبغي ان يشترط في ذلك بما يمنع منه ومن النجارين من يقرب على اصحاب الاشغال ما يعملونه

لهم ويهونونه عليهم ويقللون من مؤونته ، حتى اذا نشطوا اليــــه ترعـوا شرعوا فيه طالبوهم بزيادة المؤونة عما قرروه فبان في ذلك خطر وغش ، فينبغي ان يتقدم المحتسب بالمنع من ذلك ، ثم منع بالايمان المؤكده(٢٧) .

ويلزم اي المحتسب النشارين ان يعمل على كل مقص ثلاثـة انفس ، احدهم يحيل المنشار واذا تعب واحد من الاثنين ناب عنه الآخر إلى يأخـذ صاحبه راحة ولاينصرفوا الى آخر النهار ويمنعوا من إشتراك جميعهم عـلى الناس بل يكونوا مثل النجارين والبنائين لايعلمون الا بما قسم الله ورزق، وان لايحرقوا شيئا مما ينشرونه فيستلفوا الخشب ويمتحق من التجار فمن فعل هذا بعد الانذار ادب(٢٨) .

اما بالنسبة الى نجاري الضبب (الاقفال) فأن الشروط التي فرضهـا نظام الحسبة عليهم هي ان يعرف عليهم عريف ثقة عارفا بمعيشتهم بصيرا بهذه الصناعة وينشر جواسيسها وهي باب جليل يحتاج الى ضبطه لأن فيه حفظ اموال الناس وصيانة حريمهم ، فينبغي مراعاة ذلك بالحلف بحضرة عريفهم باكفارة لهم فيه وان لايعلموا لرجل ولا لامرأة مفتاحا على مفتاح الا ان يكونا شريكين مشهوريــــن ويؤمروا ان لاينقبوا رأس الابيات لطـرح الاسنان ، بل ينقروا لها في رؤوس الابيات لحفظ الاسنان .

وتكون الاسنان التي فيها مربعة الرؤوس مدورة الاسافل مبرودة مجلسه وكذلك اسنان المفتاح مبرودة مجلسة حتى لايخرب ذكر الغلق لا من فوقـه ولا من تحته ويؤمرون ان يضموا الاغلاق بالجواسيس المختلفة حتى لايعمل مفتاح على مفتاح ومن خالف ادب(٢٩) .

كما امتدت واجبات المحتسب لتشمل صنفا آخر من اصناف النجارين، وهم نجارو المراكب او ما يسمونه بالقلافطة ، اذ ينبغي ان يعرف عليهـم عريف ثقة ، لأن هؤلاء النجارين يشترطون على اصحاب المراكب ويأخذون عما

شاؤوا درهما واحدا او خمسة دراهم فان امتنع عليهم أحد تركوه وانصرفوا، وحلفوا انهم لايعملونه الا بزيادة عما قرروه في الاول فيرجع الناس اليهم لانهم عصبة لايخالف بعضهم بعضا ، فهم في هذا اول شيء خالفوه ، خالفوا سنة رسول الله (ص) لانه قد حرم شركة الابدان فينبغي ان لايمكنوا من الشركة لانها حيف ومضرة على ارباب المراكب ، فينبغي ان يحلفوا جميعا على ترك هذه الشركة ، ويشهر هذا الامر بالجرس في كل السواحل ويعلموا لسائر الناس كما يعمل نجارو الدور من الصناع ، وكذلك القلاطفة من غير ان يحيف على الجهتين ومن خالف ادب(٣٠) .

اما الاساكفة صناع الاخفاف ، فان تعليمات المحتسب واضحة فهي تنص بمنعهم من عمل العتيق ويطرحونه ويبيعونه جديدا وأن لايكثروا حشو الخرق بين البشتيك والبطانة ولا بين النعل والضهارة ولايشتروا نعلا قد احرقته الدباغة لاوفطيرا لم ينضج ولا أديما فاسدا ولاسوسا ولامعيوبا وان يحكموا ابرام الخيط ولايطولوه اكثر من ذراع(٣١) .

ومن الصناعات التي خضعت لرقابة المحتسب صناعة الزجاج فكان ينبغي أن يعرف على اصحابها ويحلفوا أن لايخرجوا الزجاج من الكور اذا فرغ حتى يمضي له يوم وليلة فأذا تشرب دخانه اخرجه بعد ذلك وباعه وان عجل في اخراجه قبل ان يشرب دخانه يصدع ويهلك على سائر من اشتراه ويأمر المحتسب العريف ان يختم على الكور فأذا تشرب فتحه ، وكذلك يصنع بصناع المثاقيل الزجاج ويحماها عند فتحها الى المحتسب يعيرها قبل بيعها(٣٢) .

ولم تقتصر مهمة المحتسب على مراقبة الحرف التي تكلمنا عنها وانما شملت طبقة اخرى من الحرفيين وهم الصاغة ، فكان يؤخذ عليهم الا يبيعوا اواني الذهم والفضة والحلي المصنوعة الا بغير جنسها ليحل فيها

التفاضل(٣٣) .

وقد اكدت كتب الحسبة ان تدليس الصياغ وغشوشهم خفية لاتكاد تعرف ولايصدقهم عن ذلك الا اماناتهم ودينهم وانهم يعرفون من الجلاوات والاصباغ ما لا يعرفه غيرهم فمنهم من يصبغ الفضة صبغا لايفارق الجسد الا بعد السبك في الروباص ، لذا فرض المحتسب على الصاغة ان تكون اكوار السبك غير مرتفعة بل تكون في قصارى مبنية على وجه الارض حتى لايخفي ما يسبكه فيها عن صاحبه من ذهب او فضة ، وكذلك صناع الخواتم يؤخذ عليهم انهم لايثقلوا الخواتم بالرصاص تحت الفصوص ويبيعونها للناس بفضة(٣٤) .

كما التفتت كتب الحسبة الى ناحية مهمة لها اثرها الكبير في تقدم الصناعات والفنون ونضوجها وهي مراقبة المواد الاولية التي تدخل في الصناعة حتى انهم كانوا يحددون نوعية تلك المواد ، مثال ذلك صناعة الامشاط اذ كان يؤخذ على صناعتها الا يعملوا امشاط الرجالية والنسائية الا من خشب البقس فانه انفع ما يفعل لهذا وان لايكون اخضر فانه اذا عمله اخضر ثم جف يتعوج وينكسر ومن عمل من غير هذا الخشب النارنج وغيره فانه يظهر في تسريحة شعرات من الخشب ينتف شعر الادامي(٣٥) .

بل ذهبت كتب الحسبة الى ابعد من ذلك عندما رسمت لهم المواصفات التي تكون عليها الامشاط ، فكان المحتسب يلزم بالصناعة الجيدة وان يكون صحيح الشرح ويكون مدة قائما عقب القطع مع صحة انزاله ويعتمد على المخرزة لانها لاتمشي الا على الصحيح ويصح التبطين بان يكون فمه رقيقا حتى ترف رؤوس الاسنان فينزل في الشعر حادة مع تدوير الحروف بالرندك ويتجنب الشعث(٣٦) .

وما عدا ما تقدم هناك حرفة اخرى خضعت الى اشراف المحتسب وهي

صناعة النحاس ، اذ تلزم قوانين الحسبة وتعليمها الصناع الا يخلطوا النحاس الاحمر مع السوسي ولا ضرب الحار مع البارد ولايكثروا الرصاص في النحاس المفرغ فانه اذا فعل منه هاون او طاسة او غير ذلك وقع انكسر سريعا مثل الزجاج ولايمكنهم ان يعملوا الطاسات المفرغة الارزينة حتى اذا وقعت لم يصبها شيء(٣٦) .

وهكذا نرى انه كان للدين الاسلامي وتعاليمه وبهدى من الهدف الاسمى للفن الاسلامي ان تقدمت الفنون الصناعية الاسلامية تقدما عظيما وتطورت وارتفع مستواها حتى اذا تجاوزت مرتبة السلعة العادية الى مرتبة التحفة الفنية الجميلة والامثلة كثيرة وواضحة من خلال القطع الاثرية المتنوعة التي تحتفظ بها المتاحف ، والتي استأثرت باعجاب العالم وتدلنا في وضوح لا ليس فيه ولا غموض على اننا امام فن صناعي بارز المعالم قوي الشخصية .

(١١) ابن سيدة ، ابو الحسن علي بن اسماعيل

الهوامش والمصادر

(١) الشيرزي ، عبدالرحمن بن نصر
نهاية الرتبة في طلب الحسبة . تحقيق الباز العريني (بيروت ١٩٦٩) .

(٢) ابن الاخوة ، معالم القربة في احكام الحسبة
عني بنقله روبن ليوى . مطبعة دار الفنون بمكبرج (١٩٣٧) .

(٣) ابن بسام ، المحتسب . نهاية الرتبة في طلب الحسبة
حققه وعلق عليه حسام الدين السامرائي مطبعة المعارف (بغداد ١٩٦٨) .

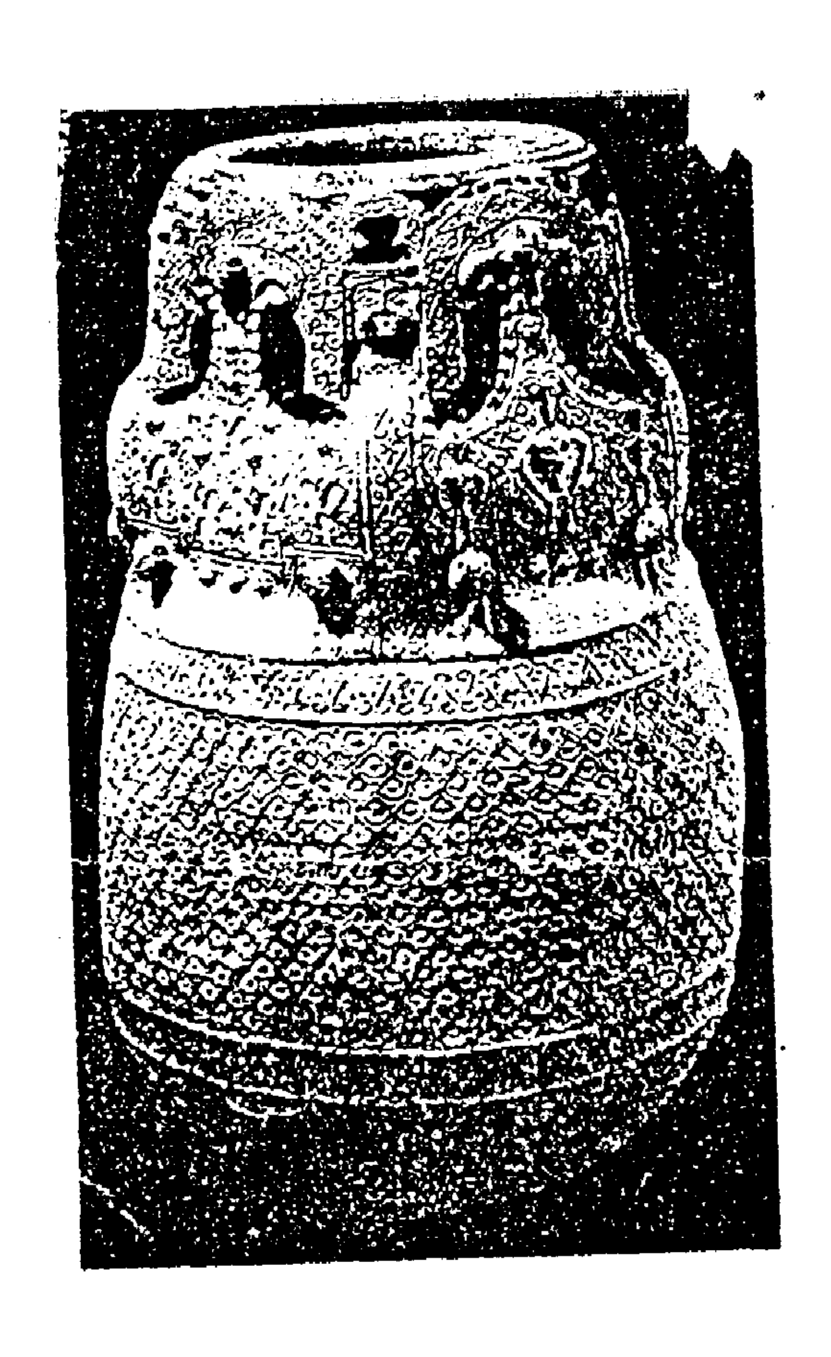
(٤) ابن منظور ، جمال الدين محمد ابن مكرم
لسان العرب . دار صادر . بيروت (١٣٧٤ هـ) جـ٩ ص٤٤ .

(٥) قرآن كريم . يس ٣٥

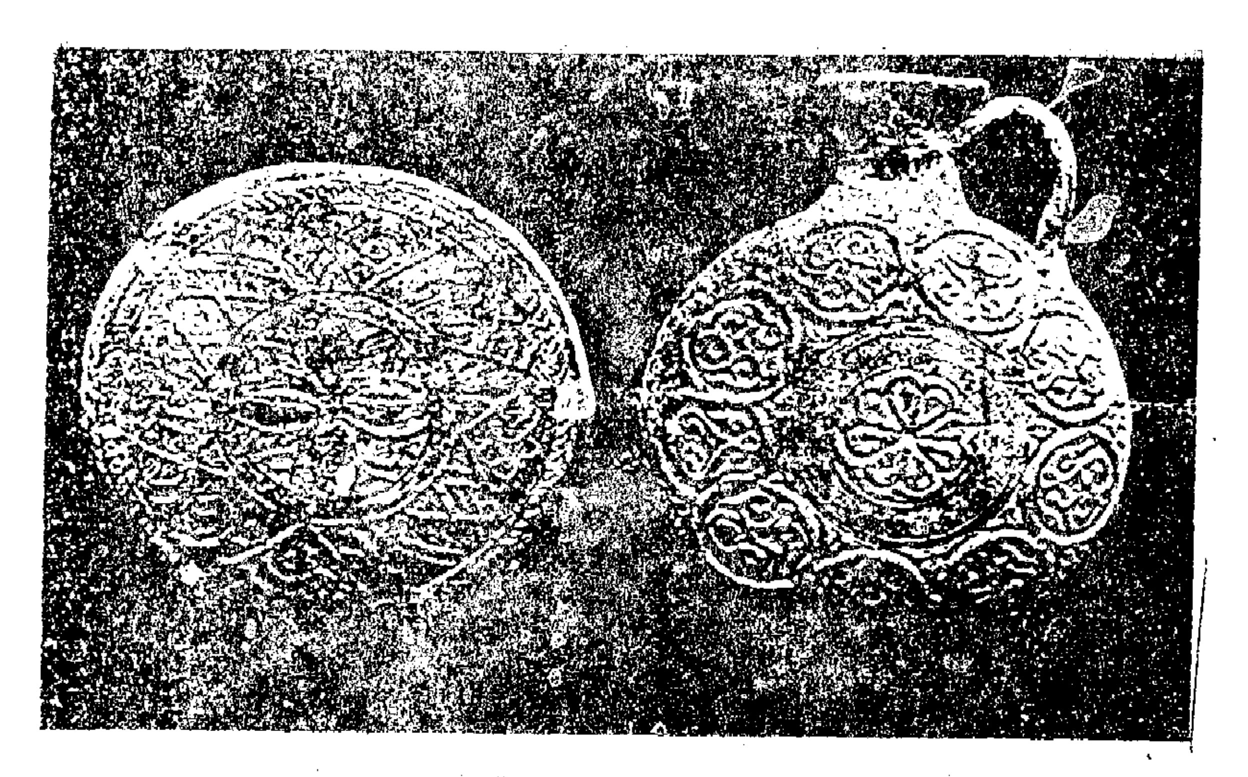
(٦) قرآن كريم . الملك ١٥

(٧) رواه البيهقي
(٨) الكتانـي ، عبدالحي
التراتيب الادارية جـ٢ ص٨٣
(٩) ابن بسام ، المصدر السابق ص٨٠
(١٠) ابن بسام ، المصدر السابق ص٨٣
المخصص (مطبعة بيروت) جـ٣ ص٩٢
(١٢) ابن بسام ، المصدر السابق ص٧٧
(١٣) ابن بسام ، المصدر السابق ص٧٨
(١٤) الشيرزي ، المصدر السابق ص٦٧
(١٥) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٣٦
(١٦) الماوردي ، علي ابن محمد بن حبيب
الاحكام السلطانية ط٢ القاهرة (١٩٦٦) ص٢٥٦
(١٧) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٣٥
(١٨) السبكي ، تاج الدين عبدالوهاب
مفيد النعم ومبيد النقم (القاهرة · ١٩٤٨) ص١٩١ ·
(١٩) ابن بسام ، المصدر السابق ص٧٣
(٢٠) سعد ، فهمي عبدالرزاق ·
العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين (الاهلية للنشر والتوزيع) بيروت ١٩٨٠ ص١٣٥ ·
(٢١) ابن خلدون ، عبدالرحمن محمد المغربي
مقدمة ابن خلدون · مطبعة مصطفى محمد (القاهرة) ص٢٦٦ ·
(٢٢) الصابي ، ابو الحسين هلال بن المحسن
المختار من رسائل الصابي · نقحه وعلق حواشيه شكيب ارسلان (المطبعة العثمانية في بعبدا) ١٨٣٨ جـ١ ص١٤١ ـ ١٤٢
(٢٣) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٢٨
(٢٤) مرزوق ، محمد عبدالعزيز
العراق مهد الفن الاسلامي ص٥٩
(٢٥) مرزوق ، المصدر السابق ص٥٩
(٢٦) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٥٨
(٢٧) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٤
(٢٨) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٤ ـ ١٤٥
(٢٩) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٧

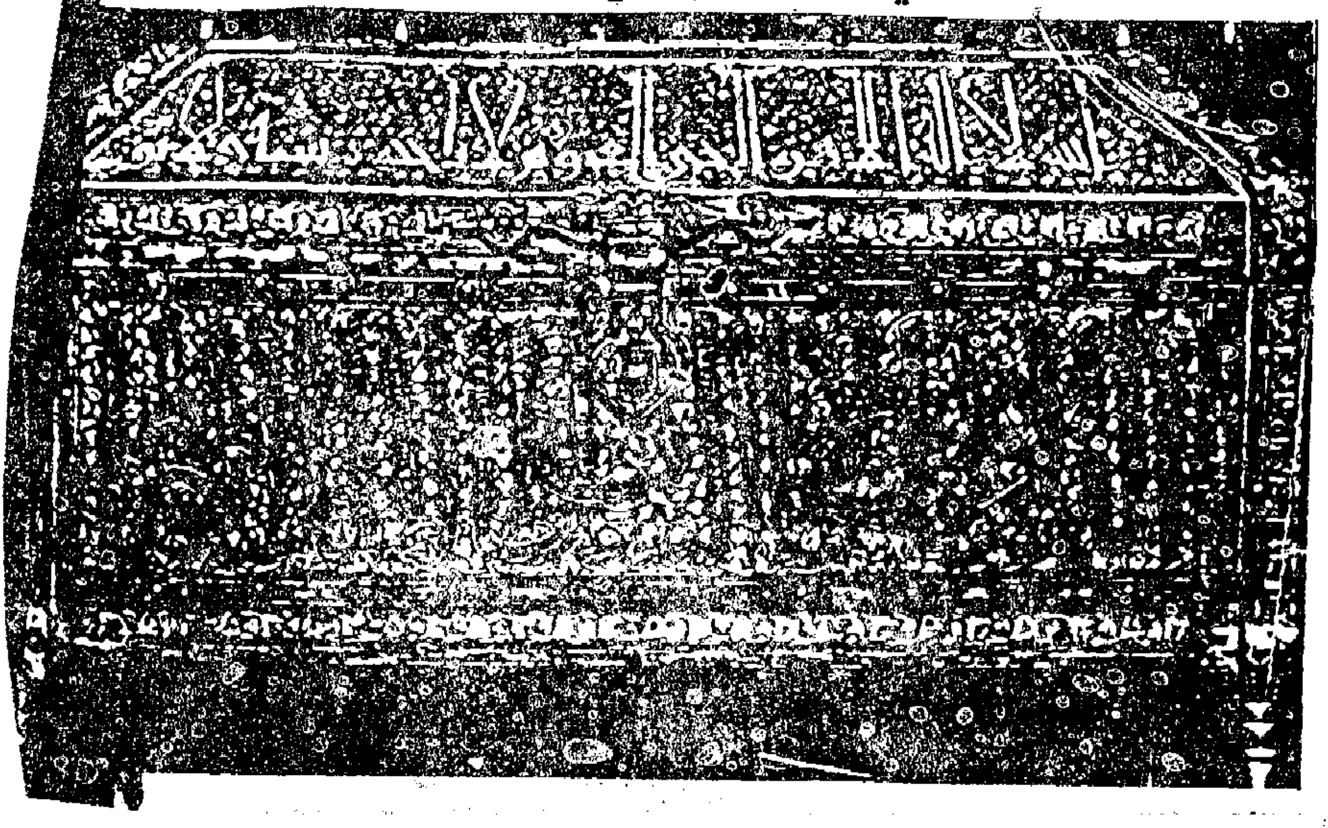
(٣٠) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٨
(٣١) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٣٠
(٣٢) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٦٠
(٣٣) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٤٣
(٣٤) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٤٦
(٣٥) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٢٢
(٣٦) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٢٧
(٣٧) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٢٨



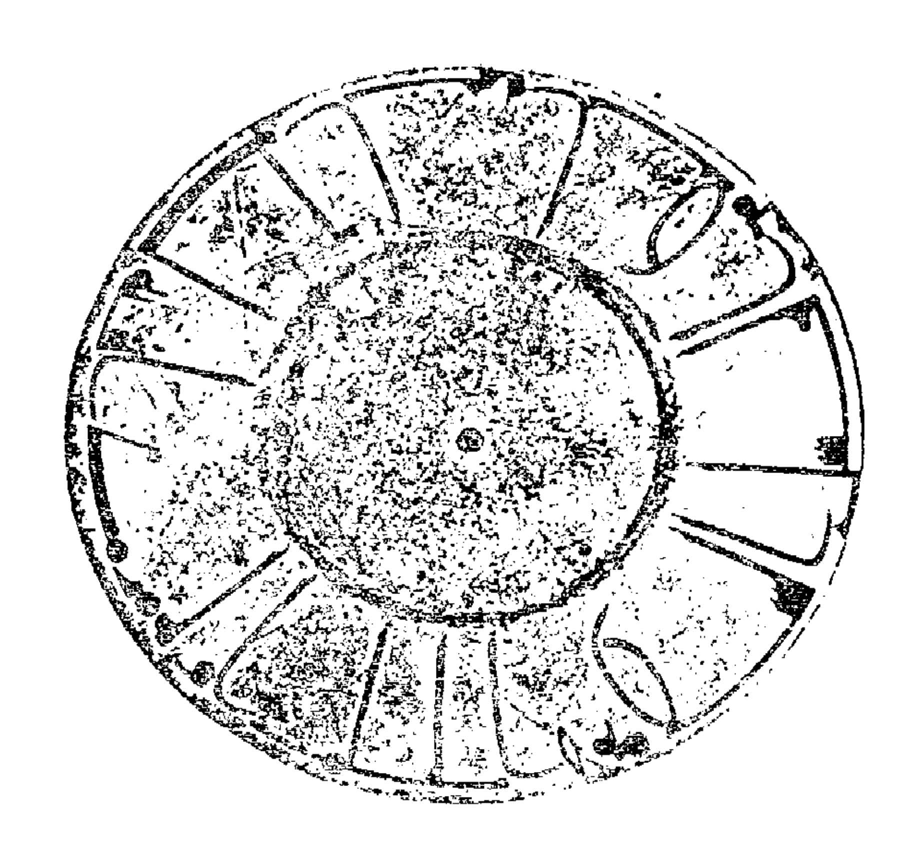
شكل (١)
جرة من فخار غير مدهون من العصر العباسي
في المتحف العراقي ببغداد



شكل (٢)
زمزمية من الفخار غير الملون من العصر العباسي
في المتحف العراقي ببغداد



شكل (٣)
صندوق مصحف مصنوع من الخشب ومصفح من الخارج بصفائح من النحاس الاخضر مؤرخ من سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م محفوظ في مكتبة الجامعة الازهرية بالقاهرة ٠

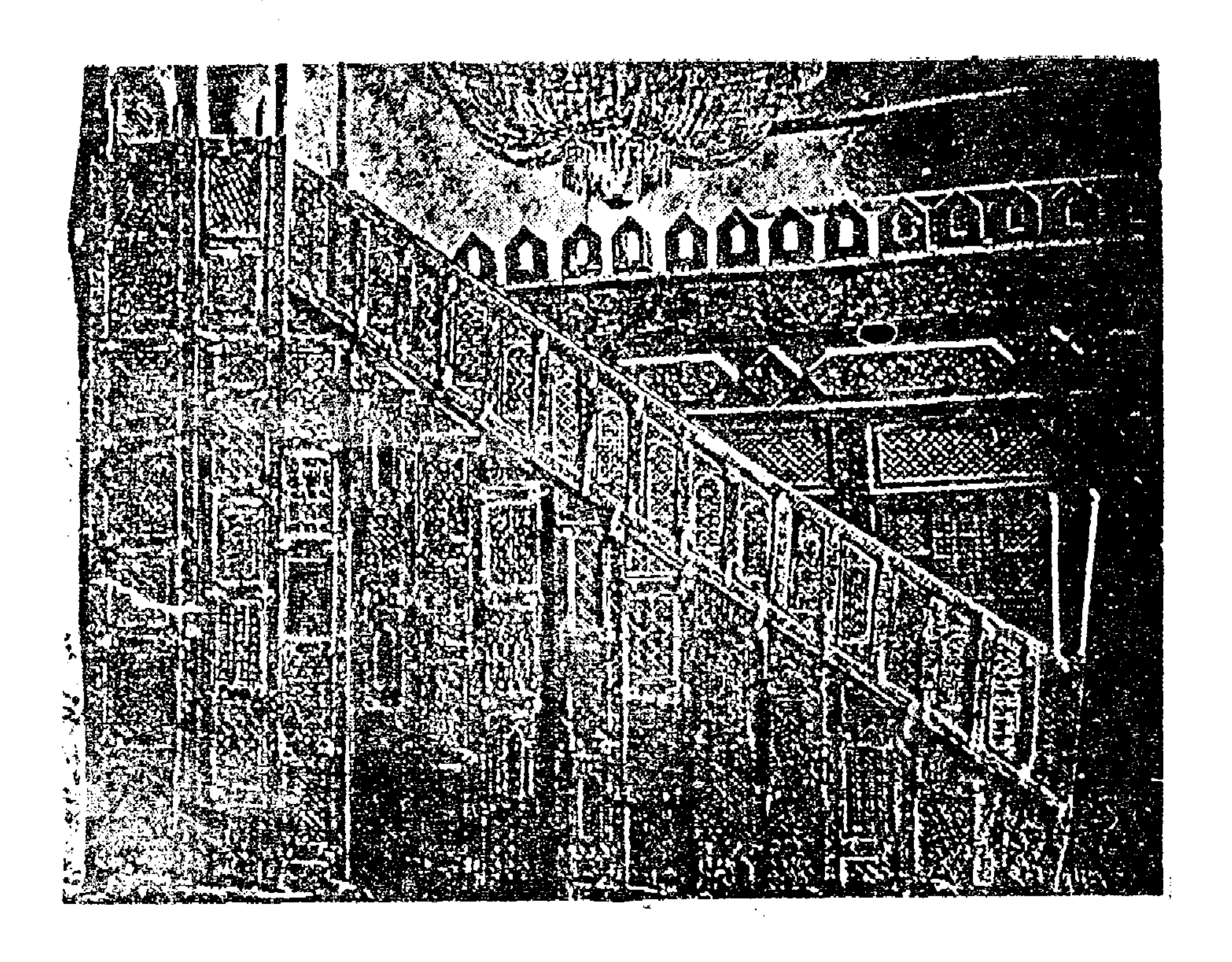


شكل (٤)
صحن من خزف في متحف اللوفر بباريس تزينه كتابة بالخط الكوفي
نصها «العلم اولة مر مذاقه لكن آخره احلى من العسل • السلامة» •



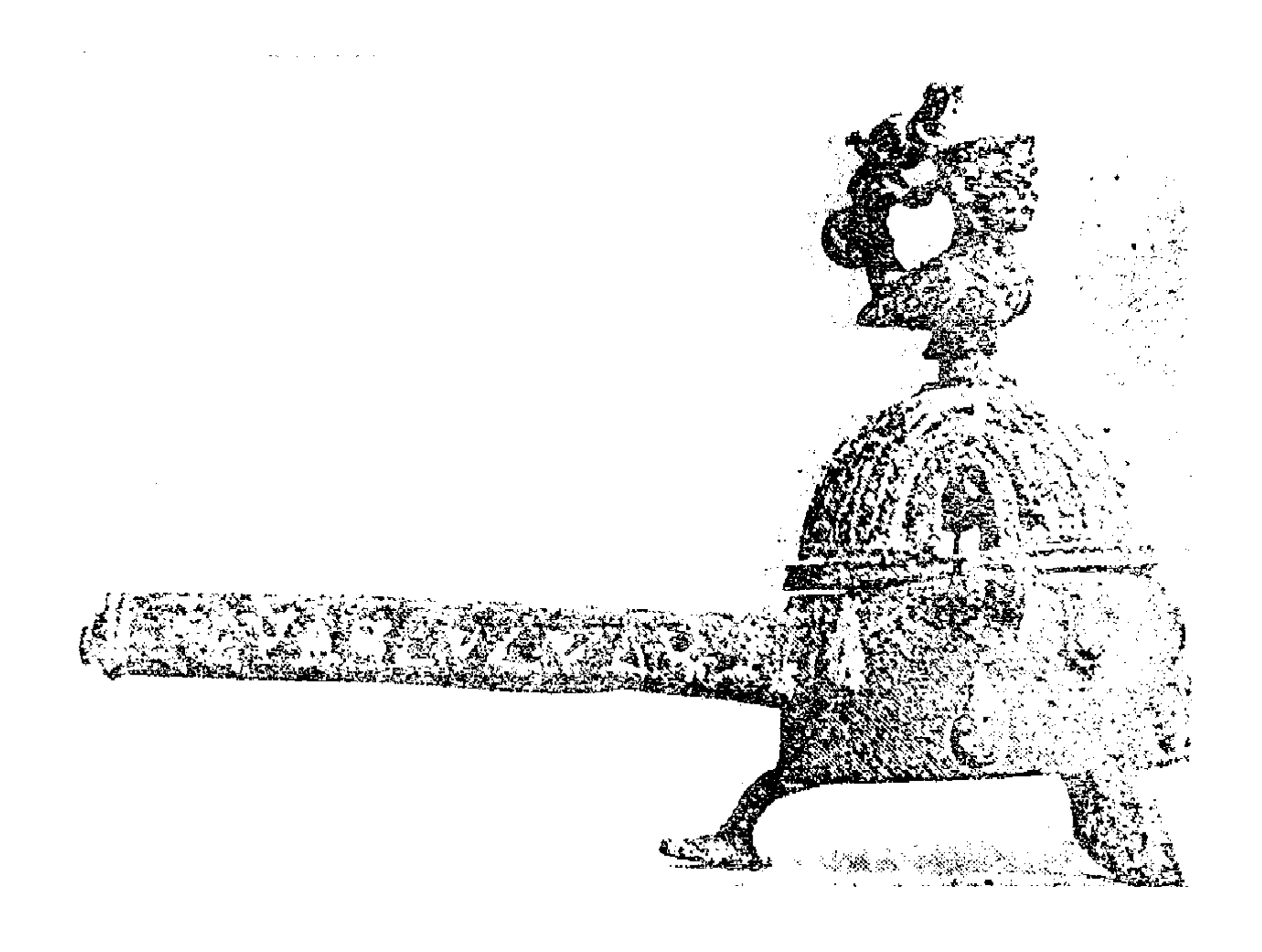
شكل (٥)

لوح من القاشاني من صناعة محمد الشامي في دمشق سنة ١١٢٩ هـ/ ١٧٢٧م في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة .



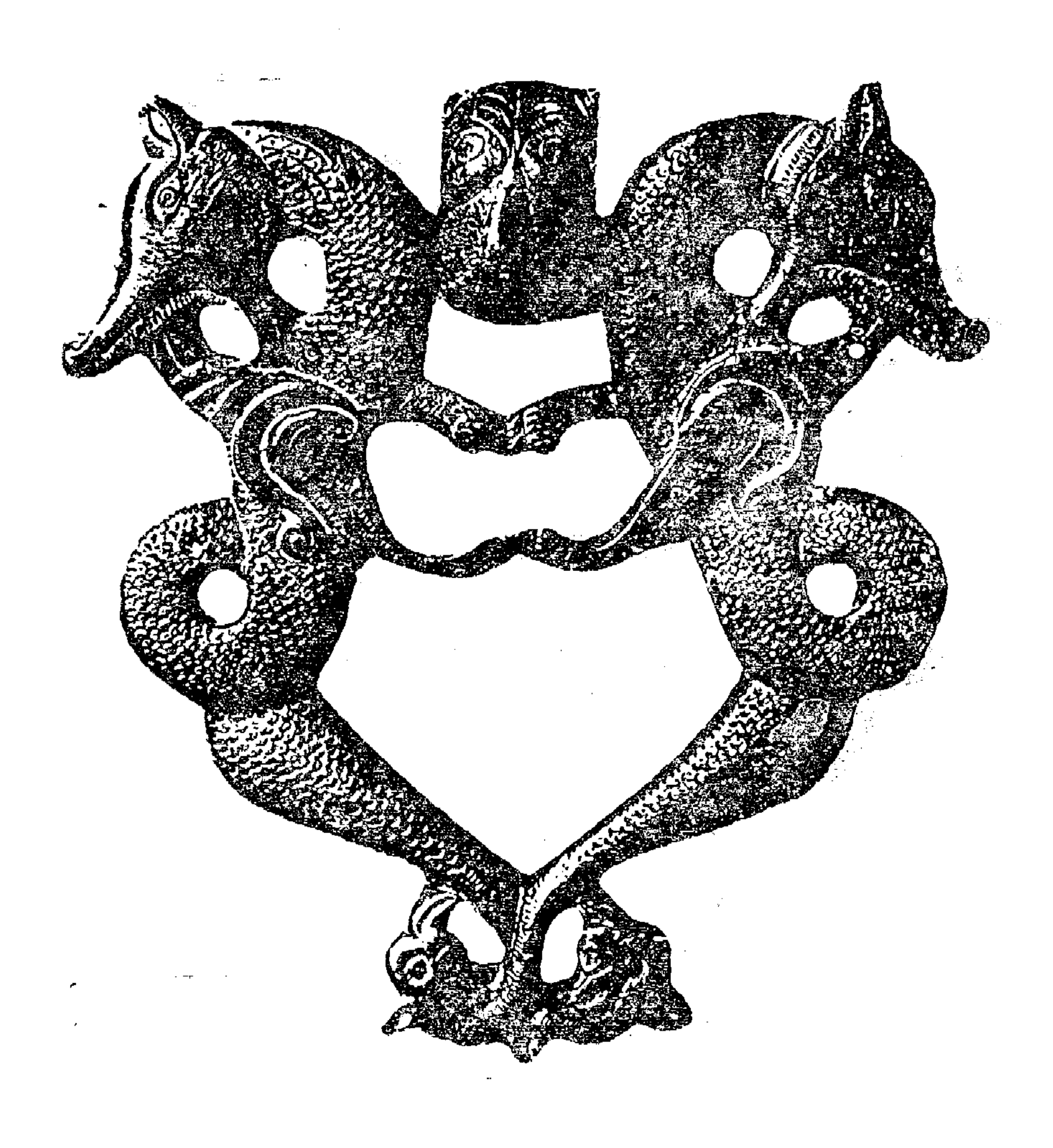
شكل (٦)

منبر جامع سيدي عقبة بالقيروان مصنوع من خشب يرجع تاريخه الى سنة ٢٤٢ ـ ٢٤٩ هـ/٨٥٦ ـ ٨٦٣ م ٠



شكل (٧)

مبخرة من البرونز من القرن الخامس أو السادس الهجريين (الحادي عشر او الثاني عشر الميلاديين) في متحف برلين ٠



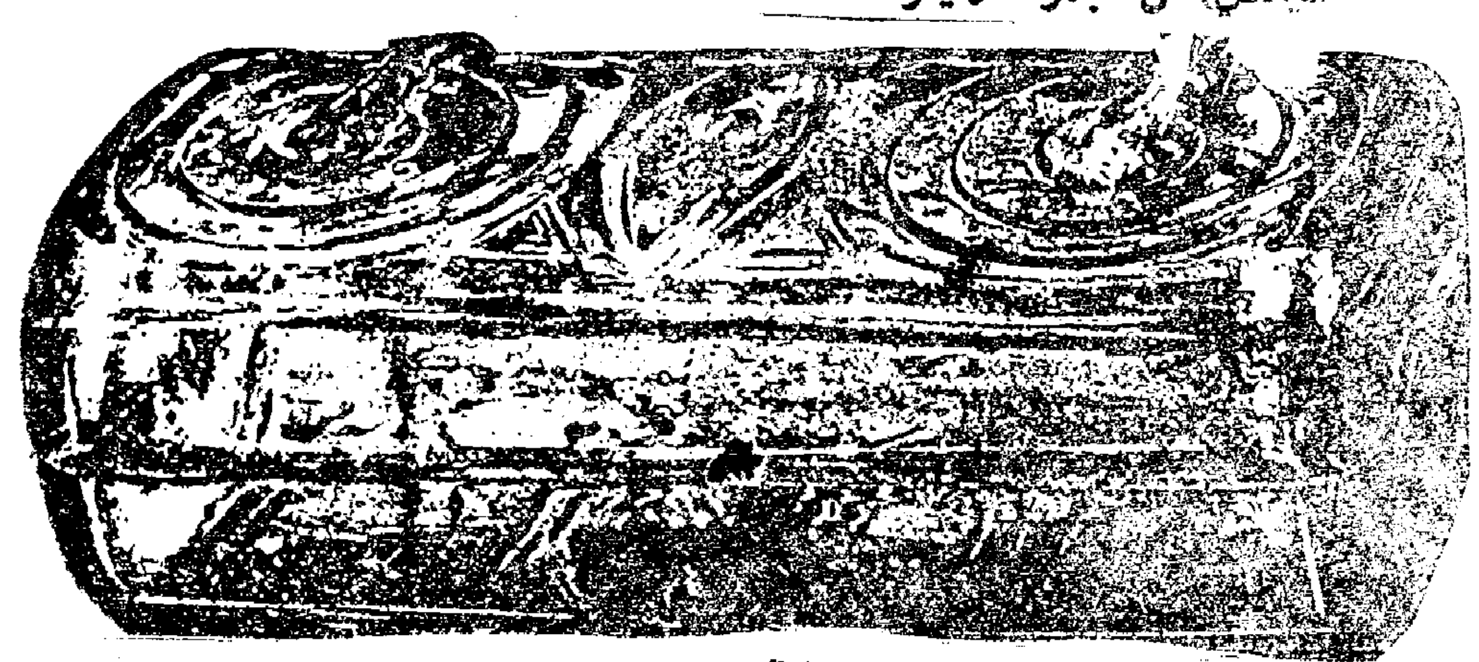
شكل (٨)
مطرقة باب من البرونز من العراق في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في متحف برلين ·



شكل (٩)
ابريق من النحاس المكفت بالفضة
صنع في الموصل بالعراق سنة
٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م في المتحف
البريطاني بلندن ٠

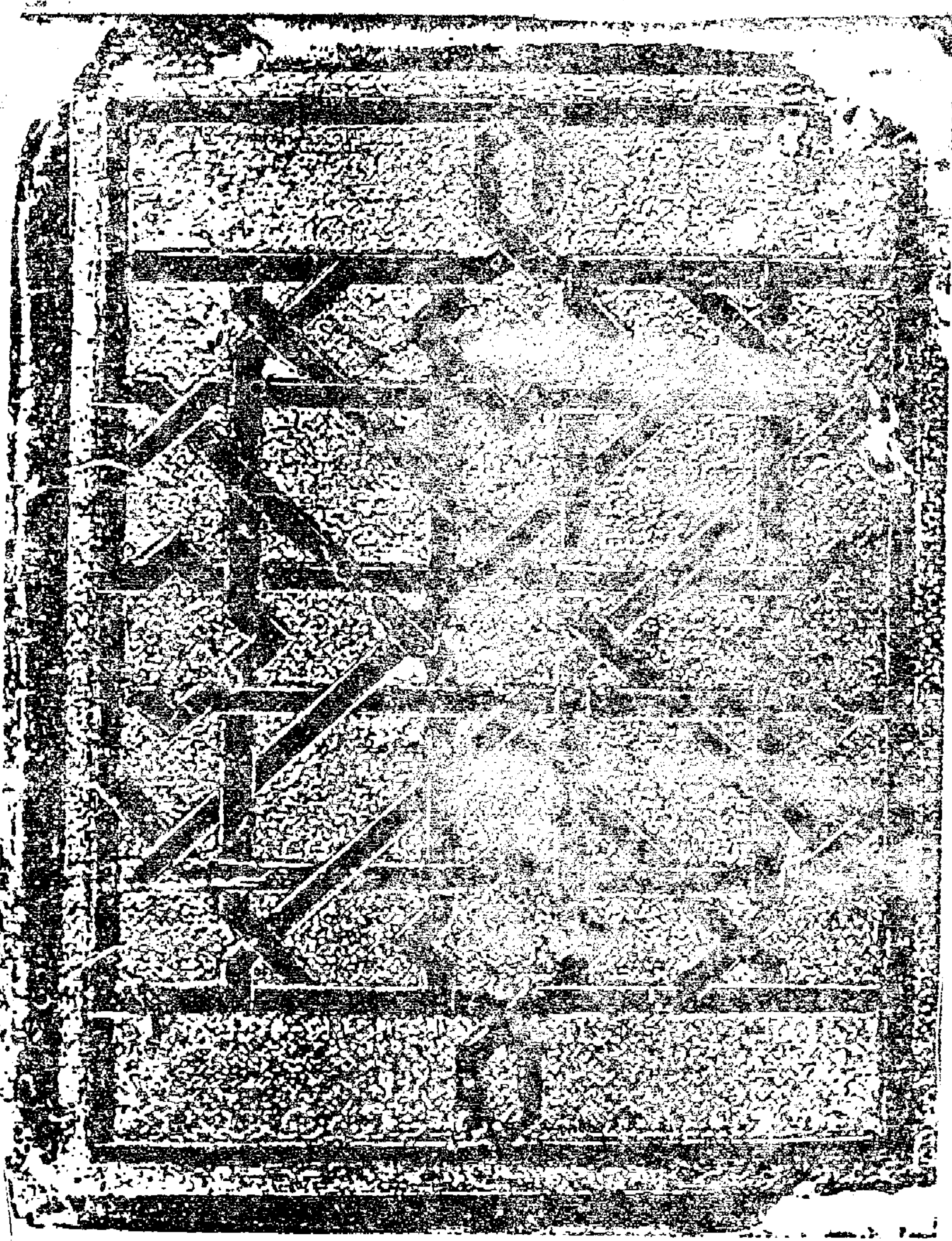
شكل (١٠)

قطعة من نسيج الحرير من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) من مجموعة راينو .



شكل (١١)

محبرة من الزجاج من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) في متحف برلين .



شكل (١٢)

جلد مصحف من مراكش في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في مدرسة ابن يوسف بمدينة مراكش .

دراسات لوثائق عثمانية غير منشورة
كــوت الفرنجي
موطىء القدم الاولى في المخطط البريطاني لاحتــلال العــراق

د.مهدي جواد حبيب البستاني
استاذ التاريخ العثماني المساعد بالجامعة المستنصرية

يكشف في هذا البحث ، لأول مرة ، عن جانب مهم وخطير من المخطط البريطاني السري الهادف الى احكام وادامة النفوذ الأنكليزي في منطقـــة الخليج العربي ، منذ العقد الأول من القرن التاسع عشر ، وتهيئة المقدمات النظرية والعملية للهيمنة على العــراق اقتصاديا وتوظيـــف امكاناتـــه الستراتيجية لضمان استمرار المصالح الحيوية البريطانية في المنطقة كمرحلة اولى ، واحتلاله عسكرياً في مرحلة لاحقة . كما يكشف من جانب آخر عن ضعف الدولة العثمانية من النواحي السياسية والعسكرية والستراتيجية ، وعجزه عن حماية حدودها ، والدفاع عن سيادتها ومصالحها المعرضة للخرق والأنتهاك باستمرار من قبل الدول الطامعة المجاورة كروسيا وايــران والبعيدة كانكلترة وفرنسا والمانيا ، وحتى من قبل القوى المحلية كالوهابيين والكعبيين والعمانيين والمنتفكيين والبابانيين وغيرهم .

ان اقدام شركة الهند الشرقيـــة البريطانيـــة وحكومتها في بومباي بالأستيلاء على قطعة أرض عراقية ، ذات موقع ستراتيجي مهم ، واتخاذهـا قاعدة عسكرية بحرية ، في غفلة من الأرادة العثمانية المحلية المركزيــة ، او بتجاهل مقصود منهما ناجم عن شعور بالمنف وحاجـة للمساومـــة ، يعد انتهاكاً سافراً لسيادة الدولة العثمانية ، واختراقا خطيرا لأمن العراق الوطني . ومما يثير الدهشة والحيرة معا ، والسخرية كذلـك ، ان الباب

العالي كان اعجز من ان يتخذ موقفاً حازماً بالسيطرة على الموقع المذكور طيلة القرن التاسع عشر ، وحتى بعد افتضاح النوايا البريطانية المبيتة العسكرية والأستعمارية · وهكذا دار جـدل عقيم بـين الأدارة العثمانية والممثلين الدبلوماسيين البريطانيين في استنبول وبغداد والبصرة لغاية احتلال القوات العسكرية البريطانية العراق (١٩١٤ – ١٩١٧) ، واستخدامهم للقاعـدة المذكورة كموطىء قدم عسكرية لقوات الأحتلال ، ونقطة ارتباط وادامة طيلة الفترة المذكورة ·

وعلى الرغم من اهمية هذه المسألة وخطورتها على أمن العراق ومستقبله، وتأثيرها على مسار الأحداث فيـه ، الا ان الدراسات والمؤلفات الأجنبيـة والعربيـة المكرسة في تاريخ البلد ، وتطورات الأحداث في ربوعه خلال القرن التاسع عشر ، والتي تيسر لي الأطلاع عليها ، لم تذكر شيئاً عنها من قريب او بعيد ، حتى ليخيل للقارىء انه امام مسألة هي اقرب للخيال منها الـى الحقيقة · ولكن يبدو ان هذه القاعدة كانت محاطة بستار كثيف من السرية التامة ، لدرجة انعدمت معها الأشارة اليها حتى في الوثائق البريطانية السرية التي سمح مؤخراً بنشرها ·

لذا فان هذا البحث اعتمد أساساً على الوثائق العثمانية السريـة غير المنشورة المحفوظة في ارشيف «الباب العالي» في استنبول بتركيا ، المعروف بأسم «المديرية العامة لأرشيف رئاسة الوزراء» · وتمثل هـذه الوثائـق المراسلات الدائرة بين الصدارة وولاة بغداد ومتصرف ايالة البصرة معشوق باشا حول المسألة المذكورة التي اثيرت عن طريق الصدفـة – فيما يبدو – اثناء قيام الصدر الأعظم العثماني في «الباب العالي» بالأستفسار من والـي بغداد عن اسباب تردد بعض السفن الحربية البريطانية على ميناء البصرة بين حين وآخر(١) ·

ويبدو للقارىء من خلال دراسة هذه الوثائق السريئـــة ان متسلمي البصرة وولاة بغداد كانوا يضمنون تقاريرهم ومذكراتهم المرفوعة الـــى الصدارة بهذا الخصوص معلومات مبتسرة وغير دقيقة ، بل ومخالفة للحقيقة احياناً ، فيما يتعلق بموجودات القاعـــدة المذكورة واستخداماتها ، تتسم بالتساهل والتراخي والتهوين من خطورتها،ومحاولة اضفاء الصفة التجارية عليها ، وتجاهل صفتها العسكرية فهي في نظرهم عبارة عن مستودع للألواح الخشبية المستخدمة في احواض السفن ، والسكراب ، والفحم ليس الا لذلك كانوا يطلقون على هذه القاعدة اسم «كراسته انبارس» ، اي «انبار الكراسته(٢)» ٠

وكان موقف الصدارة من هذا الموضوع يقترب من موقف المسؤولين المحليين فهو لم يكن حازماً وحاسماً ، بل اتصف بالاتكاليـــة واللامبالاة ٠ ويعود سبب هذه المواقف المتخاذلة لولاة الأمور في دوائر الدولة العثمانيـــة المحلية والمركزية ، وتضامنهم ـ احياناً ـ مع مطالب الانكليز ومصالحهم ، الى قناعاتهم الراسخة بتراكم التجربة ، بقوة تأثير السفارة البريطانيـــة في اسطنبول على صانعي القرار السياسي والأداري في «الباب العالي» ، ذلـك التأثير الذي اسقط السياسة العثمانية الداخلية والخارجية في دوامة لعبة توازن القوى الدولية الطامعة بممتلكات الرجل المريض ٠

بدأت العلاقات التجارية البريطانية مع البصرة في سنة ١٦٣٥ ، عندما ارسلت شركة الهند الشرقية احدى سفنها الى ذلك الميناء بحمولـة صغيرة ذات صفة تجريبية لسوق البصرة ٠ وبعد عشر سنوات من ذلك التاريـــخ نقلت الشركة المذكورة مركزها في بندر عباس الى البصرة ، بسبب تصاعد نشاط الهولنديين وملاحقتهم لتجارتها ٠ ولم يكن لشركة الهند تمثيل دائم في البصرة حتى سنة ١٧٢٣ ، حيث تم تاسيس (مقيمية) تابعة لأشـــراف

الوكالة الانكليزية في بندر عباس . وعند اغلاق الوكالة في بندر عباس سنة ١٧٦٣ ، ارتقت (مقيمة) البصرة الى درجة وكالة ، وعهد اليها الأشراف على تجارة الشركة بالخليج العربي ، وبعد سنة واحدة تحولت هذه الوكالة التجارية الى قنصلية تتمتع بالحقوق الدبلوماسية والأمتيازات الأجنبية(٣) .

ثم اخذت تجارة البصرة بالانكماش ، بسبب تصاعد نشاط اسطول كعب ، وتعرض المدينة لكارثة الطاعون سنة ١٧٧٣ ، والغزو الفارسي ١٧٧٥ — ١٧٧٩ ، فتعطلت الحركة التجارية ، واغلق الانكليز وكالتهم وغادروا البصرة ، ومالبثوا ان عادوا اليها بعد انسحاب قوات صادق خان، وفتحوا مركزهم بدرجة (مقيمية) . وكانت اهمية هذه (المقيمية) تنطلق من وظيفتها كقاعدة لنقل البريد البريطاني من الهند الى انكلترة وبالعكس ، واعتراض الرسائل الرسمية للفرنسيين والقاء القبض على وكلائهم ، اضافة لأشرافها على تنظيم التجارة البريطانية وتسهيلها في العراق . واقتصر التمثيل البريطاني في العراق حتى اواخر القرن الثامن عشر على البصرة ، ولكن منذ عام ١٧٨٣ ، اصبح للمقيم في البصرة وكيل اهلي في بغداد . وانتقلت المقيمية الى الكوت لمدة سنتين (١٧٩٣ — ١٧٩٥) : بسبب خلاف وقع بين المتسلم والمقيم صاموئيل مانيستي (١٧٨٤ — ١٨١٠)(٤) .

وعلى الرغم من الركود الذي اصاب التجارة البريطانية في الخليج العربي في العقدين الأخير من القرن الثامن عشر ، الا ان اهمية البصرة والخليج الستراتيجية بكونهما حلقة مهمة في مواصلات بريطانيا الى الهند ، وتأمينهما الطريق السريع والأكثر أمناً لنقل البريد من والى الهند ، جعلهما من المحاور الأساسية في السياسة البريطانية فيما وراء البحار ، لاسيما بعد اندلاع الحرب مع فرنسا عام ١٧٩٣ ، والحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) . لذا ابدت السلطات البريطانية في الهند اهتماماً متميزاً

بعلاقتها مع ولاية بغداد ومتسلمية (متصرفية) البصرة ، فعينت في عام ١٨٠٢ هارفورد جونز قنصلا لبريطانيا في بغداد وما حولها(٥) .

ومما ساعد على ، سرعة انتشار النفوذ البريطاني في العراق ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، شعور ولاة بغداد المماليك بحاجتهم الماسة الى دعم الأنكليز لهم في صراعهم مع الباب العالي من جهة ، ومع خصومهم المحليين ، وجيرانهم الفرس الطامعين بارض العراق من جهة اخرى . وهكذا ابدى الوالي علي باشا (١٨٠٢ – ١٨٠٧) ، على الرغم من خلافه مع هارفورد جونز الذي انتهى بمغادرة الأخير بغداد في ٦ شباط ١٨٠٦ ، صداقته للبريطانيين وتعهد للمقيم الجديد في بغداد ، جون هاين ، بانه «لن يضع اية عراقيل في وجه الرسائل الرسمية المرسلة عبر الولاية» ، ولن ينفذ فرمان الباب العالي القاضي بمصادرة ممتلكات البريطانيين في الولاية ، كما وعد متسلم البصرة في مارت ١٨٠٧ المقيم مانيستي بالمحافظة على مصالح الأنكليز حتى في حال نشوب الحرب ، بين الدولة العثمانية وبريطانيا(٦) . وكان والي بغداد سليمان باشا الصغير (١٨٠٧ – ١٨١٠) .

على علاقة ودية مع الأنكليز ، ففي الوقت الذي كانت فيه العلاقات متوترة بين الباب العالي والحكومة البريطانية تعهد سليمان بحماية المقيم البريطاني ببغداد ووكيله بالبصرة . كما قوي مركز الأنكليز ونفوذهم بالعراق في عهد الوالي عبدالله باشا (١٨١٠ – ١٨١٣) ، الذي كان من مرشحي المقيم البريطاني لأرتقاء منصب الولاية بعد وفاة سليمان باشا الكبير(٧) ، ففي بداية حكمه كافأ شركة الهند على دعمها له ، فسمح لها ببناء قاعدة «كوت الفرنجي»(٨) ، وفي سنة ١٨١٢ استبدل لقب «المقيم البريطاني في بغداد» بلقب «الممثل الدبلوماسي البريطاني في تركيا العربية» يدل على اتساع نفوذ بريطانيا في هذه الديار(٩) .

ومن الأدلة المهمة التي كشفت عنها الوثائق البريطانية السرية ، والتي تفضح بجلاء النوايا الأستعمارية المبكرة المبيتة نحو العراق ، ماورد في تقرير جون مالكولم[١٠] الموجه في ١٢ آب ١٨٠٧ الى سكرتير الحاكم البريطاني العام في الهند ادمنستون . ففي مقدمة تقريره اشار مالكولم الى توقعه قرب نشوب الحرب بين الدولتين العثمانية والبريطانية ، ولذلك أكد ان «التقرير الصائب يمكن في الحصول على موطىء قدم ثابت في بلاد بين النهرين ، من اجل منع اي هجوم لقوة اوربية على الهند من ذلك القطاع ... ان كلا من فارس والدولة العثمانية ، يمكن اعتبارهما قوى حاجزة للهند البريطانية ، ... وعليه ، فأن على انكلترة ان تسلك سياسة من شأنها ان تساعد وتدعم تلك الدولتين او أن تسعى الى خلق وتقوية دول اخرى وصولا الى النتيجة» . كما نبه الى أمكانية فصل ولاية بغداد عن الباب العالي ، وتأسيس دولة مستقلة تضمن الحكومة البريطانية سلامتها وذكر ان النقطة الستراتيجية في تلك المنطقة هي القرنة ، موضع التقاء نهر دجلة بالفرات التي يمكن تحويلها الى قاعدة بريطانية تتمركز بها قوة عسكرية دائمية[١١] .

وبعد دراسة هذا التقرير عينت حكومة الهند كلوديوس جيمس ريج قنصلا لها في بغداد (١٨٠٨ ــ ١٨٢٢) . وكان ريج يجيد بعض اللغات الشرقية ، كالعربية والتركية والفارسية ، وبعض اللغات الأوربية ، كما كان تلميذاً وفياً لجون مالكولم في افكاره واساليبه السياسية ونزعته الأستعمارية[١٢] ، وهكذا وبعد عامين من عمله في بغداد افلح في الحصول في عام ١٨١٠ على قطعة ارض ستراتيجية «موطىء قدم» ، تقع على الضفة اليمنى لشط العرب ، في منطقة «ماركيل»[١٣] التي تبعد بمسافة خمسة كيلومترات عن قلعة البصرة اتخذوها بمثابة قاعدة بحرية صغيرة لهم،

واطلقوا عليها اسم «كوت الفرنجي»[١٤] . وكانت هذه القاعـــدة تستخدم لرسو السفن البريطانية التجارية والحربية وتقديم الخدمات لها ، من مواد احتياطية وتجهيزات مدنية وعسكرية ووقود ومؤونة طريق وماشابه ذلك . كما احتوت على مخازن ومستودعات لتجميع البضائع التجارية والمواد الأخرى وتوزيعها داخل العراق وخارجه .

والثابت ان شركة الهند الشرقية البريطانية هي التي تملكت هـــذا الموقع بصفة شخصية ، وأسست عليه منشآت ومخازن ضخمة بصورة سرية ، حتى تتجنب اثارة قلق الادارة العثمانية المحلية وشبهاتها ، وفي غفلة من الأدارة المركزية في الباب العالي .

وقد جرى اكتشاف الباب العالي لهذه القاعدة البحرية عن طريـــق الصدفة ، وذلك عندما نقلت اليه مصادره الأستخبارية . قيام عدد مـــن السفن الحربية البريطانية بدخول مياه شط العرب والتردد على ميناء البصرة بين وقت وآخر ، بدون علم السلطات العثمانية او طلبها . ففـــي كتاب الصدارة الموجه الى والي بغداد نادر باشا (١٨٤٩ ــ ١٨٥٠) ذكر الصـــدر الأعظم انه استخبر بورود قطعة حربية بريطانية من نوع «بريف» الى البصرة، تحمل على ظهرها مئتي نفر من القوات الهندية ، مكثت هناك لمدة اربعـــة ايام ثم غادرت الى ميناء بوشهر الأيراني . وطلب منه اجـــراء التحقيقات الدقيقة للأجابة عن التساؤلات التالية : «هل نزل بعض الأشخاص من داخل السفينة المذكورة الى البر اثناء توقفها في ميناء البصرة ، وفي حال نزولهـــم هل سمع شيء منهم بخصوص مهمتهم ونواياهم ، وهل يوجد مايدل عـــلى مشاهدتهم في اماكن اخرى من الخليج ، والى اي مكان اتجهوا بعد ذلك؟» .

وبعد قيام نادر باشا باجراء التحقيقات السرية حول الموضوع اجاب الصدارة بمذكرته المؤرخة في ٢٤ شوال ١٢٦٥ هـ/١٢ ايلول ١٨٤٩م بان

الفرقاطة البريطانية «الفستون» قدمت الى البصرة من بوشهر ، منذ اربعة شهور من تاريخ تحرير المذكرة ، لأجل صيانتها في (انبار الكراسته) الموجود بجوار البصرة ، ولاستبدال المهمات القديمة . وبعد مكوثها هناك لمدة عشرين يوما أخذت المهمات والتجهيزات القديمة ، واتصلت بالباخرة البريطانية العاملة في نهر دجلة خلال رحلتها المعتادة من بغداد الى البصرة ثم عادت الى الهند . وأن بعض السفن الحربية العائدة لشركة الهند تتردد على خليج البصرة بمعدل رحلتين الى ثلاث رحلات سنويا ، وتقوم بزيارة ميناء البصرة كذلك . وان الغاية من ورود الفرقاطة «الفستون» هي استبدال المهمات القديمة المتراكمة في الأنبار المذكور بمهمات جديدة(١٥) .

وعند استعراض المعلومات التي تضمنتها هذه المذكرة في الصدارة ابدى الصدر الأعظم تعجبه من وجود «انبار الكراسته» ، واعتبره سابقة خطيرة تتطلب فتح تحقيق عاجل وحسم سريع ، فتقرر مكاتبة والي بغداد مجدداً لتقديم ايضاحاته بشأن عدة استفسارات وتساؤلات خطرت في ذهن الصدر الأعظم بخصوص المحل المسمى «انبار الكراسته» وهل هو مشغول من قبل شركة الهند عن طريق الأستئجار ام التمليك بالشراء ، وعن ماهية المهمات الموصوفة بالقديمة التي يحتويها ، والأسباب الحقيقية الكامنة وراء اتخاذ مثل هذا الانبار هناك ، ومنذ اي وقت بدأ الأنكليز باستخدام هذا الأنبار ، وهل كان تجوال السفن الحربية لشركة الهند في خليج البصرة بين آونة وأخرى عادة أتخذت منذ عهد قريب ، وما هو المعنى الذي يحمله هذا السلوك في تلك الأماكن ؟ وقد رفعت توصية الصدارة التي تتضمن هذه التساؤلات الى السلطان في الثاني من ذي الحجة ١٢٦٥هـ/١٩ تشرين الأول ١٨٤٩م للمصادقة عليها ، فصدرت المصادقة في الخامس منه(١٦) .

وهكذا ، وبعد مرور اربعين عاماً على تأسيس هذه القاعدة تنبه

المسؤولون في الباب العالي الى هـذه المسألة . وادركوا خطورتها بالنسبة للسيادة العثمانية على العراق ، حاضراً ومستقبلا ، فطلبوا من والي بغداد نادر باشا ومتصرف البصرة معشوق باشا موافاتهم بمعلومات مفصلة عن كيفية تسلل الأنكليز الى هذا الموقع ، وكيفية تصفية وجودهم فيه ٠ ودارت ، بناء على ذلك ، مراسلات عديدة استغرقت ٠٠ سنوات عديدة بين هذه الأطراف الثلاثة حول المسألة المذكورة وجدت من المفيد الكشف عنها واستعراضها حسب تسلسلها الزمني ، آملا تقديم صورة واضحة عن العقلية الأدارية العثمانية التي كانت تحكم العراق وتعبث بمقدراته ، وكيف فرطت بمصيره ومستقبله فيما بعد في مقدمة المذكرة الجوابية المؤرخة في ٢٩ ربيع الأول ١٢٦٦هـ/١٢ شباط ١٨٥٠ ، المرسلة الى الصدارة اشار والي بغداد نادر باشا الى مذكرته السابقة المتضمنة بعض المعلومات عن تجوال السفن الحربية البريطانية في خليج البصرة وترددها على «انبار الكراستنه» في البصرة ، والى تسلمه الأمر العالي «امرنامه» المتضمن اجراء التحقيقات السرية وتقديم الأيضاحات والأجابات الدقيقة عن التساؤلات المذكورة اعلاه٠

وبعد قيام نادر باشا بتحقيقات سرية واسعة اجاب الصدارة بأن الانبار المذكور عبارة عن موقع يطلق عليه الآن اسم «كوت الفرنجي» ، يبعد عن البصرة بمقدار مسافة ساعة ، تم تشييده قبل اربعين عاماً من تاريخ هذه المذكرة ، اي بحدود عام ١٨١٠ ، وانه في بداية تاسيسه كان عبارة عن محل صغير داخل بستان واسع تعود ملكيته الى وكيل المقيم البريطاني في البصرة ، ثم قام الوكيل المذكور ببيع البستان فقط على شيوخ المنتفك ، دون ان يشمل البيع موقع الانبار الذي بقي ملكاً له ٠ وبعد مرور مدة قصيرة من الزمن اتخذه الوكيل البريطاني منتجعاً له ولعائلته يقيم فيه في الأيام الشديدة الحرارة ، ولأجل توسيع رقعته ـ من جديد ـ بحجة اتخاذه

منتجعاً لراحة موظفي شركة الهند وعوائلهم المقيمين بالبصرة والوافدين عليها ، صار يشتري بين فترة واخرى قطعة من الأرض من مالكيها ــ مشايخ المنتفك ــ ويضمها اليه حتى تحول الى منتجع كبير وواسع جداً ٠

وزاد على ذلك قوله : «ان السفن القادمة من الهند والحملة بالأمتعة ومختلف انواع البضائع والسلع اخذت تصل اليه اليوم ، وفي ايام الصيف يخرج وكيل قنصل انكلترة المقيم بالبصرة وعائلته الى المحل المذكور للتنزه وللراحة ، وان كل شخص يستطيع دخوله والتجوال فيه ، ولايوجد بداخله اي شيء يتعلق بالمهمات الحربية ، وانه ارسل مكلفاً خاصاً للتحقق من هذا الأمر ، وان عادة تردد سفن شركة الهند على خليج البصرة بدأت منذ تشغيل بواخر «بيت لنچ» في نهر دجلة بين بغداد والبصرة ، وان تردد هذه السفن لايحمل لحد الآن اي معنى آخر ، اما المقصود بالمهمات العتيقة فهي الآلات والأدوات والأشياء الخاصة بالسفن والمتراكمة منذ سنوات عديدة في الأنبار المذكور»[١٧] ٠

وكان والي بغداد قد طلب من متصرف البصرة معشوق باشا التحقق من محتويات هذا الانبار ، ومدى صحة الاخبار المروية عن تردد السفن الحربية البريطانية عليه ٠ فاجابه المتصرف بان المحل المذكور يعود الى القنصلية البريطانية ، ونفى ان تكون بداخله اية مواد او تجهيزات ذات صفة عسكرية مخلة بالسيادة العثمانية ٠ كما ورد للمتصرف أمر من اسطنبول يتضمن توجيهات الصدارة اليه بعدم السماح بتكرار مثل هذا العمل الخطير والتجاوز السافر ، ومراقبة تحركات الأنكليز وتصرفاتهم ونواياهم بدقة ، والأخبار عن اي عمل من هذا القبيل حال حصوله مستقبلا٠

وفي سياق اجابته للصدارة ذكر معشوق باشا ان الانكليز شيدوا قبل اربعين عاماً من تاريخ تحرير مذكرته ، وفي عهد والي بغداد المتوفي[١٨] سمعه

الله باشا (كذا) انبارا يبعد مسافة نصف ساعة عن جانب مدينة البصـرة الأعلى ، واحاطوه بجدار سميك من مادة الـ «كربيج» ، واطلقوا عليه اسم «كوت الفرنجي» ، وهكذا اصبح محلا خاصاً بهم علاوة على مبنى «الوكالـة» الأنكليزية داخل المدينة .

وعلى الرغم من ان معشوق باشا لم يؤكد صحة ماكان يروى عن تحول «كوت الفرنجي» الى «جبه خانه»(١٩) ، اي الى مايشبه القاعدة العسكرية ، الا انه كشف عن ممارسة أخرى خطرة وغير مشروعة كان يقوم بهـا موظفو شركة الهند ، تتمثل بتهريب البضائع والسلع التجارية من والى العراق ، بوساطة الباخرة البريطانية المستخدمة في النقل النهري بين بغداد والبصرة، والسفن البحرية البريطانية التي تتردد على «كوت الفرنجي» باستمرار لجلب الفحم المستخدم كوقود للباخرة النهرية والسفن البحرية المذكورة ، ونقل البريد من البصرة الى بومباي وبالعكس . فقد ذكر الموما اليه ان (التكنات) التجارية البريطانية كانت ترد الى البصرة بين آونة واخرى ، وتقوم بتفريغ حمولتها من البضائع التجارية في «كوت الفرنجي» ، وتقوم الباخرة النهرية بنقل هذه البضائع من هناك الى بغداد وبالعكس ، وان اغلب هذه البضائع كانت السفن البريطانية تقوم باخراجها وتحميلها بصورة سرية ، وبدون علم سلطات الكمارك العثمانية ، فتعرضت موارد البـلاد الماليـــة الى التناقص ولحقت بها خسائر واضرار فادحة من جراء ذلك النشاط غير المشروع الذي مارسه الأنكليز في المنطقة . وأخيراً طلب معشوق باشا ان تبعث اليـــه الصدارة بتوجيهاتها بخصوص مايجب اتخاذه من تدابير واجراءات لمنـع عمليات التهريب ، ووعد من جانبه بالعمل على منع تكرار حدوث اية حال مشابهه لما تقدم ، وكذلك مراقبة تحركات السفن الأجنبية بكل دقة واهتمام، والأخبار عن ذلك حال وقوعه(٢٠) .

ناقشت الصدارة في ١٣ ذي القعدة ١٢٦٦ هـ/ ٢٠ ايلول ١٨٥٠م منشأ هذه المسألة وكيفية معالجتها في ضوء المعلومات التي تضمنتها مذكرة معشوق باشا الجوابية ، فوجدت ان خطورة المسألة لاتكمن فيما اذا كان الموقع المذكور يحتوي على مهمات حربية او يقتصر على تخزين المواد والأجهزة القديمة الخاصة بالسفن التجارية فحسب ، وانما تكمن في وجود هذا الموقع بالذات ولأي غرض من الأغراض باعتباره يشكل اختراقاً لأمن العراق وانتهاكاً للسيادة العثمانية . وكعادة الأدارة العاجزة القى وكلاء الصدارة اللوم على من سبقهم ، وحملوا ولاة بغداد المماليك مسؤولية ذلك ، فاعتبن ادارتهم بالتسيب والتشتت وعدم التقيد بالمصلحة العامة للدولة .

ويتضح عجز الأدارة العثمانية في طريقة معالجتها لهذه المسألة الخطيرة، والنتائج الأكثر خطورة التي ترتبت على هذه المعالجة . فهي لم تكن قادرة على اتخاذ قرار جريء وحاسم بغلق قاعدة «كوت الفرنجي» وازالتها من الوجود ، او السيطرة عليها والأستفادة منها لتقديم الخدمات والتسهيلات لأسطول البصرة المزمع تعزيزه وتقويته ، وانما توصلت الى قناعة مفادها عدم جدوى اتخاذ قرار برفعها في الحال ، فقررت اتخاذ التدابير والأجراءات التالية ، وأمرت متصرف البصرة بتنفيذها بكل دقة :

١ ـ منع الأنكليز من القيام بأي عمل يؤدي الى توسيع القاعدة وتحصينها ، ومراقبة ذلك بدقة ليلا ونهاراً .

٢ ـ مراقبة المواد والأشياء الداخلة للقاعدة والخارجة منها ، واخبار الصدارة في الحال اذا ما تضمنت امتعة وبضائع تجارية او تجهيزات حربية. والتشاور معه بخصوص مايجب اتخاذه من تدابير مشتركة لرفع العذر

كما طلبت من والي بغداد استدعاء القنصل البريطاني في بغداد الناجم عن عمليات التهريب ، والبحث عن طريقة مناسبة لشراء الانبار المذكور(٢١) .

تنفيذاً لتعليمات الصدارة التي وردت اعلاه ارسل متصرف البصرة معشوق باشا المدعو يونس افندي ، وهو احد ضباط هيئة الأركان الحربية المرافقين للمندوب العثماني في لجنة تحديد الحدود مع ايران درويش باشا ، الى موقع الانبار للأطلاع على هيئته ووضعيته ميدانيا(٢٢) . فقام يونس افندي بزيارة «كوت الفرنجي» في ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٧هـ/كانون الثاني ١٨٥١ م ، واطلع على اقسامها ومحتوياتها ، ورسم صورة مجسمة(٢٣) لها تكشف عن ضخامة بنائها وتحدد موقعها بدقة ، كما رسم لها خارطة تخطيطية(٢٤) ايضاً كشف فيها عن احتوائها على تجهيزات عسكرية ومدافع، مما يدل على ان هذا الموقع هو اقرب الى القاعدة البحرية العسكرية منه الى مجمع «انبار» للخشب والسكراب والمواد الأحتياطية ، كما يحاول الأنكليز تصويره في اذهان المسؤولين الأتراك في الباب العالي .. تمويهاً وخداعاً وتضليلا ، بل واستخفافاً بالعقل الأداري التركي .

وقد عزا الأنكليز وجود المدافع في «كوت الفرنجي» الى أنها جلبت من الهند في فترات سابقة لاجل بيعها ، وعند عدم حصول البيع حفظت هناك . اما التجهيزات العسكرية «جبخانه» فأن وجود كميات كبيرة منها مخزونة في الانبار ، يعود لحساب باخرة «بيت لنج» العاملة في نهر دجلة(٢٥) .

اورد معشوق باشا في تقريره المرسل الى الصدارة في ٧ جمادى الاولى ١٢٦٧هـ/١٠ مارت ١٨٥١م معلومات مفصلة نسبياً عن كيفية تملك الأنكليز موقع «كوت الفرنجي» ، فذكر ان الذي قام ببناء الأنبار المذكور هو وكيل القنصل البريطاني بالبصرة مستر تيلر ، الذي اصبح فيما بعد قنصل بريطانيا في بغداد ، واثناء عودته الى انكلترة بعد انتهاء مهام عمله في بغداد، وخلال مروره بالبصرة باع مسكنه داخل المدينة وبستان النخيل العائد له والممتد بجوارها الى خلفه في (وكالة) البصرة المدعو بارسنج . اما الانبار

فقد باعه بثمن غير معروف على احد التجار الأنكليز المقيمين ببغداد ، ويدعى مستر لنج ، وذلك لعدم ظهور راغب بشرائه لعدم فائدتـــــه للتمليك الشخصي ــ على حد رواية معشوق باشا ٠

واضاف ، ان عائلة لنج تتألف من سبعة او ثمانية(٢٦) اشقاء ، يعمل اكبرهم آمراً بالبحرية البريطانية في لندن ، ويعمل اصغرهلا قائداً للباخرة البريطانية العاملة في نهر دجلة ، وقد تزوج من كريمة تيلر ، ثم انتقــل الى بمباي ٠ واستمر اثنان من اخوته يعملان بالتجارة في بغداد ، ويديران شركة «بيت لنج» (٢٧) ٠ وانتقلت ملكية الانبار اليهما ٠ ومن الجدير بالذكر هنا الأشارة الى ان الساسة البريطانيين انتابتهم مشاعر مفعمـة بالخوف والقلق من مخاطر تزايد النفوذ الروسي في ايران ، وأحتمال أمتداده الـى الخليج العربي والعراق ، مما يهدد خطوط مواصلات بريطانيا الىمستعمراتها بالهنـــد ، وما يرتبط بها من مصالح حيويـة ستراتيجية واقتصاديـــة ٠ لذا سارعت شركة الهند الشرقية الى دراسة وتنفيذ مشروع خطير في أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، يتمثل بايجاد طريـــق للمواصلات سريع وقليل التكاليف وأكثر أمناً عبر نهر الفرات وواديه ٠ فعهدت الـى الضابـــط فرانسيس راودن جسني

القيام باعمال المسح والتحريات والدراسات الميدانية عن هذا الطريـــــق (١٨٣٠ ــ ١٨٣٩) وعن المنطقة التي يمر بها من جوانبها كافة ٠ واستخدم جسني في رحلته الاستكشافية باخرتين ، غرقت احداهما قرب (عنه) بسبب عاصفة شديدة (١٨٣٥) ، وكانت تسمى «دجلة» ، واستمرت الثانية فـــي مهمتها ، وكانت تسمى «فرات» حتى نهاية الرحلة في عام ١٨٣٧ ، وتسلم قيادتها احد مساعديه المدعو هنري بلوس لنج

الذي واصل عمليات المسح والتحري في نهـــر دجلـــة وشـــط العـرب (١٨٣٧ ــ ١٨٣٩) ٠

وقام هنري لنج مع اخيه توماس كارلنج وبعض(٢٨) افراد عائلتهما في عام ١٨٤٠ بتأسيس بيت تجاري في بغداد عرف ب «بيت لنج» ، اتسع نشاطه التجاري والملاحي خلال فترة قصيرة ، فتم تأسيس شركة عرفت بأسم «شركة لنج للملاحة البخارية في دجلة والفرات» امتلكت هذه الشركة الباخرة «فرات» وباخرة اخرى جديدة جلبت من الهند تدعى «نيتوكريس» ، كانت تشاهد راسية باستمرار امـــام القنصليـــة البريطانية في بغداد ، ثم استبدلت بباخرة أخرى اسمها «كوميت» . وكانت اعمال المسح ورسم الخرائط وجمع المعلومات الأستخبارية خلال هذه الفترة نشطة ومتواصلة ، باشراف لنج وفيلكس جونـــز وسيلبـــي وكوليذخودد وبيوشر . ولايخفى ان هذه الأعمال كانت تمهيداً لاحتلال العراق عسكرياً في الوقت الذي تراه بريطانيا(٢٩) مناسباً .

نعود الآن الى مواصلة استعراض ماورد في تقرير معشوق باشا مـــن معلومات بخصوص كيفية انتقال ملكية «كوت الفرنجي» الى الأنكليز ، حيث اشار الى مرور احد الأخوين بالبصرة في طريقه الى ميناء بوشهر ، وبعـــد قضاء مصالحه هناك عاد الى البصرة ، فأرسل اليه احد موظفيـــه للترحيب به واظهار الود نحوه . وفي اليوم التالي اصطحب لنج الوكيل بارسمنج في زيارة مجاملة للمتصرف ، ثم عاد الى بغداد . وبعد يومين ارســـل المتصرف مندوباً خاصاً عنه الى وكيل القنصل ، وخلال مذكرة مختلف المصالح معـــه اشار المندوب الى نية المتصرف في بناء انبار مناسب لحفظ ادوات ومتعلقات مختلف السفن العثمانية والباخرتين المقرر ارسالها الى البصرة ، وغـــرف وقاعات لآمري وضباط القوات البحرية ومراتبها ، ومبنى للحجز الصحي «قرنتنه خانه» . وبمقتضى ميله ومحبته لهم فانه راغـــب في شـــراء الانبار المذكور في حالة اقدام لنج على بيعه ـ كما كان ينوي سابقاً ـ بسعر مناسب

مقارنة بعملية بناء انبار مماثل من قبل المتصرفية وحصول موافقة الصدارة على ذلك · فافاد بارسنج انه سينقل رغبة المتصرف الى لنج ، وسوف يوافقه باجابته حال ورودها ·

واستناداً الى رواية بارسنج فان ملكية الانبار لاتعود الى الأخوين الموجودين في بغداد فقط ، وانما تعود اكبر الحصص الى اخيهم الأكبر المقيم بلندن مما يجعل عملية البيع لاتتم الا بمفاتحته والحصول على موافقة ، ودعى انه طلب منهما مراسلة اخيهم حول الموضوع ·

وخلال تبادل اطراف الحديث بين الجانبين استفسر بارسنج من المتصرف عن امكانية السماح له ببناء انبار جديد لخزن الأدوات والفحم المستخدم في تشغيل الباخرة العاملة حينذاك في نهر دجلة حالة انتقل ملكية الانبار موضوع البحث للادارة العثمانية · فأجابه المتصرف بعدم وجود حاجة ماسة لذلك ، نظراً لسعة الانبار بهيئته الحالية ، فان بامكانهم ابقاء الفحم والأدوات باماكنها الخاصة بها مقابل بدل ايجار زهيد ، وبذلك يتخلصون من نفقات بناء انبار جديد ، وتنتفي الحاجة للحراس ، اذ في حال بيعه بثمن مناسب ستقوم البحرية العثمانية التي ستشغله بالمحافظة على موجوداتهم فيه · وقد تظاهر بارسنج بالأقتناع بما طرحه المتصرف ·

يبدو ان وكيل القنصل الأنكليزي بارسنج اراد ان يكتشف بدبلوماسية حاذقة موقف الأدارة العثمانية من هذه المسألة ، فكان جواب المتصرف يفتقر الى النباهة والذكاء ·

وفي ختام تقريره اشار معشوق باشا الى صلاحية «انبار الكراسته» لتمركز قوات البصرة البحرية ، وحفظ معداتها وتجهيزاتها ، واتخاذه مركزاً للمحجر الصحي عند اقتضاء الضرورة ، زيادة على ذلك فأن تحريره من السيطرة الأجنبية ، وانزال علم انكلترة ، ورفع العلم العثماني بمكانه

ستكون له آثاره الأيجابية بالنسبة للسيادة العثمانية في هذه الأيلة المؤلفة من عدة تجمعات واتحادات عشائرية(٣٠) عربية · وبناء على وجود مالكي الانبار في بغداد (عائلة لنج) طلب معشوق باشا تكليف والي بغداد وجيهي باشا ، في حالة وصوله وتسنمه مهام منصبه الجديد في بغداد ، أو تكليف مدير مال الولاية «دفتر دار» بمتابعة مسألة شراء الأنبار المذكــور مــن مالكيــه(٣١) ·

وبعد مناقشة هذا التقرير في الصدارة في ٨ رجب ١٢٦٧هـ/٩ مايس ١٨٥١م تقرر استحسان الطريقة التي اتبعها المتصرف في معالجة هــذه المسالة ! وطلبت منه مواصلة جهوده بحكمة وروية لانتزاع الانبار من ايادي الأنكليز ، كما طلبت من والي بغداد وجيهي باشا العمل بنفس الأتجاه(٣٢)· فصدرت الاوامر اليهما بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٧هـ/١٨ مايس ١٨٥١م · (٣٣)

وفي مذكرة اخرى تحمل تاريخ التقرير السابق نفسه اشار معشوق باشا الى قيام المستر تيلر وكيل القنصل البريطاني بالبصــرة ببناء الانبار المسمى «كوت الفرنجي» لأجل خزن ماتحتاجه السفن الأنكليزية من مهمات ومواد احتياطية اثناء وصولها الى البصرة ، وانتقال ملكيته الى عائلة لنج ، التي ذكر انها مكونة من اربعة اشقاء في حين حدد عددهم بـ ٧ ــ ٨ اشقاء في التقرير المشار اليه اعلاه ، واتصالاته مع الوكيل بارسنج بشأن شــراء الانبار المذكور · والجديد في هذه المذكرة هو اشارته الى انتشار الكوليرا في العام (١٨٥١) ووفاة بارسنغ من جراء ذلك وعودة لنج الى بغداد ، ومن اجل متابعة هذا الموضوع في بغداد ارسل معشوق باشا نسخة من امــر الصدارة المذكور اعلاه الى الوالي وجيهي باشا مع مذكرة توضيحية عــن تطورات الموضوع(٣٤) ·

اما الصدارة فانها ناقشت هذه المسالة مجدداً بتاريخ ١٩ شــوال

١٢٦٧هـ/١٧ آب ١٨٥١م في ضوء مذكرة معشوق باشا الأخيرة ، وقررت اشعار والي بغداد والتأكيد عليه بضرورة العمل بكل جديسة لشراء الانبار بالوسائل الودية(٣٥) ٠

وفي الوقت الذي كان فيه المسؤولون الأتراك في البصرة وبغداد واسطنبول يتبادلون الكتب الرسمية حول كيفية تملك الانكليز موقع «كوت الفرنجي» ، والتدابير التي ينبغي اتخاذها لتسوية هذه المسألة كان بارسنج جاداً ومصمماً على توسيع وتحصين المنشآت الموجودة في الموقع ، بناء على توجيهات مركزية من حكومته في الهند ، فكان مثابراً على جلب الآلات والمواد اللازمة ، وجمعها ، وحفر الأسس المطلوبة للبناء بغاية السرية٠ فتم الأنتهاء من تشيد هذه المنشآت في اواخر مايس ١٨٥١ ٠ وادعى المتصرف معشوق باشا انه علم بهذه التطورات فيما بعد ، فأرسل مندوباً عنه الى الموقع للكشف والمعاينة الميدانية ، فاتضح لـه ان الأسس المشيدة حديثا موضوعة لمنشآت اوسع وأمتن من الأنبار القديم ٠

نظراً لما تشكله هذه التطورات من مخاطر ومضار جسيمة على مصلحة الدولة العثمانية زعم المتصرف المذكور في تقريره المرسل الى الصدارة في ٢٩ شعبان ١٢٦٧هـ/٢٩ حزيران ١٨٥١م انه قام في الحال بتعطيل اعمال البناء في الموقع موضوع البحث ، واستدعى الوكيل بارسنج وافهمه ان تشييد مثل هذه المنشآت يستلزم الحصول على موافقة مسبقة للشروع بالعمل ، ويقتضي بدءاً اخباره بالأمر ، كما ان الحصول على موافقة المراجع العليا لبناء مثل هذا السور المرتفع والسميك ، والمنشآت الضخمة الأخرى يتطلب تقديم مبررات مقنعة بما يعزز العلاقات الودية بينهما ، ويكونه بادر الى القيام بهذا العمل من طرف واحد وبدون حصول موافقة المراجع العثمانية، ولما يترتب على ذلك من مسؤولية ، فانه كان لزاماً عليه الأقدام على منع

العمال من مواصلة اعمال البناء ٠

اما وكيل القنصل فانه أصبح في وضع محرج للغاية ـ على حد رواية المتصرف ـ فتفوه ببعض كلمات المجاملة ، وبدأ في الظاهر وكأنه أفحم او اسـكت ٠

واضاف معشوق باشا ، استناداً الى استخباراتـه ، ان بارسنج كتب تقريراً مفصلا بالموضوع الى القنصل البريطاني في بغداد ، ليطلـع بدوره سفيره في اسطنبول ٠ ولكن حصول وفـاة بارسنج بسبب اصابتـه بوباء الكوليرا جعلت متصرف البصرة يعتقد ان المنازعة بين الطرفين قد انتهت الى هذا الحد(٣٦) ٠

وفي الباب العالي وجد المسؤولون ان تطور المسألة للحد المبين اعلاه سوف يلحق الضرر بمصلحة الدولة ، لذا تقرر التأكيد بشدة بان لايسمح متصرف البصرة لكائن من كان ان يقوم بمثل هذا العمل في المستقبل !وكان ذلك بتاريخ الاول من ذي الحجة ١٢٦٧هـ/٢٧ تشرين الثاني ١٨٥١م(٣٧)٠

والى هنا اسدل الستار على هذه المسألة ولم نعثر على وثيقة أخـــرى تتحدث او تشير اليها من قريب او بعيد ، مما يدل على ان الدولة العثمانية كانت غير قادرة على حسم الموضوع لصالحها ، وذلك لحاجتها ـ فيما يبدو لمساندة بريطانيا في نزاعها مع ايران ، حيث كانت تدور بينهما مباحثات ومفاوضات طويلة ومضنية من خلال لجنة تحديد الحدود الدولية ، بمشاركة انكلترة وروسيا ، من اجل ترسيم الحدود ووضع حد النزاع بين الدولتين٠

---

(١) ارشيف «الباب العالي» في اسطنبول ـ تركيا (المديرية العامة لارشيف رئاسة الوزراء) : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٢٨٠٤ ، لف ١٠

(٢) انبار : واحدها «نبر» ، ويجمع على «انابير» جمع الجمع ٠ من معانيه الواردة في القواميس والمعجمات العربيـــة : اكداس الطعام ، بيت التاجر الذي ينعند فيه متاعه ، مواضع معروفة بين الريف والبر ٠

ينظر : ابن منظور : لسان العرب (بيروت ، دار صادر) ـ نبر ـ ١٩٠/٥ . محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس ، (بيروت ، ١٩٦٦) ـ نبر ـ ٥٥٣/٣ وفي القواميس التركية : المحل المخصوص لوضع الذخيرة وحفظها وما شابه ، مخزن او مغازة او محل مخصوص لوضع الامتعة وحفظها وماشابه ، المكان المخصص لوضع حمولة السفن ، الطوابق الحاوية على المدافع في السفن الحربية . ينظر : شمس الدين سامي : قاموس تركي ، (استانبول ، ١٣١٧ هـ) ، ص٥٦ ، ١٧١ . كراستنه ، او كرستنه : كلمة فارسية مستخدمة في اللغة التركية تعني: انواع الأخشاب المستعملة في البناء ، الواح واعمدة الخشب وماشابه، المواد المستعملة في صناعة انواع المعمولات . ينظر شمس الدين سامي المصدر السابق ، ص١١٥٤ .

(٣) جون غوردون لوريمر : دليل الخليج ، القسم التاريخي ، (ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر جـ١ ١٩٦٧) د.زكي صالح : بريطانيا حتى عام ١٩١٤ ، (بغداد ، ١٩٦٨) ، ص٧٩ ـ ٨٢ . د.صالح محمد العابد : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ ـ ١٨١٠ (بغداد ، ١٩٧٩) ، ص ٤٥ ـ ٤٧ . د. ابراهيم شريف : الشرق الأوسط (دراسة لأتجاهات سياسية الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق) ،(بغداد ، ١٩٦٥) ، ص٥٧ .

(٤) د.صالح العابد : المصدر السابق ، ص٥٠ ـ ٥٥ .

(٥) د.زكي صالح : المصدر السابق ، ص٨١ .

(٦) د.صالح العابد : المصدر السابق ، ص٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٧) ستيفن هيمسلي لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط (بغداد ، ١٩٦٢) ، ص٢٢٧ . د.زكي صالح : المصدر السابق ، ص١٢٨ ـ ١٣١ .

(٨) ارشيف الباب العالي في استنبول :
ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٧٢٧ ، لف ٢ .

(٩) د.زكي صالح : المصدر السابق ، ص١٣٠ ـ ١٣١ .

(١٠) جون مالكولم : سياسي انكليزي من اتباع مدرسة الهند السياسية الاستعمارية ، كان يشغل حينذاك منصب المقيم البرلماني في مقاطعة ميسور بالهند ، يعد من افضل الخبراء والمستشاري في شؤون الخليج العربي ، ومن افضل العاملين على ترسيخ نفوذ ومصالح بريطانيا في المنطقة المذكورة . ينظر : د. عبدالعزيز سليمان نوار: داود باشا والي بغداد ، (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ص١٩٥ . حاشية (١) . د. صالح العابد : المصدر السابق ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(١١) د٠ صالح : المصدر السابق ، ص٢٢٦ ٠

(١٢) كلوديوس جيمس ريج : رحلة ريج في العراق (١٨٢٠) ، ترجمة بهاء الدين (بغداد ، ١٩٥١) ، ص٣٦ ٠ د٠ عبدالعزيز نوار : المصدر السابق ، ص١٩٨ ـ ٢٠١ ٠ لونكريك : المصدر السابق ، ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ ٠

(١٠) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٣٢٧ ، لف٢، خارطة «كوت الفرنجي» ، رسم يونس افندي بتاريخ ٢٨ ربيع الاول سنة ١٢٦٧ هـ/٣١ كانون الثاني م ٠

(١٤) «كوت» كلمة تطلق على المكان الواقع على شاطيء نهر او ساحل بحر، ويكون هذا المكان صالحا لرسو السفن ٠ وقد ترددت هذه الكلمة عدة مرات في جنوب العراق ومنطقة الخليج العربي ، ومثال ذلك : كوت الهوامش ، كوت الشيخ ، كوت الامارة ٠ اما «الفرنجي» فهي تعني الانكليز او الاوربيين ٠

(١٥) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، رقم ٢٨٠٤ ، لف١ ، (من والي بغداد عبدالكريم نادر باشا الى الصدارة ، ٢٠ شوال ١٢٦٥ هـ/١٢ ايلول ١٨٤٩ م) ٠

(١٦) المصدر السابق : رقم الوثيقة ٢٨٠٤ ، لف١ (مذكرة الصدارة الى السلطان ، ٢ ذي الحجه ١٢٦٥هـ/١٩ تشرين الاول ١٨٤٩م) ٠
١٢ شباط ١٨٥٠ م) ٠

(١٧) المصدر السابق : رقم الوثيقة ٢٠٦٨ ، لف١ (من والي بغداد عبدالكريم نادر باشا الى الصدارة ، ٢٩ ربيع الأول ١٢٦٦هـ/

(١٨) يقصد ـ علي مايبدو ـ عبدالله باشا (١٨١٠ ـ ١٨١٢) ، وهو من الولاة المماليك الذين حكموا العراق قرابة القرن من الزمان (١٧٤٩ ـ ١٨٣١) ٠

(١٩) «جبه خانه» او «جبخانه» مستودع لحفظ البارود وجميع مستلزمات الاسلحة النارية ، والألواح الفولاذية المستخدمة في تغليف السفن الحربية لمقاومة تأثير القنابل الساقطة عليها ٠ ينظر : شمس الدين سامي : المصدر السابق ، ص٤٦٩ ، ٦٨٥ ٠

(٢٠) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٣٥٤ ، لف١، (من متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ١٥ ربيع الأول ١٢٦٦ هـ/٢٩ كانون الثاني ١٨٥٠م) ٠

(٢١) المصدر السابق : رقم الوثيقة ٣٣٥٤ ، لف٢ (مذكرة الصدارة الى السلطان ، في ١٣ ذي القعدة ١٢٦٦ هـ/٢٠ ايلول ١٨٥٠م ٠ ومصادقة السلطان ١٥ ذي القعدة ١٢٦٦هـ/٢٢ ايلول ١٨٥٠م) ٠

(٢٢) المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٧٢٧ ، لف١ (من متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ٧ جمادى الأولى ١٢٦٧هـ/١٠ مارت ١٨٥١م) ٠
(٢٣) المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٧٢٧ ، لف٣ (صورة تخطيطية مجسمة لكوت الفرنجي رسمها يونس افندي في ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٧هـ/٣١ كانون الثاني ١٨٥١م) ٠
(٢٤) المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٧٢٧ ، لف٢ ، (خارطة تخطيطية لموقع كوت الفرنجي رسمها يونس افندي في ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٧هـ/٣١ كانون الثاني ١٨٥١م) ٠
(٢٥) المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٧٢٧ ، لف١ ٠
(٢٦) ذكر معشوق في مذكرة سابقة ان عدد عائلة لنج اربعة اشقاء ٠
(٢٧) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٧٢٧ ، لف١ ٠
(٢٨) وهما اخواه الثالث المدعو (ستيفن فنس لنج) والرابع المقيم بلندن ٠ يذكر لونكريك ان احد اخوة لنج فقد اثناء غرق الباخرة «دجلة» في نهر الفرات ، وتوفي آخر لأصابته بالمرض ٠ اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص٢٩٨ ، حاشية (٢) ٠
(٢٩) لونكريك : المصدر السابق ، ص٢٩٦ ـ ٢٩٨ ٠ د٠ زكي صالح : المصدر السابق ، ص١٥١ ـ ١٦١ ٠ مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، (المطبعة الفنية ، ١٩٦٦) ص٤٣ ـ ٤٨ ٠ د٠عبدالعزيز سليمان نوار : المصالح البريطانية في انهار العراق ١٦٠٠ ـ ١٩١٤ ، (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص٣٧ وما بعدها ٠ داود باشا والي بغداد ، ص١٩١ ـ ٢١٩ ٠ د٠ ابراهيم شريف : الشرق الأوسط ، ص٣٥ ومابعدها ٠ ، ص٥٨ ومابعدها ٠
(٣٠) من اهم هذه الأتحادات هي عشائر المنتفك (او المنتفق او المنتفج) وكعب وبني لام وربيعة ٠ تسكن عشائر المنتفك في محافظة ذي قار في منطقة كانت تسمى قديما «البطائح» ، كانت مغمورة بالمياه ومليئة بالبردي والقصب ، وكانت الادارة العثمانية عاجزة عن السيطرة على هذه الديار ، بل كان شيوخ المنتفك يؤثرون في عزل ولاة البصرة وبغداد وتنصيبهم ـ احيانا ـ لاسيما في فترة المماليك التي امتدت فيها سيطرتهم على كافة الاراضي الزراعية في منطقة البصرة ٠ وتتالف المنتفك من اتحاد عشائر بني مالك والأجود وبني سعيد بزعامة اسرة آل شبيب ٠ لمزيد من التفصيلات ينظر : لونكريك : المصدر السابق، ص٧٨ ، ١٩٦ ، ٢٩٢ ٠ د٠ عبدالجليل الطاهر : العشائر العراقية ،

(بغداد ، ١٩٧٢) ، ص٣٣ ـ ٣٩ ، ٦٠ ومابعدها • عباس العزاوي : عشائر العراق ، (بغداد ، ١٩٥٦) ، ج٤ ص٤ـ ١٦ •
د• عبدالعزيز نور : داود باشا ، ص٩٢ ـ ١١٢ •

(٣١) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، وثيقة رقم ٣٧٢٧ لف١ •

(٣٢) المصدر السابق : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٧٢٧ لف٣ ؛ (مذكرة الصدارة الى السلطان في ٨ رجب ١٢٦٧ هـ/٩ مايس ١٨٥١م، ومصادقة السلطان في ٩ رجب ١٢٦٧هـ/١٠ مايس ١٨٥١م) •

(٣٣) المصدر السابق : ارادة/داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٣٩٩ (عسكرية لف٢) مذكرة متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ٢٩ شعبان ١٢٦٧هـ/٢٩ حزيران ١٨٥١م) •

(٣٤) نفس الوثيقة السابقة •

لف٣) ، مذكرة الصدارة الى السلطان في ١٩ شوال ١٢٦٧هـ/١٧ آب

(٣٥) الأرشيف نفسه : ارادة/داخلية ، وثيقة رقم ١٤٣٩٩ (عسكرية ١٨٥١م ، ومصادقة السلطان في ٢٠ شوال ١٢٦٧هـ/١٨ آب١٨٥١م) •

(٣٦) المصدر السابق : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٩١٣ ، لف١ (من متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ٢٩ شعبان ١٢٦٧ هـ/٢٩ حزيران ١٨٥١م) •

(٣٧) المصدر السابق : رقم الوثيقة ٣٩١٣ ، لف٢ (مذكرة الصدارة الى السلطان في ٢٩ ذي القعدة ١٢٦٧هـ/٢٥ تشرين الثاني ١٨٥١م ، ومصادقة السلطان عليها في غرة ذي الحجة ١٢٦٧هـ/٢٧ تشرين الثاني ١٨٥١م) •

تقرير متصرف ايالة البصرة معشوق باشا الى الصدارة

عطوفتلو افندم حضرتلری

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

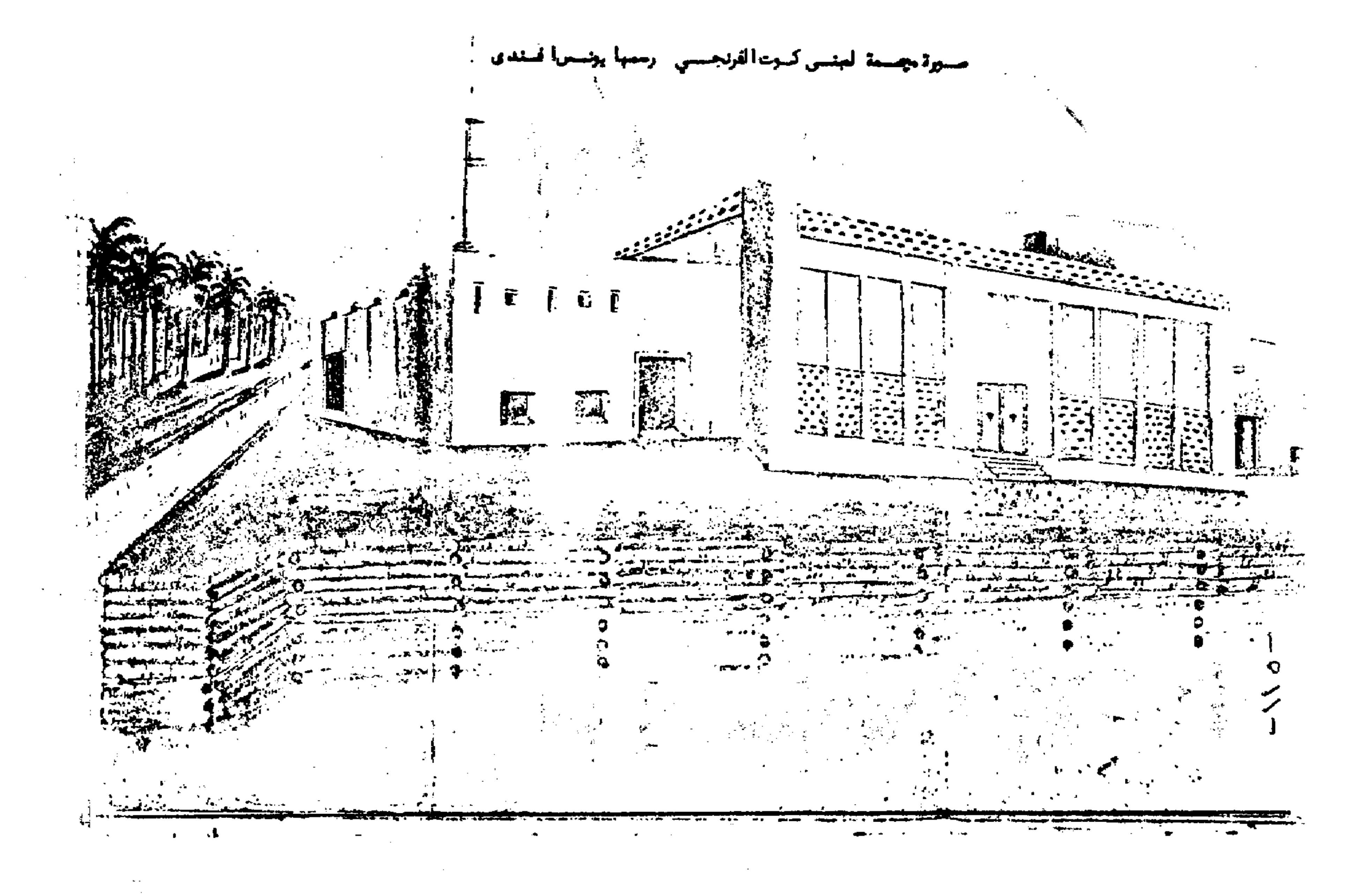
<u>تقرير والي بغداد نادرباشا الى الصدارة</u>

[illegible]

(١٩)

خارطة كـوت الفرنجي

صورة مجسمة لمبنى كوت الفرنجي رسمها يونس افندي



المصادر الارشيفية عن تاريخ الصلات الروسية العربية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

ترجمة : عن الروسية د. نوري السامرائي[1]

تم العثور مؤخراً في الارشيف التاريخي المركزي الرسمي بمدينة لينينغراد وثائق ظلت مجهولة حتى الآن تتعلق بتاريخ العلاقات الروسية بالاقطار العربية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . تتألف هذه الوثائق الجديدة من خمس وعشرين مجموعة في مائة وعشرين ملفاً تضم حوالي ستة آلاف وثيقة باللغات الروسية والانكليزية والفرنسية . ويمكن تقسيم هذه الوثائق كما يلي :

١ ـ القسم العام ويضم الوثائق من رقم ١ الى ١٠ .

٢ ـ قسم الجزائر ويضم الوثائق من رقم ١١ الى ١٢ .

٣ ـ قسم مصر ويضم الوثائق من رقم ١٣ الى ٦٦ .

١ ـ تم اكتشاف هذه الوثائق من قبل باحثي ارشيف لينينغراد في سنة ١٩٥٧ وتم تصنيفها الى هذه الابواب .

٢ ـ يوجد في القسم العام من وثائق ارشيف لينغراد بعض الوثائق التي لا علاقة لها بأي بلد عربي بصورة مستقلة . ولكنها تحتوي على اخبار العلاقات العامة بين هذه الاقطار من جهة وروسيا من جهة أخرى . فهناك وثائق حول تدريس اللغة العربية في جامعة قازان ١٨٣٣ ـ ١٨٣٦ ، ١٨٤٥ .

---

(١) أصل المقال منشور في «نشرة معهد شعوب اسيا التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية» ، العدد ٥٨ (المجموعة العربية) ، موسكو ، ١٩٦٢.

٤ ـ قسم العراق ويضم الوثائق من رقم ٦٧ الى ٦٨

٥ ـ قسم لبنان ويضم الوثائق من رقم ٦٩ الى ٧١

٦ ـ قسم مراكش ويضم الوثائق من رقم ٧٢ الى ٧٤

٧ ـ قسم فلسطين ويضم الوثائق من رقم ٧٥ الى ٨٠

٨ ـ قسم سوريا ويضم الوثائق من رقم ٨١ الى ١٢٠

وتقع الوثائق المتعلقة بعلاقات روسيا بالاقطار العربية في المشرق والمغرب في المجموعة (٢٠) من ملف التجارة والصناعة والمجموعة (٢٢) من ملف الديوان المركزي لوزارة المالية والمجموعة (٢٣) وزارة الصناعة والتجارة • والمجموعة (٩٥) ـ تقارير التجارة البحرية وتجارة الموانيء والمجموعة (١٠٧) ـ الشركات الروسية للملاحة والتجارة والمجموعة (٢٠) ـ تقارير جمعية مهندسي الطرق والمجموعة (٣٧٩) ـ دائرة التسليف في وزارة الممتلكات الحكومية والمجموعة (٤٧٢) ـ رسائل ديوان وزارة القصر الامبراطوري ، والمجموعة (٥٦٠) ـ الرسائل العامة لوزارة المالية والمجموعة (٦٧٨) ـ ملف مولجانوف ـ الاسكندر ايفا نوفج ممثل ادارة الشركة الروسية للملاحة والتجارة •

والمجموعة (٧٣٣) ـ قسم التعليم العام ، والمجموعة (٧٨٩) ـ الفنون والمجموعة (٧٩٦) ـ ديوان الكنائس والمجموعة (٧٩٧) ـ ديوان رابطة اتحاد الكنائس والمجموعة (٨٢١) ـ قسم شؤون رجال الدين الأجانب والمجموعة (٨٣٢) ـ دائرة شؤون مطرانية موسكو والمجموعة (٨٠٤) مخطوطات الكنائس والمجموعة (١١٤٩) ـ المجلس القانوني الحكومي والمجموعة (١١٥٢) ـ المجلس الأقتصادي الحكومي ومجموعة (١١٥٣) ـ المجلس

---

(٣) ان الرجوع الى هذه الوثائق يمكن أن يتم حسب هذه التقسيمات كما هي عليه الآن في الارشيف التاريخي في مدينة لينينغراد •

الحكومي للصناعة والتجارة والمجموعة (١١٥٨) ـ هيئة الأستشارات المالية الحكومية والمجموعة (١٢٦٣) اللجان الوزارية والمجموعة (١٢٧٦) ـ مجلس الوزراء والمجموعة (١٢٧٨) ـ مجلس الدوما والمجموعة (١٤٠٥) ـ وزارة العدل ٠

ويمكن تقسيم المجموعات المذكورة الى ثلاثة اقسام ٠

١ ـ العلاقات الأقتصادية والتجارية بين روسيا وأقطار المشرق العربي٠

٢ ـ العلاقات السياسية بين روسيا والاقطار العربية في المشرق والمغرب ٠

٣ ـ العلاقات الثقافية والعلمية بين روسيا والاقطار العربية في المشرق ٠

ومن خلال نظرة سريعة على مواد القسم الاول تتضح سعة العلاقات الأقتصادية بين روسيا ومصر ٠ فحسبما تشير وثائق مجموعة وزارة المالية ، فان البواخر التي كانت تحمل البضائع المصرية بدأت تصل موانىء بحر البلطيق منذ العام ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦[٤] ٠ كما توجد في هذا الصنف من تقارير وزارة المالية لسنة ١٨٣١ في حلف التجارة الخارجية حول تخفيض الضرائب على البضاعة التي يستوردها التجار الروس من مصر الى موانىء بحر البلطيق يقترح فيها أن يكون لها تخفيض خاص[٥] ٠ وتبين الوثائق كيف أن الحكومة الروسية حاولت اقامة علاقات تجارية مباشرة مع مصر عبر موانىء البحر الاسود دون توسط طرف ثالث ٠

كما تشير تقارير وزارة المالية التي تعود الى الاعوام ١٨٧٦ ، ١٨٨٩ و١٩٠٢ المحفوظة ضمن مجموعة المجلس الأقتصادي واللجنة المالية الحكومية الى أن القيصرية منحت السفن التجارية الروسية التي تمر عبر قناة السويس تسهيلات استهدفت منها رفع حجم العلاقات التجارية بين روسيا ومصر ٠ وفضلا عن ذلك توجد في هذا الارشيف «ملاحظات تاريخية عن بعض التسهيلات باعادة النظر في ضرائب السويس»[٦] ٠ وتضم هذه المجموعات

العديد من تقارير القناصل الروس حول الملاحة والعلاقات التجارية بين روسيا ومصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي تشير الى عمق العلاقات الاقتصادية الروسية المصرية في تلك الفترة (٧) . وحسبما يبدو من وثائق مجموعة ملف قسم التجارة والصناعة للفترة ١٨٩٩ - ١٩٠٢ فأن البواخر كانت تنقل القطن والجوت المصري الى الموانىء الروسية على سواحل البحر الاسود لتقوم بعد ذلك بنقل الأخشاب والنفط والحديد والورق الروسي الى مصر (٨) . وان احدى الوكالات الروسية للملاحة والتجارة كانت تعمل في ميناء بور سعيد (٩) . ان توسع حجم العلاقات التجارية بين مصر وروسيا حتى مطلع القرن العشرين جعل من الضروري عقد اتفاقية تجارية بين روسيا ومصر (١٠) . فان المكتبات الكثيرة التي تغطي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠٢ و١٩١٦ والمحفوظة في مجموعة الديوان المركزي وزارة المالية في ملف الصناعة والتجارة ، تشير الى محادثات جرت بهذا الصدد فضلا عن الوثائق المحفوظة في مجموعة مجلس الوزراء . ومن الجدير بالذكر أن بعضاً من تلك الوثائق تحتوي على قوائم واحصائيات كثيرة بأسماء المنتجات المستوردة من مصر . وقد تم افتتاح وكالة لشركة الملاحة والتجارة الروسية في كل من القاهرة والاسكندرية (١١) . ويوجد في هذه المجموعات أيضاً تقارير الوكالات التجارية الروسية وبضمنها الوكالة التجارية الموجودة في الاسكندرية للسنين ١٩١٠ ، ١٩١١ . وفي سنة ١٩٠٩ فتحت شركة الملاحة والتجارة الروسيا مكتباً لها في كل من حيفا والاسكندرية (١٢) . وتضم مجموعة التجارة البحرية وتجارة الموانىء التي تعود لغاية ١٩١١ وثائق تتعلق بالتجارة بين روسيا والدولة العثمانية واليونان ومصر وجمهوريات امريكا الجنوبية والبرازيل والارجنتين واوروغواي (١٣) . وفي سنة ١٩١٢ قدم الى الحكومة الروسية تقرير حول

الوضع السياسي والاقتصادي في مصر محفوظ في مجموعــة وزارة التجارة والصناعة ، ويشير التقرير بصورة خاصة الى امكانية توسيع حجم العلاقات التجارية الروسية المصرية(١٤) ، ولهذا السبب فقد تــم افتتاح معــرض للمنتجات اليدوية الروسية في بور سعيد سنة ١٩١٢(١٥) • وتحفظ الوثائق المتعلقة بهذا المعرض في الارشيف الخاص بمجموعــة الشركات الروسية للتجارة والملاحة ، كما تحفظ في هذه المجموعة بعض الرسائل حول التجارة الروسية المصرية والتي بعث بها وكيل الشركة الروسية للملاحة والتجارة في بيروت وقــد أشار الوكيل في رسائله الى امكانية توسيع حجم العلاقات الروسية المصرية وأهمية اقامة المعارض التجارية الروســية في الاقطــار العربية(١٦) • وبدأت المحادثات بين بتروغراد والقاهرة حول انواع البضائع الروسية التي يمكن تصديرها الى مصر(١٧) • وعندما تم افتتاح المعــرض التجاري الروسي في بور سعيد في سنة ١٩١٢ تم بناء مخزن للبضاعــة الروسية هنالك(١٨) • وتشير الوثائق التي تعود الى تلك السنة الى مشروع مقترح لأقامة خط للملاحة البحرية مصر ـ البحر الأحمــر(١٩) • وفي سنة ١٩١٥ اعلنت الشركة الروسية للتجارة عن رغبتها في افتتاح معرض للبضاعة المصرية في موسكو • وكان الهدف من هذا المعرض هو تعريــف الاوساط الصناعية الروسية بأنواع البضائع الواسعة الأنتشار في مصر • وتحتوي وثائق الارشيف معلومات تتعلق بالهدف من وراء تنظيم هذا المعرض(٢٠) • كما توجد في الارشيف مشاريع حول تنظيم اللجنة الخاصة بتطوير البضاعة الروسية في القاهرة ونشاطها(٢١) • وتوجد في النشرة الأحصائية التـــي اصدرتها هذه اللجنة سنة ١٩١٦ في القاهرة معلومات حول تطوير العلاقات التجارية بين روسيا من جهة ومصر والسودان من جهة أخرى(٢٢) • وكانت هذه النشرة تصدر باللغتين الروسية والفرنسية • ومن خـلال الوثائــق

الموجودة في الأرشيف يمكن تشخيص العلاقات الأقتصادية بين روسيا وسوريا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ٠

ويظهر من رسائل القنصلية الروسية المحفوظة في ملف وزارة التجارة والصناعة بأن الموانيء السورية والروسية كانت ترتبط بعلاقات منتظمة عن طريق خطوط الملاحة البحرية(٢٣) ٠ وكانت القنصلية الروسية في سوريا ترفق مع الرسائل التي تبعث بها جداول زمنية بمواعيد وصول البواخر الروسية الى الموانيء السورية منذ سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٨٩٣(٢٤) ٠ كما تحتوي تلك المجموعة على تقارير مستفيضة رفعها القناصل الروس توضح مجرى العلاقات التجارية الروسية السورية في فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين(٢٥) ٠ وغالباً ما ترفق هذه التقارير بجداول احصائية حول حجم البضائع وانواعها ٠ وهناك ثلاثة تقارير مهمة رفعها وكيل شركة التجارة والملاحة الروسية في بيروت ــ حول منظور التعامل الأقتصادي السوري الروسي وحول تنظيم معرض خاص للبضاعة الروسية في سوريا(٢٦) ٠ وقد كتبت هذه التقارير في سنة ١٩١٣ وتحفظ في مجموعة وثائق «مولجانوف» ممثل ادارة الشركة الروسية للملاحة والتجارة البحرية ٠

وتكشف رسائل القنصل الروسي العام في بيروت عن نمو العلاقات الأقتصادية بين روسيا ولبنان وتطورها عشية الحرب العالمية الاولى ٠ وتحتوي هذه الرسائل التي تعود الى الفترة الواقعة بين عامين ١٩١٠و١٩١٤ على معلومات احصائية واسعة عن حجم العلاقات التجارية والأقتصادية القائمة بين روسيا ولبنان في تلك الفترة وكذلك وعن أهمية ميناء بيروت التجارية ٠ وتحفظ هذه الوثائق في مجموعة وزارة الصناعة والتجارة ٠ كما تتحدث رسائل القناصل الروسية في بيروت بصورة خاصة عن المعرض

العائم للبضائع الروسية الذي أقيم في بيروت ، وعن مجموعة من العقـود واصفقات التجارية التي ابرمتها الشركات الروسية التجارية . وقد افتتح مع العرض مخزن خاص للبضائع الروسية والـذي كان يقـوم ببيع نماذج منها(٢٧) . ومن خلال وثائق الارشيف يمكن الوقوف ايضا عـلى العلاقات الأقتصادية بين روسيا وفلسطين . وتوجد ضمن مجموعة ادارة الشركـة الروسية للملاحة والتجارة اعداد من جريدة Hazewi التي كانت تصدر في القدس ، وهي تتحدث في عددها الصادر يوم ٢٥ كانون الثانـي عام ١٩١٠ عن النجاح الكبير الذي حققه المعرض العائم الذي اقيم فـي فلسطين . وقد اشارت الجريدة في مقالها الى تفوق البضاعة الروسية عـلى منتجات الشركات الأجنبية الأخرى(٢٨) . وتحتوي وثائق هذه المجموعـة على تقارير وكلاء الشركات الروسية في حيفا لسنة ١٩١٢(٢٩) . وفي سـنة ١٩١٣ وضع وكيل الشركة الروسية للتجارة والملاحة في بيروت تقريراً يطالب فيه زيادة حجم العلاقات التجارية بين روسيا وفلسطين ورغبته في اقامـة معرض روسي تجاري في فلسطين(٣٠) . وان وثائق الارشيف تشير الـى وجود علاقات اقتصادية بين روسيا والعراق في مطلع القرن العشريـن . وتوجد ضمن مجموعة وزارة التجارة والصناعة تقارير عن الوضع الأقتصادي في العراق ، ولاسيما عن وضع السوق في بغداد بداية القرن العشرين(٣١) . وفي عام ١٩١٣ اكد القنصل الروسي في البصرة في تقاريره على ضرورة فتح خط ملاحي منتظم لنقل البضائع والمسافرين بين روسيا والعراق(٣٢) . وتحفظ هذه الرسائل في مجموعة ادارة الشركات الروسية للتجارة والملاحة .

وتتضمن المجموعة الثانية من وثائق ارشيف مدينـة «لينينغراد» معلومات اساسية عن تاريخ العلاقات الدولية ـ الدبلوماسية والقنصلية ـ التي تربط بين روسيا واقطار المشرق والمغرب العربي منذ نهايـة القرن

التاسع عشر وبداية القرن العشرين · ويكشف قسم من وثائق مجموعة المجلس الأقتصادي الحكومي ووزارة العدل عن نشاطات القنصلية الروسية العامة في مصر(٣٣) · وقد اسهمت الحكومة الروسية بصورة خاصة في اللجنة التي كلفت بوضع نظام جديد لسجلات الاراضي والاقطان في مصر(٣٤). ويوجد بين مجموعة الدائرة القانونية التابعة للمجلس الحكومي «ملف تأسيس قنصلية دائمية في الجزائر» · وعلى الرغم من التسلط الفرنسي وجدت علاقات قنصلية بين الجزائر وروسيا ، وفي عام ١٨٨٤ أقيمت هناك قنصلية روسية ثابتة(٣٥) · ومن أجل الاطلاع على وضع التعليم العام في الجزائر ارسل ممثل عن وزارة التعليم الشعبي الروسي في سنة ١٩١٣ والذي يحفظ تقريره الآن ضمن مجموعة وزارة الثقافة العامة ·(٣٦) · وتوجد في مجموعة مجلس الوزراء ومجلس الدوما للسنين ١٩١٠ ـ ١٩١٣ ثلاثة ملفات عن وضع الممثلية الروسية في مراكش · فمنذ العام ١٩١٢ اي قبل فرض الحماية الفرنسية على مراكش ، اسست العلاقات القنصلية بين الاخيرة وروسيا ، فلغاية عام ١٩٠٠ كانت تعمل قنصلية روسية عامة في مراكش رفعت الى درجة ممثلية منذ ذلك التاريخ(٣٧) · ولكن بعد فرض الحماية الفرنسية على مراكش حولت الممثلية الروسية من جديد الى قنصلية عامة(٣٨) ، وفي عام ١٩١٣ تم تأسيس الوكالة الدبلوماسية الروسية في مراكش(٣٩) · ان دراسة المجموعة الثالثة من الوثائق تعطي امكانية متابعة تطور الصلات العلمية ـ الثقافية النشيطة بين روسيا من جهة ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين من جهة أخرى في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين · ويخص جانب كبير من الوثائق المذكورة العلاقات الثقافية الروسية ـ المصرية(٤٠) · وهي (الوثائق) تنظم بالدرجة الاساسية المراسلات الخاصة بمجموعة مخطوطات «روادز»(٤١) · و «كاستيلون»(٤٢)

و «دروفيت»[٤٣] • ويرحله أ•س• نورروف في مصر(٤٤) • ومايتعلق بدعوة الوفد الرسمي بمناسبة افتتاح قناة السويس[٤٥] • ونشاطات الاطباء الروس في مصر [٤٦] • وجمع الآثار المصرية القديمة [٤٧] • ومايخص الكتب التي ارسلت من مصر كهديا الى روسيا[٤٨] وعن مجموعة الاثار المصرية والمعروضة حالياً والعائدة للمستشرق الروسي«فلاديمير جولنيشيف»[٤٩]• وهناك بعض الوثائق التي تحتوي على معلومات قيمة حول تنظيم قسم خاص بالكتب الروسية من مكتبة الجامعة المصرية[٥٠] •

ويحتوي ارشيف لينينغراد على معلومات حول ايفاد العالم الروسي المعروف أ•و• موفلينسكي للأشتراك في حفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩[٥١] • وتحتوي وثائق المجلس الأقتصادي الحكومة على معلومات حول ارسال الطبيب الروسي «ايفاد» الى مصر في سنة ١٨٨٥ للمساهمة في حملة مكافحة وباء الكوليرا • وقد قام في مصر بعدة دراسات علمية كما اوصى بطبع تقريره • كما مثل روسيا في اللجنة الصحية الدولية في الاسكندرية[٥٢] • وتشير بعض الوثائق التي تعود تواريخها الى عامي ١٩١٣ و١٩١٤ الى المساعدات الطبية التي قدمتها روسيا الى مصر عشية الحرب العالمية الاولى • فكما يبدو من احدى تلك الوثائق كان يوجد طبيب روسي في الحجر الصحي بمنطقة القناة في عام ١٩١٤[٥٣] •

ولوثائق جمعية سانت بطرسبورغ المدرسية اهميتها فيما يخص العلاقات العلمية الروسية ـ المصرية • ومما ورد في هذه الوثائق هو أن الشخصية المصرية المعروفة يعقوب ارتين باشا أهدى جامعة بطرسبورغ صندوقين من الكتب المصرية في عام ١٨٨٧[٥٤] • وفضلا عن ذلك تشير وثائق مديرية الثقافة العامة الى أن الحكومة المصرية اهدت من جديد الحكومة الروسية في عام ١٨٩٤ مجموعة من التوابيت والآثار الأخرى التي تم العثور

عليها في منطقة طيبة . وقد تم توزيع محتويات هذه المجموعة على متاحف الجامعات الروسية وغيرها من المؤسسات الفنية والتعليمية(٥٥) . وفي عام ١٨٩٨ حصل متحف الفنون الجميلة في موسكو بمساعدة متحف الجيزة المصري على مجموعة من الآثار الفنية والأثنوغرافية المصرية(٥٦) . ويوجد عدد لابأس به من الوثائق الخاصة بمجموعة «جولنييشيف» المعروفة عالمياً وهي تحفظ ضمن وثائق مجلس الوزراء وديوان وزارة القصر الأمبراطوري ووزارة الثقافة العامة وغيرها .

ومن خلال ماورد في هذه الوثائق يمكن متابعة تفاصيل جلب المجموعة الأثرية للمختص الروسي المعروف في المصريات «جو لنييشيف» من مصر الى روسيا وذلك بمبادرة من الجمعية الاركيولوجية الروسية عشية الحرب العالمية الاولى(٥٧) .

وللوثائق الموجودة في «ملف تزويد مكتبة الجامعة الأهلية المصرية بمطبوعات الجمعيات العلمية الروسية» ، أهمية خاصة لالقاء الضوء على تاريخ الصلات العلمية الروسية ـ المصرية في بداية القرن العشرين . وكما تبين الوثائق فقد ناقشت الاوساط العلمية الروسية عام ١٩٠٩ موضوع تزويد مكتبة الجامعة المصرية بمؤلفات العلماء الروس ، ولاسيما يتعلق منها باسيا الوسطى(٥٨) .

ويحفظ في الارشيف تقرير مهم للممثل الروسي الذي ارسل الى القاهرة والقسطنطينية يتحدث عن العلاقات المتبادلة بين الاوساط الدينية في مختلف الاقطار العربية مع حركة الجامعة الاسلامية(٥٩) . والى حد كبير تطورت العلاقات الروسية العربية في القرن التاسع عشر عن طريق الجمعية الفلسطينية الارثدوكسية الروسية الامر الذي ادى الى أن تخص وثائق كثيرة في ارشيف لينينغراد الصلات الدينية لروسيا بالاقطار العربية بما

فيها مصر[٦٠] او تكشف لنا هذه الوثائق أيضاً العلاقات الثقافية بين روسيا وكل من سوريا ولبنان وفلسطين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[٦١] . وتأتي في مقدمتها الوثائق الخاصة بمجموعة روسو[٦٢] و«حجر تدمر» للازاريق[٦٣] ، و«رحلة في المدينة المقدسة ـ القدس ـ للعربي ايبروف راهب راتشين في ١٧٠٤ ـ ١٧٠٥»[٦٤] .

وحول مخطوط فضل الله ابو خلق «رحلة الى سوريا وفلسطين والاردن في ١٨٩١ ـ ١٨٩٢»[٦٥] .

وهناك جزء مهم من وثائق ارشيف لينينغراد يكشف عن العلاقات الدينية بين روسيا ولبنان وفلسطين[٦٦] . ان دراسة هذه الوثائق ليس من واجبات المؤلف ، ولكن تتضمن بعض هذه الوثائق مادة مهمة حول العلاقات الثقافية بين روسيا والاقطار العربية خاصة فيما يخص المدارس والمتاحف والآثار القديمة والمخطوطات . وكما يبدو من وثائق ارشيف لينينغراد فن في روسيا بدأ الاهتمام بتعليم اللغة العربية ودراستها منذ زمن بعيد . ويتجلى هذا واضحاً من خلال الوثائق الموجودة في «ملف تدريس اللغة العربية ضمن اللغات الشرقية الأخرى من مدرسة قازان الثانوية الاولى» وكذلك من خلال القرارات المتعلقة بتدريس اللغات الشرقية وعبر الخطط التدريسية وغيرها . فأن اللغة العربية لم تدرس في معهد لازاريف بموسكو حسب بل انها كانت تدرس في المقاطعات كذلك ، ولاسيما في قازان[٦٧] . فأن ثانوية قازان الاولى كانت واحدة من المراكز الاساسية لتدريس اللغة العربية في عموم روسيا خلال القرن التاسع عشر ، ومن المعروف ايضاً انه كان يوجد قسم خاص بالمخطوطات العربية في جامعة قازان منذ اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر .

ان الوثائق المكتشفة حديثا والتي تخص تاريخ علاقات روسيا الأقتصاديه والسياسيه الخارجية والثقافية ـ العلمية بقطار العربيه تستمتع بأهميه عمية كبيرة ، خاصة وان كل هده المواد تقريبا لم تكن معروفه حتى الآونة الاخيرة(٦٨) .

ان وثائق ارشيف لينينغراد دليل مهم على وجود علاقات روسية ـ عربية قديمة ـ تقليديه ، طيبة وودية .

---

(١) تم اكتشاف هده الوثائق من قبل باحثي ارشيف لينينغراد في سنة ١٩٥٧ وتم تصنيفها الى هده الابواب .

(٢) يوجد في القسم العام من وثائق ارشيف لينينغراد بعض الوثائق التي لاعلاقه لها بأي بلد عربي مستقله . ولكنها تحتوي على اخبار العلاقات العامه بين هده الاقطار من جهة وروسيا من جهه أخرى . فهناك وثائق حول تدريس اللغة العربية في جامعه قازان ١٨٣٣ ـ ١٨٣٦ ، ١٨٤٥ .

(٤) الارشيف التاريخي المركزي في لينينغراد ، مجموعة ٥٦٠ ، ملف رقم٤ وثيقة ٣٢٣ قسم ٨ سنة ١٨٢٥ ـ

(٥) نفس المصدر وثيقة ٦٠٠ ورقة ١ ـ ٢ سنة ١٨٣١ .

(٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لنينيغراد ، خزانة ٥٢ ٣٨٤ ورقة ١ـ٨ سنة ١٨٧٦ .

(٧) الارشيف المركزي التاريخي ـ لينينغراد ، خزانة ٢١ ملف ٥ وثيقة ٣٠ ورقة ١ـ٢٥ ١٨٨٩ ـ ٨٩٤ .

(٨) الارشيف المركزي التاريخي ـ لينينغراد ، خزانة ٢٣ ملف ٢٤ وثيقة ١٤٠٦ ورقة ١ـ٨١ سنة ١٨٩٤ ـ ١٩٠٨ .

(٩) الارشيف المركزي التاريخي ـ لينينغراد خزانة ١٠٧ ملف ١ قسم ٣١٦١ ورقة ١ـ٢٤ سنة ١٩٠١ .

(١٠) الارشيف المركزي التاريخي ـ لينينغراد خزانة ٢٢ ملف ٣ وثيقة ١١٢ ورقة ١ـ٢٢٦ سنة ١٩٠٢ ـ ١٩١٦ .

(١١) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٣٧ ورقة ١ ـ ١٠ ١٩٠٩ .

(١٢) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ١٢٧٦ ملف ٥ وثيقة ٣٥٢ ورقة ١ – ١٧ ١٦٠٩ ·

(١٣) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٩٥ ملف ٨ وثيقة ١٠٧٩ ورقة ١ – ١٠ سنة ١٩١١ ·

(١٤) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٢٣ ملف ١١ وثيقة ١٤٣ ورقة ١ – ٣٤ سنة ١٩١١ ·

(١٥) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ١٠٧ ملف ١ وثيقة ٢١٠٠ ورقة ١ – ٤١ سنة ١٩١١ – ١٩١٣ ·

(١٦) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٣٦ ورقة ١ – ٨٨ سنة ١٩١٢ ·

(١٧) نفس المصدر وثيقة ١٤٣٩ ورقة ١ – ٣ سنة ١٩١٣ ·

(١٨) الارشيف التاريخي المركزي خزانـــة ٢٣ ملف ٤٤ وثيقة ٢٦٠ ورقة ١ – ٥٤ سنة ١٩١٢ – ١٩١٤ ·

(١٩) الارشيف التاريخي المركزي خزانـــة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٤٠ ورقة ١ – ٣ ١٩١٣ ·

(٢٠) نفس المصدر وثيقة ١٤٤١ ورقة ١ – ٢٦ سنة ١٩١٥ ·

(٢١) الارشيف التاريخي المركزي خزانة ٢٢ ملف ٢١ وثيقة ١٩٤ ورقة ١ – ١٨ سنة ١٩١٥ ·

(٢٢) نفس المصدر وثيقة ٤٨٢ ورقة ١ – ٢٦ سنة ١٩١٤ ·

(٢٣) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٢٠ ملف ٧ وثيقة ٧٥ ورقة ١ ٢٤ سنة ١٨٨٧ ·

(٢٤) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ١٢٦٣ ملف ٧٥٢ ، سنة ١٨٩١ ·

(٢٥) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٢٠ ملف ٥ وثيقة ٣٠ ورقة ١ – ٢٥ سنة ١٨٨٩ – ١٨٩٤ ·

(٢٦) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ٤٤٣٦ ورقة ١ – ٣٨ سنة ١٩١٣ ·

(٢٧) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٢٣ ملف ١١ وثيقة ٤٨ ورقة ١ – ١٣١ سنة ١٩١٠ – ١٩١٤ ·

(٢٨) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٤٦ سنة ١٩١٠ ·

(٢٩) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ١٠٧ ملف ١ وثيقة ٣٤٤٦ ورقة ١ – ٢٣ سنة ١٩١٢ ·

(٣٠) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٣٦ ورقة ١ ـ ١٨ سنة ١٩١١ ٠

(٣١) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٢٢ ملف ٢ وثيقة ١٠٨ ورقة ١ ـ ٦٦ سنة ١٩٠١ ٠

(٣٢) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٢٢٩ ورقة ١ ـ ٢ سنة ١٩١٢ ٠

(٣٣) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١١٥٢ وثيقة ٢٦٥ ورقة ١ ـ ٢٧ سنة ١٨٦٥ ٠

(٣٤) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٤٠٥ ملف ٥٣١ وثيقة ٤٩٢ ورقة ١ ـ ٤ سنة ١٩٠٨ ٠

(٣٥) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١١٤٩ وثيقة ١٢ ورقة ١ ـ ١٣ سنة ١٨٨٤ ٠

(٣٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ٢٢٧ وثيقة ١٨٥ ورقة ١ ـ ١٦ سنة ١٩١٣ ٠

(٣٧) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٢٧٨ ملف ٢ وثيقة ١٠٧٩ ورقة ١ ـ ٥٢ سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ ٠

(٣٨) الارشيف التاريخي المركزي ـ لنينغراد مجموعة ١٢٧٦ ملف ٩ وثيقة ٥٩٥ ورقة ١ ـ ١٧ سنة ١٩١٣ ٠

(٣٩) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٢٧٨ ملف ٦ وثيقة ٧٦٧ ورقة ١ ـ ٤٩ سنة ١٩١٣ ٠

(٤٠) انظر ـ الكسندر ـ كاسيف ـ من تاريخ العلاقات الحضارية بين مصر وروسيا ـ نشرات مختصرة ـ معهد شعوب اسيا وافريقيا «المجموعة العربية» × × موسكو ١٩٥٨ ٠

(٤١) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٢ وثيقة ٢٤٢ ورقة ١ ـ ١٠ سنة ١٨٢١ ٠

(٤٢) نفس المصدر وثيقة ٢٩٤ ورقة ١ ـ ٩ سنة ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦ ٠ وثيقة ٩٨ ورقة ١ سنة ١٨٢٧ ٠

(٤٣) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٥ وثيقة ٩٨ ورقة ١ سنة ١٨٢٧ ٠

(٤٤) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٨٩ ملف ١ وثيقة ٣٦ ورقة ١ ـ ٣ سنة ١٨٤١ ٠

(٤٥) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٤٢ وثيقة ٤٤٦ ورقة ١ ـ ١٢ سنة ١٨٦٩ ٠

(٤٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١١٠١ وثيقة ٢٥ ورقه ١ ـ ٨ سنه ١٨٨٥ ٠

(٤٧) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانه ٧١١ ملف ١٤٢ وثيقه ١١/١١ ورقه ١ ـ ١١ سنه ١٨٦٤ ٠

(٤٨) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانه ١١٢١ ملف ٤ وثيقه ١١/١١ ورقه ١ ـ ٤٦ سنه ١٦٠٨ ٠

---

(٥٠) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانه ٧١١ ملف ١٢٥ وثيقه ١١٠١ ورقه ١ ـ ١١ سنه ١٩٠٦ ٠

(٥١) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانه ٧٢٢ ملف ١٤٢ وثيقه ٤١٦ ورقه ١ ـ ١٤ سنه ١٨٦٩ ٠

(٥٢) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١١٥٢ ملف ٢٥ ورقه ١ ـ ٨ سنة ١٨٨٥ ٠

(٥٣) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٢٧١ وثيقة ٧٥ ورقه ١٣٥ ـ ١٣٦ سنة ١٩١٤ ٠

(٥٤) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٢٢ وثيقه ٥١ ورقة ٢٠ ـ ٤٩ سنة ١٨٨٧ ٠

(٥٥) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٤٢ وثيقة ١٢٨٧ ورقة ١ ـ ١١ سنة ١٨٩٤ ٠

(٥٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٢٢ وثيقه ١٤٣٦ ورقة ٧٢ ـ ٨٥ سنة ١٨٩٨ ٠

(٥٧) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٢٧٦ ملف ٤ وثيقة ٦٨٩ ورقة ١ ـ ٤٩ سنة ١٩٠٨ ٠

(٥٨) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٤٥ وثيقة ٣٢٩ ورقة ١ ـ ١٣ سنة ١٩٠٩ ٠

(٥٩) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٨٢١ ملف ١٣٣ وثيقة ٦٢٩ ورقة ١ ـ ١٥٤ ٠

(٦٠) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٦٩ ملف ١٢٩ وثيقة ٥٢٦ ٠

(٦١) انظر ـ الكسنة كارسيف ـ العلاقات الحضارية بين روسيا وسوريا ـ نشرات ـ تختصرته ـ معهد شرق اسيا وافريقيا ـ المجموعة العربية موسكو ١٩٥٩ ص١٠٦ ـ ١١٢ ٠

(٦٢) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينيغراد خزانة ٧٣٣ ملف ٨٧

وثيقة ١ سنة ١٨١٨ ـ ١٨١٩ .

(٦٣) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ٤٠٣ وثيقة ٣٩٠ سنة ١٩٠٤ .

(٦٤) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٨٣٤ ملف ٤ وثيقة ٩٣٢ ورقة ١ ـ ٤٠ سنة ١٨٨٣ .

(٦٥) نفس العدد وثيقة ٩٣٤ ورقة ١ ـ ١٨٦١ ـ ١٨٩٢ .

(٦٦) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٧٩٧ ملف ٨٧ وثيقة ٢٣٧ .

(٦٧) الارشيف التاريخي المركزي – لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ٤١ وثيقة ١ ١٢٩ سنة ١٨٣٣ ـ ١٨٣٦ .

(٦٨) ولم يتم حتى الوقت الحاضر – الانتهاء في ترتيب كتلوكات ـ الوثائق التي اعلنا عنها .

الوطن العربي في العصور القديمة : عناصر حضارية مشتركة

دكتور فاروق ناصر الراوي
استاذ مساعد
كلية الآداب ــ قسم الاثار

تمهيـــد :

لاشك في أن مقومات اية حضارة تشمل كل ما حققه الانسان في مجال العلوم والتكنولوجيا وفي الاعمال الفنية والادارية والاجتماعية ، يضاف الى ذلك ان التقدم الحضاري ورقيه يمكن ان يقاس على اساس درجة انتشار المعرفة بين السكان ومستوى التعليم وبخاصة بين عامة الناس وعلى اساس المهارة التي اكتسبها الفنيون في الاعمال ذات الطابع المنتج • ان التقدم الحضاري لاي مجتمع يمكن ان ينعكس على ملابس الناس وازيائهم ، وتنظيم حياتهم اليومية وثقافتهم الصحية وتداولهم وتعاملهم مع المنجزات العلمية والتكنولوجية وفي مايقدمونه من خدمات عامة وبخاصة مايتعلق منها بالانتاج الزراعي والصناعي وطرق الري • وبتعبير أدق يمكن ان نقول بأن الحضارة هي نتاجات الناس ومعارفهم واذكارهم ومشاعرهم بالاضافة الى مايحققه المجتمع من تطور في التكنولوجيا والخدمات العامة ومستوى التعليم وتنظيم الحياة الاجتماعية ومؤسساتها •

واذا ماعرفنا بانه بات من البديهيات ان ماتشهده الحضارة هذا اليوم من تقدم كبير وازدياد ملحوظ في الانجازات العلمية قد اقيم على تراث ومنجزات سابقة فجدير بنا نحن اصحاب اغنى الحضارات واعرقها ان نعمل على اظهار هذا المجد في صورة مجسمة تراها الاعين وتتحسسها

الايدي .

على اننا يجب ان ننوه هنا ان اقدم ماوصلنا من آثار ووثائق لاتمثل البداية ابداً ، بل تصور مرحلة متأخرة نوعاً ما فجذور الحضارة تمتد الى عصور ما قبل التاريخ ... ومعارف هذه الفترة مهما كانت ضئيلة وغير كاملة من وجهة نظرنا ولكنها في الوقت نفسه قابلة للكمال شأنها في ذلك شأن الحضارة في يومنا هذا ، فبالرغم من كونها راقية وذات خصائص اعمق بكثير الا انها غير كاملة وقابلة للكمال ايضاً ، آخذين بنظر الاعتبار انه منذ مطلع الالف الثالث ق.م.، اي منذ بداية العصور التاريخية صارت معلوماتنا تزداد عن المجتمع القديم تدريجياً . واذا ما تقدمنا خطوة اخرى نحو العصور التاريخية ، نجد كثرة ملموسة في النصوص المسمارية التي تسلط الاضواء على مختلف اوجه النشاط الانساني في العصور القديمة . وبزيادة التدوين في الالف الثاني ق.م وانتشاره بشكل اوسع من السابق ، تصبح معلوماتنا غزيرة عن جوانب عديدة من اوجه الحضارة في الوطن العربي القديم .

ولكن يجب ان لايفوتنا التأكيد هنا على انه من البديهي ان اناساً في قطر ما قد تفوقوا على مواطنيهم في نفس القطر ، وان قطراً ما استطاع التفوق على اقطار اخرى وان اهله برعوا في خصائص حضارية لم يتوصل الآخرون اليها . وكان العراقيون اول من ابتكر العديد من المقومات الحضارية ولهم قصب السبق في العديد من المعارف والعلوم التي انارت فجرهم الحضاري وامتدت وانتشرت الى ارجاء بعيدة من العالم القديم .

عصور قبل التاريخ :

ان حضارة الامة تستمد اصالتها من جذورها البعيدة الممتدة عميقاً في تربة هذه الارض المعطاء ، وهي جذور قديمة قدم الانسان نفسه . ان

البحث عن اصول الحضارة وجذورها في الوطن العربي موضوع طويـــل ومتشعب ، ولكن في استطاعتنا ان نوجز وبشيء من التركيز ما شهدتـه هذه الارض من بذل وعطاء انساني متواصل • ففي اعماق هـــذه الارض المعطاء يعثر على متحجرات يرقى زمن البعض منها الى (١٫٧٥٠٫٠٠٠) سنة مضت حيث عثر في تل العبيدية في فلسطين بالقرب من الساحل الجنوبـي لبحيرة طبرية على متحجرات عظيمة وعلى بعض الالات الحجرية البدائيـــة التي تشبه ما وجد من آلات في مواقع مايعرف بمصطلح «الانسان القرودي» في اولدفاي بتنجانيقا وفي ليبيا والحبشة ، علماً بان تاريخ هذه المخلوقات قد تحدد بواسطة الساعة الذرية او مايعرف بارغون – بوتاسيوم • وفي كهف عدلون وجدت مخلفات يرقى زمنها الى حوالي (٦٠٠٫٠٠٠) سنة مضت ايضا • وفي الاردن ، اسفل جسر بنات يعقوب وفي العراق عند اطـــراف حوض سد صدام عثر على مايشابه ذلك • ووجد في الترنفين في الجزائـر كسر عظمية لفكين متشابهين لفكوك انسان بكين الذي يرقـى زمنه الـــى (٢٥٠٫٠٠٠) سنة مضت ، وفي العراق عثر على آلات من هـذه الفترة •• وعثر ايضاً على مخلفات مايعرف بانسان النياندرتال في كل من جبل الكرمل ومغارتي الصخول والطابون في فلسطين وفي ترفغين وســـيدي عبدالرحمن في الجزائر وفي كهف شايندار جبار برادوست بالقرب مـن راوندوز عثر على هياكل عظمية كاملة لانسان النياندرتال الذي يرقى زمنه الى حوالـــي (٦٠) الف سنة مضت • وربما ستكشف لنا التنقيبات القادمة عن نماذج لبشرا قدم عن هؤلاء ••

ولعله من المفيد ان نذكر بان اول الهياكـــل للانسان الحديث (أو العاقل) قد عثر عليها في الطبقات العليا من جبل الكرمـــل وفي مغارتـــي الصخول والطابون ••• اما خلال العصر الحجري القديم الاعلى الذي يقدر

بحوالي (٢٥٠٠٠) سنة مضت فقد وجدت مخلفات اثرية كثيرة في العراق وفلسطين والجزائر وتونس وغيرها • وفي حدود (١٢٠٠٠–٩٠٠٠ ق.م) سادت ثقافات هذا العصر في معظم الاقطار العربية المذكورة آنفاً وبخاصة في مواقع شدر بالقرب من جمجمال ومواقع ملفعات على الخازر ، بين الموصل واربيل ، وفي اريحا بفلسطين وقفصة في تونس وهوا فطيح في ليبيا اضافة الى مواقع اخرى في الجزائر وغيرها من الاقطار العربية •

اما الادوار اللاحقة في الوطن العربي فقد سادت وعمت معظم ارجاء الوطن العربي • ومن اشهر المنجزات واكثرها اثارة للدهشة هي التحصينات التي عثر عليها في اريحا والتي تتمثل في سور المدينة وبرجها والخندق الخارجي المحيط بالسور • وشهد العصر الحجري الحديث أدوار حضارية في مواقع اخرى عديدة منها البداري في مصر وخلف وحبدية الكبيرة والصغيرة وتل سريبط وغيرها في سوريا •• ومواقع متعددة في ليبيا وشمال افريقيا عموماً ••• اما في العراق فيمكن تعداد الادوار الحضارية هذه بالادوار التي شهدتها مواقع زاوي جمي وجرمو في كركوك وحسونه في الموصل وسامراء في محافظة صلاح الدين وحضارة خلف والصوان والعبيد والوركاء وحميدة نصه • ويمتد تاريخ المواقع السالفة الذكر مابين (٩٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق.م) •

وقبل الدخول في تفاصيل الفترة اللاحقة لابد من الاشارة الى وحدة المقومات الحضارية للوطن العربي وبخاصة تلك المقومات التي ظهرت في العراق وسوريا وفلسطين ومصر والخليج العربي •• آخذين بنظر الاعتبار ماجئنا على ذكره اعلاه حول تميز بعض الناس وبعض الاقطار في هذا المجال او ذاك فبعد ظهور الفخار في العراق لم يلبث ان ظهر في سوريا وفلسطين ومصر بفترة وجيزة •• ومثال آخر هو عصر «الثورة الزراعية»

الذي بدأ في العراق وانتشر في بقاع واسعة من الوطن العربي وبخاصة في مصر وسوريا والخليج العربي وينطبق الشيء نفسه على استخدام دولاب الفخار الذي ابتكر في العراق قبل غيره من الاقطار العربية ، الا اننا سرعان ماتجد السوري والمصري وابن الخليج يستخدمه مع اضافة التحسينات أو تكييفه لحاجة المنطقة • وفي مجال العمارة والفكر الديني والفن ثمة نماذج اثرية كثيرة يمكن الاستدلال بها على هذه الوحدة الحضارية •• ولعل ما عمل في وحدة هذه الخصائص الحضارية وسرعة تناقل وتبادل الخيرات هو ما يتميز به هذا الوطن من طبيعة جغرافية مكنت الشعب من سرعة الاتصالات وتبادل مثل تلك الابتكارات • على ان العصور اللاحقة شهدت تعاظم مثل هذه الوحدة وتبلور البعض منها وصولا الى سمات مدينة تميز بها الوطن العربي عن غيره من الاوطان وكان سباقاً في العديد من المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والادارية والفنية • وسنتناول البعض من هذه السمات لاحقاً •

الكتابة وعصر فجر التاريخ :

ومع اختراع الكتابة نصل الى الفترة التي يسميها المتخصصون بالاثار والتاريخ «بالعصور التأريخية» حيث تبلورت عندها عناصر حضارية عديدة في مجال العمارة والفن والادارة والجيش وابتكار انظمة الحكم • وبظهور الكتابة ندخل عصر التدوين وتوثيق جوانب من حياة الانسان اليومية • وقد مرت الكتابة بسلسلة من الاطوار جرت عليها تحسينات من قبل الاجيال اللاحقة • وفي هذا المجال نذكر بان الكتابة التي كانت صورية في طورها الاول ومن ثم رمزية فمقطعية او بقيت كما هي عليه صورية بالنسبة لمصر ، هي من اهم المظاهر الحضارية التي تشهد بوحدة الحضارة العربية وتمييزها على غيرها من الامم في هذا المضمار •• فالكتابة ظهرت في جنوبي

العراق في حدود ٣٥٠٠ ق٠م وانتشرت الى شماله بعد وقت قصير ومنه الى سوريا والى مصر ٠ وقد ظهرت الكتابة في مصر بعد اقل من قرنين من تاريخ اختراعها في العراق واخذت أمم كثيرة هذا الابتكار عن العراق ومصر ومنهم العيلاميون في جنوب غرب ايران الذين لم يكتبوا بالخط المسماري فحسب بل تبنوا اللغة الاكدية في كتاباتهم وتركوا لغتهم الاصلية مثلهم مثل الغزاة الكوتيين والحثيين والكشيين والخوريين والاورارتيين والفرس وغيرهم من الذين مروا ببلاد وادي الرافدين ٠

وعلى اية حال فان اختراع الكتابة جاء كنتيجة للحاجة الملحة لحفظ سجلات الواردات الكبيرة التي كانت تصب في المراكز الحضارية في العراق وسوريا ومصر وغيرها من الاقطار العربية التي تميزت في رقي حضاراتها وما ابتكرته من الآت وادوات ومنسوجات وما كانت تجود به ارضهم المعطاء من محاصيل وفيرة ومتنوعة ٠

ومن المفيد ذكر ، ان العديد من العلماء يعتقدون بان الكتابة المسمارية التي ابتكرت في العراق هي اساس كل الخطوط في العالم وانه لا مجال للشك في ان الكتابة المسمارية واللغة الاكدية اصبحت في حدود القرن الخامس عشر ق٠م اللغة الدبلوماسية للمخاطبة لعدد من دول قاصية ودانية عن بلاد وادي الرافدين ٠

الدولة ونظام الحكم :

وما يقال عن الخط واللغة يقال ايضاً في مجال ظهور دويلات المدن وتطور ذلك الى دول موحدة وجيوش منظمة تحت قيادة ملوك عظماء بكل معنى الكلمة ٠ فلقد شعر البعض من هؤلاء الملوك بما نشعر به الآن حول اهمية وحدة الوطن والامة فحاول العديد منهم تحقيق ذلك ومن اشهرهم في هذا المجال سرجون الاكدي (٢٣٧١ ـ ٢٣١٦ ق٠م) وحفيده نرام سين

(٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ ق٠م) وحمورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق٠م) وسنحاريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق٠م) وخلفائه وبخاصة الملك العظيم اشور بانيبال (٦٧٢ ـ ٦٢٦ ق٠م) ، وماقام به الملوك المصريون والسوريون يصب في نفس الاتجاه فسرعان ما انتشرت مثل هذه الانظمة الادارية العالية الى الاقطار العربية الاخرى ومنها الى جيران الوطن العربي وعمت العالم بعد ذلك بفترات بعيدة وبخاصة تلك الانظمة الخاصة بترتيب الجيوش وتوزيع القطعات وادارتها ورفدها باساليب متطورة ومتعددة للقتال ٠

التعليم :

يدين العالم بالفضل الى سكان بلاد وادي الرافدين لابتكارهم نظام دور السجلات والارشيفات والمدارس مثلما يدين للمصريين باعتبارهم اول من صنع الكتاب ٠ وتجدر الاشارة هنا ايضاً الى ان اللغة والكتابة هي التي مكنت البشرية من نقل المعارف والعلوم والآداب والفنون وحفظها للاجيال اللاحقة ٠ كما ينبغي التأكيد على ان عام اللغة ليس من احداث العلوم كما يعتقد البعض بل ربما اقدمها فبالرغم من ان عامة الناس هم الذين اوجدوا اللغة فان علماء اللغة او «المعلمون» ، هم الذين وضعوا القواعد وطوروها ، وكان قصب السبق في تصنيف المقدرات اللغوية ونحوها وحفظ مقدراتها يعود للعراقيين حيث عثر على الكثير من «كتب» تعليم التهجية وكتب القواعد التي هي عبارة عن تصريفات نحوية ووصولا الى تاليف مايمكن تسميته بالمعاجم اللغوية Lexical - Texts كما ان موضوعات هذه المعاجم تفيد ايضا في تتبع جوانب مختلفة من معارف القوم وعلومهم بخصوص الكثير من الموضوعات ٠ وبعض هذه يتطرق الى ذكر الانهار أو الثمار او الحيوانات او الاحجار وغير ذلك في صورة تقرب كثيراً من طريقة التاليف الموسوعية التي تعرف ايضاً بدائرة

ونجدر الاشارة في هذا المجال ايضاً الى انه بالرغم من التباين في اللهجات او اللغات التي تكلم بها الناس الذين سكنوا بعض أجزاء الوطن العربي الا ان وحدة اللغة كانت هدف من الاهداف القديمة التي تحلى بها من عاش ابان الالف الثالثة ق٠م في سوريا والعراق وربما حتى في الجزيرة ٠ فنحن متأكدون من ان سكان ابلا (تل مرديخ) في سوريا قد تكلموا وكتبوا بالاكدية ٠ وخير مثال يذكر هو ما حدث في مطلع الالف الثاني ق٠م وذلك عند هجرة الامويين من بلاد سوريا واستقرارهم في العراق ، فالظاهر انهم تنحوا عن لغتهم او لهجتهم وتبنوا اللهجة البابلية الاكدية كتابة وتكلماً ، ففي فترة قصيرة نرى ان اسماءهم «السامية ـ الغربية» قد تبدلت الى اسماء اكدية ٠ ومادمنا نتحدث عن اللغة والكتابة فلا بأس اذن من ذكر ماذهب اليه بعض العلماء الاوربيين انفسهم عن ان لغاتهم القديمة شأنها شأن لغتهم الحديثة قد اغنيت ببعض المفردات البابلية والمصرية القديمة فعلى سبيل المثال ما اورده العالم جورج سارتون والاستاذ هنري ساكز وغيرهم :

مفردات باللغة الاكدية	في اللغات الاوربية وبخاصة الانجليزية	المعنى بالعربية
kasu	Cassia	القثاء
kamunu	Cumin	كمون
kurkanu	Crcus	كركم
gassu	Gypsum	جص
naptu	Naphtha	نفط
azupiranu	Saffron	زعفران
murru	Myrrh	مر
guhlu	Alcohd	كحول

قلي	Alkali	qalatu
قرن	Cornu	qarnu
من (وحدة وزن)	Mina	mana
شيقل	Shekel	siqlu
كرز	Cherry	karasu
مشمش	Armeniaca	armanu

وفي ختام حديثنا عن اللغة والكتابة لابد من الاشارة أيضاً الى ان العالم باسره يدين لهذه الامة العريقة باختراع اول ابجدية في التاريخ . سواء كانت مقاطع ابجدية مصرية او اوغاريتية (رأس شمرا في سوريا) او حروف ابجدية فنيقية او بنطية او آرامية او عربية المسند ، مثلما يدين العالم باول اختراع للاوراق البردية على يد المصريين .

الاداب :

ومما ينبغي التسليم به ان النتاج الادبي لهذه الامة ياتي في مقدمة المظاهر الحضارية التي تسلحت بها هذه الامة لما لهذه الاداب من سمة عالمية وذلك لمعالجتها أروع المثل في الحياة الانسانية . ان اهم مايميز هذا النتاج الادبي كونه اقدم الآداب في العالم . ومما عزز هذه الميزة هو ان هذا النتاج الفكري العالي قد جاءنا بهيئته الاصلية دون تحوير . واذا ما اردنا الحديث عن اثر هذا الادب على الاداب الاخرى فمن المعروف أن الادب العراقي القديم ترك أثراً واضحاً في اداب الامم القديمة وانه أنتشر الى أرجاء واسعة من العالم القديم . فأثر ملحمة كلكامش واضح على الادب الحثي والخوري واليوناني والهندي وايراني وغيرهم . ومن القطع الادبية الفريدة التي نذكرها قصة فقير نفر، التي وجدت نسخة منها في سلطان تبه في تركيا والقطعة الادبية الرائعة المعروفة بقصة أدبا التي عثر عليها في تل العمارنة في مصر . وجدير بالذكر ان الحثيين كثيراً ماقاموا بنقل العديد

من المقومات الحضارية وبضمنها الادب الى اليونان وغيره من بلـدان اوربا بحيث يستطيع الباحث ان يشخص العديد من مقاطع ملحمة كلكامش في الادب اليوناني وبخاصة في الالياذة والاوسة ·· ويستطيع الباحث ايضـاً ان يشخص بعض التأثيرات الكنعانية والاموية والسورية والتأثيرات المصرية بشكل واضح ليس على الاداب القديمة فحسب بل في استمرار اثرها فـي النواحي الروحية لحضارتنا حتى الوقت الحاضر ·

المعتقدات الدينيـة :

ونتنقل الآن لالقاء بعض الضوء على المعتقدات والافكار الدينية التـي هي دون ادنى شك من نتاج انسان وطننا العربي ذلك لان للديانة اثـــر كبير في حياة الفرد والمجتمع وهو من اهم العوامل الروحية المؤثرة في سير وتطور حضارة الوطن العربي فاثر الدين على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفنية واضح في معظم المراكز الحضاريـــة العربية · امـا السمات المشتركة او الوحدة الحضارية لهذا النتاج الروحي للامة فيمكن ان نتلمسه من خلال العديد من الامثلة وبخاصة تلـــك الافكار والطقوس الخاصة بعبادة اله الخصب تموز الذي عرف باسم بعـــل عند الكنعانيين السوريين واوسيرس عند المصريين وظهوره بنفس الاســـم في معتقـدات العبرانيين · والبحوث في هذا المجال كثيرة وبخاصة بحوث استاذي وزميلي الدكتور فاضل عبدالواحد علي · وفي هذا المجال ايضاً تجدر الاشارة الى كتاب الاستاذ جيمس فريزر (The Goloen Bough) «الغصن الذهبي» الذي ترجم جزء منه الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا وكتاب استاذي البروفسور ساكز «عظمة بابل» (The Greatness that was Babylon) .

اما انتشار مثل هذه المعتقدات الى الحثيين والخوريين ومنهم الى اليونان حيث انها تركت اثراً واضحاً في قصة ادونيس وفروديت فواضح ·

ويذكر في هذا المجال ايضاً انتشار فكرة الطوفان وقصة خروج آدم من الجنة وقصة مولد سرجون المشابهة لقصة مولد النبي موسى وقصة النبي ايوب ٠٠ اضف الى ذلك فكرة التفريد وفكرة التثليث وافكار اخرى خاصة بالصراع بين الخير والشر والتي وصلت الى الكثير من الامم ومنها الهندية والايرانية ٠ ولعله من المفيد ايضاً ذكر بعض الافكار الأخرى ذات العلاقة بالطبيعة وتقديس بعض المظاهر الطبيعية المتمثلة بالشمس والقمر والنجوم والبرق والرعد والمطر وغير ذلك من المظاهر الطبيعية ، وتشبيه الآلهة على هيئة بشر واعطائها صفات وطبائع البشر ، فهي تأكل وتشرب وتتزوج ولها ذرية ولها مجلس تتبادل فيه الرأي كما انها تدخل في صراعات بعضها مع البعض الآخر على غرار ما يفعل البشر تماماً ٠

التنظيمات الاجتماعية والقوانين :

واذا ما انتقلنا في حديثنا الى التنظيمات الاجتماعية والقوانين فان العديد من الباحثين قد تحدثوا عن قصب السبق لبلاد وادي الرافدين في هذا المجال ٠ وخاصة تلك التنظيمات المتعلقة بالزواج والطلاق والتبني واعتماد «الديمقراطية» ، او على اقل تقدير شكل من اشكالها التي لم يصل اليه الاوربيون او غيرهم من الاقوام الا بعد السومريين والاكديين والكنعانيين والمصريين بعشرات القرون ٠ وفي هذا الخصوص يمكن ان نكتفي بالمثال المعروف حول مجالس الشيوخ ومجالس المحاربين في دولة المدينة السومرية ٠ ان مثل تلك الانظمة خلقت بالضرورة قادة متفانين ومتميزين عن غيرهم بالكثير من العطاءات ٠ اما في مجالس التشريعات القانونية فيمكن ان نشير الى اقدم ما وصلنا منها من العراق حوالي (٢٤٠٠ ق٠م) وهي اصلاحات اور واتمكينا ومن ثم تشريعات اور نمو (٢١١٣ ـ ٢٠٩٥ ق٠م) وقانون ليت ـ عشتار (١٩٣٤ ـ ١٩٢٣ ق٠م)

وقوانين مملكة اشنونا التي ظهرت بعد ذلك بقليل ، وقوانين حمورابي الشهيرة (١٧٩٢ ــ ١٧٥٠ ق٠م) ٠ التي حاول الغزاة العيلاميون تحريفها ٠ ثم القوانين الاشورية الوسطية والحديثة وبعض التشريعات البابلية الحديثة ٠ ان كل تلك القوانين اثرت بشكل مباشر في انظمة وقوانين الاقوام الاخرى كالحيثيين والخوريين والاقوام الفارسية والاغريق والرومان وغيرهم ٠ ولايزال اثر العديد من هذه التشريعات قائم الى يومنا هذا ٠ وقد تطرقنا الى تفاصيل هذا الموضوع في بحث لنا نشر في مجلة سومر

المعارف والعلوم :

ومن الامثلة الاخرى التي ترينا الوحدة الحضارية لهذه الامة المجيدة هو ما ساد الاقطار العربية ابان العصور التاريخية من تقدم في مجال المعارف والعلوم وانتشارها وتأثيرها على العديد من البلدان والامم ٠ ففي مجال التدوين التاريخي الذي كثيراً ما نسبت الاسبقية فيه الى اليونان وابنها هيرودوتس ، الا ان الدراسات المسمارية اماطت اللثام عن كون العراقيين هم السباقين في هذا المضمار وخاصة ما يتعلق بقوائم سني حكم الملوك وحولياتهم وصولا الى كتابة مايعرف«بكتب الاخبار»

ومن المعارف المهمة ضبط مشاريع الري واقامة السدود وشق القنوات ، والتعدين ومزج المعادن للحصول على معادن افضل بالاضافة الى صناعات محلية متعددة ومنها صناعة الزجاج وصولا الى الحد الذي مكن البعض من البابليين محاكاة احجار اللازورد الاصلية وارسالها الى الملوك الحثيين كهدايا ولسنين طويلة دون ان يكتشف احد ذلك الا بعد وقت طويل ٠ وان دل هذا على شيء فانما يدل على المكانة العالية التي وصلها العراقيون في علم الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية ٠

اما بخصوص علم الرياضيات فمن المعروف انـــه كـان العراقيون والمصريون اول من وضع اسس هذا العلم . وبات من المؤكد ان الكثير من المبادىء الرياضية التي كانت تعزى الى رياضي اليونان مثل فيثاغورس واقليدس وغيرهم ، كان قد سبقهم اليها العراقيون والمصريون بالـف عام أو يزيد .. ويدين العالم باسره للعراقيين في تثبيت المرتبـــة العدديـــة واستخدم النظام الستيني الذي بقيت آثاره الى يومنا هذا في تقسيم الساعة والدوائر وحساب درجاتها بالاضافة الى تقسيم الايـام الى ساعات وكثير من اسماء الاشهر وانظمة القياس والاوزان . ومثلما يدين العالم للبابليين يدين للمصريين ايضاً باستعمال النظام العشري وكتابة الكسور والمعادلات المختلفة .. ولقد ظل الكثير من الكتاب الاغريق يعتبرون المصريين اساتذتهم في الرياضيات شأنهم شأن اولئك الذين تتلمذوا على ايدي البابليين فـــي مجال علوم الفلك والتنجيم .. ويجب ان لايفوتنا هنا التأكيد على توصـــل العراقيين في العهد البابلي المتأخر الى ابتكار مرتبة الصفر وعملوا بـــه والذي كتب بهذه العلامة Chrnicles اما علم الهندسة الذي يعتقد بانـــه نشأ في مصر والجبر الذي نشأ في بلاد وادي الرافدين فتأثيرها على العالم القديم واضح وجلي فلم يصل الكثير من الغربيين الى المرحلة التـــي وصلها المصريون والبابليون الا بعد الاف من السنين . اضـــف الى ذلـــك كلـــه كتابة الارقام .

ان تقدم الحضارة العربية في مجال الرياضيات مكنهم من الخوض في مضمار علوم اخرى كعلم الفلك حيث وصلتنا ارصاد دقيقة عن الكواكب والنجوم والمذنبات . وان السبق في هذا المجال هـــو للعراقيين بالتأكيد الذين اشتهروا به منذ الالف الثانية ق.م وربما قبل ذلك وتطور عـــلى ايديهم في الفترات اللاحقة . اما تاثير هـــذا العلم عـــلى الامم والبلـــدان

فلا زال شاخصا في مايعرف بالابراج ورصد الظواهر الطبيعية ودورتهـــا وبخاصة مايتعلق بالخسوف والكسوف ·

العمارة والفنون :

اما في مجال العمارة والفنون فوحدة الحضارة العربية في هذا المجال واضحة ايضاً · فبالنسبة لابنية بلاد وادي الرافدين وماري (تل الحريري) فهي متشابهة ، وابنية آشور وكوزنة (تل خلف) والزقورة والهرم المدرج والاعمدة والاقواس ومواد البناء وفنون النحت والحفر والزخرفــة · اما تأثير هذه النتاجات على عمارة وفنون الامـــم والبلدان فواضــــح بالنسبة للحثين والخوريين والاورارتيين وايرانيين وبلاد اليونان والرومان وغيرهم ولا مجال هنا للحديث بالتفصيل ·

خاتمـــة :

من كل ما تقدم نستطيع ان نقول وبكل ثقة بانه لاتوجد أمة من الامم ذات حضارة اصيلة كأصالة حضارة الامة العربية ، حضارة متواصـــلة قدمها قدم الانسان نفسه · فاية امة في العالم تمتلك مثل هذه الجـــذور الحضاريـــة ؟

ان تحدي بعض الامم ، وبخاصة الامم الحاقـدة والحاسـدة لامتنا العربية اتخذت شكلا تخريبياً من اجل الحد من دور بعض الناس المتميزين في قطر ما أو الحد مـــن دور قطر متميز على غيره من الاقطار ، ولذلــك فإن ما اصاب العراق ومصر من تخريب على يد تلك الامم الحاقدة شـــاهد على آثامهم ·· اما اعتداءاتهم المتكررة فكانت تستهدف قبل كل شيء المراكز الحضارية والفكرية · فتخريب اكد ومن ثم اور والوركاء ونفر وسبار وفي الفترة الاخيرة من العهد البابلي الحديث والتآخر نينوى وبابل والحضـــر والحيرة في نهاية العهود القديمة شاهد على جرائم تلك الاقوام الحاقدة ·

وبدلا من ان تعترف بعض الامم المجاورة بالجميل الذي قدمته لها الامة العربية في عصورها القديمة والعربية الاسلامية عندما اخذت كثيراً من المفاهيم والمنجزات والمظاهر الحضارية من بلاد وادي الرافدين والاقطار العربية الاخرى ، لكنها تمادت في غيها وذهبت تحاول تخريب المراكز الحضارية في الاقطار العربية بشتى الوسائل . ان الشواهد التاريخية على هذا النهج العدواني التخريبي واضحة كل الوضوح خلال الحقب التاريخية المختلفة . لكن الوطن العربي وفي مقدمته العراق سيبقى ينبوعا لاينضب للعطاء ولاغناء البشرية من اجل خيرها وسعادتها .

ـ (قدم ملخص هذا البحث بعنوان «التحدي الحضاري للامة ؟ في الندوة الفكرية الثانية في فكر الرفيق القائد صدام حسين ، فرع الرشيد ، ٥/٥/١٩٨٤») ـ

المراجع

(١) د. فاضل عبدالواحد علي ، عشتار ومأساة تموز بغداد ١٩٧٣ .

(٢) د. فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان في المراجع المسمارية ، جامعة بغداد ١٩٧٥ .

(٣) د. فاضل عبدالواحد علي ، صبر ايوب بين النصوص المسمارية والتوراة ، مجلة كلية الاداب ، عدد ٢٣ سنة ١٩٧٨ .

(٤) د. فاضل عبدالواحد علي ، «جنة عدن والفردوس المفقود» ، مجلة كلية الاداب ، ٢٣ ، ١٩٧٨ .

(٥) د. فاروق ناصر الراوي ، «الوثائق المسمارية» : شواهد على انتصاراتنا في عيلام ، مجلة بين النهرين ٣٤ ـ ٣٥ سنة ١٩٨١ .

(٦) د. فاروق ناصر الراوي ، «معارك النصر : سجلاتها في الكتابات المسمارية» ، المؤتمر العلمي الاول لجمعية المؤرخين والاثاريين في العراق بغداد ١٩٨١ .

(٧) د. فاروق ناصر الراوي ، «الرياضيات : احد اهم المظاهر الحضارية في العراق القديم «الندوة العلمية الوطنية» للمؤسسة العامة للآثار والتراث بغداد ١٩٨٣ .

(٨) د. فاروق ناصر الراوي . «الاعتداء والايذاء» سومر . ٢٨ .

(٩) مجموعه من الاساتذة والباحثين . العراق في التاريخ . وزاره الاعلام، بغداد ، ١٩٨٣ .

(١٠) مجموعه من الاساتذة والباحثين ، الصراع العراقي الفارسي ، وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٨٣ .

(١١) جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ترجمة مجموعـــة مـــن الباحثين العرب ، مصر ١٩٥٧ .

(١٢) ابو الوفاء البوزجاني ، علم الحساب العربي – حساب اليد ، تحقيق د. احمد سعيدان ، الاردن ، عمان ١٩٧١ .

(١٣) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

(١٤) طه باقر ، مقدمة في ادب العراق القديم ، بغداد ، ١٩٧٦ .

(١٥) جيمس فريزر ، ادونيس او تموز . دراسة في الاساطير والاديان الشرقيه القديمة ، ترجمـة جبرا ابراهيم جبرا . المؤسسه العربيـة للدراسات والنشر ١٩٧٩ .

(١٦) وليم ن. اولبريت ، آثار فلسطين، ترجمة زكي اسكندر و د. محمد عبدالقادر محمد ، مصر ١٩٧١ .

(١٧) مارتن ليفي ، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، ترجمة د. جليل كمال واخرون ، وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ .

(١٨)

(18) A.K. Grayson, Assyrian and Babylonian chronicles, U.S.A. , 1975.

19 — S.N. Kramer, The Sumerians, U.S.A. , 1967 .

20 — D. Neugebauer, The Exact Sciences in Antiquity, U.S.A. , 1962 .

21 — Dond j .Oates, The Rise Civitization, London, 1976 .

22 — J. Raux, Ancient Iraq, Penguin, 1964

24 — H.W.F. Saggs, Everyday life in Babylonia and Assyria, london, 1968 .

23 — H.W.F. Saggs, The Creatness that was Babylon, London , 1968 .

25 — D.J. Wiseman, Peoples of Old Test ament Times, London ; 1973 .

الدول الكبرى واستقلال اليونان
١٨٢١ - ١٨٣٢

الدكتور هاشم صالح التكريتي
كلية الاداب - جامعة بغداد

كانت السيطرة العثمانية على اليونان تعيق تطور الزراعة والصناعة الحرفية والتجارة الداخلية في اليونان ، ولهذا فقد كان الموسرون يفضلون استثمار رؤوس أموالهم في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب · وقد اتسعت الملاحة اليونانية بشكل كبير بعد عقد معاهدة كجك كينارجة ، لان هذه المعاهدة ضمنت حرية الملاحة التجارية خلال المضايف وأصبح رعايا الدولة العثمانية المسيحيون بموجبها يتمتعون بحماية روسيا · وهكذا شهدت التجارة اليونانية توسعاً لم يسبق له مثيل وظهرت المراكز التجارية اليونانية في جميع الموانىء الكبرى الواقعة على البحرين المتوسط والاسود·

وكان اليونانيون ينقسمون الى فئتين الأولى أقلية موسرة تتمتع بكل مباهج الحياة ويشغل المنتمون اليها في جهاز الدولة العثماني أعلى الوظائف حتى أن الحكومة العثمانية كانت تعين أفراداً من هذه الفئة حكاماً لأقاليمها المسيحية في البلقان · لقد كان نفوذ هذه الأقلية التي تعرف بالفناريين (نسبة الى حي الفنار في اسطنبول) من السعة بحيث «ان تركيا المسيحية كانت في منتصف القرن الثامن عشر في ايدي اليونانيين»(١) · أما الفئة الثانية فهي الأغلبية الساحقة من اليونانيين الذين كانوا يعيشون في فقر شديد وجهل مطبق وظروف حياتية قاسية ، ويتعرضون لمظالم الأتراك والحكام من اليونانيين على السواء ·

لقد أدى اتساع التجارة في اليونان الى تكون وتنامي البرجوازية

اليونانية التي أصبحت تعاني من الحكم العثماني ولهذا فقد أخذت تسعى الى التخلص منه • وكان ذلك أساساً لظهور اتجاهات فكرية تحررية مختلفة • ففي الوقت الذي كان فيه بعض المتنورين اليونانيين يدعون الى انشاء جمهورية في اليونان بعد تحريرها من السلطة العثمانية كان الفناريون يسعون الى انشاء امبراطورية واسعة تضم الشعوب الاخرى في شبه جزيرة البلقان • اما الفلاحون اليونانيون الذين كانوا يتعرضون للاستغلال ويعيشون حياة صعبة فقد شنوا طوال القرن الثامن عشر كفاحا مسلحاً ضد السيطرة العثمانية فكانت فصائل الانصار التي يطلق عليها اسم «كايفتي» تواصل حربها ضد العثمانيين ، الى جانب الانتفاضات التي كانت تقوم في المدن بين آونة واخرى(٢) •

تكونت في بداية القرن التاسع عشر جملة من الظروف ساعدت على اتساع النضال القومي في اليونان • فقد تفاقم الصراع الداخلي في الدولة العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وضعفت سلطة الحكومة المركزية العثمانية مما أدى الى قيام حركات انفصالية قام بها عدد من الباشوات المحليين ، ثم جاءت الحرب الروسية ـ العثمانية ١٨٠٦ ـ ١٨١٢ والنجاحات التي حققتها حركة التحرر في (صربيا) فعمقت تفاقم الأزمة الداخلية في الدولة العثمانية ، وازادت من ضعفها واظهرت استعداد روسيا ، لمساعدة الشعوب البلقانية الساعية الى التحرر من سيطرة الدولة العثمانية ، تحقيقاً لتوسيع وترسيخ نفوذها في البلقان •

وهكذا تأسست في أيلول ١٨١٤ في مدينة أوديسا الروسية ، التي كان يعيش فيها عدد كبير من التجار اليونانيين جمعية سرية اطلق عليها اسم : «فيليكي اشيريا» (جمعية الاصدقاء) وليس «هيتريا» كما اعتاد الباحثون على تسميتها(٣) ، تألفت في البداية من التجار اليونانيين القاطنين

في روسيا ثم وسعت نشاطها ليشمل اليونان نفسها واقاليم الدولة العثمانيه المختلفة في اوربا واسيا والجاليات اليونانية في أقطار اوربا الغربية - وفي عام ١٨١٨ نقلت الجمعية مركزها الى اسطنبول وبدأت تقيم اتصالات ليس مع اليونانيين فحسب ، بل مع السلاف والرومانيين ايضاً وحددت هدفها بتحرير اليونانيين وشعوب البلقان الاخرى من السيطرة العثمانية ، وبذلك تكون «اول جمعية ثورية في البلقان نشرت نشاطها في جميع الاراضي اليونانيه وبين الجاليات في الخارج»[٤] . وفي عام ١٨٢٠ أصبح الكسندر أبسيلانتي وهو ابن كوسبودار (حاكم) ولاكيا السابق ويعمل ضابطاً في الجيش الروسي زعيماً للجمعية التي اخذت تتوسع بسرعة حتى أصبح عدد اعضائها في عام ١٨٢٠ يتراوح مابين ٨٠ ألف و ٢٠٠ ألف عضو[٥] .

شجعت الانتفاضات التي قامت في اسبانيا والبرتغال والدويلات الايطالية الوطنيين اليونانيين وحفزتهم على العمل ، فقررت جمعية «فيليكي ابتيريا» القيام بالثورة . وعلى هذا الأساس عبر الكسندر ابسيلانتي في اذار عام ١٨٢١ نهر بروت الى ملدافيا على رأس فصيل عسكري صغير هادفاً دفع الشعوب البلقانية الى الثورة على العثمانيين ، غير انه فشل في الحصول على اسناد الفلاحين في امارتي الدانوب لانه رفض الغاء امتيازات النبلاء[٦] كما فشل في الحصول على تعاون أمير صربيا مياوش ابريوفتش في عندما اقترح عليه في بداية عام ١٨٢١ عقد حلف دفاعي وهجومي ، وفشل ايضاً في التعاون مع تيودور فلاديمير سكو الذي نجح في تنظيم انتفاضة كبيرة في ولاكيا ، كما ان آماله التي علقها على الاسكندر الروسي لم يكن لها اساس . فقد بادر الكسندر الاول بمجرد سماعه بغزو ابسلايتني للراقيا الى احالته عن وظيفته في الجيش الروسي ورفض مناشدته بالعون ، بل

وسمح للعثمانيين بان يرسلوا جيشا الى مارافيا لاعادة النظام اليها وقــد تمكن هذا الجيش من القضاء على قوات ابسيلانتي الذي اضطر الى اللجوء الى النمسا فقضى السنوات السبع التالية في احد سجونها(٧) ، الى ان أطلق سراحه في عام ١٨٢٧ بتدخل من روسيا ، ثم توفي في السنة التالية .

كانت حملة ابسيلانتي الفاشلة محفزاً للثورة في اليونان نفسها اذ لم تلبث ان اشتعلت في بداية نيسان انتفاضة واسعة في المورة بدأها الثوار بالقيام بمذبحة عامة ضد الاتراك هناك(٨) . وردت السلطات العثمانية على ذلك باتخاذ اجراءات صارمة ضد اليونانيين ، فأعدمت عدداً من الفناريين البرزين ممن تعاون مع «جمعية الاصدقاء» وتعرض الموكب الذي نظــم بمناسبة عيد الفصح في نيسان ١٨٢١ لهجوم من جانب الانكشارية واعدم البطريرك اليوناني في اسطنبول . غير ان هذه الاجراءات لـم تؤد الا الى اتساع الانتفاضة في اليونان ، فشملت بعض الجزر اليونانية في بحر ايجه واحرز الثوار عدداً من الانتصارات على قوات المكرمة ؛ ولم تلبث فصائلهم ان استولت على عدد من المدن والمواقع المهمة وفي مقدمتها اثينا وقلعــة تريبوليتسا المهمة ، وقام الثوار في اثناء ذلك بمذابح شنيعة ضد الاتراك ذهبت ضحيتها اعداد غفيرة من الرجال والنساء والاطفال(٩) . وقد بلــغ عدد الذين ذبحهم اليونانيون من الاتراك المقيمين في شريبوليتا فقط بعد ان استولوا عليها مايزيد على ثمانية الاف شخص(١٠) . وفي كانون الاول من عام ١٨٢١ عقد الثوار مجلساً تمثيلياً اعلن استقلال اليونان واقر في ١٣ كانون الثاني عام ١٨٢٢ دستوراً نص على سيادة الشــعب والمساواة امام القانون ، وأناط ادارة البلاد بمجلس تشريعي ينتخب سنوياً ويتألف من نواب يمثلون الاقاليم المختلفــة ، وبمجلس تنفيذي يمثل السلطـة التنفيذية العليا ويتألف من خمسة اشخاص ويتمتع بصلاحيات واسعة .

وجرى تعيين أعضاء المجلس التنفيذي الخمسة واختير لرئاسته ماوروكور داتوس المعروف بميله الى بريطانيا(١١) .

كان لابد لأحداث اليونان ان تجذب انتباه الدول الاوربية الكبـــرى التي كان لكل منها مخططاتها الخاصة في اليونان وفي البلقان عموماً ، ولهذا فمن الطبيعي ان تسعى كل من هذه الدول الى استغلال الانتفاضة اليونانية لتحقيق مخططاتها . وأول هذه الدول كانت روسيا التي انتهجت في هذه الفترة سياسة مزدوجة ، وقد انعكست هـــذه الازدواجية حتى في الجهاز الذي كان يسير الدبلوماسية الروسية ، ونعني بـه وزارة الخارجية حيث كان يقف على رأس شخصان لاشخص واحد كما هو المألوف ، متساويان في الحقوق والصلاحيات ، هما ، الكونت نسلرودية ، والكونت كابودستريا اليوناني . وكان كل من هذين السياسيين يعكس جانبـاً مـــن توجيهات القيصر الكسندر الاول ، فنسلروديه كان محافظاً يسعى الى دعم الحلـف المقدس ويعمل على تحقيق اهدافه ، بينما كان كابود ستريا وطنياً يونانياً ينفذ رغبات القيصر في توسيع النفوذ الروس في البلقان وكان يوحي للقيصر بان تحرير اليونان بمساعدة روسيا من شأنه ان يعزز النفوذ الروس فـــي البلقان ويحاول اقناعه بأن الدفاع عن الارثوزكس الخاضعين للدولـــــة العثمانية «يوفر تغطية ايدولوجية للحقيقة التي تربك القيصر ونعني حماية الثوار اليونانيين ضد عاهلهم الشرعي السلطان»(١٢) .

ولكن الامور لم تجر على النحو الذي كان يريده كابودستريا ، ففـــي مؤتمر الحلف المقدس الذي عقد في تروباو في ٢٠ تشرين الاول عام ١٨٢٠ وانتهى في لايباخ في ١٢ ايار عـــام ١٨٢١ استطاع مترنيخ ان يبعد تأثير كابودستريا عن القيصر فقد استغل الانتفاضات الثورية التي اشتعلت في عام ١٨٢٠ في اسبانيا ونابولي وبيدمونت والتي انعقد المؤتمر للنظر فيها،

وكذلك قيام احد افواج الجيش الروسي بتظاهرة ثورية ، لاقناع القيصر بان روسيا نفسها بدأت تشهد احداثاً ثورية مشابهة لما يجري في اسبانيا ونابولي فاستطاع بهذه الطريقة ان يدفعه الى المشاركـــة في ادانة الثوار اليونانيين . والواقع أن اخبار الثورة اليونانية التي وصلت الى الكسندر الاول وهو في لايباخ احرجته كثيراً ، ففي الوقت الذي كان فيـــه القيصر يناقش مع زملائه الاخرين في المؤتمر وسائل اخماد لهيب الثورة في اسبانيا والدويلات الايطالية يقوم جنرال في الجيش الروسي هو ابسلانتي باشعال الثورة على قرب مباشر من حدود الدولة الروسية . ولهذا فقـــد سارع الكسندر الاول الى ادانة الهبة الثورية الجديدة وسهل للدولـة العثمانية عملية اخمادها كما اشرنا فكان ذلك نصراً واضحاً لمترنيخ الذي صرح قائلا: «نحن نجر الامبروطور الكسندر وراءنا ...»(١٣) .

ومع ذلك فقد تبين بعد فترة قصيرة ان هذا الموقف يتعارض مـــع «صالح الحكومة الروسية لانه كان يؤدي الى تقويض سمعة روسيا في نظر الشعوب البلقانية فضلا عن أن التدابير التي اتخذتها الحكومة العثمانيـة ضد الملاحة التجارية اليونانية ادت الى الاضرار بالتجارة الروسية في البحر الاسود كما ان ارسال الدولة العثمانية قواتها الى أمارتي الدانوب يعـــد خرقاً للاتفاقيات والمعاهدات المعقودة بين الحكومتين الروسية والعثمانية . وقد كان لذلك كله اثره في تغيير موقف الحكومـة الروسية التـي بادرت فطلبت من ستروغونوف ــ سفيرها في اسطنبول ان يقدم الى الحكومــة العثمانية انذاراً يطلب فيه «سحب القوات العثمانية من امارتـي الدانوب واعادة حرية الملاحة عبر المضايق وايقاف ملاحقة السكان الارتوذكس الذين ليست لهم علاقة بالانتفاضة» ويشير فيه الى أن رفض الحكومــة العثمانية لذلك يضعها «في علاقات عدائية مكشوفة مع كل العالم المسيحي» و «يضفي

الشرعية على حماية اليونان وستبري روسيا لهم (هـــذه) الحماية(١٤) ، وفرض ستروغونوف بقطع العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين اذا اقتضى الامــر ٠

قدم ستروغونوف الانذار المذكور في تموز عام ١٨٢١ ولكن الحكومة العثمانية رفضته وعدته تدخـــلا في شؤون الدولـــة العثمانية وممتلكاتها (١٥) ٠ عند ذلك اعلن ستروغونوف عـن قطـــع العلاقات بين الدولتين في ٢٧ تموز عام ١٨٢١(١٦) ٠ وهكذا توتر الجـو بين الجانبين وكادت الحرب ان تقع بينهما ٠ وكانت روسيا تأمل في الحصول على اسناد الدول الأوربية لمخططاتها ولهذا فقد اقترحت على تلك الدول الدخول فـي مفاوضات للتوصل الى اتفاق في حالة رفض الحكومة العثمانيـة الانـــذار الروسي وقيام الحرب بين روسيا والدولة العثمانية وطلبت مـن سفرائها في الدول الاوربية ان يسألوا حكوماتها عن رأيها فيما يتعلق بمصير الدولة العثمانية وعن الأساليب التي تعتقد ان من الممكن بواسطتها عقـد اتفاقية بينها بهذا الشأن(١٧) ٠ غير ان هذا الاقتراح لـــم يصادف القبول لـــدى الحكومات الأوربية ٠ بل أن مترنتج فعل كل ما في وسعه لكـــي يمسك بالقيصر عن اعلان الحرب على الدولة العثمانية وساندە في ذلك حلفاؤه في الحلف المقدس واخذوا جميعاً يسعون لاقناع القيصر بان الحـــرب ضـــد السلطان ستؤدي الى اتساع الحركة الثورية في الاقطار الاوربية الاخرى ٠ حتى بريطانيا ، التي كانت تعارض الحلف المقدس ، كان لديها من الاسباب ماجعلها تنضم في هذه القضية الى دول هذا الحلف ، ذلك ان تدخل روسيا في الشؤون اليونانية عسكرياً كان سيؤدي ، من وجهة النظر البريطانية ، الى خرق التوازن الاوربي ، وفي حالة قيام الحرب بين روسيا والدولـــــة العثمانية فان الاحداث ستقع على مقربة من الطرق المؤدية الى الامبراطورية

البريطانية في الشرق · كذلك فان اليونان ، التي قامت فيها الثورة ، تقع بالقرب من الجزر الايونية التي تحتلها بريطانيا الامر الذي يهدد بحدوث تعقيدات لايمكن التنبؤ بنتائجها بالنسبة للسلطة البريطانية في هذه الجزر لاسيما وان ا وزير الروسي كابودستريا الذي ، هو اصلا من هذه الجزر ، لم يكن راضياً عن الادارة البريطانية لها ويعتقد بأن الحكم البريطاني لهذه الجزر يقضي على كل امكانية لتقدمها وازدهارها · ولهذا كله انضم كاسلري الى الدول الاوربية الاخرى في مساعيها لابعاد القيصر الروسي عن اليونانيين ومنعه من اعلان الحرب على الدولة العثمانية فكتب في ٢١ تموز ١٨٢١ الى السفير البريطاني في بطرسبورغ طالباً منه ان يخبر القيصر بان «اليونانيين يمثلون روح الغضب المنظم التي تجري الدعوة لها في اوربا بشكل منتظم والتي تظهر على شكل انفجار في كل مكان تضعف فيه لأي سبب يد السلطة الحاكمة»(١٨) ، واعلن في جوابه على الاقتراح الروسي المشار اليه اعلاه «بان الوزارة الانجليزية ترغب في ان ترى الباب العالي متفوقاً ··· فتلغى بهذه الطريقة البسيطة التعقيدات التي قامت في الشرق»(١٩) .

وهكذا فبدلا من ان تستجيب الحكومات الاوربية للاقتراح الروسي ، فتتقدم كل منها بمطاليبها تجاه الدولة العثمانية كما كان القيصر يأمل ، أرسل ممثلو بريطانيا والنمسا وفرنسا وروسيا والدبلوماسيون في اسطنبول الى اليونان ، رسالة يذكر فيها «بأن أي انتفاضة ضد العاهد الشرعي تدينها مبادىء الانجيل المقدس ومبادىء السياسة النظيفة على السواء»(٢٠) .

وهكذا وجد الكسندر الأول نفسه وحيداً في هذه القضية فدفعه ذلك مع اسباب أخرى في مقدمتها الوضع المالي الصعب الذي كانت روسيا

تعاني منه ، وعدم استعداد الجيش الروسي لحرب طويلة ، والخلافات في وجهات النظر بين مختلف عناصر الفئة الحاكمة ؛ الى العدول عن محاربة الدولة العثمانية والابتعاد عن اليونانين والعودة الى الألتزام بالبيان الذي وقعته كل من روسيا والنمسا وبروسيا في ١٢ أيار ١٨٢١ والذي اكد مبادىء الحلف المقدس(٢١) • ولم يعد من الملائم في ظل مثل هذه الظروف الابقاء على كابودستريا الذي كان يلح على مناصرة اليونانيين بقوة السلاح لو اقتضى الامر بحجة ان ذلك من شأنه ان يعزز النفوذ الروس في البلقان وفي الشرق الادنى عامة ، ولهذا فقد أبعد عن الشؤون اليونانية ومنح اجازة مفتوحة ثم سافر الى سويسرا •

وكانت القوات النمساوية قد قامت قبل ذلك باخماد الثورة في كل من نابولي وبيدمونت بتفويض من مؤتمر لايباخ الا أن بريطانيا وفرنسا احتجتا على تدخل دول الحلف المقدس في شؤون الاقطار الاوربية الاخرى • والواقع ان تحولا باتجاه الابتعاد عن الحلف المقدس اخذ يلاحظ في السياسة البريطانية منذ السنة الاخيرة لعهد كاسلري(٢٢) • وقد برز هذا التحول وأصبح اتجاهاً سائداً في السياسة الخارجية البريطانية في عهد جورج كاننغ الذي اصبح وزيراً للخارجية في ايلول عام ١٨٢٢ بعد انتحار كاسلري في أب من السنة ذاتها • وعلى الرغم مما ان هذا التحول ارتبط باسم كاننغ ، الا انه كان في الواقع امراً حتمته الظروف الداخلية في بريطانيا انذاك ، فلقد تعاظمت حركة المطالبة بالاصلاح البريطاني في انكلترا فاصبحت تنذر بالثورة • ولما كان كاننغ يمينياً ومناهضاً للاصلاح البرلماني فقد اراد ان يحد من حركة المطالبة بالاصلاح ويتفادى الثورة في الوقت نفسه فوضع لذلك برنامجاً اعتقد ان تنفيذه بنجاح سيؤدىء الى ان تحصل البرجوازية الانجليزية ، التي كانت على رأس الحركة ، على

امكانات واسعة وتنفتح امامها آفاق الاثراء والنهوض الاقتصادي ، الامر الذي سيفضي الى تخفيف حدة الحركة المطالبة بالاصلاح البرلماني ، ولتحقق هذا المنهاج كان ينبغي انتهاج سياسة لاتقوم على مناهضة حركات التحرر الوطني والقومي في اوربا وامريكا اللاتينية وقمعها كما يريد الحلف المقدس ، ، بل ينبغي استغلال هذه الحركات لان انتصارها سيؤدي الى قيام دول جديدة ستكون بحاجة الى المنتجات الصناعية والاموال لتقديم المساعدة . مما سيجعلها تتجه بادئ الأمر الى بريطانيا ، الدولة الصناعية المتقدمة المؤهلة اكثر من سواها لتقديم العون والمساعدة .

ولهذا فان كاننغ لم ينظر الى اليونانيين على انهم «الوجه البلقاني» للكاربوناريين كما كان يفعل سلفه ، بل كان يعتقد بامكانية التفاهم مع قادتهم عن طريق الاستجابة للظواهر الجديدة وتكييف هذه الظواهر بما يتفق ومصالح بريطانيا(٢٣) .

وهكذا فعندما انعقد مؤتمر فيرونا في ٢٠ تشرين الاول عام ١٨٢٢ كانت بريطانيا قد قررت انتهاج سياسة جديدة وقد اختارت الحكومة البريطانية الروق ولنكتون ليكون منووباً عنها في المؤتمر ، وزودته بتعليمات قاطعة تقضي بعدم توريط بريطانيا في اي قرار أو توصية تحتم عليها ان تساعد بشكل مباشر او غير مباشر التدخل الذي كانت الدول الكبرى تعد له ضد اسبانيا كما تقضي بالعمل على اعاقة روسيا عن ان تهب منفردة ضد الدولة العثمانية وعدم الاشتراك تحت اي ظرف في اي اعلان تصدره الدول الاخرى ويجري الحديث فيه عن حق اسبانيا في امتلاك مستعمرات امريكا الجنوبية ورفض اعتبار ثوار امريكا اللاتينية عصاة للملك الاسباني فردنياند السابع(٢٤) .

ومع ان المؤتمر فوض فرنسا التدخل عسكرياً ضد الثورة الاسبانية

وقامت فرنسا بالمفصل في السنة التالية ، رغم معارضة بريطانيا بالتدخل واعادت نفردينا ند السابع سلطاته المطلقة التي جردته الثورة منها ، الا ان ذلك كان آخر نصر يحققه الحلف المقدس ، فلقد دخل كاننخ في صــــراع دبلوماسي مكشوف ضد دول الحلف الرئيسة وركز نشاطه بالدرجة الاولى ضد روسيا لانها كانت اقوى هذه الدول ، لاسيما وان هناك خلافات كبيرة وتعارضا في المصالح بينها وبين بريطانيا في مناطق كثيرة من العالم فــــي مقدمتها البلقان والشرق الاقصى ولهذا كان لابــد ان يظهــر بين الدولتين خلاف شديد في الموقف من الانتفاضة اليونانية التي طرحت عــــلى بساط البحث وتحولت الى بؤرة اصطدمت فيها بشدة مصالــح الدول بأجمعها .
فمع ان القيصر الروسي طرح ، اثناء مناقشة المسألة اليونانية في مؤتمــــر فيرونا ، شروطا رأتها الدول الاخرى ملائمــــة لاعادة العلاقات بين روسيا والدولة العثمانية وهي : تهدئة الامور في اليونان بمشاركة وضمان الدول الكبرى الخمس وسحب القوات العثمانية مــن امارتــــي الدانوب واعادة الاستقلال الذاتي الذي كانتا تتمتعان به قبل ربيع ١٨٢١ وحريــــة مرور السفن التجارية خلال المضايق (٢٥) ، الا ان تطورات القضية اليونانية من جهة ورفض الحكومة العثمانية لهذه الشروط الروسية من جهة اخرى جعل روسيا تغير من موقفها .

لقد حلت خلال المدة ١٨٢١ ــ ١٨٢٢ مرحلة حرجة بالنسبة للانتفاضة اليونانية فقد نجحت القوات العثمانية في توجيه ضربات شديدة للثوار كما ان غياب كابودستريا وتخلي الكسندر الاو ل عنهم قد ادى الى تجريدهــــم من الدعم المادي والمعنوي الذي كانت توفره لهم روسيا .

لكن الثوار اليونانين حصلوا على الاسناد المطلوب ، من بريطانيا . فالمصالح البريطانية بالشرق الادنى كانت تتطلب «كبح التوسع الروســـي

وحماية البحر المتوسط ومواصلاته مع الشرقين الادنى والاوسط من عدوان القوة البحرية الروسية والمحافظة على امن منطقة واسعة قابلـــة للتغلغل الاقتصادي البريطاني»(٢٦) ولذا قرر كاننغ الذي حـــول اتجاه السياسة الانجليزية على النحو الذي رأينا ، استغلال الاحداث اليونانية لتحقيق هذه المصالح وترسيخ النفوذ الانجليزي في اليونان وذلك بتنفيذ منهاجه السابق والقاضي باسناد الحركات التحررية في اوربا وخارجها ، وبهذا فقد تلقف المبادرة التي افلتت من يد القيصـر الروسي في حمايـــة الثوار اليونانين وتوفير الدعم الدبلوماسي لهم ، فأصدر في ٢٥ أذار ١٨٢٣ بياناً جـاء فيه ان بريطانيا تعتبر اليونانيين والاتراك من الان فصاعداً جهتين متحاربتين . ومع ان كاننغ حاول التقليل من اهمية هذه الخطورة مصوراً اياها على انها مجرد اجراء لحماية التجارة البريطانية التي اصبحت تعاني من انعدام الامن في شرق البحر المتوسط بسبب الاحداث اليونانية(٢٧) ، الا ان البيان احدث اثراً صاعقاً على دول الحلف المقدس ، ذلك انه كان يعني في التطبق العملي، ان بريطانيا ترى ان اليونانيين ، الذين يرى فيهم الحلـــف المقدس عصاة وخارجين على القانون ، جهة شرعية وأن ، ثورتهم عمـــل مشـروع ، وان بريطانيا ستعترف باي منطقة يحررها الثوار من سلطة الدولـة العثمانية دولة مستقلة . والواقع ان كاننغ احسن اختيار نوعية الضربة التي وجهها الى الحلف المقدس فلقد اختار اضعف المواضع فيه وتعني الخلافات القائمة بين روسيا والنمسا في الموقف من الدولة العثمانية ، ففي الوقـــت الـذي كانت فيه السياسة العثمانية في البلقان تستفز روسيا وتضغط على السلاف والارثوذكس الذين تريد المكرمة الروسية ان تستقلهم لتحقيق اهدافها في المنطقة ، كانت هذه السياسة موضع رضا واضح مـن جانـــب الساسـة النمساويين وعلى رأسهم مترنيخ .

لقد عزز موقف كاننغ هذا من سمعة بريطانيا في نظر الرأي العام الاوربي الذي كان يساند الانتفاضة اليونانية بدرجة لم تحظ بها انتفاضة اوربية او غير اوربية اخرى آنذاك ، حتى ان شخصيات أوربية مشهورة مثل بايرون في بريطانيا وبوشكين في روسيا كرسواجل نشاطهم لدعم الثورة اليونانية بل وتطوع بعظهم للحرب الى جانب الثوار وفقد حياته نتيجة لذلك . كذلك ادت خطوة كاننغ هذه الى ترسيخ مواقع بريطانيا في اليونان ولاسيما بعد ان حصل اليونانيون من الانجليز عام ١٨٢٤ على قرضين ماليين فارتفعت سمعة بريطانيا في نظرهم لورجة جعلتهم يكتبون في صيف ١٨٢٥ عريضة الى الحكومة البريطانية يطلبون فيها وضع اليونان تحت حمايتها(٢٨) الا ان الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح وفضلت اتخاذ موقف حيادي في النزاع بين اليونانيين والسلطة العثمانية غير انها حاولت ان تنفرد بالتوسط لحله على اساس حل توفيقي يقبله الباب العالي.

ولم يكن الكسندر الاول يرغب ان يحتكر الانجليز النفوذ في اليونان ولهذا فانه عاد مرة اخرى الى الاهتمام بالقضية اليونانية فاقترح على الدول في مذكرة خاصة ارسلها في كانون الثاني ١٨٢٤ ان تقوم في الاراضي اليونانية ثلاث امارات مستقلة ذاتياً واحدة في شرق اليونان والاخرى في غربها والثالثة في جنوبها وان يجري تعزيز الاستقلال الذاتي الذي تتمتع به جزر بحر ايجة على ان يحتفظ الباب العالي بالسلطة العليا على الامارات اليونانية ويتقاضى جزية سنوية(٢٩) .

قامت الصحف الفرنسية والانجليزية بنشر محتوى هذا الاقتراح الروسي ، وبهذه الطريقة تعرف عليه العثمانيون واليونانيون فأثار لدى الجانبيين استياءاً ظاهراً ، فاصبح اليونانيون عليه لدى الحكومة البريطانية، وكانت نقمة العثمانيين على روسيا بسببه كبيرة الى درجة لم تخفف منها

مبادرة روسيا الى تعين مبعوث دبلوماسي لها في العاصمة العثمانية . وقد وفر استنكار جهتي النزاع للاقتراح الروسي الحجة لكاننغ لكي يرفض المشاركة في مؤتمر سفراء الدول في لطرسبورغ (١٨٢٤ ـ ١٨٢٥) ، كما ساعده على رفض الاسهام في الخطوة الدبلوماسية الجماعية التي اقترحت روسيا على الدول في ان عام ١٨٢٤ القيام بها في اسطنبول للضغط على الحكومة العثمانية بهدف انهاء القتال في اليونان بعد ان كن قد وافق على مذكرة كانون الثاني ، لان موافقته تلك كانت لاسباب تكتيكية حيث ان هدفه منها «كسب الوقت بالتظاهر بان بريطانيا العظمى تعمل بنفس الاتجاه الذي تعمل فيه روسيا»(٣٠) .

أخذ وضع الثوار اليونانين في هذه الاثناء يزداد حرجاً وساءت احوال الثورة بعد ان استنجد السلطان العثماني بوالي مصر محمد علي واستجاب هذا فارسل ابنه ابراهيم باشا على رأس جيش للمساعدة في اخماد الثورة. وقد أحرز ابراهيم باشا عدداً من الانتصارات اللامعة واسترد الكثير من المناطق التي استولى عليها الثوار ، فقوي بذلك موقف الدولة العثمانية وتعزز صمودها في وجه ضغوط الدول الاوربية . لكن انتصارات ابراهيم باشا زادت من الناحية الاخرى من تعاطف الرأي العام الاوربي مع الثوار ومن ضغطه على الحكومات الاوربية لكي تتدخل الى جانبهم ، ويبدو ان الكسندر الاول قرر استغلال ذلك للانفراد بانتهاج سياسة نشيطة في القضية اليونانية فقد قرر في نهاية عام ١٨٢٤ بعد ان وصل صبره الى اقصى مداه بسبب عدم رغبة بريطانيا في التعاون للضغط على الاتراك ... ان يتخلى عن كل محاولات التوصل الى اتفاق مع الحكومة البريطانية»(٣١) واستفسر من دبلوماسييه البارزين عن سبل حل المسألة الشرقية فجاءه جواب سفيريه في لندن وباريس يشير الى حتمية الحرب ضد الدولة

العثمانية . ولكن هذه الاجابة وصلت الى بطرسبورغ بعد وفاة الكسندر الاول في تشرين الثاني ١٨٢٥ فعرضت على القيصر الجديد نيقولا الاول(٣٢).

ويبدو ان موقف روسيا هذا كان جديا الى درجة اقتنع كاننغ معها بان الوسائل القديمة لم تعد مجدية للامساك بروسيا عن محاربة الدولة العثمانية بل يتحتم اللجوء الى طرق جديدة . فقد كان كاننغ مقتفياً بان روسيا اذا شنت الحرب فانها سوف «تبتلع اليونان في اللقمة الاولى وتركيا في (اللقمة) التالية» . وبما انه وصل الان الى الاعتقاد «بعدم وجود طريقة لمنع روسيا من التدخل» فقد «اعتزم تفادي العواقب الوخيمة عن طريق العمل معها ... للضغط على تركيا بهدف ايقاف القتال ووضع تسوية ما مع اليونان»(٣٣) . وهكذا قرر كاننغ التقارب مع روسيا الحكومة الروسية ، والتعاون معها بهدف اعاقتها عن القيام باي عمل منفرد واستغلال هذا التعاون للتخفيف من غلوائها ، وللسيطرة على تطورات الامور في البلقان ، ولهذا نجده يجدد محادثاته مع السفير الروسي في لندن ويدعو الى التعاون بين الدولتين في القضية اليونانية(٣٤) .

جاء توجه كاننغ الجديد متوافقاً مع هدى نيقولا الاول الذي كان يختلف كثيرا في صفاته الشخصية وثقافته(٣٥) ونظرته الى الكثير من الامور التي تتعلق بالسياسة الخارجية . لقد كانت المسألة الشرقية واحدة من القضايا الاساسية التي اولى القيصر الجديد عنايته لها ، لكن معلوماته عن الدولة العثمانية لم تكن كامنة لتجعله يتجنب الوضوع في اخطار كبيرة في التعامل معها(٣٦) .

حاول نقيولا الاول بمجرد ان استقرت سلطته بعد قضائه على انتفاضة الديسمبريين ، ان يتقرب من بريطانيا وفرنسا لان ذلك كان بالنسبة له على مايبدو ضرورياً للقضاء على الانطباع الذي كان مترنيخ

يحاول ان ينشره في اوربا حول ان التفسير الذي حصل في العرش الروسي كان ملائماً للنمسا وله شخصيا لانه جاء منسجماً مع توجيهاتــه ، كما ان التقارب مع بريطانيا وهي الدولة القوية ليبعد روسيا عن العزلة ويزيــد من امكاناتها في المناورة على المسرح الدولي ويضع النمسا في موقف حــرج طالما انها لاتستطيع بمفردها ان تقدم دعماً عسكرياً للدولــة العثمانية . وبالاضافة الى كل ذلك اعتقد نيقولا الاول بان التقارب مــع بريطانيا ربما سيمكن روسيا من جعل بريطانيا تقلل من دعمها للدولة العثمانية .

وهكذا التقت رغبة كاننغ مــع رغبة نيقولا الاول في التقارب ، وان كانت دوافع كل منهما مختلفة عن دوافع الآخر ، وتجسيداً لهـذا التقارب أرسل كاننغ الدوق ولنكتون – بطل واترلو الذي يكن له القيصر احتراماً خاصاً في بعثة خاصة الى بطرسبورغ غرضها الرسمي نقل التهنئة الى القيصر بمناسبة تسنمه العرش وهدفها الحقيقي بحث المصاعب القائمة بين روسيا والدولة العثمانية وتلافي قيام الحرب بينما التواصل مع روسيا الى تفاهم مشترك حول القضية اليونانية .

وبما ان العمل المشترك مع بريطانيا كان يستهوي القيصر الروســي كما ذكرنا فقد قرر ان يتفق فكرة الضغط المشترك على الحكومة العثمانية التي عرضها عليه ولنكتون ، الا انه لم يكشف للمندوب البريطانــي عــن موقفه هذا بل اكتفى بعبارات غامضة من قبيل ان مايعرضه الدوق هــو شيء جديد عليه وانه سيفكر بالامر وما الى ذلك . لقد كان هدف نيقولا الاول من ذلك هو ان يستغل الظروف ويظهر قوته للدولة العثمانية فيحقق على حسابها مكسباً يعزز موقفه في مفاوضاته مع بريطانيا وبالفعل فقد قدم الى الحكومة العثمانية في ١٧ آذار ١٨٢٦ انذاراً طلب تهانيه ان تعيد فــي مدة لاتتجاوز ستة اسابيع مؤسسات الحكم الذاتي التي كانت قائمة في

امارتي الدانوب قبل ١٨٢١ فقضى عليها محمود الثاني وان تعيد الى صربيا جميع الامتيازات التي اقرتها لها معاهدة بخارست ١٨١٢(٣٧) ٠

لقد اطلع الدوق ولنكتون على نص الانذار الروسي قبل ارساله الى الحكومة العثمانية وأبدى حوله ملاحظات اخذ بها الجانب الروسي ، ولكن حاول ان يؤجل ارساله محتجا بضرورة التشاور مع حكومته وعندما رأى ان ذلك متعذراً وافق عليه ووعد بان تتعاون البعثة الدبلوماسية بلاد البريطانية في اسطنبول في تحقيق الاهداف التي يتوخاها وكان مدفوعاً في موقفه هذا بخشية من اندلاع الحرب بين روسيا والدولة العثمانية فيما لو اتخذ موقفاً مغايرا(٣٨) ٠

تمخضت محادثات ولنكتون في بطرسبورغ عن التوقيع في ٤ نيسان ١٨٢٦ على بروتكول كان على روسيا بموجبه ان تبذل كل جهودها لانجاح الوساطة البريطانية الهادفة الى تهدئة اليونانيين ، كما تضمن شروطاً لتسوية القضية اليونانية كان على اليونانيين بموجبها ان يحكموا من قبل سلطان ينتخبونها بانفسهم على ان يكون للباب العالي مشاركة معلومة في تعيينها وعلى ان توقع اليونان للحكومة العثمانية جزية يحدد مقدارها من قبل الجانبين ٠ وأن يشتري اليونانيون الممتلكات التركية في اليونان وفي حالة فشل هذه الوساطة فانها ستكون اساساً للمصلحة التي يمكن ان تقوم بها الدولتان ـ بريطانيا وروسيا باشتراك مع بعضها او كلا على انفراد(٣٩) ٠ وقد كان هذا البند الاخير مهماً جداً بالنسبة الى روسيا لأنه أعطاها حق التدخل في الشؤون اليونانية منفردة ٠

ومع ان هذا البروتوكول لم يستجب لما كان يطلبه اليونانيون ، ونعني استقلالهم التام عن الدولة العثمانية الا انهم قبلوه بسبب الوضع الحرج الذي كانت تمر به الثورة اليونانية التي كانت تتراجع انذاك أمام

القوات المصرية والعثمانية مما دفع قادة الثورة الى التخلي عن مطلب الاستقلال التام والقبول بحل وسط يعطي الحكومة العثمانية دوراً معلوماً في اليونان ٠

اثار بروتوكول بطرسبورغ قلقاً شديداً لدى مترنيخ ، ذلك انه أدى الى ان تطرح مرة اخرى على بساط البحث المسألة اليونانية التي ظن المستشار النمساوي انها انتهت منذ ان نجح في دفع الكسندر الاول الى التخلي عنها على النحو الذي رأيناه ، لما ان البروتوكول كان يعني ان روسيا التي عقد الحلف المقدس بمبادرة منها هي نفسها التي تدوس على مبادئه وتشترك مع «حامي العصاة» كاننغ في اسناد «العصاة» اليونانيين ٠ وجاءت التطورات الاخرى لتزيد من قلق الحكومة النمساوية فقد أخافت الشائعات التي انتشرت حول الاتفاق الذي تم بين بريطانيا وروسيا الباب العالي وجعلته يعجل بقبول الانذار الروسي الذي سبقت الاشارة اليه ويوقع مع الحكومة الروسية في ٧ تشرين الاول ١٨٢٦ على ميثاق (آق كرمان) الذي اكد جميع ما تضمنته المعاهدات السابقة بين روسيا والدولة العثمانية ووسع من حقوق وامتيازات روسيا(٤٠) ٠ ومن الجهة الاخرى قضى السلطان محمود الثاني في حزيران ١٨٢٦ على الجيش الانكشاري في وقت لم يكن الجيش الجديد الذي كان يتوقع تاسيسه قد انجز تشكيله بعد ، الأمر الذي اضعف الدولة العثمانية وجعلها عاجزة عن مقاومة تطاولات روسيا وبريطانيا ٠ وهكذا تجاوزت التطورات مترنيخ الذي «فقد تماماً المقدرة على السيطرة على سير العلاقات الدولية في اوربا واصبحت النمسا بعيدة عن الاتجاهات الاساسية للنشاط الدبلوماسي» على حد تعبير الباحثة الامريكية باربارا ايلافتش(٤١) ٠ وقد انعكس ذلك في رفض الحكومة النمساوية الدخول في مفاوضات لعقد اتفاقية حول المسألة الشرقية ودفعها لبروسيا

لأن تحذو حذوها عندما اعلمتهما الحكومتان البريطانية والروسية بمحتوى بروتوكول بطرسبورغ(٤٢) .

اما كاننغ فعلى الرغم من انه أبدى في الظاهر رضاه بروتوكول بطرسبورغ الذي تمخضت عنه بعثة ولنكتون الا انه اعتبر البروتوكول نصراً لروسيا فبدلا من ان تخفيف بريطانيا من غلواء روسيا وتمنعها من محاربة الدولة العثمانية استطاع نيقولا الاول ان يجر بريطانيا الى نزاعه مع الدول العثمانية ، فاذا ماقامت الحرب ، واحتمال قيامها كبير جداً ، لأن السلطان لن يوافق على ماجاء في البروتوكول تحت أي ظرف الا اذا أجبر على ذلك بقوة السلاح ، فان احتمال دخول بريطانيا فيها سيكون كبيراً . ولهذا اخذت الحكومة البريطانية تسعى وهي تبذل محاولاتها لتلافي الحرب ، لان تضع العقبات امام روسيا وتعيقها عن العمل لصالح اليونانيين وهي تريد بذلك ان تضرب عصفورين بحجر واحد ! تبعد بريطانيا عن الحرب المحتملة من جهة وتحد من النفوذ الروسي في اليونان من الجهة الاخرى .

وهكذا نجد بريطانيا تحرض شاه ايران ضد روسيا وكان هذا التحريض أحد الاسباب التي ادت الى قيام الحرب بين ايران وروسيا في تموز ١٨٢٦. وفي هذا السياق يأتي ايضاً تلقف كاننغ لرغبة فرنسان في المشاركة في بروتوكول بطرسبورغ وتشجيعه لها على ذلك بل انه سافر الى باريس لهذا الغرض .

في هذه الاثناء كان وضع الثوار اليونانيين يسير من سيء الى أسوء واصبح وضع الثورة حرجاً اذ أستطاع ابراهيم باشا ان يحقق انتصارات حاسمة على الثوار ، وتمكن من احتلال اثينا في ٢٩ نيسان عام ١٨٢٦ . وقد ترتبت على ذلك نتيجتان كان لهما اثر واضح عن تطورات الاحداث

فيما بعد ، اولهما تناسي اليونانين للخلافات الداخلية فيما بينهم واتخابهم لكابودستريا في ١٤ نيسان ١٩٢٧ رئيساً للدولة اليونانية المنتظرة ولمدة سبع سنوات(٤٣) هذا قد عاد في هذه الاثناء الى بطرسبورغ واجري محادثات مع نيقولا الاول حصل بنتيجتها على الاستقالة من الخدمة الروسيا رسميا واتفق الاثنان خلالها على العمل بموجب الاسس التي تضمنها بروتوكول بطرسبورغ . اما النتيجة الثانية فهي حركة التضامن الواسعة والشاملة التي شملت الرأي العام الاوربي الذي اثارته التهويلات الدعائية المبالغ فيها حول الاعمال «الوحشية» التي أرتكبها ابراهيم باشا في اليونان .

لقد دفعت هذه الاحداث الى جانب الموقف الصلب الذي اتخذته الحكومة العثمانية بفضل النجاحات التي تحققت في اليونان ، روسيا الى الاسراع بالعمل فطلبت من الحكومة البريطانية في حزيران ١٨٢٧ المباشرة بتنفيذ بروتوكول ٤ نيسان . وجاء رد كاننغ يؤكد على استعداده للتعاون في تنفيذ البرتوكول ولكن حذر من ايصال القضية الى الصدام المسلح مشيراً الى ان «الحكومة البريطانية لاتعد رفض الباب العالي الاصغاء للاقتراحات الخاصة بالتسوية مع اليونان اساساً عادلا للحرب»(٤٤) . ولكن كاننغ وهو السياسي الواقعي ادرك ضرورة القيام بعمل ما لتهدئة روسيا من جهة ولارضاء اليونانيين من جهة ثانية ولهذا فانه وافق على ان تهدد الدول الكبرى مجتمعه ، الحكومة العثمانية وذلك لقطع العلاقات الدبلوماسية معها وارسال قناصل لها الى اليونان واعتراف باستقلال المورة والجزر واخذت توحي للدول الاخرى بانها ستنفرد بالقيام بعمل حاسم ضد الدولة العثمانية محاولة بذلك اثارة الخوف لدى حكومات تلك الدول ، ودفعها الى الانضمام الى روسيا في اتخاذ اجراءات اكثر تاثيرا على الدولة العثمانية . وعلى هذا الاساس كتب تسيلروديه الى ليفيين ـ السفير الروسي في لندن

في كانون الثاني ١٨٢٧ يقول بـان الحجة الوحيدة القادرة عـلى اجبار الحكومات الاخرى على اتخاذ تدابير حاسمة ضد الدولة العثمانيـة هـي «الخوف من ان تجري تهدئة اليونان في نهاية الامر عن طريق انفراد روسيا بالعمل ان تخيرها (حكومة الدول الكبرى) بين السماح لنا بان نصبح سادة الوضع المطلقين وبين الانضمام الينا لكي نوجه قضية السلام هـذه معناه استخدام احسن الوسائل التي تؤمـن مساعدتهـم في تنفيذ بروتوكول ٤ نيسان»(٤٦) .

وقد كان لذلك اثره بالفعل ، فاقترحت الحكومـة الفرنسية عـلى الحكومتين البريطانية والروسية عقد معاهدة تحالف . وقد صادق هـذا الاقتراح هوى في نفس الحكومتين لان كلا منهما كانت تامل في مجابهة نفوذ الاخرى في اليونان بمساعدة فرنسا . اما فرنسا فقد دفعتها الى هـذه الخطوة اسباب خاصة تتعلق بالوضع الداخلي ، فالمعارضة الداخلية كانت تتسع فيها والاوساط البرجوازية المناهضة لنظام الحكم المستبد كانـت تطالب بتنشيط السياسة الخارجية وتامين الاسواق الخارجية للبضائع الفرنسية ، وقد اشتدت هذه المطالبة بالارتباط مع الازمة الصناعية فـي التي بدأت في عام ١٨٢٦ . وبالاضافة الى ذلك كانـت العلاقات الجيـدة التي اقامتها الحكومة الفرنسية مع محمد علي تشير استياء الـرأي العام الفرنسي ولاسيما بعد الاخفاقات التي مني بها اليونانيون على يد ابراهيم باشا . لقد دفعت هذه الاسباب مجتمعة الحكومة الفرنسية الى العمل على تنشيط سياستها في القضية اليونانية . وبما انها لاتمتلك مايكفي مـن القوة والامكانات لتقيم لنفسها نفوذاً خاصاً بها في اليونان لمجابهة سطوة بريطانيا وروسيا ، فقد قررت الانضمام الى هاتين الدولتين في محاولـة لتحقيق اهدافها عن هذا الطريق . وقد صادق الاقتراح الفرنسي قبولا لدى

كاننغ الذي اصبح اكثر تساهلا تجاه فرنسا بعد عقد بروتوكول بطرسبورغ الذي أمن له اسناد روسيا لوساطة بريطانيا في القضية اليونانية ، كما انه اراد ان يستخدم فرنسا وسيلة لاعاقة روسيا عن القيام بدور نشيط في البلقان او اتخاذ اجراء حاسم ضد الدولة العثمانية . وهكذا بدأت في باريس في تشرين الثاني ١٨٢٦ محادثات مطولة نقلت بعد ذلك الى لندن زاد من طولها اصابة رئيس الوزراء البريطاني ليفربول بالشلل وتولي جورج كاننغ رئاسة الوزارة في نيسان ١٨٢٧ ، وانتهت بتوقيع الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وروسيا في ٦ تموز ١٨٢٧ على معاهدة جديدة اقرت اشتراكها في العمل على تسوية المسألة اليونانية وفق البنود الواردة في بروتوكول بطرسبورغ ولكنها تضمنت تدابير عملية لتنفيذ هذه البنود واحتوت مادة سرية اشير فيها الى انه في حالة رفض الحكومة العثمانية لوساطة الدول الثلاث فان هذه الدول ستخبرها بقرارها القاضي بافتتاح قنصليات لها في المدن اليونانية المهمة واجبار الجانبين المتحاربين بقوة السلاح على عقد الهدنة في البحرية على الاقل ان يجري افهام الباب العالي بان هذه الاجراءات الاكراهية لاتهدف الى اثارة حالة حرب بين الدول الثلاث والدولة العثمانية ، وعلى ان ترسل الدول الثلاث تعليمات مطابقة لما ورد في هذه المادة الى قادة اساطيلها في بحار الشرق الادنى(٤٧) . وهكذا فشلت روسيا في دفع بريطانيا وفرنسا الى الموافقة على الحرب التي كانت تريدها ضد الدولة العثمانية ولكنها اصرت على ان تتضمن التعليمات التي سترسل الى قادة الاساطيل الطلب اليهم بان يمنعوا بالقوة نقل السلاح والذخيرة من مصر أو تركيا الى اليونان في حالة رفض الجانب العثماني عقد الهدنة مع الثوار اليونانيين(٤٨).

بعد اسبوع واحد من توقيع هذه المعاهدة قامت جريدة «التايمس»

بنشرها كاملة بما في ذلك مادتها السرية . وفي حماة الاتهامات المتبادلة بين كاننغ والسفير الفرنسي في لندن بولتباك حيث كان كل منهما يحمل الاخر مسؤولية عدم المحافظة على سرية الاتفاقية توفي كاننغ في ٨ آب ١٨٢٧ . وقد اثر ذلك لبعض الوقت على نشاط الدبلوماسية البريطانية فوزير الخارجية اللورد دادلي كان رجلا متهيباً بطبعه يتجنب المبادرات ورئيس الوزراء الجديد اللورد كوريتش من الذين يؤمنون بالحلول الوسط وكان معروفاً بان بقاءه في المنصب مؤقتاً ، وبالفعل فلم تكن تمضي خمسة اشهر على وفاة كاننغ حتى تولى رئاسة الوزارة الدوق ولنكتون .

على اية حال قام ممثلو بريطانيا وفرنسا وروسيا الدبلوماسيون في استنبول في أب ١٨٢٧ بتسليم الباب العالي مذكرة مشتركة يخبرونه فيها بالمعاهدة التي وقعتها الدول الثلاث ويقترحون التوسط لتسوية المشكلة اليونانية على اساس الشروط الواردة في تلك الاتفاقية . وفي الوقت نفسه اعلم اليونانيون بالامر فقبلوا به ورفضت الحكومة العثمانية مذكرة الدول واعلن السلطان محمود الثاني «بانه لن يسمح ابداً بان تتدخل دول اجنبية في العلاقات بينه وبين رعاياه»(٤٩) . عند ذلك اعلنت الدول الثلاث على لسان ممثليها الدبلوماسيين في اسطنبول بانها ستضطر الى القيام بالاجراءات التي نصت عليها المعاهدة ، وبالفعل قامت اساطيلها في بداية ايلول بمحاصرة المورة وعدداً من الجزر اليونانية لقطع الامدادات القادمة بطريق البحر الى القوات اليونانية هناك . وطبيعي ان مثل هذا الحصار لايمكن ان يكون فعالا الا باستخدام القوة وبالفعل فقد حدث الاصطدام بين الجانبين وقامت عمارات بحرية بريطانية وفرنسية وروسية مشتركة بتحطيم الاسطولين المصري والعثماني في خليج نافارينو في ٢٠ تشرين الاول ١٨٢٧ .

غير ان معركة نافارينو لم تؤد الى تخلي الدولة العثمانية عن موقفها لان العثمانيين كانوا يعلمون بان بريطانيا وفرنسا لاترغبان في محاربتهم وان روسيا وحدها هي التي تعمل باتجاه الحرب . والواقع ان المسؤولين البريطانين لم يتركوا مناسبة الا وانتهزوها لافهام الحكومة العثمانية ان ماحدث في نافارينو كان حادثاً مؤسفاً لاينبغي ان يتكرر فقد استدعى وزير الخارجية البريطاني اللورد دادلي في ١٠ تشرين الثاني وبمجرد وصول خبر المعركة الى لندن السفير الروسي في لندن (ليفين) وعبر له باسم الحكومتين الانجليزية والفرنسية وبحضور بولنياك ـ السفير الفرنسي في لندن عن امله في ان لايؤثر هذا «الحادث غير المتوقع» ويقصد معركة نافارينو على علاقات الدول مع الباب العالي ، واكد ان على الدول ان لاتعد نفسها باى حال من الاحوال في حالة حرب مع الدولة العثمانية ، كما ان خطاب العرش الذي القي بمناسبة افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة في ٢٩ كانون الثاني ١٨٢٨ بعد تولي ولنكتون رئاسة الوزارة في بداية ذلك الشهر اعتبر المعركة «حادثاً مؤلماً» وعبر عن الامل في ان لاتعقبه «اعمال عدائية لاحقة » .

لقد كانت ذلك تأكيداً لوجهة نظر العثمانيين القائلة بان الحرب اذا قامت فانها ستكون مع روسيا فقط الامر الذي شجع الحكومة العثمانية وجعلها تتشدد في موقفها ، فبدلا من ان تذعن لما طلب منها نجدها تطالب بان تعتذر لها الدول الثلاث عما حدث في نافارينو وتعوضها عن الخسائر التي لحقت بها بسبب المعركة(٥١) ، ولم تقدم اي تنازل لليونانيين سوى استعدادها للعفو عنهم وتوخي العدل في ادارة بلادهم في المستقبل بشرط ان ينهو ثورتهم ويعودوا الى طاعة السلطان(٥٢) .

وهكذا وصلت الامور الى طريق مسدود وبدأ الوضع يتدهور واخذت الأمور تسير باتجاه الازمة سيما وأن روسيا قررت العودة الى خطتها بالعمل

المنفرد وتحقيق اهدافها عن طريق الحرب التي ارادت من ورائها تامين حرية التجارة الروسية عبر المضايق وتعزيز النفوذ الروسي في البلقان وفيما وراء القفقاس . ومما شجع نيقولا الاول على قرار الحرب ، التنسيق الذي كان قائماً بين بريطانيا وروسيا في الشؤون البلقانية الامر الذي جعله يعتقد بان بريطانيا لن تعيق العمل الروسي باي حال ، كما ان السلطان اعطاه الحجة المناسبة للمضي في هذا الاتجاه . فعلى الرغم من ان محمد علي كان مستعداً للتخلي عن السلطان حيث عرض ، حتى قبل معركة نافارنيو ، ان ينسحب من المورة اذا قامت بريطانيا في مقابل ذلك بمساعدته على الاحتفاظ بالحجاز والاستيلاء على بلاد الشام[٥٣] ، ـ الا ان محمود الثاني مصرا على موقفه بل وعمد في ٣١ تشرين الثاني ١٨٢٧ الغاء ميثاق اق كرمان كما اصدر في كانون الاول من العام ذاته بياناً دعا فيه المسلمين الى الجهاد ضد روسيا التي قال عنها انها العدو الاكبر للدولة العثمانية[٥٤]. وفي شباط عام ١٨٢٨ أغلق المضايق عملياً امام السفن الاجنبية . وكان مما شجعه على ذلك تاكده من ان بريطانيا وفرنسا لن تشتركا في الحرب ضده فقد ابقت الدولتان بعد قطع علاقاتهما مع الدولة العثمانية على قنصلهما في سميرنا (ازمير) كذلك ظل التجار الانكليز والفرنسيون يمارسون نشاطهم في مختلف انحاء الامبراطورية العثمانية يضاف الى ذلك ان السفير الفرنسي اكد في رسالة خاصة بعث بها الى أحد المقيمين الفرنسيين جرى نشرها بعد وقت قليل من كتابتها بان العلاقات مع الدولة العثمانية لن تلبث ان تعود قريباً هذا في الوقت الذي كان فيه الانجليز والفرنسيون الموجودون في اليونان يؤكدون علناً بان الحرب مع الدولة العثمانية لن تقوم[٥٤] . ومما شجع السلطان على التشدد ايضاً موقف النمسا المؤيد للدولة العثمانية ، ذلك ان الحكومة النمساوية رأت في

معركة نافانيو كارثة يمكن ان تؤدي الى القضاء على الدولة العثمانية والى توسيع النفوذ الروسي في البلقان ، كما زاد احتمال قيام الحرب من قلق مترنخ لان روسيا في تلك الحالة ستكون قادرة على محاصرة اسطنبول من البحر ومهاجمتها من البر في آن واحد . وقد كان قلق النمسا من ذلك كبيراً لدرجة اراد الامبراطور النمساوي تعبئة مائة الف مقاتل لاستخدامهم في مساعدة الدولة العثمانية اذا اقتضى الامر(٥٦) .

وهكذا اصبح طريق الحل السلمي للازمة مسدوداً وبدات الامور تسير باتجاه الحرب بسرعة متزايدة فقد قطعت الدول الثلاث علاقاتها الدبلوماسية مع الحكومة العثمانية وغادر سفراؤها اسطنبول في بداية كانون الاول ١٨٢٧ ، ولكنها اي الدول واصلت المحادثات التي كانت تجري في مؤتمر لندن الذي كان عبارة عن اجتماعات دورية يعقدها وزير الخارجية البريطاني مع السفيرين الروسي والفرنسي استمرت طيلة الفترة من ١٨٢٧ حتى ١٨٣٢ ونوقشت خلالها قضيتان اساسيتان كانتا المبادىء التي سيقوم عليها الحكم في اليونان وحدود الدولة اليونانية المقبلة اي المناطق التي ينبغي ان تشملها . والواقع ان القضية الاولى لم تثر خلافات جوهرية بين الاطراف المشتركة في المحادثات فالجميع كانوا متفقين على انه ينبغي ان تقوم في اليونان سلطة قوية وان يكون الحكم ملكياً وراثياً . لكن القضية الثانية اثارت في المؤتمر خلافات شديدة ولاسيما بين بريطانيا وروسيا ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا ترى ان المطار البليوبونيز والجزر المتاخمة لها الحكم الذاتي يؤلف ضمانه للمحافظة على السلام في المنطقة كانت روسيا تصر على ان تدخل في الدولة اليونانية المقبلة بعض المناطق التي شملت الانتفاضة في البر القاري وترفض ان تقتصر اليونان المستقلة على البليونيز(٥٧) . وفي الوقت ذاته الذي واصلت فيه الحكومة

الروسية محادثاتها في لندن مع بريطانيا وفرنسا مضت في اعمالها المنفردة في اليونان فاصدرت الى قائد الاسطول الروسي في البحر المتوسط الاميرال هيدن في اذار ١٨٢٨ امراً بابداء كل مساعدة ممكنة بالسلاح والتجهيزات الى الثوار اليونانيين وقامت من جانبها بمساعدتهم بالاموال ايضاً(٥٨) . وكانت في شباط عام ١٨٢٨ قد وقعت معاهدة تركمان جاي التي انهت الحرب القائمة بينها وبين ايران الامر الذي مكنها من التفرغ للحرب الجديدة التي تزعم شنها على الدولة العثمانية .. وهكذا اعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في ٢٦ نيسان عام ١٨٢٨ وعبرت قواتها في ايار من السنة ذاتها نهر بروث فاحتلت امارتي الدانوب في الوقت الذي دخل فيه الاسطول الروسي الى الدردنيل .

لقد اعدت الحكومة الروسية لهذه الحرب في الجانب الدبلوماسي اعدادا جيدا فالدبلوماسية الروسية لم تترك مناسبة الا وانتهزتها للتأكيد على انها لاتريد من وراء الضغط على الدولة العثمانية اية مكاسب اقليمية او نفوذ سياسي ، بل ذهبت الى اكثر من ذلك عندما تعهدت بذلك رسمياً في ميثاق بطرسبورغ ١٨٢٦ ، وقد مكنها ذلك الأمر من الظهور بمظهر من يضحي بمصالحه من أجل اليونانيين ومن اخفاء نواياها الحقيقية في توسيع النفوذ الروسي في البلقان . اما في الجانب العسكري فقد جرت الامور في البداية على الضد من ذلك تماماً ذلك ان الجيش الروسي ظل لفترة طويلة عاجزاً عن تحقيق نصر على العثمانيين في جبهة البلقان حتى بدأ في بعض الاحيان كما لو ان الفشل التام سيكون نصيب الروس هناك . وكان ذلك مثار ارتياح الدول الاخرى التي لم تكن تريد ان تصل الامور الى حد الحرب ضد الدولة العثمانية . وكان مترنيخ انشط الجميع فبادر الى الاتصال بالدول الاخرى طالباً منها الانضمام الى النمسا لايقاف الحرب على

الفور ، لكن ظروفاً معينة منعت كلا من بريطانيا وفرنسا من التدخـــل فالوضع القلق في ايرلندا وتعاظم حركة المطالبة بالاصلاح البرلماني فـــي بريطانيا كانت تضبطر حكومة ولنكتون الى تركيز جل جهودها على الداخل لاسيما وان اقرارها لقانون منح الكاثوليك حق الانتخاب افقدها الاغلبيـة التي كانت تتمتع بها في البرلمان وجعلها تستند على الدعم الذي يوفره لها حزب الويك وذلك بسبب اقرارها لقانون منح الكاثوليك حق الانتخاب . كذلك قامت العوامل الاقتصادية بدور مؤثـــر في هـــذا المجال فالعلاقات الاقتصادية المتطورة بين بريطانيا وروسيا كانت تجعل النزاع مـع روسيا امراً غير مرغوب فيه من جانب الاوســاط المنفذة في المجتمع البريطانـــي ويزداد القناعة بهذه الحقيقة ، لأن قيمة صادرات بريطانيا الى روسيا انذاك كانت تزيد بمقدار ثلاث مرات على ماكانــت تصدره الى الـــدول العثمانية واليونان(٥٩) .

اما بالنسبة الى فرنسا فقد كانت العلاقات الجيدة مـع نيقولا الاول وهو قطب الرجعية وسندها في اوربا مهمة جداً لشارل العاشر لانـــه اراد الاستفادة منه في نظامه الرجعي الذي كان يترنح تحـت ضغط المعارضـــة الثورية الآخذة بالاتساع ، ولهذا لم ترى الحكومة الفرنسية من المناسب مجابهة روسيا . وكان الري العام الديمقراطي في اوربا راغباً هو الاخر في خسران الدولة العثمانية وكان يتعاطف مع روسيا لانها تساند اليونانيين ولأنه لم يكن قد فطن بعد للخطر الذي يؤلفه نيقولا الاول عـلى الحركـــة الديمقراطية في اوربا في الوقت الذي كان يرى في شخص محمود الثانـــي واحداً من اعمدة الاستيراد ارتكب ضد اليونانين «اعمالا وحشية» .

لهذا كله لم تفض الجهود المكثفة التـــي بذلها المستشار النمساوي طيلة الفترة من تشرين الثاني عام ١٨٢٨ الى حزيران عام ١٨٢٩ بهـــدف

انشاء حلف معاد لروسيا الى شيء بل يمكن القول أنها ادت بشكل ما الى عكس ما أراده المستشار ، فقد تنبه السفير الروسي في باريس يوتسودي بوركو الى نشاط مترنيخ وممثليه الدبلوماسيين فاخبر القيصر بذلـــك ، واستطاع بدهاءه ان يسود صفحة المستشار النمساوي أمام الملك الفرنسي شارل العاشر ، وذلك بان أخبره بالعلاقات السريـة القائمـة بين مترنيخ والبونابارتيين في فرنسا ، ومسانـــدة مترنيخ ســراً لترشيح الدوق ريخشتارت ـ ابن نابليون للعرش الفرنسي ، بل وزعم كذباً بان مترنيخ اقترح على روسيا ايضاً ان تدعم تنصيب الدوق ملكاً لفرنسا(٦٠) . وسواء صدق شارل العاشر ذلك ام لا فالثابت انالعلاقات بين فرنسـا وروسـيا ازدادت وثوقاً بسبب ذلك .

لقد أدى قيام الحرب بين روسيا والدولة العثمانية الى تحسن الوضع العسكري والسياسي للثورة اليونانية ذلك ان الحرب جعلت الحكومـة العثمانية تركز كل مالديها من قوات على جبهات القتال مع روسيا فلم تعد لهذا السبب قادرة على القيام بعمليات هجومية ضـد الثوار اليونانيين . ومع ذلك فقد جابه اليونانيون في هذه المرحلة صعوبات من نوع آخـــر ، فحكومة ولنكتون ، بريطانيا رغم اعترافها بحكومة كابودستريا كانت ترتاب بالرئيس اليوناني معتبرة اياه صنيعة لروسيا كما انها كانــت تعتقد ان اصله اليوناني وكونه مــن جزيرة كورفو بالذات الى ان يسند الاتجاهات الداعية الى توحيد الجزر الايونية مع اليونان ولهذا رفضــت الحكومـــة البريطانية منح اليونانيين قروضاً مالية كانوا بأمس الحاجة اليها وبـذل الدبلوماسيون البريطانيون بالاشتراك مع انصار بريطانيا في اليونان جهوداً كبيرة لعرقلة اعمال كابودستريا .

ومن الناحية الأخرى أدت الحـرب الروسية ـ العثمانيـة الى زيادة

التقارب بين بريطانيا وفرنسا اللتين اثارت الحرب لديهما استياء ظاهرا دون ان تستطيعا عمل شيء بشأنها وبما ان هاتين الدولتين لاتريدان لروسيا الانفراد في تسوية المسألة اليونانية فقد وقعتا في تموز ١٨٢٨ على بروتوكول نص على ان تتصدى الدولتان على الفور لابراهيم باشا في المورة وتوضت فرنسا بتنفيذ ذلك فأرسلت على هذا الاساس قوات فرنسية تعدادها ١٤٠٠٠ مقاتل الى خليج كورينث غير ان القنصل الانجليزي عارض أنزال القوات الفرنسية الى البر لان الاميرال الانجليزي الصغير بولتني مالكولم كان في تلك الاثناء يتفاوض مع محمد علي في مصر بشأن سحب القوات المصرية من المورة . وفي نفس الوقت الذي نجحت فيه بعثة مالكولم ووقع في الاسكندرية في ٦ أب ١٨٢٨ ميثاقاً بهذا الشأن قامت القوات القوات الفرنسية بالانزال في خليج كورون واتفقت مع ابراهيم باشا على اخلاء المورة(٦١) .

وفي الوقت نفسه كانت المحادثات مستمرة بين روسيا وبريطانيا وفرنسا في لندن وكان الخلاف على اشده بين هذه الدول حول حدود الدولة اليونانية المقبلة وكانت روسيا تلح انذاك على كابودستريا ان يحتل اليونانيون المناطق القارية والجزر اليونانية التي مازالت في حوزة اليونانيين لان ذلك يسهل عليها العمل على ادخال هذه المناطق ضمن الدولة اليونانية المقبلة ، ثم قامت الدول الثلاث بتعيين ممثلين دبلوماسيين لها في اليونان ، وفي الوقت نفسه كونت لجنة استشارية تألفت من ممثليها الدبلوماسيين في الدولة العثمانية وسافرت اللجنة الى اليونان وبدأت اجتماعاتها في خريف عام ١٨٢٨ في جزيرة بوروس وهناك استمعت الى كابودستريا بوصفه رئيساً لليونان وقد عارضت بريطانيا ماطرحه كابودستريا بشأن الحدود ولاسيما مطالبته بضم جزيرة كريت الى اليونان.

وناقشت اللجنة ايضاً شكل الحكم في اليونان وقررت ان تحكم اليونان من قبل عاهل وراثي يكون للباب العالي راي في ترشيحه كما يكون له الحق في جنوبة سنوية تدفعها اليونان • وقد اصبحت مقررات بوروس هـذه اساساً للبروتوكول الذي وقعته الدول في لندن في ٢٢ أذار ١٨٢٩ والذي تقرر فيه ان تكون لليونان ادارة مستقلة يقف على رأسها امير مسيحي تشترك في اختياره الدول الثلاث • والحكومة العثمانية على ان تسير الحدود الشمالية للدولة المقبلة وفق خط فولوس ـ ارتا وتقرر ان يعود سفيرا بريطانيا وفرنسا الى اسطنبول لاجراء محادثات وفق هذه الاسس باسم الدول المتحالفة مع الحكومة العثمانية(٦٢) ، غير ان الحكومة العثمانية رفضت مقررات لندن هذه رفضاً قاطعاً واعلنت للسفيرين البريطاني والفرنسي اللذين وصلا الى اسطنبول في حزيران ١٨٢٩ بانها اعدت فرماناً خاصاً يتضمن اقصى مايمكن ان تقدمه من تنازلات لليونانين • وقد تضمن الفرمان المذكور اعلان العفو العام واعادة الملكية المنقولة وغير المنقولة لاصحابها السابقين سواء كانوا من الاتراك أم من اليونانيين على ان يعيد اليونانيون جميع القلاع التي استولوا عليها في اليونان وعلى ان يحكم اليونان التي ستنتصر على البليوبونيز وال ومجلس يتألف من ملاك الارض المحليين • اما جباية الضرائب فيقوم بها اليونانيون انفسهم ثم يسلمونها للوالي • وهكذا لم تؤد محادثات السفيرين في اسطنبول الشيئ محدد بل ان وزير الخارجية العثماني اعلن رسمياً في نهاية تموز رفض الحكومة العثمانية قبول بروتوكول اذار اساساً لاتفاقية ما بشأن المسالة اليونانية(٦٣) •

في هذه الاثناء حدث تحول في سير الحرب فقد تمكن الجيش الروسي اخيراً من اجتياز جبال البلقان في تموز ١٨٢٩ ودخل في ٢٠ أب وبدون

مقاومة الى ادرنابوبل التي لا تبعد عن اسطنبول الا قليلا الامر الذي اجبر السلطان على طلب الصلح فاستجاب القيصر لطلبه خوفا من التعقيدات الدولية التي قد يثيرها اقتراب القوات الروسية من العاصمة العثمانية وبسبب تفشي المرض في صفوف الجيش الروسي . ومع ان الدوق ولنكتون اعتقد بأن «ليس من الصعب على القوات الروسية احتلال القسطنطينية»(٦٤). الا ان واقع الحال لم يكن كذلك خالي جانب تفشي المرض في صفوف القوات الروسية بحيث كان هناك في اواسط ايلول خمسة آلاف جندي روسي يرقدون في المستشفى في ادريانوبل وحدها(٦٥) الامر الذي جعل القائد الميداني الروسي على اخفائه بعناية فان الحكومة الروسية لم تكن تنوي اصلا الاستيلاء على اسطنبول انذاك نظراً لما يسببه ذلك من تعقيدات دولية في مقدمتها مجابهة بريطانيا ، وانسجاماً مع الخط السياسي الذي اقره اجتماع خاص عقده القيصر وشارك فيه كبار الساسة والوجهاء المتنفذين فقد قرر هؤلاء بان خسران الدولة العثمانية للحرب سيؤدي الى تقوية التأثير الروسي على حكومة السلطان ولهذا فانهم نصحوا بان تنهج روسيا في هذه الظروف سياسة المحافظة على الامبراطورية العثمانية مع اقتطاع بعض المناطق منها لصالح روسيا(٦٦) .

لقد اثارت النجاحات العسكرية التي حققتها روسيا قلق الحكومة البريطانية وخشيتها من ان يجري حل المسالة اليونانية دون مشاركة منها ولهذا فقد سعت لاخراج القضية اليونانية عن اطار الحرب الروسية ـ العثمانية ومعاهدة الصلح المقبلة بين روسيا والدولة العثمانية . ولتحقيق ذلك اقترحت عقد بروتوكول جديد يقضي باستقلال اليونان استقلالا تاماً بدلا من الاستقلال الذي كان هدفها من ذلك ايضاً تلافي شمول اليونان بمبدأ الحماية الروسية وهي الحماية التي كانت تتمتع بها الكيانات

المسيحية المستقلة ذاتياً ضمن الدولة العثمانية . ولم يصادق الاقتراح البريطاني اعتراضاً روسيا التي كانت قبل ذلك بوقت طويل ترى ضرورة استقلال اليونان نهائياً ، غير ان الحكومة الروسية اعترضت على الشق الآخر في الاقتراح البريطاني وهو الشق القاضي بتقليص حدود اليونان المستقلة بحيث تكون أقل من الحدود التي أقرها بروتوكول اذار(٦٧) .

في هذه الاثناء جاءت موافقة الحكومة العثمانية على الدخول في مفاوضات مع الدول فقد دفعها وضعها العسكري اليائس والرغبة في استغلال الخلافات القائمة حول حدود الدولة اليونانية المقبلة الى أن تعلم الدول في بداية آب بموافقتها على الدخول معها في مفاوضات على اساس معاهدة ١٨٢٧ وبروتوكول اذار ١٨٢٩ ولكنها أبدت في الوقت نفسه جملة من التحفظات منها عدم الاعتراف بخط فولوس ـ ارتا الذي اقره بروتوكول اذار ١٨٢٩ حدوداً لليونان(٦٨) . واصبحت مبادرة الباب العالي هذه موضوعاً لجولة جديدة من المحادثات بين الدول الثلاث في مؤتمر لندن تجلت فيها الخلافات على اشدها بين روسيا وبريطانيا . وكانت هذه المحادثات مقيدة بالنسبة لروسيا في ناحية فهمه هي كسب الوقت لدفع الدولة عام ١٨٢٩) التوقيع على معاهدة صلح ادريانوبل (ادرنه) التي استولت روسيا بموجبها على جزء من ساحل البحر الاسود يمتد من مصب نهر كوبان الى ميناء القديس نيكولاي وجزء من باشوية اخالتسيخ كما استولت على جزء من دلتا الدانوب بحيث اصبح الفرع الجنوبي من مصب النهر يؤلف الحدود الروسية . لقد اكدت المعاهدة للروس حرية المتاجرة في العثمانية الى التوقيع على معاهدة الصلح والهاء بريطانيا عن التأثير في سير المفاوضات بينها وبين الدولة العثمانية . وهكذا جرى في (١٤ ايلول الدولة العثمانية وتمتعهم بالافضليات التي يوفرها نظام الامتيازات وحرية مرور سفنهم خلال المضايق وأعادت المعاهدة امارتي الدانوب الى الدولة

العثمانية على ان تتمتعا بجميع الحقوق والامتيازات الممنوحة لهما بموجب المعاهدات والاتفاقيات السابقة كما الزمت الحكومة بتنفيذ ميثاق آق كرمان فيما يتعلق بصربيا واعادة المناطق الست المقتطعة منهـا . اما بخصوص اليونان فقد التزمت الدولة العثمانية بموجب المعاهدة بقبول معاهدة لندن لسنة ١٨٢٧ وبروتوكول اذار ١٨٢٩ وتعهدت بتعيين مفوضين عنها للاتفاق مع روسيا وفرنسا وبريطانيا حول تنفيذ ماجاء فيهما . لقد اكدت المعاهدة جميع المعاهدات والاتفاقيات السابقة المعقودة بين روسيا والدولة العثمانية باستثناء مايتعارض منها مع بنود المعاهدة الحالية ، والزمـت الحكومـة العثمانية بدفع تعويضات حربية لروسيا تدفع على اقساط خـلال اربـع سنوات على ان لايتم انسحاب القوات الروسية كلياً الا بعد دفع التعويضات بالكامل(٦٩) .

لقد جاء معاهدة اوربانوبل كما هو واضح معتدلة لاتتناسب مـع النصر العسكري الساحق الذي حققته روسيا على الدولة العثمانية وكـان السبب الذي حدى بروسيا الى ذلك هو رغبتها في تجنب التعقيدات التـي ستسببها لها بريطانيا وسعيها لازالة استياء الحكومة البريطانيـة مـن تضمين المعاهدة مادة خاصة باليونان لان ذلك من شأنـه ان يعزز النفوذ الروسي بين اليونانيين ، وكذلك سوء اوضاع القوات الروسية وتفشـي المرض في صفوفها . ومع ذلك فقد احتجت حكومـة ولنكتون ورفضت الاعتراف بالمادة الخاصة باليونان في المعاهدة . كذلك أخذت الحكومـة العثمانية من جانبها تتهرب من تنفيذ الالتزامات التي اخذتها على عاتقهـا وتطالب باعادة النظر ببروتوكول اذار بحيث يشمل الاستقلال الذاتـي الممنوح لليونان البلبوبونز فقط . وقد تقرر في مؤتمر لندن بالفعل اعـادة

النظر ببروتوكول اذار ولكن على اساس الاقتراح البريطانـــي القاضـــي باستقلال اليونان استقلالا تاماً مـــع تقليص حـــدودها لارضاء الدولـــة العثمانية، وهكذا اقر مؤتمر لندن في ٣ شباط ١٨٣٠ بروتوكولا جديـــداً اعلنت فيه اليونان دولة مستقلة تحت ضـــمان الـــدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وروسيا(٧٠) .

ولقد آثارت مسالة اختيار ملك لليونان جدلا واسعاً وخلافات جديدة بين الدول التي كانت كل منها تسعى لان يفوز مرشحها بالعرش اليوناني . وتعقدت المسالة اكثر نتيجة للاوضـــاع غـــير المستقرة في اليونان وقيام اضطرابات ضد كابودستريا أدت الى اغتياله في بداية تشرين الاول ١٨٣١ فانقسم اليونانيون الى فريقـــين وتشكلت في اليونان حكومتان وتجـــددت النزاعات الداخلية والحرب الأهلية والفوضى . غير ان الدول أستطاعت مع ذلك في بداية ١٨٣٢ ان تتفق أخيراً على تنصيب الأمير أوتو ابـــن ملك بافاريا ملكاً على اليونان ووقع الميثاق الخاص بذلك في ٧ أيار عام ١٨٣٢ وتقرر ان يتولى صلاحياته ، الى أن يبلغ سـن الرشـد في ١٨٣٥ ، مجلس وصاية يتألف من ثلاثة مستشارين بافاريين كما تقـــرر ان تمنح اليونان قرضاً مقداره (٦٠ مليون فرنك) . وتبع ذلك تعيين حدود المملكة اليونانية نهائياً حيث تقرر توسيع رقعتها قليلا على ان تدفع للباب العالـي تعويضاً مالياً كبيراً . وقد وافقت الحكومة العثمانية على ذلك مضطرة(٧١) .

وهكذا تمكن اليونانيون من تأسيس دولتهم القومية المستقلة بعـــد كفاح طويل بلغ ذروته في الانتفاضات المسلحة التي استمرت من ١٨٢١ الى ١٨٢٩ . وقد تحقق ذلك لدرجة ما بمساعدة الدول الاوربيـــة الثلاث : روسيا وبريطانيا وفرنسا . ومع ان تدخل هذه الدول انقذ الثورة اليونانية اكثر من مرة ولاسيما في الوضع الحرج الذي وجدت نفسها فيه في ١٨٢٥ ـ

١٨٢٦ ومساعد اليونانين على ان يواصلوا كفاحهم ويوسعوه حتى يبلغوا الهدف المنشود الا أن هذا التدخل افرز عدداً من العوامل السلبية تركت اثرها على النتائج التي تمخضت عنها الانتفاضة اليونانية المسلحة وسبب ذلك ان الهدف الاساس لهذه الدول لم يكن اسناد الثورة اليونانية وتحرير اليونان بل استغلال الانتفاضة اليونانية وما أرتبط بها من احداث لتحقيق مصالحها الاستعمارية وترسيخ نفوذها في المنطقة · وهكذا فقد منعت الدول اليونانيين من اختيار شكل الحكم الذي يريدون وفرضت عليهم الحكم الملكي وتصبت على عرش اليونان ملكاً اجنبياً لاصلة له بالشعب اليوناني ولايحد من سلطته دستور او قوانين مفيدة · كذلك ادى تدخل الدول الى تقليص حدود اليونان وجعل الدولة اليونانية المستقلة لاتشمل جميع الاراضي التي يقطنها اليونانيون · ومع ذلك فان قيام دولة مستقلة عن الامبراطورية العثمانية في اليونان كان خطوة بالغة الأهمية على طريق تحقيق الاهداف القومية للشعب اليوناني وتقدمه الاجتماعي كما كان له اثر كبير على نضال شعوب البلقان الاخرى التي كانت بدورها تكافح من أجل انشاء دولها القومية المستقلة ·

الهـوامش

Charles Eliot , Turkey in Europe, hondon and hiverpool, 1965 , p. 280

S.A. Nikitin , Borha narodov Balkan skovo poluostrova ga natsionadnuyu negavismost v 1815 - 1847 . — «Novaya istoris Tom ll 1789 - 1870 , pod red . I . S . Galkina i drug .» Moskva 1958, str . g46 .

(٣) G.W. Arsh, Getepii . — «Sovetskaya Istoricheskaya Entsiklopidiya» T.4, Moskva 1963 , str 427 .

(٤) I.S. Dostyan i K .I. hogachev , Natsionalno - osvoliodi'elnaya revoluytsiya 1821 - 1829 i sozdanie grecheskovo gosudarstva . — «A.N. sssr institnt slavyanovedeniya i Balkan , Formirovanie Natsionalnykh Nezavisimykh gosudarstv na Balkanakh . (konets xvlll — 70e gody xix v.)» Moskva 1986 , str . 38 .

(٥) W.M. Gewehr , the Rise of Natirna lism in the Balkns 1800 ? 1830 , Archon Books , 1967 p.23 ; Elint , op. cit. p. 285

Sovetskaya Istoricheskaya Entsiklopidiy Tom 6 , Moskva 1965 , str . 194

(٧) M.S. Anderson , The Eastern Questien 1774 - 1923 . A study in gnleina - tional Relations , Glasgow 1970, p. 53 ; Gewehr , op. cit. p. 24 .

J.A.R. Marriott, the Eastern Ouestsir : An Historical study in European diplomacy , oxford 1958 , p. 205 .;

محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسالة الشرقية ، القاهرة، ١٩٧٦ ، ص١٣٩ .

(٩) انظر تفاصيل ذلك في : مصطفى كامل ، المسئلة الشرقيـة ، مصـر ١٨٩٨ ص٦٢ ـ ٦٣ .
Eliot , op . cit. p. 289

(١٠) محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ص١٣٩

(١١) انظر :

Dostyan i Logachev , op. cit. pp. 39 - 41 ; Marriott. op. cit. pp. 208 - 209 .

(١٢) ViP. potemkin i drugie , Istoria diplomati , Tom 1, Moskva 1959 , str . 528 - 529 .

(١٣) V.N. vinogradov , velikobritaniye i Balkany : ot Benskovo kongressa do krymskoy voyny , Moskva 1958 , str . 31 .

(١٤) Jlid . pp. 32 - 33

(١٥) محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ص١٤٣ – ١٤٤ .

(١٦) Vinogradov , op cit. p. 33 ; Dostyan i Logachev op. cit. p. 42 ; Marriolt , op cit . p. 207 .

(١٧) Dostyan i hogachev , op cit . p. 42

(١٨) Potemkin i drugie , op . cit. vol.1 p.530 .

(١٩) Quoted in Vinogradov , op . cit. p. 38

(٢٠) Quoted in glid p. 38

(٢١) Diplomaticheskiy slovar , Tom II , Moskva 1961 , Str . 167 .

(٢٢) انظر حول ذلك :

Vingradov , op. cit. pp. 54 - 55 .

(٢٣) ghid . p. 54 .

(٢٤) Potemkin i drugie , op cit . vol. I, pp. 531 - 532 .

(٢٥) I.S. Dostyan , Rossiya i Balkanskiy Vopros , 12 istorii russkebalkanskikh politicheskikh Svyazey v pervoy Treti xix v. , Moskva 1972 , Str . 211-212.

(٢٦) Kenneth Bourne , The Foreign policy of victoriasl England 1830 - 1902 , oxford , 1970 , p. 19

(٢٧) انظر :

Vinogradov , op. cit. p. 55 .

(٢٨) Dostyan i Logachev , op cit . pp. 43 - 44 .

(٢٩) glid . p. 43 .

(٣٠) Vinogradov , op . cit. p. 58 .

(٣١) Broune , op. cit . p. 20 .

(٣٢) Vinogadov , op. cit. p. 64 .

(٣٣) Harold Temperley , England and The Near gast The Crimea , wondon , 1964 , p. 53

(٣٤) Vinogrador , op. cit. p. 65 .

تسنمه العرش كان ضعيفاً ولذلك لم تسول لتربيته وتثقيفه نفس

(٣٥) نيقولا الاول هو الابن الثالث للقيصر بافل الاول ولهذا فان احتمال العناية التي اوليت لاخويه قسطنطين والكسندر .

(٣٦) انظر حول ذلك :

Potemkin i drugie , op. cit. Vol. I , p. 537 .

(٣٧) ghid p. 539 .

(٣٨) انظر :

Vinogradov , op. cit. pp. 67 - 68 .

(٣٩) M.S. Anderson , (ed) , The Grest powers and the Near gast 1774 - 1923 , Documests of Modern History, London 1970 , pp. 32 - 33 .

(٤٠) انظر نص ميثاق آق كرمان في :

محمد فريد ، تاريخ الدولـة العلية العثمانيـة ، بـيروت ١٩٧٧ ص٢١٠ – ٢١٧ .

(٤١) Vinogradov , op. cit. p. 77 .

(٤٢) Dostyan i hogacher , op. cit. p. 45 .

(٤٣) انظر تفاصيل الوضع الداخلي للثورة اليونانية في هذه المرحلة في:

ghid . pp. 45 - 46 .

(٤٤) Quoted in Vinogradov , op. cit. p. 75 .

(٤٥) gihd . p. 75 .

(٤٦) Quoted in potemkin i drngie . op. cit. Vol . I, p. 541

Marriott , op. cit . p. 218 .

(٤٨)

(٤٧)

(٤٩) Vinogradov , op. cit. p. 79 .

(٥٠) انظر :

Ouoted in Anderson . The Eastern Ouestion ... p. 67 .

JiG. Gutkina. Grecheskiv Voproș na zaklvuchitelnom Etape Vostochnovo krizisa 20 — x Godov xix ffiffiBeka — , «Akagemika Nauk SSSR otdeilenie Istorii , Leningradskoe otdelenie Insti tuta Istorii SSSR, Probemy Istorii Mezhdunarodnych

Otnosheniy , shornik statey pamyati akademika E.V. Tarle» Leningrad 1972 . pp. 370 - 372 .

(٥١) Marriott , op. cit. p. 221 .

(٥٢) Gutkina , op. cit. p. 370 .

(٥٣) Andirson , The Eastern Guestion ... p. 68

(٥٤) Dostyan i Logachcv , op. cit. p. 48

(٥٥) Gutkina , op. cit. p.

(٥٦) Anderson , . The Eastern Question ... p. 68

(٥٧) Dostyan i Logacher , op. cit. pp. 47 - 48

(٥٨) Anderson . The Eastern Question ... p. 68

(٥٩) Vinogradov , op. cit. p. 98

ومما له دلالة في هذا الشأن ان رئيس بنك روتشيلد اقترح على السفير الروسي في لندن في كانون الاول ١٨٢٨ وكان الثاني ١٨٢٩ ان يمنح روسيا قرضاً مقداره مليون جنيه استرليني دون ان يطلب السفير منه ذلك :

ghid . p. 98

(٦٠) Potemkin i drugie , op. cit. vol. 1 p. 543

(٦٤) Marriott , op. cit. p. 222

(٦١) Gutkina , op. cit. pp. 381 - 382

(٦٢) Dostyan i Logachur , op. cit. pp. 52 - 53

(٦٣) Quoted in potemkin i drugu , op. cit. vol. 1 , p. 544

(٦٥) Anderson , The Eastern Queshon ... p. 71

(٦٦) Potemkin i drugie , Op. cit. vol. 1 , p. 544

(٦٧) Vinogradov , op. cit. p. 101

(٦٨) ghid . p. 102

(٦٩) انظر : محمد فريد ، المصدر السابق ص٢٢٢ — ٢٣١ ،
Anderson , The Great Powers ... pp. 33 - 35

(٧٠) Marriott , op. cit. p. 223

(٧١) انظر :
Dostyan i Logachev , op. cit. pp. 55 - 57 .

نص جديد في تاريخ الزبير والبصرة لابن الغملاس

بقلم
الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف
استاذ التاريخ الحديث المساعد/كلية التربية ـ جامعة بغداد

نسبة الكتاب

ليس للمخطط الذي نحن بصدده عنوان ، أو مقدمة ، أو خاتمة ، كما هو معتاد في مثله ، وانما هو يبدأ فجأة بذكر أحداث السنين التي يعنى بتسجيلها ، وينتهي بالطريقة نفسها • ويرجع ذلك ـ فيما يتراءى لنا ـ الى ان المؤلف لم يعن باخراج كتابه بصورته الأخيرة ، أو انه لم يبيضه أصلا ، وبذلك فانه أجل وضع عنوان محدد له لحين الانتهاء منه تماما او هو مالم يحدث قط •

وثمة عدة قرائن تدل على انه من تأليف المؤرخ البصري ـ او الزبيري على وجه أدق ـ عبدالله بن ابراهيم الغملاس ، الذي عاش في اواخر القرن التاسع عشر ، والثلث الأول من هذا القرن • وأهم تلك القرائن ، ان المؤلف أشار ازاء عدد من الأخبار التي ساقها الى مختصرات لعناوين كتب يظهر انه كان ينوي تأليف بعضها ، أو أنه شرع ـ أو أنجز ـ تأليف بعضها فعلا • وأحد هذه العناوين ، كما تدلنا فهارس المخطوطات التي أطلعنا عليها بحمله كتاب كان قد وضعه ابن الغملاس في الحقبة نفسها ، فما يشير اليه مؤلف المخطوط باسم «تذكرة» هو كتاب «التذكرة والعبرة في تاريخ بلد الزبير والبصرة» الذي الفه ابن الغملاس بالفعل[1] وعليه

---

(١) كتابنا : التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني (بغداد ١٩٨٣) ص٢٧٧ • ع

فلا يبق شك في نسبة المخطوط موضوع بحثنا الى هذا المؤرخ .

مؤلـف الكتاب

وكما ان ابن الغملاس كشف من خلال تاريخه هذا كثيراً من خفايـا البصرة الاجتماعية والسياسية والثقافية في عهده ، فان المخطوط كشـف ـ بالمقابل ـ سيرة ابن الغملاس نفسه ، التي لم يدونها احد ، وذلك لانـه سجل رجال أسرته ومحلته ومدينته ، بما يعين الباحث على التعرف عـلى بعض معالم سيرته ، فهو ابن ابراهيم الغملاس الذي كان قاضياً في بلـدة الزبير حتى وفاته في سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٥م ، وأمه هيلة بنت عبدالرحمن بوحمد ، المتوفاة سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦ م.وكان له أخوة اشقاء توفوا جميعاً في حياته ، هم : عبدالعزيز (توفـى سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م) وعبدالغني (توفـى سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م) ولؤلؤة (توفيت سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م) وأخوة من أم أخرى ، هم : عبداللطيف ، وعيسى ، ومحمد .

عاش ابن الغملاس في بلدة الزبير ، حيث موطـن أسرته ، وموقـع طفولته وصباه ، ولم يغادرها ـ فيما يبدو ـ حاجاً سنة ١٣١٩هـ/١٩٠١م وعاد اليها في السنة التالية ليقضي بقية حياته فيها . وتـزوج مـن فتاة تدعى فاطمة الشبيب ، ورزق منها باولاده الثلاث : أحمد ، وحصة ، ونواة، ولكنه لم يلبث ان فجع بوفاة ابنه أحمد ، وهو مازال طفلا ، ثم طلـق زوجته فاطمة سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م ، وتزوج بفتاة أخرى هي سبيكة بنت عبدالرحمن باحسين ، فعاشت معه نحواً من أربعة عشر عاماً توفيت بعدها سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م ، ولم تمض سنة واحدة ، حتى تزوج من هيبا بنت رحمة عبدالله ، ولكنه طلقها في ذي القعدة من السنة التالية ، وتزوج مـن فتاة أخرى ، ولم يلبث ان طلقها هي أيضاً .

وكانت علاقات ابن الغملاس بابناء اسرته وذوي قرباه طيبة للغاية ، ويبدو

انها كانت كذلك مع أبناء محلته وبلدته عامة ، فلم يذكر أحداً منهم في تاريخه بسوء ، وطريقته المحايدة في ذكر اخبار المتنازعين الذي يحفل بها كتابه ، تدل على انه لم يكن متحزبا لأي منهم • ورغم ان عمه سلمان الغملاس ، أحد أبرز زعماء الزبير في عهده وله دوره البارز في صراعات ذلك العهد ومشاكله ، فاننا لا نلمح في كتابه أي تعاطف خاص معه ، أو تأييد له في مواقفه • ويظهر ان بيئة المؤلف الدينية ، بوصفه ابن قاضي بلدته ، واهتماماته الثقافية والادبية المتنوعة ، واشتغاله أماماً في بعض مساجد البلدة ، وقد وسمت نظرته الى احداث عصره بسمة هادئة محايدة ، فاكتفى من عصره بتسجيل مجرياته ، دون ان يقحم نفسه في صراعاته ومشاكله • ومع ذلك ، فان مشاعره العامة سرعان ماتبدت وطنية صريحة يوم داهمت القوات البريطانية البصرة في بدء الحرب العالمية الاولى ، وانحاز الى جانب حركة المقاومة التي نظمتها بعض زعماء البصرة آنذاك ، وذلك لأن للوطن – على حد تعبيره – «حق بحسب المستطاع يجب علينا اداوءه ودين على قدر المقدرة يلزم وفاءه»(١) وكان عبدالعزيز ، ابن اخيه عبدالغني ، مشاركاً مع المجاهدين العراقيين في مقاومتهم للغزو البريطاني(٢) •

وليس كالمخطوط الذي بين أيدينا دليلا على ثقافة الرجل وطبيعة اهتماماته الثقافية العامة ، فقد سجل فيه كل ما رآه أو وصل الى سمعه من أخبار سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ذات الصلة بمجتمعه آنذاك • رغم دقة ملاحظته وأمانته العلمية فيما كتب • فان كتاباته كلها تدل على ان ثقافته كانت محلية الطابع والأصول تماماً ، فاغراقه في تسجيل أدق تفاصيل الحياة الاجتماعية في الزبير ، واهتمامه الشديد بشعرها

(١) ابن الغملاس : ولاة البصرة ومتسلموها ، بغداد ١٩٦٢ ، ص٧٤
(٢) المخطوط ، الورقة ٢٥٤

العامي ، وكثرة مايتخلل كتابته من مفردات وتعبيرات محلية ، واستشهاده بالأمثال العامية المتداولة ، يؤكد ماذهبنا اليه .

ولابن الغملاس مؤلفات عديدة ضاع معظمها ، ونوه وهو بعنواناتها في كتابه الذي نحن بصدده الآن ، وجميعها يدور حول تاريخ الزبير والبصرة وتراجم أدبائها وأخبار بيوتاتها واحوالهما العمرانية وما يتصل بذلك من امور مهمة ، وهذه المؤلفات هي :

١ ـ البصرة . يتضمن سردا موجزا لأهم الأحداث التي مرت على البصرة منذ تأسيسها سنة ١٤ هـ/١٨٣٠م ، وفيه تفاصيل أحداث جرت في الزبير أيضا ، كما يتضمن أسماء عدد من الولاة والمتسلمين الذين تعاقبوا على حكمها . نشره علي البصري (مطبعة دار البصري ببغداد ١٩٦٢، ٧٤ + ١٠ ذيل) بعنوان (ولاة البصرة ومتسلموها لابن الغملاس)(١) .

٢ ـ ترجمة حسين باشا ونوادره . نسخة في المكتبة المركزية لجامعة البصرة ، ٣٠ ورقة ، برقم ٦٧ .

٣ ـ سلاطين بني عثمان . نسخة في المكتبة المركزية لجامعة البصرة، ٥٦ ورقة ، برقم ٦٨ .

٤ ـ مختصر سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي ، في أربعة أجزاء ، نسخة في المكتبة المركزية لجامعة البصرة كتبت سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م ١١٨ ورقة برقم ٥٠ .

---

(١) لم يقف الناشر على هوية ابن الغملاس هذا ، لفقدان الصفحة الاولى من مقدمة الاصل المخطوط وقال «يظهر من بعض الملاحظات ان مؤلف الكتاب من بعض رجالات أسرة الغملاس المعروفة بالزبير بضربها في آفاق العلم والتأليف» (المطبوع ، ص٢) وقال معللا توقف المؤلف عند احداث سنة ١٢٤٦ هـ ، بانه ذلك سببه مرضه ثم وفاته (ص٧٥) مما قد يوحي بان وفاته جاءت بعيد تلك السنة .

٥ ــ مختصر خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي . نسخة من الجزئين الثالث والرابع كتبت سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٦م في المكتبة المركزية لجامعة البصرة ، ١٤٥ ورقة ، برقم ٤٩ .

٦ ــ منتخب الكامل في التاريخ لابن الأثير . نسخة في مكتبة الزبير الأهلية العامة في الزبير ومسجلة في المؤسسة العامة للآثار والتراث برقم (٢١٨٨٢) .

٧ ــ التاريخ المرتب في الشعر والادب . يتناول تراجم الأدباء والكتاب ويبدأ بترجمة بطرس البستاني وينتهي بترجمة أمين الجندي الحمصي . نسخة في المكتبة المركزية لجامعة البصرة ، ١٦ ، برقم ٧٠

٨ ــ كتاب في تراجم الشعراء . نوه به ، ولم نقف عليه . ويضم ــ يبدو ــ تراجم الشعراء المحليين من أبناء الزبير والبصرة ، ممن عاصرهم المؤلف ، وكانت له صلات ادبية ببعضهم ، وفيه نماذج من أشعارهم العامية . الفه قبل شروعه بكتابة تاريخه فانه أحال عليه بقوله في ترجمة طه الزهيري «مذكور في الشعراء ، له بيت زهيري»[١] .

٩ ــ البيوتات . نوه به في معظم صفحات تاريخه ، وواضح من تلك الاشارات انه يختص بالكلام على بيوتات الزبير والبصرة البارزة . وقد رتبه على الحروف ليكون كالمعجم ، وتكلم فيه على الشخصيات المهمة من تلك الأسرة وما أدته من ادوار سياسية واجتماعية في عهده . ويبدو لنا ألفه في نفس الوقت الذي كان يؤلف فيه هذا الكتاب الذي بين ايدينا ، وانه ينقل الأخبار المتعلقة بموضوعه وربما توسع فيها هناك ، من ذلك قوله عند الكلام على بعض أخبار فالح السعدون : «نقل في البيوتات في السين»[٢]

---

(١) الورقة ٣٠
(٢) الورقة ٢٠

وقوله في موضع آخر «نقل في الغين ـ بيوتات»[٣] ولم نقف لهذا الكتاب على أثـر ٠

١٠ ـ عيون الأمثال ٠ نوه به في تاريخه ، ولم نقف عليه ٠ وهو يختص بذكة الأمثال العامية الشائعة في بيئة المؤلـف ، وفيـه استطراءات تاريخية وتراجم[٤] ٠

١١ ـ التذكرة والعبرة في تاريخ بلد الزبير والبصرة ٠ نوه به مرارأ في تاريخه ، ونقل منه بعض الاخبار والتراجم ، وسماه «التذكرة» مطلقا او «التذكرة الكبيرة»[٥] تمييزاً له عن كتاب اختصـــره منه ، وسماه «تلخيص التذكرة»[٦] ومعلومات التذكرة والمساحة الزمنية التـي تؤرخها تقترب في بعض النواحي من كتابه الذي نحن بصدده الآن ، فهو يسجل فيها اخبار مدينته الزبير ومدينة البصرة في اواخر العهد العثماني ، ويترجم بأختصار لاعلامها من الولاة والعلماء والمشايخ والزهاد ، على نفس منهجه في كتابـه هذا ، وعلى اية حال فان الكتابين يكمل أحدهما الآخر فيما يوردانه مـــن تفاصيل تاريخه ٠ ومن التذكرة والعبرة نسخة في مكتبة جامعة البصـــرة برقم ٦٥ ٠

١٢ ـ الاعلام ٠ أشار اليه في مواضع عديدة من تاريخه ، وهو كما يفهم من تلك الاشارات مجموع يضم تراجم معاصري المؤلف من رجال الزبير والبصرة الذين اشتهروا بنشاطاتهم الأدبية والعلمية غالباً مرتبة على حروف المعجم[٧] ، وهو من كتبه الضائعة ٠

---

(٣) الورقـــة ٢١
(٤) الورقـــة ١٠٧
(٥) الورقـــة ١١١
(٦) الورقـــة ٦١
(٧) انظر مثلا الورقة ٥٠

١٣ ـ المرتبط في النبط · اشار اليه في بعض المواضع من تاريخه ، وهو ـ كما يظهر ـ مجموع يضم طائفة من الأشعار العامية المحايــة ، المعروفة بشعر النبط ، جمعها من ألسن الشعراء المعاصرين له في تلــك النواحي ، وترجم فيه لبعضهم[١] ، وهو من مؤلفاته الضائعة أيضاً ·

١٤ ـ مجموع زهيري · ضم فيه ما وصل الى سمعه مــن منظومات شعرية عامية على طريقة «الزهيري» ، وترجم فيه لبعض الشعراء · قال في ترجمة احدهم «وغنتني له في مجموع الزهيري أبياتا ، وفيـــه ترجمته»[٢] وقوله في احداث سنة ١٣١٧هـ/ م انه عثر فيها على «مجموعين شعر بنط (يظهر انه المرتبط المذكور سابقا) وزهيري»[٣] ·

ويظهر لنا ان المؤلف كان يسجل أحداث عصره أولا بأول في أوراق او بطاقات خاصة ، ليقوم بعدها بنقل محتوياتها الى كتبه التي كان بعضها في وقت واحد ، او في فترات متقاربة ، مكونا منها مجموعـــة من المؤلفات المتنوعة العناوين ، والمتشابهة في المضامين من حيث تأريخها لحقبة واحدة، ومكان واحد · ولاشك في ان هذه المؤلفات يكمل بعضها بعضاً في تقديـــم صورة شائقة ، مفعمة بالحيوية ، لذلك العهد ، بحوادثه ومعالمه وشخوصه وعلاقاته الاجتماعية ·

وكانت أوراقه التي يسجل فيها الأحداث لأول مرة ، تمثل الصورة الأولى لمجريات عصره ، دونما تعديل او تهذيب ، والظاهرة انها كانـــت تحتوي على اخبار علاقات اجتماعية وأسرية بحتة ، فقـــد وجدناه مولعا بتسجيل مثل هذه التفاصيل ، ولذا فانه كان يعمد ، بعد ان يستقي منها

---

(١) الورقــة ١٤٠
(٢) الورقــة ١٢
(٣) الورقــة ٩٣

معلوماته ، الى اتلافها بحرقها امام عدد من الشهود ، يقول في احداث بعض شهور سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م «وفي هذا الشهر أحرقت أوراقاً كثيراً لاينبغي»(٤) وفي أحداث السنة التالية «وفيها ١٢ شعبان احرقت جملة أوراق مخرقة مخرمة لافائدة في بقائها بحضرة جماعة»(٥) ·

الكتاب

والكتاب الذي بأيدينا هو أحد تلك المؤلفات المهمة ان لم يكن أهمها في المادة التاريخية ، ونزاهة ملحوظة في تقويمه الأحداث التي يؤرخها ، جميعاً ، نظراً لما اتسم من دقة في الملاحظة ، ووضوح في العرض ، وسعة وهو تسجيل لحقبة حافلة من تاريخ الزبير والبصرة وبعض المدن والقصبات المجاورة الأخرى ، عاشها المؤلف بنفسه ، وشاهد بأم عينيه مجرياتها حوادثها ، واتصل بمعظم رجالها من ساسة وزعماء وشيوخ قبائل وشعراء وائمة وزهاد وغيرهم ·

تقع مخطوطة الكتاب(١) في ٢٥٧ ورقة ، قياسها سنتيمتر ، وهي مكتوبة بخط مؤلفها ابن الغملاس نفسه ، ورغم الحجم الكبير لحروفه وكلماته ، فانه يتسم بالضعف وعدم الوضوح أحياناً ·

واخبار الكتاب مرتبة على طريقة الحوليات التقليدية ، فهو يبتدىء بحوادث سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م ، وينتهي عند السنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م ولاندري ما اذا كان ثمة قسم من الكتاب ، تال لهذه السنة ، فقد فقد وضاعت معه أخبار السنين اللاحقة · ومما يرجح هذا الزعم أن المؤلف

---

(٤) الورقة ٣٤

(٥) الورقة ٣٦

(١) توجد لديكا نسخة منها ، كنت صورتها عن النسخة الخطية التي في مكتبة المرحوم مصطفى علي الخاصة ، واقوم حالياً بتحقيقها واعدادها للنشر ·

أشار في كتابه الى تاريخ تأليفه اياه ، وهو سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م ، اي بعد ستة عشر عاماً من نهاية ماسجلته مخطوطة الكتاب نفسها ، فان لم يكن شيئاً قد ضاع من المخطوطة فعلا ، فلا يبق لنا الا افتراض ان المؤلف عاد الى أوراقه وبطاقاته التي دون فيها تفاصيل حوادث ثلث القرن الأخير الذي سبق الاحتلال البريطاني لوطنه ، فجمع منها تاريخه المذكور بعد تلك السنوات التي مرت على انتهاء الحوادث وانقضاء صفحتها .

ويكشف تحليل معلومات الكتاب ، عن ان المحور الرئيس الذي تدور حوله أخباره ، هو تاريخ الزبير ، اذ تصل نسبة مايشغله هذا التاريخ ٩ر٨٢ بالمائة ، بينما تشغل أخبار البصرة ، على أهميتها الادارية والسياسية بالنسبة للبلدة المذكورة ٣ر٨ بالمائة منه . وتأتي مدينة الكويت في المرتبة التالية من اهتمام المؤلف ، اذ يبلغ ماساقه من أخبارها ٤ر٤ بالمائة من سائر الكتاب . وثمة نواح وقصبات اخرى ، مثل سوق الشيوخ والشعيبة وحائل تشغل جميعاً ٤ر٤ بالمائة منه .

ويدلنا هذا التحليل على ان أكثر من أربعة أخماس الكتاب يعتمد أساساً على الشهادة الفعلية للحوادث ، فالزبير هي موطن المؤلف ، وناسها أهله ومعارفه ، وهي من صغر المساحة آنذاك مايكفيه الاعتماد على اطلاعه الشخصي أو سماعه الأخبار من شهود العيان مباشرة ولذا فانه لم يجد ضرورة تدعوه الى تسجيل أسماء رواته غالباً ، الا اذا انفرد بذكر رواية خاصة مما لم يصل خبرها اليه بطريق التواتر كنقله خبراً من الشيخ محمد الصافي ، فيه تفصيلات عن حوادث جرت لأبيه(٢) ، واما ما خلا ذلك فانه يكتفي بالقول «هكذا سمعناه من الأفواه»(٣) او نحو ذلك من عبارات .

---

(٢) الورقة ١٦١

(٣) الورقة ١٤٢

والمصدر المكتوب الوحيد الذي يشير اليه في صدر كلامه عن تاريخ الزبير وتراجم أهلها ، هو أوراق ، او دفاتر ، كان معاصره الشيخ محمد الدايل (أو الدايلان) قد دون بعض أخبار الزبير والبصرة على الطريقة الحولية التي اتبعها ابن الغملاس نفسه ، وعلى اية حال فان ما نقله عنه لم يزد على بضعة اوراق ، تخص جميعاً أحداث سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م وسنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م . وهو حريص على ان يختلط كلام الشيخ بكلامه ، اذ نراه يصرح بنقله منه ، فيقول «فصل منقول من خط الشيخ محمد الدايل» ويعلن توقفه عن النقل بقوله «انتهى»[١] .

أما المدن الأخرى ، وبخاصة البصرة والكويت ، فانه استقى أخبارهما من بعض المترددين عليهما من أبناء بلدته ، ومعظمهم من التجار ومن أصهاره ، اذ كانت اخته قد تزوجت من أحد تجار الكويت ، وأخذت تتردد عليه في الزبير مدة من الزمن ، ومن المرجح انه استقى منها ، أو من هم برفقتها ، بعض ما كان يجري في الكويت من حوادث وما يشاع في بيوتاتها ومجالسها من أخبار . وباستثناء تصريحه باسم ناصر مسلم المزين ، كمصدر معلومات له بشأن حوادث الكويت[٢] ، فان جميع اشاراته الأخرى جاءت عامة ، غير محددة ، كقوله «هكذا سمعنا» و «بلغنا»[٣] و «هذا الذي شاع»[٤] و «هكذا بلغنا وشاع بين الناس»[٥] ونحو ذلك . وأشار مرة الى كتاب عثمان بن بشر الحنبلي المعنون «عنوان المجد في تاريخ نجد» عند تطرقه الى بعض تاريخ نجد في عهد الدولة السعودية الأولى[٦]، ويظهر انه

اعتمد في اشارته على النسخة المطبوعة في بغداد سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م .

(١) ذكر في الورقة ٥٠ ان وفاة الشيخ محمد الدايل في سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٢٠م وقال «كان كتب حوادث كثيرة فسرق من الديوان» .

(٢) الورقة ٢١٠ (٣) الورقة ١٥٨ (٤) الورقة ١٥٥

كما اشار الى تاريخ للكويت لم يسم مؤلفه[٧] . وكان ـ فضلا عن ذلك ـ يطلع على بعض المجلات الصادرة في أقطار عربية أخرى ، اذ نراه يشير الى مجلة (الاصلاح) التي كان يصدرها بمكة المكرمة محمد حامد الفقي ، لكنه لايبدو انه استفاد منها موادا لتاريخه[٨] .

أهمية الكتاب

أ ـ الجانب الاجتماعي :

بوسعنا أن نعد كتاب ابن الغملاس هذا مصدرا أصيلا وفريدا في دراسة الحياة الاجتماعية ، بجوانبها المتعددة ، لثلاث مدن رئيسية من مدن حوافي البادية ، سيكون لها شأن فيما بعد ، في خلال حقبة تاريخية مهمة اتسمت بتوسع الصلات التجارية ، وتحسن النشاط الاقتصادي ، وتزايد الهجرة من البادية الى المدن ، وبدء تشابك العلائق الاجتماعية بين سكان تلك النواحي من جهة ، وبينهم وبين سكان المدن والقصبات المجاورة من جهة أخرى .

وعناية ابن الغملاس بتفصيلات هذا الجانب عميقة وواسعة ، لكنها لم تأت متوزعة على المدن التي كتب عنها بالتساوي ، فبينما تشغل هذه التفصيلات ٤و٥٤ بالمائة مما كتبه عن الزبير ، لاتشغل فيما يتعلق بالبصرة غير ٩و١٢ بالمائة من مجموع ماكتبه عن هذه المدينة ، وتنخفض هذه النسبة فيما يتصل بالكويت الى ٧ بالمائة فقط ، ونحو ٦ر٣ عند الكلام على المدن والقصبات الأخرى ، وبالمقابل ، فان نسبة التفصيلات ذات الطابع السياسي والاداري تزداد بصفة عكسية عند حديثه على تلك المدن ، حتى تصل الى نحو نصف كلامه على البصرة ، وثلاثة أرباع ماكتبه عن الكويت ،

---

(٥) الورقة ٦ (٦) الورقة ٣٧ (٧) الورقة ٧٦
(٨) الورقة ١٠٨

والمدن المجاورة الأخرى .

ويتضمن كلام المؤلف على هذا الجانب ، معلومات مهمة ودقيقة عن الرجال الذين عاصروه ، من القضاة والائمة والتجار والعلماء والصوفية والموظفين وزعماء القبائل وامراء النواحي والأدباء والشعراء العاميين الآخرين ، كما يحتوي على اخبار الأسر العديدة التي استوطنت الزبير والبصرة ، وعاشت فيها نشاطها الاجتماعي والاقتصادي ، فمن الأسر التي ترددت أخبارها في ثنايا الكتاب . آل الزهير ، وآل الراشد ، وآل مصيقر وآل الخشير وآل القرطاس وآل المنديل وآل باش أعيان ، وآل العسافي ، وآل الغنام ، وآل الصبيح ، وآل هلال ، وآل بسام ، وآل الصانع ، وآل اشبلي وغيرهم .

وفي الكتاب معلومات دقيقة عن التحركات الأسرية والعشائرية بين مدن تلك النواحي ، ورصد للهجرات المستمرة آنذاك من البادية الى المدينة ، وتواريخ استيطانها فيها ، والعلاقات بين الأسر المهاجرة والمستقرة ، وبينها وبين من تبقى منها في مواطنها الأولى ، ودور القبائل الكبيرة المقيمة على حواف المدن في مجريات الحياة الحضرية ، وطبيعة نشاطاتها الاجتماعية والاقتصادية ، وصلاتها بالقوى الاجتماعية السائدة في مدنها ، فمن تلك القبائل التي ترددت اسماؤها في ثنايا الكتاب ، المنتفق ، والظفير والدواسر ، وفيه ايضاً اسماء زعمائها وأخبارهم .

ويحفل الكتاب بصورة شائقة عن الحياة العائلية لأهل تلك المدن ، وبخاصة الزبير والبصرة والكويت ، بما تشمله من زواج ومصاهرات وطلاق وعلاقات اجتماعية وعاطفية احياناً ، واخبار بعض النساء اللواتي قمن باعمال خيرية نافعة ، ومن ولد في تلك السنين من أولاد ، ومن توفي فيها ، واهتمامات الناس العامة ، وبخاصة الثقافية منها ، والعلماء الذين اثروا في

توجيه تلك الاهتمامات ، والعوامل التي ادت الى تشجيعها ، مثل تأسيس مطبعة رسمية ، هي الاولى من نوعها في البصرة ، ووصول اولى المجلات الى الزبير ، واتصال اهل المدن المذكورة ببعض مبتكرات الحضارة الحديثة آنذاك ، لبخاصة وسائل النقل الصناعية ، مثل عربات السكة الحديد التي تجرها الخيول (الكاري) والسيارة (الموتوركار) .

ب – الجانب العمراني :–

استأثرت مدن الحقبة التي عالج احداثها ابن الغملاس ، باهتمامه الشديد ، وعنايته الفائقة ، فنمو المدينة واتساعها كان – في الواقع – احدى ابرز الظواهر الاجتماعية التي شهدها النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، ولانشك في انها اثارت انتباهه بما تحتويه في داخلها من عوامل متشابكة تنبىء بتغيرات مقبلة . فتكلم على تطور العمران في مدينة الزبير ، واشار أحياناً الى البصرة والكويت ، ولاحظ اتساع نطاق العمارة الجديدة ، وخروجها عن حدود المدينة القديمة ، باسوارها وابوابها ، ضواح جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ومرافق حضرية استدعتها الظروف السكنية المستجدة ، وسجل ذلك بامانة ودقة ، وحدد تواريخ نشوء كل حي من الأحياء ، والاماكن التي احتلتها ، وما يتصل بذلك من أمور ، فمن الأحياء الجديدة التي دون اخبارها في الزبير مثلا : حي الدريهيمية وحي الراشدية وحي الزهيرية . كما تطرق الى اخبار شق الطرق ، وهدم ابواب البلدة القديمة ، ومن سعى بذلك من اهل البلدة وما انفقوه في سبيل ذلك من مال ، واشار الى المساجد والزوايا التي نشأها او جددها بعض اهل الصلاح تلبية لمتطلبات البلدة النامية ، مثل مسجد الرواف ، ومسجد الكوت ، ومسجد عيسى القرطاس ، ومسجد الزبير ، ومصلى العيد الجديد، ومسجد الباطن ، ومسجد الزهيرية ، ومسجد ديمخزام ومسجد فالسح

السعدون ، وتكية الدراويش ، وجميع ذلك في الزبير وضواحيها . وتطرق ايضاً الى تعمير القيصريات وانشاء الدكاكين والاسواق وأحواض المـــاء والبيوت ، واشار الى تفاصيل كثيرة ومفيدة بشان حركـــة تنقل الملكيات العقارية بين المالكين ، وما كان يجري خلالها من نقض وبناء .

وفي كتاب ابن الغملاس ، فضلا عما تقدم ، معلومات خططية مهمـــة ، قوامها تلك المواضع والبقاع التي يجيء ذكرها عرضاً في أثناء ترجمة عالم، او موظف ، او زعيم محلي ، او ضمن سياق حدث ما ، او ظاهرة طبيعية معينة ، فتكررت الاشارة الى : الباطن ، وديمخزام ، وابواب الزبير ، ونقرة ابي داود ، والرافضية ، والشعيبة ، والخوير ، والدخانيـــة ، وجزيـــرة الصقر ، والبرجسية ، وسفوان ، والسبيل ، والصالحية ، وبقشة الربيعة، وسكة الغاو ، ومحط السقافي ، وجسر العبيد ، وعراص عريدان ، وعراص العون ، وسوق اللحم ، وسوق الجت ، وقيصرية القصاصيب وقيصريـــة ذويب ، وسوق الدجاج وسوق السيمر في البصرة ، ومنشآت جابر الصباح في الكويت ، وهي قيصرية وخان ومقبرة للسادة ، وغير ذلك من معالم خططية مفيدة . وتبلغ نسبة ما خصصه المؤلف للكلام عن الحركة العمرانية فـي الزبير ١٢ بالمائة ، وفي البصرة ٨ر٤ بالمائة ، وفي الكويـــت ٥ر٣ بالمائة وفي مناطق اخرى ٦ر٣ بالمائـــة .

ج ـ الجانب الاقتصادي :ـ

عاش ابن الغملاس في وسط تجاري نشط ، فترددت في كتابه الاشارات الى أسر التجار ، ونشاطهم الاقتصادي ، كما تطرق الى احـوال العملـــة وانواعها واقيامها في عهـــده ، كالقمريات الكبار ، والشاهيات الصـغار ، والمتاليك الخفاف السلطانية ، والبشلقات ، وغيرها . وأشار عرضاً الـــى

القوة الشرائية لعملات أخرى ، مثل الريالات والمجيديات • ووجدت الضرائب منه اهتماماً ، فاشار الى الرسوم والضرائب المفروضة على الناس والبيوت والدواب ، ونوه باعفاء الزبير من تلك الضرائب ثم يأخذها منها فيما بعد • وتكلم عن ضمان البساتين واقيام ذلك ، واشار بتفصيل الى محاولات مختلفة لشق الأنهار والقنوات في نواحي البصرة ، مثل حفر نهر الى الزبير سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م وأخر من ديمخزام الى نقرة ابي داود سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م وثالث من الهور شمال الديرة سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م والسعي لحفر نهر بين الشعيبة والخوير في السنة نفسها ، كما تكلم على حصر الحكومة للبطيخ والمخضرات وما الى ذلك •

وتبلغ نسبة ما تكلم فيه ابن الغملاس من امور لها تعلق بشؤون الاقتصاد في الزبير ١٤ بالمائة ، و٣ بالمائة من كلامه على البصرة ، و١ر٧ مما خصصه للمدن الأخرى •

د ـ الجانب السياسي والاداري :ـ

كتب ابن الغملاس في الأحوال السياسية وادارية للزبير والبصرة والكويت على عهده ، الا انه لم يميز بين النزعات الداخلية بين الأسر والزعماء ، وبين النزعات السياسية التي كانت تتجاوز ذلك النطاق الى مجال القطر والدولة ، وسبب ذلك ان غير قليل من النزعات المحلية كان يجري بتحريك من زعماء القبائل الكبرى في المنطقة ، او الدولة العثمانية ممثلة بولاتها وموظفيها ، او انها ـ على الاقل ـ تستغل ، بعد حدوثها ، لمصلحة تحققها هذه القوة أو تلك • ولذا فمن الصعب التفرقة بين ما هو اخلال عادي بالأمن ، وما هو نزاع محلي بين قوتين متنافستين ، او صراع خفي بين قوى سياسية مترابطة ، اذ تتداخل هذه الأمور تداخلا عجيباً في تلك الحقبة الحبلى بالأحداث •

أشار المؤلف الى بعض اسماء ولاة البصرة في عهده ، وهم نصرة باشا(١) وهدايت باشا(٢) وأنيس باشا(٣) وحمدي باشا(٤) وسليمان نظيف(٥) وتطرق الى ما قاموا به من أعمال ، كما أورد معلومات دقيقة عن مديري بلدة الزبير العثمانيين في الحقبة نفسها ، وأخرى عن آل الصباح أمراء الكويت المجاورين ، اضافة الى معلومات أخرى عن آل الرشيد أمراء حائل ، وآل سعود أمراء نجد ، وتوسع في ذكر تفاصيل علاقة هذه القوى ببعضها ، وعلاقاتها جميعاً بالحكومة العثمانية في البصرة ، والقوى القبلية المجاورة ، وتكلم بسعة عن نزعات كثيرة كانت تجري بين الأسر البارزة في الزبير ، وبخاصة آل الزهير وآل راشد وتنافسها على بسط نفوذهما على البلدة ، وموقف الحكومة ممثلة بمدير الزبير ووالي البصرة من ذلك ، كما تحدث عن تحركات وانتفاضات شعبية من أجل عزل ممثلي الحكومة العثمانية ، وتعيين غيرهم ، ومحاولة الحكومة وضع يدها على مصادر السلاح في المنطقة ·

ولمعلومات المؤلف ، بوصفه شاهد عيان لوقائع الاحتلال البريطاني للبصرة ، أهمية غير عادية في وصف مجريات هذا الحادث الخطير ، فقد وصف أوضاع العراق عند وصول خبر اعلان الدولة العثمانية الحرب مع المانيا على بريطانيا وفرنسا واحلافهما ، وتطرق الى موقف السيد طالب باشا النقيب من هذه الحرب ، واشاد بدوره في تعبئة أهل البصرة والزبير

---

(١) ليس في قائمة ولاة البصرة التي اوردها محمد خليفة النبهاني في التحفة النبهانية ــ قسم تاريخ البصرة ، وال بهذا الاسم ·

(٢) من ١٣٠٦ الى ١٣٠٩ هـ

(٣) تولى البصرة سنة ١٣١٥ هـ

(٤) تولى البصرة سنة ١٣١٦ هـ

(٥) تولى البصرة سنة ١٣٢٧ هـ

ضد البريطانيين ، ونوه بجهود المجاهدين العراقيين في ذلـــك السبيل . ومنهم ابن اخيه عبدالعزيز بن عبدالغني ، وتكلم على قصـف البريطانيين الفاو واحتلالهم اياه ، وانسحاب القوات العثمانية الى سيحان ، حيث دارت معركة هناك خسر فيها العثمانيون وما نجم عن ذلك مـن احتــلال كامــل للبصرة ، واعتقال السيد طالب النقيب . وما يتصل بذلك مـن ملابسات وتفاصيل ، ويدور حوله من اشاعات .

وتبلغ نسبة ماتكلم ابن الغملاس عليه من شؤون سياسية واداريـة ١٠ر٢٠ بالمائة من مجموع كلامه على الزبير ، و٦ر٥١ بالمائة من حديثه عـــن البصرة ، و٩ر٦٦ مما كتبه عن الكويت و٧٥ بالمائة مما سجله مــــن اخبار المدن والنواحي الأخـرى .

هـ ـ جوانب أخـرى :ـ

لم يغفل ابن الغملاس ، وهو يسجل حـوادث مدينته ونواحيها ، أن يشير الى أبرز الظواهر الطبيعية التي مرت على البلاد في عهده ، من أوبئـة وآفات زراعية ونحوهما ، بما يشبه وضع اللمسات الأخيرة للصورة التـي رسمها لتلك الحقبة . من ذلك كلامه على وباء داهـم سوق الشيوخ وامتد الى الزبير والبصرة سنة ١٣٠٦ هـ/١٨٨٨م ، وهجوم الجراد الكثير وأكله الزروع في سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م ، وحدوث الغرق «الذي لـم يعهد مثله» في المركز وسوق الشيوخ والبصــرة سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م ، وتبلغ نسبة ماكتبه عن هذه الظواهر فيما يتعلق بالزبير ٢ بالمائة وبالبصرة ٢ر٨ بالمائة.

وفي الكتاب ، فضلا عما تقدم ، أخبار مفرقة عن امــور مختلفة مما لايدخل ضمن الجوانب المذكورة ، وهي لاتخلو من نفع لمؤرخ تلـك الحقبة ودارسها ، تصل الى ٣ بالمائة عن الزبير ، و ٢ر١٧ عن البصرة ، و ١ر٧

من المدن والنواحي الأخرى .

والكتاب بعد هذا كله ، خير شاهد على لغة عصره ، بما حفل به من تراكيب ومصطلحات والفاظ عامية كانت شائعة على السنة أهل ذلك الزمان ، من بدو وحضر ، وهو أمر يزيد في أهميته بوصفه يقدم مادة غنية تصلح لدراسة لغة تلك النواحي في اواخر العصر العثماني ، بما فيها من الفاظ ومصطلحات وأمثال عبرت عن روح العصر وطبيعة مؤثراته .

من سنة ١٣٢٦

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف
مركز احياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ال الغلاس في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين (من عمل المؤلف)

نماذج مقتطفة من تاريخ ابن الغملاس

من سنة ١٣٢٦

«وبلغنا ان صباح بن محمد الصباح توجه الى الكويت ببنته ليزوجها ولد مبارك الصباح (في) ١٥ ربيع الثاني ، وهكذا سمعنا .

وفي ذي القعدة توجه السيد طالب (النقيب) الى اصطنبول .

وفي ذي الحجة توجه أحمد باشا (الصانع) الى اصطنبول .

وفيها تم بنيان مسجد مزعل السعدون على يد داود الفداغ (اذ) هو الوكيل . وصلى فيه محمد بن رابح نيابة حتى يحضر محمد الشنقيطي ، فلما حضر عصى ابن رابح وساعده آل صباح وأحمد الصانع وثبتوه واعطوه الشنقيطي ليرات كثيرة جمعوا له من التجار ، وتزوج بنت سلطان الطويل واولدها . وسعى في تأسيس مكتبة النجاة في الرشيدية ، وسعى سليمان وحمد اذكير في بنيان مسجد ، فتم الجميع في سنة ١٣٤١ ، وكان حضور الشنقيطي في سنة ١٣٢٧ وقدمات مزعل عند قدومه» .

من سنة ١٣٢٨

« وفي ٣ ربيع الاول كتبوا مضبطة للوالي سليمان نظيف في عزل المدير عرب انما ابو نديم ، وكرروا المضابط فلم يسمع لهم كلام ، فهوس

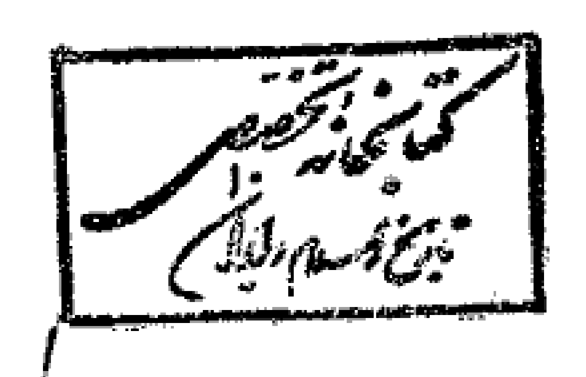




(٤)

مجلة جمعية المؤرخين والاثاريين
في العراق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی





(٤)

مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق

دراســات في التاريخ والآثار

مجلة فصلية تصدرها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق



المراسلات : جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

العراق ــ بغداد . ص .ب (٢٧٠٨٩) شارع ١٤ رمضان

ترسل البحوث باسم مدير التحـرير

ص . ب : (٢٧٠٨٩) بغداد ـ شارع ١٤ رمضان

مجلة دراسات في التاريخ والاثار ـ جمعية المؤرخين والاثاريين ت : (٥٣٨١٣٠٤)

الاشتراكات السنوية في مجلة دراسات في التاريخ والاثار

الاشـــتراك السـنوي

الجامعات والمؤسسات في العراق (٢٠) دينارا سنويا

اعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا

الافراد عموما (١٠) دنانير سنويا

تدفع الاشتراكات مقدما وكالاتي :

أ ـ صكوك لامر الجمعية

ب ـ نقدا لامر الجمعية

كلمة العـــدد

يسر جمعية المؤرخين الاثاريين في العراق اصدار العدد الرابع من مجلـة الجمعية ويحفل بعدد من البحوث التي تتناول مختلف مراحل تاريخنا العربي ، منذ العصور القديمة وحتى التاريخ الحديث .. اننا في الوقت الذي نصدر هذا العدد ، نأمل من الاخوة المؤرخين والاثاريين اغناء المجلة ببحوثهم ودراساتهم مـن اجل ان يساهموا في الدعوة المخلصة لاعادة كتابة تاريخ الامـة العربيـة المجيدة ، واستجابة لدعوة السيد الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله في هذا الشان ، وان وطننا عظيما شهد ولادة واحتضان اعرق حضارة عرفتهـــا البشرية فيه ابناء مخلصين من المؤرخين والاثارين اقدر من غيرهم على فهـــم واستيعاب وكتابة هذا التاريخ بذات القيم والمبادىء التي بنى عليهـا وبهـا ، ونرجو ان نكون قد وفقنا في اخراج هذا العدد ليحتل مكانه في المكتبة العربية.

والله من وراء القصد

هيئة التحرير

صناعة السلاح : جذورها الاولى في العصور الحجرية

د. فاضل عبد الواحد علي
كلية الاداب / جامعة بغداد

١ ـ المدخل :

السلاح في معناه البسيط هو اية اداة او وسيلة يستخدمها الانسان لاحداث فعل مؤثر في شيء اخر من اجل درء الخطر عن النفس . ولذلك فان فكرة السلاح مرتبطة اساسا بصنع الاداة . اما من بدأ الانسان بصنع ادواته فهذه مسألة يصعب تحديدها لامر بسيط وهو اننا كلما توغلنا في الماضي السحيق كلما اصبح من الصعب حتى على المختصين احيانا التمييز بين شضية حجرية من صنع الطبيعة وبين اخرى من الجائز ان يكون لانسان العصر الحجري القديم فعل في تشذيبها . وعلى اية حال فليس هناك من شك في ان انسان العصر الحجري القديم الادني (Lower Palaeolithic) كان يلتقط قطع الحجارة الطبيعية ويستخدمها في اعماله اليومية قبل ان يقوم هو بادخال تحسينات عليها من حيث الشكل او الحجم . وجدير بالملاحظة ان بعض القبائل المختلفة في انحاء من العالم مازالت تستخدم حتى يومنا هذا قطع الحجارة الحادة وانياب سمك القرش والمحار كادوات لانجاز شؤونهم اليومية . وبالمثل فما زالت بعض القبائل الاصلية في استراليا تقطع اغصان وجذوع الاشجار بقطع من الحجر مدببة الراس تلتقط عن الارض مباشرة . ان هذا القول ينطبق ايضا على تلك المخلوقات الفردية المعروفة بالمصطلح اوسترالا بثيكوس (Australopithecus) في جنوب افريقيا الذين كانوا يستخدمون ادواة من صنع الطبيعة . فهذه المخلوقات استطاعت ان تعيش

بعيدا عن الغابات في الاراضي المكشوفة الجافة وانها استخدمت عظام الحيوانات الطويلة والحصى بمثابة اسلحة للدفاع . ولكن لم يعثر على اية اداة حجرية مشظاة عمدا او قطعة عظم مشذية مع بقايا هذه المخلوقات .

من الجائز ان نفترض ان الانسان في العصور الحجرية الاولى كان يستخدم اي شيء تناله يده بمثابة سلاح في سبيل درء الاخطار التي يتعرض اليها وخاصة من الحيوانات المفترسة . وهذا الشيء يمكن ان يكون ، كما قلنا ، غصن شجرةاو حجرة او عظم حيوان . ولكن الانسان يحتاج في الوقت نفسه الى غذاء ، فبرزت الحاجة الى الصيد بشكل جماعات . والراجح ان الانسان استعمل مثل هذه الادوات ، او مثل الاسلحة ، في مطاردة ومحاصرة قطعان الحيوانات التي كان يعتمد عليها في غذائه وانه نجح اول الامر في صيد صغار تلك الحيوانات او حتى اوسطها حجما . وعلى اية حال فان المشكلة التي كانت تبرز بعد كل عملية صيد هي ازالة الجلد او فرو الحيوان . غير أن هذه المشكلة سرعان ما تغلب عليها الانسان بسهولة باستعمال قطع الحجارة ذات الحافات الحادة . ولكن عندما لا تتوفر قطعة حجرية حادة من صنع الطبيعة فالحل ان يكسر الانسان حجرة للحصول على حافة حادة . وعندما ابتدات صناعات الادوات الحجرية توضحت الجوانب العديدة لاستعمال الشظايا . فقد استعملت ، على سبيل المثال ، لتحوير العصى الى رمح حاد النهاية ليكون سلاحا فعالا في صيد الحيوانات كبيرة الحجم وكذلك لفصل اللحم عن العظم ولتكسير العظام ايضا من اجل استخراج النخاع . وفي حين كانت الشظايا تستعمل لسلخ الحيوانات وتقطيع لحومها كانت الادوات البيئة(Core - tools) تستعمل لغرض عزق جذور النباتات التي تشكل جانبا مهما من غذاء الانسان في العصرين الحجري القديم والوسيط .

٢ ـ المواد التي استخدمها انسان العصور الحجرية في صناعة ادواته واسلحته :

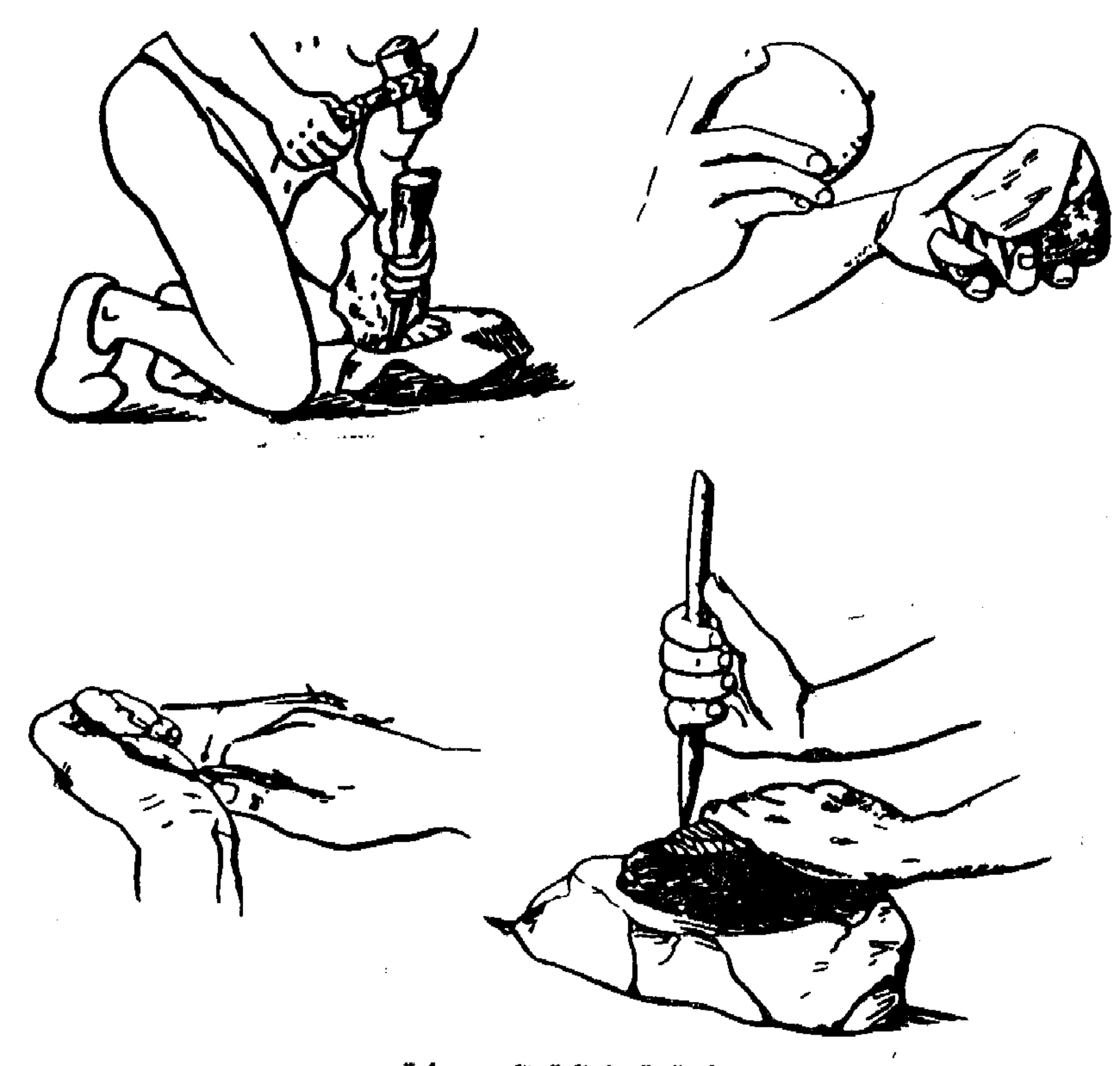
أ ـ الحجارة : سرعان ما تعلم الانسان ان بعض الانواع من الحجارة هي احسن من الاخرى لتشظيتها الى ادوات مفيدة مثل حجر الصوان والاوبسيدين فعلى الرغم من صلابتها الشديدة يمكن تشظيتها الى ادوات ذات حافات حادة جدا . وكان حجر الصوان من اكثر انواع الاحجار استعمالا في عصور ما قبل التاريخ ، فهو يوجد عادة اما على شكل طبقات لا يزيد سمكها على بضعة انجات او على شكل كتل متبعثرة . وفي العصور الحجرية القديمة والوسيطة كان الانسان يحصل على الصوان بصورة رئيسية من ضفاف وقيعان الانهار

او سواحل البحر . وقد تعلم الانسان في العصر الحجري الحديث كيف يتشيع الانواع الجيدة من الصوان . فحفر من اجل ذلك خنادق يصل عمقها احيانا الى اربعين مترا للوصول الى احسن طبقات الصوان . وقد استعمل انسان العصر الحجري الحديث في عملية الحفر هذه معاول مصنوعة من قرون الايائل ومجارف من عظام الثيران . وفي مناطق محددة استعمل الانسان القديم الاوبسيدين وهو حجر زجاجي بركاني لامع وقد اعتبر افضل من الصوان لصناعة الشظايا والاسلحة . ويوجد الاوبسيدين في المكسيك وكينيا وفي جزر بجر ايجه وتركيا وعند بحيرة وان في ارمينيه .

وهناك عدة طرق لتشظية الحجارة كانت معروفة خلال العصر الحجري. وتتلخص الطريقة البدائية والاعتبارية للتشظية بان تمسك الكتلة التي يراد تشظيتها باحدى اليدين ثم تضرب عدة مرات في مناطق معينة بقطعة من الحصى ذات حجم مناسب . ان كل ضربة توجه بميل نحو الاسفل بالقرب من الحافة تؤدي الى انسلاخ الشظايا من الوجه الاسفل للحجارة الذي يكون مقابلا لراحة واصابع اليد . أما في حالة صناعة الادوات اللبيية مثل الفاس اليدوي والتي تحتاج الى التشذيب بصورة متساوية على كلا الجانبين ، فان الحجارة تدار من وقت لاخر اثناء عملية التشظية (او التقشير) . ان هذه الطريقة في صنع الفؤوس والشظايا تعرف بطريقة الضربة المباشرة
(Direct Percussioin)

اما في صناعة النصال (blader) ، على سبيل المثال ، فتستعمل طريقة الضربة غير المباشرة (Indirect Percussion) . وملخصها استعمال ازميل من الخشب او العظم بين المطرقة الحجرية وقطعة الحجر التي يراد تشظيتها ، ان تخفيف شدة الضربة بسبب استعمال الازميل سيؤدي الى انسلاخ شظايا اكثر دقة مما لو ضربت قطعة الحجر بالمطرقة مباشرة . وهناك بعض القبائل في المكسيك وقبائل الهنود الحمر في شمال امريكا تصنع النصال الطويلة باستعمال طريقة اخرى يمكن ان تسمى بطريقة « الضغط الدافع » (Impulive Prenure) وملخص هذه الطريقة الاخيرة ان توضع قطعة الحجر على الارض فيمسك بها الرجل بين قدميه اما واقفا او جالسا حسب رغبته، ثم يأخذ قضيبا خشبيا ينتهي في اعلاه بعارضة يستند اليها صدره وينتهي في اسفله بنبلة من القرن او الخشب الصلب . وعندئذ يضغط الرجل على العارضة بصدره الى امام فيؤدي ثقل الجسم الى انسلاخ شظية من قطعة الحجر في كل مرة . وتذكر رواية لشاهد عيان من القرن السابع عشر الميلادي

انه كان بمقدور رجل مكسيكي كان يستعمل طريقة « الضغط الدافع » هـذه ان يعمل اكثر من مئة نصـل سكين من حجر الاوبسيدين في الساعة الواحدة .



طريقـة تشظية الحجـارة

١ ـ التشظية بالضربة المباشرة **٢ ـ بالضربة غير المباشرة**

٣ و ٤ ـ التشظية بالضغط

وهناك طريقة اخرى تستعمل في صناعة الادوات الحجرية وخاصة رؤوس السهام وهي التي تعرف بطريقة « التشظية بالضغط » (Pressure Flabing) اذ تؤخذ شظية حجرية ثم تقطع حافاتها بمطرقة (حجرية) لتكون على شكل ورقة متناسقة . ومن ثم تبرد الحافات بحجر رملي Pereawseif labiy من اجل الحصول على حافة حادة . وعلى هذا النحو يتكون مستوى (bever)) ضيق على كل جانب من الحافة . ثم يجلس صانع النبال مستندا اعلى احـد

عقبيه بينما يمد رجله الاخرى الى امام ويضع امامه سندانا من الحجر على الارض . ثم يمسك بيده اليسرى بقطعة الحجر التي يريد ان يصنع منها النبلة ويضعها على وسادة من لحاء شجرة مزق السندان الحجري . ثم بعد ذلك يأخذ بيده اليمنى عودا صلبا مدبب الرأس او قطعة من عظم الكنغر بحيث تكون النهاية الحادة القريبة من المعصم باتجاه جسمه . وبعد تثبيت الراس المدبب للعود على مستوى الحافة لقطعة الحجر يلقي بثقل جسمه على ذراعه الايمن وفي نفس الوقت يحرك رسغه مرة نحو الاسفل ومرة نحو الخارج . وعندئذ تنفصل قطعة صغيرة من السطح الاسفل للحجارة في حين « وجة » الدفع نحو الاسفل تكون قد امتصها الوسادة المصنوعة في لحاء الشجرة . ثم تعاد هذه العملية مرة اخرى من الحافة نحو النتوء وعندئذ تقلب الحجارة (السهم) وتستعمل نفس الطريقة في معالجة الجانب الاخر . ان رجلا محترفا في صناعة النبال الحجرية يمكنه ان يصنع نبلة من حجر زجاجي في مدة عشر دقائق .

ب ـ العظام : وبالاضافة الى الحجارة فقد استخدم انسان عصور ما قبل التاريخ عظام الحيوانات كادوات منذ العصور الاولى لوجوده ، ولا شك في ان استخدام العظام كان نتيجة طبيعية لصيد الحيوانات واعتماد الانسان على لحومها في غذائه . وكثيرا ما اعتاد انسان العصور الحجرية ان يكسر عظام الحيوانات في سبيل الحصول على نخاعها وهذه ظاهرة تعززها المكتشفات في الكهوف والمواقع الاثرية . ولاشك ايضا في انه اختار بعضا من تلك العظام واستخدامها بمثابة ادوات كما تثبت ذلك العظام التي عثر عليها مع انسان بكين في كهف جدكوثين في الصين . ومن المعروف انه يصعب قطع العظم بسكين من حجر الصوان مثلا ولذلك فان انسان العصر الحجري القديم حول العظام الى ادوات مفيدة وذلك عن طريق تكسيرها او تشظيتها . اما في العصر الحجري القديم الاعلى فقد اتقن الانسان طرقا عديدة لتكييف العظام والقرون والعاج الى ادوات مفيدة وذلك بثقبها او نشرها او شقها واخيرا بحكها على محك حجري . وقد استطاع انسان هذا العصر ان يصنع من قرون الايائل وعاج الماموت وعظام الحيوانات الاخرى ادوات واسلحة مثل المطارق والازاميل والصولجانات والنبال والحراب المسننة (الشائكة) وقاذفات الرماح والسهام.

جـ ـ كما استخدم الانسان ايضا الاخشاب لصناعة بعض من ادواته واسلحته .. غير ان الخشب ، كما هو معروف ، مادة سريعة التلف ، ولذلك لم يبق من ادوات انسان العصور الحجرية المصنوعة من هذه المادة الا ما تحجر منها . وعلى الرغم من ذلك فان باستطاعتنا الاستدلال على الاستخدام الواسع للخشب في صناعة ادوات انسان العصر الحجري القديم وذلك من خلال العثور على مزيد من القاشط الحجرية المقعرة التي كانت تستخدم

لتقشير وتهيئة الرماح وما يماثلها من ادوات خشبية . اما الاثار الخشبية فهي كما قلنا نادرة جدا وان ما وصلنا منها من العصر الحجري القديم لا يزيد عن جزء من رمح واحد او رمحين كانت نهاية احدهما قد احرقت من اجل زيادة صلابتها .

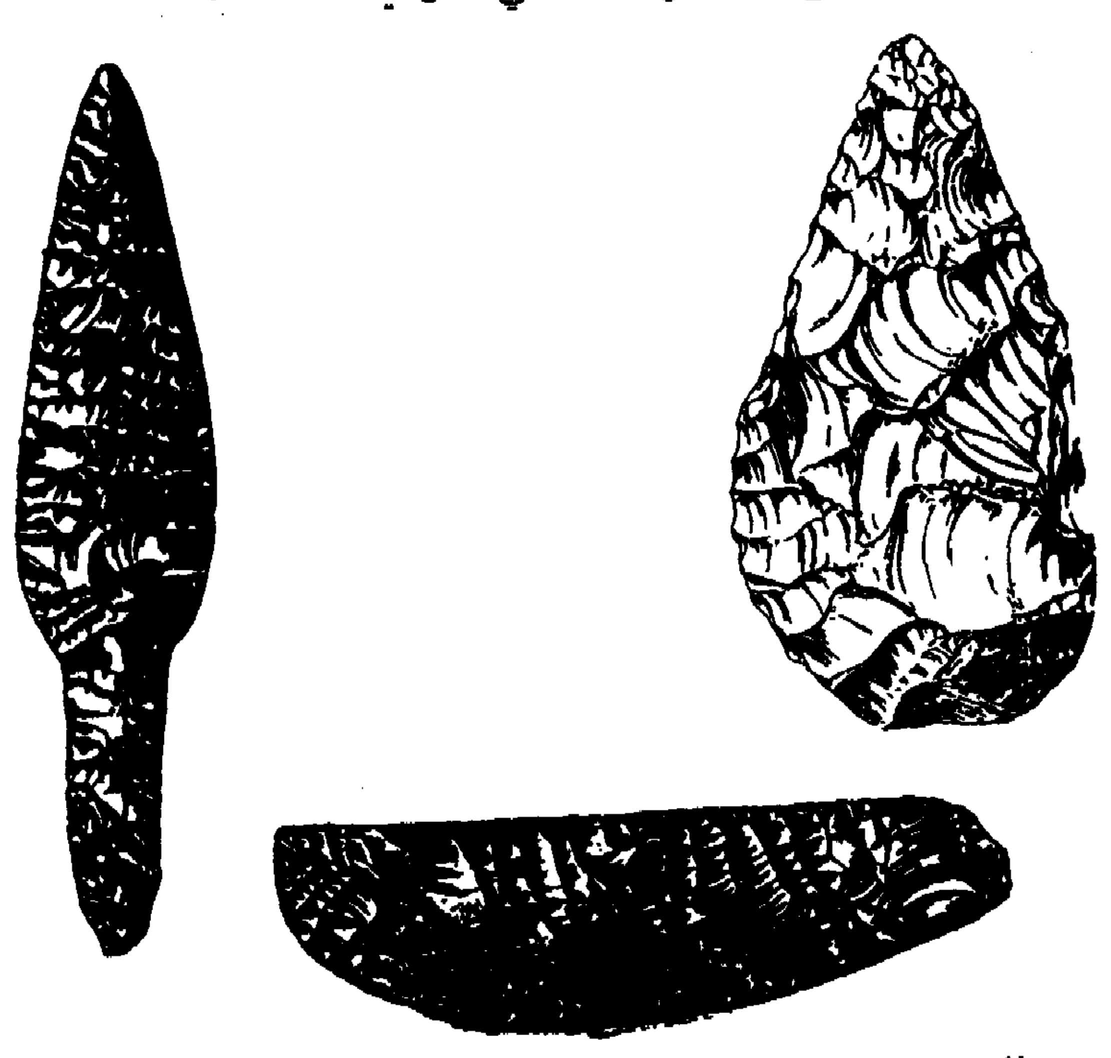
اهم الاسلحة في العصور الحجرية :

أ ـ الفأس اليدوية :

قلنا في بداية حديثنا عن الانسان والاداة ان الحجارة الطبيعية كانت الاداة الاولى التي استخدمها الانسان في العصور الحجرية القديمة . وهناك من الباحثين من يعتقد بانه مر على الانسان عصر ، يمكن تسميته بالعصر الحجري السحيق الذي سبق العصر الحجري القديم ، اليه تعود الادوات الحصوية (Pebble Tools) البدائية التي استعملها الانسان والتي اجرى عليها شيئا بسيطا من التحوير او التشظية . والحقيقة هي ان مثل هذه الادوات الحصوية قريبة جدا الى الحجارة الطبيعية بحيث ان هناك من الباحثين من يشك في ان الانسان اجرى عليها اي تغيير يذكر وان ما يظهر عليها من اثار التشظية انما هو من فعل الطبيعة ليس الا . وعلى اية حال ، فان هذه الادوات الحصوية تعتبر اليوم من اقدم ما صنعت يد الانسان . وقد عثر على نماذج من هذه الادوات البدائية وهي من الحصى وحمم البراكين وحجر الكوارتز في مناطق عديدة من اوغنده ووسط افريقيا وجنوبها ، ويعود تاريخ بعضها الى نهاية الفترة الجليدية الاولى (في حدود ٥٠٠ر٠٠٠ سنة قبل الان) ، وقد قام الانسان بتشظية الحصى بطريقة بدائية سجة على طول حافاتها مرة بهذا الاتجاه ومرة باتجاه اخر معاكس ولذلك تكون الحصاة ذات وجهين وتأخذ شكلا بيضويا او شكل الكمثرى .
ان هذه الادوات الحصوية تعتبر طليعة الفأس اليدوية التي تميز بها الدور الاول (الاقدم) من العصر الحجري القديم الادنى (Lower Balaeolitic) والمعروف بالدور الايفيلي (Abbevellian)

لقد صنع انسان العصر الحجري القديم الادنى الفاس اليدوية (Hand Axe) بطريقة تشظية الحجارة للحصول على لبها وجعله يأخذ شكلا مدببا . وعرفت صناعة هذه الفؤوس اليدوية بين المختصين باثار العصور الحجرية بصناعة اللب (Core Industry) لانها كانت تستعمل لب الحجارة في صناعة مثل هذه الادوات . والراجح ان صناعة الفؤوس اليدوية نشأت اول الامر في اواسط افريقيا وانها انتشرت بعد ذلك بفترة قصيرة نسبيا الى معظم انحاء القارة

ومن ثم انتقلت باتجاه الشمال الى غرب اوربا وربما الى جنــوب شرق آسيا . وخير ما يمثل الفؤوس اليدوية النموذجيـــة من الدور « ابفيلي » برأسها المدبب وشكلها الذي يشبه الكمثري تلك التي اكتشفت تحت رمال شـــطآن نهــر (Somme) في فرنسا والتي ربما يعود تاريخها الى فترة العصر الجليدي (في حدود ٤٥٠٫٠٠٠ ـ ٢٥٠٫٠٠٠) . وتعتبر الفأس اليدوية اول اداة اساسية استعملها انسان العصور الحجرية وهي ، مثل السكين ، كانت اداة ذات غرض عام . اذ من الواضح انها في هذه الحقبة من الزمن لم تكن مزودة بمقبض ولكن ما من شك في ان الانسان افاد من رأسها المدبب في ثقب جلود الحيــوانات وفي عزق جذور النبـــات وانه استخدمها ايضا كسلاح للدفاع عن نفســه وللاجهاز على الحيــوانات التي كان يصطادها .



٥ ـ فاس يدوية ذات رأس مدبب .

٦ ـ خبجر من حجر الصــوان .

٧ ـ سكين من الصــوان .

مما تجدر ملاحظته ان طرف التشظية التي جئنا على ذكرها قبل قليل تصلح بصــورة اساسية في صناعة المقاشط والسكاكين والنبال . ولكــن مهما كانت طريقة التشظية هذه دقيقة فانه لم يكن بالمستطاع اعطاء الفــاس

الحجرية حافة حادة وصقيلة لجعلها اداة اكثر فاعليـــة . ولذلك فان حاجة الانسان الملحـــة للفــأس والقدوم والازميل ادت في النهاية الى ثورة في صناعة الادوات وذلك خلال العصر الحجري الوسـط (Merolithic) . اذ ان عملية شحذ وصقل الغطاء والعاج التي بدأت في ازمان العصر الحجـــــري القديم المتأخـــــر (Late Ralaebthic) اصبحت تستعمل ايضا للحصول على حافة حادة في الفأس الحجرية . ولا يعرف على وجه التحديد فيما اذا كانت عملية شحذ الفؤوس وصقلها قد حدثت في وقت واحد تلبية لحاجة الانسان ام انها حدثت في منطقة معينة ثم انتشرت منها الى انحاء مختلفة . وعلى اية حال ففي خلال بضعة الاف من السنين شاعت عملية شحذ الفؤوس وصقلهـــا في انحاء واسعة من مجتمعـــــات العصور الحجرية . فبعد ان يتم الحصول على القطعة الحجرية المناسبة لصنع الفأس تجري تشظيتها بطريقـــــة الضربة المبــــــاشرة (Direct Percunion) ومن ثم تشحذ الفأس وتصقل بحكها بقطعة من الحجر البركاني او الحجر الاخضر لاعطائها حافة حادة ووجهـــــا صقيلا .

ب ــ الادوات والاسلحة النصلية : المقاشط ، السكاكين والخناجر :

سميت بالادوات والاسلحة النصلية لانها تتكون اساسا من نصل (شفرة) . وهذه الادوات تكون ذات احجام مختلفة وتستخـــدم للقطع بصورة رئيسية وتصنع بطريقة التشظية . ومن الادوات النصلية الاساسية التي استخدمها انسان العصور الحجرية : المقــاشط والسكاكين والخناجر .

ان اصغر هذه الادوات النصلية حجما هو المقشط

الذي يمسك عادة باصابع اليد والذي يأخذ شكله في الغـــالب ما يقـــرب من نصف دائرة وهو ذو حافة حادة جدا اذ كان يستخدم لفصل اللحم عـــن العظام بالدرجة الاولى . والحقيقة هي أن المقشط كان عبارة عن سكين صغيرة ويشبهه المختصون بالاثار بمطواة او سكين الجيب (Pocket Knife)

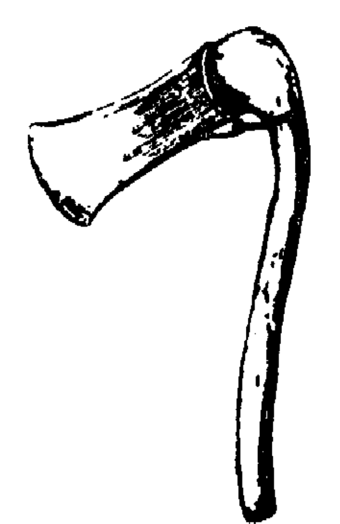
اما السكاكين فانها تكون اكبر حجما عادة وهي على اشكال مختلفة كأن تكون مستطيلة ذات نصل ضيق وبحد واحد بينما تكون الحافة الثانية (العليا) عريضة وسمجة . وتأخذ السكين احيانا شكل ورقة شجر عريضة ذات حد واحد ولها رأس محدب . وقد صنع انسان العصور الحجرية السكاكين ذات الحدين (الحافتين) ايضا على شكل ورقة عريضة ذات نهاية مدببة . وفي بعض هذه السكاكين ذات الحدين يضيق النصل في نهايته فيكون مقبضا للســـكين . ولهذا يرى الباحثون في هذا النوع من السكاكين الحجرية بداية لما يعرف بالخنجر الذي يمكن استعماله للطعن والقطع في آن واحـــــد .

ولعـل من اشهر الخناجر واجملها الخنجر الذي عثر عليه في موقع جطل هيوك (Catal Hiyiuk) على بعد ٣٠ ميلا شرق قوبينه في تركيا . ان نصل هذا الخنجر من حجر الصوان وله نهاية مدببة وحافة حادة على الجانبين . ومما يزيد في جمال هذا الاثر الفريد قبضته المصنوعة من العظم والتي صيرت على شكل افعى ملتوية يبرز رأسها في اعلى المقبض . وقد عثر على هذا الخنجر في قبر لرجل في الطبقة السادسة من الموقع والتي يعود تاريخها الى النصف الأول من الالف السادس قبل الميلاد .

وهناك اثر فريد اخر هو ما يعرف بسكين جبل العرق (في مصر العليا). والتي يرجع تاريخها الى القرون الاخيرة من الالف الرابع قبل الميلاد . ولسكين جبل العرق مقبض مصنوع من العـاج عليه منظر في كل جانبيه . ويمثل المنظر الاول رجلا يقف بين اسدين وهو يدفعهما جانبا وتظهر امامه انواع مختلفة من الحيوانات الاخرى . ومما تجدر ملاحظته ان هناك شبها كبيرا بين صورة الرجل الواقف هذا وبين الرجل المنحوتة صورته على المسلة الحجرية المعروفة بمسلة صيد الاسود من مدينة الوركاء الذي يشاهد وهو يحمـل القوس ويرمي بالسهام اسدين . ان لكل من هذين الرجلين لحية طويلة وشعر طويل ، وكل منهما يشـد عصابة حول الرأس وحزاما عريضا في الوسط . ومن







٨ ـ فاس يدوية من الحجارة مصنوعة بطريقة التشظية .
٩ ـ فاس ذات نصل حجري مصقول مثبت في تجويف في المقبض .
١٠ ـ فاس من البرونز لها مقبض خشبي مثبت في تجويف النصل .
١١ ـ رمح من الخشب والى جانبه مقشط مجوف من الحجر يستعمل لتشذيب الرماح والحراب .

المعروف ان هذه الاساليب في الزي واللباس ترجع الى جذور سومرية . ولذلك يبدو واضحا انها وصلت الى مصر في هذا العصر المبكر (القرون الاخيرة من الالف الرابع قبل الميلاد) وانها اثرت بشكل واضح في نتاج الفنان المصري . اما الوجه الاخر من مقبض سكين جبل العرق فانه هو الاخر مزين بمنظر يحمل تأثيرات سومرية واضحة . والمنظر الذي نحن بصدده يصور رجالا عراة في حالة انتقال ويظهر تحت هذا المنظر مباشرة زوارق ذات النهايات العليا ومن النوع الشائع والمعروف في الاختام والاثار السومرية . اما منظر الرجال العراة فانه مستمد بكل تأكيد من المشهد السومري المعروف على الاناء النذري من مدينة الوركاء .

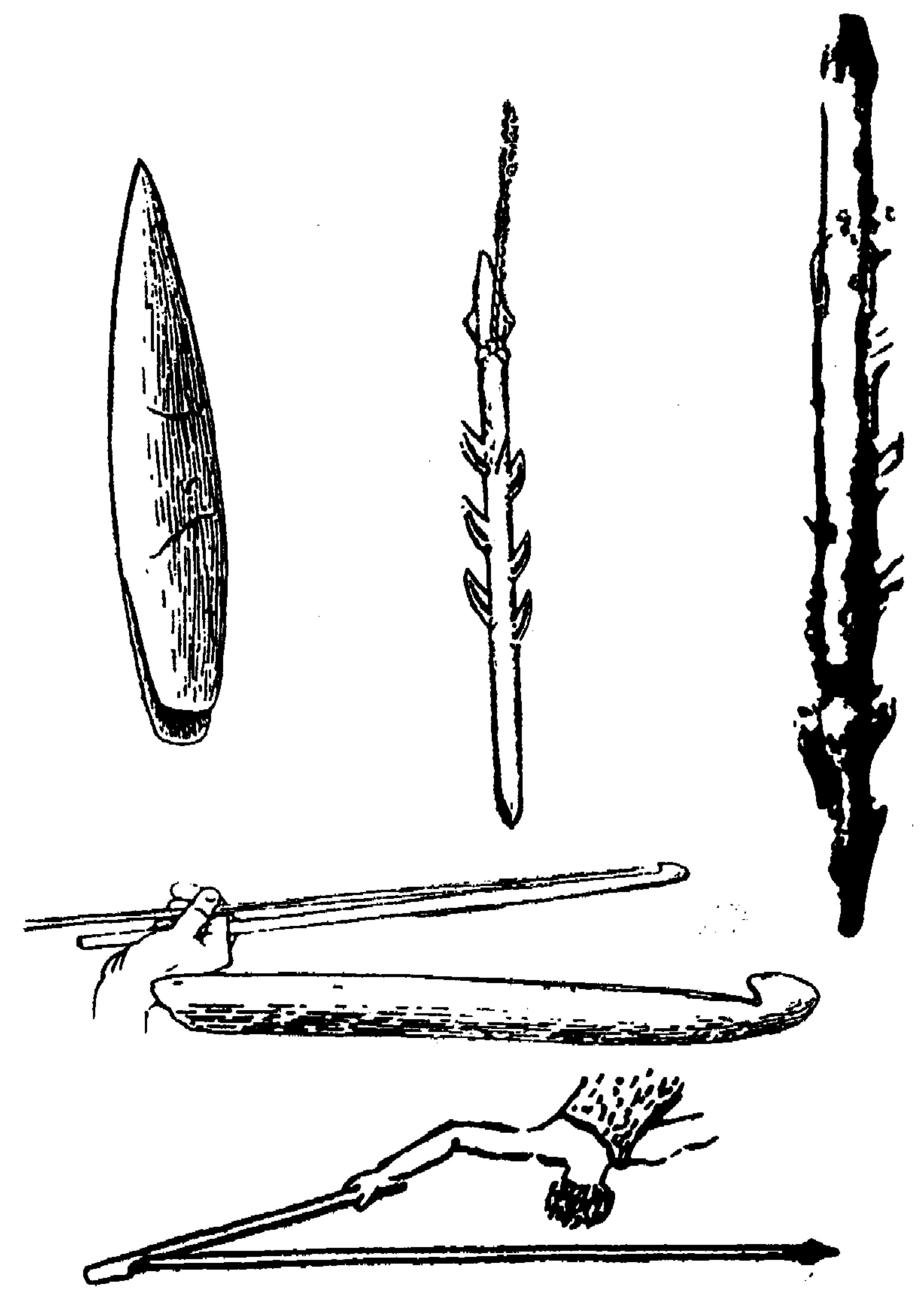
جـ ـ الرمح والحربة والسنان : ـ

يعتبر الرمح واحدا من اقدم الاسلحة التي استعملها انسان العصور الحجرية . ولاشك في ان فرعا من شجرة يمكن ان يكون رمحا بجهد قليل . وهو لذلك سلاح بسيط ومن السهل ان يحصل عليه الانسان شأنه شأن الحجارة الطبيعية التي تلتقط من الارض مباشرة . والرمح كسلاح يستعمل عن قرب ويمكن قذفه الى مسافة نحو الهدف المقصود . وقد ابتكر انسان العصر الحجري القديم ما يعرف بالقشط المجوف او المقعر (hallow, cie. Concave pcrape) الذي استخدمه في تشذيب وصقل قناة الرمح واعطائها رأسا (سنانا) حادا . ويظهر من كثيرة هذه المقاشط ان « صناعة » الرماح الخشبية كانت منتشرة في العصر الحجري القديم بشكل واسع .

من المعروف ان الخشب مادة سريعة التلف ولهذا فان ما وصلنا من رماح العصور الحجرية قليل جدا . ومن اقدم الرماح المكتشفة التي يعود تاريخها الى العصر الحجري القديم المبكر (Paleadethr) راس رمح من (Sarly Palaedithic)

خشب الطقوس عثر عليه في ارض طفالية متحجرة في مقاطعة (Emex) البريطانية . وهناك رمح اخر من خشب الطقوس ايضا حرقت نهايته لجعلها اشد صلابة وقد عثر عليه مع هيكل عظمي في منطقة (Leringen) في بريطانية ايضا . ومما تجدر الاشارة اليه ان احد الهياكل العظمية لانسان النيدرثال المكتشفة في جبل الكرمل فيها ثقب واضح يمتد من خلال راس احد عظام الفخذين الى الحوض . وقد اصبح القالب الجبسي الذي صنع لهذا الثقب انه يشكل راس (سنان) رمح خشبي . والى جانب الاثار المادية فهناك بعض الرسومات على جدران الكهوف تصور ، بين اشياء اخرى ، استخدام

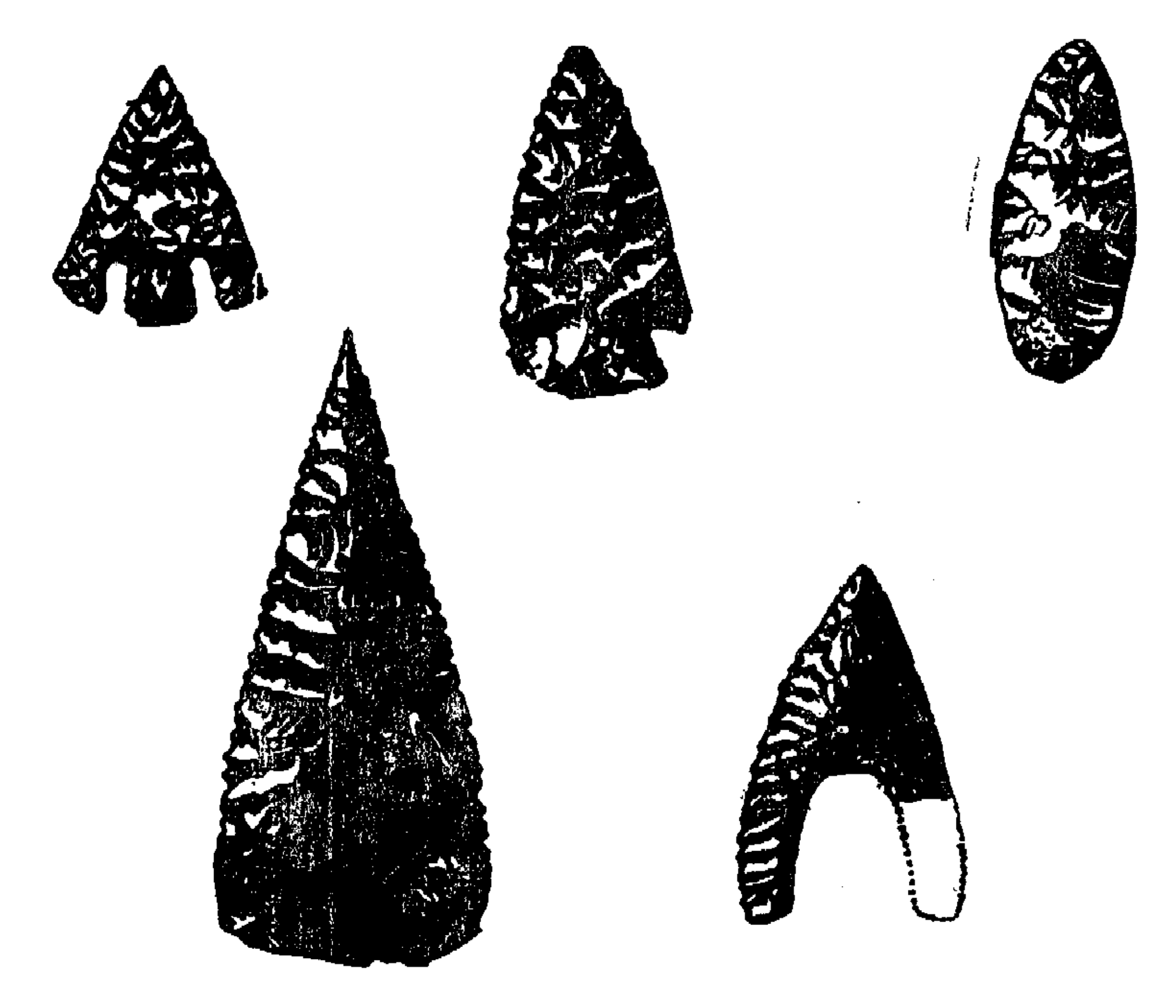
الرمح كسلاح في المركة كما استخـدم انسان العصر الحجري القديم ايضا الحراب المصنوعة من قرون الوعل بمضها ذات رؤوس مدببة مزينة بخطوط



١٢ ، ١٣ حربتان من قرون الوعل .
١٤ راس رمح من العظم مجوف لتثبيت القناة الخشبية .
١٥ قاذفة رمح . ١٦ ــ طريقة استعمال قاذفة الرمح .

او حزوز (بواسطة ازميل حجري) وبعضها الاخر مسنن بزعانف عريضة على كلا الجـــانبين .

ومن اجل الحصول على رأس حاد قوي فقد عمد انسان العصور الحجرية الى تثبيت سنان من الحجر في مقدمة الرمح . وكان السنان يثبت في القنـاة بواسطة سير من الجلد ، وفي العصور اللاحقة صار السنان سيلان يدخل في قناة الرمح وتبع ذلك تطور اخر فيما بعد حيث صار للسنان تجويف تدخل فيه القناة . وفي احيان اخرى استعمل انسان العصر الحجري قرون الوعل لصناعة اسنة الرماح .



١٧ ـ نبلة ورقيـة الشكل بسيطة .
١٨ ـ مثلثة ذات كتفين وسيلان .
١٩ ـ مثلثة ذات كتفين نسننين وسيلان .
٢٠ ـ نبلة مقصرة .
٢١ ـ نبلة مجوفة .

د ـ قاذفـة الرماح : ـ

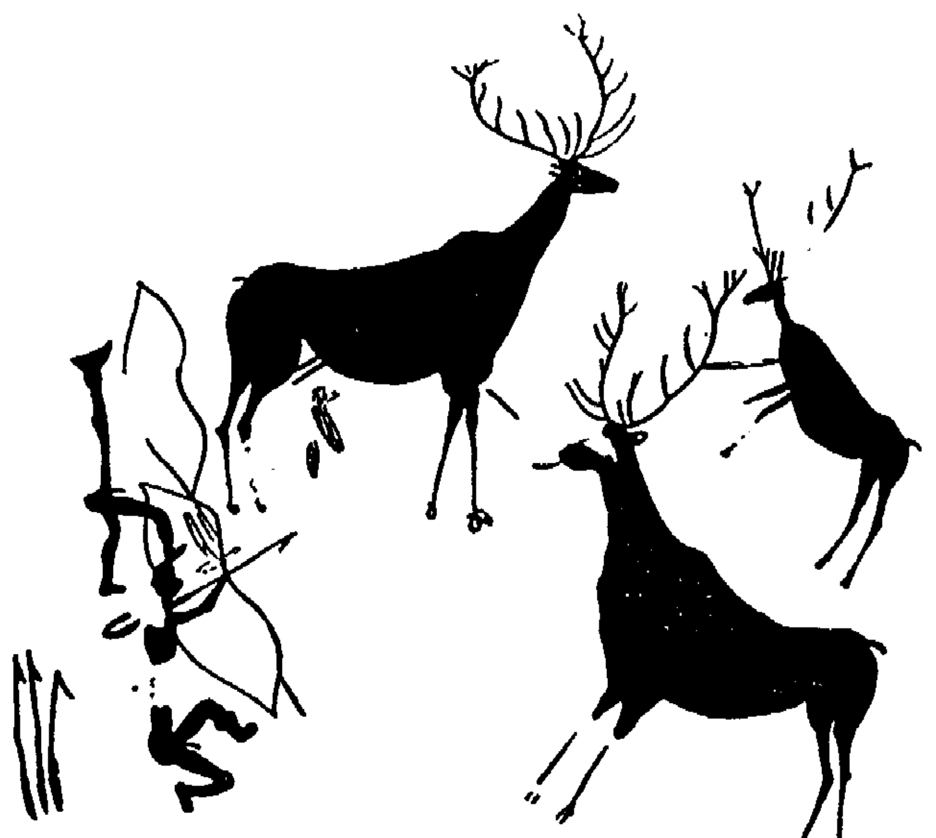
استنبط انسان العصور الحجرية في الجزء الاخير من العصر الحجري ، وعلى وجه الخصـوص في الدور المجدليني (١٥٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ ق.م) طريقة

جديدة لقذف الرمح وذلك باستخدام ما يمكن تسـميته بقاذفـة الرماح (Spear Thrower) التي هي عبارة عن هراوة من الخشب او قرن وعل . وبدلا من ان يرمي الانسـان الرمح باليد مباشرة فانه في هذا العصر يثبت عقب الرمح في حفرة او تجويف في نهاية الهراوة او القرن . بعد ذلك يمسـك الانسـان القاذفة بفدق من مقدمتها ويمد ذراعه الى خلف حتى اقصى نقطة ممكنة للحصول على اكبر قدر ممكن من الزخم ثم يحرك القاذفة بسرعة نحـو الامام لينطلق الرمح باتجاه الهدف . ومثلما تعطي الفأس اليدوية زخما كبيرا لليد ، فان قاذفة الرماح تعطي لليد طولا ومفصلا اضافيين ، كما انها تعطي للرمح او الحربة مدى اوسع . ولذلك فلا عجب اذا ما قامانسان العصـر المجدليني بتزيين قاذفته بصور محفورة تمثل الحيوانات التي اصطادها بهذه الوسيلة المبتكرة والتي ظن ان فيها قوة سحرية كامنة تمكنه من طريدته .

هـ ــ القـوس :

لم يصلنا من قسـي العصور الحجرية شيء يذكر لسبب بسيط هو انها كانت تعمل من اغصان الاشجار او شرائح الخشب وهي مادة سريعـة التلف . ولذلك فان معلوماتنا عن القـوس في العصور الحجرية مستمدة من مصدرين اساسيين . اولهما الرسوم التي تركها الانسان على جدران الكهوف وعلى الحجارة الجبلية والتي نشاهد في بعضها القوس ضمن الاسلحة التـي استخدمها الانسان في تلك الازمان . وثانيهما وجود النبال الحجرية المكتشفة في مواقع العصور الحجرية والتي يستدل منها بطبيعة الحال على استخدام القوس والسهم .

ولنا ان نتصور ان القوس ، شأنه في ذلك شأن الاسلحـة التي استخدمها انسان العصور الحجرية ، كان بدائيا اول الامر وانه كان يتكون من غصن شجرة يشد اليه وتر من الالبـاب النباتية او من جلد حيـوان . ويكفي ان نقول في الوقت الحاضر ان القوس في بدايته كان بسيطا (غير مركب) ولكنه كان فعالا من دون شك . واول من استعمل القوس والسهم هو انسان الدور الكرافيني (في حدود ٢٢٠٠٠ ــ ١٨٠٠٠ سنة ق.م) اي في الجزء المتأخـر من العصر الحجري القديم الاعلى . ويبدو ان القوس اصبح يستخـدم بصورة واسعة بدلا من الرمح . وتدل المشاهد الملونة التي رسمها الانسان على الصخور الجبلية على ان لقوس استعمل في الصيد والمعـارك على حد سواء . ان القوس بنبلته الحجرية المدببة له مدى اطول ويمكن ان يصيب الهدف بدقة اكثر . كما ان له قوة خارقة توازي قوة رمح ينطلق من قاذفة للرماح . ولهذا صـار في وسع الانسان ان يصيب طيرا محلقا في الهواء مثلما يصيب عددا له يركض في محاولة للهـرب .

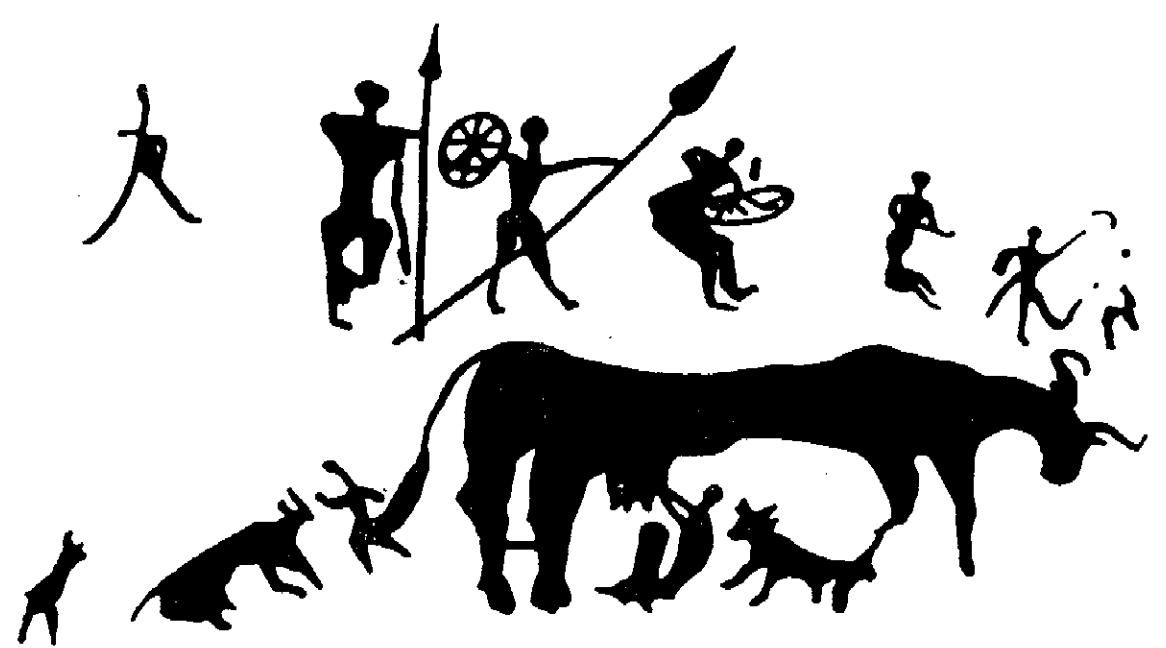


(رسوم على جدران الكهوف والصخـور)

٢١ ، ٢٢ القوس سلاح استعمله انسان العصور الحجرية في القنص والقتال

(رسوم على جدران الكهوف والصخـــور)





٢٣ رجلان يحمل كل منهما رمحا طويلا له سنان ورقي الشكل



٢٤ الى اليسار رجال يشتبكون في معركة بالقسي والسهام ،
والى اليمنى امرأة تتسلق شجرة لتجني العســـل .

المعـــــارك :

لاشـــك في ان الاسلحة التي جئنا على ذكرها قد استخدمها انســـان العصور الحجرية في صيد الحيـــوانات باعتبارها مصدرا لغذائه وفي الدفاع

بها عن نفسه اتجاه الاخطار التي يكون مصدرها الحيوان أو الانسان . وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى ان انسان العصور الحجرية خاض الحروب ضد بني جنسه من البشر . فقد لاحظ علماء الاثار في طبقات مواقع اثرية في العصر الحجري الحديث من البلقان واليونان والاناضول وسوريا وايران وجود تغييرات مفاجئة في ادوات ونمط حياة سكان بعض قوى ذلك العصر . أن مثل هذه التغييرات من الوجهة الاثرية تعزى الى تعرض سكان القرية الى هجوم من اقوام اخرى للحصول على غلاهم ومنتوجاتهم ومراعيهم . وفي كثير من الاحيان كان ذلك يؤدي الى فناء سكان القرية المتعرضة للهجوم او هربهم او استعبادهم .

ومهما تعددت دوافع الحروب في العصور القديمة فانها من دون شك عملت على تناقص عدد الجنس البشري وزيادة ويلاته . ويصور احد الرسوم على الحجارة الجبلية ، الذي يعود تاريخه الى الادوار المتأخرة من العصر الحجري القديم الاعلى ، اشتباكا بين عدد من الاشخاص استخدموا فيه القسي والسهام بينما يظهر في الجانب الاخر من المشهد صورة أمرأة وهي تجني العسل ويشاهد اشخاص مسلحين بالقسي والسهام وهم يركضون وكأنهم مسرعين الى القتال .

التحصينات الدفاعية :ـ

ان شعور الانسان بوجود خطر يهدده من حيوان او انسان جعلهيفكر في ايجاد وسيلة تضمن له السلامة والامان . ولاشك في ان انسان الكهوف راودته المخاوف من الحيوانات المفترسة وانه اتخذ الحيطة لمنعها من مهاجمته. وعندما نشأت القرى وتطورت الى مدن اصبحت حماية المجتمع البشري من الاخطار الخارجية مسألة ذات اهمية كبيرة . وسواء كان الاجراء المتخذ لتوفير تلك الحماية يتخذ شكل خندق او سور حول المدينة فان حفر الخندق او بناء السور كان يتطلب مشاركة جماعية من ابناء القرية او المدينة .

ويعتبر سور مدينة اريحا في فلسطين من اقدم التحصينات المعروفة في عصور ما قبل التاريخ اذ يعود تاريخه الى حدود ٧٠٠٠ قبل الميلاد . ومما يزيد في عظمة هذا الانجاز ان السور الحجري جرى بناؤه في زمن لم يكن الانسان قد توصل بعد الى استخدام الادوات المعدنية . وقد تبين من التحريات الاثار للموقع ان السور اعيد بناءه اربع مرات متتالية بسبب ارتفاع مستوى ارضيات السكن في الداخل نتيجة لتراكم الانقاض وتعاقب ادوار البناء . ويحيط بالسور من الخارج خندق محفور في الارض الصخرية بعرض ثمانية امتار وعمق مترين . وفي الجانب الغربي من السور الذي يرتفع الى ستة امتار يوجد برج دائري ضخم بني بالحجر ايضا ويرتفع الى علو تسعة امتار ويصل

قطره الم حوالي تسعة امتار ايضا عند القمة . ويخترق البرج خندق يحتوي على سلم يتكون من ٢٨ عتبة يزيد عرض الواحدة منها على المتر وتتكون كل عتبة منها من قطعة واحدة من الحجـــر . ويؤدي السلم عند نهايته السفلى الى ممر ينتهي بفتحة عند اسفل البرج . ولقد اثار سور مدينة اريحـا والبرج على وجه الخصوص تساءلات كثيرة مازالت الاجابات عليها غامضة لحد الان . وعلى اية حال فانه من الراجح ان الغرض من بناء البرج لم يكن لاغراض دفاعية لانه لم يبن على الجانب الخارجي في السور بل انه بني داخل السور . ومهما يكن الغــرض من البرج فمن المؤكد ان هناك ثلاث مراحل صاحبت بناءه .. فالخطوة الاولى كانت بناء البرج نفســه ، والثانية بناء السور الحجري حول البرج والثالثة بناء الســـور الخــارجي .

مراجع

لابد لنا ان نسير هنا الى ان الغــرض الاساسي من هذا البحث يهدف الى توضيح الجذور القديمة الاولى لظهور السلاح في العصور الحجرية . ذلك لان مثل هذه الدراسة ستكون بداية واساسا لدراسات اخرى لاحقة نتناول فيها « السلاح والجيش » في العصور التاريخية اللاحقة مع التركيز بالطبع على بلاد وادي الرافدين . وعلينا ايضا ان نثبت وللامانة العلمية باننا في هذا البحث ، وخاصة في الجزء الخـاص بصناعة الادوات والاسلحـة ، قد اعتمدنا بصورة رئيسية على ما كتبه الاستاذ o2kley في كتـــابه (Man the Toolmalaer) وذلك لكونه يتميز بسهولة العرض مع التركيز .

Asbley, M., odan His First Million Years (Mentor Book) 1960.

Gordon, C., what Happened in History (Benguin) Book) 1957.

————, The Prebiotory of European Society (Penguin Book) 1958.

————, edan Makes Himsel (Meater Been 1958.

Ozklay, K., euan the tool Maloor, 1952

Oztes, D. and J. The Rise of civiligation, 1976.

معارك تحرير العـــراق

« القسم الثاني »

الجهد العسكري العربي الاسلامي لتحرير العراق

الاستاذ الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي

عميد معهد الدراسات القومية والاشتراكية

نجحت الخلافة في تثبيت الوحدة السياسية في الجزيرة العربية بعد قضائها على حركات الردة والحركات الانشقاقية التي ظهرت اواخر ايـــام الرسول (ص) ، وقد ادرك الخليفة ابو بكر ان العرب « اصبحوا ابناء اب واحد وام واحدة » (١) وانهم اصبحوا قادرين على مواصلة تنفيذ السياسة التي وضعها الرسول القائد محمد بن عبد الله (ص) وكانت المهمة الثانية ضمـن المهام السوقية للرسول (ص) هي توظيف الوحدة النواة في الجزيرة العربية .

وتنفيذا لهذه الوصية اوعز الخليفة الى قائده خالد بن الوليد ان يتجه الى العراق بعد نجاحه في القضاء على ردة مسيلمة بن حبيب في اليمامة ، كما سير الجيوش الى بلاد الشام ، غير أن اعتبارات سوقية تتعلق بطبيعة بلاد الشام المتحكمة بطرق المواصلات في الاقسام الشمالية من الوطن العربي ، واكمال الروم تحشدهم العسكري في وقت مبكر فرضت على الخليفة اعطاء جبهة الشام اولوية وابقاء جبهة العراق ميدان عمليـات ثانوية تمارسها القوات التي كانت بأمرة المثنى بن حارثة الشيباني ، وهي كافية لمواصلة شن الغارات طالما ان الدولة الســاسانية تعـاني من اوضاع داخلية سيئة ابرزها افتقاوها الى ملك يقودها ، اذ خلال الاربعين سنة الاخيرة بعد عهد انوشروان توالى على حكمها ثلاثة عشر ملك وملكة كلهم من الضعفاء وبعضهم غير صريحي النســب الملكي (٢) . والراجح ان هذا اثر على قدرة الدولة على اتخاذ قرار حيث ظهر

عدم اتفاق على كيفية ادارة الحرب مع العرب المسلمين ، وقد ظهر مثل هـــذا التردد قبيل معركة القادسية .

الجهد العسكري العربي الاسلامي لتحرير العـــراق :

ابتدأ الجهد العسكري العربي الاسلامي بتوجيــه الخليفة ابا بكر الصديق لخالد بن الوليــد نحو العراق ، وفي الروايات التي وصلت الينا اتجاهين عن هذا الموضوع :

الاول ـ يشير الى توجه خالد بن الوليد من اليمامة الى العراق .

يقول البلاذري : « ثم ان ابا بكر كتب الى خالد يأمره بالمسير الى العراق » (٤) ويذهب مذهبه الطبري في روايات عدة (٥) ، واورد رسالة ابا بكر الى خالد « ان سر الى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهي الابلة ، وتألف اهل فارس ومن كان في ملكهم من الامم » . ووفقا لهذا الاتجاه دخل خالد بن الوليد العراق من اسفله اخذا على النباج الى الحفير الى الابلة فالتقى قطبة بن قتادة السدوسي ودارت عـــدة معارك بينهما وبين الفــرس منها موقعة السلاسل فيما بين الحفــير وكاظمة ، وموقعة المذار على دجلة قرب واسط الان . وموقعـــة الولجة عند كسكر شرقي واسط . ثم معركة اليس ثم بعد ذلك دخل الحيرة ليبدأ جولة ثانية من المعارك (٦) . وفي هذا الاتجاه تأتي رواية هشام بن الكلبي وفيها ان ابا بكر وجه خالدا من اليمامة نحو الشام وامره بان يبدأ بالعــراق (٧) .

وقد توسع الطبري في اعتماد هذا الاتجاه فاشار الى مراسله خالد لكل من حرملة وسلمى والمثنى ومذعور يدعوهم الى اللحـــاق به في الابلة حيث التقى هرمز (٨) وقوات هؤلاء القادة تنتشر حول الحيرة والسماوة وفي مناطق الاحواز ، بينما اشار البلاذري الى نزول خـــالد بالخريبة وهي مسلحة فارسية وذكر معاركة بالمذار (٩) .

الاتجاه الثاني ـ يشير الى عودة خالد بن الوليــد من اليمامة الى المدينة ثم توجه بعد ذلك الى العراق . فيكون في هذه الحالة دخوله العراق من وسطه . يقول البلاذري نقلا عن الواقدي : « والذي عليه اصحابنـــا من اهل الحجاز ان خالد قدم المدينة من اليمامة ثم خرج منها الـــى العراق على فيد والثعلبية ثم الى الحيرة (١٠) » واورد الطبــــري نفس الرواية ايضا مشيرا الى وعي الواقدي باختلاف الاراء حـــول مسيرة خالد (١١) وترجيحه هذه الرواية .

اغلب الظن ان خالد رجع الى المدينة لعدة اعتبارات منها :

اولا ـ ان معركة عقيرباء لم تكن معركة سهلة ومع ان المسلمين قدموا فيها (الفا ومائتا) شهيدا وانهم انهكوا القوة العسكرية الرئيسية لبني حنيفة وهزموها وقتلوا مسيلمة الا ان المعركة انتهت صلحا وهي نتيجة لا تبرر الخسائر التي قدمت لها (١٢) .

ثانيا ـ ان المسلمين اختلفوا لاشياء غير واضحة في الروايات اثناء المعركة وربما طالت اختلافاتهم خالد بن الوليد نفسه (١٣) .

ثالثا ـ ان خالد بن الوليد اقدم على الزواج من ابنة مجاعة بن مرارة احد قادة بني حنيفة والذي سعى بالصلح مع خالد وهو امر يبد وانه ترك اثرا في اهل المدينة ممن استشهد ذويهم ، وقد استشعر ابا بكر هذا الاثر وعبر عنه برسالته الى خالد بن الوليد ونصها « أما بعد يابن الوليد فانك فارغ القلب ، خشن العزاء عن المسلمين ، اذ قد اعتكفت على النساء وبفناء بيتك الف ومائتا رجل من المسلمين منهم سبعمائة رجل من حملة القرآن ، ان لم يخدعك مجاعة بن مرارة عن رايك ان صالحك عنه « صالحته » صلح مكر . وقد امكن الله منهم اما اذا الله ياخالد ما هي بنكر وانها شبيهة بفعلك بمالك بن نويرة فسؤة له ولا فعالة هذه القبيحة التي ساقك في بني مخزوم والسلام » (١٤) .

رابعا ـ كان طبيعيا لجيش خاض تلك المعركة وقدم فيها ما قدم من خسائر وظهرت بينه تقولات ووجهات نظرا ان يستريح وان يعاد تنظيمه وكانت اغلبية الجيش من اهل المدينة وقد خيرهم بين الاستمرار مع خالد او العودة فعاد اهل المدينة وما حولها (١٥) .

لهذه الاعتبارات كلها اعتقد ان خالدا عاد الى المدينة ، عاد ليسمع الخليفة رايه بما ثار من لفظ واسبابه ، ويوضح له مبررات الصلح في معركة حسمت بالقوة وليقف على روايته لمقتل مالك بن نويرة وزواجه من ابنة مجاعة ، اذ من غير المعقول ان ينسحب اهل المدينة وما حولها من جيش خالد ويعود الى المدينة بدون قائدهم .

اغلب الظن ان خالدا رجع الى المدينة وانه توجه الى للعراق منها ودخل العراق من ناحية الحيرة الحيث التقى بالمثنى بن حارثة الشيباني وحيث تتضح اخبار هذا اللقاء وما ترتب عليه من عمليات عسكرية في الروايات بشكل يجعل الاستنتاج السابق امرا واردا وربما تصبح رواية الطبري عن خروج

خالد الى الحج ثم عودته الى الحيرة اكثر انطباقا على الواقع لو قال انها جرت بعد عودته من اليمامة فالظاهر ان ابا بكر خالدا وعاقبه (١٦) .

سار خالد بن الوليد الى العراق في محرم سنة ١٢ هـ (١٧) والراجح ان جيشه بلغ ما بين خمس مائة الى ثمان مائة مقاتل (١٨) بينما يشير الطبري الى ان جيشه الذي جاء معه من العراق بلغ تسعة الاف (١٩) وهو رقم مبالغ فيه بدليل روايته السابقة عن انفصال اهل المدينة من جيش خالد وقوله : فقيل له : اتمد رجلا قد ارفض عنه جنوده برجل » مما يشير الى ضآلة من بقي معه اضافة الى هذا الجيش الذي كان مع خالد عاد الى العراق بعد اليرموك بقيادة هاشم بن عتبة ومع ان الطبري قدر قوة تلك بستة الاف مقاتل (٢٠) الا ان رواياته اللاحقة عن تقدم هاشم تعطي الانطباع ان قوته بين سبع مائة الى ثمان مائة مقاتل (٢١) .

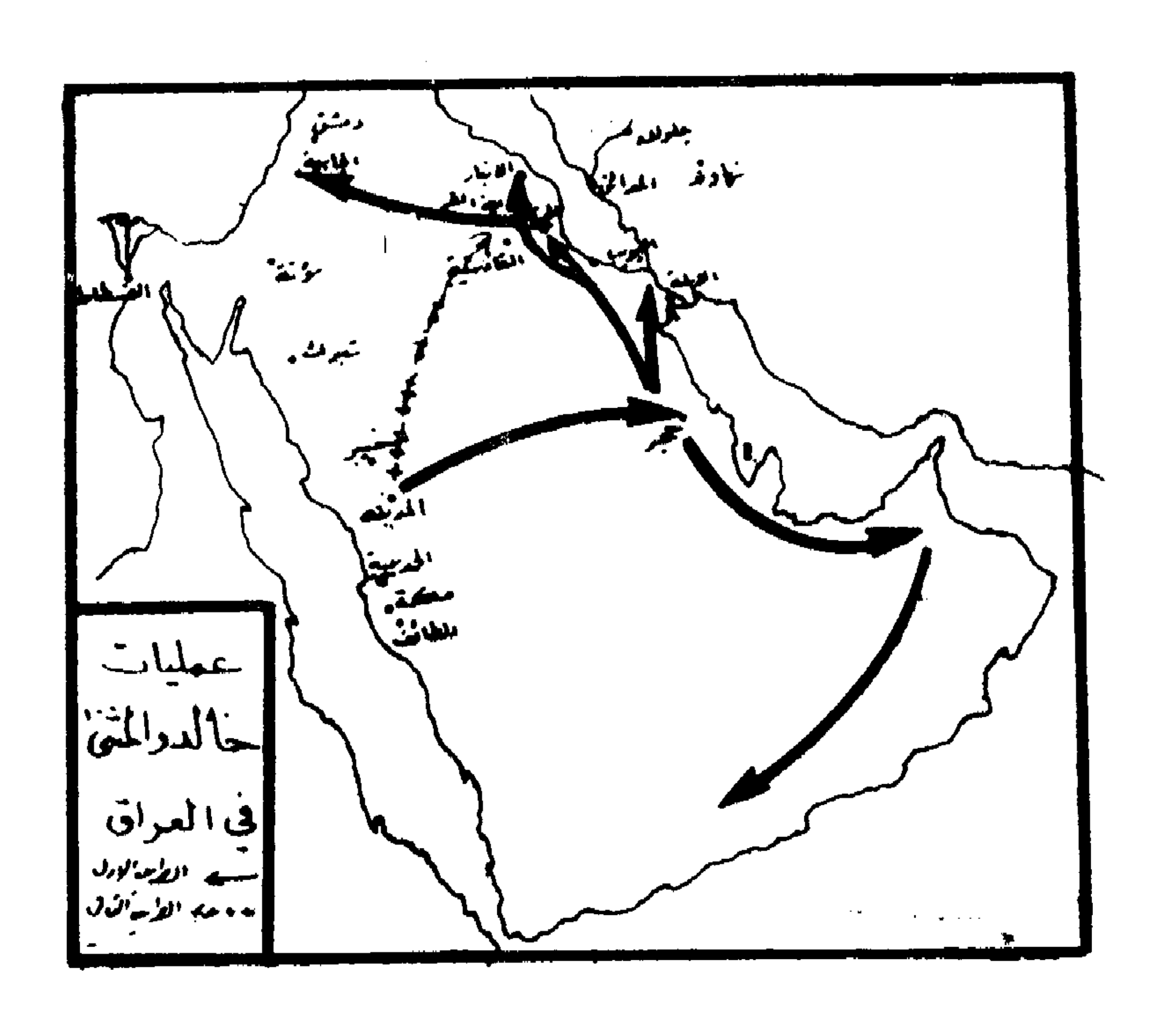
التقي خالد بالمثنى بن حارثة الشيباني في خفان من الصحراء ومن هناك بدأت علمياته العسكرية والراجح انها اخذت شكل غارات على مواضع تمتد على طول شاطىء الفرات جنوب الحيرة قبل ان يدخل الحيرة صلحا ، وفيها استلم كتاب ابي بكر يأمره فيه بالتوجه الى الشام . وفي روايات اخرى انه بدأ نشاطه العسكري في الابلة وما حولها ثم انتقل الى الحيرة والراي الاول هو الارجح .

سار خالد في شهر ربيع الاول وقبل الاخر سنة ١٣ هـ بجيشه نحو الشام آخذا على عين التمر صعودا مع نهر الفرات وقد قام بعمليات عسكرية على عدة مواقع في طريقه فأغار على الحصن والانبار والخنافس وصند وداء والمصيخ (٢٢) . وقد أورد حميد الله خان عدة مكاتبات بين خالد واهل هذه المناطق فذكر كتابه لاهل عين التمر وعانات والنقيب والكواثل وقرقيسباء (٢٣) وهي مواضع جميعها على نهر الفرات مما يعطي انطباعا ان خالدا سلك طريقه الى الشام بمحاذاة الفرات وليس كما ورد في روايات اخرى .

الجهد العسكري في العراق زمن الخليفة عمر بن الخطاب

ترتب على انتقال خالد بن الوليد الى الشام عودة جبهة العراق الى قيادة القادة المحليين ، وابرزهم المثنى بن حارثة الشيباني ، توفى الخليفة ابا بكر يوم الاثنين ٢٢ جمادي الاخرة سنة ١٣ هـ (٢٤) وتولى عمر بن الخطاب واحرز العرب انتصارا باهرا في اليرموك جعل الخليفة يطمأن الى مستقبل عملياته العسكرية في الشام فاتخذ قراره بتنشيط العمليات العسكرية في جبهة العراق ، فانتدب الناس الى العراق فاجتمع له الف مقاتل ، امر عليهم ابا عبيد

الثقفي ، بعد شهر من خلافته (٣٥) والتقى المثني بن حارثة الشيباني في خفان من جبهة الصحراء . الراجح ان ابا عبيد قام بعمليات عسكرية صغرى في مناطق النمارق والسقاطية بكسكر وباروسما والزوابي ونهر جوير (٣٦) قبل ان يلقى الفرس في قسر الناطف في المعركة التي استشهد فيها ابا عبيد واضطر المثنى بن حارثة بسببها ان ينسحب الى اليس ثانية . ويشير الطبري الى ان لحاق قبيلة بجيلة بقيادة جرير بن عبد الله البجلي بجبهة العراق حدث في هذه الاثناء (٣٧) فلما اجتمع للمثنى من يعوض بهم خسارة الجسر عاد الى عملياته العسكرية وهاجم الفرس في معركة البويب وهزمهم وعزز بذلك النصر روح القتال عند جيشه . وقد حدثت وقعة البويب في يوم السبت اخر رمضان سنة ١٣ هـ (٣٨) .


عمليات
خالد والمثنى
في العراق

الهوامش

(١) ابن عساكر : التاريخ الكبير ، ١٢٦/١ .

(٣) البلاذري: فتوح البلدان : ١٤٤ ، الواقدي ، فتوح الشام ٢/١ أن عساكر ، التاريخ الكبير ١٢٦/١ .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ١٧٤/١ . تاريخ الطبري : ١٦٦/٢ — ٢٣٤ ابو حنيفة الينوري : الاخبار الطوال ، ٧٤ — ١١٠ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان : ٣٣٧ .

(٥) تاريخ الطبري : ٣٤٣/٣ رواية عبيد الله بن سعد الزهري عن عمه عن سيف بن عمر بن محمد عن الشعبي (الرواية) وعن عمر بن شبه عن علي بن محمد بالاسناد الذي تقدم (الرواية) وعن بن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن صالح بن كيسان . (الرواية) وعن عبيد الله عن عمه عن سيف عن المهلب الاسدي عن عبد الرحمن بن سياه وطلحة بن الاعلم عن المغيرة بن عتيبة (الرواية) .

وانظر ايضا احمد زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية : ٢٠/١ .

(٦) الجنرال أ . اكرم : خالد بن الوليد . اعتمد هذا الاتجاه في الروايات وبنى على اساسه دراسته لمعارك السلاسل والمذار والولجة واليس . ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٧) تاريخ الطبري : ٣٤٤/٣ .

(٨) تاريخ الطبري : ٣٤٧/٣ حرملة وسلمى من قادة عرب الاحواز الذين كانوا يناوشون الفرس قبل الاسلام .

(٩) فتوع البلدان : ٣٣٨ :

(١٠) فتوح البلدان : ٣٣٩ وانظر ابو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال : ١١١ .

(١١) تاريخ الطبري : ٣٤٣/٣ .

(١٢) نزار الحديثي : اليمامة وردة مسيلمة ، ص ١٧٥ ص ١٧٦ عن صلح اليمامة وص ١٨١ رأي عمر بن الخطاب بالصلح . وقيل ان الخسائر بلغت ١٧٠٠ شهيد .

(١٣) نزار الحديثي : اليمامة وردة نسيلمة : ص ١٧٣ .

(١٤) حميد الله خان : الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، نقلا عن كتاب الردة للواقدي ص ٢٧١ . وانظر ايضا الطبري : ٣٠٠/٣ .

(١٥) تاريخ الطبري : ٣٤٦/٣ .

(١٦) تاريخ الطبري : ٣٨٤/٣ واشار ثانية الى ممارساته في كتابه له يوم وجهه الى الشام انر ص ٣٨٥ ومثل هذا التكرار يعطي الانطباع ان الخليفة لم يهمل الملاحظات النقدية الموجهة لخالد وبالتالي من غير المعقول ان ينتظر ذهاب خالد الى العراق ثم عودته للحج ليعاتبه انظر ايضا ص ٣٩١ والحاج عمر علي ابا بكر في امر خالد .

(١٧) البلاذري : فتوح البلدان : ٣٣٩ وايده الطبري ٣٤٣/٣ وقال في محرم . وانظر الخارطة .

(١٨) البلاذري فتوح البلدان ، ١٥٢ ، تاريخ الطبري ٤٠٦/٣ .

(١٩) تاريخ الطبري : ٣٩٤/٣ وفي رواية اخرى عشرة الاف .

(٢٠) تاريخ الطبري : ٥٤٣/٣ .

(٢١) تاريخ الطبـــري : ٥٥٢/٣ ، ٥٥٣ .
(٢٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٥٢ .
(٢٣) الوثائق النبوية : ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩ .
(٢٤) تختلف الروايات في تحديد زمن اليرموك فقد ذكر سيف بن عمر انها حدثت سنة ١٣ هـ ويرى الواقدي انها حدثت سنة ١٥ هـ وتجمع الروايات على انها حدثت في رجب الذي بعد وفاة ابي بكر والاختلاف في رجب السنين رجب ١٣ أو ١٤ أو ١٥ واذا اخذنا بنظر الاعتبار ان وفاة ابي بكر تمت في ٢٢ جمادي الاخرة فالبريد يحتاج الى وقت لكي يصل الشام كما ان الخليفة عمر وجه مع البريد جملة اجراءات تتعلق بتنظيم الجيش والجاهات الفتوح لذلك الراجح انها في رجب سنة ١٤ هـ .
(٢٢) تاريخ الطبري : ٤١٩/٣ المصادف ايلول ٦٣٤ م .
(٢٥) تاريخ الطبري : ٤٤٨/٣ . البلاذري : فتوح البلدان ، ٢٥٩ . ابو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال ١١٣ ذكر عدد الجيش خمسة الاف رجل .
(٢٦) تاريخ الطبـــري : ٤٤٩/١٢ ـ ٤٥٠ . البلاذري : فتوح البلدان ٣٥٠ ـ ٣٥١ .
(٢٧) تاريخ الطبـــري : ٤٦/٣ .
(٢٨) تاريخ الطبـــري : ٤٧٠/٣ . البلاذري : فتوح البلدان ٣٥٢ .

بطولة نسيبة بنت كعب المازنية

في التاريخ العربي الاسلامي

الدكتور

محمد جاسم حمادي المشهداني

معهد الدراسات القومية والاشتراكية

ـ الجامعة المستنصرية ـ

يحفل التاريخ العربي الاسلامي بصورة رائعة شامخة من البطولة الحقة التي نلمسها في كل فرد من افراد ذلك التاريخ سواء كانوا رجالا او نساء، حيث ان لتلك الصورة البطولية الـــرائعة اثرها الفاعل في خلق حالة الثقة بالنفس وعلى مختلف شرائح المجتمع وفي كل بقعة من بقاع الوطن العربي، كما تعكس تلك الحـــالات البطولية عملية الخلق التاريخي في التاريخ العـــربي خصوصا، والتاريخ الانساني عموما، ذلك الخلق التاريخي الرائع الذي صنع التاريخ العربي الاسلامي، الذي نفخر به ونعتــز به الى اليوم. ومما يزيد في روعة تلك البطولات ان تكون الامراة العربية حالة من حالاتها المتكررة على مر مراحل تاريخها، ومن هنا قادتني البطلة العربية نسيبة الانصارية (رضي الله عنها) الى الخوض في البحث عنها بين طيات المصادر، كي تكون نموذجا حيا وصادقا يحتذى به بين نساء العرب، فقيمة المراة بعفتها وبطولتها، وعزمهـا وصبرها، وهذه القيمة هي التي جعلت من نسيبة الانصـارية حالة متميزة وفريدة في تاريخ عصر صدر الاسلام.

شخصيتها :

ام عمارة بنت كعب بن عوف بن عمرو بن مبذول ابن عمرو بن غنم بن مازن ابن النجار ، مشهورة بكنيتها واسمها معا ، وهي زوجة زيد بن عاصم بن كعب المازني ، وام عمارة ، وحبيب ، وعبدالله الصحابي الجليل الذي استشهد في واقعة الحرة سنة ٦٣ هـ(١) .

روت عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، وبالاخص حديث : « الصائم اذا اكل عنده صلت عليه الملائكة(٢) » ، وروى عنها عكرمة بن عبدالله مولى عبدالله بن عباس(٣) ، واكد بن حجر روايته عنها(٤) . كما روى عنها عباس بن تميم بن غزيه الانصاري المازني المدني ، وهي جدته(٥) ، واكد ابن حجر روايته عنها(٦) ، وروى عنها الحارث بن عبدالله بن كعب ، واكد روايته عنها(٧) ، وحبيب بن زيد بن خلاد الانصاري المدني(٨) عن مولاة لهم لها ليلى عنها(٩) ، واكد ابن حجر رواية ليلى عنها(١٠) ، وروى لها الترمذي والنسائي وابن ماجه(١١) .

وروي انها اتت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت : « ما ارى كل شيء الا للرجال ، وما ارى النساء يذكرن »(١٢) فنزلت هذه الآية الكريمة : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، اعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما »(١٣) .

نسيبة وبيعة العقبة الثانية :

كانت نسيبة بنت كعب من اوائل النساء العربيات اللواتي بايعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيعة الرضوان (العقبة الثانية(١٤) ، وذلك عندما اجتمع الذين بايعوا الرسول الكريم في الشعب عند العقبة(١٥) ، وكن سبعون رجلا ، ومعهم امراتان من نسائهم ، نسبة بنت كعب ام عمارة ، وام منيع اسماء بنت عمرو بن عدي (احدى نساء بني سلمة ، ويصف كعب بن مالك(١٦) هذا الاجتماع في العقبة بقوله : « قمنا وتلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عيه وسلم نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة(١٧) ، فاجتمعنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا معه العباس بن عبدالمطلب وهو يومئذ على دين قومه الا انه احب ان يحضر امر ابن اخيه ، ويتوثق له . . . فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال : ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون

منه نساءكم وابناءكم . قال . فاخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : « والذي بعثك بالحق لتمنعك مما نمنع منه ازرنا (١٨) ». فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله اهل الحرب واهل الحلقة(١٩) ، ورثناها كابــــرا عن كابر(٢٠) وروي ان امراتين بايعتا النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يصافح النساء ، انما كان يأخذ عليهن فاذا اقررن قال اذهبن ، والمراتانن هما من بني مازن بن النجار نسيبة واختها ابنتا كعب ، وكان مع نسيبة زوجها زيد بن عاصم(٢١) ، وقال كعب بن مالك : « . . . ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ». ومعنا امراتان من نساءنا نسيبة بنت كعب ام عمارة احدى نساء بني مازن بن النجار ، وأم منيع اسماء ابنة عمرو بن عدي بن نابي ، احدى نساء بني سلمة(٢٢) » .

نسيبة ومعركة احد

ذكر خليفة بن خياط بان نسيبة كانت تشهد الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢٣) ، وانها شهدت احد مع زوجها وابنــاءها(٢٤) . وخرجت نسيبة الى احد ومعها شن(٢٥) دأما في اول النهار تريد أن تسقي الجرحى(٢٦) ، وروي عن ام سعد بنت سعد بن الــربيع انها قالت : « دخلت على ام عمارة فقلت لها : يا خالة حدثيني خبرك ، فقالت : خرجت اول النهار الى احــد ، وانا أنظر الى ما يصنع الناس ومعي اناء فيه ماء ، فانتهت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في اصحابه ، والدولة(٢٧) ، والريح(٢٨) للمسلمين ، فلمــا انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت اباشـــر القتال واذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف وارمي بالقوس ، حتى خلصت الى الجراح ، فرأيت على عاتقها جرحا له غور(٢٩) اجوف ، فقلت يا أم عمارة من اصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة اقماه الله » .

وكان ابن قمئة يقول لما رأى الناس ولوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : دلوني على محمد فلا نجوت ان نجا »(٣١) فاعترضت له نســـيبة فضربها ضربة وكان معها مصعب بن عمير وبعض الناس ممن ثبت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، قالت : « فضربني هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان(٣٢) » وروت أم عمارة عن واقعة أحد فقالت : لقد رأيت وانكشف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بقي الا تغيير ما يسمون عشرة ، وانا وابناي وزوجي بين يـديه نذب عنه صلى الله عليه وسلم ، والناس يمرون به منهزمين ، ورآني صلى الله عليه وسلم لا ترس معي ، فرأى رجلا موليا معه ترس فقال : يا صاحب الترس الق ترسك الى من يقاتل ، فالقى ترسه فاخذته ، فجعلت أترس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما فعل بنا الافاعيل اصحاب الخيل ، لو كانوا رجاله مثلنــا اصبناهم ان شاء الله ، فيقبل رجل على فرس فضربني وتترست له فلم يصنع

سيفه شيئا وولى ، واضرب عرقوب فرسه فوقع على ظهره فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصيح : « يا ابن ام عمارة امك امك ! قالت : فعاونني عليه حتى اوردته الشعب(٣٣) » ووصف ابنها عبدالله بن زين بطولة امه يوم أحد فقال : « شهدت احد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما تفرق الناس عنه دنوت منه وأمي تذب عنه ، فقال : يا ابن ام عمارة ، قلت : نعم قال : ارم فرميت بين يديه رجلا من المشركين بحجـــر ، وهو على فرس فأصبت عين الفـــرس ، فاضطرب الفـــرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت اعلوه بالحجارة ، حتى نضدت عليه منها وقرا(٣٤) ، والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر ويبتسم ، فنظر الى جرح بأمي على عاتقها ، فقال : امك ، امك ، أعصب جرحها ، بارك الله عليكم من اهل بيت امقام امك خير من مقام فلان وفلان ومقام ربيبك ــ يعنــي زوج أمه ــ خير من مقام فلان وفلان ومقامك لخير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله ، أهل البيت ! قالت : ادع الله ان ترافقك في الجنة ، قال : اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة ، قالت : ما ابالي ما أصابني من الدنيا(٣٥) » ، وكان رســول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول في أحد : « لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ! وكان يراها تقاتل يومئذ اشد القتال ، وانها لحاجـزة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشــر جرحا »(٣٦) بين طعنة برمح أو ضربة بالسيف(٣٧) وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : « وما التفت يمينا ولا شمالا الا وأنا أراها تقاتل دوني »(٣٨) وروي عن جدة ضمرة بن سعيد قولها وكانت فيمن غسل نسيبة لما حضرتها الوفاة فقالت : « فعددت جراحاها جرحا جرحا فوجدتها ثلاثة عشر جرحا » وكانت

تقول : « اني لانظر الى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ، وكان اعظم جراحها لقد داوته سنة» (٣٩) ، وقال الواقدي : « انها قاتلت يومئذ ، وابلت بلاء حسنا ، ... »(٤٠)

وكانت ام عمارة هي الامراة القرشية الوحيدة التي قاتلت مع المســلمين يوم احد رغم عدد من النساء العربيات اللواتي كن يســـقين الماء ويداوين الجرحي ، ولما سالت ام عمارة : « هل كن نســـاء قريش يومئذ يقاتلن مع ازواجهن ؟ فقالت : اعوذ بالله ما رايت امراة رمت بسهم ولا بحجر ، ولكـن رايت معهن الدفاف والاكبار يضربن ويذكرن القوم قتلى بدر ، ومعهن مكاحل ومراود فكلما ولى رجل أو تكعكع(٤١) ناولته احداهن مرودا ومكحلة ، ويقلن : انما انت امراة ، ولقد رأيتهن ولين مهزومات مشمرات ولها عنهن الـــرجال اصحاب الخيل ، ونجوا على متون الخيل ، يتبعن الرجال على الاقدام فجعلن يسقطن في الطريق ، ولقد رايت هند بنت عتبة وكانت امراة ثقيلة ولها خلق قاعدة خاشية من الخيل ما بها غشيء ، ومعها امـــراة اخــرى ، حتى كـر

القوم علينا فاصابوا مناما اصابوا فعند الله تحتسب ما اصابنا يومئذ من قبل الرماة ومعصيتهم لرسول الله صله الله عليه وسلم(٤٢) .

محاولة اشتراكها في غزوة حمراء الاسد

وعزمت ام عمارة على المشاركة في غزوة حمراء الاسـد ، لما نادى منادي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى حمراء الاسد فشدت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدم ، وقد امضيت ليلها تكمد الجراح حتى الصباح ، فلما رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الحمراء ما وصل الى بيته حتى ارسل اليها عبدالله بن كعب المازني يسأل عنها ، فرجع اليه بخبره بسلامتها فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك(٤٣) .

اشتراكها في واقعة اليمامة :

عندما الخليفة الراشد ابو بكر الصـديق (رض) محاربة المرتدين بعث خالد بن الوليد الى اليمامة ، وعندما سار جيش خالد بن الوليد جاءت نسيبة الى الخليفة ابي بكر فأستأذنته للخروج فقال : « قد عرفنا جزاءك في الحرب فاخرجي على اسم الله ، واوصى خالد بن الوليد بها ، كان مستوصيا بها(٤٥) ، فشهدت اليمامة واستشهد ابنها حبيب على يد مسيلمة الكذاب الذي قال له قبل قتله : « اتشهد ان محمدا رسول الله ؟ فيقول نعم ، فيقول : اتشهد اني رسول الله ؟ فيقول لا اسمع فجعل يقطعه عضوا عضوا حتى مات في يديه لا يزيد على ذلك(٤٦) ، وظل يقاتل مع نسيبة ابنها الآخر عبدالله(٤٧) ، وقاتلت قتالا شديدا حتى قطعت يدها وجـرحت اثنى عشر جـرحا من بين طعنة وضربة(٤٨) ، ولما سألت عن قطع يدها قالت : « أصيبت يوم اليمامة لما جعلت الاعراب ينهزمون بالناس نادت الانصار ، اخلصونا ، فأخلصت الانصار ، فكنت معهم حتى انتهينا الى حديقة الموت(٤٩) فاقتتلنا عليها ساعة حتى قتل أبو دجانة على باب الحديقة ، ودخلتها وانا اريد عدو الله مسيلمة ، فيعترض لي رجل منهم فضـرب يدي فقطعها فوالله ما كانت لي ناهية ولا عرجت عليها حتى وقفت على الخبيث مقتولا ، وابني عبدالله بن زيد المازني يمسح سيفه بثيابه ، فقلت قتلته ؟ قال : نعم فسددت شكر الله(٥٠) » ، واكد ابن حجر بان ابنها عبدالله بن زيد هو الذي قتل مسيلمة الكذاب(٥١) . ولما انتهت المعركة وقضي على المرتدين ، صارت أم عمارة الى منزلها فجاءها خالد بن الوليد وهو يطلب من العرب مداواتها بالزيت المغلي ، فكان اشد عليها من القطع ، وكان خالد كثير التعاهد بها حسن الصحبة يعرف حقها ويحفظ فيها وصية النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ولما قدمت المدينة وبها الجراحة رؤي ابو بكر سيرتها ويسأل عنها وهو يومئذ خليفة(٥٢) .

مكانة نسيبة عند عمر بن الخطاب (رض) :

وظلت منزلتها عظيمة عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) الذي أتى له بمروط (٥٣) ، فكان فيها مرط واسع جيد ، فقال بعضهم : « ان هذا المرط لثمن كذا وكذا ، فلو ارسلت به الى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد ، وذلك حدثان ما دخلت على ابن عمر ، فقال : أبعث به الى من هو أحق منها ام عمارة نسيبة بنت كعب ، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم احد يقول : « ما التفت يمينا ولا شمالا الا وأنا ارها تقاتل ذوي (٥٤) » .

هـوامش البحث :

(١) ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ج٤ (القاهرة ، ١٣٢٨ هـ) ٤١٨ ، تهذيب التهذيب ، ج١٢ (حيدر اباد ، ١٣٢٧ هـ) ٤٧٤ ، ابن عبد البر الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، ج٤ (القاهرة ، ١٣٢٨ هـ) ٤٧٥ ـ ٤٧٨ (مطبوع في هامش ، الاصابة لابن حجر) ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٢ (بيروت ، طبعة دار الفكر ، ص ١٦٨ .

(x) واقعة الحرة : نسبة الى حرة واقم : وهي احدى حري المدينة وهي الشرقية ، وحدثت فيها وقعة الحرة المشهورة في ايام يزيد بن معاوية في سنة ٦٣ هـ / وامير الجيش من قبل يزيد سلم بن عقبة المري « ياقوت الحمدي ، معجم البلدان ، بيروت ، طبعة دار صادر ج٢/٢٤٩ .

(٢) خليفة بن خياط ، الطبقات ، تحقيق د. اكرم العمري (بغداد ١٩٦٧) ٣٢٩ وابن حجر ، الاصابة ، ٤/٤١٨٠ ،

(٣) هو عكرمة بن عبدالله مولى ابن عباس ، اصله بربري ، وهو ثقة ثبت عالم بالتفسير توفي سنة ١٠٧ هـ (انظر ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ج٢ (بيروت ، ١٩٧٥) ٣٠

(٤) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٧/٢٦٤

(٥) نفسه ، ٤/٤٧٤

(٦) نفسه ، ٥/٩٠

(٧) نفسه ، ٤/٤١٨

(٨) نفسه ، ٤/٤٧٤ ، تقريب التهذيب ١/١٤٩

(٩) تهذيب التهذيب ، ٤/٤٧٤

(١٠) نفسه ، ٤/٤١٨ « قال ابن حجر : هي ليلى مولاة ام عمارة الانصارية ، مقبولة « تقريب التهذيب ، ٢/٦١٣ » .

(١١) عمر رضا كحالة ، اعلام النساء ، ج٥ (دمشق ، ١٩٥٩) ١٧٥

(١٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٤/٤٧٧

(١٣) سورة الاحزاب ، الاية ٣٥

(١٤) ابن حجر ، الاصابة ، ٨٤/٤٧٦ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ٤٥/٤٧٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣/١٥٠ .

(١٥) العقبة : موضع بمكة بينها وبين منى ، تبعد عن مكة نحو ميلين « الحمدي ، معجم ٤/١٣٤

(١٦) كعب بن مالك :

هو كعب بن مالك بن ابي كعب الانصاري السلمي المدني الصحابي الجليل مات في خلافة علي (رضي الله عنه) (ابن حجر ، تقريب التهذيب ٢/١٣٥) .

(١٧) ابن كثير ، السيرة النبوية ، ج٢ (بيروت ، ١٩٧٨) ١٩٦ ـ ١٩٧

(١٨) ازرنا : قال الرازي : « ... و (المئزر) الازار كقولهم ملحق ولحاف ومقرم ... مختار الصحاح ، (بيروت ، ١٩٦٧) ص ١٥ »

(١٩) الحلقة : الدروع « الرازي ، مختار الصحاح ، ١٤٩ »

(٢٠) الطبري ، تاريخ ، ٢/٣٦٢

(٢١) ابن حجر ، الاصابة ، ٤/٤١٨ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٤/٤٧٥ـ٤٧٨ .

(٢٢) ابن كثير ، السيرة النبوية ، ٢/١٩٧

(٢٣) خليفة بن خياط ، الطبقات ، ٣٤٠

(٢٤) الواقدي ، المغازي ، ١/٢٦٨ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ١٢/٤٧٤ ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٤/٤٧٥ ـ ٤٧٨ « وذكر الواقدي » وابن حجر ، ان زوجها في احد كان غزية بن عمرو ، وذكر ابن عبد البر استنادا الى ابن اسحاق ان زوجها زيد بن عاصم »

والصواب ان زوجها كان غزيه بن عمرو في معركة احد ، بدليل ما قاله الرسول الكريم (ص) لابنها زيد بن عاصم ، « ... مقام املء خير من مقام فلان وفلان ومقام ربيبك – يعني زوج امه – خير من مقام فلان .... (الواقدي ، المغازي ، ١/٢٧٢–٢٧٣)

(٢٥) شـن : والشن : القربة الخلق ... « الرازي ، مختار الصحاح ، ٣٤٨ »
(٢٦) الواقدي ، المغازي ، ٢٦٨/١
(٢٧) الدولة ، المراد بها هنا الغلبة .
(٢٨) الريح ، النصر
(٢٩) غور : كل شيء قعره ، وماء غور اي غائر .... « الرازي ، مختار الصحاح ، ٤٨٤ »
(٣٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢٩/٣ – ٣٠ ، ابن بكر ، السيرة النبوية ، ٢٩/٣–٣٠ ، ابن حجر ، الاصابة ، ٤٠٨/٤ .
(٣١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢٩/٣ ، ٣٠ ، الواقدي ، المغازي ، ٢٦٩/٢ ، ابن كثير ، السيرة النبوية ، ٦٧/٣–٦٨
(٣٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣٠/٣ ، الواقدي ، المغازي ٢٦٨/١–٢٦٩ ، أبن كثير ، السيرة النبوية ، ٦٧/٣–٦٨
(٣٣) الواقدي ، المغازي ، ٢٧٠/١
(٣٤) الوقر : حمل الدابة « فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان ألاسلامية ، ترجمة د. كامل العسلي » (عمان ، ١٩٧٠) ٥٧
(٣٥) الواقدي ، المغازي ، ٢٧٢/١١–٢٧٣
(٣٦) نفسه ، ٢٦٩/١
(٣٧) نفسه ، ٢٦٩/١
(٣٨) نفسه ٢٧١/١
(٣٩) نفسه ، ٢٧٠/١
(٤٠) نفسه ، ٢٦٩/١
(٤١) تكعكع : اي احجم وتاخر الى الوراء (النهاية ٢٣/٤)
(٤٢) الوأقدي ، المغازي ، ٢٧٢/١
(٤٣) نفسه ، ٢٧٠/١
(٤٤) اليمامة : بينها وبين الهجرين عشرة ايام ، وهي معدودة من نجد وقاعدتها حجر ، افتتحها خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ « الحموي ، معجم ٤٤٢/٥ »
(٤٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب ،
(٤٦) ابن كثير ، البداية النهاية ، ١٦٨/٣
(٤٧) بن حجر ، الاصابة ، ٤١٨/٤
(٤٨) نفسه ، ٤١٨/٤ ، ٤٧٦ – ٤٧٧ ، ابن كثير ، البدأية والنهاية ١٦٨/٣
(٤٩) حديقة الموت : وهي البساتين التي كانت بقنا حجر من ارض اليمامة لمسيلمة الكذاب ، كانوا يسمونه حديقة الرحمن ، وعنده قتل مسيلمة فسموه حديقة الموت « الحموي ، معجم البلدان ٢٣٢/٢ » بيروت طبعة اخبارية المعجم
(٥٠) ألواقدي ، المغازي ، ٢٦٩/١
(٥١) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٤١٧/١
(٥٢) كحالة ، اعلام النساء ، ١٧٥/٥ .
(٥٣) المروط : بكسر الميم وهي اكسية من صوف او خز كان يؤتز بهما « الرازي ، مختار الصحاح ، ٦٢١ – ٦٢٢ »
(٥٤) الواقدي ، المصور السابق ، ٢٧١/١

فيء بني النضير وسياسة الرسول (ص) المالية في المدينة

« دراسة تاريخية نقــدية »

د . هاشم يحيى الملاح و نجمـــان ياســــين

استاذ التاريخ الاســلامي ـ كلية الاداب جامعة الموصــــل

مدرس التاريخ الاسلامي المساعد كلية الاداب ـ جامعة الموصل

تمهيــد :

لقد حرص الرسول ـ ص ـ بعد هجرته الى المدينة على اقامة علاقات ايجابية مع اليهود ، فكتب كتابا « بين المهاجرين والانصــار وادع فيه يهــود وعاهدهم واقرهم على دينهم واموالهم »(١) وكان مما جاء في هــذا الكتاب ان اليهود امة مع المؤمنين وان عليهم تبعا لذلك ان يقدموا النصيحة للمؤمنين وان ينفقوا معهم « ما داموا محاربين » كما تقرر ان اليهود يلتزمون بواجب الدفاع عن المدينة مع المسلمين ويتضامنون معهم ضد قبيلة قريش التي كانت في حالة حرب معهم : « وانه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وان بينهم النصر على من دهم يثرب » .

وتوقع الرسول ـ ص ـ بعد كتــابة الصحيفة ان تتطور العلاقات مع اليهود بشكل ايجابي يؤدي في النهاية الى اندماجهم في الامة الناشئة ، غير ان اليهود كانوا حريصين على المحــافظة على عزلتهم التاريخية وعدم الاندماج في المجتمع الجديد ، وعليه فقد اخذوا يتوجسون خفية من انتشار الاســلام في المدينة ، وازداد خوفهم بعد انتصار المسلمين على مشركي مكة في معركة بدر ، لذا فقد اخذوا يتنكرون لتحالفهم مع المسلمين وشرعوا بتوجيه الانتقادات الى

الرسول ـ ص ـ والطعن في تعاليم الرسالة الاسلامية ثم تمادوا في المعارضة عن طريق التحالف مع منافقي المدينة وقبيلة قريش ، ومن هنا أخذت العلاقات بين المسلمين والقبائل اليهودية في المدينة تتدهور ، وكانت أول قبيلة نقضت عهدها مع الرسول ـ ص ـ هي قبيلة بني قينقاع فاضطر الرسول ـ ص ـ الى محاربتها واجلائها عن المدينة ، وأعقبتها قبيلة بني النضير التي لم تستطع اخفاء فرحتها بخسارة المسلمين لمعركة أحـد ، وقالوا ـ أي اليهود من بني النضير ـ : « اليوم بطل سحر محمد واخـذوا يرددون : ما محمد الا طالب ملك ، ما اصيب هكذا نبي قط ، اصيب في بدنه وأصيب في اصحابه »(٢) .

ويظهر ان دور يهود بني النضير ، كان يتعدى مجرد الشماتة بخسارة المسلمين لمعركة أحد اذ أن هنالك ما يشير الى انهم كانوا يتعاونون مع قبيلة قريش ضد المسلمين فقد روى موسى بن عقبة ان يهود بني النضير كانوا قـد : « دسوا الى قريش حين نزلوا بأحد لقتال رسول الله فحضوهم على القتـال ودلوهم على العورات »(٣) .

وفي ضوء ما تقدم لا يبدو من الغريب ان يحاولوا في النهاية اغتيـال الرسول ـ ص ـ حينما قدم الى ديارهم لطلب معاونتهم في دفع دية رجلين قتلهما أحد اصحابه وهو عمرو بن امية الضمري بموجب قواعد الحلف الـذي بينه وبينهم .

لقد اراد يهود بني النضير استغلال فرصة وجود الرسـول ـ ص ـ في ديارهم للتخلص منه وبذلك يحققون هدفهم الذي عبر عنه زعيمهم حي ابـن اخطب حينما قال : ان قتل محمد تفرق اصـحابه ، فلحق من كان معه من قريش بحرمهم ، وبقي من هاهنا من الاوس والخزرج حلفاءكم »(٤) .

وقد شعر الرسـول ـ ص ـ بسوء نية اليهود فتسلل خارجا من ديارهم قبل ان يتمكنوا من تنفيذ مؤامرتهم ضده ، ثم بعث محمد بن مسلمة من الاوس ـ وكانوا حلفاء لبني النضير ـ ليبلغهم جواب الرسول ـ ص ـ على غدرهم ونقضهم للعهد بقوله : « اخرجوا من بلدي ، فقد اجلتكم عشرا فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه » (٥) . ولم يكن القرار اعلاه يتضمن اكثر من طلب الجلاء عن المـدينة ، ومن ثم فقد كان يحق ليهود بني النضير في حالة قبولهم له ان يحتفظوا بأراضيهم واموالهم حيث ان بأمكانهم اخذ اموالهم المنقولة معهم واستثمار اموالهم غير المنقولة بالواسطة ، وقد عبر عن هذا المعنى سلام بـن مشكم احد زعماء اليهود حينما نصح قومه بالامتثال لاوامر الرسول ـ ص ـ بقوله : « فنقبل ما أعطانا من الامن ونخرج من بلاده . . فاذا كان أو ان الثمر جئنا او جاء منا الى ثمره فباع أو صنع ما بدا له ثم انصرف الينا ، فكأنا لـم نخرج من بلادنا اذا كانت اموالنا بأيدينا »(٦) ، غير ان يهود بني النضـير لم

يمتثلوا لاوامر الرسول ـ ص ـ بالجلاء عن المدينة وقد شجعهم زعيم المنافقين في المدينة عبدالله بن ابي على اتخاذ هذا الموقف بقوله : « ان اثبتوا وتمنعوا فانا لن نسلمكم أن قاتلتم قاتلنا معكم وان خرجتم خرجنا معكم » (٧) مما يدل على وجود تحالف مصيري بينهم وبين المنافقين يقف في مواجهة الرسول ـ ص ـ .

اعتبر الرسول ـ ص ـ رفض اليهود الانصياع لامره بالجلاء عن المدينة بمثابة اعلان حرب فقال : « حاربت يهود »(٨) ثم طلب من اصحابه التوجه نحو ديار بني النضير لمحاربتهم ، وكان ذلك في شهر ربيع الاول من السنة الرابعة للهجرة(٩) فحاصرهم وهم في قلاعهم وشدد عليهم الحصار ثم قام بتحريق مزارعهم وبعض نخيلهم مما اثر عليهم كثيرا خاصة وان المنافقين لم يخفوا لمساعدتهم ونجدتهم كما وعدوا ، لذا ارسلوا الى الرسول ـ ص ـ يعلنون موافقتهم على الجلاء بالشروط السابقة الا ان الرسول ـ ص ـ أوضح لهم ان تلك الشروط كانت قبل القتال ، أما وقد اختاروا الحرب فان عليهم الاستسلام وفقا للشروط الجديدة وهي ان يقوموا بالجلاء عن المدينة على ان « لهم ما حملت الابل من اموالهم الا الحلقة »(١٠) اي ان يتخلوا عن بيوتهم واراضيهم مقابل ضمان سلامة ارواحهم وان يأخذوا معهم أموالهم المنقولة التي يستطيعون نقلها بواسطة الابل ما عدا السلاح وقد تردد اليهود « يومين أو يومين »(١١) في قبول هذه الشروط ثم اعلنوا الاستسلام بعد أن ادركهم اليأس.

عدد بني النضير :

ان ما تقدم يشير الى ان بني النضير كانوا اضعف من المسلمين كثيرا لانهم لم يستطيعوا المقاومة بشكل جاد واكتفوا بالاحتماء بحصونهم على أمل أن يدرك التعب المسلمين فينصرفون عنهم ، فلما أيقنوا من جدية المسلمين في القتال ورأوا مزارعهم يصيبها الخراب على أيديهم شعروا بالعجز والخذلان ولم يلبثوا أن اعلنوا الاستسلام .

فكم كان عدد رجالهم القادرين على القتال في ذلك الوقت كي يتصرفوا بهذه الطريقة ؟

لم نعثر على نص صريح في المصادر التي بين أيدينا لمعرفة عدد يهود بني النضير ، لذا فلا بد من الرجوع الى بعض الاشارات والقرائن التي قد تساعد على معرفة عددهم ولو بصورة تقريبية .

ذكر الطبري ان الرسول ـ ص ـ حينما اجلى يهود بني النضير عن المدينة « جعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء »(١٢) ولكنه لم يذكر لنا عدد الجمال التي خصصها لهم ، اما الواقدي وابن سعد فقد ذكروا ان يهود بني النضير

احتملوا اموالهم على ستمائة بعير(١٣) ، وبذلك يمكن ان نستنتج من الجمع بين الخبرين ان عدد يهود بني النضير كان بحدود ١٨٠٠ نسمة ، فاذا افترضنا ان نسبة الرجال الى النســـاء كانت بحدود النصف ، فأن عدد الذكور من بني النضير كان بحدود ٩٠٠ بما فيهم الشيوخ والصبيان ، فاذا استبعدنا هؤلاء على القتال وهم بحدود ٤٥٠ رجلا ، ان هذا التقدير لعدد الـرجال القادرون على القتـــال يتفق مع ما اورده الواقـــدي من ان الاســـلحة التي اخذها الرسول ـ ص ـ من بني النضير كانت « خمسين درعا ، وخمسين بيضـــة وثلثمائة سيفا واربعين سيفا ويقال غيبوا بعض سلاحهم وخرجوا به »(١٤) ، فاذا كان عدد السيوف التي غنمها الرسول ـ ص ـ من بني النضـــير ٣٤٠ سيفا عدا بعض السيوف التي نجحوا باخفائها فلا بد ان عــدد مقاتليهم كان يتراوح بين الـ ٣٥٠ والـ ٤٥٠ مقاتلا كما قدرنا . ان هذا العدد يقل كثيرا عن عدد مقاتلة المسلمين الذين اشتركوا في معركة احد وهو يفسر لنا تخاذل بني النضير امام المسلمين ، سيما، بعد تيقنهم من عدم تلقي مساعدة من المنافقين ومن يهود بني قريظة .

اموال بني النضـــير :

لا تمدنا المصادر التاريخية ببيانات واضحة عن مقدار الاموال التي كـان يمتلكها بنو النضير حين اجلاهم الرسول ـ ص ـ عن المدينة ، لذا فلا مناص امام الباحثين من العمل على تجميع بعض الاشارات والاخبار من اجل تكـوين صورة تقريبية عن حالتهم الاقتصادية ومقدار اموالهم وحسب التفصيل الآتي :

١ ـ لقد ذكر حي بن اخطب زعيم يهود بني النضير قدرتهم على الصمود في وجه حصار المسلمين لمدة سنة لان حصونهم متينة ولديهم طعام يكفيهم لمدة سنة(١٥) ، مما يدل على غنى هذه القبيلة وكثرة اموالها .

٢ ـ روى الواقدي ان يهود بني النضير قالوا حينما اراد الرسول ـ ص ـ اخراجهم من المدينة : « ان لنا ديونا على الناس الى آجال ، فقال رسول الله ـ ص ـ : تعجلوا وضعوا ، فكان لابي رافع سلام بن ابي الحقيق على اسيد بن حضير عشرون ومائة دينار الى سنة فصالحه على اخـذ راس ماله ثمانين دينارا وابطل ما فضل » (١٦) وهذا يدل على امتـــلاك يهود بني النضير لفائض نقدي يقومون باقـــراضه الى الناس رغم أنهم كانوا يحترفون الزراعة وليس التجارة او الصيرفة .

٣ ـ ذكر الواقدي رواية عن الرسول ـ ص ـ يصف فيها حالة بني النضـير حين اجلاهم جاء فيها : « ثم شقوا اسواق المدينة ، والنساء في الهوادج عليهن الحرير والديباج ، وقطف الخز الخضر والحمر ، وقد صف لهم

الناس ، فجعلوا يمرون قطارا في اثر قطار ، فحملوا على ستمائة بعير »(١٧) ، كما أشير الى ان نساء سراتهم ووجوههم كن يتزين بالحلي فكان « في ايديهن اسورة الذهب والدر في رقابهن »(١٨) .

ان ما تقدم يدل على ان حالة يهود بني النضير الاقتصادية كانت جيدة بدليل مظاهر الترف التي كانت بادية على نسائهم وهن يغادرن المدينة .

٤ — روي عن حسان بن ثابت انه قال في وصف سراة بني النضير « اما والله لقد كان عندكم لنائل للمجتدي وقرى حاضر للضيف وسقيا للمدام »(١٩)، مما يشير الى غنى رجالات بني النضير الامر الذي يتيح لهم مجال الانفاق بسخاء على ضيوفهم ومن يقصدهم .

ويبدو ان مظاهر الثروة المشار اليها اعلاه كانت نتيجة لنشاط بني النضير في مجال الزراعة حيث كان بحوزتهم اجود الاراضي واخصبها ، اذ اقام بنو النضير بالعوالي في الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مذينيب الذي تصب مياهه في وادي بطحان ، وكانت هذه الاراضي ذات تربة بركانية خصبة — حرة — اضافة الى توفر المياه التي تسيل في الوديان مما يساعد على قيام زراعة ناجحة(٢٠) ، وكانت زراعة النخيل هي عماد المزروعات في المدينة ، وقد اشتهر بنو النضير بزراعة بعض انواع النخيل التي تنتج انواعا ممتازة من التمور مثل التمر الذي يقال له اللون* ، وكان « اصفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحمة »(٢١) ، وقد كانت مزارع النخيل ذات قيمة كبيرة بالنسبة لبني النضير ولذا لجأ الرسول — ص — اثناء حصاره لهم الى قطع النخيل وتحريق بعضه الآخر مما اثار القلق والفزع في نفوس اليهود وجعلهم يخاطبون الرسول — ص — بقولهم : « يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها »(٢٢) ، وقد اشير الى انه كان يزرع الى جانب النخيل بعض انواع الحبوب كالشعير والقمح وبعض اشجار الفاكهة كأشجار الكروم والرمان بالاضافة الى بعض الخضروات والبقول كالقرع واللوبيا والسلق والبصل والثوم والقثاء »(٢٣) .

ولعل الصورة المتقدمة عن اوضاع بني النضير الاقتصادية — رغم عدم تكاملها — تدل على ان أراضيهم ومزارعهم كانت كافية لضمان المستوى المعاشي اللائق لعددهم الذي قدرناه بحدود ١٨٠٠ نسمة ، بل ان هنالك ما يدل على ان وضعهم الاقتصادي ، كان افضل من وضع بقية يهود المدينة ، فقد ذكر الواقدي ان سلام بن مشكم احد زعماء بني النضير حاول اقناع قومه بقبول طلب الرسول بالجلاء عن المدينة مقابل احتفاظهم بأرضهم بقوله : « أنا انما

شرفنا على قومنا بأموالنا وفعالنا ، فاذا ذهبت أموالنا من أيدينا كنا كغيرنا من اليهود في الذلة والاعدام »(٤٢) ، ويوضح هذا النص بشكل صريح ان يهود بني النضير كانوا اغنى من بقية يهود المدينة ، وبالتالي فأنهم كانوا أغنى أهل المدينة قاطبة الان من المعروف ان الحالة الاقتصادية ليهود المدينة كانت افضل من حالة العرب ـ الاوس والخزرج ـ(٢٥) .

اموال بني النضير وسياسة الرسول ـ ص ـ المالية :

ادت حيازة اليهود للاراضي الخصبة في المدينة الى معيشة الاوس والخزرج حياة اقتصادية صعبة لان حاصلات اراضيهم الزراعية لم تكن تكفي لسد حاجتهم الا بجهد ، وكثيرا ما كانوا يستدينون من اليهود(٢٦) للتغلب على المصاعب الاقتصادية التي تواجههم ، وقد اصبح موقف الانصار الاقتصادي اشد صعوبة بعد نزول المهاجرين عليهم ومقاسمتهم مواردهم المحدودة في المعيشة(٢٧) وتقبل معظم الانصار هذه الحالة عن طيبة خاطر وآثروا المهاجرين على انفسهم رغم حاجتهم ،مما جعل القرآن الكريم يذكر لهم هذا الموقف بالثناء فقال : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون »(٢٨) .

ويظهر ان الموقف الاقتصادي للمهاجرين والانصار قد اخذ يزداد صعوبة مع استمرار سياسة الرسول ـ ص ـ في تشجيع الهجرة الى المدينة واعتبارها شرطا اساسيا من شروط الانتماء الى الامة(٢٩) ، لذا فقد ظهرت بين المهاجرين فئة فقيرة لا تجد لها مسكنا سوى « صفة المسجد » ولا تجد لها مصدرا للرزق سوى الصدقة ، ومن هنا وصف اهل الصفة بأنهم اهل الحاجة(٣٠) ، وقد روي عن أبي هريرة ـ وكان منهم ـ رواية تصف صعوبة الوضع الذي كانوا يعيشون فيه فقال : « لقد رايت سبعين من اهل الصفة يصلون في ثوب فمنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم من هو أسفل من ذلك فاذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته »(٣١)

وتشير آيات القرآن الكريم التي نزلت في الحث على الصدقة ومساعدة الفقراء والمساكين(٣٢) ، اضافة الى الاحاديث النبوية الشريفة(٣٣) ، الى مدى صعوبة الموقف ومدى اهتمام الرسول ـ ص ـ بهذه المشكلة ، لذا كان من الطبيعي ان يجد الرسول ـ ص ـ في استسلام بني النضير له دون قتال فرصة مناسبة لكي يتصرف باموالهم بطريقة مختلفة عن الطريقة المتبعة في توزيع غنائم الحرب على المقاتلين ، وذلك لان هذه الاموال قد تم احرازها من دون جهود قتالية كبيرة « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب »(٣٤) .

وقد ظن بعض الصحابة ان ما حصل عليه المسلمون من اموال بني النضير هو غنيمة ينبغي ان توزع وفقا للطريقة التي اوضحها القرآن الكريم بقوله :

« واعلموا ان ما غنتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(٤٥) لذا فقد روى الواقدي ان عمر بن الخطاب -رض- قال : يا رسول الله الا تخمس ما اصبت من بني النضير كما خمست ما أصبت من بدر » (٣٦) .

ويظهر ان المطالبة بتفسيم في بني النضير باعتباره غنيمة لم تصدر عن عمر بن الخطاب وحده ، بل يبدو انها كانت مسألة مطروحة بين عموم المسلمين، فقد اورد القرطبي في تفسيره لسورة الحشر التي بينت كيفية التصرف في الاموال التي تركها بنو النضير انه « لما ترك بنو النضير ديارهم واموالهم طلب المسلمون ان يكون لهم فيها حظ كالغنائم »(٣٧) ، غير ان الرسول كان يرى أن هذه الاموال تختلف عن اموال الغنائم لانها في افاءه الله عليه من غير قتال ، لذا لم يجد انه من حق المقاتلين وانما حق من حقوق الامة يتصرف فيه بالنيابة عنها لمساعدة الفقراء والمحتاجين وتغطية النفقات العامة للدولة ، ومن ثم ، فقد اتجه الى الانصار لاستشارتهم في هذه المسالة لانهم كانوا يتحملون العبء الاكبر في مساعدة المهاجرين ، فقد روى الواقدي أن الرسول - ص - دعا الاوس والخزرج الى الاجتماع ، فلما حضروا ، تكلم الرسول - ص - : « فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله ، ثم ذكر الانصار وما صنعوا بالمهاجرين ، وانزالهم اياهم في منازلهم ، واثرتهم على انفسهم ، ثم قال : « ان احببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما افاء الله علي من بني النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكن في مساكنكم واموالكم ، وان احببتم اعطيتهم وخرجوا من دوركم . فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا : يا رسول الله ، بل تقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الانصار : رضينا وسلمنا يارسول الله . قال رسول الله - ص - : اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار . فقسم رسول الله - ص - ما افاء الله عليه ، واعطى المهاجرين ولم يعط احدا من الانصار من ذلك الفيء شيئا الا رجلين كانا محتاجين »(٣٨) .

ان النص المتقدم يشير الى ان الرسول - ص - كان يحاول معالجة مشكلة الفقر وتحقيق التوازن الاقتصادي بين المهاجرين والانصار ، وذلك لان الرسول - ص - ربما شعر بثقل العبء الذي تحمله الانصار من اجل مساعدة اخوانهم المهاجرين فقد اورد البلاذري أن بعض الانصار كانوا « اشحاء على من نزل عليهم من المهاجرين »(٣٩) ربما بسبب ضعف مواردهم الاقتصادية التي لم تكن تكفي لسد حاجتهم الا بصعوبة(٤٠) .

وقد خير الرسول ـ ص ـ الانصار بين أحد حلين :

الاول : ان يوزع اموال بني النضير على المهاجرين والانصار على أن يبقى المهاجرون على وضعهم من حيث الاقامة في منازلهم والعمل معهم في مزاعهم
الثاني : ان يوزع فيء بني النضير على المهاجرين مقابل أن يخرجوا من دور الانصار . وقد اختار الانصار الحل الثاني مع ابداء استعدادهم للاستمرار في استضافة المهاجرين ، لذا فقد شكرهم الرسول ـ ص ـ على موقفهم ودعا لهم ، واتجه الى تنفيذ الاجراء .

كيف وزع الرسول ـ ص ـ فيء بني النضير ؟

لا تقدم لنا المصادر التاريخية معلومات دقيقة عن الاسلوب الذي اتبعه الرسول ـ ص ـ في كيفية توزيع فيء بني النضير على المهاجرين ، غير ان الجمع بين مختلف النصوص التاريخية والفقهية ودراستها في ضوء الآيات القرآنية التي حددت كيفية التصرف باموال الفيء توصلنا الى النتائج الآتية :

١ ـ أوضح القرآن الكريم بصورة قاطعة ان اموال الفيء هي من حق اصحاب الاخماس دون غيرهم : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى ، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(٤١) ، وقد بين القرآن الكريم ان علة هذا الحكم ترجع الى كراهة حصر الاموال بأيدي الاغنياء يتداولونها بينهم من دون الفقراء « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم »(٤٢) ، وقد حذر القرآن الكريم المسلمين من مغبة عدم اطاعة الرسول ـ ص ـ في تنفيذ هذا الامر بقوله : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب »(٤٣) .

٢ ـ روى ابن هشام ان الرسول ـ ص ـ قسم أموال بني النضير « على المهاجرين الاولين دون الانصار الا سهل بن حنيف وابا دجانة سماك بن خرشة، ذكرا فقرا فاعطاهما رسول الله ـ ص ـ من فيء بني النضير »(٤٤) ، وقد اشير الى ان المقصود بمصطلح « المهاجرين الاولين » هم الذين هاجروا من مكة الى يثرب وشاركوا في معركة بدر وصلوا الى القبلتين »(٤٥) ، فكم كان عدد هؤلاء الصحابة عند توزيع فيء بني النضير ؟

لا نعثر في المصادر التاريخية على جواب محدد على هذا التساؤل غير ان من الباحثين من اشار الى ان عدد المهاجرين في المدينة لم يكن يتجاوز مائة اسرة(٤٦) ، فهل وزع الرسول ـ ص ـ اموال بني النضير على جميع هؤلاء المهاجرين ي

لقد اوضح القرآن الكريم ان اموال الفيء هي ليست لعموم المهاجرين ،

وانما هي « للفقراء المهاجرين الذن اخرجوا من ديارهم وأموالهم ... » فعلة استحقاق المساهمين في اموال الفيء هي ليست مجرد الهجرة ، وانمـا هي : « الهجرة والفقر »(٤٧) ومن ثم ، فان لنا ان نستنتج ان الرسول ـ ص ـ لم يوزع أموال بني النضير على جميع المهاجرين ، او جميع المهاجرين الاولين ، بل انه وزع جزءا من اموال بني النضير على فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون في منازل الانصار ويعتمدون على معونتهم .

ويبدو ان الاموال التي قام الرسول ـ ص ـ بتوزيعها في هذه المرحلة لم تشكل الا نسبة قليلة من اموال بني النضير التي كانت كافية ـ كما اوضحنا آنفا ـ لاعالة حوالي ١٨٠٠ نسمة . فكيف تصرف الرسول ـ ص ـ بما تبقى من هذه الاموال ؟..

٣ ـ اشارت بعض الروايات الى أن الرسـول ـ ص ـ قد وزع أموال بني النضير ، فأعطى « أكثرها للمهاجرين »(٤٨) ، « ووسع في الناس منها »(٤٩) ، ولم يستبق سوى القليل « الذي يأخذ منه نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي أسوة المال »(٥٠) .

ان هذه الروايات تدل على ان الرسول ـ ص ـ لم يقصر توزيعه لفيء بني النضير على فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون في منازل الانصار ، بل انه شمل فئات أخرى من فقراء المهاجرين ، وربما كان « أهل الصفة » هم ابرز الفئـات التي شملها التوزيع ، لانهم كانوا من فقراء المهاجرين ، وكانت اقامتهم في صفة المسجد حالة مؤقتة لحين ايجاد محلات اقامة وعمل دائمـين لهم ، فكان من الطبيعي ان يعمل الرسول ـ ص ـ على حل مشاكلهم بواسطة الاموال التي افاءها الله عليهم من بني النضير .

٤ ـ وقد احتفظ الرسول ـ ص ـ بما تبقى من اراضي فيء بني النضير للاستفادة من غلتها لتغطية نفقاته الخاصة ، وسد بعض الاحتياجات العامة(٥١) فكان الرسول ـ ص ـ كما يذكر الواقدي « يزرع تحت النخيل زرعا كثيرا ، وكان رسول الله ـ ص ـ يدخل له فيها قوت أهله سنة من الشعير والتمر لازواجه وبني عبدالمطلب ، فما فضل جعله في الكراع والسلاح »(٥٢) .

وهنا ، يجدر بنا ان نلاحظ ، ان حاجة المسلمين الى الخيل والسلاح كبيرة ، لانهم كانوا في حالة حرب مع المشركين وبقية القوى المعادية ، مما كان يتطلب تخصيص مبالغ لا يستهان بها لشرائها وتغطية الاحتياجات التي تفرضها الظروف الاجتماعية والسياسية كمساعدة المحتاجين ، وتألف قلوب بعض زعماء القبائل وغير ذلك من الامور ، لذا فقد استمر المسلمون يعانون من الضائقة

المالية ، ولم تفلح اموال الغنائم والفيء سوى في التخفيف من الضائقة المالية نسبيا ، ومما يؤيد هذا الاستنتاج ما ذكره الديار بكري ان عبدالله بن عمر قال : « ما شبعنا حتى فتحت خيبر »(٥٣) كما ذكر عروة بن الزبير ان المسلمين ظلوا في حاجة فتح مكة عام ٨ للهجرة لان الغنائم التي كانوا يحصلون عليها حتى ذلك الوقت لم تكن كثيرة بحيث تسد احتياجاتهم ، مما حدا بالنبي ـ ص ـ الى استعارة اسلحة من صفوان بن امية للاستعانة بها في غزوة حنين »(٥٤) .

ان مما يتعارض مع نتائج هذا البحث ويشكل استثناءا من القاعدة العامة ، ما ذكرته بعض المصادر من ان الرسول ـ ص ـ كان قد اقطع بعضا من أراضي بني النضير الى بعض المهاجرين الذين لم يعرف عنهم الفقر ، بل ان بعضهم قد اشتهر بالغني مثل ابي بكر الصديق ـ اعطي بئر حجر ـ وعمر بن الخطاب ـ اعطي بئر جرم ـ وعبدالرحمن بن عوف ـ اعطي سوالة ـ والزبير بن العوام ـ اعطي البويلة(٥٥) .

فكيف نعلل هذا التصرف في ضوء سياسة الرسول ـ ص ـ التي رسم القرآن الكريم اهدافها ؟

ان تفسير هذا التصرف على افتراض صحة الخبر ينبع من حق الرسول ـ ص ـ في ادارة الاموال العامة بما يحقق مصلحة الامة العليا ، ويبدو ان الرسول ـ ص ـ اقطع بعضا من الاراضي التي احتفظ بها من اموال الفيء لبعض اغنياء الصحابة لقدرتهم على استصلاحها واستثمارها بشكل افضل من غيرهم بسبب توفر الامكانيات المادية لديهم ، وخاصة ان هؤلاء الصحافة كانوا قد كرسوا كل ما لديهم من مال وطاقة لخدمة الدعوة الاسلامية .

كما ان مما يتعارض مع نتائج هذا البحث ما ذكره الماوردى من ان الرسول ـ ص ـ قد قسم « ما سوى الارضين »(٥٦) و « حبس الارضين على نفسه ، فكانت من صدقاته يضعها حيث يشاء »(٥٧) .

يبدو ان هذا الراي الفقهي الذي ينفي قسمة الرسول ـ ص ـ لاراضي بني النضير يستند الى خبر اورده الواقدي مؤداه ان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان يرى ان اموال بني النضير كانت من جملة « صفايا الرسول ـ ص ـ التي اصطفاها لنفسه « فكانت حبسا لنوائبه »(٥٨) .

ان دراسة هذا الراي في ضوء النصوص الصريحة في القرآن الكريم والروايات التاريخية لوقائع التاريخ بقدر ما يستند الى محاولة العثور على دليل لا يستند الى قراءة دقيقة لوقائع التاريخ بقدر ما يستند الى محاولة العثور على دليل من سنة الرسول ـ ص ـ لتفسير معالجة الخلفة عمر بن الخطاب ـ رض ـ لمشكلة الاراضي المفتوحة في سواد العراق(٥٩) ، وذلك للاسباب الآتية :

١ ـ ان وصف الخليفة عمر بن الخطاب ـ رض ـ لاموال الفيء بأنها «صفي» هو نوع من التفسير لقوله تعالى : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول »(٦٠) ، ومن ثم فهو لا يتعارض مع الاخبار التي تذكر أن الرسول ـ ص ـ كان قد قسم اغلب هذه الاموال على فقراء المهاجرين واستبقى منها ما يكفي لسد حاجاته والحاجات العامة ، لان القرآن الكريم ـ كما يذكر القرطبي في تفسيره ـ جعل فيء بني النضير للرسول ـ ص ـ لانه « كان لا يتأثل مالا ، وانما كان يأخذ بقدر حاجة عياله ويصرف الباقي في مصالح المسلمين »(٦١) ، وكان من مصالحهم حل مشكلة فقراء المهاجرين بتوزيع الاراضي عليهم .

٢ ـ ان ما ذكره الماوردي من ان الرسول ـ ص ـ قد قسم ما سوى الارضين استنتاج لا يتفق مع الوقائع التاريخية حيث تجمع الروايات التاريخية على ان الرسول ـ ص ـ قد سمح ليهود بني النضير أن يأخذوا معهم كافة الاموال المنقولة ما عدا السلاح « الحلقة » وبالتالي لم يبق من اموالهم ما يصلح للتوزيع سوى الاموال غير المنقولة وتتمثل بأراضيهم ودورهم ، وقد تواترت الاخبار عن توزيع الرسول ـ ص ـ لها كما قدمنا .

نتائج البحث :

ان استعراض كافة الروايات والآراء التي ذكرت حول اجلاء بني النضير توصلنا الى النتائج الآتية :

١ ـ ان استسلام بني النضير للرسول ـ ص ـ من دون قتال ، كان مناسبة ملائمة لتوزيع اموالهم بطريقة مختلفة عن طريقة توزيع الغنائم بين المقاتلين على اعتبار ان هذه الاموال بمثابة فيء افاءه الله على رسوله دون قتال .

٢ ـ اوضح القرآن الكريم ان الاموال التي اخذها الرسول ـ ص ـ من بني النضير من دون قتال هي لله تعالى ، وان الله قد ردها الى رسوله ليقوم بتوزيعها على فقراء المهاجرين كي لا تترك الاموال بأيدي الاغنياء فيتداولونها بينهم من دون الفقراء .

٣ ـ وقد قام الرسول ـ ص ـ بعد أخذ موافقة الانصار ـ بتوزيع معظم اموال بني النضير على فقراء المهاجرين ، واستبقى لنفسه جزءا قليلا منها ، تكفي غلته لسد حاجات بيته وذوي قرباه لمدة سنة ، وما زاد عن ذلك فقد خصصه للنفقات العامة .

٤ - ان تقسيم اموال بني النضير بالطريقة المتقدمة قد ساعد على تحقيق نوع من التوازن الاقتصادي بين المهاجرين والانصار ، ولكنه لم يقض على الفقر بشكل كامل ، وذلك لان واجب الهجرة الى المدينة استمر قائما بالنسبة للمؤمنين حتى تم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة .

المصادر والمراجع :

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، في هامش كتاب الروض الانف للسهيلي ، مصر ١٩١٤ ، ج ٢ ص ١٦ - ١٧ .

(٢) الواقدي ، المغازي « تحقيق مارسدن جونس » بيروت ١٩٦٦ ، ج ١ ص ٣١٧ .

Kister, M. J. Notes on the Paprus tesct about Mahommad's Compaign against the Banu al - Nadir, Archiv Orientalni, London, 1964, Vol. 32, P. 235.

(٤) ألواقدي ، المغازي ج ١ ص ٣٦٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٧ .

(٧) ابن هشام ، السيرة النبوية ج ٢ ص ١٧٨ .

(٨) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٧٠ .

(٩) ابن هشام ، السيرة ج ٢ ص ١٧٨ ، الواقدي ، المغازي ج ١ ص ٣٦٣ .

(١٠) ابن هشام ، السيرة ج ٢ ص ١٧٨ .

(١١) الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ٣٧٣ .

(١٢) ألطبري ، تاريخ الطبري ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٦٨ ، ج ٢ ص ٥٥٣ .

(١٣) الواقدي ، المغازي ج ١ ص ٣٧٤ ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، بيروت ٦٠ - ١٩٦٨ ، ج ٢ ص ٤٨ .

(١٤) الواقدي ، المغازي ، ج ١ ، ص ٣٧٧ .

(١٥) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٦٨ .

(١٦) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٧٤ .

(١٧) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٧٤ .

(١٨) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٧٦ ، راجع ايضا ابن هشام ، السيرة ج٢ ، ص ١٩٢ .

(١٩) ألمصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٧٥ .

(٢٠) الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، بيرون ١٩٥٧ ، ج٥ ص ٢٩٠ ، الشريف ، احمد

ابراهيم ، مكة والمدينة في الجـــاهلية وعهد الرسول ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٩٥ .

(٢١) الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٨ .

(٢٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٢ ، ص ١٧٨ .

(٢٣) الواقدي ، المغازي ، ج١ ، ص ٣٧٨ ، الشريف ، مكة والمدينة ص ٣٥٨ .

(٢٤) المصدر نفسه ج١ ، ص ٣٦٩ .

(٢٥) الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٦٠ .

(٢٦) المرجع نفسه ، ص ٣٦٠ .

(٢٧) المرجع نفســه ، ص ٣٦٠ .

(٢٨) سورة الحشـــر ٩ .

(٢٩) سورة الانفـــال ٧٢ ـ ٧٥ .

(٣٠) ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ج٢ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٦٤ .

(٣١) ابن حنبل ، كتاب الزهد ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٧ .
ابن النجار ، الدرة الثمينة ، مكة ١٩٦٦ ، ٧١ ـ ٧٢ .

(٣٢) سورة البقرة : ٨٣ ، ١٧٧ ، ٢٦١ ـ ٢٦٣ .

(٣٣) الشيباني ، ابن الديبع ، تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول ، مصر ١٩٣٤ « كتاب الصدقة والنفقة » ص ٢ ـ ٩ .

(٣٤) سورة الحشـــر : ٦ .

(٣٥) القرطبي ، محمد بن احمد الانصاري ، الجامع لاحكام القرآن ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ١٨ ، ص ١٠ ـ ١١ .

(٣٦) الواقدي ، المغازي ج١ ، ص ٣٧٧ .

(٣٨) الواقدي ، المغازي ج١ ٣٧٩ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٣٣ ـ ٣٤ ، وقد اورد البلاذري أن الرسول ـ ص ـ أشار في مطلع حديثه الى الانصار بانه : « ليست لاخوانكم المهاجرين اموال » .

(٣٩) البلاذري ، انساب الاشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ج١ ، ص ٢٧٠ .

(٤٠) الشريف ، مكة والمدينة ص ٣٦٠ .

(٤١) سورة الحشـــر ، ٧ .

(٤٢) سورة الحشـــر ، ٧ .

(٤٣) سورة الحشـــر ، ٧ .

(٤٤) ابن هشام السيرة ، ج٢ ، ص ١٧٨ ، راجع ايضا : الطبري ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٥٥٥ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٥ ، ج٢ ، ص ١٧٤ ، ابن كثير ، السيرة النبوية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ج٢ ، ص ١٤٨ .

(٤٥) ابن شبة ، عمر بن شبة النميري ، تاريخ المدينة المنورة ، جدة ١٣٩٣ هـ ، ج٢ ، ص ٩١ .
(٤٦) يراجع على سبيل المثال :
الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٦٠ — ٣٦١ .
(٤٧) القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج١٨ ، ص ١٦ — ١٩ (تفسير سورة الحشر : ٨).
(٤٨) ابن رجب ، الاستخراج لاحكام الخراج بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٨ — ١٩ .
(٤٩) ابن سعد ، الطبقـــات ، ج٢ ، ص ٤١ — ٤٢ .
(٥٠) المنذري ، مختصر صحيح مسلم ، تحقيـــق : محمد ناصر الالباني ، الكويت ، ج٢ ، ص ٦٥ .
(٥١) الدوري ، د. عبد العزيز ، في التنظيم الاقتصادي في صدر الاسلام ، مجلة العلوم الاجتماعيـــة ، جامعة الكويت ، ١٩٨١ ، ص ٧٦ .
(٥٢) الواقدي ، المغازي ، ج١ ، ص ٣٧٨ .
(٥٣) الديار بكري ، تاريخ الخميس ، بيروت ، ج٢ ، ص ٥٦ .
(٥٤) ابن الزبير ، عروة ، مغازي رسول الله ، جمع وتحقيق : د. محمد مصطفى الاعظمي ، الرياض ١٩٨١ ، ص ٢١٣ .
(٥٦) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٩ .
(٥٧) المصدر نفسه ص ١٦٩ .
(٥٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٣ .
(٥٩) ابن سلام ، ابو عبيد القاسم ، الاموال ، القاهرة ١٣٥٣ ، ٦١ .
(٦٠) سورة الحشر : ٧ .
(٦١) القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج١٨ ، ص ١٣ .
(٥٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج٢ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٧٩ — ١٧٨٠ .
(٥٦) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٩ .
(٥٧) المصدر نفسه ص ١٦٩ .
(٥٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٣ .
(٥٩) ابن سلام ، ابو عبيد القاسم ، الاموال ، القاهرة ١٣٥٣ ، ص ٦١ .
(٦٠) سورة الحشــــــر : ٧ .
(٦١) القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج١٨ ، ص ١٣ .

نشــأة الرباط العســكري

نموذجــان من عهــد الاغالبة

الدكتــور

طاهر مظفر العميد

استاذ في كلية الاداب ـ جامعة بغداد

الرباط من الناحية اللغوية معناه الاقامة على جهاد العدو بالحرب ، وارتباط الخيل واعدادها . والظاهر من اقوال اللغويين العــرب وما وصفوه في معاجمهم بان كلمة « رباط » يطلق على مرابط الخيل (١) . قال تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (٢) .

والرباط مصدر رابطت ، بمعنى لازمت ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » (٣) .

أما معنى « الرباط » من الناحية الاصطلاحية ، هي المدن او البناء المحصن الذي يرابط فيه العربي المسلم للدفاع عن الارض والوطــن والعقيــدة في الارض العربية الاسلامية ، احتسابا لوجه الله تعالى دون طمع في مال او مغنم او جاه ، لذلك فالمرابط يكسب رزقه ورزق عياله بما يقوم به من اعمـــال زراعية او مهنية اخرى .

وقد وردت احاديث نبوية كريمة تحث على المرابطة ، منها قوله عليــه الصلاة والســلام : « رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطــا ــ مات مجاهدا واجري عليه رزقا من الجنة » (٤) .

وللرباط مدلولان : مدلول ديني ومدلول عسكري ، ويهمنا في هذا البحث المدلول العســكري له .

نشأة الرباط العسكري :

لابد أن يكون نشأة الرباط العسكري ، قد اقترن بحركة التحرير والفتوحات ابتداءً منذ صدر الاسلام ، وان كانت النصوص التاريخية لا تشير الى ذلك ، الا ان الباحث يدرك ، بأن الجيوش العربية الاسلامية ، بعد الانجاز الكبير الذي حققته في معارك العراق والشام ومصر ، ضد الفرس والبيزنطيين ، كانت بحاجة الى حماية نفسها من خطر الاعداء ، باتخاذ معسكرات متقدمة يرابط فيها الجند لمراقبة تحركات الاعداء ، وعلى الاغلب كانت هذه المعسكرات تأخذ شكل تحصينات بسيطة من مجموعة من الخيام ، او بعض المباني والمسالح التي حررها العرب او فتحوها . وتقع الاربطة في الاغلب على السواحل البحرية ، وهي بذلك خلاف الثغور التي تقع في التخوم البرية .

ويبدو أن اول اشارة وردت في المؤلفات العربية عن اتخاذ العرب للربط هي من عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) . منها بناء هرثمة بن اعين قائد جيش الخليفة هارون رباط المنستير وربط اخرى في ارمينية (٥) .

ويشير المؤرخون والجغرافيون العرب الى عدد كبير من الربط العسكرية التي أقيمت في انحاء مختلفة من الاراضي العربية والاسلامية لتؤدي وظيفة الدفاع عن حدود الدولة العربية الاسلامية وسواحلها . منها ما كان على امتداد شواطىء البحر الابيض المتوسط ، وفي بلاد ما وراء النهر .

فقد كانت الربط العسكرية تنتشر على جميع الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر الابيض المتوسط ، فمن الزاوية الشمالية الشرقية من هذا البحر ، حيث الاسكندرونة حتى مدينة الصويرة (التي تسمى اليوم) موغادور ، على شاطىء بحر الظلمات (الاطلسي اليوم) أنشأ العرب الف مدينة مما كان يسمى « الرباط » ، وذلك بمعدل رباط واحد كل ستة كيلو مترات (٦) . وماتزال بعض هذه المدن تحمل اسم « الرباط » حتى اليوم ، ومنها « الرباط » عاصمة المملكة المغربية (٧) .

ومن هذه الربط ما ذكره المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم وسماها بالاربعة الشامية (٨) ، ومنها ما ذكره ابن رسته في كتابه الاعلاق النفسية عن الربط المصرية القائمة على سواحل البحر الابيض المتوسط والتي سماها بـ « المحارس » (٩) ومنها ما اشار به ابن زولاق (١٠) .

والملاحظ ان الربط المصرية أقيمت على سواحل البحر المتوسط ، ولا شك فان مهمتها كانت لفرض مراقبة السواحل المصرية الشمالية التي تتعرض لغارات البيزنطيين البحرية . كما نلاحظ ان عددا من الربط المصرية انشأ في جنوب البلاد لمواجهة البربر والسودان .

أما الربط في بلاد ما وراء النهر (اسيا الوسطى بالاتحاد السوفيتي اليوم) . فقد كان المسلمون يتنافسون في بنائها ويخصصون لها النفقات السخية حتى تفي بحاجة المرابطين . وفي هذا يقول الاصطخري في كتابه « مسالك الممالك »: « ... وترى الغالب على أهل الاموال بما وراء النهر ، صرف نفقاتهم على الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير ، الا القليل منهم ، وليس من بلد ولا نهل ولا مغازة مطروقة ولا قرية آهلة الا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه ، وبلغني ان بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط في كثير منها اذا نزل النازل اليهم علف دابته ، وطعام نفسه ان احتاج الى ذلك .. » (١١) .

واشار الاصطخري ان الاربطة فيما وراء النهر اثناء حديثه عن مدينة بيكند فقال : « ان بها من الرباطات مالا اعلم من بلدان ما وراء النهر اكثر عددا منها ، وبلغني ان عددها نحو من الف رباط .. » (١٢) .

وعن الاربطة فيما وراء النهر تحدث المقدسي انه كان بمدينة «اسفينجاب» وهي ثغر ودار جهاد – الف وسبعمائة رباط يجد فيها اصحاب الحاجة طعاما لهم وعلفا لدوابهم » (١٣) .

بناء الاغالبة للاربطة :

اهتم الاغالبة بتحصين مدن افريقية ، فيذكر ابن خلدون ان ابو ابراهيم احمد بنى بافريقية « نحوا من عشرة الاف حصن بالحجارة والكلس وابواب الحديد » (١٤) . ويشير الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بان هذه الرواية تتضمن مبالغة واضحة ، وعلى اي حال ، يكشف لنا اهتماما هذا الامير بتحصين البلاد ، وقد يكون المقصود ببناء هذه الحصون ترميم سلسلة التحصينات التي كان قد اقامها البيزنطيون على عجلة ، على تخوم الصحراء ابتداء من طرابلس شرقا حتى نوميديا غربا (١٥) . وكانت هذه التحصينات تشتمل على قلاع وابراج تكاد تكون متصلة ، ومن هذه القلاع ، قلعة جلولاء الواقعة على بعد نحو (٣٠ كم) الى الشمال الغربي من القيروان ، وقلعة « القصرين » التي لعبت دورا هاما على الحدود الغربية لدولة الاغالبة (١٦) ، وقلعة « بلزمة » التي افتتحها ابو عبد الله وخربها . وقد ذكر البكري انها قصر قديم البناء ، ومنها قلعة « باغاية » التي ضلت قائمة حتى هدمها ابو عبد الله . ومن قلاع افريقية في عصر الاغالبة « قلعة طبنة التي بناها احد الولاة العرب (١٧) . وقصبة « قمرة » التي شاهد اليعقوبي حصونها الكثير (١٨) .

وكانت معظم بلاد قسطيلية محصنة بالقلاع الحصينة والمنيعة ، واعظم امراء الاغالبة الذين اهتموا بالابنية العسكرية الامير ابراهيم بن احمد الذي بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر . حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للنذير بالعدو ، فيتصل ايقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة . ولعل المقصود بالمحارس الاربطة .

وقد اشار اليعقوبي انه من « اسفاقس » الى « بنزرت » ثمانية ايام ، وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون (١٩) .

والى ابي ابراهيم احمد ن محمد بن الاغلب ينسب بناء اسوار سوسة(١٠)، وان كان ابن الاثير وابن خلدون ينسبانها خطئا الى ابراهيم بن احمد (٢١) . لان سور مدينة سوسة يحمل تاريخ الانشاء سنة ٢٤٥ هجرية ، وهو يتفق مع عصر ابي ابراهيم احمد بن محمد (٢٢) .

واهم الربط العسكرية من عصر الاغالبة والتي لا تزال قائمة حتى اليوم هي :

١ — رباط سوسة .

٢ — رباط المنستير .

١ — رباط سوسة :

يعد رباط سوسة احد الاربطة والمحارس التي اقامها الاغالبة على الساحل ، ويقع هذا الرباط على خليج قابس ، ويعرف محليا باسم « قصر الرباط » (شكل — ١) .

وكان في مقدمة العوامل التي دفعت الاغالبة الى اختيار هذا المكان الذي انشأ عليه الرباط ، هو حصانة الموقع واهميته الستراتيجية ، حيث تقع سوسة على سفح هضبة صخرية مما يجعلها تتمتع بمكان حصين يمتد من اقصى جنوب الخليج الذي يبتدأ من منطقة الحمامات شمالا وينتهي جنوبا باللسان البارز داخل البحر (٢٣) .

اما تاريخ بناء هذا الرباط ، فعلى الرغم من وجود كتابة تاريخية مسجلة على لوح رخامي في الرباط الى ان باني الرباط هو زيادة الله في عام ٢٠٦ هـ (٨٢١م) ونصها : « بركة من الله ، مما امر به الامير زيادة الله ، اطال الله بقاءه على يد مسرور سنة ست ومائتين ، اللهم انزلنا منزلا مباركا وانت خير المنزلين » (٢٤) . الا انه ليس هناك اتفاق بين الباحثين فيما يخص تحديد تاريخ بناء الرباط (٢٥) .

تخطيط الرباط :

رباط سوسة بناء حصين مربع الشكل ، يبلغ طول ضلعه (٣٩م) (شكل — ٢) . يدعم جدرانه ثمانية ابراج ، اربعة منها في منتصف كل ضلع من اضلاعه ، والاربعة الاخرى في زواياه الاربعة . وقطاع ستة من هذه الابراج ثلاثة ارباع الدائرة ، والبرجان الاخران فانهما قائما الزاوية ، وهما برج المدخل، والبرج الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية (٢٦) .

وقد وصف البكري الرباط فقال عنه : « وداخل مدينة سوسة محرس عظيم كالمدينة مسور بسور متقن بمحرس الرباط » (٢٧) . ووصفه التيجاني بقوله : « بانه كان قصر قديم سام للسماء ينسب بناءه الى ابن الاغلب »(٢٨). وهو يتألف من طابقين . ونبدأ بالطابق الارضي (الاول) الذي يقع منه مدخل الرباط .

مدخل الرباط :

يقع مدخل الرباط في الضلع الجنوبي ، وهو المدخل الوحيد له ، ويأخذ هذا المدخل شكل برج بارز عن وجه السور بنحو (١٧ر٣م) . وقد اضيفت له زيادة بنائية يبلغ امتدادها (٧٠ر٣م) في عام ١٢٦٤هـ / ١٩٤٨م . ويقدم لنا « كريزويل » تفسيرا لهذه الزيادة بانها ترجع الى ارتفاع مستوى الشارع عن ارضية الرباط نحو (٨٠ر٢م) . وكان لمدخل الرباط في الاصل (٧) درجات ، فاضيفت اليه (٧) درجات اخرى فاصبح السلم الذي يؤدي اليه يتألف من (١٤) درجة (٢٩) .

ويحمى مدخل الرباط بواسطة برجي الزاويتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية ، كما أن يدخل الرباط مزود بسقاطة ، والتي تعد عنصرا دفاعيا ، وتقع تحت القبة التي تتوج المدخل ، والسقاطة هنا على هيئة ثلاثة شقوق طولية تستند على اربعة عقود .

ونظرا لاهمية السقاطة في المنشآت المعمارية العسكرية آثرت ان اقف عندها متتبعا اصولها المعمارية واهميتها الدفاعية ، والسقاطة عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن ان تصوب السهام فيه الى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون احداث ثغرة في السور او الجدار ، كما يمكن ايضا ان يصب على رؤوسهم الزيت او الماء المغلي او غيرها من المواد المؤذية . وتدعى السقاطة لدى بعض الباحثين بالمشربية .

وقد حلت هذه المشربية في العمارة محل الابنية الخشبية (٣٠) ، ويبدو انها اصبحت واسعة الانتشار في الغرب منذ نهاية القرن السادس عشر كما اشار « بريس وافزن » (٣١) . وقد قلدها الانكليز في القضبان والسياجات المعدنية .

وقد درس « كريزويل » الاصل المعماري لعشرة أمثلة من السقاطات الموجودة في سوريا (٣٢) ، واشار الى أن من بين هذه النماذج العشرة ستة او سبعة لم تكن في الحقيقة الا مرافق حجرية من نوع كان منتشرا حتى العصور الحديثة ، ولايزال هناك مثال واحد من هذا النوع على الرصيف الخشبي الداخل في البحر بمدينة « جوري » من اعمال « جرسي » ، أما الامثلة

الثلاثة الباقية التي يحتمل ان تكون قد استخدمت لالقاء السهام وغيرها ، فاقدمها عهدا يرجع تاريخه الى منتصف القرن السادس الميلادي أي قبل قيام الاسلام (٣٣) .
و

وبعد هذا التاريخ الذي ذكر فيه « كريزويل » هذه الامثلة ظهـــر نموذج عربي اسلامي لظاهرة السقاطة في قصر الحير على مقربة من الرصافة في سورية يرجع تاريخه الى عام ١١٠هـ / ٧٢٩م ، وينســـب الى الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك (٣٤) (شكل ــ ٣) . وهناك احتمال كبير بان ذلك العنصر كان موجودا ايضا في قصر الاخيضر بالعراق (٣٥) ، كما ان هناك نموذجا من هذه الظاهرة المعمارية نلاحظها فوق باب النصر في بوابات القاهرة الذي يرجع الى عام ١٠٨٧ م . ومن المؤكد ان هاتين السقاطتين المعماريتين كانتا ضربا من الاستكامات العسكرية المعـــدة للدفاع عن سور المدينة ، وهما اقدم بنحو مائة عام من اقدم نموذج عرف في اوربا ، ومن امثلة هذه الظاهرة المعمـــارية التي ظهرت في اوربا في شاتو جايار (ترجع الى عام ١١٨٤م) ، وشايتون (ترجع الى عام ١١٨٦م) ، ونورويتس (ترجع الى سنة ١١٨٧ م) ، ووينشستر (ترجع الى سنة ١١٩٣ م) (٣٦) .

وهكذا يظهر ان الصليبين استعاروا فكرة هذه الظاهرة المعمارية العسكرية من العرب ، وان العكس لا يمكن ان يكون صحيحـــا (٣٧) .

ونعود الى مدخل الرباط فنشاهد عتب تعلو هذا المدخل فوقها عقـــد نصف مستدير ، ولا يقع المدخل في منتصف الضلع الجنوبي بصورة مضبوطة ، فهو اقرب الى الزاوية الجنوبية الشرقيـــة منه الى الجهة الغربية ، وذلك بسبب عدم وجود عدد متساوٍ من الغرف على جانبي المدخل . وهذا المدخل مستقيم يفتح على دهليز سقفه مقسم الى ثلاثة مناطق ، وقد توج المدخل بقبة اقيمت فوق غرفة مربعة الشكل لها ثلاثة مداخل تقع في الجهات الشمالية والشرقية والغربية ، لتسهيل الحركة في الطابق العلوي أثناء الدفاع ، وخاصة في حالة القاء الاحجار والسوائل المنصهرة على المهاجمين (٣٨) .

وبعد اجتياز مدخل الرباط ، يفضي الداخل الى الفنـــاء ، وابعاده تقريبا (١٩ر٢١) م من الشمال الى الجنوب ، ونحو (٢٠ر٤١) م من الشرق الى الغـــرب (٣٩) ، وتطل على الفناء من جهاته الشمالية والغربية والشرقيـــة اروقة معقودة ، كما أن واجهاتها المطلة على الفناء ذات عقود تنهض فـــوق دعامات (٤٠) ، وخلف هذه الاروقة التي تطل على اجناده الثلاثة (٢٦) قاعة مقباة ليست لها منافذ ، ولكل غرفة (قاعة) باب يوصلها بجزء من الرواق(٤١) .

الطـــابق العلوي :

يرقى للطابق العلوي (الثاني) في هذا الرباط ، بواسطة سلمين يقعان على امتداد الضلع الجنوبي ، وهذا الطابق يشبه في تخطيطه للطابق الارضي (الاول) ، ولا يغايره الا في الاورقة المطلة على الفناء ، اذ استيعض عنها في الطابق العلوي بممشى ارتفاعه (٣٠ر٥م) تفضي اليه الغرف (٤٢) (شكل ـ ٤).

مسجد الرباط :

يشغل القسم الجنوبي من الطابق العلوي مسجد صغير طوله من الداخل (٣٩) مترا ، وعرضه (٧) امتار ، يتألف هذا المسجد من (١١) **بلاطة عمودية** على جدار القبلة تمتد على اسكوبين . ونلاحظ ان البلاطتين المتطرفتين اكثر اتساعا من بقية البلاطات . ويتوسط المحراب جدار السور الجنوبي للرباط ، ويرتفع امام المحـــراب قبة ، تبدو من الخارج بارزة (٤٣) . وللمسجد خمسة أبواب مفتوحة في الجدار المواجه لجدار القبلة : اثنان عن يمين الحصن المواجه للمحـــــراب ، وثلاثة عن يساره ، ولم يفتح في هذا الجدار باب يواجـــه المحـــراب (٤٤) .

المنـــــار :

يقع منار هذا الرباط في الركن الجنوبي الشرقي فوق قاعدة تعلو السطح بمقدار (٧٥ سم) . ويتألف من قسمين ، سفلي ويؤلف قاعدة المنـــار وهو على هيئة مربع ، والقسم العلوي يمثل البرج الاسطواني ، وينتهي المنــــار ببرج صغير مربع الشكل ذو نهاية مخروطية (٤٥) .

رباط المنســـتير :

شيد هذا الرباط القائد هرثمة بن أعين في عام ١٨٠هـ (٤٦) . وكان قد ولاه الخليفة العبـــاسي هارون الرشيد على افريقية ، ولاشك أن بناء هـــذا الرباط كان جزءً من خطة الدفاع عن حدود الدولة العباسية ، بانشاء العديد من الربط والثغور التي بدأها الخليفة ابو جعفر المنصـــور ، واستمر حتى عهد الخليفة هارون الرشيد الذي أمر هرثمة بن أعين بتحصين سواحل افريقية وشحنها بالمقاتلة لمواجهة العــدوان البيزنطي الذي نشط ابان العصر العبـــاسي (٤٧) .

اقيم الرباط بين المهدية وسوسة الى الجنـــوب الغربي من سوسة ، على بعد (١٥٩) كم من ساحل البحـر الابيض المتوسط ، ويذكر مارسيه انه اقيم على انقاض مدينة رومانية قديمة تدعى « روزبينا » (٤٨) . وقد اثبت

ليزن أن اسوار الرباط الخارجية قائمة على ارض بكر (٤٩) . ويختلف الباحثون في اصل تسمية الرباط ب « المنستير » (٥٠) .

تشير بعض النصوص التاريخية والجغرافيــة بان رباط المنستير يتألف من ثلاثة قصور هي : قصر « هرثمة بن أعين » وقصر « دويد » وقصـــر « السيدة » ، بينما تشير نصوص اخرى بانه يتألف من خمسة قصور ، يضيفون قصر « ابن الجعد » وقصر « شفانص » (٥١) .

وقد ورد وصف الرباط في كتابي البكري والهروي ، فقال البكري عنه : « بالمنستير البيوت والحجر والطواحين ... ومواجل الماء ، وهو حصن عالي البناء ، متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل ، وفيه جمـــاعة من المرابطين قد حبســـوا انفسهم فيه منفردين دون الاهل . وهو حصن عال داخله ربض واسع ، وفي وسط الربض حصن ثـــان كبير المساكن والمســـاجد ، طبقات بعضها فوق بعض ، وفي القبلة صحن فسيح فيه قباب عاليـــة متقنة ينزل حولها النســـاء المرابطات ، وبها جامع متقن البناء آزاج معقود كلها واقباء لا خشــب بها ، وفيها حمامات كثيرة . » (٥٢) .

أما الهروي فيقول عنه : « بأنه كان يشمل ثلاثة قصور شامخـــة ذات طبقات تشكل مئات من البيوت على غاية الاحكام ، وفي وسطها مخازن الطعام ، ومواجل الماء ، ومستودعات الات الحرب ، ومرابط الخيل ، وحولها القـلاع الحصينة المنيعة يحيط بها اسوار شامخة » (٥٣) .

تخطيط الرباط :

ابعاد الرباط (٣٢٫٨٠ × ٣٢٫٤٠ م) فهو على شـكل مربع تقريبا ، سمك جدرانه الخارجية (١٫٢٥م) ، له اربعة ابراج ركنية في زواياه الاربعة ، ثلاثة منها قطاعها الافقي ثلاثة ارباع الدائرة ، أما البرج الرابع فقاعدته مربع تقريبا يرتكز عليه المنـــار . ولم يتبق من هذه الابراج في الوقت الحاضر سوى البرج الجنوبي الذي يبلغ قطره عند القاعدة (٤٫٨٠م) ، وعند الطرف العلوي (٤٫٥٥م) (٥٤) . وتعتبر ابراج هذا الرباط من اقدم النماذج للابراج العربية الاسلامية من نوعها في افريقيـــة .

يظهر من الوصف الذي قدمه كل من البكري والهروي ، بأن الرباط كان حصنا شامخا منيعا ، ازداد اقبال الناس عليــه بمرور الزمن وبنوا بيوتهم حوله ، كما أدى الى توسيعه ، فأنشأت فيه عدة زيادات واضافات وتجديدات،

واصبح بمرور الزمن مدينة مسورة في اوائل القرن السابع . ومن الجدير بالاشارة هنا اننا لا نعرف على وجه الدقة هذه الزيادات ومداها (٥٥) . ومع ذلك فان الدراسات التي قام بها كل من « مارسيه » و « ليزن » مكنتهما من معرفة عناصره الاساسية ووضع مخطط له (٥٦) (شكل — ٥) .

ويشير « ليزن » بانه كشف فوق الدهليز ما يشبه السقاطة ، اذ عثر في ارضية المحراب في الجزء الذي يقع فوقالمدخل مباشرة ثقبنافذ اليه، سد في عصر متأخر . ويرى « ليزن » انه ربما كان يستخدم ايضا كوسيلة للاتصال بين الذين يقفون وراء الباب وبين اولئك الذين في المسجد يراقبون من في الخارج من خلال المزاغل الواقعة في الجدار القبلي (٥٧) . وكان يقع في الجهة اليسرى من القسم الجنوبي للرباط سلم يؤدي الى الطابق العلوي (الثاني) .

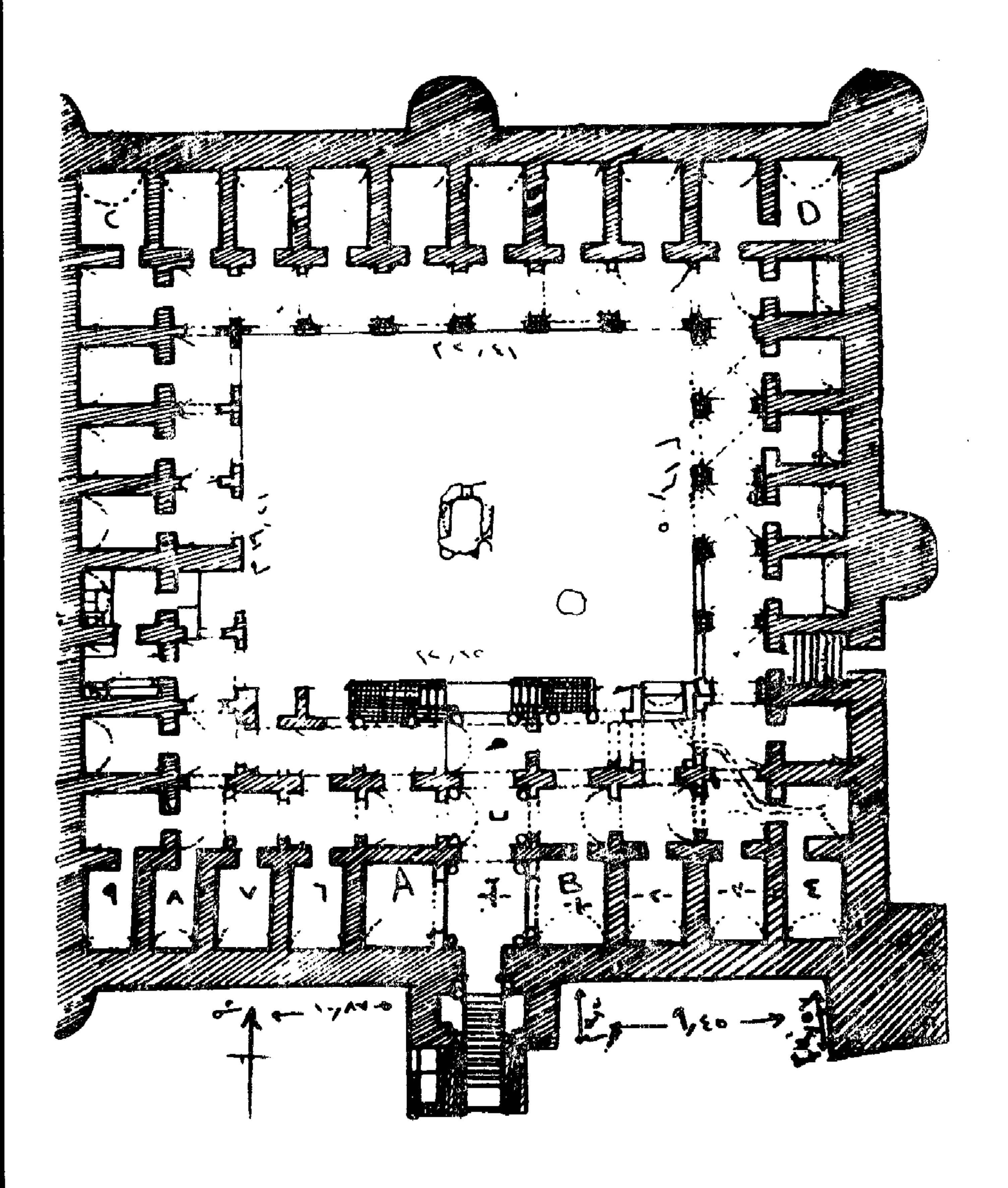
الطابق العلوي :

يتألف هذا الطابق من مسجد يقع في الجانب الجنوبي الشرقي . ومن ثلاث صفوف من الخلوات تقع في الجوانب الثلاثة الاخرى الباقية يتقدم كل منها ممشى (٥٨) . (شكل — ٦) .

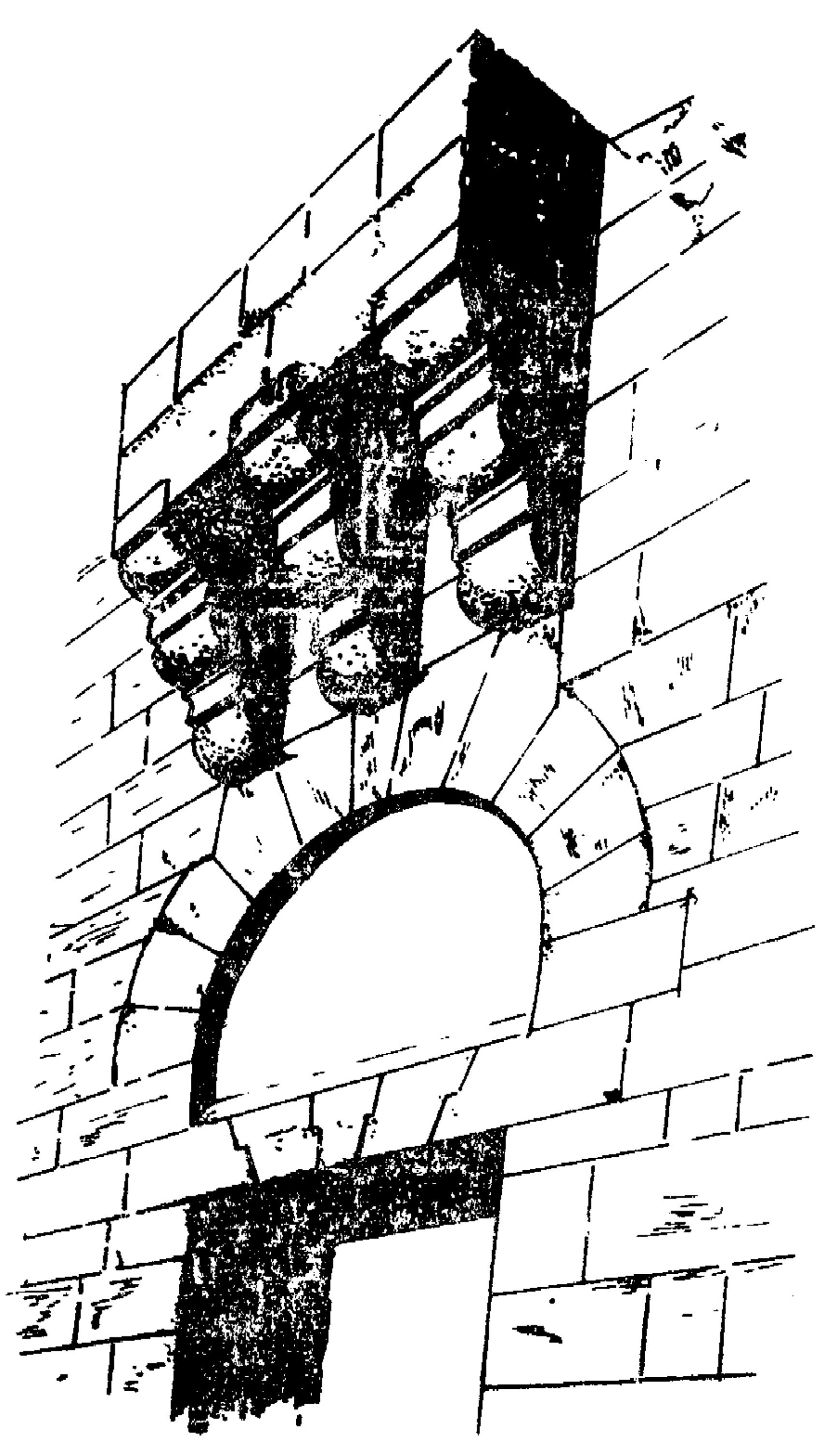
منار الرباط :

يقوم المنار فوق البرج المربع في الزاوية الجنوبية الشرقية من رباط المنستير ، وذلك ابتداء من مستوى سطح الرباط ، وهو منار اسطواني الشكل، يتناقص قطره كلما ارتفع الى الاعلى ، اذ يكون قطره عند القاعدة (٣٥ر١٦م)، وينتهي عند الشرفات الى (٥٨ر٤م) ، وارتفاعه (٣٥ر١٦م) عدا القاعدة المربعة .

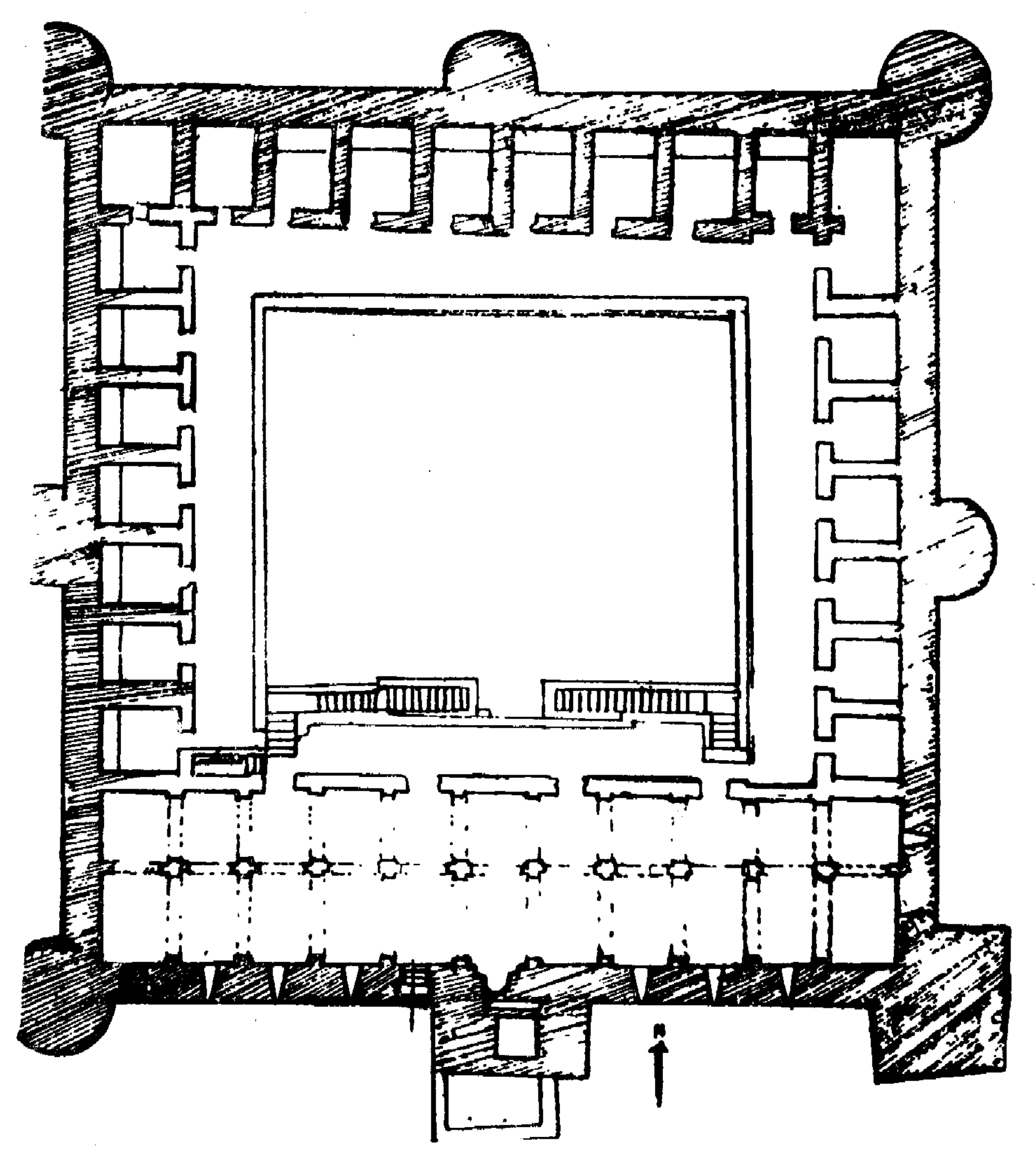
وقد قسم سطحه الخارجي الى ثلاثة أقسام بواسطة أفاريز بارزة بروزا بسيطا ، ويصعد الى المنار من موخل يفتح على المسجد ، ويؤدي الى سلم دائري يشتمل على (٨٩) مرقاة ، وتتسرب اليه الاضاءة من كوى صغيرة موزعة على ارتفاعات متباعدة . وهذا الطراز الدائري الذي ابتدأ من قصر هرثمة قد اختصت به الاربطة (٥٩) . في حين استمر استخدام المنارة المربعة الشكل في المغرب وافريقية والاندلس ، واصبحت من خصائص العمارة العربية الاسلامية في هذا الجزء فن العالم العربي .



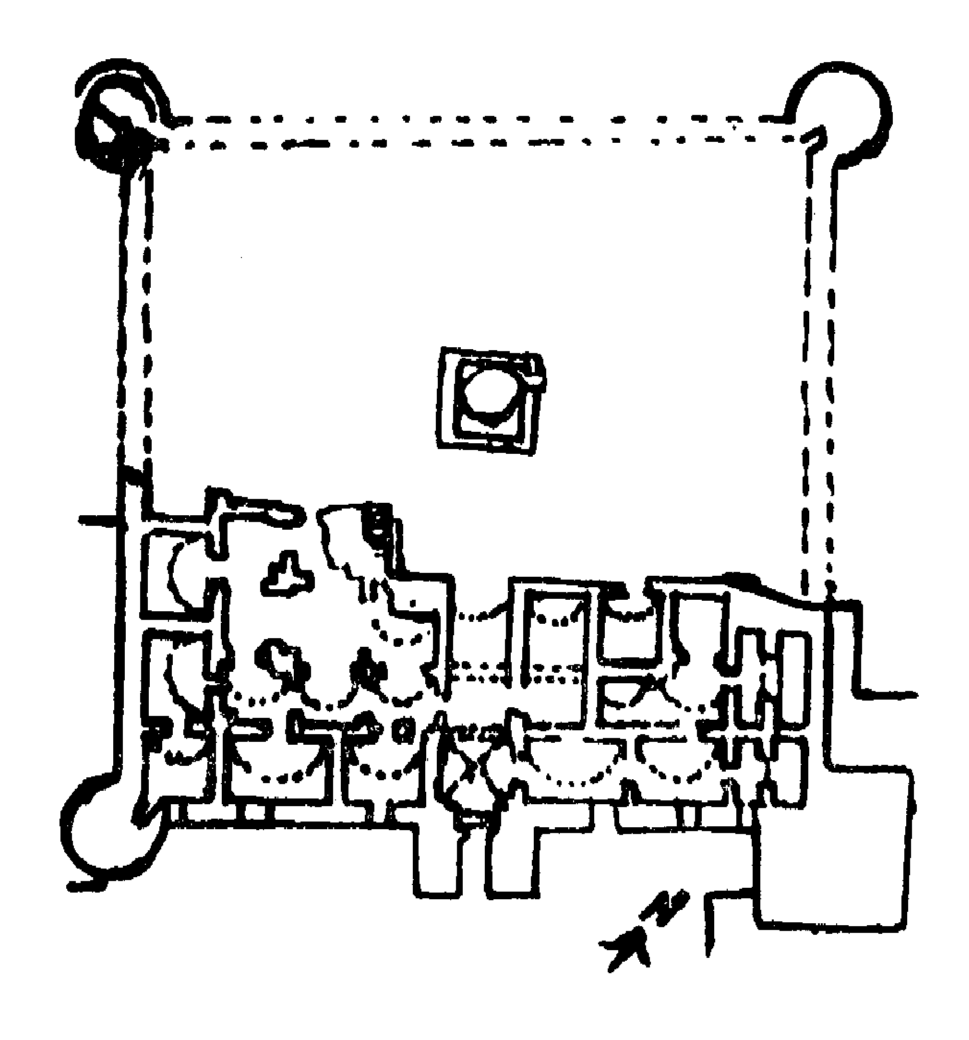
شكل ـ ٢ المخطط الارضي لرباط سوسة في تونس (عن ليـزن)
من رسالة خالد سعيد



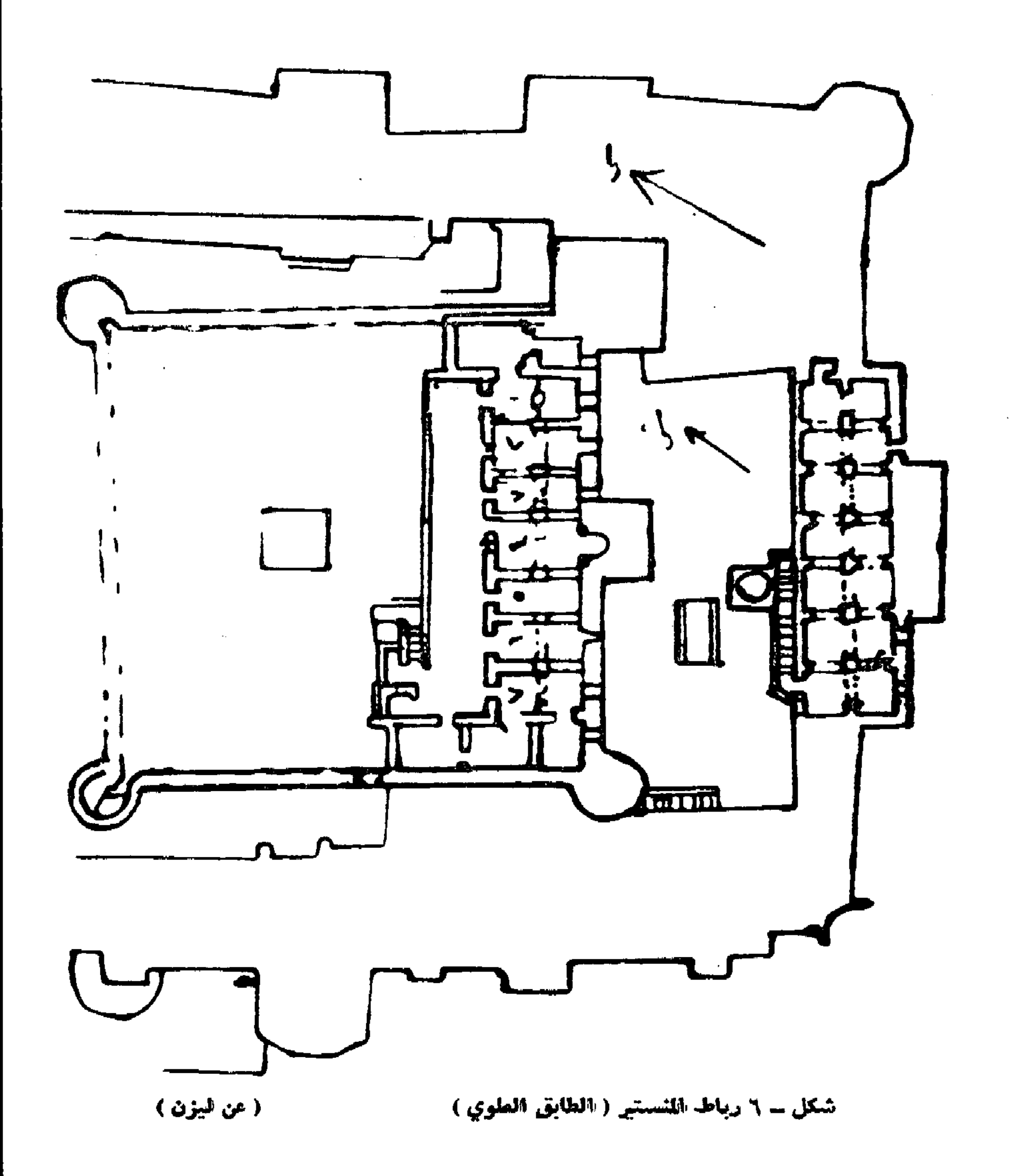
شكل ـ ٣ سقاطة قصر الحير الشرقي (عن فريد شافعي)



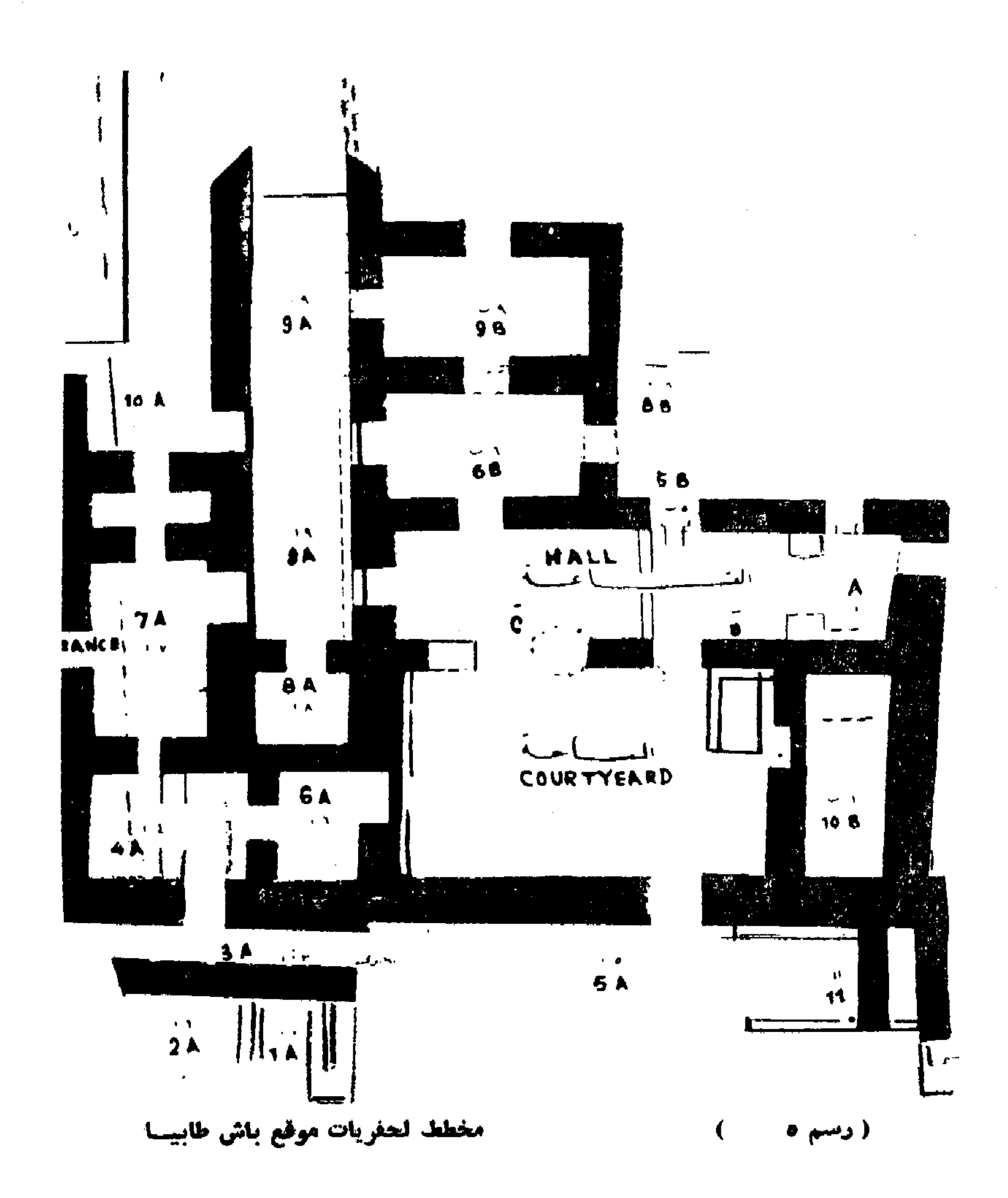
شكل ــ ٤ الطابق العلوي في رباط سوسة . ويظهر فيه المســـجد في الضلع الجنوبي ، والغرف في الجوانب الثلاثة الاخرى عن (ليزن)



شكل ـ ٥ تخطيط رباط المنستير (الطابق الارضي) (عن اليزن)



شكل ـ ٦ رباط المنستير (الطابق العلوي) (عن ليزن)



مخطط لحفريات موقع باش طابيـا

(رسم ٥)

الهوامش

(١) هذا ما أكده ابن منظور في لسان العرب ٣٠٧/٧ قوله : بان العرب تسمي الخيل اذا ربطت بالافنية وعلفت ربطا ، وواحداها ربيط .

(٢) القرآن الكريم ، سورة الانفال ، الاية ٦٠ . ومعنى رباط الخيل الوارد في الاية الكريمة اعلاه . كما يذكر الزمخشري في تفشره « الكشاف » ٣٠٨/١ بانه « كان تخصيصا للخيل »

(٢) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الاية ٢٠٠ .

(٤) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ٦٢/٢ ، ومنها قول الرسول (ص) « رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » .

(٥) ابو العرب ، طبقات علماء افريقية وتونس ، صفحة ٥٢ .

(٦) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، الجزء السادس صفحات ٢٢١ و ٢٥٤ .

(٧) الشيخ طه الولي ، المدينة في الاسلام ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٢٩ سنة ١٩٨٢ . صفحة ١٢٨ .

(٨) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٧٧ . ومن جملة الربط التي يذكرها المقدسي هي : غزة ، عسقلان ، ماخور ، رسوف . ويعتبر رباط الشامية المهمة .

(٩) ابن رستة ، الاعلاق النفسية ، صفحة ١١٨ . ويشير الى الربط التي كانت على سواحل البحر الابيض المتوسط دون أن يذكر اسماءها .

(١٠) ابن زولاق ، ذكر مصر واخبارها ، مخطوط . الورقة ٦٨ . ويشير الى مجموعة الربط المصرية بقوله : « من ذلك البرلس ورباط الرشيد ورباط الاسكندرية ، ورباط ذات الحمام : ورباط البحيرة ، ورباط اخنا ورباط الحرس والبجة وما يقرب منها ، ورباط اسوان على النوبة ورباط الواحات على البربو والسودان » انظر الربط الاسلامية ، خالد سعيد ، رسالة ماجستير غير منشورة .

(١١) الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ١٦٣ .

(١٢) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص ١٧٥ .

(١٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم .

(١٤) ابن خلدون ٤٢٩/٤ .

(١٥) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ٤٤٨/٢ .

(١٦) Marcais, L,architecture MusuLman, P.24

(١٧) Marcais, L,architecture MusuLmane, P. 24

(١٨) اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٣٥١ .

(١٩) اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٣٥٠ .

(٢٠) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث صفحة ٢٣ .

(٢١) ابن الاثير ٥/٦ ، ابن خلدون ٤٣٤/٤ .

(٢٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ٤٤٧/٢ — ٤٤٩ .

(٢٣) خالد سعيد ، نفس المصدر ، صفحة ٣٤ .

(٢٤)

Comb, Reportoire Cronologue Epigraphie Arab, Vol. 1, P. 115.

(٢٥) يشير كل من (بشير هودس) في بحثه "Epigraphie Tunisienne" الجزء الرابع ،
صفحة ٣٢ ، لوحة – ٢ . "L'Architecture" صفحة ١٧٣ ، ومارسيه في كتابه
وكريزويل في كتابه الكبير الموسوم : الجزء الثاني ،

"Early Muslim Architecture"

صفحة ١٦٣ . بان زيادة الله هو باني هذا الرباط .

أما لينزن فانه أستبعد ان يكون الرباط من انشاء الاغالبة . ويرجح نسبته الى الوالي
يزيد بن حاتم المهلبي ، ١٥٥ – ١٧٢هـ / ٧٧١ – ٧٨٨م)

LeRibat de Souss. PP. 20—21.

(٢٦)

Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. 11, P. 168

(٢٧) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، صفحة ٣٥ .

(٢٨) التيجاني ، رحلة التيجاني ، صفحة ٨٥ .

(٢٩)

Creswell, op. cit., P. 168.

(٣٠) والمشربية أنواع مختلفة من الخشب المخروط المشبك انتشر استعمالها في مصر حتى بلغت صناعتها أوج عظمتها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكانت تصنع منه الشرفات والاحجبة التي تغطي الفتحـــات والنوافذ حتى يحفظ حرمة اهل البيت من انظار الغرباء، وتسمح في الوقت نفسه بمرور الهواء والضوء ، وقيل أن اصل الكلمة مشتقة من « الشرب » لان الواح هذا الخشب المشبك ، كانت تثبت في بداية الامر بنوافذ المساكن كي توضـــع عليها قلل الماء فتبرد وتصبح لذيذة للشرب ، وفي مدينة القاهرة ، ودار الاثار العربية انواع شتى من خشب المشربيـــات . (انظر : تراث الاسلام . صفحة ١٥٩ ، فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، صفحـــات ٢٨٨ – ٢٨٩ شكل – ١٩٣) .

(٣١) عفيف بهنسي ، اثر العــرب في الفن الحــديث ، صفحة ١٦ .

(٣٢)

Bulletin de L'Institut Francaisd, archeo logie Orientale Vol. XXIII, Cairo, 1924.

(٣٣) تراث الاسلام ، قسم العمارة ، بريجز ، صفحة ١٦٨ .

(٣٤)

Creswell, op., cit., P. 336, Pls. 54 C, 56 a - b.

(٣٥) Creswell, OP. cit., Pl. No. 39; فريد شافعي : المصدر السابق ،
ص ١٩٣ ، شكل ١٣٥ و ١٣٦ .

(٣٦) تراث الاسلام ، قسم العمارة ، بريجز ، صفحة ١٦٨ .

(٣٧)

Tahir Al-Amid, Bulletin of the college of Arts, Vol. 22. 1918 " Some influences of Arab - Islamic

Architecture on European Architecture" PP. 34-35.

(٢٨) خالد سعيد ، الربط الاسلامية ، رسالة ماجستير غير مطبوعة ، كلية الاداب ، جامعه بغداد ، ١٩٧٣ ، صفحة ٣٦ .

(٣٨) خالد سعيد ، الربط الاسلامية ، رسالة ماجستير غير مطبوعة ، كلية الاداب ، جامعـة بغدا ، ١٩٧٣ ، صفحة ٣٦ .

(٣٩) يشير كريزويل في كتابه " E. M. A. " الجزء الثاني صفحة ١٦٩ بان قياسات الفناء على التوالي وهي ٣٥ر٢٠م ، ٤١ر٢٠م ، ٢١ر٢٩ ، ٥ر١٦م .

(٤٠) يذكر برزويل في كتاب " E. M. A. " ، الجزء الثاني صفحة ١٦٨ بان هذه الاروقة كانت مغطاه باقبية نصف اسطوانية محمولة على دعائم حجرية ماعدا الاروقة في الجهتين الشرقية والشمالية فانها مغطاة باقبيية متقاطعة . ويرى ليزن في كتابه " Le Ribat de Souss, " P. 15 ، بان الاقبية المتقاطعة هذه جديدة ومن المحتمل انها قد بنيت في عام ١٩٣٥ هـ .

ويؤيد كريزويل ، في " E. M. A. " صفحة ١٦٩ . ذلك مشيرا بان عقود هـذه الاهبية وكذلك دعائمها ترجع الى فترة حديثة على الرغم من أن عقدين او ثلاثة منها قـد تكون اصلية ، اما عقود الرواق الغربي فهي على شكل نصـف دائري ، وعقود الضلـع الجنوبي كانت مدببة ، ويرى كريزويل بان هذه العقود قد تكون اصـلة ، وان كانت مغطاة بطبقة من الملاط ثم اعيد بناؤها بطبقة اخرى .

ويرى مارسيه في كتابه : "L'architecture MusuLmane" صفحة (٢٢١) ، بان هـذه العقود المدببة ودعائمها تشبه بما هو موجود بمسجد بوفتاتة .

انظر للاستزادة ، خالد سعيد ، الربط الاسلامية ، رسالة ماجستير غير مطبوعة ، صفحة ٣٩

(٤١) راجع خالد سعيد ، المصدر السـابق ، صفحة ٣٩ .

(٤٢) Marcais, Op. cit. P. 31; Lezin, op. cit., P.16.

(٤٣) Marcais, OP. cit., P.31.

(٤٤) احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٣ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغـرب الكبير ٢/٤٥١ .

Creswell, op. cit., P. 170, 232.

(٤٦) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٣٥ .

(٤٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ٥/٥٩ ، ٦/٧٥ .

(٤٨) Marcais, Art. "Monastir" E. 1., Vol., III, PP. 554-5 Lezein, OP. cit., P.36.

(٤٩) وخالد سعيد ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٥٠) يذكر « ده سلان » في مؤلفه . صفحة ٧٤ ، بان تسميته ترجع الى وجود دير مسيحي في تلك المنطقة قبل الاسلام . ويرجع « مارسيه » في كتابه "L'architecture" الجزء الثاني ص ٥٥٤ ، هذا الرأي ويضيف بان البيزنطيين

المسيحيين ، او الذين اسلموا قريبا اطلقوا هذه التسمية على الرباط الاسلامي .

(٥١) انظر الادريسي ، صفة المغرب والسودان ، ص ١٢٥ ، الهروي ، الاشارات الى معرفة الزيارات ، ص ٥٣ . ياقوت ، معجم البلدان ١٧٥/٨ .

(٥٢) البكري ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٥٣) الهروي ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٥٤) ابراهيم شبوح ، مجلة افريقية ، م ٣ ـ ٤ « حول منار قصر رباط المنستير واصوله المعمارية صفحات ٥ ـ ٦ .

(٥٥) زبيس ، بين الاثار الاسلامية ص ٥٧ .

(٥٦) خالد سعيد ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٥٧)

Lezin, OP. cit., P. 38

وانظر خالد سعيد ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٥٨) للاستزادة من وصف المسجد في الطابق العلوي راجع خالد سعيد المرجع السابق ، صفحة ٢١

(٥٩) ابراهيم شبوح ، المرجع السابق ص ٧ .

المراجع والمصادر العربية :

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ ابن الاثير : (علي بن محمد بن احمد بن ابي الكرم) .
الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٥ .

٣ ـ ابن تيمية : (تقي الدين أبي العباسي احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي) .
ـ مجموعة الرسائل الكبرى ـ القاهرة .

٤ ـ ابن الخطيب : (أبو عبد الله محمد بن سعيد التلمساني) .
ـ اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . بيروت ١٩٥٨ .

٥ ـ ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون)
ـ المقدمة ، طبع القاهرة ١٣٢٠ هـ .
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر بيروت ـ ١٣٥٨ .

٦ ـ ابن رسته : (احمد بن عمر)
ـ الاعلاق النفسية ، ليدن ١٨٩١ .

٧ ـ ابن زولاق : (الحسن بن ابراهيم)
ـ ذكر مصر واخبارها .

٨ ـ ابن منظور : (جمال الدين محمد بن منظور)
لسان العرب ، بيروت ١٩٦٥ .

٩ ـ ابو العرب : (محمد بن احمد بن تميم القيرواني)
ـ طبقات علماء افريقية وتونس ، تونس ١٩٦٨ .
١٠ ـ ابو المحاسن : (جمال الدين ابو المحاسن)
ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٦٠م .
١١ ـ الادريسي :(ابو عبد الله محمد)
ـ صفة المغرب والسودان والاندلس ، ليدن ١٨٦٣ .
١٢ ـ البكري : (عبد الله بن محمد بن عبد العزيز)
ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، باريس ١٩١١ .
١٣ ـ التيجاني : (شهاب الدين بن عبد الله)
ـ معجم البلدان ، لايبزك ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ .
١٥ ـ زبيس : (سليمان مصطفى)
بين الاثار الاسلامية في تونس ، تونس ١٩٥٣ .
١٦ ـ سالم : (الدكتور السيد عبد العزيز)
المغرب الكبير ، الجزء الثاني .
١٧ ـ شبوح : (ابراهيم شبوح)
حول منار قصر رباط المنستير واصوله المعمارية ، مجلة افريقية ، المعهد القومي للاثار والفنون ، تونس ١٩٦٩ ـ ٩٧٠ المجلد ٣ ـ ٤ .
١٨ ـ شافعي : (الدكتور فريد)
العمارة العربية في مصر الاسلامية ، الجزء الاول ، القاهرة .
١٩ ـ فكري : (الدكتور احمد)
ـ مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، القاهرة .
٢٠ ـ المقدسي : (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي بكر)
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٨٧٧ .
٢١ ـ الهروي : (ابو الحسن علي بن ابي بكر)
ـ الاشارات الى معرفة الزيارات ، باريس ١٩٥٣ .
ـ البلدان ، ليدن ، ١٩٨٢ .
٢٢ ـ اليعقوبي : (احمد بن جعفر بن وهب بن واصح)

المصادر باللغـــات الاجنبية :

٢٣ -

Al- Amide : (Dr. Tahir M.)
"Some influnces of Arab - Islamic Architecture on European
Archittecture" From the Bulletin of the College of Arts, Vol. 22. 1978.

٢٤ -

Combe, Sauraget et wiet:
Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe, 12
12 Vols. Caire, 1931 - 1950.

٢٥ -

Creswell. Early Muslim Architecture, 2 Vols. oxford, 1932 — 1940

٢٦ -

Houdes and Besset:
Epigraphie Tunisenne"
Alger 1882.

٢٧ -

Lezine (A.)
Le Rlbat de souss, Tunis 1956.

٢٨ -

Marcais (G.)
— L'Architeeture Musulmane., Paris 1954.
— "Monastire" ,Encyclopaedia of Islam. Leyden 1939
Vol. III.



شكل ــ ١ موقع مدينة سوسة ورباطها في تونس

الاستعدادات العسكرية والاستحكامات الدفاعية
واثرها في افشال حملة نادرشاه
على الموصل عام ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م

الدكتور احمد قاسم الجمعة
مدير البحوث الآثارية والحضارية
بجامعة الموصل

نظرا للموقع الاستراتيجي والاهمية الاقتصادية والدور السياسي والنتاج الحضاري للموصل اصبحت مستهدفة من الغزاة والطامعين ، ولهذا طبعت المدينة بالطابع العسكري واتخذت عمارتها نمطا دفاعيا بصورة عامة منذ القدم، ولم يقتصر ذلك على المباني العسكرية البحتة ، كالقلاع والاسوار فقط ، وانما تعداها الى المباني السكنية والخدمية كالبيوت والخانات والاسواق ، فضلا عن تهيئة كافة المستلزمات التي تعزز الناحية الدفاعية ولا سيما الاقتصادية والنفسية .

فالموصل من اهم الحصون التي كانت تحمي نينوى من جهة الغرب في العهد الاشوري . كما اصبحت من الاجناد الحربية المهمة في العصر الراشدي . وكان لها دور مشرف في مقارعة الغزاة من ايلخانيين وتيموريين وفرس وغيرهم . كما ساهمت جيوش الموصل منذ عام (٥٠٥ هـ / ١١١١م) في تحرير العديد من مدن الشام من سيطرة الصليبيين(١) ، واصبحت مركزا لتجمع المقاتلين من ابنائها ومن القوات العثمانية التي ادت الى هزيمة القوات الفارسية التي حاصرت بغداد عام (١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ م) بقيادة نادرشاه(٢) .

والذي يعنينا في بحثنا من كل ذلك هو التركيز على النواحي العسكرية والدفاعية التي كان لها الاثر الفعال في افشال حملة نادرشاه على الموصل عام (١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) .

فبعد ان فكر نادرشاه بحصار بغداد أرسل أحد قادته المدعو نركزخان مع ثمانية آلاف مقاتل لاحتلال الموصل وفي طريقه اليها دمر العديد من القرى والمحاصيل الزراعية وفتك بأهلها ، وبعد وصول هذه القوة منطقة الفزلاني في الجهة الجنوبية للمدينة تصدى ابناء الموصل لها بقيادة الوالي حسين باشا الجليلي وبمعركة طاحنة انتهت بقتل نركزخان وابادة معظم قوته ، وهرب من تبقى منها مذعورين باتجاه بغداد للالتحاق بالجيش الفارسي الذي كان قد ضرب الحصار حولها(٣) .

ويظهر ان نادرشاه كان يفكر بفتح الموصل قبل بغداد بغية السيطرة على نقطة اتصال العراق بالجزيرة ، وقطع خطوط المواصلات بين القيادة العثمانية وبغداد وأحكام قبضته على العراق ، ثم الاستيلاء بعد ذلك على بغداد بسهولة. ومما يجدر بالاشارة أن هذه الخطة الاستراتيجية كانت قد حاولت القوات الفارسية الغازية تنفيذها عدة مرات وللاسباب ذاتها(٤) .

ومن المرجح أن نادرشاه كان ينوي الضغط على الموصل عسكريا واقتصاديا ونفسيا تمهيدا لحملته الواسعة التي شنها على المدينة عام (١١٥٦هـ / ١٧٤٣م) ، بينما فشل الحملة السريع وقتل قائدها يدلل على الاستعدادات العسكرية والدفاعية للمدينة والتهيء الجيد لكل الاحتمالات .

وبعد فشل نادرشاه في احتلال بغداد بحدود عشر سنوات عقد العزم على احتلال الموصل عنوة(٥) ، وقاد حملته الواسعة المنوه عنها قاصدا الموصل عن طريق بغداد ــ كركوك ــ اربيل (طريق شهرزور القديم) لان هذا الطريق يساعد على التقدم المأمون نحو الشمال(٦) . وكانت حملته تقدر بحدود ثلاثمئة الف مقاتل ، وقد تمكن من الاستيلاء على كركوك ثم عبر الزاب الصغير واحتل اربيل وفتك باهلها ودمر قراها واصبحت الامور مهيئة له للسير الى هدفه الرئيس مدينة الموصل(٧) .

غير ان السلطة الحاكمة في الموصل لم تكن بغافلة عما يجري وخطة نادرشاه لاحتلال الموصل فأخذت تستعد للحفاظ على كيانها بحماس شعبي منقطع النظير حيث ضرب الوالي حسين باشا الجليلي خيامه حول المدينة ثم شرع الجميع بالاستعدادات لمجابهة العدو على انغام الموسيقى العسكرية(٨) . فقد امر الوالي بترميم السور وتقويته بالجص والحجارة وسد الثغرات فيه(٩) وحصنت القلاع بالمدافع وجهزت بالذخيرة اللازمة ، وعينت مراكز المدافعين

وحفرت الآبار حول السور لحمايته من نسفه بالبارود ، وتم تنظيف الخندق وتعميقه ليعوق وصول الاعداء الى الاسوار ، وسويت التلال والمرتفعات الكائنة حول المدينة لمنع تسلط واشراف العدو عليها ، وملئت المخازن بالحبوب(١٠) ، كما امر الوالي الاهالي الكائنين خارج الاسوار بالدخول اليها(١١) .

وبهذا اصبحت المدينة مستعدة لتواجه مصيرها لوحدها بشجاعة منقطعة النظير ، لان الدولة العثمانية لم تبد أية بادرة حقيقية لمساندة الموصل في وضعها الصعب وانما اكتفى السلطان محمود الاول بالطلب من والي حلب حسين باشا القازوقجي ان يساعد الموصل بعدد من اتباعه(١٢) الذين قدروا بحوالي الفي مقاتل توفي بعضهم في الطريق الى الموصل قبل وصول القوات الفارسية بيوم واحد ، كما انضم الى المدافعين عن المدينة حاكم كويسنجق (قوج باشا) بفرسانه البالغ عددهم خمسمئة مقاتل وبهذا بلغ عدد القوات المدافعة عن المدينة حوالي ثلاثين الف مقاتل(١٣) في حين بلغت قوات نادرشاه بحدود ثلاثمئة الف مقاتل(١٤) .

وبعد احتلال نادرشاه لمدينة اربيل أرسل خطابا الى أهالي الموصل مليئا بالتهديد والوعيد والطلب منهم استقباله وتسليمه المدينة بدون مقاومة(١٥) .
وعلى اثر ذلك دعا الوالي حسين باشا الجليلي اهالي الموصل الى اجتماع عام عند الجامع الاحمر (المجاهدي) خارج أسوار البلدة(١٦) الى الجنوب منها لتدارس الامر واستقر الرأي على مقاومة الغزاة وضرورة التمسك بالمدينة حتى الرمق الاخير وتفضيل الاستشهاد على الاستسلام للعدو(١٧) . ولهذا الاجماع اهميته في ترصين الوحدة الداخلية المطلوبة في مثل تلك الظروف .
ومن الامور الاحترازية الاخرى التي أمر والي الموصل بتهيئتها قبل المعركة هي تهيئة الاكياس المملوءة بالتراب لسد الثغرات التي قد يحدثها العدو في السور ، وبناء سواتر ترابية ورائها(١٨) ، وضرب الوالي بعد ذلك خيامه حول المدينة ترغيبا للسكان واستثارة لحماسهم وهممهم(١٩) .
ولما ظهر نادرشاه بجيشه البالغ ثلاثمئة الف وعدته الكبيرة عند قرية يارمجة الواقعة على الساحل الايسر لدجلة الى الجنوب الشرقي من الموصل بحوالي خمسة عشر كيلومتر بحيث أصبح يشرف عليها عندها اتخذ الوالي حسين باشا الجليلي خطوة أخرى تتضمن اصدار اوامره بالاتفاق مع حليفيه والي حلب وحاكم كويسنجق ومن معهم من الجيش بالزحف على العدو ومقاومته ، كما ارسل اخاه عبدالفتاح على رأس قوة هاجمت العدو بكل شجاعة وضراوة ، ولما حاول العدو تطويقه تمكن من اختراق ذلك الطوق

وانسحب داخل المدينة واقفلت مداخلها وبادر مقاتليها بمقـــاومة العدو من داخلها(٢٠) .

وتتجلى أهمية هذه القوة في احداث بعض الارباك في صفوف العدو واثبات شجاعة مقاتلي الموصل ورباطة جأشهم واستعدادهم لمقارعته في أي مكان حتى بالقرب من مقره على الرغم من كثافة جيشه وكثرة وتنوع عدده .

وبعد استعراض الاستعدادات العسكرية الضرورية التي اتخـــذت في الموصل من الناحية التعبوية لمجابهة العدو لا بد لنا من التطـــرق الى اهم العمليات العسكرية التي رافقت حملـــة نادرشاه على المدينة ، والتعـريف بالاستحكامات الدفاعية فيها لكي يمكن الالمام بالعوامل الذاتية التي ادت الى حسم تلك الملحمة لصالح المدينة .

فبعد مكوث نادرشاه بمقر قيادته في يارمجة لمدة ستة ايام قرر استطلاع استحكامات الموصل فعبر النهر بجيشـــه وأحاط بالمدينة وأقام حولها اثني عشر برجا تقابل الابراج الاثنتي عشر للمدينة ونصب مدفعيته عليها(٢١) التي تألفت من مئة وستين مدفعا ثقيلا ومئتين وثلاثين مدفع هاون (٢٢) .

وباشرت تلك المدافع بضرب المدينة دفعة واحدة لمدة ثمانية ايام بلياليها . ولما لم يفت بعضد المدافعين ذلك اتخذ العدو خطوة أخرى فركز نـــيران مدفعيته على البرج الرئيس لقلعة الموصل (باشطابية) الذي يحوي غـــرفة عمليات الوالي حسين باشا الجليلي (رسم ٢) . وعلى الرغم من احداث بعض الثغرات الا ان المدافعين تمكنوا من سدها بأكياس التراب ووضع اجســـاد الشـــهداء فيها(٢٣) .

ولجأ نادرشاه بعد ذلك الى الحصار الاقتصادي فأمر بتحويل احـــدى شعبتي نهر دجلة عن المدينة (رسم ٧) الا ان المدينة عوضت عن ذلك بميـاه الآبار(٢٤) ، كما حاول العدو حفر بعض الانفاق تحت السور ليصل الى داخل المدينة الا انه لم يوفق بتلك العملية وخسر اربعة آلاف وخمسمئة قتيلا(٢٥) .

ولما لم يفلح العدو بذلك عمد الى تلغيم أجزاء من السور عند باب سنجار (رسم ١) وتهيئة أكثر من الف سلم بالقرب من القلعة الرئيســة (باشطابية رسم ١) . وكان يروم من ذلك استغلال انهماك مدافعي المدينة بمقاومة جنده الذين سيتسلقون الاسوار ، ثم يدخل المدينة من الثغرات التي ســـتحدثها الالغام عند انفجارها . غير ان هذه الخطة فشلت هي الاخـرى حيث ابطلت الآبار المستحدثة في اسفل السور مفعول بعضها وانفجر البعض الاخـــر على مفجريه . وتمكن المدافعون من مقاتلي الموصل من قتل المئات من جند الاعداء الذين حاولوا تسلق السلالم(٢٦) .

ولما فشل نادرشاه من اقتحام المدينة عمد الى محاولة اغفال اهلها فتظاهر الانسحاب لكي يرجعوا الى اعمالهم الاعتيادية ووضعهم الطبيعي بعيدين عــن



المظاهر العسكرية . فسار بجيوشه الى جزيرة ابن عمر واعمل السيف في رقاب اهلها وخرب الكثير من القرى التي صادفها بطريقه ، ولما فرغ منها قفل راجعا الى الموصل ليباغتها فوجدها أمنع تحصينا ، حيث تنبه اهلها الى تلك الخديعة فزادوا من تحصين مدينتهم واحكام اسوارها وابراجها واستحضار المؤن الغذائية او المستلزمات الحربية(٢٧) .

وادى كل ذلك الى تفكير نادرشاه في القيام بهجوم كاسح من ناحية باب سنجار والقلعة الرئيسة (رسم ١) ، ومد الجسور على النهر وعبر الآلاف من جنده الى هذه الناحية ، غير ان المدافعين من اهالي الموصل ابادوا الآلاف من جنده بواسطة القنابل اليدوية والبنادق(٢٨) . مما اضطر نادرشاه وجيشه الى رفع الحصار عن المدينة ، وسحب مدفعيته الى مقر قيادته بالجانب الآخر لدجلة ، والتوقف عن العمليات العسكرية بعد حصار دام اثنين واربعين يوما تعرضت المدينة خلالها الى خمس هجمات كاسحة وضربت بالالاف من قذائف المدفعية عدا تاثير الاسلحة الاخرى .

وجرت بعد ذلك مراسلات متعددة بين الطرفين بناء على طلب نادرشاه رافقتها تبادل الهدايا بعد تبادل القذائف وانتهى الامر باندحار نادرشاه وانسحابه الى بلاده مع بعض رؤوس الخيل التي طلبها من والي الموصل كهدية .

اما الاستحكامات الدفاعية للموصل والخصائص الاستراتيجية لها المتمثلة بالموضع والتخطيط وطبيعة الاسوار والقلاع الكائنة فيها فكانت هي الاخرى من العوامل الذاتية المهمة التي ادت الى افشال حملة نادرشاه .

فموضع الموصل يتميز بارتفاعه البين الذي يهيمن على المناطق المحيطة به . وتتجلي الاهمية الدفاعية لهذه الميزة في كونها تسهل عملية الرصد ومجابهة الاعداء . ولعل هذا السبب الذي جعل نادرشاه يتخذ موضع يارمجة المرتفع مقرا لقيادته على الرغم من بعده عن الموصل بحوالي ثلاثة اميال ، وتغيير محل قيادته بعد ذلك الى موضع القاضية على الساحل الايسر للنهر قبالة القلعة الرئيسة (باشطابية) ، كما ان لظاهرة احتضان الموصل لضفة دجلة اليمنى (رسم ١) اهمية اقتصادية واستراتيجية كبيرة ، لان النهر ربط الموصل بظهيرها من المدن الواقعة عليه ، واصبح بمثابة خط دفاعي للمدينة من الشرق ، ويعد المورد المائي الرئيس لها . ولاجل ذلك امر نادرشاه بتحويل مسار شعبة دجلة التي تغذي المدينة في اثناء حصاره لها(٢٩) .

وتتجلى الاهمية الدفاعية في تخطيط الموصل الدائري (رسم ١) لانه يسهل عملية المراقبة والحماية والسيطرة الادارية افضل من التخطيط المربع والمستطيل(٣٠) ، وذلك لان المزاغل او الشرفات الكائنة في ابراج الاسوار الدائرية تكون بزاوية منفرجة واسعة ، ويمكن تحريك الجيوش من مركز

المدينة الى اية جهة اخرى بنفس الوقت(٣١) ، كما ان النسيج العمراني المتراص في مباني الموصل حقق بنية محتشدة للمدينة لانه يسهل عملية المدافعين ويقلل من زخم المهاجمين وذلك لعدم وجود مسافات واسعة بين احياء المدينة المتصلة بعضها مع بعض .

وسور الموصل مر بادوار معمارية متعددة خلال العصور الاسلامية منذ العهد الاموي(٣٢) حتى الفترة العثمانية مما ادى الى حدوث تغييرات مهمة في تصميمه ومواده البنائية والذي يعنينا من كل ذلك وضع السور في الفترة العثمانية لدى محاصرة نادرشاه للمدينة .

ومما لا شك فيه أن السور في هذه الفترة كان يتميز بالقوة والضخامة من الناحية التصميمية والانشائية لان العثمانيين اهتموا بالتحصينات العسكرية ولا سيما في الموصل التي أزدادت اهميتها الاستراتيجية لاتخاذها قاعدة للدفاع عن العراق ضد الفرس من ناحية(٣٣) ولتطور الاسلحة النارية الهجومية كالمدفعية الثقيلة في هذه الفترة من ناحية اخرى .

ويتضح لنا مما أورده الصوفي حصانة وضخامة السور فقد بلغ سمكه ثلاثة امتار وارتفاعه عشرة امتار وطوله عشرة آلاف متر ، واستحدثت فيه ثمانية عشر برجا بهيئات نصف اسطوانية وتتخلل الاجزاء العليا من السور وابراجه مزاغل منفرجة ، ويحف به من الخارج خندق عريض يبلغ عمقه حوالي سبعة امتار(٣٤) .

ويظهر ان السور اقتصر على اثني عشر برجا اثناء محاصرة نادرشاه للموصل كما مر بنا من خلال ما اوردته المراجع التاريخية .

ومن الطبيعي أن سمك السور اعطاه قوة انشائية عالية بحيث أصبح من المتعذر على الاعداء اختراقه فيما اذا ما نجحوا في الوصول اليه واحداث بعض الثغرات فيه لان عملية حفر الاسوار السميكة اثناء المعارك تحتاج الى وقت ومجهود وخسارة بشرية كبيرة(٣٥) ، وفعلا هذا ما حصل لجيش نادرشاه حيث فقد الآلاف من اعداده عند الاسوار كما مر بنا .

اما الارتفاع الكبير لسور الموصل فقد ادى الى تعذر تسلق العدو اياه . وقد اتضح ذلك من فشل الآلاف من جنده الذين عبروا الخندق وتسلقوا اكثر من الف سلم لهذا الفرض .

وبالنسبة لخاصية الابراج الدائرية فان لها اهمية تعبوية كبيرة لانها تترك منطقة دفاعية مميتة قليلة جدا فتكون فرص المهاجمين في الاحتماء من أسلحة المدافعين قليلة(٣٦) .

واتخذت مزاغل السور أوضاعا رأسية وعمودية فالمزاغل الرأسية تكون على هيئة مخروطية مع بعض الميل نحو الاسفل ليسهل التحكم بالعدو واصابته وعلى مسافات متعددة وتتميز فتحتها من الخارج بالضيق ليكون المدافع في

مأمن من الاصابة الخارجية ، وواسعة من الداخل بحيث تسمح لتربص مدافع أو اكثر بالحركة بكل سهولة ، وتصويب الاسلحة بدقة الى الاعداء ، في حين تستخدم المزاغل العمودية لصب الزيت والمواد المنصـــهرة على الاعداء عند عبورهم الخنادق ووصولهم أسفل الاسوار .

أما الشرفات التي تتوج سور الموصل وابراجه فذات هيئات نصف دائرية تقريبا (رسم ٢) ، وتكمن الاهمية التعبوية للشرفات في كونها تمكن المدافع من الاحتماء خلفها ورمي المهاجم بالاسلحة الدفاعية .

والجدير بالتنويه أن الشرفات المســـــننة تعد من المبتكرات المعمارية الآشورية(٣٧) وكانت على هيئة المدرجات التي تعتمد على الزوايا القائمة (رسم ٣) ، ثم تطورت بعد ذلك الى الهيئة التي تعتمد في تكوينها على الزوايا الحادة (رسم ٤) ، ثم شاعت الشرفات ذات المقالع شبه الدائرية ولا سيما في الفترة العثمانية كما في سور الموصل لانها تحقق للمدافعين تحكما في التصويب وحماية اكثر من الانواع السابقة وخاصة بعد استعمال الاسلحة النارية .

وتعد قلعة الموصل الرئيسة (باشطابية) من أهم الاستحكامات الدفاعية فيها والتي كان لها دور مشرف في ملحمة المدينة الخالدة في اثناء حملة نادرشاه فقد مرت هي الاخرى بادوار معمـــارية متعددة يرجع أقدمها الى العهـــد الاموي(٣٨) شأنها في ذلك شأن سور المدينة .

وتقع القلعة في أعلى بقعة من موضع الموصل القديمة الى الشمال الشرقي منه على نهر دجلة (رسم ١) ، ولقد كان لهذا الموقع البالغ ارتفاعه (٢٤٠ م) أهميته الدفاعية لانه مكن المدافعين في العلقة من الاشراف على المدينة والمناطق المحيطة بها وتؤدي اغراض المراقبة والدفاع على افضل وجه .

ونتيجة لتعرض القلعة خلال الفترات التاريخية لهجمات الغزاة والطامعين ولا سيما المغول عام (٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) وحصار تيمور لنك لها عام (٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣م) فقد تحولت الى كومة من الانقاض قبيل الفترة العثمانية(٣٩) .

وتعود الآثار الشاخصة من القلعة الى الفترة العثمانية والتي تتكون من برج رئيس يمتاز بضخامته واهميته المستديرة وارتفاعه الشاهق الذي يبلغ من الجهة الشرقية المطلة على النهر حوالي (١٦ م) في حين يبلغ في الجهتين الشمالية والغربية قرابة (١١٫٢٥م)(٤٠) كما يتصل بالبرج من الجهة الغربية بقايا السور الذي كان يحيط بالقلعة الرئيسة (رسم ٢) .

وتمكنت هيئة التنقيبات الاثرية بجامعة الموصل في الجهة الجنوبية للبرج عن العديد من المرافق والغرف والممرات الارضية(٤١) (رسم ٥) ، فضلا عن وجود غرف أخرى داخل البرج تتصـــل بعضها ببعض بدهليز أفقي ضيق

لا يسمح الا بمرور الاشخاص منه ، كما أن هناك دهليزا آخر بوضعية عمودية يصل أعلى البرج بالغرف التي تتخلله يسمح بتحريك المدافعين ونقل المعدات الحربية بمأمن عن انظار الاعداء .

ومن الامور الاحترازية للقلعة في هذا البرج مدخل سري يؤدي الى النهر ليكون حلقة وصل بينها وبين النهر وظهيره من المناطق والمـــدن الواقعة عليه ليؤمن المياه والمواد الغذائية والتجارية واللوازم العسكرية وهو اجراء وقائـــي تركن اليه قيادة العمليات الحربية في حالات الحصار الذي يضرب على المدينة .
ومن المميزات الاخرى للبرج اتساع قطره من الاسفل عما هو في الاعلي ، ولهذه الميزة فضلا عـــن ظاهرة التجويف الذي يتخلل غرفه ومرافقه الداخلية فائدة انشائية لانها تزيد من متانته وتماسك مواد البنائية ومضاعفة مقاومتـــه للظروف الحربية والتقلبات الجوية .

ويعلو هذ االبرج برج آخر على نفس الغرار ولكنه اصغر منه بحيث أتاح أتاح قسما من سطح البر الاول عرضه (٦٥ر١م) ليكون بمثابة ممر يستخدم لمراقبة الاعداء وتصويب الاسلحة الدفاعية عليهم عن طريق المزاغل المستحدثة لهذا الفرض ، فقد أحيط القسم العلوي من جداره بشـــريط بارز يرتكز على مساند حجرية (كوابيل) تحصر فيما بينها مزاغل عمودية لرصد الاعداء وصب المواد المنصهرة عليهم لدى اقترابهم من اسفل البرج .

وقد استحدثت في القسم الذي يعلو الشريط المذكور من حائط البـــرج الاول كوىشبه مخروطية واسعة الفتحة من الداخلتضيق تدريجيانحوالخارج، وسرعان ما تنقسم على نفسها الى قسمين : احدهما يتجه نحو الخارج وينتهي بفتحة مائلة ضيقة تسمح بتصويب البنادق ، والاخر يتجه نحو الاسفل (رسم ٦) . وتتضح فائدة هذا النوع من المزاغل المزدوجة بمنح الحـــــرية الكاملة للمدافعين وامكان مراقبتهم العدو ورميه من مسافات مختلفة ، كما استحدثت مزاغل أخرى في هذا الجزء من حائط البرج البالغ ارتفاعه (٣٠ر١م) اذ يقع مزغل بين كل كوتين من الكوى التي تحوي المزاغل المزدوجة .

أما البرج العلوي الذي يبلغ ارتفاعه (٧٠ر١م) وســمكه (٨٠ر١م) ، وتتضح اهمية البرج العلوي في امكان وضع المدافع فيه ، ولهذا زود جـــدار البرج بأربع فتحات كبيرة تتسع كل منها لمدفـــع فضـــلا عـــن وجود فتحتين صغيرتين متجاورتين بين كل فتحتين من الفتحات السابقة ، وتتميز باتساعها من الداخل اكثر مما هو في الخارج وتنحرف فتحات بعضها قليلا نحو اليمين او اليسار وبعضها الآخر ذو ارضية مائلة قليلا نحو الخارج (رسم ٢) .

وتكمن الاهمية الدفاعية لمثـــل هذا النوع من الفتحات اعطاء المدافعين

حماية كبيرة لانه يتعذر على المهاجمين اصابة المدافعين الـذين يحتمون خلف جدران البرج ، كما ساعد الارتفاع الشاهق للبرج على امكان مراقبة الاعـداء من مسافات بعيدة والتقليل من تأثير اسلحتهم .

هذا وقد توجت الابراج والجزء المتبقي من السور المرتبط بها شـرفات بهيئة شبه دائرية تقريبا ، كما تخلل الجزء الاعلى من السور تحت شـرفاته صف ين من المزاغل الدفاعية (رسم ٢) .

ومن القلاع الدفاعية الاخرى في الموصل من الفترة العثمانية القلعـــة الداخلية (ايج قلعة) الواقعة في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة على ساحل النهر (رسم ١) .

وقد احيطت القلعة من جهتها الغربية بخندق يستمد مياهه من النهـر فحولها الى ما يشـــبه الجزيرة الاصطناعية(٤٢) (رسم ٨) ، وتتبع القلعة التخطيط البيضوي ، وكان يحيطها سور من الآجر فيه أبراج نصف اسطوانية (رسم ٧) ولم يبق أي اثر للقلعة بعد أن استحدثت في موضعها بعض المنشآت الحديثة (رسم ٨) والذي ازيل بعضها في الوقت الحاضر .

والجدير بالذكر أن القلاع الداخلية هي من المباني الدفاعية التي شاعت في العهد العثماني لتكون مقرا للوالي(٤٣) ومكانا أمينا لحفظ الخزينة والسجلات المهمة(٤٤) فضلا عن أهميتها الدفاعية .

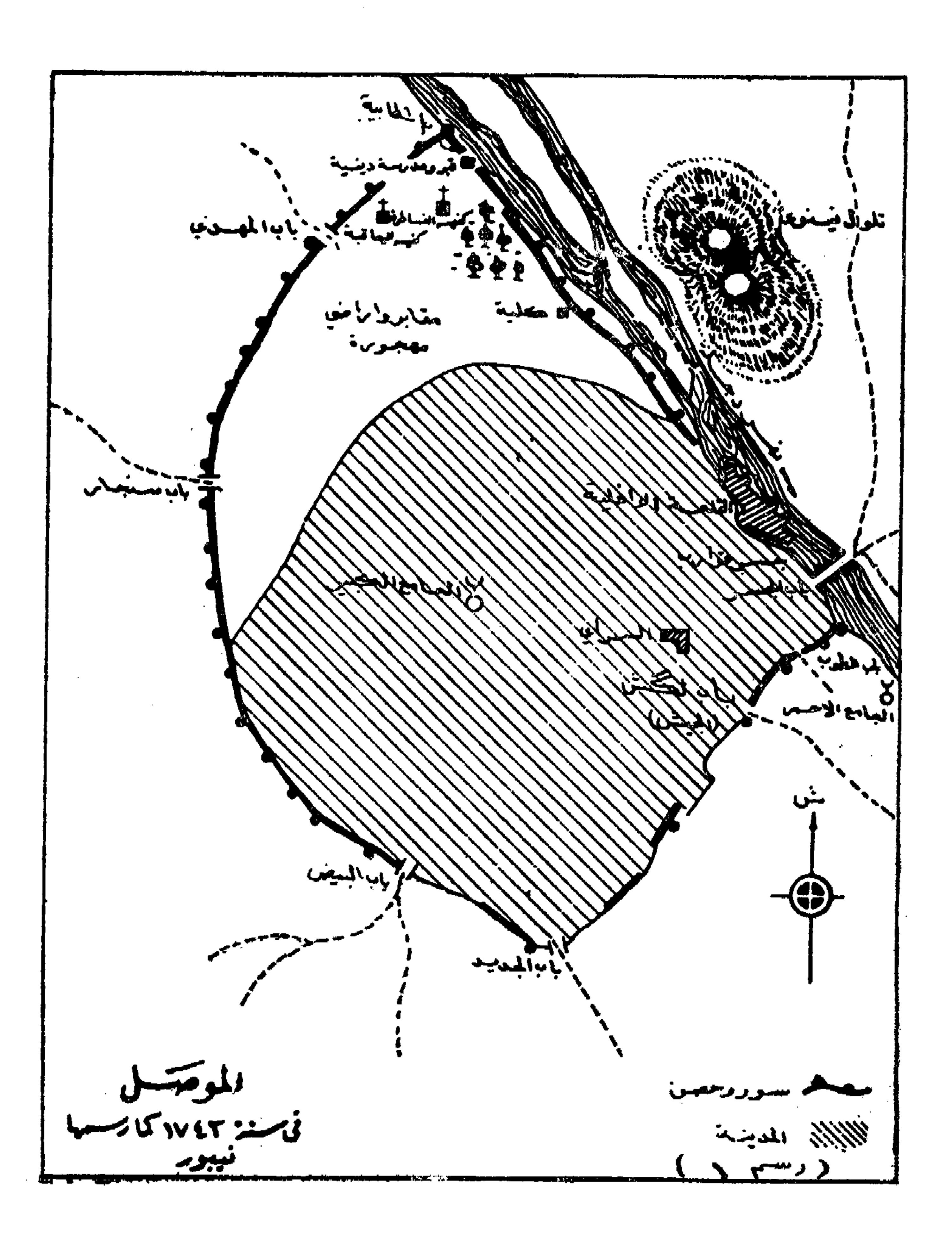
ولا بد من الاشارة في هذا المجال الى اهمية السطوح المقببة التي تميزت بها مباني الموصل الدفاعية والمدنية على حد سواء والمواد البنائية المســتخدمة فيها على الناحية الانشائية وذلك لعلاقتهـــا بقوة المباني التي صمدت بوجه الاعـداء .

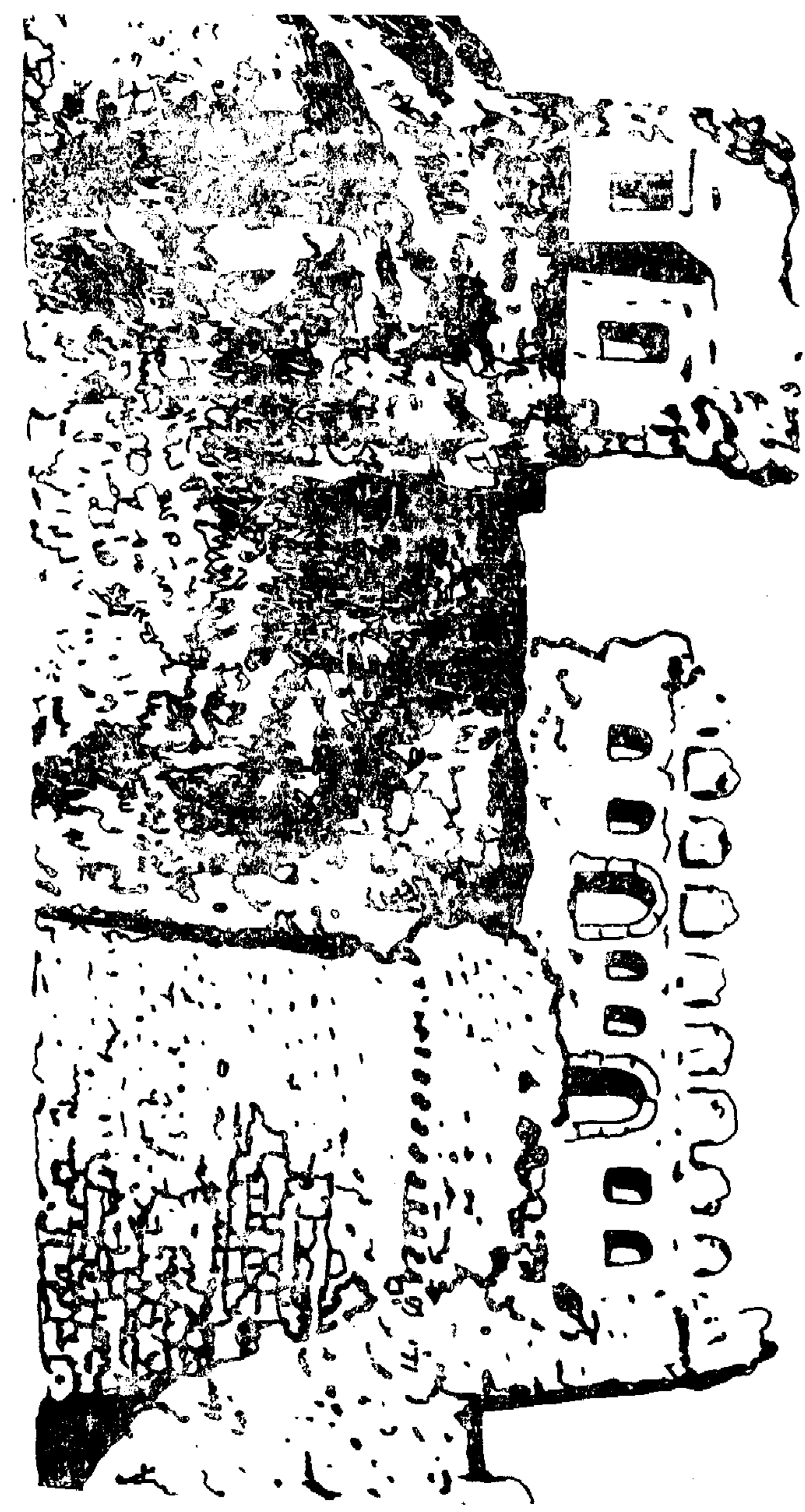
فالسطوح المقببة تساعد على تخفيف القوى الضاغطـة علـــى الجدران والاسس التي ترتكز عليها وتكون اكثر تماسكا من السقوف المستوية(٤٥) ، كما يعمل الانحناء المقبب على تخفيف تأثير قذائف المدفعية .

اما الجص والحجارة الكلسية المستخدمة في البناء فقد ساعدت على زيادة سمك الجدران وقوة تماسكها ومقاومتها للتقلبات الجوية والظروف الطارئة(٤٦)

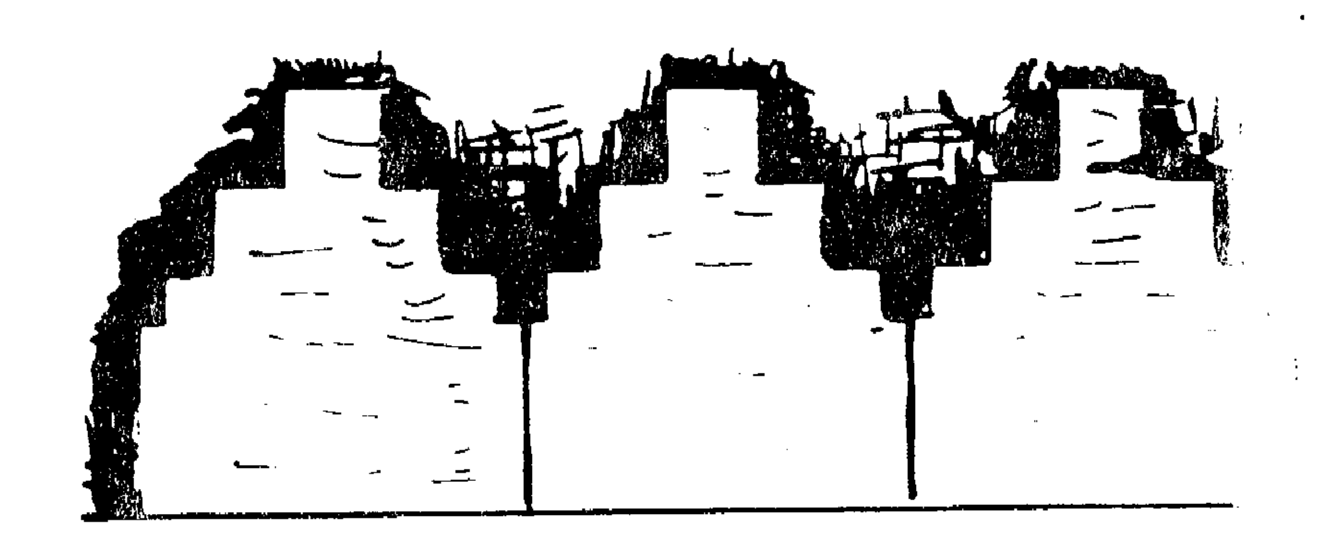
وهكذا تظافرت الاستعدادات العسكرية والاستحكامات الدفاعية في مدينة الموصل مع الروح المعنوية العالية والشجاعة النادرة لسكانها في افشال حملة نادر شاه بملحمة خالدة سيخلدها التاريخ على مر الزمن فقد عبر عنها أولسن بقوله : لم يشهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر مهاجمة اية مدينة بمثل هذه القوة ، فيما اذا استثنينا محاصرة نابليون لمدينة موسكو بـ (٤٠٠) الف مقاتل(٤٨) .

وقد قبر صمود الموصل احلام نادرشاه فاضطر الى التخلي عن حصار بغداد ، وسحب قواته من المدن العراقية الاخرى(٤٩) ، وانهى امله في حكمه من الهند الى البسفور ، وابعد تهديد الفرس للطريقين التجاريين : الموصل ــ حلب وارضروم ــ ديار بكر ــ حلب ، ولم يتسن لنادرشاه وصول البحر المتوسط ، كما انقذت الدولة العثمانية من خطر هددها ثلاثة قرون ونصف(٥٠) .


قبر ومدرسة دينية
باب المهدي
مقابر واراضي
مهجورة
تلول نينوى
الجامع الكبير
السراي
باب سنجار
باب البيض
باب الجديد
الجامع الاحمر
سور وحصن
المدينة
(رسم ١)
الموصل
في سنة ١٧٤٢ كما رسمها
نيبور

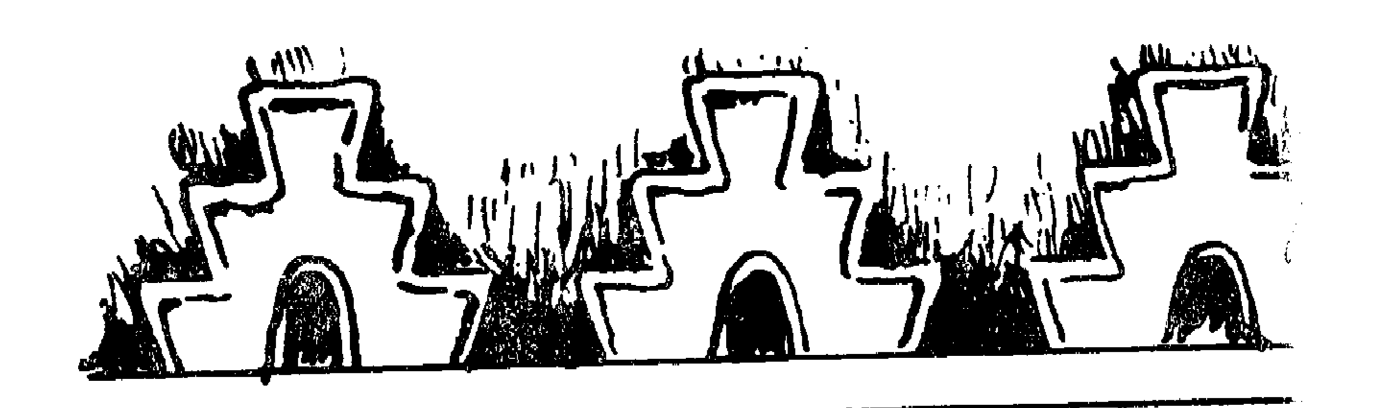


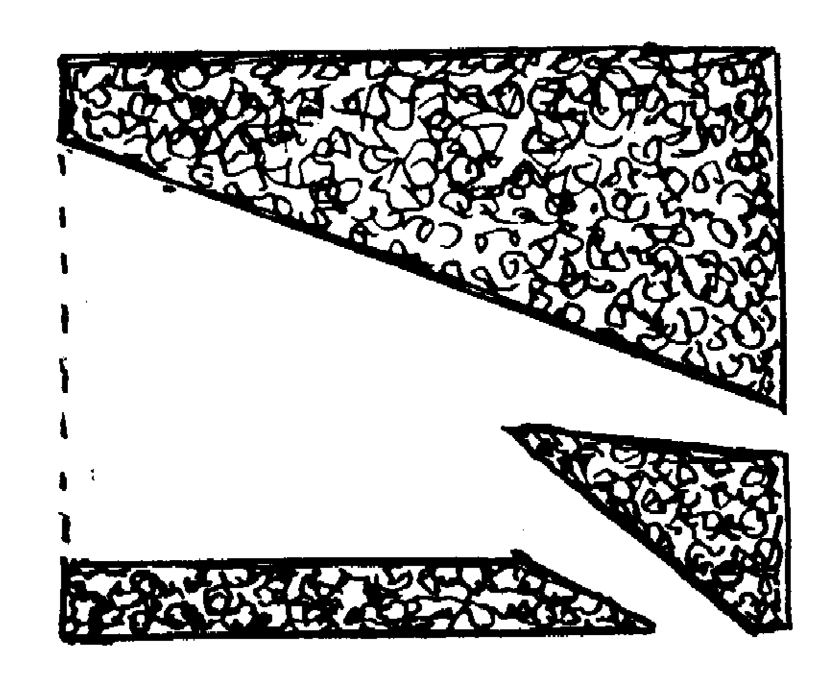
(رسم ٦) المزاغل المزدوجة في برج القلعة الرئيسة باشطابية
تخطيط د. أحمد قاسم الجمعة

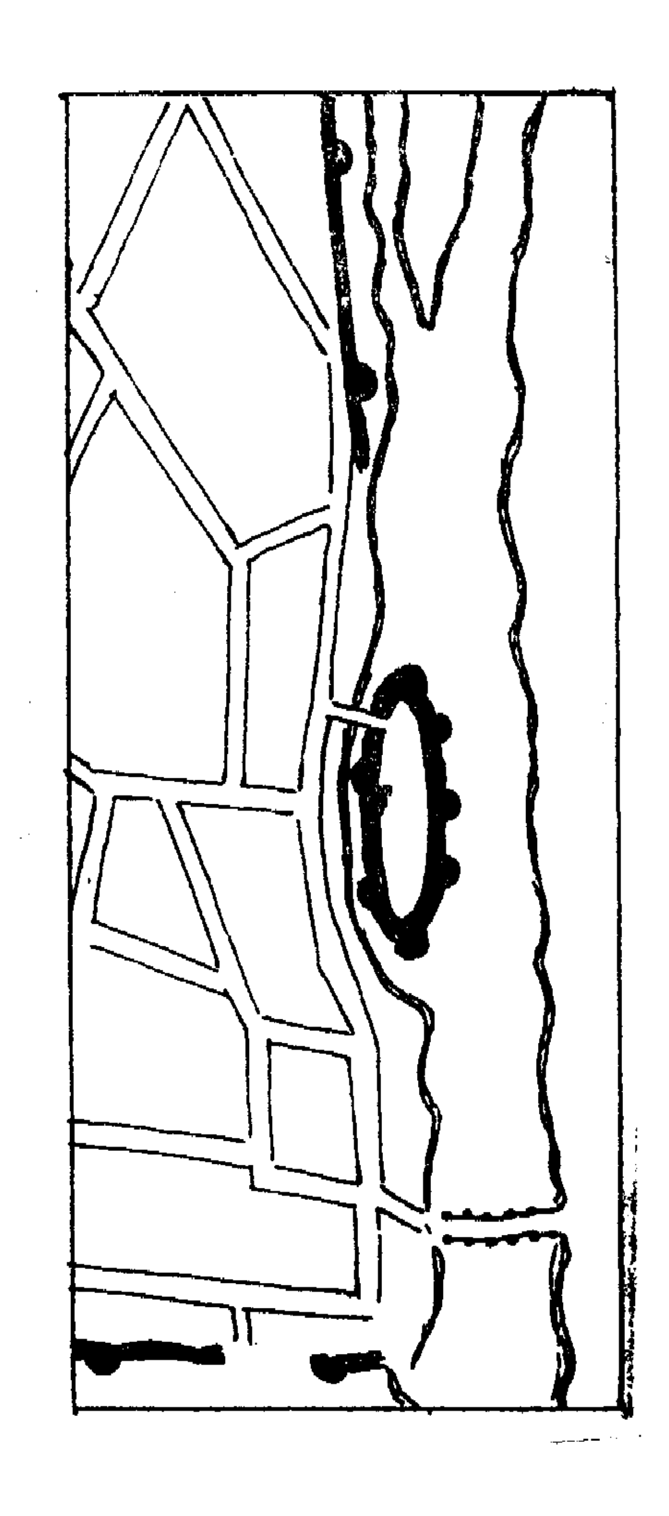


(رسم ٢) البرج الرئيس لقلعة الموصل الرئيسة (باشطابية)

(رسم د. احمد قاسم الجمعة)

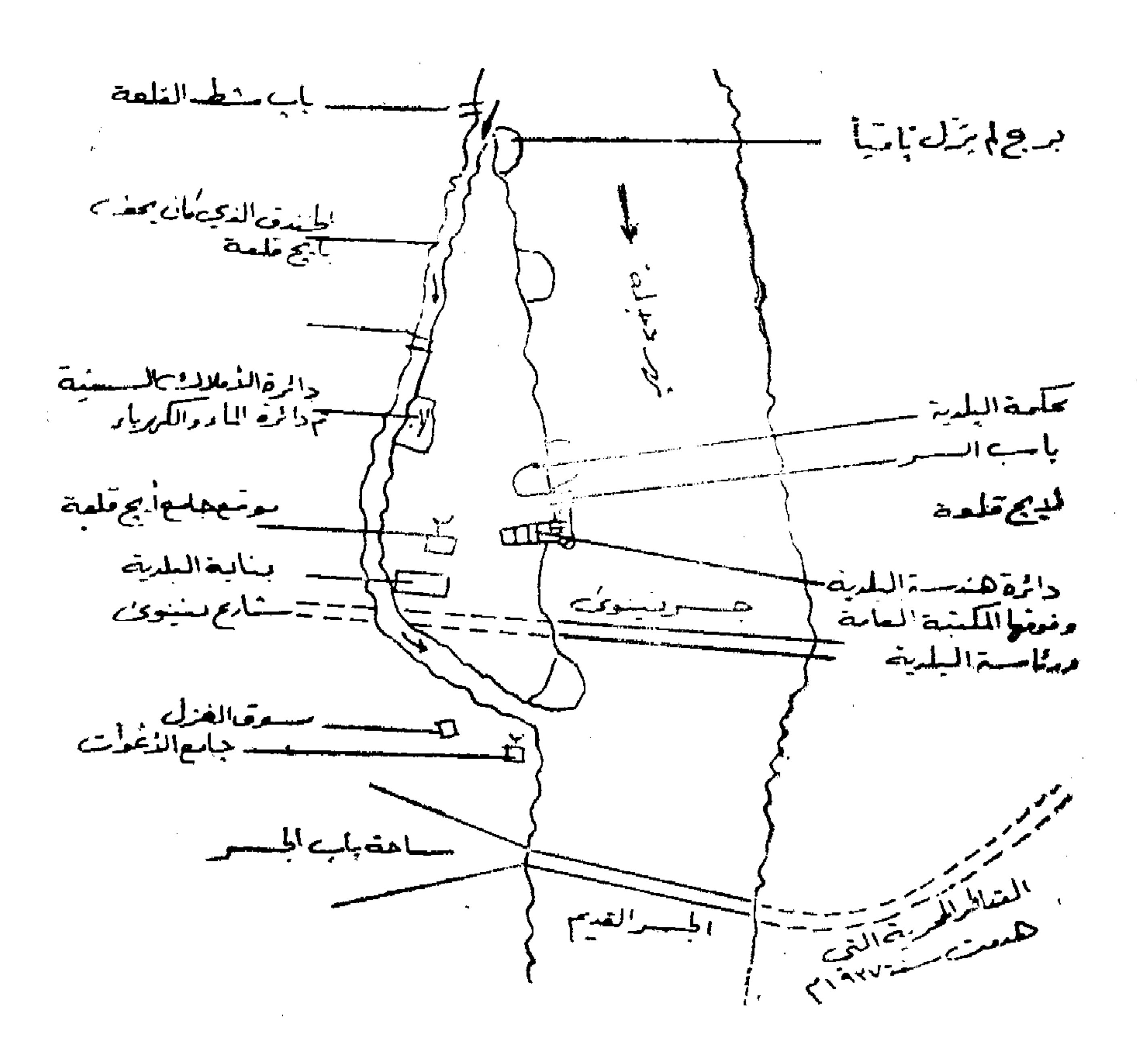






(رسم ٧) جزء من خارطة الموصل ويظهر فيها القلعة الداخليـــة

(عن : نيبور)



(رسم ٨) البنايات التي انشئت في اربج قلعة .. القلعة الداخلية بعد تركها

(عن : الديوه‌جي)

الهوامش

(١) الدكتور عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ، الطبعة الاولى ، بيرق ١٣٩١هـ / ١٩٧١ ، ص ١٣٦ ، ١٦٦ .

(٢) عماد عبد السلام رؤوف : الموصل في العهد العثماني (فترة الحكم المحلي ١١٣٩ ـ ١٢٤٩ هـ / ١٧٢٦ ـ ١٨٢٤ م) ، بغداد ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ١٠١ ، عبد الجبار محمد جرجيس : حصار الموصل من ملاحم البطولة ضد العدو الفارسي ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م ، الموصل ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١٤ .

(٣) عبد السلام : المرجع السابق ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٥) عبد الرازق الحسني : تاريخ العراق السياسي الحديث ، ط ٥ ، ج ١ ، بيروت ١٩٨٢م ، ص ٤٠ .

(٦) عبد السلام : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٧) س.هـ. لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط ، ط ١ ، بغداد ، ص ١٨٣ .

(٩) عبد السلام : المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(١٠) المرجع والصفحة نفسها ، عبد السلام : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(١١) ياسين بن خير الله الخطيب العمري : منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق ونشر سعيد الديوه‌جي ، الموصل ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ، ص ٢٧٤ .

(١٢) عبد السلام : المرجع السابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٣) جرجيس : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(١٤) ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ، محمد امين بن خير الله الخطيب العمري : منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء ، تحقيق ونشر سعيد الديوه‌جي ، جـ١ ، الموصل ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م ، ص ٢٨١ .

(١٥) محمد امين العمري : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ، 151 .

(١٦) ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(١٧) المرجع والصفحة نفسها ، عبد السلام : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(١٨) ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

(١٩) محمد امين العمري : المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٢٠) ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(٢١) محمد امين العمري : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٢٢) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل ، جـ١ ، مصر ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م ، ص ٢٨٨ .

(٢٣) محمدا مين العمري : المرجع السابق ، ص ١٥٦ .
(٢٤) عبد السلام : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .
(٢٥) ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .
(٢٦) المرجع نفسه ، ص ٢٨٤ ، ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
(٢٧) الصائغ : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٨٦ .
(٢٨) ياسين العمري : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .
(٢٩) المرجع نفسه ، ص ٢٨٨ .
(٣٠) عبد السلام : المرجع السابق ، ص ١٠٩ ، جرجيس : المرجع السابق ، ص ٢٩ .
(٣١) الدكتور طاهر مظفر العميد : المظاهر العسكرية في المدن العربية قبل الاسلام ، المستنصرية ، العدد ١٠ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م ، ص ٤٦٦ .
(٣٢) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى : الحضر مدينة الشمس ، بغداد ١٩٧٤م ، ص
(٣٣) القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م ، ص ٣٧
(٣٤) عبد السلام : المرجع السابق ، ص ٤٢٨ .
(٣٥) احمد الصوفي : خطط الموصل ، جـ٢ ، الموصل ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م ، ص ٢٢
(٣٦) اللواء الركن المتقاعد صبيح محمد رؤوف والدكتور صلاح حسين : المظاهر لحصن الاخيضر ، مجلة سومر ، المجلد ٣٢ ، لسنة ١٩٧٦ م ، ص ١٣٨ .
(٣٧) الدكتور حجاجي ابراهيم محمد : القلاع وتطور الفكرة الهندسية ، مجلة المنهل ٤٥٤ ، المجلد ٤٨ ، رمضان ٢٩٤ .
(٣٨) احمد قاسم الجمعة : محاريب مساجد الموصل حتى نهاية حكم الاتابكة (رسالـ (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ١٩٧١م ، ص ١٦٢ .
(٣٩) سرو اليس بج : رحلات الى العراق ، ترجمة فؤاد جميل ، بغداد ١٩١٦م ، ص
(٤٠) سعيد الديوهجي : بحث بتراث الموصل ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٩٠ .
(٤١) سعيد ابراهيم اسماعيل الدراجي : عمارة القلاع وتخطيطها في شمالي العرا ماجستير (غير منشورة) ، جامعة بغداد ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٥٠ .
(٤٢)
(٤٣) جيمس بكنغهام : رحلتي الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد ٦٨ ٦٥ ، ينيور .
(٤٤) الديوهجي : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(٤٥) الدكتور حسين علي الداقوقي : القلاع والحصون في مدن العصور الوسطى ، الاجيال ، العدد ٤ ، كانون الاول ١٩٨٦م ، ص ١٤٦ .
(٤٦) الدكتور احمد قاسم الجمعة : اصالة المعالجات المعمارية التخطيطية في الم العصور العربية الاسلامية ، مركز احياء التراث العلمي العربي لجامعة بغدا ص ١٩ .
(٤٧) الدكتور احمد قاسم الجمعة : المميزات والتصاميم المعمارية العراقية في وتأثيرها على النمو العمراني الحضري فيها ، مجلة اداب الرافدين ، العد ١٩٨٦م ، ص ٣٢٦ .
(٤٨) جرجيس : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .
(٤٩) عبد السلام : المرجع السابق ، ص ١١٢ .
(٥٠) جرجيس : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

لجوء رشيد عالي الكيلاني الى الملك عبدالعزيز بين العرف والدبلوماسية

الدكتـور فاروق صالح العمـر
قسم التاريخ ـ كلية الاداب ـ جامعة البصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة :

لقد مرت العلاقات العراقية السعودية بفترات امتازت بالمد والجزر في نوعية هذه العلاقات مستندة الى خلفيات زمنية طويلة تمتد لحوالي قرن من الزمان .

ففي مطلع هذا القرن اخذت العائلة السعودية بريادة عبد العزيز بن سعود تسترجع المناطق التي كانت قد فقدتها في الفترة العثمانية ومن جملتها منطقة الحجاز والتي كانت العائلة الهاشمية (عائلة الشريف حسين) تتمتع بحكمها كممثلة للدولة العثمانية اولا وكذلك من خلال الكيان الجديد الذي جاء بعد ثورة ١٩١٦ عندما اصبح الشريف حسين مدكا عليها .

انتهى هذا الصراع بخروج الهاشمية من الحجاز ولكن بعد ان تكونت دول جديدة ، في العراق (الملك فيصل) وفي الاردن (الملك عبد الله) . اما بالنسبة للعراق فقد كانت هناك علاقة غير جيدة بعد ان شن الاخوان هجمات متكررة على حدود العراق الغربية (في الفترة العثمانية اولا) ثم كذلك هجمات اخرى في فترة الملك فيصل سنة ١٩٢١م .. وقد ادت هذه الحوادث الى نوع من البرود السياسي بين الطرفين .

الا ان فيصل كان يريد ان يكون حاكما جيدا في العراق ويحاول ان يبتعد قدر الامكان عن المؤثرات الشخصية او العائلية في علاقاته مع ابن سعود وكان يريد ان يتفادى العلاقات غير الجيدة في سبيل مصلحة البلد الذي اصبح عليه ملكا خاصة وانه كان لا يريد ان تعاد مسرحية دمشق ثانية خلال فترة حكمه في سوريا ١٩١٨/١٩٢٠ ولهذا كان فيصل يبدو في سياسته مرنا متأنيا وسياسيا ذكيا فحاول أن يرسي العلاقات مع السعودية على شيء من الاحترام وعدم الاعتداء وقد توصل الى ذلك بالتأني والبعد عن المؤثرات العائلية وطبيعي ان لبريطانيا تأثيرا كبيرا في التخطيط لمثل هذه السياسة في المنطقة والتي تعتبرها منطقة نفوذ لها .

وقد كان نتيجة المحاورات والتنازلات بين الطرفين ان عقدت عدة اتفاقيات في فترة ما بين الحربين العالميتين نظمت العمل بين الدولتين العراق والسعودية بل اصبحت في فترة معينة علاقة وثيقة جدا . وزاد التقارب بين بعض السياسين العراقيين والعائلة السعودية خاصة رشيد عالي الكيلاني الذي يعتبر من الشخصيات السياسية البارزة في فترة الثلاثينات الذي استطاع ان يرسي العلاقات على اسس جيدة خاصة في حل المشكلات العشائرية التي كانت تحدث في تجاوزات الحدود الغربية بين العراق والسعودية (١) .

وفي ازمة مايس ١٩٤١ بين العراق وبريطانيا كان اتصال رجال حركة مايس بابن سعود وثيقا جدا فكانوا يستشيرونه في كثير من القضايا وبدوره كان يقدم لقادة الحركة في بغداد النصح المستمر بضبط النفس وعدم التسرع. حتى انتوت حركة مايس وهرب القادة الى خارج العراق ومن جملتهم رشيد عالي الكيلاني حيث التجأ اخيرا في المانيا حتى نهاية الحرب .

وباستسلام المانيا اتجه الكيلاني الى الحدود السويسرية التي رفضت السماح له بالدخول وعلى اثرها اتجه الى بلجيكا ثم فرنسا وفي اواسط تموز ١٩٤٥ هرب من مرسيليا الى بيروت ومنها الى دمشق وقد انكر الكيلاني أن المخابرات الفرنسية قد ساعدته في الهرب ويقول (والحقيقة لم يوصلني الا ربي) (٢) ويحكي الكيلاني قصة هربه فيقول :

« جئت هاربا من مرسيليا بباخرة اسمها مراكو ، (اي مراكش) وكانت الحكومة السورية قد استاجرت هذه الباخرة لاجل نقل التلاميذ السوريين الذين كانوا موجودين في فرنسا بعد ان انقطع الطريق والمساعدات عنهم وعن عوائلهم فجاءت هذه الباخرة وتخفيت انا كتلميذ سوري وعملت باسبورت سوري وسميت اسمي رشيد عالي (×) ويذكر انه حصل على هذا الجواز من براغ عندما بقى فيها حوالي اربعة اشهر متخفيا وقد اخرجه له قنصل سويسري يرعى شؤون السوريين .. ويضيف الكيلاني :

« وبعد ١٢ يوما وصلنا بيروت واجروا تحقيات وتدقيقات وتمكتنا من الهرب بشكل مزور وخرجت راسا في ساعة مضبوطة هي الثانية من ليلة اول رمضان سنة ١٩٤٥ فوجدت تاكسي وركبت فيه وذهبت الى دمشق واختفيت في بيت جميل الجابي الذي كان معي وبقيت حوالي الشهر في هذا المنزل وفي ليلة العيد هربت من هناك الى المملكة العربية السعودية على طريق غير اعتيادي وبقيت ما يقارب العشر سنوات (٣) .

وعن هذه النقطة اي مغادرته الى المملكة العربية السعودية يروي لنا احمد فوزي في كتابه (١٢ رئيس وزراء) نقلا عن جريدة البلاغ المصرية :

« وصلت ذات يوم برقية من امير الحدود عند شرق الاردن ان جميل

الجابي المحامي في دمشق واخرين كانوا يريدون اجتياز الحدود السورية الاردنية السعودية ويطلبون مقابلة جلالة الملك . وكان جلالته يهيأ للسفر في الرياض الى الحجاز فسأل عن مهمتهم وماذا تكون ؟ ولماذا لا يراجع الجابي ومن أتى معه السيد شكري القوتلي في سوريا قبل حضورهم إلينا ؟

واعتقد الملك عبد العزيز ان وفدا من السوريين قد حضر يريد مقابلته في شأن من الشئون المتعلقة بالموقف في سوريا وانعقد الرأي على أن يسمح جلالته لهذا الوفد بالمثول لمعرفة ما اذا كان هنالك ضد القوتلي نفسه ، قد يكون من الخير تلافيه بسرعة .

وعلى ذلك فقد اذن الملك عبد العزيز لجميل الجابي بالمجيء الى الرياض ووصل الجابي في صباح اليوم الثاني وكان في حميته رشيد عالي الكيلاني ، ولما مثلا بين يديه قال رشيد الواقع يا مولاي .. أن حقيقة الامر .. تختلف كل الاختلاف عن الصفة التي قدمنا بها الى ديار جلالتكم والحقيقة السافرة اني رشيد عالي الكيلاني :

وهدأ الملك .. وارهفت الاذان عندما قال جلالته : ـ يا رشيد .. انا اعلم تماما ما سينجم عن هذا من توتر في العلاقات بيننا وبين العراق ، قد يؤدي الى حرب ولكن ما كان لي بحال من الاحوال ، وقد قابلتني .. والتجأت الي الا أن اؤمنك وان أذود عنك » (٤) .

لماذا اختار الكيلاني السعودية :

في الحقيقة انه بعد انتهاء الحرب ، أو في الفترة التي وضحت فيها ان الحرب على ابواب الانتهاء ، كان اللاجئون السياسيون في المانيا قد فكروا بان يجدوا لهم مأوا جديدا ، وهذا من الطبيعي لن يكون في اوربا ، او في امريكا ، لانهم رجال سياسة ومؤيدين لدول المحور في الحرب الدائرة ، وعليه فان تفكيرهم كان محددا في المنطقة العربية والدول العربية . وعندما نجد ان هنالك سيطرة استعمارية فرنسية / بريطانية واضحة في المناطق العربية شرقها وغربها فاذن لابد من أن يكون الاختيار جيدا وذا ابعاد واقعية وعلى مستوى زمني طويل لا تؤثر فيه المواقف السياسية الطارئة .

لو فكرنا بأن الكيلاني اختار شمال افريقيا فانه لم يستطع ذلك للوجود الفرنسي المتألم من الموقف الالماني خلال الحرب ، والكيلاني لاجيء لالمانيا ان لم نقل حليفا لها . وعندما نفكر بمصر التي تعتبر دائما المنطقة الملائمة للاجئين السياسين والكيلاني كان يفكر بهذا الموضوع ، ولكن الوجود البريطاني الفعال داخل مصر ، وكذلك لان الملك فاروق لم يكن يمثل ثقلا كبيرا في السياسة الداخليــــة .

كما أن سوريا ولبنان تحت النفوذ الفرنسي ايضا ، وشرق الاردن كانت ضمن التحالف البريطاني العراقي فعليه لم يبق في تفكير الكيلاني سوى منطقة الجزيرة العربية والخليج . ولما كانت المملكة العربية السعودية تمثل مركز الثقل السياسي بين امارات ومشايخ الجزيرة العربية فكان اختيار الكيلاني اللجوء اليها الاختيار الصائب لانه عندما نقلب مجمل الاحتمالات نجد انه سينجح في الاختيار واللجوء فمن :

١ ــ الناحية الدولية / ان كان بتاثير بريطانيا بالدرجة الاولى ، والحلفاء بعدها ، فان هذه الدول تعرف جيدا المملكة العربية السعودية والملك عبد العزيز بالذات وكذلك العرف والتقاليد التي تسود هذه المنطقة فانها حتما ستغاضى عن ذلك خاصة وانه قد مر على حركة الكيلاني في العراق اكثر من خمس سنوات فأصبحت بحكم الوثائق . وكان لموقف الملك عبد العزيز الصلب في هذا الموضوع أن اقنع انكلترا بذلك (٥) ويظهر ذلك في اقوال رشيد عالي الكيلاني حيث ان الانكليز عندما يأسوا من محاولة تسليم رشيد عالي الكيلاني لهم اخذوا تعهدا من الملك عبد العزيز بأن يبقيه في المملكة ولا يغادرها (٦) لهذا نرى الكيلاني يغادر بعد وفاة الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ الى مصر حيث لا ارتباط مع ولي عهده .

٢ ــ الموقف العربي : لم يكن الموقف العربي في فترة الاربعينات ، يمثل الثقل ، كما هو في الوقت الحاضر ، هذا بشكل مبدأي ، والامر الثاني انه من المحتمل جدا ان لا يظهر تأثير هذا الالتجاء عكسيا لان الحركة الوطنية في اكثر المناطق العربية كانت تميل الى حركة الكيلاني في العراق وقد نالت تأييد كثير من الحركات السياسية داخل المنطقة العربية . خاصة في الشام ومصر .

٣ ــ يبقى الاشكال الوحيد في هذا الموضوع هو العراق اولا والاردن ثانيا لانهم يمثلون موقف العائلة الهاشمية وان العمل الذي قام به الكيلاني كان موجها ضدها / كما تعتقد / وعليه فان اختيار الكيلاني للسعودية وضعها في اشكال امام العراق بالذات (٧) .

بين العرف العربي والدبلوماسية :

ماذا يمكن ان نفسر تمسك ابن سعود بالكيلاني ؟ كل الجهات التي كانت تمثل الحلفاء والتي اصبحت بعدها جميع الدول التي دخلت هيئة الامم المتحدة واتخذت القرارات السريعة بموقفها ضد المحور واعلان الحرب عليها كورقة مرور للدخول في هيئة الامم المتحدة .. ونقول ان جميعها هي ضد موقف رشيد عالي الكيلاني خلال حركته في العراق ، امريكا ، انكلترا ، فرنسا والدول العربية والعراق صاحب الشأن ... هذه جميعها لا تتفق

مع تواجد الكيلاني في المملكة العربية السعودية ورغم ذلك نجد ان ابن سعود يتمسك بابقائه عنده :

« هل ان التجاء ابن سعود إلى العرف العربي وحماية الضيف (والدخيل) هي للتخلص من الموقف المعارض نتيجة الظروف المحيطة بالمملكة داخليا ودوليا ام أن موقفه هذا كان نابعا من العرف السائد في المملكة او في العائلة السعودية والخروج عنه معناه الابتعاد عن الاصالة والتقاليد السائدة . وكما هو معروف ان العرف العربي هو السائد في تلك الفترة في المملكة العربية السعودية في بساطة الحكم وفي استقبال الضيوف وحماية المحتاج والبساطة في العيش .. الخ من القضايا التي كانت تمثل السيرة السعودية خلال تلك الفترة مع محاولة الابتعاد عن الطعن في العرف العربي خاصة وان ابن سعود خلال الفترة التي سبقت ذلك وفترة الحرب الثانية كان قد اصبح دور مؤثر في السياسة العربية والدولية ويحاول ان يرسي في الداخل سياسة ترتكز على الشريعة الاسلامية السمحة وكذلك العرف العربي الذي لا يتناقض مع سابقه في هذا المنوال .

من ذلك نرى ان لجوء الكيلاني الى الملك عبد العزيز سبب له متاعب كان جديدا فالكيلاني سياسي يمثل تيارا معينا لا يتفق مع توجيهات العائلة السعودية وبهذا نرى الموقف الصعب الذي نتج عن ذلك ولكن ابن سعود استطاع بحنكته وصبره في التوفيق بين الاراء المتضاربة ليستقر بعدها الكيلاني في المملكة ولمدة عشر سنوات كان خلالها ضيفا كريما له ولعائلته فقدم ابن سعود بذلك مثلا جديدا في السياسة العربية لا تمثل تعارضا للدبلوماسية بقدر ما تمثل ابتعادا عن القضايا التي كان يسير عليها بعض الحكام الذي كان يمثل الجانب الاخر البعيد عن الروح والكرم والنخوة العربية .

من ذلك نرى ان لجوء الكيلاني الى الملك عبد العزيز سبب له متاعب كان في غنى عنها ولكن الذي حدث اصبح واقعا ليس من الممكن ان يتنصل عنه مادام يعيش الواقع والتقاليد العربية .

ولكن يمكن ان نقول ان ابن سعود استطاع الموازنة بين الدبلوماسية والعرف العربي فهو لم يفرط بأحدهما فقد استطاع بكياسته وهدوئه ان يرضي مجموع الاطراف فقد كانت الدول الكبرى مثلا تعرف طبيعة الحكم في السعودية ودلالته ولهذا فانها غضت النظر او طلبت تعهدا كما حدث لانكلترا التي كانت تريد ارضاء الطرفين العراقي والسعودي (٨) . وهكذا وجدنا مجموع الدول ان كانت اجنبية او عربية او حتى العراق بعد فترة زمنية طويلة ينسى او يتناسى الموضوع مما اكد مقدرة ابن سعود السياسية في توجيه الامور الوجهة الصحيحة

التي كان يراها صائبة . ولا يستطيع التفريط بها كمجاملة لاحدى الدول او خضوعا وانما اكد على العرف والتقاليد العربية التي اصبحت محترمة ومقدرة من مجموع دول العالم كما نرى في الوقت الحاضر .

اختلاف وجهات النظر :

المهم في موضوعنا هذا هو الموقف العراقي او بالتحديد موقف السلطة الحاكمة في العراق ، وقد توضح هذا الموقف من خلال الرسائل المتبادلة بين الملك عبد العزيز والوصي عبد الاله وكانت البداية هي رسالة الملك عبدالعزيز بعد أن علم جلالته بأن العراق اخذ العلم بلجوء الكيلاني الى المملكة العربية السعودية وكان قد سبق هذه الرسالة مكاتبات رسمية عن طريق القنوات الدبلوماسية في أول الامر ، وحسب قول الوصي عبد الاله انه لم يتأكد من وجود الكيلاني في السعودية الا بعد وصول البرقية الاولى (الرسالة) من الملك ابن سعود اليه .

وتبودلت بين الطرفين سبع رسائل (يدعونها برقيات) وكان ابن سعود يوضح استلامها عن طريق القائم بالاعمال العراقي في جدة .. فكانت اربع رسائل من ابن سعود الى عبد الاله وثلاث رسائل من عبد الاله الى ابن سعود. وقد تم نشر هذه الرسائل في ملف عن حركة ١٩٤١ (كما تسمى حركة رشيد عالي الكيلاني) وسمي بملف الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١ والذي شارك فيه نخبة من المهتمين وعلى راسهم الدكتور فاضل البراك ود. نجم الدين السهروردي وابو احمد وهيئة التحرير وقد نشر في مجلة آفاق عربية العدد ٩ آيار ١٩٧٦ (٩) .

كانت الرسالة الاولى من ابن سعود الى الوصي عبد الاله تدور حول نقطتين اساسيتين هما :

١ ـ العفو عن الكيلاني .

٢ ـ سرية المكالمات .

فقد وضع ابن سعود في مقدمة رسالته مدى اتفاقه مع عبد الاله في عدم مجاراة او الاتفاق مع حركة ١٩٤١ وقد اكد له ذلك وأرجعه الى المخاطبات التي جرت سابقا بين رشيد عالي الكيلاني وابن سعود حول الموضوع في حينه اي فترة ١٩٤١ . ومعنى ذلك ان ابن سعود اعطى هذه المقدمة ليبرهن على انه لا يتفق مع ما حدث ولكنه كان يريد ان يطرح ما بعدها ويحاول ان يأخذ الموافقة على طروحاته فوضح ان التجاء رشيد على الكيلاني الى المملكة بدون معرفة سابقة لان الكيلاني باء متخفيا على انه سوري مع مجموعة من

الســوريين ربما ان رشيد (لجأ الى حارمكم وعيلاتكم) هذا ما جاء في نص رسالة ابن سعود كتبريد للجوء . لهذا فان ابن سعود يطلب من عبدالالـــه (يرجو من الله ثم منكم ان تشفع له عند سموكم بالعفو وان يكون بعد ذلك تحت ظلكم وحمايتكم لهذا فان اخاكم يرجو عفوكم عنه وشموله بمكاركم) وقد اعتبر ابن سعود هذا الطلب (من الشيم التي تقتضيها الروح الدينية) وفي نهاية رسالة ابن سعود وضع اهمية بقاء هذه المكاتبات على سريتها (حتى لا تتداولها الصحف والاذاعات في الوقت الحاضر) (١٠) .

وفي**الرسالة الثانية** يتضح مدى الفارق في التفكير والتوقعات بين الاثنين ففي الوقت الذي كتب فيه ابن سعود رسالته الاولى موضحا جيدا ما يرتأ به من استيعاب لهذه القضية نرى ان الوصي عبدالاله ينظر للموضوع مـــن زاوية معينة فالمحادثة لا زالت تعيش في ذهنه وينظر لها من خلفيات التهديد الذي صاحب حركة ١٩٤١ والتي كادت تودي به وبالعرش الهاشمي ورغـم مرور اكثر من اربع سنوات على هذه الحادثة الا انه ومن رسالته فانها تبدو في حرارتها .. ويبدو ذلك من بداية الرسالة حيث يقول مخاطبا ابن سعود :

« ان من اعظم المزايا للتي تعجبني في جلالتكم اخذ المفسدين بالقـــوة فكيف من اراد ان يفسد كيان القوة العربية والاستقلال العربي الذي سعي بيتينا في احيائهما السمي الكبير » . واستمر عبد الاله محاولا ايجاد نقـــاط معينة يوضح من خلالها مدى الايواء غير القانوني والشرعي الذي يشمل لجوء الكيلاني عنده نوضحها في النقاط التاليـــة :

اولا : يقول الوصي ان هذا الايواء (يتنافى وايواء من اراد بأبناء قومكم واصدقائكم السوء) وانه لا يتفق مع الشهامة العربية . في حين نرى ان هذا الايواء هو اساسه الشهامة العربية ولكن النظرة تختلف بين الاثنين حـــول القضية .

ثانيا : ولا يتفق ايضا مع ميثاق الامم المتحدة « فانه صريح فيما يختص بايواء مجرمي الحرب لدى الامم المتحـدة » .

هنا نطرح سؤالا .. هل ان رشيد عالي الكيلاني من مجرمي الحرب؟ انه كان ضمن القيادة التي تحركت داخل العراق ضد السيطرة البريطانية كما ان العراق لم يكن ساحة للحـرب كما انه ايضا ـ أي العراق ـ لم يشترك كطرف في الحرب العالميـة الثانية .

ثالثا : ولايتفق مع اتفاقية تسليم المجرمين السياسيين بين شعبينا وفي الحقيقة ان جميع الاتفاقات المعقودة بين الطرفين بدأ من اتفاقية مكة ١٩٣١ وحتى محضر الاتفاق بين العراق والرياض في نيسان ١٩٤٠ لم يعط أي دلالة

على ذلك بل بالعكس فان اتفاقية مكة ١٩٣١ في مادتها الثالثة تقول بعدم تسليم المجرمين السياسيين (١١) .

وهذه النقاط الثلاثة السابقة فهي توجب ـ برأي الوصي عبد الاله تسليم السياسي الذي هو رشيد عالي الكيلاني .

ـ اما الجانب الاخر من الرسالة فهو يحاول بقاء الكيلاني في المملكة العربية السعودية فانه يؤدي براي الوصي :

« يحيي ما اندثر من الاحقاد بين ابناء الشعب العراقي » وكان هذا تصورا لا خلفه له فبالعكس فان رشيد في نظر الشعب العراقي كان رمزا لحركة ١٩٤١ وليس من الممكن ولهذا السبب ان يقف الشعب العراقي موقفا معاديا ـ ويمكن ان نقول العكس لو ان المملكة العربية السعودية وقفت غير هذا الموقف ـ اي انها سلمت الكيلاني للعراق ـ لكان هناك احتمال كبير في موقف معاد من الشعب العراقي .

ـ وقد جاء في رسالة الوصي (تضحية الفرد في سبيل المجموع من اسس التفاهم والتقارب بين الشعوب) كان الصي يتصور ان مصير رشيد عالي الكيلاني واعدامه فان الكيلاني ليس فردا كبقية الافراد ، لا ارمي من ذلك ميزات شخصية له ولكن الاحداث التي وقعت افرزت الكيلاني كشخصية قائدة للحركة وقد سميت الحركة باسمه . كما ان هذا الفرد الكيلاني ـ اصبح الان في معية شخصية تعطي للعرف والتقاليد اهمية كبيرة وهي ـ ابن سعود ـ فليس من الممكن التفريط بذلك من اجل راحة الوصي عبد الاله ، خاصة وان رشيد كان الورقة الاخيرة التي يطلبها الوصي بعد ان نفذ اعداماته في مجموع قادة حركة مايس ١٩٤١ الذين استطاع القبض عليهم (١٢) .

وفي نهاية رسالته يورد عبد الاله :

١ ـ انه يعتذر عن التجاوب فيما طلب ابن سعود .

٢ ـ ويطلب ايضا (عدم ايواء المذكور في بلاد الاخ) .

وفي الرسالة الثالثة :

من ابن سعود الى الوصي عبد الاله يظهر لنا اهمية العرف والتقاليد في نظرة ابن سعود للامور فقد اكد عليها في مجمل رسالته . فقد واصل اول الامر طروحاته السابقة فاضافة الى انه كان مقتنعا بما جاء في رسالة الوصي ومتفقا معه على كثير من القضايا الا ان جانب العرف والتقاليد ـ كما ذكرت ـ يبقى قويا في نظر ابن سعود ولهذا تراه يحاول ثانية وثالثة من اجل الوصول ولو الى منتصف الطريق من اجل ان تبقى علاقته جيدة مع العراق

شعبا وحكومة وان تبقى العلاقات العائلية جيدة خاصة وان الجو ملبدا بين العائلتين لفترات طويلة .

فبعد ان يعترف ابن سعود بان المسألة هذه (عظيمة وكبيرة وثقيلة ولكن عظمتكم وجنابتكم وحرصكم على شرف حزبكم وعضدكم العرب تجعلنا نرجو ونؤمل ان لا ينقطع املنا ورجانا منكم) .

وثانيا : وهذه نقطة مهمة في نظر ابن سعود ما هو موقف العائلة وابن سعود امام السعوديين والعرب والعالم في حال تسليمهم الكيلاني من وجهة نظره الخاص ـ أي ابن سعود ـ وليس من وجهة القانون الدولي :

« اخي ما وجه اخيكم عند العالم وما نظره الذي ينظر الناس وما يكون مقام اخيكم عند سموكم اذا حدث امرين :

أولا : ان مقامه ما صار شيء في رجائه .
ثانيا : في تسليم رجل ضرب البر والبحر وصار في وسط محارمكم فماذا تكون العين التي انظر بها الناس » ان هذا العمل (سيلحق عارها باخر رجل من عائلتنا) (١٣) .

وفي نهاية الرسالة كرر ابن سعود مطالبه السابقة .

١ ـ ارجو سماحكم والعفو عنه حتى تنالون بذلك الشرف العظيم .

٢ ـ او انني اطلق سراحه ويضرب الطريق الذي هو يريد فالاول هو احب وهو عفوكم والثاني مالي مندوحة عنه وانا منتظر جواب سموكم) .
وقد كان تاريخ هذه الرسالة في ٧ ذي القعدة ١٩٦٤ (١٤) .

وفي الرسالة الرابعة :

من عبد الاله الى سعود والتي كانت في محتواها تتضمن من الطمن والتشكك الشيء الكثير ليس فقط على الكيلاني نفسه وانما الذي يؤويه ايضا ولهذا نرى جواب هذه الرسالة كان شديدا ايضا .

فقد حاول الوصي عبد الاله في بداية رسالته اقناع ابن سعود بانه يعمل جاهدا في هذه القضية لانها تهم البلد الذي يحكمه فهو وصي على العرش ومسؤول من الناحية الثانية عن (دولة مقيدة بدستور وقوانين) على اعتبار ان هذه القضية ليست قضية شخصية وانما قضية تهم امن البلاد واستقرارها ولهذا فهو يضيف « ان ما اشتهر به جلالة اخي المعظم من اهتمامه باحكام الدين والتزامه جانب الحق يجعلني أومل من جلالته ان يعالج قضية رشيد من وجهها الاخر) .

اي ان ينظر لها ابن سعود على انها امور تتعلق برجل مجرم يطالب بتسليمه لا موضوع يتعلق بعرف وتقاليد ولجوء شخص وطلب الحماية .

بعدئذ يتحول الوصي في هجومه على شخصية رشيد عالي الكيلاني ويناقض نفسه في التعريف بهذه الشخصية فيذكر أو (انه كان دائما عبدا لمطامعه وعدوا لبلاده وقد رفعته الظروف من الحضيض باستناده الى ظرف شاذ او فتنة عمياء او عضد خارجي) ويضيف بعدئذ في نفس الرسالة الراي الثاني المناقض (انه حقوقي يفهم مغبة انتهاك حرمة القانون وخرق المعاهدات) (١٥) .

وكانت عبارات الوصي عبد الاله في رسالته الرابعة التي اثارت ابن سعود والتي تتعلق بالعهود والاتفاقات والذي يقراها لا يدري هل هي مقصود ام مغلقة ولكنها مع ذلك فقد اثارت ابن سعود « ان تسليمكم المجرم » .. (يجيء برهانا قاطعا على حرص جلالتكم على تنفيذ المعاهدات واحترام توقيع جلالتكم عليها وبذلك تزدادون شرفا على شرف) ويضيف ... « وقد اتفق الشرع والعرف على تعظيم حرمة العهود والحث على الابقاء بها » وانكم (حاولتم مساعدة الرجل متخطين في سبيل ذلك الاعتبارات الانفة الذكر) .

هذا هو الخلاف في التفكير بين الاثنين بين تفكير التجأ اليه ابن سعود والوصي عبد الاله فالاول محرج بوجود شخص التجأ اليه ويطلب حمايته والثاني ينظر للموضوع من زاوية واحدة هي اطفاء حقده وتسليم الكيلاني له لكي يقدمه للاعدام ويريح نفسه ويريح حلفائه . كما ان الوصي يعتبر ان قضية رشيد هي قضية اعتيادية لا تحتاج الى مثل هذا الجهد :

« القضايا العديدة التي برهنا فيها على عظيم احترامنا لهذا المقام وتلبيتنا لرغباته في اهم وادق من قضية رشيد لا تدع مجالا للعتب فيما اذا تعذرت علينا تلبية الرغبة في قضية اعتيادية كهذه) .

واخيرا وفي النهاية الرسالة يرد الوصي على تساؤلات ابن سعود في نقطتين :

« اولا : العفو عن الرجل خارج عن مقدورنا » .

« ثانيا : ان اطلاق سراحه ليضرب الطريق الذي يريده هو نقض صريح للمادة الثالثة من معاهدة تسليم المجرمين » .

وفي الحقيقة فان المادة الثالثة من المعاهدة تستثني بالذات المجرمين السياسيين ورشيد سياسي وعليه فان الوصي كان يحاول بشتى الطرق في ان يفسر المواثيق والعهود بما يناسبه ويؤيد فكرته .

وهكذا وجدنا هذه الرسالة ليس فيها اية مرونة سياسية لان ابن سعود يريد ان تكون الحلول من بين الاطراف العليا في الدولتين اي فرق المعاهدات والقوانين .

ويخرج الوصي اخيرا (انني التمس المعذرة من جلالة الاخ عن عدم تمكين من تغيير وجهة نظرا في ضرورة تسليم المجرم) ويضيف « كما ان اطلاق سراحه سابقة خطرة وبادرة سيئة لن يكون لها اثر الحسن في علاقات الصداقة والاخوة » وبهذه الخاتمة حاصر عبد الاله الملك ابن سعود من كل الجهات ولم يدع له فرصة التفاهم فوصلوا الى طريق مغلق ولهذا فان التطورات القادمة في الرسائل المقبلة تحمل اكثر من ذلك (١٦) .

وكانت **الرسالة الخامسة** من ابن سعود الى عبد الاله فيها نوع من الحدة الهادفة ولهذا نستطيع ان نعتبر الاسلوب الذي كتبت به الرسالة شديدا نوعا ما نعرف ان المخاطبة تمت بين رئيسي الدولتين .

وقد عرض الملك عبد العزيز في اول الرسالة القضايا التي اثارها الوصي عبد الاله في رسالته (الرابعة) على شكل نقاط ثلاث وتدور حول المعاهدة وتسليم المجرمين وان الكيلاني من مجرمي الحرب وعلاقة ذلك بالامم المتحدة والنقطة الاخيرة حول تلبية بعض الرغبات التي هي (اهم وادق من قضية رشيد) وكان رد ابن سعود عليها بنقاط خمسة :

اولا : في البداية وضح ابن سعود موقفه المبداي من حركة ١٩٤١ واستنكاره لها كما اشار الى ذلك ايضا في نهاية الرسالة حول ان السفير البريطاني في جدة Bind على علم بالمكاتبات حول هذا الموضوع وكان Bind في فترة ١٩٤٥ سفيرا لبريطانيا في بغداد (١٧) .

ثانيا : اما بالنسبة للمعاهدة فكان ابن سعود يعتبر طلب الوصي عبد الاله حول تسليم المجرمين (ما هي الا زيادة عن المعاهدة) وقد ناقشت هذا الموضوع اثناء بحث ذلك في الرسالة الرابعة وقلت بان المعاهدة لا تتضمن بتسليم المجرمين السياسيين :

ويضيف ابن سعود في نهاية مناقشته لهذه الفقرة :

« لقد كنت متأكدا من حل الموضوع دون الرجوع الى دواير الحكومتين وبحث المحاكم فيها ولا ازال ارجو الوصول لذلك الحل دون الرجوع لتلك المناقشات »أي كما ذكرت ذلك سابقا ان يحل الموضوع بينهما كرئيس الدولتين .

ثالثا : وحول موضوع هل ان الكيلاني من مجرمي الحرب وعلاقة ذلك بالامم المتحدة فقد رد ابن سعود على ذلك .

« ان مسألة مجرمي الحرب هي بيننا وبين الامم المتحدة » .

رابعا : وحول تلبية الرغبات فقد اشار ابن سعود في معرض رده :

« اننا لا نذكر حادثا من هذا القبيل كان ادق من مسألة رشيد عالي او قريبا منها » .

خامسا : اما بالنسبة الى نقطة اطلاق سراح رشيد عالي الكيلاني فقد ذكر ابن سعود « وان كنت لا اريد اطلاق سراحه الا انني ما احب ان يبقى عندنا كي لا يسبب وجوده تعكير صفو العلاقات الحسنة السائدة بين بلدينا وعلى كل فالرأي لكم في هذا الشأن أن احببتم أن نبقيه او نطلق سراحه » وفي نهاية الرسالة وضح ابن سعود .

(انني لا احب ان يكون بيني وبين سموكم والعراق اي خلاف يؤثر في حسم العلاقات السائدة بيننا ولكن لما آل الامر الى القول بنكث العهود ونقض المعاهدات منا في قضايا كبيرة شق علينا ذلك ورأينا من اللازم أن ندافع عن انفسنا وعن تهمة نقضنا للمعاهدة ونكثنا للعهود ونوضح لسموكم حقيقة الواقع) .

وهذه الفقرة هي في مجملها توضيح مدى تألم ابن سعود من رسالة عبد الاله السابقة ويختتم ابن سعود رسالته « أما اعتذار سموكم عن عدم موافقتكم على اجابة رغبتنا بالصفح عن رشيد عالي الذي ما تقدمنا لسموكم وطلبنا ذلك الا نظرا للصداقة التي تربطنا والعروبة التي تجمعنا فاذا قبلتم رجائنا فهذا هو المأمول من سموكم ونحن نشكركم على ذلك واذا لم توافقوا فانا صديقكم على الدوام » (١٨) .

جاء الرد في الرسالة السادسة من عبد الاله الى الملك عبد العزيز يتضح من مقدمتها احساس الوصي بمدى التألم الذي كان فيه ابن سعود عندما كتب رسالته السابقة (نرى من واجبنا ان نعرف عن مزيد تألمنا للتأثير الذي لمسناه في برقية جلالتكم) ويضيف الوصي مخاطبا ابن سعود (لقد طلبتم منا اما العفو عنه او اطلاق سراحه وقد ابرقنا الى جلالتكم موضحين رأينا وكانت برقيتنا واضحة وليس فيها ما يوجب التأثر اذ لم يكن قد وقع شيء من الخطأ في نقل البرقية) .

ويبدأ الوصي بعدئذ يذكر النقاط السابقة البحث مرة ثانية وبنفس التفسير محاولا ان يتفادى ما وقع من سوء تفاهم بين الاثنين حول الموضوع وكانت الرسالة تتألف من ست نقاط وهي اطول الرسائل السبع التي تبودلت بين الطرفين على أن فيها تكرارا لما جاء في الرسائل السابقة التي كتبها الوصي عبد الاله الى الملك عبد العزيز . الا ان هناك نقطة واحدة جديدة في هذه الرسالة وهي أن الوصي عبد الاله ارجع اثناء تكلمه عن الخلافات التي حدثت بين الطرفين او سوء التفاهم الذي حدث (ان يكون شؤم رشيد الذي اعتاد ان يلازم حركاته وسكناته قد تلمس سبيله الى هذه القضية) ويقيه (ان رشيد مشؤم الطلعة كما لا يخفي ولكننا لن نفصح المجال لسريان شؤمه) .

واظن ان هذا التحليل لا يأتي من رئيس دولة يعتمد بأنه يسير البلد

حسب قوانين واعراف موضوعة والذي اظنه ان هذا المخرج الضعيف من قبل الوصي كان نتيجة للاحراج الذي اوقعه فيه الملك عبد العزيز .

وفي النقطة الخامسة من الرسالة يتناول ايضا الوصي عبد الاله شخصية الكيلاني بالتقريع والذم ويروي تاريخ حياته بتناول الجوانب السلبية في شخميته ان كان في الفترة العثمانية وكذلك فترة الحكم الوطني .

(ـ اعان الاتحاديين على كبح الروح الوطنية في العراق .

ـ انه خدم حكومة الاحتلال البريطاني بينما قاطعها معظم الوطنية .

ـ يستعمل طريقة الفتن والدسائس .

ـ لا يأتي للمنصب الا عن طريق الدم والنار ولا يغادره الا كذلك .

ـ اقحم الجيش العراقي بالسياسة .

ـ نقل ويلات الحرب للبلاد .

ـ فر خارج البلاد تاركا رفقاءه وبلاده للمصير المظلم .

ويضيف الوصي (هذا هو رشيد عالي يا صاحب الجلالة وتلك هي سيرته واعماله تضاف اليه الاساليب الدنيئة والاقوال البذيئة التي لجأ اليها ضد **مقام العرش وضد شخص اخيكم** فاذا اتسع العفو لمثل هذا المجرم فلمن فرض القصاص وعلى من يطبق (١٩) .

وفي النقطة الاخيرة اي السادسة .

(بناء على ما تقدم تكرار اعتذارنا لجلالة الاخ عن عدم تمكننا من تلبية طلب جلالتكم بشأن المجرم ونؤكد لجلالته عظيم امتناننا وتقديرنا للمواقف المجيدة التي عودنا وقوفها في سبيل توثيق صلات الود والاخوة بيننا) .

وهكذا نرى ان تركيز الوصي على الناحية الشخصية في حقده على الكيلاني وضحت بصورة جلية في هذه الرسالة عندما اثار الوصي الى أن عمل رشيد موجه ضد العائلة الهاشمية او شخص الوصي نفسه في حين كان الموقف الاخر اي موقف الملك عبد العزيز يؤكد على العفو عند المقدرة (٢٠) .

اما الرسالة السابعة والاخيرة من ابن سعود الى عبد الاله فقد كانت النتيجة النهائية لما تعب الطرفان من التوصل الى نوع من الاتفاق حول حل الموضوع وعندما فشلت كل الجهود في أن يصل ابن سعود الى حل مرض للمشكلة عادوا بعدها الى القنوات الدبلوماسية مثلما كانت عليه قبل ان يتناول الاثنان الرسائل المارة الذكر .

وقد وضح ابن سعود في رسالته هذه مدى اختلاف وجهات النظر في تفسير الامور .

(ولكننا لاحظنا ان قضية تسليم المجرمين تعتروها مشكلات مادية وعلمية وترافقها اصول واحكاة لا يمكن تخطيها من حيث شمول احكام

المعاهدة او عدم شمولها وكون المجرم سياسيا او غير سياسي) .

وبذلك كان يقصد ابن سعود ان هذه القضايا تحتاج الى نوع من التحقيق الذي يمكن ان تقوم به لجان من الحكومتين حتى يمكن الخروج برأي معين واضح .

ورجع ابن سعود ثانية ليؤكد طروحاته السابقة (اننا نرغب في العمل على حل المشكلة بالروح التي تسمو بكلينا عن مستوى النصوص اللفظية القابلة للتفسير والتأويل . وفي جو الوداد الاخوي والاخلاص المتبادل) .

وفي نهاية الرسالة يتوصل ابن سعود الى ما يريده ايضا الوصي عبد الاله .

(اما الان وقد اشعرنا سمو الاخ بان حل القضية فيما بيننا متعذر بسبب الاوضاع والاشكال القانونية والدستورية في العراق واعلن عن رغبته في ترك المراجعات في ذلك الامر الى حكومتينا طبقا لاحكام المعاهدات القائمة بين البلادين فانه لا يسعنا الا النزول عند رغبة سموه مع الاعراب عن اسفنا لعدم حصول ما كنا نصبو اليه ونتمناه) (٢١) .

وهكذا اغلقت القضية على هذا المستوى وبدات المكاتبات بين الطرفين عن طريق القنوات الدبلوماسية كما ذكرت سابقا ولكنها لم تؤدي الى نتيجة وانما الزمن هو الذي عفى عليها تدريجيا لتصبح بحكم الوثائق ويبقى الكيلاني في السعودية مدة عشر سنوات وبعد وفاة الملك عبد العزيز يغادر الكيلاني الى مصر بعد ثورتها سنة ١٩٥٢ بسنتين اي في ١٩٥٤ ويبقى فيها اربع سنوات ليعود الى وطنه العراق ثانية ١٩٥٨ م .

خاتمة :

وهكذا وجدنا الفارق في التفكير والتفسير والمعالجة بين الوصي عبد الاله وبين الملك عبد العزيز في النظر الى الامور وفي معالجة المشكلة التي نتجت عن لجوء الكيلاني الى بلاط الملك عبد العزيز .

وكان الوصي عبد الاله ينظر الى الكيلاني انه مجرم عادي اجرم بحق البلد وحوكم غيابيا وصدرت احكام بحقه فهو يريد ان يطبق الدستور والقوانين

وينظر ابن سعود الى مشكلة رشيد من زاوية العرف والتقاليد التي اكدت نفسها في السياسة السعودية والتي كانت واضحة من خلال الرسائل المتبادلة بين الاثنين .

ولكن يمكن ان نرجع ونقول ان ابن سعود استطاع الموازنة بين الدبلوماسية والعرف العربي في معالجته لهذا الموضوع ولم يبق متأثرا من هذا الحل الا العراق وسلطته الحاكمة فقط في حين أن بقية الدول عربية كانت ام اجنبية كانت تنظر للموضوع من زاوية مراعاة الحكم السعودي في نظرته الخاصة للقضية منطلقة من العرف والتقاليد السائدة في المملكة العربية السعودية . .

مصـــادر البحث :

(١) الاتفاقات التي عقدت بين الجانبين :

أ ـ اتفاقية المحمرة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٢ م .

وكذلك البروتكولين المرفقين مع هذه الاتفاقية .

ب ـ اتفاقية ١٩٤٤ هـ / ١٩٢٥ م .

جـ ـ مفاوضات جـــدة ١٩٢٨ م .

د ـ اتفاقية البارجة لوبين بين الملك فيصل والملك عبد العزيز ١٩٣٠ .

هـ ـ اتفاقية مكة ١٩٣١ بعد زيارة نوري السعيد رئيس الوزراء .

وقد تم التوقيع على الاتفاقات معاهدة حسن الجوار .

بروتوكول تحكيم اتفاقية

تبادل تسليم المجرمين .

و ـ معاهدة الاخوة ١٩٣٦ وتوقيع حلف بين الطرفين .

ز ـ محضر بين العراق والرياض ـ نيسان ١٩٤٠ .

(٢) محكمة الشعب : الجزء الخامس / ص ٢٠١ بغداد ١٩٥٩ محاكمات المحكمة العسكرية العليا / المحاضر الرسمية للجلســات التي عقدتها المحكمة وما تسمى بمحكمة المهداوي) .

ـ وقد ذكر ذلك ايضا / عبد الله فيلبي في كتابه ص ١٩٤ .

ان ضابط الاستخبارات الامريكية والفرنسية والانكليزية ساعدوه في الهرب . وقد سأل عبد الرزاق الحسني رشيد عالي الكيلاني حول الموضوع وقد رد عليه هذا الاخير برسالة يصف له كيف انتقل من منطقة الى اخرى حتى وصل السعودية وانكر كل ما قيل عنه في هذا الموضوع .

راجع / عبو الرازق الحسني / الاسرار الخفية في حركة ١٩٤١ التحررية ص ٣٠٢ وقد دون الحسني نص الرسالة في صفحة ٣٠٣ والمؤرخة في ١٩٦٤/٦/١٥ .

* يقول الدكتور مجيد خدوري ان الباسبورت الذي كان يحمله رشيد باسم عبد القــــادر الميـــداني .

راجـع

ـ اما الاستاذ امين سعيد فيروي عن لسان رشيد عالي الكيلاني الذي التقاه في دمشـــق بعد ثورة العراق ١٩٥٨ .

وقد ذكر له في صفحة ٤٦٨ (ان فتاة فرنسية اضافت اسما مستعارا سمتني به) ولم يذكر اكثر من ذلك .

ولكنه يضيف بعد ذلك في ص ٤٦٩ انه وعو في سوريا حصل على بطاقة جنسية سورية قد يؤدي الى حرب ولكن ما كان لي بحال من الاحوال قد قابلتني = ـ والتجأت الى الا ان تشهد بانه مواطن سوري من دير الزور وان اسمه احمد عبد القـــادر .

راجع / امين سعيد تاريخ الدولة السعودية .

مطبوعات دائرة الملك عبد العزيز رقم ٩ طبعـــة منقحة .

(٣) محكمة الشعب / المصدر السابق الجزء الخامس ص ١٩٨ .

ـ ويقول د. مجيد خدوري / في كتابه العراق المستقبل ص ٢٤٢ أن سفرة الكيلاني الى السعودية استغرقت ١٧ يوما في الصحـراء .

ـ كذلك راجع امين سعيد / تاريخ الدولة السعودية ص ٤٦٧ ـ ٤٦٩ .

(٤) احمد فوزي / ١٢ رئيس وزراء / بغداد ١٩٨٤ ص ١٣٤ .

ـ كذلك انظر امين سعيد / تاريخ الدولة السعودية ص ٤٧٠ ـ ٤٧٧ .

(٥) المصـدر الســابق / احمد فوزي ١٣٥ .
قال الملك عبد العزيز لبريطانيا :
« اعلنوا الحرب اذا شئتم – ويوم ان يفنى جيش سآخذ رشيد معي وادخل الى
ملف الحرب العراقية البريطانية ١٩٤١ ص ٩٤ – ١٦٠ .
(٦) محكمة الشعب / الجزء الخامس ص ١٩٩ .
(٧) احمـد فوزي / المصدر الســابق ص ١٣٥ .
قال ابن سعود اثناء دخول رشيد عليه :
« يا رشيد انا اعلم تماما ما سينجم عن هذا من توتر في العــلاقات بيننا وبين العراق ،
(٨) راجع هامش رقم ٢٦١ .
(٩) آفاق عربية / العدد ٩ ايار ١٩٧٦ .
(١٠) راجع نص الرسالة في / آفاق عربية العــدد ٩ ص ١١٧ .
(١١) عبد الرازق الحسني / تاريخ الوزارات العراقية الجزء الثالث ص ١١٩ معاهـدة تسليم المجرمين لسنة ١٩٣١ .
مادة ٣ : لا يسمح بتسليم المجرمين السياسيين – اما الجرائم التي يجب تسليم المجرمين فيها (ولا تعتبر من الجرائم السياسية) فهي قطع الطريق او السرقة او السلب او النهب او القتــل .
جوف الصحـراء ولن اسلمه ما دام في عرق ينبض ونفس يتردد » .
– كذلك انظر امين / المصدر الســابق ص : ٤٧١ في روايته للمقابلة التي دارت بين بولارد والملك عبد العزيز .
(١٢) نفذ حكم الاعــدام في :
١٩٤٢/٥/٥ ب يونس السبعاوي ، محمود سلمان ، فهمي سعيد .
١٩٤٤/٨/٢٠ ب كامل شبيب .
١٩٤٥/١٠/١٦ ب صلاح الدين الصباغ .
كما ان حكم الاعدام قد صدر غيابيا في رشيد عالي الكيلاني بتاريخ ١٩٤٢/١/٦ .
(١٣) عبد الرزاق الحسني / تاريخ الوزارات العراقيــة ج ٦ ص ٧٢ « وقد صرح الملك عبد العزيز بانه يفضل تسلم اثنين من اولاده الى العراق ليجري اعدامهما علنا بدلا من ان يسلم السيد الكيلاني لان التقاليــد العربية تأبى عليه القيام بمثل هذا العمـل » .
(١٤) راجع نص الرسالة في :
آفاق عربية / العدد ١٩٧٦٩ ص ١١٧ .
(١٥) جاء في التقرير البريطاني عن الشخصيات العراقية لسنة ١٩٣٦ .
اؤمنك وان اذود عنك » .
تحت رقم ٦٩ رشيد بن سيد عبد الوهــاب / المعروف رشيد عالي الكيلاني / من بغداد تربطه صلة قرابة (ليست وثيقة) بالنقيب في عهد الاتراك – كان رئيس كتــاب (باشكاتب) في دائرة الاوقاف ، عضو قوي في جمعية الاتحـاد والترقي – غير محبوب من قبل عائلة النقيب ، هرب الى الموصل مع الاتراك على اثر احتلال بغداد ، وبعد سقوط الموصل عين مديرا للاوقاف تحت الادارة البريطانية . مارس المحاماة وفي مارس ١٩٢١ عين حاكما في محكمة التميز . اصبح استاذا في كليـة الحقوق ببغداد . عمل كحاكم ونـال تقدير المستشارين البريطانيين . عين وزيرا للعدالية في وزارة ياسين الهاشمي ١٩٢٤ – استقال على اثر توقيع امتياز شركة النفط التركية في مايس ١٩٢٥ التي عارضها بقوة بوحي من

ياسين الهاشمي . اصبح وزيرا للداخلية في وزارة عبد المحسن السعدون الثانية ١٩٢٥ ولكنه استقال مباشرة على اثر انتخابه رئيسا للمجلس النيابي من تشرين الثاني ١٩٢٦ الى كانون الاول ١٩٢٨ عندما اصبح وزيرا للداخلية . اعيد انتخابه لمجلس النواب في الانتخابات العامة لسنة ١٩٣٠ ولكنه استقال في اذار ١٩٣١ مع ياسين الهاشمي وناجي السويدي وعلي جودت احتجاجا على تصرفات حكومة نوري السعيد . اصبح من زعماء حزب الاخاء الوطني البارزين . شجع على الاضراب العام ١٩٣١ بقصد احراج وزارة نوري السعيد عين رئيسا للديوان الملكي في تموز ١٩٣٢ ثم اصبح رئيسا للوزارة ١٩٣٣ . واستقال في تشرين الاول ١٩٣٣ ، عين عضوا في مجلس الاعيان في صيف ١٩٣٤ . ساهم في تنظيم اضطرابات الفرت الاوسط الي اجبرت علي جودت على الاستقالة من وزارته في آذار ١٩٣٥ واشتراكه في الوزارة التي الفها ياسين الهاشمي بعد ذلك كوزير للداخلية . انظر : نجدة فتحي صفوت / الوثائق البريطانية عن العراق .

١٩٣٦ ص ٧٤ .

(١٦) راجع نص الرسالة في آفاق عربية ص ١١٨ .

(١٧) حول هذا الموضوع من الممكن الرجوع الى الوثائق البريطانية التالية :

(١٨) راجع نص الرسالة في آفاق عربية العدد ٩ ١٩٧٦ ص ١١٨ ، ١١٩ .

(١٩) يمكن مقارنة هذا الراي البريطاني الموجود في هامش رقم (١٥) .

(٢٠) راجع نص الرسالة في آفاق عربية العدد السابق ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢١) راجع نص الرسالة في آفاق عربية العدد السابق ص ١٢١ .

وثائــق

تبدأ مجلة الجمعية اعتبارا من هذا العدد نشر الخطط العلمية / اقسام التاريخ في جامعات الوطن العربي حسب وصولها الى المجلة .

ويسر المجلة ان تقدم في هذا العدد وثائق اقسام التاريـــخ في جامعــة اليرموك ، والجامعة الاردنية مع دعوة للمناقشة وترسل المقترحات على عنوان الجمعية (بفداد ، ص . ب ٢٧٠٨٩) شارع ١٤ رمضان .

خطة الدراسة في قسم التاريخ / كلية الاداب
جامعــة اليرمــوك

اولا : متطلبات الكلية

١٣١٠١	مدخل لتاريخ الحضارة	متطلب كلية اجباري
١٤١٠٢	فلسطين والاردن في العصور القديمة	اختيار احدى هاتين المادتين
١٦١٠١	تاريخ الفكر العربي	للتخصص في القسم

ثانيا : المواد الاجبارية لمختلف التخصصات :

الرقــم	المــادة	التخصص المنفرد	التخصص الرئيسي	التخصص الفرعي
١٣٢١١	تاريخ الشرق القديم	٣	٣	—
١٣٢١٢	تاريخ اليونان والرومان	٣	—	—
١٣٢٢١	تاريخ العرب قبل الاسلام وعصــر الرسول	٣	٣	—
١٣٢٢٢	تاريخ صدر الاسلام (الراشدون والامويون	٣	٣	٣
١٣٢٢٣	تاريخ الخلافة العباسية حتى اوائل القرن الرابع هـ	٣	٣	٣
١٣٢٢٤	الشرق الاسلامي (الرابــع هـ ــ الخامس هـ)	٣	—	—
١٣٢٢٥	تاريخ المغرب والاندلس	٣	٣	—
١٣٢٢٦	تاريخ العالم الاسلامي (الخامسهـ ــ السابع هـ)	٣	٣	—
١٣٢٢٧	تاريخ العالم الاسلامي (السابعهــ الحادي عشر هـ)	٣	—	—
١٣٢٤١	تاريخ العرب الحديث	٣	٣	—
١٣٢٤٢	تاريخ العرب المعاصر	٣	—	—
١٣٢٥١	تاريخ العالم الحديث	٣	٣	—

١٣٢٥٢	تاريخ العالم المعاصر		٣	—	—
١٣٢٥٣	منهج بحث		٣	٣	—
١٣٣٤١	الدولة العثمانية		٣	٣	—
١٣٤٢٣	غزو الفرنجة (الصليبيين)		٣	—	—
١٣٤٢٧	النظم الاسلامية		٣	٣	٣
١٣٤٤٨	تاريخ الاردن الحديث		٣	٣	—
١٣٤٩١	الرسالة		٣	٣	—
١٣٢٣٠	التاريخ الساساني والبيزنطي		٣	—	—
او					
١٣٤٢٢	المماليك	٣	—	—	—
			٦٠	٣٩	٩
			المجموع		

ثالثا : المواد الاختيارية وهي :

١ ـ (تسعة) مواد اي (٢٧) ساعة معتمدة للتخصص المنفرد منها (٥) مواد من مواد « التاريخ الإسلامي » التالية :
(١٣٢٣٠ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٢٣ ، ١٣٣٣٤ ، ١٣٣٢٥ ، ١٣٣٢٦ ، ١٣٤٢٠ ، ١٣٤٢٢ ، ١٣٤٢٤ ، ١٣٤٢٥) .

٢ ـ سبعة مواد اي (٢١) ساعة معتمدة للتخصص الرئيسي منها (اربع) مواد (١٢) ساعة يختارها الطالب من المواد التالية :
(١٣٢٢٤ ، ١٣٢٢٧ ، ١٣٢٢ ، ١٣٣٢٣ ، ١٣٣٢٤ ، ١٣٣٢٥ ، ١٣٣٢٦ ، ١٣٤٢٠ ، ١٣٤٢٢ ، ١٣٤٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٤٢٥) .

٣ ـ اربعة مواد اي (١٢) ساعة معتمدة يختارها الطالب من المواد الاجبارية للتخصصين المنفرد والرئيسي والمواد الاختيارية التالية :

رقم المادة	المواد الاختيارية	عدد الساعات المعتمدة
١٣٢٣١	تاريخ اوروبا في العصور الوسطى	٣
١٣٢٣٢	موضوع خاص عن صدر الاسلام (عصر الفتوح أو المروانيون)	٣

١٣٣٢٣	موضوع خاص عن الدولة العباسية (القرن الاول او القرن الثالث) .	٣
١٣٣٢٤	موضوع خاص عن الاندلس (عصر الامارة او عصر الخلافة او المورسكيون) .	٣
١٣٣٢٥	الدولة الفاطمية	٣
١٣٣٢٦	الفرق الاسلامية	٣
١٣٣٤٢	قطر عربي في العهد العثماني	٣
١٣٣٤٥	المغرب العربي ١٥٠٠ ـ الاستقلال	٣
١٣٣٤٧	تاريخ ايران منذ القرن ١٥م (الدولة الصفوية وما بعدها)	٣
١٣٣٥١	عصر النهضة والكشوف الجغرافية	٣
١٣٤٢٠	موضوع خاص في الفكر الاسلامي	٣
١٣٤٢٤	حضارة الاندلس في عصر الخلافة	٣
١٣٤٢٥	موضوع خاص عن المجتمع العربي (المدينة الاسلامية او الحركات الاجتماعية) .	٣
١٣٤٤٥	موضوع خاص عـن تاريخ العرب المعاصر	٣
١٣٤٤٦	الاتجاهات الفكرية في العالم العربي في القرن التاسع عشر الميلادي .	٣
١٣٤٥٣	اليهود في العصور الحديثة	٣
٣١٤٥٥	موضوع خاص في التاريخ المعاصر (الولايات المتحدة والشرق الاوسط او الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط).	٣
١٣٤٩٢	فلسفة التاريخ	٣

رابعا : المواد الحرة :

يختار الطالب مادتين كيف يشاء من مواد الجامعة .

ملاحظات :

١ ـ المواد الاجبارية للتخصص المنفرد تصبح مواد اختيارية للتخصص الرئيسي والفرعي .

٢ ـ عند تدريس مادة في موضوع خاص يعلن في حينه عنوان المادة بدقة .

خطة الدراسة في برنامج ماجستير التاريخ

يدرس الطالب ٢٤ ساعة معتمدة (ثمانية مواد) ، حسب توجيه المرشد ، على ان لا يتجاوز ما يأخذه الطالب من اية مجموعة مادتين (٦ ساعات معتمدة):

١ ـ علم التاريخ

٥٧٠ ـ ٥٧٩ علوم تاريخية عامة

١٣٥٧١ موضوع خاص في علم التاريخ
١٣٥٧٢ موضوع خاص في علم التاريخ

٢ ـ تاريخ القديم

٥١٠ ـ ٥١٩ تاريخ قديم
١٣٥١١ موضوع خاص في التاريخ القديم
١٣٥١٢ موضوع خاص في التاريخ القديم

٣ ـ التاريخ الوسيط

٥٣٠ ـ ٥٣٩ اوروبي وسيط وبيزنطي وساساني
١٣٥٣١ موضوع خاص في التاريخ الاوروبي الوسيط
١٣٥٣٢ موضوع خاص في التاريخ الاوروبي الوسيط
١٣٥٣٣ موضوع خاص في التاريخ البيزنطي
١٣٥٣٤ موضوع خاص في التاريخ البيزنطي
١٣٥٣٥ موضوع خاص في التاريخ الساساني
١٣٥٣٦ موضوع خاص في التاريخ الساساني

٤ ـ التاريخ الاسلامي

٥٢٠ ـ ٥٢٤ تاريخ اسلامي
١٣٥٢١ موضوع خاص في التاريخ الاسلامي
١٣٥٢٢ موضوع خاص في التاريخ الاسلامي

٥ ـ التاريخ الاقتصادي او الاجتماعي او الدبلوماسي او الفكري اوالاداري

٥٢٥ ـ ٥٢٩ التاريخ الاقتصادي او الاجتماعي او الدبلوماسي او الفكري او الاداري
١٣٥٢٥ موضوع خاص في التاريخ الثقافي والاقتصادي والاجتماعي
١٣٥٢٦ موضوع خاص في التاريخ الثقافي والاقتصادي والاجتماعي

٦ ـ تاريخ العرب الحديث

٥٤٠ ـ ٥٤٩ عرب حديث ومعاصر
١٣٥٤١ موضوع خاص في تاريخ العرب الحديث او المعاصر
١٣٥٤٢ موضوع خاص في تاريخ العرب الحديث او المعاصر
١٣٥٤٥ قطر عربي حديث او معاصر دراسة خاصة
١٣٥٤٦ قطر عربي حديث او معاصر دراسة خاصة

٧ ـ التاريخ الاوروبي الحديث باللغة الانجليزية

٥٥١ ـ ٥٥٩ اوربي حديث

١٣٥٥١	موضوع خاص في التاريخ الاوروبي الحديث
١٣٥٥٢	موضوع خاص في التاريخ الاوروبي الحديث
١٣٥٥٥	قطر أوروبي
١٣٥٥٦	قطر اوروبي

٨ ـ لغـــة

٥٨٠ ـ ٥٨٩ لغات ونقوش

١٣٥٨٢	كتابات عربية قديمة
١٣٥٨٣	لغة او نقوش سامية قديمة
١٣٥٨٤	لغة او نقوش سامية قديمة
١٣٥٨٥	لغة ونقوش كلاسيكية قديمة
١٣٥٨٦	لغة ونقوش كلاسيكية قديمة

ب ـ يقدم الطالب رسالة (١٣٥٩١ ـ ١٣٥٩٤) .

وصف مواد قسم التاريخ

اسم المادة ورقمها **وصف المادة**

تاريخ حضارة عربية اسلامية ١٣١٠٠

تعريف الحضارة والثقافة والمدنية ، وابراز معنى الحضارة الاسلامية ، ثم التعريف بمظاهر حضارة العرب والمسلمين في الميـادين السياسـية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والمقارنة بين النواحي النظـــرية والتطبيقية طيلة التاريخ الاسلامي والوقوف على عوامل التقدم والتقهقر بدراسة تحليلية .

مدخل لتاريخ الحضارة ١٣١٠١

الفصل الاول : تتناول الحضارة ، تعريفها ، نشـــأتها وتطـــورها ، نظريات الحضارة .

الفصل الثاني : التفاعل الحضاري والتغيرات الحضارية .

الفصل الثالث : مظاهر الحضارات بشكل عام والنواحي السياســية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .

تاريخ الشرق القديم ١٣٢١١

١ ــ اهمية تاريخ الشرق القديم
٢ ــ تاريخ اقطار الشرق القديم
أ ــ ما بين النهرين من الاكاديون ــ الكلدانيوين
ب ــ مصر
ج ــ اليمن
د ــ التاريخ القديم لبلاد الشام
٣ ــ اثر حضارات الشرق القديم في التاريخ الانساني

تاريخ اليونان والرومان ١٣٢١٢

الساحل ــ اهمية التراث اليوناني في الحضارة العربية والاوروبية الحديثة . كريت والحضارة الايجية ، مكيني وطروادة اصل اليونانيين ، الاستعمار اليوناني ، دولة اسبارطة . اثينه ونشأة النظام الديمقراطي ، الحروب اليونانية والفارسية . تاريخ الرومان حتى عام ٢٣ق.م العصور الاولى لروما ، اصل الرومانيين ، روما والصراع مع قرطاجة ، روما والاستيطان في الشرق .

تاريخ العرب قبل الاسلام ١٣٢٢١

دراسة انثرويولوجية للعرب وبيان انتمائهم لموطنهم الاصلي ، ثم فعاليات العرب الحضارية في المجتمعات المتحضرة والبدوية في الجزيرة العربية. دراسة عصر الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة منطقة الحجاز فكريا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وابراز دور الاسلام في عملية التحول العربية والعالمية .

تاريخ صدر الاسلام ١٣٢٢٢

تأسيس الخلافة ودراسة التطورات التي حدثت في العصر الراشدي ، ثم تحليل الحرب الاهلية الاولى وانتقال الخلافة الى الامويين . رصد اهم التيارات التي نشأت وتطورت في العصر الاموي وخاصة توسع الدولة الاسلامية . الادارة في العصر الاموي ، وحركات المعارضة ثم نهاية الدولة الاموية وانتقال الخلافة الى البيت العباسي .

تاريخ الخلافة العباسية ١٣٢٢٣

دراسة التطورات السياسية في اواخر الدولة الاموية ، ثم دراسة الدعوة العباسية السرية وتأسيس الخلافة العباسية . وبعد ذلك نتحدث عن اهم التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي . ودراسة العلاقة بين العباسيين والقوى الاخرى المعاصرة .

تاريخ الشرق الاسلامي ٤ــ٥ هـ ١٣٢٢٤

لمحة عامة عــن اهم التطورات زمن الخليفة المعتصم واثر دخول الاتراك الى بلاد الخلافة الاسلامية ثم دراسة اهم الحركات الفكرية والاجتماعية التي حدثت في تلك الفترة مثل ثورة الزنج ثم دراسة تاريخ اهم الامارات التي برزت في شرق الخلافة مثل الطاهريين والسامانيين .

تاريخ المغرب والاندلس ١٣٢٢٥

يعالج المنهاج الفترة التي دخل فيها المسلمون بلادب المغرب والتي اشتملت على مرحلتين الغارات او الاستكشاف ومرحلة الاستقرار او الفتــــح الدائم يتناول المنهاج في قسمه الثاني حالة اسبانيا قبل الفتح الاسلامي ، نظرة في جغرافية شبه الجزيرة الاندلسية ، فتح الاندلس عهد الولاة ، عهد الخلافة ، عهد الطوائف ، عهد المرابطين ، عهد الموحدين ، مملكـــة غرناطة ، مع التركيز على المظهر الحضاري والاسلامي في الاندلس .

تاريخ العالم الاسلامي ٥ ــ ٧ هـ ١٣٢٢٦

تبحث هذه المادة في تاريخ العالم الاسلامي من بداية الدولة السلجوقية والهجرات التركية ــ التركمانية الى العالم الاسلامي ، والدول التيتفرعت عنها خاصة سلطنة سلاجقة الروم . كما وتبحث في ابرز التطورات في المغرب والاندلس زمــن المرابطين والموحدين ، وغزو الفرنجة لقلب العــالم الاسلامي . ويركز فيها على تطورات المؤسسات السياسية والعسكريــة والاقتصادية .

تاريخ العالم الاسلامي ٧ــ١١هـ ١٣٢٢٧

تتناول مصادر تاريخ هذه الفترة ، ثم استمرار ابرز التطورات التاريخية للدول الاسلامية الكبرى خلال هذه الفترة وعلاقاتها مع بعضها البعض ، ثم انجازات كل دولة في النواحي الحضارية المختلفة .

التاريخ الساساني والبزنطي ١٣٢٣٠

تبحث هذه المادة في ابرز التطورات في هاتين الدولتين في الفترة السابقــة للاسلام وعلاقاتها مع بعضهما البعض علاقة الامبراطورية البيزنطية مــع الخلافة الاسلامية اولا ثم مع سلاجقة الروم والدولة العثمانية من بعدهم وحتى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ١٣٢٣١

تتناول المادة دراسة للامبراطورية الرومانية ثم الغزوات البربرية التــي تعرضت لها وما ترتب عليها من قيام الدويلات الجرمانية ، وتركــــز المادة على انتشار الديانة المسيحية في اوروبا وظهور الكنيسة وقيـــام

الاقطاع ونشوب النزاع بين البابوية والسلطات الحاكمة وهي في النهاية تتطرق المادة الى مجيء النورمان ودورهم في مجريات الاحداث التاريخية.

تاريخ العرب الحديث ١٣٢٤١

١ ـ الفتح العثماني لاقطار الوطن العربي ، لمحة عامة تشمل المشرق والمغرب العربي من اوائل القرن السادس عشر وحتى حملة نابليون اواخر القرن ١٨ .

٢ ـ التركيز على دراسة القرن التاسع عشر ، وسماته الرئيسية على المستوى العالمي والعثماني والعربي ، وتمثل دراسة مقارنة لسيطرةالدول الاوربية على المغرب ، بشكل عام ، ثم التركيز على المشرق العربي حتى بداية الحرب العالمية الاولى .

تاريخ العرب المعاصر ١٣٢٤٢

١ ـ لمحة موجزة تشمل الوطن العربي منذ اوائل القرن العشرين وحتى الحرب العالمية الثانية وتشمل الابعاد السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية ، دراسة مقارنة لاوضاع الوطن العربي قبل الحرب العالمية الاولى وما بين الحربين « الانتداب » .

٢ ـ الحرب العالمية الثانية واثرها في المشرق العربي ومصر ، وقطر من المغرب العربي (مع متابعة احداث الساعة في الوطن العربي) .

تاريخ العالم الحديث ١٣٢٥١

تتناول اهم معالم الحضارة الغربية منذ عصر النهضة حتى اندلاعالحرب العالمية الاولى .

وتتناول دراسة حركة الاصلاح الديني والثورتين الامريكية والفرنسية وقيام الثورة الصناعية في اوروبا ثم دراسة الحركات القومية الاوروبية .

تاريخ العالم المعاصر ١٣٢٥٢

١ ـ المرحلة العالمية منذ اوائل القرن العشرين وحتى بداية الحرب العالمية الثانية « دراسة مقارنة »

٢ ـ الحرب العالمية الثانية وظهور المعسكرين الشرقي ، والغربي ، وكتلـ عدم الانحياز

٣ ـ « الازمات الدولية ، ازمة الطاقة » ظهور التيارات الفكرية الـ « التوازن الدولي » « الحلف الدولي » « مع متابعة احداث السـا المستوى العالمي » .

منهج بحث ١٣٢٥٣

تعالج هذه المادة موضوعين اساسين هما : دراسة نظرية لمنهج البحث التاريخ مع التركيز على خطوات القيام بالبحث التاريخي مع التدريب على كل خطوة وتطبيق المعرفة النظرية عن طريق كتابة بحث موجز في موضوع تاريخي مناسب والتعرف على الاتجاهات العامة للتدوين التاريخي عند العرب مع التركيز على دراسة الروايات في المصادر الاولية خاصة سلاسل السند ليتمكن الطالب من فهم النصوص التاريخية بصورة مناسبة .

موضوع خاص عن صدر الاسلام ١٣٢٢

يتناول فترة محددة او دراسة تاريخ قطر معين في هذه الفترة او التركيز على موضوع معين خلال هذه الحقبة من التاريخ الاسلامي .

موضوع خاص عن الدولة العباسية ١٣٣٢٣

تتناول فترة محددة او موضوعا معينا او تاريخ قطر اسلامي معين في الفترة العباسية .

موضوع خاص عن الاندلس ١٣٣٢٤

تتناول هذه المادة تاريخ الاندلس في ثلاث مراحل : المرحلة الاولى عصر الامارة ، والمرحلة الثانية عصر الخلافة ، والمرحلة الثالثة : الموريسكيون. وتعالج في المرحلتين الاولى والثانية جميع الجوانب السياسية والثقافية والعمرانية ، اما في المرحلة الثالثة فيعالج موضوع التنصير القسري للموريسكين وتهجيرهم خارج شبه جزيرة ايبيريا .

الدولة الفاطمية ١٣٣٢٥

تبحث هذه المادة في مصادر دراسة التاريخ الفاطمي ، وتطور الحركة الشيعية حتى قيام الدولة الفاطمية وامتداد نفوذها غربا الى المغرب وشرقا الى مصر وبلاد الشام الجنوبية والحجاز ، وابرز التطورات في تاريخ هذه الدولة مثل الحركة الدرزية ، تنظيم الدعوة الاسماعيلية ـ الفاطمية وحركة الاسماعيلية النزارية ، والشدة العظمى وبداية ضعف الدولة حتى نهايتها .

الفرق الاسلامية ١٣٣٢٦

تبحث هذه المادة في الجذور التاريخية لنشأة الفرق الاسلامية السياسية والفكرية ثم تطوراتها التاريخية خلال القرون الثلاثة الاولى من الهجرة .

الدولة العثمانية ١٣٣٤١

تأسيس الدولة العثمانية ودراسة المؤسسات الهامة مثل السلطنة والصدارة العظمى ومشيخة الاسلام والانكشارية والقضاء . كما يتناول المساوىء ، نظام الضرائب ومؤسسة الدفتردارية . ثم دراسة العلاقات العثمانية الصفوية والعثمانية الاوروبية حتى معاهدة كوجك قينارجة .

قطر عربي في العهد العثماني ١٣٣٤٢

تتناول تاريخ قطر عربي في العهد العثماني سوريا ، أو فلسطين أو لبنان او العراق او مصر او الجزيرة العربية .

المغرب العربي بين ١٥٠٠ ـ حتى الاستقلال ١٣٣٤٥

لمحة عامة عن الممالك المستقلة في المغرب العربي قبل الفتح العثماني . الحكم العثماني في بلاد المغرب ، الدولة السعودية في المغرب الاقصى . الطرق الصوفية في المغرب واثرها في نشر الاسلام ، الدولة العلوية في المغرب الاقصى عام ١٨٣٠ .

تاريخ ايران منذ القرن ١٥ م ١٣٣٤٧

وتتناول المادة قيام الدولة الصوفية وتاريخها مع التركيز على العلاقات الصوفية العثمانية واثر ذلك على البلاد العربية وخاصة العراق .

عصر النهضة والكشوف الجغرافية ١٣٣٥١

تتناول المادة العوامل التي ادت الى قيام حركة الكشوف الجغرافية وابراز دور كل من البرتغال واسباقيا في مجالات الكشف وما ترتب عليها من نتائج كما تتناول المادة التنافس الاستعماري بين الدول الاوروبية على المناطق المكتشفة في العالم الجديد وافريقية .

موضوع خاص في الفكر الاسلامي ١٣٤٢٠

لمحة عامة عن نشأة الفكر الاسلامي وتطوره ، تعريفه ، صلاته بغيره ، المراحل التي مر بها ثم يتناول الموضوع احد جوانب الفكر الاسلامي السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية مع التركيز على فترة معينة او موضوع معين .

المماليك ١٣٤٢٢

تتناول هذه المادة دراسة مصادر تاريخ المماليك ثم قيام الدولة المملوك وابرز التطورات السياسية الهامة خلال الفترة المملوكية ، كما ت الدراسة اهم المؤسسات الادارية المختلفة ضمن الاطار التاريخي ا للدولة الاسلامية .

غزو الفرنجه ١٣٤٢٣

تبحث هذه المادة في مصادر دراسة تاريخ غزو الفرنجة ، واوضاع العالم الاسلامي واوروبا والدولة البيزنطية قبل قيام الحملة الاولى ، وتأسيس الامارات الفرنجية ، وتوحيد العالم الاسلامي (خاصة مصر والشام والجزيرة الفراتية) زمن زنكي وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين لمواجهة هذا التحدي . ويركز في هذه المادة على الاوضاع الداخلية لكل من الامارات الاسلامية والامارات الفرنجية والمؤسسات فيها .

حضارة الاندلس في عصر الخلافة ١٣٤٢٤

تتناول هذه المادة اوجه الحضارة في عهد الخلافة الاموية في الاندلس ٣١٦ — ٤٠٠ هـ ، ٩٢٩ — في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية والسياسية وابراز عصر الخلافة من حيث اثراء الحضارة الانسانية .

موضوع خاص عن المجتمع العربي ١٣٤٢٥

تبحث هذه المادة في اسس بناء وتنظيم المدن الاسلامية وتطورها ، وعلى الاخص في صدر الاسلام ومدى مشاركة هذه المدن في البنية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في المجتمع العربي .

النظم الاسلامية ١٣٤٢٧

وتتناول دراسة النظم الاسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وتبيان مساهمة المسلمين في شتى أنماط النظم وأثر ذلك في تاريخ المسلمين .

موضوع خاص في التاريخ العربي المعاصر ١٣٤٤٥

تتناول المادة في احد الفصول تحليل العلاقات التي تربط بين الولايات المتحدة والشرق الاوسط ، وينتقل المقرر في فصل آخر ليناقش دراسة العلاقة ما بين الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط ، والعلاقات في مجملها لن تكون مقصورة على الناحية السياسية فقط وايما ستركز على النواحي الاقتصادية والثقافية .

الاتجاهات الفكرية عند العرب ١٣٤٤٦

مدخل الى الحياة الفكرية عند العرب بين القرن العاشر والقرن التاسع عشر . عوامل النهضة الفكرية عند العرب في القرن التاسع عشر ثم دراسة الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية عند العرب في الفترة المذكورة .

تاريخ الاردن الحديث ١٣٤٤٨

لمحة عـن تاريخ بلاد الشام « والاردن جزء منها » خلال الحرب العالمية الاولى ، مع التركيز على الثورة العربية الكبرى وتسويات ما بعد الحرب وتأثيرها على المنطقة « مساهدة سايكس ـ بيكو ـ وعد بلفور ، مؤتمـر لوزان » الحكومة العربية الفيصلية في دمشق . امارة شرق الاردن سنة ١٩٢١ ـ ١٩٤٦ مجيء الامير عبدالله وتأسيس الامارة ، ودراسة الابعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، المملكة الاردنية الهاشمية ١٩٤٦ حتى وقتنا الحاضر ، وتطور الابعاد السالفة الذكر مع التركيز على مؤتمرات القمة ، والقضية الفلسطينية .

اليهود في العصور الحديثة ١٣٤٥٣

تناقش المادة أهم خصائص التجمعات اليهودية في اوروبـا الشـرقية واوربا الغربية ابتداء من القرن السادس عشر حتى نهاية الثامن عشر وينتقل المقرر بعد ذلك لدراسة الظروف التي افرزت الفكر الصهيوني منذ مطلع القرن التاسع عشر الى ان قامت المنظمة الصهيونية العالمية في نهاية القرن نفسه .

موضوع خاص في التاريخ المعاصر ١٣٤٥٥

تتناول المادة في احد الفصول تحليل العلاقات التي تربط بين الولايـات المتحدة والشرق الاوسط ، وينتقل المقرر في فصل اخر ليناقش دراسة العلاقة ما بين الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط ، والعلاقـات في مجملها لـن تكون مقصورة على الناحية السياسية فقط وانما ستركز على النواحي الاقتصادية والثقافية .

رسالة التخرج ١٣٤٩١١

يقوم الطالب المتوقع في تخرجه في فصل ما بكتابة بحث تاريخي وفق المنهج التاريخي باشراف رئيسه .

فلسفة التاريخ ١٣٤٩٢

مادة في : نشأة النظرة التاريخية ، والمفهوم التقليدي للتاريخ في الغـرب (ق ١٧) واوائل ق ١٨ وعلم التاريخ في عصر التنوير (التاريخ العلمي) ، والنظرة المثالية واعلامها خاصة المادية واعلامها (وابرزهم ماركس) واخيرا نظرة في تطور الفكر التاريخي عند العرب .

موضوع خاص في التاريخ الاسلامي ١٣٥٢١١

دراسة تطور المجتمع العربي الاسلامي زمن الراشدين ـ خروج العـرب بالفتوح . تنظيم العرب في دور الهجرة والامصار : الكوفة ، البصرة ،

الفسطاط ، الاجناد في الشام . التطورات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات العربية الاسلامية في الامصار ، وصلة ذلك بالخلافة . الظروف والاوضاع التي ادت الى الفتنة الاولى وانتقال السلطة الى دمشق بدايات ظهور الاحزاب المعادية في المصادر الاولية .

موضوع خاص في التاريخ الاسلامي ٢ ١٣٥٢٢

وضع المجتمع العربي الاسلامي بنهاية القرن الاول الهجري . التيارات والاتجاهات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية . دور الاحزاب والحركات السياسية . بدايات الدعوة العباسية وتطورها خلال ثلث قرن . الثورة العباسية ونهاية الدولة الاموية . دراسة معمقة في المصادر الاولية .

موضوع خاص في التاريخ الاقتصادي او الاجتماعي او الفكري ١ ١٣٥٢٥

التاريخ الاقتصادي لجزيرة العرب قبل الاسلام ـ مناخ الجزيرة وطبيعتها الجغرافية واثر ذلك في حياة سكانها . مواطن السكن في الجزيرة ، البداوة ومراحلها ، تكاثر البدو وعلاقتهم بالاراضي الزراعية ، الهجرات التاريخية وتفسيرها ، موقع الجزيرة على طرق التجارةالدولية وأثره في ظهور كيانات (دول) تجارية ودور عرب الجنوب في التجارة الدولية . المحطات والمراكز التجارية على طرق التجارة ـ البتراء ، تدمر ، مكة ودور قريش في التجارة ، المجتمع المكي ، انتشار العرب في الاسلام وصلته باوضاع الجزيرة .

موضوع خاص في التاريخ الاقتصادي او الاجتماعي او الفكري ٢ ١٣٥٢٦

دراسة التنظيمات المالية في صدر الاسلام ـ التنظيم المالي في عصرالرسالة . التنظيم المالي زمن الراشدين : الضرائب ـ الجزية والخراج في السواد والشام والجزيرة ومصر وخراسان . تطور نظام الضرائب في العصر الاموي .

حلقة بحث ٢١٥٣٠

دراسة لنشأة علم التاريخ عند العرب . الجذور التاريخية . نشأة مدرسة المغازي وتطورها في المدينة حتى القرن الثالث للهجرة . نشأة مدرسة الاخباريين وتطورها في الكوفة والبصرة حتى القرن الثالث للهجرة . دراسة ظهور المؤرخين الكبار في القرن الثالث للهجرة وبخاصة اليعقوبي، ابن قتيبة ، البلاذري ، الطبري ، وبايجاز دراسة فترة التكوين في علم التاريخ عند العرب .

موضوع خاص في التاريخ الحديث ١ ١٣٥٤١

وهو عبارة عن دراسة للاحوال السياسية والاقتصادية في الجزيرة العربية خلال العهد العثماني .

موضوع خاص في التاريخ الحديث ٢ ١٣٥٤٢

ويتناول دراسة موضوع معين او قطر عربي معين خلال العصور الحديثة.

الخطة الدراسية للحصول على درجة البكالوريوس في كلية الاداب / دائرة التاريخ / الجامعة الاردنية

متطلبات الخطـة

تمنح درجة البكالوريوس في الاداب والعلوم الانسانية والاجتماعيـــة في التاريخ بعد اتمام المتطلبات التالية :

١ ـ الشروط المنصوص عليها في تعليمات منح درجة البكالوريوس في جامعة اليرموك رقم (١٠) لسنة ١٩٨٢ المعدلة الصادرة بموجب نظام منـــح الدرجات العلمية والشهادات في جامعة اليرموك رقم (٧٦) لسنة ١٩٧٦ والمعدلة في تعليمات رقم (٣) لسنة ١٩٨٤ م .

٢ ـ متطلبات الجامعة المبينة في تعليمات منح درجة البكالوريوس المذكـورة في (١) اعلاه وعددها (٢٧) ساعة .

٣ـ متطلبات الكلية المبينة في الخطة الدراسية لدرجة البكالوريوس في كليـة الاداب والعلوم الانسانية والاجتماعية ومقدارها (١٧) ساعة .

٤ ـ متطلبات الدائرة ، وتخصص لها (٨١) ساعة معتمدة موزعة كما يلي :

أولا : التخصص المنفرد (٨١) ساعة معتمدة موزعة كما يلي :

أ ـ متطلبات اجبارية : (٦٥) ساعة معتمدة هي :

تخ ١٠١	تخ ١٠٢	تخ ١٥٠	تخ ١٥٢
تخ ١٥٦	تخ ٢١٦	تخ ٢٣١	تخ ٢٣٢
تخ ٢٥٥	تخ ٢٥٦	تخ ٢٥٧	تخ ٢٥٩
تخ ٣٢١	تخ ٣٥١	تخ ٣٥٢	تخ ٣٥٥
تخ ٣٧٣	تخ ٣٧٤	تخ ٣٧٦	تخ ٣٨٥
تخ ٤٤٢	تخ ٤٧٢	تخ ٤٨٤	تخ ٤٨٥

ب ـ مساقات اختيارية : (١٦) ساعة معتمدة هي :

١ ـ (٦) ساعات معتمدة يختارها الطالب من احدى اللغات التالية :

الفرنسية ، الالمانية ، التركية ، الروسية ، الاسبانية ، العبرية .

٢ ــ (٨) ساعات معتمدة يختارها الطالب من المساقات التالية :

تخ ١٠٣	تخ ١٠٤	تخ ١١٩	تخ ٢٢٧
تخ ٢٥١	تخ ٢٥٨	تخ ٢٣٧	تخ ٣١٠
تخ ٣١٣	تخ ٣١٥	تخ ٣٢٢	تخ ٣٥٧
تخ ٣٩١	تخ ٤٥٠	تخ ٤٥٨	تخ ٤٧٣
تخ ٤٧٤	تخ ٤٩٣	تخ ٤٩٩	تخ ٢٥١

٣ ــ (٣) ساعات معتمدة من مستوى ٣٠٠ فما فوق يختارها الطالب من ايـة دائرة في الكلية غير دائرة التاريخ .

جدول رقم (١)

توزيع الساعات المعتمدة للتخصص المنفرد في التاريخ

المتطلبـــات	الساعات الاجبارية	الساعات الاختيارية	المجموع
متطلبات الجامعة	٢١	٦	٢٧
متطلبات الكلية	١١	٦	١٧
متطلبات التخصص المنفرد	٦٥	١٦	٨١
المجموع	**٩٧**	**٢٨**	**١٢٥**

ثانيا : التخصص الرئيسي / الفرعي : (٨١) ساعة معتمدة موزعة كما يلي :

أ ــ التخصص الرئيسي : (٦٠) ساعة معتمدة موزعة كما يلي :

١ ــ مساقات اجبارية : (٤٧) ساعة معتمدة هي :

تخ ١٠١	تخ ١٠٢	تخ ١٥٠	تخ ١٥٢
تخ ١٥٦	تخ ٢١٦	تخ ٢٣١	تخ ٢٥٥
تخ ٢٥٩	تخ ٣٢١	تخ ٣٥١	تخ ٣٥٢
تخ ٣٥٥	تخ ٣٧٣	تخ ٣٧٤	تخ ٣٧٦
تخ ٣٨٥	تخ ٤٤٢		

٢ ــ مساقات اختيارية (١٣) ساعة معتمدة

أ ــ (٦) ساعات معتمدة يختارها الطالب مـن احـــدى اللغـات التاليـة :

الفرنسية ، الالمانية ، الاسبانية ، التركية ، الروسية ، العبرية .

ب ــ (٧) ساعات معتمدة يختارها الطالب من المساقات المبينة في البنـد (ب /٢) من المساقات الاختيارية ضمن متطلبات التخصص المنفرد.

ب ــ التخصص الفرعي : (٢١) ساعة معتمدة وفق ما تحدده دائـرة التخصص الفرعي ودوائر التخصص الفرعي هي جميع دوائـر كليتي الاداب والعلوم الانسانية والاجتماعية ، والاقتصاد .

جـــــدول رقــم (٢)

توزيع الساعات المعتمدة للتخصص الرئيسي في التاريخ / الفرعي في تخصص آخر

المتطلبـــات	الساعات الاجبارية	الساعات الاختيارية	المجموع
متطلبات الجامعـة	٢١	٦	٢٧
متطلبـات الكلية	١١	٦	١٧
متطلبـات التخصص	٤٧	١٣	٦٠
متطلبات التخصص الفـــرعي			٢١ *
	—	—	—
			١٢٥

ثالثـا : التخصص الفرعي في التاريخ ويخصص له (٢١) ساعة معتمدة موزعة على الشكل التالي :

أ ــ مساقات اجبارية : (١٤) ساعة معتمدة هي :

تخ ١٥٠ تخ ٢٣١ تخ ٣٢١

تخ ٣٥٥ تخ ٤٧٢

ب ــ مساقات اختيارية : (٧) ساعات معتمدة يختارها الطـــالب من المساقات المبينة في البند (ب/٢) من المساقات الاختيارية ضمن متطلبات التخصص المنفرد وفقا لمتطلبات دائرة التخصص الفرعي للطالب .

* وفقا لمتطلبات دائرة التخصص الفرعي للطالب

جـــدول رقـــم (٣)

مدلول رقم العشرات في دائـرة التـــاريخ

صفر مقدمة ومدخل الى التاريخ
١ مواد مرتبطة بالتاريخ
٢ مغرب واندلس
٣ عبـاسي
٤ ايوبي ومملوكي
٥ تاريخ قديم / وسيط
٧ تاريخ حديث
٨ تاريخ معاصر
٩ موضوع خاص / ندوة / بحث

جـــدول رقم (٤)

المســاقات التي تطرحها دائرة التاريخ

رقم المساق	المســـــاق	الساعات المعتمدة	المتطلب السـابق
تخ ١٠١	مدخل لدراسة التاريخ	٢	
تخ ١٠٢	مقدمة في تاريخ الاردن وفلسطين في العصور القديمة	٣	
تخ ١٠٣	مقدمة في العلوم السياسية	٣	
تخ ١٠٤	مقدمة في الاثار	٣	
تخ ١١٩	فلسفة التاريخ	٢	
تخ ١٥٠	تاريخ العرب قبل الاسلام	٢	
تخ ١٥١	تاريخ الحضارة العربية الاسلامية	٣	
تخ ١٥٢	تاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية	٣	
تخ ١٥٦	تاريخ الشرق الادنى القديم	٣	
تخ ٢١٦	مناهج البحث في التاريخ	٢	
تخ ٢٢٧	الحضارة العربية الاســـلامية في الاندلس	٣	
تخ ٢٣١	التاريخ العباسي (القرن ١ ــ ٤هـ)	٣	تخ ١٥٢
تخ ٢٣٢	التاريخ العباسي (القرن ٤ ــ ٧هـ)	٣	تخ ٢٣١
تخ ٢٥١	تاريخ العلوم عند العرب	٣	
تخ ٢٥٥	تاريخ الاردن وفلسطين في العصر الاسلامي	٣	تخ ١٠٢
تخ ٢٥٦	الشرق الادنى في العصر الهليني	٣	تخ ١٥٦
تخ ٢٥٧	تاريخ البيزنطيين والساسانيين	٣	
تخ ٢٥٨	تاريخ الشرق الاقصى القديم	٢	
تخ ٢٥٩	حضارة اليونان والرومان	٣	
تخ ٢٧٣	الثورة العربية بقيادة الشريف حسين	٣	
تخ ٣١٠	البحر الاحمر واهميته التاريخية	٣	
تخ ٣١٣	وثائق ونصوص تاريخية بلغة حية	٢	
تخ ٣١٥	جغرافيا الوطن العربي	٣	

رقم المساق	المســـــاق	الساعات المعتمدة	المتطلب السابق
تخ ٣٢١	تاريخ المغرب والاندلس (القــرن ٢ ـ ٥ هـ)	٣	
تخ ٣٢٢	تاريخ المغرب والاندلس من (القرن ٦ ـ ٨ هـ)	٣	
تخ ٣٥١	الدولة الفاطمية	٢	
تخ ٣٥٢	تاريخ اوروبا في العصور الوسطى	٣	
تخ ٣٥٥	الحروب الصليبية	٣	
تخ ٣٥٧	المغول والشرق الاسلامي	٣	
تخ ٣٧٣	تاريخ العرب الحديث	٣	
تخ ٣٧٤	تاريخ العالم الحديث	٣	
تخ ٣٧٦	تاريخ الاردن في العصر الحديث	٢	
تخ ٣٨٥	القضية الفلسطينية	٢	
تخ ٣٩١	ندوة في التاريخ	١ـ٣	موافقة مجلس الدائرة
تخ ٤٤٢	الايوبيون والمماليك	٣	تخ ٣٥٥
تخ ٤٥٠	التاريخ الاقتصادي في العصـــــور الاسلامية	٣	
تخ ٤٥٨	التعليم في العصور الوسطى	٣	
تخ ٤٧٣	تاريخ الدولة العثمانية	٣	
تخ ٤٧٣	في التاريخ الامريكي	٢	
تخ ٤٧٤	في التاريخ الروسي	٢	
تخ ٤٨٤	تاريخ العرب المعاصر	٣	تخ ٣٧٣
تخ ٤٨٥	تاريخ العالم المعاصر	٣	تخ ٣٧٤
تخ ٤٩٣	موضوع خاص في التاريخ	٣	موافقة مدرس المساق ومدير الدائرة
تخ ٤٩٩	بحث في التاريخ	١ـ٣	موافقة مدرس المساق ومدير الدائرة



سعر النسخة (دينار ونصف)

رقم الايداع ٤٣٦ لسنة ١٩٨١

مطبعة العمال المركزية ـ بغداد / ١٩٨٨


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سعر النسخة [illegible]

توزيع الدار الوطنية للتوزيع

مطبعة العمال المركزية - بغداد



(٥)

مجلة جمعية المؤرخين والاثاريين
في العراق

مطبعة الرشاد - بغداد







بمناسبة احتفالات قطرنا باعياد تموز الخالدة التي تتزامن مع
تحرير كل أرضنا الوطنية من دنس صهاينة طهران المجرمين
نتقدم الى فارس الأمة وباني نهضة العراق الشامخ الرئيس
القائد **صدام حسين** "حفظه الله ونصره"
بأسمى آيات الحب والولاء ليبقى العراق شامخاً وسداً منيعاً
للأمة العربية ونعاهدكم سيدي القائد ان نبقى جنوداً نحمل
الراية ونسير خلف قيادتكم الحكيمة وحتى يتحقق النصر الحاسم بعون الله

دراسات في التاريخ والآثار

مجلة فصلية تصدرها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

هيئة التحرير

المراسلات : جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

العراق / بغداد / ص٠ب (٢٧٠٨٩) شارع (١٤) رمضان

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير

ص٠ب : (٢٧٠٨٩) بغداد ــ شارع ١٤ رمضان

مجلة دراسات في التاريخ والاثار ــ جمعية المؤرخين والاثاريين

ت : (٥٣٨١٣٠٤)

الاشتراكات السنوية في مجلة دراسات في التاريخ والاثار

الاشتراك السنوي

الجامعات والمؤسسات في العراق (٢٠) دينارا سنويا

أعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا

الافراد عموما (١٠) دنانير سنويا

تدفع الاشتراكات مقدما وكالاتي :

أ ــ صكوك لامر الجمعية

ب ــ نقدا لامر الجمعية

المحتويات

كلمة العــدد

يسعدنا ان نصــدر العــدد الخامس من مجلة « دراسات في التاريخ والآثار » مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق ، والتي يعبر من خلالها المؤرخين والاثاريين عن روح التاريخ العربي والذي يكشف عن دور الامــة القيادي والحضاري في التاريخ الانساني ، حيث ساهموا في كتابة هذا العدد الخامس كتابة أصيلة نابعة من ذات القيم والمبادئ العربية التي من خلالها وعبرها تاريخ الامة العربية المجيدة ، ونحن اذ نصدر هذا العدد الجديد من المجلة يحدونا الامل والتفاؤل في ان تساهم الجمعية مساهمة فاعلة في الدعوة المخلصة لاعادة كتابة تاريخ الامة وفق القيم والمبادئ التي صنع التاريخ في ظلالها ، ونتوجه الى المؤرخين والآثاريين من أجل المساهمة الجادة والفاعلة لاغنــاء المجلة ببحوثهم ودراساتهم حيث تعبر المجلة من خلالهم عن ذاتيــة التاريخ العربي ، وعن روحيته ، لنجعل منه سلاحا فاعلا في وجه أعداء مسيرة وطننا العزيز وامتنا العربية المجيدة •

والله ولي التوفيق

أ•د• نزار الحديثي
رئيس التحرير

المعبد والزقورة : اثنان من ابرز السمات المعمارية في المدينة العراقية القديمة

د. فاضل عبدالواحد علي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

لعل من أهم الشواهد الدالة على قدم واصالة حضارة بلاد وادي الرافدين حيث ان باستطاعة الباحث تتبع مراحل تطورها مرحلة بعد أخرى خلال العصور الزمنية المتعاقبة . ولعل من ابرز الامثلة التي يمكن ذكرها في هذا الصدد هو تعاقب مراحل الاستيطان في القطر بشكل مستمر ومتسلسل ابتداء من استيطان الكهوف الحجرية وانتهاء بظهور المدينة في بداية فجر التاريخ. وباستطاعة الباحث ان يميز ، في ضوء التنقيبات الاثرية ، مرحلتين رئيستين للاستيطان في العراق القديم . الاولى تشمل الاستيطان في المقرات المكشوفة ثم الاستيطان في القرى الفصلية الذي يمثل مرحلة الانتقال، من نهاية العصر الحجري الوسيط الى العصر الحجري الحديث . وخير مثال على مواقع الاستيطان الفصلية قرية زاوي جمي التي تقع على بعد ٤كم من كهف شانيدر والتي يرجع تاريخها الى حدود ٩٢٠٠ ق.م .

ويظهر من دراسة عظام الحيوانات المكتشفة في زاوي جمي ان انسان ذلك العصر بقي يعتمد في الاطوار القديمة من استيطان هذه القرية على صيد الحيوانات كالغزال والاغنام والماعز . ويبدو انه استطاع في الادوار الاخيرة من استيطان القرية تدجين الغنم في حين بقي الماعز وحشياً . ولا يعرف على وجه التحديد عما اذا كانت الادوات المنزلية كالرحى والمدقات

والمساحق قد استخدمت في حصد وطحن الحبوب البرية ام الحبوب التي زرعها الانسان نفسه ٠

اما المرحلة الثانيــة والتي يمكن تسميتها بمرحلة الاســتقرار فهي تشمل المستوطنات الدائمية ، أي القرى الزراعية ابتداء من قرية جرمو في شمال القطر وانتهــاء بالعبيد في الجنوب ٠ ففي قرية جرمو الواقعــة شرقي جمجمال والتي يعود تاريخها الى حدود ٦٧٥٠ق٠م ثم الكشف عن بيوت سكنية مبنية بالطين واسسها من الحجارة ٠ وقدر عدد بيوت القرية في حدود ٣٠ بيتا وسكانها بنحو ١٥٠ مستوطنا ٠ وكان الشائع ان يدفن الميت في قبر يحفر تحت ارضيات بيوت السكن ٠ وهناك دلائل على وجود طقوس الخصب الخاصة بالالهة الام اذ تم العثور على دمى تمثل نسوة حبالى ذوات ارداف واثدية ممتلئة ٠

واستمرت القرى بالتوسع في ممارسة الزراعة وفي التطور التدريجي في صناعة الفخار والأدوات الحجرية التي كانت تستعمل في مختلف شؤون الحياة اليومية خلال الادوار التي لحقت دور جرمو والتي حددها الاثاريون اعتمــادا على جملة خصائص حضاريه وســموها نسبة الى أسماء المواقع الاثرية التي وجدت فيها اثارها المميزة لاول مرة وهي دور حسونه (الى الجنوب من الموصل) وسامراء ثم حلف (على الخابور) في شمال القطر٠ أما في الجنوب فيمثل دور العبيد ، نسبة الى تل بهذا الاسم الى الشمال الغربي من مدينة اور ، اقدم المستوطنات القروية في السهل الرسوبي (في حدود ٤٠٠٠ ق٠م) ٠ وجدير بالذكر ان آثار دور العبيد لم تقتصر على جنوب القطر فقط بل انتشرت الى شماله أيضا كما يتضح ذلك من التنقيبات الأثرية التي اجريت في مواقع عديدة نخص بالذكر منها شبه كورا الى الشمال الشرقي من الموصل ٠ والأهم من ذلك ان نهاية دور العبيد في

جنوبي القطر (في حدود ٣٥٠٠ ق٠م) كانت بداية لمرحلة جديدة من الاستيطان في العراق القديم تلك هي مرحلة ظهور المدينة ٠ اذ تم العثور في الجنوب على بقايا أشهد المدن التاريخية مثل اريدو ، الوركاء ، اور ، نفر ولكش فوق بقايا الكقرى الزراعية من دور العبيد مباشرة[١] ٠

وشهد القطر خلال دور الوركاء الذي تلا دور العبيد انتقالة جديدة في نمط الاستيطان تلك هي ظهور المدينة ٠ وهكذا بزغ فجر الحضارة في بلاد سومر متمثلا ظهور المدينة التي أصبحت تضم مرافق عديدة ومهمة كان من ابرزها المعبد ثم الزقورة في زمن لاحق ، بالاضافة الى قصر الحاكم أو الامير ومجموعات من البيوت السكنية للمواطنين وكانت معظم المدن تحيط بها أسوار حصينة لتوفير مزيد من أسباب الأمن والدفاع عن سكانها ٠ ففي عصر فجر السلالات مثلا كانت مدينة الوركاء يحيط بها سور بلغ محيطه تسعة كيلومترات وبلغ عدد سكانها ما يقرب من خمسين ألف نسمة[٢] ٠

ويجد الباحث في مقدمة ملحمة كلكامش الشهيرة وصفا لاسوار مدينة الوركاء وبعض مرافقها الدينية المقدسة مثل « معبد السماء » الخاص بالالهة انانا (عشتار) ٠ فنحن نقرأ في مستهل الملحمة ما نصه :

« لقد سلك (كلكامش) طرقاً بعيدة متقلبا ما بين التعب والراحة
فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وخبره
بنى أسوار الوركاء المحصنة
وحرم اي ـ انا المقدس والمعبد الطاهر
فانظر الى سوره الخارجي تجد افاريزه تتألق كالنحاس
وانعم النظر في سوره الداخلي الذي لا يماثله شيء
وتلمس اسكنته الحجرية الموجودة منذ القدم

اقترب من اي ـ انا مسكن عشتار
الذي لا يماثله صنع ملك من الآشين ولا انسان
اعلى فوق أسوار الوركاء
وامش عليها متأملا
تفحص اسس قواعدها وآجر بنائها
أفليس بناؤها من الاجر المفخور
وهلا وضع الحكماء السبعة اسسها ! »(٣)

ويصف شاعر آخر مدينة أكـد ، عاصمة الملك الشهير سرجون وحفيده توام ـ سين مصورا ما وصلت اليه من رقي وما كان عليه اهلها من تقدم حضاري •

يقول الشاعر السومري :

« في تلك الايام كانت مساكن أكد مملوءة ذهباً
بيوتها الساطعة اللامعة مملوءة فضة
والى مخازنهـا كان يحمـل النحـاس والرصاص وحجـر اللازورد •••
عجائزها رهبن سداد الرأي
وشيوخها وهبوا فصاحة اللسان
وشبابها عرفوا ببطش السلاح
وصغارها منحوا قلوبا مفعمة بالفرح
البلاد كلها تعيش في امان
والناس لم يعرفوا غير السعادة
وملكهم الراعي نرام ـ سين
يخطو كالشمس نحو عرش أكد المقدس

اجل ! لقد كانت اسوارها تطاول السماء كالجبال الشاهقة »(٤)

ومن العواصم الشهيرة التي بحوزتنا عن بنائها وتجديدها وثائق مسمارية مدينة كلخو (كالح اي نمرود) وهي واحدة من اربع عواصم آشورية مشهورة (آشور ، نينوى و دور شروكين) • وعن هذه العاصمة بالذات يتحدث الملك اشور ناصربال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق•م) الذي أعاد بناءها مجددا واتخذها عاصمة له وذلك من خلال نص اشوري مدون بالخط المسماري في مسلته التي اكتشفت في هذه العاصمة عام ١٩٥١ • وللنص أهمية كبيرة لانه يعكس درجة الرقي والرخاء الاقتصادي التي كانت تتمتع بها الامبراطورية الاشورية مما أدى الى انتشار حركة العمران واتساع المدن وازدهارها • فبعد مقدمة مستفيضة يذكر فيها الملك الاشوري منجزاته العسكرية يأتي على ذكر التفاصيل الخاصة ببناء العاصمة نمرود فيقول :

« عندما رعاني السيد العظيم اشور بانظاره وبانت للعيان قوتي بأمره المقدس ، انا اشور ناصربال ، الملك ذو القوة الممجدة ، انا ذو الدهاء الذي وهبني اياه الاله ايا ، ملك « العمق » المتمرس في الحكمة ، أخذت على عاتقي تجديد مدينة كلخو • فبعد ان ازلت الانقاض من ذلك التل القديم ، ابتدأت بالحفر وصولا الى مستوى الماء • ومن مستوى الماء حتى القمة كانت المسافة ١٢٠ صفا من الآجر • هنا اتمت قصرا من خشب البقس والتوت والارز والفستق والطرفاء والحور • اجل ! لقد كانت هناك ثمانية اجنحة لاقامتي وراحتي الملكية زينتها بطريقة مدهشة • لقد عززت بأشرطة من برونز الأبواب المصنوعة من خشب الارز والسرو والدفران (العرعر) والبقس والتوت ووضعتها في مداخل الغرف • واحطت (تلك الابواب) بمسامير من

البرونز ذات رؤوس كروية . ثم صورت على جدران (أجنحة القصر) بآجر ذي بريق معدني أزرق اللون امجادي البطولية التي حققتها عبر المرتفعات والسهول والبحار ...

وحفرت قناة من الزاب الأعلى قاطعة الجبل عند قمته وسميتها « فاتحة الخير » (Pati hegalli) . لقد سقيت المروج على صفاف نهر دجلة وزرعتها بجنائن من كل صنوف أشجار الفاكهة . وزرعت الكروم في ضواحيها وقدمت اجودها الى سيدي الاله اشور والى المعابد في سائر أنحاء بلادي ، وكرست تلك المدينة الى سيدي الاله آشور ...

في مدينة كالح ، المركز الحضاري لسيادتي ، شيدت معابد للالهة لم تكن موجودة من قبل ... واقمت فيها مقاعد لسادتي الآلهة وزينتها بطريقة مدهشة وسقفتها بجذوع من خشب الارز وصنعت لها ابوابا عالية من الارز ثم عززتها بأشرطة من برونز ووضعتها في مداخل الغرف ، ثم اقمت تماثيل مقدسة من البرونز في مداخلها . اجل ! لقد جعلت تماثيل اصحاب الجلالة الالهة تسطع بالذهب الاحمر والاحجار الكريمة البراقة ، وقدمت لها حلية من ذهب وكثيرا مما غنمته يداي . ثم زينت بالذهب الاحمر وحجر اللازورد غرفة المصلى لسيدي الاله نورتا ووضعت الواحا من البرونز الى يمينه وشماله ووضعت اثنان متوحشة من الذهب عند عرشه ...

امرت ان يصنع تمثال لشخصي الملكي مماثل بالضبط لملامحي وان يوضع قبالة سيدي الاله نورتا . اما المدن التي أصابها الخراب في ايام ابائي فقد جعلتها مأهولة بالسكان ثانية اذ انزلت

فيها اعددا من الناس لا تحصى ... ولقد جمعت قطعانا من الثيران والاسود والنعام والحمر ذكورا واناثا وجعلتها تتكاثر . واضفت الى بلاد آشور مزيدا من الارض وجلبت لها مزيدا من السكان »(٥) .

بعد هذا الوصف ، الذي لم نقتبس من تفاصيله سوى مقاطع منتخبة ، يأتي الملك آشور ناصربال على ذكر الأعداد الهائلة من الذبائح وصنوف اللحوم والاطباق وأنواع المشروبات التي قدمها في حفل افتتاح عاصمته الجديدة كالح (نمرود) . فهو يذكر انه قدم عدة آلاف وعدة مئات من العجول المسمنة ، والخراف ، والنعاج ، الغزال ، الاوز ، الحمام ، وصنوف أخرى من الطيور والأسماك والبيض والخبز ، وعشرة آلاف مكيال من الجعة والخمر في قرب من الجلد . ويختتم آشور ناصربال وثيقته الشهيرة بقوله : « لعشرة أيام استضفت الحشود الغفيرة المبتهجة من كل البلدان سوية مع اهل مدينة كالح . لقد قدمت لهم الخمر وجعلتهم يستحمون ويتدهنون ثم اكرمتهم وارسلتهم الى بلدانهم بسلام وسرور » . وقد يظن ان في بعض من تلك الارقام التي ذكرها الملك الاشوري شيء من المبالغة ، لكن هذا الشك سرعان ما يتبدد عندما نعرف ان عدد الذين شملتهم الدعوة في تلك المناسبة بلغ ٦٩٥٧٤ شخصا منهم ١٦٠٠٠ شخصا من أهالي العاصمة كالح نفسها و ١٥٠٠ من موظفي القصر الملكي ، اما البقية وعددهم ٥٢٠٧٤ شخصا فكانوا ضيوفا من كافة المقاطعات والاقاليم الصديقة والتابعة للامبراطورية الاشورية .

وفي اية مدينة عراقية قديمة ، كان المعبد والزقورة يشكلان اثنين من ابرز المعالم المعمارية فيها وكان لهما أيضا أهمية خاصة وصفة مقدسة في المجتمع لانهما يرتبطان أساسا بالمعتقدات الدينية ، أي بعبادة الالهة

واقامة الطقوس والشعائر الخاصة بها وكذلك اقامة الاحتفالات الدينية مثل الاحتفال ببدء رأس السة في الاول من شهر نيسان من كل عام وكان المعبد أيضا المكان المناسب لاقامة الاحتفال بتتويج الملك الجديد •

لقد كان المعبد (في الاكدية bitu « البيت » (في البداية عبارة غرفة صغيرة لا يتجاوز طول ضلعها ٥ر٢م كما يظهر ذلك من الاثار المكتشفة في الطبقة السابعة عشر في تل العبيد(٦) • ولكن سرعان ما تطور بناء المعبد وازدادت مساحته وتعددت مرافقه وتوسعت مهماته حتى صار يضم أصنافاً متعددة من الكهان والكاهنات ويمتلك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية • ويمكن القول بصورة عامة ان للمعبد في وادي الرافدين خصائص معمارية رئيسية يمكن ايجازها بالنقاط الاتية :

١ ـ اتجاه زواياه نحو الجهات الاربع •

٢ ـ وجود ما يعرف بالطلعات (Butlresses) والدخلات (Recemmes) في جدرانه وخاصة في الواجهة •

٣ ـ احتوائه على حجرة الهيكل التي يوضع فيها تمثال الاله والتي تعتبر اقدس مكان في المعبد ، وفي الغالب يوجد المذبح في هذه الحجرة أيضا •

٤ ـ وجود دكة للقرابين •

ويمكن القول بصورة عامة ان المعبد في بلاد وادي الرافدين يتكون من قسمين رئيسين الاول هو المعبد الارضي الذي نحن في صدده الآن ، والثاني المعبد العالي أي الزقورة (البرج) • ويتميز المعبد الارضي ، كما قلنا قبل قليل ، يكون جدرانه ، وخاصة الواجهة ، مزينة بالطلعات والدخلات وهي ظاهرة معمارية قديمة عرفت في معابد عصر العبيد وظلت ملازمة للمعبد في مختلف الادوار اللاحقة • وكان مدخل المعبد يؤدي

الى غرفة صغيرة يوصل من خلالها الى صحن المعبد ، وهو فناء واسع كان الناس يجتمعون فيه لاقامة الاحتفالات الدينية • وكان المرء يدخل من هذه الساحة الى غرفة تؤدي هي الاخرى الى حجرة الهيكل (Cella) المقدسة حيث يوجد المحراب وتمثال الاله الذي جرت العادة على وضعه على دكة في المحراب (Niche) • وفي حجرة الهيكل هذه يوجد أيضا دكة المذبح (Altar) التي تقدم عليها الاضاحي والقرابين للاله • وفي المعبد اجنحة وغرف ومرافق أخرى تستعمل لاقامة الكهان والكاهنات والمشرفين على ادارته ومخزن للادوات والاثاث الخاص به • مكان المعبد يضم مكتبة تحتوي على وثائق مما له علاقة بالحياة الدينية كالصلوات والأناشيد والقصص الخاصة بالخليقة والتكوين ، بالاضافة الى وثائق أخرى تمثل اهتمامات الكهنة الخاصة مثل النصوص اللغوية والأدبية والفلكية(٧) •

وقد أعطى الاقدمون عناية خاصة لتماثيل الالهة التي كانوا يصنعونها من الحجر أو الخشب والتي كانوا يزينونها بالذهب والفضة والاحجار الكريمة ومن ثم يضعونها في المحراب لعبادتها وتقديم الصلوات والقرابين لها • وجرت العادة ان تقام على التمثال قبل ان ينصب في المحراب طقوس دينية وتقرأ عليه تراتيل خاصة • ففي الليل ، وعلى ضوء المشاعل ، يأخذ الكهنة تمثال الاله الى ضفة النهر ثم يوضع على حصير باتجاه الشرق • ويبدأ الكهنة المختصون بتقديم القرابين له وبقراءة تراتيل خاصة بالمناسبة • ثم يوجه التمثال نحو الغرب وتجرى عليه طقوس اضافية أخرى • وفي الصباح يؤتى به لتقدم له القرابين عند بوابة المعبد ومن ثم يحمل الى الداخل ويوضع في مكانه المخصص في المحراب •

كان الاشراف على خدمة الالهة في معابدها وعلى اقامة الصلوات

والطقوس من واجبات مجموعة مختصة من الكهان والكاهنات وكان لكل واحد من هؤلاء لقب حسب المهمة التي يزاولها في المعبد • ولم تكن مهنة الكهنة مقصورة على الامور الدينية فقط بل كانت لهم مهام ثقافية وهي الاستزادة في المعـرفة واستنساخ التاليف الأدبيـة والدينية من وثائقهـا الاصلية القديمة ، وكانت لهم مهام تعليمية أيضا اذ كانوا يعلمون الاخرين فنون الخط المسماري وقواعد اللغـة • ومن المعروف انه كان للمعبـد ممتلكات واسعة تشمل الاراضي الزراعية وانه كان من بين الكهنة جماعة موكولة بالاشراف على الشؤون الاقتصادية للمعبد وعلى ما يرد اليه من مدخولات وفوائد على الفروض الممنوحة للأفراد ، وكذلك الاشراف على النفقات والمصروفات والاجور المدفوعـة للعاملين ممن يؤدون الخـدمات للمعبـد •

ويأتي في مقدمة كهنة المعبد الكاهن الاعظم (في السومرية en) وتوازيه في المرتبة الكاهنة العظمى • ويبدو ان منصب الكاهن الاعظم في العصر الشبيه بالكتابي (في حدود ٣٥٠٠ ـ ٢٨٠٠ ق•م) كان مزيجا من السلطتين الدينية والدنيوية وان السلطة الدينية انفصلت فيما بعد بظهور الحاكم أو الامير (في السومرية) الذي صـار يحكـم دويلة المدينة السومرية • وكان للكاهن الاعظم جناح خاص في المعبد يسمى « كيبار » وقد قام ملوك بلاد وادي الرافدين بتكريس بناتهم لمنصب الكاهنة العظمى والخدمة في المعبد مثلما فعل سرجون الاكدي ونبوئيد • وجدير بالذكر ان ام سرجون الاكدي كانت كاهنـة عظمى • وكان ينظـر الى الكاهنة العظمى على انها زوجة للاله • ولذلك فالراجح انه لم يكن لها حق الزواج من الوجهة النظرية في أقل تقدير • ولكن يبدو من بعض مواد قانون حمورابي انـه كان يسمح لها بالزواج ولـكن بشرط عـدم الانجاب • ويفسر بعض الباحثين ذلك بأنه كان يحق لها الزواج وربما

بعد بلوغها سن اليأس وانتهاء خدمتها في المعبد • ومما تجـدر ملاحظته بخصوص منصب الكاهن الاعظم والكاهنة العظمى انه جرت العادة في بلاد وادي الرافدين على تكريس كاهن أعظم عندما يكون المعبد مخصصا لعبادة الهة (انثى) وتكريس كاهنـة عظمى عندما يكون مخصصا لعبادة الـه (ذكر) •

وبالاضافة الى الكاهن الاعظم والكاهنة العظمى ، فقد كان المعبـد يضم أصنافا أخرى عديدة منها كاهن « سنكا » (Sanga) الذي كان يتولى الاشراف على تقـديم الاضاحي الى الالهة • وكان يترأس هـذا الصنف كاهـــن يعـــرف بلقب « كبير الســـنكا » (في الســـومرية (Sanga mah)) • ويظهر ان عملية نحر الاضاحي فعليـا كانت من مهام كاهن يحمل لقب « حامل المدية (nas Patri) •

وهناك أيضا الكاهن من صنف « بارو » (Baru) وهو « العراف أو البصار » والذي كان يقدم خبرته في العرافة الى القصر حيث كان الملك يستشيره لمعرفة الفأل في حالات مهمة مثل القيام بحملة عسكرية أو عند اسناد ولاية العهد لأحد أبنائه • وكان العراف يمارس مهنته على صعيد المجتمع أيضا أي انه كان يتنبأ بالفأل للناس ممن يطلبون منه ذلك • اما صنف العرافين ممن يحملون لقب « شاعيلو » (shailu) المؤنث منه « شاعيلتو » (Sha'ilu) فيظهر من النصوص المسمارية انه كان أقل مرتبة من صنف « بارو » السابق وان الكاهن شاعيلو ونظيرته شاعيلتو كانا مختصين بالدرجة الاولى بتفسير الاحلام • اما ممارسة التعزيم لطرد الأرواح الشريرة من أجسام المرضى من الناس فكانت موكولة بكاهنين ، أولهما يحمل لقب « كالا » (gala) والثاني « نارو » (narn) .

ويبدو ان مهنة هذين الكاهنين كانتا مرتبطان الواحدة منهما بالاخرى ،

لان الاول كان يقوم بعزف الموسيقى بينما يقوم الثاني (الذي يعني اسمه « المنشــد أو المرتل ») قراءة الادعية والتعاويذ الخاصة بطـرد الأرواح الشريرة . جدير بالاشارة ان هذين العزافين كانا يمارسان مهنتهما في المعبد وفي بيوت المرضى من الناس . وتذكر النصوص السماوية صنفين آخــرين من العزافين همــا « آشيبر » (Ashipn) و « مسمشو » (Mashmashu) . اما شؤون الاغتسال والتطهير فكانت من واجبات كاهن يحمل لقب « رمكو » (ramku) ، في حين كانت مهمة القيام بالرهـــان المقدس من واجبـات كاهــن آخـــر يســمى « باسيشو » (Pashishu) (٨) .

من المعروف ان المعبد كان مخصصا لعبادة الآلهة واقامة الصلوات والطقوس وقراءة الادعية والاناشيد الدينية وهو أيضا المكان الذي يقدم فيه الطعام والشراب اله على دكة خاصة في المحراب . وكانت الصلوات ترفع بخشوع امام الاله . اذ كان المتعبـد يقف أمام تمثال الاله ويرفع احدى يديه الى أعلى بمستوى الفم ويبدأ بقراءة الصلوات والأدعية الى الاله . وقـد وصلنا بعض من مشاهد التعبد على المنحوتات القـديمة ، وجدير بالذكر أيضــا ان العلامة المسمارية المستخدمة للتعبير عن كلمــة « صلاة » (في السومرية harabu وفي الاكدية sudy) تتكون من الفم زائدا اليد .

لقد كان بناء معبد جديد من المهمات التي تستلزم اداء طقوس معينة من أجل التأكد من ان رغبة الاله الخاص بذلك المعبد قـد حققت على الوجه الاكمل . وكان الاله يفصح عن رغبته في بناء معبد جديد له من خلال الاحلام التي يراها الملك أو الكاهن في منامه . ومن اقدم الامثلة واكثرها تفصيلا في هذا الشأن ، الحلم الذي روى تفاصيله كوديا امير سلالة لكش الثانية (في حدود ٢١٢٠ق.م) . يقـول كوديا ان الالــه

ننكرسو ظهر له في الحلم على هيئة انسان عملاق « ضخم كأنه السماء ، ضخم كأنه الأرض ، جزؤه الاعلى يشبه الاله وله جناحا طائر ، وجزؤه الأسفل يشبه الاعصار • كان اسد يربض الى يمينه وآخر الى شماله • لقد امرني ان ابني معبدا ، لكني لم أفهم مقصده تماما ••• وكان هناك عملاق آخر حاضرا أيضا • فمد ذراعيه وحمل في كلتا يديه لوحا من حجر اللازورد ورسم عليه مخطط المعبد • ثم جاء بطاسة البناء ووضعها أمامي وسوى لي قالب الاجر المقدس وثبت فيه « أجرة تقرير المصير » • ويقول كوديا انه حالما افاق من نومه ذهب مسرعا الى معبد الالهة نانشه ، مفسرة الاحلام ، ليسألها عن مغزى رؤياه • وبعد ان اخبرته الالهة بتفسير ذلك الحلم وشرحت له ما يتوجب عليه القيام به لنيل رضا الاله ننكرسو ، شرع كوديا بانجاز الطقوس تمهيدا لابتداء العمل وتحقيق رغبة الاله • ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ايضا ، انه بعد مضي ما يزيد عن الف وخمسمائة سنة على كوديا ، يذكر الملك البابلي نبونائيد (٥٥٦ ـ ٥٣٩ ق•م) كيف انه هو الآخر جاءه الوحي الالهي في الحلم وأمره ببناء معبد سين ، اله القمر في حران •

ويظهر من تفاصيل حلم كوديا ومن نصوص دينية أخرى ان هناك جملة من الاجراءات التي كان يتوجب انجازها قبل الشروع في بناء المعبد الجديد • ويمكننا اجمال تلك الاجراءات بالنقاط الآتية :

١ ـ جرت العادة ان يبنى المعبد الجديد على نفس الموقع الذي كان يشغله المعبد القديم • فكان هدم الجدران وازالة الانقاض وتنظيف الموقع من أول الأعمال التي يتوجب انجازها • بعد ذلك يقوم العراف بتحديد يوم سعد من الشهر يكون مناسبا لاشعال النار في المساء وتقديم القرابين للآلهة • ثم يبدأ الكاهن المختص من صنف « كالو » بانشاد التراتيم على أنغام المزمار ، ومن ثم يرفع يديه متضرعاً امام الاله داعياً بالتوبة والغفران •

٢ ـ العمل على استظهار الاسس القديمة للمعبد وحفرها واستخراج ما فيها من آجر ومواد بنائية أخرى وصولا الى الارض البكر • ويظهر ان عدم انجاز هذا العمل على الوجه الاكمل كان مدعاة لغضب الاله ، وبالتالي لسقوط المعبد خلال سنين قلائل • ولهذا السبب يؤكد الملك البابلي نبونائيد في أحد نصوصه عن تجديد معبد اله الشمس في سبار فيقول : « لقد استظهرت اسس ذلك المعبد التي كان قد ارساها نرام ـ سين ••• والتي لم يرها ملك من قبلي لثلاثة آلاف ومائتي سنة خلت ••• » •

٣ ـ بعد ان يتم استظهار الاسس القديمة يشرع بتطهير الموقع باشعال النار حول الاسس ورشها بالعطر • وكان يجري تنظيف المدينة واشعال النار حولها واشعار سكانها رجالا ونساءً ، صغارو وكبارا ، بوجوب الالتزام بالمثل والاعراف الاجتماعية بحيث لا يحدث ما يعكر صفو ذلك اليوم الذي يضع فيه الملك أو الحاكم الاسس الجديدة لمعبد الاله •

٤ ـ يقوم الملك بقطع اللبنة الاولى وفق طقوس دينية معينة • فبعد ان يغتسل ويرفع الصلوات ويقدم القرابين الى الالهة يأخذ واقية الرأس المستديرة التي توضع تحت طاسة البناء ، ثم يأخذ القالب الخاص بتحضير اللبن الذي كان يصنع عادة من نفيس الخشب • ويقوم الملك بدهن القالب بالعسل والزيت النقي ويتناول طاسة البناء ويبدأ بتحضير الطين ومن ثم يصبه في القالب الذي جرت العادة على حفظه في المعبد بعد الانتهاء من صنع اللبنة الأولى ، بعد ذلك تؤخذ اللبنة لتوضع في العراء تحت أشعة الشمس حتى تجف ، وعندئذ يأخذها الملك ويضعها في الاساس معلنا بداية العمل في بناء المعبد • وكدليل على التقوى وطاعة امر الالهة لبناء معابدها فقد كشفت التنقيبات عن عدد من التماثيل والمنحوتات التي تصور

الملك أو الحاكم وهو يحمل على رأسه مواد البناء في طاسة تحتها الواقية المستديرة • لقد تباهى ملوك بلاد وادي الرافدين ، وبدافع من عمق ايمانهم وتقواهم ، بانهم بذلوا الغالي والنفيس في سبيل جلب امهر الصناع واجود المواد من أجل بناء معابد الالهة • اذ ذكروا في كتاباتهم انهم جلبوا مختلف مواد البناء والأخشاب والمعادن وانهم صنعوا من الحجر تماثيل لآلهتهم وتماثيل لانفسهم أيضا وضعوها في المعابد • يقول كوديا وقد انتهى من بناء « معبد اعمشين » الاله تنكرسو بعد سنة من العمل الشاق المتواصل :

ان جلال المعبد يعم البلاد كلها وان رهبته تملأ النفوس وان سناه يحيط بهذا الكون كالعباءة » • وبالرغم من انه لم يبق شيء من « معبد الخمسين » يستحق الذكر في لكش فان واحدا من التماثيل العديدة لكوديا والتي عثر عليها في هذه المدينة يصور الامير السومري جالسا بوقار ويداه مضمومتان الى الصدر وتظهر على ركبتيه رقعة مرسوم عليها مخطط المعبد • ولاشك في ان هذا التمثال الاخرى كانت موضوعة في « معبد الخمسين » امام الاله تنكرسو لينال صاحبها بركاته ، وان التصميم الموضوع فوق ركبتي كوديا يرمز الى ذلك المخطط الذي رسمه الاله تنكرسو على لوح من حجر اللازورد والذي رآه كوديا ضمن ما رأى في حلمه سابق الذكر(٩) •

اما المعبد العالي أو البرج فانه يسمى في البابلية (الزقورة) وهي تعني العلو والسمو • والزقورة كما سبق وذكرنا ، ظاهرة معمارية ملازمة للمعبد الارضي في معظم المدن الرئيسية • والراجح ان فكرة الزقورة نشأت في الاصل من اقامة المعابد في أطوارها الاولى فوق دكاك أو مصاطب اصطناعية مرتفعة عن الارض المحيطة بها • واصبحت الزقورة في العصور التاريخية تتألف اما من ثلاثة أو سبع طوابق وهي اما ان تكون مربعة أو مستطيلة الشكل • وكان يرقى اليها بواسطة سلالم جانبية تمتد بين طبقة واخرى • وقد جرت العادة ان يبنى غلاف الزقورة

بالآجر بينما يبنى هيكلها باللبن • ويوجد فوق الزقورة معبد صغير يعرف بالمعبد العلوي ويعرف في السومرية باسم Gigunu والذي ربما دن يوضع فيه تمثال الاله •

وقد قيلت اراء متعددة حول الفكرة التي تمثلها الزقورة ولعل من أهمها الرأي القائل بان الزقورة بمعبدها العلوي تمثل محلا لاستراحة الاله وهو في طريقه من معبده الارضي الى السماء ، وان مدرجات الزقورة انما ترمز الى سلم يمتد بين الارض والسماء • وجدير بالملاحظة ان مثل هذه الفكرة عن الزقورة لها ما يشابهها تقريبا في التوراة حيث نقرأ في سفر التكوين (١١ : ٣-٥) : « وقال بعضهم لبعض هلم نضع لبناً ونشويه شياً فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان الحمر مكان الطين • وقالوا هلم نبن لانفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء ، ونضع لانفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الارض • فنزل الرب لينظر الى المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها » • كما ونقرأ في السفر نفسه (٢٨ : ١٢) عن حلم يعقوب : « ••• ورأى حلما واذا سلم منصوبة على الارض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها • وهوذا الرب واقف عليها فقال انا الرب اله ابراهيم ابيك واله اسحق » •

قلنا ان الزقورة أصبحت صفة معمارية ملازمة لمعظم المدن القديمة في وادي الرافدين ، وقد امكن عد ثلاثين زقورة موزعة على المدن من اقصى جنوب القطر الى اقصى شماله ، وفي بعض الاحيان يوجد زقورتان في المدينة الواحدة كما هي الحالة في مدينة الوركاء مثلا ، وأحيانا أخرى يوجد ثلاث زقورات والمثال على ذلك كل من مدينة كيش وآشور • ولا يخفى ان تعدد الزقورات في المدينه الواحدة معناه تعدد المعابد حيث ان لكل معبد زقورة خاصة به • ففي الوركاء على سبيل المثال يوجد معبدان وزقورتان • فالمعبد الأول الذي يسمى بـ « المعبد الأبيض »

مخصص لعبادة انو ، اله السماء ، اما الثاني وهو « معبد السماء » فقد خصص لعبادة الالهة إنانا (عشتار) • وكان لكل زقورة اسم تعرف به • فزقورة بابل كانت تسمى Etemenunhi (المعبد أساس السماء والارض) ، وتعرف زقورة سبار (ابو حبه) بـ U6 — nir بمعنى (البرج) اما زقورة مدينة لارسه فقد اطلق عليها اسم E.i + lu — hiyga (السلم الى السماء المقدسة) •

بقيت الزقورة في معظم المدن العراقية القديمة واضحة المعالم رغم تعاقب الازمان ومهما كان فعل الدهر أو الانسان قاسيا في تغيير معالمها ، فما زال بعض منها في حالة شبه جيدة اما لان المدينة أصبحت بمرور الزمن في مكان بعيد ومنعزل فطمرتها الرمال مما جعلها في منأى عن يد التخريب ، أو لأن بعضها حظى بعناية رجال الآثار فقاموا بصيانتها وتجديدها على النحو الذي كانت عليه في العصور القديمة • غير ان ما يدعو الى الاسف العميق حقا ان تتعرض واحدة من أكثر الزقورات شهرة وأهمية في العراق القديم الى أعمال التخريب مما أدى في النهاية الى زوالها من الوجود • فمن المعروف ان زقورة بابل اختفت كليا بسبب النقص المستمر لاجرها عبر العصور القديمة وفي أزمان حديثة ومتأخرة أيضا بحيث لم يبق من تلك الزقورة الشامخة بطبقاتها السبع سوى حفرة مربعة مملوءة بالمياه الجوفية ، علما بأنها كانت تتكون من سبع طبقات يصل ارتفاعها الى ٩١ر٥ مترا ولها قاعدة عرضها ٩١ر٥ مترا أيضا • وكان غلافها من الآجر بسمك ١٥ مترا وكانت كل آجرة منها على شكل مربع ضلع الواحدة منها قدما واحدا • هذا وقد وصلنا لوح مسماري من مدينة دون في عصر سلوقس الثاني في حدود ٢٢٩ ق•م يذكر قياسات طبقات البرج طولا وعرضا وارتفاعا(١١) •

يقول هيرودوتس (٤٨٠ – ٤٢٥ ق•م) وهو يصف برج بابل

ما نصه : « ••• وعند الحصن الثاني تقع حارة الاله « جوبتر ـ بعل » وهي فنــاء مربع طول كل ضلع من اضلاعه ½ ميــل وذو أبواب من البرونز الصلد • وكانت ما تزال باقية في زمني ، ويقع وسط ذلك الفناء أو الساحة برج ذو .بناء صلد طوله ½ ميل وعرضه ⅛ الميل ، اقيم فوقه برج ثان وعلى هذا برج ثالث وهكذا الى البرج الثامن الاعلى • وكان الصعود الى القمة من الخارج بواسطة سلم يدور حول جميع الابراج • وعندما يبلغ المرء منتصف المسافة في الصعود فانه يجد موضعا للاستراحة حيث اعتاد الناس الجلوس بعض الوقت وهم في طريق ارتقائهم الى القمة • ويوجد فوق الطبقة العليا معبد فسيح وضع في داخله سرير ذو حجم غير اعتيادي ومزين بزينة فاخرة وبجانبه منضدة من الذهب • ولا يوجد أي تمثال في هذا المعبد ، كما لا يشغل الحجرة أثناء الليل سوى امرأة يقول عنها كهنة هذا الاله ان الاله اصفاها لنفسه من بين نسوة البلاد ••• »[١٢] •

واذا كان برج بابل قد ازيل تماما بسبب النقص المستمر لآجره ولم يبق منه سوى الأبعاد والأوصاف التي يرد ذكرها في النصوص المسمارية وفي كتابات المؤرخ هيرودتس ، فهناك ابراج أخرى ما زالت قائمة حتى يومنا هذا في عدد من المدن العراقية القديمة • ولعل من أحسن الأمثلة الباقية على تلك الابراج ذلك الذي بناه الملك اورغو في مدينة اور التي كانت مركزا لعبادة سين اله القمر • وأهم ما يذكر في شأن هذا البرج ان كتلته الهائلة ، المكونة من ثلاث طبقات والتي يزيد ارتفاع ما بقي من طبقتها العليــا عن عشرين مترا ، تترك في الناظر انطباعا مدهشا بالجمال والخفة بسبب التناسق التام لأبعادها وبسبب الانحناءات الطفيفة لخطوطها • ان الهدف من هذه الانحناءات الدقيقة والتي لم يكن من اليسير ملاحظتها هو تصحيح خداع النظر الذي تبدو فيه الجدران والأعمدة مقعرة لو انها شيدت وهي مستوية السطوح • وفي هذا الابتكار يكون المعمار السومري

قد سبق نظيره الاغريقي بألفي عام • اذ كان يعتقد خطأً ان الاغارقة الذين شيدو البارتنون هم الذين ابتكروا فكرة جعل انحناء بسيط في أبدان الأعمدة •

وأخيرا فأنه من المهم الاشارة هنا الى ان الزقورة بطبقاتها المتعددة وسلمها الجانبي الذي يوصل بين تلك الطبقات ، كانت في نظر بعض الباحثين ، مثار اعجاب المعماريين من العرب والمسلمين • اذ يرجع هؤلاء ان تصميم الملوية في سامراء يعكس تأثرا واضحا بالزقورة القديمة • فالسلم الخارجي والارتفاع التدريجي (على شكل طبقات) للمئذنة دلائل واضحة على هذا التأثر بالرغم من ان قاعدة الملوية دائرية الشكل خلافاً لقاعدة الزقورة المربعة أو المستطيلة أحيانا(١٣) •

مراجـــع

(١) حول هذه المقدمة الخاصة بالانتقال من سكن الكهوف الى المواقع المؤقتة ثم الدائمية وظهور القرى الزراعية انظر : الاستاذ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (١٩٧٣) ص١٦١ـ٢٠١ .

(2) Rabert Asam, The Origin of Citiee (in Avenue to Antnpity 1975) p. 191.

(3) E. A. Speiser, The Epic of gilgamésh, in Thè Ancient Near Eastern Texts (Cq) p. 73.

وكذلك الاستاذ طه باقر : ملحمة كلكامش (١٩٨٠) ص٧٣ـ٧٤ .

(4) N. Kramer,

(5) K. Grayson, Assyrian Regal Inscriptions, Vel. 2 (1976), p. 172-176.

(٦) حول أقدم المعابد ، انظر السيد علي مهدي : دور المعبد في المجتمع العراقي (اطروحة ماجستير ١٩٧٥) ، ص ٦٤ـ٦٥ .

(٧) لابد من ان نثبت للامانة العلمية ان بعضا من الفقرات عن وصف المعبد مقتبس من فصلنا الذي كتبناه ، ضمن فصول أخـرى ، في الكتاب الموسوم : تاريخ العراق القديم ، بالاشتراك مع الاستاذ طه باقر والاستاذ د. عامر سليمان (١٩٨٠) ، ص٢٧ـ٣٠ .

(٨) حول مجمل هذه المعلومات عن كهنة المعبد :

H. W. F. Saggs, The grectness that wos Balylon p. 395-351.

(٩) المرجع السابق ص٣٦٣ـ٣٧٠ .

(١٠) عن الزقورة ، نشأتها وتطورها • انظر :

H. J. Lenzen, pu' Entunichlung der Zihurat vin ihren Anpungen lis Zeit der III Jynastie vonur (1941).

ثم انظر المرجع السابق حول مجمل الاراء التي قيلت في شـــأن الزقورة ص٣٥٤ـ٣٥٨ •

(١١) عن ابعاد برج بابل كما جاء ذكرها في الرقيم المكتشف في الوركاء ، يراجع : فرنيز كويشن ، عجائب الدنيا في عمارة بابل (ترجمة د• صبحي أنور رشيد) ، (١٩٧٦) ص ١١ـ٢٤ •

(12) Herodotus The Histories (translaled by Aubray pe Selincourt 1959) Book I: 197-185.

(13) Sapgs, op. cit, p.499.

دراسة فنية لمسلتين من معبد جندا
في الحضــر

الاستاذ الدكتور واثق الصالحي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

قامت دائرة الآثار والتراث باجراء التنقيبات الأثرية في معبد صغير في مدينة الحضر خلال موسم التنقيب والصيانة لسنة ١٩٨١ / ١٩٨٢[١] وأوكلت قيادة العمل الى الاستاذ حازم محمد النجفي ، المنقب الاكفء من بين منتسبي دائرة الآثار ، واليه اكرس بحثي هذا عرفاناً بمـا قدمه من أعمال ممتازة خلال سنوات خدمته الطويلة في مواقع الآثار المختلفة وخاصة في مدينة الحضر ولعلاقة الصداقة الحميمة التي تربطني به .

لقد اوضحت نتائج التنقيبات الأثرية أهمية هذا المعبد من نواحي مختلفة حيث القت اضواءاً جديدة على بعض الجوانب المعمارية والفنيــه والدينيــة المتعلقــة بأعمــال التقديس والعبادة الخاصة بالمعابد والمزارات الصغيرة والتي كشف لحد الآن عن ثلاثة عشر منها وجميعها شيدت خارج المعبد الكبير الذي يتوسط المدينة وقد خصصت لعبادة آلهة مختلفة[٣] . لقد مر هذا المعبد ، الذي يقع الى الشرق من المعبد الكبير ، بدورين بنائيين رئيسين . استنادا الى دلائل مستقاة من دراسة تخطيطية المعماري وطريقة بنـائه[٤] .

لقد بنى المعبد من حجر الحلان المنتظم وتألف ، في دوره الاول ،

من خلوة مستعرضة طولها حوالي ۲۲٫۲۰م وعرضها ۸٫٥٠م (شكل ۱) وللمعبد ثلاث مداخل في واجهته الامامية الغربية ، وقد شيد المدخل الرئيس الوسطي بعرض مترين يوصل اليه بعدة سلالم مبنية من المرمر الشمعي وتعلوه اسكفة من حجر حلان طولها ۲٫٤٤م وسمكها ٥٨سم وارتفاعها ٣٥سم وهي مزينة بتحليات عمارية تتألف من صنفين من زخرفة ورقة اللسبيان تحصر بينها شريطين الاول يتألف من سلسلة من زخرفة البيضة والسهم والآخر خال من الزخرفة صفرت عليه كتابة آرامية عميقة ، في داخل بعض حروفها حبر أحمر اللون وهي كتابة تذكارية حيث تشير الى أسماء شخصين حضريين نشريهب بن تيملي وبدي بن شمش جرم ، يبدو أنهما كانا مسؤولين أما عن تشييد المعبد في هذا الدور البنائي[٥] أو القيام ببعض الترميمات البنائية • وفوق الاسكفه اقيم قوس من حجر حلان منتظم الشكل يتميز بتحليات عمارية • واضيفت على جانبي ركني هذا المدخل تقويرات وتحليات هندسية عمارية لتزيد في زخرفة الاسكفة • أما الفتحتان الثانويتان الاخريتيان فتقعان على جانبي المدخل الرئيس وكل منهما بعرض متر واحد وتتميز أركانها الخارجية بطلعات عرض كل منها ۱۰سم لها علاقة باغلاق الفتحات بأبواب وسدها باحكام • وتحيط بالخلوة من الداخل حافة أو دكة واطئة عرضها حوالي ٧٠سم مبلطة بحجر المرمر الاخضر اللون • وعلى محور طولي مع المدخل الرئيس ، تبرز الى الخارج ، الى جهة الشرق كوة عميقة مساحتها الداخلية ٤٫٧٠م طولا × ٤٫١٠م عرضا ، ويرقى اليها بواسطة عدد من الدرجات مشيدة من المرمر الشمعي وتعلو فتحتها العريضة (۲٫٦٠م) اسكفة من حجر الحلان مزينة بتحليات عمارية مشابهة لأسكفة مدخل المعبد الرتيسي طولها ۲٫٦٥م وارتفاعها ۳۸سم وسمكها ٥٥سم وتتضمن اضافة الى أوراق اللسبيان زخرفة البيض والسهم والحبل المبروم وتتكسر

معها زخرفه أوراق اللسبيان • وعلى الاسـكفه ، حفرت كتابة تذكاوية أخرى تشير الى كاهن المعبد واسمه حيوشا وشخص آخر يدعى دبيا ، وقد تلفت بعض أحرف الكتابة بسبب الرطوبة والاملاح(٦) •

وعثر المنقبون داخل الكـوة العميقه على منصـة مستطيلة الشكل وأمامها دكه طولها ١ر٤٠م وعرضها ٩٠سم مزينة بتحليات عمارية وفي أرضيتها المرصوفة بالمرمر الأخضر حوض غائر للماء دائري الشكل قطره حوالي ٦٠سم • وتم الكشف عن تماثيل مهمة في الكوة أهمها تمثـال هرقل ـ جندا ونحتين بارزين احدهما لكاهن يحرق البخـور الآخـر لشخص مضطجع وسنتناوله في بحثنا هذا • وفي داخل الجدار الجنوبي للخلوة البالغ عرضه حوالي ١ر٩٠سم شـيد سلم المعبـد بعرض ٧٠سم وهي صفة عمارية لم تظهر سابقا في المعابد الصغيرة وقـد يعزى السبب الى أن المعبد بكامله قـد شيد من حجر حلان منتظم وان جدرانه بنيت سميكة وقوية في حين أن معظم جدران المعـابد الصغيرة قـد شيدت من اللبن على أسس من حجر حلان منتظم أو في بعض الاحيان غير منتظم ولطشت بطبقات عديدة من الجص • واسلوب بنـاء هذا المعبد يشبه في بعض نفاصيله بعض المعابد الكبيرة حيث تبرز من أركانه الأربع طلعات عرض كل منها ١٠سم لتزيد في قوة البناء ومتانته • ومخطط هذا المعبد ، الذي يتصف بالمحـور الطولي بين مدخله الرئيس ودكة تمثـال الاله الموضوعة في الكـوة العميقة ، يشـابه مخططات بعض المعـابد الصغيرة الاخرى كالمعبـد الخامس والعاشر والتاسع(٨) • ولكن باختلاف واضح في قياسات حجمه الكبير واسلوب بنائه • وفي فترة لاحقة شيدت غرفـة مستعرضة أمام الخلوة استخدمت مقدمة لها أو ما يعرف عماريا بمقدمة الخلوة طولها حوالي ٢٢م وعرضها ٧ر٨٠م وهي أيضا مبنية من حجر حلان منتظم وبأسلوب معماري مشـابه لبنـاء الخلوة ولهـا مدخل رئيس

واحد عرضه ٢٥ر٥م يعلوه قوس تألف من أحجر منتظمة يحمل البعض منها نحت بارز لآلهة المدينة ونبلائها وعلى اثنين منهما نحت بارز لشخصين ونقشت كتابة تذكر أسمائهما ، وقد صورا بوضعية امامية وهما يرفعان ايديهما بالتحية ويحملان بالاخريتين سعفتين صغيرتين ترمزان للقدسية(٩) .

وزينت واجهة المدخل بعمودين مندمجين يستندان على قاعدتين مستطيلي الشكل قياس الواحدة منها ١٢٥سم × ٨٠سم اما قطر العمود فيقدر بحوالي ٩٠سم ويوصل الى المدخل بعدد من السلالم المبنية من حجر مرمر شمعي مائل الى الاخضرار . ولمقدمة الخلوة مدخلان ثانويان في ضلعها الشمالي والجنوبي وهي بعرض يتراوح بين ٩٠سم - ١٠٠سم . لا تشير الدلائل الآثارية والكتابية الى الحقبة الزمنية التي تم فيها اضافة مقدمة الخلوة الى المعبد الذي يبدو في مخططه مشابها للمعابد العراقية القديمة وخاصة البابلية منها التي تألفت من خلوة ومقدمة خلوة وكوة احتوت على دكة لوضع تمثال اله المعبد الرئيس تقع على محور طولي مع مدخلها الرئيس الذي يطل على ساحة مكشوفة يحيط بها عدد من الغرف من كافة جوانبها ، استخدمت لمختلف الاغراض منها لخزن النذور والقرابين ومنها لاستعمالات كهنة المعبد .

والمعبد محاط من كافة جوانبه بسور متين قوي شيده شخص اسمه عقا بن بدني (أو برني) اضافة الى ساحتين أماميتين تطل عليها عدد من الغرف المقبأة (الاواوين) كان هو أيضا مسؤولا عن تشييدها وتخصيصها الى جندا اله المعبد الرئيس . وقد وردت هذه المعلومات المهمة في كتابة منسقة منتظمة عثر عليها في احدى الغرف المقبأة التي تحيط بالساحة الوسطية في جهتها الجنوبية وتصف الكتابة « عقا » بأنه سيد المدينة وقد قام بعمل هذه الاضافات في شهر حزيران من سنة ٢٣٤ / ٢٣٥ ميلادي

كما نذكر تلك الكتابة[١٠] • وكشفت الحفائر الأثرية عن عدد من الغرف ذات قياسات منتظمة وجدران سميكة مشيدة من حجر الحلان تحيط بالساحة الوسطية في ضلعيها الشمالي والجنوبي ، اما في ضلعها الغربي الذي يحتوي على المدخل الرئيس للمعبد فقد ضم عدد من الغرف من ضمنها اثنتين على جانبي المدخل الغرض منها التأكد من هوية المتعبدين والزوار وربما للحراسة أيضا وجميعها مشيدة من حجر الحلان المنتظم الشكل ، ويبدو من تلك الكتابة ان هذه الغرف كانت تستخدم لسكنى النزلاء من المتعبدين الذين يرومون التقرب من اله المعبد لغرض تلبية طلباتهم أو شفائهم من الأمراض وكان عليهم أن يعتنوا بها ويرمموا الاجزاء التي تتطلب ذلك • وعثر المنقبون على عدد من اللقى الأثرية والمنحوتات في الغرف المطلة على الساحة من ضمنها اللوحة الثانية التي سنبحثها لاحقا •

عثر المنقبون على عدد من اللوحات التي نقشت بالنحت البارز وعلى تماثيل عملت بالنحت المدور ، وسيقتصر بحثنا هذا على دراسة اثنتين من اللوحات التي نحتت بنحت بارز لما لها من أهمية تكمن في القاء الضوء على أسلوب النحت ووضعية الشخص المصور بالنسبة لاحداهما وما تتضمنه الثانية من تفاصيل وما تحمله من رموز تساعدنا في الكشف عن مفردات مهمة من ديانة الحضريين • عثر على المسلة الاولى داخل كوة المعبد العميقة وقد عملت من حجر حلان ويبدو انها تعرضت للتلف والتآكل في بعض من أجزائها نتيجة تعرضها لعوامل طبيعية كالرطوبة مثلا • تظهر اللوحة عدم انتظام في شكلها والذي يتميز أيضا بكونه مستطيلا ناقصا (شكل ٢) ، فقد عملت اللوحة في الأصل بارتفاع ٨١سم وبعرض ١١٥سم وقد اقتطعت منها قطعة مستطيلة الشكل قياساتها ٢٨سم × ٣١سم ، ويعزى سبب هذا القطع ، على الارجح ، الى شكل

ومساحة الحيز الذي احتلته في داخل الكوة . يحيط باللوحة اطار غير منتظم في سمكه حيث يتراوح ثخنه بين ٥ – ٢٠سم وقد ينعدم تماما في مناطق أخرى خاصة في ضلع اللوحة الايسر . نحت على وجه المسلة شخص مضطجع على جنبه الأيسر وهو يحتل مساحة اللوحة بكاملها وقد استفاد النحات في ملىء الفراغات المحصورة بين الشخص والاطار بنقش كتابتين تذكاريتين لهما علاقة بالشخص المصور . فالكتابة السفلى تذكر تمثال حيوشا بن اشلمو عابد (خادم) الاله اطيب » وهي اشارة واضحة الى الشخص المنقوشة صورته ، أما الكتابة العليا فتذكر « مذكور ربت ابنـه »[١١] يسند حيوشا المضطجع ثقل جسمه على ذراعه الأيسر حيث يضع ساعده على وسادة ، مؤلفة من قسمين ، مستندا على مرفقه الأيسر ، ويمد ساقه اليسرى افقيـا بارتخاء ويثني ركبته قليـلا بينما يحافظ على توازن جسمه بساقه اليمنى حيث تنثني بزاوية قائمة عند الركبة وتستند قدمه على أسفل اللوحة وتخفي خلفها الاجزاء السفلى من ساقة الأيسر وقدمه أيضا . أدت وضعيته المستندة على المرفق الأيسر الى رفع كتفـه الأيسر قليلا ، اضافة الى عضلات الصدر المتصلة به . وتألفت تصفيفة شعره من تجعدات حلزونية الشكل تحيط برأسه وتغطي أذنيه وقـد كسرت بعض التجعدات القريبة من إطار اللوحة . وقد جرت محاولة في القديم لترميمها باستعمال مسمار أو وتد صغير من الحديد ولكن لم يعثر على القطعة المكسورة . لقد تعرض الوجه الى تلف شديد ولم يبق من معالم الوجه سوى بعض الحزوز التي تشير الى الاجفان ، ويبدو جيوشا غير ملتحياً . يضع ذراعه اليمنى لمحاذاة جسمه وفخذه الأيمن ويمسك بيده كيساً صغيرا للنقود مزود ببعض الحزوز الافقية ، وكيس النقـود يدل على انه يمتهن التجارة وقد عثر على تماثيل لأشخاص وهم يقبضون على كيس صغير للنقود[١٢] . ويقف نسر على ذراعه الأيمن بوضعية

شبه امامية ويبدو غير ناشر الجناحين وعلى صدره تتدلى بعض القلائد • لقد فقد راس النسر ، وجرت محاولة لترميمه مشابهة لتجعدات شعر الرجل حيث يبدو مسمار من الحديد واضحا في اطار اللوحة وفي موقع اتصال الراس • وللنسر أهمية خاصة في معتقدات الحضريين حيث عبد الهاً واطلق عليه « سيدنا النسر » أو « النسر سيدنا » في كتابات المدينة • وقد ظهر على نوعين ، النوع الأول باسط الجناحين ، حيث يعتقد بعض الباحثين بأنه يرمز الى شمس ، اله المدينة الرئيس والنوع الآخر يبدو غير ناشر الجناحين وبوضعية شبه جانبية مثل وقفته على لوحتنا وفي هذه الحالة قد يشير الى مرن (سيدنا) استنادا الى بعض المنحوتات المهمة التي عثر عليها خلال التنقيب في المدينة • ومن أبرزها اللوحة التي عثر عليها في المعبد الاول حيث يصور مع سميا أو « الراية » وهو يقف على قاعدة محفور عليها كتابة تذكر « رمزا مرن وسميا العائدة الى البيت عقوبا »(١٣) اضافة الى اللوحة التي عثر عليها في « كوة النسر » في باحة مدخل الباب الشمالي والمنقوش عليها النص القانوني الخاص بتنبيه الحضريين والعرب وزوار المدينة والقاطنين فيها الى عقوبة السرقة وتتصدر الكتابة العبارة التالية « بملكا دي الها » اي « بملكوت أو بمشيئة الاله » وان نحت النسر يرمز الى « الاله » الذي يشير الى مرن كبير آلهة التثليث الحضرية المعروفة(١٤) • ويبدو النسر في هذه اللوحة بوضعية مشابهة لعدد من اللوحات المكتشفة في المدينة وخاصة تلك التي سبق ذكرها اضافة الى لوحة مشابهة عثر عليها في الباب الشرقي وعليها نقش النص القانوني ذاته(١٥) •

ويمسك جيوشا بيده اليسرى الملتصقة على صدره كأسا كبيرا لم يبق منه سوى حدوده الخارجية وقاعدته التي تستقر في يده • ويرتدي قميصا ذا أكمام طويلة يصل الى ركبتيه وسروالا ، وقد عملت طيات

القميص ضحلة وتختلف في اتجاهاتها ، حيث تبدو على الذراعين وأسفل الخصر بشكل اقواس عمودية بينما تظهــر على الصدر وعلى الساعـد بشكل افقي • ويرتدي حزاما يتالف من حلقات صغيرة متعاقبة ، وهي تختلف في شكلها وزخرفتها عن معظم الاحزمة التي ارتداها الحضريون الذين بدلوا عنـاية خاصه في زخرفة اشكالها وطريقة نحتها وقد طعـم البعض بالاحجار الكريمة وحمل قسم اخر نقوشا تمثل الالهة • وتميزت الاحزمه التي ارتداها الملك بنفس نقوش الملابس وزخرفتها • تعرضت سطوح النحت الى التلف بشكل عام ويتوضح ذلك عند ساقي الشخص حيث لم يبق من طيات السروال الا بعض خطوط مائلة ، وفقدت كليـا قدمه اليمنى •

تعتبر وضعية جيوشـا المضطجعه من الوصفيات النادرة في النحت الحضري وغير الشائعة ومن الأمثلة القليله التي وصلتنا نقش على اسكفة مدخل المعبد الخامس حيث يصور نصرومريا بالنحت البارز مضطجعـا ومتكأ على وسادة وهو يحمل كاسا في يده اليسرى وشيئا غير واضح في اليد الأخرى(١٦) وعلى يمينه يقف ولجش ابنــه وعلى يساره تمثـال لاله الحامي بينما تظهر اله النصر المجنحة وهي تحمل اكليلا للنصـر مفتوحا ، ربما تخليدا لانتصاره على الجيوش الرومانية التي قادها تراجان في حملته الفاشلة على المدينة في عام ١١٦ / ١١٧م والتي ، على الارجح ، قاد الدفاع عنهـا نصرو مريا • وخلد نصرو انتصاره أيضاً على لوحـة مشابهة لم يبق منها الا بعض الكسر وقد عثر عليها في المدخل الرئيس للباب الشمالي والتي من المحتمل انهـا كانت تزين واجهة المدخل من الخارج حيث تم العثور على الاله الحامي ورأس نصرو وذراعه الايسر التي تحمل الكأس وسيقانه وكانت الاخيرة تالفة جدا(١٧) • ويستدل على عائديتها الى نصرومريا بدليل كتابة وجدت بين انقاض المدخل تذكر

اسم نصرو[١٨] والتي تشير الى قيامه بتصليحات وترميمات في الباب الشمالي اثر حصار تراجان وما تعرضت له أسوار وأبواب المدينة من دمار بفعل قذائف المدفعية الرومانية • وقد عثر في الباب الشرقي على لوحة مكتوبة تذكر اسم نصرو ايضا وهي تؤكد أعمال الصيانة التي قام بها في تعمير الأسوار والأبواب • ويتكرر مشهد الشخص المضطجع والمتكيء على وسادة في الرسوم المحززة التي عثر عليها منقوشة على جدران بعض مرافق المدينة التي امتدت اليها الحفائر الأثرية ويعتقد بأنها قد عملت في فترة متأخرة من تاريخ المدينة تقليدا لأعمال كانت لا تزال قائمة حينذاك • فقد عثر على مشهدين لشخص مضطجع في احدى غرف الوحدة السكنية المعروفة باسم « بيت معنو » حيث يبدو فيها شخص مضطجع على سرير ومتكأ على وسادة مقسمة الى ثلاثة أقسام أو قد تكون ثلاثة وسائد وضعت الواحدة فوق الاخرى • وقد يعكس المشهدان صورة الأشخاص الجالسين في ايواني بيت معنو المتقابلين[١٩] • وعثر على تصوير جداري بحبر أحمر اللون مرسوما على ملاط الوجه الداخلي للضلع الجنوبي لكوة النسر في الباب الشرقي يمثل شخصا مضطجعا على سرير مرتفع ذي أرجل مزخرفة وهو متكيء على جنبه الأيسر ويضع مرفقه الأيسر على وسادة عالية[٢٠] • ويستدل من معثرها في الكوة ان الشخص الذي رسمها قد أراد أن يستنسخ صورة شخص مضطجع بالنحت البارز ضمن أسكفة المدخل الرئيس للباب الشرقي والذي من المحتمل انه كان يمثل نصرو مريا والمشابهة لتلك التي عثر عليها في الباب الشمالي ، ونعتمد في اقتراحنا هذا على صورة أخرى في الوجه المقابل من الكوة نفسها تمثل هرقل وقد عملت بالحبر الأحمر أيضا وقد تكون تقليدا لتمثال هرقل الذي عثر عليه في كوة قريبة ولكن باختلاف بسيط هو أن هرقل في الصورة يضع هراوته على كتفه بينما يمسك بها في يده اليمنى في تمثاله •

وفي نحتين بارزين صور هـرقل بوضعية مضطجعـة حيث جلس يستريح في حديقة التفاح الذهبي بعد عناء ومشقة تحملها في سبيل انجاز أعماله الاثنتي عشر البطولية الشاقة(٢١) • وفي تدمر ، اقتصـر اعتماد الوضعية المضطجعة على أمثلة من الفـن الجنائزي حيث ظهـر أفـراد تدمريون منذ بداية القرن الأول للميلاد بتلك الوضعية والتي استمرت حتى القرن الثالث للميلاد وقد طرأ عليها تطورات فنية مهمة خاصة في علاقة الساقين مع بعضها البعض وطريقة تقاطعها(١١) ووصلنا مثال واحد لهذه الوضعية من دورايوروبس يصور اله النهر ويعتقد بعض الباحثين بانه تمثيل لنهـر الفرات(٢٣) • لقـد عـرف الاغريق هـذه الوضعيه واستخدموها في أعمالهم بالنحت البارز والمدور ولكن اللوحة الجدارية التي يظهر فيها الملك اشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٧ ق•م) تعتبر من أقدم واروع الأمثلة التي وصـلتنا حيث يبـدو فيها الملك الآشوري بوضعيه مضطجعة متكأ على جنبه الايسر وهو يحتفل بانتصاره الحاسم على تيامن الملك العيلامي وتجلس بالقرب منه زوجته(٢٤) • لقد نجح نحات مسلة حيوشا في تصوير الوضعية المستريحة على جنبها وما يتبعها من تغير في وضعيه أعضاء الجسم المختلفة والتي نحتها بشكل متناسب ونفـذ الفنان الشخص المصو ر بوضعيه أمامية ، وهي صفة بارزة للنحت في الحضـر ولكنها مع بعض الاختلاف في وضعية الساقين وامتداد الذراع اليمنى التي يقف عليها النسر ، لذلك تعتبر مسلة حيوشا مثلا للابتعاد ، ولو قليلا ، عن الوضعية الامامية الجامدة •

أما المسلة الأخرى التي عثر عليها في احدى غرف الجانب الشمالي المطلة على الساحة الامامية فمن المحتمل انها قد نحتت في الاصل لتثبت ضمن البناء ليست منتظمة لا في شكلها فحسب وانما في حجم كتلة حجر الحلان التي عملت منها ، فعرضها يتراوح بين ٥٢ - ٦١سم وارتفاعها

٥٨سم (شكل ٣) • على وجه اللوحة نحت بارز لرأس وصدر شخص تشير اليه الكتابة القريبة من رأسه وعلى يمينه باسم عبد عجيلو وتصفه بالقاضي أو العادل • ويعتقد بأنه نفس الشخص الذي عثر على صورته منقوشه على احدى حجرات قوس المدخل الرئيس للمعبد في دوره البنائي الثاني • لقد تعرضت اللوحة الى تهشيم متعمد مما ادى الى تحطيم الوجه وفقدانه اضافة الى اجزاء من خصلات شعره وكذلك الذراع اليمنى المرفوعه للتحية • وامتد تشويه القطعة ليشمل أيضا الكتابة المحفورة في الاسفل والتي تالفت من عدة اسطر وكانت مملوءة بالرصاص واستطعنا قراءة بعض منها بصعوبة بالغة[٢٥] • ومن الغريب ان اسم الاله جندا المكتوبة احرفه بالرصاص لم يتعرض الى الازالة المتعمدة ، ربما خشية من الاله نفسه او احتراما له صفف عبد عجيلو شعر رأسه بتسريحه تالفت من خصلات حلزونية منتظمة تدور حول الرأس بصفين ويرتدي قميصا ذا اكمام طويلة مزين من الامام بأربعة صفوف عمودية من اقراص تحصر بينها زخرفة العنب وتظهر طيات القميص واضحة تحت ذراعه اليمنى المنثنية والمرفوعة الى الأعلى وعلى كتفه الأيسر وذراعه اليسرى أيضا ويبدو حفرها عميقا واضحا نوعما • ويضع حول رقبته طوقا بسيطاً مزخرف في وسطه بقرص قد يكون حجرا كريماً • يثني ذراعه اليسرى عند المرفق ويلصقها بجسمه ويقبض بيده على شيء يبدو بشكل حزمة تتألف من سبعة عناصر ربما لها علاقة بالمنتجات الزراعية أو قد تكون الجزء العلوي من سعفة نخيل ولكنها نحتت بشكل غير مألوف ، ولو لم يكن الشخص المصور بشرا لأفترضنا بأنها تمثل حزمة برق تشابه تلك التي يقبض عليها بعلشمين اله المطر والبرق في الحضر[٢٦] • ويرتدي أيضا سوارا بسيطا خاليا من الزخرفة حول معصمه الايسر ، والى يساره نحتت في سطح اللوحة كوة غائرة ارتفاعها ٥٢سم وعرضها ١٢سم يعلوها

قوس وهي بعمق يتراوح بين ٢ - ٣كم (شكل ٤) وفي داخلها نقش بالنحت البارز الواطيء تمثيلا لهرقل - جندا واقفا بوضعية امامية ويحيط براسه اكليلا يقف عليه نسر ناشر الجناحين • يظهر الاله حافي القدمين يقبض بيده اليمنى على هراوته التي تصل الى الارض ويمسك في اليد الاخرى كأسا وهو يضع جلد الاسد فوق ذراعه حيث يظهر راسه واطرافه متدلية الى الامام • يرتدي الاله الملابس الحضريه الاعتياديه التي تتألف من قميص ذي اكمام طويلة يصل الى فوق الركبتين وتتدلى اجزاء منها بين الساقين وقد أوضح النحات طيات الثياب على شكل خطوط منحنية متوازية طويلة •

لقد اثبتت الدراسات الفنية التي تعتمد على الادلة الآثاريه والكتابية على تطابق هرقل مع جندا اله الخط في الحضر ولوحتنا هذه تعزز من اقتراحنا السابق بشان تطابق الالهين وان تنقيبات هذا المعبد تلقي اضواءا جديدة حول العبادة الطقوسية المهمة التي جرت فيه والمكرسة لهرقل - جندا[٢٧] • لقد عثر على العديد من تماثيل ومنحوتات تصور هرقل عاريا حيث يبدو فيها حاملا مميزاته المعروفة وهي جلد الأسد والهراوة وفيها تطابق مع نرجول اله العالم الأسفل في الأساطير العراقية القديمه[٢٨] ، ولكن هرقل الذي يرتدي الملابس بتطابق دائما مع جندا اله الحظ • والى الجهة اليسرى من رأس عبد عجيلو كتابة تذكر « عدنا د جندا د رمجو » أي « مقام جندا العائد الى رمجو »[٢٩] • وهذه هي الاشارة الاولى التي يرد فيها كلمة « عدنا » في كتابات الحضر والتي تدل على المزار أو المعبد[٣٠] • نحت هذه اللوحة نحات أسمه « أبا » في شهر حزيران من سنة ٤٥٦ اي سنة ٢٣٤/٢٣٥ ميلادي كما تذكر الكتابات المنقوشة على اللوحة • ان هذه اللوحة مهمة لعدة أسباب فهي تصور لنا ولأول مرة ضمن منحوتات الحضر ، متعبدا وخلفه تمثال اله المعبد وكذلك لأنها تقوي من اقتراحنا السابق حول تطابق هرقل مع جندا اله الحظ عند العرب •

الهوامش :

(1) "Excavations in Iraq 1981-82" Iraq Vol. XLV, Parta, 1983, p. allf.

(٢) أود أن أسجل عميق شكري وامتناني اليه لموافقته على قيامي بدراسة ونشر منحوتات معبد جندا • ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ حازم النجفي أحال نفسه على التقاعد بعد سنوات طويلة من الخدمة في دائرة الآثار اتسمت بالعطاء المتواصل والعمل المضني الدؤوب •

(٣) حول المعابد الصغيرة من الأول الى الحادي عشر ، يراجع فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى – الحضر – مدينة الشمس ، بغداد ١٩٧٤ ص٣٥٠ – ٣٦٩ ، أما الثاني عشر فأنظر :

Wathiq Al-Salihi, "The Shrine of Nebo at Hatra" Iraq, XLV, 1983, pp. 140-145.

(3) Wathiq Al-Salihi, "Palwyrcne Sculptnres found at Hatra", Iraq, XLIx (1987 p. 53.

(٥) واثق الصالحي ، « كتابات الحضر » سومر (١٩٨٥ – ١٩٨٦) الكتابة المرقمة [٤٠٦] ، ص٩٩ •

(٦) المصدر السابق ، الكتابة المرقمة [٤٠٧] ص٩٩ •

(7) Excavations in Iraq", Iraq, p. 212.

(٨) سفر ومصطفى – ص٣٥٧–٣٥٨ ، ٣٦٢–٣٦٣ ، ٣٦٥ •

(٩) واثق الصالحي « كتابات الحضر » ، الكتابة المرقمة [٤١٥] ص ١٠٨/١٠٩ •

(١٠) المصدر السابق ، الكتابة [٤٠٨] ص٩٩–١٠٢ •

(١١) المصدر السابق ، الكتابة [٤١٢] ، ص١٠٥ •

(١٢) سفر ومصطفى ، ص٢١٢ •

(١٣) المصدر السابق ، الكتابة [٣] ص٤٠٥ •

(١٤) واثق الصالحي ، « كتابات الحضر » سومر ، ٣٤ (١٩٧٨) [٣٣٦] ، ص٦٩–٧٠ •

(١٥) جابر خليل ابراهيم ، « نصان قانونيان » سومر ، ٣٨ (١٨٩٢) ص١٢٢–١٢٣ •

(١٦) سفر ومصطفى ، ص٢٤٧ •

(١٧) رائق الصالحي « التنقيب في الباب الشمالي » سومر ٣٦ (١٩٨٠) ص١٧٦–١٧٧ (شكل ٣٢) – والأثر معروض في احد اواوين الحضر •

(١٨) رائق الصالحي « كتابات الحضر » ، سومر ، ٣١ (١٩٧٥) [٣٣٥] ص١٨٧–١٨٨ •

(19) J. K. Ibrahim, Pre-Islamic Settlments in the Jezira, Baghdad, 1986 pl. 169, p. 417.

وماجد الشمس ، « رسوم عربية من الحضر » ، سومر ٣٧ (١٩٨١) ص١٤٨ ، شكل ١٩ ، ٢٠ •

(20) Ibrahim, op. cit, pl. 174, p. 422.

والشمس ، المصدر السابق ، ص١٤٨ ، شكل ٢١ •

(٢١) سفر ومصطفى ، ص١١٧ ، ص٢٤٢ •

Wathiq Al-Salihi, "Aspects of Hatran Relijion" Sumer (22), 1970, p. 187-188.

(22) Malcdm Colledge, The Art of Palmyra London, 1976, p. 136.

(23) Susan Downey, Stone and Plastre Sculpture, Excavations at Dura-Europos, Los Angeles, 1977, p. 78-79.

(24) Eva Strommenger, The Art of Mesopotamia London, 1964, Pl. 241, p. 252.

٢٥- واثق الصالحي « كتــابات الحضــر » ســومر ، ٤٤ ، [٤١٣] ص ١٠٥-١٠٧ .

(٢٦) واثق الصالحي « بعلشمين - اله البرق والمطر في الحضر » مجلة كلية الآداب ، العدد ٢٥ (١٩٧٩) ص٤٥٠-٤٦٨ .

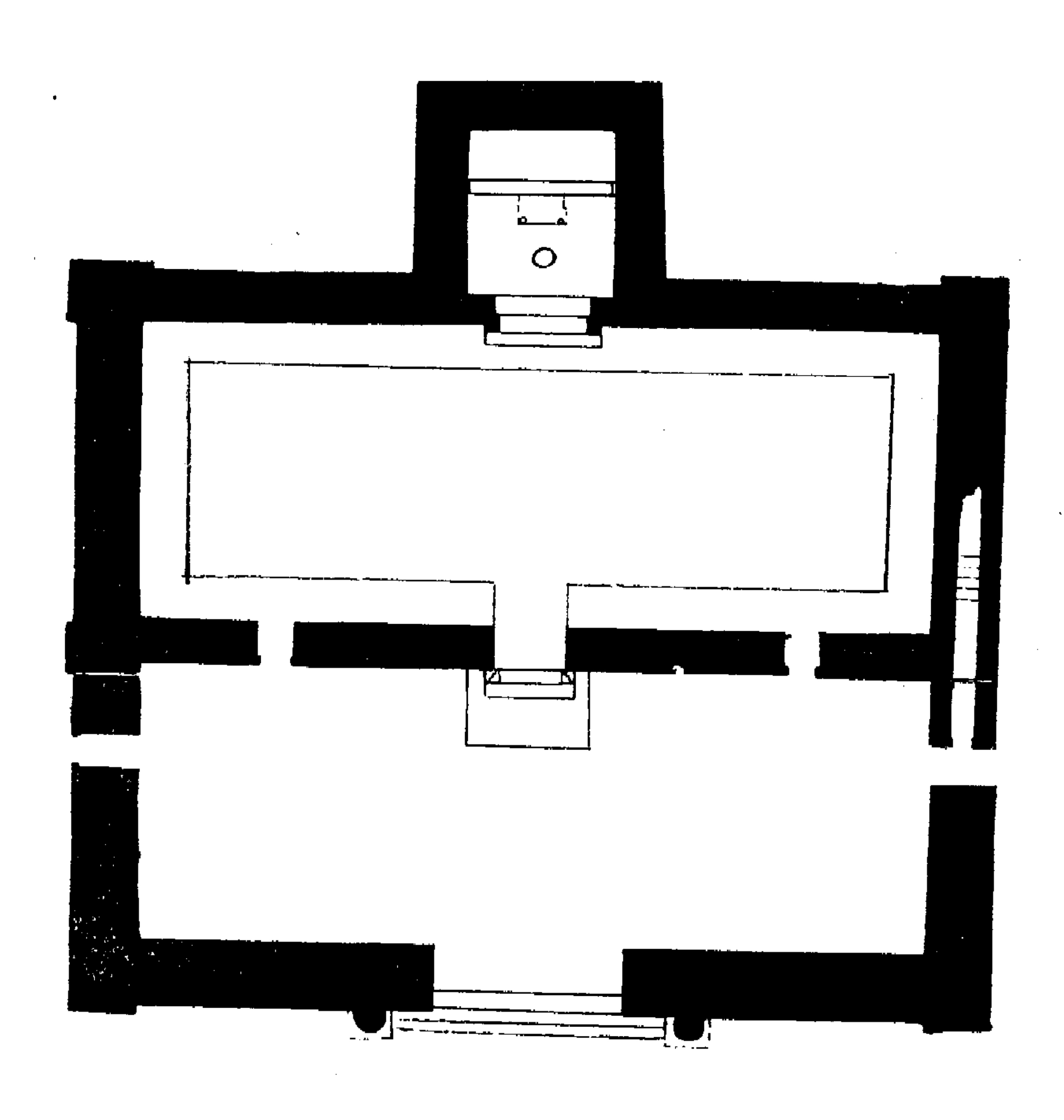
(٢٧) واثق الصالحي ، « هرقل - جندا اله الحظ في الحضر » سومر ٢٩ (١٩٧٣) ص١٥١-١٥٥ .

Wathig Al-Salihi "Further Notcs on Hercules-Gnda at Hatra", Sumer, 38 (1982) pp. 137-140.

(28) Wathig Al-Salihi, "Hercules-Nergal at Hatra II", Iraq, xxxv, (1973) p. 65-69.

(٢٩) واثق الصالحي « كتابات الحضر » ، [٤١٣] ص١٠٦ .

(٣٠) لقد وردت هذه الكلمة في كتابة وجدت في السعدية القريبة من الحضــر ، انظــر فؤاد سفر ، « كتابة من السعدية » سومر ١٧ (١٩٦١) ص٢٨-٣٣ .



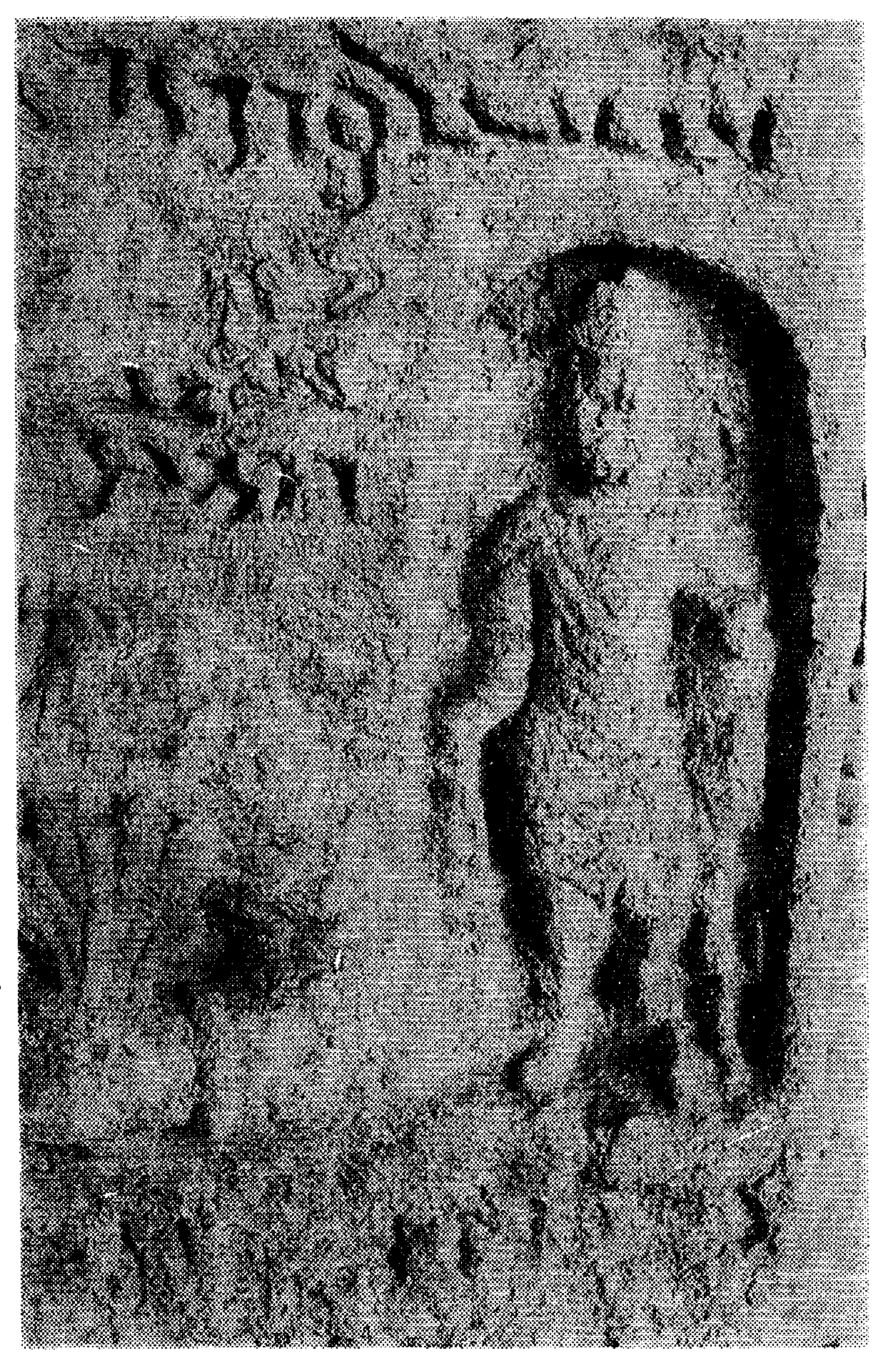
شكل (١) المخطط الأرضي لمعبد جندا



شكل (٢) مسلة حيوشا المضطجع من معبد جندا



شكل (٣) مسلة عبد عجيو من معبد جندا



شكل (٤) تفاصيل لمسلة عبد عجيلو ويظهر فيها نقش لهرقل ـ جندا

الرايات والالوية وشعارات الحرب عند العرب

د. فاروق عمر فوزي
كلية الآداب ــ جامعة بغداد

مقـدمة :

الراية لغـةً هي العلم والجمع رايات[١] ، ويشير ابن منظـور في (لسان العرب) الى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة خيبر ضد اليهود قوله .. « سأعطي الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله » . فالراية هنا العلم .

اما اللواء فهو لواء الأمير . والجمع ألوية .. ولا يمسك اللواء الا صاحب الجيش[٢] والهدف منه معرفة مكان الرئيس أو الأمير واشهار موضعه لكي يعرفه الجند .

يقول الشاعر :

حتى اذا رفـع اللواء رايتـه
تحت اللواء على الخميس زعيماً

وكانت بعض العرب تسميه « لواي » يقول الشاعر :

غـداة تسايلت من كـل أوب
كتـائب عاقـدين لهـم لوايا[٣]

من ذلك نلاحظ بأن الراية هي الوحدة أو الكتيبة أو القبيلة المقاتلة ويحملها أحد المقاتلة المعروفين بشجاعتهم ، أما اللواء فهو رمز للأمير قائد

الجيش • قال الطريحي في مجمع البحرين(٤) :

« الراية هي التي يتولاها صاحب الحرب ويقاتل عليها واليها تميل المقاتلة • واللواء علامة كبكبة الأمير تدور معه حيث دار » •

يقول الدكتور مصطفى جواد(٥) :

« راية الجيش ملاذ له عند التفرق والاضطراب ومجمعة لقلوبه وعلامة لتميزه عن غيره ومفخرة له حين التقدم واحمرار البأس بالموت الأحمـر ومهيجة للنفس ومشجعة للقلوب • فكأين من جيش استخدم لسقوط رايته وكم خميس تشتت بقتل صاحب لوائه •

فلذلك كان القائد والأمير والخليفة لا يسلم رايته الا الى رجـل ونيق أيد شجاع يتقدم بها الى عدوه بقلب صبور وعزم غيور ويرى الموت سلماً الى الفخر وشامخ الذكر ••• » •

لقد اشرنا سابقا الى تمييز النبي (ص) لصاحب الراية • وفي رواية تاريخية ان أبي بكـر الصديق (رض) كان يعقـد الالوية بنفسه لقادة جيوشه الني ارسلها الى بلاد الشام • فقد عقد أربعة ألوية لأربعة رجال :

اللواء الأول ليزيد بن ابي سفيان وأوصاه خيراً ثم قال له :

« اذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة المأكول ، ولا تغدروا اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا اذا صالحتم وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون انهم ترهبوا في الله ولا تهدموا صوامعهم »(٦) •

اللواء الثاني لشرحبيل بن حسنة وأوصاه قائلا :

« أوصيك بالصبر يوم البأس حتى تظفر او تقتل »(٧) •

اللواء الثالث لأبي عبيدة عامر بن الجراح وقال له :

« انك تخرج في اشراف الناس وبيوتات العرب وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية ... أحسن صحبة من صحبك وليكن الناس عندك في الحق سواء واستعن بالله »(٨) .

اللواء الرابع لعمرو بن العاص وما قاله له :

« يا عمرو انك ذو رأي وتجربة بالأمور وبصر بالحرب . وقد خرجت مع اشراف قومك ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على اخوانك فلا تألهم فضيحه ولا تدخر عنهم صالح مشورة فرب رأي لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور »(٩) .

ومن وصايا علي بن أبي طالب (رض) في الراية قوله :

« ورايتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها الا بأيدي شجعانكم المانعي الذمار والصبر عند نزول الحقائق أهل الحفاظ الذين يحفزون برايتكم ويكشفونها : يضربون خلفها وأمامها ولا يضيعونها »(١٠) .

والمعروف أن لكل قبيلة عربية قبل الاسلام راية خاصة تميزها عن سائر القبائل بلونها وكانت تعقد على رمح وتناط الى مقاتل شجاع . وللرايات مقام رفيع وتبجيل كبير عند العرب في الحرب والسلم . وكانت القبائل أثناء المعركة تعرف براياتها . فكان المقاتل يعرف موضع قبيلته اذا احتدمت المعركة ويقاتل معها في الكر والفر . وقد استمر تقليد الرايات في الاسلام حيث تشير العديد من الروايات التاريخية الى عقد الألوية للقادة وعقد الرايات للقبائل مع ألوانها وصفاتها وأسمائها .

ألوان الرايات والألوية وأسمائها :

ان غموض الروايات التاريخية وندرتها حول ألوان الرايات والألوية وصفاتها هي السبب في قلة الابحاث حول هذا الموضوع وخاصة في فترة صدر الاسلام .

على ان الاستاذ الدكتور مارتن هانيز من جامعة كمبردج كتب مقالة عن هـدا الموضوع معتمـداً على نسختين من مخطوطه واحدة مجهولة العنوان والمؤلف • وهذه المخطوطة تشابه في متنها وأسانيدها ـ مع اختلاف في ترتيب الاحداث وأضافات أخرى ـ كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ/٨٢٧م) • ويعتقد الدكتور هاينز ان هذه المخطوطة اما ان تكون نسخة أكبر من النسخة المعروفة لحد الآن عن وقعة صفين لنصر بن مزاحم أو ان تكون مخطوطة أخرى لمؤلف آخر مجهول الا انه معاصراً لنصر بن مزاحم المنقري[١١] •

وبقدر ما يتعلق الأمر بموضوع بحثنا فالواقع ان الذي يهمنا من هذه المخطوطة هو الفصل المهم والذي يقع تحت عنوان :

« ••• تعبية وضع الرايات وعقد الألوية على مراتب الأمراء والقواد والرؤساء والاجناد وصور الرايات بصفاتها وألوانها وأسمايها في الجاهلية والاسلام »[١٢] •

وفي هذا الفصل تفاصيل جيدة عن رايات القبائل وشعاراتها قبـل الاسلام وبعده وقد أورد الدكتور هاينز هذا الفصل كاملا في آخر مقالته وقد عمدنا الى الاستفادة مما ورد فيها في بحثنا هذا •

ولعلنا نبـدأ كلامنـا بالقـول أن الرسول (ص) كان ـ على اثبت الروايات التاريخية ـ له راية سوداء ولواء أبيض • وكانت راية الرسول (ص) السوداء تسمى (العقاب) • ومع أن النبي (ص) كان في الرايات الى السواد أميل ، الا ان ذلك لا يعني ان راياته كانت كلها بلون واحد • فراية فتح مكة وكذلك اللواء كانا سوداوان • ولكن الرسول (ص) حين جهز جيش مؤته جعل الراية بيضاء • وعلى ذلك فهناك معلومات عن رايات بيضاء وصفراء وعن لواء أسود للرسول (ص)[١٣] •

ووصفت الراية بأنها خرقة أو قطعة مربعة أو مستطيلة أو غير ذلك وان حجمها كبيراً . اما اللواء فكان عبارة عن أشرطة بحجم مناسب تربط في اعلى الرمح .

وكان لواء الرسول (ص) يسمى « اللواء الاعظم » . قال محمد بن عثمان فحدثني الهيثم بن عدي عن محمد بن اسحق عن ابن عباس عن محمد بن المعاش ان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبيض ورايته سوداء(١٤) .

اما قريش فكانت رايتها بيضاء ولوائها أسود . وقد اشارت الروايات الى لواء قريش الاسود يوم الفجار قبل الاسلام كان مع علقمة بن كلدة ابن عبد مناف واشارت الى رايتها البيضاء يوم اليرموك حيث كانت مع فراس بن النضر بن الحارث ابن كلدة . وكانت نفس الراية يوم اليمامة مع طلحة بن عثمان .

اما راية الانصار الاوس والخزرج فيقول الواقدي بأنهما خضراء وحمراء على التوالي في فترة ما قبل الاسلام وقد حافظوا عليهما بعد الاسلام . على ان هناك رواية تاريخية أخرى تشير ان الرسول (ص) أعطى الانصار راية صفراء . ولكن الراية التي عقدها الرسول (ص) لعبدالله بن جحش كانت خضراء وأصبحت فيما بعد راية بني أسد جميعا . كما وان راية الانصار في حرب صفين كانت سوداء وبيضاء مستطيلة .

وكانت راية بني محارب التي يقال لها (الضياء) وهي سوداء فيها عينان حمراوان ذات عذبتين حمراوين . وكانت يوم صفين الى عايذ بن سعيد بن جندب فقتل وهو يحملها فأعطيت الى علي بن شعم فأقبل وهي معه فأستقبلته ذريفة ابنة عايذ فقالت اين أبي فقال ابن شقم :

وقايلة هل أب في الجيش عايذ

الا غاله عنـك السنان المحـرب

سصى ورماح القوم تشرع نحوه

وكـان غـداة الروع لا يتهيب

وكانت راية بني تغلب في فترة ما قبل الأسلام بيضاء فخصبوها بحمـرة فجعلت حمراء وبيضاء وفيها يقول عمرو بن كلثوم :

وكنـــا نورد الرايات بيضـــاً

ونصدرهن حمـراً قـــد روينـا

وكانت راية النخع ذات ثلاث عذبات صفر كلها ليس لها حواشي •

اما راية الاشعريين فكانت خرقة خصراء وبيضاء وحمراء وفي الوسط هلال أحمر عقدها رسول الله (ص) لأبي عامر الأشعري •

وكانت راية همدان مدبجة بالحمرة والخضرة والصفرة والسواد وكان شعارهم « يا مجالد » وفي ذلك قال عمير بن أفلح :

وكيف تهـابوا القـوم لله انتم

وألف كمي من معـد كواحد

من الحي همدان بن زيد اذا انتمت

فوارس تدعو في الوغـا لمجالد

وكان حامل راية طي في صدر الاسلام عدي بن حاتم الطائي وكانت رايتهم حزمة سوداء وبيضاء وحمراء في السواد هلال أبيض وثلاث عذبات سوداء وبيضاء وحمراء •

ويعمـل الواء أحيانا عمـل الرايه وذلك حين يكـون زعيم القبيلة

صاحب رأي وتدبير في الحرب وله لواء معروف به متميز له • فالاشعث ابن قيس الكندي كان له لواء أسود وقد ظل هذا اللواء مرفوعا كراية لكندة في معركة صفين •

وفي رواية تاريخية ان حمير وعمير قدمتا على رسول الله (ص) فعقد لهما لواءين طولهما بين الرمح والسنان أصفرين •

وكانت راية قضاعة بيضاء ذات عذبتين بيضاء حمراء اما راية الازد فكانت صفراء مربعة وكان رسول الله (ص) قد جعل شعارهم جميعا « مبرور » •

اما لواء بني سليم من مضر فهو ابيض فخضبوه دماً يوم حنين فهو أحمر ليس لاحد من العرب لواء أحمر غيره ومنه النبي (ص) يوم حنين الى معاوية بن الحكم • وبنو سليم ينشدون فيه شعراً :

ونحن خضبناها دماً فهو لونها

غداة حنين يوم صفوان شاجرة

وقال عباس بن مرداس السلمي مشيراً الى شعار سليم وهو مقدم :

تطل السيوف اذا قصرن بخطونا

نحو المنية مظلم يتقدم

نصروا الرسول وشاهدوا أيامه

وشعارهم يوم اللقاء مقدّم

وكانت راية غسان بيضاء جانباها أحمران(١٥) •

وبمرور الزمن ومع بقاء هذه الرايات القبلية فأن القبائل بدأت

ستقر في الأقاليم الجديدة مثل العراق وبلاد الشـام وخراسان ومصر ، ولهذا نلاحظ ظهور رايات عامة تدل على جند الاقليم ككل . ففي رواية تاريخية[١٦] ان رايات جند العراق كانت سوداء وحمراء وداكنة . كما برزت علامات خاصة بجنـد الاقليم وخاصة أثناء المعركة لكي يعـرف بعضهم الآخر ويتبينوا الطرف الآخر . تشـير رواية ان علامات جنـد العراق كانت الصوف الأبيض وعلامات جند الشام الخرق الصفر[١٧] . وان علامات بعض الخيالة في عسكر معاوية الخضرة[١٨] .

وقد ظهرت قبل ذلك رايات تجمع القبيلة بأجمعها مثلا « راية بني أسد جميعاً » . أو فيما يخص بني بكر هناك « الراية التي تجمع بكر بن وائل قاطبـة » . وكان للرسول (ص) « اللواء الأعظم » الذي يجمع كل المقاتلة المسلمين في بدر وأُحد ورفعه علي بن أبي طالب (رض) في معاركه فيما بعد . وكان لمعاوية بن أبي سـفيان لواء سماه « اللواء الاعظم لواء الجماعه » . وكان لبعض الرايات أسماء تعرف بها ، فراية الرسول (ص) السوداء تسمى « العقاب » . وفي رايه حضرموت عينان ولهذا كانت تسمى « الضياء » وراية همدان كانت تسمى « الحون » ، اما بنو كلاب فرايتهم تسمى « السعور » . ويبدو أن بعض الرايات كانت لها أسماء بينما لم تسمى ارايات الأخرى بأسماء معينة رغم ان هـذا التقليد استمر حتى بدايات العصـر العباسي[١٩] . فحـين ارسل ابراهيم الامام رايتين الى سليمان بن كثير الخزعي نقيب النقباء بخراسان اعطاهما اسمين متميزين هما « الظل » و « السحاب »[٢٠] .

شعارات القبائل ونداءاتها في المعركة :

يقدم لنا فصل « ذكر التعبئة الثانية » من المخطوطة معلومات مهمة عن شعارات القبائل ونداءاتها أثناء المعركة .

وشعارات العرب وصيحاتها أثنـاء الحروب قديمة ولدينا معلومات عنهـا في فترة ما قبل الاسلام وهذه الشعارات التي يتنادى بها المقاتة أثنـاء المعركة ضرورية ومهمـة لكي يعـرف المقاتل اخوانه في السلاح الذين يقاتلون حوله • كما وانها ضرورية حين يقع المقاتل أو جماعة من المقاتلين في محنة أثناء المعركة فيستغيث طالباً النجدة من أبناء قبيلته أو وحدته ، فيثير فيهم النخوة والشجاعة والشهامة •

وكان الشعار عـادة يرمز الى بطل اسطوري أو قديم من أجـداد القبيلة تتعارف عليـه القبيلة وينتقل من جيـل الى آخر مثل يا آل خزيمة يا آل ربيعة وهكـذا • ويعتبر الشـعار رمزاً لذكريات الماضي المجيـدة ومواقف القبيلة البطولية ولذلك يستثير الحماس والنخوة لدى أبنائها •

وحين جـاء الاسلام لم يقف الرسول (ص) موقفا معارضا لها بل أراد لها ان تتفق مع تعاليم الاسـلام ومبـادئه • لذلك عدّل وغيّر من بعض هذه الشعارات التي لها دلالات وثنيـة أو غيرها مما لا تنسجم مع روح الاسـلام وتتفق مع روح الجاهليـة ودعاواها[٢١] • فقـد جعل الرسول (ص) شعار المهاجرين الجديد « يا بني عبدالرحمن » وشعار الخزرج « يا بني عبدالله » وشعار الاوس « يا بني عبيدالله » • كما بدل شعار جهينة أو مزينة من « يا حرام » الى « يا حلال »[٢٢] •

وبعد فتح مكة لم يبق مبرر لشعارات قريش أمثال يا آل العـزة ويا آل هبل •

كما أعطى الرسول (ص) للازد شعارا جديدا هو « مبرور » • وبعد معركة حنين منح الرسول (ص) لبني سليم شعارا جديدا هو « مقدم » مما يدل على دورها المتميز أثناء المعركة[٢٣] •

وفيما عـدا ما اشرنا اليه فليس هناك في مصادرنا التاريخية ما يشـير

الى أن الاسلام وقف موقفا معارضا من الشعارات والدعوات والنداءات التي استخدمتها القبائل اثناء المعارك • ورغم ما يذكره جولد تسيهر[٢٤] معتمدا على حديث في صحيح البخاري فان موقف الرسول (ص) لم يكن عاما كما اشرنا ، بل يخص بعض الشعارات والنداءات التي لا تنسجم مع مبادىء الاسلام •• بل ان هذه الشعارات استمرت كما يشير الى ذلك الواقدي وابن حبيب وصاحب مخطوطة وقعة صفين[٢٥] •

وفيما يلي شعارات الحرب عند العرب كما جاءت في فصل « ذكر التعبية » من المخطوطة التي اشار اليها الدكتور هاينز[٢٦] :

شعار ورثة النبي	يا محمد يا منصور
شعار بني هاشم	هذا الله
شعار بني عبدالمطلب	يا محمد يا مهدي
شعار الانصار	يمن من الله
شعار كنانة	رحمة الله
شعار هذيل	نبهان ذو الحسين
شعار حنظلة	نبهان ذو العينان
شعار سعد بن زيد	معروف
شعار محارب	حلب أو محارب بن خصافة حلف
شعار عبدالقيس	كوكب
شعار شيبان	فريق
شعار بنو يشكر	يا ذا الرقاع
شعار سعد بن مالك	حدرجان (معناه القصير)
شعار بنو عجل	مقدم
شعار بنو كلب	جماعة صقهب (معناه الطويل)
شعار نخع	رباح

شعار الاشعريين	مهاجر
شعار عك	ثواب
شعار جعفي	كوكبان
شعار خثعم	جحفل
شعار همدان	يا مجالد
شعار طي	فيّاض
شعار خزاعة	يا منصور
شعار كندة	يا سائر جرير
شعار حضرموت	صفوان
شعار ثقيف	احمد
شعار باهلة	فرياد
شعار سلول	ريان او ربّان ذو الرمحين
شعار ذهل	سياسة
شعار كلاب بن عامر	جماعة مسلم
شعار الكلاعيين	حمْير
شعار قضاعة	يا مهدي يا راشد
شعار الازد	مبرور
شعار بجيله	يعلا
شعار سليم	مقدّم
شعار غسان	سعدان
شعار جذام	ربان

ويبدو من هذه الشعارات أن بعضها كان يرمز الى شخص معين من أجداد القبيلة الذين ميزوا أنفسهم بالشجاعة والنخوة ، أما البعض الآخر فربما كانت ألقاباً لهؤلاء الابطال من أجداد القبيلة والذين تذكرهم كتب النسب والتراجم بأسمائهم الحقيقية وليس بألقابهم ٠

الخاتمــة :

نستنتج من الروايات التاريخيه آنفة الذكر أن اللواء كان رمزاً لامارة القيادة ورمزا لكل الجيش • اما الراية فكانت رمزا لأمير أو شيخ القبيلة رصاحب الحرب فيها • وكانت الرايات والألوية وشعارات الحرب معروفة لدى العرب قبل الاسلام وقد أبقاها الاسلام ، بصورة عامة ، على حالها بعد ان عدّل فيهــا وغيّـر ما لا يتناسب مع تعاليم الاسلام ومبادئه ويعود سبب استخدام الدولة العربية الاسلامية لها لأسباب عديدة[٢٧] :

أولها ـ انها شعار الحرب ومن ضرورات المعركة حيث يتعرف عن طريقها المقاتل على اخوانها من أعدائها •

ثانيها ـ انها ذات تأثير نفسي على المقاتل حيث ترفع من معنوياتهم وتزيد من بسالتهم وتضعف معنويات عدوهم •

ثالثها ـ ان اكثــار الرايات والألوية وتلوينهــا تزيد من فعاليات المقاتلة واقدامهم وتساعد على تجمعهم واندفاعهم في الدفاع عنها وحمايتها •

رابعها ـ ان الاكثار منها دلالة على سعة الدولة وعظمة الأمة •

خامسها ـ ان الراية تميز الوحدة المقاتلة ومنها يعرف مقدار استبسالها أو تخاذلها أثناء المعركة •

وكانت الراية أو اللواء يعقد على رمح طويل يرفعه صاحبه أثنــاء المعركة ليكون بمثابة علامة للجند ومرجعا لهم عند اشتداد القتال[٢٨] •

وفي رواية تاريخية ان أحد الانصار اقسم ان يرفع للرسول (ص) راية عنــد دخوله المدينــة مهاجرا فنشر عمامته على رمحه وســار أمام الرسول (ص) فكان أول لواء عقد في الاسلام[٢٩] •

وقد استمرت العادة المتبعة هي ان يقلد الرسول (ص) اللواء الى

القائد الذي يختاره ففي غزوة بدر كان لواء الرسول (ص) الأبيض مع مصعب بن عمير من المهاجرين ورايته السوداء (العقاب) مع علي بن أبي طالب (رض) وراية سوداء أخرى مع سعد بن معاذ من الانصار[٣٠] .

وفي غزوة تبوك سنة ٩هـ رفع الرسول (ص) لواءه الى أبي بكر الصديق (رض) ورايته العظمى الى الزبير بن العوام . اما في يوم حنين ويوم فتح مكة فكانت رايته السوداء على حد قول بعض الروايات مع عمه العباس بن عبدالمطلب (رض)[٣١] .

وعندما بعث الرسول (ص) أسامة بن زيد الى البلقاء عقد له لواءً اشعاراً بالقيادة العامة للمقاتلة . فركز اسامة اللواء بالجرف (خارج المدينة) ليتجمع حوله المقاتلة المجاهدون . وعندما توفي الرسول (ص) وعاد أسامة بالجيش ركزه أمام بيت النبي (ص) حتى بويع أبو بكر بالخلافة فطلب من اسامة ان يركزه أمام بيته استعدادا للجهاد كما أمر رسول الله (ص) بذلك[٣٢] .

وحين ارتدت بعض القبائل على عهد أبي بكر الصديق (رض) وعزم على قتالهم ركز لواء القيادة في مسجد رسول الله (ص) ثم خرج بالمجاهدين الى (ذي القصة) وقسمهم الى احدى عشر فرقة وركز لكل قائد لواء . فكان اللواء الأول لخالد بن الوليد واللواء الثاني لعكرمة بن أبي جهل والثالث لشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم جميعا .

وفي عهد عمر بن الخطاب (رض) كانت فتوحات العراق والشام .. وفي رواية تاريخية ان خالد بن الوليد كان يرفع في معركة اليرموك رايه الرسول (ص) العقاب والتي كانت بيد خالد في معركة خيبر كذلك[٣٣] .

اما راية الانصار في اليرموك فكانت (خضراء) وراية المهاجرين (صفراء) وفيها أبيض وأخضر وأسود . أما راية أبي عبيدة عامر بن

الجراح فكانت صفراء وهي راية للرسول (ص) كذلك •

كما عقد عمر بن الخطاب (رض) للقائد سعيد بن عامر راية (حمراء) على قناة تامة وأرسله لليرموك نجدة لهم[٣٤] •

وكان عمر بن الخطاب (رض) وسائر الخلفاء قبله وبعده يزودون القادة بالتوجيهات حين يسلمون لهم الالوية ، ففي رواية ان عمر كان يقول عند عقده لأي لواء :

« بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله وبالنصر الامين عند الله ولزوم الحق والصبر فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »[٣٥]

وقد سار هذا التقليد في المجتمع العربي الاسلامي بحيث أصبح لكل دولة راية خاصة بها كما اوضحنا ذلك في مقال سابق منشور •

الهوامش والتعليقات :

(١) راجع : ابن منظور ، لسان العرب ، طبعة ١٥٥٦ ، ج١٤ ص٣٥١–٣٥٢ • ـ الفيروزبادي ، القاموس المحيط ج٢ ص٣٣١ ، ج٤ ص ٣٣٨ • ـ الزبيدي ، تاج العروس ، ج١٠ ، ص١٦٠ •

(٢) راجع : لسان العرب ، ج١٥ ص٢٦٦ • ـ القاموس المحيط ، ج٤ ص٣٨٧ • ـ تاج العروس ، ج١٠ ص٣٣٤ • انظر كذلك
E. I. (1) Liwa

(٣) تاج العروس ، ج١٠ ص٣٣٤ •

(٤) راجع : مصطفى جواد ، الراية واللواء وامثالهما ، مجلة لغة العرب ج٨ السنة التاسعة ١٩٣١ ص٥٧٣–٥٧٤ •

(٥) المصدر السابق ، ص٥٧٤ •

(٦) الازدي ، فتوح الشام ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص١١ ، ص١٣ • ـ الواقدي ، فتوح الشام ، ص٨ •

(٧) الازدي ، المصدر السابق ، ص١٥ •

(٨) المصدر السابق ، ص١٧ •

(٩) المصدر السابق ، ص٥٠ •

(١٠) ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١ ، ص٤٨٣ عن كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم •

(11) M. Hinds,. The banners and battle cries of the Arabs...., al-Abhath, Beisut. Vol. XXIV. 1971 p. 4.

(١٢) وقد حقق الدكتور هانيز هذا الفصل ونشره كملحق لبحثه آنف الذكر (هامش ١١) •

(١٣) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ص٨ • ـ الواقدي ، مغازي رسول الله ،

مصر ١٩٤٨ ، ص٤٢ • ـ النويري نهاية الارب ج١٧ ص٢٧٩ • ـ الواقدي ، فتوح الشام ج١ ص٢٠٣ ، • ـ صبح الاعشى ج٣ ص٢٧٠ • ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج٤ ص٢٠٧ـ ٢٠٨ ، ج٣ ص٤٠٣ •

(١٤) راجع : فصل ذكر التعبية ، تحقيق مارتن هاينز ، مجلة الابحاث ، ١٩٧١ ، ص١٧ـ١٨ •

(١٥) عن هذه الروايات راجع ذكر التعبية • تحقيق د• هاينز في مجلة الابحاث •

(١٦) راجع وقعة صفين ص٣٣٢ عن عمرو بن شمير •

(١٧) المصدر السابق •

(١٨) ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ، ج٢ ص٢٧١ فما بعد •

(١٩) Hinds. op. Cit. p. 11.

(٢٠) راجع فاروق عمر ، الالوان ودلالتها السياسية في العصر العباسي •• في بحوث في التاريخ العباسي ، بيروت ١٩٧٧ •

(21) Goldziher. Muhammedanische Studien. English trans. London. 1967. 1. pp. 63-62.

(٢٢) راجع د• هاينز ، المصدر السابق ، ص١٣ (هامش ٦٤) •

(٢٣) ابن سعد ، طبقات ، ج٢ القسم الاول ص٢٩ ، ٧١ ، ٤٩ •

(٢٤) كولدتسيهر ، المصدر السابق • ـ هـاينز ، المصدر السـابق ، ص١٤ •

(٢٥) الواقدي ، المغازي ، ص٨٩٩ • ـ ابن حبيبة المحبر ، طبعة حيدر اباد ، ص٣٠٩ فما بعد •

(٢٦) راجع فصل ذكر التعبية من المخطوطة في آخر بحث د• هاينز في مجلة الابحاث ، ٢٤ ، ٧١ •

(٢٧) حازم ابراهيم العازف ، الجيش العربي الاسلامي ، ١٩٨٥ ، ص٨٢ •

الفائقة ولذلك نلاحظ في رواية تاريخية ان عمرو بن العاص صمد في أحد المعارك ضد الروم أثناء تحرير بلاد الشام وكان معه أصحاب الرايات صمود بطوليا مما جعل بقية المقاتلة المسلمين يعودون الى ساحة المعركة بعد ان انسحبوا منها في البداية بسبب قوة زخم العدو · (راجع : الازدي والواقدي في فتوح الشام) ·

(٢٩) الادريسي ، التراتيب الادارية ، طبعة فاس ج١ ص٣١٧ ·

(٣٠) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ص٨ · ـ الواقدي ، المغازي ، طبعة السعادة، ص٤٢ ، الحلبي السيرة الحلبية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ج٢ ص١٥٧ ·

(٣١) صبح الاعشى ، ج٣ ص٢٧٠ ·

(٣٢) ابن سعد ، الطبقات ، ليدن ـ ج٢ ص١٣٦ فما بعد ·

(٣٣) الواقدي ، فتوح الشام ، ج١ ص٢٠٢ ·

(٣٤) المصدر نفسه ·

(٣٥) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج٢ ص١٠٧ ·

راية قريش

لواء قريش

لواء ~~راية~~ رسول الله

راية ~~لواء~~ رسول الله

القائد ... الامة ... في القادسية ونهاوند

الاستاذ الدكتور عبدالرحمن عبدالكريم العاني

عميد كلية التربية / جامعة بغداد

المقدمة :

لقد أدرك العرب ومنذ أقدم العصور مخاطر الموقف الفارسي المعادي للعراق والامة العربية ، حيث اتخذ العدوان الفارسي في كل مرحلة سماته المنسجمه مع طبيعتها ، فالخطر الدائم والذي يهدد الامة وارضها وحضارتها يأتي وبأستمرار من الشرق .

وقد أكد الفرس هذه الحقيقة التاريخية من خلال تصرفاتهم وأعمالهم العدوانية ضد العراق والأمة العربية منذ فجر التاريخ والى الوقت الحاضر .

وفي ضوء هذ الوعي التاريخي ، ادرك العرب حقيقة هذا الصراع وابعاده ، ونتائجه الخطيرة على مستقبلهم ، ارضا وشعبا وحضارة ورسالة فكان موقف القادة والامة بمستوى المسؤولية اللتاريخية ، وبما يحقق سحق العدوان ومنعه من تحقيق أهدافه التوسعية وهذا يبدو وبصورة واضحة في معركتي القادسية ونهاوند ضد العدو الفارسي المجوسي حيث ادرك قائد الامة الخليفة عمر عمر بن الخطاب (رض) انهما معركتي المصير العربي بحيث حشد الفرس كل ما لديهم من امكانات بشرية ومادية ، وهيئوا للمعركة خيرة رجالهم وسلاحهم ، فكان على الخليفة ان ينهض بمسؤولية التاريخ العربي ، وان يواجه العدو بشروط تتكافأ مع قوته .

فكان النصر حليف العرب المسلمين ، حيث سحقوا القوات الفارسيه وبشكل نهائي •

القادسية ••• عصر البطولة ••• والفداء :

بعد ان استكملت الجزيرة العربيه وحدتها في ظل سلطة مركزية واحدة ، بدأت حينذاك مرحلة جديدة من تاريخ الدولة العربية الاسلامية هي مرحلة تحرير الاراضي العربية المحتلة من قبل الغزاة الروم والفرس • وكانت قضية تحرير العراق من سيطرة الفرس المجوس ، وسحق الدولة الساسانية ، في مقدمة أهداف الدولة العربية الاسلامية ومن أبرز مهماتها الملحة حيث ان استمرار الاحتلال الفارسي للعراق ، يشكل خطرا جسيما يهدد مستقبل الأمه العربية ورسالتها الاسلامية •

لقد أصبح تحرير العراق من السيطرة الفارسية هدفا مركزيا في سياسة الدولة العربية لاعتبارات كثيرة في مقدمتها :ـ

أ ـ ان أرض العراق جزء لايتجزء من الأرض العربية ، وان مسؤولية تحريرها من الفرس تقع على عاتق العرب المسلمين ، فحددت بذلك مسؤوليتهم القومية والدينية والتأريخية بهذا الاتجاه •

ب ـ ان عرب العراق قد بدأوا عملياتهم العسكرية ضد الفرس منذ وقت مبكر ، فكان لزاما على الدولة العربية ، ومن واقع مسؤولياتها القومية دعم هذا النضال لتعزيز روح الصمود وصولا الى النصر والتحرير •

ج ـ النظرة الآنية والمستقبلية لأهمية موقع العراق ومكانته المتميزة في جسم الدولة العربية حيث أصبح العراق بعد وقت صغير من تحريره من براثن الاحتلال الفارسي قاعدة مركزية لانطلاق القوات العربية

الاسلامية شرقا لتحرير الشعوب من الظلم والطغيان ونشر راية الاسلام ، واحلال الأمن والاستقرار في تلك الربوع ، فضلا عن ان العراق بموقعه الستراتيجي يشكل صمام الأمان بالنسبة للأمة العربية ، كما كان للقوات العراقية دورا فاعلا وكبيرا في المعارك التأريخية التي خاضها العرب المسلمون ضد الفرس المعتدين •

وقد عملت القيادة العربية الاسلامية في المدينة على حشد جميع طاقات الأمة لاحراز النصر وسحق العدو الفارسي المجوسي • وعندما ذهب المثنى بن حارثة الشيباني قائد القوات العربية الاسلامية المتواجدة في العرق الى المدينة لشرح الموقف العسكري للخليفة أبي بكر الصديق (رض) وطلب امدادات جديدة ، وجد الصديق في النزع الأخير ، ومع ذلك فقد استمع الصديق الى ما أدلى به المثنى رغم مرضه الشديد ، وأعرب عن اهتمامه البالغ بتحرير العراق من براثن الاحتلال الفارسي ومن أجل ذلك فقد استدعى عمر بن الخطاب (رض) وطلب منه اعادة القوات العراقية التي ذهبت مع القائد خالد بن الوليد الى بلاد الشام لنجدة القوات العربية التي كانت تقاتل الروم الى العراق ، وكذلك امداد المثنى بالمقاتلين ، فقال له (اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، اني لأرجو ان أموت من يومي هذا ••• فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وان تأخرت الى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، وان فتح الله على امراء الشام فأردد أصحاب خالد الى العراق ، فأنهم اهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة منهم والجرأة عليهم)[1] • بهذه الكلمات العظيمة ، وبهذا المستوى الرفيع من الشعور بالمسؤولية يؤكد الصديق اهتمامه الكبير بالمعركة مع الفرس المجوس ، وأهمية حشد طاقات الأمة لمواجهة العدو كما يؤكد الصديق على الدور العظيم للمقاتلين العراقيين الذين ناهضوا الاحتلال لفارسي وانتصروا عليه في أكثر من

موقعــة •

وبعد تولي عمر بن الخطاب (رض) قيادة الأمة أثر وفاة الصديق (رض) كان الشغل الشاغل له هو تحرير العراق واسقاط الدولة الفارسية المجوسية • وقـد أعـد الخليفة الثاني الأمة لهـذه المهمة الكبيرة وكانت القادسية الأولى المعركة الفاصلة •

لقد أدرك لخليفة عمر بن الخطاب ان القادسية هي معركة مصيرية حيث حشد العدو الفارسي المجوسي كل ما لديه من امكانات بشرية ومالية وهيأ للمعركة خيرة رجاله وسلاحه ، ولذلك فقد كان على الخليفة الراشد الثاني ان ينهض بمسؤولية التاريخ العربي الاسلامي وان يواجه العـدو بشروط تتكافأ مع قوته وتأثيره ، ومن هنا كان عليه ان يعبأ قوى الأمة وينظم صفوف مقاتليها بهدف سحق العسكرية الفارسية وتدميرها ، وقد عبر الخليفة عمـر بن الخطاب عن ذلك في كتـابه الى المثنى بن حارثـة الشيباني (اما بعد ••• ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحـدا من أهل النجدات ولا فارسا الا اجتلبتموه ، فأن جـاء طائعا والا حشرتموه ، أحملوا العرب على الجد اذا جد العجم ، فلتلقوا جدهـم بجدكم)[٢] • وهو أمر صريح من قائد الأمة عمر الى المثنى باعـلان النفير العام ، والطلب من القبائل العـربية الانضمام الى صفوف الجيش العربي الاسلامي وتجنيد من يرفض التطوع تجنيدا اجباريا •

كما كتب الخليفة الثاني الى العمال على الكور والقبائل (لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الي والعجل العجل)[٣] •

وطلب الخليفة من القائد أبي عبيدة عامر بن الجراح قائد القوات العربية الاسلامية في بلاد الشام بعد تحرير دمشق عودة القوات العراقية

الى العراق . يقول الطبري (بعد فتح دمشق بعثوا بالبشارة الى عمر (رض) وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر بأن أصرف جند العراق الى العراق ... فأمر على جند العراق هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو ... وضربوا بعد دمشق نحو سعد فخرج هاشم نحو العراق في جند العراق[٤] .

ونظرا لأهمية جبهة العراق وستراتيجيتها التعبوية ، فقد تحتم ان توضع الأمة وقواها وطاقاتها جميعا في خدمة المعركة الفاصلة مع الفرس ، ومن أجل ان تحسم المواجهة المسلحة لصالح العرب المسلمين ، فقد أمر الخليفة عمر (رض) بتجميد جبهة الشام وبصورة مؤقتة والدفاع عن المناطق المحررة ، يقول الطبري (ثم كتب عمر الى أبي عبيدة بن الجراح يأمر بأن يتمسك بما فتح عز وجل على يديه ولا يحارب أحدا من الروم الى ان يفرغ سعد بن أبي وقاص مما هو فيه من أمر العراق)[٥] . ولم تكن المعركة لتجري وقائعها دونما تهيئة الشروط المادية والمعنوية لتحقيق النصر ، فقد عمل الخليفة الثاني على توفير المستلزمات الضرورية التي من شأنها أن تعزز موقف المقاتلين العرب المسلمين وتعينهم على انجاز مهامهم بنجاح أكيد ، يقول عمر (والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب) ، فلم يدع رئيسا ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سلطة ولا خطيباً ولا شاعرا الا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغررهم)[٦] .

وبتمثل هذه الاجراءات التعبوية والميدانية ، وفي ضوء هذا الوعي التاريخي صمم الخليفة الثاني لوحة القادسية الأولى وعمل على تنفيذها بنفسه ، وقد قرر الخليفة عمر (رض) ان يقود المقاتلين من المدينة الى العراق ولكن الصحابة ألحوا عليه بالبقاء وتعيين رجلا من أصحاب رسول الله (ص) لقيادة القوات العربية الاسلامية المتوجهين من المدينة الى العراق على ان يستمر برفد المعركة بالمقاتلين ، يقول ابن ابي الحديد ، (استشار

عمر المسلمين في أمر القادسية فأشار عليه علي بن أبي طالب الا يخرج بنفسه وقال : انك ان تخرج لا يكون للعجم همة الا استئصالك لعلمهم انك قطب رحا العرب فلا يكون للاسلام بعدها دولة)[٧] .

وقد استجاب عمر (رض) لرأي الصحابة ، فبقي في المدينة يمد المعركة بالمقاتلين وعين سعد بن أبي وقاص قائدا للقوات العربية الاسلامية التي خرجت من المدينة نحو العراق لمقاتلة الفرس في معركة تاريخية فاصلة هي القادسية ، حيث انتصر العرب وسحقوا عدوهم .

معركة نهاوند : التحدي والانتصار الكبير

بعد الهزائم الكبيرة التي مني بها الفرس المجوس على أيدي القوات العربية الاسلامية في معارك القادسية والمدائن وجلولاء ، بدأوا يوحدون صفوفهم تحت قيادة ملكهم يزدجرد ويحشدون كل ما لديهم من امكانات بشرية ومادية ، لمواجهة العرب في معركة فاصلة ، وقد اتخذوا مدينة نهاوند مركزا لهم .

واختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذه المعركة فذكروا انها كانت بين سنه ١٨هـ و٢١هـ ، ولكن أغلبهم يجعلها في سنة ٢١هـ[٨] .

يقول ابن اعثم الكوفي واصفا تحشدات الفرس (وتحركت الأعاجم بأرض نهاوند واجتمعوا بها فأجتمع أهل الري وسمنان والدامغان وما والاها في عشرين ألف وأهل ساوة وهمدان في عشرة آلاف ، وأهل نهاوند خاصة في عشرة آلاف ، وأهل قم وقاشان في عشرين الفا وأهل أصفهان في عشرين الفا ، وأهل فارس وكرمان في اربعين الفا ... ثم بعثوا الى اذربيجان يستمدونهم الى حرب العرب فأقبل أهل اذربيجان في ثلاثين ألفا فذلك خمسون الفا ومائة الف ما بين فارس وراجل من المرازبة ، والاساورة

والأبطال المعدودين المذكورين في كل بلـد من أرض فارس[٩] وولوا عليهم ذو الحاجب مردا نشاه قائدا .

ويقول المقدسي (واجتمعت الأعاجم والاساورة وعظماء الفرس .. وجمعوا من المجموع ما لا يبلغه الاحصاء والعدد)[١٠] .

ان هذه الأعداد الكبيرة قـد تكون فيهـا مبالغة ، الا انها تؤكد ان الفرس قاموا بحشد أعداد كبيرة في هذه المعركة .

وكان الفرس يهدفون من وراء ذلك سحق الجيوش العربية المتواجدة في العراق ثم مهاجمة المدينة عاصمة الدولة العربية الاسلامية ، يقول ابن اعثم الكوفي (ثم اقبل بعضهم على بعض فقالوا .. وقد اجتمعتم من كل بلد ... فتعالوا بنا حتى ننفي من بقربنا من جيوش العرب ثم انا نسير اليهم في ديارهم فنستأصلهم عن جديد الأرض)[١١] .

ويقول المقدسي (واجتمعت الأعاجـم والاساورة وعظماء الفـرس وعزموا على غزاة عمر في عقر داره وتعاقدوا على ذلك وتحالفوا)[١٢] .

لقد أدرك العرب بأن نهاوند سوف تكون المعركة الفاصلة ، وانها معركة المصير العربي ، وهذا يتضح من خطبة قائد الأمة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في المسجد واصفا الموقف بقوله ان الفرس (قد اجتمعوا بنهاوند ... وقد سربوا عسكرهم الى حلوان وخانقين وجلولاء وليست لهم همة الا المدائن والكوفة ، ولئن وصلوا الى ذلك فأنها بلية على الاسلام وثلمة لا تسد أبدا ، وهذا يوم له ما بعده من الأيام)[١٣] .

كما ان القائد العراقي النعمان بن مقرن المزني قد أدرك خطورة الموقف فقال في خطبته في جنـده (ان الفرس قد اخطروا لكم اخطارا واخطرتم لهم اخطارا ، فان أنتم هزمتموهم ترجعون الى نعمة وسرور ،

وان هزموكم فلا بصرة ولا كوفة ولا مدينة ، واعلموا بانكم قد أصبحتم بابين بين الاسلام والشرك ، وان كسر هذا الباب دخل على الاسلام منه بلاء)[١٤] .

وعلى هذا الأساس من الشعور بالمسؤولية التاريخية تصرف الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فبعد أن توفرت المعلومات لديه عن تجمع الفرس في نهاوند ، عقد مؤتمرا لمناقشة الموقف واتخاذ الاجراءات الكفيلة بتحطيم الفرس وقد حضر المؤتمر كبار القادة والصحابة ، حيث قام الخليفة في المسجد بشرح تفاصيل الوضع وطلب من الحضور تقديم مقترحاتهم .

وقد تمت الموافقة على المقترح الذي تقدم بـه الامام علي بن أبي طالب (رض) حيث قال (اما بعد يا أمير المؤمنين ، فانك ان اشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى ذراريهم وان أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشـة الى ذراريهم وانك ان شخصت من هـذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات والعيالات ، اقرر هؤلاء في امصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا فيهـا ثلاث فرق ، فلتقـم فرقة لهـم في حرمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقة الى اخوانهم في الكوفة عددا لهم ، ان الأعاجم ان ينظروا اليك غدا قالوا : هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد اكلبهم والبتهـم على نفسك)[١٥] .

ثم استشارهم ثانية فيمن نختـار لقيادة المعركة فقال (واشيروا علي برجل أوله ذلك الثغر غدا قالوا أنت أفضل رأيا وأحسن مقدرة ، قال اشيروا علي واجعلوه عراقيا قالوا يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق وجندك قد وفدوا عليك فرأيتهم وكلمتهم ، فقال والله لاولين أمرهم رجلا

يكون أول الاسنة اذا لقيها غدا ، فقيل مَنْ يا أمير المؤمنين فقال النعمان ابن مفرن المزني فقالوا هو لها)[١٦] .

وقد كان النعمان عاملا على كسكر وكان قد كره هذه الولاية فكتب الى الخليفة يرجو اعفاءه من عمله ، ورغبته في الجهاد فقرر عمر تعيينه قائدا لقوات الهجوم على نهاوند[١٧] .

وكتب الخليفة عمر بن الخطاب الى النعمان بن مقرن كتابا هـذا نصـه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى النعمان بن مقرن ، سلام عليك فأني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، اما بعد فانه قد بلغني ان جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينـة نهاوند ، فاذا أتاك كتابي هذا فهو بأمر الله ، وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعرا فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفر ، ولا تدخلنهم غيصة ، فأن رجـلا من المسـلمين أحب الي من مائة ألف دينار ، والسلام عليك)[١٨] .

كما كتب الخليفة عمر بن الخطاب رسـالة الى حذيفة بن اليمـان بتشكيل جيش من أهل الكوفة والانضمام الى النعمان بن مقرن ، وكتب أيضا رسالة الى أبي موسى الاشعري طالبا منه التوجه على رأس جيش من أهل البصرة لدغم النعمان والعمل تحت قيادته[١٩] .

وفي الوقت ذاته كتب الخليفـة عمر رسالة الى سلمى بن العين ، وحرملة بن عرفطة وامراء الجند الذي كانوا عماله على اقليم الاحواز رسالة هذا نصها : (اشغلوا فارس عن اخوانكم وحوطوا بذلك أمتكـم وارضكم ، واقيموا على الحدود ما بين فارس والاحـواز حتى يأتينكـم أمري)[٢٠] .

ان تلك الاجراءات ضرورية لضمان الأمن ، ومنع الامدادات عن

نهاوند لحين استكمال استعدادات القوات العربية .

لقد تسلم النعمان بن مقرن قيادة الجيش العربي وعسكر بالقصر الأبيض امتثالا لأمر الخليفة عمر ، وحتى يجتمع اليه اهل الكوفة واهل البصرة ، ثم يسير بعد ذلك الى نهاوندا[21] .

وقد التأمت العساكر بالعراق ، وبعد ذلك عرض النعمان جيشه وعدهم وأحصاهم فكانوا يزيدون على ثلاثين الفا من البصرة والكوفة[22] .

وقد ضم جيش النعمان كبار الصحابة منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وجرير بن عبدالله البجلي ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن معد يكرب وطليحة بن حويلد الأسدي وقيس بن مكشوح المرادي[23] .

وكان على مقدمة الجيش نعيم بن مقرن ، وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن ، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو ، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود العلمي[24] ، وكتب الخليفة عمر الى النعمان (ان حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان ، فان حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن)[25] .

وقد تقدم النعمان بقواته نحو نهاوند سنة ٢١هـ واشتبك مع الفرس في معركة ضارية تمكن العرب فيها من سحق القوات الفارسية وحققوا نصرا تاريخيا واستشهد النعمان في المعركة .

نتائج سقوط نهاوند :

ان الانتصار التاريخي الذي حققه العرب المسلمون على الفرس المجوس في معركة نهاوند كانت له نتائج كبيرة من الناحية العسكرية والاستراتيجية ، فان معركة نهاوند تعتبر تصفية نهائية لقاعدة العدوان ،

وزال خطر الفرس وتهديداتهم للدولة العربية الاسلامية والرسالة الاسلامية وقد أطلق المؤرخون على المعركة (فتح الفتوح) وذلك لانهم (لم يقم للفرس بعد هذه الموقعة قائم)[٢٦] و (لم يكن للاعاجم بعد ذلك جماعة)[٢٧] .

وأصبح المجال مفتوحا أمام القوات العربية للانسياح في الأقاليم الشرقية لنشر الدين الاسلامي . كما أصبحت لدى المقاتل العربي حصيلة من التجارب الخبرات ، وتعززت الثقة بالقدرة على تحقيق النصر وانتزاعه مهما كانت الظروف صعبة وشاقة ، وفي مختلف الأجواء والأراضي .

ان معركة نهاوند تعد بحق من المعارك الكبرى المصيرية ، حيث وضعت حداً نهائياً لمقاومة الفرس العسكرية وتهديداتهم للدولة العربية الاسلامية والرسالة الاسلامية كما ان انتصار العرب في تلك الموقعة الخالدة عزز من دور القوات العراقية في صيانة أمن الدولة والدفاع عن الحدود الشرقية كما ومكنها من القيام بدور كبير في عمليات الفتوح في الشرق لنشر لاسلام .

الخلاصة :

ومثلما تحمل العراقيون الأماجد مسؤولية الدفاع عن الأمة العربية قديما ضد الفرس ، حيث قدر العراق ان يكون حارسا للبوابة الشرقية للوطن العربي ، فهو يتحمل اليوم بشرف وكفاءة مسؤولية الدفاع عن شرف الأمة العربية ووجودها أزاء هجمات النظام العنصري في ايران وغزاوته الوحشية التي حطمها جند الرافدين الواحدة تلو الأخرى بشجاعة لا مثيل لها انتصارا للسيادة والكرامة القومية ، حيث يبرهن شعبنا العراقي لعظيم مرة أخرى وأخرى على ارتباطه العميق بالمبادىء ووعيه التاريخي ، بضرورة تصفية العدوان وتحطيم أحلامه التوسعية ،

والحاق الهزائم بقواته ، وهـو في قادسية صـدام المجيدة ، كما كان في القادسية الأولى ونهـاوند يقـاتل من أجل الحيـاة والمبادىء ، دفاعاً عن الكرامه الوطنية والاستقلال القومي ، مبرهناً على صلابته المبدئية ، وجوهره الحضاري ، وقدرته اللامحدودة على الصبر واحتمال الشدائد وتحمـل المهمـات التاريخية ليس فقط في معـركة قادسية صدام ، وانمـا في كل المواقف الوطنية والقومية التي تؤكد على تماسك بنائه النفسي والاجتماعي والحضاري ، وعلى وحدة شعبه النموذجية في التصدي للغزاة المعتدين بقيادة قائد النصر وفارس الأمة الرفيق المناضل صدام حسين • ولم تكن قادسية صدام معركة اقليمية قدر ما هي معركة الوجود العربي ، ومعركة الأمة العربية ضد أطماع الزمرة الخمينية الحاقدة الذين يحاولون بالدعم الصهيوني والامبريالي وغرب الجنسية السيطرة على الأراضي العربيـة واذلال الأمـة وسحقها • وما حدث في البحرين والكويت والجمهورية العربية ليمانية والسعودية ، والتصريحات العنصرية للمسؤولين الايرانيين، ومحاولاتهم المقبورة لاجتياز الحدود الدولية للعراق الا دليل قاطع على حقدهم وأطماعهم التوسعية في القادسية الأولى وفي نهاوند واجه العـرب المسلمون خطر الفرس المجوس بحشـد جميع طاقات الأمـة وزجها في المعركة ومطلوب منهم اليوم تنظيم صفوفهم ، وتعبئـة طاقاتهم وزجهـا في معركة قادسية العرب الثانية قادسية صدام المجيدة •

ان الدعوة بضرورة حشد طاقات الأمة العربية البشرية والمادية في معركة الشرف والكرامة معركة الوجود العربي ضـد النظـام الايراني الطامع تعبير عن ضمير الأمة وشرف رسالتها وتواصل مع المواقف التاريخية المسؤولة التي يزخر بها تراثنا وتاريخنا العربي الذي قدم عشرات النماذج ومئات المواقف على وحدة المصير العربي ، ووحدة القرر العربي في مواجهة الأخطار الكبيرة التي تحدق بالعرب ، انها دعوة تنبثق من منطق حتميـة

المصير العربي الواحد ومن واقع مسؤولية التاريخ القومي . أنها دعـوة الواجب العربي ، لا تمليها الحاجة أو يقررها الموقف المرحلي ، فالعراق العظيم القوي المقتدر ، قادر على الاستمرار بالقتال والمحافظة على روح النصر سنوات ليس لها حدود . ومن هنا فأن دعوة العرب الى المشاركة الفعالة في المعركة ، لا تجيء من خلال ما يصطلح عليه السياسيون التقليديون بالمعونة والمساعدة وانمـا من خلال الواجب القـومي ومن خلال قوميـة المعركة التي توجب على جماهير الأمة العربية بأن تضع كل ما لديها من امكانات مادية ومعنوية في خدمة المعركة ، وفي خـدمة الشعب العـراقي العظيم الذي يقاتل من أجل أمته العربية ، ومن أجل كيانها الموحـد ، وحياتها ومستقبلها . أما الذين يقفون في خندق العدو ، والذين يقفون على الحياد وكأن الأمر لا يعنيهم ، أن شعبنا وأمتنا لن تنسى لهؤلاء الذين باعـوا الأرض والضمير والشرف من حملة الجنسية العـربية مواقفهـم الخيانيه ، فانها قادرة على سحق رؤوسهم العفنة في القريب العاجل .

الهوامش

١ ـ الطبري / تاريخ الرسل والملوك / ٣/٤١٤ ٠
٢ ـ ن٠م / ٣/٤٧٨ ٠
٣ ـ ن٠م / ٣/٤٧٨ـ٤٧٩ ٠
٤ ـ ن٠م / ٣/٤٤٠ ٠
٥ ـ ابن اعثم الكوفي / الفتوح / ١/١٩٥ ٠
٦ ـ الطبري ٣/٤٨٧ ٠
٧ ـ ابن ابي الحديد / شرح نهج البلاغة / ٩/٩٧ ٠
٨ ـ البلاذري / فتوح البلدان / ٣٧٤ ، اليعقوبي / التاريخ / ٢/١٤٦ ، ابن اعثم الكوفي / ٢/٣٨ ، الطبري / ٤/١١٤ ، ابن الاثير / الكامل / ٣/٥ ، سير أعلاء النبلاء / ١/٢٨٩ ٠
٩ ـ الفتوح / ٢/٣١ ، ٣٢ ، انظر ابن الاثير / ٣/٧ ٠
١٠ـ المقدسي / البدء والتاريخ / ٥/١٨٠ ٠
١١ـ الفتوح / ٢/٣٢ ٠
١٢ـ المقدسي / ٥/١٨٠ ٠
١٣ـ الفتوح / ٢/٣٤ـ٣٥ ٠
١٤ـ ن٠م / ٢/٤٧ ٠
١٥ـ الطبري / ٤/١٢٥ ، انظر ابن الاثير / ٣/٨ ٠
١٦ـ الطبري / ٤/١٢٦ ، انظر ابن الاثير / ٣/٨ ، ٩ ، المقدسي / ٥/١٩٨١ ٠
١٧ـ الطبري ٤/١٢٦ ٠
١٨ـ ن٠م / ٤/١١٥ ٠
١٩ـ فتوح / ٢/٤١ ، الطبري / ٤/١١٨ ٠
٢٠ـ الطبري ٤/١١٥ ٠
٢١ـ الفتوح / ٢/٤١ ٠
٢٢ـ ن٠م / ٢/٤٢ ٠
٢٣ـ الطبري ٤ : ١١٥ ٠
٢٤ـ ن٠٠م / ٤/١٢٨ ٠
٢٥ـ ن٠م / ٤/١٢٧ ٠
٢٦ـ ياقوت / معجم البلدان / ٤/٨٢٩ ٠
٢٧ـ الطبري / ٤/١١٦ ٠

أصحاب الحرف والمهن « البناؤون »

في المصادر الاثرية في العصر العباسي

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الآداب ــ جامعة بغداد

لعب أصحاب الحرف والمهن دورا بارزا في الحياة العربية الاسلامية من خلال ما قدموه من جهود وخدمات في مختلف الميادين وفي شتى المجالات •

ونزودنا كتب التاريخ والادب بالاضافة الى كتب الحسبة بأسماء الكثير من الحرف والمهن التي كانت تزاول في المجتمع العربي الاسلامي وقد بلغت مائتي حرفة ومهنة[1] •

الا ان الذي يؤسف له ان هذه الحرف والمهن لم تحظ بعناية المؤرخين فمن المعروف ان كتب التاريخ قد اهملت كثيرا من مظاهر الحياة الاجتماعية وطبقات الفاس بل اقتصر كلامهم في أغلب الأحيان على الحالة السياسية وما يجرى في بلاط الخلفاء والسلاطين ، لذا نراهم يتوسعون ويسهبون في الحديث عنها ، اما عامة الناس فلا يأتي ذكرها في كتبهم ومؤلفاتهم الا عرضا ، وبقليل من الاهتمام والتفصيل ، كما ان الكثير من هذه الحرف والمهن لا تعرف عنها الا الاسم حتى ان كتب الحسبة التي كانت دستور المحتسبين في ممارستهم مهامهم لم تتحدث عن أكثر هذه الحرف وأصحابها •

لكل ما تقدم رأيت ان اكتب عن أصحاب هذه الحرف والمهن

واخترت البناء في العصر العباسي موضوعا لبحثي آملا ان تتناول أبحاثنا التالية شخصيات أخرى من أصحاب الحرف والمهن •

اما معلوماتنا عن البناء فقد استقيناها من رافدين ، الأول هو ما جاء من المصادر التاريخية ، اما الرافد الآخر لمادة البحث فهو ما جاء في الاثار العربيه الاسلامية المختلفة وبالأخص التصوير فأنه بحكم نقله للبيئة وتأثره بها فقد كان أكثر شيوعا نحو هذا اللون من العمل ، وقد انعكس هذا كله على منتجاتهم المختلفة فجاءت اثارهم غنية بالرسوم والصور التي تمثل تلك الجوانب لذا استطعنا ان نستخلص من الصور الممثلة على الاثار العربية الاسلامية من عمارة ومخطوطات مصورة وغيرها كثيرا من سمات أصحاب هذه المهنة من حيث شخصياتهم وملابسهم وأدوات مهنتهم ، وهي في حقيقتها تعتبر مادة أساسية يستند عليه هذا البحث •

اما المعلومات التي جاء بها المؤرخون بشأن البناء فقد كانت شحيحة ومقتضبة ، ومع ندرة الأخبار والاشارات الواردة عن البنائين في العصر العباسي فأننا نستطيع ان نلمح ولو بصورة مقتضبة الى شيء من تخصص العمل الحرفي بين جماهير البنائين حيث ورد مصطلح (البناء) للدلالة على مدبر البناء وصانعه[٢] كما كان يطلق على البناء لفظ الهاجري[٣] وأنشد :

كعقر الهاجري اذا ابتناه
بأشباه حذين على مثال[٤]

وقيل الهاجري الحاذق بالاستقاء ويقال هذا اهجر من هذا أي افضل منه[٥] ، و (الفعلة) وهي صفة غالبه على عملة الطين[٦] و (الطيّان) صانع الطين وحرفته الطيانة[٧] وهناك عمال يحملون مواد البناء يسمون (بالرفاصين)[٨] لكثرة حركتهم ، كما ورد مصطلح (الاجري) وهو

الذي يقيم اتونا يطبخ فيه الاجر والبان الذي يضرب اللبن والذي يبيع اللبن أيضا[٩] •

ولابد لنا ونحن نتكلم عن البنائين ان نشير الى أمور تتعلق بحياتهم مثـل الأجور التي كانوا يتقاضونها والملابس التي يرتدونها فضلا عـن أسمائهم •

الواقع ان المعلومات التي بين أيدينا عن هذا الجانب قليلة جدا بل نادرة ولا يمكن معها تكوين صور واضحة المعالم لهذا الجانب ، لكننـا فهمنا من بعض المصادر ان اجور البنائين على العموم واطئة ، فالخطيب البغدادي يذكر ان الاستاذ من الصناع كان يعمل عند بناء مدينة بغـداد المدورة بقيراط الى خمس حبات في اليوم والروزجاري يعمل بحبتين الى ثلاث حبات[١٠] •

ويجدر بنا هنا ان نقف قليلا عند كلمة (الروزجاري) وماذا تعنيه هذه الكلمة ، ويبدو ان الكلمة تتألف من مقطعين ، الاول (الروز) وهو البنّاء سمي بذلك لانه يروز الحجارة أو اللبن ، و (الجاري) الأجير أو الوكيل على العمل ، وتأتي (الروز) بمعنى رئيس البنائين ، ويبدو ان الكلمـه اندمجت لتدل على رئيس البنائين أو وكيلهم أو القـائم على العمل[١١] • وكان للوزجاريين سوق خاصة في واسط • ونحن لا نتفق مع التفسير الذي ذهب اليه محمد التونجي من ان كلمة الروزجاري تعني العامل الذي يعمل بأجرة يومية لأن النص الذي أورده الخطيب واضح من ان الروزجارية تعني صنف من عمال البناء يسمون بهذا الاسم[١٢] •

واذا كانت هذه الأجور الزهيدة هي من نصيب من اطلقوا عليه اسم الروزجاري فيبدو هنا ان المصطلح الذي استخدم لمعنى اجير البناء وليس بالمعنى الوارد في المعجمات كما ذكرنا قبل قليل ، أو كما يطلق عليه في الوقت الحاضر اسم (عامل البناء) وليس (الخلفة) •

وبالاضافة الى أجور (الروزجاري) فقد وردت اشارات أخرى الى ان أجرة عامل بناء سنة ١٨٤هـ كانت درهما ودانقا[١٣] ، وان اجرة عامل طين زمن الرشيد كانت أربعة دوانيق في اليوم[١٤] .

ومن هذه الأمثلة القليلة نستطيع القول بأن أجرة عمال البناء كانت واطئة قياسا الى بقية أصحاب الحرف والمهن الأخرى وقد أكد الجاحظ ذلك بقـوله « ان الفقر ملازم للقصابين والجزارين وأصناف الصيادين وكذلك ضارب الطين والطيان والحراث »[١٥] .

اما عـن الملابس التي اختص بلبسها البناؤون فأن المعلومات التي وردت في المصادر التاريخية كانت قليلة ، كما هـو الحـال بالنسبة الى أجورهم ، فقد وردت اشارة الى ان البنائين كانوا خاصة الفعلة والطيانون منهم يلبسون التبان هـذا ما أكدته كتب الحسبة في معرض حديثها عن واجبات المحتسب حيث بينت ان من بيها الزام الفعلة بلباس التبابين الملحم فأن فيه سترة لعوراتهم عند تعريهم في أشغالهم في طلوعهم ونزولهم[١٦] .

ونجد في هجاء حماد عجرد للشاعر بشار بن برد أشار الى ان التبان كان من ملابس الطيانين :

يابن برد اخسا اليك فمثل الـ
ـكب في الناس انت لا الانسان
بل لعمري لأنت شر من الكـ
ـب واولى منـه بكـل هـوان
ولريح الخنزير اهون من ريـ
ـحك يابن الطيان ذي التبـان[١٧]

وبالأضافة الى الاشارات التاريخية والنصوص الأدبية فأننا سنتصرف على أنواع أخرى من الملابس من خلال صور البنائين الذين ستظهر على الآثار العربية الاسلامية في الصفحات القادمة .

وبالاضافة الى ما تقدم فأن المعلومات التي جاءت عن أسماء البنائين كانت هي الأخرى قليلة بل نادرة ، ومن دواعي الاسف ان العرب لم يحتفظوا لنا بأسماء عباقرة المهندسين والمعمارين الذين أقاموا عمائرهم الرائعة الا بعض اشارات وردت في الكتب تشير الى أسماء بعضهم نذكر منهم على سبيل المثال ما ذكره الخطيب البغدادي ان رباحا كان ممن تولى بناء سور مدينة المنصور(١٨) .

والى جانب العمال كان هناك من يتولى الاشراف على البناء ومراقبه سير العمل فيه ، كما فعل المنصور عندما اختار لهذه المهمة كلا من الحجاج ابن ارطأة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت حيث اختير الاخير ليتولى القيام بضرب لبن مدينة المنصور وعده وكان يعد اللبن بالقصب وهو أول من فعل ذلك فاستفاد الناس منه(١٩) .

يشكل البناؤون طبقة كبيرة من المجتمع في العصر العباسي ، فساهموا بتنفيذ عشرات العمائر والمدن وكثير من المشاريع العمرانية الدينية والمدنيه والعسكرية .

وبالنظر لما تحمله مهنة البناء من خطورة على حياة الناس وممتلكاتهم لذا كان القوم يحرصون على انتقاء من يحسن الصنعة ، فالمعرفة بشؤون البناء والهندسه كانت أمرا ضروريا ، لذلك نجد ولاة الأمر وغيرهم من الذين يحرصون على البناء اختيار المهرة من الصناع والفعلة وخاصة المشاريع الكبيرة ، فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور مثلا عندما عزم على بناء مدينة بغداد المدورة احضر المهندسين من أهل المعرفة بالبناء والعلم .. ثم احضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم وكتب الى الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا من امر البناء ، ولم يبتدىء في البناء حتى تكامل بحضرته من أهل المهن والصناعات الوف كثيرة(٢٠) .

كما ان الدولة لم تغفل مراقبة أصحاب هذه المهنة لذلك كانت تفرض رقابتها على أعمالهم عن طريق المحتسب ، ومن بين واجباته مثلا ملاحظة المواد التي تدخل في البناء ، ومنع الغش فيها ، « اذ يجب على البنائين نصيحة أرباب العمل ممن يبنون له بالجير والاصطال في الصهاريج والقنوات ، وما يشاكل ذلك ان يكون الخلط الجيد الذي تحمد عاقبته ... »

« ومن شأن البنائين القيام به ان يبيضوا موضع الانسان وان يكثروا من اخلاط الخيّر من جبس البياض وقت عجنه ليسهل عليهم بسطه على الحيطان بغير تعب ، فيكون سببا لوقوع البياض من على الحيطان ، وقلة حفظه لها ، وثباته عليها فيمنعون من ذلك . ويجب على البنائين اذا بنوا الحيطان ، ان لا يبنوها بالطوب القليل النضج الليّن فأنه يتفتت بعد مدة فيسقط ما فوقه ويخرب الحائط فيأمرهم ان يجلعوه حشوا مع الطوب »[٢١] .

واذا انتقلنا الى الأدوات التي كان البناؤون يستخدمونها في أعمالهم ، فأن المصادر التاريخية تعطينا قائمة بأسماء تلك الأدوات وهي تختلف الواحدة عن الأخرى في شكلها ووظيفتها التي تناسب العمليات التي التي تتطلبها مراحل البناء .

ومن هذه الأدوات المسحه والمضمار وهي الخشبة أو الحديدة التي تسمى المالج[٢٢] ، والمنقل هو الذي ينقل فيه الطين[٢٣] ، ومن أدواتهم أيضا الكسكرة وهو الذي ينقل عليه الطين بين رجلين[٢٤] ، والملبن الذي يلبن به[٢٥] . كما عرف من أدواتهم الكنهبر وهو الخشبتان العريضتان اللتان ينقل عليهما اللبن على الدابة[٢٦] . كما استخدم البناؤون الكتلة وهي الخشبة التي يدق بها المدر[٢٧] .

وبالاضافة الى ما تقدم فقد عرف من أدوات البناء أيضا السابل وهو

الذي ينقل فيه التراب على البقرة ويسمى الطخم أيضا[٢٨] • ومن الأدوات أيضا المسيعة وهي الخشبة التي يطين بها[٢٩] • ومن أدوات البنائين أداة يقال لها الحال أو الصاقور وهي الفأس التي تكسر بها الحجارة[٣٠] ، وقيل الصاقور الفأس العظيمة لها رأس واحد دقيق تكسر به الحجارة وهي الصوقر والمعول أيضا[٣١] •

وبالاضافة الى ما تقدم فقد استعان البنؤون في أعمالهم بأداة تعرف بالمشاة وهو الزبيل الذي يخرج فيه التراب من البئر[٣٢] • وعرف لديهم المران الذي يسمى الكوفين[٣٣] •

ويمكن ان نضيف الى قائمة ادوات البنائين العتلة ، وهي حديدة كأنها رأس فاس عريضة في أسفلها خشبة يحفر بها الأرض والحيطان ليست بمعقفة كالفأس ولكنها مستقيمة مع الخشبة ، وقيل العتلة العصا الضخمة من حديد لها رأس[٣٤] • كما عرف لديهم حبل يقال له الامام ، وهو كما عرفه العسكري الحبل الذي يمد على البناء ، وكان يطلق عليه اسم المطمر[٣٥] ، اما ابن سيده فالمطمر عنده الخيط الذي يقدر به[٣٦] • ويسمى الزيج أيضا[٣٧] •

اما ابن منظور فالامام عنده الخيط الذي يمد على البناء فيبنى عليه ويسوى عليه ساف البناء قال :

وخلقته حتى اذا تم واستوى كمخة ساف أو كمتن امام وفسره ابن منظور : أي كهذا الخيط الممدود على البناء في الاملاس والاستواء • ويبدو ان اللفظة مشتقة من الاستقامة أو الاستواء وذلك ان أصلها ائتم به واتم وام القوم اي تقدمهم وهي الامامة ، والامام : كل من أتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم •

كما اطلق على الخيط المذكور اسم « التر » والتر بالضم الخيط

الذي يقدر به البناء ، وقيل هو الخيط الذي يمد على البناء فيبنى عليه وهو الامام واذا غضب احدهم على الآخر قال والله : لأقيمنك على الثر »[٣٨] .

ومن دراستنا للآثار العربية الاسلامية وجدنا صورا للبنائين وما يتعلق باعمالهم ممثلة عليها ، والذي يتفحص هذه الآثار يرى نماذج متعددة من هؤلاء العمال هو يمارسون اعمالهم في ميادين العمل نذكر من هذه الاثار عددا من الصور التي تزين قصير عمره الذي يقع على بعد خمسين ميلا شرق مدينة عمان يعود تاريخه الى النصف الثاني من العصر الاموي ، وربما كان من الابنية التي شيدها الوليد بن عبدالملك (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م) حيث نشاهد في الرواق الأيسر من القصر المذكور صورا تمثل بعض أصحاب الحرف والمهن مثل النجار والبناء والحداد ، والذي يهمنا منها صور البنائين ، ففي الشكل (١)[٣٩] عامل يقوم بعملية سحب كتلة من الحجر ، بينما نشاهده في صورة أخرى يقوم بقطيع الأحجار ، في حين تعرض صورة ثالثة عاملا وقد هوى بفأسه أو صاقوره على حجر فغاصت في قلب الحجر[٤٠] (شكل ٢) .

بينما بدأ في الصورة الرابعة وهو يمسك بفأس استعدادا لتكسير حجرا امامه[٤١] (شكل ٣) ويرتدي هؤلاء العمال ملابس أقرب في شكلها الى ما يعرف بالجمازة ، والجمازة نوع من الجباب ، وهي كما يصفها ابن سيدة[٤٢] جبة مشقوقة المقدم قصيرة تصنع من الصوف وتظهر في الصورة قصيرة وتصل في الطول الى الركبتين ، وللجمازة كمان قصيران .

وفي مكان آخر من القصر نشاهد رسما لرجل جلس على حافة مهراس[٤٣] واستند بقدميه على الحافة الأمامية وقد امسك بقضيب أو خشبة تعرف بالعنبلة ، واخذ يدق مادة في داخل المهراس ، تبدو انها مادة

تستخدم في عملية اكساء جدران البناء ، ويرتدي هذا العامل نوعاً من الملابس يعرف بالأزار (شكل ٤) والأزار ما يلتحف به[٤٤] .

ومن العصر العباسي وصلنا رسم محفور فوق جدران أحد القصور في سامراء اكتشفته بعثة التنقيبات في مؤسسة الآثار العراقية ، ويمثل الرسم رجلا ممسكا بالميزان أو الشاهول كما يسميه العراقيون[٤٥] .

وتصادفنا صورة البنائين في بعض المخطوطات الاسلامية منها صورة تعود الى نهاية القن الخامس عشر الميلادي[٤٦] وهذه الصورة على الرغم من كونها متأخرة الا ان فيها معلومات قيمة عن البنائين وجدت من الضروري الرجوع اليها لاستكمال الصورة الصحيحة لموضوع البحث . وتعرض الصورة (شكل ٥) مجموعة من البنائين يؤدون أعمالا مختلفة وتظهر هذه الاعمال في شكل تسلسل طبيعي للعمل الجاري في ميدان العمل الذي يتمثل ببناء قد يكون مسجدا ، وقد علت جدران البناء حتى اضطر العمال الى عمل اسقالة من الخشب والحبال[٤٧] . ففي الزاوية السفلى على يمين الصورة عاملان يحملان كسكرة وهو الذي ينقل عليها الطين بين رجلين وعند تدقيق النظر في الصورة يظهر ان المادة المحمولة بدو لنا حجرا وليس طينا (شكل ٦) .

ويسترعي زي هذين العاملين انتباهنا اذ يظهر كل منهما بسروال قصير يصل في الطول الى الركبتين تقريبا ، والى جانب السروال تظهر الصورة انهما يرتديان نوعا آخر من ملابس البدن أقرب ما يكون الى القميص وفوق السروال والقميص يرتدي كل منهما نوعا ثالثا من ملابس البدن تعرف بالحجمازه . وقد ثبت في وسط كل من العاملين بما يعرف بالمنطقة أو البند ، وبالاضافة الى ذلك فقد وضع كل منهما فوق رأسه غطاء رأس من نوع يعرف بالطاقية وهو اشبه ما يعرف لدى العراقيين في الوقت الحاضر بالعرقچين .

ويتوسط هذين العاملين عامل ثالث (شكل ٦) بنفس زيهما يحمل فوق ظهره كتلة قد تكون حجر اشبنها بحبل امرره من جانبي الحجر واسفله ثم ادار الطرف الثاني من الحبل حول رأسه ثم امسك الحبل ليحاذر سقوط الكتلة الحجرية • ولغرض حماية ظهر العامل من احتكاك الحجر به فقد وضعت قطعة نسيج فوق ظهره اغلب الظن انها مصنوعة من اللباد ، وهي ظاهرة لم تزل تستعمل الى اليوم من قبل امثال هؤلاء العمال والعتالين •

وفي الزاوية المقابلة من الصورة نفسها نشاهد عاملين منهمكين في اعداد المادة التي تستعمل في البناء وقد تكون من الطين ، والذي يسميه العسكري[٤٨] سالنبثية وفي يدي كل منهما مسحاة أو كما يسميها صاحب كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأشياء بالمعرفة[٤٩] ، وقد ادخلها في المزيج ليقلبه كالمعتاد في مثل هذه الأعمال وقد غاصت قدما احد العاملين في الطين (شكل ٧) •

وخلف أحد هذين العاملين يقف عامل آخر يحمل على ظهره قربة ماء أو ما تسمى بالروايا ثبتها على جانب من جسمه وتبدو وكأنها معلقة في كتفه كالحقيبة • وقد امسك بكلتا يديه بفتحة القربة استعدادا لتفريغها فوق المادة الممزوجة •

وقد هدتنا التصويرة نفسها الى رؤية أربعة من العمال المتخصصين في نقل الطين الى مكان العمل ، الاول يتوسط العاملين السابقين ، وهذا العامل يحمل في يده وعاءاً فارغا عرضه لتوضع فيه مادة الطين أو اللبن التي تستعمل في البناء ولا يلاحظ على هذا العامل أي اختلاف في الملابس التي يرتديها قياسا الى من تقدم وصفهم (شكل ٧) •

ويقف خلف هذا العامل عامل آخر من نفس اختصاصه وقد تأبط وعاءه منتظرا دوره بعد ان أخذ زميله مادة الطين • بينما يبدو على القرب

منه عاملان آخران بنفس تخصصهما يحمل كل منهما فوق كتفه وعاءً مملوءاً وقد اقترب احدهما من السلم المنصوب على حائط البناء ليوصله الى اعلى حيث العمل .

والعاملان اللذان يحملان الوعائين المملوئين يبدوان مرتديين زياً مغايرا لبقية العمال الذين جئنا على ذكرهم اذ يرتديان سروالا وازارا في حين ظهر القسم الاعلى من الجسم عاريا وقد غطى كل منهما رأسه بقلنسوة (شكل ٨) .

وفي الجزء الأعلى من العاملين المنهمكين في اعداد الطين نشاهد عاملين آخرين يجلسان على الأرض أمام كومة من الحجارة وفي يدي كل منهما فأس أو الحال أو الصاقور أو المعول ، والمعول موجه لكسر حجارة كبيرة ، اما العامل الثاني فهو يحمل الصاقور المدبب من طرف واحد يعمل على تهذيب الحجارة واعدادها لوضعها من البناء (شكل ٩) .

وقد ظهر العامل الأول بملابس أقرب ما تكون الى الدراعة : والدراعه جبة مشقوقة المقدم ، ويورد دوي وصفا لها فيقول « الدراعة مفتوحة من جهتها الأمامية حتى أعلى القلب ومزررة بأزرار وعرى »(٥٠). وقد ثبت على وسطه بما يعف بالمنطقة أو البند ، في حين ظهر العامل الثاني بملابس مؤلفة من سروال ودراعة ومنطقة .

وعند اسفل الاسقالة عامل يناول الطابوق الى عامل آخر يقف فوق حائط البناء (شكل ١٠) وعلى مقربه من هذا العامل يوجد عامل آخر يبدو عليه الانهماك في مساعدة رفع وعاء مملوء وقد شد بحبل تدلى من أعلى البناء وأمسك به عامل يقف فوق الحائط لسحب الوعاء من أسفل البناء (شكل ١١) .

وعلى السلم نشاهد أحد العمال متهيئا لاستلام وعاء من العمال الذين سبق الاشارة اليهم (شكل ١٢) في حين نشاهد عاملا آخر منهمكا

في اكمال نصب الاسقالة ، بينما وقف في الطابق العلوي من الاسقالة رجل يبدو لنا من هيئته ووقفته انه رئيس العمل الذي يقوم على يديه البناء ، وقد أمسك بيده اليمنى فأسا على عادة البنائين من أمثاله وباليد الأخرى حجارة يعدها ليضعها في مكانها من جدار البناء (شكل ١٣) •

وقبل ان اغادر وصف هذا البناء أود ان أشير الى الملابس التي يرتديها فهي كما تبدو في الصورة تتألف من سروال وازار وقباء ومنطقة وعمامة ويحتذي خفا • وقد ميز الفنان هذا العامل بوقفته وملابسه عن بقية العمال الآخرين ليعطي صفة الأهمية لشخصيته في العمل •

ويقف على القرب من هذا البناء عامل يناوله الحجارة بينما وقف وراءه عاملان آخران يقومان بصب الطين أو اللبن فوق الجدار استعدادا لوضع الطابوق عليه •

وعلى العموم فالصورة تعكس مشهدا متكاملا لعملية تشييد بناء تقوم به مجموعة من البنائين وقد فصلت الصورة في تخصص كل منهم كما تقدم شرح عملهم ، ويستطيع المرء من خلالها ان يكون في ذهنه فكرة لصورة تعتبر فريدة في نوعها ، وتكاد تكون الوحيدة من بين الاثار العربية الاسلامية التي تجمع عدة فعاليات لعملية بناء متكامل في وقت واحد •

الهـــوامش

١ ـ سعد ، فهمي عبدالرزاق : العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين (الاهلية للنشر والتوزيع) بيروت ١٩٨٣ ص١٢٢ ٠
٢ ـ ابن منظور ، لسان العرب ٩٤/١٤ ٠
٣ ـ العسكري ، كتاب التلخيص ٦٨٣/٢ ٠
٤ ـ ابن سيده ، المخصص ٢٥٨/١٢ ٠
٥ ـ ابن سيده ، المصدر السابق ٢٥٨/١٢ ٠
٦ ـ ابن منظور ، المصدر السابق ٥٢٨/١١ ٠
٧ ـ ابن منظور ، المصدر السابق ٢٧٠/١٣ ٠
٨ ـ ابن الاخوة ، معالم القربة في أحكام الحصبة ، عنى بنقله وتصميمه ، روبن ليوى ، مطبعة دار الفنون ، بكيمبرج (١٩٣٧) ص٢٣٥ ٠
٩ ـ العسكري ، المصدر السابق ج٢ ص٦٨٣ ٠
١٠ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ ١٨٥/١٠ ٠
١١ـ انظر لسان العرب ، مادة ـ روز ـ ومادة ـ جرى ـ ٠
١٢ـ انظـر محمــد التونجي ، المعجـم الذهبي ص٣٠١ ، ٤٤٩ وكتــاب الاصناف في العصر العباسي للدكتورة صباح الشيخلي ص٧٤ ٠
١٣ـ الاربلي ، عبدالرحمن سنبط قيتنو « خلاصة الذهب المسبوك » تحقيق مكي السيد جاسم ص١٣٧ ٠
الدرهم يساوي ثمانية دوانق ، انظر البلاذري كتاب النقود ص (٣٨) اما المقرزي فيذكر ان الدرهم يساوي ستة دوانق ، كتاب النقـود ص٢٣ ٠
١٤ـ الخطيب ، تاريخ بغداد ٧٠/١ ٠
١٥ـ الجاحظ ، الحيوان ٤٣٣/٤ ، ٤٣٤ ٠
١٦ـ ابن بسام ، المحتسب ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة حققه حسام الدين السامرائي ٠ مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٨ ص١٤٤ ٠
١٧ـ الاصفهاني ، أبو الفرج علي الاموي الكاتب ، الاغاني ، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية وزارة الثقافــة والارشاد القومي ٠ مصــر ١٣٨٣هـ ص١٣٧/٣ ٠
١٨ـ الخطيب ، المصدر السابق ٧١/١ ٠

١٩ــ الخطيب ، المصدر السابق ١/٧١ ٠
٣٠ــ الخطيب ، المصدر السابق ١/٦٧ ٠
٢١ــ ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٥ــ١٤٦ ٠
٢٢ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧٠ ٠
٢٣ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٢٤ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٢٥ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٢٦ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٢٧ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٢٨ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٢٩ــ ابن سيده ، المصدر السابق ١٢/٢٥٩ ٠
٣٠ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٣١ــ ابن سيده ، المصدر السابق ١١/٢٥ ٠
٣٢ــ لعسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٣٣ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٢٧١ ٠
٣٤ــ ابن سيده ، المصدر السابق ١٢/٢٧٩ ٠
٣٥ــ العسكري ، المصدر السابق ١/٧١ ٠
٣٦ــ ابن سيده ، المصدر السابق ١٢/٢٥٨ ٠
٣٧ــ ابن سيده ، المصدر السابق ١٢/٢٥٨ ٠
٣٨ــ انظر لسان العرب ج٤ ص٩٠ ، ج١٢ ص٢٥ ٠
٣٩ــ انظر شكل (٣٧) من كتاب « قصير عمره » تاليف مارتين المافرو ، ولويس كايا ليبرو ، وخوان شونايا وانطونيو المافرو ٠ (مدريد ١٩٧٥م) ٠
٤٠ــ انظر شكل (٠٣٦ب) من المصدر السابق ٠
٤١ــ انظر شكل (٠٣٦أ) من المصدر السابق ٠
٤١ــ انظر شكل (٠٣٦أ) من المصدر السابق ٠
٤٢ــ ابن سيده ، المصدر السابق ٤/٢٦ ٠
٤٣ــ المهراس ، صخرة مستطيلة منقورة يتوضأ منه ويدق فيه ٠ انظر لسان العرب مادة « هرس » وشكل (٠٣٨ب) من كتاب قصير عمره ٠
٤٤ــ ابن سيده ، المصدر السابق ٤/٦٨ ٠
٤٥ــالعبيدي ،صلاح ، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي ، من

المصــادر التاريخية والاثرية ، منشــورات وزارة الثقــافة والاعلام الجمهورية العراقية (١٩٨٠) ص١٠٩ لوحة ٣١ ٠

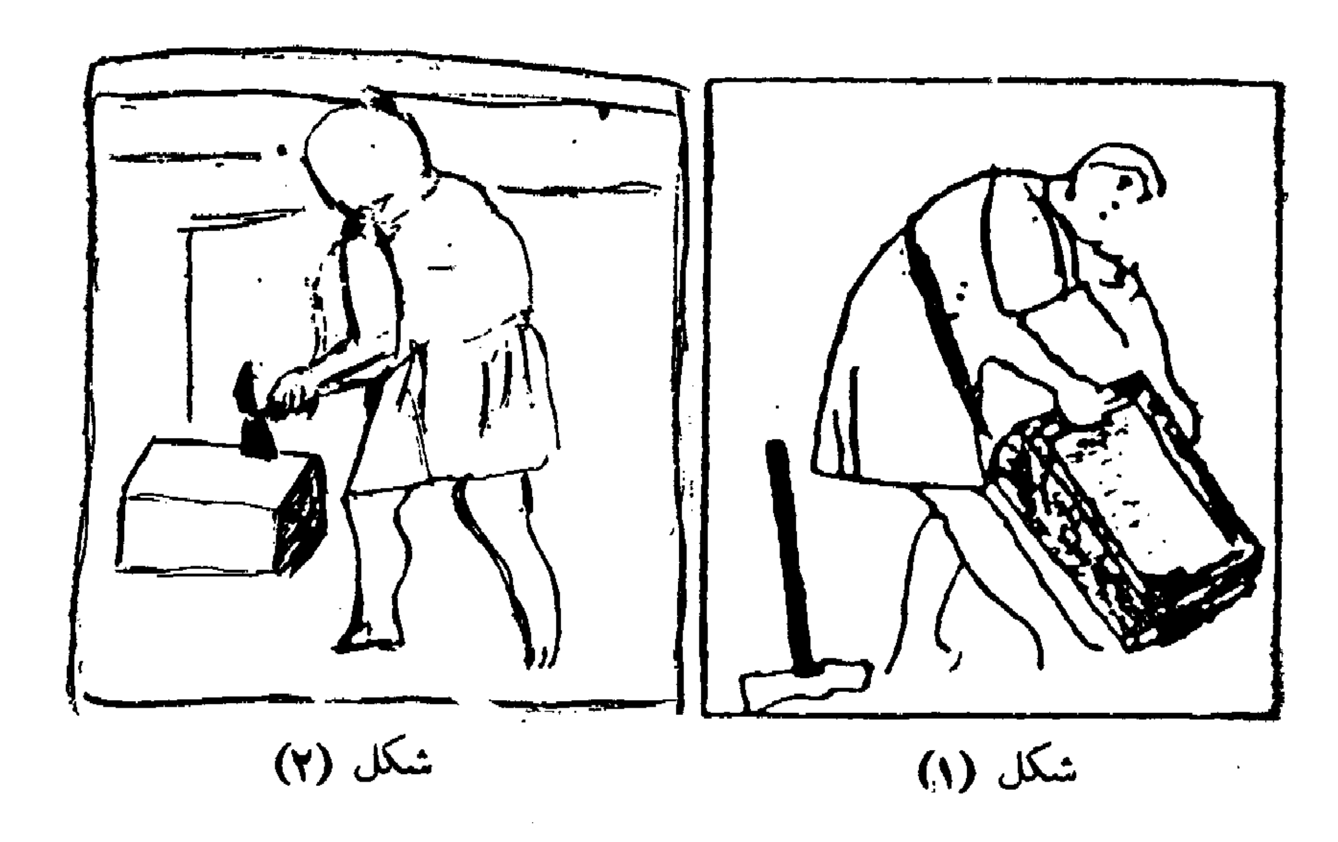
٤٦ـ زكي ، محمد حسن ، أطلس الفنون الزخرفية شكل ٨٤١ مكرر ٠

٤٧ـ وفي المنتظم لابن الجوزي (٧/١٠٠) سقال ويراد بها الاسقالة وهي ما يربط من خشب وحبال ليتوصل بها الى المحال العالية وتعرف اليوم عنــد العراقيين بـ « الاسكله » انظر الصابي ، رســوم دار الخلافة ص٨٥ ٠

٤٨ـ العسكري ، المصدر السابق ٢٩٥/١ ٠

٤٩ـ العسكري ، المصدر السابق ٤٧٦/٢ ٠

٥٠ـ دوزى : رينهارت ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عنــد العرب ٠ ترجمة الدكتور أكرم فاضل (مطبوعات وزارة الاعــلام العراقيــة ١٩٧١م) ص١٤٦ ، وانظر العبيدي ، الملابس ص٢٥٥ ٠

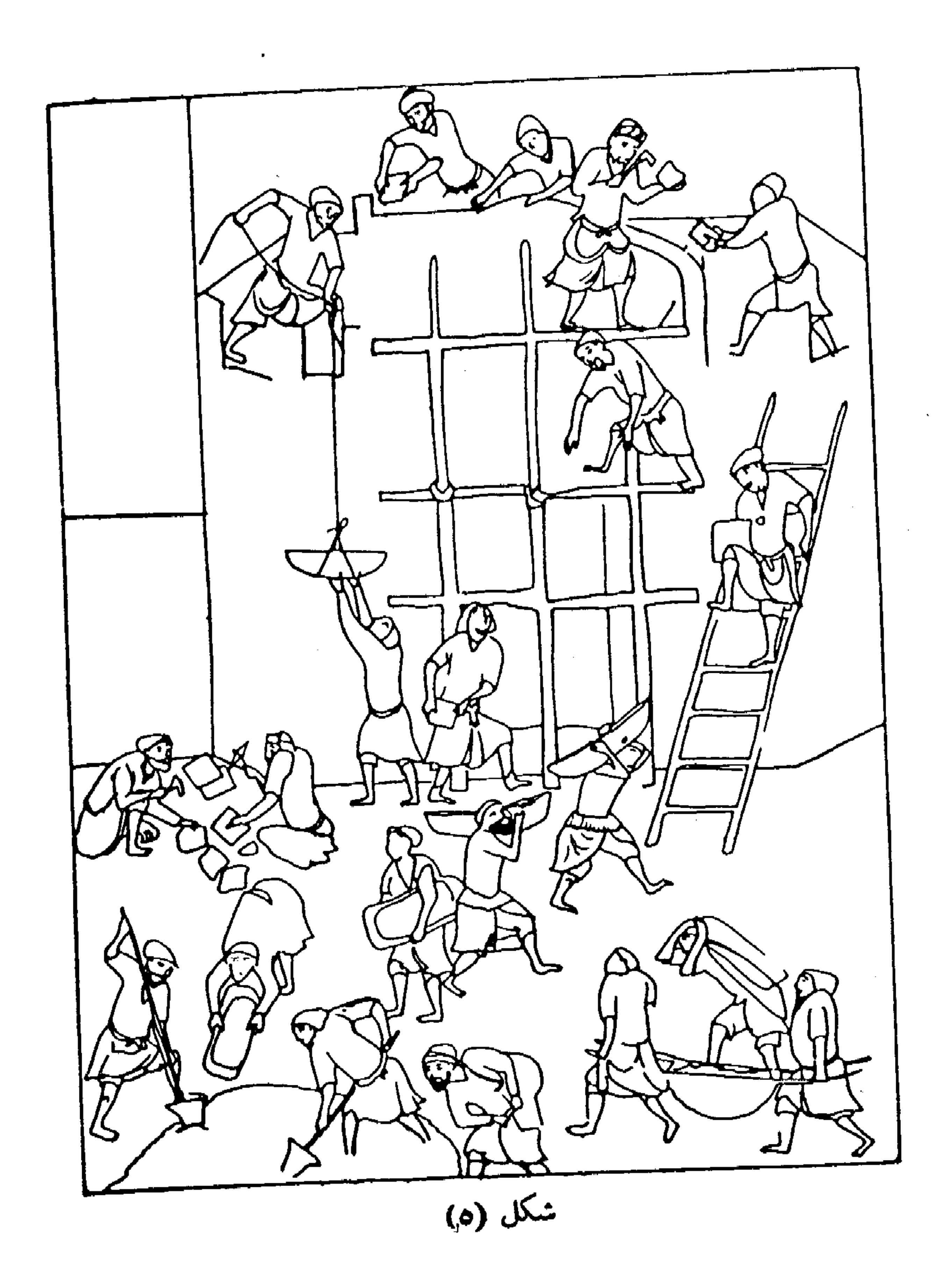


شكل (١)

شكل (٢)

شكل (٣)

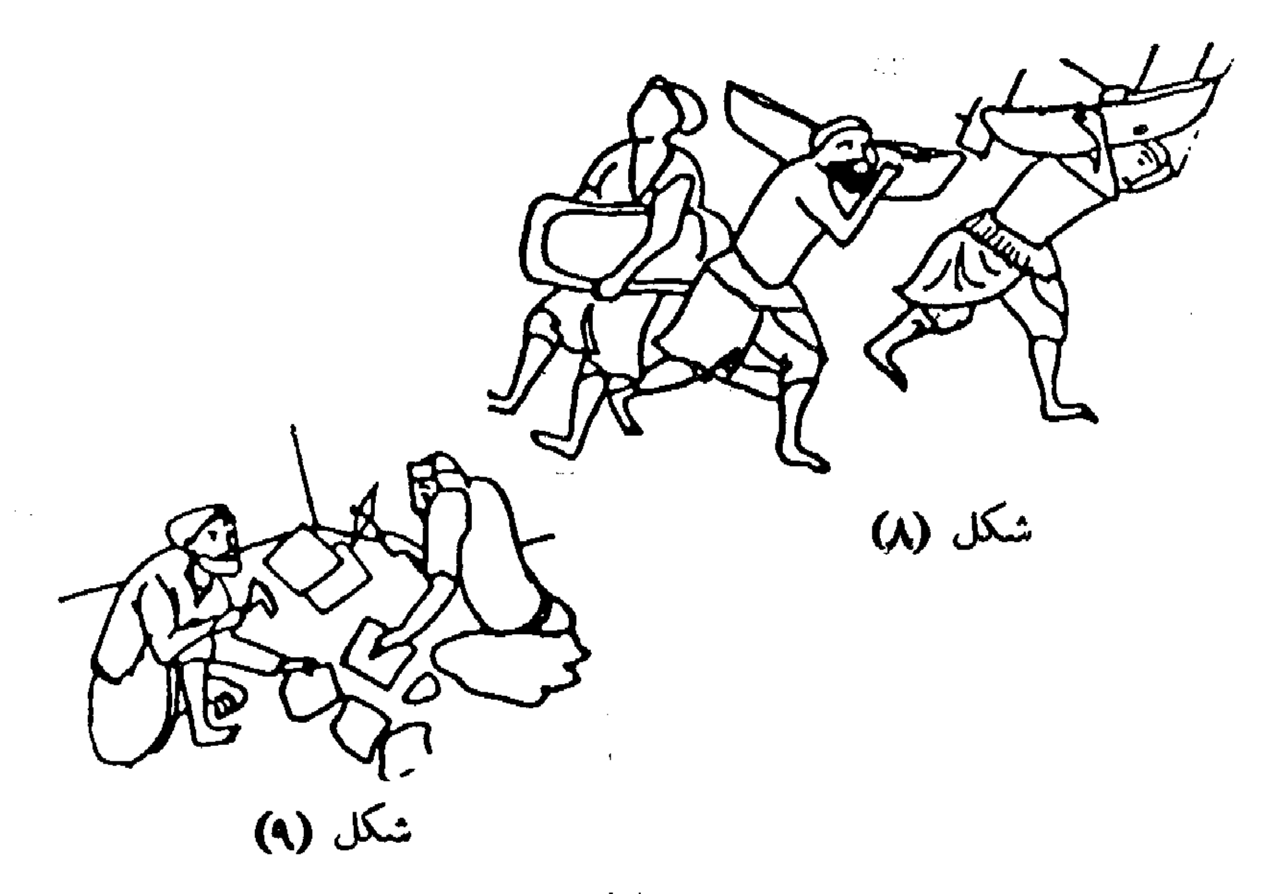
شكل (٤)



شكل (٥)

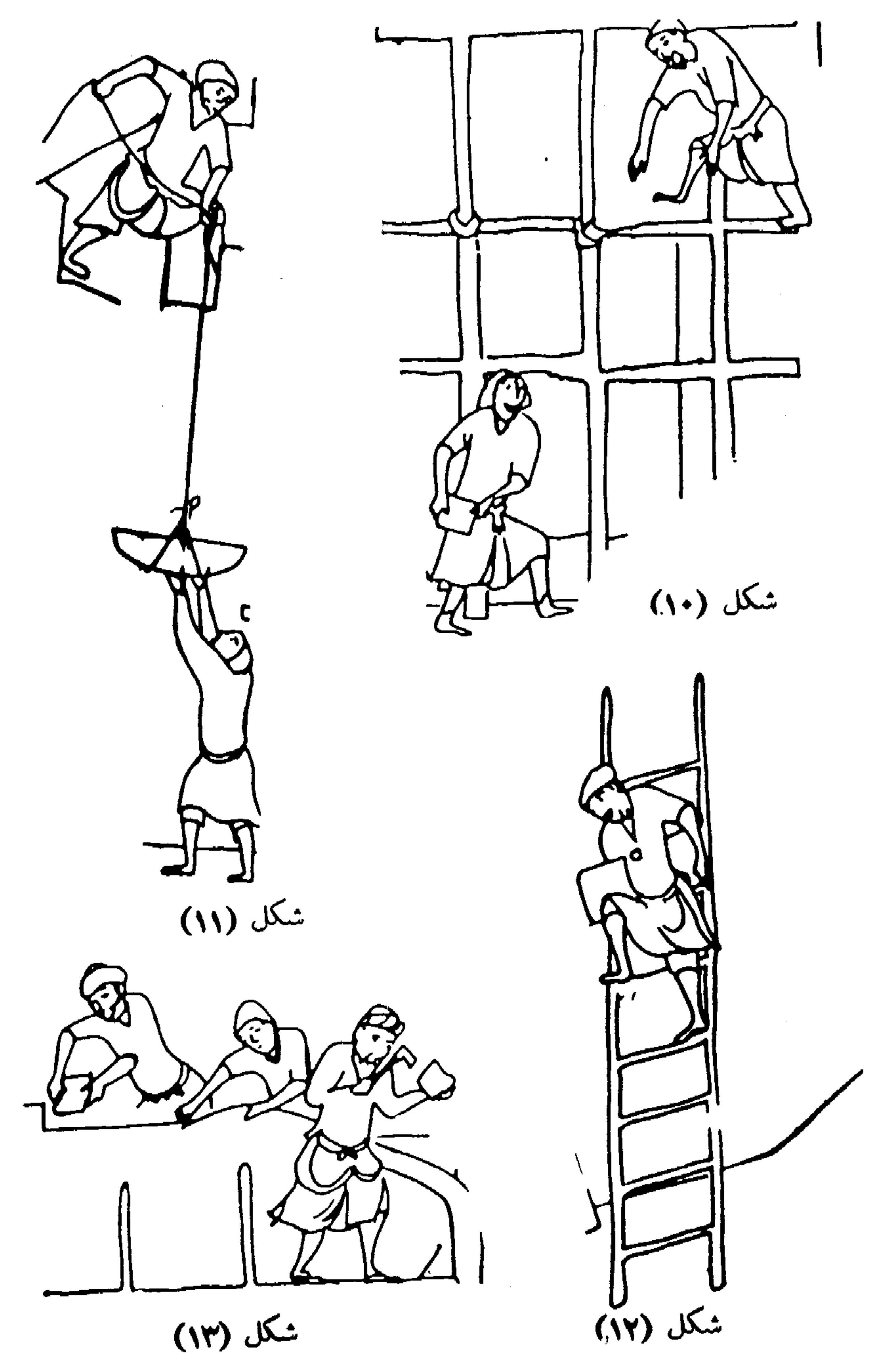
شكل (٦)

شكل (٧)



شكل (٨)

شكل (٩)



شكل (١٠)

شكل (١١)

شكل (١٢)

شكل (١٣)

اعداد الرسوم للمدن والعمارة الأسلامية

الدكتور طاهر مظفر العميد
استاذ بكلية الآداب – جامعة بغداد

أقام العرب في مختلف العصور الكثير من العمائر ، وشيدوا كذلك الكثير من المدن ، على امتداد الأراضي االعربية والأسلامية ، وآثرت عناصر عمارتهم وأساليب مدنهم في عناصر وأساليب مدناً أجنبية ، في مختلف بقاع الأرض ، وأصبحت عمائهم مميزة بطابع خاص ، وتمرسوا في فنون البناء وصناعته ، وأتقن العمال والفنانون والمزوقون ما عهد اليهم من عمل بنائي أو زخرفي . ولعل ما نشاهده اليوم من عمائر شاخصة وما نقلته الينا النصوص التأريخية خير شاهد على ذلك .

وأن مثل هذه المباني ، وما تخلف من بقايا المدن العربية في العراق والشام وشمالي افريقيا والأندلس والجزيرة العربية ، وفي أقطار عديدة أخرى في آسيا وافريقية وأوربا تؤكد أن الذين قاموا بتنفيذ هذه الأعمال العمارية أو الذين صمموا أشكالها وتابعوا انجازها ، كانوا على علم ودراية بفنون الهندسة ، والرياضيات والقياسات ، وكل ما له علاقة بالعمارة وتفاصيلها .

ومما لاشك فيه أن تنفيذ العمائر بصورة صحيحة ، هي التي تقوم على أساس الرسوم أو المخططات التي تُعد لها مسبقاً ، مثل المخططات الهندسية من مساقط وقطاعات أفقية ورأسية ، ومن المنظور والرسوم اليدوية للعناصر والوحدات[1] .

والمعروف أن الكثير من تخطيط العمائر مثل القصور والمساجد

والربط والمدارس ، والحصون والقلاع ، والمدارس وغيرها ، وما تشتمله من مزايا هندسية وتفاصيل معمارية يصعب على المعمار أو البنّاء تنفيذ مثل هذه العمائر من غير رسم هندسي مخطط مسبق مثل الزخارف الجصيه والخشبية والنحاسية والرخامية والواجهات الحجرية والقبـاب والمـآذن واحواضها والمقرنصات[٢] أنها تنفـذ وفقاً لرسوم وأشكال معينة ، حيث كان المهندس يقوم برسم المخططات ، وكان المعمارون ينفذون ما يرسمه المهندس[٣] .

ويثير الحديث عـن الرســوم والصـور التساؤل عمـا كان يفعله المهندسون والفنيون القدماء عند تكليفهم بتشييد احدى العمائر منذ شروعهم في الخطوات الأولى للبناء ، والتي تتطلب اعداد التصميم ودراسة مخططه وقطاعاته وواجهاته ، وعما اذا كان التصميم على هيئة رسوم هندسية على الرق أو الورق الحجر ، أو على أي مادة من المواد التي تصلح للكتابة والنقش[٤] .

والواقع أنــه لم يصلنا شيء من تلك الرســوم يمكن الاطمئنان الى تاريخه ، ولكن على أي حـال ، أنــه من الممكن أن نستنتج من أقوال المؤرخين أن تخطيط رســوم العمائر الاسلامية كان معروفاً منــذ أقـدم العصور . فقد جاء مثلا في خطط المقريزي اثناء حديثه عن بناء جامع ابن طولون أن المهندس الذي بنى قناطر ابن طولون أنه أعد تخطيطا للجامع على الرق أو الجلود ابتكر فيه ، على حد قول المقريزي ، فكرة عمـل الدعامات التي تحمل سقف المســجد مشيدة بالآجـر ، وذلك بدلا من انتزاع الأعمـدة الرخامية من عمائر أحرى[٥] . الذي يهمنا في روايه المقريزي هو أن المهندس الذي كُلف بالعمل أعد تخطيطا للجامع على الرق او الجلود ، أما يما يتعلق بالشق الآخر من الرواية والتي تشير الى ابتكار هذا المهندس عمل الدعامات التي تحمل سقف جامع ابن طولون ،

فنقول : بأن فكرة عمل الدعامات المبنية بالآجر لم تكن من ابتكار هـذا المهندس ، بل كانت فكرة عراقية عباسية اسلامية وجدت قبل عصر ابن طولون وظهرت في مسجد سامراء ومسجد أبي دلف ، ويعـد استخدام الدعائم « البدنات » في هذين الجامعين عنصـرا معماريا أصيلا • ويرى « هررفيلد » أن هذه الدعائم تحمل سقف جامع سامراء مباشرة[٦] • وقد أيد رأي « هرزفيلد » هذا كل من « المس بيل »[٧] ، و « كريزويل »[٨] • وقد كشف نقل الأنقاض من داخل الجامع أثناء التنقيبات التي أجرتها المؤسسة العامة للآثار عن وجود اكتاف من الطابوق والملاط ، وقد كتب « بريجز » عن هذه الدعائم يقول : « ومن الظواهر المعمارية ذات الأهمية الكبرى في مسجد سامراء ، استخدام الدعائم المصنوعة من الآجر لحمل البوائك بدلا من العمد القديمة التي استعملت لهذا الغرض في قرطبة وفي غيرها من البلدان »[٩] • وقد رأيت وفحصت احدى هـذه الأكتاف مع الزميل الدكتور عبدالعزيز حميد الذي أشرف على تنقيبات مديرية الآثار في منتصف العقد السادس[١٠] •

والذي يعنينا من رواية المقريزي في هذا البحث هو ما ورد فيها عن خبر المخطط الذي قيل أنـه أعـد على الجلود ، والذي نستنتج منه أن المهندسين القدماء كانوا يقومون بعمل تخطيط مبدئي للعمائر قبل الشروع في بنائهـا ، ويميل الدكتور فريد شافعي الى الظن بأنها ما كانت ترسـم بمقياس رسم خاص في دقة وتنظيم ، كما يحدث في العصر الحديث الذي تطورت فيه العدد الهندسية بحيث تساعد على اعداد الرسوم بالدرجـة المطلوبة من الدقـة والاتقان • ولكن على الرغم من ذلك فأن المهندسين العرب المسلمين القدماء كانوا بلا شك على علم تام بالعدد الرئيسية لمزاولة الأعمال الهندسية ، وهي الزاوية والمسطرة والفرجار والمنقلة • اضافة الى ذلك فأن هناك من الأعمال المعمارية ما يدل على معرفتهم التامة بعلم

من أصعب العلوم الهندسية الأساسية وهو علم « الهندسة الوصفية » فقد تركوا كثيرا من الأمثلة من معضلات ذلك العلـم التي وافقوا في حلهـا بطريقـة صحيحة سليمة ما كانوا بالغيهـا الا اذا كانوا متمكنين تماماً من نظريات الهندسة الوصفيه المعقدة • ثم بطرق تطبيقها وتنفيذها عمليا على الطبيعة • وتتجلى تلك القدرة في المواضع التي تتلاقى فيهـا أسطح البناء
الطبيعه • وتتجلى تلك القدرة في المواضع التي تتلاقى فيهـا أسطح البناء
المستوية والمنحنية والكروية ببعضها خاصة عند تغطية الجدران بأسقف من أقبية وقباب • ومن أمثلتها ما يوجد في أسوار حصن القاهرة وابوابه التي شيدها بدر الجمالي[١١] •

ترك العرب المسلمون ، على امتداد حكمهم الطويل أعدادا كثيرة لا تحصى من المباني والمدن ، لا يزال الكثير منها شاخصا يشهد على براعة المعمار العربي المسلم وحسن آدائه لفنه ، ومن حق أي انسان أن يتساءل ، وهو يشهد هذه الثروة العظيمة من المخلفات والعمائر والمدن تنتشر هنا وهناك في أراضي واسعة من العالم العربي الاسلامي ، هل أن هذه الآثار المعمارية على اختلاف طرزها وتبـاين أساليبها ، وبما فيها من فنـون زخرفيه ، وأساليب معمارية ، قد خرجت الى الوجود وفقا لنماذج مصغرة لها ، وتصميمات هندسية أولية ؟ ومن الذي أشرف على تصميمها وتخطيطها حتى ابرزها بهذا الأطار الجميل ؟ أهـم مهندسون أتقنوا الصنعة ؟ أم معمارون ؟[١٢]

وجوابنا يستند الى النصوص التأريخية والوثائق الأثرية ، ودراسة هذه النصوص والوثائق تدفعنا بأن نجيب على مثل الأسئلة السابقة ، بأنها كانت تنفذ وفقاً لرسوم وأشكال معينة ، حيث كان المهندس يقوم بعمـل رسومات تخطيطية عامة وتفصيلية ، كما عملوا لها نماذج مجسمة ، وعملوا لها قياسات ابتدائية ونهائيه • وتشير هذه النصوص بأن عددا من المهندسين

وعددا من المعمارين قاموا بهذه الأعمال ، وباشروا بأنفسهم الأشراف على العمائر والمباني التي يستدعون الى تشييدها ، وأنهم كانوا يضعون تصميمات شاملة للعمائر تصاحبها أحيانا تصميمات تفصيلية لأجزاء تلك العمائر على الورق أو القماش أو الجلود ، ولم يقتصر الأمر على التصميمات المخططة ، بل اننا نلاحظ أن المهندسين الذين أشرفوا على بعض العمائر الاسلامية المهمة ، وضعوا نماذج مجسمة لهـا ، ومن ثم نفذت طبقا لتلك النماذج المجسمة(١٣) .

واذا عدنا الى المصادر ، فأننا نجد أن المصادر والمؤلفات العربية قد تناولت العلوم الهندسـية والتخطيطيـة والرياضية ، وبحثت في الحيـل الميكانيكيه وجر الأثقال . منها كتاب الفهرست لأبن النديم(١٤) وكتاب مفاتيح انعلولم للخوارزمي(١٥) . وقام قسـم من المصـورين المسلمين بتزيين هـذه الكتب باللوحات التصويرية التي توضح ما جـاء في تلك الكتب(١٦) .

غير أن معظم النماذج والمخططات قد فقدت ، ولم يصلنا منهـا الا النزر القليل كي يبقى مثالا حيا وطيبا ، لتراثنا المعماري والهندسي ، ومع دلك فأن المصادر العربية الاسلامية أشارت الى روايات وأخبار تأريخيـة تثبت ما قلناه سابقاً بأن المسلمين قد وضعوا رسومات وتصميمات لمبانيهـم وعمائرهم(١٧) . سوف نذكر منها في آخر هذا البحث .

وقد وُضعت المؤلفات في علم عقود الأبنية ، وقد عرفه شمس الدين محمـد بن ابراهيم الأنصاري المعروف بأبن الأكفاني السنجاري المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية (١٣٤٨م) بأنه « علم تعرف منه أحوال أوضاع الأبنية وكيفيه شق الأنهار وتنقية القنى ، وسد البثوق وتنفيذ المساكن . ومنفعته عظيمة في عمارة المدن والقلاع والمنازل . وفي الفلاحة »(١٨) ثم يذكر أبن الاكفاني وفيه كتاب لابن الهيثم وكتاب للكرخي(١٩) .

ولأبي الوفا اليوزجاني (المتوفى سنة ٣٨٨هـ - ٩٩٨م) كتاب ما يحتاج اليه الصناع من أعمال الهندسة ، ومنه نسخة في مكتبة « آيا صوفيا » . ولأحمد بن عمر الكرابيسي كتاب حساب الدور وكتاب مساحة الحلقة[٢٠] .

وقد بحثت هذه الكتب أيضاً في الأمور الفنية الأخرى[٢١] كاستنباط المياه الجوفية ، وعمل الفوارات ، ونصب الحنفيات ، وانشاء القُنى فوق الأرض وتحتها ، والمصانع والسدود ، والخزانات ، والأحواض ، والصهاريج ، والسقايات والمياضىء . واظهار الماء على رؤوس الجبال ، ورفعه الى القصور بالدواليب ، والقنوات الرصاصية ، والحجرية ، والساجية ، التي تخترق البيوت ، والمنازل ، والمساجد ، والحمامات ، وبناء القناطر ، والأسوار ، والقلاع ، والابراج ، والحصون . وبحثت في الأميال في الطرق ، وضرب النقود ، وتعيين القبلة في المساجد . وما يحتاج اليه الصناع . والمعمارون من أعمال الهندسة ،لنصب المقاييس على الأنهار ، ومن أشهر المقاييس في البلاد العربية مقياس النيل ، ومقياس دجلة[٢٢] . وقد ذكر ابن الجوزي عن مقياس دجلة : وقال : « ونُصب المقياس على دجلة من جانبيها ، طوله : خمس وعشرون ذراعاً ، على كل ذراع علامة مدورة . وعلى كل خمسة أذرع علامة مبعة مكتوب عليها بحديدة علامة الأذرع . تعرف بها مبالغ الزيادات »[٢٣] .

والى جانب براعة المعماريين العرب المسلمين ودرايتهم بفنون الهندسة المعروفة آنذاك ، فأننا نلاحظ بأن بعض العمائر الأسلامية ، وبخاصة ما يمتاز منها بالضخامة واتساع المساحة ، تكشف طريقة تخطيطها وتنفيذها عن انه لم يكن يشرف على الواحدة منها مهندس كبير مسؤول واحد يقبض على زمام المشروع المعماري كله من أوله الى آخره ، بحيث يضع المخطط العام ، ثم جميع التصميمات التي تتبعه الى أدق التفاصيل كما

يحدث في الوقت الحاضر • ويبدو لنا أن المخطط العام لمثل تلك المشاريع الكبيرة لم يكن أكثر من رسم فبدئي يتخذ كدليل يهتدي به في التخطيط الأخير بالحجم الطبيعي على الموقع نفسه كما حدث في عدة أمثلة يذكرها لنا المؤرخون • فمنها أن أبا جعفر المنصور لما كلف المهندسين ببناء مدينته الجديدة ، بغداد المدورة ، مدينة السلام « أحب أنْ ينظر اليها عياناً فأمر أن يخط بالرماد ثم أقبل يدخل من كل باب يمر في فصلانها ، وطاقاتها ، ورحابها ، وهي مخطوطة بالرماد ، ودار عليهم ينظر اليهم والى ما خط من خنادقها ، فلما فعل ذلك أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ، وينصب عليه النفط ، فنظر اليهـا والنار تشتعل ففهمها وعرف رسمها ، وامر أن يحضر أساس ذلك على الرسم ثم ابتدىء في عملها »(٢٤) •

ولابد لنا ، ونحن في معرض البحث عن اعداد الرسومات في العمارة الاسلاميه لدى العرب المسلمين ، أن نقف عند النص السابق وقفة ممعنة فحصه ، وأن نلفت بتواضع ، نظر الباحثين والمتخصصين في ميدان الآثار الأسلامية ، الى أهمية هذا النص التأريخي ، وما يبنى عليه من بروز نظرية الأستنباط الفكري ، والأبداع المعمري التي يتحلى بها الخليفة المنصور والذين أسهموا معه في تنفيذ البناء • فهذا النص يرشدنا الى نقطة بالغـة الأهمية في طبيعة البحث الذي نتناوله ، ويفسر لنا الكثير من الآراء التي ترد في ثنايا النصوص التأريخية ، ويوضح لنا بجلاء أنه كان لأبي جعفر المنصور ، نظـرة فاحصة وصائبة في ميـدان العمارة ومعـرفة بالنواحي الهندسية • ولم تلبث هذه المعرفة أن انعكست على سعيه في بناء مدينته ، فأمتزجت مع آراء مهندسيه ومعماريه ، فكان نتاج هذا الألتقاء ثمرة يانعة في عالم العمارة يفتخر بها العرب والمسلمون فيما يفتخرون به من مفاخر تراثهم المعمري والحضاري(٢٥) •

والمثال الثاني أورده المقريزي فذكر : أن السلطان الظاهر بيبرس

البندقاري خرج مع المهندسين لمعاينة الموقع الذي اختاره للجامع الذي أراد بناءه ، وعرضوا عليه مقيسه ، وما يتعلق به ، ثم رسم بين يديه شكل الجامع[٢٦] .

والظاهـر أن المهندسين تعلموا هندسـة العمارة في بعض المدارس التي اقيمت لهذا الغرض ضمن أغراض أخرى ، اذ كان في حلب مدرسة أنشأها نجم الدين اللابودي من أهل القـرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي[٢٧] .

وبين أيدينـا بعض النصوص التأريخية تشـير الى وجود حوانيت وأسواق للرسامين ، فقد أدرك المقريزي في القرن السابع الهجري ، عدة حوانيت للرسامين ، فقد أدرك المقريزي في القرن السابع الهجري ، عدة حوانيت للرسامين في سويقة أمير الجيوش ، وفي سوق البندقانيين لرسم أشكال ما يطـرز بالذهب والحرير[٢٨] ، كمـا كان في دمشق سـوق للرسامين احترق في سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م)[٢٩] .

ونورد في أدناه النصوص التأريخية المتوفرة التي تشير الى عمـل الرسومات الهندسية والزخرفية للمنشآت المعمارية وهذه أمثلة للاستشهاد لا للحصر ، اضفة لما أوردناه من أمثلة .

ذكر الجهشياري أن المورياني[٣٠] أشار على أبي جعفر المنصور بأقطاع قطيعة الى ولده صالح[٣١] ، وهي المعروفة بالسيبطية من أعمال البصرة ، طلب أبو جعفـر الى بعض المهندسين بتصويرها له ، فصورها وعرض تلك الصورة عليه فأستحسنها[٣٢] .

وعنـدما أراد أبو الحسن علي بن عيسى ، بنـاء مسناة داره التي اشتراها من ورثة نيزوك على نهر دجلة في سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م) قدر لها مائة ألف درهم حسب تقـدير أبي اسحق ابراهيم ، وصور لـه البناء

وعرضت عليه الصورة مع المقايسة[٣٣] .

وذكر الخطيب البغدادي وابن الجوزي[٣٤] ، أن المنصور عندما أراد اخراج الأسواق من المدينة المدورة الى الكرخ دعا بثوب واسع فحدَّ فيه الأسواق ، ورتب كل صنف منها في موضعه ، ثم بنيت على هذا الرسم .

وورد في كتاب مناقب بغداد ، أن بغداد صوِّرت لملك الروم ، أرضها ، وأسواقها ، وشوارعها ، وقصورها ، وأنهارها ، غربيها ، وشرقيها ، فكان يعجب من وضع شوارع الجانب الشرقي خصوصاً من شارع « الميدان » وشارع « سويقة نصر » بن مالك الخزاعي ، والقصور التي في الأسواق ، والشوارع من سويقة نصر الى قنطرة البردان ، وكان اذا شرب دعا بالصورة ، فشرب على صورة شارع نصر ويقول : لم أر صورة شيء من الأبنية أحسن منه[٣٥] .

وفي الحلل الموشية أنه لما اجتاز عبدالمؤمن بن علي الى الأندلس سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) ، نزل بجبل الفتح ، وأمر ببناء حصن هناك اختط رسومه بيده . وكان ممن بناه وأخذ رأيه فيه ، الحاج يعيش المهندس[٣٦] .

واستعيض أحياناً عن عمل الرسومات بالتخطيط على الأرض لعرض المشروعات الكبيرة بأيضاح أوسع ، منها المثال الذي ذكرناه سابقاً عن تخطيط مدينة بغداد المدورة على الأرض . وقام المهندس حسن الصياد عندما طلب منه السلطان الغوري في سنة ٩١٦هـ (١٥١٠م) أن يعرض عليه رسم مدينة الأسكندرية بأبراجها ، وأبوابها ، وأسوارها ، ومنارها . ثم دعى السلطان لمشاهدتها على الرسم ، فنزل من القلعة يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٩١٦ وعاين الرسم واعجب به[٣٧] .

واشتملت بعض الكتب التأريخية والجغرافية على رسومات هندسية، ففي كتاب تحفة الألباب لأبي حامد الأندلسي الغرناطي صور منها صورة للهرم وأخرى لمنارة الاسكندرية ، ولعل رسمه لمنارة الاسكندرية أصدق رسم لما كان عليه سنة ٥١١هـ (١١١٧م) مع أحسن وصف له(٣٨) .

وفي كتاب « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » لابن الوردي ، صور للحرم الشريف ، والكعبة المشرفة منقولة من رسم من وضع العلامة عزالدين بن جماعة(٣٩) .

وقد حوت « دلائل الخيرات » صوراً للحرمين الشريفين ، منها ما بلغ غاية الدقة وجمال التلوين والتذهيب في نسخ مخطوطة ترجع الى القرنين السادس والسابع عشر للميلاد(٤٠) .

ونقشت رسوم الحرمين الشريفين على ألواح القاشاني باتقان جميل ، ومنها لوحة للحرم المكي عمت سنة ١٠٨٧هـ (١٦٧٦م) ، وأخرى بأسم صاحب الخيرات محمد أغا من عمل أحمد الموقع سنة ١٠٧٤هـ (١٦٦٣م) ولوحة أخرى للحرم المكي تتوسطه الكعبة ومشاعر الحج حوله ، غاية في الأهمية ، عملها محمد الشامي الدمشقي سنة ١١٣٩هـ (١٧٢٦م) ، ولوحة أخرى بها رسومات لقباب وقناديل ومنارات وأشجار عملت سنة ١١٤١هـ (١٧٢٨م) ، وكلها مودعة في متحف الفن الأسلامي بالقاهرة(٤١) .

ومن الجدير ذكره هنا ، أن الكثير من المساجد والقصور والمدارس ودور الأمارة ، وما فيها من تفاصيل معمارية ، يصعب تنفيذها من غير رسم مسبق ، وعلى وجه الخصوص الواجهات الحجرية ، والقباب ، والمآذن ، وما تشتمله من زخارف ، فلابد انها تنفذ طبعاً لرسم ، أو مخطط ، والرسم عادة للمهندس ، والمخطط للمعمار ، حيث يرسم المهندس

المخططات والرسومات ، ويقوم المعمار بتنفيذ ما يرسمه المهندس ، على أن المعمار يكون هو المهندس وهو المعمار كما هو الحال في العراق اليوم ، حين يكون المعمار الذي يبني المئذنة هو الذي ينفذ ما يرسمه هو بنفسه ، كذلك ، عند بناء المقرنصات ، فالمعروف أن الذي يقوم بتنفيذ هذه المقرنصات هو المعمار نفسه وليس المهندس . وكذلك شأن الزخارف الأخرى ، وقلما نجد أثر المهندس في مثل هذه الأمور .

الهـــوامش

١ ـ فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، المجلد الاول ، صفحة ٣٠٢ ·

٢ ـ انظر نماذج من الزخرفة الاجرية للمدرسة الشرابية في كتاب الدكتور ناجي معروف « المدرسة الشرابية » اللوحات رقم ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ · وانظـر كـذلك كتـابه « تأريخ علمـاء المستنصرية » صفحة ٤٥ و١٣٨ ، والوحات ٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ · وانظر كتاب « جوامع الموصل » لسعيد الديوهجي ، صفحة ١٧ وما بعدها ·

٣ ـ طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ١٨٨ ·

٤ ـ فريد شافعي ، مصدر سابق ، صفحة ٣٠٣ ·

٥ ـ المقريزي ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٦٥ ·

(6) Herzfeld, Erster., P. 8.

(7) Bel , Amurath to Amurath, P. 235.

(8) Creswel, Early Muslim Architecture, 11, P. 256.

٩ ـ تراث الاسلام ، قسم العمارة ، صفحة ١٣٥ ·

١٠ـ طاهر العميد ، العمارة العباسية في سامراء ، صفحة ١٤٥ ·

١١ـ فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، صفحة ٣٠٣ ·

١٢ـ طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ١٨٩ ·

١٣ـ سنفرد بحثـا خاصا حـول النماذج والتصاميم المجسمة في العمارة الاسلامية ·

١٤ـ تراجع الصفحات ٣٧١ و٣٨٥ و٣٨٦ و٣٩٧ من كتـاب الفهرست لابن النديم ·

١٥ـ تراجع الصفحات ١٤١ ـ ١٤٥ من كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي ·

١٦ـ ذكر المرحوم زكي محمد حسن في مستله « مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي » ، صفحـة ١٦ ، أن من المخطوطات التي عنى بتزويقهـا المصورون المسلمون كتاب « الحيل الميكانيكية » و كتاب « الحيل الجامع بين العلم والعمل » لابن الرزاز الجزري ، وقد ألفه لأمير من آل أرتق في أواخر القرن السادس للهجرة (١٢ للميلاد) ، وتكلم

فيه عن الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفيفة .

١٧ـ طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ١٩٠ .

١٨ـ ابن الاكفاني ، ارشاد القاصد الى اسمى المقاصد صفحات ٨١ـ٨٢ .

١٩ـ نفس المصدر ، صفحة ٨١ـ٨٢ . حسن عبدالوهاب ، « الرسومات الهندسية للعمارة الاسلامية » ، سومر (١٩٥٨) المجلد ١٤ ، صفحة ٧٧ .

٢٠ـ ابن النديم ، الفهرست ، صفحة ٣٩٢ ، أخبار الحكماء ، صفحة ٥٧ .

٢١ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، الجزء السادس ، صفحة ٥٧ ، ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الاول ، صفحة ٣١٣ ، والثاني صفحات ٥١ـ٥٢ ، والثالث صفحات ١٩٥ ، ٢٤٧ـ٢٤٨ ، ٢٩٥ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤٣٩ ، والرابع ، صفحة ٢٣٠ .

٢٢ـ ناجي معروف ، عروبة المدن الاسلامية ، صفحة ٣١ـ٣٢ .

٢٣ـ ابن الجوزي ، المنتظم ، الجزء السادس صفحة ٥٧ .

٢٤ـ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٦ صفحة ٢٣٧ ، اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٣ وما بعدها ياقوت ، معجم البلدان ١/٦٧٧ ، ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، صفحة ١٥ ، طاهر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ١٩١ ، فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، صفحة ٣٠٧ ، ناجي معروف ، عروبة المدن الاسلامية ، صفحة ٣٣ .

٢٥ـ طاهر العميد ، الآثار الاسلامية والابداع الفكري ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد (٢٥) سنة ١٩٧٩ ، صفحات ٦٨٥ ـ ٦٨٦ .

٢٦ـ المقريزي ، الخطط ، ج٢ صفحة ٣٠٠ ، فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، صفحة ٣٠٧ .

٢٧ـ مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٦ ، صفحة ١١ ، حسن عبدالوهاب ، المصدر نفسه ، صفحة ٨٠ .

٢٨ـ المقريزي ، الخطط ، ج٢ صفحة ٣٠ .

٢٩ـ اللمعات البرقية ، صفحة ٣١ .

٣٠ـ المورياني : هو سليمان بن مسلم اتخذه المنصور حينما استخلف كاتبا له في أول الامر ثم استوزره بعد ذلك فأصبح وزيرا له كما

اشار الجهشياري في كتابه « الوزراء والكتاب » ، صفحة ٩٨ ·

٣١ـ صالح : هو ابن الخليفة المنصور ، وقد جاء في كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ، صفحة ١١٧ ، بأن المنصور كان يحبه ويرق عليه ، وكان قد أقطع أولاده جميعا قطائع الا خلاه ، وكان يقول ابني هذا المسكين لا شيء له ، فلقب بصالح المسكين · فقال ابو أيوب المورياني للخليفة : يا أمير المؤمنين قد أصبحت ضيعة تقرب من الاحواز وتشرب من دجلة ، وتغيض فيها ، وهي بلد واسع ، وقد دثرت رسومها وانطمست أنهرها ··· فأقطع المنصور صالحا بتلك الضيعة ـ

٣٢ـ الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، صفحة ١١٧ ·

٣٣ـ تحفة الامراء في تأريخ الوزراء ، صفحة ٢٨٧ ·

٣٤ـ تاريخ بغداد ، ج١ صفحة ٨٠ ، مناقب بغداد ، صفحة ١٣ ·

٣٥ـ ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، صفحة ١٥ ·

٣٦ـ الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ، صفحة ١١٨ ·

٣٧ـ ابن اياس ، تأريخ مصر ، ج٤ صفحة ١٩٦ ، حسن عبدالوهاب ، المصدر نفسه ، صفحة ٨٢ ·

٣٨ـ أبو حامد الاندلسي الغرناطي ، تحفة الالباب ، صفحة ٧٢ ، والرسم رقم (٢) امام صفحة ٢٠٨ طبع باريس ، حسن عبدالوهاب ، المصدر نفسه ، صفحة ٨٢ ·

٣٩ـ ابن الوردي ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، حسن عبدالوهاب ، المصدر نفسه ، صفحة ٨٢ ·

٤٠ـ حسن عبدالوهاب ، المصدر نفسه ، صفحة ٨٣ ·

٤١ـ المصدر السابق ، صفحة ٨٣ ·

عيسى بن موسى ولي العهد

الدكتور حمـدان عبدالمجيد الكبيسي

كلية الآداب / جامعة بغداد

المقـدمة :

من حق عيسى بن موسى علينا أن ننصفه ، ونجلو عن نضارته غبار الزمن وشوائب الانحياز • وعلى الرغـم من نتائج نجاحـه المشهود في حياته ، وممارساته التي أثبت خلالها كفايه ومقدرة ، في الميادين الادارية ، وساحات المعارك العسكرية ، فأن الباحثين أهملوه ، ولم يوفوه حقه •

ان بعض المؤرخين القدماء حاول القاء ظلال من الشك على أعماله الجليلة ، لاسيما انتصاراته العسكرية الحاسمة ، غير أنهـا كانت ظلالا باهتة ، ولم تستطع حجب الحقيقة كلها •

حياة عيسى بن موسى :

هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس عم النبي (ص) • ولد عيسى بن موسى سنتة ثلاث ومائة[(١)] • وكان يقيم بالحميمة[(٢)] مع عمه أبي العباس عبدالله بن محمد[(٣)] • ولما قبض على ابراهيم بن محمد الامام ، ونقل من الحميمة الى دمشق ، وافقـه أبو

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٧ ، ص٥٨٨ •

(٢) الحميمة : بلد من أعمـال عمـان في أطراف الشام كان منزل بني عباس • (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٠٧ •

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٧ ، ص٤٢٣ ، ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٢٣ •

العباس عبدالله بن محمد ، وعيسى بن موسى ، وعبدالله بن علي ، وعدة من مواليهم . وابان ذلك أيقن ابراهيم أنه هالك ، فعهد بمهمة قيادة الدعوة الى أخيه أبي العباس عبدالله بن محمد(٤) .

ان حياة عيسى بن موسى حافلة بالأحداث ، فقد تقاسمت شخصيته متاعب الهموم ، فطبعت سلوكه ، ونحتت عمره . ولقد تفاعلت عدة عوامل في حياته ، لتجعل منه طرازا خاصا ، بين قادة عصره . واذا كانت المؤهلات الخاصة هي اللبنات الاولى التي كونت شخصيته ، فأن اعتزازه بالانتماء الى البيت العباسي ، وشعوره بتجاوز الدهر لأقدار الرجال ، وطموحه بالخلافة ، كل ذلك أسهم بشكل فاعل في صقل شخصيته ، فكان قائدا عسكريا من انطراز المتميز ، يفيض عاطفة ، وحيوية ، وذكاء وفهماً وعدلا . وكان ذا قابليات ادارية كبيرة .

ومع أن النصوص لا تسعفنا كثيرا في متابعة تفاصيل حياة عيسى بن موسى المبكرة فأن ظلالا تكتنف مصادر ثقافته ونشأته الأولى ، الا أن مما لا شك فيه أنه تلقى تعليما جيدا بالنسبة لأبناء جيله . ففي بداية شبابه ، أظهر ميلا نحو معالجة الأمور العامة ، والخوض بها . فيروى (ابن الاثير) قول عيسى بن موسى على أثر خروج أهل بيته من الحميمة يريدون الكوفة : « ان نفراً أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم ، وأهلهم ، يطلبون ما طلبناه ، لعظيمة همتهم ، كبيرة أنفسهم ، شديدة قلوبهم »(٥) .

ونستطيع أن نتلمس المكانة التي كان يتبوؤها عيسى بن موسى لدى

---

(٤) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص‌ص٤٠٠-٤٠١ . الطبري ، تاريخ ، ج٧ ، ص٣٥٨ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٢٧ . انظر : الطبري ، تاريخ ، ج٧ ص٤٢٩ .

أبي العباس ، من أن الأخير أخفى موضوع وصية ابراهيم الامام اليه ، الا عن ثلاثه هم ، أخيه المنصور ، وابن أخيه عيسى بن موسى ، وعمه عبدالله بن علي[٦] • ولما توجس أبو العباس خيفة من بني أمية ، وعلم أنهم يطاردونه ، وبقية أفراد أسرته ، عمل بوصية أخيه ابراهيم الامام فسار الى الكوفة خفيـة ، ومعـه كثير من أهل بيته ، ومنهم عيسى بن موسى ، وأخوه أبو جعفر المنصور ، وابنا أخيه عبدالوهاب ومحمد ، وأعمامه داود ، وعيسى ، وصالح ، واسماعيل ، وعبدالله ، وعبدالصمد ، وابن عمـه داود ، حتى قدموا ظاهرة الكوفـة في صفر سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م[٧] •

اسهامه في ادارة دفة الدولة :

منـذ وقت مبكر من قيـام الدولة العباسية ، عهد الخليفة العباسي الأول ، بادارة ولاية الكوفة وسوادها الى عيسى بن موسى ، الذي أظهر حيوية ومقدرة فائقة في تدبير شؤون هذه الولاية القلقة[٨] • ويبدو أن الخليفة أبا العباس عبدالله بن محمد ، قد تلمس الحذق الاداري عنـد عيسى بن موسى ، وتفانيه في خدمة الدولة الفتية ، لذا أسند اليه امارة الحج سنة ١٣٤هـ / ٧٥١م[٩] • وهي مهمة جد خطيرة ، ذلك أن كثيرا

---

(٦) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص٤١٠ •

(٧) الطبـــري ، تاريخ ، ج٧ ص٤٢٣ • ابن الاثير ، الكـــامل ، ج٤ ص٢٣٣ •

(٨) ابن خياط ، تاريخ ابن خياط ، ج٢ ص٤٣٨ •
الطبـــري ، تاريخ ، ج٧ ص٤٥٨ و٤٦٧ • ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٢٤ و٣٤٠ و٣٤٤ •

(٩) ابن خياط ، تاريخ ج٢ ص٤٣٦ و٤٤٠ •
اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج٣ ص١٠٣ •
الطبري ، تاريخ ، ج٧ ص٤٦٥ • أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج١ ص٣٢٩ •

من الخلفاء كان يتولاها بنفسه ، أو يعهد بها الى المقربين اليه ممن يتوسم فيهم الورع والتقوى ، والحنكة السياسية ، والكفاية العسكرية • وفي الأعم الأغلب يكون أمير الحج علوياً أو عباسياً ، يختاره الخليفة بنفسه ، أو بالتشاور مع الرجال المقربين اليه من أفراد الأسرة العباسية الحاكمة ، والقضاة ، والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ، لأن أمير الحج عادة يتقدم موكب الحج حاملا الراية التي يسلمها له الخليفة • ويقوم أمير الحج أيضا بالقاء الخطبة في مكـة المكرمة نيابة عن الخليفة • وفي سنة ١٤٣هـ / ٧٦٠م تولى عيسى بن موسى امارة الحج ، ذلك أن الخليفة المنصور ارتأى أن يسند هذه المهمة أيضا الى ولي عهده[١٠] •

ولما آلت الخلافة الى أبي جعفر المنصور سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م ، اقر عيسى بن موسى على ولاية الكوفة ، الا أنه عزله عنها سنة ١٣٩هـ / ٧٥٦م[١١] • لكن الولاية ما لبثت أن أسندت اليه مجددا[١٢] ، وظل محتفظاً حتى خلافة المهدي الذي أقره عليها أيضا[١٣] •

واستعان ابان ولايتـه على الكوفة بعبدالله بن شُبرُمة الضبي ، فعهد اليه قضاء أرض الخراج ، حيث كان فقيها وشاعرا ، يحضر هـو والقاضي محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى الانصاري عند عيسى بن موسى فيسمران[١٤] •

---

(١٠) ابن خياط ، تاريخ ج٢ ص٤٤٧ • الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥١٦ • ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٦٩ • ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج١ ص٣٥٠ •

(١١) ابن خياط ، تاريخ ص٤٦٢ •

(١٢) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٦٨ •

(١٣) ابن خياط ، ج٢ ص٤٧٩ •

(١٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج٦ ص٢٤٤ •

عيسى بن موسى ولياً للعهد :

في سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م عقد الخليفة أبو العباس عبدالله بن محمد ، لأخيه أبي جعفر المنصور بالخلافة من بعده ، وجعله ولي عهد المسلمين ، ومن بعد أبي جعفر عقد أبو العباس أيضا لولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي ، وكتب العهد بذلك ، وصيّره في ثوب ، وختم عليه بخاتمه وخواتم أهل بيته ، ودفعه الى عيسى بن موسى ، من أجل أن يسبته ، ويسبغ عليه الصفة الشرعية ، وليؤكد تنفيذه(١٥) .

وتشاء الصدف ، أن تحصل وفاة الخليفة أبي العباس ، وولي العهد الأول خارج العاصمة ، حيث كان أميراً للحج في تلك السنة (١٣٦هـ) : الا أن ولي العهد الثاني عيسى بن موسى بادر مسرعاً ، وشخص الى الانبار – عاصمة الخلافة آنئذ – ، وأخذ البيعة لأبي جعفر المنصور ، بعد اتمام تجهيز الخليفة المتوفى . ومن ثم كتب الى المنصور يعلمه بوفاة الخليفة أبي العباس والبيعة له(١٦) . وكان الناس بمكة قد بايعوا لأبي جعفر لما وردهم نعي الخليفة أبي العباس(١٧) .

وبثبات ، ورباطة جأش ، أتم عيسى بن موسى مبايعة الناس لأبي جعفر ، ثم أرسل أبا غسان يزيد بن زياد – وهو حاجب أبي العباس – الى عبدالله بن علي في الشام ، يخبره بوفاة الخليفة ، وبيعة المنصور ، حسب وصية الخليفة المتوفى ، ويأمره بأخذ البيعة للمنصور من أهل الشام(١٨) .

---

(١٥) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧٠ . ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٤٧ . ابن خلدون ، تاريخ ج٣ ص١٨٠ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص٢٦١ . ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٢ ص٧ .

(١٦) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧١ . ابن خلدون ، تاريخ ج٣ ص١٨٠

(١٧) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٤٧ .

(١٨) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧٤ .

وكان عبدالله بن علي ، قد قاد جيشا من أهل الشام لغزو الصائفة ، غير أنه لما أبلغ بوفاة أبي العباس ، عاد الى الشام مسرعاً ، وقد بايع لنفسه[19] . ومهما يكن من أمر ، فأن عيسى بن موسى قد أعد خطة بارعة ، وضع من خلالها يده على بيوت الأموال ، والخزائن ، والدواوين ، منتظراً قدوم الخليفة الجديد ليسلم اليه الأمر كاملا[20] .

ويصل ركب الخليفة الجديد ليفاجأ بتمرد عمه عبدالله بن علي ، الذي كان يرى أنه أحق بالخلافة من المنصور ، وان الخليفة العباسي الأول كان قد انتدبه لمحاربة آخر خلفاء الامويين مروان بن محمد . ذلك أن أبا العباس كان قد دعا بني أبيه ، فأرادهم على المسير الى مروان بن محمد فقال : « من انتدب منكم فسار اليه فهو ولي عهدي . فلم ينتدب [له] غيري »[21] . ومن هنا برر عبدالله بن علي خروجه على أبي جعفر المنصور . الا أن الأخير قفل من الحجاز مسرعا ، واستطاع أن يعالج الأمور بحكمة وبعد نظر . ذلك أنه ارتأى أن يعالج تمرد عبدالله بن علي عن طريق أبي مسلم الخراساني ، والحسن بن قحطبه الطائي ، ومالك بن الهيثم الخزاعي[22] ، الذي كان على المقدمة[23] .

وكان الحسن بن قحطبة الطائي[24] قد وافى أبا مسلم ، وأسهم

(19) اليعقوبي ، تاريخ ج٣ ص١٠٦ . الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧٤ . ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص‌ص٣٤٧-٣٤٨ . أبو المحاسن ، النجوم ص١ ص٣٣٣ .

(20) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٤٨ .

(21) اليعقوبي ، تاريخ ج٣ ص١٠٦ . الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٣٢ و٤٧٤ . ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٤٨ .

(22) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٤٨ .

(23) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧٥ .

(24) كان خليفة المنصور بأرمينية .

معه في ملاحقة عبدالله بن علي[25] ، اذ كان الحسن بن قحطبة على ميمنة جيش الخلافة ، في حين كان خازم بن خزيمة على ميسرته . وكانت الحرب سجالا بين الطرفين ، الى أن استطاعت جيوش الخليفة المنصور أن تلحق الهزيمة بجيش عبدالله بن علي ، وبذلك تخلص المنصور من أكبر منافس له[26] .

والذي يهمنا من الأمر ، أو ولي العهد عيسى بن موسى لم يظهر له دور بارز في النزاع الذي دار بين الخليفة المنصور ، وبين منافسه عبدالله بن علي ، الا ما أشار اليه (ابن الاثير)[27] حين ذكر أن عمه عبدالصمد بن علي ، الذي كان في صفوف جيش عبدالله بن علي ، اضطر الى أن يلجأ الى ابن أخيه والي الكوفة عيسى بن موسى ، فاستاء منه عند انهزام جيش عبدالله بن علي امام جيش المنصور[28] . وبلا ريب ، فأن هذا الموقف أحدث احراجاً كبيراً لولي العهد ، الا أنه استطاع ان يتلمس له مخرجاً ، فأكرم وفادة عمه عبدالصمد ، وحباه وكساه . وفي الوقت نفسه التمس الصفح عنه من الخليفة المنصور ، الذي قدر لولي عهده تصرفه السليم في هذا الموقف المحرج[29] .

موقف عيسى بن موسى من تجاوزات أبي مسلم :

ان وجود ولي العهد عيسى بن موسى في الكوفة ، أبعده قليلا عن

(٢٥) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧٦ .

(٢٦) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧٧ . ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص ص٣٤٩ـ ٣٥٠ .

(٢٧) الكامل ج٤ ص٣٥٠ .

(٢٨) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧٨ . أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج١ ص٣٣٣ .

(٢٩) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٧٨ . ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٥٠ .

مسرح الأحداث الساخنة التي شهدتها السنوات الأولى من خلافة أبي جعفر المنصور . فيروي (الطبري)[٣٠] أن أبا مسلم الخراساني تقدم فأتى الانبار بعد رجوعه من مكة بعيد وفاة الخليفة أبي العباس ، « فدعا عيسى بن موسى الى أن يبايع له »[٣١] ، فرفض عيسى هذا العرض . ويضيف ابن أعثم الكوفي[٣٢] ، عن رواية يحيى بن عبدالله الهاشمي ، أنه لما بايع الناس للمنصور « أقبل أبو مسلم الى عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس فقال له أبو مسلم : لم قعدت عن هذا الأمر بعد أبي العباس ، وأنت للخلافة أهل ومحل ؟ . فقال عيسى بن موسى : ويحك يا أبا مسلم ، انما نحن بنو عم ، فأينا صار اليه الأمر فهو محل . فقال أبو مسلم : صدقت ، وأنت أخير لنا من أبي جعفر ، فأن شئت خلعناه وعقدنا لك البيعة : فغضب عيسى بن موسى » .

وهنا أثبت عيسى بن موسى أنه ليس من الانصاف أن يزاحم عمه ، أو يتقدم عليه ، وهو شيخ كبير ، وصنو لأبيه ، ويمتلك مؤهلات القيادة ، لذلك رفض هذا العرض باباء ، ولم تطاوعه نفسه أن يكون مخالفاً للخليفة الشرعي . ولعل أدرك ضراوة النوايا البعيدة التي كان يرمي من ورائها أبو مسلم ، كما أنه استشعر قسوة الصراع الذي أخذ يثيره أبو مسلم[٣٣] .

وابان احتدام الصراع بين الخليفة المنصور وبين أبي مسلم ، وتبادل الرسائل بينهما ، أخذ أبو مسلم يتوجس خيفة من أبي جعفر المنصور . فأراد الأخير أن يطمئنه ، فلم يجد أصلح من ولي عهده عيسى بن موسى ،

---

(٣٠) تاريخ الرسل ، ج٧ ص٤٨٠ .
(٣١) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٥٠ .
(٣٢) كتاب الفتوح ج٨ ص٢١٣ .
(٣٣) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٥١ .

ليحمل رسالته هذه[٣٤] ، لكي تسكن هواجس القائد الذي أضمر للخليفة شراً ، وهنا يتعرض عيسى بن موسى لموقف محرج جديد ، حيث وجد نفسه وسط أحداث متلاطمة • وعلى الرغم من أن انتماءه الأسري ، وقدسية البيعة التي في عنقه ، تحتمان عليه أن يكون بجانب الخليفة الشرعي ، الا أنه لم يستطع أن يجاهر بموقفه هذا ، لان مجاهرته تلك قد سفسد عليه مهمة حمل رسالة الخليفة ، وتحبط خططه بعيدة المدى ، التي أظهرت الأيام والحوادث صوابها[٣٥] • هذا فضلا عن أن اعلان عدائه للقائد المتمرد قد تكلف ولي العهد حياته حين حمل رسالة الخليفة • وحينئذ وجد ، أن لابد من كظم غضبه[٣٦] •

ويخيل لي ، أن ما كان يدور في فكر ولي العهد عيسى بن موسى ، بعيد كل البعد عن خطط ونوايا الخليفة المنصور ، وبخاصة تلك التي بيتها تجاه أبي مسلم الخراساني • ففي الوقت الذي أعد الخليفة العدة للتخلص من أبي مسلم ، واتفق مع وزيره أبي أيوب المورياني ، وعثمان ابن نَهِيْك ، وأربعة من الحرس الخاص بالخليفة ، منهم شبيب بن واج ، وأبو حنيفة حرب بن قيس ، الذين أمرهم بقتل القائد المتمرد اذا صفق بيديه ، وتركهم خلف الرواق •

في هذا الوقت كان أبو مسلم يتناول طعام الغداء مع عيسى بن موسى في منزله[٣٨] • واستبعد أن يكون لولي العهد علم بخطط ونوايا الخليفة • ويصعب علينا أن نؤول وجود عيسى بن موسى مع أبي مسلم

(٣٤) اليعقوبي ، تاريخ ج٣ ص١٠٦ • الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٨٣ •
(٣٥) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٥١ •
(٣٦) اليعقوبي ، تاريخ ج٣ ص١٠٦ • ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٥١ •
(٣٧) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٨٩ و٤٩٠ •
(٣٨) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٥٤ •

الذي كانت تحاك حوله شراك الخليفة والمقربين منه ، من باب التمويه والخداع ، لان ولي العهد لم يرتق بعد الى هذا الحد من المهام الصعبة التي تتطلب ، فيما تتطلب ، رباطة جأش ، وفرائس قوية ، ربما ينوء عيسى بن موسى يحملها حينذاك لكن القرائن تشير الى أنه ما زال لعيسى بن موسى رأي جيد بأبي مسلم ، ذلك أن ولي العهد كان قد دخل على الخليفة المنصور مستفسرا عن أبي مسلم ، الا أن الخليفة انتهره قائلا : « يا أحمق ، والله ما أعلم في الأرض عدواً ، أعدى لك منه ، ها هو ذا في البساط . فقال عيسى : انا لله ، وانا اليه راجعون . وكان لعيسى فيه رأي . فقال المنصور : خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك ، أو سلطان مع أبي مسلم »[٣٩] . وكان ذلك في سنة ١٣٧هـ / ٧٥٤م .

اسهامات عيسى بن موسى الحربية :

لقد كان عيسى بن موسى متفانياً في خدمة الدولة الفتية ، لذا تألق نجمه منذ بداية قيام الدولة العباسية ، فأثبت جدارة ومقدرة فائقة في انجاز المهام الصعاب التي كانت توكل اليه ، فبعد خطبة أبي العباس الأولى في جامع الكوفة ، ومبايعة الناس له بالخلافة ، قرر ارسال ابن أخيه عيسى بن موسى على رأس جيش لمؤازرة الحسن بن قَحْطبة الطائي ، وهو يومئذ يحاصر آخر ولاة الأمويين يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري بواسط فتعاون عيسى والحسن في الحاق الهزيمة بأبن هبيرة ، واستقر الأمر في أرض السواد لصالح الدولة العباسية[٤٠] .

ويتولى عيسى بن موسى اخماد حركة محمد بن عبدالله « ذي النفس الزكية » . الذي تتواتر الروايات التاريخية في حصول خروجه بالمدينة

(٣٩) ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٣٥٥ .
انظر : الطبري ، تاريخ ج٧ ص٤٨٩ و٤٩٢ .
(٤٠) الطبري ، تاريخ الرسل ج٧ ص٤٣١ . ابن الاثير ، الكامل ج٤ ص٤٢٦ .

في الأول من شهر رجب سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م[٤١] . وفي رواية أخرى أنه خرج لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة[٤٢]، وكانت أول خطوة اتخذها الخليفة المنصور ، أنه بادر مسرعا نحو الكوفة ليجثم على صدرها ، ومن ثم أحفف المدينة بالمسالح تحسباً مما قد يخرج منها[٤٣] .

وتبادل الرسائل الطويلة بين محمد بن عبدالله ، والخليفة المنصور ، ذلك أن الخليفة حاول جاهداً صد محمد بن عبدالله عن الخروج على ارادة الدولة ، واحداث الفتنة . حيث أعطاه عهد الله وميثاقه ، وذمة رسوله (ص) ، باذلا له الوعود والمواثيق الغليظة ، بالصفح عنه ، وعن أولاده ، وأخوته ، وأهل بيته ، وكل من بايعه واتبعه ، أو دخل في شيء من أمره ، وممنياً اياه بالامان والاقامة في أي مكان يشاء ، وأن يطلق سراح أهل بيته ممن هم في السجون ، وباذلا له مائة الف لف درهم ، وما سأل من الحوائج ، ان هو عدل عن هذا الأمر[٤٤] .

غير أن محمد بن عبدالله رفض كل هذه العروض ، وأصر على الخروج والمطالبة بالخلافة ، وكعادة المنصور ، لم يتسرع في اتخاذ القرارات الصعبة ، الا بعد مشاورة عدد كبير من ذوي الرأي والدراية ، والحنكة . وان مشاوراته هذه امتدت لتشمل عمه عبدالله بن علي وهو في سجن الخليفة[٤٥] .

---

(٤١) ابن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ج٢ ص٤٤٩ . ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٤ـ٥ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص٢٦١ .

(٤٢) الطبري ، تاريخ الرسل ج٧ ص٥٥٧ .

(٤٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص٣٠٣ . الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٦٥ .

(٤٤) الطبري ، تاريخ الرسل ج٧ ص٥٦٦ . ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٥ـ٦ .

(٤٥) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٤ .

ان المكانة الخاصة التي كان يتمتع بها محمد بن عبدالله (النفس الزكية) ، جعلت الخليفة ينظر الى هذا الأمر نظرة في منتهى الجدية ، فدعا ابن اخيه وولي عهده عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس ، وندبه لمسير الى المدينة لقتال محمد بن عبدالله[٤٦] ، وهو ابن ثلاث وأربعة سنة[٤٧] ، وضم اليه أربعة آلاف من الجند ، وبعث معه محمد بن أبي العباس أمير المؤمنين السابق[٤٨] . وقال الخليفة لولي عهده : « امض أيها الرجل ، فوالله ما يراد غيري وغيرك ، وما هو الا أن تشخص أنت ، أو أشخص أنا »[٤٩] ، فسار ، وسير معه الجنود ، وجعل في مقدمته حميد بن قحطبة الطائي ، وعلى ميمنته محمد بن أبي العباس (الخليفة السابق) ، وعلى ميسرته داود بن كرّاز ، وعلى ساقته الهيثم بن شعبة[٥٠] ، وكثير بن حصين العبدي ، وغيرهم . وجهزهم بالخيل والبغال والسلاح والميرة[٥١] . وقال الخليفة لولي عهده حين ودعه : « يا عيس : اني أبعثك الى ما بين هذين ، وأشار الى جنبيه ، فأن ظفرت بالرجل فاغمد سيفك ، وابذل الأمان »[٥٢] .

وتظهر لنا أولى اجراءات عيسى بن موسى العسكرية وخططه في

---

(٤٦) ابن خياط ، تاريخ ج٢ ص٤٤٩ . الدينوري ، الاخبار الطوال ص٣٨٥ . البغدادي ، الفرق بين الفرق ص٣٧ . ابن خلدون ، تاريخ ج٣ ص١٩١–١٩٢ .

(٤٧) الطبري ، تاريخ الرسل ج٧ ص٥٨٨ .

(٤٨) ن.م ، ص٥٧٧ .

(٤٩) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٨ .

(٥٠) الطبري ، تاريخ الرسل ج٧ ص٥٨٨ . ابن خلدون ، تاريخ ج٣ ص١٩٢ .

(٥١) ن.م ، ص٥٧٩ .

(٥٢) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٨ .

تشتيت صفوف عدوه ، محاولا ابعاد أنصار محمد بن عبدالله عنه ، وبعثرتهم ، لكي يحدث تخلخلا في صفوفه الداخلية ، وعندئذ ينفذ من بين تلك الفجوات التي قد تحدث من جراء هذه الخطوة • وعندما وصل القائد عيس بن موسى فَيْد(٥٣) ، واقترب من المدينة المنورة ، رأى من المناسب أن يكتب الى ذوي المكانة والرأي ، منهم : عبدالعزيز بن المطلب المخزومي ، وعبيدالله بن محمد بن صفوان الجمحي • وكتب الى عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب يأمره بالخروج من المدينة فيمن اطاعه ، فخرج هو وعمر بن محمد بن عمر ، وأبو عقيل محمد بن عبدالله بن محمد بن عقيل ، وغيرهم(٥٤) •

واصل القائد عيسى بن موسى سيره باتجاه المدينة حتى نزل (الاعوص)(٥٥) ، وكان محمد بن عبدالله قد أمر بحفر خندق حول المدينة ، اسوة بما فعل ارسول صلى الله عليه وسلم ، ثم جمع الناس وأخذ عليهم الميثاق وخطبهم ، وذكرهم بأحقيته في تولي أمر المسلمين ، ثم بدا له أن يأذن لمن يريد منهم أن يظعن • فخرج عدد كبير بذراريهم وأهليهم الى الاعراض والجبال ، مؤثرين السلامة ، وخاطب محمد بن عبدالله أهل المدينة قائلا : قد حللتكم من بيعتي ، فمن أحب المقام فليقم ، ومن أحب الانصراف فلينصرف ، فتسللوا حتى « بقي في شرذمة ليست بالكثيرة »(٥٦) •

(٥٣) فيد : بلدة صغيرة قرب المدينة •
(انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ص٢٨٢) •
(٥٤) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٧٩ •
ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٨ •
(٥٥) الأعوض : موضع قرب المدينة • (ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ص٢٢٣) •
(٥٦) الطبري ، تاريخ ج٧ ص ص٥٨٢ـ٥٨٣ • ابن الاثير ، الكامل ، ج٥ ص٨ •

ولما أصبح جيش عبس بن موسى على بعد ميل تقريبا من المدينة أخذ يضع الخطط الدقيقة . فتلمس أن الخيل لا عمل لها مع الرجالة ، وخشي ان كُشف جيشه أن يدخل العدو بين صفوفه . فارتأى ان يتأخر الفرسان الى سقاية سليمان بن عبدالملك بالجرف(٥٧) ، وهذا الموقع على أربعة أميال من المدينة . اذ وضع في تقديره ان الراجل لا يستطيع أن يهرول أكثر من ميلين ، واذا ما تجاوز ذلك فحتماً سوف يصل الى موضع الفرسان متعباً . وفي هذه الحال يصعب عليه المنازلة والقتال ، وعندئذ يكون من السهولة على الفرسان القضاء عليه(٥٨) .

واقتضت خطة القائد عيسى بن موسى أن يرسل خمسمائة رجل الى بطحاء ابن أزهر التي تقع على ستة أميال من المدينة ، فأقاموا بها . وقد اتخذ هذه الخطوة تحسباً من احتمال أن ينهزم محمد بن عبدالله ، ويحتمي بمكة فيرده هؤلاء المقاتلون ، ويسدوا عليه طريق الفرار(٥٩) . كما انزل ثلة من جنده بوادي القرى لتمنع ميرة الشام من الوصول الى المدينة والجيش المتمركز فيها . وفي حاله نجاح هذه الخطة سيموت جيش محمد بن عبدالله جوعاً وهو في مكانه(٦٠) .

ووضع عيسى بن موسى نصب عينيه ضرورة افشال محاولة محمد ابن عبدالله هذه ، والقضاء عليها في مهدها ، وقبل أن تتسع دائرتها ، وتمتد الى مناطق أخرى . فأرسل قائد الجيش العباسي عشرة من آل أبي طالب منهم : القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ، وعبدالله بن محمد

---

(٥٧) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة باتجاه الشام . (انظر : ياقوت ، معجم البلدان ج٢ ص١٢٨) .
(٥٨) الطبري ، تاريخ ج٧ ص ص٥٨٣ـ٥٨٤ .
(٥٩) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٩ .
(٦٠) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٧٨ .

بن محمد فقـال : « من انتدب منكم فسار اليـه فهو ولي عهدي • فلـم وعبدالله بن اسماعيل بن عبدالله بن جعفر ، فأنطلقوا حتى سوق الحطابين ، الى محمد بن عبدالله (النفس الزكية) ، يدعونه للرجوع عما هو عليه ، ويذكرونه بأن الخليفة المنصور قد أمنه وأهله ، ان هو انصرف عن هذا الأمر وعاد الى حضيرة الدولة • الا أن محمداً رفض عرض عيسى بن موسى ، وأصر على مقاومة الجيش العباسي الزاحف[61] • وعنـدها أيقن القائد عيسى بن موسى ، أنه لابد من المنازلة ، وقال : « ليس بيننا وبينه الا القتال »[62] • غير أنه بادر الى خطوة جديدة حيث نزل بالجرف لاثنتي عشـرة من رمضان سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م ، وأرسل من ينادي : « يا أهل المدينة ، ان الله حرم دماء بعضنا على بعض ، فهلموا الى الأمان ، فمن قام تحت رايتنا فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن دخـل المسجد فهو آمن ، ومن القى سلاحه فهو آمن ، ومن خرج من المدينة فهو آمن »[63] ، غير أن جل أهل المدينة لم يستجيبوا لندائه[64] •

وازاء ذلك ، ارتأى القـائد عيسى بن موسى أن يعيـد في خططه ليواجه الاحداث (المواقف) التي استجدت • فأقتضت خطته الجديدة أن يورع قواده وجنده توزيعا جديدا بحيث يشمل سائر جبهات المدينة ، ليشددوا الخناق حولها ، في حين أخلى ناحية مسجد أبي الجراح ، لكي يفسح المجال أمام من يريد أن يهرب من جند عدوه • وهنا يظهر أن عيسى بن موسى لم يكن يرغب أن يلحق خسائر كبيرة بأهـل المدينة ، كما أنه غير راغب في اراقة مزيد من الدماء ، ذلك أن هذا القائد كان يريد

(٦١) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٨٧ •
(٦٢) ابن الاثير ، الكامل في٥ ص٩ •
(٦٣) ن٠م •
(٦٤) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٨٦ •

أن يحقق انتصارا حاسما على عدوه بأقل التضحيات[٦٥] .

ومع ذلك حصلت مناوشات بين الفريقين ، وسقطت ضحايا من الجانبين ، وقاتل محمد بن عبدالله قتال الأبطال . وحينئذ أصدر عيسى بن موسى أمره الى القائد حميد بن قحطبة الطائي ، فتقدم في مائة شخص (مقاتل) ، كلهم راجل سواه ، فزحفوا حتى بلغوا جداراً دون الخندق ، فهدم القائد حميد وجنده الجدار ، وانتهى الى الخندق ، ونصب عليه أبواباً ، وعبر هو وأصحابه عليها ، فجاوزوا الجندق ، وقاتلوا من ورائه أشد قتال[٦٦] .

ولكي يعزز موقف حميد بن قحطبة وجنده ، أمر عيسى بن موسى أن تردم أجزاء من الخندق ، وتطرح بها حقائب الأبل ، وجعل الأبواب عليها ، فأصبح باستطاعة الخيل اجتياز الخندق ، فأقتل الطرفان قتالا شديدا ، واشتد الضغط على محمد بن عبدالله وجنده ، ونصحه أحد المقربين اليه بأن يتجه الى مكة لأن فيها عددا من أصحابه ومؤيديه ، وحينئذ ينعزز مركزه . الا أن محمد بن عبدالله رفض قبول هذه النصيحة[٦٧] ، كما ناشده آخر أن يذهب الى البصرة ، الا أنه آثر البقاء في المدينة والمقاومة فيها حتى لو كلفه ذلك حياته[٦٨] ، ولم يزل يقاتل حتى قتل في ١٤ رمضان سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م[٦٩] .

ومهما يكن من أمر ، فأن اخفاق محمد بن عبدالله عد نصرا بيناً للقائد العباسي عيسى بن موسى ولي العهد . وتستطيع أن تقدر عظمة هذا

---

(٦٥) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٩ .

(٦٦) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٩ . ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٩ .

(٦٧) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٩١ .

(٦٨) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص١٠ .

(٦٩) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٩١ و٥٩٧ . المسعودي ، التنبيه والاشراق ص٣٤١ . ابن الاثير ، الكامل ج٥ صص١٠-١١ .

النصر اذا ما علمنا أن جيش محمد بن عبدالله بلغ أربعين الف مقاتل[٧٠] • وفي الوقت نستطيع أن تتلمس أن القـائد عيسى بن موسى كان يتعـامل بنوازع وجدانية وانسانية ومبدئية ، أثرت في نفوس الناس ايما تأثير ، اذ انه عمل على ايقاف اراقة دماء جديدة فبعث « بألوية فوضع على باب أسماء بنت حسن بن عبدالله واحـد ، وعلى باب العباس بن عبدالله بن الحارث آخر ، وعلى باب محمد بن عبدالعزيز الزهري آخر ، وعلى باب عبيدالله بن محمد بن صفوان آخر ، وعلى باب دار عمر والغفاري آخر • وصاح مناديه : من دخل تحت لواء منها ، أو دخل دارا من هذه الدور فهو آمن »[٧١] •

أقام عيسى بن موسى في المدينة المنورة عدة أيام ، ثم شخص صبح تسع عشر ليلة خلت من شهر رمضان يريد مكة المكرمة معتمرا ، ومزهوا بالنصر الذي حققه[٧٢] ، الا أن مهمات عسكرية جديدة أخرى تحول دون اتمام العمرة التي نوى عيسى بن موسى أداءها •

عيسى بن موسى ينتدب لمهام قتالية جديدة :

وفي موقف آخر تتضح أمامنا مقدرة عيسى بن موسى ، وكفايته العسكرية ، واخلاصه للخليفـة المنصور ، وتفانيه في الذود عن حياض الدولة العباسية • اذ ما يكاد ولي العهد عيسى بن موسى ينفض من على منكبيه غبـار المعركة الضارية التي خاض غمارها ضد محمد بن عبدالله النفس الزكية ، حتى تأتيه رسل الخليفة المنصور ، يأمره بضرورة العودة مسرعا ، اذ قال له : « فأقبل ودع كل ما أنت فيه »[٧٣] ، لان ابراهيم

(٧٠) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٥٩٦ •
(٧١) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٦٠٠ •
(٧٢) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص١٣ •
(٧٣) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٦٣٩ •

أخا محمد بن عبدالله قد خرج في البصرة ، وأحكم سيطرته عليها ، ولم تجد الامدادات التي بعثها الخليفة المنصور الى والي البصرة سفيان بن معاوية[٧٤] ، الذي مالأ على أمره ، واستسلم لابراهيم بن عبدالله ، بعد أن أعطاه الأخير الأمان ، فصفت البصرة له[٧٥] ، ووجد في بيت مال البصرة الفي ألف درهم ، فتعزز موقفه ، وفرض لاصحابه خمسين خمسين[٧٦] .

وكان الخليفة المنصور قد أرسل عامر بن اسماعيل المسلحي في خمسة آلاف ، وقيل في عشرين ألفا ، لقتال ابراهيم بن عبدالله . الا أن هذا الجيش اللجب لم يستطع أن ينهي حركة ابراهيم ، الذي ما فتىء يجبي الأموال ، ويعين العمال ، ويجيش الجيوش ، ويثبت وطأته[٧٧] ، ويوسع من دائرة نفوذه نحو الكوفة والأحواز وواسط وكسكر ، وعظمت جموعه ، وسار يريد الكوفة[٧٨] ، على الرغم من علمه بنعي أخيه محمد[٧٩] .

وكعادة المنصور ، رمى كل ناحية بحجرها ، اذ وجه عيسى بن موسى الى ابراهيم بن عبدالله في خمسة عشر ألف مقاتل[٨٠] . ويظهر أن ثقة

---

(٧٤) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص١٧ . البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص١٤٧ .

(٧٥) الطبري ، تاريخ ج٧ ص ص٦٣٤-٦٣٥ . البغدادي ، الفرق بين الفرق ص١٥١ .

(٧٦) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص١٧ .

(٧٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج٥ ص١٧ .

(٧٨) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص٣٤١ .

(٧٩) الطبري ، تريخ ج٧ ص٦٣٤ و٦٣٦ و٦٣٨ . ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٢ ص٤ .

(٨٠) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص١٨ .

الخليفة المنصور بعيسى بن موسى عالية ، ذلك أن الطبري[٨١] أورد رواية مفادها ان المنصور قال : « ووجهت اليهم الشهم النجد الميمون عيسى بن موسى ، في كثرة من العدد والعدة ، واستعنت بالله عليه ، واستكفيته اياه » • وكان على مقدمة جيش عيسى بن موسى ، حميد بن قحطبة الطائي في ثلاثة آلاف مقاتل[٨٢] • أما غريمه ابراهيم فتذكر رواية ابن الاثير[٨٣] أن ديوانه قد أحصى مائة ألف مقاتل ، ونه كان يعوّل كثيرا على مائة الف سيف من أهل الكوفة ، ينتظرون صيحة به واحدة ، فيثبون على عسكر الخلافة[٨٤] • وبذلك قرر ابراهيم الزحف شمالا ، ومعه عشرة آلاف مقاتل ، فنزل باخَمْرة ــ وهي من الكوفة على ستة عشر فرسخا ــ • وعندئذ تقاتل الجيشان قتالا شديدا • ويروى الطبري[٨٥] ، أن جيش ابراهيم أكثر عددا من جيش عيسى بن موسى ، ثم أن ابراهيم أقبل في عسكره يدنو ، ويدنو غبار عسكره ، حتى أخذ يراه عيس ومن معه ، حيث كان يشرف على المعركة الحامية الوطيس • ولما وجد أن قسما من جيشه أخذ يتراجع ، تقدم نحوهم ، وصار يحثهم على الثبات ، ويناشدهم الله والطاعة « فلم يبق مع عيسى الا نفر يسير • فقيل له : لو تنحيت عن مكانك حتى تؤدب اليك الناس فتكربهم • فقال : لا أزول عن مكاني هذا أبدا حتى أقتل ، أو يفتح الله على يدي • والله لا ينظر أهل بيتي الى وجهي أبدا وقد انهزمت عن عدوهم • وجعل يقول لمن يمر به : أقرىء أهل بيتي السلام ، وقولوا لهم : لم أجد فداء أفديكم

(٨١) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٦٤١ •
(٨٢) الطبري ، تاريخ ج٧ ص٦٤٢ • ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص١٨ •
(٨٣) الكامل : ج٥ ص١٨ • انظر : الطبري ، تاريخ ج٧ ص٦٤٢ •
(٨٤) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص١٨ •
(٨٥) تاريخ ج٧ ص٦٤١ و٦٤٥ •

به أعز من نفسي وقد بذلتها دونكم »[٨٦] .

أي ايمان أعمق من هذا الايمان ؟ ، وأية تضحية أعلى من هـذه التضحيه التي يقدمها ولي عهد الخلافة العباسية الذي كان بوسعه أن يعيش بقـرب الخليفة ، قابعـا بالسلامة ، ويرسـل لجيوش لاخماد الأصوات المعارضة تندما يتعالى صجيجها . الا أن ولي العهد عيسى بن موسى ، رجل المبادىء والمهام الصعبة ، لم يكن من هذا الطراز من الحكام ، وانما كان يفضل أن يخوض غمار المعارك الطحنة بنفسه ، غير آبه للعواقب التي قد تلحقها به مثل هذه المواقف الحرجه .

ان ثبات القائد عيسى بن موسى ، ووقفته البطولية هذه ، رجحت كفة جيشه ، اذ استدار اثنان من قادة جيشه ـ أحدهما حميد بن قحطبة ، وأصبحا خلف جيش ابراهيم ، فظن هؤلاء أن هناك قتال شديد وراءهم ، فعطفوا نحوه ، فاستطاع أصحاب عيسى بن موسى أن يلتقطوا أنفاسهم ، ويكروا ثانية على جيش ابراهيم ، الذي أخذ يتراجع[٨٧] ، لاسيما بعد أن جرح قائده ابراهيم بن عبدالله . لـكن عيسى بن موسى شـد هـو وجيشه على عدوه ، وقاتلوهم أشد قتال ، حتى استطاعوا قتل ابراهيم يوم الاثنين لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائة ، فانهزم أصحابه وتشتتوا[٨٨] .

---

(٨٦) ابن الاثير ، الكـامل ج٥ ص١٩ . انظـر : الطبري ، تاريخ ج٧ ص٦٤٥ .

(٨٧) المسـعودي ، التنبيـه والاشـراف ص٣٤١ . الطبري ، تاريخ ج٧ ص٦٤٦ . ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص١٩ .

(٨٨) الجريب : هو مقياس لمساحة الارض ، يساوي شرعا ١٠٠ قصبة مربعة . وبذلك يكون الجريب ١٥٩٢ متر مربع . (هنتز ، المكاييل والاوزان ص٩٦) .

لقد استقبل الخليفة المنصور نبأ هزيمة جيش ابراهيم بغبطة كبيرة ، حتى أنه كافأ مخبره بهذا النبأ العظيم ، حيث أقطعه الفي جريب بنهر حويزة . وبعد أن أدى ولي العهد عيسى بن موسى هذه المهمة الصعبة ، عين سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي واليا على البصرة ، واتجه الى الكوفة ، اذ كان واليا عليها(٨٩) .

رجل المواقف الصعبة أمام تحد جديد :

لم يزل عيسى بن موسى على ولاية العهد وامارة الكوفة منذ أيام الخليفة العباسي الأول أبي العباس عبدالله بن محمد . وعلى الرغم من تكليف ولي العهد قيادة حملات عسكرية كبيرة وذات شأن وأهمية كبيرتين ، وبعيدة عن مركز ولايته ، الا أنه بقي محتفظا بالامارة على هذه الولاية البالغة الأهمية . وما زال الخليفة أبو جعفر المنصور يكرمه ، ويجلسه عن يمينه ، في حين يجلس ابنه محمد المهدي عن يساره(٩٠) . ولعل المنصور ما زال معترفا له بعظم الخدمات (المهمات) الجليلة التي قدمها للدولة ، والمهمات الخطيرة التي استطاع أن ينهض بها ، والتي كان له الفضل في درئها ، وأبعاد شرها ، الذي كاد أن يقوض كيان الدولة العباسية الفتية .

غير أن الخليفة المنصور أراد أن يستأثر بالحكم لنفسه ، وأولاده من بعده . ولدينا ثلاث روايات تناولت هذا الموضوع ، أولاها تؤكد أن الخليفة المنصور فاتح ولي عهده عيسى بن موسى في خلع نفسه ليفسح المجال في تقديم محمد بن المهدي بن المنصور عليه . وتذكر الرواية أن ولي العهد بادر بسرعة الى رفض هذه الفكرة ، وتمسك بحقه الشرعي ،

(٨٩) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٢٠ .
(٩٠) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٢٢ .

غير آبه بالجفاء الشديد والسافر الذي أخذ يلاقيه من الخليفة ، الذي لم يكن يتوقع أن يقابله ولي عهده بهذا الموقف ، فيرفض طلبه بقوة واباء •
وبقي ولي العهد متحملا الاهمال المتعمد من الخليفة ، الذي صار يأذن لولده المهدي ، قبل ولي العهد ، ويسمح له بالجلوس عن يمينه ، ثم يأذن لعيسى بن موسى ليدخل فيجلس الى جانب المهدي ، ولم يجلس عن يسار المنصور ، فاغتاظ منه أكثر ، وعندئذ أخذ الخليفة يأذن لابنه ، ولعميه عيسى بن علي ، وعبدالصمد بن علي ، وبعدئذ يأذن لولي العهد عيسى بن موسى • ولم يكتف المنصور بذلك ، بل أوعز الى من ينثر عليه التراب عند دخوله على الخليفة • ومع ذلك تحمل عيسى بن موسى هذه الاهانات على مضض[91] •

ثم عمد الخليفة الى ارسال عمه عيسى بن علي الى عيس بن موسى ليقنعه بالتنازل عن ولاية العهد ، الا أن ولي العهد لم يكترث به ، واتهمه بسوء النية[92] •

وفي رواية أخرى ، أن المنصور أمر أن يسقى عيسى بن موسى بعض ما يتفه ، فأحس بالأمر ، فمرض مرضا شديدا ، واستأذن في العودة الى بيته في الكوفة ، فأذن له ، الا أنه ما لبث أن شفي[93] •

ويورد (ابن الاثير)[94] رواية تفيد أن عيسى بن علي قال للمنصور ان عيسى بن موسى متشبث بولاية العهد على أمل أن تنتقل الخلافة الى ابنه موسى من بعده • وان ابنه يلح عليه بضرورة مقاومة الضغوط • غير أن عيسى بن موسى ما لبث أن تراجع عن موقفه المتصلب هذا ، ووافق

(91) ن•م ص٢٣ •
(92) ن•م • ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٢ ص٧ •
(93) ابن الاثير ، الكامل ، ج٥ ص٢٣ •
(94) الكامل ج٥ ص٢٣ •

على أن يتقدم عليه محمد المهدي بولاية العهد ، عندما أيقن أن الربيع بن يونس الحاجب يحاول خنق ابنه موسى • فانقاذا لحياة ولده • قال : « يا أمير المؤمنين ، هذه يدي بالبيعة للمهدي »[٩٥] • وهكذا تقدم محمد المهدي بن المنصور بولاية العهد ، ثم جعل عيسى بن موسى بعده ، وحدث ذلك سنة ١٤٧هـ / ٦٧٤م[٩٦] •

وقيل أن الخليفة المنصور دفع (حرض) بعض الجند الى أن يتندروا على ولي العهد عيسى بن موسى ويمعوه ما يكره في بذيء الكلام ، فشكا أمره الى الخليفة ، الا أن الأخير أفهم ولي العهد ، أن الجند يميلون الى تقديم المهدي عليه في ولاية العهد ، ولو تم ذلك لكفوا عن ايذائه • وازاء ذلك وافق على أن يتقدم عليه محمد المهدي في ولاية العهد[٩٧] •

وفي رواية أخرى أن خالد بن برمك ذهب الى عيسى بن موسى ومعه ثلاثون نفراً ، ففاتحوه في أمر تقديم محمد المهدي عليه • الا أن عيسى بن موسى رفض هذا العرض رفضا قاطعا • غير أن هؤلاء رجعوا الى المنصور وشهدوا على عيسى بن موسى ، أنه خلع نفسه فبايع المهدي • الا ان عيسى أنكر هذا الادعاء ، فلم يسمع منه[٩٨] • والرواية الأخيرة التي يرويها لنا (ابن الاثير ٥/٢٤) ، حول قضية تنازل عيسى بن موسى ، تفيد أن الخليفة المنصور دفع لولي عهده عيسى بن موسى أحد عشر ألف ألف درهم ، له ولأولاده ، وأشهد على نفسه بالخلع • وفي أثر ذلك عزل المنصور عيسى بن موسى عن ولاية الكوفة بعد أن ظل يتقلد هذا المنصب

---

(٩٥) ن٠م •

(٩٦) ابن خياط ، تاريخ ج٢ ص٤٥٢ • السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٢٦١ •

(٩٧) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٢٣ •

(٩٨) ن٠م ص٢٤ •

ثلاث عشرة سنة . في حين أورد الثعالبي ، ان المنصور دفع لعيسى بن موسى الف الف درهم فقط[99] .

وأخال أن الخليفة أبا جعفر المنصور كان يحيك الدسائس ليوقع بولي عهده منذ وقت مبكر ، ذلك أن اليعقوبي[100] ، وابن الاثير[101] ، كانا قد أوردا حكاية مفادها ، أن الخليفة المنصور سلم عمه عبدالله بن علي الى عيسى بن موسى ، وأمره بقتله ، وقال له : « ان الخلافة صائرة اليك بعد المهدي ، فأضرب عنقه ، واياك أن تضعف »[102] ، ثم مضى الخليفة الى مكة ، وقد أخبر الخليفة أن عيسى بن موسى نفذ وصيته . فلما اعاد ، أوعز الى أعمامه من يحركهم على الشفاعة في أخيهم عبدالله بن علي ، ففعلوا وشفعوا ، فاستجاب الخليفة لطلبهم (لشفاعتهم) ، وطلب من عيسى بن موسى أن يرد عمه عبدالله بن علي لأنه صفح عنه ، الا أن عيسى بن موسى أخبر الخليفة أن عبدالله بن علي قتل بناء على طلبه . فاغتاظ المنصور ، وهم بقتل عيسى ، الا أن الأخير فاجأهم بأن عبدالله بن علي ما زال حياً ، ولم يقتل ، وبهذا الموقف فت في عضد الخليفة الذي أبقى عمه عبدالله بن علي محجوزا الى أن لاقى حتفه[103] .

وكان الخليفة المنصور قد جدد البيعة لابنه المهدي ، ومن بعده

---

(99) الثعالبي ، لطائف المعارف ص٢٢ . الذهبي ، دول الاسلام ج٦ ص٢١٥ .

(100) تاريخ اليعقوبي ج٣ ص١٠٨ .

(101) الكامل ج٥ ص١٤ .

(102) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٢٤ .

(103) انظر : اليعقوبي ، تاريخ ج٣ ص١٠٨ . ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٢٤ .

لعيسى بن موسى[١٠٤] . ويروى (ابن الاثير)[١٠٥] ، أنه في سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م قبض الخليفة المنصور على عباد مولاه ، وعلى هرثمة بن أعين بخراسان ، واحضرا الى بغداد مقيدين لتعصبهما لعيسى بن موسى ، وتأييدهما له لنيل الخلافة . وحتى يعزز الخليفة مركز ابنه المهدي وولي عهده الجديد ، عهد اليه بامارة الحج سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م[١٠٦] .

ومنذ أن تقدم المهدي بن الخليفة المنصور في ولاية العهد على عيسى بن موسى ، سكتت رواياتنا التاريخية عن ذكر عيسى ، ولم تتعرض له الا لماما . ولعل ذلك يعود الى موقف الخليفة غير الودي منه . ومع ذلك فقد كان الخليفة ملزما بقبول شفاعة ابن عمه وولي عهده .

ذكر (ابن الاثير)[١٠٧] ان الخليفة غضب على اخيه العباس بن محمد ، وعزل عن امارة الجزيرة الفراتية ، وغرمه مالا . ولم يزل ساخطا عليه حتى شفع له عيسى بن موسى ، فصفح عنه المنصور سنة ١٥٥هـ / ٧٧١م .

عيسى بن موسى يرافق الخليفة في حجه :

كان الخليفة المنصور قد عزم على الحج سنة ١٥٨هـ / ٧٧٤م ، واصطحب معه عددا كبيرا من الأسرة العباسية ، وفي طليعتهم ابن أخيه عيسى بن موسى ، وعمه عيسى بن علي ، وموسى بن المهدي وغيرهم . ولما وصل ركب الخليفة الى بئر ميمون[١٠٨] أدركته الوفاة لست خلون

---

(١٠٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٢ ص١٦ .
(١٠٥) الكامل ج٥ ص٣٧ .
(١٠٦) ن٠م .
(١٠٧) ن٠م ص٣٨ .
(١٠٨) بئر ميمون : يقع قرب مكة . (انظر : ياقوت ، معجم البلدان ج٤ ص٧١٩) .

من ذي الحجة سنة ١٥٨هـ / ٧٧٤م وكان مولاه الربيع ، الذي أعلم عمه عيسى بن علي ، وابن أخيه عيسى بن موسى بالأمر ، قد تولى أخذ البيعة للمهدي ولعيسى بن موسى من بعده . وتمت هذه البيعة على يد موسى الهادي بن المهدي . فلما فرغ من بيعة بني هاشم بايع القواد ، وبايع عامة الناس ، ممن حضر ، ثم ساروا الى مكة لأخذ البيعة هناك ، فبايع الناس بين الركن والمقام ، ثم جهز المنصور ، وصلى عليه عيسى بن موسى ، ودفن في مقبرة المعلاة[١٠٩] سنة ١٥٨هـ / ٧٧٤م[١١٠] .

ويروي (ابن الاثير)[١١١] « أن عيسى بن موسى أبى من البيعة ، فقال له عي بن عيسى بن ماهــان : والله لتبايعن أو لأضربن عنقك » ، فبايع ، ثم وجه موسى بن المهدي والربيع الى المهدي بخبر وفاة المنصور ، وبالبيعة له ، وبعثا أيضا بالقضيب وبردة النبي (ص) ، وبخاتم الخلافة .

موقف عيسى بن موسى من خلافة المهدي :

وصل خبر وفاة المنصور الى المهدي ، كما وصل القضيب ، والبردة والخاتم ، في منتصف ذي الحجة من عام ١٥٨هـ / ٧٧٤م . وأخذ الخليفة الجديد يدير الأمور بكفاية وهمة عاليتين .

ومنذ وفاة المنصور سنة ١٥٨هـ حتى بداية عام ١٦٠هـ حصل تعتيم متعمد على ولي العهد عيسى بن موسى ، اذ سكتت النصوص ، ولم تظهر له أي نشاط ، في أي جانب من وجوانب الحياة المتعددة . ويبدو أن

---

(١٠٩) مقبرة المعلاة : تقع بين مكة وبدر (انظر : ياقوت ، معجم البلدان ج٤ ص٥٧٧) .

(١١٠) ابن خياط ، تاريخ ج٢ ص٤٥٨ . ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٤٤ .

(١١١) ابن الاثير ، الكامل ص٥٠ .

الخليفة تحمل ولي عهده سنين كي يثبت نفسه في دست الحكم ، ويصفي حسابه مع من بقي في السجن منذ عهد أبي جعفر المنصور • فلما استتبت له الأمور ، واستقرت أركان الدولة ، التفت الى من حوله • ولعل أولى الأولويات التي كان على الخليفة المهدي ان يبت فيها هي مسألة ولاية العهد ، وموقفه من عيسى بن موسى بالذات •

وتشير رواياتنا التاريخية ، أن جماعة من بني هاشم ، والمقربين الى الخليفة خاضوا في مسالة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادي بن المهدي[١١٢] • وأحسب أن خوض هؤلاء في هذه المسألة الخيرة ، لم يكن مصادفة ، ولم نراودهم الاحلام بصورة عفوية ، وانما المسألة لها مقدماتها وأبعادها التي كان يجب على هؤلاء معها أن يضعوا نصب أعينهم كل التدابير الاحترازية المتاحة ، والا فت في عضدهم، واحبطت نواياهم ، وخابت أحلامهم •

وتذكر النصوص ، ان هذه التخرصات لاقت هوى وقبولا ، لا بل ترحيبا من لدن الخليفة المهدي • وليس من المستبعد أن يكون الخليفة وراء تحريك هؤلاء الخائضين • ذلك أن (ابن الاثير)[١١٣] ذكر صراحة أن الخليفة المهدي سره هذا التوجه « وكتب الى عيسى بن موسى بالقدوم عليه ، وهو بقرية الرحبة ، من أعمال الكوفة • وأحسب أن ولي العهد عيسى بن موسى أحس بالذي يراد منه ، فأمتنع من القدوم[١١٤] •

ومهما يكن ، فقد انصاع عيسى بن موسى مضطراً لرغبة الخليفه

(١١٢) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٥٤ •
(١١٣) الكامل ج٥ ، ص٥٤ •
(١١٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٢ ص٣٥ •

المهدي ، وخلع نفسه من ولاية العهد وعندئذ فسح المجال أمام المهدي لأن يبايع لابنه موسى بولاية العهد من بعده سنة ١٥٩هـ ، ثم بايع لابنه الثاني هارون بعد موسى • وتقديرا لموقف عيسى بن موسى هذا منحه الخليفة المهدي عشرة آلاف الف درهم(١١٥) ، وبذلك يكون عيسى بن موسى قد استبعد نهائيا عن منصبه الذي كان قد عهد به اليه منذ عام ١٣٤هـ • الا أنه بقي محتفظا بولاية الكوفة حتى وفاته سنة ١٦٧هـ(١١٦)•

ويبدو أن الخليفة اعترف بأفضال عيسى بن موسى ، ومواقفه البطولية التي أسداها للدولة العباسية ، ولتي أسهمت في ارساء أسس هذه الدولة على قواعد متينة • لذا بادر الخليفة المهدي باسناد ولاية الكوفة الى موسى بن عيسى بن موسى ، وما كان لأبيه من أعمال ، وفاءً لأبيه وهو في مثواه الأخير(١١٧) •

وبعد فأن استجلاء شخصية عيسى بن موسى تقرر لنا صورة يمكن أن نرصد فيها اقتدارا مميزا في المواقف الحدية ، لا يطالعنا ما يضاهيه على الصعيد السياسي • فالرجل الذي رأيناه يحسم مواقف حربية صعبة ، وينتزع فيها النصر من بين عوامل الهزيمه ، لا يقدم ما يقنعنا بنمط الاقتدار نفسه في الموقف السياسي الذي فرض فرضا حين انتزعت منه ولاية العهد • وما يدرينا لعل العوامل الخارجية تبقى هي المسؤولة عن هذا التناقض الذي لا تفضل أن تعزوه الى العامل الشخصي دون دليل تاريخي موثق •

---

(١١٥) اليعقوبي ، تاريخ ج٣ ص١٢٣ • السيوطي ، تاريخ ص٢٧٣ • ابو المحاسن ٢/٣٦ •
(١١٦) ابن الاثير ، الكامل ج٥ ص٦٩ •
(١١٧) اليعقوبي ، تاريخ ج٣ ص١٣٧ •

أهـم المصادر

ابن الاثير ـ علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الحرزي (ت ٦٣٠هـ)

١ ـ الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت : ١٩٦٧ .

ابن أعثم الكوفي ـ أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ)

٢ ـ كتاب الفتوح ، ط١ ، دار الندوة الجديدة ، بيروت .

ابن خلدون ـ عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)

٣ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت : ١٩٥٧ .

٤ ـ مقدمة ابن خلدون ، بغداد (طبع مكتبة المثنى) .

ابن خياط ـ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ)

٥ ـ تاريخ خليفة بن خياط ، مطبعة الآداب ، النجف ١٩٦٧ .

ابن دحية ـ عمر بن حسن بن علي المعروف بذي النسبين (ت ٦٣٣هـ)

٦ ـ النبراس في تاريخ بني العباس ، مطبعة المعارف ، بغداد : ١٩٤٦ .

ابن سعد ـ محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ)

٧ ـ الطبقات الكبرى ، ٩ أجزاء ، ليدن ، بريل : ١٣٢٢هـ .

ابن الطقطقي ـ محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ)

٨ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدولة الاسلامية ، مصر ١٣٤٠هـ .

ابن كثير ـ عمادالدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)

٩ ـ البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ١٩٣٢ .

أبو المحاسن ـ جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي (ت ٨٧٤هـ)
١٠ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة : ١٩٥٦ .
البغدادي ـ أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ)
١١ـ الفرق بين الفرق ، القاهرة : ١٩٤٨ .
البلاذري ـ أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)
١٢ـ فتوح البلدان ، ط١ ، القاهرة ١٩٠١ .
الثعالبي ـ عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ)
١٣ـ لطائف المعارف ، القاهرة . ١٩٦٠ .
الجهشياري ـ محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)
١٤ـ الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ .
الدينوري ـ أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ)
١٥ـ الاخبار الطوال ، ط١ ، القاهرة ١٩٦٠ .
الذهبي ـ أبو عبدالله محمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨هـ)
١٦ـ دول الاسلام ، حيدر آباد الدكن ١٣٦٤هـ .
١٧ـ العبر في خبر من غبر ، الكويت ١٩٦١ .
السيوطي ـ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)
١٨ـ تاريخ الخلفاء ، بغداد ١٩٨٣ .
الطبري ـ محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)
١٩ـ تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ .
مؤلف مجهول ـ (القرن الثالث الهجري)
٢٠ـ أخبار الدولة العباسية ، وفيه أخبار العباس وولده ، مطابع دار صادر ، بيروت ١٩٧١ .

المسعودي ـ علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ)
٢١ـ التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٦٥ .
٢٢ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٣٠٣هـ .

ياقوت ـ أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ)
٢٣ـ معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٥٥ .

اليعقوبي ـ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢هـ)
٢٤ـ تاريخ اليعقوبي ، منشورات المكتبة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٤ .

« صور من دور واسط العسكري وصمودها »

٨١ ــ ٦٥٦هـ / ٧٠٠ ــ ١٢٥٨م

الدكتور عبدالقادر سلمان المعاضيدي
كلية التربية ــ جامعة بغداد
قسم التاريخ

صمود واسط أمام جيش المشرق :

عندما جاء الاسلام بدأ وعي قومي جديد على الأرض العربية ، وقد ارتبط هذا الوعي بتأسيس أول دولة عربية موحدة في جزيرة العرب ، وعندما انشأ العرب دولتهم الموحدة هذه كانت هناك أجزاء كبيرة من وطنهم الكبير تحت السيطرة الأجنبية ، فالعراق واليمن تحت الاحتلال الفارسي ، وبلاد الشام وشمال أفريقية تحت الاحتلال البيزنطي ، فأصبح بذلك تحرير الأرض العربية المحتلة هدفا مركزيا في سياسة الدولة العربية ، وقد أراد الرسول العربي محمد (ص) ان يدخل هؤلاء في الدين الجديد سلماً ، فبعث برسائل الى رؤساء الدول التي كانت تمارس الاحتلال في الوطن العربي يدعوهم فيها للايمان بالمبادىء الانسانية التي جاء بها الاسلام ، الا ان دعوة الرسول (ص) لم تلق استجابة وقبولا من قبل هؤلاء الحكام لانهم وجدوا فيها خطرا يهدد مصالحهم ، وكان رد كسرى ملك الفرس أعنف ردا وأسوأ مما فعله ملك الروم ، فقد فرق كتاب الرسول (ص) وأرسل الى (باذان) نائبه في اليمن يأمره بأن يلقي القبض على الرسول (ص) وارساله اليه مكبلا ، فأصبحت حالة الحرب

هي الوسيله الوحيدة لتحرير الأرض العربية من المحتلين الأجانب ، وقد خاض الجيش العربي معارك ضارية مع المحتلين الفرس أظهر فيها المقاتلون العرب مقدرة قتالية عالية أدت الى انتصارهم في هذه المعارك ، وبالتالي تحرير العراق من السيطرة الفارسية(١) .

وفي أثناء تحرير العراق تطلبت حركات التحرير العربية في هذه الجبهة انشاء معسكر في القسم الجنوبي من العراق ليكون مركزا لتجمع الجيش العربي القادم من الجزيرة العربية ، ومركزا لتموين وانطلاق الجيش العربي للقتال في جبهة الأحواز ، والحيلولة دون قيام امدادات عسكرية فارسية من منطقة البصرة والأحواز الى قواتهم في بقية أنحاء العراق ، وتأمين مؤخرة الجيش العربي الذي كان يقاتل الفرس في مناطق أخرى في العراق من التفاف عسكري من قبل الفرس في هذه الجبهة ، فتم انشاء مدينة البصرة سنة ١٤هـ(٢) .

وبعد ان انتصر الجيش العربي في معركة جلولاء سنة ١٦هـ / ٦٣٧م وتم تحرير العراق بأكمله أحست القيادة العربية بضرورة انشاء معسكر آخر في القسم الأوسط من العراق وذلك لتأمين السيطرة الكاملة عليه والدفاع عنه ، ثم ليكون مركزا لتجمع الجيش العربي والاستقرار فيه وقت السلم .

والانطلاق منه لمواصلة حركات التحرير العربية ، فتم انشاء الكوفة سنة ١٧هـ(٣) .

ان القيادة العربية ـ على ما يبدو ـ لم يكن هدفها في الجبهة الشرقية حينذاك سوى تحرير العراق والأحواز من السيطرة الفارسية ، فقد ذكر الطبري انه بعد ان تم تحرير الأحواز استأذن الجيش العربي الخليفة عمر بن الخطاب (رض) القائد العام للقوات المسلحة العربية بمواصلة

حركات التحرير رد الخليفة عليهم بقوله « حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأحواز ، وددت أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون الينا منه ولا نصل اليهم » وبعد ان انتصر الجيش العربي في معركة جلولاء سنة ١٦هـ / ٦٣٧م كتبوا الى الخليفة بتحرير جلولاء ، وبنزول القائد العربي القعقاع بن عمرو التميمي حلوان واستأذنوه بمواصلة قتال الفرس ، فكان جواب الخليفة عمر (رض) : « لوددت ان بين السواد (يعني العراق) وبين الجبل سدا لا يخلصون الينا ولا نخلص اليهم ، حسبنا من الريف السواد ، اني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » ، ولما طلب منه مقاتلة الكوفة التقدم في الأراضي الفارسية قال لهم : « وددت أن بينهم وبين الجبل جبلا من نار لا يصلون الينا منه ، ولا نصل اليهم »[٤] . الا ان اصرار ملك الفرس وقادته على مقاومة الجيش العربي ، ومكاتبتهم لأهل فارس والأحواز لتحشيد القوى العسكرية والقيام بهجوم معاكس على الجيش العربي أدى الى تغيير خطط القيادة العربية وعزمها على دخول الجيش العربي في عمق الأراضي الفارسية ، فأمر الخليفة عمر (رض) في سنة ١٨هـ / ٦٣٩م الجيش العربي في العراق « بطلب جيوش فارس حيث كانت » على ان يتوجه مقاتلة البصرة لفتح اقليم فارس ، وكرمان واصبهان ، وان يتوجه مقاتلة الكوفة لفتح أصبهان ، واذربيجان ، والري وبعد ان تم فتح هذه الأقاليم من قبل مقاتلة هاتين المدينتين ، ثم عقد اتفاقيات بين أهل هذه الاقاليم والقادة العرب نظمت بموجبها الادارة العربية هناك[٦] . الا ان الفتنة التي حدثت في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) (٢٣ ـ ٣٥هـ / ٦٤٣ ـ ٦٥٥م) أدت الى توقف حركات التحرير العربية في المشرق ، كما حالت الفتن التي قامت في عهد الخليفة علي بن أبي طالب (رض) (٣٥ ـ ٤٠هـ / ٦٥٥ ـ ٦٦٠م) دون استمرارها .

ومع ان العرب كانوا قد حرروا شعوب هذه الأقاليم مما كانوا فيه

كانوا قد انتهزوا فرصة انسحاب القوات العربية من المشرق وذلك من ظلم واستغلال ، واستعباد في ظل دوله كسرى الفارسية نجد ان هؤلاء لاشتراكها في هذه الفتن ، فسيطروا على الأقاليم التي فتحها الجيش العربي ، واخرجوا عمال الدولة العربية منها وامتنعوا عن دفع الخراج الى الدولة العربية ، وموقفهم هذا سببه هو ان الفرس كانوا قد وقفوا من الاسلام موقف العداء ومنذ البداية ، وانهم دخلوا بالدين بعد ان عجزوا عن مقاومته ، وبدون ان يؤمنوا به ، وكان هدفهم ، وما يزال ، هو العمل من داخل الاسلام على القضاء على السيادة العربية باسم الدين وبحجة التمسك به والدعوة اه(٧) •

والظاهر ان خروج أهل المشرق على طاعة الدولة العربية وغدرهم بالعمال العرب ، والحاميات العسكرية العربية مرات عديدة هناك ، وانضمام اعداد كبيرة منهم الى حركة الخوارج المعارضة للدولة العربية ، واتخاذ هذه الحركة من المشرق مقرا لها أدى بالخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ / ٦٨٤ – ٧٠٥م) ان يقرر حسم الموقف في المشرق ، فبعد ان تمكن من القضاء على حركات المعارضة وأعاد وحدة الدولة العربية ، أقصى في سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد عن ولاية خراسان ، وسجستان • وضمها الى امير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومنحه صلاحيات واسعة لحل مشاكل المشرق ، وأمده بالجند(٨) •

وبما ان الكوفة ، والبصرة كانا لا يتسعان لجميع الجيش العربي في العراق قرر الحجاج بناء مدينة جديدة تكون معسكرا لجنده ، ومقرا لحكمه ، فأمر ببناء مدينة واسط سنة ٨١هـ / ٧٠٠م في موضع متوسط بين الكوفة ، والبصرة ، والمدائن في واحواز ، وقريب من المشرق ، ليتمكن من السيطرة على العراق ، ويستأنف حركات التحرير العربية

في المشرق[٩] .

ولما تم بناء المدينة أنزل فيها الجيش العربي الذي كان يتألف من القبائل العربية التالية : شيبان ، سدوس ، يشكر ، بنو ذهل ، عبدالقيس ، تغلب ، ربيعة ، بنو محارب ، قريش ، مزينة ، أشجع ، باهلة ، ثقيف ، فزارة ، هلال ، أسد ، بنو سليم ، عبس ، هذيل ، مخزوم ، ضبة ، تميم ، بنو العنبر ، مازن ، فقيم ، عامر ، بنو عقيل ، الأزد ، عتيك ، خزاعة ، غسان ، همدان ، طي ، حمير ، رحبة ، كلاع ، جذام ، كندة ، بنو حسان ، مرة ، لخم ، بجيلة ، خثعم ، نخع ، بنو الحارث ، أسلم ، بهراء ، تنوخ ، جهينة ، قين[١٠] .

وأصبحت هذه المدينة مركزا لتجمع الجيش المصري ، ومركزا لانطلاق الجيش العربي الى الساحات الشرقية ، ومركزا لادارة العراق ، والخليج العربي والمشرق الاسلامي .

لقد لعب مقاتلة واسط الى جانب مقاتلة الكوفة والبصرة دورا متميزا حركات التحرير العربيه في المشرق ، حيث تمكنوا من اعادة الاقاليم التي خرجت على طاعة الدولة العربية وفتح أقاليم أخرى بعد ان خاضوا معارك ضارية هناك . ففي سنة ٨٣هـ / ٧٠٢م وجه أمير العراق وقائد الجبهة الشرقية الحجاج بن يوسف الثقفي قائده محمد بن القاسم الثقفي الى اقليم فارس ، وكان الفرس قد نقضوا اتفاقهم مع العرب ، وبعد ان خاض الجيش العربي معارك ضارية هناك تمكن من اعادة هذا الاقليم الى طاعة الدولة العربية ، وقد انشأ القائد محمد مدينة شيراز واتخذها مركزا لادارته[١١] .

وفي نفس هذه السنة وجه الحجاج قائده يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي الى خراسان ، فسار في سنة ٨٤هـ / ٧٠٣م وفتح باذغيس

بعد ان خاض معركة ضارية مع المدافعين عنها ، ثم تقدم في سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م على رأس جيشه وفتح خوارزم[١٢] .

وفي سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م ولى الحجاج القائد قتيبة بن مسلم الباهلي عاملا على خراسان وضم اليه جيشا وقال له : « انزل خراسن فجاهد الكفار الذين بها من الترك ، والسغد ، والرقس (كذا) وكن بها الى ان يأتيك أمري ان شاء الله قوة الا بالله » . فتوجه قتيبة في هذه السنة وفتح الصفانيان ، وآخرون وشومان . وفي سنة ٨٧هـ / ٧٠٥م تقدم قتيبة وفتح « بيكند » . وبعد ان فتح قتيبة « راميثنة » أمره الحجاج ان يفتح « بخارى » فتوجه اليها الا انه لم يتمكن من فتحها ، فلما رجع الى « مرو » كتب الى الحجاج بذلك ، فكتب اليه الحجاج أن يصور أرض المعركة ، فلما بعث اليه بصورتها ، رسم له الحجاج الخطة العسكرية لفتحها ، وهي ان يفتح « كسن » و « نسف » ثم يتوجه الى فتح « بخارى » على ان يسير بطريق مستقيم الى هذه المدن ، متوجه قتيبة سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م وفتح « بخارى » . وفي هذه السنة تقدم قتيبة على رأس جيشه وفتح « الطالقان » ، و « الفارياب » ، و « والجوزجان » ، « بلخ ، « سمرقند »[١٣] .

وعندما رأى نيزك طرخان الفتوحات العظيمة التي تمت على يد القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي نقضى العهد الذي كان بينه وبين قتيبة وهرب من جيش قتيبة والتجأ الى قلعة « باذغيس » وأعلن خلعه لقتيبة ، ثم كتب الى كل من أصبهيذ « بلخ » وملوك كل من « مرو الروذ » و « الطالقان » و « الفارياب » و « الجوزجان » وكابل شاه يدعوهم الى خلع قتيبه ومساعدته في قتاله له ، فأجابوا طلبه على الرغم من انهم كانوا على عهد مع ختيبة[١٤] .

توجه قتيبة الى « مرو الروذ » و « الطالقان » و « الفارياب » و « الجورجان » و « بلخ » وادخلهم في طاعة الدولة العربية بعد ان خاض معارك ضارية مع المدافعين عن هذه المدن ، ثم توجه الى قلعة نيزك ، وكانت قلعة حصينة ، فضرب الحصار عليها ، واقام مدة الا انه لم يتمكن من فتحها ، فارسل صورة منطقة القلعة الى الحجاج بواسط ، وربما كان ذلك بطلب من الحجاج ، وبعد ان استشار الحجاج عثمان بن مسعود التميمي واخرين ممن كانوا قد ساهموا في حركات التحرير العربية في المشرق وكانوا على اطلاع تام في هذه المنطقة ، بعث الحجاج بالخطة العسكرية الى قتيبة[١٥] وفي سنة ٩١هـ / ٧٠٩م فتح قتيبة كل من « شومان » و « كس » و « نسف » بأمر من الحجاج[١٦] .

وفي سنة ٩٢هـ / ٧١٠م أمر الحجاج عامله في خراسان قتيبة بن مسلم ان يتوجه الى رتبيل ملك سجستا ، فلما سار اليه قتيبة تقدم رتبيل اليه بطلب الصلح فاستجاب قتيبة لطلبه[١٧] ، وعندما فتح قتيبة « خوارزم » سنة ٩٣هـ / ٧١١م بعث بخبر الفتح وخمس الغنائم الى الحجاج بواسط ، واستأذنه بالتقدم لفتح « سمرقند » ولما سار قتيبة الى « سمرقند » صالحه ملكها بعد معارك ضارية جرت بـ« الطرفين[١٨] وفي سنة ٩٤هـ / ٧١٢م فتح قتيبة « التناش » و « كابل » و « خجندة » و « كاسان »[١٩] . وبعد ان انتهى قتيبه من فتح هذه المدن كتب الحجاج الى قائد جبهة السند محمد بن القاسم الثقفي أن يوجه جيشا من أهل العراق الى قتيبة ، كما وجه الحجاج جيشاً من واسط الى القائد قتيبة[٢٠] .

سار القائد قتيبة على رأس جيشه وفتح « فرغانة » سنة ٩٥هـ / ٧١٣م بعد ان خاض عدة معارك حامية مع ملكها[٢١] ثم تقدم في سنة ٩٦هـ / ٧١٤م وفتح « كاشغر » وهي احدى مدن الصين[٢٢] . وبعد ان فتح الجيش العربي « طرفان » الواقعة في القسم الشمالي من تركستان

الصينية[٢٣] ، ووصلوا الى ولاية « قانو » بعث ملك الصين « يوانغ جونغ » رسالة الى القائد العربي قتتيبه طالبا منه ارسال وفد لمفاوضتهم ، فأنتخب قتيبة اثني عشر فارساً ، وقيل عشرة ، من خيار عسكره ، وأمر بأن يجهزوا بأحسن السلاح والمتاع ، وان يزودوا بأحسن الخيول ، وان يكونوا برآسة هبيرة بن المشمرج الكلابي ثم دعا قتيبة بهبيرة وقال له : « يا هبيرة ، كيف انت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير ! قد كفيت الأدب وقل ما شئت أقله ، وآخذ به ، قال : سيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد ، فاذا دخلتم عليه فاعلموه أي قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم واختم ملوكهم ، واجبي خراجهم » ولما وصل الوفد ، أرسل اليهم ملك الصين لمقابلتهم « فشدوا سلاحهم ، ولبسوا البيض والمغافر ، وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح ، تنكبوا القسي ، وركبوا خيولهم ، وغدوا فنظر اليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما دنوا ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين ، فقيل لهم قبل ان يدخلوا : ارجعوا ، لما دخل قلوبهم من خوفهم » ثم استدعى الملك رئيس الوفد هبيرة الكلابي وقال له : « ... انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له : ينصرف ، فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، والا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه ، قال له : (يعني هبيرة) كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ! وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ! وأما تخويفك ايانا بالقتل ، فأن لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه »[٢٥] .

والظاهر ان القائد قتيبة من خلال قتاله مع أهل الصين رأى ان حالة الحرب هي الوسيلة الوحيدة لفتح الصين ، فقد كان القادة العرب في كل حركات التحرير العربية اذا توجهوا لفتح مدينة يدعون أهلها للدخول في

الاسلام او دفع الجزية او القتال ، فاذا دخلوا في الاسلام يتساوون مع العرب المسلمين في الحقوق والواجبات ، وان لم يسلموا يبقوا على دينهم على ان يدفعوا الجزية لقاء حمايتهم من قبل الدولة العربية والدفاع عنهم ، واذا ما رفضوا الدخول في الاسلام ودفع الجزية عندئذ يكون القتال هو الوسيلة الأخيرة لفتح مدينتهم ، فقد روى الطبري ان ملك الصين عندما قال لهبيرة الكلابي : « فما الذي يرضي صاحبك ؟ قال : انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوككم ، ويعطي الجزية »[٣٦] .

ان وفاة الخليفة الوليد بن عبدالملك سنة ٩٦هـ / ٧١٤م وتولى أخيه سليمان الخلافة من بعده حال دون تحقيق فتح ما تبقى من الصين ، فقد ذكرت المصادر ان سليمان عزل قتيبة عن ولاية خراسان وولى مكانه يزيد بن المهلب بن ابي صفرة الازدي[٢٧] . وكان رد قتيبة على هذا الاجراء انه دعا جيشه لخلع الخليفة ، فانقسم الجيش الى مؤيد له ومعارض ، وقد ترأس المعارضة وكيع بن أبي سود التميمي ، وذلك لأن قتيبة سبق وان أقصاه عن رئاسة قبيلة تميم ، وولى بدله ضرار بن حصين الضبي[٢٨] . فلما جرى القتال بين الفريقين انتهى بمقتل قتيبة وجماعة من أهله ومؤيديه[٢٩] .

والجدير بالذكر هو ان حيان الذي كان على رأس الموالي في جيش قتيبة كان قد لعب دورا كبيرا في اثارة هذه الفتنة ، فقد روى الطبري أنه « قيل لقتيبه : ليس يفسد أمر الناس الا حيان » فأراد قتيبة ان يقتله « فدعا رجلا فأمره بقتل حيان ، وسمعه بعض الخدم ، فأتى حيان فأخبره ، فأرسل اليه يدعوه ، فحذر وتمارضى وأرسل حيان الى وكيع قائلا : « أرأيت ان كففت عنك واعنتك تجعل لي جانب نهر بلخ وخراجه ما دمت حياً وما دمت والياً ، قال (يعني وكيع) نعم » . وفي أثناء القتال قال حيّان

للعجم : « هؤلاء يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضا ، قال : نعم فبايعوا وكيع سرا » وقاتلوا معه[٣٠] .

ويقول البلاذري[٣١] « فقال حيان : يا معشر العجم ! لم تقتلون انفسكم اقتيبة ؟ ألحسن بلائه عندكم ؟ » ويذكر ابن أكثم الكوفي أنه أقبل رجل من موالي بني أسد يقال له يزيد بن مسلم « فجعل يحرض الناس على قتيبة ويذكر من قتله قتيبة منهم ... ويجدد أحقادهم »[٣٢] .

ان موقف الفرس هنا ما هو الا امتداد لمواقفهم العدائية السابقة التي كانت تهدف الى القضاء على السلطة العربية والدين الاسلامي الذي أوصل العرب الى السلطة ، فقد رأوا ان الفرصة مؤاتية للانتقام من قتيبة وجيشه لأنهم يعتبرون هؤلاء هم المسؤولين عن القضاء على ديانتهم المجوسية ، ورفع راية الاسلام والحضارة العربية في ربوع بلادهم .

وقد أدى موت قتيبة كما يقول جب[٣٣] « لا توقفاً للفتوحات في آسيا الوسطى مدى ربع قرن ، ولكن كان بدء انحسار وتراجع » ، فقد أصبح اقليم خراسان واقليم ما وراء النهر أكثر أقاليم الدولة العربية اضطرابا منذ وفاة هذا القائد الفذ حتى نهاية الدولة العربية في العصر الأموي ، رغم ان الامراء الذين تولوا امارة واسط بعد وفاة الحجاج سنة ٩٥هـ / ٧١٣م حاولوا الحفاظ على الانتصارات التي حققها القائد قتيبة في المشرق[٣٤] .

وبعد ان تم فتح هذه المناطق الواسعة في المشرق ، أصبح اقليم السند يجاور آخر حدود الدولة العربية ، فأصبحت هناك ضرورة لاعادة فتح هذا الاقليم بعد ان خرج أهله على طاعة الدولة العربية ، وذلك لتأمين حدود الدول العربية في تلك الجهة ، والقضاء على مصادر تهديدها المحتملة ، فوجه أمير واسط الحجاج بن يوسف الثقفي القائد عبيدالله بن نبهان السلمي على رأس قوة الى السند ، الا انه كان قد استشهد في أحد

المعارك هناك[٣٥] • فلما علم الحجاج وجه قائده بديل بن طهفة البجلي لفتح السند الا ان بديل كان قد استشهد هو الآخر في أحد المعارك هناك[٣٦] •

ويبدو ان حادثتا استشهاد هذين القائدين قد أثرتا في نفس الحجاج قائد الجبهة الشرقية آنذاك فقد ذكر الكوفي ان الحجاج « حزن حزنا شديدا ، واستعد لأخذ الثأر لهما » وكتب كتاب الى ملك السند جاء فيه : « اطلقوا اسرى المسلمين والا فلا أترك أحداً من الكفار الى حدود الصين »[٣٧] •

وجه الحجاج في سنة ٨٩هـ / ٧٠٧م القائد محمد بن القاسم الثقفي على رأس قوة لفتح السند ، وقد وقع اختيار الحجاج عليه نظرا لما عرفه فيه من قابليات عسكرية وادارية عالية[٣٨] وقد هيأ الحجاج لقائده محمد كل أسباب النصر فقد ذكر البلاذري ان الحجاج أمده بستة آلاف مقاتل و « خلقاً من غيرهم » وجهزه بكل ما احتاج اليه ، ورسم له الطريق الذي يسلكه ، وهو طريق الري ـ السند ، ولما وصل السند أمده بالسفن التي كانت تحمل « الرجال والسلاح والأداة »[٣٩] •

سار القائد محمد بن القاسم الثقفي على رأس جيشه في هذه السنة الى مكران • ويبدو أن هذا القائد أراد ان يحشد أكبر قوة عربية ممكنة ، وان يدرس الموقف العسكري ، ويضع الخطط العسكرية اللازمة ثم يتقدم لتنفيذ الهدف الذي سار من أجله ، قد ذكر اليعقوبي أنه أقام بمكران أكثر من شهر ثم تقدم على رأس جيشه وفتح مدينة « فنزبور » وهي احدى مدن السند بعد ان خاض معارك عديدة مع المدافعين عنها استمرت عدة شهور[٤٠] •

ثم توجه بعد ذلك الى مدينة « ارمائيل » وفتحها صلحا[٤١] • وبعد

ان فتح هذه المدينة تقدم لفتح مدينة « الديبل » التي كانت من أعظم مدن السند ـ كما يقول اليعقوبي ـ والظاهر ان المدينة كانت محصنة تحصينا جيدا ، فبعد ان ضرب الجيش العربي الحصار عليها حاول اقتحامها عدة مرات الا انه كان يصطدم بمقاومة عنيفة من قبل المدافعين عنها ، وبعد ان درس القائد محمد الموقف العسكري بعث به الى الحجاج بواسط ليبين رأيه فيه ، فلما وصل كتاب محمد الى الحجاج رسم له الخطة العسكرية الخاصة بفتح المدينة بفتح المدينة ، وبعد ان طبق محمد هذه الخطة تمكن من فتح المدينة ، وقد اختط القائد محمد منازل للعرب فيها وبنى مسجدا ، وترك فيها حامية عسكرية عربية تتألف من أربعة آلاف مقاتل ، كانوا بقيادة وداع بن حميد الأزدي عامل المدينة(٤٧) .

واصل القائد العربي محمد بن القاسم الثقفي حركات التحرير في السند فتقدم على رأس جيشه وفتح مدينة « نيرون » صلحا(٤٣) . وبعد ان فتح عدد من المدن كانت تقع على الضفة الغربية لنهر السند ، عبر النهر وفتح مدينة « سريبدس » صلحاً . ثم سار الى مدينة « سهبان » وفتحها(٤٤) .

ولما بلغت أخبار تقدم الجيش العربي الى « داهر » ملك السند خرج على رأس قواته لملاقاة الجيش العربي ، فدارت بين الطرفين معارك حامية استمرت عدة شهور انتهت بقتل « داهر » وهزيمة جيشه بعد ان قتل منهم عدد كبير في أثناء هذه المعارك(٤٥) . وكان القائد محمد يكتب الى الحجاج بواسط عن قادة جيشه وبلاءهم في المعارك(٤٦) .

واصل القائد محمد مطاردة فلول جيش داهر فتقدم الى مدينة « راور » وفتحها بعد معركة حامية مع المدافعين عنها ، ثم سار وفتح مدينة

« برهمنا باذ » وبعد أن أقام بها ونظم ادارة المدن التي تم فتحها ، أكرم رجال الدين الهنادكة ، واطلق لهم حرية العبادة ، واعمار معابدهم ، ومنحهم الأمان(٤٧) .

سار القائد محمد بعد ذلك وفتح « الرور » و « بضرور » و « ساوندري » و « بسجد » و « السكة » و « الملتان »(٤٨) .

والظاهر ان السياسة الحكيمة التي اتبعها القائد العربي محمد بن القاسم الثقفي ، والتي كانت قائمة على حسن معاملة السكان ، واطلاق حرية العبادة لهم ، وتوطيد الأمن لهم ، كانت لها أبعد الأثر في نفوس هؤلاء السكان ، فعندما أقام هذا القائد في مدينة الملتان قدم اليه وفد يتألف من عدد كبير من سكان المدن المجاورة الذين كانوا يعانون من استغلال واستعباد وظلم حكامهم ورجال دينهم وأعلنوا ولاءهم له ، فأمنهم على أموالهم وانفسهم(٤٩) .

وبعد ان فتح القائد محمد مدينة « البيلمان » ومدينة « سرست » صلحا(٥٠) على رأس جيشه لفتح مدينة « الكيرج » فلما علم حاكمها « دوهر » خرج على رأس قواته لملاقاة الجيش العربي ، فدارت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة جيش « دوهر » وقتله ، وفي ذلك قال الشاعر العربي :

نحن قتلنا داهراً ودوهراً
والخيل تردى منسراً فمنسرا(٥١)

وبعد ان انتهى القائد العربي محمد من فتح بلاد السند كتب الى أمير واسط وقائد الجبهة الشرقية الحجاج بن يوسف الثقفي يستأذنه في التقدم لفتح مملكة « قنوج » فأجابه الحجاج الى طلبه وشجعه على المضي فيما عزم عليه ، وقبل ان يتوجه بقواته الى هذه المملكة أرسل الى ملكها

يدعوه للدخول في الاسلام ، الا ان الملك لم يستجب لطلبه ، فتقدم القائد محمد على رأس قواته و « فتح وظفر » كما يقول الكوفي[٥٢] الا اننا لا نعلم هل فتح جميع هذه المملكة أم لا ؟ وربما الظروف الجديدة التي تعرض اليها هذا القائد حالت دون دلك ، فلما تولى الخلافة سليمان بن عبدالملك بعد وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ / ٧١٤م أمر بعزل هذا القائد وولى مكانه يزيد بن ابي كشه السكسكي[٥٣] .

والجدير بالذكر هنا هو ان حركات التحرير العربية التي تمت على يد القائد العربي محمد بن القاسم الثقفي كانت من أعظم حركات التحرير العربية في تلك الجبهة ، وان القادة العرب الذين تولوا ادارة العمليات العسكرية بعده هناك اقتصرت مهمة معاركهم على اعادة فتح المدن التي كانت تخرج على طاعة الدولة العربية ، أي الحفاظ على الانتصارات التي حققها هذا القائد في تلك الجبهة ، والسبب الرئيس هو ان الخلفاء الأمويين الذين جاءوا بعد الخليفة الوليد بن عبدالملك لم يكن اهتمامهم بأمر حركات التحرير العربية بدرجة اهتمام الوليد الذي أشرك ثلاثة من أولاده في هذه الحركات وهم العباس ، وعبدالعزيز ، وعمر ، كما ان قادة الجبهة الشرقية الذين جاءوا بعد أمير واسط الحجاج بن يوسف الثقفي لم يكونوا حازمين ، ومتابعين لحركات التحرير كالحجاج ، وان القادة الذين تولوا ادارة المعارك في تلك الجبهة لم يصلوا الى عبقرية القائد محمد العسكرية والادارية[٥٤] .

صمود واسط أمام جيش المشرق :

منذ ان ولي يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أميرا على واسط سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥م كان قد انشغل بالأوضاع التي كانت سائدة في المشرق الاسلامي ، فقد كانت هناك عدة قوى مناوئة للسلطة العربية ، ورغم

محاولات عامل خراسان نصر بن سيار الكناني لكسب بعض هذه القوى الى جانبه ومعالجة الوضع هناك ، الا ان محاولاته باءت بالفشل ، مما أدى الى تكتل هذه القوى فيما بينها ، ومن ثم ضعف الحكم العربي هناك ، وبما ان الخليفة مروان الثاني كان مشغولا بقتال الخوارج في اقليم الجزيرة ، فقد عهد الى أمير واسط ابن هبيرة معالجة الوضع في المشرق باعتباره تابعا لادارته(٥٥) .

كن موقف ابن هبيرة من هذه القوى هو انه أراد – على ما يظهر – از يقضي على خطر الخوارج بعد ان انتصر عليهم في العراق قد لجأوا الى المشـرق واستولوا على مقاطعات واسعة هنـاك وطردوا عمال الدولة العربية منها فوجه في سنة ١٢٩هـ / ٧٤٦م قائده نباته بن حنظلة الكلابي على رأس قوة عسكرية الى سليمان بن حبيب بن المهلب الأزدي الذي كان قـد استولى على الأحـواز ، فـدارت معـركة بين الطرفين هزم فيهـا سليمان(٥٦) .

وفي هـذه السنة وجه ابن هبيرة ابنـه داود وقائده عامر بن ضبارة لقتال عبدالله بن معاوية الذي بعد ان فشلت حركته في الكوفة سنة ١٢٧هـ / ٧٤٤م توجه نحو المشرق واستولى على حلوان ، وقومس ، واصفهان ، والري ، وأقام باصطخر ، وكان قد ولى العمال على هذه المقاطعات ، وازداد خطـره بعـد ان اتفق مع الخوارج الذين كانوا تحت زعامـة شيبان بن عبدالعزيز الشيباني فدارت معركة بـ« الطرفين هزم فيها عبدالله بن معاوية ومن معه من الخوارج وسار الى خراسان(٥٧) . وقد زال خطر عبدالله عندما قبض عليه ابو مسلم الخراساني وسجنه ، ومات بسجنه(٥٨) .

أما الخوارج وهم اتباع شيبان بن عبدالعزيز الشيباني فقـد تفرقوا وزال خطرهم بعد ان التجأ زعيمهم شيبان الى عُـمان(٥٩) .

واصل ابن هبيرة قتـاله للخوارج فوجه قائده عامر بن ضبارة لقتال شيبان بن سلمة الحروري الخارجي ، فدارت معركة حامية بين الفريقين انتصر فيها ابن ضبارة . أما شيبان فأنه بعد هزيمته في هذه المعركة هرب الى خراسان واتفق مع علي بن جديع الكـرماني على قتـال عامل الدولة العربية على خراسان نصر بن سيار الكناني(٦٠) .

ولما أعلن العباسيون ثورتهم في ٢٥ رمضان سنة ١٢٩هـ / حزيران ٧٤٧م واستولوا على « مرو » كتب عامل خراسان نصر بن سيار الى أمير واسط يزيد بن هبيرة مبيناً له الموقف العسكري هناك بأعتباره المسؤول عن ادارة الأقاليم الشرقية ، يطلب منه ان يمده بجند من قبله ليساعده على صد هذا الخطر الجديد كما كتب الى الخليفة مروان الثاني يستنجد بـه(٦١) .

ولما وصل كتاب الخليفة مروان الى ابن هبيرة وجه قائده نبـاته بن حنظلة الكلابي على رأس قوة عسكرية كبيرة وعينه عاملا على خراسان بدلا من نصر بن سيار ، وذلك لان ابن هبيرة اعتبر نصر هو المسؤول عن تردي الأوضاع في المشرق ، والانقسام الذي حدث بين القبائل العربية هناك ، سار نباته على رأس جيشه ونزل بجرجان ، فلما علم قحطبة بن شبيب الطائي الذي عين قائداً للجيش المتقدم نحـو العراق ، توجه على رأس قوة الى جرجان ، فلما التقى الفريقان في ذي الحجة سنة ١٣٠هـ / آب ٧٤٧م دارت بينهما معركة حامية قتل فيها نباته وهزم جيشه(٦٢) .

ولما وصلت هذه الأنباء الى ابن هبيرة بواسط أمر ابنه داود وقائده عامر بن ضبارة ان يتوجها من كرمان نحو جيش قحطبة ، فسارا على رأس قوة عسكرية قدّرها البلاذري بخمسين ألف مقاتل ، فألتقى الفريقان عند « جابلق » قرب اصبهان ودارت بينهما معركة ضارية سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م

انتصر فيها جيش قحطبة ، وقتل ابن ضبارة في أثناء هذه المعركة[٦٣] .

واصل ابن هبيرة تصديه لجيش قحطبة الطائي ، فوجه سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م ثلاثة من قادته هم : مالك بن أدهم الباهلي ، والمصعب بن صحصح الأسدي وغطيف السلمي في « خيل عظيمة » الى همدان ، فلما قاربوا همدان بلغهم نزول الحسن بن قحطبة الطائي فيها ، فتوجهوا نحو « نهاوند » وتحصنوا بها ، فلما علم قحطبة الطائي وجه ابنه الحسن للاستيلاء على « نهاوند » ، فحاصرها الحسن وأقام المجانيق عليها ، ثم توجه قحطبة في أثره الى « نهاوند » وبعد حصار دام ثلاثة أشهر وفي رواية أربعة أشهر تمكن قحطبة من الاستيلاء عليها . وكان ابن هبيرة قد وجه قائده عبيدالله ابن العباس الكندي على رأس عشرين ألف مقاتل مدداً لجيشه بنهاوند ، الا انه عندما بلغته أخبار حصار قحطبه لنهاوند كتب هذا القائد الى ابن هبيرة مبيناً له الموقف العسكري ، فأمره ابن هبيرة بالتوجه الى « حلوان » والاقامة بها[٦٥] .

وبعد ان رأى ابن هبيرة بأن قادته لم يتمكنوا من حسم الموقف في المشرق وان جيش قحطبة كان قد وصل الى قرب حدود العراق خرج سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م من واسط على رأس قوة عسكرية كبيرة قدّرها خليفة بن خياط بثلاثة وخمسة الف مقاتل ، ثم سار حتى وصل « جلولاء » وعسكر فيها[٦٦] . أما قحطبة فانه عندما علم بنزول ابن هبيرة بجلولاء أراد ان يتجنب الاصطدام معه فسار حتى وصل « الأنبار » واستولى عليها ثم عبر نهر الفرات وعسكر في غربه في ٥ محرم سنة ١٣٢هـ / آب ٧٤٩م[٦٧] .

ولما بلغت أخبار جيش قحطبة الى ابن هبيرة سار في أثره مسرعا ، وأراد ان يلتقي بجيش قحطبة قبل ان يعبر الفرات ، الا ان قحطبة استطاع ان يعبر الفرات قبل ان يدركه ابن هبيرة[٦٨] ، تابع ابن هبيرة تقدمه نحو

جيش قحطبة ، وعسكر على ضفة الفرات الشرقية عند « الفلوجة »[69] .
ولكي ينفذ قحطبة بقية خطته سار نحو « الكوفة » ، فعندما رأى ابن هبيرة تحرك جيش قحطبة باتجاه الكوفة ، أمر جيشه بالتحرك نحو « الكوفة » أيضا ، وولى حوثرة بن سهيل الباهلي مقدمة جيشه وأمره بالسير الى « الكوفة » للاستيلاء عليها قبل ان يصلها جيش قحطبة ، وكان جيش قحطبة يسير في الجانب الغربي من الفرات ، أما جيش ابن هبيرة فقد كان يسير في الجانب الشرقي منه[70] . وفي ٨ محرم سنة ١٣٢هـ / آب ٧٤٩م عبر جيش قحطبة الفرات والتقى الفريقان في معركة حامية في أرض الفلوجة كان وضع الطرفين فيها بين أخذ ورد الا ان جيش قحطبة كان قد انتصر في آخر المعركة على الرغم من قتل قائده[71] .

واصل ابن هبيرة تقدمه نحو « الكوفة » الا انه لما وصل « سوق أسد » بلغه خبر استيلاء محمد بن خالد بن عبدالله القسري على « الكوفة » ومبايعة أهل الكوفة له ، وطرد عامله منها ، فاتجه بجيشه نحو واسط[72] .
أما جيش قحطبة فقد بايع الحسن بن قحطبة ونصبوه قائداً عليهم ، ثم ساروا الى الكوفة وبايعوا أبا سلمة الخلال الذي وجه الحسن بن قحطبة الى واسط للاستيلاء عليها[73] .

سار الحسن على رأس قوة عسكرية قدّرها الدينوري بعشرين ألف مقاتل وضرب الحصار على مدينة « واسط »[74] . أما مقاتلة واسط فقد كان عددهم عشرين ألف مقاتل ، وكان هؤلاء المقاتلة بأمرة قواد اكفاء أمثال معن بن زائدة الشيباني وحوثرة بن سهيل الباهلي ، ومحمد ابن نباتة الكلابي ، وزياد بن صالح الحارثي وغيرهم .

وكان ابن هبيرة قد حصن مدينة واسط غاية التحصين ، فأدى ذلك الى عدم استطاعة المجانيق والحصراوات التي نصبها الجيش العباسي على

المدينة ان تنال منها شيئاً[٧٦] . أما جيش واسط فقد كان يخرج من أبواب المدنه ، فتدور معارك بينه وبين الجيش العباسي ، كان وضع الطرفين فيها بين أخذ ورد »[٧٧] .

ويبدو ن الخليفة العباسي أبا العباس عندما بلغته أخبار تحصين ابن هبيرة لوسط ، ومنعة أسوارها ، وصمود جيشها امام القوات العباسية المحاصرة للمدينة ، قرر انهاء الحصار والاستيلاء على واسط بأسرع ما يمكن ، فقد جاء في المصادر انه أرسل أخاه أبا جعفر المنصور على رأس قوة عسكرية كبيرة ، وعينه قائدا للجيش العباسي المحاصر لمدينة واسط[٧٨] . علما ان القتال لا زال دائراً بين الجيش العباسي بقيادة عبدالله بن علي ، والجيش الأموي بقيادة مروان الثاني في بلاد الشام[٧٩] .

لقد بقي ابن هبيرة مصمماً على الاستمرار في المقاومة ، ويبدو أنه لم يفكر بطلب الصلح الى ان بلغته أخبار مقتل مروان الثاني ، وقد أشار الطبري الى ذلك فقال[٨٠] : « ولم يطلبوه (يعني الصلح) حتى جاءهم مقتل مروان . كما ان ابا جعفر المنصور سبق ان كاتب القبائل اليمانية المتصمة بواسط ، قائلا لهم : « السلطان سلطانكم والدولة دولتكم » فاستطاع ان يكسب بعضهم الى جانبه بعد ان أعطاهم الأمان[٨١] .

يبدو ان هذه هي أهم الأسباب التي دفعت ابن هبيرة الى ان يتقدم الى ابي جعفر المنصور بطلب الصلح ، فلما اجابه ابو جعفر الى طلبه ، فجرت مفاوضات بين الطرفين ، أعطى بموجبها أبا جعفر أماناً لابن هبيرة ، وكتب به كتابا ، شاور فيه ابن هبيرة العلماء أربعين يوما ثم وافق عليه وأرسله الى أبي جعفر ، فأرسله أبو جعفر الى الخليفة لأخذ موافقته ، وبعد ان وافق الخليفة عليه أمر أبا جعفر بتنفيذه[٨٢] .

والحق ان أبا جعفر أراد ان يفي لابن هبيرة وجيشه ، فبعد ان

بايعه ابن هبيرة سمح لـه بالتردد الى معسكره ، فكان يأتي مع قواده وبعض أفراد جيشه وحرسه ، وذكرت المصادر ان ابا جعفر كان معجباً بابن هبيرة وانه كان يستشيره في بعض القضايا[٨٣] الا ان الخليفة أبا العباس هـو الذي أمـر أبا جعفـر بقتله وذلك بطلب من ابي مسـلم الخراساني الذي كتب الى الخليفة يقـول : « ان الطـريق السهل اذا القيت فيه حجارة فسد ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة »[٨٤] .

ولما قتل ابن هبيرة في ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٢هـ / حزيران ٧٤٩م استحوذ على أموال واسط التي يبدو انها كانت أموالا جسيمة فقد أشار الى ذلك الدينوري فقال : « واحصي في الخزائن من الأموال والسلاح وما بقي من الطعام ثلاثة آلاف الف درهم ، ومن السلاح شيء كثير ، وطعـام ثلاثين األف رجـل ، وعلف عشرين ألف رأس من الدواب سنة »[٨٥] .

صمود واسط امام الزنج :

الزنج جماعة من العبيد السود استقدموا الى العراق من افريقية في العصـر الأموي وذلك بسبب الحاجـة الى الأيدي العاملة في الزراعـة واستصلاح الارضي في منطقة البصرة ، وقد دفعهم حقدهم الشعوبي الى القيام بعدة حركات تمرد على السلطة العربية في العصر الأموي والعصر العباسي في منطقة البصرة والبطائح ، الا ان أخطر هذه الحركات هي التي حدثت سنه ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ، فقد استغل هؤلاء فرصة ضعف الخلافـة العباسية من جراء تسلط القادة العسكريين الأتراك فأعلنوا حركتهم في منطقة البصرة ، وقاد حركتهم في هذه المرة « صاحب الزنج » واسـمه (بهبوذ)[٨٦] وهو فراسي من « ورزنين » وهي قرية من قرى الري ، ولكنه تسمى بمحمد بن علي[٨٧] . وقد ادعى ان الهدف من حركتـه هذه هو رفع منزلة هؤلاء الزنج وتحسين أوضاعهم[٨٨] .

وبعد ان استولوا على منطقة البصرة والأحواز ، وقتلوا أعداداً كبيرة من السكان هناك ، وهاجموا الدور وسبوا النساء والأطفال ، وقطعوا طرق المواصلات بين البصرة وبغداد ، تقدم قائد صاحب الزنج سليمان بن جامع وقاده آخرين على رأس أتباعهم واستولوا على مدن وقرى واسط بعد ان خاض الجيش العباسي معارك ضارية معهم ، تكبد فيها الزنج خسائر كبيرة ، وقد استباح الزنج في أثناء المعارك هذه المدن والقرى وحرقوا عددا منها ، وخربوا الأنهار والمزارع في هذه المنطقة الزراعية المهمة ، وقد ساعد الوضع الجغرافي في البطائح الزنج هذه المعارك ، لأنه حال دون تمكن لجيش العباسي من الحركة بسهولة هناك(٨٩) .

وبعد ان أمد « صاحب الزنج » قائده سليمان بقوة كبيرة تقدم للاستيلاء على واسط ، وقد روى الطبري أن أهل واسط كانوا قد صمدوا أمام الزنج ودارت بين الطرفين معارك ضارية في البر والماء استمرت يوما كاملا ، الا ان الزنج تمكنوا من الاستيلاء على واسط ، واستباحوها وقتلوا وأسروا أعداداً كبيرة من سكانها ، ولم يكتفوا بذلك بل دفعهم حقدهم الشعوبي الى احرق المدينة(٩٠) ، وخرج أهل واسط « حفاة على وجوههم » كما بقول ابن الجوزي(٩١) .

ولما بلغت أخبار استيلاء الزنج على واسط أعد الخليفة الموفق جيشا كبيرا واسند قيادته الى ابنه ابا العباس (الخليفة المعتضد فيما بعد) ، وبعد ان انتصر أبا العباس على قائد الزنج سليمان بن جامع في معركة حامية قتل فيها عدد كبير من الزنج ، سار على رأس جيشه وعسكر بواسط واتخذها مركزا لادارة العمليات العسكرية ضد الزنج . أما الخليفة الموفق فكان هو الآخر قد خرج من بغداد على رأس جيش كبير وسار نحو واسط ، وكان الزنج قد أنشأوا لهم حصنين لهم في منطقة واسط ، الأول اطلقوا عليه اسم « المدينة المنيعة » وكان قرب واسط ، والحصن

الثاني اطلقوا عليه اسم « المدينة المنصورة » كان بجوار « طهيثا » وهي احدى مدن واسط .

سار الموفق وابنه في سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠م واحتلوا « المدينة المنيعة » بعد معركة ضارية مع المدافعين عنها واستنقذوا (٥٠٠٠) أسيرة[٩٢] .

وفي هذه السنة سار الموفق نحو الحصن الثاني ، ولما دخله « استنقذ الموفق من نساء أهل واسط وصبيانهم ، ومما اتصل ذلك من القرى ونواحي الكوفة زهاء عشرة آلاف ... وحملوا الى واسط ودفعوا الى اهلهم »[٩٣] .

لى

تقدم الموفق وابنه ابا العباس لمطاردة فلول الزنج في البطائح والبصرة والاحواز وبعد معارك ضارية هناك تمكنا من القضاء على هذه الحركة التي تركت وراءها آثاراً فضيعة من التدمير والتخريب في العراق[٩٤] .

مقاومة أهل واسط للتسلط البويهي :

لم يكتف البويهيون الفرس بالاستيلاء على أقاليم الدولة العربية في المشرق ، فقد دفعهم حقدهم الفارسي للاستيلاء على عاصمة الخلافة بغداد ، واسقاط السيادة العربية ، وهو هدف فارسي سعى الفرس لتحقيقه منذ ان قضى العرب على دولتهم في عصر صدر الاسلام ، ومنذ سنة ٣٢٨هـ / ٩٣٩م وحتى استيلاء البويهيين بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م اخترق الجيش البويهي حدود العراق الشرقية أربعة مرات واستولوا على المنطقة الممتدة بين البصرة وواسط ، وفي كل مرة كانت تتعرض دور سكان مدينة واسط ومزارعهم الى النهب والتخريب من قبل الجيش البويهي[٩٥] .

وبما ان هدف البويهيين من السيطرة على العراق هو القضاء على

السلطة العربية والحضارة العربية ، فقد أسار هؤلاء ومنذ ان دخلوا بغداد الى رموز هذه السلطة وهم الخلفاء وأسسوا امارة ورائية في قلب الخلافة العباسية في بغداد وأصبح الأمير البويهي هو الحاكم الفعلي ، كما اتبعوا نفس السياسة مع سكان العراق •

أن سياسة البويهيين هذه أدت الى تصدي أبناء العراق لهم ومقاومتهم، فالحمدانيون في شمالي العراق (الجزيرة الفراتية) خاضوا معهم معارك ضارية منذ ان استولوا على العراق ، وفي القسم الأوسط من العراق تصدت لهم قبيلة أسد العربية(٩٧) ، وكان لأهل واسط دورا بارزا في النضال ضد التسلط البويهي في العراق ، حيث قاد المقاومة هناك أحد أبناء واسط هو الثائر عمران بن شاهين السلمي الذي ينتمي الى قبيلة سليم العربية •

لقد استغل لثائر عمران بن شاهين الوضع الجغرافي في بطائح واسط والذي لا يسمح للجيوش المنظمة ان تتحرك بسهولة هناك فاتخذ من تلك المنطقة مقراً لاعلان ثورته ، ومنذ ان أقام مع أبناء قبيلته هناك بدأ يعبر عن رفضه للوجود ابويهي وذلك باعتراض من يجتاز تلك المنطقة من اتباع السلطة البويهية ، ثم أخذ يجمع له الأعوان من أبناء المنطقة لضمهم لى جيشه ، كما اتصل بالبريديين حكام الأحواز ، فقلده أبو القاسم البريدي حماية البطائح ، وبعد ان هيأ الجيش والسلاح أعلن ثورته سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م(٩٨) •

ولما بلغت هذه الانباء الى معزالدولة البويهي أعد في هذه السنة جيشا كبيرا واسند قيادته الى وزيره أبو جعفر الصيمري ، ووجهه الى البطائح ، وقد التقى الفريقان في عدة معارك دامية ، ألحق بعضهم بالآخر خسائر كبيرة ، الا انها انتهت بانتصار الجيش البويهي الذي كان يتفوق

على جيش عمران في العدة والعدد وقد اضطر معزالدولة ان يوجه جيشه الى اقليم فارس وذلك لاضطراب الاوضاع هناك(٩٩) .

في سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م وجه معزالدولة جيشا لمحاربة عمران بن شاهين أسند قيادته الى قائده روزبهان الديلمي فلما علم عمران بتقدم الجيش البويهي خرج لملاقاته فدارت بين الفريقين معركة ضارية هزم فيها جيش روزبهان هزيمة نكراء ، وغنم عمران جميع آلاته وسلاحه ، وبعد هذا الانتصار تشجع عمران وازداد نفوذه ، وقويت شوكته ، واستطاع ان يوسع امارته ، ويفرض الضرائب ، وقطع طرق المواصلات بين بغداد والبصرة(١٠٠) .

وفي هذه السنة أعد معزالدولة جيشا جديدا أسند قيادته الى وزيره أبو محمد المهلبي وقائده روزبهان الديلمي ، وزودهم بالسلاح الكثير ، وأطلق يدهم في الأموال ، الا ان عمران استطاع ان يهزم الجيش البويهي ويكبده خسائر كبيرة في معركة حامية ، وقد أشار مسكويه الى تفاصيل هذه المعركة فقال : « فزحف (يعني المهلبي) الى عمران وسد عليه مذاهبه وانتهى الى مضيق في البطيحة شعب لا يعرف مسالكها الا عمران وأصحابه ، فأحب روزبهان ان يلحق المهلبي مثل ما لحقه من الهزيمة ولا يستبد بالظفر فأشار عليه بالاقتحام والهجوم ، وتوثق المهلبي وأراد سد تلك المضايق ، فأخذ روزبهان في التضريب عليه وعارضه في كل ما دبره ومنعه من هذا الاستظهار وسد الشعب وكتب الى معزالدولة يستعجزه ، ويذكر أنه انما يحجم ويجنح الى المطاولة ليحتسب بالأموال في النفقات ، ولم يزل بذلك وشبهه الى ان وردت كتب معزالدولة بالاستبطاء فترك المهلبي الحزم وركب الخطا وعدل عما يدبره كله ودخل بجميع عسكره هاجماً على عمران ، وتأخر روزبهان ليصير أول الخارجين عند الهزيمة ، وقد كمّن عمران كفاءه في تلك المعترضات وشحنها بالآلات الموافقة لتلك المضايق فخرجوا على العساكر وهم متزاحمون

متضايقون في طريق الماء لا يعرونها فوصعوا فيهم الحراب فقتلوا وأسروا، وانصرف روزبهان موفورا ونجا الوزير المهلبي سباحة وحصل القواد والوجوه في الأسر »[١٠١] .

والظاهر ان معزالدولة البويهي بعد ان تكررت هزائم جيشه أمام الثوار في البطائح ، كان قد أدرك أهمية اعتدال الساحة فتقدم يطلب التفاوض والعلم معه فيتم عقد اتفاق بينهما تم بموجبه الاعتراف بعمران أميرا على البطائح ، وتبادل الاسرى بين الطرفين[١٠٢] .

بختيار الذي خلف والده في حكم العراق ان يكتب الى قائده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي الذي تقدم لقتال عمران ان يفاوض عمران ويعود الى بغداد[١٠٣] .

سار عزالدولة بختيار على نهج سياسة والده القائمة على عدم الالتزام بالاتفاقيات والحقد على كل ما هو عربي ، فخرج سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م على رأس جيشه من بغداد قاصدا عمران بن شاهين ، وكان على مقدمة جيشه وزيره أبو الفضل الشيرازي ، فلما علم عمران ترك مقره وانسحب الى مقر آخر في البطائح فلما تقدم الجيش البويهي لم يتمكن من الوصول الى مقر عمران الجديد ، وذلك لأن عمران كان قد أمر بهدم السدود التي أقامها الجيش البويهي في البطائح ، فاضطر الجيش البويهي الى الانسحاب[١٠٤] .

ان الانتصارات التي حققها الثائر عمران بن شاهين على الجيش البويهي وصموده في مقاومة التسلط الاجنبيي أدى الى ظهوره كقوة على المسرح السياسي آنذاك حتى ان عزالدولة بختيار حاول الاستفادة من قوته لتعزيز مركزه ضد مراكز القوى في الجيش البويهي ، فلما تمرد قائد الاتراك سبكتكين على عزالدولة طلب الاخير من عمران مساعدته ، وقدم

له الهدايا ، واسقط عنه الأموال وطلب اليه المصاهرة ، الا ان عمران كان قد رفض ما تقدم به عزالدولة بختيار ورد عليه قائلا : « أما اسقاط المال فنحن نعلم انه لا اصل له ، وقد قبلته ، واما الوصلة فانني لا أتزوج احد ، الا ان يكون الذكر من عندي ... وأما الخلع والفرس فانني لست ممن يلبس ملبوسكم ... وأما انفاذ عسكر فان رجالي لا يسكنون اليكم لكثرة ما قتلوا منكم »(١٠٥) ثم قال لرسول بختيار : « قل له : ينبغي ان تتوقر وتترزن ولا تستعمل هذه الخفة والنزق فقد قصدتني محارباً لي فرجعت عني وقصدت الاهواز منهزماً على هذه الحال والصورة من الفتنة ، وانا اعلم ان أمرك سيتأدى الى ان تجيئني وتلوذ بي وتحصل عندي ، وسأذكرك هذا ، وتعلم حينئذ اني اعاملك بالجميل وبخلاف ما عاملتني به انت وأبوك قبلك »(١٠٦) .

وعندما أعلن محمد بن بقية أمير واسط وتكريت وعكبرا وأوانا ثورته على الحكم البويهي ، واستنجد بعمران بن شاهين ، وقف عمران الى جانبه ، وساهم جيشه في المعركة التي دارت بين جيش ابن بقية والجيش البويهي بواسط ، والتي انتهت بهزيمة الجيش البويهي .

ولما أراد ابن بقية ان يكوّن جبهة ضد عضدالدولة سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م اتصل بعمران بن شاهين ، فقدم الى ابن بقية وعزالدولة بختيار المال والسلاح(١٠٧) .

وهكذا نجد ان الثائر عمران بن شاهين الذي قاد مقاومته أهل واسط وبطائحها ضد التسلط البويهي ظل رافضا للوجود الاجنبي في العراق ، ومقاوما له ومنتصرا عليه ومحافظا على روح النصر حتى وفاته سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٨م . انتهز الأمير البويهي عضدالدولة فرصة وفاة عمران ابن شاهين ، فأعد في سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٨م جيشا كبيرا لمهاجمة الحسن بن عمران الذي خلف أباه في قيادة الثورة في بطائح واسط ، وأسند قيادته

الى وزيره المطهر بن عبدالله ، فلما علم الحسن استعد لملاقاته ، ودارت معركة في الماء هزم فيها الجيش البويهي وانتحر قائده ، فاضطر عضدالدولة للتفاوض مع الحسن ، وتم الاتفق بينهما[١٠٨] .

وقد استمر سكان منطقة واسط في مقاومتهم للتسلط البويهي حتى تم طردهم من العراق سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م[١٠٩] .

مقاومة واسط للتسلط السلجوقي والمغولي :

وفي أثناء التسلط السلجوقي على العراق (٤٤٧ – ٥٥١هـ / ١٠٥٥ – ١١٥٦) شارك أهـل واسط في النزاع الذي حدث بين أبنـاء البيت السلجوقي على السلطة ، وقد تعرضت هذه المدينة ومنطقتها الى الاحتلال من قبل السلاطين والقادة الملاحقة مرات عديدة مما أدى ان تهديم وتجريد المزارع والبيوت من قبل جيوش هؤلاء السلاطين[١١٠] .

١١٣٤م) والخلفاء الذين تولوا الخلافة من بعده على التخلص من التسلط السلجوقي ، وقف أهل واسط وبعض ولاتها مع الخلفاء في نزاعهم مع السلاطين السلاجقة[١١١] .

وعندما تمكن المغول من الاستيلاء على المشرق الاسلامي ، قـرر هولاكو الاستمرار في زحفه نحو بغداد عاصمة الخلافة ، وبعد معارك مع جيش الخلافة دخل جيش هولاكو بغداد في ٥ صفر سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م فتعرضت المدينة الى النهب والقتل والحرق سبعة أيام[١١٢] . وقدر من قتل من أهل بغـداد بمـا يزيد على (٨٠٠,٠٠٠) من الرجال والنساء والأطفـال عـدا من هلك في القنى والآبار والسـراديب من الجـوع والخوف[١١٣] .

وبعد احتلال بغداد وجه هولاكو قائده « بوقا تيمور » للاستيلاء

على بقية مدن العراق ، فتقدم نحو واسط ، ولما وصل تصدى له أهلها ، وبعد معركة ضارية تمكن الجيش المغولي من دخول المدينة « وشرع في القتل والنهب ، فقتل ما يقرب من أربعين ألف شخص »[١١٤] . وممن رثوا واسط بعد هذه النكبة الشاعر سعدي الشيرازي الذي قال :

وقفت بعبادان أرقب دجلة
كمثل دم قان يسيل الى البحر
وفائض دمعي في مصيبة واسط
يزيد على مد البحيرة والجزر
فجرت مياه العين فازددت حرقة
كما احترقت جوف الدماميل بالفجر[١١٥]

ولم يسلم منهم حتى التراث الفكري لهذه المدينة ففي سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م قدم نصيرالدين الطوسي الى واسط لجمع الكتب من مكتباتها وذلك لنقلها الى المكتبة الملحقة بدار الرصد في مراغة باذربيجان[١١٦] .

مصادر البحث :

(١) حضارة العراق : ٦/١٠٩ ، ١١٠ ٠

(٢) انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٣/٥٩٠ وما بعدها ٠

(٣) ن٠م : ٤/٤٠ وما بعدها ٠

(٤) تاريخ الرسل والملوك : ٤/٢٨ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ٩٠ ٠

(٥) انظر : الطبري : تاريخ : ٤/٨٣ وما بعدها ، ١٣٧ وما بعدها ٠

(٦) انظر مثلا : البلاذري : فتوح البلدان : ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٦٤ ٠

(٧) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : دور امراء العراق في حركات تحرير المشرق في العصر الاموي ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد (٢٧) سنة ١٩٨٦م ٠

(٨) الطبري : تاريخ : ٦/٣١٩ ، انظر : اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٧٦ ، الدينوري : الاخبار الطوال : ٢٨٠ ٠

(٩) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٩٧ وما

(١٠) ن٠م : ٤٥٩ـ٤٧١ ٠

(١١) تاريخ خليفة بن خياط : ١/٢٨٩ ٠ ابن حوقل : صورة الارض : ٢٤٦ ٠ ياقوت : معجم البلدان : ٣/٣٨٠ ٠

(١٢) انظر تفاصيل حركات التحرير هذه في الطبري : تاريخ : ٦/٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٦ ٠

(١٣) انظر تفاصيل حركات التحرير هذه في الطبري : تاريخ : ٦/٤٢٥ ، ٤٢٩ ـ ٤٣٢ ، ٤٣٩ ـ ٤٤٧ ، ٤٤٧ ـ ٤٥٤ ، ابن اعثم الكوفي : كتاب الفتوح : ٧/٢٢٥ ، ٢٢٦ ٠

(١٤) الطبري : تاريخ : ٦/٤٤٥ ـ ٤٤٧ · ابن اعثم الكوفي : كتاب الفتوح : ٧/٢٢٥ ، ٢٢٦ ·

(١٥) ابن اعثم الكوفي : كتاب الفتوح : ٧/٢٣٠ ·

(١٦) الطبري : تاريخ : ٦/٤٦٢ ·

(١٧) تاريخ خليفة بن خياط : ١/٣٠٧ · ابن اعثم الكوفي : كتاب الفتوح : ٧/٢٣٤ ·

(١٨) انظر تفاصيل ذلك في : ابن اعثم الكوفي : ٧/٢٣٩ · فتوح البلدان : ٥١٨ · الطبري : تاريخ : ٦/٤٦٩ ـ ٤٨٠ ·

(١٩) انظر تفاصيل ذلك في : شتوح البلدان : ٥١٩ · تاريخ خليفة بن خياط : ١/٣١٠ · الطبري : تاريخ : ٦/٤٨٣ ، ٤٨٤ ·

(٢٠) الطبري : تاريخ : ٦/٤٨٣ ، ٤٨٤ ·

(٢١) ابن اعثم : كتاب الفتوح : ٧/٢٤٩ ، ٢٥٠ ·

(٢٢) الطبري : تاريخ : ٦/٥٠٠ · ابن اعثم : كتاب الفتوح : ٧/٢٥١ ·

(٢٣) الصيني : العلاقات بين العرب والصين : ٢٦ ·

(٢٤) أرمينوس فامبري : تاريخ بخارى : ٦٩ ·

(٢٥) الطبري : تاريخ : ٦/٥٠١ ، ٥٠٢ ·

(٢٦) ن·م : ٦/٥٠٢ ·

(٢٧) ن·م : ٦/٥٠٩ · ابن اعثم : كتاب الفتوح : ٧/٢٥٢ ، ٢٥٣ ·

(٢٨) ن·م : ٦/٥١٢ ·

(٢٩) انظر : فتوح البلدان : ١٥٢ ، الطبري : تاريخ : ٦/٥١٥ ، ٥١٦ · ابن اعثم : كتاب الفتوح : ٧/٢٧٢ ـ ٢٧٦ ·

(٣٠) تاريخ : ٦/٥١٢ ·

(٣١) فتوح البلدان : ٥٢١ ·

(٣٢) كتاب الفتوح : ٧/٢٧٢ ، ٢٧٣ ·

(٣٣) The Arab Conquests in Central Asia, p. 54.

(٣٤) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : دور امراء العراق في حركات تحرير المشرق في العصر الاموي ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد (٢٧) السنة ١٩٨٦م ٠

(٣٥) فتوح البلدان : ٥٣٤ ٠ العقد الثمين : ١٤٩ ، ١٥٠ ٠

(٣٦) العقد الثمين : ١٥٠ ٠

(٣٧) ن٠م : ١٥٠ نقلا عن الكوفي ٠

(٣٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : حركات التحرير العربية في السند من ١٥ ـ ١٣٢ه بحث ـ تحت الطبع ـ مجلة كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ٠

(٣٩) فتوح البلدان : ٥٣٤ ، ٥٣٥ ٠ انظر : اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٨٨ ، الكامل : التاريخ : ٤/٥٣٧ ٠

(٤٠) تاريخ اليعقوبي : ٢/٢٨٨ ٠ انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ١/٣٠٧ ٠ فتوح البلدان ٥٣٤ ٠ الكامل في التاريخ : ٤/٥٣٧ ٠

(٤١) فتوح البلدان : ٥٣٥ ٠ تاريخ خلبفة بن خياط : ١/٣٠٧ ٠ الكامل في التاريخ : ٤/٥٣٧ ٠

(٤٢) فتوح البلدان : ٥٣٥ ٠ اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٨٨ ٠ العقد الثمين: : ٢٠١ ٠

(٤٣) فتوح البلدان : ٥٣٦ ٠ اليعقوبي : تاريخ : ٢/٢٨٩ ٠

(٤٤) ن٠م : ٥٣٦ ٠ ن٠م : ٢/٢٨٩ ٠

(٤٥) ن٠م : ٥٣٧ ٠ ن٠م : ٢/٢٨٩ ٠

(٤٦) العقد الثمين : ٢٢٣ ٠

(٤٧) فتوح البلدان : ٥٣٧ ٠ الكامل في التاريخ : ٤/٥٣٨ ٠

(٤٨) فتوح البلدان : ٥٣٧ ٠ الكامل في التاريخ : ٤/٥٣٨ ٠

(٤٩) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم : ٦٣ ، ٦٤ ٠

(٥٠) فتوح البلدان : ٥٣٩ • الكامل في التاريخ : ٥٨٨/٤ •

(٥١) ن•م : ٥٣٩ • ن•م : ٥٨٨/٤ •

(٥٢) العقد الثمين : ٢١٨ •

(٥٣) فتوح البلدان : ٥٣٩ • تاريخ خليفة بن خياط : ٣٢٤/١ • الكامل في التاريخ : ٥٨٨/٤ •

(٥٤) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : حركات التحرير العربية في السند ، بحث ـ تحت الطبع ـ مجلة كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية •

(٥٥) انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٢٢٦ •

(٥٦) انظر تفاصيل ذلك في : اليعقـوبي : تاريخ : ٣٤١/٢ • الطبري : تاريخ : ٣٥١/٧ •

(٥٧) تاريخ خليفـة بن خيـاط : ٤٠٩/٢ • الطبري : تاريخ : ٣٧٢/٧ وما بعدها • مقاتل الطالبيين : ١٢١ •

(٥٨) مقاتل الطالبيين : ١٢١ •

(٥٩) انظر : الطبري : تاريخ : ٣٥٣/٧ ،ز ٣٧٣ •

(٦٠) تاريخ خليفة بن خياط : ٤١٠/٢ ، ٤١١ • أنساب الاشراف : ج٣ ورقة ٣٣ب • العيون والحدائق : ١٦٥/٣ ، ١٦٦ •

(٦١) انظر تفاصيل ذلك في : الاخبار الطوال : ٣٦٤ • اليعقوبي : تاريخ : ٣٤٣/٢ • اخبـار الدولة العباسية : ٢٧٧ • العيـون والحدائق : ١٨٧/٣ •

(٦٢) تاريخ خليفة بن خياط : ٤١٣/٢ • اليعقوبي : تاريخ : ٣٤٣/٢ • الطبري : تاريخ : ٣٩١/٧ ، ٣٩٢ •

(٦٣) انساب الاشراف : ج٣ ورقة ٣٤أ • ويقدرهم الطبري بمائة الف ، ومائة وخمسون الف : تاريخ : ٤٠٥/٧ •

(٦٤) انظر تفاصيل ذلك في : تاريخ خليفة بن خياط : ٤١٨/٢ ومابعدها• الطبري : تاريخ : ٤٠٧/٧ • اخبار الدولة العباسية : ٣٥١ـ٣٥٣ •

(٦٥) أخبار الدولة العباسية : ٣٥٤ ٠

(٦٦) تاريخ خليفة بن خياط : ٤٢١/٢ ٠ الطبري : تاريخ : ٤١٠/٧ ٠

(٦٧) انظر تفاصيل ذلك في : الطبري : تاريخ : ٤١٠/٧ ـ ٤١٢ ٠ اخبار الدولة العباسية ٠ ٣٦٥ ـ ٣٦٧ ٠

(٦٨) أخبار الدولة العباسية : ٣٦٥ ٠

(٦٩) انظر تفاصيل ذلك في : تاريخ خليفة بن خياط : ٤٢٢/٢ ٠ الطبري: تاريخ : ٤١٢/٧ وما بعدها ٠ أخبار الدولة العباسية : ٣٧٠ وما بعدها ٠

(٧٠) انظر تفاصيل ذلك في : الطبري : تاريخ : ٤١٢/٧ ـ ٤١٧ ٠

(٧١) انظر تفاصيل ذلك في : تاريخ خليفة بن خياط : ٤٢٢/٢ ٠ الطبري : تاريخ : ٤١٢/٧ ـ ٤١٧ ٠ اخبار الدولة العباسية :

(٧٢) الطبري : تاريخ : ٤١٧/٧ ٠ اخبار الدولة العباسية : ٣٧٢ ٠

(٧٣) تاريخ خليفة بن خياط : ٤٢٣/٢ ، ٤٣٠ ٠ الطبري : تاريخ : ٤١٨/٧ ٠

(٧٤) الاخبار الطوال : ٣٦٩ ٠

(٧٥) انظر : الاخبار الطوال : ٣٧٤ ٠ تاريخ خليفة بن خياط : ٤٢٤/٢ ٠ الطبري : تاريخ : ٤٥٣/٧ ٠

(٧٦) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٢٦٢ ٠

(٧٧) انظر تفاصيل ذلك في : أنساب الاشراف : ج٣ ورقة ٣٤ب ٠ تاريخ خليفة بن خياط : ٤٢٤/٢ ٠ الطبري : تاريخ : ٤٥١/٧ وما بعدها ٠

(٧٨) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر الاموي : ٢٦١ ٠

(٧٩) انظر : تاريخ خليفة بن خياط : ٤٢٧/٢ وما بعدها ٠ اليعقوبي :

(٨٠) تاريخ الرسل والملوك : ٤٥٣/٧ ، ٤٥٤ ٠ انظر : أنساب الاشراف : ج٣ ورقة ٣٤ب ٠

(٨١) الامامة والسياسة : ١٢٦/٢ ٠ الطبري : تاريخ : ٤٥٤/٧ ٠

(٨٢) ن٠م : ١٢٩/٢ ٠ ن٠م : ٤٥٤/٧ ٠

(٨٣) الطبري : تاريخ : ٤٥٤/٧ ، ٤٥٥ ٠ الامامة والسياسة : ١٢٩/٢ ٠
انساب الاشراف : ج٣ ورقة ٣٥أ ٠ اليعقوبي : تاريخ : ٣٥٤/٢ ٠
تاريخ خليفة بن خياط : ٤٢٥/٢ ٠

(٨٤) الطبري : تاريخ : ٤٥٤/٧ ٠ انظر : الامامة والسياسة : ١٢٩/٢ ٠
انساب الاشراف : ج٣ ورقة ٣٥أ ٠

(٨٥) الاخبار الطوال : ٣٧٣ ٠ انظر : الطبري : ٤٥٥/٧ ٠ الازدي :
تاريخ الموصل : ١٢٥ ٠ العيون والحدائق : ٢١٠/٣ ٠

(٨٦) ابن الجوزي : المنتظم : ٧٠/٥ ٠

(٨٧) الطبري : تاريخ : ٤١٠/٩ ٠

(٨٨) الدكتور عبدالعزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية
المتأخرة : ٨١ ٠

(٨٩) انظر تفاصيل ذلك في الطبري : تاريخ : ٤٣١/٩ وما بعدها ٠

(٩٠) انظر تفاصيل ذلك في الطبري : تاريخ : ٥٣٦/٩ ــ ٥٤٠ ٠ ابن
الجوزي : المنتظم : ٤٥/٥ ٠

(٩١) المنتظم : ٤٥/٥ ٠

(٩٢) انظر تفاصيل ذلك في الطبري : تاريخ : ٥٥٧/٩ ــ ٥٧٢ ٠

(٩٣) الطبري : تاريخ : ٥٧٣/٩ ٠

(٩٤) انظر تفاصيل ذلك في الطبري : تاريخ : ٥٧٤/٩ وما بعدها ٠

(٩٥) الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ٣٦

(٩٦) انظر تفاصيل ذلك في : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : المقاومة
العربية لحكم البويهيين الفرس في العراق ، مجلة دراسات للاجيال،
عدد ٤ ، ٥ السنة ١٩٨٣م ٠

(٩٧) انظر تفاصيل ذلك في ن٠م ص٣٨١ وما بعدها ٠

(٩٨) انظر : مسكويه : تجارب الامم : ٢/١١٩ • الهمداني : تكملة تاريخ الطبري : ١/١٦٢ • الكامل في التاريخ : ٨/٤٨١ •

(٩٩) انظر تفاصيل ذلك في : مسكويه : تجارب الامم : ٢/١٢٠ • الهمداني : تكملة : ١/١٦٢ • الكامل في التاريخ : ٨/٤٨١ •

(١٠٠) انظر تفاصيل ذلك في : مسكويه : تجارب الامم : ٢/١٣٠ • الهمداني : تكملة : ١/١٦٤ • الكامل التاريخ : ٨/٤٨٩ ، ٤٩٠ •

(١٠١) تجارب الامم : ٢/١٣٠ ، ١٣١ • انظر : الكامل في التاريخ : ٨/٤٩٠ •

العيون والحدائق : ج٤ ف٢ ص١٩١ • الكامل في التاريخ : ٨/٤٩٠،

(١٠٢) مسكويه : تجارب الامم : ٢/١٤٣ • الهمداني : تكملة : ١/١٦٥ • ٤٩١ •

(١٠٣) انظر تفاصيل ذلك في : مسكويه : تجارب الامم : ٢/٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ • الهمداني : تكملية : ١/١٩٠ • الكامل في التاريخ : ٨/٦١٠ ، ٦١١ •

(١٠٥) الكامل في التاريخ : ٨/٦٤٤ • انظر : مسكويه : تجارب الامم : ٢/٣٣٠ •

(١٠٦) مسكويه : تجارب الامم : ٢/٣٣٠ • وقد حصل ما توقعه عمران بن شاهين ، ففي سنة ٣٦٦هـ وفي أثناء النزاع بين عزالدولة بختيار وعضدالدولة حزم عضدالله • ولما وصل بختيار الى واسط حمل اليه عمران مالا وسلاحا وهدايا نفيسة ، ثم دخل بيت عمران ، فاكرمه ، وقدم له مالا كثيرا وهدايا • الكامل التاريخ : ٨/٦٧٢ •

(١٠٧) مسكويه : تجارب الامم : ٢/٣٤٧ ، ٣٦٥ • الكامل في التاريخ : ٨/٦٥١ ، ٦٧١ •

(١٠٨) ن•م : ٢/٤٠٩ ـ ٤١١ • ن•م : ٨/٧٠١ ، ٧٠٢ •

(١٠٩) انظر : الكامل في التاريخ : ٩/١٨١ ، ١٨٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٥٢٢ ، ٥٤٠ •

(١١٠) انظر تفاصيل ذلك في : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي ص٨٣ وما بعدها ٠

(١١١) انظر تفاصيل ذلك في : ن٠م ص٩١ وما بعدها ٠

(١١٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول : ٢٧٢ ٠

(١١٣) الحوادث الجامعة : ٣٣٤ ٠ ويقدرهم ابن كثير الف الف نسمة : البداية والنهاية ١٣/٢٠٢ ٠ وقدرهم الذهبي الف الف وثمانمائة الف ٠ دول الاسلام : ٢/١٢١ ٠

(١١٤) الهمداني : جامع التواريخ : م٢ ج١ ص٢٩٦ ٠

(١١٥) الدكتور حسين علي محفوظ : المتنبي وسعدي : ٧٣ ٠

(١١٦) الحوادث الجامعة : ٣٥٠ ٠

المصادر :

بن عثم . أحمد بن عثمان الكوفي الكندي (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م)

« كتاب الفتوح » ط١ (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية)
حيدر آباد ، الدكن ـ الهند ١٣٩٠ ـ ١٣٩٤هـ / ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥م .

ابن الأثير : عزالدين علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)

« الكامل في التاريخ » ١٣ جزء . بيروت ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧م .

الأزدي : أبو زكريا يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م)

« تاريخ الموصل » تحقيق علي حبيبة (القاهرة ١٩٦٧) .

الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م)

« مقاتل الطالبيين » بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

البلاذري : أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)

« فتوح البلدان » نشر صلاح‌الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٧) .

« انساب الاشراف » نسخة مصورة بالفوتستات في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة بغداد تحت رقم (١٦٣٤ ، ١٦٤٤) ١١ جزء عن النسخة الأصلية في معهد المخطوطات العربية في الرباط رقم (٦٨) .

ابن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)

« المنتظم في تاريخ الملوك والامم » الاجزاء ٥ ـ ١٠ (حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨هـ / ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م .

ابن خياط : أبو عمر بن خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م)
« تاريخ خليفة بن خياط » تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ، مطبعة الآداب (النجف ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م) .
الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م)
« الأخبار الطوال » تحقيق عبدالمنعم عامر (القاهرة ١٩٦٠) .
الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)
« تاريخ الرسل والملوك » ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار المعارف (القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٩م) .
ابن العبري : غريغوريوس الملطي ، أبو الفرج بن هارون (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)
« تاريخ مختصر الدول » المطبعة الكاثوليكية (بيروت ١٩٥٨م) .
ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)
« الامامة والسياسة » تحقيق الدكتور طه محمد الزيني (القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) .
ابن كثير : عمادالدين اسماعيل بن عمر القريشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)
١٤ جزء ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٦٦ .
المؤلف مجهول (من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي)
« اخبار الدولة العباسية » تحقيق الدكتور عبدالعزيز الدوري والدكتور عبدالجبار المطلبي (دار صادر بيروت ١٩٧١م) .
المؤلف مجهول (كان الكتاب منسوبا لابن الفوطي خطأ)
« الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » تحقيق

الدكتور مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١هـ .
مؤلف مجهول :
« العيون والحدائق » تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود ، الجزء الرابع — القسم الأول ، مطبعة النعمان ، النجف ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م .
مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)
« كتاب تجارب الامم » جزءان ، نشره هـ.ف آمدروز ، مطبعة التمدن الصناعية ، مصر ١٣٣٢ — ١٣٣٣هـ / ١٩١٤ — ١٩١٥م .
الهمداني : رشيدالدين فضل‌الله (ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م)
« جامع التواريخ زجءان ، ترجمة محمد صادق نشأة وجماعته ، ط دار احياء الكتب العربية ١٩٦٠ .
الهمداني : محمد بن عبدالملك (ت ٥٢١هـ / ١١٢٧م)
« تكملة تاريخ الطبري » تحقيق البرت يوسف كنعان ، المطبعة الكاثوليكية (بيروت ١٩٦١م) .
اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)
« تاريخ اليعقوبي » جزءان (بيروت ١٩٦٠) .
ياقوت : شهاب‌الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ / ٢٦٦م)
« معجم البلدان » ٥ ج ، دار صادر بيروت ١٩٥٧م .
ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٩م)
« صورة الأرض » جزءان ، تحقيق كريمرز ، لندن ١٩٣٨ / ١٩٣٩ .

المراجـع :

الدوري : الدكتور عبدالعزيز عبدالكريم

« دراسات في العصور العباسية المتأخرة » بغداد ١٩٤٥ .

الساداتي : أحمد محمود

« تأريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم » ط. القاهرة ١٩٥٧ .

فامبري : تاريخ بخارى ، القاهرة ١٩٦٥

العيني : بدرالدين

« العلاقات بين العرب والصين » ط١ مكتبة النهضة المصرية ١٣٧٠هـ ٩٥٠م .

محفوظ : الدكتور حسين علي

« المتنبي وسعدي » مطبعة الحيدري ، طهران ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م .

المباكبوري : القاضي ابو المعالي أطهر

« العقد الثمين » المطبعة الحميدية ، بومباي ، الهند ١٩٦٨م .

المعاضيدي : الدكتور عبدالقادر سلمان

« حضارة العراق » ج٦ نشر وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ٩٨٥ .

« واسط في العصر الأموي » بغداد ١٩٧٦ .

« واسط في العصر لعباسي » بغداد ١٩٨٣ .

« المقاومة العربية لحكم البويهيين الفرس في العراق » مجلة دراسات للأجيال ، عدد ٤ ، ٥ السنة الخامسة ١٩٨٣ .

« دور امراء العراق في حركات تحرير المشرق في العصر الأموي »
مجلة المؤرخ العربي العدد ٢٧ السنة ١٨٩٦ .
« حركات التحرير العربية في السند من ١٥ - ١٣٢هـ / ٦٣٦ - ٧٤٩م » بحث تحت الطبع ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية .

Gibb :

The Arab Conquest in Central Asia, London 1923.

الوراقة والوراقون في الشرق الاسلامي

عبر العصور الاسلامية(*)

الاستاذ المساعد
الدكتور عبدالحسين مهدي الرحيم
كلية التربية / قسم التاريخ
جامعة بغداد

الوراقة في اللغة ، صنعة الوراق ، ورجل وراق ، وهو الذي يورق ويكتب وحرفته الوراقة • وتنسب الوراقة الى الورق (بفتح الراء) وهو اسم جنس يقع على القليل والكثير ، وبه سمي الرجل الذي يكتب ورّاقاً(1) •

كيف عرف العرب صناعة الورق :

لم تعرف صنعة الوراقة في الدولة العربية الأسلامية قبل ان ينقل العرب صناعة الورق • وكان ذلك الحدث الخطير في تاريخ الحضارة الاسلاميه بعد ان امتدت حركة التحرير والفتوح العربية الى بلاد ما وراء النهر ، وتاخمت بذلك حدود الدولة العربية بلاد الصين • فكانت هذه المتاخمة سببا في الاحتكاك العسكري والسياسي الذي أدى الى الاتصال بينهما ، الأمر الذي تسبب في انتقال صناعة الورق الصيني (الكاغد)(2) الى العرب المسلمين •

ويروي لنا الثعالبي(3) الصورة التي انتقلت بها صناعة الورق من

الصين الى الدولة العربية الأسلامية فيشير الى ان جماعة من الصين اصطحبهم زياد بن صالح الى سمرقند فأتخذوا من صناعة الورق فيها عادة لهم ، ثم صارت هذه الصناعة متجرا لأهل سمرقند يرتفق عليها في الآفاق •

وتشير[٤] دائرة المعارف البريطانيه الى طبيعة دخول العرب للبلاد الصينية مؤكدة ان العرب في وصولهم الى سمرقند من خلال حركة الفتوح والتحرير تعرضوا لهجمات من قبل الصينيين في سنة ٧٥١م اضطر بعدها الوالي في سمرقند للرد على هذا الهجوم وتتبع المعتدين في بلادهم فأصاب منهم عددا من أهلها كانوا السبب في نقل صناعة الورق الى سمرقند ، ومنها الى أطراف الدولة العربية الأخرى •

وتؤكد الروايات على ان هؤلاء العمال الصينيين ممن كانت لهم معرفة بصناعة الورق جلبوا الى سمرقند بعد[٥] معركة (طلاخ) قرب (طلس) ، وان سنة ١٣٤هـ /(٧٥١م هي التاريخ المتفق عليه في دخول صناعة الورق الى الدولة العربية •

وينسب ابن النديم[٦] صناعة بعض أنواع الورق في الدولة العربية الى أصل عربي ، غير أنه يضعه في احتمالات متعددة ، فمرة يرى صناعته في العصر الأموي ، وتارة يراها في العصر العباسي ، وثالثة يراها بالخبرة الصينية وهو في أجناس[٧] مختلفة •

ويعتبر انتقال صناعة الورق من بلاد الصين الى الدولة العربية نوعا من الاستجابة الملحة للحاجات الحضاريه التي مرت بها دولة العرب المسلمين ، فلم يكن باستطاعة الرق أو القرطاس أو غيرها من مواد الكتابه

والراجح ان صناعة الورق عرفت في العصر العباسي ، بسبب توفر وسائل النهوض والازدهار الحضاري في حقوله المختلفة ، بينما شغلت الدولة العربية في عصرها الأموي بحركة التحرير والفتوح •

في تلك الفترة تلبية حاجات المرحلة الجديدة من مراحل الأزدهار الثقافي والعلمي العربي ، اذ لابد ـ والحالة هذه ـ من تيسير مادة للكتابة تتميز بخصائص(٨) تتفوق فيها على غيرها من مواد الكتابة الاخرى وتكون أكثر ملائمة وفائدة ، وهو ما يتوفر في الورق •

واذا كانت سمرقند قد اشتهرت بصناعة الورق ، بصفتها احدى مراكز التموين المتميزة بأنتاجه في الدولة العربية ، حتى أنها أثرت الى حد بعيد على استعمال القرطاس المصري لأغراض الكتابة والتأليف على الأقل في منطقة الشرق الاسلامي ، فأن زيادة الحاجة للورق في عموم أنحاء الدولة الشرقية والغربية ، جعلت سمرقند لا تستطيع ان تسد هذه الحاجة ، فأصبح نشوء المصانع للورق في جهات مختلفة ضرورة حضارية تستدعيها المرحلة التاريخية • وبناء على ذلك فقد انتشرت صناعة الورق في ظل الدولة العربية في بغداد وبلاد الشام (دمشق ، طرابلس ، حماة ، وطبرية)(١٠) • وفي تهامه ومصر والجزيرة الفراتية (منبج) والمغرب والاندلس ثم الى اوربا وأيران والهند وغيرها ، وبذلك شاع استعمال الورق وعمت صناعته في عموم الدولة العربية ، ومنها انتقل الى بقاع مختلفة من العالم •

واذا كان القرن الرابع الهجري هو الذي شهد شيوع مصانع الورق في أنحاء الدولة العربية بأعتبار أن هذا القرن يمثل أوج الازدهار الحضاري الاسلامي فأن بغداد حاضرة الدولة شهدت نشوء مصانع الورق فيها منذ عهد(١١) الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) تحاشيا لوسائل التزوير والتحريف التي تلحق بالكتابة بالجود أو غيرها من مواد الكتابة والتي يتعذر حدوثها بالورق ، وان حدثت فأن وسائل اكتشافها أيسر وأسهل •

وفي بغداد تتخصص محلة دار القز(١٢) بصناعة الورق ، وهي من بعض المحلات الصناعية التي استطاعت أن تصمد بوجه الخراب الذي زحف على بغداد بسبب الغزو الأجنبي (البويهي والسلجوقي) لها ، لأن ديمومة

هذه المراكز الصناعية تعتبر من ضرورات الحضارة وحاجات العصر آنذاك ، ولا أدل على ذلك ـ فيما يشاهد ياقوت الحموي ت ٦٢٢هـ ذلك ـ استمرار انتاج الورق في محلة دار القز والمدارس العتابية في محلة العتابيين وكلاهما لا غنى للحضارة عنهما •

ومن الباحثين(١٣) من يستنتج من كثرة المخطوطات العربية التي يعود تاريخ بعضها الى القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) على سعة انتشار صناعة الورق العربية ، بل ان العرب عرفوا صناعة الورق قبل ان يعرفها اليونان بعدة قرون •

اذ من الثابت انه لا تتوفر مخطوطات يونانية على الورق قبل منتصف القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) •

قيمة الوراقة العلمية والدينية :

احترف الوراقة كثير من أهل العلم والأدب بسبب شيوع استعمال الورق وكثرة المؤلفات وحرص الناس على تناقلها في العصور المتوالية والاماكن المختفة من الدولة العربية • وتشتمل الوراقة على اعمال النسخ والتصحيح والتجليد والتصوير والخط والتذهيب وتزويق الكتب وبيع الورق والأحبار وسائر أدوات الكتابة • فهذه المهمة كانت تقوم في ذلك العصر مقام الطباعة في عصرنا وربما أكثر من ذلك ، اذ كان الوراق ينتخب الورق وينسخ الكتاب أو ينسخ تحت اشرافه ويصحح هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه •

وقد حدد الفقهاء عمل النساخ لنيل الثواب بعملهم بألا ينسخوا كتب الضلالات والبدع وان دفع لهم اجراً عاليا ، لأن في ذلك مقايضة للدين بالدنيا • كذلك نُصح الناسخون بألا يكتبوا على عجلة أو يحذفوا أثناء

النسخ رغبة في سرعة الانجاز لنيل الأجر ، لأن ذلك خيانة للعمل •

وقد أشار الفقهاء على الوراقين بتوفير الورق لأهل العلم وعدم توفيره لغير هؤلاء ، فيما نصح المجلد بما نصح به الناسخ والوراق في العمل ، اما التذهيب فلم يقره الفقهاء الا للمصحف الشريف[١٤] •

وقد وصفت مهنة الوراقة بأنها من أجود[١٥] الصنائع لما فيها من الأعانة على كتابة المصاحف وكتب العلم ووثائق الناس وعهدهم ، وهو في نظر ابن خلدون من امهات الصنائع الشريفة فيما أشار الى صنوف تلك الصنائع بقوله : « واما الشريفة بالموضع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب » •

وفي موضع آخر يراها ابن خلدون تابعة للكتابة في الوسيلة والغاية فيقول في ذلك : « واما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف ورافعه رتب الوجود للمعاني »[١٦] •

ولا شك ان مرحلة الانتقال من الاعتماد على الرقوق في المدونات المختلفة الى استعمال الورق كان بسبب الازدهار النوعي والكمي للحضارة العربية ، اذ ليس بمقدور الرقوق ان تغطي هذه المساحة الواسعة من الانتاج الفكري للعرب المسلمين الذي ابتدأوه بعد منتصف القرن الثاني من الهجرة ثم تصاعد مع مرور السنين ، كما كان لشيوع الرغبة في عموم الدولة العربية في الاستزادة من المعرة واقتناء المؤلفات والكتب اصناف ثقلا جديدا على محدوديه استعمال الرقوق ، وعجزها عن تلبية هذه الحاجة ، فضلا عن صفاتها الأخرى من حيث صعوبة تيسيرها وارتفاع أسعارها وما تنطوي عليه من الصفات الذاتية الاخرى •

لذلك فبعد أن تعرف العرب على صناعة الورق وانتشر استعماله ،

واستوعب الورق ذلك البحـر الزاخـر من المؤلفـات ولانتاجات العلميـة والديوانية ، ظهرت مهنة الوراقة تلبية لحاجة المجتمع الى المعرفة والعلوم •

وقد لعب الوراقون دورا مهماً في تاريخ الحضارة العربية ، ذلك أنهم كانوا الناشرين للكتب والمصدرين لها في مفهومنا الحاضر •

وتشير المصادر التاريخية الى أن الخليفة الرشيد(١٧) هو الذي أشار على ديوان دولته بأستعمال الورق بدل الرقوق في الكتابة والتدوين تحاشيا من التزوير واستيعابا لغزارة المعرفة والانتاج العلمي وغيرها من الأسباب التي اشرنا اليها •

ويعتبر القرن الرابع الهجري عصر الازدهار للوراقة بسبب كثرة ما نقل وانتسخ فيه من الكتب والمؤلفات ، على أن جودة النسخ والتصحيح والعناية بهما يدل على مبلغ رقي هذه الصناعة في ذلك العصر •

ومن الجدير ذكره ان بغداد عاصمة الخلافة العباسية قد برعت بصناعة الورق حتى كان الورق(١٨) البغـدادي أعلى الأجنـاس في مواصـفاته وتخصصاته ، الأمر الذي يشير الى رواج مهنة الوراقة وشيوعها في بغداد •

حوانيت الوراقين :

ظهرت حوانيت الوراقين في مطلع العصر العباسي ، واشتغل بالوراقة علماء لامعون ، اذ أصبحت الوراقة مهنة نافعة آنذاك حيث انتشرت دكاكين الوراقين في بغداد منذ ان عرفت صناعة الورق فيها • ولما ازدادت حركة التأليف وتصنيف الكتب والأسفار أصبحت الحاجة الى عمل الوراقين ملحة حتى تخصص(١٩) بعض الوراقين بالنسخ عنـد بعض أهـل العلـم دون غـيرهم •

وقـد تحولت دكاكين الوراقين الى مراكز للثقافـة وملتقى للعلمـاء

والأدباء وأهل المعرفة ، حيث كانت تدور المناقشات والمناظرات بينهم مما يجعل هذه اللقاءات منتديات أدبية ومجاميع علمية ، أسهمت الى حد بعيد بالازدهار الثقافي والعلمي العربي •

فقد أشارت المراجع التاريخية الى ان الجاحظ ، كان يكتري دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر »[٢٠] ، بينما نقل عن ابي نصر الزجاج قوله : « كنت جالسا مع أبي الفرج الاصفهاني في دكان في سوق الوراقين ، وكان أبو الحسين علي بن يوسف البقال الشاعر جالسا عند أبي الفتح ابن الحراز الوراق وهو ينشد أبيات ابراهيم ابن العباس الصولي التي يقول فيها :

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها
فكانت قـذى عينيـه حتى تجلت

فلما بلغ اليه استحسنه وكرره ورآه أبو الفرج فقال لي : قم اليه فقل له : قد أسرفت في استحسان هذا البيت وهو كذلك فأين موضع الصنعة فيه ؟ فقلت له ذاك ، فقال قوله « وكانت قذى عينيه » ، فعدت اليه وعرفته • فقال : عد اليه فقل له اخطأت ، الصنعة في قوله « من حيث يخفى مكانها »[٢١] •

ونحن نقول أليس فيما روي عن الجاحظ وتأجيره لحوانيت الوراقين للتتبع والدراسة وما حكي عن مجلس النظـر في البلاغة العربية بين أبي الفرج الاصفهاني وجسائه في حانوت الوراق (ابن الحراز) ما يدلل على الدور العلمي لهـذه الحوانيت ويجعلها بمصـاف مراكز الثقافة العربيـة الأخرى كمجالس الامالي ودور العلم والمكتبات والمدارس بعدئذ وغيرها مما لا مجال لتفصيله •

وتشير الاحصاءات الى ان عدد حوانيت الوراقين في الجانب الشرقي من بغداد خلال الربع الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فتجعلها أكثر من مائة حانوت[٢٢] ، بل أن أسواقا تخصصت في ذلك لما

عرف عن تفرد[٢٣] أسواق بغداد بالمهن المتناظرة والتجارات المتخصصة .

ولم يقتصر وجود حوانيت الوراقين ونشاطهم على الجانب الشرقي من بغداد في رهن[٢٤] وجناح بل كان طاق[٢٥] الحراني في الجانب الغربي من بغداد مكانا آخر لبيع[٢٦] الكتب وتجارتها .

ويرى بعض[٢٧] الدارسين ان كثيرا من هذه الحوانيت كانت دكاكين صغيرة قرب المساجد ، ولكن بعضها دون شك كانت من السعة بحيث تعرض فيها الكتب ويلتقي فيها أهل العلم والأدب حتى عرف من بينهم أشهر الادباء والعماء الذين تميزوا بالمكانة العلمية والمقام البارز .

أما باعة الكتب فقد كان أكثرهم من الخطاطين أو النساخين أو المتأدبين الذين جعلوا من حوانيتهم لا مخازن كتب فحسب ، بل مراكز بحث ونظر .

على ان هذا العدد من الحوانيت الوراقين يشير من جانب آخر الى الدور المهم الذي نهضت به في النشاط العلمي ونشر المعرفة وتوسيعها .

واذا كان المؤلفون قد استعانوا بالوراقين لنشر مؤلفاتهم ومعارفهم ، فأن دور الكتب العامة والخاصة كانت هي الأخرى لا تستغني عن جهود الوراقين ، بل كان هؤلاء جزء مهم من هيكل تلك الدور التنظيمي والعلمي ، كما هو حالهم في بيت[٢٨] الحكمة في بغداد .

من أشهر الوراقين :

يرجح أن يكون لقب « الوراق » قد عرف منذ عصر الرشيد أي منذ استعمال الورق في الدواوين والرسائل والكتب لأول مرة ، اذ أطلق هذا اللقب على عدد من الشخصيات الأدبية والعلمية المشهورة ، وحيث ان ذكر

بعض الأسماء المعروفة يلقي الضوء على مكانة الوراقة وقيمتها العلمية ندرج في أدناه قائمة بأسماء بعض الوراقين •

١ ـ أبو الحسن علي عن المغيرة الاثرم ٢٩هـ ـ ت٢٣٢

من الممكن ان يكــون الأثرم من أقــدم الأسماء التي لمعت في عــالم الوراقة ، بسبب شهرته بالنسخ المتقن اد كان يلقى العلماء والأدباء ليضبط ما ينسخه من كتبهم •

وقد مارس الأثرم مهنة الوراقة مند عصر الرشيد يوم استقدمه الكاتب اسماعيل بن صبيح بمعيه أبي عبيدة (معمر بن المثنى التيمي) وجعله في دار من دوره ، ودفع اليــه كتب أبي عبيــدة لينسخها • وكان يساعده في النسخ جماعة من النساخين منهم ابو مسحل عبدالوهاب ، وهو يزودهم بمستلزمات النسخ ، ويسألهم السرعة في الانجز بعــد ان يتفق معهم على موعــده •

ومن الجدير ذكره ان الأثرم قرأ على أبي عبيدة ، وكان الأخير من أحنن الناس بكتبه ، ولو علم ما فعله الأثرم لمنعه من ذلك •

٢ ـ علان الشعوبي :

وهو ذو أصل فارسي ، عرف بدمامة خلقته وميوله الشعوبية وبحقده على العرب ، فيما اشتهر به في هذا الخصوص بتأليف كتابه « الميدان في المثالب » •

قال ياقوت الحموي : « ذكر محمد بن أبي الأزهر كان في جوارنا بباب الشام فتى يعرف « بالفيرزان » وكان يورق في دكان علان الشعوبي واورد خبراً دل بــه على أن علانا كان وراقا لــه وكان يبيع فيــه الكتب

وينسخ »[٣٠] .

والظاهر ان علاناً لم يكن وراقاً ينسخ الكتب فحسب وانما كان له مكتب لوراقة بمحلة باب الشام في بغداد يشتغل عنده بعض الوراقين منهم « الفيرزان » وهو ـ فيما يبدو ـ فارسي أيضا ، فضلا من أن حانوته كان لحلا لبيع الكتب ، وهذا يدلل على ان بيع الكتب والوراقة مهنتان متلازمتان .

ومن الجدير بالذكر ان الشعوبيين اتخذوا من مهنة الوراقة وهي حرفة خطيرة طريقا لهم للنيل من العرب والتقليل من شأنهم الحضاري ، ولاشك أن علانا هذا كان نموذجا لأولئك الشعوبيين في منهجهم الحاقد في اندس والانتحال .

٣ ـ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ت ٢٨٠هـ

وهو ممن ولد في بغداد سنة ٢٠٤هـ ومن أبناء خراسان ، عرف عنه مؤدباً للكتاب عاميا ثم تخصص في الوراقة وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي من بغداد . اشتهر بتصنيف الكتب وقول الشعر ، ومع ذلك فقد وصف بالتصحيف واللحن والسرقة وغيرها من مساوىء الوراقة ، وهي أمور تقلل من شأنه وتضعف الثقة في منقولاته ومؤلفاته التي اشار اليها ابن النديم صاحب الفهرست .

٤ ـ مجلدو بيت الحكمة في بغداد

لما كان التجليد للكتب من اعمال الوراقة وان بيت الحكمة في بغداد دار علم وترجمة وتأليف ، يشتمل على هيئة واسعة من المتخصصين في هذه « كان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون » ، وكذلك شفة المقراض العجيفي ، أبو عيسى بن شيران ، دميانة الاعسر ابن الحجام ، ابراهيم وابنه محمد

ـ ولم يشر الى نسب ابراهيم هذا ـ والحسين بن الصفار وغيرهم • ولاشك ان هــذه المجموعة من المجلدين تدال على ســعة وكثرة الانتاج العلمي وتنوعه الذي كان يصدر عن بيت الحكمة في بغداد ، كما يشير من جانب آخــر الى تخصص بعض الأسر في حرفــة التجليد حتى اورثها الآباء الى الابنــاء •

٥ ـ وراقو المبرد :

أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي الثمالي المعروف بالمبرد ت**٢٨٥هـ** علم من أعلام اللغة والبلاغة والاخبار والنوادر ، وله من المؤلفات والمصنفات ما استوجب ان يلتحق بخدمته عدد من الوراقين ليكونوا الواسطة في نشر علومه بين الناس من خلال استنساخ تلك المؤلفات والمصنفات •

ومن الوراقين الذين التحقوا بخدمتــه ابن الزجاجي اسماعيــل بن أحمد والساسي ابراهيم بن محمد ، وقد ذكر انهما قد تخصصا بوراقــة المبرد[٣٠] •

٦ ـ ابو زكريا يحيى بن عدي بن زكريا المنطقي ت٣٦٤هـ/٩٧٤م :

نسبت اليه رئاسة أهل المنطق في زمانه ، وهو ممن وصف بالصبر في ملازمة النســخ حتى نسخ بيــده الكثير من المؤلفات والمصنفات المتنوعة ، وبالخصوص من كتب المتكلمين ، بل قال عن نفسه أنه يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة أو أقل من ذلك •

وابو زكــريا هــذا كان محط انظــار معارفه بسبب شغفه بالوراقة والنسخ ، وانشغاله عهم ، ولما عاتبه حدهم لكثرة انقطاعه عنهم ، أجــابه انــه بسبب خبرة هــذا نسخ نسختين من تفسير الطبري للقرآن الكريم ،

وحملهما الى ملوك الأطراف • وهنا يعني أن انتاجـه بالنسخ والوراقة لم يقتصر على بغداد ، بل كان يمتد الى أطراف الدولة العربية • ولا ندري هل حبه للعلم ونشره كان يدفعه الى ذلك ام رغبته في الحصول على المال والرزق كانت هي سبب ذلك ، وهل ان معاتبة معارفه على ملازمته للنسخ كانت بدافع الحسد لـه أم حرصا منهم على لقـائه والاجتماع به للافادة منـه[٣١] •

٧ ـ ابو الفرج محمد بن اسحاق النديم ت ٣٨٥هـ :

وهو مصنف كتاب « الفهرست » المشهور الذي دل فيـه على سعة اطلاعـه في مختلف العلوم والفنون وتحققـه من أنواع المصنفات • قـال ياقوت الحموي عنه : « كان وراقا يبيع الكتب »[٣٢] • ولعل الراجح في سعة اطلاعه وتحققه من الكتب والمؤلفات يعود الى امتهانه الوراقة والكتابة ، ومن الجدير ذكره ان عصره يحتل أبهى عصـور الوراقة ، وأن جـودة ودقة الكتب التي نقلت في عصره يدل على مبلغ رقي هذه الصناعة[٣٣] •

أما الكتـابة فكانت حرفـة تتطلب المعرفة بفنون متنوعة من العلوم والمعارف واطلاع واسع فيهما ، فهاتان الصناعتان (الكتابة والوراقة) مكنت ابن النديم من العلم الواسع في معظم ما ألف باللغـة العربية من مختلف حقول المعرفة •

ويرى بعض الباحثين[٣٤] ان ابن النديم كان أمينا لمكتبة ما في بغداد ، بل من الممكن ان يكون كتابه « الفهرست » في الأصل فهرسا لتلك المكتبة • ونحن نستبعد ما ذهب اليه صاحب هـذا الرأي ، اذ ليس من المعقول ان يكون أديبا وعالما مثل ابن النديم أمينـا لمكتبـة ما في بغداد ويجهل اسمها ومكانها سواء كانت من المكتبات العامة أو الخاصة ، خصوصاً وان لها فهرسا بمحتويات فهرست ابن النديم •

٨ ـ ابو الحسن علي بن أحمد الدريدي :

ينتسب أبو الحسن هذا الى ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد المتوفى في بغداد سنة ٣٢١هـ) وهو صاحب كتاب « الجمهرة في علم اللغة » وغيره من المؤلفات ، وان السبب في هذا الانتساب يعود الى تخصصه بخدمته وتفرده بالوراقة له ، بل لقد درت كتبه بعد موته .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان هذا النوع من التخصص بالوراقة لأعلام الادباء والعلماء تقتضيه حالة خاصة قد تعود بشكل أو بآخر الى الثقة المتبادل والمصالح المتوازنة بين ذلك الاديب والعالم ووراقة المتخصص بخدمته(٣٥) .

٩ ـ ابن كوجك علي بن الحسين بن علي العيسي الوراق :

وهو من عائلة عرفت بالأدب والشعر والحديث ، ولهذا فامتهانه الكتب والاثار العلمية الشيء الكثير كتب منها مؤلفه لا اعز المطالب الى اعلى للوراقة(٣٦) ذو صلة بنشأته . وكانت له من المراتب في الزهد » للشابشتي صاحب كتاب « الديارات » .

والظاهر ان عائلة ابن كوجك كثيرة الرحلة في طلب العلم ، في أرجاء الدولة العربية ، منها ما ذكر عن تحديث أبيه في طرابلس وسماع ولده علي للحديث في مصر والشام والساحل ووفاته هو بعد سنة ٣٩٤هـ في مصر .

١٠ـ ابن الخاضبة ابو بكر محمد بن أحمد بن عبدالباقي الدقاق :

وهو من الحفاظ الذين اشتهروا بالقراءة الصحيحة والنقل المستقيم ، ذو ورع وتدين ، سمع الحديث في العراق والشام والحجاز . وتشير

المصادر الى انه امتهن الوراقة بعد ان فقد داره وكتبه وامتعته على أثر غرق بغداد سنة ٤٦٦هـ ، فوجد في هذه المهنة ما يكفل اعالة اسرته المكونة من والدته وزوجته وابنته •

غير أن ابن الخاضبة لم يكن سعيدا بوراقته بسبب ما يبذله من جهد وعناء وصبر فقد ذكر انه نسخ صحيح مسلم في السنة التي فقد فيها داره ومتاعه سبع مرات ربما بسبب حاجته ، بيد أنه لم يخف جزعه من الوراقة فيما قص من رؤياه ذات ليلة انه دخل الجنة فاستلقى على قفاه ، ووضع احدى رجليه عى الأخرى ، قال : آه استرحت والله من النسخ •

ولا شك ان ادقة والمهارة والضبط والامانة التي تحتاجها الوراقة مع صيق مواردها كانت من أسباب هذا الجزع لدى ابن الخاضبة •

١١ـ دلالو الكتب :

لبيع الكتب علاقة وثيقة بالوراقة ، ذلك ان من يمتهن دلالة الكتب غالبا ما يكون من أهل الأدب والعلم ومن ذوي الاطلاع الواسع بجهود الوراقين والمؤلفين وانتاجاتهم العلمية •

ولنا في الأمثلة التالية خير شاهد على ما نقول •

دلال من بغداد :

الحظيري أبو المعالي سعدي علي بن القاسم الانصاري البغدادي ت ٥٦٨هـ ، اشتهر بدلالة الكتب وهو من أهل الادب والشعر وله في ذلك مصنفات عدة ، وذو اطلاع واسع على أشعار الناس وأحوالهم • وينسب الى موضع الحظيرة قرب بغداد التي اشتهرت بالثبات الحظيرية •

دلال من مصر :

ابن صورة[٣٢] ابو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي بن خلف الانصاري ت ٦٠٧هـ • اشتهر هذا السمسار ، بأنه كان يجلس في داره في يومي الاحد والاربعاء من كل اسبوع ، فيجتمع عنده أهل العلم والأدب فيعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده حتى ينقضي وقت السوق ، وكأنه يقيم معرضا للكتاب يما نعرفه اليوم •

دلال من بخارى :

باع أحد الدلالين للكتب كتابا للعالم الفيلسوف ابن سينا ومضمونه في شرح كتاب « ما بعد الطبيعة لارسطو » وهو من مؤلفات الفيلسوف أبي نصر الفارابي بسعر زهيد لا يتجاوز ثلاثة دراهم ، ومن الغريب ان يكون هذا الحدث نقطة التحول في استلهام[٣٨] ابن سينا لكتاب ارسطو بعد ان اعياه ادراكه وفهمه بالرغم من اعادة قراءته أربعين مرة • أليس هذا بسبب دلال الكتب الذي اعان ابن سينا في مهمته وأخذه بيده لما فيه الخير والصلاح •

١٢- أبو حاتم الوراق :

وهو من قرية كشم من رستاق نيسابور ، وقد امتهن الوراقة[٣٩] فيها خمسين سنة ، ولم يعرف عنه عدا ذمة لمهنته بسبب فقره وحاجته فقال فيها :

ان الوراقة حرفة مذمومة —
محرومة عيشي بها زمن
ان عشت عشت وليس لي أكل
أو مت مت وليس لي كفن

وليس لدينا ما يشير الى رصديه بالوراقة من حيث كمية انتاجه من جهة أو دقته فيما يستنسخ من جهة أخرى •

١٣ـ **سندي بن علي :**

وهو من الوراقين الذين اختصوا بخدمة اسحاق الموصلي ، وكان له دكان للوراقة في طاق الزبل • وقد اتهم هـذا الوراق بانتحال نسـبة كتاب « الاغاني الكبير » لاسحاق الموصلي ، بينما تشير بعض الروايات عن حماد بن اسحاق نفيه ان يكون أبوه قد ألف هذا الكتاب ، لأسباب كثيرة ، منها ان ما ورد من أشعاره وأخباره هي مما يعود الى فترة متأخرة عن أبيه ، وان أكثر ما نسب للمغنين من الشعر ليس صحيحا ، وتؤكد هذه الرواية على ان اسحاق لم يكتب غـير المقدمة للكتاب وما بقي هو من انتحال هـذا الوراق(٤٠) •

١٤ـ **الكرماني أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن موسى :**

اشتهر الكرماني بتضلعه في اللغة والنحو ، وكان ذو خط مليح ونقل صحيح ، مما جعله مرغوبا في نسخه عند الناس مؤهلا لمهنة الوراقة التي اتخذها وسيلة للرزق والكسب ، وفضلا عن ذلك فله عدة مؤلفات في اللغة والنحـو •

١٥ـ **التستري ابن علي الوراق :**

عرف بامتهانه الوراقة ، وان كان ذو خط رديء ، مما يفقده أهـم الركائز الاساسية للوراقة • ويؤكد ان النديم مهنة الوراقة له ، باطلاعه على فهرس كتاب « الالقاب » لمحمد بن حبيب السكري بخط التستري عند أبي القاسم بن أبي الخطاب في الفرات •

١٦ـ الملقبون بالوراق(٤١) :

هناك بعض الأسماء تحوز على لقب « الوراق » لكننا لم نتبين جهدها بالوراقة ، ولعل الأصل في اللقب انه يعود الى امتهان ذات الشخص لصنعة الوراقة ، أو انه كتسب هذا اللقب من عائلته التي مارست هذه المهنة في عصر من العصور السابقة له •

ومن هؤلاء :

عبيدالله بن أبي سعيد الوراق ، الذي عرف عنه بأنه كان اخباريا نسابة يروي الشعر ، وله عدة مؤلفات بفنون مختلفة •

أبو اسحاق ابراهيم بن صالح الوراق ، وهو أيضا ممن اشتهر بالادب والشعر •

علي بن محمد الوراق ، وهو أحد الرواة عن الجاحظ ومحمود الوراق الذي اشتهر بشعر الحكم •

١٧ـ أبو يحيى زكريا بن يحيى :

وهو من وراقي الجاحظ فيما ذكر ابن النديم ، انه رأى كتاب « النساء » وكتاب « النعل » وهما للجاحظ بخط هذا الوراق • ولا ندري هل كان امتهانه للوراقة عند الجاحظ من أجل الكسب والرزق أم زيادة في المعرفة ام كلاهما •

١٨ـ أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي دجانة المصري الكاتب الوراق :

وصف هذا الوراق بجودة الخط ، وان أخذ عليه قلة السقط في النسخ • وهو من أهل مصر الذين اقاموا في بغداد للوراقة والكتابة ، ذكر

عنه انه كان حياً في سنة ٣٨٤هـ .

١٩ـ ابو الفتح ابن الحراز :

كان صاحب دكان في سوق الوراقين في بغداد يجتمع عنده أهل العلم والأدب للمناظرة ، فيما اسرنا لصورة مسها في مناسبة سابقة(٤٢) .

٢ـ شهاب‌الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الجنس والمولد الحموي المولى البغدادي الدار :

روي عن ياقوت الحموي انه بعد أن أتم قراءة النحو واللغة العربية ، اشتغل بالنسخ والوراقة حتى تحققت له فوائد جمة في سعة الاطلاع على المعارف والفنون المختلفة ثم مارس مهنة التجارة في الكتب وارتياد المكتبات العلمية للانتهال من خزائنها مما يسر له قدرات الاديب البارع والمؤلف المبدع .

ولعل انتساب ياقوت الى الوراقين جعله يتتبع تراجمهم في سفره الخالد « معجم الادباء » بمعية أهل العلم والأدب والفن من مختلف الاختصاصات .

توفي ياقوت في حلب سنة ٦٢٦هـ(٤٣) .

مخاطر الوراقة ومساؤها :

مع ان مهنة لوراقة كانت من أنجع وسائل نشر المعرفة ، قبل أن تعرف غيرها من الوسائل ، فأن لها مخاطرها الخاصة ، كالرواية الكاذبة وتزوير الحقائق والدس فيها والتصحيف والوهم والانتحال وغير ذلك من الأخطاء المقصودة والعفوية .

وفيما يلي صورة لبعض هذه المخاطر .

١ ـ الانتحال :

يلجأ بعض الوراقين الى انتحال أسماء المؤلفين المشهورين لما ينسخون، بغية تحقيق الكسب واالنفع ، دون الاهتمام بمـا يسبب ذلك من المساوىء العلمية والاجتماعية •

ومن الأمثلة على ذلك ما أشرنا اليه في كلامنا عن « سندي بن علي الوراق » وما قيل من انتحال اسم اسحاق الموصلي لمؤلفه « الاغاني الكبير » ومثل ذلك كثير •

٢ ـ الغش في المعاملة :

عُرف عن أبي محمد عبدالله بن أحمـد بن الخشاب المتوفى سـنة ٥٦٧هـ عمه الواسع بالنحو والحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسـفة والحساب والهندسة والفرائض وغيرها من المعارف ، وكان ذو حظ مليح وجمع من الكتب الشيء الكثير ، وقرأ عليه الناس وانتفعوا بعلمه •

ومع ذلك فهو « اذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال : انه مقطوع ليأخذه بثمن بخس ، واذا استعار من أحد كتابا وطالبه به قال : دخل بين الكتب فلا أقدر عليه »(٤٤) •

فلعل سلوك ابن الخشاب هذا يشير الى حالة عربية أو متعارف عليها في سوق الوراقين • والغريب في أمر ابن الخشاب ، انه وقف كتبه على أهل العلم بعد وفاته •

٣ ـ الاحتكار في السعر :

عرف الوراقون حاجة الناس لكتب الفراء ت ٨٢٢م ـ ٢٠٧هـ بسبب

براعته في اللغة والنحو وتشوقهم لكتابيه « المشكل » و « المعاني » حتى كانوا يشترونهما من الوراقين « كل خمس اوراق بدرهم » ، فشكى الناس ذلك الى الفراء ، فجلس يملي كتاب « المعاني » أتم شرحا وأبسط قولا من الذي املي من قبل ، فنسخه الوراقون « كل عشر أوراق بدرهم »(٤٥) ٠

وبهذه الطريقة تخلص الناس من احتكار الوراقين واستغلالهم لحاجة الناس العلمية ٠

٤ ـ الخط الرديء :

لعل حسن الخط وجماله من أبرز صفات الوراق الناجح ، الا أن بعض الوراقين ، لم يكن ممن يحسن الخط ، بل وصف خطه بالرداءة ، وهذه صفة مذمومة في الكتابة والنسخ لما يترتب عليها من مخاطر التصحيف والوهم وصعوبة القراءة ، والوراق التسري الذي تينا عليه من هذا النوع ٠

٥ ـ التصحيف والخيانة :

الدقة في النسخ وضبط المنسوخ من صفات الوراق الأمين ، ومن هنا نصح الفقهء النساخ بالأمانة بالنسخ ٠

غير ان بعض الوراقين اشتهر عنهم التصحيف والوهم ، وتلك علامة خطيرة تقلل ثقة أهل العلم بما ينقله وينسخه ذلك الوراق ٠

ولنا فيما أشار ابن النديم بوصفه لطيغور بكثرة التصحيف واللحن دليل في ذلك وقد قيل ان من آفات العلم خيانة(٤٦) الوراقين ، وكان العلماء الذين يحصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم ان استطاعوا ٠

كما يترتب على الوراق الذي يرغب في استنساخ كتاب ما لأي سبب

كان ان ينال موافقة مؤلفه ليكون شرعيا بعمله ، وان سلوكا يخالف ذلك يعتبر مخلا في شرعية الوراقة وخيانة للمهنة ، ولعل اذن النشر في عصرنا الحاضر صورة لتلك الحالة .

٦ ـ الفقر وضيق الموارد :

لم تكن الوراقة مهنة مربحة كغيرها من المهن التي تدر ربحاً وفيراً . فقد ذكر ان اجرة(٤٧) نسخ المصحف الشريف ديناران ونسخ الكتاب دينارا واحد وان أعلى أجور الوراقة في خزانة الوزير ابن حنزاية لم تتجاوز المائة دينار .

وعليه فأن امتهان الوراقة لم يكن بالضرورة بدافع النفع المادي بقدر ما هي حاجة ملحة من جهة أو أنها بدافع الرغبة في الاستزادة من العلم والاطلاع على المعارف .

ولهذا فقد أعرب بعض الوراقين عن ضيق موارده في الوراقة بينما أشار البعض الآخر عن معاناته وآلامه من متاعب الوراقة ، وكان ذلك في أوضح صورة لدى ابي حاتم الوراق وابن الخاضبة كما أشرنا آنفا .

غير اننا وان أشرنا الى بعض عيوب ومخاطر الوراقة والوراقين ، الا أنها كانت الوسيلة المهمة لنشر المعارف والعلوم بين أطراف الدولة العربية المختلفـة .

كما ان العالم اذا لم يكن فقيها صاحب منصب اداري ، ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب والوراقة ، وهذا مما يرفع من شأنها وقيمتها العلمية والثقافية اه

ولاشك ان الصبر والدقة في النسخ همـا أهـم مميزات من يمتهن

الوراقة ، وفيما استعرضنا من الوراقين من توفرت به صفة الصبر ، منها مزاولة ابي حاتم الوراق لهذه المهنة خمسين عاما مع ضيق حاله وفقره ، ونسخ ابن الخاضبة لصحيح مسلم سبع مرات في السنة ، أو نسخ أبي زكريا الوراق لنسختين من تفسير الطبري ، كلها أمثلة تنم عن تمتع أصحابها بصفة الصبر .

أما الدقة في النسخ فهي مهمة أخرى يحرص عليها الوراقون وأهل العلم جميعا ، فقد بلغ الحرص في هذا الجانب بأحد العراقيين ممن اشتهر بجمع الكتب واقتنائها في خزانة اكتنز فيها القديم من المخطوطات من الجلود والصكاك والقرطاس المصري وأنواع الورق الصيني والتهامي والخراساني، انه كان على كل مدرج توقيع الكاتب وتحته شهادات خمسة أو ستة أجيال من العلماء(٤٨) .

المصادر والمراجع

(*) البحث لا يعنى بالكلام عن الورق وصناعته ، ولا بمواد الكتابة وأدواتها ، بل ينصب على صنعة الوراقة والوراقين ·

(١) الفراهيدي : العين مادة ورق ، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي ، مطابع كويت تايمز ، وزارة الثقافة والاعلام · دار الرشيد للنشر ١٩٨٢ · الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس مادة ورق ط١ المطبعة الخيرية مصر ١٣٠٦هـ · القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ٤٨٧/٢ ، مطابع كوستاتوماس ·

(2) Encyclopeadia of Islam. 2, (Kaghad), Leiden, E. J. Brill, 1965.

الدكتور فيليب حتي وآخرون : تاريخ العرب الطول ٥٠٣/٢ ، ط٢ دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٥٣ ·
ويفسر الكاغد بمعنى القرطاس والصحيفة وهو معرب ويتخذ من بردي يكون بمصر · انظر صبح الاعشى ٤٨٥/٢ ، تاج العروس مادة كاغد ومادة قرطس · حسن حسني عبدالوهاب : البردي والرق والكاغد في افريقيا ص٤٥ ، مجلة معهد المخطوطات العربية مج٢ ج١ مطبعة مصر ١٩٥٦/١٣٧٥هـ ·

(٣) الثعالبي : لطائف المعارف ص٢١٨ ، تحقيق ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي ، دار احياء الكتب العربية ١٣٧٩/١٩٦٠ و
جروليبه : تاريخ الكتاب ص٢٦ ترجمة د· خليل صايات ومراجعة حسن حسن محمود مكتبة نهضة مصر ·

(4) Encyclopadia Britanica, 14. (Paper), London, 1929.

(5) I. E. 2, (Kaghad).

(٦) ابن النديم : الفهرست ص٣٨ ، مطبعة الاستقامة القاهرة ·

(٧) الفهرست ص٣٧ ·

(٨) لطائف المعارف ص٢١٨ ٠
(٩) ن٠م ص١١٦ ، ٢١٨ ٠
(١٠) تاريخ العرب المطول ٢/٥٠٣ ٠

(10) E. I. 2, (Kaghad).

البردي والرق والكاغد ص٤٥ ، الدكتور محمد طه الحاجري : الورق والوراقة في الحضارة الاسلامية : ص١٣٥ ، مجلة المجمع العلمي العراقي مج١٢ مطبعة المجمع ١٣٨٤/١٩٦٥ ٠

(١١) ابن خلدون : المقدمة ص٤٢١ ـ ٤٢٢ ، دار القلم ط١ بيروت ١٩٧٨ ، صبح الاعشى ٢/٤٨٦ ٠

E. I. 2, (Kaghad).

(١٢) مجلة دار القز : « مجلة كبيرة ببغداد في طرف الصحراء بين البلد وبينها اليوم نحو فرسخ ، وكل ما حولها قد ضرب ولم يبق الا أربع محال متصلة دار القز والعتابيين والنصرية وشهارسوك والباقي تلول قائمة، فيها يعمل اليوم الكاغد » ٠ ياقوت الحموي : معجم البلدان ٢/٤٢٢ ، دار صادر بيروت ٠

(13) E. B. 14, (Paper).

(١٤) السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص١٣١ ـ ١٣٣ ، حققه محمد على النجار وجماعته ، ط١ دار الكتاب العربي مصر ١٣٦٧/١٩٤٨ ، الدكتور حسن الباشا : الفنون الاسلامية ولظائف على الاثار العربية : ٣/١٠٢٣ ، ١٠٢٥ ، ٧٢ـ١ ، ١١٧٧ ، ١٣٢١ ، دار النهضة العربية ١٩٦٦ ، عبدالله عبدالرحيم السوداني : التجليد عند المسلمين ص١ ، بغداد ١٧٥ كراسة مطبوعة بالآلة الكاتبة ٠

(١٥) معيد النعم ص١٣١ ، المقدمة ص٤٢١ ، مقدمة كتاب الفهرست ص٤ ٠
(١٦) المقدمة ص٤٠٥ـ٤٠٦ ٠
(١٧) صبح الاعشى ٢/٤٨٦

E. I. 2, (Kaghad).

وترى مصادر أخرى ان الذي أشار باستعمال الورق هو من رجال دولته ولاشك ان ذلك بتوجيه منه ، المقدمة ص٤٢٢ ، والمقريزي : الخطط ١/١٦٣ ، مطبعة الساحل الجنوبي لبنان ٠

(١٨) صبح الاعشى ٢/٤٨٧ ٠
(١٩) الفهرست : ٩٥ ، ١٠٥ ، ياقوت الحموي ومعجم الادباء ٧/١٧٦ ، ١٢/١٩٢ ، بأشراف الدكتور أحمد الرفاعي ، دار احياء التراث ، بيروت ٠
(٢٠) الفهرست ص١٧٥ ٠
(٢١) معجم الادباء ١٣/١١٢ ، الدكتور أحمد سلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص٤٣ ، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع مصر ١٩٥٤، الدكتور محمد ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام ص٨٠ ، ط٣ ٠ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١/١٩٨١ ٠
(٢٢) اليعقوبي : البلدان ص٢٤٥ ، ليدن بدل ١٨٩٢ ٠
(٢٣) البلدان ص٢٤٦ ٠
(٢٤) وبقى وضاح مولى أمير المؤمنين المعروف بقصر وضاح صاحب خزانة السلاح ، انظر معجم البلدان ٤/٣٦٤ ٠
(٢٥) طاق الحراني : محلة ببغداد بالجانب الغربي ، معجم البلدان ٤/٥ ٠
(٢٦) الفهرست ص٢٢٠ـ٢٢١ ٠
(٢٧) تاريخ العرب المطول : ٢/٥٠٢ ٠
(٢٨) الفهرست ص٢٠ ، ١٦٠ ٠
(٢٩) معجم الادباء ١٥/٧٧ـ٧٨ ٠
(٣٠) عن طيفور ومجلدي بيت الحكمة ووراقي المبرد يراجع الفهرست ص٢١٥ ، ٢٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ٠
(٣١) القفطي : تاريخ الحكماء ص٣٦١ ، تحقيق ليبرت ، لايبزك ١٩٠٣ ٠
(٣٢) معجم الادباء ٨/١٧ ٠
(٣٣) مقدمة كتاب الفهرست ص٤ـ٥ ٠
(٣٤) تاريخ العرب المطول ٢/٥٠٢ ٠
(٣٥) الفهرست ص٩٧ ، معجم الادباء ١٢/٢٢٣ ٠
(٣٦) معجم الادباء ١٣/١٥٧ ، ١٧/٢٢٧ـ٢٢٨ ، ١١/١٩٤ ٠
(٣٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١/١٩٧ ، ٢/٣٦٨ ، بتحقيق د٠ احسان عباس مطبعة الغريب بيروت ١٩٧٢ ٠
(٣٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٣٢٦ـ٣٢٧ ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩٠ ٠

(٣٩) الثعالبي : يتيمة الدهر ٤٠٣/٤ ط١ مطبعة الصاوي مصر ١٣٥٢/ ١٩٣٤ .

(٤٠) الفهرست ص٢٠٩ ، ١٢٤ ، ١٦١ .

(٤١) معجم الادباء ١٦٢/١ ، ٧٧/١٦ .
المبرد محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة والادب ٥٣٤/١ ـ ٢٣٥ ، مؤسسة المعارف بيروت (١٤٠٥/١٩٨٥) .

(٤٢) معجم الادباء ١٠٦/١٦ ، ٢٢٣/٢ ، ١١٢/١٣ .

(٤٣) زيادة في الاطلاع يراجع وفيات الاعيان ١٢٧/٦ـ١٣٩ .

(٤٤) معجم الادباء ٥١/١٢ .

(٤٥) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ١٩٩/٢ ـ ٢٠٠ ، نقله الى العربية د. عبدالحليم النجار دار المعارف مصر ١٩٦١ .

(٤٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٤٣/١ ترجمة أبو ريدة ط٤ بيروت ١٣٨٧/١٩٦٧ .

(٤٧) احسن التقاسيم ص١٠٠ ، معجم الادباء ١٧٦/٧ ، تاريخ التربية الاسلامية ص٤٢ .

(٤٨) الحضارة الاسلامية ٣٤٢/١ ، تاريخ العرب المطول ٥٠٢/٢ .

عبدالحميد بن باديس

ودوره في الحركة الوطنية في الجزائر

الاستاذ الدكتور نزار الحديثي

عميد معهد الدراسات القومية والاشتراكية

رئيس جمعية المؤرخين والاثاريين

المقـــدمة :

تكتسب دراسة المفكرين العرب والمسلمين أهمية خاصة في المرحلة الراهنة في محاولة لاستيعاب المفكرين الذين لعبوا دورا في تطوير وانضاج مواقف فكرية أسهمت في انضاج موقف فكري عــام ، فعــدا عن كشــفها لأدوارهم وطبيعة الاتجاهات الفكرية في المرحلة التأريخية فهي أيضا جزء من منهجية لابد منها لمن يسعى لتكوين نظرة شمولية للاتجاهات الفكرية في الوطن العــربي • وبالتالي الاجابة عــن التساؤل المهم أي فكــر نعني بدراستنا ؟

ويحتل عبدالحميد بن باديس موقعه بجدارة في قائمة المفكرين الذين يجب ان تتم دراستهم لاعتبارات عديدة ، فهو يأتي في مرحلة اعتقد فيهــا المستعمر الفرنسي انــه اجهض والى الأبد الشــخصية الجزائرية ، وان سياسته في الطمس والادماج على اعتاب تحقيق أهدافها ، خاصة بسياسته التي استنزف بها روح التحدي لدى الشعب الجزائري منــذ بدء الاحتلال عام ١٨٣٠ مروراً بالثورات التي واجهت الاحتلال والتي أكثرها شمولا ثورة عبدالقادر الجزائري (١٨٣٠ ـ ١٨٤٧) ، وهــو أيضا يمثــل حالة

وضوح فكري استوعبت الثوابت الأساسيه في حياة الجزائر جغرافية وتاريخا وثقافة في وقت سجل العمل السياسي من خلال الأحزاب تراجعات في الرؤية بدت تضيق تدريجيا لتتأقلم في حدود (الجزائر) ، فبعد الوضوح الذي يعكسه الأدب السياسي كما تكشف عنه الوثائق الخاصة بتأريخ الجزائر في القرن التاسع عشر ، يلاحظ المتابع التدرج نحو الاقلمة في فكر الحركات السياسية والجمعيات والأحزاب في ثلاث نماذج هي حركة الامير خالد وحركة نجم شمال افريقيا وحزب الشعب الجزائري ويتجلى وضوح عبدالحميد بن باديس في دلالات متعددة فعدا عن رؤيته لحاجة الجزائر في ذلك الوقت التي تتجاوز حدود الأحزاب التقليدية ، فقد سجل لنفسه الريادة في حل واحدة من المعضلات التي واجهت حركة التحرر العربي نتيجة لسياسة الحقبة الاستعمارية ، وهي مشكلة علاقة العروبة بالاسلام أو علاقة العرب التي كان يترتب عليها : ففاجأ الاستعمار الفرنسي في الحقل الذي اختاره للمنازلة النهائية ، ان هده الريادة وجهوده في تكوين قاعدة اجتماعية واعية تسلح بالوعي الابتدائي للثورة بعيدا على ثقافة الاستعمار كانت من العوامل التي مهدت الأرض لثورة فيما بعد بما اوجدت من حاجز نفسي بين الشعب وبين المحتل • وتكتسب دراسة عبدالحميد بن باديس أهميتها من الاطار العام الذي انتضمت فيه والعصر الذي ظهر فيه مفكرا . فما من شك ان حركة عبدالحميد بن باديس جزء من تحرك واسع شمل المغرب العربي ظهر في أواخر القرن التاسع عشر في تونس على يد محمد بيرم ومع ان هناك وجهتي نظر في المؤثرات التي تقف وراء حركة محمد

(١) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٣) ص٨٧ • وعبدالعزيز الثعالبي •• تونس الشهيرة (دار القدس بيروت ، ١٩٧٥) ص٨ من مقدمة المترجم سامي الجندي •

بيرم التونسي واحدة تنسبها لحركة محمد عبده والأخرى تنسبها الا انني أميل الى ان نشأة حركة الاصلاح في تونس تطور محلي دون اهمال لقيمة التقاءه بكل من محمد عبده وجمال الدين الافغاني في باريس أثناء زيارتهما لها سنة ١٨٨٤ حيث زار محمد عبده تونس بعد ذلك مرتين في سنة ١٨٨٥ وفي سنة ١٩٠٣ . لقد ظهر التعاطف بين حركة الاصلاح في الجزائر وتونس من جهة وبينهما وبين حركة محمد عبده من جهة أخرى ونكتشف العديد في كتابات ابن باديس هذا الأمر بوضوح كما كان خصومه يدركون ذلك أيضاً . ولم يتبين لي الاطلاع على مواقف محمد عبده من حركة الاصلاح في أقطار المغرب العربي ومن أهدافها ونضالها لتقدير دوافعه الحقيقية .

الاوضاع الاجتماعية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي :

تمخض عن الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ بدء الهجرة الاوربية غير انها لم تكن نشطة أو واسعة حتى ١٨٣٣ بلغ عدد المهاجرين ثمانية آلاف مهاجر ، وقد لاحظت الحكومة الفرنسية هذا الوضع فلجأت الى تشجيع هجرة الاوربيين بغض النظر عن جنسياتهم وطبقت سياسة تقديم الخدمات والمعونات الى المهاجرين فكانت تقدم لهم الحبوب والمواشي والمساكن اضافة الى منحهم الاراضي مجانا(٢) ، فتطورت اعداد المهاجرين بسرعة وبلغت سنة ١٨٣٩ (٢٥) الف مهاجر وفي سنة ١٨٤٧ (١١٠) الف مهاجر وفي سنة ١٨٦٦ (٢٢٠) الف مهاجر وفي سنة ١٨٩٩ أصدرت الحكومة

---

(٢) الدكتور تركي رابح / الشيخ عبدالحميد بن باديس ، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٧٤) ص٢٤ . نقلا عن مجلة المجاهد (عدد خاص) وزارة الاخبار الجزائرية ١٩٥٩ . يتضمن خطابين للجنرال بيجو الحاكم العام الفرنسي في الجزائر من سنة ١٨٤٧ ومهندس سياسة الاستيطان الاوربي فيها .

الفرنسية قانونا يمنح الجنسية الفرنسيه لجميع الأجانب الموجودين في الجزائر ممن تبلغ أعمارهم عشرين عاما فأكثر مع حق الاحتفاظ بالجنسيه الأصلية فوصل عدد الاوربيين في الجزائر سنة ١٩٤٨ (٩٣١و٨٠٠) الف مهاجر منهم (٧٤٤) الف ولدوا فيها[٣] .

ترتب على الهجرة انتشار العنصر المرتبط بالاحتلال ، وكان لابد ان يتم هذا على حساب السكان الاصليين الذين نزعت من أيديهم الأراضي ودفعوا نحو الصحراء ، مقصد تحويلهم الى أقلية تعيش حالة الانكفاء . ولم تقتصر هذه السياسه على هذا الجانب انما امتدت الى تخريب البناء الاجتماعي بأجراءاتها الخاصة بالبربر[٤] وشجعت البعثات التبشيرية (الاباء البيض) في تغيير عقيدة السكان والتبشير بالمسيحية الممهدة للاحتلال والمبشرة بادماج السكان بفرنسا في الوقت الذي لجأت الحكومة الفرنسية الى اعدام الرهبان واحراق الكنائس في بلدها لانهم كانوا في فرنسا معارضين للحكومة، كما شجعت المعابد اليهودية ومنحت اليهود الجنسية الفرنسية[٥] . ركزت السياسة الاستعمارية في الجزائر على ابقاء المواطن الجزائري اسير التخلف ويعطي تطور الأجور فكرة واضحة عن صيغ التعامل مع المواطن الجزائري وأهدافها فحتى عام ١٩١٠ لم تكن أجور العامل الجزائري تتجاوز (٥ر١)

---

(٣) نفس المصدر ، ص٢٧ . وللمزيد من المعلومات عن تطور الهجرة ، انظر فرحات عباس / ليل الاستعمار (ترجمة أبو بكر رحال) ص٩٥-٩٧ .

(٤) الدكتور نزار الحديثي : الامة العربية والتحدي (بغداد ، ١٩٨٥) ص٦٥٧ ، الحسن بو عياد : الظهير البربري (دار الطباعة الحديثة ـ المغرب ١٩٧٩) ص٢٧ وما بعدها .

(٥) فرحات عباس / المصدر السابق ص١٠٥ تركي رابح / المصدر السابق ٤٧ .

فرنك فرنسي مقابل ١٤ ساعة عمل[٦] وقد عززت الحكومة الفرنسية هذه الاوضاع بمحاربتها التعلم الوطني وفرض التقهقر عليه تنفيذا لموقف سياسي عنصري عبر عنه استاذ التشريع الجزائري الفرنسي (لارش) بقوله : (لا سبيل انجح لفرنسا من التعليم الابتدائي لتخليص السكان المسلمين من الأفكار المسبقة التي تحول بهم دون مدنيتنا ولرفع مستواهم الأدبي والثقافي)[٧] لهذا اتجهت الى تضييق نطاق التعليم الوطني الى أضيق الحدود وجعلته مقتصرا على العلوم الانسانية والنظرية ان وجدت وحاربت اللغة العربية وحرمت استخدامها في جميع المجالات[٨] •

ولم تقتصر السياسة الاستعمارية على هذه الممارسات انما اتجهت الى الاجهاز النهائي على الثقافة الوطنية بتبديد ثروتها من الكتب والدعوة الى العامية ومحاولة احياء اللغات القديمة وتدريس اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية ووضع اليد على الاوقاف الاسلامية التي كان التعليم يعتمد عليها اعتمادا أساسيا • والسعي لخلق طبقة من المثقفين الوطنيين المرتبطين بالثقافة الاستعمارية المعتنقين سياستها[٩] •

---

(٦) نفس المصدر ، ٢٤ •

(٧) عبدالحميد بن جلون / هذه مراكش (مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص١٤١ انظر ملاحظات اوجين كوميس في مجلس الشيوخ الفرنسي •
شارع اندرى جوليان / افريقيا الشمالية تسير (الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٦) ترجمة ص •

(٨) عبدالحميد بن جلون / هذه مراكش ص١٤١ ، ١٤٤ علال الفاسي / الحركات الاستقلال في المغرب العربي (مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٤٨) ص٧٠ •

(٩) الدكتور عمر فروخ – الدكتور مصطفى الخالدي / التبشير والاستعمار في البلاد العربية (المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٧٣) ص٢٢٤ •

لقد عبرت هذه السياسة عن نفسها في نسبة الأمية التي بلغت ٨١٪ من السكان الاصليين[١٠] • كشفت السياسة الفرنسية عن جوهرها الرامي الى اخضاع الثقافة لاشراف المحتلين والمستوطنين وتكريس التعليم للتعرف بتاريخ اوربا وحضارتها أو تجهيل السكان اذ كان هدفها (الادماج) أي ادماج الجزائر بفرنسا كذلك لجأت الى تحطيم القيم القومية والحضارية والروحية للشعب الجزائري •

المقاومة الجزائرية :

قاوم الشعب الجزائري السياسة الاستعمارية بعنف فلجأ الى الثورة ، وازداد تمسكه بالدين الاسلامي واللغة العربية ويعبر الخطاب السياسي الجزائري كما تكشف عنه الوثائق عن احساس عميق بالعروبة ليس ثقافياً انما انتماء ، غير ان روح الثورة حققت بانتهاء كفاح الامير عبدالقادر الجزائري عام ١٨٧٤ ولم تظهر حركات سياسية في هذه الفترة وحتى عام ١٩١٤ بسبب الاستنزاف الذي تعرض له المجتمع من خلال ثوراته وسياسة الأفتقار الاقتصادي والهجرة الى الخارج وفرض التجنيد الاجباري على الجزائريين وسياسة التجهيل وعنف واضطهاد السلطة المحتلة اضافة الى سبب ذاتي تمثل في انتشار الفرق الصوفية واشاعتها نزعة الهروب من الواقع • وقد بلغ عدد مؤيدي هذه الطرق (٣٠٠) ألف تابع تضمهم (٣٤٩) زاوية اسهمت في نشر البدع فأضافت الى سياسة الاحتلال تجهيل آخر ، وتخدير للسكان بعدما احتوتها السلطة المحتلة فأصبح اتباعها يبشرون بطاعة

---

(١٠) عبدالكريم غلاب / الثقافة والفكر في مواجهة التحدي (دار الثقافة ، المغرب ، ١٩٧٦) ص٢٠ • وانظر أيضا الدكتور تركي رابح / المصدر السابق ص٩٧ كيف حرق الجنرال دومال مكتبة عبدالقادر الجزائري •

السلطة المحتلة[١١] • غير ان أوائل القرن العشرين شهدت بداية تشكل جديد في الحركة اووطنية الجزائرية •

ويمكن اعتبار حركة الامير خالد[١٢] الجزائري بداية لها غير ان التشكل الجديد ظهر في حركة نجم شمال افريقيا عام (١٩٢٥) التي طالبت باستقلال المغرب العربي انكبير[١٣] وبالمقابل ظهر تيار يدعو للادماج سمي بحركة اتحاد المنتخبين المـ..ـنمين عام (١٩٣٠)[١٤] •

ان السمة الأساسية لهـذه الفترة هي الحماس الاجتماعي للحـركة باتجاه ما ، يحفظ للجزائر شخصيتها ويعبر عن رفضها الاحتلال غير ان كلا الاتجاهين اللذان ظهرا في هذه الفترة (حركة الامير خالد وحركة نجـم شمال افريقيا) لم يشكلا الحل الحقيقي المطلوب ولم يعبرا عن جوهر حركة الشعب رغم ايجابياتها فالاولى انطلقت أصلا من تشكيل اجتماعي سر قوامه النواب الجزائريين في المجلس البلدية والعمالية أي انـه انطلق من وسط يعمل في حدود ما يتيحه الاحتلال فهي حركة عرائضية ليس الا • اما الثانية فقد تشكلت في باريس سنة ١٩٢٥ من عمال المغرب العربي الكبير بقيـادة أحمد معالي الحاج ونادت باستقلال المغرب العربي الكبير ، والواقع ان ظاهرة الانكماش في الوعي في الجزائر ظهرت في الخطاب السياسي الجزائري بعد انتهاء ثورة عبدالقادر الجزائري ففي حين كان يوصف بقائد العرب وممثل

---

(١١) تركي رابح / المصدر السابق ص٩٨ •

(١٢) هو خالد بن الهاشمي بن الحاج الكبير بن عبدالقادر الجزائري عمل ضابطا في الجيش الفرنسي أثناء الحرب الاولى سعى الى تشكيل وفد جزائري يعرض قضية الجزائر في مؤتمر الصلح • المصدر السابق ص٥٦ •

(١٣) تركي رابح •• المصدر السابق ، ص٥٩ •

(١٤) نفس المصدر ، ص٦٢ •

القومية العربية بدأت تظهر في الخطاب السياسي مصطلحات الأسلام المجرد بدون العروبة وقد وجد هذا الانكماش انعكاسا له في العمل السياسي فالثورة أصبحت حركة عرائضية ثم حركة عمالية على مستوى المغرب الكبير ثم فيما بعد حزب الشعب في حدود الجزائر •

عبدالحميد بن باديس :

ولد عبدالحميد بن محمد المصطفى بن مكي سنة (١٣٠٨هـ ١٨٨٩) في قسنطينة من اسرة امتهنت العلم والسياسة معا ، فقد ناضل جده بدع الاسماعيلية والباطنية(١٥) • تعلم عبدالحميد على يد مدرس يعتنق الطريقة التجانية وسافر في عام ١٩٠٨ الى تونس وانتسب الى جامع الزيتونة وتأثر كثيرا بأستاذه الطاهر بن عاشور ، واليه يرجع الفضل في تكوين ابن باديس العروبي والاسلامي ، اذ يقول عن دروسه : « حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب وبث في روح جديدة في فهم المنظوم والنثور واحيت في الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما اعتز بالاسلام »(١٦) وجريا على عادة مؤمني المغرب الغربي ارتحل ابي باديس الى المدينة وزار الشام ومصر وعاد الى قسنطينة سنة ١٩١٣ • اكمل ابن باديس تعليمه وعاد الى الجزائر في زمن كان فيه العالم يتجه الى الحرب العالمية الاولى • وكانت الشكلة المراكشية أحد أبرز نقاط الانفجار التي تهدد العالم(١٧) ، بينما نشطت السياسة

---

(١٥) عمار الطالبي : اثار بن باديس (مكتبة الجزائر للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر ، الجزائر ، ١٩٦٨) ١/٧٢ ، ٧٨ ، ٨٠ • د• تركي رابح : المصدر السابق ص١٦٠ •

(١٦) عمار الطالبي • اصدر السابق ، ٣/٧٥ •

(١٧) محمد الميلي / ابن باديس وعروبة الجزائر (دار العودة — دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣) ص٣٧ وانظر عن المشكلة المراكشية محمد

الاستعمارية في الجزائر وظهرت نواياها الخطرة الرامية الى تفتيت البناء الاجتماعي بأصدارها سنة ١٩١٤[١٨] فعمل في التعليم في قسنطينة منذ سنة ١٩١٣ واختط لنفسه برنامجا في التربية والتعليم يخاطب العقل وينقد الخلل حيثما وجده • وقد ادرك ابن باديس قيمة الصحافة في ايصال اراءه وأفكاره للناس ، وعندما أصدر الشيخ عبدالحفيظ الهاشمي جريدة النجاح سنة ١٩٠٩ اشترك عبدلحميد بن باديس في تاسيسها[١٩] • واتجه الى تأسيس جريدة المنتقد سنة ١٩٢٠ وكان دقيقاً وواضحاً في اختيار اسمها لتعبر عن منهجه في النقد ضمن فكرة الاصلاح الديني[٢٠] ، غير ان السلطات الحاكمة لم تسمح لها بالاستمرار فأغلقتها بعد صدور ثمانية عشر عددا منها فأصدر جريدة الشهاب في سنة ١٩٢٥ وكانت اسبوعية ثم أصبحت مجلة شهرية سنة ١٩٢٩[٢١] اتسمت حياة ابن باديس بالنشاط والمثابرة الفكرية وترك ثروة لا تقدر من الأفكار والاراء في مختلف المجالات العلمية التربوية والاجتماعية يمكن تصنيفها على النحو التالي[٢٢] :

علي داهش • الجمهورة / الريف في مراكش (١٩١١ — ١٩٢٦) (رسالة ماجستير — معهد الدراسات القومية والاشتراكية — الجامعة المستنصرية ، بغداد) ص٤٨ ••

(١٨) شارل اندري جوليان / المصدر السابق ، ٤٧ ، ٣ ، ١٦٩ الدكتور صلاح عقاد / المغرب العربي (مكتبة الانجلو — مصرية ، ١٩٦١) ص٣٦ •

(١٩) عمار الطالبي : المصدر السابق • ٥٧/١ اضطر ابن باديس الى ترك اجله •

(٢٠) نفس المصدر : ٥٨/١ ، ٣٥٢/٤ •

(٢١) عمار الطالبي / المصدر السابق ٥٨/١ •

(٢٢) نفس المصدر / اعتمد هذا التقسيم الاستاذ الفاضل عمار الطالبي عند نشره الاعمال الكاملة لابن باديس وبعد قرائتي لها لاحظت دقة

١ ـ التفسير
٢ ـ شرح الحديث
٣ ـ مقالات

أ ـ قسم الاصلاح والثورة ضد البدع
ب ـ قسم السياسة
حـ ـ قسم البرقيات والاحتجاجات
د ـ قسم الاجتماعيات
هـ ـ قسم الخطب
و ـ قسم الشعر
ز ـ قسم التاريخ
ح ـ قسم العرب في القرآن
ط ـ قسم التراجم
ي ـ قسم الرحلات
ك ـ قسم تطور الشباب
ل ـ قسم الصلاة على النبي (ص)
م ـ قسم الفقه والتقوى

ابن باديس والحياة السياسية في الجزائر :

لم ينظر ابن باديس الى الحياة السياسية في الجزائر نظرة رضى لا بالنسبة الى الاحتلال ولا للموقف الشعبي العام • ويعكس شعاره هذه

تصنيفه تيسيره الاستدلال على أفكار ابن باديس ومواقفه دون ان يغني هذا عن القراءة الواسعة للراغب في مزيد من الوقوف على أفكار ابن باديس وتحليلها •

النظرة « الحق فوق كل احد والوطن قبل كل شيء »[٢٣] لقد انضم الى ابن باديس في تحرير المنتقد كتاب ومثقفون جزائريون شكلوا أول حزب المصلحين[٢٤] عرفوا (بالنخبة) • وليس واضحا ما اذا كان هذا التوجه عند ابن باديس معبرا عن افتراق عن تيار آخر يقوده الشيخ البشير لابراهيمي أم لا ! اذ منذ ١٩٢٢ تبلور في صفوف أوساط الاصلاح اتجاهان لكل منهما منهجه اتجاه يتزعمه الشيخ البشير الابراهيمي وبالتوجه الى التعليم واعداد دعاة مدربين على مناهج تقرها الدعوة • والثاني تزعمه ابن باديس ويقول بالنقد والهجوم على مواطن الخلل في الحياة الخاصة ما يتعلق بالبدع والعادات التي لحقت بالوعي الاجتماعي في جانب اعتقاده الديني[٢٥] ومن هنا جاء اختيار ابن باديس لاسم جريدته المنتقد • اغلب الظن ان هذا التباين كان (ضمن وحدة الهدف) لأن كلا قائدي الاتجاهين كان في الهيئة المؤسسة لجمعية العلماء المسلمين في الجزائر تأسست جمعية العلماء المسلمين في الجزائر في ٥ حزيران ١٩٣١ واتخذت لها مقرا مؤقتا في نادي الترقي وجاء تأسيسها بعد مرور مائة عام على الأحتلال الفرنسي للجزائر ومرور عام على احتفالات القرن التي اجرتها السلطة المحتلة فكان الطابع الاستفزازي أحد العوامل المباشرة لتأسيس الجمعية • تولى ابن باديس رئاسة الجمعية حتى وفاته في ١٦ نيسان ١٩٤٠ وكان مجلس الادارة يتألف من :

---

(٢٣) عمار الطالبي / المصدر السابق ، ج٣ / ٤٨١ نقلا عن جريدة المنتقد العدد الاول الخميس ذي الحجة ١٣٤٣هـ ٢ تموز ١٩٢٥م وقد ورد الشعار في متن بيان حمل توقيع « النخبة » وانظر أيضا ٣/٢٤٣ •

(٢٤) نفس المصدر •• ٤/٣٥٢ •

(٢٥) نفس المصدر •• ١/٨١ •

١ ـ محمد البشير الابراهيمي	نائبا للرئيس
٢ ـ محمد أمين العمودي	كاتب
٣ ـ الطيب العقبي	معاون
٤ ـ مبارك الميلي	أمين المال
٥ ـ ابراهيم بيوض	معاونه
٦ ـ المولود الحافظي	مستشار
٧ ـ مولاي ابن الشريف	
٨ ـ الطيب المهاجي	
٩ ـ العبد اليجرى	
١٠ـ حسني الطرابلسي	
١١ـ عبدالقادر القاسمي	
١٢ـ محمد الفضيل البراتي [٢٦]	

وأصدرت الجمعية جريدة السنة ثم الشريعة ثم الصراط ثم البصائر [٢٧] .

ابن باديس والمستقبل :

يحتل ابن باديس موقعه ضمن المفكرين الذين ارتبطوا بالمستقبل ورفضوا الانكفاء عند حد معين . وقد استخدم مصطلحات متعددة في التعبير عن ارتباطه بالمستقبل مثل (الاصلاح والنهضة والتمدن والترقي والتقدم

(٢٦) د. تركي رابح / المصدر السابق ص٦٦ وانظر أيضا عمار الطالبي ٥١٨/٣ وقد تغير هذا المجلس سنة ٩٣٦ انظر ص٥٥٢ .

(٢٧) د. تركي الرابح / المصدر السابق ص٧٢ . صدرت جريدة البصائر سنة ١٩٣٥ وكان الشيخ الطيب العقبي رئيس تحريرها وانظر أيضا عمار الطالبي / المصدر السابق ٥٣٩/٣ .

والارتفـاع والمنزلة اللائقـه وكمـال الانسان) والتدقيق في الموقـع الذي استخدمت فيه هذه المصطلحات وفي السياق العام لأفكاره يكشف ان تقاربها في المدلول انما يخفي تميزاً في كيفيـة صنع المستقبل والارتباط بـه فهـو يستخدم الارتفاع مقابل الانحطاط فهو اذن قياس مستوى موقع الأمة من الزمن وهو قريب من المنزلة اللائقة في المعنى(٢٩) اما الاصلاح فهو عمليه تقويم الشيء في وضعه الذي هو فيه (الاصلاح هو ارجاع الشيء الى حالة اعتداله بازالة ما طرأ عليه من فساد) اذن الاصلاح لا يشترط الانتقال الى مستوى حركة أخرى انما فقط ازالة عوامل التوقف وهذا الاصلاح أساسي في بلوغ المستقبل لانه يهيء للنهضة فهـو يرتبط بالتنبه الذي هـو أساس النهضة(٣٠) المصطلح الواسـع الذي يستخدمه ابن باديس هـو مصطلح (النهضـة) التي تحقق بمشروع تاريخي فهو قـد درس تاريخ وسياسة الرسول (ص) • وتوصل الى ان الرسول القائد (ص) « اقر قاعدة عظمى من قواعد العمران والاجتماع في تكوين الامم ووضع للأمة العربية قانونا دينيا اجتماعيا طبيعياً »(٣١) •

لذلك فالنهضة المستقبليه عنده تتحقق بما يلي :

١ ـ معـرفة التأريخ لانها أساسية لمن يريد ان يتخـذ لنفسه منزلة لائقة في هذا الوجود •

٢ ـ الايمان بالله ورسوله •

---

(٢٨) عمار الطالبي / المصدر السابق ، وسوف ترد الاشارة الى مواضـع وردت هذه المصطلحات في أعمـال ابن باديس من خلال الهـوامش اللاحقة •

(٢٩) نفس المصدر ٣/١١٥ ، ٢٦٥ •

(٣٠) نفس المصدر ١/٢٣١ ، ٣/٢٤١ •

(٣١) نفس المصدر ٤/٢٠ •

٣ ـ الوعي بأن اللغة (العربية) هي الرابطة التي تربطنا بالماضي وتربط ماضينا بمستقبلنا[٣٢] ٠

اذن هو يرى ان النهضة تتحقق بالوعي بالذات القومي والايمان والتسلح بالعلم والاقبال على العمل[٣٣] ٠

لذلك فالعلم أساسي في النهضة العلمية والدعوة الى الوعي بمضمون علمي يتمثل بعلمية النظرة وشمولية العلم ومثل هذا الوعي ضروري للمجتمع رجالا ونساء مع تركيز على الأطفال (المستقبل) ٠ والعلم المطلوب هو « ادراك جازم مطابق للواقع عن بينة سواء كانت تلك البينة حسا ومشاهدة ، أو برهانا عقليا كدلالة الاثر على المؤثر ، والصنعة على الصانع ، فأذا لم تبلغ البينة بالادراك رتبة الجزم فهو ظن) ٠

(ويطلق العلم أيضا على ما يكاد يقارب الجزم ويضعف فيه احتمال النقيض جدا)[٣٤] غير ان النهضة (لكي تتحقق تحتاج الى التنبه) (فالأمم لا تنهض الا بعد تنبه أفكارها وتفتح أنظارها)[٣٥] ٠ وان هذه الحاجة اضافة الى الدرس المستنبط من تاريخ الأسلام تحدد للعلماء دورا وواجبا في النهضة وهو دور أولي في حدود الاصلاح[٣٦] ، لان النهضة تحتاج الى (قوة) والقوة اما تصنعه (جماعة منظمة تفكر وتدبر وتشاور وتآزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة)[٣٧] والنهضه عنده تقود الى التقدم والرقي ٠

(٣٢) عمار الطالبي : المصدر السابق ١/٣٧٠ ، ٣/٢٦٥ ٠
(٣٣) نفس المصدر : ٣/٢٧٨ ٠
(٣٤) عمار الطالبي / المصدر السابق ١/٢٦٦ ٠
(٣٥) نفس المصدر / ٣/٢٤١ ٠
(٣٦) نفس المصدر / ٣/١١٥ ، ٢١٧ ٠
(٣٧) نفس المصدر / ١/٣٧٠ ٠

لم يكن ابن باديس منكرا خيالياً انما كان واقعياً بحكم مفاهيمه أولا وواقعه ثانيا وتتماءه ثالثا فهو يرى ان (النسبة للوطـن توجب .. القيـام بواجباته)[٣٨] .

لهـذا حـدد اسس النهضة كمـا يراها (العروبة والاسلام والعلم والفضيلة)[٣٩] وصرف جهده لخلق اداة التنبه وفي البداية كان التدريس (عشر سنوات في الدرس لتكوين نشيء علمي ... فلمـا كملت العشـر وظهرت بحمد الله نتيجتها رأينا واجبا علينا ان نقـوم بالدعوة الى الاسلام الخالص (الاصلاح) والعلم الصحيح (افتتاح المدارس العربية بعيدا عن مدارس الاحتلال والصوفية) واستعان بالصحافة فأصدر المنتقد ثم الشهاب ، فكانت هذه رسائله مجتمعة في صنع الوعي اللازم لتشكيل الجماعة[٤٠] . (جمعية العلماء المسلمين) التي عملت بكل ما تملك لكي تعرف آلامه نفسها وتتجه الوجهة التي تقودها الى الحياة السعيدة ، لم تكن نظرته الى التعليم نظرة تقليدية انما ثورية ودراسة الزاوية التي كان يقدمهـا في جـريدة الشهاب بأسم (مجالس التذكير) يعطي فكـرة عن ثورية ممارسة التعليم فهو يأخذ المثال التاريخي المكرس للوعي (آية قرآنية) ويتعرض لها بالشـرح ويلجأ الى شرحه بطابع العصر في المفرد اللغوي المستخدم في الشرح أو في معنى اللفظ ثم يستخلص من المثال المثل الاعلى فيه ويسميه (أدب واقتداء) ثم يؤشر كيفية توظيف هذا المثل في عصره عندما يحدد صيغ الافادة منه

---

(٣٨) نفس المصدر / ٣/٤٦٧ .

(٣٩) نفس المصدر / ٣/٥٥٧ وانظر أيضا اساسيات هـذا الشـعار في ٣/٢٠٦ ، ٢٧٨ .

(٤٠) نفس المصدر : ٣/٢٨٧ .

تحت عنوان (استفادة)[٤١] • كل هذا يأتي ضمن مفهوم جديد للتعليم فهو اذن لم يكن ينظر الى التعليم على انه عملية اكاديمية تقاس بمحتواها العلمي فعصره لا يفترض هذا انما كان ينظر له على انه عملية تعليم (على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل) كما يقول الشيخ الابراهيمي •

وهنا يبرز سؤال مشروع عما اذا كان ابن باديس طبق مفهومه للنهضة بدقة وبغض النظر عن وضوح مفاهيمه وانطلاقها من وعي دقيق للتجربة التاريخية للأمة كما دعاها وفي حدود عصره كان مفهومه للنهضة تفتقر الى أحد عناصره وهو (القوة) وقد نفذ بعض منتقديه من المحدثين ساسة ومفكرين لكي يضعوه في مكان هامشي من حركة التحرر القومي في الجزائر[٤٢] •

يتسم الزمن الذي سبق ابن باديس بالدور الفردي في التوجه الى الاصلاح أو الثورة ليس بمعنى (الفرد) ولكن بمعنى الفردية التي ظهرت حتى مع اتساع نطاق البشر الممارسين للاصلاح أو الثورة وعندما يطغي مفهوم الفردية فليس ثمة فرق بين ان تثور وحدك أو تثور مع عشيرتك • الواضح ان ابن باديس استوعب هذه الحقيقة لهذا طرح موضوع (الجماعة) ليس بمعنى العدد انما بالفهم والروح وبشر بها (ازفت ساعة الجماعة ومضى عصر الفرد)[٤٣] والذي يتبع جهود ابن باديس الثقافية من خلال المنتقد

---

(٤١) د• تركي رابح / المصدر السابق ، ص٢٦٠ نقلا عن مقالة للشيخ الابراهيمي في مجلة مجمع اللغة العربية (العدد ٢١ ، ص١٤٣) وفيها يتحدث الشيخ الابراهيمي عن كيفية تخطيطها هو وابن باديس للتربية في اجتماعهما في المدينة المنورة سننة ١٩١٣ •

(٤٢) عمار الطالبي / المصدر السابق : ١/٩٠ في تحليله لموقف ابن باديس من الاستقلال •

(٤٣) نفس المصدر : ـ/٨٤ نقلا عن جريدة الشباب العدد ٣١ في حزيران ١٩٣٦ •

أو الشهاب أو دروسه واختياراته من التاريخ يكتشف كم كان حريصا على تنمية روح الجماعة وفي الجمعية بذل جهودا كبيرة في محاربة الاتجاهات التي تنزع الى التفرد والتميز عن الجماعة بمواقف ومفاهيم فردية .

لذلك نجح في الاحتفاظ بوحدة الجمعية ووحدة قواعدها وهيء قواعد واعية لأسس تكوينها التاريخي ، واسس تملكها المستقبل بنظرة مرتبطة بهذا المستقبل وليس بواقعه المتخلف والماضي الذي نشأت فيه اسس تكونها التاريخي ، وقد أدرك خلفائه هذا الاتجاه . يقول البشير الابراهيمي : (لو تأخر ظهور جمعية العلماء عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا)(٤٤) . لقد كان هم ابن باديس ان يضع آلامه في (الزمن الآتي) لذلك ركز على الربط بين حركتها والمستقبل وسعى لكي يعزز هذه النظرة من خلال تأكيده على التجديد وتكوين جيل جدير مجدد وهذا الجيل المجدد هو (القوة) عند ابن باديس وليس القوة بمعناها التقليدي ولا العقيدة . فعناصر واسس النهضة التي رفعها (العروبة والاسلام والعلم والفضيلة) ليست اكتشافات جديدة تميز بها انما هي محصلة الواقع التاريخي للأمة وحاجاتها في عصرها ، ربما يكون له الفضل في جمعها وسوقها في وحدة موضوعية ثورية ولكن يبقى الانجاز الحقيقي هو بناء « جيل مجدد » يحمل فكرته لذلك فالجواب على السؤال المطروح « عما اذا كان ابن باديس طبق مفهومه للنهضة بدقة » يقرره حجم الفائدة التي افادتها الجزائر في تاريخها الثوري بعد ابن باديس . وفي تقديري ان ابن باديس كان يدرك نجاحه في بدء هذا الجيل وانه في أيامه اكتشف هذه الحقيقة ومغزاها (اين يوظف هذا الجيل) وبعكس هذا الاستنتاج التغيير الحاصل في خطابه السياسي في مسألة الاستقلال سواء في مكوناته الفكرية

---

(٤٤) د. تركي رابح / المصدر السابق ، ص٦٧ وانظر ايضا ٢٦٢ .

حيث بدأ يتردد مفهوم العروبة والاسلام والوحدة العربية أكثر وضوحا واستقرارا ، كذلك مسألة حقوق الشعب في الاستقلال ومقاومة الاندماج ، أو في الصياغة العامة للخطاب السياسي التي بدأت تحمل طابع الانذار . (لا يحق للأمة ان تستمر على السياسة القديمة سياسة المطالبة والانتظار)[٤٥] وبدأت تظهر الدعوة الى « الاعتماد على النفس »[٤٦] و (يجب ان نقول نحن كلمتنا)[٤٧] (اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا ، يجب ان تتحد صفوفنا)[٤٨] (لنطالب بالمساواة في جميع الحقوق في وطننا)[٤٩] .

نظرة الى المكونات التاريخيه للجزائر

العروبة والاسلام :

ينطلق مفهوم ابن باديس للعروبة والاسلام من استيعابه للجزائر (الوطن) تاريخا وواقعا وحاضرا : (اما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط في الماضي والحاضر والمستقبل .. وتفرض على تلك الروابط فروضا خاصة)[٥٠] اذن بينه وبين الجزائر مباشرة واتصال وهو أمر طبيعي فهو ينتمي الى هذا الوطن ، وتضرب جذور انتمائه في القدم الى ما قبل الاسلام (عصر الامازيغ) ، غير انه يدرك اثر الاسلام في الامازيغ وفي الجزائر ، فهو الذي وحدهم مع العرب واوجد جيلا ينتمي

(٤٥) عمار الطالبي : المصدر السابق ٣/٣٦٩ .
(٤٦) نفس المصدر السابق : ٣/٣٦٥ ، ٣٨٦ .
(٤٧) نفس المصدر السابق : ٣/٣٧٠ .
(٤٨) نفس المصدر السابق : ٣/٣٧٠ .
(٤٩) نفس المصدر السابق : ٣/٣٧١ .
(٥٠) عمار الطالبي / المصدر السابق : ٣/٢٣٦ .

وطنا الى الجزائر وحضارة وثقافة الى الاسلام[٥١] • ويدافع ابن باديس عن التوحد التاريخي للعرب والامازيغ عندما يدرك البعد الجغرافي لهذا التوحد (نعم ان لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال ••• واقرب هذه الأوطان الينا هو المغرب الأدنى والمغرب الاقصى اللذان ما هما والمغرب الاوسط الا وطن واحد لغة وعقيدة وأدبا وأخلاقاً وتاريخاً ومصلحة ثم الوطن العربي والاسلامي ثم وطن الانسانية العام[٥٢] ورغم ان هذا النص يظهر مفهوم ابن باديس للوطن غامضا فهذا الغموض عنده يقتضيه تبع الاسلام فبالجغرافية يتتبع عالمية الاسلام غير انه يعود الى تحديد الوطن العربي تحديدا متطابقا مع الأمة العربية[٥٣] ، والملاحظ على ابن باديس انه يطرح مفهومه للعروبة منطلقا من الثقافة وليس أي اعتبار آخر وهو بهذا يستوعب صيغة تجدد بناء الأمة العربية كما ارساها الرسول (ص) والمعنى التريخي لتوحد الامازيغ بالعروبة فهو يرى ان الجزائر بدأت في التاريخ امازيغية غير انها دخلت الاسلام وتكلمت العربية طائعة مختارة وامتزج الامازيغ بالعرب ونتجت عن المصاهرة حالة مشاطرة حياتية جعلتهم شعبا واحدا « متحدا غاية الاتحاد ممتزجاً غاية الامتزاج ، واي افتراق بعد يبقى بعد ان اتحد الفؤاد واتحد اللسان»[٥٤] فخيار الوحدة ليس خيارا ناتجا عن وحدة الدم انما خيارا ناتجاً عن وحدة الدم انما خيارا قائما على الاواحدة الواحدة والبناء النفسي والاخلاقي الواحد قاعدته اللغة (ليس تكون الأمة يتوقف على اتحاد دمها

---

(٥١) نفس المصدر : ٣/٤٨٣ •
(٥٢) نفس المصدر : ٣/٢٣٧ •
(٥٣) نفس المصدر : ٣/٣٨٩ ، ٣٩٨ •
(٥٤) الميلي / المصدر السابق ، ٥٦ • ابن الطالبي ، المصدر السابق ٤/٦٥ •

ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادا يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك في الآلام والامال)[٥٥] وقد سحب من الاسلام دليله لاسقاط العامل العرقي في تكون الأمة العربية (ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم • انما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي)[٥٦] لذلك لم يجد تناقضا بين ان يكون جزائرياً امازيغياً وعربياً ، لم يجد تناقضا بين الشخصيةالامازيغية للجزائر وبين انتماءها الى العروبة فالتمازج الذي تحقق في الاسلام يجعل التقاءهما طبيعيا فكأنه يعتبر انتماء الامازيغية الى العروبة انتماء الوطنية الى (القومية)[٥٧] لذلك اوجب على كل من يدين بالاسلام ان يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم بحكم الارتباط الموضعي بين العرب والاسلام[٥٨] • ويستوعب ابن باديس في نظرته للأمة العربية المكونات التأريخية التي تمتكها فهو يرى في العرب أمة ترتبط بموطن واضح محدد ولها لغتها وعقليتها وثقافتها وتاريخها بما يكفي لمنحهأ هويتهأ ولكنه لا يكفي لمنحها وحدتها السياسية التي يعتبرها الأساس في تحقيق سيادة الأمة ومشروعها التاريخي « الوحدة السياسية لا تكون الا بين شعوب تسوس نفسها وتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم وتتفق على تنفيذها والدفاع عنها يدا واحدة »[٥٩] •

فالعروبة عنده وطن وأمة لكل منهما تأريخية التي سبقت الاسلام ويرى ان جهل الناس بهذه التأريخية شكل مصدر ظلم للعرب فالناس

---

(٥٥) الميلي / المصدر السابق ٨١ •
(٥٦) المصدر ص١٤٥ • عمار الطالبي / المصدر السابق ٣/٢٦٤ •
(٥٧) الميلي / المصدر السابق ص١٤٤ • عمار الطالبي / المصدر السابق ٣/٢٦٤ •
(٥٨) نفس المصدر ٣/٢٩٨ « الوحدة العربية » •
(٥٩) نفس المصدر •

يعتقدون انهم خلقوا في الاسلام بينما الواقع غير ذلك[٦٠] • غير انه ما من شك ان الأمة العربية تميزت بالاسلام من بين كل عصورها لما مثله الاسلام في حياتها لذلك فهو يعتبره مع اللغة من مقومات الأمة العربية الأساسية كما يرى في الوحدة بمعنى البناء النفسي والاخلاقي والروحي • مقوما آخر له أهميته لأنه أساس الانتماء الثقافي والحضاري الى العروبة وان اللغة تصنع هذا البناء وتسهم فيه • ويشير أيضا الى مقومات أخرى احدها التأريخ لانه تأريخ الاتحاد والتمازج والحضارة والرسالة لذلك اولاه أهمية خاصة فهو جزائريا يحوى مكونات وملامح الشخصية الجزائرية فهو أساسي في بعثها وأساسي كعامل محفز اجتماعي من أجل مستقبلها أيضاً[٦١] • ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة رائعة في هذا الوجود[٦٥] • وعربياً هو تاريخ المجد العربي الممتد البعيد وتاريخ الدولة العربية والابداع العربي • ولنا من هذا التاريخ الممتد البعيد مجد وملك هو تاريخ القومية العربية الخالدة[٦٣] فالتاريخ عنده ، ميدان حركة وتحول فهو قوة تحويلية في حياة الأمـة وهي واصلة لما تريد والذي ينقصها فقط الوحدة السياسية وان هذا التأريخ متصل وتواصله يتمثل باللغة العربية لغة الدين والجنس والقومية والوطنية • وهنا يكرر ابن باديس الجنس ويعطيه موقعا مهمـا فهو رابطة ومقوم قومي وهو تعبير ثقافي (لغة) وليس عرقياً • اما الاسلام فهو عنده • ليس الصفة التي يرثها الانسان من اهله ، لذلك رفض الاسلام الوراثي ، التقليدي (الذي يؤخذ بدون نظر ولا تفكير وانما يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء) فهذا الاسلام قد يحفظ للأمة شيء لكنه لا ينهض

(٦٠) الميلي / المصدر السابق ص١٤٥ •
(٦١) نفس المصدر السابق ص٧١ •
(٦٢) عمار الطالبي / المصدر السابق ٣/٢٤٠ •
(٦٣) نفس المصدر ٣/٢٤١ •

بهـا لانـه لا يشكل عامل تنبيه لهـا اذ يسبب مما لحقه من بدع وضلال واستكانة وخدر أصبح هو ولجمود حليفين • الاسلام المطلوب هو (الاسلام الذاتي) اسلام من يفهم قواعد الاسلام ويدرك محاسن الاسلام في عقائده وأخلاقـه وآدابه وأحكمه وأعمـاله ويتفقـه ـ حسب طاقته ـ في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويبني ذلك كلـه على الفكر والنظر) • أي الاسلام القائم على فهم واستيعاب العقيدة وقناعة ويقين من الايمان بها وقد خاض ابن باديس معارك فكرية مع التقليديين والصوفية والمتفرنسين على السواء دفاعا عن الاسلام لا خطابيا انمـا محاججة وحرص وهو مسوق حججه على عصرنة مفهومة للاسلام وربطه باللغة العربية ليتجاوز به حدود ضرورة الدين الى الثقافة ويشتق منـه القيم والتقاليد[٦٤] ، ولم يهمـل أهميـة استخدامه سياسيا في تمييز الجزائر عن فرنسا بأعتباره أحد أبرز عوامل تكونها التاريخي والاجتماعي والثقافي اضـافة الى عوامل الجغرافية (الوطن)[٦٥] • وعلى هذا الوعي ارتكزت عنده مسألة الحقوق التي يجب ان يحصل عليها الجزائريون دون نظـرة استصغار أو تمييز أو مطالبـة بالتخلي عن أي من ميزاتهـا في القوميـة والدين واللغة[٦٦] • فالحقوق تقترن بالمقومات الذاتية وليست بديلة لهـا معارضا بذلك الموقف الفرنسي الذي يشترط لمنح الحقوق للجزائريين تخليهم عن الاسلام[٦٧] •

اشتق ابن باديس من هذا الفهم موقفا علميا في نقد الاندماج ورفضه سياسة • فهو يرى ان الاحتـلال الفرنسي وضـع الجـزائر أمام تناقض (الجنسية القوميـة) مع (الجنسية السياسية) فالجنسية القوميـة تقررها

---

(٦٤) عمار الطالبي : المصدر السابق ، ٣/٢٥٥ •
(٦٥) نفس المصدر : ٣/٢٠٨ ، ٣١٨ •
(٦٦) نفس المصدر : ٣/٢٢٩ •
(٦٧) نفس المصدر : ٣/٣٣٨ •

مقومات ومميزات الشعوب مثل اللغة والعقيدة والتاريخ والشعور • اما الجنسية السياسية فهي واقع نشأ بالاحتلال (قضت به الظروف) ومن الممكن ان يكون هناك اتحاد بين شعبين يختلفان في الجنسية القومية (اذا تناصفا وتخالصا فيما ارتبطا به من الجنسية السياسية)[٦٨] والا فليس هناك الا أحد خيارين اندماج الاضعف في الأقوى أو انسلاخه لذلك قاوم الاندماج وفاد المؤتمر الاسلامي الجزائري الى قرار بالاجماع على (المحافظة التامة على المميزات الشخصية والمطالبه بجميع الحقوق السياسية) واظهر تمسكا شديدا بهذا المبدأ عندما قابلت هيئة الجمعية لجنة البحث البرلمانية الفرنسية في مايس ١٩٣٧[٦٩] والاسلام اكسب العروبة مبدأ انسانيا عندما كونها لحمل رسالة للبشريه جمعاء ، فأصبحت انسانية الأمة جزءاً من مكوناتها التأريخية لذلك فالأمة كما يراها ابن باديس كيان انساني في أصل تكوينه ، وستكون بالضرورة انسانيه في تكونها المستقبلي[٧] ، رغم ما للعرب من ارث تأريخي ودور حضاري وان الاسلام بتقاليده السمحاء الداعية الى الكمال الانساني والحريصه على الاخوة والسلام بين الشعوب غذى هذه الانسانية ، لذلك فالمحافظة على تقاليد الاسلام هذه حفاظ على ابرز مقومات القومية وتحصينه من الانزلاق العنصري[٧١] • غير ان هذا لا يعني ان الآخرين يسطيعون ان يخصوا العرب من الاسلام (محمد صلى الله عليه وسلم ••• كانت أول عنايته موجهة الى قومة وكانت دعوته على

(٦٨) نفس المصدر : ٣/٣٥٢ •
(٦٩) نفس المصدر : ٣/٣٥٣ •
(٧٠) نفس المصدر : ٣/٣٥٥ •

(٧٠) محمد الميلي : المصدر السابق ، ٥٣ • عمار الطالبي : المصدر السابق ٤/٢٠ •
(٧١) نفس المصدر : ٤/١٥٩ •

ترتيب حكيم بديع لا يمكن ان يتم اصلاح انسانيا أو شعبيا الا بمراعاته)[٧٢] • فالاسلام هنا ليس طقوس وعبادات فقط انما أيضاً تأريخ صنعته معاناة أمة أول مستوى فيها (عشيرته) ثم بقية العرب لانهم (رشحوا لهداية الأمم)[٧٣] فالذي يسعى للاصلاح باقصاء العرب عن الاسلام لن يحقق شيئا •

المشروع التاريخي لابن باديس :

استوعب ابن باديس معنى الاحتلال الفرنسي للجزائر فبين ١٨٣٠ – ١٨٧١ قضى الاستعمار على صفوة الشعب ونخبته التي قادت ثورته طوال اربعين عام وبعد ١٨٧١ ركزت سلطات الاحتلال على ان لا تظهر في هذا الشعب نخبة واعية ويمكننا تفسير سياسته فكانت ممارساتها وفقا لهذا الهدف فالازاحة والافقار ومنع التعليم وافساد المجتمع وتخريب الثقافة والقضاء على النظام العام التشريعي والقيم المستمدة من الاسلام سياسات تهدف الى الحيلولة دون تكون وعي أو طبقة واعية وبالمقابل اتجهت لخلق (الاعوان) وفي حالة وضع المجتمع الجزائري آنذاك وطبيعة الاحتلال الفرنسي يجب ان تتوقع وجود هؤلاء الأعوان • وتعبر عبارة مالك بن نبي (الاستعمار والقابلية الاستعمارية غيرا كل المعطيات)[٧٤] تعبيرا دقيقا عن الوضع لانها محصلة استخلاص دقيق للنتائج أيضا •

واستوعب أيضا الشعب الجزائري وأدرك ما فيه من عوامل ايجابية

(٧٢) نفس المصدر : ٤/١٧ •
(٧٣) نفس المصدر : ٤/١٧ ، ١٨ ، ١٩ •
(٧٤) انظر مقدمة مالك بن بني للاعمال الكاملة لابن باديس التي نشرها عمار الطالبي : المصدر السابق ١/١١ •

(التمسك بالاسلام واللغة العربية) وما فيه من سلبيات طارئة دون ان يبخسه حقه فهو يرى لتقليدية الايمان والقائمين عليها فضل في استمرار مقومات الشعب غير ان هذا الاستمرار وفي حالة الاحتلال يشكل حالة سلبية (تراجع) لانه لا يحقق نهضة لذلك اعتبر الاكتفاء بالمستوى القائم مع انه (فضيلة) الا انه أيضا (خطيئة) فهاجم هذا المستوى وهاجم الزوايا الصوفية وانتقد الأحزاب لانها لا تملك مقومات الاصلاح .

واستشرف المستقبل (احياء الروح القوميـة)[٧٥] بخلق المسلم الجزائري . (الذي تعيش في روحه ذكريات الماضي ومصالح الحاضر وآمال المستقبل) هذا الانسان هو الذي تحتاجه الوطنية الجزائرية « القيام بواجباته من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية والمحافظة على شرف اسمه وسعة بنيه فلا شرف لمن « يحافظ على شرف وطنه » ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه »[٧٦] ويأتي هذا الاستشراف ضمن سياق عام من الوعي فهذا المسلم يدرك ان الاسلام ليس من صنعه وانما جاءه به العرب واتحد معهم وللعرب وطن يمتد من المحيط الى الخليج . وان كل هذه المسميات ليست بنت اليوم هي من (ذكريات الماضي) لكنها من عوامل استمرار النوع فهي ثوابت تاريخية فلا يكفي اذن نقدبمهـ كما هي لتحدث النهضة بل لابد من التجديد يحتاج الى (دعوة) كل هذه العناصر صاغها ابن باديس في تفسير سورة التوبة (الآية / ١٢ ـ ١٣) (انما ينهض المسلمون بمقتضيات ايمانهم بالله ورسوله (العقيدة) اذا كانت لهم قوة (ارادة النهضة) فانما تكون لهم قوة اذا كانت لهم جماعـة (قوة الجماهير) منظمـة تفكـر وتدبر وتتشاور (التخطيط) وتنهض (تناضل) لجلب المصلحة (حاجات الجماهير) ولدفع

(٧٥) نفس المصدر : ٣/٢٧٨ .

(٧٦) عمار الطالبي : المصدر السابق ٣/٤٦٧ .

المضرة (التحصين المستمر يحكم الوعي) متساندة في العمل عن فكر وعزيمة (النضال الثوري)،[٧٧] • يتحدد المشروع التاريخي لابن باديس (بالنهضة) في ثلاث محاور أساسية ز الجزائر ـ الأمة العربية ـ الأمة الاسلامية) فلسفته العامة (التجديد) في العناصر المكونة للشخصية الوطنية والقومية والانسان ذاته واداته خلق الوعي وصولا الى خلق الارادة التي تنهض بمسؤولية تحقيق انهضة ان دراسة حياة ابن باديس وأفكاره ومواقفه كاملة وقياسها الى الزمن الذي عاشه بأحداثه تكشف عن تطور مسار تحقيق هذا المشروع التأريخي • ويمكن تأشير المستويات التالية في ذلك المسار •

أولا ـ نشر التعليم وتكوين النشىء العلمي وهي مهمة استغرقت العشر سنوات بدء من عودته الى قسنطينة حيث حرك هذه المرحلة عقائديا بالدعوة الى الاصلاح والاصلاح هو ارجاع الشيء الى حالة اعتداله بأزالة ما طرأ عليه من فساد رافعاً شعار (الحق فوق كل احد والوطن قبل كل سيء)[٧٨] •

ثانيا ـ تأسيس جمعية العلماء المسلمين وقد تم تحريك هذه المرحلة عقائدياً بالدعوة الى (العروبة والاسلام والعلم والفضيلة) رافعا شعار (الحق والعدل والمؤاخاة في اعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات)[٧٩] •

ثالثا ـ حرية الاختيار ومشروعيته ويمكن تمييز هذا المستوى بالمسطلحات الواردة في الخطاب السياسي لابن باديس وللجمعية وهي

---

(٧٧) نفس المصدر : ١/٣٧٠ •

(٧٨) نفس المصدر : ١/٢٣١ مقالة في سنة ١٩٣٠ • والشعار ورد في العدد الاول من المنتقد ١٩٢٥ انظر ١/٢٨١ •

(٧٩) عمار الطالبي : المصدر السابق ٣/٥٥٧ تحديد الاسس التي قامت عليها الجمعية • اما الشعار فقد ورد في مجلة الشباب ١٩٣٦ •

مصطلحات واضحة وصريحه (الأمــة الجزائرية) (الأمــة العربية) (الجنسية القومية • والجنسية السياسية) (الوحدة العربية)[٨٠] وهو تصعيد مقصود يتوازن مع عنف النضال السياسي والفكري ضد الاندماج واليأس الناجم عــن استنزاف الوســائل السلمية في التعامل مع الاحتلال (اليأس الذي يدفعنا الى المغامرة والتضــحية)[٨١] فاليأس موقف ثوري يعبر عن ثوريته فيما يتطلب من الاسنعداد للتضحية والاعتماد على النفس وليس موقفا استسلاميا يترك الميدان • لذلك فالموقف من الاحتلال بعــد خيبة الظن ان (لا نعتمد الا على انفســنا ونتوكل على الله ••• وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)[٨٢] •

(٨٠) وردت هذه المصطلحات بكثرة في الفترة من ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ •
(٨١) نفس المصدر : ٣/٣٦٥ •
(٨٢) نفس المصدر : ٣/٢٨٦ ، ٥٥٩ •

قائمة المصادر :

١ ـ د. تركي رابح .. الشيخ عبدالحميد بن باديس (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٤) .

٢ ـ د. الحسن بوعياد .. الظهير البربري (دار الطباعة الحديثة ، المغرب ، ١٩٧٩) .

٣ ـ د. شارل اندري جونيان .. افريقيا الشمالية تسير (الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٦) .

٤ ـ د. صلاح عقاد .. المغرب العربي (مكتبة الانجلو ـ مصرية ، ١٩١١) .

٥ ـ د. عبدالحميد بن جلون .. هذه مراكش (مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٤٨) .

٦ ـ د. عبدالكريم غلاب .. الثقافة والفكر في مواجهة التحدي (دار الثقافة ، المغرب ، ١٩٧٦) .

٧ ـ د. علال القاسي .. الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٤٨) .

٨ ـ د. عمار الطالبي : الحميد بن باديس .. الأعمال الكاملة (دار مكتبة الجزائر للتأليف والتوزيع والنشر الجزائر ، ١٩٦٨) .

٩ ـ د. عمر فرولاً .. (د. مصطفى الخالدي) التبشير والاستعمار في البلاد العربية (المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٧٣) .

١٠ـ د• فرحات عباس •• ليل الاستعمار ، ترجمة أبو بكر رحال •

١١ـ د• محمد علي داهش •• جمهورية الريف في مراكش ١٩١١ ـ ١٩٢٦ (رسالة ماجستير ، مكتبة معهد الدراسات القومية والاشتراكية ـ الجامعة المستنصرية ـ بغداد) •

١٢ـ د• محمد الميلي •• ابن باديس وعروبة الجزائر (دار العودة ـ دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣) •

١٣ـ د• مصطفى الخالدي (انظر عمر فروخ) •

١٤ـ د• نزار الحديثي •• الأمة العربية والتحدي (بغداد ، ١٩٨٥) •

ملحق العـدد
مقررات قسم التاريخ
جامعة قطـر

توصيف مقررات قسم التاريخ

أ ت ١٠٠

تاريخ العالم العربي الحديث ٣ ساعة مكتسبة

مفهوم العالم العربي الحديث ـ الحكم العثماني للعالم العربي ـ الحركات الاستقلالية في العالم العربي ـ الحركات السلفية في العالم العربي ـ الأطماع الاستعمارية الأوربية في العالم العربي .

أ ت ١٠١

تاريخ الدولة العربية الاسلامية ٣ ساعة مكتسبة

أحوال العرب قبل الإسلام ـ السيرة النبوية ـ أثر الاسلام في بلاد العرب ـ الخلافة الصحابية ـ الانتشار الاسلامي ـ النزاع بين علي ومعاوية وقيام الدولة الأموية ـ الأحزاب الدينية في العصر الاموي ـ سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ .

أ ت ٢٠٢

تأريخ الدولة الاموية ٣ ساعة مكتسبة

قيام الدولة الأمويه ـ معاوية بن أبي سفيان وتأسيس الدولة ـ انتقال الخلافة الأموية من الفرع السفياني الى الفرع المرواني ـ التوسع الاسلامي في العصر الأموي ـ الاحزاب السياسيه والدينية في العصر الاموي ـ عمر بن عبدالعزيز ـ نهاية الدولة الأموية .

أ ت ٢٠٠

الحضارة المصرية القديمة **٢ ساعة مكتسبة**

مصادر تاريخ الحضارة المصرية القديمة ـ مظاهر الحضارة المصرية في دولها المختلفة ـ تطور النظام السياسي ـ الحياة الاقتصادية ـ الحياة الاجتماعية ـ المعتقدات الدينية ـ الثقافة والآداب والعلوم ـ خصائص الحضارة المصرية القديمة وعلاقتها بالشرق الأدنى القديم •

أ ت ٢٠٣

تاريخ أوربا في العصور الوسطى **٢ ساعة مكتسبة**

مفهوم العصور الوسطى ـ الامبراطورية الرومانية ـ الامبراطورية والمسيحية ـ الصراع المذهبي في داخل الكنيسة المسيحية ـ الغزوات الجرمانية ـ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ـ الامبراطورية الرومانيه الشرقية (البيزنطية) ـ شارلمان وامبراطورية الفرنجة ـ نهاية الدولة البيزنطية •

أ ت ٢٠١

حضارات الشرق الادنى القديم **٣ ساعة مكتسبة**

نشأة الحضارة وشروطها ـ مظاهر الحضارة المصرية من عصر الدولة القديمة الى نهاية العصر البطلمي ـ حضارة بلاد الرافدين في العصور السومرية والسامية ـ حضارة سورية وفلسطين القديمة ـ الآراميون ـ الحضارة الايرانية والأمبراطورية الفارسية •

أ ت ٢٠٧

تاريخ الدولة العباسية **٣ ساعة مكتسبة**

العصر العباسي الأول : قيام الدولة العباسية ـ موقفها من الأمويين والعلويين ـ العصر العباسي الثاني : امرة الأمراء ـ عصر السيادة التركية ـ

عصر السيادة البويهية ـ عصر السيادة السلجوقية ـ سقوط الدولة العباسية ـ الدول الاسلامية المستقلة في المشرق •

أ ت ٢٠٤

تاريخ أوربا الحديث من النهضة الى الثورة الفرنسية ٢ ساعة مكتسبة

النهضة الأوروبية الحديثة ـ تكوين أوربا في القرن السادس عشر ـ الحروب الايطالية والتوسع القاري ـ الاصلاح الديني ـ الكشوف الجغرافيه والاستعمار ـ عصر لويس الرابع عشر •

أ ت ٢٠٨

تاريخ دويلات المشرق الاسلامي ٣ ساعة مكتسبة

مقدمة عامة ـ ضعف الدولة العباسية ـ الأتراك ، امرة الأمراء ـ الحكم البويهي ـ الحكم السلجوقي ـ الدولة الطاهرية ـ الدولة الصفارية ـ الدولة السامانية ـ الدولة الزيدية ـ الدولة الزيارية ـ الدولة الغزنوية ـ آل بويه ـ آل سلجوق •

أ ت ٢٠٥

تاريخ اليونان القديم ٢ ساعة مكتسبة

الوسط الجغرافي التاريخي في بحر ايجة والبحر المتوسط ـ الاستعمار الاغريقي ما بين القرنين ١٢ ـ ٨ ق•م ـ التنافس الاغريقي الفينيقي في البحر المتوسط ـ الحضارة الاغريقية في العصر الكلاسيكي ـ الحروب الميدية والعلاقات بين الاغريق والفرس ـ النزاع بين اسبارطة وأثينا ـ الاسكندر الأكبر والحضارة الهلينية •

أ ت ٢٠٦

تاريخ الرومان القديم **٢ ساعة مكتسبة**

الوسط الجغرافي التاريخي في البحر المتوسط وأوربا ؛ مصادر التاريخ الروماني ـ العصر الملكي ـ العصر الجمهوري ـ الصراع بين روما وقرطاجة ـ المؤسسات الرومانية وتطورها ـ يوليوس قيصر ـ الامبراطورية ـ التوسع الروماني في الشرق وآثاره الحضارية •

أ ت ٢٠٩

تاريخ جزيرة العرب الحديث والمعاصر **٢ ساعة مكتسبة**

(ا) قيام المملكة العربية السعودية في القرن العشرين ـ ضم الحجاز ونتائجه ـ النفط وآثاره الاجتماعية والاقتصادية ـ العلاقات الخرجية للمملكة العربية السعودية •

(ب) العزلة اليمنيه في عهد الامام يحيى ـ الصراع على السلطة ـ ثورة ١٩٦٢م ـ الاستعمار البريطاني في الجنوب العربي ـ الحركة الوطنية في الجنوب ـ قيام جمهورية اليمن الشعبية •

أ ت ٢١٠

تاريخ بلاد الشام والعراق الحديث والمعاصر **٣ ساعة مكتسبة**

(أ) الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان ـ استقلال سوريا ولبنان ـ عدم استقرار السلطة في سوريا ـ أزمة الحكم في لبنان •

(ب) الانتداب البريطاني في فلسطين ـ الحركة ا طنية الفلسطينية ـ الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨م ـ تطور القضية الفلسطينية •

(ج) الانتداب البريطاني في العراق ـ تطور العلاقات البريطانية العراقية ـ العراق الجمهوري •

أ ت ٣٠١

الطولونيون والاخشيديون والحمدانيون **٢ ساعة مكتسبة**

(أ) الدولة الطولونية : قيام الدولة ـ الحياة السياسية والاجتماعيه والاقتصادية في الدولة ـ علاقتها بالدولة العباسية •

(ب) الدولة الأخشيدية : قيام الدولة ـ حروبها في الشام ـ الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الدولة ـ علاقة الاخشيدية بالحمدانيين •

أ ت ٣٠٤

موضوعات من تاريخ آسيا الحديث والمعاصر **٢ ساعة مكتسبة**

يختار الأستاذ مجموعة من الدول أو قضية من القضايا المتعلقة بتاريخ آسيا الحديث كالاستعمار أو حركات التحرر ـ أو تطور ايران في العصر الحديث ـ أو تجربة اليابان في نهضتها الوطنية والاقتصادية ـ أو تجربة الصين في ثورتها الاشتراكية •

أ ت ٣٠٢

الحضارة الاسلامية (نظم الحكم والادارة) **٢ ساعة مكتسبة**

الخلافة الاسلاميه وتطورها ـ الوزارة : وزارة التفويض ـ وزارة التنفيذ ـ الامارة العامة والامارة الخاصة ـ القضاء ـ الحسبة ـ الشرطة ـ ديوان المظالم ـ الدواوين الاسلامية ـ الجيش والأسطول •

أ ت ٣٠٣

تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر **٢ ساعة مكتسبة**

الثورة الفرنسية ـ نبليون بونابرت ـ الصراع بين القومية والرجعية في أوربا ـ الوحدة الايطالية ـ الاتحاد الالماني ـ استقلال وحياد بلجيكا ـ

تطور الديمقراطية في بريطانيا ـ المسألة الأيرلندية ـ التنافس الأستعماري الأوربي •

أ ت ٣٠٠

تاريخ الجزيرة العربية القديم **٢ ساعة مكتسبة**

مصادر تاريخ الجزيرة العربية القديم ـ شعوب الجزيرة العربية الأقدمين ـ اللغة العربية ومكانتها بين اللغات السامية ـ الحضارات القديمة في الجزيرة العربية ـ ديلمون ـ اليمن ـ تاريخ اليمن القديم ـ حضارة عرب الهلال الخصيب ـ الأنباط والتدمريون ـ أمارتا الغساسنة والمناذرة ـ عرب الحجاز قبل الاسلام •

أ ت ٣٠٨

تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر **٢ ساعة مكتسبة**

ثورة ١٩١٩م في مصر ـ الحركة الوطنية المصرية ـ تطور العلاقات الانجليزية المصرية ـ قضية وحدة وادي النيل ـ التيارات السياسية والفكرية في مصر والسودان •

أ ت ٣١٠

تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر **٢ ساعة مكتسبة**

(أ) الاحتلال الايطالي لليبيا ـ المقاومة ـ قضية الوحدة والاستقلال •

(ب) الحركة الوطنية في تونس ـ الاستقلال •

(ج) التيارات الوطنية في الجزائر ـ الثورة الجزائرية الكبرى ـ الجزائر الجمهورية •

(د) المسألة المغربية ـ الحماية الفرنسية ـ الحركة الوطنية ـ الاستقلال •

أ ت ٣٠٩

تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر — ٢ ساعة مكتسبة

التعريف بافريقيا جنوب الصحراء ـ حضارة وتاريخ أفريقيا القديم ـ الاسلام وافريقيا ـ الكشف الجغرافي والاستعمار وعلاقته بأفريقيا ـ تسابق الدول الأوربيه لاستعمار أفريقيا ـ نظم الاستعمار في أفريقيا ـ حركات الاستقلال الافريقية ـ افريقيا والعالم اليوم ـ قضية الوحدة الافريقية •

ا ت ٣٠٥

الحضارة الاغريقية الرومانية — ٢ ساعة مكتسبة

(أ) مقدمة جغرافية تاريخية عن حوض البحر المتوسط ـ العلاقات بين بحر ايجة وحضارات الشرق الادنى القديم ـ طروادة وحضارة ميكاني ـ ملاحم هو ميروس ـ حضارة بلاد اليونان حتى العصر الكلاسيكي ـ عصر بركليس ـ الاداب الفنون ـ التفاعل بين اليونان والشرق •

(ب) شعوب ايطاليا القديمة ـ الحضارة الأتروسكية ـ أصول الحضارة الرومانية ـ مؤسسات الدولة الرومانية ـ التشريع ـ الجيش ـ اللغة والآداب ـ الفنون ـ العمران ـ روما والشرق العربي •

أ ت ٣٠٦

الفاطميون والايوبيون والمماليك — ٣ ساعة مكتسبة

قيام الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا ـ الدعوة الشيعية ـ التوسع الفاطمي في شمال أفريقيا وصقلية ـ الفاطميون في مصر ـ الحياة السياسيه والفكرية والاقتصادية للفاطميين ـ علاقة الدولة الفاطمية بالدولة العباسية ـ التوسع الفاطمي في الشام والجزيرة العربية ـ نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ـ وحدة مصر وسوريا في العصرين الأيوبي والمملوكي ـ الموقف من الحروب الصليبية •

أ ت ٤٠٠

علم التاريخ ومنهج البحث التاريخي **٢ ساعة مكتسبة**

علم التاريخ ـ المواصفات التي يجب أن تتوافر للمؤرخ ـ موقف التاريخ من العلوم الانسانية والتطبيقية والأدبية ـ علم التاريخ والعلوم المساعدة : الآثار ـ الجغرافيا ـ الاجتماع ـ المنطق ـ الفلسفة ـ المسكوكات ـ الجيولوجيا ـ المصادر التاريخية المختلفة ـ كتابة التاريخ ـ مناهج البحث التاريخي •

أ ت ٤٠١

الحضارة الاسلامية (الحياة الفكرية) **٣ ساعة مكتسبة**

مقدمة عامة ـ الثقافات القديمة في البلاد المفتوحة ـ اليونانية والسريانية ومدارسها ـ الفارسية ـ الهندية ـ المسيحية واليهودية ـ التمازج الحضاري : الفكري ـ الاجتماعي ـ حركة الترجمة والنقل ـ المعاهد العلمية ودور الترجمة والنسخ والمكتبات ـ العلوم عند العرب ـ العلوم النقلية ـ العلوم العقلية ـ العلوم الكونية •

أ ت ٤٠٢

تأريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر **٣ ساعة مكتسبة**

الأهمية التاريخية للخليج في العصور الوسطى ـ الزحف البرتغالي ـ التنافس الانجليزي الهولندي ـ السياسة البريطانية في الخليج في القرن التاسع عشر ـ موقف فرنسا ـ سلسنة مسقط ـ قيام النظام التعاهدي في ساحل عمان ـ العثمانيون والخليج ـ نظام المعاهدات المانعة والحماية ـ انسحاب بريطانيا من الخليج ـ استقلال الأمارات العربية ـ النفط والتحديث •

أ ت ٤٠٣

نصوص ووثائق تاريخية **٢ ساعة مكتسبة**

يحدد القسم سنويا النصوص والوثائق التي تطرح للدراسة على أن

تكون الأولوية لنصوص ووثائق بلغة أجنبية •

أ ت ٤٠٦

تاريخ المغرب والاندلس **٣ ساعة مكتسبة**

الفتوح العربية الاسلامية لأفريقيا والمغرب ـ الفتح العربي للأندلس ـ عصر الولاة ـ عصر الامرة ـ عصر الخلافة الأموية بالأندلس ـ الأسرة العامرية ـ السيادة الحمودية الادريسية ـ عصر ملوك الطوائف ـ تدخل المرابطين والموحدين في الاندلس ـ نهاية الحكم الاسلامي في الأندلس •

أ ت ٤٠٧

قضايا اسلامية معاصرة **٢ ساعة مكتسبة**

حركة التوسع والانتشار الاسلامية ـ عوامل التفكك في الدولة الاسلامية ـ عوامل داخليه ـ عوامل خارجية ـ مظاهر اليقظة في العالم الاسلامي ـ الحركات السلفية ـ الجامعة الاسلامية ـ الحركات التحررية ـ الجامعة العربية ـ المؤتمر الاسلامي ـ دراسات موجزة لنماذج من القضايا الاسلامية المعاصرة ـ المسلمون في الفلبين ـ المسلمون في جيبوتيء ـ المسلمون في أرتيريا ـ المسلمون في قبرص ـ بعض قضايا التخلف العامة : الحضارة الاقتصادية والفكرية •

أ ت ٤٠٨

تاريخ أوربا المعاصر **٢ ساعة مكتسبة**

التكتلات والأحلاف قبل الحرب العالمية الأولى ـ تطور العلاقات الدولية أثناء الحرب ومقررات فرساي ـ الانظمة الجديدة : ثورة ١٩١٧ في روسيا ـ النازية ـ الفاشية ـ الأزمات الدولية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩م ـ تطور العلاقات الدولية أثناء الحرب العالمية الثانية ـ بروز الدولتين العظميين :

الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ـ هيئة الأمم المتحدة ـ مظاهر الحرب الباردة ـ قيام السوق الأوربيه المشتركة ـ عوامل تخفيف التوتر الدولي •

أ ت ٤٠٩

التاريخ الامريكي الحديث والمعاصر **٢ ساعة مكتسبة**

الاكتشاف ـ الاستيطان ـ الثورة الامريكية ـ نظام الحكم ـ نمو الولايات المتحدة العمراني ـ الحركات الاستقلالية في أمريكا اللاتينية ـ مسالة الرقيق والحرب الأهليـة ـ العلاقات الامريكية الاوربية ـ العلاقات الامريكية العربية في مجالات الخدمات والاقتصاد والاستراتيجية •

أ ت ٤١١

علم الآثار **٢ ساعة مكتسبة**

علم الاثار وعلاقته بعلم التاريخ ـ طرق البحث الأثري ـ الحفريات ـ الطبقات الأثرية ـ ترميم الاثار ـ تفسير الآثار ـ حفظ الاثار ـ مشكلات التاريخ •

أ ت ٤١٨

حضارات ما قبل التاريخ **٢ ساعة مكتسبة**

تاريخ ظهور الحياة فوق سطح الكرة الارضية ـ مراحل ظهور الانسان وأماكن تواجده ـ حضارات العصر الحجري القديم والمتوسط والحديث وعصور استخدام المعادن وأثرها في تطوير المجتمعات •

أ و ٢١٢

علم الكتابة العربية **٣ ساعة مكتسبة**

عرض لمواد وأدوات الكتابة القديمة في الحضارات المختلفة وعند العرب ـ تاريخ الخط العربي وتطوره ـ اللغات التي كتبت بالخط العربي ـ مجالات استخدام الخط العربي في الفنون والزخرفة •

أ و ٢١١

المدخل في الوثائق والمكتبات **٣ ساعات مكتسبة**

مقدمة ـ تعريف الوثيقة وفقاً للمدارس المتعددة ـ أنواع الوثائق وتقسيماتها ـ أجزاء وصيغ الوثائق ـ البروتوكول الافتتاحي ـ النص ـ البروتوكول الختامي ـ النقد والتحليل ودراسة الوثيقة •

مقدمة ـ تاريخ المكتبات في العالم القديم ـ المكتبات في الاسلام ـ المكتبة والمجتمع ـ مبادىء الاعداد الفني والخدمات المكتبية •

أ و ٣١٣

التصنيف وتطبيقاته **٢ ساعة مكتسبة**

مقدمة ـ التعريف بالتصنيف ـ مبادىء التصنيف ـ أنواع التصنيف ـ خطة ديوي ـ دراسة تطبيقية للتصنيف •

أ و ٢١٣

الكتاب الاسلامي **٢ ساعة مكتسبة**

مقدمة ـ الكتاب القديم وتطوره في الحضارات المختلفة ـ المخطوط وتعريفه ـ الكتاب الاسلامي وتاريخ العناية به ـ (تدوينه ـ التصوير ـ التذهيب ـ التجليد) تحقيق المخطوط ونشره ـ مكتبات المخطوطات في العالم الاسلامي ـ ظهور الكتاب المطبوع •

أو ٤١٥

الاجراءات المكتبية **٢ ساعة مكتسبة**

انشاء المكتبات (المكان ـ الأثاث ـ الأدوات والاجهزة) ـ تزويد المكتبات بالكتب والمراجع والدوريات ـ الاعداد الفني (التسجيل ـ الفهرسه ـ التصنيف والخدمات المكتبية الأخرى) •

أو ٤١٤

البيليوجرافيـا **٢ ساعة مكتسبة**

تعريف معنى البيليوجرافيا وتأريخها وتطورها ـ البيليوجرافيا العربيه وتاريخهـا في الاسـلام ـ البيليوجرافيا الموضوعيـة ـ أهميـة الخـدمات البيليوجرافية ـ دراسات تطبيقية •

أو ٣١١

المراجع العـامة **٢ ساعة مكتسبة**

مقدمة ـ تعريف المصدر والمرجع ـ طرق الاستخدام ـ الموسوعات دائرة المعـارف الاسلامية ـ الموسوعة العربية ـ دائرة معارف الناشئين ـ المعاجم (الألفاظ ـ المعاني) كتب التراجم العامة ـ تراجم الطبقات ـ القرون ـ البيليوجرافيات ـ الدوريات وأنواعها وأهميتها •

أو ٤١٣

الفهرسة الوصفية والموضوعيه **٢ ساعة مكتسبة**

مقدمة ـ قواعد الفهرسة ـ الفهرسة الوصفية والموضوعية ـ تطبيقات على قواعد الفهرسة •

أو ٤١٦

قاعة بحث مكتبات (دراسات تطبيقية) **٢ ساعة مكتسبة**

دراسات تطبيقية على الخدمات المكتبية والأعداد الفني ـ الفهرسة ـ التصنيف ـ التكشيف ـ الاستخلاص ـ البيليوجرافيات ـ اعـداد بحث في موضوع معين عن خدمة البحث •

أو ٣١٤

مكتبات نوعية **٢ ساعة مكتسبة**

دور المكتبات في الخدمات المختلفـة ـ مكتبـات المدارس ـ مكتبـات الأطفال ـ مكتبات الاعلام ـ مكتبات الوسائل السمعية والبصرية •

أو ٣١٢

ادارة دور الوثائق ومراكز المعلومات **٢ ساعة مكتسبة**

مقـدمة في الادارة ـ دور الوثائق ورسـالتها ـ ومراكز المعلومات ـ ادارتها ـ تنظيمها ـ الأجهزة ـ الأدوات ـ مجموعات الوثائق ـ التعـاون الدولي والعربي في مجال الوثائق •

أو ٢١٤

التوثيق والاعلام **٤ ساعة مكتسبة**

التعريف بالتوثيق والاعلام ـ مراكز التوثيق ـ أنواعها ـ وخدماتها ـ المشكلات والمتطلبات لاقامة مراكز التوثيق وخـدمات المعلومات ـ الاطـار العام للمعلومات ـ الذاكرة الخارجية ـ المصادر الوعائية وغير الوعائية ـ الأساليب الفنيـة في التوثيق والاعلام ـ تكنولوجيا الميكروفيلم ومجـالات استخدامه ـ مراحل وضع نظام متكامل للمعلومات •

رمز ورقم المقرر		اسم المقـرر	عدد الساعات المكتسبه
أي	٥٦١	قاعـة بحث	٢
أي	٥٦٢	ادب فارسي	٢
أي	١٣٣	فن القصة	٢
أي	١٣٤	الأدب المسرحي	٢
أي	١٦٣	التطبيق النحوي	٢
أي	١١٩	مذاهب أدبية وفنية في الأدب العربي المعاصر	٢
أي	٤٢١	أدب أطفـال	٢

ثانيا : التخصص الفرعي : الصحافة ٢٥ ـ ٣٠ ساعة مكتسبة •

أي ص	٢٠١	فن الالقاء لاذاعي	٢
أي ص	٢٠٢	الرأي العام	٢

أى ص	٢٠٣	تاريخ الصحافة	٢
أى ص	٢٠٤	الكتابة الاذاعية	٢
أى ص	٢٠٥	المقـال	٢
أى ص	٣٠١	الخبر ومصادره	٢
أى ص	٣٠٢	التحرير الصحفي (١)	٢
أى ص	٣٠٣	الترجمة الصحفية (١)	٢
أى ص	٣٠٤	العلاقات العامة	٢
أى ص	٣٠٥	التحرير الصحفي (٢)	٢
أى ص	٣٠٦	نظريات الاتصال	٢
أى ص	٤٠٢	الترجمة الصحفية (٢)	٢
أى ص	٤٠٣	تدريب عملي (١)	٢
أى ص	٤٠٤	تدريب عملي (٢)	٣
أى ص	٤٠٦	الدعاية والاعلام	٢

التخصص الرئيسي : التاريخ **مرجأ التخصص**

التخصص الفــرعي : المكتبات **فيه حاليا**

أولا : التخصص الرئيسي في التاريخ : ٦٥ ساعة مكتسبة :

يختار الطالب ٦٥ ساعة مكتسبة من المقررات الآتية :

رمز ورقم المقرر		اسم المقرر	عدد الساعات المكتسبة
أت	١٠٠	تاريخ العالم العربي الحديث	٣
أت	١٠١	تاريخ الدولة العربية الاسلامية	٣
أت	٢٠٠	الحضارة المصرية القديمة	٢
أت	٢٠١	الشرق الأدنى القديم	٣
أت	٢٠٢	تاريخ الدولة الأموية	٢

رمز ورقم المقرر		اسم المقرر	عدد الساعات المكتسبة
أت	٢٠٣	أوربا في العصور الوسطى	٢
أت	٢٠٤	أوربا من النهضة حتى الثورة الفرنسية	٢
أت	٢٠٥	تاريخ اليونان القديم	٢
أت	٢٠٦	تاريخ الرومان القديم	٢
أت	٢٠٧	تاريخ الدولة العباسية	٣
أت	٢٠٨	دويلات المشرق الاسلامي	٣
أت	٢٠٩	تاريخ جزيرة العرب الحديث والمعاصر	٢
أت	٢١٠	تاريخ بلاد الشام والعراق الحديث المعاصر	٢
أت	٣٠٠	تاريخ الجزيرة العربية القديم	٢
أت	٣٠١	الطولونيون والأخشيديون والحمدانيون	٢
أت	٣٠٢	الحضارة الاسلامية (نظم الحكم)	٢
أت	٣٠٣	أوربا في القرن التاسع عشر	٢
أت	٣٠٤	موضوعات من تاريخ آسيا الحديث والمعاصر	٢
أت	٣٠٥	الحضارة الاغريقية والرومانية	٢
أت	٣٠٦	الفاطميون والأيوبيون والمماليك	٣
أت	٣٠٨	تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر	٢
أت	٣٠٩	تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر	٢
أت	٣١٠	تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر	٢
أت	٤٠٠	علم التاريخ ومنهج البحث التاريخي	٢
أت	٤٠١	الحضارة الاسلامية (الحياة الفكرية)	٢
أت	٤٠٢	تاريخ الخليج العربي المعاصر	٢
أت	٤٠٣	نصوص ووثائق تاريخية	٢
أت	٤٠٦	تاريخ المغرب والأندلس	٣

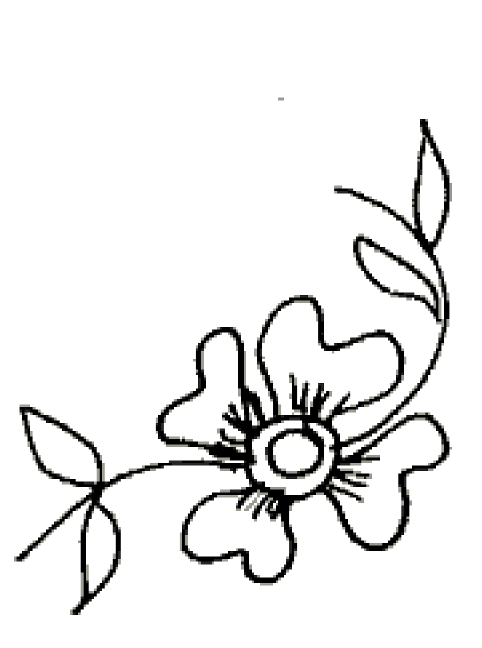
أت	٤٠٧	قضايا اسلامية معاصرة	٢
أت	٤٠٨	تاريخ أوربا المعاصر	٢
أت	٤٠٩	التاريخ الأمريكي المعاصر	٢
أت	٤١٠	التاريخ الاقتصادي	٢
أت	٤١١	علم الأثار	٢
أت	٤١٨	حضارات ما قبل التاريخ	٢

ثانيا : التخصص الفرعي : مكتبات ٢٥ ساعة مكتسبة .

المقررات الاجبارية :

رمز ورقم المقرر		اسم المقرر	عدد الساعات المكتسبة
أو	٢١١	المدخل في الوثائق العربية	٣
أو	٢١٢	علم الكتابة العربية	٢
أو	٢١٣	الكتاب الاسلامي	٢
أو	٢١٤	التوثيق والاعلام	٢
أو	٣١١	المراجع العامة	٢
أو	٣١٢	ادارة دور الوثائق ومراكز المعلومات	٢
أو	٣١٣	التصنيف وتطبيقاته	٢
أو	٣١٤	مكتبات نوعية	٢
أو	٤١٣	الفهرسة الوصفية والموضوعية	٢
أو	٤١٤	بيليوجرافيا	٢
أو	٤١٥	اجراءات مكتبية	٢
أو	٤١٦	قاعة بحث (مكتبات)	٢

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٤٣٦ لسنة ١٩٨٨





في ذكرى ثورة ١٧ - ٣٠ تموز المجيدة ثورة التاريخ العربي المعاصر

نتقدم بالتهاني العطرة الى قائدنا وباني مجدنا المهيب الركن

صدام حسين حفظه الله

والى جماهير شعبنا وأبطال جيشنا الصناديد

ومن نصر الى نصر

بعون الله ولشهدائنا المجد والخلود

محلات

عبد الصاحب عبد الهادي العبيدي


مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى



(٦)

مجلة جمعية المؤرخين والاثاريين
في العراق

مطبعة الامة ـ بغداد

دراسات في التاريخ والآثار

مجلة فصلية تصدرها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

هيئة التحرير

المراسلات : جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

العراق / بغداد / ص٠ب (٢٧٠٨٩) شارع (١٤) رمضان

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير

ص٠ب : (٢٧٠٨٩) بغداد ـ شارع ١٤ رمضان

مجلة دراسات في التاريخ والاثار ـ جمعية المؤرخين والاثاريين

ت : (٥٣٨١٣٠٤)

الاشتراكات السنوية في مجلة دراسات في التاريخ والاثار

الاشتراك السنوي

الجامعات والمؤسسات في العراق (٥٠) دينارا سنويا

أعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا

الافراد عموما (١٠) دنانير سنويا

تدفع الاشتراكات مقدما وكالآتي :

أ ـ صكوك لامر الجمعية

ب ـ نقدا لامر الجمعية

ـ في هذا العدد ـ

المقـــدمة

يصدر العدد (٦) من مجلة دراسات في التاريخ والاثار في غمرة انتصارات شعبنا المستمرة • فبعد النصر العسكري والسياسي في ساحات القتال والمحافل الدبلوماسية الذي توج بقبول النصر العسكري والسياسي في ساحات القتال والمحافل الدبلوماسية الذي توج بقبول العدو لقرار ٥٩٨ لوقوف اطلاق النار بين العراق وايران يعيش القطر انتصارا آخر للارادة العراقية الجديدة • فيتم اعمار البصرة (مدينة المدن) بزمن قياسي ويشمخ شط العرب جاريا في حراسة الابطال الاكرمين الذين دافعوا عنه ••• وتبذل الجهود المخلصة وتسيل حبات العرق لتعانق دم الشهداء على أرض الفاو (مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم) ويسجل الانسان العراقي اعجازا جديدا له دلالاته فهو من جهة يؤكد ارادة السلام والخير ومن جهة يطمان الخليج العربي ان ماءه لن يدنس وان الفاو رمز اطمئنانه الدائم ومن جهة أخرى يؤكد ارادة الانسان العراقي على اختصار الزمن وانجاز ما يجعل وجه المدينة العراقية مشرقا صبوحا • اذن هنا يتحرك الانسان ليكتب التاريخ بعد ان صنعه ويدلل على انه كان وفيا لقائده التاريخي مستجيبا لطموحه في بعث بناء حضارة العصر في هذا الوطن واستمرار الدور الفاعل للعراق العظيم فتاريخ عراقنا هو تاريخ المثابرة الانسانية دائما لبنـاء الحضارة وتسجيل أروع صور الحوار بين الانسان والارض والزمن •

رئيس التحرير
الاستاذ الدكتور نزار الحديثي
١٩٨٩

حضارة بلاد وادي الرافدين : طرق انتشارها : وابرز تأثيراتها في بلاد الشام ومصر

فاضل عبدالواحد علي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

من المعروف ان البحث في انتقال اية تأثيرات حضارية من بلد الى آخر في العصور القديمة يستلزم في الغالب وجود اتصالات مباشرة عن طريق التجارة او العلاقات الثقافية او الحملات العسكرية . ومن المعروف ايضاً ان بلاد وادي الرافدين ، المشهورة بخصوبة ارضها ووفرة مياهها ، تفتقر من جهة أخرى الى كثير من المواد الاولية وخاصة المعادن والاخشاب الجيدة والاحجار الصلدة . ولذلك كان الحصول على مثل هذه المواد امراً لايستغنى عنه في عملية البناء الحضاري ، وهذا ما ادى بدوره الى امتداد الطرق البرية من وادي الرافدين باتجاهات مختلفة وصولا الى بلدان دانية وقاصية(١) . فباتجاه الغرب كان هناك طريقان رئيسيان يؤديان الى بلاد الشام والبحر المتوسط . وكان الطريق الاول يبدأ من مدينة سبار (ابو حبه) الواقعة على نهر الفرات في منطقة اليوسفية ، والتي لاتبعد كثيراً عن مدينة الفلوجة ، ويسير بمحاذاة نهر الفرات ماراً بمدينة هيت (ittu في النصوص المسمارية) وعانة (anati) ثم مدينة ماري بالقرب من «ابو كمال» . ويستمر هذا الطريق من هناك وسط الصحراء فيمر بتدمر ومنها الى حمص حيث يتفرع الى المدن الساحلية الفينيقية على البحر المتوسط . ومن المعروف ان هذا الطريق يخترق الصحراء لمسافة تقرب من ٥٠٠كم ولذلك فان استخدامه لم يكن امراً سهلا للقوافل التجارية والحملات العسكرية على حد سواء لان ذلك كان يتطلب حمل كميات كبيرة من المياه والطعام والعلف .

اما الطريق الثاني ، وهو اطول من الاول لكنه اكثر امنا ، فيمر في مصادر مائية كثيرة • فهو يبدأ من العاصمة الاشورية نينوى على نهر دجلة باتجاه الغرب قاطعاً منطقة الجزيرة الشمالية بين نهري دجلة والفرات • ويمر هذا الطريق في الموضع الاثري القديم شوبات انليل(Shubat Enlil) ، وربما شاغر بازار حالياً ، وفي كوزانا (Guzana) ، اي تل حلف على نهر الخابور ثم في مدينة حران الواقعة على نهر البليخ ومنها الى كركميش بعد عبور الفرات • وينحدر هذا الطريق بعد ذلك باتجاه الجنوب الغربي ليصل الى مدينة حلب ومنها يتفرع الى فرعين رئيسين • احدهما ينحب الى المناطق الوسطى من سوريا والآخر الى المناطق الساحلية منها • ويتفرع من هذا الطريق ، وفي نقاط متعددة ، فروع باتجاه الشمال الغربي وصولا الى كلبيكيا وبلاد الاناضول ، وكان بالامكان الوصول الى ارمينيا والاجزاء الشرقية من اناضوليا باتباع طريق يبدأ من العاصمة نينوى بمحاذاة نهر دجلة وصولا الى ديار بكر ومنها ينفذ خلال مضايق جبل طوروس الى ارمينيا•

وكان بالامكان الوصول الى بلاد وادي النيل من الاراضي السورية ـ الفلسطينية عبر سيناء وصولا الى دلتا النيل وهو الطريق الذي اتبعه الاشوريون في حملاتهم العسكرية ايام اسرحدون وابنه اشور بانيبال في القرن السابع قبل الميلاد • وهناك من يعتقد بان التاثيرات المبكرة التي وصلت من وادي الرافدين الى وادي النيل ، ربما وصلت عن هذا الطريق او ربما عن طريق بري آخر يبدأ من سومر مخترقا جزيرة العرب ثم يعبر البحر الاحمر الى وادي حمامات ومدينة القفط عند ثنية النيل(٢) •

اما اتصالات وادي الرافدين بالبلدان الواقعة الى الشرق منه فكانت

صعبة بسبب المنطقة الجبلية الوعرة التي تمتد فيها سلسلة جبال زاجروس كما ان سكان هذه المنطقة كانوا من القبائل الرعوية المتخلفة التي كانت تتحين الفرص دائماً للانقضاض على المراكز الحضارية في المنطقة السهلية . ومع ذلك فان الاتصالات لاغراض تجارية او عسكرية عبر هذه السلسلة الجبلية كانت ممكنة من خلال منافذ أي ممرات معروفة هي :

١ ـ ممر رايات بالغرب من راوندوز ٢ ـ ممر عند حلبجة الى الجنوب من السليمانية ٣ ـ ممر خانقين . وجدير بالذكر ان الممرين الأولين كانا يؤديان الى اذربيجان وسواحل بحيرة ارميا ، اما ممر خانقين فانه يصل الى كرمنشاه وهمدان ومدن الهضبة الايرانية ٤ ـ وهناك طريق رابع الى اقصى الجنوب ، يسير بمحاذاة سفوح جبال زاجروس ابتداءاً من الدير بالقرب من بدره وصولا الى العاصمة العيلامية «الشوش» بالقرب من ديزفول ، وهو في الحقيقة امتداد للسهل الرسوبي في وادي الرافدين .

اما باتجاه الجنوب فكان للعراق اتصالات قديمة مع بلدان الخليج العربي عن طريق الخليج نفسه الذي يشار اليه في النصوص المسمارية بـ «البحر الاسفل» او «بحر شروق الشمس» مقارنة بالبحر المتوسط الذي يعرف في النصوص المسمارية بـ «البحر الاعلى» او «بحر غروب الشمس» . واقدم هذه الاشارات قد ورد ذكرها في نص للملك لوكال زاكيزي الذي حكم في الوركاء في حدود (٢٤٠٠ ـ ٢٣٧١ ق.م) . وكان للعراق عن طريق الخليج العربي اتصالات تجارية في الغالب مع بلدان تذكرها النصوص المسمارية باسماء دلمون ، مكان وملوخا والتي هي على التوالي البحرين وعمان وربما حوض نهر السند .

يمكننا القول دون تردد ان اختراع الكتابة في سومر في حدود (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق٠م) كان من ابرز المنجزات الحضارية في بلاد وادي الرافدين ، وان انتشارها الى بلدان واقاليم عديدة خارج القطر كان واحداً من اهم الاسهامات التي قدمها العراقيون القدماء لشعوب تلك البلدان ، لانهم تعلموا عن طريق الكتابة كيف يدونون الكلمة ويسجلون بها التاريخ. واضافة الى ذلك فان الخط المسماري اوجد رباطاً وثيقا كانت له نتائجه المهمة في انتقال كثير من المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتاجات الادبية والثقافية(٣) . وقد كشفت التنقيبات الاثرية ان الخط المسماري انتشر في منطقة واسعة امتدت من ايران شرقا الى البحر المتوسط غربا ومن بلدان الخليج العربي جنوبا الى الاناضول شمالا . فبعد قرنين تقريبا من ظهور الكتابة في سومر ظهر في سوسه (شوش) عاصمة عيلام ما يعرف بين المختصين بـ «الخط العيلامي القديم» الذي يعاصر في تاريخه دور حمدة نصر (٢٨٠٠ ق٠م) في العراق . وهناك نماذج من هذه الكتابة وجدت مدونة على مئات من الرقم وهي على مايبدو نصوص اقتصادية . ويرجع الباحثون ان الخط العيلامي هذا انما ظهر بتاثير مباشر من وادي الرافدين الذي سبق وان شهد ظهور «الخط المسماري» قبل ذلك بقرنين تقريباً . ومما يرجح هذا الرأي أن بلاد عيلام كانت دائماً تحت تاثير الزخم الحضاري للعراق ويتجلى ذلك بصورة اوضح عندما ترك العيلاميون في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد خطهم العيلامي القديم واستعملوا عوضاً عنه الخط المسماري المعروف في وادي الرافدين .

اما باتجاه الغرب فقد كان للظاهر الحضارية من بلاد وادي الرافدين

حة مورمبكر في مناطق الفرات الاوسط وشمالي سوريا • ومن المدن الشهيرة التي تأثرت بشكل واضح بالمقومات الحضارية العراقية القديمة هي مدينة ماري التي تقع على الفرات والتي تمثلها أطلال تل الحريري على بعد ستة اميال الى الشمال من «ابو كمال» في سوريا • ومما تجدر الاشارة اليه ان مدينة ماري كانت من الاقاليم الواقعة ضمن منطقة النفوذ السياسي والحضاري لبلاد وادي الرافدين ، واقدم الاشارات التي وردت اليها في النصوص المسمارية تعود الى زمن الامير السومري اياناتم (Bannatum) في حدود (٢٥٠٠ ق٠م) من سلالة لكش الاولى حيث ذكرها ضمن أسماء المدن التي شملتها فتوحاته العسكرية • غير ان فترة قرن من الزمن التي تلت حكم هذا الأمير اتسمت باضطراب الاوضاع السياسية في بلاد سومر فاستطاعت سلالة حاكمة في ماري من مد نفوذها على بلاد سومر لمدة ١٣٦ عاماً حسب ماتذكره قائمة الملوك السومرية • وعلى اية حال فان هذه المدينة اصبحت جزء من الامبراطورية الاكدية عندما ضمها سرجون الاكدي الى الاقاليم التي سجلتها فتوحاته في مناطق الفرات وشمالي سوريا • وظلت ماري تحت نفوذ السومريين خلال سلالة اور الثالثة (٢١١٣ – ٢٠٠٦ ق٠م) • وحققت مملكة ماري استقلالها السياسي في العصر البابلي القديم حيث انها احتلت مركزاً مرموقاً بين السلالات المتعاصرة والمتنافسة على السلطة في ذلك العصر وخاصة في زمن ملكها الشهير زمريلم (١٧٧٩ – ١٧٦١ ق٠م) الذي كان معاصراً للملك حمورابي (١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق٠م) في بابل •

وقد كشفت التنقيبات في مدينة ماري عن ارشيف القصر الملكي الذي

ضم اكثر من ٢٠ الف رقيم مدونة بالخط المسماري واللغة الاكدية . ولوثائق ماري اهمية كبيرة من الناحية التاريخية فهي تسلط الاضواء على العلاقات السياسية بين ماري والممالك السورية الاخرى مثل كركيش وحلب وقطنه من جهة وعلى علاقاتها مع اشور وبابل من جهة أخرى . فمن بين الوثائق المكتشفة رسائل تعود الى الملك زمريلم كان قد تبادلها مع سفرائه وموظفيه في المدن التابعة له . وهناك رسائل اخرى تعود الى زمن يسبق مجيء زمريلم الى الحكم ، منها تلك التي بعثها اشخي - ادد ، ملك قطنه ، الى كل من يسمح ادد الذي سبق زمريلم في الحكم على ماري والى اشمي - دكان الذي تولى حكم المنطقة الواقعة على نهر دجلة الى الجنوب من مدينة اشور والتي كان مركزها في «ايكالاتم» . ويوجد بين نصوص ماري رسائل الى الملك يسمح ادد تتضمن تقارير عن تحركات وتجمعات القبائل البدوية التي كانت تستوطن المناطق الوسطى من الفرات وشمالي سوريا ومنطقة نهر الخابور مثل قبائل الخانيين والسوتيين وبني اليمين (Benjamina)

ومن القضايا التاريخية المهمة التي اثبتتها وثائق مدينة ماري هي ان شمس ادد ملك اشور كان معاصراً للملك حمورابي في بابل ، وقد ساعد ذلك على تحديد زمن حكم حمورابي بعد ان كان ذلك موضوع جدل طويل بين الباحثين .

وفي موقع آخر من بلاد الشام وهو مدينة ابلا (تل مرديخ) الواقعة على بعد ٦٠ ميلا الى الشمال من حلب ، كشفت التنقيبات عام ١٩٧٤ عن ١٥ الف رقيم مدونة بالخط المسماري يرجع تاريخها الى نهاية عصر فجر السلالات الثالث والعصر الاكدي (في العراق) ، اي انها تعود الى الفترة الواقعة بين ٢٤٠٠ و٢٢٥٠ ق.م . وتمثل هذه المجموعة الكبيرة من

النصوص المسمارية السجلات الرسمية لمملكة ابلا ، وهي تتكون من نصوص ادارية واقتصادية مثل الجرايات الخاصة بالعاملين في القصر والرسل والقرابين المقدمة الى الآلهة • وهناك نصوص تتعلق بالتعديـن والصناعات والنسيج والاحجار الثمينة واخرى تتعلق بالتجارة ونعكس في ذات الوقت حجم واهمية التجارة الخارجية لمملكة ابلا في الالـف الثالث قبل الميـلاد • ويوجد بين وثائق ابلا ايضاً نصوص مدرسية تحتوي على قوائـم باسماء الحيوانات والطيور والاسماك واسماء اماكن جغرافية وحرف واسماء اعلام، وهي بذلك تشبه القوائم المسمارية المبكرة التـي تـم اكتشافها في فـارة وابو صلابيخ في سومر • كما عثر في ابلا على نصوص معجمية تحتوي على مفردات سومرية في العمود الايسر من الرقيم وما يقابلها بلغة ابلا في العمود الايمن منه • وجدير بالذكر ان مملكة ابلا عاصرت قيام الامبراطورية الاكدية في العراق وان نهايتها جاءت على يد الملك الاكدي الرابع نرام ـ سين الذي حكم في الفترة بين ٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ ق•م • اما لغة هذه النصوص فهـي «الابلية» كما يسميها بعض الباحثين وهي من اللغات الجزرية العزبية مثل الكنعانية بفروعها الادغاريثية والفينيقية(٥) •

قبل اكتشاف نصوص ابلا بحوالي نصف قرن تقريباً ، اي في عـام ١٩٢٨ على وجه التحديـد ، كشفت التنقيبات في مدينة اوغاريث (رأس شمرة) الواقعة على الساحل في شمالي سوريا عن اول مجموعة من رقـم الطين المدونة بالخط المسماري • ومما يجدر ملاحظـة بخصوص وثائـق اوغاريث ان بعضها مدون بالخط المسماري واللغة الاكدية على غـرار ماكان جارياً في بلاد وادي الرافدين في حـين ان بعضها الآخـر مـدون بالجيتية

والخورية · غير ان الاغلبية من وثائق اوغاريت ، وهي تتكون من عدة مئات من رقم الطين كانت مدونة بخط مسماري جديد ولغة هي الاخرى لم تكن معروفة من قبل · وقد اثبتت البحوث اللاحقة ان هذا الخط كان هجائياً ـ مسماري الشكل دونت به الاوغاريتية ، وهي كما ذكرنا لهجة من اللغة الكنعانية ، وانه يتكون من ابجدية قوامها ٣٠ علامة (او حرفاً) · وفي سنة ١٩٤٩ عثر في اوغاريت على رقيم يحتوي على الابجدية الاوغاريتية هذه مرتبة بحسب التسلسل الذي كانت متداولة فيه انذاك · وباستثناء رقم الطين والعلامات ذات الشكل المسماري المعروفة في بلاد وادي الرافدين، فان الابجدية الاوغاريتية نمط هجائي ليس له علاقة بالخط المسماري المعروف في العراق القديم والذي بقي الى آخر العصور التاريخية مزيجاً من علامات رمزية ومقطعية ، بالرغم من ان الاثنين ، كما قلنا ، كتبا على الطين وبقلم من القصب ومن جهة اليسار الى اليمين · ويتكون الجزء الرئيسي من وثائق اوغاريت من قصائد ملحمية واسطورية ومن ابرزها تلك التي تدور حول الاله بعل والالهة اناث · ويعود تاريخ نصوص اوغاريت الى الفترة الواقعة بين ١٥٠٠ و١٤٠٠ ق·م(٦)

وكان الخط المسماري قد وصل في عصر مبكر نسبياً من اشور الى بلاد الاناضول حيث عثر في مدينة كانيش (كول تبه) في الاراضي التركية على مايزيد على ثلاثة آلاف رقيم مدونة بالخط المسماري ، وقد تبين من محتوياتها ان هذه المدينة كانت تمثل مركزاً تجاريا اشوريا في مستهل الالف الثاني قبل الميلاد (في حدود ١٩٥٠) · اذ استطاع الاشوريون في هذه الفترة ، اي العصر الاشوري القديم ، ان يقيموا عدة مراكز تجارية في مدن

مهمة من اسيا الصغرى . وكانت مدينة كانيش التي تبعد ١٥ ميلا الى الجنوب من انقره من ابرزها حيث مارس التجار الاشوريون فيها معاملات واسعة من الاستيراد والتصدير مع البيوتات التجارية في بلاد اشور نفسها. اذ كانت كانيش تصدر الى آشور خامات المعادن على وجه الخصوص والتي كانت تستخرج من مناجم جبال اناضوليا ، في حين كانت اشور تصدر البضائع المعدنية المصنعة والمنسوجات . ويظهر من الوثائق المسمارية المكتشفة في هذا المركز التجاري ان الفعاليات التجارية بين كانيس وبلاد اشور استمرت لعدة اجيال . وبالاضافة الى اهميتها من الوجهة الاقتصادية فان لوثائق كانيش اهمية كبيرة من الناحية اللغوية لانها تسلط الاضواء على اللهجة الاشورية في عصورها القديمة ، خاصة وان ماوصلنا من كتابات من هذه الفترة من التاريخ الاشوري المبكر قليل جداً من بلاد اشور نفسها(٧) .

وقد شاع استعمال الخط المسماري بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في كافة بلدان الشرق الادنى القديم في حدود ١٤٠٠ ق.م عندما اصبح وسيلة التدوين الرئيسية للوثائق الدبلوماسية المتبادلة بين ملوك وامراء وحكام العراق وسوريا وفلسطين ومصر والحيتيين والميثانيين . وكان الاورارتو في ارمينيا الذين استخدموا الخط المسماري في كتابة لغتهم في النصف الثاني من الالف الاول قبل الميلاد آخر الاقوام التي استعارت الخط المسماري من بلاد وادي الرافدين .

بعد هذا العرض لانتشار الخط المسماري في بلدان الشرق الادنى بتأثير من بلاد وادي الرافدين ، ننتقل الى الآن الى الحديث عن انتشار اللغة

البابلية الى مناطق هي الاخرى واسعة باعتبارها اللغة الرئيسية التي دونت بها الوثائق المسمارية • فمن المعروف ان الخط المسماري استخدم في وادي الرافدين اساساً لتدوين اللغـة السومرية ثم الاكديـة (بفروعها البابلية والاشورية) • ومعروف ايضاً ان اللغة السومرية ، وهي لغة غير جزرية ، بدأت بالانقراض تدريجيا بعد سقوط سلالة اور الثالثة التي تعتبر آخـر سلالة سومرية في التاريخ وبذلك اخذت البابلية تحل محلها عـلى الصعيد الرسمي في مكاتبات ممالك العصر البابلي القديم وعلى صعيد التداول اليومي في المجتمع • وبقيت البابلية اللغة السائدة في وادي الرافدين بالرغم مـن ان البلاد تعرضت خلال حقبات زمنية مختلفة من التاريخ القديم الى غـزو واحتلال الاجنبي • ومع ذلك ، وفي كل مرة ، كان الغزاة المحتلون يقعون تحت تأثير الزخم الحضاري للبلاد في مجال اللغـة والمعتقدات والعادات والتقاليد • فالكوتيون الذين اسقطوا السلالة الاكدية وحكموا البلاد زهـاء قرن من الزمن (٢٢١٠ ــ ٢١٢٠ ق٠م) استعملوا الخط المسماري واللغـة الاكدية ولم يصلنا شيء مدون بلغتهم • والكيشيون ايضاً الذين بقوا فـي الحكم في وادي الرافدين حقبة طويلة تزيد على اربعـة قـرون (١٥٩٥ ــ ١١٧٠ ق٠م) استعملوا الخط المسماري واللغة البابلية • يضاف الى ذلك ان تأثرهم بمقومات الحضارة العراقية القديمة بلغ حدا بحيث ان العصر الكيشي تميز بنشاط ملحوظ في حركـة التاليف والنقل لعـدد كبير مـن المؤلفات البابلية وخاصة تلك التي تقع ضـمن اطـار الفكـر والمعتقدات والفلسفة • وتظهر سيادة اللغة البابلية بصورة جلية في الوثائق المسمارية التي كشفت عنها التنقيبات في نوزي والتي تعود الى القرنين الرابع والثالث عشر قبل الميلاد • فبالرغم من ان نوزي (اربخا) كانت واحدة من المدن

التابعه آنذاك للسيطرة الخورية الا انه اللغة البابلية بقيت اللغة الرسمية لتدوين مختلف شؤون الحياة اليومية ٠

وفي هذا السياق لابد من الاشارة ايضاً الى ان الاموريين ، وهم من القبائل الجزرية التي كانت تتكلم لغه جزرية عربية والتي تسلمت مقاليد الحكم في البلاد وبعد سقوط سلالة اور الثالثة في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد (٢٠٠٦ ق٠م) ٠ قد وقعت هي الاخرى تحت تاثير اللغـة البابليه السائدة في بلاد وادي الرافدين ٠ فالاموريون كما معروف مـن القبائـل الكنعانية الشرقية وكان متوقعا ان يستعملوا الامورية بعـد نجاحهم فـي الاستيلاء على مقاليد الحكم في وادي الرافدين ، غير ان ذلك لم يحدث اذ انهم استعملوا البابلية بدلا منها وبذلك بقيت هي اللغة الرسمية السائدة في البـلاد ٠

ووصلت اللغة البابلية ذروة الشهرة والانتشار خلال القرن الرابـع عشر قبل الميلاد عندما اصبحت لغة المراسلات الدبلوماشية بين اقطار الشرق الادنى القديم ٠ والدليل على ذلك الرسائل المكتشفة في العاصمة المصريـة تل العمارنه التي تثبت ، ضمن اشياء كثيرة ، عمـق العلاقات بين ملـوك وادي الرافدين وفراعنة مصر وخاصة في زمن امينوفس الثالـث وابنـه اخناتون ، كما انها تسلط الاضواء على الاحوال السياسية في بـلاد الشام وانحسار النفوذ المصري فيهذه المنطقة زمن اخناتونالذي اشغلته اصلاحاته الدينية الجديدة عن متابعة سير الاحـداث والتطورات السياسية فيها ٠ ويرجح بعض الباحثين ان مدرسة خاصة انشئت في تـل العمارنه لتعليم الكتبة المصريين مبادىء الكتابة المسمارية واللغة البابلية عندما اصبحا الادارة

الرئيسية التي كانت تكتب بها المراسلات والوثائق الدولية المتبادلة بين ملوك وحكام دول الشرق الادنى القديم •

واذا ما انتقلنا الى الادب في سياق التأثير امكننا القول ان الادب العراقي القديم ، شأنه شأن الخط واللغة البابلية ، انتشر هو الآخر الى مناطق بعيدة من بلدان الشرق الادنى القديم ، وانه لقي استحسانا واعجابا كبيرين من رجال الادب في تلك البلدان • ولقد اظهرت الدراسات الاثرية والمسمارية خلال نصف القرن الماضي ان كثيراً من التآليف والافكار الادبية كانت قد وصلت من العراق الى سوريا وفلسطين ومصر واسيا الصغرى وبلاد اليونان •

لقد كان من بين النصوص المسمارية المكتشفة في تل العمارنه ، عاصمة امينوفس الرابع (اخناتون) نسخة من القصة البابلية المعروفة بقصة ادبا • والمعروف عن ادبا انه كان رجلا حكيما تقيا ، لكنه في سورة من الغضب كسر جناح الريح الجنوبية فكان ذلك سبباً في غضب اله السماء عليه • فلما مثل ادبا امام اله السماء آنو ليستجوبه اشفق عليه الاله في نهاية الامر وعقد العزم على تكريمه بمنحه «ماء الحياة وخبز الحياة» • لكن ادبا رفض ان يأخذهما وبذلك فوت على نفسه فرصة ثمينة للحصول على حياة ابدية • وعثر في تل العمارنه أيضا على كسرتين من لوحين يحملان أجزاء من الاسطورة البابلية المسماة « نركال وايرشكيجال » • وملخص هذه الاسطورة ان الآلهة اقامت وليمة كبرى وانهم ارسلوا رسولا الى اختهم ايرشكيجال ، الهة العالم الاسفل ، يطلبون منها ان تبعث من يأخذ حصتها من تلك المائدة لعدم استطاعتهم النزول اليها في عالم الاموات

ولعدم استطاعتها هي ايضاً الصعود اليهم في عالم الاحياء • وحضر رسولها الوليمة فرحبوا به ونهضوا اجلالا وتكريما له باستثناء اله واحد هو نركال الذي لم يفعل ذلك • فاسر الرسول ذلك في نفسه وعندما عاد الى العالم الاسفل قصعلى مكلته تفاصيل ماحصل أثناء الوليمة• فطلبت ايرشكيجال منمجمعالآلهةأنيبعثوا لها نركاللكي تحتجزه عندها فيعالمالاموات عقابا له• ويبدو من سياقالنص المخروم فيهذا الموضع منالرقيم انالاله نركال نزل الى العالم الاسفل لكنه فاجأ الالهة ايرشكيجال بان هجم عليها وهـــم بقطع رأسها وانها راحت تبكي وتستعطفه وتعرض عليه ان يتزوجها ليكون ملكا على عالم الاموات • وعندئذ رق قلب نركال وتبدد غضبه ، فقبل ايرشكيجال وجفف دموعها وصار زوجاً لها وملكا على العالم الاسفل(٨) •

وعثر ايضا في سلطان تبه ، وهو أحد التلول الواقعة في حران في اعالي نهر الباليخ على رقيمين من القصة البابلية الساخرة التى كان بطلها رجل فقير من نفر اسمه جميل ـ ننورتا • ان العثور على قصة جميل ـ ننورتا ضمن مكتبة اشور بانيبال وفي سلطان تبه ربما يفسر بانه دليل على الشهرة الواسعة التي نالتها القصة بسبب طرافتها خاصة عندما نعـرف ان حوادثها تدور حول شخص في مدينة نفر التي تقع على مسافة بعيدة من حران • ولذلك فانه من غير المستبعد ان تكون اقدم النسخ منها كتبت في الاصل في احد مراكز التدوين العديدة في مدينة نفر ومنها انتشرت الـــى المدن الاخرى • وتدور قصة جميل ـ ننورتا حول رجل فقير يسكن مدينة نفر اراد ان يتقرب الى حاكم المدينة عساه يجد حظوة عنده ويتخلص مـن فقره وبؤسه • وذات يوم خطرت بباله فكرة غريبة وهـي ان يبيع ثوبـه الذي لايملك سواه ويشتري بثمنه عنزة يقدمها هدية الى حاكم المدينة• واقتاه

جميل ـ ننورثا عنزته الى بيت الحاكم وطلب من البواب ان يستأذن له من سيده ليقابله • ولما مثل الرجل الفقير بين يديه وبخه الحاكم توبيخاً عنيفاً وامر بطرده على الفور • لقد شعر جميل ـ ننورثا بوطأة الاهانة فعقد العزم على الانتقام لنفسه من الحاكم • ولم يكتم ذلك سراً بل انه همس في اذن البواب وهو يقتاده الى خارج البيت بانه سوف يكيل الصاع ثلاثة اضعاف • ولما نقل البواب ذلك الى سيده ، ضحك الحاكم ملىء شدقيه استخفافاً به وبوعيده • غير ان ما جريات القصة اثبتت ان ذلك الفقير المعدم كان على قدر كبير من المكر والدهاء وانه في الاخير استطاع فعلا ان يقتص من ذلك الحاكم في سلسلة من المكائد دبرها له وهو متنكر مرة في زي صياد ثري مترف من اصدقاء الملك ، ومرة في زى طبيب جاء لمعالجة الحاكم المريض • ومما يجدر الاشارة اليه ان بعضاً من القصص مما هو معروف في الف ليلة وليلة يشبه من حيث الموضوع والاطار العام قصة جميل ـ ننورثا التى جئنا على ايجازها(٩) •

وكانت ملحمة جلجامش من التاليف الادبية التي ذاع صيتها في ارجاء واسعة من العالم القديم • فبالاضافة الى الرقم التي عثر عليها في مكتبة اشور بانيبال وفي مدن اخرى داخل القطر والتى تحتوي على تفاصيل الملحمة ، فقد عثر على نصوص منها في موقع سلطان تبه الذي جئنا على ذكره قبل قليل وعلى كسرة رقيم منها في مجدو بفلسطين ، كما عثر في العاصمة الحيثية حتوشش (بوغاز كوي) على بعض اجزاء من الملحمة تعود الى اللوح الخامس منها وعلى نصوص تحمل ترجمات حيثية وخورية لاجزاء منها • ان هذا الانتشار الواسع لملحمة جلجامش ، يبين بوضوح الشهرة الواسعة التي حظيت بها هذه الملحمة باعتبارها واحدة من الاعمال الادبية

الخالدة واشهر ما انجز الفكر الانساني في العصور القديمة • ومعروف ان الملحمة استحدث شهرتها من كونها تعالج موضوعا انسانيا محظا وهو الموت وتشبث الانسان الدائم بالخلود •

وتعتبر قصص الطوفان السومرية منها والبابلية من التآليف الشهيرة التي تركت اثراً واضحاً في معتقدات الاقوام القديمة الاخرى وخاصة العراقيين كما يتضح ذلك من سفر التكوين • ويظهر اثر الادب السومري واضحا ايضا في سفر نشيد الانشاد لسليمان وهو ماعرضنا له تفصيلا من خلال دراستنا المقارنة لهذا السفر مع قصائد الغزل الخاصة بالاله الراعي (دموزي) وحبيبته الالهة انانا (عشتار) •

وبالمثل فان المعتقدات السومرية الخاصة بموت هذا الاله والحزن الجماعي عليه كانت قد وجدت طريقها هي الاخرى الى سوريا وفلسطين حيث شارك كل من بعلّ و ادونيس الاله الراعي تموز الموت أيضا • ومما يجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الحزن الجماعي على موت الاله الراعي ، والذي كما هو معروف كان من الطقوس الشائعة في بلاد وادي الرافدين ، لم يندرس كلياً في المجتمع بالرغم من تعاقب العصور ، وانما بقيت رواسب واثار منها في معتقدات بعض الطوائف كالصابئة الحرانيين•

ويظهر من الدراسة المقارنة لما يذكره ابن النديم عن معتقدات وطقوس الصابئة الحرانيين بخصوص الاله القتيل تاوز (تموز) مع الاساطير الكنعانية المكتشفة في اوغاريت والمتعلقة بالالهه اناث وزوجها بعل الذي قتاله الاله موت ، ان مدينة حران كانت مركز التقاء للافكار والمعتقدات السومرية ـ البابلية والكنعانية • فوجود هذه الرواسب يرجع الى قرب

مدينة حران من أرض الكنعانيين فهي تقع على نهر البليخ في الجزء الشمالي الغربي منها وعلى الطريق التجاري الرئيسي القديم الممتد من شمال شرقي وادي الرافدين الى بلاد الشام والاناضول • ولذلك فوجود معتقدات كنعانية بين سكان حران امر لاغرابة فيه • ومن جهة اخرى فان انتشار المعتقدات السومرية ـ البابلية الخاصة بالاله تموز في منطقة حران يعتبر هو الآخر امراً طبيعياً ذلك لان هذه المنطقة كانت في معظم العصور التاريخية القديمة تابعة سياسيا وحضاريا لبلاد وادي الرافدين • وكانت حران مركزا بارزا لعبادة سين اله القمر ، وهو الاله الذي اشتهرت بعبادته ، منذ عصور قديمة جداً ، المدينة السومرية العريقة اور • وجدير بالذكر ان نبونئيد وهو آخر ملوك السلالة الكلدية في بابل (٥٥٦ ـ ٥٣٩ ق٠م) كان قد قام باعمال عمرانية في هذه المدينة وخاصة في معبد الاله سين علماً بان جدته لابيه وكذلك اباه وامه كانوا من كهنة هذا المعبد في حران • وتخلص من كل هذا الى القول بان مدينة حران كانت نقطة التقاء وامتزاج للمعتقدات البابلية والكنعانية • فالبكاء على الالــه القتيل تاوز في معتقدات الصابئة الحرانيين هو تأثير بابلي ومن رواسب الحزن الجماعي على تموز المعروف في وادي الرافدين ، بينما يكون قتله وطحن عظامه وتذريتها في الريح عبارة عن تأثير كنعاني جاء من اسطورة مقتل بعل(١٠) •

ومن المعروف ايضاً ان منطقة البليخ على الفرات ، حيث تقع تلول حران وسلطان شبه وتل بارسب (تل ، أحمر الى الجنوب من كركميش) ، كانت لها اهمية كبيرة من الناحيتين العسكرية والتجارية لانها تشكل منطقة اتصال بين وادي الرافدين وشمال سوريا وبلاد الاناضول • فقد كان تل

بارسب عاصمة ل «بيت اديني» (Bit Adini) ، وهـي احـدى المقاطعات الارامية الرئيسية في منطقة البليخ والفرات الاعلى • وقـد اثارت هذه المقاطعة متاعب كثيرة للاشوريين زمن الملـك اشور ناصربال الثالث (٨٨٣ – ٨٥٩ ق٠م) غير ان الاشوريين تمكنوا من فـرض سيطرتهم عليها وجعلها جـزء مـن امبراطوريتهم لاهميتهـا بالنسبة لنفوذهم في سـوريا والاناضول • وقد اقام فيها الملك شلمانصر الثالث سنة ٨٥٦ ق٠م قلعـة عسكرية سماها «كار – شلمانصر» بمعنى «ميناء شلمانصر» •

مراجـع وملاحظـــات

– لابد ان نثبت بدافع من الامانة العلمية اننا حاولنا قبل خمس سنوات (العراق في التاريخ ص٢٦٩ وما بعدها) تقديم عـرض ســـريع ومقتضب لانتشار بعض من المظاهر الحضارية من بلاد وادي الرافدين وخاصة فـــي مجال الخط المسماري واللغة البابلية والادب الى مناطق مختلفة من الشرق الادنى القديم • وقد رأينا انه قد حان الوقت الآن لوضـــع مجمل هـــذا الموضوع بشكل جديد ومفصل ابتداء بالطرق التي تم من خلالها انتقال تلك التأثيرات مع تشخيص المراكز التي تأثرت بالنتاج الحضاري من بلاد وادي الرافدين • وبالنظر لسعة الموضوع وتشعبه فاننا سوف نقتصر كلامنا في هذا البحث على انتقال التأثيرات الحضارية من وادي الرافدين الى بـــلاد الشام ومصر •

١ – حول موجز مركز عن الطرق التجارية التي كانت تربط العـــراق بالغرب والشرق والتي اسهمت في انتقال كثير من المفاهيم الحضاريـة الى مناطق بعيدة من الشرق الادنى القديم – انظر
Roux, G. , Ancient Iraq (1964), PP. 278 ff.

٢ – حول تفاصيل العلاقات العراقية – المصرية في العصـــور القديمة ، انظر الآن رسالة الماجستير للسيد محمد صبحي : العلاقات العراقية المصرية في العصور القديمة ، معهد الدراسات القوميـة والاشتراكية (١٩٨٨) •

٣ – انظر بحثنا الموسوم : «الخط المسماري واللغة الاكدية : اثنان مـــن ابرز العناصر المشتركة بين الحضارات القديمة في الوطن العربـــي» مجلة بين النهرين العدد ٣٦ (١٩٨١) ص٣١١ – ٣٢٠ •

٤ ـ حول هذه القبائل في ضوء وثائق ماري ، انظر :

Kupper, J. Les nomades en Mesopotamien au tewps des rois de Mari (Pasis 1957). Laessoe, J. People of Ancieut Assyria, London, 1763, PP. 60 ff .

٥ ـ عن ابلا ونصوصها المسمارية والملابسات التي صاحبت اكتشافها ، يراجـع :

Pettinato, G. "The Royal Archives of Tell - Mardikh — Ebla", Biblical Archaeology, (May, 1976) PP. 44 — 52 .

Biggs. R. "The Ebla Tablets", Biblical Archaeology (Spring, 1980) PP, 76 — 86 .

Michalouske, P., "Third Millennium Contacts Obsercations on the Relationships between Mari and Ebla". Journal of Amarican Oriental Society (105. 2,1985) PP. 293 — 302 .

Bounni, A., "The Cuneiform Writings and Ebla", Ages, Vol . I Part 2 (1986), PP.33 — 39.

٦ ـ

Cleator, P. Lost Languages (New york, 1961), PP. 134 ff .

٧ ـ

Saggs, H. The Greatness that was Babylon, (New york 1962) PP. 278 ff .

Saggs, Ibid. , PP. 337 . ٨ ـ

٩ ـ انظر بحثنا الموسوم : «من ادب الهـزل والفكاهـة عند السومريين والبابليين» ، سومر ٢٦ (١٩٧١) ص ٨٧ ـ ١٠٠ ٠

١٠ ٠ هذا رأي جديد طرحه الكاتب في الطبعة الجديدة من كتابه الموسوم «عشتار ومأساة تموز (١٩٨٦) ١٨٢ ـ ١٨٥ وهو يلغي الرأي القديم الذي جاء في الطبعة الاولى عام ١٩٧٣» ٠

من الكهف الى القرية في الوطن العربـي

استاذ الآثـار القديمة
الدكتور تقـي الدبــاغ
كلية الآداب ـ جامعـة
بغــداد

انتهى العصر الحجري القديم منذ ١٦٠٠٠ سنة مضت بعــد ذوبان النطاق الجليدي الاخير وتغير ظروف المناخ وحل بالتدريج عصر جديد هــو العصر الحجري المتوسط الذي فصل بين عصر الصيد والجمع وعصر الزراعة المبكرة • وتميز العصر الجديد بخصائص تختلف عن خصائص العصــور السابقة ومع ذلك لانجد اثراً لهذا التغير الا في المناطق التـــي تغير مناخها اي المناطق التي ارتفعت فيها درجات الحرارة وكثرت الامطار مثل شمال غرب اوربا والمناطق التي ازداد جفافها مثل اقطار الشرق الاوســط وشــمال افريقية • اما المناطق الوسطى مثل ايطاليا اليونان ووسـط اوربا فمـن الصعب التميز بين حضارة هذا العصر والحضارات السابقـة لان عمليـــة الانتقال كانت بطيئة جدا • لقد استمر الانسان معتمدا على الصيد والجمع والالتقاط في هذا العصر ولكن حصل بعض التغيير في مناطق معينة من العالم تحت تأثير الاحوال المناخية الجديــدة حيث اختفت بعض حيوانات عصــر الجليد وحلت محلها الحيوانات البرية التي تعيش في الوقـــت الحاضـــر كالغزلان والايائل والوعول والخنازير البرية والتبوس البرية والخنازيـر البرية والاغنام البرية والمواشي البرية والخيول البرية والارانب وغيرها • وظهرت مجالات جديدة للاستيطان عـــلى ضفاف الانهـار والبحيرات وعند ينابيع الماء وفي السهول بعد ان كانت مقتصرة عـــلى الكهوف والغابات •

اما الآلات الحجرية فقد حصل تقدم كبير في صناعتها لتلائم الظروف الانتقالية الجديدة فقد صنعت من الشظايا الصغيرة الحجم جداً وفق اشكال هندسية منظمة وكانت تثبت بمفردها او بمجاميع منها بواسطة القير في مقابض خشبية او عظمية تصنع منها آلة كرأس سهم او رأس رمح مسنن او سكينة او منجل • ويدل انتشارها في اقطار العالم القديم على صلات حضارية وهجرات بشرية • وشهد هذا العصر بذل المحاولات الاولى في زراعة النباتات الطبيعية وتدجين الحيوانات غير الاليفة • ويظهر ان الصيادين كانوا منذ زمن بعيد يسكنون الخيام بجوار الانهار في مواسم صيد الحيوانات لاقتناصها او اخذ صغارها لتربيتها في المنازل من اجل التمتع بها ثم من اجل لحمها • وقد لاحظ هؤلاء الصيادون نمو النباتات من بذور ونوى الثمار التي يجمعونها للاكل في جاور اماكن سكنهم غير انهم لم يتعلموا الزراعة وتدجين الحيوانات الا عندما احدثوا التحسينات على طرق صناعة الآلات الحجرية لقطع الاشجار في الغابات وتحويل الاراضي الى مزارع ولبناء الحظائر لحماية الحيوانات الاليفة من خطر الحيوانات المفترسة ولحفظها من الهرب ولصنع الآلات الخاصة بالزراعة كالعصا الحافرة والمحراث والمنجل والمذراة والمدقات والهاونات والمطاحن والمجارش•

ولقد كشفت التنقيبات عن حضارات هذا العصر في شمال غرب اوربا وكان اصحابها يصيدون الغزال الاحمر والارانب وكلب الماء والاسماك والطيور والخنازير والثيران والخيول البرية • اما الرنة فقد عادت الى خطوط العرض العليا • اذ لم يعثر على عظامها بين المخلفات • وتتميز آلات هؤلاء الصيادين بصغر الحجم وهي شظايا من حجر الصوان تاخذ شكل السكاكين ذات الحد الواحد او شكل المقاشط •• وصنعوا من العظام

وقرون الحيوانات رؤوساً للرماح او السهام • وظهرت في مواقع اخـــرى اسلحة حجرية صغيرة ذات اشكال هندسية منها المثلث والمربـع والهلال ولعل أهمها هو المحفر والمنجل •

وبدأ الناس في هذا العصر يخرجون من الكهوف الى مواقع مكشوفـة ليسكنوا في الخيام او الاكواخ فأنتشروا في الغابات وعلى سواحل البحار او حول الواحات وعلى شواطيء الانهار يصيدون الاسماك والطيور والحيوانات اللبونة • وتبدو مجتمعات هذا العصر قليلة مخلفاتها الاثرية ومع ذلك فأن فضلها على الحضارة كبير فقد بدأ الانسان لاول مرة محاولـــة استئناس الحيوان وربما زراعة النباتات ايضاً ومن بين الحيوانات التي الفت الانسان الكلاب فقد وجدت عظام نوع مستأنس منها في مواقـــع البرتغال وفرنسا ومنطقة بحر البلطيق وشبه جزيرة القرم وكهف شقبة بوادي النطوف فـي فلسطين • ولا شك في ان الكلب ساعد الانسان عـــلى صيد بعض ماكان يطارده من الغزلان والخنازير البرية والارانب وغيرها • والى جانب الكلب استئنس سكان هذه المواقع أو حاولوا استئناس كل الحيوانات المعروفة الان وربما اخذت قبل نهاية هذا العصر في زراعة الحبوب وكان عملها هـذا بداية المرحلة الجديدة في تطور اقتصاديات البشر • ان المتأخرين من اهل العصر الحجري المتوسط هم الذين مهدوا لحدوث الانقـلاب الزراعـــي • ويظهر ان الزراعة والرعي تطورت اثناء الجفاف النسبي الذي انتشر بعد الفترة المطيرة الاخيرة • ومن المهم ان نؤكد بانه لايوجـــد عندنا حتى الان دليل على طبيعة الحبوب الغذائية التي جمعها او حصدهـا اهـل العصـــر الحجري المتوسط عامة واهل النطوف في فلسطين خاصـة ولانعرف ما اذا

كانت تلك الحبوب قد زرعها الانسان ام انها نمــت نمواً طبيعياً كما ان مناجل الحصاد والمدقات والهاونات التي تركها النطوفيون في مستوطناتهم تحمل نقوشا لرؤوس حيوانات على مقابضها مما يدل على ان الصيد كان لايزال المصدر الرئيسي للطعام . وتتأكد هذه الحقيقة اذا علمنا ان انقاض الطبقات السفلى في مواقع عصر النطوف كانت خالية من عظام حيوانات داجنة .

ان الانقلاب الزراعي لم يحدث فجأة بل ظهرت بوادره نتيجة ازمــة المناخ التي تلت ذوبان ثلوج عصر الجليد قبل ١٦٠٠٠ سنة . ومر الانقلاب في مراحل تطورية وئيدة تتضح اثار تطوره التدريجية في اقطار الوطـــن العربي اكثر من غيرها وخصوصاً في العراق وفلسطين وسورية ومصــر . فبانسحاب الجليد القطبي تغير اتجاه رياح امطــار المحيط الاطلسي نحــو الشمال وبدأ الجفاف يعم انحاء الوطن العربي فنمت اصناف برية مـــن الحنطة والشعير وانتشرت الاصول البرية للاغنام والماعز والماشية والخنازير وتغيرت علاقة الانسان بالبيئة الطبيعية اذ نزح تدريجياً من المناطق المرتفعة الى مواقع مكشوفة في السهول بالقرب من مصادر المياه حيث استقر بجوار حقــول زرع فيهــا الحبــوب ورعى قطعــان الحيــوانات اللبــونة لان استمرار تناقص النباتات البرية وحيوانات الصيد عقب الجفاف لم يعـــد يسمح بالاعتماد على مجرد القنص والالتقاط فهجر الكهف والملاجيء الجبلية والغابات بالرغم من ان انسان هذا العصر والعصور اللاحقة ظـــل احيانـاً يستخدم الكهوف كما يفعل بعض الاكراد في قطرنا في الوقت الحاضـــر .

لقد كشفت التنقيبات الاثرية عن اثار هذه المرحلة الانتقالية في عــدد من المواقع في العراق وأثرنا ذكرها قبل غيرها لانها اقدم في الزمن واسبق

في التطور . فقد وجدت المخلفات في عدة اماكـــن بعضها كهوف وملاجيء جبلية وبعضها على هيئة قرى ومستوطنات . وكان اول موقع اكتشفت فيه هذه الاثار هـــو كهف زرزي[٢] بمحافظة السليمانية في عـــام ١٩٢٨ . اذ وجدت وفرة من الآلات الحجريـــة الصوانية الدقيقة الصنع الهندسية الشكل التي استخدمت في الصيد وحصد النباتات البرية وسميت صناعات هذا العصر في العراق بالصناعة الزرزية نسبة الى اسـم هـــذا الكهف . وعثر على آلات حجرية مماثلة في كهف بالي كورا[٣] بمحافظـة السليمانية ايضاً حيث وجدت آلات حجرية دقيقة ذات اشكال هندسية مـــع عظـــام حيوانات يعود قليل منها لانواع داجنة ووجدت مجارش وهاونات ومدقات تدل على محاولات اولية في حقل الزراعة والتدجين . ويعود زمـن هـــذه الآلات حسب اختبار كريون ١٤ المشع الى ١٢٤٠٠ زائـــد او ناقص ٢٨٠ سنة مضت[٤] . واستخرجت اثار هذا العصر الحجري المتوسط في الطبعة

ب ـ في كهف شانيدر(٥) وتبين من اختبار ١٤ المشع ان اثارهذه الطبقة تعود الى ١٢٨٠٠ سنة مضت . واتضح من دراسة الآثار ان هناك اتجاهاً متزايداً نحو الاعتماد على المنتوجات النباتية ومع ذلك فان اهل الكهف لم يتعلموا بعد فنون الزراعة وتدجين الحيوانات . ووجدت اثار هذا العصـر بشكل اوضح في مستوطنة كريم شهر[٦] وهو موقع مكشوف يقع شـرق بلدة جمجمال بنحو تسعة كيلومترات ، اذ تبين من العثور على بعض الآلات الزراعيـــة كالمناجل والمطاحن والمجارش والهاونات والمدقات قيام زراعـــة تجريبية محدودة ولكن من المحتمل ان تكون هذه الآلات قد استخدمت فـــي حصد وطحن حبوب النباتات التي تنمو في الطبيعة . وظهر ايضاً ان ٥٠٪ من عظام الحيوانات المستخرجة من هذه المستوطنة تعود لانواع البغة دجنها

الانسان لاغراض اقتصادية مما يدل على محاولات اوليـــة باتجاه ترويض واستئناس الحيوانات ومع ذلك يظهر أن الحرفة الرئيسية لاهل كريم شهر كانت الصيد والالتقاط وفي مستوطنة ملفعات(٧) على ضفاف نهر الخازر شمال الطريق الممتد بين اربيل والموصل وجـد المنقبون اثاراً تشبه الآلات التي استخرجت من موقع كريم شهر ولكن مستوطنة ملغعات شيدت فيهـا بيـوت محفورة في الارض وكانـــت ذات جـدران مبنيـة بالحجارة وذات ارضيات مبلطة بالحجارة والحصى ٠ اما مستوطنة زاوي جمـي[٨] التـي تقع على بعد لايزيد عن اربعة كيلومترات الى الغرب من كهف شانيدر فقد اعتبرت اقدم مستوطن قروي في شمال العراق واول قرية من نوعها فـي العالم(٩)٠ والتحريات الاثرية فيهذا الكهف كشفت عن اقدم بقايا المستوطن التي تتالف من جدران طينية غير منتظمة شيدت عـلى الحصى الكبيرة كما كشفت عن معالم اكواخ مستديرة الشكل عثر بداخلها على عـدد من المواد المنزلية من بينها أدوات لها علاقة بالزراعة كالمدقات والهاونات والرحى الحجرية والمناجل ٠ ولكن يظهر ان الصيد كـان المهنة الرئيسة للسكان بدليل بقايا العظام الكثيرة للغزال الاحمر ٠ ووجدت عظـام الاغنام غـير الداجنة في الطبقة السفلى ولكن عظام الاغنام التي وجدت في الطبقات العليا كانت من نوع اليف مدجن ٠ اما البقر فقد ظل حيوانا بريا غير اليف في هذه المرحلة وظل الماعز كذلك ٠ وتدل الادوات المنزلية المذكورة عـلى ان استعمالها كان لتهيئة الغذاء من الحبوب ولكن عدم العثور عـلى حبوب متفحمة يجعل من المتعذر الجزم بان أهل القرية شرعوا بزراعة الحبوب وهذا يرجح استعمال تلك الآلات في تحضير الطعام من الحبوب البريـة ٠ ومهما يكـن من أمر فان تدجين الغنم ووجود الآلات والادوات الزراعية

يرجحان القول بان هذه القرية ظهرت فيها البوادر الاولى للانقلاب الزراعي وان الصيد والزراعة البدائية المحدودة كانت في مراحلها الاولى مختلطة . واظهرت اختبارات كربون ١٤ المشع على المواد العضوية ان الطبقة السفلى تعود الى ١١٢١٧ زائد أو ناقص ٣٠٠ سنة مضت وان تاريخ الطبقة ب ١ في كهف شانيدر المعاصرة لقرية زاوي جمي يعود الى ١٠٩٢٥ زائد أو ناقص ٣٠٠ سنة وبذلك يمكن تقدير زمن هذه القرية في شمال العراق في حدود الالف العاشر وبداية الالف التاسع قبل الميلاد . ويضاهي هذا التاريخ الزمن المقدر بحوالي ٩٢٥٠ سنة مضت لمعبد اريحة في العصر النطوفي الذي يمثل العصر الحجري المتوسط في فلسطين(١٠) .

وتسمى المرحلة التي انتقل فيها الانسان القديم في فلسطين من الكهف الى القرية بالعصر النطوفي نسبة الى وادي النطوف بشمال غرب القدس حيث جرى التنقيب في اول مستوطن نطوفي في كهف شقبة(١١) سنة ١٩٢٨. وفي السنوات التي تلت الحفريات في كهف شقبة ظهرت اثار نطوفية أخرى في مغارة الوادي بجبل الكرمل ولقد حفظ الوادي الذي ينتسبون اليه أغلب اثارهم . وتدل الدراسات انهم تركزوا في نطاق ضيق من الارض يقع قريبا من ساحل البحر المتوسط ولكن كانت لحضارتهم امتدادات ابعد من ذلك شمالا من سورية والاردن وجنوباً في منطقة حلوان بمصر . وسكن اغلبهم الكهوف وقليل منهم في المواقع المكشوفة ودفنوا موتاهم في مكان اقامتهم وتركوا مع البعض منهم آلات وأدوات للزينة . وتبين الآلاتهم التي خلفوها في المراحل الاولى من تاريخهم انهم كانوا يعتمدون بالدرجة الاولى على الصيد وكان جمع الحبوب البرية وربما غير البرية يأتي في المرتبة الثانية . ويدل ما اكتشف من شصوص صيد الاسماك والمناجل والمدقات

الحجرية على انهم مارسوا هاتين الحرفتين • ولم ينس النطوفيون تقاليد وفنون اسلافهم في العصر الحجري القديم الاعلى فصنعوا السكاكين والازاميل والمقاشط ورؤوس السهام الحجرية واستخدموا العظام وقرون الحيوانات في صناعة كثير من الآلات ومن اشياء الزينة واتقنوا رسم الحيوانات وكان الشكل الغالب على الآلات هو الشكل الهلالي • ويبدوا ان هذه الاشكال الهلالية من الصوان كانت تركب بسهولة في ثقوب او شقوق تحفر في مقابض عظمية او خشبية وتثبت بواسطة القير لصنع اداة للحصاد او آلة للقتل • ومن الضروري ان نؤكد بانه لايوجد عندنا حتى الان دليل على طبيعة الحبوب الغذائية التي حصدها اهل النطوف بفلسطين ولانعرف ما اذا كانت من نباتات زرعها الانسان ام انها كانت تنمو طبيعياً • كما ان مناجل الحصد والمدقات التي تركوها في مستوطناتهم تحمل نقوشا لرؤوس حيوانات على مقابضها مما يشير الى ان الصيد كان لايزال المصدر الرئيسي للطعام وتتأكد هذه الحقيقة اذا علمنا ان انقاض الطبقات السفلى في مواقع النطوف كانت تخلو من عظام حيوانات اليفة باستثناء الكلب • عاش النطوفيون مثلما عاش معاصروهم في شمال العراق في الكهوف والمستوطنات المكشوفة وكانت انجازاتهم تشبه انجازات سكان العراق البدائية في مجال تدجين النبات والحيوان • لقد انتشروا في مناطق عديدة بفلسطين الامر الذي يسر العثور على اثارهم في مواقع عديدة على منحدرات تل القدس الشرقية والغربية وفي مغارة الوادي(١٣) وعين الملاحة(١٤) على شاطىء بحيرة الحولة وعند اريحة وتدل سعة مدافنهم التي حفروها في الصخور على استقرارهم النسبي في السكن • ففي صخور الوادي هناك ثمان وسبعون قبراً • هذا بالاضافة الى عدد من القبور المستديرة في عين الملاحة • وكانت

هذه القبور عامة بمعنى انها تضم اكثر من جثة واحدة • وكانوا يهتمون بالدفن وبالاموات ويتركون لهم الاصداف والحلي والاحجار مما يدل على اعتقادهم بنوع ما في الحياة بعد الموت • ووجدت في احد القبور بعين الملاحة مجموعة من الاصداف مرتبة بشكل تاج بداخل حفرة طليت بالملاط ووضعت فوقها صخور مرتبة في شكل دائرة(١٥) • ووجدت اثار نطوفية في الطبقات السفلى في تل الجزر(١٦) • ومن المواقع النطوفية الاخرى المهمة في العصر الحجري المتوسط موقع قرب اريحة يرتفع نحو سبعين قدماً عن حافة واحة ماء ترد اليها المياه الجوفية من أمطار فصل الشتاء • وبالقرب من هذه الواحة وجد مستوطن صيد يقع تحت مستوى سطح البحر بمقدار ١٠٠٠ قدم ويمكن الافتراض بان الصيادين قد ترددوا على هذه الواحة منذ العصور الحجرية القديمة وراء الحيوانات مثل الغزلان والخنازير البرية والارانب(١٧) والاغنام والمواشي والتيوس البرية(١٨) • وقد وجدت اثار مزار والات نطوفية وتبين ان المزار انتهى بالحرق وتعود بقايا الفحم الناجمة من الحرق الى ٩٢٥٠ سنة مضت(١٩) • وتطورت هذه المحطة الى مستوطن موسمي فنظم فيه اكواخ تشبة اكواخ البدو وكانت الآلات لاتزال تصنع على الطريقة النطوفية اى انها دقيقة الحجم وهندسية الشكل • وتطور هذا المستوطن المرسمي بالتدريج الى قرية حقيقية ظهرت فيها بدايات العصر الحجري الحديث الزراعي في سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد •

وهناك دلائل على حدوث ظروف جافة تدريجياً اثناء عصر انطوف فغابات البحر المتوسط تراجعت شمالا في فلسطين في نهاية هذا العصر(٢٠) ولذلك هجرت عدة مستوطنات مثل عين الملاحة ووادي فلاح والكبارة والواد وربما تبع عدد من النطوفيين حيوانات الصيد شمالا في هجرة الى سورية •

اذ تعرف الان بواقع نطوفية في منطقة البقاع مثل جبل السعدية وفي مريبط(٢١) على الضفة الشرقية من نهر الفرات الى الشرق من مدينة حلب بنحو ٨٠ كيلو متراً • والتنقيبات الحديثة كشفت عن بنايا مستوطن نطوفي لصيد الحيوانات والاسماك في مريبط الاولى في اربع طبقات متعاقبة مما يدل على ان الاستيطان لم يكن موسمياً • وفي الطبقات الثلاث العليا وجدت ارضيات من الطين ومواقد ورماد • اما الطبقة الاولى فقد وجدت فيها بقايا اكواخ طينية مستديرة الشكل كانت في ارضياتها حفر صغيرة اعدت لاعمدة اسناد السقف • وكانت الآلات الحجرية جميعها من الصوان ولم يعثر للزجاج البركاني على اثر • ومعظم الآلات هندسية الشكل بهيئة الهلال والمعين والمثلث منها مثاقب ومناجل ومقاشط ورؤوس سهام ومعاول وفؤوس ومخارز وخرز اسطوانية • اما بقايا عظام الحيوانات فكانت من الغزال والحمار الوحشي والارخص والطيور والاسماك والمحاريات • اما بقايا النباتات فتدل على الشعير البري • لقد انتهى هذا المستوطن بالحرق في ٨٦٤٠ زائد او ناقص ١٤٠ سنة قبل الميلاد • اما مريبط الثانية فقد اقيمت على بقايا مريبط الاولى وعلى التربة الكبر ايضاً ووجدت فيها ثمان طبقات • وكانت المباني اكواخا مستديرة او بيضوية الشكل شيدت بالطوف واتخذ من الحصى وكسور الرحى اسساً للبناء ورصفت الارضيات بالحجارة والحصى والطين • ووجدت مرصوفة بالحصى تبدأ من الخارج وتنتهي الى الاكواخ لتسهيل المرور اثناء المطر • ومعظم الآلات كانت من حجر الصوان والقليل منها من الزجاج البركاني ولكن لاتوجد بينها الات هندسية • والالات هي مقاشط ومحافر ومناجل ورؤوس سهام ومعاول ومعازق ومطاحن وهاونات واواني حجرية ومخارز

وامشاط من العظام ووجدت عظام الوعل الاحمر والخنزير البري والارانب والذئاب مع حبوب متفحمة للحنطة من نوع وللشعير البري والعدس والحمص والكشانة • ويعود تاريخ اول كوخ مستدير الشكل في مريبط الثانية الى ٨١٤٢ زائد او ناقص ١١٨ سنة قبل الميلاد •
وفي مريبط الثالثة ظهرت المباني المستطيلة الى جنب البيوت المستديرة التي استمرت حتى العصر السابق ولكن البناء كان من الحجارة الهندمة المرصوفة بشكل اقصى مع الطين • ويرجح ان الدخول اليها كان من السقف • ووجدت عظام بشرية تحت ارضيات الدور • والالات الحجرية كانت صغيرة الحجم وهندسية الشكل • يعود تاريخ هذه المستوطنة حسب اختبار كربون ١٤ المشع الى ٧٥٤٢ زائد او ناقص ١٢٢ سنة قبل الميلاد مما يوحي بان مريبط الثانية والثالثة كانتا تعاصران اريحة في المراحل الاولى من عصور ماقبل انضمار • ويظهر ان مريبط الثالثة هجرت قبل ان تستوطن مرة اخرى في المرحلة الرابعة وذلك قبل ظهور الفضمار ايضاً • وفي تل ابو هريرة[٢٢] الذي يقع على بعد ٤٠ كيلو متراً الى الجنوب من مريبط وجدت مستوطنة نطوفية صغيرة الحجم على الارض البكر تميزت بالات حجرية دقيقة هلالية الشكل ووجدت فيها عظام حيوانات غير اليفة وحبوب نباتات تعود لانواع برية • وفي يبرود[٢٣] وجدت مستوطنة نطوفية في سكينتا في الملجأ الثالث •

وفي شرق الاردن وجد في تل البيضة[٢٤] بالقرب من البتراء موقع نطوفي في العراء تغطيه الرمال تدل طبقاته الثلاث المتعاقبة السفلية على نوع من الاستيطان الموسمي المؤقت اذ لم يعثر فيها سوى على اثار قليلة جدا •

وفي الطبقة السادسة وجدت اطلال بيوت شيدة بالحجارة تحت الارض ويحيطها سور ويظهر انها تدمرت بالحريق في سنة ٦٦٥٠ قبل الميلاد وأعيد نحو الجفاف ويحتمل ان يكون الانسان قد نزل الى الوادي في وقت ما في بناؤها في العصر الحجري الحديث ٠

وفي مصر كان المناخ في هذا العصر لايزال رطباً وان كان يميل ببطيء السبيلية وهي حضارة تطورت من الحضارة الليفراوازية اي انها لم تتاثر وفي واحة الخارجة ظهرت حضارة أخرى في شمال مصر عثر على الاثار في بمؤثرات خارجية بل ظهرت داخل حدود مصر(٢٥) فظهرت السبيلية في كوم امبو ابي صوير والعبلسية ٠ وكان كل ذلك تمهيدا للعصر الحجري الحديث ٠ والظاهر ان مستوطنات العصر الحجري المتوسط في منطقة الدلتا قد تأثرت بما انتقل اليها من فلسطين ٠ والموقع النطوفي في حلوان(٢٦) قرب القاهرة مهم في هذا المجال ٠ ولاتفسر قلة اثار هذا العصر التسبية الا بدفن اغلبها تحت طين نهر النيل الذي وصل في اواخر هذا العصر ٠ وتقسم كل حضارة من هذه الحضارات الثلاث المارة الذكر الى ثلاث مراحل تتبع الاولى والثانية العصر الحجري القديم الاعلى وتتبع الثالثة العصر الحجري المتوسط علماً بان جميع الالات صغيرة ودقيقة الحجم وذات اشكال هندسية وصنع اغلبها من الصخور البركانية ولكن نسبة الالات الصوانية ارتفعت في السبيل الاوسط ٠ كما وجدت اثار لطحن الغلال مما يدل على ان الانسان ابتدأ يستخدم الحبوب البرية في غذائه وربما هداه ذلك فيما بعد الى زرعها ٠ ويرجح ان الالات الدقيقة لهذا العصر لم تكن تستخدم بمفردها بل كانت تثبت في قطع من الخشب بواسطة القير او ترتبط الى قطع من العظام ٠

وفي المغرب العربي عاش اصحاب حضارة العصر الحجري المتوسط على طول السفوح الجنوبية لجبال الاطلس في مواجهة الصحراء في الجزائر وتونس حيث اقاموا الحضارة القفصية التي اشتملت في مراحل تكوينها الاولى على فصال كبيرة . ولوحظ منذ البداية ان هذه الحضارة تحتوي ايضاً على الات صغيرة تقرب من الالات الميكروليثية الدقيقة الحجم . وفي المرحلة النهائية حينما انتشرت شمالا وشرقاً على طول ساحل البحر المتوسط في اوربا . ومما هو جدير بالذكر ان هناك اتفاقاً بين الباحثين حول انتشار حضارة العصر الحجري القديم الاعلى وظهور حضارة العصر الحجري المتوسط في المغرب العربي بشكل متتابع وهذا يساعد على تفسير كثير من الحقائق .

ان الحضارة القفصية هي حضارة النصال الحقيقية في المغرب العربي . اذ ظهرت في باديء الامر كحضارة في العصر الحجري القديم الاعلى بنصالها ومقاشطها غير انها تطورت في العصر الحجري المتوسط الى آلات دقيقة ذات اشكال هندسية منظمة بعضها على شكل قوس والبعض الاخر على شكل مثلث . وقد وجدت في بعض المواقع اواني مصنوعة من قشر بيض النعام ومزينة برسوم هندسية وكذلك عرف اهل هذا العصر صنع العقود من الخرز المختلفة الالوان . وفي الدور القفصي اختفت جميع المعالم المميزة للعصر الحجري القديم الاعلى وظهرت اثار العصر الحجري المتوسط التي يعود تاريخها الى نحو ٥٠٥٠ زائد او ناقص ٢٠٠ سنة قبل الميلاد وسميت الصناعة القفصية بهذا الاسم نسبة الى مدينة قفصة في تونس . وكان اول اكتشاف لها في سنة ١٩٠٩ وانتشرت في الاقسام الداخلية

للمغرب العربي · اما الصناعة الوهرانية فقد اخذت اسمها من مدينة وهران بالجزائر وانتشرت في المستوطنات الساحلية من اقصى المغرب حتى شرق تونس ·

وفي منطقة الخليج العربي عثر على القليل جداً من اثار هذا العصر ومع التنقيبات الاثرية التي سوف تجري في المستقبل نضيف معلومات جديدة الى القليل الذي نعرفه في الوقت الحاضر · ففي قطر(٢٧) عثر في بئر حسين على آلات وادوات حجرية من نوع الصوان مبعثرة على السطح وهي تدل على صناعة بدائية قطرية كانت منتشرة اثناء العصر الحجري المتوسط وفي عمان(٢٨) اكتشف المنقبون مواقع تعود الى العصر الحجري المتوسط منها بير خسفة الذي وجدت فيه آلات دقيقة كثيرة ·

الهوامش والمصادر

١ ــ هاري ساكز · عظمة بابل · ترجمة عامر سليمان ١٩٧٩ ·ص٢٦ ·

(٢)
Garrod,D., The Palacolithic of Southern Kurdistan: Merd, American School of Prehistoric Research Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Bulletin, No . 6, 1930,P. 8-43 .

(٣)
Braidwood, R. and Howe, B. , Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan, 1960, P. 28-29 .

(٤)
Mollaart,J. , The Neolithic Near East, 1975, P. 283.

(٥)

Solecki, R., Shanidar Cave, A Palaeolithic Site in Northern Iraq and its Relationship to the Stone Age Sequence of Iraq, Sumer, Vol. XI, 1955.

(٦)

Braidwood. R. and Howe, B., Op. cit., P. 28-29.

(٧)

Braidwood. R. and Howe, B., Op. cit., P. 27-28.

(٨)

Sotecki. R., Zawi Chemi Shanidar, A Post Pleistocene Village Site in Northern Iraq. Report of the VIth International Congress on Quaternary, Warsaw, 1964.

(٩)

Garrod, D., Primitive Man in Egypt, Western Asia and Europe. CAH, I, 1965, Chapter 3.

(١٠)

Mellaart, J., op. cit., P. 283.

(١١)

Garrod, D., Excavations in a Palaeolithic Cave in Western Judaea, Palestine Exploration Fund Quarterly Statement, 1928, P. 182 - 185.

(١٢)

Garrod, D. and Bate, D., The Stone Age of Mount Carmel I, 1937, P. 114.

(١٣)

Garrod. D., The Nultufian Culture: The life and Economy of a Mesolithic People in the Near East, Proceedings of the Pritish Academy, 43. 1957, P. 211 ff.

(١٤)

Garrod, D. , Primitive Man in Egypt, Western Asia and Europe in Palaeolithic Times, CAH, Vol . I, Part I, 1970, P. 121 .

(١٥)

Kenyon, K. , Archaeology of the Holy Land, 1960, P. 38 .

(١٦)

Macallester, R. , The Excavations of Gezer, 1912, P. 74 ff. , 100, 235 .

(١٧)

Childe, G. , What Happened in History, 1950, P. 43 .

(١٨)

Garrod, D. , The Natufian Culture : The life and Economy of a Mesolithic People in tho Near East, Proceedings of the British Academy 43, 1957, P. 211 ff

(١٩)

Mellaart, J. , op. cit. , P. 283 .

(٢٠)

Mellaart, J. , op. cit. , P. 38 .

(٢١)

Cauvin,J. , Nouvelles Fouilles a Tell Mureybet, AAAS, Vol. XXII, Tome 2, 1972, P. 115 .

(٢٢)

Mellaart, J. , op. cit. , P. 146 .

(٢٣)

(٢٤)
Mellaart, J. , op. cit. , P. 146 .

(٢٥)
Huzayyin, S. , The Place of Egypt in Prehistory , 1941 .

(٢٦)
Albright, W. , The Archaeology of Palestine, 1954 , P.59-61 .

٢٧ـ سامي سعيد الاحمد • تاريخ الخليج العربي من اقدم الازمنة حتى التحرير العربي ١٩٨٥ ص٦٠ ـ ٦٥ •

٢٨ـ نفس المصدر ص٦٠ ـ ٦٥ •

طرق التجارة المائية ووسائلها في العراق القديم

الدكتور وليد الجادر
الاستاذ في كلية الاداب/جامعة بغداد

لاهمية التجارة في وادي الرافدين ولحاجة البلاد الى استيراد مختلف انواع المواد الضرورية القليلة التواجد فيه • وكذلك لضرورة تصدير الفائض من الانتاج ، الزراعي بشكل خاص ، فقد عرف السكان علاقات تجارية واسعة على المستوى الرسمي وغيره وذلك مع سكان مناطق الحضارات الواقعة في اطراف البحر المتوسط غربا وحتى اطراف الهند وافغانستان شرقا ، واقاليم الجزيرة العربية في الجنوب واقسام واسعة من اسيا الصغرى •

لقد كانت وسائل النقل المائية المعول عليها في أحوال عديدة في انجاز مثل هذه العمليات ، وظهرت بذلك اضافة الى الاساطيل التجارية الرسمية التابعة للدولة وسائط اخرى تابعة للافراد والمجموعات من الاغنياء الذين كانوا يؤجرونها بموجب اتفاقيات خاصة نصت بعض المواد القانونية على تنظيمها بين الافراد ، وكذلك نظمت اجور المشتغلين في هذا الحقل من عمال وفنيين بشكل لوحظ فيه حجم وسيلة النقل ومقدار الحمولة •

لقد استلزم ادارة الاكلاك وخاصة الكبيرة منها وكذلك المراكب التجارية او العسكرية وتسييرها رئيس ملاحين عرف في اللغة السومرية تحت تسمية وهو في الاكدية
وعرف الملاح من ذوي المسؤوليات الدنيا في السومرية
والذي يدير دفة القارب بالكلمة • وعرف الشخص المكرس

عمله لسحب القارب او المركب عند نزوله النهر في احوال اضطرارية
أو عند صعوده بالسومرية والتي يقابلها في الاكدية
المتأتية من اصل الفعل الذي يعني جر أو سحب[1] ٠

ومن الجدير بالملاحظة هنا ، ان لفظة ملاح وعلاقتها بالقوارب والسفن وطرق التجارة البحرية بشكل عام انها واضحة من خلال علاقتها بالطيور وبالذات بطيور خاصة كانت تستخدم من قبل راكبي البحر والمياه ٠ وكان الاصلاح الذي يرد في قصة الطوفان العراقية القديمة والخاص باستخدام الطيور من الرموز التي كانت معروفة من قبل الشعوب والتجار بشكل خاص ٠

ويرد من احداث بناء فلك اوتونابشتم وحمولته من ازواج الحيوانات والبشر ونماذج النبات والتقنيات الخاصة بتشييده بما يشير الى دراية واسعة ببناء السفن وباحجام متنوعة ٠ كذلك يتوضح خلال ذلك تقنيات وتجارب من كان يجوب المياه الواسعة والبحار ومن ذلك استخدام الطيور للاستدلال عن اتجاه وقرب اليابسة وتقدير المسافات للوصول اليها[2] ٠

لقد كانت شهرة استخدام العراقيون القدماء لوسائل النقل المائية في التجارة عن طريق الخليج العربي وصولا الى مناطق الهند الغربية معروفاً خلال الالف الثالثة قبل الميلاد[3] ٠

وعرف استخدام الطيور لنفس الغاية من قبل مستخدمي البحار من التجار السوريون والفينقيون بشكل خاص ومنذ ماقبل الالف الثانية قبل الميلاد ومن الطريف ان نجد في الرسوم الملونة المزينة لقبور الفراعنة في مصر نماذج من السفن السورية ومعها الطيور المتخصصة للرحلات هذه :

(انظر الشكل ٢)(٤) • كذلك الحال من نموذج اخر مؤرخ من القرن السابع قبل الميلاد من قبــرص •

ويذكر بليني في كتابه كيف كان السنفاليون يحملون معهــم الطيور وكيف كانوا يتركونها تحلق عند حاجتهم ركوب البحــر ومعرفــة اتجاه اليابسة والمسافات والوقت للوصول اليها •

وظل هذا التقليد معروفا خلال العصور ونتلقف من الوثائق المدونة عن اخبار رواد البحار في الشرق والشرق الاقصى خاصة كيف كــان هؤلاء يطلقون الطيور من سفنهم في عرض البحار نحو الاتجاهات الاربعة والمجموعة التي لاتعود يعني انها وصلت الى بر اليابسة وترجع الى المراكب والمجموعات التي لاتصل اليها كانت تلك هي اولى وسائل الاستدلال المعروفة لراكبــي البحار كما يذكر علي لسدلن بوذا(٥) •

المعروف ان الدولة او الافراد من المالكين كانوا يوكلون ادارة هــذه الوسائط بأيدي نوتية متخصصين عرفوا في اللغة الاكدية تحـت التسمية

وكان للواحــد من هؤلاء صلاحيات تصــل احيانا الى عقد الاتفاقيات الخاصة بالتاجير ••• ومسؤوليته في العادة تكون بشكل مباشر مع الملك ولقد سمي هذا النوتــي الرئيسي في العادة تحــت تسمية اخرى اكثر تخصصا وتلك هي :

ويبدو الدور لمثل هذه القوارب واضحا خلال العقود المدونة بالمسمارية التي وجدت مدونة في نصوص اقدم القوانين في وادي الرافدين حيث نجد تخصيص ثلاثة مواد من مواد قانون اشنونا(٦) الواحد والستون الى ذلــك وهي المواد : ٤ ، ٥ ، ٦ ونصت المادة الرابعة من القانون على ان :

« تكون اجرة القارب الذي يحمل ٣٠٠ كيلو غراما من الحمولة حوالي وزن كيلو غرامين من الحبوب • وتكون اجرة النوتي كيلو غرامين من الحبوب لليوم الواحد » •

ونصت المادة الخامسة من نفس القانون على :

« حالة اهمال النوتي وتسببه في غرق قارب وعليه في هذه الحالة تعويض كل الخسارة » •

ونصت المادة السادسة على مايلي :ـ

« اذا استخدم شخص قاربا لا يعود اليه فعليه دفع (حوالي ٨٠ غراما) من الفضة » •

وفي قانون حمورابي الذي يعطي تفاصيل اكثر وضوحا واوسع شمولية واكثر تنظيما من قانون اشنونا الاسبق زمنا والذي يعطي انطباعا بكونه مجرد قانون محلي منظم لعلاقات افراد ضمن مجموعة جغرافية محددة وعلى ضوء مرحلة زمانية محددة ، نجد ضمن بنود قانون حمورابي هذا ما يتعلق بايجار قوارب وما يحتمل حدوثه من اضرار ضمنها القانون بشكل عادل •

وتنص المادة ٢٣٦ من قانون حمورابي على ان القارب الذي يودعه المالك بالايجار الى ملاح يكون ملزما بتعويضه في حالة غرقه •

اننا نلاحظ اوجه الشبه الواضحة بين فحوى هذه المادة وفحوى المادة الخامسة من قانون اشنونا •

اما المادة ٢٣٧ من قانون حمورابي فانها تتضمن الفحوى التالي :ـ

« ان على السيد الذي يستأجر ملاحا وسفينة ويحملها بالحبوب والصوف والزيت والتمر أو أي شيء آخر ، ان يعوض ، في حالة اهمال

الملاح واغراقه للسفينة فقدان ما عليها من حمولة ، السفينة والحمولة » •

اما المادة ٢٣٨ من نفس القانون فانها تتضمن ما يلزم الملاح الذي يغرق سفينة السيد المالك ويفلح في انقاذها (ثانية) يدفع نصف ثمنها بالفضة (جراء التلف الذي يصيبها) •

وتعزز رسائل العهد البابلي القديم مايوضح لنا تنظيم العلاقة الخاصة بالعاملين في هذه القوارب وعلاقاتهم مع المالكين كذلك تتوضح النظم والتقاليد المتبعة • والخاصة بايجار القوارب المعدة للرحلات الطويلة لنقل البضائع والعادة ان هذه القوارب وخاصة الكبيرة منها كانت تؤجر مع ربانيها أو نوتيتها(٧) •

ان هذه الرسائل توضح بدورها بعض المواد الواردة في قوانين حمورابي ومنها بشكل خاص ما يفرض على نوتية القارب من غرامات سببها في العادة اهمالهم واساءة استخدامهم لهذه القوارب التي تعود عادة الى مالكين من الاغنياء ومن رجالات المعابد الذين يتمتعون بنفوذ واسع يتمكنون معه تنفيذ هذه المواد وليس ببعيد ايضا انهم يساهموا بشكل او بآخر في صياغة بنودها •

ان المادة ٢٣٩ من نفس قانون حمورابي توضح المقدار الذي يعطيه مالك السفينة ويذكر انه كان حوالي ستة «كور» = ١٨٠٠ كيلوغراما من الحبوب في السنة الواحدة •

ومن بقايا رقم الطين التي تضم القوانين الاشورية نجد بعض المواد الموضحة لعمق اهتمام الاشوريين بالملاحة النهرية وتنظيمها بدقة ويعزز هذا الاهتمام اشراف الملك المباشر احيانا على سير تنظيمها •

والمعروف ان تنظيم امور الملاحة عند الاشوريين كان باشراف افـراد متخصصين يكون تنظيم علاقاتهم اقرب الى نظـــام الشركات ويرأس كـــل جماعة من العاملين في هـــذا المجال رئيس يسمونه رابيو ،

، وكان على اعضاء كل شركة ان يقسموا اليمين بعدم ايداع أي قارب قبل ان يثبت المستلم التزامه بالشروط المفروضة والمتعارف عليها(٨) •

ونص المادتين الموضحين لارتباطهما بالملاحة مصنفة ضـمن الرقيم او المجموعـة من مجموعة القوانين الاشورية والتي تترجم كالاتي [٩]:ـ

« اذا نزل قارب وسط (مجرى النهر) من تلقائه ، واستدرجه شخص ، فاسمح لي (بالتصرف) و (اذا صدم قاربا آخر) وهو فـي حالة تغيير اتجاهه فالمسؤول الذي سبب الحدث او الشخص الذي استدرج القارب ان يعوض الغريق مع تعويض حمولته ونوتي القارب لايستدعي اذا لم يكن محلفاً من قبل الملك » •

والمادة الاخرى من نفس المجموعة : وهـي المادة الثانية تنص عـــلى مايلـي :ـ

« اذا صدم قارب ، خلال سيره باتجاه مجرى النهر أو خـلال عبوره على الطرف الاخر منه ، قاربا محملا او فارغا وتسبب في غرقـه ، فعلـى النوتي تعويض القارب (الغريق) وكل حمولته ، ويصـبح القارب الاول كله ملك النوتي (صاحب القارب الغريق) ؟ ••• »

يبدو واضحا من مضمون هذه المادة ان القارب الذي يصعد النهـــر يكون بطبيعة الحال أكثر بطئـاً في سيره ويكـون صعوده اما بوساطة المجاذيف أو بوساطة السحب بالحبال ، بينما القارب النازل باتجاه النهر

يكون اكثر سرعة ويكون من الصعب احيانا السيطرة على اتجاهه وخاصة اذا كان غير مزود بمجاذيف أو ان يكون كبير الحجم يصعب استدارة وتوجيه اتجاهه بسهولة وجراء هذه الحال يتوضح الخطأ من عدم حذر القارب الآخر •

اننا بالمناسبة نجد توضيحا آخر في المادة ٢٤٠(١٠) من قانون حمورابي تتشابه في مضمونها حالة المادة الثانية من المجموعة من القوانين الآشورية وتنص المادة ٢٤٠ هذه على ان القارب الذي يمخر بعكس اتجاه النهر :

واصطدم بقارب يسير باتجاه مجرى النهر :

وتسبب في غرق القارب الاخير ، فيجب تعويض صاحبه عن القارب وحمولته من قبل صاحب القارب الاول (وسيأتي ترجمة ثانية لمضمون هذه المادة في مناسبة ثانية) •

ومن تفاصيل نص مكرس لتنظيم حمولات القوارب المعدة لحمل المؤن بين مدينتي اوما وأدوكا المجاورة لها ومن فقرة الملك امار - سن اوبور - سن (٢٠٤٧ - ٢٠٣٩ ق٠م) يبدو واضحا اسلوب تنظيم الرحلات التجارية بالقوارب ذات الحمولات المتنوعة • ويأتي ذكر النوتي الذي يصاحب عملية النقل هذه واجره المتعارف عليه وكذلك اجرة القارب ومدة الايجار • والجدير بالذكر هنا ان عائدية هذه القوارب تكون باسماء بعض الالهة ولكنها في الواقع العملي تعود الى مسؤولي معبد ذلك الاله • وتذكر قوارب المعبودة باو والمعنيين برعايتها • ومن حمولات هذه القوارب تلك

التي تساوى بأوزاننا الحالية حوالي التسعة اطنان[11] الى جانب انواع اخرى من القوارب ذات حمولة ثلاثون وعشرون وخمسة عشر وعشرة (كور) ويصل مايعادل ذلك بأوزاننا الحالية حوالي ٤ر٥ طن وثلاثة أطنان و٢ر٢٥ طنا و١ر٥ طنا أيضا هذا اضافة الى معرفتنا بقوارب من ذات الحمولة التي تصل الى خمسين واربعين كورا ، ويذكر كذلك تسمية اكثر من نوتي أو ملاح واحد حين ذكر القوارب من الحمولات الكبيرة بينما لا يذكر اسم النوتي حين ذكر القوارب ذات الحمولة الخفيفة[12] ٠

اما اجرة القارب الواحد والتي تتضمن في العادة اجرة النوتي أو الملاح فانها تختلف باختلاف سعة أو حمولة القارب ولكنها تذكر بدقة بما في ذلك ذكر لفترة الرحلة المحددة باليوم الواحد ٠

وتذكر نصوص اخرى من مدينة اوما حمولات كبيرة لقوارب متخصصة من التي تصل الى مائة وحتى مائة وعشرون كورا أى ما يقارب من خمسة عشر وثمانية عشر طنا وتذكر النصوص هذه انها كانت معدة لنقل الاخشاب والقصب والقير ايضا[13] ٠

ومن خلال تفاصيل نص من عصر فجر السلالات نجد ذكرا لنقل مجموعة من الافراد يذكر النص انهم اثنان وستون شخصا اضافة الى خمسة واربعون آخرين من المحددين بانهم : و

وانهم جميعا من الصيادين والنجارين وحرفيين آخرين[14] ٠ والمعروف ان هنا الملاح ويرد كقائد للمركب أو القارب أيضا ومثل هذه الصفة ترد أيضا في تفاصيل ملحمة كلكامش وكذلك في النصوص المدونة

على مجموعة تماثيل الحاكم السومري كوديا (٢١٤٠ ـ ٢١٢٠ ق٠م) اضافة الى ذكر ذلك في قوانين حمورابي (المادة ٢٣٧) ٠ وفي المادة (٢٣٤) من القانون نفسه ويترجمها شايل بالمجلفط والملاح ٠

« اذا جلفط ملاح مركب من حمولة ٦٠ كور ٠٠٠»(١٥) ويعني ذلك اولا ان عملية الجلفطة وهي تشديد المركب او السفينة بالخيوط ومن ثم تقييرها(١٦) ٠

وهناك تمييز خاص توضحه النصوص لقوارب السحب ، ويذكر صنعها من مادة الخشب أو البردي من مدينة لارسا(١٧) ٠ وعملية سحب القوارب بعكس مجرى نهري دجلة والفرات معروفة منذ زمن السومريين وهذه الطريقة استلزمتها بطبيعة الحال نفس طبيعة مجرى النهرين والفروع والقنوات المتصلة بهما ٠ ولاهمية العملية هذه وشيوعها فقد ذكر عن طبيعة تنظيمها كذلك ٠ فكان هنالك شخصا بمنصب مراقب او رئيس مجموعة من الاشخاص من مهمتها سحب القوارب أو المركب ، وكان يعين هؤلاء لمدة معينة فقط ويذكر مثلا المدعو « اوكيني » في نص يرجع الى عصر سلالة اور الثالثة من مدينة أوما وقد عين مسؤولا عن عملية سحب قارب مصنوع من قصب البردي لمدة واحد وعشرين يوما فقط(١٨) ٠ ولم يذكر هذا النص اتجاه القارب وتعيين المكان الذي سحب منه ولكن النصوص الاخرى من نفس الفترة (حدود الالف الثاني ق٠م) ومن مدينة اور توضح لنا انه كان يلزم للذهاب من مدينة كرصو وهي احدى ضواحي مدينة لكش ، الى مدينة نفر ، التي تبعد عنها بطريق النهر الى الشمال حوالي ١٣٠ كم كان يلزم خمسة عشر رجلا لسحب قارب ذو

حمولة متوسطة من «٦٠ كور» أى حوالي عشرة أطنان مدة ١٥ يوما .

ون المشوق ذكره أيضا المدة التي تستغرقها الرحلات بالمراكب بين مدينة اوما ونفر ، وتختلف المدة بطبيعة الحال حسب الظروف وتذكر لذلك الرحلة هذه بمدة اثنان وعشرون يوما واخرى بستة وعشرون يوما وفي مناسبات اخرى يذكر انجاز الرحلة بستة وعشرون يوما واربعة عشر يوما . وعند ذكر الايام في حالة مضاعفاتها أن يكون السفر ذهابا وايابا — والمعروف ان مدينة اوما هذه المعروفة اليوم بتل جوخا والتي كانت تقع على احد فروع الفرات ولها علاقة نهرية مباشرة مع نفر التي كانت تقع على نفس الفرع هذا وعلى مسافة حوالي ثمانين كيلو مترا[١٩] .

والمعروف ان السفن النهرية التي تسير مع مجرى التيار كانت تعرف باللغة السومرية :

وبالاكدية :

والسفن ذات المجاذيف التي كانت تسير عكس مجرى التيار تسمى بالسومرية :

وهي بالاكدية : (٢٠) .

ولاهمية تنظيم حركة الملاحة هذه فقد نصت مواد عديدة من قانون حمورابي تفاصيل خاصة عنها وما يهتم مباشرة بالحركة المعاكسة لسير السفن فنجدها في نص المادة (٢٤٠) والتي تحدد المسؤولية في حالة اصطدام سفينتين من نوعين مختلفين ، فان اصطدمت سفينة تمخر باخرى تسحب وسبب تحطيمها وانجرافها واتلاف ماعليها من البضائع فعلى صاحب

السفينة المحطمة ان يشتكي امام الاله وعلى صاحب السفينة الاولى ان يعوضه عن كل ما فقده(٢١) .

كذلك تميز وسيلة النقل السومرية الشائعة وهي العبارة التي كانت تعرف باللغة السومرية ب
والتي هي في الاكدية :   وترصد منها ثلاثة انواع(٢٢) .
(الشكل ٣ و٤)

وقد تعمل مقصورة من القصب والسعف فوق الكلك لايواء الاطفال والنساء عند الضرورة فقط(٢٣) . وكان من الصعب صعود النهر بوساطة هذه الاكلاك حتى باستخدام المقاذف التي تستخدم عادة حين نزول النهر .
كان هناك نوتياً خاصا للكلك يهتم بقيادته وادارة شؤون الركاب والبضائع ، وفي نص رسالة من العصر الاشوري المتأخر ومن فترة الملك سرجون الثاني نجد انها تهتم بموضوع نقل مجموعة العجول من منطقة كوزنا المعروفة ايضا باسم تل حلف على نهر الخابور شمال شرقي سوريا ويرد في النص كذلك ما يخص نوتي الكلك هذا واسمه
ويذكر مع مسؤولين آخرين كمساعدين معه في ادارة الكلك(٢٤) .

ومن المعروف ايضا انه كانت من ابرز دوافع غزوات سرجون الأكدي (٢٣٧٠ - ٢٣١٦ ق٠م) لمناطق سوريا الشمالية واجزاء من تركيا بقصد السيطرة على الجبال الزاخرة باخشابها المعروفة والكبيرة الانواع لاستخدامها في صناعة القوارب في وادي الرافدين(٢٥) وبطبيعة الحال كانت هنالك دوافع أخرى غير السياسية والتوسع الاقليمي ويهم السيطرة على

مصادر معدن الفضة في مناطق جبال طوروس[٢٦] • والاشوريون لم يخفوا خلال صراحتهم المعهودة ، نياتهم المشابهة للاكديين ، فلقد استعان الملك الاشوري شمشي ادد الاول (١٨١٣ ـ ١٧٨١ ق٠م) بنهر الفرات لنقـــل اخشاب السدر على قوارب ضخمة من مناطق سوريا التي نجح في السيطرة عليها الى وادي الرافدين[٢٧] •

وفي الواقع فاننا نعرف مناسبات عديدة تعرضت فيها مناطق سوريا لغزوات اشورية كان القصد منها السيطرة عـلى المواد الاوليـة اللازمـــة للصناعات الاشورية المتطورة بتطور امبراطوريتهم وتوسع رقعتها وكذلك لتامين اسواق استهلاكية لبضائعهم المصنوعة فيما بعد ، ثم لتامين طريــق امين ومضمون باتجاه موانيء البحر المتوسط ومنافسة السيطرة المصريـة القديمة على هذه المنطقة التي ظلت حتى السنين الاخيرة من حياة الحضارتين المصرية والاشورية موضوع نزاع مختلف الاوجه بين القوتين •

وهكذا نلاحظ ان استخدام الاشوريين لمثل هذه الوسائط المائيـــة لم يكن مقتصرا على حمل الجنود ، وفي سبيل خدمة الجيوش الاشورية فقط بل اننا نلاحظ ان خطوط التجارة المزدهرة على نطاق واسع بين الاشوريين وغيرهم من الاقوام كانت تلزمهم في الغالب اللجوء الى مثل هذه الانواع من الوسائط فهناك ذكر للقوارب الخاصة المستخدمة في نقـل الصخور مــن الجبال وفي نقل الحبوب مثلا • ونص رسالة من عهد الملك اشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق٠م) على الاغلب يذكر فيها احد معتمدى الملك هذا عـن وصول شحنة (من المستوردات) مرسلة من قبل احد المسؤولين الميلاميين على ظهر مركب ، ويخبر هذا الملك بوصولها الى مدينة سروانيتا (التي

لانعرف موقعها بالضبط) ، ويذكر ايضا استلام الشحنة بعد تدقيقهم لمفردات الحمولة • ويذكر عن سلامة الشحنة وعدم وجود أي نقص في موادها(٢٨) •

ونص أشوري آخر يذكر تفصيل نقل تماثيل كبيرة من الصخر ورؤوس بعض الثيران المجنحة فوق قوارب كبيرة(٢٩) • والجدير ذكره ان بعض المنحوتات الاشورية تعرض مثل هذه القوارب وتبدو منها ذات نهاية مدببة من طرف واحد وذات جوانب عالية بصورة لوحظت فيه ثقل الثيران المجنحة التي تستلزم ان يغور القارب بنسبية كبيرة تحت سطح الماء • ان مثل هذه النماذج من المنحوتات البارزة تعرض كذلك طريقة انزال القارب الى الماء بعد تحميله بمثل هذه الحمولة الثقيلة التي قد تزيد على العشرين طنا(٣٠) (انظر الشكل (٥) ايضاً الاشكال : ٦ و٧ و٨) •

ويرد في نص رسالة من الفترة السرجونية ما يلي :ـ

« لقد حملت المراكب بالحجر (تماثيل) (٣١) »

وفي رسالة اخرى من العهد البابلي الحديث :ـ

« ليت مليكي يرسل قاربا ويأمر بتحميله بالتمر والثوم(٣٢) » •

وتذكر رسالة الفترة البابلية الحديثة القارب الخاص والمستخدم في احتفال رأس السنة والذي جعلت فيه تزيينات خاصة وعملت على سطحه خيم مزينة بقطع الذهب والاحجار الثمينة ! (يوجد كسر في النص)(٣٣) •

وتفهم من تفاصيل حملة الملك الاشوري سنحاريب (٧٠٤ـ٦٨١ق٠م) المنتصرة على العيلاميين في القسم الجنوبي الشرقي من وادي الرافدين

انه يذكر عن نقل عساكره فوق القوارب وانه انزلهم النهر ، بينما هــو (سنحاريب) سلك الطريق المحاذى للنهر والقريب منهم(٣٤) ٠

وفي تفاصيل نص اخر نجده يتفاخر لمراقبة الجمهور لسفنه الحربيـة ويذكر بأن (أعدائه) قد جندوا ضد جيشه قوة لا حصر لها(٣٥) ٠

ومن نفس الحوليات الخاصة بهذا الملك نجد ان هذه المراكب الكبيرة المستخدمة في الاسفار النهرية الطويلة تكون محملة كذلك بانـواع مـن الحمولة الثقيلة ، ويوضح نص من النصوص حجم وقدرة حمولـة بعض القوارب المصنوعة على عهـده :

« وحملت جنوده ، كجزية ، حرس الحامية مـن الكلدانيين وجميـع (تماثيل) الالهة الخاصة بـ واسـرى مـن الشعب وعربات (حربية) وبغال وحمير وكل هذه حملت على السفن وجلبت الــى (مناطق الاشوريين) »(٣٦) ٠

واخيرا تذكر مايكمل موضوعنا الخاص بطرق التجارة المائية وعلاقتها المباشرة بالموانىء ٠ وانطلاقا من التسمية الاكدية التـي تشـير الى معنى الميناء والمركز التجاري في المدينة نفهم انه كان في هذا الميناء الكثير من العمال ومعهم المراقبين ورؤساء مجموعات ٠٠٠ ولقد سمي الذي يدير امور الميناء تحت الاصطلاح ٠ واما ما يشـبه هذا المنصب في الميناء البحري فيسمى

والمعروف عن هذه الموانىء البحرية التي كانت لها علاقات تجاريـة خاصة مع بلدان وادي الرافدين وخلال كل عصوره تقريبا وتلك المدونـة

على شواطيء الخليج العربي مثل ميناء البحرين (دلمون) وموانيء البحر المتوسط مثل بيروت وصيدا وصور وعكا • وعرف بشكل خاص عن شهرة ميناء صور وتجارته مع موانيء البحر المتوسط الاخرى في اراضي مصر وصقلية ومالطا وتونس وقرطاجة التي اسسها تجار صور في عام ٨١٤ ق٠م •

ومثل هذه الرحلات الطويلة كانت تستلزم بطبيعة الحال اتفاقيات تجارية واتفاقيات خاصة بتأمين سير ووصول البضائع بين هذه الموانيء علماً بانتشار ما يعرف بالقرصنة البحرية والنهرية في هذه الفترات القديمة• وهكذا نفهم من مضمون الاتفاقية الجارية بين الملك الاشوري اسر حدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق٠م) وبين بعل ملك صور والتي تتضمن ما يلي :ـ

« أن المركب الذي يعود الى بعل او احد رجاله في صور والذى يرتطم في فلسطين او على حدود دولة اشور فكل الذى فى هذا المركب هو من ملكية اسر حدون ملك الاشوريين ، وكل الرجال الذين هم في داخل المركب يجب ان لا يرهق اى منهم بل تستجل اسمائهم»(٣٧) •

يبدو واضحا من هذا النص الصريح علاقة الاشوريين التجارية بصور المشهورة بسعة علاقاتها التجارية مع بلدان البحر المتوسط الشرقية وشمال مصر وقبرص(٣٨) • وموانيء اليونان وقد بكاها حزقيال في التوراة : الاصحاح ٢٧ وذلك عندما احتلها الاشوريين وبعدهم البابليون ، والواقع ان حزقيال كان يبكي فترة احتلال العبرانيين لصور فترة قصيرة جدا بينما نعرف انها كانت تقليداً ومنذ القرن الثامن والعشرين ق٠م فينيقية النشأة

والاصل والحضارة ، والمعروف ان صور جزيرة لا تبعد كثيرا عن الساحل وقد انشأ الاسكندر جسرا من الحجر عبارة عـــن ممـر يربط الجزيـرة بالساحل .

وكانت مدينة اشور ، التي كانت تقع على نهر دجلة ولا زالت خرائبها واقعة على نفس النهر ، تعتبر ميناءا معروفا وخاصة خلال بدايات الالـــف الثاني ق.م(٣٩) .

الهـوامش والمصـــادر

(١)
Aynard.J.M. Dict. archeologique des techniques . Paris 1964. P. 753

ومن الجدير ملاحظته ان لفظة ملاح هذه وقرأتها مقطعيا =
متأتية من الصيغة الاولى وهي في مرحلة تأديتها الاولى:
التي من المحتمل ان تكون لها علاقة بالعلامة الصوريـة التـي تعنـي
الطير وصورتها : + +

Allette De La Fuye . " deux inscriptions inedites d' Oumma relatives ai La navigation." In : Revue d'Assyriolo?ie et d'Areheologie Orientale Vol XXC. (1028) P. 13.

الشكل ١ : أ و ب .
كذلك : انظر : ما يخص الفرضيات الاخرى : طه باقر . من تراثنا اللغوي القديم مايسمى في العربية بالدخيل . بغداد ١٩٨٠ ص١٤٥.

والفرضيات الاخرى المقبولة ايضا والتي يذكرها :

Thureau - Dangin. ZA. XVII P. 191 ; RA. XXIX P. 13 .

(٢)

Le Breton, L; Les itineraires . . . . . In : Renconter
assy . de 1955
Oppenheim, A. L. Les marchands de mer d' Ur. In : JAOS. 1954 .
P. 6 . . . . .

وتصور المبدعون من الفنانين المسلمين سفينة نوح ومعها صور الطيور المكملة لنفس الفكرة .

د . سعاد ماهر . البحرية في مصر الاسلامية مـــن . فريال داود المختار « سفينة نوح في التصوير الاسلامي » مجلة كليـــة الاداب العدد «٢٣» ١٩٧٨ ص١٣٧ . . . .

(٣)

Kramer, S. N. "Commerce and Trade" In : Iraq, XXXIX "1977" .

رضا جواد الهاشمي «المقومات الاقتصادية لمجتمع الخليج العربـــي القديم» في مجلة النفط والتنمية عدد خاص . السنة السادسة ٧ـ٨ ١٩٨٨ ص٨٥ والهوامش : ص٨٩ ـ ٩٠ .

(٤)

Michal Artzy. " On Boats and sea Peoples " In : BSOAS - Bulletin of the oriental and African Studies , univ. of London . vol . II (1988) .

(٥) في الفصل الخاص يوصف الهند

L. VI. 24.

من :

David M. "Ie recit du deluge et L'epopee de Gnga-mesh" In : Gilgamesh et sa Iegende . Btudes recuillies par P.Garelli a I'occasion de Ia VIIe rencontre ass. Internationale, Paris 1960 P. 157.

rhys. D. T. W. In . JRAS. 1899 P. 432 .

David, M. Ibid. P. 157 - 158 .

والشكل ٢ب و ج ·

(٦)

Goetze, A . The Laws of Eshnunna, in : AASOR . xxxI (1956).

المعروف ان هذا القانون يرجع تدوينه الى العهد البابلي القديم وعثر على نصوص في تل حرمل وهو المركز الحضاري الـــذى كان تابعاً لملكة اشنونا · انظر ايضا :

Bottero, J. Annuaire de L'ecale pratique des Hautes etudes. paris. 1965 P. 89.

(٧)

CT. IV 32 b : 2, YOS . XII . 546 : 9 UET . V . 52: 14 .

حول المزيد من نصوص رسائل العهد البابلي القديم والخاصة بايجار القوارب ··· والملاحين انظر :

Lutz, H, F. Early Babylonian letters from larsa . NH . 1917 , PL : 13 Letter : 12 . . .

(١٠)

(٨) اكثر من التفاصيل الموضحه في بنود مواد القوانين الاشورية نجدها في مؤلفـات :

Meissner, Babylonien und Assyrien . . I P. 342 .
Guillaume cardascia : Les Lois assyriens P. 329-330.

(٩) ترجمة المواد فيها تصرف بسيط القصد منه ان يكون اكثر وضوحا للقارىء الغير مختص بطبيعة الكتابة المسمارية .

ولقد ترجم النص لاول مرة واكمل الناقص منه الباحث :

M. David : zwei Bestimmungen Uber die Binnenschiffahrt im mittelossyrischer zeit, JEOL . 6 "1939" P. 135 - 137 .

١٠ـ

Driver , * Miles. The Babylonian Laws. II, 427 . . .

(١١)

Allotte de la fuye . Ibid . P 2- 18 .

(١٢)

Allotte de la fuye . Ibid. P. 12 .

(١٣)

Allotte de la fuye . Ibid . P. 2- 18 .

(١٤)

Ibid . P . 9 .

(١٥)

Ibid . P. 12 - 13 .

رضا جواد الهاشمي « الملاحة النهرية في بلاد وادي الرافدين » مجلة سومر . ج ١ ـ ٢ المجلد ٣٧ (١٩٨١) ص ٣٦ ـ ٥٥ .

(١٦) المتخصص الذي يجلفط هـو الـذى يسوى السفن او المراكـب ويصلحها .

Dossin, G. Textes Cuneiformes . Tome. XVII .

(١٧)

Lettves de La premiere Dynastie Babylonienne. paris . 1933. 69 : 12 : = AO = 6755 .

(انظر ترجمة احد نصوص مدينة لارسا بخصوص هذا الموضوع في باب صناعة القوارب) .

(١٨)

Jones, T. B. Snyder, J : W. Sumerian Economic Texts from the III' Dynasty. 268 P. 156 .

(١٩) من تفاصيل رحلة تجارية من قافلة تضم خمسة وثلاثون مركبا :ـ
Allotte de la fuye . Ibid. P. 16 .

(٢٠) د. فوزي رشيد . « وسائط النقل المائية والبريـة في العـراق القديم ، مجلة النفط والتنمية . عـدد خاص . السنة السادسة ٧ ـ ٨ (١٩٨١) ص١٠٢» .

(٢١) د. عامر سليمان . القانون في العـراق القديم . مطبعـة جامعـة الموصل ١٩٧٧ ص٢٦٩ .

(٢٢) د٠ فوزي رشيد : المصدر نفسه ص١٠٥ ٠

(٢٣)
G. Lejean . Tour du monde . I 2e redit . 1867 P. 46.

كذلك انظر وصف الرحالة الاثارى الفرنسي : J. Oppert للكلك واساوب صناعته في العراق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر :

Exped. Scienfique En Mes. I. P. 80-81.

كذلك انظر عن المقاذف الخاصة بقيادة الاكلاك واشكالها في المنحوتات الاشورية :

Place . Ninive et L'Assyrie . pl . 43. Layard, H. Menuments of Nineveh. II. PL. 13.

ومن المشوق ذكره هنا على سبيل المقارنة « ان طريق التجارة النهري المالوف في العراق كان بواسطة نهر الفرات ومن مراكز التجارة الواقعة على هذا الطريق كان المركز المعروف في مدينة الحلة وفيها كانت مستودعات كبيرة تودع البضائع التي تجلب عن طريق البحر والماء٠ ومن حوادث القرن السادس عشر ما يذكر عن : Rauolff خلال وجوده في هذه المدينة عام ١٥٦٤ ان وصلت « خمس وعشرون سفينة موقرة بالتوابل والعقاقير النفيسة المجلوبة من الهند عن طريق هرمز الى البصرة ٠٠٠ حيث تفرغ حمولتها من هنا في سفن صغيرة لجلبها الى بغداد ٠ وكان التجار يحتفظون بالحمام الزاجل في البصرة لترسل وقت الحاجة الى بغداد حاملة الرسائل ٠ وعن ٠٠،٠٠ =

.... ــ

طريق نهر دجلة كانت السفن من حمولة العشرين والخمسين طنا معروفة حتى القرن التاسع عشر ومما يذكره بكنكهام الرحالة الانكليزي الذي زار العراق في اوائل القرن التاسع عشر بان مثل هذه السفن في هذه الفترة كانت مزودة بالسواري والاشرعه لاستخدامها اذا اسعفتهم الريح ، وفي الفصول الملائمة عندما تسود الريح الشمالية تستغرق الرحلة من بغداد الى البصرة سبعة او ثمانية ايام ولكن في الاجواء الهادئة تقطع القوارب نفس المسافة في عشرة او خمسة عشر يوما . ويلجأ الى جر السفينة الصاعدة الى بغداد على طول الشاطئ في اغلب الاوقات وتستغرق من الوقت لأكمال الرحلة من البصرة الى بغداد ثلاثين - اربعين يوما . انظر عن جانب من هذه الرحلة مترجما من قبل محمد علي حلاوي في مجلة سومر : المجلد الحادي عشر (١٩٥٤) ص٢٦٧ - ٢٧٦ .

(٢٤)

ABL . 167 , 14 .

(٢٥)

Aynard, J . M . Dictionnaire Archeologique des techniques. I Paris 1964.
P. 753 .

وتعرف شهرة اهل ملوخا في نتاج الخشب وتصنيعه وذكر المنطقة مع ذكر مكان مكان (عمان) ودلون (البحرين) ويذكر عن سرجون

ــ ....

..... ـ

الاكدي نفسه بانه أمر صنع سفن في ملوخا ومكان ودلمون وجلبها الى مراسي اكـد :

AFO . 20 (1963) after :
Iraq . XXXIX (1977)
P. 5

ومن المتوقع ان تكون السفن العراقية قد وصلت الى اطراف البحـر الاحمر وشبه جزيرة سيناء عن طريق البحر وذلـك يبدو واضـحا من خلال بعض النصوص من نهايات القرن العشرين قبل الميلاد .

(٢٦)
Barton. Royal Inseriptions of Sumer And Accad.
P. 108 - 109 .

(٢٧)
Ibid. and Dictionnaire. Arch. Vol. I. paris. 1963.
P. 161 .
ARM . I . No . 7 : 4 - 31 .

(٢٨)
ومن خلال مضامين نصوص مدونة على مخاريط فخارية يذكر اورنمو تنظيمه لحمولات وسائل النقل المائية عند المرافىء او الموانىء وتبدو هنا اشارة الى السفن العائدة من مصر وان حمولتها على الساحل كانت لاتستلم قبل الانتهاء من تقدير البضائع وتسوية الطلبات والارباح بطريقة منظمة في اور ، وبعد ذلـــك يُسمح للسفن بالاتجاه الى مرفأ المدينة للتفريـغ» .

..... ـ

= ....

جاكوبسن . ثوريكليده شبكة الرى في اور (بلاد سومر) .
ترجمة عطا الشيخلي . في مجلة النفط والتنمية . عدد خاص ومزدوج .
٧ ـ ٨ (١٩٨١) ص٧٧ ـ ٧٨ .

(٢٩)
(٣٠)

ABL . 420 : 7
Layard . H. Monuments of Nineveln . II. Pls, 12, 15. 16 .

(٣١)

ABL . 420 : 7

(٣٢)

CT . 22 , 18 : 23 .

(٣٣)

VAB . 4 . 128 . III 71 and . IV. " Nbk

(٣٤)

OIP . II. 74 : 67 P. 69 CAD. E. P. 95 .

يعرف عن الملك الاشوري سنحاريب انه كان يفضل ركوب القارب بدل العربات : انظر :

Borger . Esarh . 57 IV 83 , CAD. E. P. 93 .

(٣٥)

OIP . II . 75 : 84 .

(٣٦)

ومن القوارب المعدة لنقل تماثيل الالهة والمراكب او السفن الاحتفالية انظر :

= ....

Salonen . wasserfahrzeuge : 58 . . . . .
schneider. Gatterscbiffe . in Ur III Reich, stor . 13/5 , Oppenheim . JNES . 8, 180 n. 21. CAD. E. P. 94 .

Hh. IV 274 = e- Iip ba - i - ri   اما قوارب الصيد :

فقد عرفت هذه القوارب الخاصـــة في نصوص عديدة منها سومريه وبابلية قديمة ايضا انظر :

L. w. King : The Letters and Inscriptions of Hammurabi 80 : 8 .

يذكر   في كتابه ص١٢١ ... الى الحدود الاقليمية للمياه بين المدن ومجالات الصيد فيها بواسطة القوارب الخاصـــة بالصـــيد :

CAD. E . P . 95

انظر ايضا :

Salonen : wasserahrzeuge passim,
" : Nautica Babyloniaca .

(٣٧)

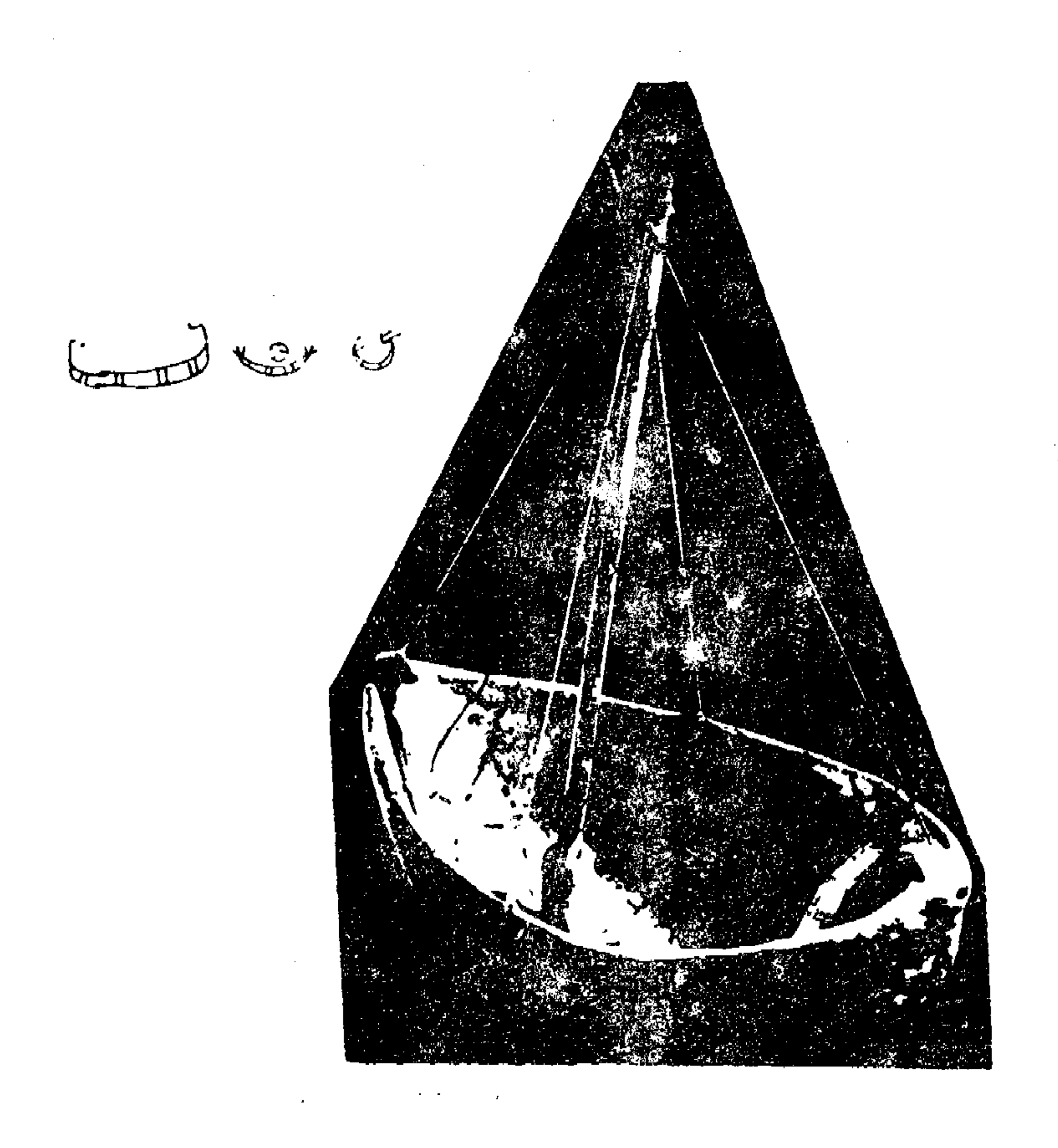
Aynard,J.M. DAT . II. P. 754 ;
Borger, Die Inschrifter Asarhaddons konigs von Assyrien, Archiv fur Orient - forschung (AFo) Beiheft. 9 P 107. CAD. E. P. 91 .

(٣٨) ومن اجل الحصول على معدن القصدير اللازم في صناعـــة البرنز وصل الاشوريون الى قبـرص لجلبه منها وكانـــت قبرص اشـبه بمستعمرة اشورية تمكنوا من خلالها الاتصال ببعض جزر بحر ايجة

= . . . .

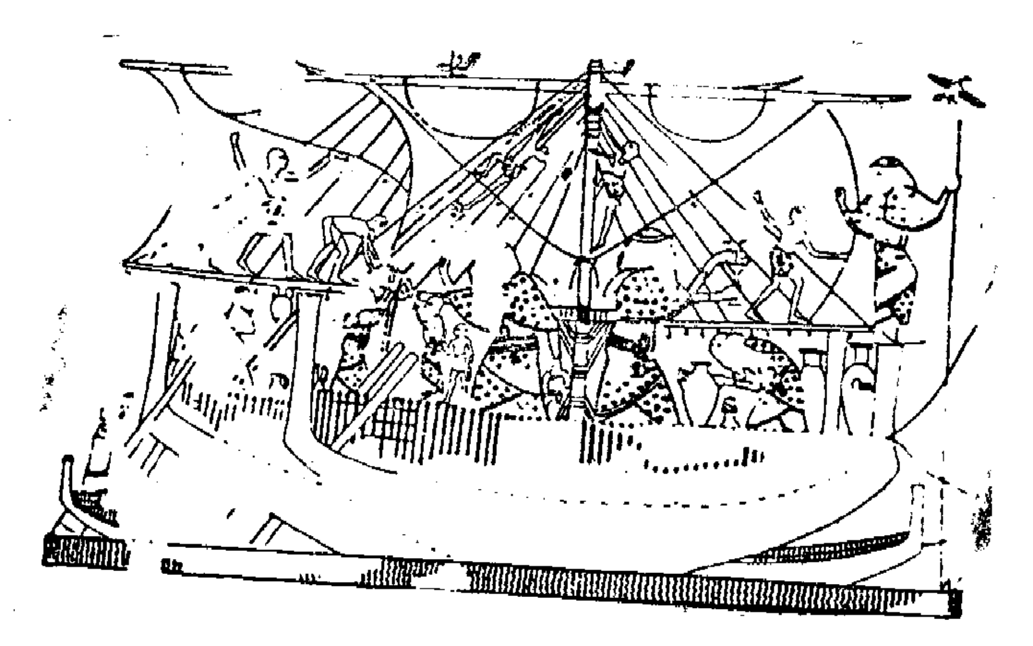
ايضا • وقبل سنوات امكن لعلماء الاثار دراسة بقايا سفينة شراعية طولها حوالي عشرين مترا كانت قد غرقت في حدود منتصف الالـف الثاني قبل الميلاد مقابل الساحل الشرقي للبحر المتوسط • ووجـد ضمن حمولتها سبائك القصديـــر وحلـــي ذهبية ولالئ وكهرمان واسلحة ونحاس •••

(٣٩) د•م• ت لارسن • «اشور القديمة والتجارة الدولية» فـي الندوة العلمية العالمية الاولى لبابل واشور وحمرين • «مجلة سومـــر» • ج ١ ــ ٢ ، مجلد ٣٥ (١٩٧٩) ص٣٤٤ •



ا ـ نموذج مصغر للقارب الشراعي من اريدو ٠

ب ـ من العلامات الدالة على أنواع وسائل النقل المائية في الكتابة السومرية من المرحلة الصورية الاولى ٠



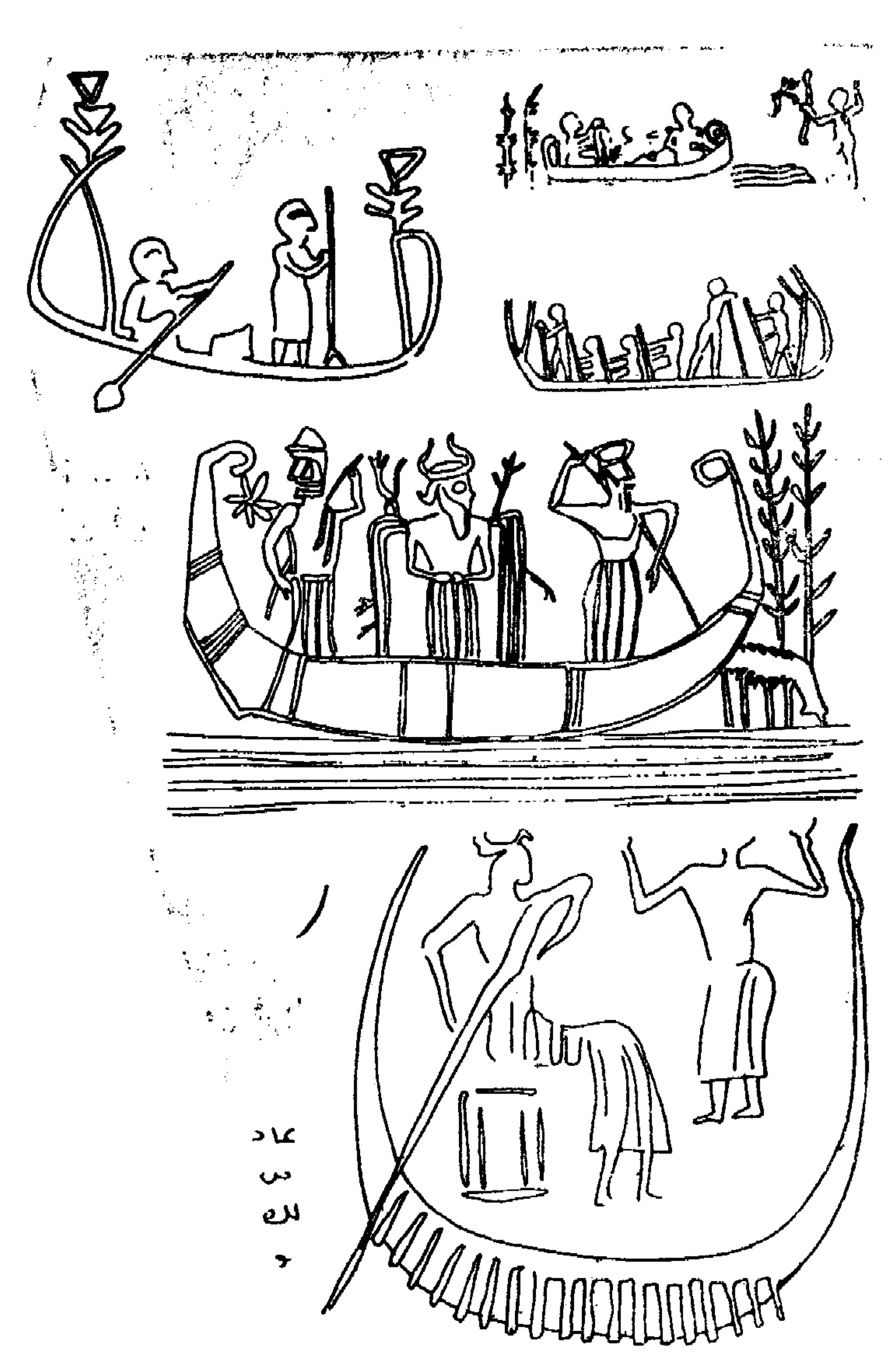
ا ـ السفينة السومرية ـ الفينيقية التي عثر عليهـا مرسومة على جدار قبر في مدينة طيبة ويبدو الطير اللازم في رحلاتها •



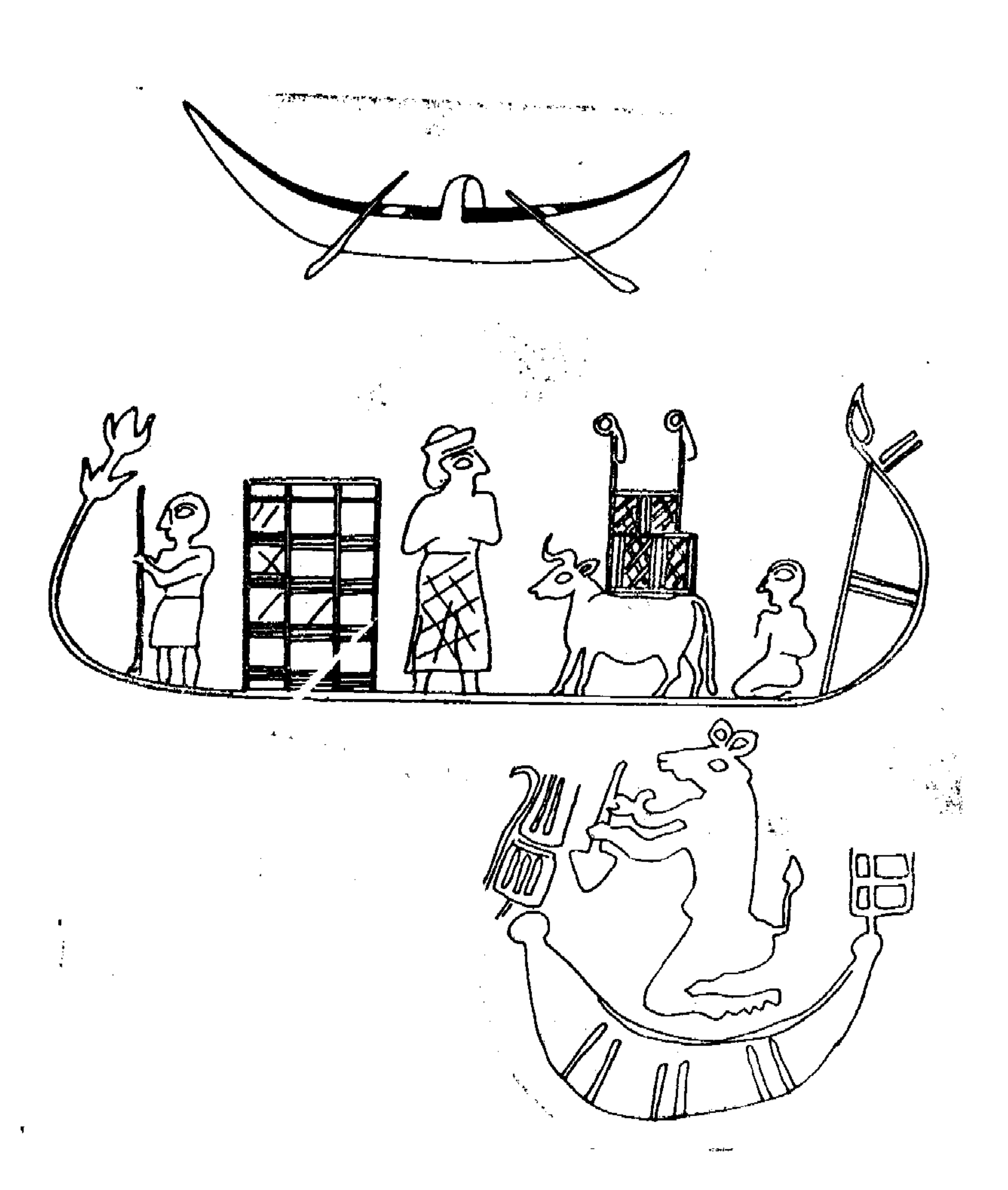
ب ـ سفينة نوح حسب تصور الفنانين المسلمين •
من فريال المختار • مجلة كلية الآداب ٢٣ (١٩٧٨)

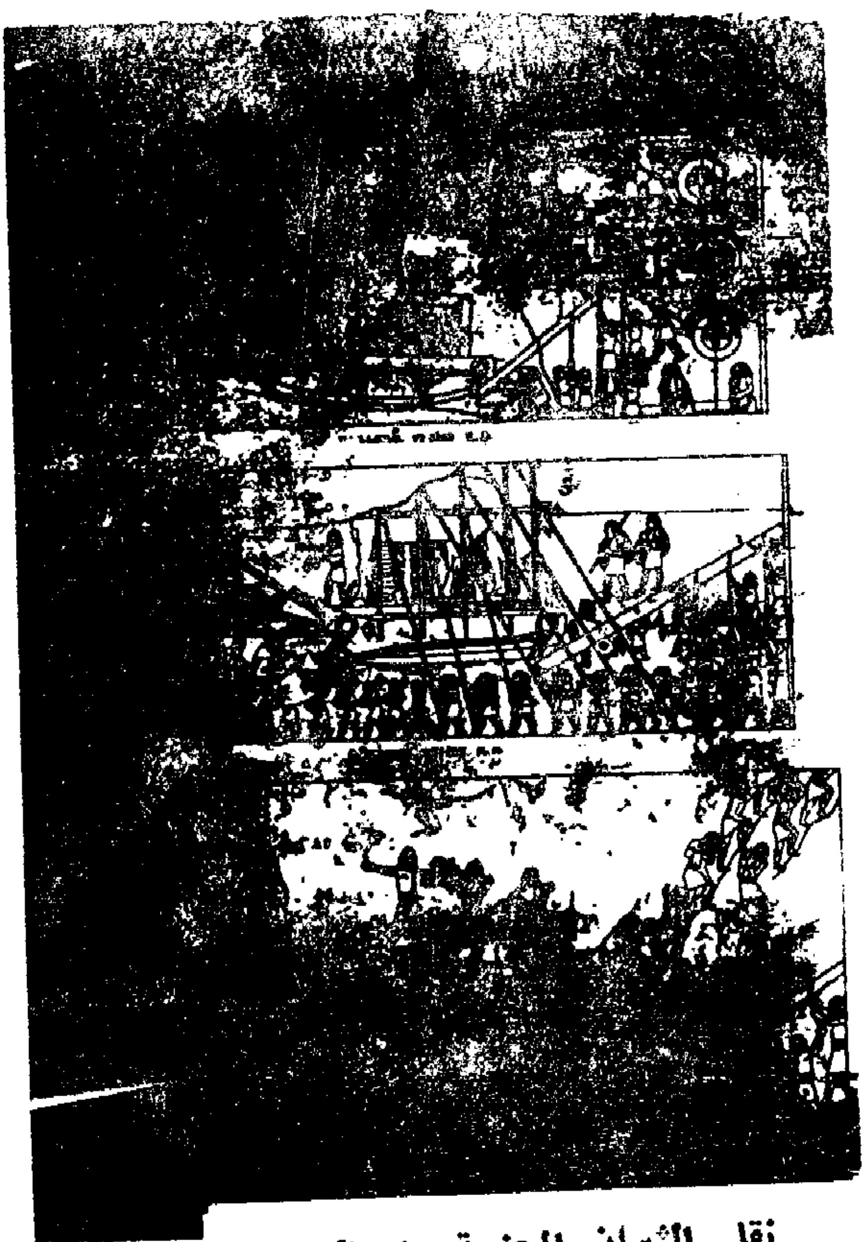


حـ ـ سفينة الامبراطور فردريك الثاني من القرن الثالث عشر من جنوب ايطاليا •

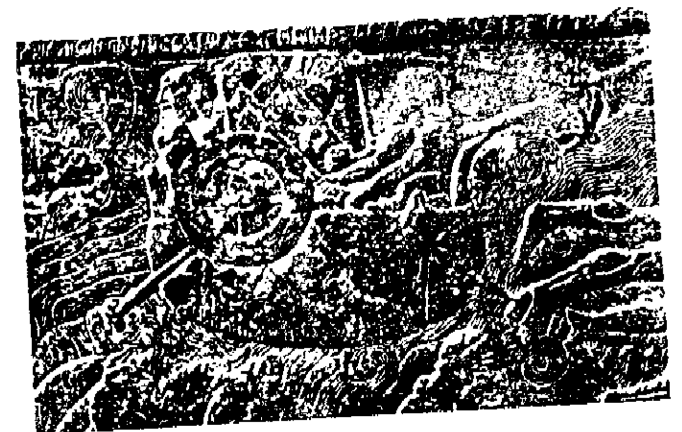


نمـاذج من القوارب السومرية المصنوعة من القصـب والخشـب
والمستخدمة للصيد ونقل الافراد والتماثيل وأنواع من الحمولات .

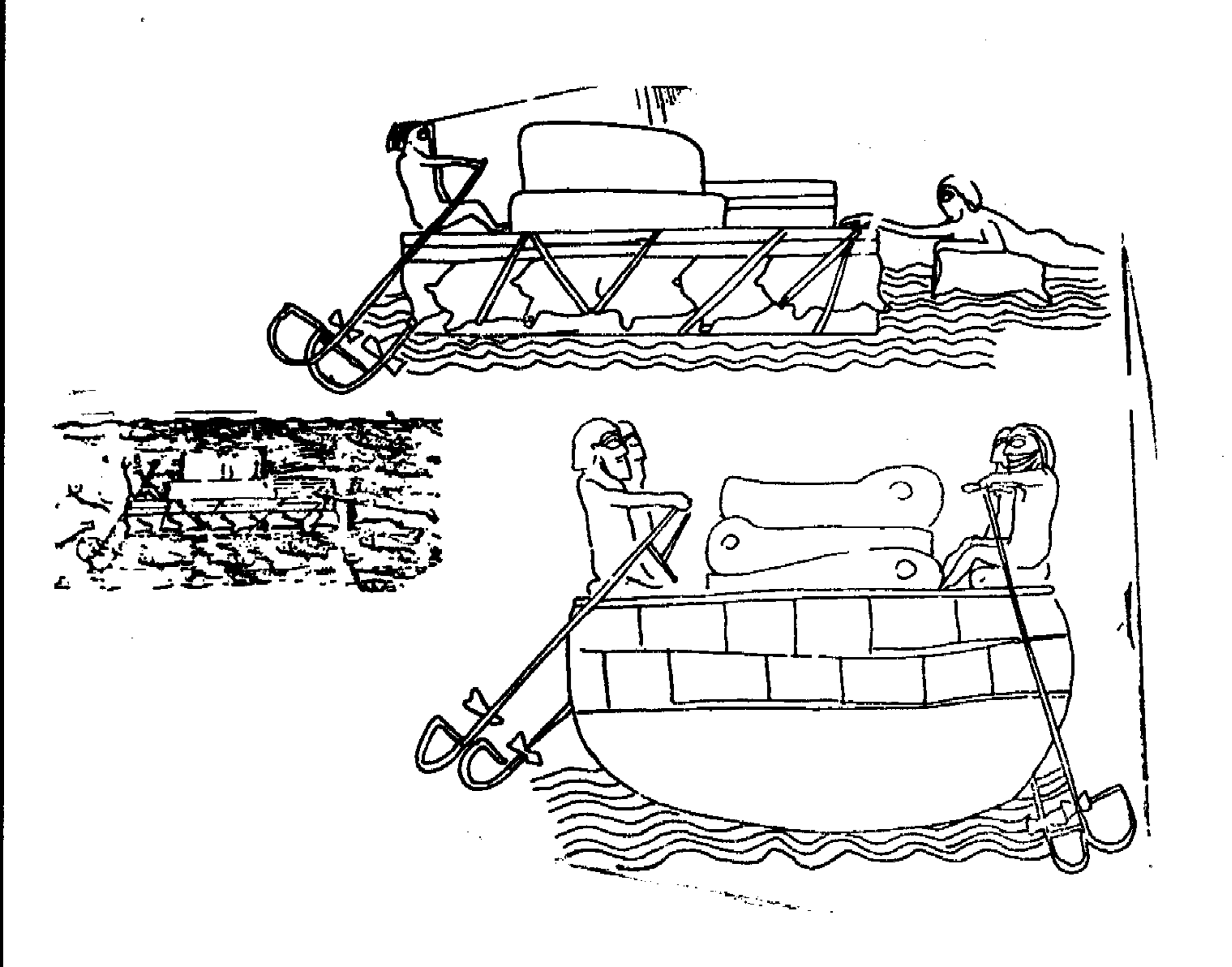




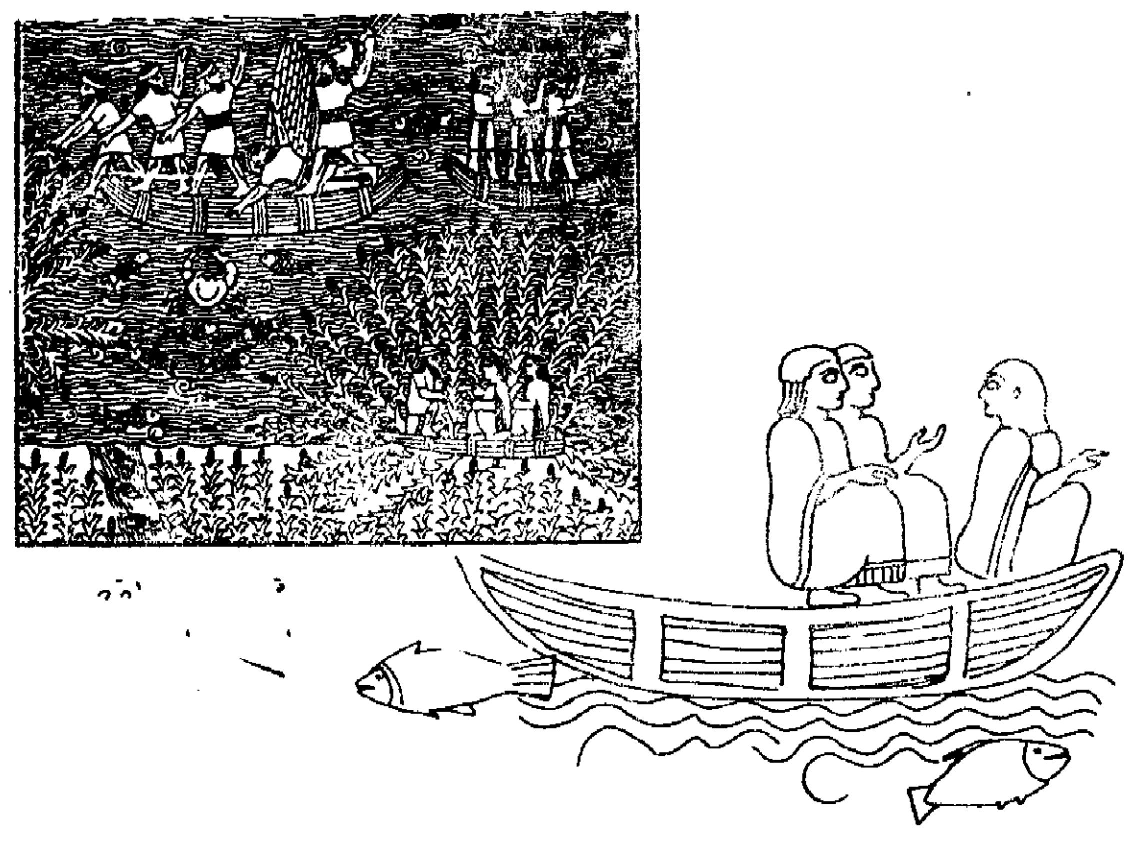
نقل الثيران المجنحة على ظهر مركب



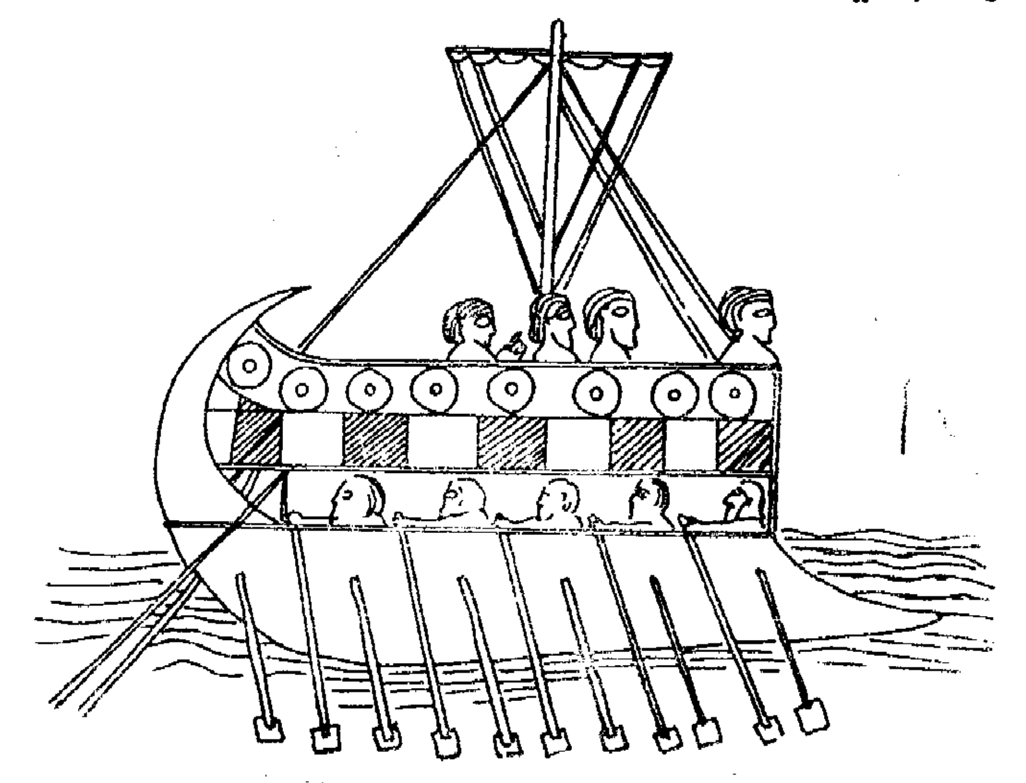
نقل عربة على قفة آشورية

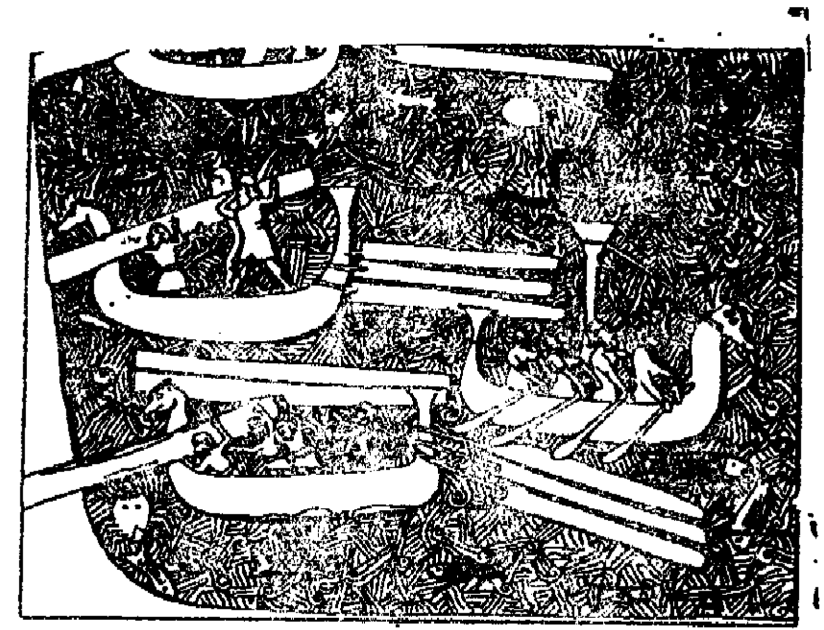


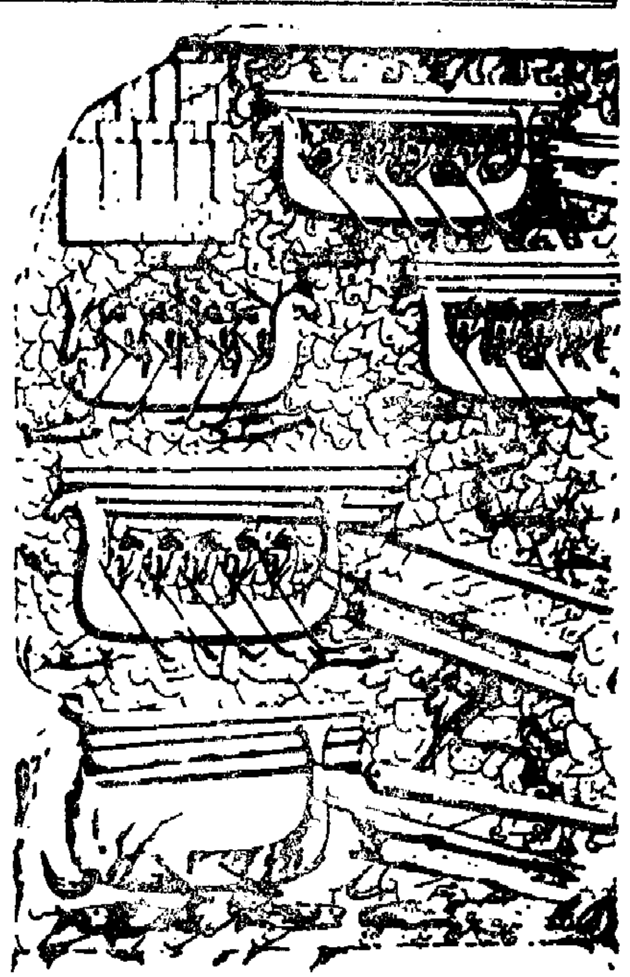
من عمليات نقل الحمولات على الاكلاك والقفف
الضخمة الاشورية من تفاصيل منحوتة جدارية من نينوى



قوارب من القصب استخدمها جنود الجيش الاشوري
في حروبهم في مناطق جنوب العراق من تفاصيل منحوتة من نينوى







من تفاصيل منحوتة بارزة من قصـر سرجون الثاني في خرسـباد توضح اساليبا من نقل الاخشاب بالقوارب ٠

من الاصل المحفوظ في متحف اللوفر في باريس ويقرب ارتفاعها من ثلاثة امتار ٠

تأثير المعتقدات الدينية العراقية القديمة على الديانة الهلنتية

الاستاذ الدكتور واثق الصالحي
كلية الآداب ـ قسم الآثار
جامعة بغداد

تأثرت ديانة الاغريق خلال القرن الخامس ق٠م بعوامل مهمة أدت الى حدوث تغييرات جوهرية فيها ، ويعزو الباحثون سبب هذه التغييرات الى حركة السفسطائيين الفلسفيه التي احدثت حالة من التشكك في معظم المعتقدات المعروفة وخاصة تلك المتعلقه بعبادة الآلهة الاولمبيه والتي اكتنفها بعض الغموض خلال الفترة اللاحقة(١) ، اضافة الى تأثير الديانات الشرقية وخاصة العراقية القديمة ، التي بدأت تأخذ واقعا حقيقيا في معظم مدن الاغريق على الرغم من بعض المظاهر الخارجية التي تتضمن انبعاث آلهة جديدة وتنبوءات جديدة وما يرافقها من احتفالات من شأنها أن تقوي من محاولات البعث الديني في بلاد اليونان(٢) ، فالشخص الاغريقي اتبع تقاليد العبادة لأنها موروثة له من اسلافه ولكنه افتقد الى الحماس في معتقده الديني ، فعلى سبيل المثال أن معبد أبولو ـ أله الحكمة والمعرفة لدى الاغريق ـ في ديدما في آسيا الصغرى لم يكتمل بناؤه خلال أربعة قرون متعاقبة ليس بسبب نقص في الاموال اللازمه لاكمال عمارته وانما بسبب الافتقاد الى الحماس في تكريس المعتقدات الدينية الراسخه التي مكنت مدن الاغريق في فترات سابقة من اكمال معابدها الضخمة والجميلة خلال

جيل واحد فقط(٣) • وأصبحت عبادة الآلهة الاغريقية التقليدية ترافق بعض الافكار الفلسفية التجريدية مثل الصداقة والثروة والسلام والديمقراطية بالاضافة الى انتشار بعض الافكار التي تدعو الى أضمحلال التمييز بين الآلهة والبشر وما رافقها من اقامة محلات لتقديس الرجال البارزين الى الحد الذي دعى بعض الفلاسفه الى القول ان بمساعدة الرجال العقلاء نستطيع العيش مثل الآلهه(٤) •

وخلال هذه الفترة اخذت الحقائق الدينية التي تستند الى المعتقدات الدينية تتجه نحو الزوال ، على الرغم من أن الطقوس الدينية القديمة لازالت تقام من قبل بعض الأفراد اعتقاداً منهم وعن ايمان راسخ بأن مفرداتها يجب أن يحافظ عليها في حين كان يسود الشك في أعماق البعض الآخر في وجود تلك الآلهة وحتى انهم اقتربوا من الالحاد الديني(٥) • ولم يكن اقامة الشعائر والمواسم الطقوسية الدينية المألوفة تعني الشيء الكثير لعدد كبير من المتعبدين ، بل أن غالبيتهم اهتموا فقط بالحرص على اقامتها في حين تبنى اغريق آخرين عبادة آلهة شرقية متأثرين بمعتقدات الجاليات الاجنبية الصغيرة التي استوطنت مدن الاغريق والتي استمرت بعبادة آلهتها الخاصة ولكنها نادراً ما مارست الطقوس الخاصة بعبادة الآلهة الاغريقية المعروفة(٦) •

تلك هي معتقدات الاغريق في الفترة التي سبقت غزو الاسكندر المقدوني للشرق في الثلث الاخير من القرن الرابع ق٠م ومن نتائجه سيطرته على بلدان العالم القديم في آسيا وافريقيا ، وقد برزت عندئذ المعتقدات

الدينية بشكل واضح وبدت في مظاهرها متناقضة نوعما خاصـــة بعـــد تأسيس دول جديدة ومدن جديدة وماتبعه من تأثير شعوب تلك المناطـق ذات المعتقدات الدينية العريقة والمختلفة فقـد بدأت بدلالات التجمعات السلطانية الاغريقية تتأثر بشكل مباشر وتتبنى عبادة طقوس خاصة تتعلق بتأليه الحكام التي تعزى الى اسباب سياسة بحتة • الا أن مـن الملائـم ولغرض فهم تلك التغييرات أن نرسم الفروقات بين التطـورات الدينيـة التي حدثت بدوافع سياسيه وبحافز من السلطة والملـك أو الحكومـة وبين الطقوس والعبادات الدينية التي تبناها الافـراد برغبتهم المطلقـة وبحرية تامة لأنها بدت لهم أنها تلبي حاجة أصيلة لديهم ولغرض شخصي وثيق الصلة بحياتهم وشخصيتهم الفردية • فالملوك الجدد الذيـن اعقبوا الاسكندر المقدوني كانوا الى حد ما مغتصبي السلطة ، لهذا فقـد أخـذوا يبحثون عن سند وأساس ديني في جعل سلطاتهم قانونية ولتعزيز ادعاءاتهم للحكم ، لذلك ظهرت بعض السمات الخاصة المتعلقـة بالمعتقدات الدينيـة للأسر الحاكمة الجديدة من ضمنها تبني عبادة اله حامي معين ، وكان مـن الضروري جداً ان يكون هذا الاله من ضمن مجموعة الآلهة الاولمبيه لأنهـم مابرحوا يعتقدون بقدسية آلهتهم التـي نشأوا عـلى عباداتها وتقديسها وأقاموا شعائرها التقليدية العريقة • فعلى سبيل المثال ، ادعت الاسـرة الحاكمة في مقدونيا انحدارها من الاله هرقـل ونقشوا صورتـه وبعض معطياته وخاصة الهراوة على نقودهـم الرسمية لتصبح رمـزاً لحكمهم(٧) بينما وجد الحكام السلوقيون في العراق والشام ضالتهم المنشورة في ابولو واعتبروه الههم الخاص الحامي واشتهر سلوقس نفسه بنسبه اليه وانـه

كان ابنه وحمل بنفسه رمزه وهو المرساة ، التي كانت منقوشة على فخذه على أنها علامة ولادية(٨) • وقد قبل السكان الاغريق ذلــك الادعاء حيث نصت كتابة تذكارية مهمة نقشت على شرف سلوقس نفسه على منح الحاكم الجديد امتيازات عديدة من ضمنها الاشراف على مذبح يقــوم الرياضيون المتنافسون بتقديم القرابين الجسدية في كل سنة ، اضافة الى تسمية أحد أشهر السنة باسمه واقامة احتفالات ملكية كـل اربـــع سنوات تتضمن مسابقات في الموسيقى والفروسية والرياضة وجميعها تكون تحت رعايــة الالهأبولو « الجد الاعلى للسلالة الحاكمــة »(٩) • وارتبط ادعــاء الحكام الهلنستين بآلهة خاصة مع التقاليد العراقية الموروثة بتقديس الحاكم وهي في الاصل تدعو الى عبادة السلف ثم تطورت الى عبادة وتقديس الملكفــي حياته واعتبارة الهاً(١٠) • وقد وجدت هــذه الممارســة الطقوسية والعبادة ارضاً ملائمة خصبه في معظم مدن الاغريق واستغل الحكام الهلنستين هذه الظاهرة وما تقدمه من فوائد ومكاسب شخصية سياسية واقتصاديــة • وكان تطور هذه الممارسة بطيئا وغــير منظما في البلاط السلوقـــي حيــث استغرق فترة طويلة كانت المدن الاغريقية تجد المحفز والدافع المبرر لاعمال التكريس والتقديس للحاكم • وقد أخذت مراحل عدة طريقها في عملية التطور لهذا المفهوم الديني الجديد ، وسبق ان ذكرنا ، الادعاء الخاص بسلوقس ، فالقانون الذي صدر في عام ٢٨١ ق٠م والذي به تـم الاعتراف بسلوقس حفيداً للاله أبولو يقترب في نصوصه ومفرداته ومضامينه فـــي معطيات سمو الشرف الالهي • وقد اعلن ابنه انطيوخوس الاول أن والده أصبح في مصاف الآلهة واضفى عليه لقب سلوقس « المنتصر » وهو احدى القاب الآلهه(١١) في حــين يعتبر انطيوخوس الثالــث (٢٢٣ — ١٨٧)ق٠م

أول ملك سلوقي يؤسس معبداً رسمياً لتقديس نفسه ولأسلافه ، كما تشير بذلك رسالة يعود تأريخها الى عام ١٩٣/١٩٢ ق٠م كتبت بخط يده الى حاكم اقليم كاريا حيث يعين بموجبها كاهنه لمعبد زوجته(١٢) ٠

ان الدلائل التأريخية والدينية لاتلقي الضوء الكافي لمعرفة الأهمية الحقيقية لظاهرة تقديس الحاكم أو حتى تحديد جوهرها بتلك السهولة لأنها تنطوي على جوانب سياسيه ذات مكنونات متعددة كما وان لها عبادة وطقوس خاصة ٠ وكانت غالباً ما تميز الحالة الملكية وتدعم في نفس الوقت قوة وشرعية حكم ذلك الملك وسلالته ، وان معظم التطورات الدينية الجديدة كانت استجابة للتغييرات في المواقف الشخصية والى الحالات الاجتماعية الجديدة ٠ ومع اضمحلال قوة دولة المدينة بدأ تدهور واضح يطرأ على ثقة الافراد في عباداتهم التقليدية واهتمام متزايد في الديانات الصوفيه التي تضمنت القيام بمحافل سرية من شأنها التعهد بانقاذ الأشخاص ونجد في المراسيم الاحتفالية في اليوسس وفي جزيرة ثاموثريس ايرز امثلة لتلك الممارسات ، وخلال العصر الهلنستي قيت في جوهرها اغريقية وتزايدت شعبية البعض منها مثل (طقوس دايونيسوس)(١٣) ٠ وتوضحت الحرية الشخصية للفرد الاغريقي في تلك المحافل أو الجمعيات الخاصة بعد عام ٣٠٠ ق٠م ، ومن خلالها ، اي في القنوات الاعتيادية ، دخلت العبادة الشرقية وخاصة العراقية الى كل مدينة اغريقية أو جالية اجنبية صغيرة كانت قد استوطنت حيث تجمعت في نادي أو جمعية لعبادة الههم الخاص ، ومن المحتمل جداً ، أن الاغريق أنفسهم انضموا الى تلك الجمعيات(١٤) ٠ والميل نحو الالهام الصوفي والمبادىء غير المنطقية كانت صفة ملازمة لممارسات

تلك الجمعيات التي تأثرت الى حد ما ببعض الطقوس الاغريقيه المعروفة ، ومن المناسب أن تتوضح ، على سبيل المثال ، في معبد اسكبيوس في ابيداريوس حيث يسعى الفرد الى الشفاء الاعجازي أو الخارق من الامراض وقد أثرت تلك المعتقدات في افكار المتعبدين الذين قضوا الليالي نائمين في المعبد سعياً وراء الشفاء ، وتؤكد الدلائل الكتابية التي وجدت منقوشة على الجدران والكتابات الدعائية التذكارية الاخرى على أن هذه الممارسات وصلت الى ذروتها خلال الفترة الهلنستيه اضافة الى ما تقدمه انواع القرابين والنذور من دلائل من شأنها تعزيز تلك الاستنتاجات(١٥) ·

وتبنت بلاد الاغريق نفسها عبادة الآلهة الشرقية في حين قلما عبدت عبدت الشعوب الشرقيـة آلهـة اغريقية ، فمثلا ، مدينـة دورايوروبس استقبلت بحرية آلهة عراقية قديمة وخاصة البابلية منها(١٦) في حين لـم يدخل أله اغريقي الى مدينة الوركاء(١٧) · وأخذت الآلهة الشرقية والعراقية بشكل خاص ، في بعض الاحيان ، أسماء الآلهـة الاغريقية ولكـن دون معطياتها لأنها كانت ، في معتقداتهم ، الاقوى · وهذه الظاهرة أدت بالتالي الى فشل الغزو الاغريقي لآسيا لأن البلدان الشرقية قد وضعت في مجالهـا الديني مقياسا واضحا عبر الاغريقي عن ضعفه في مواجهته وان ماقدمـه الاغريق الى البلدان الشرقية هي جوانب معينة من العلم والفلسفه والتـي كانت مقتصرة في حد ذاتها على القلة القليلة من الأفراد وليس الى الجماهير الواسعة · وقد مثلت الالوهيه بواسطة نمو الفكـر التجريدي وهـو ميل يمكن أن يتتبع خلال القرن الرابع وان الهـة الحظ

كانت تمثل نوعاً بارزاً من الفكر التجريدي ، وقد انتشرت عبادتها في العالم الهلنستي ولعبت دوراً مهماً في ديانة ومعتقدات هذه المنطقة وخاصة في حياة البشر الذين اهتموا بها بشكل خاص وانها كانت في الواقع تعبر عن مبدأ هلنستي بحت(١٨) . وانها لم تكن الحظ الاعمى ولكنها كانت تمثل بعض العلاقات التي لايمكن فهمها من قبل البشر حيث أن الهة الحظ نفسها هي التي جعلت من بعض قواد الاسكندر . حكاماً ناجحين مسيطرين على اقاليم واسعة وانها قادت البعض الآخر الى القبر ولكنها لم تكن الهة قاسية غير عطوفة أو بدون رحمة أو شفقة ولم تحرم الرجال من الامل في الاعتقاد بأن « اليوم لك ولكن الغد لي » وكان لكل رجل خطة حيث انها كانت تمثل روحه الفردية وفي كثير من الاحيان كانت تجسد شخصيته الفردية(١٩) .

واهتمت الطبقة المثقفة بالعلم والفلسفة والثقافة بدلا عن المعتقدات الدينية ولكنها لم تؤثر على عقلية الفرد الاعتيادي الذي ايقن أن عليه أن يعبد شيئا ما وبما ان الآلهة الاولمبية قد بدأت تضمحل ، بدأ شعور ديني حقيقي بالتطور واصبحت العبادة العراقية والشرقية تسيطر تدريجياً على نفسية المواطن ، ولهذا يعتقد بعض الباحثين بأن غزاة الشرق أنفسهم قد وقعوا فعلا أسرى الديانة الشرقية(٢) ، وعلى الرغم من أنها لم تصل ذروتها الا بعد الفترة المسيحية لكنها كانت تجمع قواها خلال هذا العصر بتأثيرات جاءت من بلاد وادي الرافدين وبلاد وادي النيل ، وتقديس الآلهة البابلية قد مارس تأثيراً محلياً اضافة الى انها غزت بلاد اليونان نفسها

وباسمائها الحقيقية أو القريبة منها • وازدهرت تلك الديانات بقوة على الرغم من أنها ، في بعض الاحيان ، أخذت اغطية اغريقية ، فعلى سبيل المثال ، تكشف لنا النقوش التي ضربت على النقود وخاصة تلك التي يعود تأريخها الى العصر الروماني عن خليط أو مزج فريد من العبادات والديانات المتعاصرة وكان أهم وأعظم الآلهة هو حداد أو أدد اله المطر والخصب والرعد في معتقدات وادي الرافدين والذي استوعب عدداً من الآلهة المحلية التي عبدت تحت اسم بعل وانه تطابق مع زوس ، كبير آلهة الاغريق(٢١) ورفيقته كانت اتركاتس ، التي هي في اصولها ومعطياتها وصفاتها الآلهة عشتار البابلية التي تطورت وأصبحت في بعض الاحيان حامية المدينة ، وقد عقد عليها الملك السلوقي أنطيوخوس زواجاً وأصبحت الهة معظمة ذات قوة ونفوذ كبيرين(٢٢) • ولكن العطاء البابلي كان في عبادة الكواكب والتى يطلق عليها « علم الفلك » حيث أن جذورها تمتد بعيداً في وادي الرافدين ثم تطورت الى اسلوب ناجح حيث اتضح لهم بأن النجوم والكواكب انما كانت تتحرك في السماء حسب قوانين ثابتة •

يتوضح لنا ان لبلاد وادي الرافدين تأثيرا كبيرا على تشكيل الديانة الهلنستية بهذه الصورة ولكن الادلة الآثارية والكتابية عن هذه الفترة قليلة ونادرة لاتكفي لرسم صورة متكاملة ، ومن أهم المكتشفات الآثارية ، معبد صغير في تل النبي يونس في مدينة نينوى ، حيث يبدو أنه كان جزءاً من مستوطن أوسع ولكن معاول المنقبين لم تمتد اليه • وقد تألف هذا المعبد من خلوة ذات أرضية مرتفعه يوصل اليها من خلال درجات قليلة

من مقدمة خلوة تقع أمامها(٢٣) • وعلى احد جانبي الخلوة توجد باب تؤدي الى غرفة جانبيه صغيرة ذات جيوب شيدت من اللبن وقد عثر فوق ارضيتها على آثار تؤرخ الى العصر الهلنستي استناداً الى مقارنتها مع آثار مماثلـــة عثر عليها في الادوار الاولى في مدينة سلوقية ـ على ـ نهر ـ دجلـــة • وهذا المعبد الصغير يشبه في تخطيطه المعابد الآشورية والبابلية الأقدم عهداً• واحتوت خلوة المعبد على دكة ، خصص قسم منها لوضع تمثال الاله هرمز الذي عثر عليه خلال التنقيبات والجزء الآخر منه احتوى على بقايا آثـار حرق مما يدل على أنه استخدم لحرق البخور وهناك منصه اخرى ، مـن المحتمل انها استخدمت لوضع الهدايا والنذور المقدمـة الى الـه المعبد(٢٤) واعتبر هرمز رسول زوس كبير آلهـة الاغريق فلذلك يظهر وهو يحمـــل زوج من الاجنحة فوق رأسه وزوج آخر فوق نعله وفي بعض الاحيان يظهر جناحان آخران فوق عصاته السحرية • ومن صفاته التي اشتهر بها فـي المشرق الهلنستي انه كان حامي التجارة والهها الخاص وهو الذي يسبغ حمايته على التجار أيضاً • وتشير الدلائل الآثارية والكتابية الى أنه ، فـي بعض الاحيان ، أخذ بعض صفات أبولو ـ اله الحكمة والمعرفة في الاساطير الاغريقية وأهمها مخترع الكتابة وهي صفة مهمة لأبولو والتي تطابق بها مع نابو نظيره العراقي القديم الذي عبده العراقيون القدماء بصفته مخترع الكتابة وهو الذي يمسك بالقلم ، وهذا التطابق هو نتيجة طبيعية لتأثير الديانات الشرقية على المعتقدات الدينية الاغريقية • ومن الادلة الاخـــرى التي يعود تاريخها الى هذه الحقبة الزمنية هي بعض المزارات الصغيرة التي عثر عليها خارج المعبد الكبير في مدينة الحضر والتي مرت بأدوار زمنيـة ،

يعتقد بأن أدوارها الاولى يعود تاريخها الى الفترة الهلنستية ، حيث كانت تتألف من مقدمة خلوة أو مصلى مستطيل الشكل وخلوة ، وهـــي عبارة عن كوة في الجدار المقابل للمدخل ، يوضع فيها تمثال لاله المعبد أو المزار. ومن أهم هذه المعابد الصغيرة ضمن الفترة الزمنية ، هو الدور الاول للمعبد الثامن الذي من المحتمل انه كان مخصصاً لعبادة الكواكـب السيارة حيث عثر فيه على تماثيل صغيرة تمثل الشمس والقمـــر والكواكـــب الخمسة الاخرى وهي المريخ والمشتري وزحل والزهرة وعطارد ، وكلها تدل على التأثيرات الدينية العراقية القديمة وخاصة تلك التي تتعلق بدراسة علـم الفلك(٢٥) .

وتم العثور على العديد من الدمى الفخارية في بعض معابـــد مدينـة سلوقية على دجلة وقد عملت حسب الأسلوب الاغريقي اضافة الى الاسلوب الشرقي وهي تمثل مجموعة متنوعة من الآلهة وكانت قد قدمت للمعابـــد بشكل نذور دينية رخيصة تعبيراً عن المعتقد الديني • ومـــن أبرز أمثلة الازدهار الديني للمعتقدات العراقية القديمة هـــي الاستمرار في تدريس التراتيل السومرية في مراكز العبادة اضافـة الى أن الديانـــة والطقوس البابلية والآشورية قد استمرت وكان لها تأثيرا في معتقدات سكان المناطق الآشوريين فأن طبقة الكهنة حافظت على سيطرتها الثقافية • وهذه الدمى واسعة بعيداً عن مناطقها وعلى الرغم من الانحسار السياســـي للبابليين تحمل بعض صفات العصر الا أنها تعتبر استمراراً للتراث القديم ومـــن أهم أنواعها هي تلك التي تصور المرأة العارية ، حيث أصبحت موضوعـاً

للمناقشة وأبدى العديد من المختصين آرائهم فيها ، وحصيلتها هي انهــا أما تمثل الالهة عشتار نفسها بصفتها الهة الخصب أو كاهناتها ، اي أنها لاتبتعد عن المغزى الديني وانما كانت هدايا نذريه وقطع دينية للتعبد فــي البيوت والتي كان لها قيمة رمزية وطلسميه لمالكها(٢٦) • وتطابقت عشتار مع أفروديت الهة الحب الاغريقية وانتشرت عبادتها انتشارا كبير استنادا الى العثور على نماذج لتماثيلها في وادي الرافدين والصحراء السورية وهي تشير بذلك الى شعبيتها خلال هذا العصر(٢٧) • وتقسم هــذه الدمــــى الى نوعين ، النوع الأول انجز وهو يحمل تأثيرا واضحا للاسلوب الاغريقي في حين يتميز النوع الثاني بصفات شرقية ولكن معظمها يرجع الى أصناف اغريقية معروفة وقسم منها يمثل أفروديت وعثر على بعض دمــــى وقــد عملت تفاصيلها بشكل رمزي تخطيطي لنساء عاريات أو نصـــف عاريات وهي تظهر تأثيرا شرقيا قديما ، وهذا مايدعـو الى الدهشة والاستغراب الى وجود هذه الدمى في مدينة تأسست في العصر الهلنستي(٢٨) •

هذه بعض الاشارات المهمة عن تأثير المعتقدات العراقية القديمة عــلى الديانة الهلنستيه والتي يتضح من من خلالها استمرار وتواصل تلــك المعتقدات حتى الى فترات لاحقــه •

الهــوامش

(١)
W.W. Tarn, Hellenistic Civilization, Cleveland, 1943, P. 337

(٢) F.W. Walbank, The Hellenistic World glasgow, 1981, P. 208

(٣) Tarn, P.337

(٤) Aristotle, Nicomachean ethics, 1177b - 8d

(٥) Walbank ' P. 209

(٦) Tarn ' P. 338

(٧) Livy ' xxxll ' 22 ' ll

(٨) Justinus, xvl ' 4,2

(٩) Oqls ' 212

(١٠) فوزي رشيد ، «الديانة ، المعتقدات الدينية» حضارة العـــراق ، الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص١٨٢ ـ ١٨٤ .

(١١) E.R. Dodds, The greeks and the Irrational P. 276

(١٢) Walbank ' P. 216

(١٣) Walbank ' P. 218

(١٤) Tarn ' P. 338

(١٥) Walbank ' 218

(١٦) Susan Downey, The Stone and Plaster Scueture, Excavations at Dura - Europus, Los Angles, 1977

(١٧) Tarn, P. 337

(١٨) History of Polybius. xxlx, 21, 1 - 9

(١٩) ibid

(٢٠) F. Cumont, Les religions Orientales, 1929

(٢١) A.B. Cook, Zeus, P. 217 219

(٢٢) لوقيانوس ـ الالهة السوريـة .

(٢٣) محمد علي مصطفى «اكتشاف تمثال الاله هرمز في نينوى» سومر، ١٠ (١٩٥٤) ص٢٨٠ ـ ٢٨٣

(٢٤) Davd Oates, Studies in the History of Northern Iraq, London, 1968, P.61

(٢٥) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، الحضر، مدينة الشمس، بغداد، ١٩٧٤، ص٣٦٠ .

(٢٦) صبحي أنور رشيد «كتب جديدة ـ دمـــى من آشور في متحف الشرق الادنى في برلين» سومر، ٣٧ (١٩٨١) ص٢٥٣ ـ ٢٥٨ .

(٢٧) وائق الصالحي «أفروديت عبر التاريخ» مجلة آفاق عربيـة السنة العاشرة، كانون الاول، ١٩٨٥، ص٦٦ .

(٢٨) المصدر السابق، ص٦٧ .

القربـان مفهومـه دلالته في العصر السومري

د٠ خليل سعيد عبدالقادر
كلية التربية للبنات

القرابين هبات او تقدمات من مختلف المواد او تضحيات تقدم فـــي مناسبات معينة او دورية شهرية او سنوية دينية او غير دينية ، تقـــدم للالهه او للاسياد من الملوك والامراء ، وحتى لهؤلاء الملوك الذيـــن تألهوا وللامـــوات ٠٠٠٠ الــخ ٠

وتدخل القرابين ضمن العبادات والشعائر التـي كان يقيمها سكان وادي الرافدين والتي منها المناسك والمراسيم الدينية المختلفة الاخـــرى كالصلاة او الاعياد الدينية(١) ٠ لقد كان الفـــرد مجبراً اجتماعيا ودينياً على تقديمها ، طالما كـــان حبيس قيـــود فرضتها طبيعة الحياة الدينيـــة والاجتماعية ٠ لذلك فقد أصبحت القرابين تقليد متوارث ، شأنها شأن بقية الشعائر الاخرى ، فرضت على كافة افراد المجتمع وحتى الكهنة منهم ، حيث كانوا مجبرين على تقديمها لتبرئة مايتعلق بذممهم ٠

لقد أمدتنا النصوص المسمارية بلفظتين للقربان :ـ (مستدرية
و (نك ــ كشى ــ تا ــ كا "Nig-gis-tag-ga

وقد اختلفت اراء المختصين في العلوم الاشورية في اعطاء المعنـى الدقيـــق والموحد لكل منهمـــا ٠

ففي الوقت الذي اشار فيه « جينولاك N?de. Ee honllae

الى ان كل من اللفظتين كانت تحمل معنى القربان والذي معناه (العشر dime)[2] ـ وهو يتفق مع راي (جان Jean) عندما اشار الى ان اللفظتين مترادفتين[3] ـ نجد ان (لاندسبيرجر B. Landsberger) يشير الى ان القربان يمكن ادخاله ضمن الكلمة المركبة الاتية :ـ (schlacheoplerabfabe) والتي تحمل معنى (القربان المضحى)[4] معتمدا في ذلك على نص جاء بشكل استمارة سجل فيها كل الوثائق المتعلقه بالتضحيات المقدمة والتي حملت اسم (نك ـ كش ـ تا ـ كا) . والتي حملت اسم (المشدريه) . وهذا يعني ان الاقوام السومرية لم يكن في تصورهم التمييز بين اللفظتين .

اما (دايمل - A Deimel) فمن خلال تحليله لعدد من الكلمات اسومرية والتي من بينها (المشدريه) توصل الى ان لفظة المشدرية تحمل معنى (الهبة او التقدمه) وترجمها بالكلمة Festaben في البحث الذي نشره بعنوان (الهبات الدينية (Religiose Abgaben)

ويعتقد ان هذه الترجمة التي اعطاها لمعنى القربان غير مقنعة . فقد ناقشت (روزتكارتبن)(٦) ذلك وتوصلت الى ان القرابين لايمكن ان تحمل معنى (الهبة او التقدمه) لانها لاتقدم دائما بمناسبة الاعياد . هذا اضافة الى ان التقدمات للامراء والملوك ليست دائما واجبا دينيا ، ولو انها كانت تقدم في عيد ديني . كما انها كانت تقدم في مناسبات غير دينية ، وجاء مايماثل ذلك في مجموعة من النصوص منها ماتشير الى انها قدمت بمناسبة ولادة احدى بنات (برنمتارا) او مجيء الباتيسي الى قصر الاميرة[7]

اما (شولتز - (Ccholtz)) فقد اقترح ترجمة جديدة للقربان

المعروف باسم (مشدرية) ، عندما اعطاها معنى (الهبات الواجبة) مستشفاً ذلك من خلال الدراسة النحوية التي اجراها(٨) والملاحظ انه لايمكن اعطاء صفة (اتاوة او ضريبة ٩ (Redeuance)) ولعل هذا هو الذي دفع رجستين RJestin) ، اعطاء صفة (التقدمة او الهبة "Present ' doffrande" للقربان(٩) وبذلك يكون قد اتفق مع (لامير M Lamert)) ، عندما اعطى للمشدرية معنى « البخشيش Bakschich » او الهدية Cadeanx »(١٠)

ويشير (لاندسبيرجر) من خلال النصوص التي اطلع عليها والتي وردت فيها عبارة (سلة الالواح) الى ان القرابين التي تقدم كانت تدخل في سجل حسابات خاص يمثل جداول شهرية او سنوية ، تقدم للقصر باعتباره المشرف المالي الاول • فاذا كان القربان موا • (حيوانا) ، فانه لم يضحى به وقت تقديمه بل يدخل الى الحضيرة المخصصة لذلك والتي يشرف عليها رجل يعرف باسم (ان – كوج) الذي كان بمثابة وكيل اعمال الامير ، او القصر ، حيث باشرافه تنظم قسيمة لهذه الضحية ثم بعد ذلك تقدم للتضحية ، حيث يأخذ الحيوان الى اماكن الذبح بأشراف الـ (سوكال) ، وهو المبعوث الذي يأخذ الحيوان الى اماكن الذبح •

اي ان الضحية عملت لها عملية ادخال وأخراج على ان من الحيوانات ما كانت تمكث كثيرا ريثما يأتي دورها وحاجتها للتضحية • ولذلك فالحضيرة كانت اشبه بمخازن خزن المواد العينية التي تقدم كقرابين ، وخاصة تلك التي غير قابلة للتلف او التفسخ • ومايشير الى ذلك ورود

بعض اسماء مسؤولي المخازن في النصوص مثل (رئيس مخزن المـــواد الدهنية والذي كان يعرف بـ
:
واخر عرف باسم « وكيل الاعمال » ... كما ان هناك موظفـين اخريـــن يشرفون على عملية الخزن(١١) .

والجدير بالذكر ان القرابين كانت اما بهيئة اطعمة كالطحين ، النشاء، الزيت ، عصير العنب ... ونقدم عادة كأطعمة للالهه . او تكـــون بهيئة سوائل تعرف بـ (السوائل المقدسة) تسكب بطريقة خاصة للقبور(١٢).

وتقدم القرابين عادة لنيل رضا الالهه ، لان معطياة الحياة وما يرافق ذلك من نكبات وشرور تعود للالهة . لذلك وانطلاقاً من مبدأ عجز الانسان وشعوره في عدم تمكنه من تحقيق التوافق بين عالمه الداخلـــي (النفسي) وعالمه الخارجي (المجتمع) لتحقيق ما تصبو اليه النفس قد خلق فيه الحس الذاتي بالالوهة ، فانبعثت فيه الحيوية الدينية ، لانـــه ادرك ان الفعـــل الالهي في كل شيء في سماء الاله انو ، انليل وايا ، او في ارض انكي . وهذا هو الذي جعل الانسان از يكون عبدا لها ، يقدم القرابين ويرفـــع لها الصلوات والتراتيل ، ومن هذا الشعور انطلق الانسان قائلا :ـ

« الخوف من الالهه ، مدعاة للعطف والقرابين تطيل العمر .... »

لهذا فقد اعتبرت القرابين من صنف العبادات والشعائـــر الخاصـــة(١٣) بتحقيق امل الفرد وحاجاته كازالة الامراض ودرىء خطر الشياطين والارواح وابعاد الشرور والنكبات .... الخ . لهذا فهـــي تشكل عنصـــرا رئيسياً في كل الشعائر(١٤) بل وكانت الغاية الاساسية التي مـــن اجلها خلـــق الانسان . ويتضح ذلك من النص الذي جاء في ملحمة كلكامش الخليقـــة

البابلية/اللوح السادس ، على لسان الاله مردوخ بعد ان انتصر على تيامه حيث قـال :ـ

« اريد صنع شبكة دم وهيكل عظمي(١٥) وخلق كائن حي يكون اسمه الانسان ، ليكتفي بخدمة الالهه ولتعش بسلام »(١٦) •

ولعل هذا هو الذي اضفى على القرابين طابعها الدينـــي ، واصبحت التزاما معروفاً على مر السنين • لان عـدم تقديمها معناه معصاة للالهـــة وتقصير في حقها •

والقرابين ثلاثة انواع :ـ ١ ـ قرابـين تقـدم عـلى ارواح الموتـــى

٢ ـ قرابين تقدم على شرف الامراء والملوك والعظماء

٣ ـ قرابين تقدم بمناسبة الاعياد

قرابين الامـوات •••••

جرى العرف الاجتماعي في وادي ان تقدم القرابين على ارواح الموتى من عامة الناس او من الشخصيات وعظماء البلد •••••• فقد جاء في نص : (اموات عظام ، قرابينهم توجد هنا ••• ونصها

(En - en - ne - ne - masdaria - a bi ..... e - du gal (١٧)

لقد اكتسبت قرابين الامرات أهميتها منذ عصر سـلالة اور الاولى • حيث كـان السومريون لاينسون اطعـام الميـت • فيشـير (جـــان) ، الى ان الاموات ـ حسب التصور السومري ـ كانت ناقصه، وانهم في محيط ذو رفقاء لطفاء ـ حسب تصورهم(١٨)

وكانت القرابين تقدم ـ كما تشير النصوص المسمارية ـ وفق طقوس ومراسيم خاصة ، وفي مكان خاص • فقد ورد في بعض النصوص بـــان

القرابين كانت تقدم في مكان يعرف باسم (اورو ـ كار)
وفي نص أخر يعرف باسم (كي ـ آ ـ ناك)[19]
كما ورد في بعض النصوص ان القرابين كانت تقدم للموتى عن طريق وضعها امام تماثيلهم في المعابد (هذا بالنسبة للملوك والامراء ....) . فقد جاء في نص يعود لسرجون الاكدي ذكر باسماء القرابين التي قدمها الى تمثال الملك السومري (أنتمينا) . كما وجدت اشارة اخرى تشير الى القرابين المقدمة الى تمثال الملك (جوديا) الذي كانت تقام له الصلوات والادعية . كما قدمت الى تمثال الملك سرجون الاكدي بعد وفاته[20] هناك نصوص أخرى تعود الى عصر سلالة اور الثالثة تشير الى قرابين قدمت الى تماثيل الملوك بعد وفاتهم[21] .

ان تقديم القرابين امام التماثيل الملكية الموضوعة في المعابد لاتعني ان ذلك العاهل كان يتوخى من وراءها ضمان العبادة لنفسه ، لان التمثال قد حددت مهمته ، حيث تتمثل بترديد الصلوات الخاصة بالالهة والتي كان الملك يقوم بترديدها باستمرار وبدون توقف . كما ان الغرض منها ايضا كان يتمثل باسناد حياة التمثال بشكل دائم من اجل ان يذكر الاله بترديده للصلوات حتى بعد وفاته .

وقد بلغت من أهمية القرابين هذه درجة ان الملك كوديا ـ مثلا ـ قد كتب على احد تماثيله : (ان العاهل اللاحق الذي يستبعد القرابين ويعرقل قرارات (ننجرسو) ، لتستعبد قرابينه وتعرقل قراراته . ويشير (فرانكفورت) الى ان عادة تقديم القرابين الى التماثيل الملكية

لاتتضمن التأليه ، باي حال ، خاصة وان التماثيل كانت تمثل دور الوسيط بين الملك والاله ، فهي اشبه بالالهه الحامية(٢٢)

هناك بعض النصوص تشير الى ان القرابين كانت تقدم مباشرة بواسطة الموتى • حيث يأخذ الميت معه بعض الهدايا الى العالم الاسفل • فتروي لنا الاسطورة السومرية المعنونة د (موت كلكامش) • ان كلكامش كان قد قدم عند نزوله الى عالم الاموات الهدايا التي اصطحبها معه الى بعض الالهه منها : الآهه ارشكيكال ملكه مملكة الاموات والى (نمتار) وزير الالهة ارشكيكال والمنفذ لاوامرها ، كما قدم خبزا الى (نيتي) رئيس • حراس ابواب العالم الاسفل وهو يقوم ابلاغ القادمين الى العالم الاسفل للالهه ارشكيكال ، والى تموزى وبعض الموتى ••••(٢٣)

كما ان الملك السومري (اورنمو) كان قد قدم بعد موته مجموعة من الهدايا الى الهة العالم الاسفل السبعه ، فذبح الثيران والاغنام للموتى من الشخصيات العظيمة • كما قدم الحقائب والاسلحة والثياب والحلي والمجوهرات الى بعض الموتى ومن بينهم كلكامش كل في قصره الذي يقيم فيه في هذا العالم(٢٤) • ومن الواضح مثل هذه القرابين كانت تدفن مع الموتى في اضريحتهم •

لقد تصور سكان وادي الرافدين ان انقطاع القرابين او عدم تقديمها سوف يؤدي الى احد الامرين : اما ان يبقى الموتى في العالم معتمدة في طعامها على الطين كما جاء في اسطورة نزول عشتار الى العالم الاسفل(٢٥) •

« نحو الطريق الذي من سالكه لاعودة منه نحو المسكن الذى حرم ساكنوه من النور حيث التراب يشبع جوعهم والطين خبزهم »

او تخرج منه الى عالم الاحياء غاضبة منزعجة ، تأكل من فضلات الشوارع وتتربص للاحياء لألحاق الاذى بهم • وهذا يتضح من تهديد اننا/عشتار في قصة (كلكامش وشجرة الحياة أو /اننا والثور السماوى) عندما طلبت من اباها (انو) ، ثورا سماويا لمنازلة كلكامش وهددته قائلة اذ لم يحقق طلبها :

(اذا لم تعطني الثور السماوي فلأحطمن باب العالم الاسفل وأفتحه على مصراعيه وادع الموتى يقومون فيأكلون كالاحياء(٢٦) •

وفحوى التهديد ان مشاركة الاحياء في العظام تحل المجاعة في الارض ويحرم حتى الالهة من الطعام ، وهي اشارة غير مباشرة باعتقادهم بالطبيعة الثائره للارواح ، عند خروجها من عالمها – عالم الاسفل •

هناك نوع من القرابين تقدم على شرف الامراء في حياتهم وبعد مماتهم• وهذا النوع من القرابين عرف باللفظة السومرية (مشدريه) ، وكان يقدم في المناسبات الدينية والاعياد العامة كعيد (شي – كو) وعيد (بولو – كو •) للالهه نانشه وعيد بسا – أو (٢٧) • هناك نصبين يعود الاول ولى (لوكال – بندا) احد ملوك سلالة لجش في عصر فجر السلالات الثالث ل (اوركاجينا) احد ملوك هذه السلالة ايضا مؤرخ بالسنة الثالثة من حكمه ، يشيران الى القرابين المقدمه على شرف كل منهما في احدى المناسبات • ويعتقد ان مثل هذه القرابين كانت تقدم بشكل دورى ووفق طقوس خاصه ، اثناء الاحتفالات التي تقام شهريا او سنويا ، او بمناسبة الاعياد الدينية(٢٨) •

هناك قرابين تقدم اثناء العبادات والمهرجانات العامة التي تقام

بمناسبة الاعياد ، كعيد (اكيتو) الصيد السنوي عند البابليين • وكان هذا العيد قد أصبح عيدا سنويا يمجد فيه الاله مردوخ منذ ان عظم شان مدينة بابل في زمن سلالة بابل الاولى في فترة حكم حمورابي(٢٩) • وقد تناول (د• فاضل عبدالواحد) هـذا العيد باسهاب ، وأشار الى ان الاحتفالات فيه كانت تستمر مدة احد عشره يوماً من شهر نيسان • وانه كان معروفاً في مدينة اور في الفترة التي سبقت السلالة الاكدية • ثم يشير الى ان هذا العيد كان مناسبة لترفع فيه التراتيل وتقام الصلوات وتنحر الاضاحي(٣٠) • وفي لحبش في العصر السومري الاول ، كان هـذا العيد مناسبة تمجد فيه الالهه (بـا ـ بـا) لمدة ثلاثـة ايام ، حيث تقام الاحتفالات وتقدم التضحيات للالهه ، كما كان هذا العيد مناسبة يحتفل فيها تمجيد الاله ننكرسو(٣١) • وتفسر لنا ملحمة كلكامش ماكان يقدم من قرابين كما جاء على لسان ((اوتونابشتم) نوح الطوفان اثناء بناء سفينته حيث قال :ـ (لقد نحرت ثيرانا عديدة ، وكنت اذبح لهم نعجة كـل يوم واقدم للعمال عصير العنب والنبيذ الاحمر والسمن والنبيذ الابيض ••• كنت اقدم ذلك بسخاء كما لو كانت من مياه نهر حتى انهم اقاموا احتفالا، كما لو كانوا يوم اكيتو •••)) (٣٢) •

الهـوامش

(١) ينظر البحث الذي نشره طه باقر في مجلة سومر/المجلد الثاني ١٩٤٦

(٢) Genoullac .H. de ; Tablettes Sumeriennes archaiques. Paris. 1909. LVI

(٣) Jean. charles - F ; La Religion Sumeriennes - Paris P.191 .

(٤) Landsberger . B ; Der Kuleische kalencler cler Babylonier und Assyrer . Leipzig . 1915 . P. 44. n. 1 .

(٥) Orientalia . 26 . P. 26

(٦) Rosengarten . yvnne ; Le Regime des offrandes dans La Societe Sumerlenne . Pars. 1960 . P. 18

(٧) Nikolisky . M.v ; Documents de La collection Likhachev. 1908 . 157 . lv ' 209 ' 11 .

(٨) Scholtz . R. ; Die struktur der Sumerischen engeren Verbalprafixa 1934 . xxxlx . P. 89
Orientalia . 26 . P. 26

(٩) Jestin , Ri La Verbe Sumerlen ' Prefixes , Particules Verbales et noms Verbaux . Paris . 1946 . P.186
et Lamert.M; Le verb AK(cabint d'Assyriologie) college de france . Paris . 1955 . P. 229

(١٠) Revele d'Assyriologie Oriental . 1953 , 47 . P.63

(١١) Rosengarten . y, «Le concept Sumerlen de Consommation» dans La Vie economique et reliqieuse . Paris. 1959 . P. 395 .

(١٢) طه باقر : المصدر السابق

(١٣) Heidel . A. The Gilgamesh Epic and Testament Paralles .

(١٤) عليان (رشدي وسعدي الساموك) : الاديان ـ دراسة تاريخية

مقارنة/القسم الاول الديات القديمة ٠ ١٩٧٦ ٠ ص٧١ ٠

(١٥) ان كلام مردوخ هذا يدل على انة الخالق الأعظم ـ حسب الفكـر البابلي ـ الا انه من الصعب انتزاع صفة (خالق الانسانية) عن الاله (أيا) ٠ لذا فانه يظل هو الخالق ، الا ان لاهوت (الايساكل) قـــد اصفى له مقدرة التفكير لخلق الانسان وعلاقته بالالهه ٠ وهذا يتضح من الابيات الاتية التي وردت في نفس اللوح :ـ

« بعدما خلق الاله (ايا) الانسانية وخصصهم لخدمة الالهة »

(١٦) Rene Labat ; La Relgion du Proche -orient asiatigue Paris . 1970 . P. 59 .

(١٧) Jean - charles - F ; Les Sumerlenne Religion Texts 1924 . P. 141 Thureou - Dangan ; in Revue d'Assyriologie et d'Archeologie Orientale ,20 , 1922 .

(١٨) Thureau - Dangn ; Recueil de Tablettes chaldeeenes (2e Serie) , Paris . 1903 , 59 . P. 111

(١٩) Rosengarten ; Le Regime des offrandes ... P. 25 .

(٢٠) Langdon , in Encyclopaedia of Religion and Ethics New york . 1958 . IV P. 445

(٢١) Leo Oppenheim , Ancient Mesopotamian . chicago 1964 . P. 120

كما ينظر النسخة المترجمـــة : ترجمـة سعدى فيضي عبدالرزاق ٠ ص١٨٤ ٠

(٢٢) الطعان (د٠عبدالرضا) : الفكر السياسي في العراق القديم ٠ وزارة الثقافة والاعلام ٠ دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١ ٠ ص٤٩٠

(٢٣) ساندرز ٠ ن ٠ ك : ملحمة كلكامش ٠ ترجمة محمد نبيل نوفـل وفاروق حافظ ، دار المعارف ٠ مصر ٠ ص٩٥

حنون نائل : عقائد مابعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة ٠ مطبعة دار السلام ٠ بغداد ٠ ١٩٧٨ ٠ ص٢٧٥

(٢٤) Kramer ; in Iraq . xxll P. 60

نقلا عن : نائل حنون : المصدر السابق ٠ ص٢٧٦

Rene Labat ; Op. cit . P. 255 .

(٢٥) نائل حنون : المصدر السابق ٠ ص٢٧٧

(٢٦) Rene Labat ; op . cit . P. 184 . (95 - 100)

طه باقر : ملحمة كلكامش ٠ منشورات وزارة الاعلام ٠ ١٩٧٥ ٠ ص٩٤

كونتينو (جورج) : الحياة اليومية في بلاد بابل واشور ٠ ترجمة سليم طه التكريتي ٠ دار الرشيد للنشر ٠ ص٤٩٧

(٢٧) Allatte de La Fuye ; Documents Presargoniques Paris ' 1920 . 131 . 205

Nikolisky . M.v ; Documents de La collection Likhaichev Saint - Peterbourg . 173

(٢٨) Rosengarten - Op . Cit - PP. 33 - 36 .

(٢٩) كونتينو : المصدر السابق ٠ ص٤٧٤

باقر : المصدر السابق ٠

(٣٠) عبدالواحد (د٠ فاضل ٠ د٠ عامر سلمان) : عادات وتقاليد الشعوب القديمة ٠ ١٩٧٩ ٠ ص١٨٢

(٣١) Thureau . Dangan ; Op . Cit P. 46

Allotte - de La Fuye ; Op Cit . 54 .

الاهه (بـا ـ بـا) كانت تمارس تنفيذ الاحكام وتعطي الاشارة الى الالهـه ٠

Jean . Op . Cit . P. 226

(٣٢) عبد الواحد (د٠ فاضل) : المصدر السابق ٠ ص٨٢ج

نشأة وتطور المجتمع الريفي في العراق القديم

الدكتـور
يونس محمد فتـاح
رئيس فرع الدراسات الاجتماعية

الفصـل الاول

١ ـ المقدمـة :

ان دراسة نشاة وتطور المجتمع الريفي في العراق القديم لـه مـن الاهمية بمكان لاظهار دور العراق الحضاري القديم في مساهماته العديدة في بناء وتطور هذا المجتمع والذي تميز باختلافات واضحة عـن الحياة المدنيـة ٠

ان طابع المجتمعات الريفية وتطورها تعتبر ظاهـرة متميزة بسمات تختلف فيها عن طابع المجتمعات الحضرية ٠ من بين تلـك السمات التأثير الكبير بالطبيعة واثرها على الحالة النفسية التـى كان عليها ابناء ذلـك المجتمع الريفي لعيشهم وسط بيئة تفتقر الى ابسط مقومات الحياة البشرية التي اشار اليها العالم العربي ابن خلـدون ٠

كل ذلك دفع سكان وادي الرافدين الى النهوض «بمجتمعهم الريفي» الذي يعتبر ذلك حاليا كعلم من فروع علم الاجتماع الـذي يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية الناشئة عن تجمع الافراد في البيئات الريفية ، وعـن

اتصال سكان الريف بالحضر • كما ويعتبر ذلك احد الاختصاصات الدقيقة التي تطبق الاسس والظروف العلمية للبحث في دراسة الريف ، والحالة الاجتماعية والزراعية لساكنيه • اذن فالمجتمع الريفي يهتم بالدراسة العلمية للناس الريفيين من خلال علاقاتهم الاجتماعية ومن خلال مقوماتهم وخصائصهم واختلافها عن الحياة المدنية • فهو يدرس النظم الاجتماعية في الريف ، والمشاكل التي تواجه هذه النظم فيما لو اريد احداث تغيرات في المجتمع الريفي ، ويدخل ضمن موضوع المجتمع الريفي مواد عديدة كالتنمية الريفية ، والقيادة الريفية ، وانتشار الافكار والمتغيرات الاجتماعية والزراعية اضافة الى دراسة موضوع الهجرة بكافة اشكالها •

لقد اعتبر علم الاجتماع الريفي نبتا امريكيا خالصا منذ سنة ١٩٥٨(١)• هذا مع العلم ان اجدادنا العراقيين القدماء كانوا قد اهتموا بنشوء هذا العلم ومجتمعه منذ العصور الحجرية والسومرية والكلدانية والاشورية •• الخ وقد ارخ الكتاب العديدون هذا الاهتمام بكتب ومجلدات موجودة في مكتباتنا العالمية التي تزهو بفخر اجدادنا الذين لهم كل الفخر لهذا الاهتمام ، من هنا اتت اهمية هذه الدراسة فالابحاث المستلهمة من تراثنا وبناء الاستنتاج المنطقي واحيائها وتنسيقها وتفسيرها ستعلمنا بما ابقاه السلف من تراث قيم يجب احيائه•

لقد تم التركيز في هذا البحث على اظهار الجوانب والنقاط المهمة التي اوردها الكتاب والمؤرخون بهذا الصدد معتمدا في تعضيدى لذلك على الملامح العامة والمقومات الاساسية للمجتمع الريفي سابقا ولاحقا ذات العلاقة بالعوامل الايكولوجية البشرية ، العمل الزراعي ، التفاعلات الاجتماعية ،

والامور الاجتماعية الاخرى التي ستوضح في الفصول الاربعة القادمة .

وقبل القاء الضوء على تلك المقومات والخصائص العامة لابد من اعطاء نظرة عامة لتأريخ العراق الحضاري القديم الذي تدلل بصورة عامة على مدى الاهتمام بالمجتمع الريفي منذ اقدم العصور الحجرية .

٢ ـ نظرة عامة في تأريخ العراق الحضاري القديم للدليل على مدى الاهتمام بالمجتمع الريفي منذ اقدم العصور الحجرية :

ان التأريخ واجهة الحضارة الانسانية والحضارة نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة في انتاجه الثقافي(٢) .

لقد شهد العراق في مناطقه المختلفة نشاطا انسانيا متزايدا منذ اقدم العصور الحجرية كما عرفت اقسامه الشمالية اولى محاولات الانسان في اقدم الزراعة وتدجين الحيوان وبناء البيوت الريفية وصناعة الفخار ، فكانت هذه الخطوات من مسيرة الانسان الاساس الذي انتقل بواسطته من عصور الوحشية الى البربرية ، او من مراحل جمع والتقاط القوت Food gathering الى المراحل الانتاجية Food Produchion (٣) .

هذا هو الدليل الاول الذي يبين لنا اهتمام ابناء الرافدين بالمجتمع الرفي ، وبذلك فوقف الانسان نتيجة ذلك على أعتاب الحضارة . ولم يشعر العراقيون القدامى بالكلل او التعب وانما واجهوا متطلبات الحياة الجديدة المبينة على الزراعة وتدجين الحيوان بكل صبر وجهد وتفكير فعهدوا لمواجهة كل التحديات التي فرضها الواقع الجديد والتغلب على كل المعوقات التي اعترضت مسيرتهم(٤) .

الدليل الثاني ، اذ بمرور الزمن ففي العراق القديم ، برز العراقيون وجودهم على الارض بالمخترعات والمبتكرات والاكتشافات الجديدة ، فطوروا بذلك وسائل الانتاج التي مكنتهم من الاستفادة المتزايدة من المعطيات الطبيعية بشكل افضل، فمن صناعة الاواني الفخارية المختلفة المزخرفه،.. الى ابتكار وسائط جديدة للنقل والحرث والزراعة والرعي ، الى تدجين اعداد من الحيوانات . ان هذا التقدم قد انعكس اثره على حياة الانسان ، فغير كثيرا من نظرته الى الوجود ككل ، والى الطبيعة بحالاتها المختلفة ، والمادة بأشكالها المتعددة ، كما شملت نظرته ذاته والمجتمع الذي عاش فيه ـ الا وهو المجتمع البدائي والذي نطلق عليه اليوم المجتمع الريفي .

ان خطوات الانسان تلك ، هي بمثابة الحجر الاساس لبناء الحضارة الانسانية من المجتمع الريفي الذي سأتكلم عنه من خلال الاثار ومخلفاتها في القرى الزراعية الاولى المتمثلة في المواقع الاثرية في شمال العراق جرمو (منطقة جمجمال) وحسونة[5] (في الثورة) وحلف ، اما عندما استوطن ابناء المجتمع الريفي في العراق الاراضي الفسيحة المليئة بالمستنقعات والاهوار وحيواناتها المختلفة في جنوب العراق ، فواجهته الطبيعة المعطاء الصعبة بالتحديات المتواصلة ، فعمل بجهده لترويضها وتطويعها لرغباته وكانت له الغلبة ... فواجهة التحديات تلك بتطوير الاته وادواته ووسائل مواصلاته البرية والماشية وعموم وسائل انتاجه ... الخ .

ان مرحلة حضارة « جمده نصر » التي تلت الوركاء تعد في عرف الاثاريين اخر مراحل التطور للقرى المتنامية ـ اى لتطور المجتمع الريفي ـ وعندما تبلورت الظروف للانتقال الى عهد تاريخي وحضاري جديد يتمثل

في عصر فجر السلالات او بتسمية اخرى ، عصر دويلات المدن ـ والتي نطلق عليها حاليا بالمجتمع الحضري ٠

استغرق ذلك العهد من التأريخ مدة تقارب ستة قرون (٣٠٠٠ـ٢٤٠٠ق٠م) وانتهى بالسيطرة السياسية الموحدة على جزر البلاد متمثلا بالدولة الاكدية، تلتها الاموية ، ثم الاشورية ٠٠٠ واخيرا الكلدانية الارامية(٦) ٠

الفصل الثاني

الايكولوجية البشرية :

في هذا الفصل سنوضح علاقة الانسان بالبيئة التي عاش فيها انذاك ومدى تأثيرها عليه والتي يمكننا توضيحها بتأثير البيئة ٠ اما انماط العمل الزراعي للانسان في تلك البيئة هو ما نطلق عليه بالمهنة او الحرفة ، ومن الضروري ايضاح الاثار المترتبة على استيطان ذلك الانسان القديم في تلك البيئة ومزاولته لحرفة الزراعة ، ولعدم وجود وسائط النقل آنذاك سببت له العزلة النسبية ٠

وفيما يلي شرح مفصل لمقارنة السمات العامة والمقومات الاساسية للمجتمع الريفي سابقا ولاحقا ضمن المحاور الثلاثة البارزة اعلاه وهي :

تأثير البيئة :

ان البيئة الجغرافية تعتبر العامل الاول في نشوء الحضارات في العراق ، اذ استغل الانسان تلك البيئة وصار ينتج القوت والزراعة بيده، واخذ يقلل اثر البيئة المطلقة بانتقاله الى الحضارة حيث بدأ يسيطر عليها

منتقلا بذلك الى السيطرة على بيئته الاجتماعية بايجاد الحلول لمشاكل المجتمع الناشيء ، والذي نطلق عليه بالمجتمع الريفي(٧) .

كان لحضارة وادي الرافدين الاثر الكبير على ممارسة العمل الزراعي بنشاطاته المختلفة ولما كانت الزراعة تعتمد على تنظيمات الرى في المستوطنات الجزرية التي لها الاثر الكبير في انتعاش العمل الزراعي وصدور انظمة وواجبات الفلاح وعلاقته بالاخرين بالنسبة للرى . ولتوسيع رقعته الزراعية اتقنوا هندسة الرى لشق الجداول السيحية ونقل المياه لمسافات طويلة لرى الاراضي سيحا . كما ان اتقان وسائل رفع المياه الى الاراضي المرتفعة ادى بهم الى اختراع الدولاب واستخدام الطاقة المائية والحيوانية في تدوير النواعير المائية التي تدار بتيار الماء التي كانت منتشرة في منطقة عانة القديمة ـ التي غمرت بالماء ـ ومنطقة هيت هي من اختراع الجزريين. هذا وذكر سوسة ان دراسة العوامل الطبيعية وتأثيرها على الحياة الزراعية كمعرفة موسم الفيضان وتتبع الاحوال الجوية والحركات الفلكية وما الى ذلك من الامور المتصلة بالزراعة لتعيين مواسم زراعة المحاصيل الصيفية والشتوية وتدجين الحيوان ، واستخدام الطاقة الحيوانية اثرها في ذلك ، وقد تمخض عنها تأسيس القرى الريفية على ضفاف الانهار وتجميع السكان في مجتمعات تتولاها الانظمة والقوانين في معالجة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية(٨) ... هذا التجمع السكاني على ضفاف الانهار هو ما نطلق عليه بعلم الاجتماع الريفي ـ بالقرية الخطية ـ والتي فيها يبني الفلاحون بيوتهم على طول طريق هام للمواصلات او نهر وبذلك تأخذ القرية شكلا خطيا .

لقد تمكنت خصائص النهرين الطبيعية بتاريخ توزيع المستوطنات البشرية وتركيزها بالدرجة الاولى على الفرات ، ولاسيما في مراحل الاستيطان الاول في السهل الرسوبي ما بين الالفين الخامس والثالث ق٠م(٩) ٠

ولتأثير الطبيعة على الحياة الزراعية فقد اهتم سكان العراقيين القدامى بذلك واعدوا «تقويم زراعي» وهو التقويم السومري الذي عثر عليه من خرائب احدى المدن القديمة ٠ ويعد أول تقويم زراعي في العالم(١٠) ٠ ومن المدهش ان الاوصاف التي ينطوي عليها هذا التقويم يدل على ان طرق الزراعة والرى التي كانت تمارس في تلك الازمان لاتختلف في شيء عن طرق الزراعة او الرى التي يطبقها الفلاح العراقي في الوقت الحاضر ٠

يشمل هذا التقويم على نصائح وارشادات يوجهها احد المزارعين الى ولده بما ينبغي القيام به خلال أعماله الزراعية السنوية كطريقة ادارة شؤون مزرعته وطرق اعداد الارض وانجاز عملية الحراثة وتنظيم الري كي يحصل على اجود منتوج واوفر محصول وقد دونت هذه الوثيقة التي يرجع تأريخها الى ما قبل اكثر من اربعة الاف عام على لوح من الطين يتكون من ١٠٨ أسطر بالخط المسماري باللغة السومرية ٠ تتناول السطور الستة التي تلي المقدمة على اعداد الارض بترطيبها ليسهل العمل فيها ٠ وهذا على ما يظهر من النص تقع في حزيران وتموز ٠ من هذا يستدل على ان المقصود هنا هو المزروعات الشتوية كالقمح والشعير ، علما بأن الارض لم تكن مزروعة في السنة السابقة عملا بنظام زراعة ـ النير والنير ـ ان اتباع هذا من ذلك الزمن لعدم معرفة الفلاح باستعمال الاسمدة والمخصباة لزراعتها

سنويا وتستمر الارشادات بالنصائح المتعلقة بطريقة السقي كبذل العناية لئلا يرتفع الماء ارتفاعا كبيرا فوق الحقل والمحافظة على السواقي والاخاديد ثم يلي ذلك عملية تطهير الحقل من الحشائش وجذور النباتات المتروكة من الموسم السابق ثم تأتي عملية الحرث فيعمل افراد اسرة الفلاح والمساعدين والاجراء بتهيئة الآلات والادوات البسيطة الضرورية للقيام بذلك(١١) ونسبة للزمن من ذلك الوقت ، فأن سرد الوقائع التي يظهر الحقائق الثابتة بقوة اشد من قوة اظهار الاختلافات التي يسببها الوقت والزمن الحالي(١٢) .

ان التأثير بالبيئة في الوقت الحاضر لاتختلف عن التأثر بها في الزمن السابق فقد تتعرض المزروعات الى الاصابة بالحشرات والامراض النباتية او الى الفيضانات او الامطار او شحتها مما قد يؤدى الى اهتمام الفلاح في علاج ذلك مثلما كان يفعل ابناء الرافدين القدامى والا ادى ذلك الى قلة الناتج ، ان تأثير البيئة على المجتمع الريفي لايعني ان الانسان يقف مكتوف الايدي تجاه هذه العوامل لذا عمل وسعى اجدادنا القدامى في الالف الرابع قبل الميلاد على الاهتمام بسكان المجتمع الريفي بما ابدوه في التغلب على استغلال الارض وحراثتها وسقيها ووضع التقويم الزراعي . اما في الوقت الحاضر فأن أهتمام حكومة الثورة بالمجتمع الريفي ينبع من وجه المقارنة بالجهود الكبيرة المتمثلة في استصلاح الاراضي واقامة المشاريع الكبرى للري من اجل السيطرة على المياه الزائدة اثناء الفيضان . كما ان التقدم العلمي في مكافحة الافات الزراعية له الدليل الاكبر على ذلك وخاصة ان العراق يعتبر اول دولة عربية استخدمت الطائرات الزراعية في مكافحة

الافات الزراعية التي تستوجب المكافحة • هذا وان اهتمام حكومة الثورة بالمجتمع الريفي حاليا له جوانبه اللامحدودة •

٢ ـ الحرفة او المهنة :

انقضى عهد السومريين لكن حضارتهم لم يقضى عليها ، اذ انتقلت على طول مجرى دجلة والفرات حتى وصلت الى بابل واشور وكانت هي التراث الاول لحضارة الجزيرة • في حضارة سومر اخرجت الحقول بريها وزرعها محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضر الكثيرة المختلفة ، وظهر عندهم المحراث من اقدم العصور تجره الثيران ويتصل به أنبوب مثقوبة لبذر البذور • وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها اسنان من الطران تفتت القش ليكون علفاً للماشية ، وتفصل منه الحب ليكون طعاما للناس • لقد كانت هذه الثقافة ثقافة بدائية من نواحي كثيرة هو ما تطلق عليه المجتمع البدائي او المجتمع الريفي وكانوا يصنعون من المعادن المناجل لتقطيع الشعير • وكانت البيوت تبني من الغاب تحلوه لنبات من الطين والقش تعجن بالماء وتجفف في الشمس وهذا ما معروف عن بناء الدور الريفية حتى الوقت الحاضر ، وكان لهذه الاكواخ ابواب من الخشب تدور في ارقاب منحوته في الحجارة • وكانت ارضها عادة من الطين وسقفها مقوسة تصنع من الغاب المثني الى اعلى او مستوية مغطاة بالطين فوق دعامات من الخشب •

وكانت البقر والضأن والمعز والخنازير تجول في المساكن في رفقة الانسان البدائية • وكان ماء الشرب يؤخذ من الابار(١٣) • ويمكن تصنيف

السكان العراقيين القدامى من حيث نمط حياتهم وظـــروف معيشتهـــم الخاضعة الى أربعة حرف وهي :

أ ـ الرعـاة : وموطنهم الاصلي بادية الشام وهم الذيـن اتخذوا حرفة الرعي بعد تدجين الحيوان وهي الحرفة التي توجب التنقل والبحث عن المراعي في مختلف المواسم ، وهؤلاء وجدوا في كافة انحاء العراق . هذا وقد وردت في النصوص السومرية المتقدمة كلمة «راعي» هي من اصل جزري وان هذا يشير الى التجارة بتربية الاغنام والماعز كحرفة منذ اقـدم تلك المجتمعات في بلاد سومر(١٤) .

ب ـ احتراف الزراعة : ظهر ذلك في المناطـــق الجبلية والسهول شمال العراق لاعتمادهم على المطر في انضاج مزروعاتهم ، وادى الى ارتباطهم بالارض وتأسيس القرى الريفية لاول مرة منذ اقـــدم العصور . كما ان وجود العيون المنبثقة من المياه ، اضافة الى توفر المطر الوفير ساعدت عـلى الاستقرار في جوار تلك العيون للتمون بالماء منها بالصيف. ويرى الباحثون في نشؤ الحضارة وتطورها ان تدجين الحبوب البرية واختراع الزراعة قد حدث قبل استئناس الحيوان واحتراف رعي الماشية ، عدا تدجين الكلب الذي كان يحرس الانسان ويعنيه في صيد الحيوانات البرية(١٥) .

جـ ـ هيئة الماء : وهي الجماعات الجزرية التي استقرت على شواطيء نهر الفرات بعد ان نزحت من شبه جزيرة العرب الى موارد الماشية اثـــر الجفاف والجذب اللذين حصلا منذ حوالي ٢٠٫٠٠٠ سنة ق.م في الجزيرة العربية فأن هؤلاء اول من اسس الثقافات النهريـــة والحياة الزراعيـــة الاروائية على ضفاف نهر الفرات وهي هيئة المـاء كما نعتها بعض المؤرخين الباحثين مثل محمد عزة ...

د ـ اهل البطائح والاهوار والمستنقعات ، وهم الصف الرابع ، انهم سومريون ومعظم هؤلاء كانوا يرعون الجاموس ويزرعون الارض المجففة في الاهوار والمستنقعات ومنطقتهم كانت هور الدلج وهور الزهرة وهور الجاموس وهور عفك وهور لفتة وهور الكطية(١٦) .

٣ ـ العزلة النسبية :

مر السومريون بثلاث اطوار في طريق تكوين حضارتهم :

الطور الاول بدأ في اوائل عهد استيطانهم حين اخذوا يعملون على توطيد حياتهم الزراعية البدائية في منطقة الاهوار ، وقد كانوا من القلة في هذه المرحلة بحيث لم يستطيعوا ان يساهموا في التقدم الحضاري ، اذ كان عليهم ان يثبتوا اقدامهم في هذه المنطقة الصعبة وهم في صراع دائم من عزلتهم هذه من اجل البقاء . « فلقد كانت مأرب نهرى دجلة والفرات سهولا نغمرها المستنقعات ، وتستوطنها الحميات ، والوحوش الخطرة والافاعي السامة وعدد لايحصى من الحشرات وبهذا فرض على القبائل السومرية للانتقال الى سهل بابل خلافا لرغبتها وللتخلص من ضغط القبائل الاخرى المتفوقة عليها من ناحية القوة ، ـ فانعزلت نسبيا ـ لحصولها على الامن لها في مستنقعات الوادي ، مثلما وجد اعداء الاشوريين مأمنا لهم في مستنقعات الفرات الادنى»(١٧) .

اما الطور الناني بدأ باهتمام السومريون بالماشية وتجفيف المستنقعات واستغلال اراضيها بالزراعة .

اما المرحلة الثانية : الاعتماد على زراعة السهول في الجنوب ، وشق الجداول الطويلة فى نهر الفرات وايصال المياه بها الى الاراضي الزراعية .

ومنها خرج السومريون من عزلتهم من الاهوار الى السهول الفسيحة الممتدة على مجرى نهر الفرات القديم الذي كان يجري بين نهر دجلة وشط الحلة الحالي • مما ذكر يظهر ان السومريون قد استغلوا مناطق ذات سعة جغرافية متعددة لهذا المجتمع الريفي • فبالطبع ان سعة المساحة الريفية تعقبها ردائه في طريق المواصلات والاتصالات يجعل المجتمع الريفي بمعزل عن المجتمعات الاخرى اضافة الى ذلك ان منطقة الاهوار بحكم موقعها الجغرافي المتناثر يجعل حياة سكانها متميزة بالعزلة النسبية وهذا مما يدلل على انطباق هذا المؤثر على ابناء المجتمع الريفي الساكنين من تلك المناطق وكذلك صعوبة تنقلهم ما بين الاهوار والمناطق الاخرى كما ان وجود عبارة القبائل ما هو الا دليل اخر على ان ذلك المجتمع هو ريفيا هذا وذكر سوسة بأنه في الطور الثالث تميزت هذه المرحلة من حياة السومريون بتغير جوهري في الانتقال الى الزراعة البطائحية المقتصرة على تجفيف الاهوار واستصلاح اراضيها ولزراعة السهول بعد ايصال المياه من نهر الفرات لتلك الاراضي هو استمرارهم بالحياة الاجتماعية الريفية(١٨) •

الفصل الثالث

العمل الزراعي :

دلت التنقيبات الاثرية على ممارسة الحياة الزراعية في العراق قبل حوالي عشرة الاف سنة في المنطقة الشمالية بعد تدجين سكان هذه المناطق للحبوب البرية اما في المنطقة الوسطى والجنوبية فأن الجزريين اسسوا اول مستوطناتهم قبل حوالي ستة الاف سنة بالاعتماد على تنظيمات الري وممارسة الزراعة المرتكزة على شرائح تناولت واجبات الفلاح وعلاقة الذين لهم صلة بالعمل الزراعي(١٩) •

لذا وجب اثبات اولا عدم التخصص في العمل الزراعي ، وأخيرا توضيح نص اقدم خارطة لنمط الحياة الريفية :

١ ـ عدم التخصص في العمل الزراعي :

مما كان يعيق الانسان بالزراعة في العصر الحجري الحديث وما تلاه هو صغر مساحة الارض التي يزرعها وذلك لاهتمامه بالاكتفاء الذاتي في الانتاج للعائلة الواحدة بحيث ينتج حاجتها من القوت ويصنع ادواتها البسيطة الساذجة وكل ذلك صفات لاتعمل على ظهور التخصص(٢٠) . ومع ذلك فأن الانسان القديم من وادي الرافدين قد تطورت حياته المعاشية بتغيير اسلوب عمله من ذلك المجتمع الريفي اذ ان العمل الزراعي يتطلب اشتراك كافة افراد العائلة الواحدة ، رجالا ونساء كبارا وصغارا والتقسيم في العمل الزراعي غير دقيق لترابط وتماسك افراد الاسرة الريفية في العمل الحقلي سابقا ولاحقا(٢١) وهذه من الصفات البارزة للمجتمع الريفي . هذا وقد توصل علماء الاثار نتيجة مكتشفاتهم الى الاستدلال على ثلاثة انماط معاشية متعاقبة الاطوار من مجرى الانسان القديم من تنازعه من اجل الحياة باحثا عن الطعام فوضعوا حدودا زمنية لفترة هذا التطور وهي :ـ

١ ـ عصر القنص والصيد : كان الانسان القديم في هذا العصر يعتمد في غذائه على القنص والصيد ، فيصيد الغزلان والثيران الوحشية وكذلك المعز والاغنام الوحشية . والى جانب هذا كان يقطع ثمار وجذورا واعشاب برية مندفعا وراء الحافز الغريزي عملا بسنة التنازع من اجل البقاء ، واستعان بالادوات والسهام والحراب والاقواس من الاحجار ثم بعد ذلك

باجيال طويلة استعمل المعادن ، وكانت الحاجة تدفعه الى اختراع هـذه الادوات وتطويرها بالابتكار والتجديد(٢٢) •

٢ ـ عصر الرعي • لما وجد الانسان القديم ان صيده لايكفيه اخذ بطريقة تربية ما يصيده من الحيوانات والعمل على تكثيرها وذلك بتدجينها بحيث تصبح انيفة فاخذ يربي الماعز وبعدئذ الاغنام بقصد الاستفادة من لحومها وجلودها واخيرا استجلب هذه الحيوانات وجز صوفها ثم بدء بدجن الخنزير والثور وبهذا توافر لديه اللحم والدهن والحليب الى جانب ما كان يجمعه من ثمار واعشاب وجذور فضلا عن توفيره اللباس والكساء والغطاء•

ولكن سرعان ما وجد ان ما دجنه يحتاج هو الاخر الى الطعام فاخذ يبحث عن الكلاء له بالتعرف على اماكن الرعي حتى اذا جذبت الارض رحل عنها من مرعى الى آخر ، كل ذلك اثباتات عديدة الى عدم التخصص في العمل الزراعي الذي هو مبدأ من مبادىء ظهور المجتمع الريفي الى الوجود•

٣ ـ عصر الزراعة : اما الطور الثالث فهو يبدأ حين بدأ ذلك الانسان يفكر في اعداد الطعام الى عائلته من مقر استيطانه ، فأخذ يجرب حفر في الارض ليضع فيها بعض البذور ، فأذا سقط عليها المطر انبتت واخضرت ثم نمت فاينعت حتى اذا نضجت جاءت بالثمر لطعامه وطعام ماشيته ، ثم اخذ الانسان يبحث عن وسائل اصطناعية لارواء مزرعته عندما تقل الامطار فأخذ يحفر الجداول ويخزن المياه ويقيم السدود وينشيء السداد لوقاية مزارعه من الغرق (٢٣) •

لقد كان لاختراع الة الحرث اثر في خطو الانسان خطوات ناجحة نحو التقدم الحضاري • ان تلك الانماط الثلاثة التي اوردها علماء الاثار منذ

الالف الرابع قبل الميلاد لتعد بحق من النظريات الصادقة على اهتمام ذلك المجتمع في العراق فعلم الاجتماع الريفي ، وما استدلال ابن خلدون عن ذلك فانما يعود لوصف هذه المجتمعات بصورة عامة ٠

ان ما ذكر اعلاه يثبت فعلا ان الانسان من عراق الرافدين منذ العهود السابقه كان يقوم بالاعمال الزراعية المختلفة وهذا يدلل على مبدأ عدم التخصص في العمل الزراعي والذي هو من المبادىء المهمة المعمول بها في دراسة علم الاجتماع الريفي ٠ وهناك اسناد آخر لما ذكر اعلاه الا وهو ان من يريد ان يدرس شيئا عن مبادىء علم الاجتماع او الاجتماع الريفي ان يكون ملما وعلى بينة بالمراحل التأريخية التي مر بها العمل او التفكير الاجتماعي حتى اصبح بصورته الحالية ، واكبر دلالة على ذلك هو ما اسهمت به حضارة وادي الرافدين في تطوير الفكر الاجتماعي والتي كانت تسمى ميسوبوتيميا (اى مابين النهرين) ٠ فلقد نشأت في العراق القديم فلسفات على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لمقومات الحياة الاجتماعية ٠

هذا ومن المعلوم ان الفلاحين في مجتمعاتنا الريفية وفي مجتمعات اخرى يقومون في الوقت الحاضر بعملية حراثة الارض وتعديلها ثم زراعة المحاصيل المختلفة وارروائها والاعتناء بها كأجراء التعشيب والتسميد والعزق ٠٠ الخ ٠ حتى جني المحصول وتسويقه من ذلك يدل ان عليه القيام بالعمليات الزراعية وبضمنها العناية بالثروة الحيوانية ٠٠٠ ذلك يبين او يدلل على عدم تخصص الفلاحين في العمل الزراعي وهذا ما يؤيد قيام اجدادنا القدامى من تلك الازمنة القديمة بالاهتمام بالمجتمع الريفي طالما يعتبر هذا المبدأ – (عدم التخصص في العمل الزراعي) – احد الجوانب التي يرتكز عليها

للتميز ما بين علم الاجتماع الحضري وعلم الاجتماع الريفي .

واخيرا اكد باقر (ان التخصص الصحيح لم يبدأ الا انه من المحتمل جدا ان نوع من تقسم العمل البدائي كان موجودا في حياة انسان العصر الحجري الحديث ولاسيما بين المرأة والرجل) . فالمرأة كانت تزرع البذور وتطحن الحبوب وتطبخ وتغزل وتصنع الملابس ، اما الرجل فعليه حرث الحقل والعناية بالحيوانات ورعيها وصيدها وبناء البيوت وصناعة الادوات الضرورية والاسلحة وحماية البيت ولتجمع ذلك الناس نشأت العائلة ، وظهر المجتمع البدائي في ذلك العصر[٢٤] ، وبذلك ممكن ان نطلق عليه المجتمع الريفي لمزاولة الجنسين من ذلك المجتمع الاعمال الزراعية .

٢ ـ سيادة العمل الزراعي :

ان ما يدلل على سيطرة العمل الزراعي في العراق وحدوث انقلابا خطيرا في حياة البشر هو باهتدائه الى الزراعة وتدجين الحيوانات وكان ذلك في بداية الالف الثالث ق . م [٢٥] .

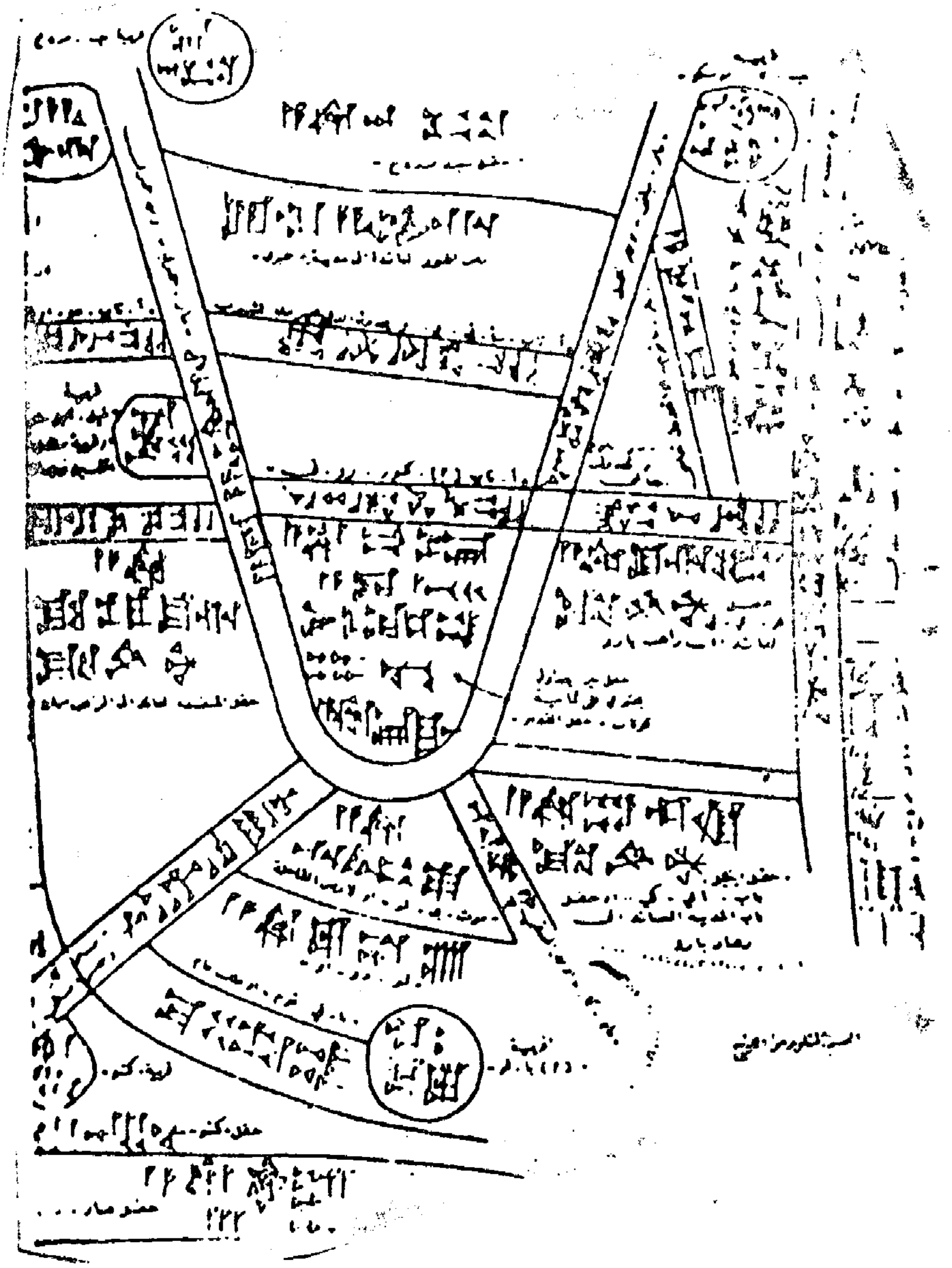
هذا ويشير ايمار الى تبوء الزراعة مركزا مرموقا ، الاول دون شك، فقد مسحت الارض وسجل كل تغير يطرأ على تقسيمها وملكيتها وطرق استثمارها ، وحفرت قنوات الري ، ونظم اسس توزيع المياه ، ومعاقبة كل اعمال أو غش يلحق الضرر بالاخرين ، وحددت شروط الزراعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار من تقلبات الجو بين المالك والمستأجر والمزارع ، ومبلغ اجرة الفلاح ، والبقار والمراعي ، وبدل استئجار ثور او حمار .... الخ كل ذلك يعزز مهد حضارة بلاد ما بين النهرين بالزراعة اما خصب اراضيها فقد افاد هيرودتس وسترابون بأن الحبوب كانت تعطي

نخلة تعادل ٢٠٠ او ٣٠٠ وحدة • والى استخراج الزيت من السمسم ونباتات اخرى ، وشدد سترابون على اعداه شجر النخيل ومنافعه المتعددة كاستخراج الخل ، والخمرة ، وعسل التمر والاستفادة من الالياف للنسيج ، ومن نواة البلح وقودا للحداد ، وبطبخها تغدو علفا للحيوانات وعرف البشر في حضارة وادي الرافدين تلقيح النخيل وتدجين الثور البري والضأن وطيور القن ... وعرفوا الذرة(٢٦) •

كما ان اهتمام العراقيين القدماء بالاعمال الزراعية في عهد السومريون يبرهن على اهتمامهم بالمجتمع الريفي نظرا لكون العمل الزراعي آنذاك هو احد سمات هذا المجتمع الذي نتكلم عنه • وقد اورد الهاشمي النصح للفلاح في ذلك العهد بكتيب الارشاد الزراعي عن كيفية حرث التربة وموعد ذلك وعملية البذر ، والسقي والحصاد والدراسة والتذرية كل ذلك وجدت في وثيقة مدونة بنسخ ومقتطفات عديدة قسما منها لا يزال مدفونا في خرائب سومر • اما انواع الحبوب التي زرعها السومريون فتتألف من الشعير والحنطة والدخن والحمص والعدس ، وكذا الثوم والخس واللفت والرشاد والكراث والخردل وانواع من القثاء • واهتمامهم بالنخلة وانواعها البالغة آنذاك مائة وخمسون • اضافة الى تربية الحيوانات المختلفة كمصدر للغذاء والكساء والقسم الاخر للنقل • اما الاغنام فقد وصلت انواعها الى مائتي نوع • اما صيد الاسماك فكانت مهنة هامة جدا وبلغ انواعها في ذلك الوقت خمسين صنفا(٢٧) •

ومما يبرهن على اهتمام اجدادنا بالعمل الزراعي هو وضعهم لاقدم خارطة للجداول والحقول الزراعية والقرى الريفية ـ وفيما يلي النص الكامل لنمط حياة المجتمع الريفي آنذاك •

اقدم خارطة توضح نمط الحياة الريفية السومرية



تلقي هذه الخارطة القديمة التي تعود الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد ضوءاً على طراز الحياة الريفية التـي عاشها السومريون والبابليون

في حقولهم الزراعية عثر عليها في خرائب مدينة «نيبور» (نفر) السومرية، فتوضح تفاصيل نمط حياة المجتمع الريفي القديم في منطقة « نيبور » وكيفية تنظيم شبكة جداول الري وتقسيمات المياه وتثبيت مواقع وملكيات الحقول الزراعية والقرى مع ذكر اسمائها ، ولم تهمل الخارطة تحديد المواقع العامة المشاع استعمالها من مجموع سكان المنطقة كالطرق والمراعي والأهوار التي ينبت فيها القصب والبردي • وتعد هذه الخريطة تاريخ اقدم خريطة من نوعها معروفة في تاريخ العالم وهي وان كانت تعود الى عهد متأخر الا ان هناك دلالة قاطعة على أن السومريين أتقنوا فن صنع الخرائط في أزدهار حضارتهم وقد أخذ البابليون والكاشيون هذا الفن عنهم • ولعل الغاية الاساسية من وضع هذه الخريطة هي تحديد موقع الحقل الملكي في منطقة «نيبور» بدليل انها وجدت بين السجلات الملكية التي عثر عليها في « نيبور » • ويشاهد موضع هذا الحقل في وسط الخارطة وقد كتب « حقل بين الجداول مساحته ثمانية كولات – حقل القصر » • ويدور حول الحقل جدول يبدأ في الزاوية الشرقية للخارطة فيسير نحو الماء ثم يعود فينحرف الى الشمال الغربي مشكلا شبه دائرة مخروطية الشكل حتى ينتهي في الزاوية الشمالية الغربية من الخارطة • وقد سمي هذا باسم « نار – بيلتي » اي نهر الحمل أو النقل ، ويستدل من هذه التسمية انه الجدول الرئيس الذي تنقل بطريقه المواد الزراعية باهتمامهم للملاحة ، ولاشك ان هذا الجدول كان يتمون من نهر الفرات •

ويلاحظ ان الجداول والفروع رسمت في الخريطة على شكل خطين متوازيين على النحو المتبع في الوقت الحاضر في رسم الجداول للدلالة الماء وحدود الماء ، كما ان القرى رسمت على شكل دوائر كما هو متبع في رسم خرائطنا الحديثة(٢٨) •

الفصـــل الرابـع

التفاعلات الاجتماعيــة :

عند اتصال الانسان بالانسان او جماعة بجماعــة سيحدث تفاعـــل معين بينهم تقوم على اساسه علاقات اجتماعية ايجابية او سلبية قد تباعدهم او تقاربهم . وهذا سيقتصر البحث في هذا الفصل على اهم ما يميز المجتمع الريفي من تلك التفاعلات الا وهي : التعاون ، والكرم او الضيافة ، وهما نوعان من التقارب . او قد ينشأ عند البعض الاخر الصـــراع والتنافس ، فالصراع هو نوع من انواع التباعد ، اما التنافس فهي عمليـــة منشــطة للقوى الانسانية اوجب ايضاح دور كـــل منهـم في نشؤ حضــارة وادي الرافديــن .

١ ـ التعـــاون :

لما كانت حياة الانسان في العصر الحجري القديم شاقة صعبة فقـــد كافح كفاحا شديدا من اجل البقاء ضد قساوة الطبيعة ووحشية الحيوانات الضارية ، وانعدام وسائل الدفاع الطبيعية والعناية بصغاره فأول ماعلمته تلك الظروف ان يكون اجتماعيا ويعيش بتعاون مع غيره ، فاستعمل دماغه وقابلياته في صنع العدد (اى حضارته) ليتغلب بها على الطبيعة ويدافع عــن نفسه(٢٩) . وفي بابل لعبت المبادلة دورا عظيما ، اذ ان الطلب على الاخشاب والحجر هما المادتان اللتان لم تكونا متوفرتين في وادي الرافدين ولايمكــن الاستغناء عنهما في صناعة ادوات العمل البدائية قــد ادى الى نشاط فعال اكثر في المبادلة وهو نوع من انــواع التعاون والتجارة عمـــل عليه ذلـك الانسان لسد حاجته ورغباتــه(٣٠) .

وذكر صموئيل كريم ... بأن السومرين وضعوا قيمة عالية للفرد وانجازاته ، فقد كان هناك عامل بارز يعزز روح التعاون بين الافراد وبين المجتمعات على السواء بتوزيع الرى بقنوات تضمن حقـول كل فـرد . ان ذلك التنويع بالتساوى لم يحصل الا بتعاون كافة الافـراد آنذاك . لذا تغلغلت الحضارة السومرية الى مناطق واسعة فمن ناحية الشرق امتدت الى البحر المتوسط ومن ناحية الجنوب الى الحبشة ومن ناحية الشمال الى بحر قزوين . ان ذلك قد حصل قبل خمسة الاف سنة(٣١) .

من ذلك نلاحظ ان التعاون هو من العمليات الاجتماعية التي يتميز بها المجتمع الريفي ، اذ لايمكن للافراد في اى مجتمع ان يعيشوا منعزلـين متباعدين ، بل يرتبطون بعلاقات وروابط تنشأ مـن طبيعة اجتماعاتهم ، او من تفاعلهم او من رغباتهم او عن طريق احتكاك بعضهم لبعض الاخر . لذا فالتعاون عملية اجتماعية ظاهرة فمن المجتمع الريفي كأن يتظافر جهود شباب القرية على تعبيد طريق يعود بالنفع على ساكني المجتمع الريفي الذين هم من افراده . او تعاونهم عند الحصاد ، او حفر بئر ماء من ذلك نرى ان التعاون في العمل الزراعي في العراق تحتم على توحيد الجداول والمبازل وهو النظام الاقتصادي الريفي الذي مارسه الافراد والعشائـر تحت مفاهيم (العونـة) او الفزعة وهي السائدة وما زالت حتى الوقـت الحاضر(٣٢) . هذا وقد اكد الدكتور علي فؤاد احمد على ان التعاون المتبادل في الريـف وشرحه بما يلي : تتميز العلاقات الاجتماعية في الريف بأنها علاقات قويـة بين الافراد تقوم على اساس معرفة وثيقة وتتشابهه في المهنة والمسؤوليات.

وسكان الريف يعاون لبعضهم بعضا ويتعاونون تلقائيا في مختلـف

المناسبات الاجتماعية والزراعية ، فأهالي القرية يتبادلون الالات ويستعيرونها من بعضهم ..وكذلك يتعاونون في المناسبات العديدة كالافراح او في المآتم او عند حلول ضيف على الاسرة فيتضح مدى التعاون الذي يشارك فيه الاهالي بعضهم في معاونة الاسرة على الوفاء بالتزاماتها الاجتماعية في المناسبات المختلفة(٣٣) .

٢ ـ الصراع والتنافس :

من الامور المهمة التي ظهرت في حياة الانسان في العصر الحجري الحديث ، الملكية الفردية ، ولعل نشوء هذا النظام في نشوء العائلة كما ان زراعة الانسان المتنقلة كان تضطره الى التوسع والاصطدام بالجماعات البشرية التي لم تزل في طور جمع القوت وكذلك الاتصال بالجماعات البشريةالاخرىالمنتجة للقوت، مما أدىالىالنزاع علىالارضوظهورنظامالحرب بابسط اوجهها(٣٤) . كما ان طائفة من الانثرولبولوجين ترى ان الزراعة الخليطة اى الزرع وتدجين الحيوان ظهر نتيجة لغزو جماعات الرعاة للمجتمعات الزراعية(٣٥) .

هذا وان الغزو نوع من انواع الصراع في المجتمعات الريفية الذي لايستوجب التفسير . هذا وتصور ملحمة كلكامش الكثير من اوجه الفكر العراقي القديم فقد يعكس الصراع ككامش وانكيدو صراعا بين الحضارة والبداوة والتي نكشف منها تغلغل العناصر الجزرية القادمة من الغرب ومعارضة السومريين لهم بادىء الامر ومن ثم امتزاجهم في ذلك المجتمع الموضح في نتيجة الصراع (الصداقة الحميمة بين كلكامش وانكيدو) والتي أتت على وحدة الصف ودفن الضغائن وحقن الدماء بالخير والاندفاع للفتح وجلب الغنائم ...

ان تدوين ذلك محدد بزمــــن سرجون الاول الاكــدي (٢٣٢٥ – ٢٢٦٩ ق٠م)(٣٦) ان البداوة جزء من المجتمع الريفي والصــراع صــورة واضحة في المجتمعات الريف مما له الدلالة الواضحة لموضــوع بحثنا منها ايضا ان الحضارة العراقية القديمة التي ازدهرت في جنوب العراق حضارة عربية في الاصل ، اسسها الجزريون العرب النازحون من الجزيرة العربية الى ضفاف الفرات ، ثم اقتبس السومريون (سكان الاهوار) عنهم الحضارة التي اطلق عليها اسم الحضارة السومرية ، وما هــي بسومرية ولكنهـا سومرية – جزرية أو سومرية – أكدية ، وذلك بعد ان اتصل السومريون بالجزريون ، وتشابكت مصالح الطرفين نتيجة ممارستها الزراعة المرتكزة على الري من مصدر واحد (وهو الفرات) مما ادى الى الاختلاط والامتزاج اللذين تمخضت عنهما الحضارة السامرية الجزرية ٠ ويبدو ان الصـراع بين الساميين الذين احتلوا معظم انحاء الشــرق الادنــي واسسوا فيها حضارتهم في مختلف العصور غير الجزريون من اجل السيطرة يرجع الى عصور واغله في القدم ٠ ويؤكد ديورانت مؤلف كتاب (قصة الحضارة) ان النزاع بين الجزرية وغير الجزرية لعبت دورا هاما في تأريخ الشــرق الادنى يرجع الى ما قبل اكثر من ستة الاف عام ٠ ان التنافس الذي قــام بين هذين المركزين الاولين من مراكز الحضارة القديمة اول دور من ادوار النزاع بين السامية وغير السامية(٣٧) ٠

من ذلك الشرح تقول ان الصراع هو المظهر المتطرف للمنافسة وهو عملية اجتماعية غير مرغوب فيها ولكن تظهر في المجتمع الريفي ويجب العمل عـلى تخفيف وطأتها والقضاء عليها ٠٠٠

ومن خلال دراسة الدكتور علي الوردي للمجتمع العراقي ، وجد هذه الظاهرة الاجتماعية والتي سماها بظاهرة الصراع بين البداوة والحضارة • ولقد اجمع علماء الاثار ان العراق كان مهبط حضارة تعد من اقدم الحضارات في العالم • فالعراق قد حظى منذ بداية التاريخ البشرى حضارة مزدهرة • ويمكننا ذكر قصة ادم التي أوردها الباحثون والتي ذكرت في الكتب المقدسة ... فقد نوه توينبي ان هذه القصة رمزية تشير الى الاحداث التأريخية • وخلاصة القصة ان ادم وزوجته حواء كانا يعيشان في جنة عدن منعمين ، ثم عصيا ربهما بتحريض من الشيطان ... فطردهما الله من الجنة ، حيث صار يكسبان قوتهما عن طريق الكدح وعرق الجبين • ورزقهما الله بعد ذلك ولدين هما : هابيل وقابيل • فاتخذ هابيل مهنة الرعي بينما اتخذ قابيل مهنة الزراعة وجرى بين الاخوين نزاع فقتل قابيل اخاه هابيل •

هذه القصة تمثل الحالة المطمئنة التي كان البشر يعيشون فيها قبل انحسار العصر الجليدى • اما النزاع بين قابيل وهابيل فيمثل الصراع الذى حدث بعدئذ بين البداوة والحضارة •

اما وليم ويلكوكس فقد ذهب في هذا السبيل الى مدى ابعد مما ذهب اليه توينبي ، اذ هو حاول ان يحدد موقع جنة عدن تحديدا دقيقا ، وتوصل بتحرياته الى القول بأن تلك الجنة كانت العراق وفي الفرات الاوسط وعلى وجه التخصص(٣٨) •

الفصـــل الخامس

الامور الاجتماعية الاخـرى :

في هذا الفصل سنوضح ثلاثة امـــور اجتماعية بارزة في المجتمعات الريفية بصورة عامة ، وظهورها في حضارة وادي الرافدين بصورة خاصــة الا وهي : الفوارق الاجتماعية بساطة المؤسسات الاجتماعية ، واخـــيرا التماسك الاجتماعي والنظم الاجتماعية • وفيما يلي شرح لكل منهم عـــلى انفراد وعلاقتها بموضوع دراستنا •

١ ـ الفـوارق الاجتماعيــة :

بين طــه باقر بأنه في حدود ٤٠٠٠ سنة ق٠م في عصور ما قبل السلالات الحاكمة بهيئة امراء وملوك في كل من العراق ومصر نشأت طبقة جديدة من الناس عاشت في القرى المتسعة وتخصصت بالصناعات البدائية فكانت طلائع الاختصاص • واقتصر امـر الفلاحين على الانتاج الزائد لمبادلته بالصناعات الجديدة ومن هؤلاء الصناع والتجار ٠٠٠ وغير ذلـك من الطبقات التي تكاثرت آنذاك(٣٩) •

وكذلك اكد طه باقر على « ظهور طبقات من المجتمع القروى تتخصص بنواحي اخرى من الانتاج الزراعي لتوسيع امكانية ذلـك الانتاج »(٤٠) • هذا التأكيد يثبت امرين الاول وجود الطبقات الاجتماعية الذى يدعـــم ان هناك فوارق اجتماعية والامر الثاني هو ذكره لكلمة المجتمع القروى هـــو بالضبط المجتمع الريفي والذى نحن بصدد اثبات وجود هذا المجتمع الريفي في العراق القديـم •

وفي صفحات اخرى من نفس المصدر يبين المؤلف وجود ثلاث طبقات في الزمن البابلي القديم : الطبقة الاولى كانت مؤلفة من الاحرار وهم الطبقة العليا في المجتمع وحريتهم مطلقة ، والطبقة الوسطي وكانت تتألف من الاحرار الذين كانت حريتهم مقيدة ، وتتألف الطبقة الثالثة من الارقاء وقد وردت هذه الطبقة واضحة التقسيم في شريعة حمورابي • ومن الفوارق الاجتماعية الموجودة بين هذه الطبقات هو ان التزاوج بينهم قليل الوقوع وقد يحدث بصورة سرية كما ان العقوبات يختلف تطبيقها على هذه الطبقات فعندما يحدث افراد الطبقة الممتازة الاضرار باحد افراد الطبقة الوسطى فيدفع ضريبة او تعويض او دية وهذا ما معروف عنه ومنتشر في المجتمع الريفي ، اما لو وقعت الاضرار على الطبقة الممتازة من الطبقة الوسطى فيطبق مبدأ القصاص (اى العين بالعين والسن بالسن)(٤١) •

اما الهاشمي فقد بين بأن المجتمع السومرى كان ينقسم الى ثلاث طبقات هي : طبقة الاحرار وتضم رجال الدين ، والطبقة المتوسطة وهم من الاحرار ايضا ، ثم طبقة العبيد وكان اكثرهم من اسرى الحرب • وكان للاحرار حقوق امتلاك العقار والتصرف بالدور والبساتين واحواض الاسماك واقتناء الحمير والغنم المعزى ، وكانوا يمتلكون الاثاث والادوات وبعض الفضة ، كما كان عدد منهم يمتلك بعض الاراضي • وهناك ما يؤيد ان رجال الدين والحكام مع عوائلهم كانوا يملكون اقطاعات خاصة بهم وكانت اكثر الممتلكات من اراضي وعنز وحيوانات تعود الى المعابد(٤٢) • ان اى مجتمع من المجتمعات يتميز بوجود بعض الفئات الاجتماعية وفي رأينا ان هذه الفئات تتميز فيما بينها في مستوياتها الاجتماعية ووجدانها

الاجتماعي كما وجدناه من السطور السابقة • من ذلك ممكن الكشف عن كون قسم من طبقة الاحرار هم من افراد المجتمع الريفي الذى نحاول دعم بحثنا هذا خاصة لامتلاكهم البساتين واحواض الاسماك وبعض الحيوانات الزراعية ... كما ان الدكتور علي فؤاد احمد يرى ان لمعرفة الافراد الوثيقة لبعضهم البعض في المجتمع الريفي فأن الطبقات الاجتماعية تكون نوعا ما محدودة وواضحة وبالتالي فأن الفوارق الاجتماعية بين الطبقات تكون واضحة ايضا • لكن مما يقلل من حدة هذه الفوارق الاجتماعية في الريف هو شعور الافراد بالانتماء الى مجتمعهم بدرجة قوية تظهر في التعاون والمساعدات فيما بينهم • ومع ذلك فقد ظهر التمايز الطبقي آنذاك بوضوح في المجتمع الريفي المتمثل بالشيوخ والامراء ورجال الدين كطبقات متنفذة مستقلة وبالمقابل برزت طبقات مسحوقة مستغلة تتمثل في العبيد والاجراء •

٢ ـ بساطة المؤسسات الاجتماعية :

كان لاكتشاف الانسان للمعادن في العصور الحجرية له الاثر الكبير في تطوير وتحسين وسائل انتاجه • فتوسعت مجالات الاستثمار الزراعي المعتمدة على طبيعة العراق المعطاء بأرضه الزراعية الخصبة ومياهه الوفيرة واهواره ومستنقعاته التي تعج بثروة حيوانية هائلة تتمثل في الاسماك بالدرجة الرئيسية الى جانب الثروات الزراعية الاخرى • من ذلك كان للعمل دوره الاساسي الفعال ، وكان لابد ان تبرز الى الوجود بسبب متطلبات الاعمال او الظروف مؤسسات ومصالح خاصة ، فظهر المعبد كاقدم متطلبات الاعمال او الظروف مؤسسات ومصالح خاصة ، فظهر المعبد كاقدم مؤسسة في تأريخ العراق القديم وهو الذي يميز تلك المرحلة

الحضارية التي تكشف عن خصائصها في اول موقع اثرى جنوب العــراق (قرب مدينة اور القديمة) .. فبرزت مؤسسات اقتصادية واجتماعيــة ودينية فرضتها عمليات الانتاج الزراعي الواسعة الجديدة . ان وجــود المؤسسات الاجتماعية آنذاك بررت الحاجة الى اختراع وسيلة التدوين والتي افتمدت آنذاك على الكتابة المسمارية(٤٣) .

ان المؤسسات الاجتماعية المنتشرة في المجتمعات الريفية في الوقــت الحاضر تتميز ببساطة تركيبها ، وفي كثير من الاحيان تقـــوم بوظائف محددة . فالمسجد ومركز الشرطة ، والمدرسة والمستوصف ان وجدت فـــي الريف فيكون هيكلها التنظيمي متميز بقلة المراكز الوظيفية وقلة العاملين فيها . اضافة الى ان المهام التي تؤديها هذه المؤسسات اوليـــة وبسيطة مقارنة بالمؤسسات في المجتمع الحضري . من ذلك نلاحظ الترابط الموجود مابين المؤسسات الاجتماعية في العصور الحجرية لحضارة وادى الرافدين والمؤسسات في المجتمعات الريفية الحالية مايؤيد اهتمام العراق القديـم بالمجتمع الريفي وبروز معالمه منذو ذلك الوقت .

٣ ـ التماسك الاجتماعي والنظم الاجتماعية :

بين طه باقر أن شرائع العراق القديم تعتبر اولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد واصول مدونة : كما ان هنالك مـــن العقود والمستندات القانونية التي لها الاثر فـــي تنظيم الهيئة الاجتماعية بموجب العرف القانوني والقواعد المقررة . كما اكـد عـــلى تغلغل النظم والشرائع في حياة العراق القديم في مأثر الملوك والامراء مما وصـــل الينا من كتاباتهم وسجلاتهم لنشر العدل واقرار الشرائع الالهة وحماية الضعفاء

ومن تلك الوثائق عقود الزواج والطلاق والتبني والارث والضرائب والبيع وعقود الدائن والمدين ٠٠ هذا وان اولى نشوء الانظمة هو ما ظهر في حضارة وادي الرافدين ولكن وجد من نوع الانظمة البدائية في الالف الثالث ق٠م(٤٤) ٠

اما سوسة فقد بين ان النظام القبلي في وادي الرافدين كان يستند الى العادات والاعراف والتقاليد المتوارثة والذي يتولى فيه شيوخ القبائل السلطة هو السائد آنذاك في ذلك المجتمع الريفي اذ كانت سلطة رؤوساء القبائل الى جميع توابعها : بطونها وافخادها اينما كانوا ، وكانت لهم انظمة خاصة بالحرب والغزوات التي تنشب فيما بينهم يتداولها ويتقبلها الجميع عن طيب خاطر(٤٥) ٠

اضافة الى ما تقدم فقد وضح باقر ايضا بأنه في عصر فجر السلالات امتاز بنشوء نوع من نظام الحكم امتازت بالانظمة الديمقراطية البدائية(الشورى)٠ ومما لاشك فيه ان تنظيم العمل والجهود ابان نمو الحضارات يتطلب ادارة وقيادة اتسمت بالحزم والمواهب والقابليات للسيطرة على البشر وهذا هو الذي نعنيه بالنظم الاجتماعية(٤٣) ٠

هذا وذكر صموئيل كريمر ٠٠٠ علينا ان لانتعجب ان يكون السومريون اول من سن القوانين والشرائع ليعرف كل فرد حقوقه وواجباته بوضوح ولتجنب عدم الفهم وسوء التفسير والتصرف الاعتباطي(٤٤) ٠ لقد اعتبر تنظيم الري عند كثير من الباحثين المختصين عاملا بالغ الاهمية في احداث قوة التماسك الاجتماعي والتماسك السياسي(٤٥) ٠

وما من المميزات الاساسية للمجتمع الريفي ، ولاعجب في ان اقدم الشرائع

المعروفة في العالم ظهرت في العراق وهي تتناول بالدرجة الاولى واجبات الفلاح وعلاقته بالذين يتصلون بالمسلك الزراعي الذي يعتمد على الري •

من تدريسنا لمادة المجتمع الريفي نركز على قوة التماسك الاجتماعي بين ابناء الريف وان هذا التماسك يظهر من المساعدة التي يقدمها الفلاح للبعض الاخر عند الحصاد او عند بناء الدار في القرية او عند عمل تقوية السدود الوقتية لدرء الفيضان ••• الخ •

هذا وان قوة التماسك الاجتماعي تظهر عند الخروج على الاعراف والتقاليد وذلك لمعرفة ابناء المجتمع الريفي لكافة الساكنين من الريف وهذا ما نطلق عليه بالضبط الاجتماعي غير الرسمي ولمعرفة كل فرد للافراد الاخرين وسيادة علاقة الوجه للوجه ، اذ في حالة خروج اى منهم عن القيم والتقاليد والعادات سيلاقون النبذ أو الاحتقار أو الازدراء من أبناء مجتمعهم وهذه من اهم صفات المجتمع الريفي •

وكذلك من تدريسنا لمادة المجتمع الريفي نركز ايضا على تفهم الطلبة للمنظمات الاجتماعية المتعددة ، كالمؤسسات الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والصحية والدينية ونهتم بالتغييرات الحاصلة على هذه المؤسسات ومنها سيادة الانظمة والقوانين التي تشرعها الدولة لهذه المؤسسات المتعددة وهو ما نعبر عنه بالضبط الرسمي والتي فيها يخضع الفرد للردع بتطبيق القوانين حسب ما ارتكبه من خروج على الاعراف والتقاليد السائدة والتي تتمثل باجهزة الشرطة والامن لحفظ الاستقرار والطمأنينة لذلك المجتمع •

٤ ـ الضيافة في الريف :

في الزمن السابق كان يحاول الشيخ الريفي ان يتشبه بالشيخ البدوي في جميع قيمه واخلاقه • فهو يؤكد ان يكون شجاعا ، كريما ، يحمي الجار والضعيف ، ويجلس في المضيف ليحل مشاكل قبيلته ، وكان هو يقود القبيلة في الحرب ويمثلها في المفاوضات •

ان المضيف الريفي ليس خيمة كبيرة كما هو الحال في الصحراء ، بل هو كما وصفه سيتن لويد يشبه الهياكل السومرية القديمة ، حيث ينتهي آنذاك من القصب والطين ويكون طوله وعدد حناياه حسب مكانة الشيخ وتقاليد اسرته • والشيخ كان لايجوز له ان يستأجر عمالا محترفين لبناء مضيفه بل يجب ان يطلب من ابناء قبيلته ان يتعاونوا في بنائه وليس على الشيخ الا تقديم الطعام لهم اثناء البناء •

في المضيف الريفي والبدوي كانت تقدم القهوة حسب القواعد المتعارف عليها ، وفيه يقدم الطعام لكل ضيف مهما كان • وكلما كان الضيف رفيعا في مكانته الاجتماعية كثر عدد الذبائح التي كانت تنحر له • واذا سمع اهل القرية رنين الهاون التي تدق فيها القهوة ادركوا ان هناك ضيفا حل في مضيف شيخهم فيتهافتون للسلام على الضيف وهم يتوقعون ان يشاركوا في طعامه احتراما له •

ان اهل القرية يتمنون ان يكون الضيف رفيع الشأن لكي يكون الطعام المقدم لهم وفيرا وهم عندئذ سينعمون بتناول اللحم والرز وغيرها من افانين الطعام الدسم الذي لم يعتادوا ان يتناولوه في بيوتهم الا نادرا •

لقد كانت سمعة الشيخ الريفي ترتفع وتشيع اخبارها كلما كان طعامه في

المضيف ادسم واوفر . فقد ذكر محمد باقر الجلالي في «موجز تاريخ عشائر العمارة» عن شيخ البو محمد ان ارض مضيفه بقيت بعد وفاته لمدة ثلاثين سنة لاينبت فيها اى نبات لكثرة ما اريق فيها من السمن (الدهن) اثناء تقديم الطعام للضيوف .

وهناك اسرة من آل فتلة اشتهرت باسم (البو هدلة) وقد جاءتها هذه الشهرة لان الطعام كان يهدل من الصحون التي كانت تقدم في مضلفها(٤٦) .

الخلاصة :

يتضح من مقارنة السمات العامة والمقومات الاساسية للمجتمع الريفي منذ اقدم العصور لتأريخ العراق القديم وما تم تثبيته من المختصين بدراسة علم الاجتماع الريفي في الوقت الحاضر لخصائص وصفات المجتمع الريفي يثبت اهتمام العراقيين القدامى بنشوء وتطور المجتمع الريفي آنذاك . كما ان اكبر دليل على ذلك هو الرجوع الى اقدم خارطة توضح نمط الحياة الريفية السومرية على الصفحة (١٨) ، حيث ان هذه الخارطة قد وضحت تفاصيل نمط حياة المجتمع الريفي وذكرت نصا العبارة السابقة (المجتمع الريفي) من منطقة نيبور اضافة الى التفاصيل المذكورة على تلك الخارطة .

ان اهتمام العراقين القدامى بهذا المجتمع منذ الالف الرابع قبل الميلاد ، اذ نشأت آنذاك حضارة وادي الرافدين والتي كان يطلق عليها اسم

(ميسوبوتيميا) اى ما بين النهرين . كما ان ما جسدته مسلة حمورابـــي يبين مقدار النضج الذي توصل اليه الفكر بالمجتمع الريفي في الرافديــن بما احتوته من تشريعات دقيقة ومتنوعة . كما أن العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة وما عكسته من القيم والعادات والتقاليـــد وانماط السلوك يمكن الاعتماد عليها من تمييز المجتمعات الريفية من العصور السابقـــة . وبذلك امكننا التوصل الى ايجاد السمات العامة التالية للمجتمع الريفي العراقي منذ ذلك الزمن وهي :

- التأثـر بالبيئة .
- الحرفة او المهنـــة .
- العزلة النسـبية .
- عدم التخصص في العمل الزراعـي .
- سيادة العمل الزراعي .
- التعـــاون .
- الصراع والتنافـس .
- الفـوارق الاجتماعيـة .
- بساطة المؤسسات الاجتماعيـة .
- التماسك الاجتماعي والنظم الاجتماعية .

المصـادر :

١ ـ الجواهري ، د. محمد واخرون : دراسة علم الاجتماع . سلسلة علم الاجتمات المعاصر : الكتاب الثالث عشر . دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٥ .

٢ ـ احمد ، د. علي فؤاد : علم الاجتماع الريفي . مكتبة القاهرة الحديثة الطبعة الثالثة ١٩٦٦ .

٣ ـ الهاشمي ، رضا جواد : نظام العائلة في العهد البابلي القديم مطبعة الاداب في النجف الاشرف ، ١٩٧١ .

٤ ـ اضواء على بعض الجوانب المهمة في الزراعة العراقية ـ الجزء الاول . وزارة التخطيط ـ بغداد ١٩٧٣ .

٥ ـ ايمار ، اندريه ، وجانين ابوابة : الشرق واليونان القديمة : نالله الى العربية فريد /م. داغر وفؤاد ابو ريمان . منشورات عويدات ، بيروت لبنان ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٤ .

٦ ـ الوردى ، د. علي . دراسة طبيعة المجتمع العراقي . مطبعة العالمي ١٩٦٥ .

٧ ـ باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين ، الجزء الاول ، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، العراق ١٩٨٦ .

٨ ـ باقر طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة . القسم الاول من تأريخ العراق القديم ، الطبعة الثانية ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، مطبوعات دار المعلمين العالية ، بغداد ١٩٥٥ .

٩ ـ باقر طه ، مقدمة في ادب العراق القديم ، دار الحرية للطباعة ،

مطبعة رقم ١/ ١٩٧٦ ٠
١٠ـ جماعة من علماء الاثار السوفيت : العراق القديم : دراسة تحليلية لاحواله الاقتصادية والاجتماعية ،ترجمة سليم طه التكريتي، ١٩٧٦٠
١١ـ سوسة ، د٠ احمد : العرب واليهود في التأريخ ٠ حقائق تأريخية تظهرها المكتشفات الاثارية ٠ وزارة الاعلام ٠ مديرية الثقافة العامة، دار الحرية للطباعة مطبعة الحكومة ، ١٩٧٢ ٠
١٢ـ سوسة ، د٠ احمد ، الرى والحضارة في وادى الرافدين٠الجزء الاول٠ مطبعة الاديب البغدادية / ١٩٦٨ ٠
١٣ـ دكلة ، د٠ محمد عبد الهادي واخرون : المجتمع الريفي ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩ ٠
١٤ـ كريمر ، س ، ن : هنا بدأ التأريخ حول الاصالة في حضارة وادي الرافدين ١٩٨٠ ٠
١٥ـ كريمر صمويل نوح٠ السومريون، تأريخهم وحضارتهم وخصائصهم٠ ترجمة الدكتور فيصل الوائلي ، جامعة الكويت ٠ الناشر وكالة
١٦ـ ملحمة كلكامش ، ترجمها عن الاكدية وعلق عليها الدكتور سامي سعد الاحمد استاذ التأريخ القديم في كلية الاداب جامعة بغداد دار الجيل ، بيروت ٠ دار التربية ، بغداد ، ١٩٨٤ ٠
١٧ـ ولديورانت : قصة الحضارة ٠ الجزء الاول من المجلد الاول نشأة الحضارة ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ٠ اختارته وانفقت على ترجمته الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الرابعة ٠
مطابع النجوى ، القاهرة ـ عابدين ، ١٩٧٣

(١) الجواهري ، د٠محمد ٠ دراسة علم الاجتماع/١٩٧٥ ، ص١٤٥ ٠

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة /١٩٧٣ ، ص٣ ٠

(٣) الهاشمي ، رضا جواد ، نظام العائلة في العهد البابلي القديم/١٩٧١

(٤) الهاشمي ، رضا جواد ٠ نظام العائلة في العهد البابلي القديم/١٩٧١

ص١٠ ـ ١١ ٠

ص١١ ـ ١٢ ٠

(٥) باقر ، طه : مقدمة في ادب العراق القديم/١٩٧٦ ، ص١٣ ٠

(٦) الهاشمي ، رضا جواد ، نظام العائلة في العهد البابلي القديم/ ١٩٧١ ، ص١٢ ـ ٥ ٠

(٧) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات : ١٩٥٥ ، ص٧٥ ـ ٧٦٠

(٨) سوسة ، احمد ٠ الـرى والحضارة في وادى الرافديـن/١٩٦٨ ، ص١١ ـ ١٢ ٠

(٩) باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين /١٩٨٦ ، ص٤٤ ٠

(١٠) سوسة ، احمد ، الري والحضارة فـي وادي الرافدين/١٩٦٨ ، ص١٣ ـ ١٤ ٠

(١١) ايمار ، اندية ، الشرق واليونان القديمة : ١٩٦٤ ، ص١٣٣ ٠

(١٢) ديوانت ، قصة الحدارة : ١٩٧٣ ، ص١١ ، ١٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ٠

(١٣) جماعة من علماء الاثار السوفييت «العـراق القديـم» /١٩٧٦ ، ص١٨٩ ٠

(١٤) سوسة احمد ، الري والحضارة في وادي الرافديــن/١٩٦٨ ، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

(١٥) سوسة احمد ، المصدر نفسه ، ص٢٠٥ ـ ٢٠٩ ٠

(١٦) جماعة من علماء الاثار السوفييت ٠ العــراق القديـم /١٩٧٦ ، ص٢٣ ٠

(١٧) سوسة احمد ، الري والحضارة في وادي الرافديـن ،: ١٩٦٨ ، ص٢٠٥ ـ ٢٠٩ ٠

(١٨) اضواء على الجوانب المهمة في الزراعــة العراقيــة الجــزء الاول ـ وزارة التخطيط بغداد ـ ١٩٧٣ ، ص٣ ـ ٥ ٠

(١٩) باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات /١٩٥٥ ، ص٤٠ و٤٥ ٠

(٢٠) سوسة احمد ، الري والحضارة في وادي الرافديــن /١٩٦٨ ، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

(٢١) سوسة احمد ، الرى والحضارة في وادى الرافديـــن /١٩٦٨ ،

(٢٢) سوسة احمد ، الــرى والحضارة في وادى الرافديـــن /١٩٦٨ ،

(٢٣) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات : ١٩٥٥ ، ص٤٣ ٠

(٢٤) باقر ، طه ، المصدر نفســه ، ص٤٦ ٠

(٢٥) الهاشمي ، رضا جواد ٠ نظم العائلة في العهد البابلي القديـم/ ٨٠ ١٩٧١ ، ص١٣٩ ـ ١٤٥ ٠

(٢٦) باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات ، ١٩٥٥ ، ص٣٢ و٣٣٠

(٢٧) جماعة من علماء الاثار السوفييت «العراق القديم» ١٩٧٦، ص٣٦٠

(٢٨) كريم ، صموئيل : السومريون تأريخهم وحضارتهم وخصائصهم ، ١٩٧٣ ، ص٥٠٤ ٠

(٢٩) دكلة ، د٠ محمد عبدالهادي : (المجتمع الريفي) ١٩٧٩ ، ص٢٦٤٠

(٣٠) احمد ز ، د٠ علي فؤاد : علم الاجتماع الريفي ، ١٩٦٦ ،ص٥٧ ٠

(٣١) باقر ، طه مقدمة في تاريخ الحضارات ، ص٤٣ ٠

(٣٢) باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات ، ١٩٥٥ ، ص٤٤ ٠

(٣٣) ملحمة كلكامش ، ١٩٨٤ ،ص١٤ ٠

(٣٤) سوسة ، احمد : الري والحضارة في وادي الرافديـــن /١٩٦٨ ، ص١٨ – ٢٠ ٠

(٣٥) الوردى ، د علي : دراســة طبيعــة المجتمــع العراقــي ١٩٦٥ ، ص٣٥ – ٣٦ ٠

(٣٦) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات/١٩٥٥ ، ص٤٩ ٠

(٣٧) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات/١٩٥٥ ، ص٤٥ ٠

(٣٨) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات /١٩٥٥،ص٤٠٣ – ٤٠٥٠

(٣٩) الهاشمي ، رضا جواد : نظام العائلة في العهد البابلي القديـــم : ١٩٧١ ص١٢ – ١٥ ٠

(٤٠) الهاشمي ، رضا جواد : المصدر السابق / ص١٢ – ١٥ ٠

(٤١) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات /١٩٥٥ ، ص٢٧٤و٢٨٤٠

(٤٢) سوسة ، احمد : العرب واليهود في التأريخ /١٩٧٢ ٠ص (غ) ٠

(٤٣) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات/١٩٥٥ ، ص٧٤ و١٠١ ٠

(٤٤) صمويل كريم مر ٠٠٠ ص٤ – ٥ ٠

(٤٥) سوسة ، احمد : الري والحضارة في وادي الرافديـن : ١٩٦٨ ، ص٣٠ ٠

(٤٦) الوردي ، د٠ علي : دراسة طبيعة المجتمع العراقي /١٩٦٥ ٠

ترشيد الاستهلاك
في الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي

الدكتورة امل عبدالحسين السعدي

قسم الدراسات التاريخية /معهد الدراسات القومية

والاشتراكية ,الجامعة المستنصرية

المقدمـــــة

ان سياسة ترشيد الاستهلاك قضية اقتصادية معاصرة ، لها مردودات ايجابية على مختلف الاصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية • فـاذا ماطبقت مفاهيمها بشيء من الوضوح الفكري مع الرؤيا المستقبلية لكشف نتائجها لتمكنت المجتمعات من تجنب الكثير من المشاكل الناجمة عـــن التفاوت الكبير في مستويات الانفاق السائد فيها ، وليصـل المجتمــع بواسطتها الى منتهى الحالة من الاستقرار • ولاهمية هذا الموضوع فقـد تـم التركيز على هذه السياسة وفق نظرة ومفهـوم الفكر الاقتصـادي العربـــي الاسلامي وتم الرجوع في ذلك الى مصـــادر متباينة في اختصاصهـا نظرت الى الموضوع كل بحسب الزاوية التي تصدت لتوضيحها ضمن حدود ترشيد الاستهلاك •

من هذه المصادر المعتمدة هو كتاب « تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » لمسكويه • نجد ان المعلومات التي قام بطرحها تبين وجهة نظر فلسفية نحـو مكارم الاخلاق التي يجب ان تسود المجتمعات في حالة تطبيق مبدأ الترشيد الاقتصادي •

اما الماوردي فقد عرض الموضوع بشكل فقهي بحكم علمه واختصاصـه بهذا العلم وكما هو معروف عن كتابه « الاحكام السلطانية والولايات الدينية » •

وكان الغزالي مصدرنا الثالث الذي جاء تركيزه على الترشيد من باب الزهد وذم المال بحسب رؤيا المتصوفين اليها ، وبحكم الاتجاه الـذي

اعتمده في كتابه « احياء علوم الدين » ·

اما المصدر الرابع والاخير الذي اعتمد عليه في طرح المادة فهو ابن خلدون في مقدمته المعروفة · حيث نظر الى الموضوع من زاوية مفكر اجتماعي يحلل الاوضاع القائمة وفقا للسياسة الاقتصادية المتبعة على المستويين الرسمي والشعبي ·

واخيرا نود ان نبين ان البحث قد خصص لبيان سياسة ترشيد الاستهلاك على مستوى الافراد والجماعات فقط ولم نحاول الخوض في مجال ترشيد النفقات العامة الخاصة بالدولة العربية الاسلامية حيث تم فرد بحث آخر خاص بها ·

اولا ـ معنى الترشيد :

الترشيد سمة اقتصادية رصينة تتمثل فيها كل المعاني الدينية والانسانية · فهي تقود المجتمع نحو الامثل وتمنع حدوث واستفحال المعضلات فيه ، وترتقي بالذات الانسانية نحو السمو والفضيلة · وتعبير الرشيدة او الرشيد كما جاء في معاجيم اللغة هي حسن التقدير والتدبير · فقد قال ابن منظور(١) بصدد توضيح ذلك «الرشيد ·· هو الذي تنساق تدابيراته الى غاياتها على سبيل السداد من غير اشارة مشير ولا تسديد مسدد» ويستشف معناها ايضا من قول الزبيدي في تاج العروس(٢) في باب رشد عن فحوى الرشيد مايلي : «هو الذي حسن تقديره فيما قدر» ·

وقد جاء توضيح عملية ترشيد الانفاق في عدد من الايات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة · فنجد ان القرآن الكريم قد حدد سبل الرشاد في العيش بأن جعله مفترقا للطريق ما بين الاسراف والتبذير وبين البخل والتقتير وكلاهما صفات مذمومة عند الخالق والمخلوق · كما في الاية الكريمة

«الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر »[٣] والايه «ولا تسرفوا انـــه لايحب المسرفين »(٤) • وقال الله تعالى في البخل والتقدير الذي يكمن فيه اخفاء نعم الله اذ انه سبحانه يحب ان يرى عبـاده وما تكان هـذه النعـم الا في الفضائل الانسانية والرؤيا الاجتماعية الى مشاركة المسلم لمن حوله مـن الاخرين بما يقدمه المال والخير الذي انعمه الله عليـه • فقـد قال الله تعالى في ذلـك في ســورة النساء : «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مبينا»[٥] •

وبين هذا وذاك يشيد القرآن الكريم باوسطها ، بمن جعل نفقته على قدر حاجته فلا هو مسرف فيها ولا مقتر عليها ، بل تزكو نفسه لاقـل حاجاتها • اذ قال الله تعالى : «والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولـم يقتروا وكان بين ذلك قواما»[٦] • والاية الكريمة «يسألونك ماذا ينفقون قـل العفو»[٧] • والعفو الوارد في هذه الاية الكريمة هـو الترشيد في النفقات حيث جاء في تفسير هذه الاية ان العفو هو «التوسط من النفقة ما لم يكن اسرافا ولا اقترا» • وفسر العفو ايضا على انه «اليسير من كـل شيء» • واورد صاحب تفسير جامع البيان معاني اخرى للعفو تدور جميعها ضـمن هذا المعنى[٨] •

كذلك الحال في الحديث الشريف فقد اكد الرسول (ص) على صـفة الالتزام في النفقة والابتعاد عن الغلو والتفريط فيها او الحـرص عليها • حيث قال (ص) : « من اقتصد اغناه الله ومن بذر افقره الله » • وقال أيضا «اذا اردت امرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل اللـه لـــك فرجا ومخرجا • والتؤدة في الانفاق من أهم الامور(٩) • وفي السنن وضمن باب الاقتصاد

في طلب المعيشة ، ابن ماجة الى بعض من احاديث الرسول (ص) فيها • منها قوله (ص) : «اجملوا في طلب الدنيا فأن كلا ميسر لما خلق له» وقال (ص) ايضا : «لابأس بالغنى لمن اتقى والصحة لمن اتقي خير من الغنى وطيب النفس من النعيم»(١٠) •

وقدم الغزالي تحليلا فلسفيا لمعنى الترشيد الذى اورده بصيغة الرشد ، بين فيه انها فضيلة ونعمة الهية يستهدي بها الفرد للوصول بالنفس الانسانية نحو السعادة والسداد حيث قال : «واما الرشد فنعني به العناية الالهية التي تعين الفرد عند توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره على ما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال الله تعالى ـ ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ـ فالرشد عبارة عن هداية باعثه الى جهة السعادة محركة اليهـا»(١١) •

ومن الصيغ المرادفة للترشيد التي تشير اليها المصادر هي الكفاية والقناعة • فالكفاية تصل بالترشيد الى الحد الضروري من سبل المأكل والملبس والمسكن • وقد جاء تفسير الكفاية في معاجم اللغة • ففي باب كفى تصدى ابن منظور لتوضيح الكيفية قائلا : « الكيفية ما يكفيك من العيش وقيل الكيفية القوت(١٢) • وجاء في تاج العروس ان الكفاف الرزق والقوت ما كف عن الناس واغنى •• ونفقته الكفاف أي ليس فيها فضل » القنوع يكون بمعنى الرضا والقانع بمعنى الراضي •• والقنوع الرضا كصيغة مكملة الى الكفاية ، لان القناعة هي الرضا بالنزر اليسير • وقد ذلك الشخص قانعا بها بكونها ايمانا واحتسابا • وازاء ذلك جاءت القنعة انما عنده ما يكفيه عن الناس »(١٣) •

ولايمكن اعتبار الكفاية سبيلا ومنهجا لحياة اى شخص ما لم يكن ذلك الشخص قانعا بها بكونها ايمانا واحتسابا •

وازاء ذلك جاءت القناعة كصيغة مكملة الى الكفاية لان القناعة هي الرضا بالنزر اليسير • وقد وضحت المعاجم اللغوية معنى القناعة • حيث قال صاحب لسان العرب : « القنوع يكون بمعنى الرضا والقانع بمعنى الراضي ••• القنوع الرضا باليسير اي العطاء »(١٤) • وجاء في تاج العروس ان « القنوع قد يكون بمعنى الرضا أي بالقسم اليسير من العطاء(١٥) •

وفي الاية القرآنية التالية نجد صورة مكتملة لمفهوم القناعة وابعادها المستقبلية وانعكاساتها على واقع الحياة التي يحياها الانسان وان القناعة تذكي في الانسان طول الصبر وقصر الامل وبها تمتحن ارادة الفرد وتحتسب اعماله • اذ قال الله تعالى في سورة النحل : « من عمل صالحا من ذكر وانثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »(١٦) • وجاء في تفسير هذه الآية ان « فلنحيينه حياة طيبة بأن نرزقه القناعة » واكمل الطبري تفسيرها في مكان اخر حيث اردف قائلا : « من قال تأويل ذلك فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة وذلك ان قنعه الله بما قسم له من رزقه لم يكثر للدنيا تعبه ولم يعظم فيها نصيبه ولم لم يكثر للدنيا تعبه ولم يعظم فيها نصيبه ولم يتكدر فيها عيشه باتباعه بقية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لايدركه فيها (١٧) » •

استنادا الى ذلك تصبح عملية ترشيد الانفاق او الاستهلاك عملية محمودة ومدروسة تسير وفق نسق متكامل ، تبدو النفس الانسانية فيها ذات سطوة تغلبت على حاجاتها وملذاتها وامست مؤشرا على حقيقة قدراتها في الضبط والحكمة ووضع الامور في المكان الذي يجب ان توضع من حيث ما يبرز من خلالها الخير والصلاح لعموم المجتمع • وبناء على ذلك فقد اولى المفكرون المسلمون عملية ترشيد جانبا كبيرا من اهتماماتهم وتصدوا لبيان

اركانه وقدموا في ذلـــك اراء ومسيمات وتحليلات واستنتاجات بصددهـا تدرو جميعها في فلك واحد تعبر عن الرؤيا الدينية للنفس الانسانية نحو الالتزامات الاجتماعية والاقتصادية في المحيط الاجتماعي ·

ثانيا ـ مسكويه والترشيد :

نجد مسكوية (٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) حين يتكلم عن الترشيد فانـــه يحدده بمعنى السخاء المشفوع بالقناعة ، على اعتبار ان قدرة الفرد الذاتية التي تقوده للسخاء يجب ان تنبعث من قوة داخلية مكنونة في قرارة النفس تعين صاحبها على النظرة الى امور الحياة بعين القبول والرضا ، لايلتفت فيهـا شمالا ولا يمينا ، ولا يكون توافقا الى ما تلوج فيه النفس الانسانية نحـو الرحب المندفعة باتجاه الحاجات الكثيرة والمتعددة التي لاتقف عند حدود ، ولا سبيل الى تداركها الا بالقناعة المؤطرة بالرضا والشعور بالسعدة بما حصل ، عليه وبما ينفق منه وحينذاك يضحي الانسان فيها شاكرا ومتعبدا فاذا ما رجعنا الى تعريف السخاء عند مسكويه نجد يقول : « السخاء فهـو التوسط في الاعطاء وهو ان ينفق الاموال في ما ينبغي على مقدار ما ينبغـي وعلى ما ينبغي »· اما القناعة فتعني عنده : « التساهل في ا المآكل والمشارب والزينة . » (١٨) · وفي معرض حديثه عن السخاء نراه يشير الى الفضائـل المنبعثة منه وذات السمة الانسانية التي يتدارك فيها الانسان عن ســـد حاجاته الى تقديم المساعدة للغير بما يكفل السعادة لكلاهما نفسه ونفســـ غيره على حد سواء · من هذه الفضائل الكرم ، ويعتبره مـــن الفضائـــل المدروسة والمستحكمة حيث يقوم العقل فيها عـــلى المفاضلة بين الحاجات وحدود الانفاقات فيولي اعمها فائدة اهتماما منطلقا في ذلك من مسببات اقتصادية رشيدة حيث ان الكرم عند مسكويه : « انفاق المال الكثير بسهولة

من النفس في الامور الجليلة القدر الكثير النفع » .

ومن فضائل السخاء « الايثار » وتتجلى في الايثار قيمة معطيات النفس الانسانية وانعكاساتها الايجابية على المحيطين بها ، وتعبر عن سمو المبادىء والاهداف التي تلتزم بابقائها هذه النفس أو تلك . فالايثار .. فضيلة للنفس يكف الانسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه » . ثم فضيلة النيل ، وهذه الفضيلة تعبر عن مكنون السعادة التي يحصل عليها الانسان من جراء الاقدام على عمل الخير حينما يتحدد الانفاق على الامور الجليلة العظيمة القدر فقط . فيمكن هنا التوازن بين النفقات والاعمال ، لان النيل يعني : « سرور النفس بالافعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة » . اما الفضيلة الرابعة فهي فضيلة المواساة وهي تنطلق من تعزيز المشاركة الوجدانية القائمة بين الفرد والافراد الاخرين المحيطين به ضمن حدود الانفاقات الرشيدة التي يلتزم بها الفرد . اذ عرف مسكوية المواساة بأنها « معاونة الاصدقاء والمستحقين ومشاركتهم في الاموال والاقوات » . اما فضيلة السماحة فقد عرفها « بأنها بذل بعض ما لايجب » . والفضيلة السادسة هي المسامحة التي تنطلق من مؤشرات ومفاهيم عقلية تعبر وبشكل حاسم عن قوة العزيمة الانسانية حيث ان المسامحة تكمن في « ترك بعض ما يجب والجميع يكون بالارادة والاختيار »(١٩) .

وعندما يتكلم مسكوية عن السخاء فانه يعني السخاء الملتزم بمبادىء رصينية فيها الانسان غير الفضيلة والثواب ، وما تعدى ذلك فانه يرى

ان كل انفاق خارج هذه المبادىء لا تعتبر ترشيدا للنفقات بل انها تقود الى استخلاص منهجيات وغايات يرتئي منها الانسان الحصول على امور خارج نطاق الفضائل الانسانية ، لان مثل هذا ارلانفاق يحاول فيه الفرد بذل أمواله في شهواته طلبا للسمعة والرياء أو تقربا الى السلطان أو لدفع مضرة عن نفسه وحرمه واولاده . وقد يكون مدفوعا بدافع الرغبة في الاستزادة من الربح والمال . (٢٠) .

ومن المبادىء المركزية الاخرى التي تصدى لتنفيذها مسكوية هو الربط بين الترشيد والسعادة . حيث اعتبر ان الترشيد لايكمن في الانفاق فقط بل في السبل المتبعة والكيفية التي يتم فيها اقتناء الاموال ومدى قناعة الفرد في ذلك وقد اطلق عليه رزق الكفاية . فمن ارتضى بالقليل منها ، قاده هذا الرضا الى العيش على قدر كفايته ، ومن دار في خلده وسيطر عليه عامل الطمع والحرص شغل حياته كلها في طلب الاموال والاستكثار منها واضحى سبيله في الحياة كمن يجري وراء السراب فلا حصل له القليل فسعد واقتنع ، ولا اقتنى المكثير فرضى واقتنع ولنرى قول مسكوية (٢١) في تحليل هذه المسالة : « لمن رزق الكفاية ووجد التقصد من السعادة الخارجة ان لايشتغل بفضول العيش فأنها بلا نهاية ومن طلبها اوقعته في مهالك بلا نهاية لها ... ان الغرض الصحيح بينهما (الكفاية والقصد) هو مداواة الالام والتحرز من الوقوع فيها لا التمتع وطلب اللذة وان من عالج الجوع والعطش اللذين هما مرضان حادثان لاينبغي له ان يقصد لذة البدن بل صحته » . وقال بصدد من لم يقتنع برزق الكفاية واما من يرزق الكفاية واحتاج الى السعي والاضطراب في تحصيلها فيجب ان لايتجاوز القصد وقدرمنها حاجته الى مايضطر معه الى السعي الحثيث والحرص

الشديد والتعرض لقبيح المكاسب او ضروب المهالك والمصاعب بل يجعل في طلبها اجمال العارف بخساستها (٢٢) ٠

ووفق سياق موضوع الترشيد ، نرى مسكويه ينظر الى موضوع النفقات من زاوية اخرى ضمن تصديه الى قضية ادب المطاعم حيث بين ان مسألة تنظيمها تعتبر ظاهرة صحية تقتضي بالابتعاد عن بعضها ، والتركيز او الاقتصار على ذات النفع العام لصحة البدن ٠ وقدم لذلك تعليلا فلسفيا لدور الطعام في حفظ الصحة حيث قال (٢٣) ٠٠ ان الاغذية تجرى مجرى الادوية يداوى بها الجوع والم الحادث منه ٠ ونعرض ان تصبح مادة للحياة فأن الضرورة تقتضي بالحكمة في تناولها والاقتصاد على المحدود منها اذ قال : « ٠٠ الاطعمة ما ينبغي ان يتناول منها الا ما يحفظ صحة البدن ويدفع الم الجوع ويمنع من المرض فيحتقر عنده قدر الطعام الذى يستعظمه اهل الشرة ٠٠ » (٢٤) ٠

ثم اشار الى الفضائل المتحققة من الكفاية والقصد ودورها في شيوع الافعال الكريمة المؤدية الى سبل الخير والرشاد حيث بين : « فقد يصل الى الفضيلة من ليس بكثير المال ٠٠٠ فانما الفقير من المال ٠٠ قد يفعل الافعال الكريمة ٠٠ ان السعداء هم الذين رزقوا من الخيرات الخارجة عنهم وفعلوا الافعال التي تقضيها الفضيلة »(٢٥) ٠

ثالثا ـ الترشيد عند الماوردي :

اما الماوردى (ت، ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) فانه يفسر الترشيد على انه محدد بحد الكفاية ، وربط هذا الحد بالاسس المالية المعتمدة في الدولة العربية الاسلامية فيما تتعلق بحقوق الزكاة وتوزيع العطاء ٠

يتعرض الماوردى ضمن تصديه لحد الكفاية الى فريضة الزكاة من

حيث جبايتها ولاسس المعتمدة في توزيعها • ويستشف من خلال تعرضه لتعريف الزكاة نوع الترشيد الذى يكمن في فرضها اذ انه حدد سبل جبايته قائلا : « والزكاة تجب في الاموال المرصدة للنماء اما بأنفسها أو بالعمل فيها طهرة لاهلها ومعونة لاهل السهمان » (٢٦) حيث ان الاموال المرصدة للنماء سوف تحقق لصاحبها ربحا يضاف الى اصل رأس المال وهذا التراكم المستمر في الارباح سوف يضحى من الامور قد تدفع صاحبها باتجاه التبذير والاسراف على وجه العموم • وبما ان المبادىء الدينية توجب المشاركة فيها لتغطية حوائج الناس ، وعليه فانه في حالة وجوب الزكاة سيذهب جزء من هذه الارباح الى جماعة ذكرهم الله في محكم كتابه العزيز في سورة التوبة » (٢٧) انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله لاعليم حكيم ج » • فيكون هذا الجزء بمثابة ترشيد لصاحبها تدخل ضمن مجال المبادىء والفضائل التي يجب الالتزام بها وجاء في تفسير هذه الاية الكريمة ان للصدقة مضامين ترشيدية للنفقات تأخذ جوانب اجتماعية والاقتصادية ودينية وسياسية • فهي تعمل على توثيق عرى العلاقات الانسانية بين المسلمين من خلال حلقات التطبيق لفرض الصدقة أو الزكاة التي شكلت القاعدة التي يرتكز « ان الله جعل الصدقة في معنيين احدهما سد خلة المسلمين والاخر معونة الاسلام وتقويته » • وقد وضع الماوردي حد الكفاية للاصناف الموزعة عليهم الزكاة اذ انه يحقق حصولهم على الحد الضرورى من المعيشة • وحد الكفاية الذى يقصده الماوردى يختلف من بلد الى اخر بحسب طبيعة البلاد الاقتصادية

ومستوى الاسعار السائدة في اسواقها بيقول عند تفسيره لحد كفاية المسكين والفقير : « المسكين اسوأ حالا من الفقير وهو الذى اسكنه العدم فيدفع الى كل واحد منهما اذا اتسعت الزكاة فيخرج به اسم الفقر والمسكنة الى ادنى مراتب الغنى وذلك معتبر بحسب حالتهم فمنهم يصير بالدينار الواحد غنيا اذا كان من اهل السوق يربح فيه قدر كفايته فلا يجوز ان يزاد علية ومنهم من لايستغني الا بمائة دينار فيجوز ان يدفع اليه اكثر منه ومنهم من يكون ذا حيلة يكتسب بضاعته قدر كفايته فلا يجوز ان يعطى وان كان لايملك درهما »(٢٩) .

وعلى ضوء هذا الاساس يرى الماوردى ان الغاية او الهدف من توزيع الزكاة هو الوصول بالشخص المعني الى مرتبة الكفاية للحد الضرورى الذى يكفل له العيش الكريم من غير حاجة أو تنعم ، ووفقا لذلك فقد حدد المستوى الاقتصادي للاصناف المعنية بعد توزيع الزكاة واعتبرها بخمسة اقسام وفق الشكل التالي : قسم منها قد استوفى الحاجة ووصل الى حد الكفاية من غير زيادة ونقصان فلا يجوز اعطائهم مبالغ اخرى على اعتبار انهم قد « خرجوا بما أخذوه من أهل الصدقات وحرم عليهم التعرض لها » . اما القسم الثاني فأن الاموال الموزعة عليهم لم تصل بهم الى حد الكفاية وهنا تقتضى الامور باحالتهم الى ذلك الحد حيث قال : « وقسم الثاني ان تكون مقصرة عن كفايتهم فلا يخرجون من اهلها ويحاولون بباقي كفايتهم على غيرها » . ويقع في القسم الثالث تفاوت في نسبة حد الكفاية فيها لاختلاف الحد الافقي لمستوى دخولهم « لانها قد تكون كافية لبعضهم مقصرة عن الباقين فيخرج المكتفون عن اهلها ويكون المقصرون على حالهم من اهل

الصدقات • وهناك قسم من هذه الاصناف الثمانية قد وصل جميع المشمولين به الى حد الكفاية ووجد بعد ذلك فضل من المال من اصل المبلغ المقرر توزيعه على هذا الصنف ، فحينئذ يبدى الماوردى رأيه قائلا : « واقسم الرابع ان تفضل عن كفاية جميعهم فيخرجون من اهلها بالكفاية ويرد الفاضل من سهامهم على غيرها من اقرب البلاد اليهم » • ووضع الماوردي القسم الخامس في ان الاموال المقرر يمكن لها ان تغطي بعض الاصناف ويحصل فضل فيها • حين ان هناك عجز في الحصة المقررة على بعض الاصناف الاخرى بلا تكفل لاصحاب تلك الفئة من الوصول الى الحد الضروري من الدخل فيؤخذ من ذلك الصنف ليضاف الى حصة هؤلاء ليتقرر بعدها الحد الضروري أو حد الكفاية من الدخل الذي يضمن المعيشة السوية لصاحبها(٣٠) •

وبعد توضيح حد الكفاية للزكاة تصدى الماوردى الى مسألة توزيع العطاء والارزاق التي كانت تحل محل الرواتب الجارية في وقتنا الحاضر وضمن هذا التفسير اشار اولا الى وجه المسببات السياسية والاقتصادية التي تقع وراء توزيع العطاء والتي تكمن في توفير حماية متطلبات الدفاع القومي وتوفير العيش الكريم للقاتلين وعوائلهم حيث قال : « حتى يستغني بها عن التماس مادة تقطعه عن حماية البيضة » • والكفاية التي اشار اليها الماوردى هنا معتبرة بثلاثة وجوه :

١ ـ عدد الافراد الذين يعيلهم المقاتل من الذرارى والمماليك •

٢ ـ عدد ما يرتبطه من الخيل والظهر •

٣ ـ المستوى الاقتصادى للمكان الذى يقيم فيه المقاتل • ويتحدد المستوى الاقتصادى بمعدل الاسعار السائدة التي تتفاوت بين الرخص والغلاء بين فترة واخرى سواء كان ذلك في القوت او الكسوة •

هذه المعايير الثلاثة غير ثابتة وهي معرضة للتغير سنويا بموجب احتساب كل ركن فيها وفق التغييرات الحاصلة ؛ عدد افراد عائلته وخيله ومكان اقامته • وينظر المسؤولين في هذه الامور ويتقرر العطاء السنوي الجديد بازائها • فان حصلت زيادة فيزداد العطاء بازائها وعلى العكس ان كان الحاصل هو النقصان فينقص العطاء على نفس هذا السياق •

وتطرق الماوردي الى مسألة زيادة العطاء عن الحدود المقرر وهو حد الكفاية واختلاف الفقهاء في تقريرها • فالامام ابو حنيفة قد اباح الزيادة ان كانت اعتمادات بيت المال كافية وقادرة على تحمل مثل تلك الزيادة ونسبتها • اما الامام الشافعي فقد اعترض على ذلك وضع من تقرير اية زيادة فيهامهما كانت نسبتها او مبرراتها حيث قال : « لان اموال بيت المال لاتوضع الا في الحقوق اللازمة » • وبصدد التعويض عن الخسائر التي تلحق المقاتل من جراء موت الدابة او تلف السلاح فقد اورد الماوردي وجهة نظر الفقهاء بهذا الخص وقال : « اذا نفقت دابة احدهم في حرب عوض عنها وان نفقت في غير حرب لم يعوض • واذا استهلك سلاحا فيها عوض عنه وان لم يكن يدخل في تقدير عطائه ولم يعوض ان دخل فيه (٣١) •

كان ذلك فيما يخص العطاء ، اما في الارزاق فان حد الكفاية قد احتسب فيه بالقدر من القوت الذي يؤمن بالوصول الى درجة سد الحاجة الى الطعام • وقد قدرت هذه الكمية في خلافة عمر بن الخطاب (رض) وفق طريقة سليمة وواقعية رصينة • اذ امر الخليفة بجلب جريب من الطعام ، فتم طحنه وخبزه وثرده • واحضر ثلاثين شخصا دعوا الى اكله في وجبة الغداء حتى شبعوا وعمل من ذلك العشاء • ايقن الخليفة بعد ذلك ان الجريب الواحد يكفي لاشباع ثلاثين شخصا في كل وجبة طعام فقال : « يكفي الرجل جريبان في كل شهر • وكان يرزق الرجل والمرأة والمملوكة جريبين في كل شهر »(٣٢) •

رابعا ـ مفهوم الترشيد عند الغزالي :

اما الغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١١م) فأشار الى مبدأ القناعة واعتبرها الفيصل القاطع في تحديد الانفاق وعرفها قائلا انها « الرفق في الانفاق وترك الخرق فيه » • مستشهدا في ذلك بالحديث الشريف : « طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به »(٣٣) • ثم ربط بين الانفاق وحالة القناعة التي يسمو بها اثر الفرد نحو احتساب نفقاته المرتبطة بحالته المالية • فالقناعة عنده صفة كامنة عند الغني والفقير • فالفقير الذي لا يسمح دخله بالنفقة كما يجب وينبغي ، عليه ان يكون قانعا بحالته وحدود نفقاته ، غير ملتفت الى ما في أيدي الاغنياء » ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك الا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن » • ويقوده هذا المبدأ الى شراء واقتناء أقل الاشياء نوعية وقدرا • وهذه جميعها مؤشرات لحالة الترشيد الاقتصادي الذي يطلق عليه الغزالي تعبير « عز القناعة »(٣٤) •

وأشار الغزالي الى عز القناعة عند الاغنياء ومن يجري مجراهم من اصحاب الاموال ، فقال ان قناعة هؤلاء تقودهم الى « الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق ، وبين أيضا : « فمن أراد عز القناعة فينبغي ان يسد عن نفسه أبواب الخروج ما امكنه ويرد نفسه الى ما لابد له منه » • واما من كانت نفسه تواقة الى سعة الانفاق لاتساع ماله وربحه فأن القناعة وعزها ليست من شيمه وتضحى بعيدة عنه وغريبة عن اطواره(٣٥) •

لقد بين الغزالي السبل والكيفية التي يتم بها اكتساب القناعة ذلك بأن يكون الانسان في قرارة نفسه تواقا لها عارفا بحدودها وابعادها ومآثرها اذ قال بهذا الصدد : « ان يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الحرص والطمع من الذل فأذا تحققت عنده ذلك انبعثت رغبته الى القناعة لانه في الحرص لا يخلو من تعب وفي الطمع لا يخلو من ذل وليس في القناعة الا الم الصبر عن الشهوات والفضول »(٣٦) • وتكتسب القناعة بأمر آخر

هو سمة النظرة المستقبلية التي يتجه الانسان نحو تحقيقها · فالقناعة لا تكتسب هنا بالنظر الى من هم أكثر منه مالا بل في النظر الى من هم أقل منه درجة ومالا ، ويعينه على هذا الامر فضيلة « الصبر وقصر الامل » وان « يعلم ان غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهرا طويلا »(٣٧) وينبغي على الاغنياء ان يتوجهوا الى بذل المال لا على انفسهم بل على الاخرين « فأذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس »(٣٨) ·

وضمن هذا المجال تصدى الغزالي الى الفقر والزهد وبين اثرهما في استقرار النفس الانسانية من الناحية الاقتصادية والاجتماعية اذ بواسطتها سوف يتجنب الفرد المشاكل الناجمة من ظاهرة اقتناء الاموال والجري وراء تحصيلها فذكر بأنه لا « مطمع في النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها اما ان تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرًا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا »(٣٩) · ولتوضيح هذه العلاقة ، فقد انبرى لبيان درجات الفقر والزهد في المال وصنفها الى خمس حالات · الاولى الاحتراز من مخافة الجري في تحصيل المال « بحيث لو اتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من اخذه مبغضاً له ومحترزا من شره » وهذا هو شأن الزاهد في الانفاق والثانية فقدان الرغبة في اقتناء الاموال « بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهية يتأذى بها » · وهو في ذلك يمسى راضيا مرضيا بحياته وحدود انفقاقاته · اما الحالة الثالثة فهي عدم السعي في تحصيل المال واقتنائه ويكون في قرارة نفسه قانعا ايما قناعة سيان عنده ان اقتناه أو فقده وفي نفس الوقت ان « يكون وجود المال احب اليه من عدمه لرغبة فيه ولكن لم يبلغ رغبته ان ينهض لطلبه بل ان اتاه صفوا عفوا اخذه وفرح به وان افتقر الى تعب في طلبه لم يشتغل به » · اما الحريص فيقع ضمن الفئة التي تمثل الحالة الرابعة من الفقر والزهد · ويقصد بها عجز الفرد في الحصول على الاموال رغم سعيه ، وهو في ذلك تواقا لاقتنائه وان « يكون طلبه ولو بالتعب لطلبه او هو مشغول بالطلب » ·

والحالة الخامسة هو الشخص المضطر الذي « يكون ما فقده مضطرا اليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب »(٤٠) ·

ومن خلال تفنيد الغزالي لهذه الحالات الخمسة نراه يركز على حالتي الزهد والاضطرار ويضيف اليها حالة أخرى غير تلك الحالات الآنفة الذكر هي المستغنى انها في رأيه أعلى درجة من الزهد « وهي ان يستوى عنده وجود المال أو فقده ، فأن وجوده لم يفرح به ولم يتأذ وان فقده »(٤١) ·

ان حياة الزاهد والمضطر والمستغني وفق منظور الغزالي تسير بنسق ديني واجتماعي تحدده مبادىء ثابتة تنظر الى الحياة على انها عطاء وليس اخذ وعطاء · وتستلزم هذه الحالة بالوصول الى المعيشة والانفاق بحد الكفاية فقط ، وتوجيه النظر نحو حاجة المجتمع وافراده الى ما في أيدي القادرين عليه مهما كان المبلغ زهيدا لانه سيجلب السعادة للنفس البشرية لكلا الواهب والموهوب وهذا هو قمة ترشيد الانفاق ·

وضمن هذا السياق أيضا ، أشار الغزالي الى فضيلة الفقر المشفوعة بالقناعة ، واورد عدد من الاحاديث النبوية التي تدلل على ذلك · حيث قال النبي الكريم (ص) : « من أصبح منكم معافا في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »(٤٢) ·

وعندما تكلم الغزالي عن الشخص الغني في باب « فضيلة السخاء » فأنه أكد على ذلك الشخص الذي تسير حياته وفق مسار حسن التدبير نحو منح الصدقات والخيرات » فأذا أراد الله بعبد خير استعمله في قضاء حوائج الناس » واحتج كذلك بقول الرسول (ص) : « اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في اكنافهم فأني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فأني جعلت فيهم سخطي »(٤٣) · وبحدود هذا المجال قدم الغزالي تحليلا للترشيد الانفاقي على وجه العموم حيث يرى ان « للمنفق حالتان

تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد » • وهنا ينبغي ان يتجه الانسان نحو المجالات التي تبرز ذاته الانسانية على المدى المستقبلي لواقع الخير العام والشامل المتحقق من جرائه والذي يطلق عليه ـ الغزالي بالخيرات المؤبدة • وتقع ضمن هذه الخيرات الاموال المنفقة على بناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الحباب في الطرق(٤٤) •

وبين محصلة الفقر والغنى والزهد أشار الغزالي الى الانعكاسات السلبية لمسألة حب المال وسبل تحصيله وتأثيرها على واقع العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراد المجتمع التي سوف يعتريها الكذب والرياء والنفاق لان « من كثر ماله كثرت حاجته الى الناس ومن احتاج الى الناس فلابد ان ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم »(٤٥) • ثم تتبع الغزالي سمة هذه العلاقات المشفوعة بالحسد والحقد والكبر والنميمة والغيبة ، وأكد على مردوداتها الاقتصادية كل حسب مجال عمله حيث قال : « صاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسبته وخصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود وخصومة اعوان السلطان في الخراج وخصومة الاجراء على التقصير في العمارة وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم ، وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل ••• وهكذا سائر أصناف المال »(٤٦) •

خامسا ـ الترشيد عند ابن خلدون :

اما ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) فقد اتخذ في مقدمته مسارا آخر عند تصديه لمبدأ الترشيد ، حيث أشار بين مضامين فصول هذه المقدمة الى الخشونة وشظف العيش من جهة ، والى الترف والنعيم من جهة أخرى • وربط هذه المسائل بالظروف البيئية وسبل المعيشة التي يحياها كل من البدو والحضر • وبعد ان يمتدح حياة البدو الموسومة بالخشونة والعصبية ، ويتخذ موقفا من أهل المدن المتنعمين في معيشتهم يطرح مقارنة بين الاثنين يستشف منها على معنى ترشيد الانفاق الاستهلاكي الذي يعرفه بمعنى

المقدار الضروري من المعيشة فقط والذي لا يداخله شيء آخر منافيا له اذ قال : « واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم (اهل الحضر) الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها »(٤٧) ٠ ونجده يؤكد في مكان آخر على ضرورات العيش وخشونته التي تكمن في النزوع الى ترك « رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية »(٤٨) ٠ وازاء ذلك فقد تعرض ابن خلدون لحياة الترف بالتفصيل بين أبعادها ومخاطرها السياسية على حاضر الامة ومستقبلها واستخلص ملاحظات واحكام ربطها بمسببات اقتصادية اعتبرها العامل الحاسم الذي يقود الدولة نحو الهرم والسقوط ٠ فقد تصدى لهذه المسألة في فصل « في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم » ٠ اذ بين ان اقبال الافراد نحو النعيم والكسب وخصب العيش ومن ثم حرصهم على التانق في المباني والملابس يجعلهم يألفون حياة الترف واقتناء الرياش ٠ ان هذه المستجدات سوف تقضي على الشيم الاصيلة للمجتمع « فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة » ٠ فتتضاءل على اثرها المعنويات العسكرية في ذلك الجيل والاجيال المتعاقبة لاعتيادهم على سبل المعيشة المترفة ٠ ويستمر هذا الضعف الى ان « تتعرض العصبية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء ٠٠٠ واذا انقرضت العصبية وقصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم سواهم »(٤٩) ٠

ثم تطرق ابن خلدون في مكان آخر الى مخاطر انغماس السلطة الحاكمة في الترف والنعيم لانه يؤشر وبشكل حاسم على قوتها السياسية ٠ حيث قام بطرح عدد من المسائل المركزية التي توضح اقتران سقوط الامم بحالة ترف حكامها في فصل خصصه لبيان هذا الجانب تحت عنوان « في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة

اقبلت الدولة على الهرم »(٥٠) • بين فيه ان للترف انعكاسات فاعلة على واقع الانفاق العام لانه يقضي بصرف النظر عن التفكير في وضع الخطط الرصينة التي يسترشد فيها بالانفاق ، فيختل على اثرها الميزان الحسابي وينعدم التوافق المطلوب بين الايرادات والنفقات • وقال ابن خلدون بصدد تفسير هذه الظاهرة الخطيرة : « تزيد نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم »(٥١) • ثم يستطرد مبينا انه يجب في حالة قلة الموارد ان يتوجه المتوفر منها اولا نحو الجانب العسكري الذي يمثل رمز كيان الدولة وعنوان قوتها • غير ان ولوج الدولة بالترف يجعلها تستبعد هذا المبدأ ويجدى بها الامر في الاقدام على خصم نسبة النفقات المقررة على الجيش في ميزانيتها « فتضعف الحماية لذلك وتسقط الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول »(٥٢) • ويطرح ابن خلدون نهجا آخر تتخذه بعض الدول المنغمسة في النعيم كوسيلة أخرى لتلافي النقص الحاد في ميزانيتها وكسبيل لتلافي المشكلات الناجمة من جراء تخفيض النفقات العسكرية ، بأن تتجه الى مسألة أخرى لا تقل خطوزة عن الاولى وفيها النهايية الحتمية لها ذلك هو انها تقبل على استحداث روافد أخرى للايرادات تكمن اما باستحداث ضرائب أو بزيادة نسبة جبايتها ، وفي هذه الحالة تخلق معضلة جديدة حيث يعم السخط والاستياء العام بين أبناء الشعب ، ويكون نذيرا آخر بسقوطها(٥٣) •

وضمن سياق حديث ابن خلدون وتصديه لموضوع الترشيد ، فأنه قد أشار في مقدمته الى العلاقة التي تربط الاسعار السائدة في أي مجتمع من المجتمعات بنوع سياسة الانفاق التي يرتئيها أهل أي مصر من الامصار • حيث ذكر ان اقبال الناس على طلب واقتناء الحاجيات سواء كانت الكمالية منها مثل « الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني •• » أو الضرورية الخاصة بالقوت اليومي ، سوف يؤدي الى اختلال

التوازن المفروض بين عمليتي العرض والطلب الذي يتحدد طبقا لاقبال الناس وكمية المعروض منها في الاسواق « فيقصر الموجود منها على الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها(٥٤) فيحصل من جراء ذلك ارتفاع هائل في الاسعار ومشاكل اقتصادية تشتد طبقا لشدة الاقبال عليها أو على العكس عند الحد منها • ويوضح بعد ذلك النتائج السلبية الاخرى الناجمة من جراء اقبال الناس على الانفاق العمودي باتجاه الحاجيات الكمالية بعد ان يمسي ذلك المصدر كثير العمران عظيم الترف حيث ستكثر « حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الاعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها » •

فإذا ما اعتقدنا ضمنا باتجاه معاكس لذلك اذا ما انتهج الناس سبيل الرشاد في نفقاتهم الاستهلاكية ، فسوف تسود الاسواق حالة من الاستقرار النسبي وحدوث التوازن المرجو بين عمليتي العرض والطلب ، وهذه قادرة في حقيقتها على وضع حد للمشكلات الاقتصادية الناجمة من الممارسات والتطبيقات غير الرشيدة في مجال النفقات الاستهلاكية لبعض أفراد المجتمع أو جميعه على وجه العموم(٥٥) •

اذا ما انتقلنا الى بيان الجوانب التطبيقية لمبادىء وسبل الترشيد التي فندها المفكرون المسلمون نجد ان رؤيا الافراد لها كانت متباينة فهناك جماعة اتخذت التدبير منهجا ومنطلقا لها في الحياة وكانت القناعة والرضا مسلكها واستمرار ديمومة أعمالها وخلود ذكرها • وتحفل كتب التراث بالاشارة الى نمط معيشتهم وايثار الغير على انفسهم • ولعل خير من يمثل ذلك هو الرسول (ص) الذي عمل على اذكاء هذا السلوك وتعميق معانيه ففي كتب التراث وصف دقيق لمبدأ ترشيد الانفاق الخاص بالرسول الكريم (ص) • منها ما جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها انها قالت : « كنا آل

محمد صلى الله عليه وسلم لنمكث شهرا ما نستوقد بنار ان هو الا التمر والماء »(٥٦) ٠

لقد أخذ الصحابة بسياسة الرسول (ص) وأضحى الترشيد سبيلا لهم للوصول الى طيب حياة القناعة والتخلص من كدر السعي وراء الدنيا وحياتها الفانية ٠ منها على سبيل المثال لا الحصر ما تتسم به حياة الخليفة عمر بن الخطاب والتي وصلت الى حد الكفاية في الطعام والشراب والكسوة حيث انه كان يقول : « يحل لي حلتان ، حلة في الشتاء وحلة في القيظ ، وما أصبح عليه واعتمر من الظهر وقوتي وقوت اهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم »(٥٧) ٠ كذلك ما ذكرته المصادر عن زهد وقناعة الخليفة عمر بن عبدالعزيز اذ لبس الخشن واتخذ التعفف هداية ومسلكا له منذ توليه الخلافة ووضح ابن سعد هذا الامر قائلا(٥٨) : « كان عمر بن عبدالعزيز من اعطر الناس والبس الناس واخيلهم مشية ، فلما استخلف قوموا ثيابه بأثنى عشر درهما ٠٠ »(٥٨) ٠

وضمن سياق تطبيقات سبل ترشيد الاستهلاك اشارت المصادر الى حياة الفقيه البصري محمد بن واسع (ت ١٢٣هـ/٧٤١م) من انه كان « يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج الى احد »(٥٩) ٠ كذلك ما ذكر عن قاضي الرشيد معاذ بن معاذ من انه كان يقسم ايراده الضئيل على مدى شهور السنة ويصرف منها بحد الضرورة بما يسد مسدها(٦٠) ٠

قلنا بأن مسيرة الناس نحو الترشيد الاستهلاك متباينة منهم من اتخذ هذا المسلك نهجا في الحياة باعتبارها منظور ديني واجتماعي لكن هناك فئة من الناس لم تسلك هذا المسلك الا بعد ان عركها الزمن وتكالبت عليها المشاكل وصقلتها الحياة حيث تعرضت الى أنواع من المحن والمشاكل واضحت بعد ذلك تنظر الى وجوب ترشيد نفقاتها على انه ايمانا واحتسابا

وضمانا لها في المستقبل . وبصدد توضيح ذلك فقد أشار التنوخي الى شخص كانت سنته في الحياة تقوم على بذل المال والعيش تحت كنف الدنيا وملذاتها حتى آل الدهر اليه بالفقر والمسكنة فتلقى من ذلك درسا قاسيا جعله يتجه الى التزام مبدأ يقوم على الترشيد والتدبير يكمن في الاقتصار على الحد الضروري من الاكل والفرش والركوب وقد وصف حاله قائلا : « ... فأن الحال لا تحتمل الاسراف .. انا الان في نعمة متوسطة وما قد افدته من العقل والعلم بأمر الدنيا واهليها يسليني عما ذهب مني وهذا .. فرشي وآلتي ومركوبي .. لم يكن ذلك بالعظيم المفرط ففيه ... تنعم وكفاية وهو يغنيني عن الاسراف والتخرق والتبذير وقد تخلصت من تلك الشدة »(٦١) .

يبدو من ذلك كله ان ترشيد الاستهلاك سبيل رصين في الحياة يسلكه كل من يبتغي السكينة والسعادة ومن يهبه الله القناعة والرضا وأخيرا خير ما نختتم به هذا البحث هو قول الجاحظ الذي بين الانفاق محدد بوسيلة الكسب اذا كان ذلك حلالا أو على العكس منه حيث قال : « ان كسب الحال مضمن بالانفاق في الحلال وان الخبيث ينزع الى الخبيث وان الطيب يدعو الى الطيب »(٦٢) .

ـ الخلاصـــة ـ

لقد تبين من خلال ما تم طرحـه من اراء وافكار ان مسـالة ترشيد الاستهلاك مسالة اقتصادية هامة وذات مؤشرات تكشف حقيقة التكافل الاجتماعي الذي ينبغي ان يسود العلاقات الانسانية . وقد كشف البحث ان لترشيد الاستهلاك اثر فاعل على جوانب متعددة من حياة الافراد والامم .

وان هذه الجوانب قد بينها المفكرون المسلمون كل بحسب موضوع اهتمامه ضمن الزاوية التي تصدى لتوضيحها . فنجد ان مسكويه قد نظر الى ترشيد

الاستهلاك نظرة عقلانية فيها تقويم لخلق الافراد وتكوين الفضائل المستديمة المتعارف بفعاليتها بين الافراد ، وهذا واضح من خلال تصـــديه لموضوع السخاء والفضائل المقترنة به • فيمكن القول بأن دعوة مسكويه لسياسة الترشيد كانت تكمن في الغاية التي ابتغاها في سبيل ارساء قواعد مجتمع مثالي متوازن اقتصاديا ومتكامل اجتماعيا وهذا ما تضمنه كتابه « تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » •

اما الماوردي فانه نظر الى الترشيد بصيغة حد الكفاية أو الحد الضروري من المعيشة منطلقا في طرح أفكاره من خلال منظور فقهي لواقع الاسس التنظيمية للجوانب المالية وبعض مستجداتها في فترة مبكرة من تأسيس الدولة العربية الاسلامية ، ومتخذا في ذلك قضية الزكاة ، ضوابط جبايتها وتوزيعها ، والعطاء ومقاييسه الاقتصادية كأساس لتوضيح جوانب حد الكفاية التي ابتغى طرحها في كتـابه « الاحكام السلطانية والولايات الدينية » •

واذا ما انتقلنا الى طروحات الغزالي فنجد يركز على الموضوع من خلال نظرة متصوف يحث على تبني الزهد في الحياة والقناعة والرضـا بالشيء اليسير التي تقع ضمن حدود الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق وهذه هي سمات عملية ترشيد الاستهلاك التي دعى اليها الغزالي وحدد مكانتها بين التقصير والاسراف لكل من الفقير والغني فكانت عز القناعة هي النقطة المركزية التي أراد طرحها الغزالي من خلال تصديه لهذا الموضوع في كتابة احياء علوم الدين • وقد جرى التركيز فيه على الاغنياء القادرين على التوسع في النفقة على ان لا يكون هذا التوسع على المآكل والملبس والمسكن بل على حب الخير ودعوتهم على تنفيذ المشاريع ذات الخيرات المستديمة كالمساجد والاربطة والمدارس وهذه بحكم منفعتها العامة سوف تجلب السكينة والسعادة الابدية للنفس الانسانية •

اما ابن خلدون فأن نظرته الى الترشيد تمثل نظرة مفكر اجتماعي قام بربط حياة البداوة المتسمة بالخشونة وحياة الحضـــر الموسومة بالترف والنعيم بمسائل سياسة هامة ذات نظرة مستقبلية ذات عـــلاقة بأسباب وعوامل قيام الامم وسقوطها . فبين ان في الترف والنعيم مردودات سلبية على الجوانب العسكرية والاقتصادية . فيسود في الاولى التخاذل والجبن وضعف المعنويات القومية وترافق الثانيــة مشاكل اقتصــادية مستديمــة وكلتاهما نذيرا مبنيا بسقوط هذه الامة أو تلك . في حين يكمن في الخشونة وشظف العيش الشجاعة والدفاع والاستبسال في سبيل الدفاع عن الارض والوطــن .

وهكذا نجد ان عرض مسألة ترشيد الاستهلاك قد جاء وفق اربعة محاور هي الفلسفة (الاخلاق) والفقه والتصوف وعلم الاجتماع وجميعها تدور حول نقطة واحدة غايتها ارساء قواعد مجتمع رصين قدير خالد بمبادئه وأهدافه الانسانية .

الهوامش :

(١) لسان العرب ، ج٣ (بيروت لا٠ت) ص١٧٥ ، باب رشد ٠

(٢) ٢/٣٥٢ ، باب رشد ٠

(٣) سورة التكاثر ، آية ١ ٠

(٤) سورة الانعام ، آية ١٤١ ٠

(٥) سورة النساء ، آية ٣٦ ٠

(٦) سورة الفرقان ، آية ٦٧ ٠

(٧) سورة البقرة ، آية ٢١٩ ٠

(٨) الطبري ، محمد بن جرير ، جامع البيان في تفسير القرآن م٢ (القاهرة ، ١٣٢٣هـ) ص٢١٣ ٠

(٩) الغزالي ، محمد بن محمد ، احياء علوم الدين ، ط٣ (القاهرة ١٣٤٧) ص٢٠٩ ٠

(١٠) ٢/٧٢٤ ، ٧٢٥ ٠

(١١) احياء علوم الدين ، ٤/٩٤ ٠

(١٢) اللسان ، ٥/٢٢٧ ٠

(١٣) الزبيدي ، ٦/٢٣٦ باب كف ٠

(١٤) ابن منظور ، ٨/٢٩٨ مادة قنع ٠

(١٥) الزبيدي ، ٥/٤٨٦ ٠

(١٦) آية ٩٧ ٠

(١٧) جامع البيان ، ١٤/١١٤ــ١١٥ ٠

(١٨) تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق (بيروت ، ١٣٩٨هـ) ص٤١ــ٤٢ ٠

(١٩) ن٠م ص٤٣ ٠

(٢٠) ن٠م ص١٠٦ ٠

(٢١) ن٠م٠ ص١٥٦ ٠

(٢٢) ن٠م٠ ص١٥٦

(٢٣) ن٠م٠ ص٧١ ٠

(٢٤) ن٠م٠ ص ٠

(٢٥) ن٠م٠ ص١٤٩ ٠

(٢٦) الاحكام السلطانية والولايات الدينية (بيروت ، ١٩٧٨م) ص١١٢ ٠

(٢٧) آية ٦٠ ٠

(٢٨) جامع البيان في تفسير القرآن ، ١١٣/١ ٠

(٢٩) ن٠م٠ ص١٢٢ ٠

(٣٠) ن٠م٠ ص١٢٤ ٠

(٣١) ن٠م٠ ص٢٠٥ـ٢٠٦ ٠

(٣٢) ن٠م٠ ص ٠

(٣٣) احياء علوم الدين ، ١٧٢/٤ ٠

(٣٤) ن٠م٠ ٢٠٥/٢ـ٢٠٦ ٠

(٣٥) ن٠م٠ ص٢٠٨/٣ ٠

(٣٦) ن٠م٠ ٢٠٩/٣ ٠

(٣٧) ن٠م٠ ٢١٠/٣ ٠

(٣٨) ن٠م٠ ٢١١/٣ ٠

(٣٩) ن٠م٠ ١٦٤/٤ ٠

(٤٠) ن٠م٠ ١٦٤/٤ ٠

(٤١) ن٠م٠ ص ٠

(٤٢) ن٠م٠ ١٦٥/٤ ٠

(٤٣) ن٠م٠ ١٦٩/٤ ٠

(٤٤) ن٠م٠ ٢٠٣/٣ـ٢٠٤ ٠

(٤٥) ن٠م٠ ٢٠٥/٣ ٠

(٤٦) ن٠م٠ ص ٠

(٤٧) المقدمة (القاهرة لا٠ت) ص١٦٩ ٠

(٤٨) ن٠م٠ ص١٦٧ ٠

(٤٩) ن٠م٠ ص١٤٠ـ١٤١ ٠

(٥٠) ن٠م٠ ص١٤٨ ٠

(٥١) ن٠م٠ ص١٦٨ ٠

(٥٢) ن٠م٠ ص١٦٩ ٠

(٥٣) ن٠م٠ ص١٦٨ ٠

(٥٤) ن٠م٠ ص٣٦٣ ٠

(٥٥) ن٠م٠ ص٣٦٤ـ٣٦٥ ٠

(٥٦) ج١٧ (القاهرة ، ١٩٧٢م) ص١٠٦ ٠

(٥٧) ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع البصري ، الطبقات الكبرى ، ج٣ (بيروت ، ١٩٥٨م) ص٢٧٦ ٠

(٥٨) الطبقات ، ٥/٤٠٢ ٠

(٥٩) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٣/٢٠٧ ٠

(٦٠) وكيع ، محمد بن خلف بن حيان ، اخبار القضاة ، ج٢ (بيروت ، لا٠ت) ص١٣٩ ٠

(٥٩) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ٣/٢٠٧ ٠

(٦٠) وكيع ، محمد بن خلف بن حيان ، اخبار القضاة ، ج٢ (بيروت ، لا٠ت) ص١٣٩ ٠

(٦١) الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ٠ ج٢ (بيروت ، ١٩٧٨) ص٣٨٦ ٠

(٦٢) البخلاء ، منشورات مكتبة النهضة (بغداد ، لا٠ت) ص١٤ ٠

المصـادر :

التنوخي ، المحسن بن علي بن محمد (ت ، ٣٨٤هـ/٩٩٤م) . الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي . دار صادر (بيروت ، ١٩٧٨م) .

الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ، ٢٥٥هـ/٨٦٨م) .

البخـلاء .

منشورات دار النهضة (بغداد ، لا.ت) .

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ، ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .

المقدمة ، المكتبة التجارية (القاهرة ، لا.ت) .

الزبيدي ، محمد مرتضى (ت ، ١٢٠٥هـ/١٧٩١م)

تاج العروس من جواهر القاموس .

(القاهرة ، ١٣٠٦هـ) .

ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ، ٢٣٠هـ/١١١١م)

الطبقات الكبرى (القاهرة ، ١٣٤٧هـ) .

الغزالي ، ابو حامد محمد بن محمد (ت ، ٥٠٥هـ/١١١١هـ)

احياء علوم الدين (القاهرة ١٣٤٧هـ) .

الطبري ، محمد بن جرير (ت ، ٣١٠هـ/٣٩٢٢)

جامع البيان في تفسير القرآن . (القاهرة ، ١٣٢٣هـ) .

ابن ماجه ، عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ، ٢٧٥هـ/٨٨٨م) .

السنن ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة ، لا.ت) .

الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ، ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)

الاحكام السلطانية والولايات الدينية (بيروت ، ١٩٧٨م) ·
مسكويه ، أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (ت ، ٤٢١هـ/١٠٣٠م) ·
تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق (بيروت ، ١٣٩٨هـ) ·
ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ، ٧١١هـ/١٣١١م) ·
لسان العرب ، دار صادر (بيروت ، لا·ت) ·
النووي ، يحيى بن شرف (ت ، ٦٧١هـ/١٢٧٢م) صحيح مسلم بشرح النووي · (القاهرة ، ١٩٧٢م) ·
وكيع ، محمد بن خلف بن حيان (ت ، ٣٠٦هـ/٩١٨م) ·
اخبار القضاة ·
عالم الكتب (بيروت ، لا·ت) ·

أثر قوانين حمورابي في الوثائق القضائية من نوزي

د. فاروق ناصر الراوي
جامعة بغداد ـ كلية الاداب
قسم الاثار ١٩٨٨

شهد الالف الثاني قبل الميلاد تدفق الاقوام الخورية على بلاد وادي الرافدين ، وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد تعاظم نفود هذه الاقوام واستطاعت تكوين دويلات لهـا في شمالي بلاد وادي الرافدين وفي شمال غرب سوريا ومشرق الاناضول .

ولعل ما وجد من نصوص مسمارية كثيرة في مدينة نوزي ومدينة أرنجا ومدينة كوروخاني خير شاهد على تواجد تلك الاقوام الغازية للمنطقة ان تلك النصوص المعروفة باسم نصوص نوزي والتي ينحصر زمنها بين نهاية القرن السادس عشر والقرن الرابع عشر قبل الميلاد . القت الضوء على الحضارة الخورية التي اقتبست اصولهـا من الحضارة العراقيـة القديمة ، لا سيما ما يتعلق منها بالخط والدين والقانون وحتى اللغـة والفن والعناصر الحضارية الاخرى(١) .

وعلى أية حال فان هذه النصوص لا تتضمن لوائح أو قوانين ولكنها احتوت على قضايا قانونية تخص القروض وعقود التبادل والتبني والاقرار وما الى ذلك . وعندما تناولنا مجمل هذه النصوص في دراستنا المستفيظة الخاصة برسالة الدكتوراه ، استطعنا من خلالها تكوين صورة واضحة عن العادات والقيم الاجتماعية . هذا فضلا عن تطور النظام القانوني الذي

يحكم تلك العادات والقيم ·

ولنأخذ على سبيل المثال مكانة الزوجة الثانية (الأمة أو ما يعرف « أم ولد ») والتي وردت في قوانين حمورابي لاسيما المـــادة ١٢٨(٢) والمادة ١٤٥(٣) هذا فضلا عن ورود كلمـــة hirtum والتي تعني الزوجة المختارة في الفقرتين ١٣٧ و١٣٨ والتي تنم بشكل أو بآخر عن وجود فرق بين الزوجة الاولى « وأم ولد » ·

اما في وثائق نوزي القانونية فنقرأ ان المـرأة ج اعطيت الى ش كزوجة ، وعند انجابها اطفالا فعلى ش ان لا يتزوج بأخرى ، ولكن عند عدم انجابها فان لـ ش الحق في الزواج من أمة Lulln ، او ربمـــا antu (اي امة من اللولوبو) ، أما بالنسبة الى ابنائها فان ش لن يبعدهم(٤) ·

ونقرأ في وثيقة أخرى ذكر في نهايتها « اذا كانت الزوجة عاقـرة يستطيع بعلها أخذ زوجة أخرى »(٥) ·

وبالمقابل نجد في قوانين حمورابي المادة ٣٩ الآتي :

« يجوز له (أي الريدوم أو البائيروم أو الناشيء بيلتم) أن يقطع لزوجته أو ابنته أي من الحقل أو البستان أو البيت الذي اشتراه وحصل عليه ، وله أن يعطيه مقابل ما بذمته من التزامات(٦) ·

ويطابق ذلك تقريبا ما ورد في الوثائق القانونية التي جاءتنـا من نوزي وأرنجا وكوروخاني لاسيما وثائق التبني Adoption :

ان باستطاعة المتوفى ترك ثروته لشخص يتبناه(٧) · وفي وثائق أخرى نرى ان المتوفى ترك ثروته الى زوجته وأولاده(٨) · ان مثل هذا الاجراء القانوني يطابق الى حد كبير ما جـاء في الفقرة ١٦٥ من قوانين حمورابي التي تنص على : « اذا أهدى رجل حقلا أو بستانا أو بيتا لابنه

المفضل في نظره · وكتب له بذلك رقيما مختوما ، فعندما يقتسم الاخوة (التركة) بعد ذهاب الوالد الى اجله ، عليه ان يأخذ الهدية التي اعطاها اياه والده ، وبالاضافة الى ذلك عليهم ان يتقاسموا أموال بيت الوالد بالتساوي »(٩) ·

وهذا ما يمكن ان تلمسه من خلال النصوص المسمارية المعروفة باسم شمتو Simtu (الوصية) التي جاءتنا من مدن نوزي وأرنجا وكوروخاني والتي ورد فيها : ان المدعو زيكي يستلم الهدية pistu لانه الوريث المفضل (aplisu sa insu nahru) وعلى بقية اخوانه عدم الاعتراض على مقاسمته لهم في بقية التركة (u ahhu nihutu ul izzuzzu)وبخصوص المدعو زيكي نفسه أو التي وجدت له وصية أيضا نقرأ فيها ان على ابنائه القسمة كل حسب حصته ودون التمييز بينهم ·

(u maru sa zikr ipalla ssunuti) ·· كما انه ترك حصة واحدة لزوجته · شريطة ان لا تعطيها الى رجل غريب (aweli nakari) (١٠) ·

ان هذا المثال يمكن ان نراه في مجموعة كبيرة من الرقم التي تعرف باسم tuppi simti · والتي جاءتنا من أرنجا ونوزي وكوروخاني(١١) · وعلى الرغم من المكانة الاجتماعية المرموقة آنذاك والتي حصلت عليها المرأة وحضيت بها في قوانين حمورابي وفي الوثائق القانونية من نوزي وأرنجا وكوروخاني ، ووصولا الى حد المساواة مع الرجل ، الا انه كان بالامكان ان تباع المرأة كأمة اذا ما وقع زوجها تحت ديون طائلة ·

وهذا ما يمكن أن يطابق الفقرة ١١٧ من شريعة حمورابي التي نقرأ فيها :

« اذا احرج رجل بسبب (حلول موعد) استحقاق الدين وباع (نتيجة ذلك) زوجته أو ابنه أو ابنته مقابل نقود او انه وضعهم تحت

عبودية (دائنه) ، فعليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو استعبدهم ثلاث سنوات وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة » ٠

وفي مثل هذا الوضع القانوني نجد ان المدعو لوكي باع ابنته كأمة الى تيختبـــلا ووفق عقـــد تبني يعـــرف بتبني الابنـــة أو الكنـــه (martutu u kallatutu) وبموجب هذا العقد حق لتيختبلا اعطاءها زوجة الى شخص آخر يدعى اكبشاري(١٢) ٠

كنا قد تناولنا في مناسبات سابقة وجود مفاهيم تتعلق بالسلطة في العراق جعلت من تأليه الملك فكرة لا تتفق واتجاه بلاد وادي الرافدين الحضاري ، فالسلطة لم تكن بيـد شخص واحـد وانمـا بيـد المجلس puhrum الذي كان حائلا دون اتجاه الحكم الى الاوتوقراطية ، أي حكم الغزو الاستبدادي ، هذا فضلا عن وجود انعكاس لذلك على الآلهة التي لها مجالسها أيضا ٠

وهذا يوصلنا حتما الى النتيجة القائلة ان مصدر السلطة العليا هي الآلهة لاسيما تلك التي بيدها عناصر القانون الاساسية كالحق kittum والعـــدل mesarum وحسب عقيدة العراق فان سيد الحق والعدل bel kittin u mestrlm هو الاله شمشي ومن القابه في شريعـة حمورابي : « القاضي العظيم للسماء والارض الذي أعطى بيده العدالة وبحق الى كل الاحياء من الناس »(١٣) ٠

ونعرف مثلا في حالة تضارب افادة الفرقاء المعنيين فان القاضي يطلب اداء اليمين أو الاحتكام الى النهر الالهي River ordeal ، حيث يلقى المتهم في النهر فأذا غرق فان ذلك دليل على كونه مذنبا اما اذا خرج سالما فانه بريء من التهمة(١٤) ٠

ولقـد ظل هـذا المبدأ قائما في العديد من العهود اللاحقة للملك حمورابي ٠٠ وما دمنا قد جددنا انفسنا باثر قانون حمورابي على الوثائق

القانونية الخورية من نوزي فسنعرض بايجاز لهذا المبدأ في قوانين حمورابي ثم نقارن ذلك مع ما وجد من نصوص مسمارية في منطقة نوزي .

وعلى الرغم من وجود مثل هذا التحكيم قبل عصر حمورابي ، الا اننا نجد أولى الاشارات القانونية له في شريعة حمورابي(١٥) ونقرأ في المادة الثانية من هذه الشريعة : « اذا اتهم رجل رجلا بتهمة السحر ، ولكنه لم يثبتها ، فعلى الذي اتهم بالسحر ان يذهب الى النهر ، وعليه ان يرمي نفسه في النهر ، فاذا غلبه النهر ، فعلى من اتهمه ان يستولي على بيته ، واذا اثبت النهر ان هذا الرجل بريء وخرج منه سالما ، فان الذي اتهمه بالسحر يعدم ، اما الذي خرج سالما من النهر ، فعليه ان يستولي على بيت متهمه »(١٦) .

« وتنص المادة ١٣٢ على الاتي » : اذا اشر بالاصبع على زوجة رجل بسبب رجل ثان ولكنها لم تضبط وهي تضاجع الرجل الثاني فعليها أن تلقي نفسها في النهر (لاثبات براءتها) لاجل زوجها » .

« اذا أسر رجل وكان في بيته الطعام (الكافي) فعلى زوجته ان تحافظ على نفسها (عفتها) مدة غياب زوجهـا ولا يحـق لها من دخول بيت رجل ثان » .

« فاذا لم تحافظ تلك المرأة على عفتها ودخلت بيت رجل ثان ، فعليهم أن يثبتوا هذا على تلك المرأة ويلقوها في الماء »(١٧) .

وعلى أية حال يجب أن نميز بين هاتين الحالتين والحالات الاخرى الواردة في شريعة حمورابي والتي تنص على اعدام المذنب بالغرق بالنهر والتي وردت في المواد (١٠٨) بحق السابيه Sabitu الخائنة ، (١٢٩) بحق المرأة الخائنة لزوجها ، و ١٣٣ بحق المرأة غير الطاهرة ، و ١٤٣ بحق المرأة التي لا تحترم زوجها ، و ١٥٥ بحق الرجل الذي يزني بزوجة ابنه .

أما في الوثائق القانونية من منطقة نوزي فعرف التحكيم بالنهر الالهي hursanu ووجد في أكثر من سبع عشرة وثيقة لاثبات تهم مختلفة يتعلق بالاستيلاء على حيوانات أو أشجار أو اثاث منزلية أو أموال غير منقولة . وغالبا ما يرد بالصيغة التالية :

« بخصوص كلمتهم سيذهبون الى (تحكيم) نهر خورشان »(١٨) .

assum a-wa-ti an-na-tu Ina IDhur-sa-an i-il-la-kn-u

ومن الاثار الواضحة لشريعة حمورابي في الوثائق القانونية الخورية ، أسماء رجال القضاء وموظفي دور العدالة وواجبات كل واحد منهم . فالملك كان المرجع الاعلى للقضاء كما هي الحال في قوانين حمورابي .. ويأتي بعد الملك القضاة الذين كان قرارهم قطعيا في حالة عدم رفع القضية أمام الملك نفسه . وهناك أيضا مجالس قضاء في المدن المختلفة وفي بواباتها احيانا أخرى كما هي عليه الحال في بلاد بابل ابان حكم الملك حمورابي . هذا فضلا عن وجود الشهود ، والكتبة والنادلين والمتخصصين باحضار المتهمين وشهود الاثبات والعارفين بمسح الاراضي المتحرين المتخصصين بفحص العقود وما الى ذلك . ومن الملاحظ ان معظم ان لم يكن كل اسماء تلك الحرف أكدية لكنها مشوبة ببعض التكملات الصوتية أو الصيغ النحوية الخورية(١٩) .

كما قمنا ببحث سابق لنا بتناول موضوع يتعلق ببعض الفقرات القانونية الاخرى ونقصد بذلك موضوع « الاعتداء والايذاء » الحاصل على الافراد والذي تقصيناه منذ أقدم العصور التأريخية وحتى الوقت الحاضر، ويمكن الرجوع اليه في مجلة سومر (العدد ٣٨ ، ١٩٨٢) .

وختاما يمكننا القول وبثقة ان القوانين العراقية القديمة ، التي أخذت طريقها الى بلدان أوربا بواسطة الاقوام الحثية والخورية وغيرها

من الاقوام الهندية الاوربية ، ان تلك التشريعات والقوانين الاصيلة أثرت في مجمل القوانين اللاحقة لها ، وما القوانين اليونانية ٠٠ الرومانية الا حلقة وصل بين الحضارة العراقية القديمة والحضارات القديمة الاخرى من جهة وبين حضارة عصـــرنا الحاضر(٢٠) ولنا في ذلك مقال آخـــر انشاء الله ٠

قدم ملخص البحث في الندوة العالمية

عن قوانين حمورابي

– الهوامش –

1 — AL-Rawi, Farouk M. H., Studies in the commorial life ol an Adminstative area of Eastern Assyria in the fiftcenth Century B.C., Based an Pulished and un puhlished Cuneiform Texts, ph. b, uc. c., u.h, 1977.

2 — Driver, G. R. and Miles, J. C., The Babylonian laws, 2 vols, Oxford, 1968, p. 246.

3 — Driver and Miles, op. cit, p. 297.

4 — Speiser, E. A., "Ney kirkuk Dacuments Relating to family taws", AASOR, x, (1930) p. 31f.

5 — Speiser, op. cit., p. 59. No. 26 and 28.

6 — Driver and Miles, op. cit., p. 24-25.

7 — Speiser, op. cit., pp. 13-18.

8 — Speiscr. op. cit., pp. 49-50.

٩ – رشيد ، فوزي ، الشرائع العراقية القديمة ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٧٩ .

10 — Speiser, op. cit., p 49ff.

11 — Beich R., Nuzi Last wills and Testameuts, Ph. D., dissertation, Brandeis unirersity, U.S.A. 1963.

12 — Gordon, G. H., "Fifteen Nuzi Tablets Relating to Women", La Maseon. RAO, XLVIII, 1935, p. 117f. See also: Occomiskey. The status of the secondary wife: Its Development., Ph. D. Dissertation, Brandeis University, U.S.A. 1965.

١٣ـ الراوي ، فاروق ناصر ، « القانون الجنائي والنظام العقابي في شريعة حمورابي » ، مجلة دراسات في التأريخ والاثار العدد (٦) .
انظر كذلك :

Driver and Miles, op. cit., vol. I, p. 36f and vol 2, pp 6ff.

41 — Driver and Miles, op. cit., col. I, 494ff.

51 — Licbermen, A. I, Studies in the Aneient Wacr East During the Second Millennium B. C., Ph. D., Brandeis university, U.S.A., 1969, pp. 9f.

61 — Driver and Miles, vol, 2, p. 13.

١٧ـ رشيد ، فوزي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

١٨ـ حول مزيد من النصوص المسمارية التي جاءتنا من نوزي والخاصة بالتحكيم بواسطة النهر الآلهي انظر :

Lieberman, op. cit., pp. 44-99.

91 — Hoyden, R. E., Court Procedure at Nuzn, Ph. D., dissertation, Brondeis university, U.S.A., 1962, the copy used published, 1970.

02 — Lieberman, op. cit., p. 1.

مراكز انتاج نسيج الحرير في العراق وطرق تسويقه

الدكتور
حمدان عبدالمجيد الكبيسي
قسم التاريخ / كلية الآداب

المقـــدمة :

تميزت مدن العراق وقصباته وبعض قراه بوجود صناعات متنوعة ، كانت قائمة فيها ، وتعتمد على المنتوجات الزراعية ، أو الحيوانية ، أو المعدنيـــة ·

ومنذ أن أصبح العراق جزء من الدولة العربية الاسلامية ، بعـــد تحريره ، اهتم الخلفاء وولاته بالعمل على تنشيط الصناعات التي كانت قائمة فيه ، وتحسينها وتطويرها · كما عملوا في الوقت نفسه ، على انشاء صناعات جديدة تطلبتها ظروف البلاد المستجدة ، والمرحلة المتقدمة التي وصلت اليها الدولة · فطبقت الحرية في العمل ، وفتحت المجال واسعا أمام جميع الفئات الاجتماعية في ممارسة العمل واختيار المهن التي تناسب كلا منهم ·

وحينئذ أصبح أهل العراق يضرب بهم المثل في « البراعة في كل صنعة »(١) · وبخاصة أهل الموصل الذين اشتهروا بالدقة في الصناعات ، ومنها صناعة نسيج الحرير(٢) ·

وخلال العصر العباسي الثاني صرنا نشهد تطورات داخلية في تنظيم

أهل الحرف والصنايع أكسبتها اطارها العام ، فأصبح لكل حرفة شيخ أو (رئيس) من أصحابها ، تعينه الحكومة عادة ، أو تعترف به ، وتعده ممثلا للحرفة(٣) • ومن الطبيعي أن يؤدي هذا النهج الى ايجاد الوسائل التي تحمي أصحاب الصنف ، وتبعد أي تجاوز عليهم • وفي حركة صناع المنسوجات القطنية والحريرية في بغداد عام ٣٧٤هـ/٩٨٤م ، حين فرض البويهيون المتسلطون ضريبة العشر على هذه المنسوجات ببغداد ، دليل أكيد على دقة التنظيم الذي وقف بوجه هذا التجاوز(٤) •

ومهما يكن من أمر ، فقد أقيمت في مدن العراق وقراه عدد كبير من المصانع البسيطة ، لصنع الزجاج والخزف ، ونسيج الحرير والقز والقطن ، وحياكة الصوف ، وأدوات الترف ، والاواني الزجاجية ، والدهون والمعاجين والزيت والعطور ، وماء الزعفران وماء الورس ، وشراب العنب ، وزيت البنفسج والصناعات الجلدية وغيرها •

المبحث الاول
عوامل تنشيط صناعة الحرير في العراق

١ ـ اجراءات المسؤولين :

كان المسؤولون في الدولة العربية الاسلامية قد أبقوا على الحرف والصنائع المحلية التي كانت قائمة في العراق قبل تحريره ، وعملوا على صيانتها وتحسينها وتطويرها •

وتلمس المسؤولون في الدولة ضرورة الدعوة الى اشاعة العمل والنشاط ، والسعي في سبيل زيادة الانتاج في العراق وبقية الاقاليم الاخرى ، ذلك أن نهج الدولة الاقتصادي كان متميزا عن بعض المذاهب الاقتصادية الاخرى • اذ هو يبغض الفقر ويكافحه ، ويدعو المواطنين الى العمل والجد ، وكسب المال الحلال واستثماره(٥) •

وطبقت الدولة مبدأ « الحرية في العمل »(٦) ، وأتاحت لاهل الذمة مزاولة الحرف والصنائع التي يرغبون مزاولتها ، فمارسوا أنواعا متعددة من الحرف والصنايع ومنها صناعة النسيج(٧) ٠

ودعت الدولة الى التسابق في اجادة العمل وخفض تكاليفه ، كما ضمنت للفرد حرية التصرف في نتاج عمله ٠ وهي بعملها هذا ، ألغت أو منعت حصول أي امتياز يستمد مدعيه من حكم الشرع ، أو من سيطرة ذوي السلطان(٨) ٠

وبلا ريب ، فقد كان للتقدم الحضاري الذي أصاب المجتمع في العراق، وبخاصة بعد أن أصبح مركز الدولة العربية الاسلامية ، أثره البعيد في ازدهار صناعة نسيج الحرير خاصة ٠ فقد تطلب هذا التقدم استحداث صناعات متنوعة ومتقنة ، الامر الذي أدى الى ازدياد عدد الصنايع والاهتمام بجودة الانتاج(٩) ٠ فضلا عن ارتفاع مستوى المعيشة الذي شمل قطاعا واسعا من المجتمع ، فأدى ذلك الى زيادة الطلب على المنتوجات الصناعية الضرورية منها والكمالية ، وبضمنها المنسوجات الحرير طبعا ٠ فادى هذا الى نشاط وازدهار صناعة المنسوجات الحريرية ٠

وقد جذبت الامصار الجديدة التي انشئت في العراق ، كالبصرة ، والكوفة ، وواسط ، وبغداد ، وسامراء وغيرها ، الكثير من الايدي العاملة ، لتوفر فرص العمل والكسب الحلال فيها ، ومنهـــا صناعة المنسوجات الحريرية ٠ وكانت قد أباحت وشجعت انتقال الايدي العاملة الى المدن والامصار الجديدة(١٠) ٠

ومما عزز النشاط الصناعي ، وزاد في ازدهاره ، أن الاسلام رفع من شأن العمل الى مصاف العبادة(١١) ٠ وجاء ذكره في القرآن الكريم في أمكنة متعددة(١٢) ، وحث الرسول (ص) في أحاديثه الشريفة على العمل

والكسب الحلال(١٣) ، وضرورة الجودة في الصنعة ، وزيادة الانتاج(١٤) ، وان الامام علي (رض) كان يتفقد بعض أهل الصنايع ويلزمهم بالدقة في العمل واتقان الصنعة(١٥) ٠

وانبرى الفقهاء لصوغ النظريات الفقهية التي تحث الناس على العمل وزيادة الانتاج(١٦) ، ومارس بعض الفقهاء العمل بانفسهم ومنه العمل في صناعة النسيج(١٧) ٠ ذلك ان اتقان الصنعة والانتاج الجيد كان أمرا يعد من صميم السلوك الديني الصحيح(١٨) ٠ واذا ما ظهر انتاج غير جيد عوقب صاحبه ، وربما منع من ممارسة المهنة(١٩) ٠

ووجهت العناية الى ضرورة كون المواد الاولية التي تعتمد عليها صناعة الحرير نقية وجديدة ، وغير تالفة(٢٠) ٠ كما حصلت العناية الكافية بشجرة التوت التي كان يربى على أوراقها دود القز الذي تنامت أهميته لانتاج خيوط الحرير ٠

واهتم والي العراق زياد بن أبيه بتنشيط الصناعات التسيجية ، ومنها نسيج الحرير ٠ اذ يعتبر أول من أدخل صناعة المنسوجات في مدينة البصرة(٢١) ٠ وحتى تنشط هذه الصناعة ، ويقبل الناس على استعمال المنتوجات المحلية ، أقدم والي العراق زياد بن أبيه على ارتداء ملابس تصنع في مدينة البصرة ، وقلده كثير من السكان ، الامر الذي نشط هذا النوع من الصناعة(٢٢) ٠

وعرف عن الخليفة الاموي سليمان بن عبدالملك أنه كان يفضل لبس الثياب الرقاق ، وثياب الوشي (الحريرية المطرزة) التي كانت تصنع في مدينة الكوفة ، وتحمل الى الخليفة بالشام(٢٣(٠

ومما ساعد على ازدهار صناعة الحرير ، كون بعض المسؤولين ، وكثير من الناس ، كانوا يفضلون لبس ثياب الوشي جبابا واردية وسراويل

وعمائم وقلانس • كما أن الدولة الزمت موظفيها الكبار بضرورة ارتداء الثياب المصنوعة من الوشي • وهذا الطلب الزائد شجع الصناع على تحسين منتوجاتهم ، وعلى الاكثار من أنواعها •

٢ ـ مراكز انتاج نسيج الحرير :

تعد الموصل في مقدمة مدن العراق في انتاج نسيج الحرير ، كما اشتهرت بها أنسجة « الشاشي » التي كانت لها شهرة واسعة ، وقد انتشرت الى الغرب الاوربي باسم « موسلين » • وكان ياقوت قد وصف مدينة الموصل بأنها : « محط الركبان ، ومنها يقصد جميع البلدان ، فهي باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ومنها يقصد الى أذربيجان »(٢٥) • ويؤكد « ياقوت » على أن القاصد الى المشرق والمغرب لابد أن يمر بمدينة الموصل • فلا غرو والحالة هذه أن اشتهرت هذه المدينة بصناعات كثيرة ومختلفة ، وفي مقدمتها صناعة نسيج الحرير • فتشير الروايات التاريخية الى وجود صناعة « الوشي » ، وهو نسيج من الحرير فطرز برسوم أشخاص ، أوحيوانات ، وأغصان النباتات(٢٦) • وفي الاعم الاغلب ، كانت رسومه هذه مزينة بخيوط الذهب • وصنع في الموصل أيضا الثياب الحريرية الرقيقة ، ذات الاطراف والالوان الجميلة • هذا فضلا عن نوع آخر من نسيج الحرير الذي كان يعمل منه الستائر الجيدة ، التي كان يصدر منها الى الخارج لانها كانت تفيض عن حاجة السوق المحلية • وكان نسيج بعض الستائر يطرز بخيوط من الفضة والذهب(٢٧) •

وقبل عمليات تحرير العراق اشتهرت مدينة الحيرة بصنع نوع جيد من الحرير • وقد تطورت هذه الصناعة خلال العهدين الاموي والعباسي كثيرا ، وان منتوجاتها كانت تلاقي رواجا كبيرا في الاسواق ، لجودة صنعها ، وتناسق ألوانها(٢٨) •

وامتدت صناعة نسيج الحرير الى مدينة النعمانية التي هي الاخرى برزت بهذا النوع من الصناعة ، لاسيما ذات اللون الاصفر(٢٩) ·

وكانت مدينة البصرة مشهورة بصناعة نسيج الحرير الرقيق الذي كان يصنع من نوع من خيوط الصوف والحرير ، الذي تصنع منه الثياب · كما تعمل منه الفوط الثمينة التي تلفها المرأة على رأسها(٣٠) · وصنع في البصرة أيضا نسيج البز الثمين المكون من خيوط الحرير والقطن · وصنع في البصرة ثياب المطارف ، ونسيجها من خز موشى بالوان من غير لونه(٣١) ·

وفي مدينة الابلة وجدت صناعة الانسجة الرقيقة بنوعيها المطرز وغير المطرز ، الذي فيه نسبة عالية من الحرير(٣٢) ·

وللكوفيين مهارة متميزة في صنع نسيج الوشي المطرز الذي كان يصنع من الحرير · كما صنع في الكوفة الخز ، وهو نوع من الحرير ، يتكون نسيجه من خيوط الحرير والصوف · وكانت تصنع منه العمائم المشهورة التي استعملت غطاء للرأس(٣٣) ·

واشتهرت مدينة ميسان بصناعة نوع جيد من الحرير كان يستعمل للثياب والستائر وغيرها · ذلك ان (ابن الفقيه) يذكر أن في بعض كور دجلة والسواد ــ ومنها ميسان ــ كان يصنع الحرير وأنواع أخرى من الاقمشة(٣٤) ·

وأشار « الى صاحب الاغاني » ، الى وجود أنسجة حريرية فاخرة منذ وقت مبكر من تحرير العراق ، حيث أشارت الروايات التاريخية الى أن مصعب بن الزبير الذي كان واليا على العراق لاخيه عبدالله ، في حدود سنة ٧٠هـ/٦٩٠م ، كان قد أهدى عمر بن ربيعة مجموعة من الحلل من الوشي والخز والحرير العراقي الصنع(٣٥) ·

وظهرت في مدينة واسط صناعة أنواع متعددة من الاقمشة ، ومنها أنسجة حريرية ، كانت تتكون من ألوان متعددة · وقد ظلت هذه الانسجة محتفظة بجودتها لفترة طويلة · وأشار « الخطيب البغدادي » الى أنهـا زينت قصر الخليفة المقتدر بالله العباسـي (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ / ٩٠٧ ـ ٩٣٢م)(٣٦) ·

واعتبرت مدينة واسط أشهر محل للصبغ بالقرمز ، وان الصباغين بهذه المدينة كانوا قد تفننوا في صناعة الصباغة لايجاد أنواع متعـددة وجيدة من الالوان ، وذلك لاظهار رسوم قماش الحرير بألوان زاهية(٣٧) ، وان الحكومة كانت تؤجر لهؤلاء العمـال حوانيت في الاسـواق بأجـور محددة(٣٨) ·

ومنذ تأسيس بغداد ، واتخاذها حاضرة الدولة العربية الاسلامية ، نشأت فيها عدة صناعات وفي مقدمتها صناعة الحرير · اذ تشير الروايات التاريخية الى أن الحياكة في بغداد ازدهرت منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي(٣٩) · فكانت في بغداد تصنع المنسوجات الحـريرية الفاخرة بألوان متعددة · وصنع في بغداد أيضا نسيجا حريريا سميكا وردي اللون ، ونسيجا آخر جيدا يدعى ـ الملحم ـ ، سداه من الحرير ، ولحمته من القطن أو الصوف(٤٠) ·

وفي عهد الخليفة المنصور صنع في بغـداد « الثياب المنصورية » (نسبة الى الخليفة المنصور) · وكان نسيج هذه الثياب ، سـداه من الحرير ولحمته من الصوف(٤١) · كما اشتهرت محلة التستريين ببغداد بنسيج ثياب جميلة ورقيقة الملمس سداه ولحمته من الحـرير الجيد · وصنع في بغداد نسيج مزركش بالذهب ، مشـهور بالجـودة ، يسمى (السقلاطون) الذي وضعت فيه نسبة قليلة من خيوط الذهب مع خيوط الحرير(٤٢) ·

ولاقت الثياب العتابية التي كانت تصنع في محلة العتابية بجانب الكرخ ببغداد ، وتنسب اليها ، شهرة كبيرة - وهي ثياب مخططة تحاك من خيوط الحرير والقطن بألوان زاهية ومختلفة • وكانت لهـذه البضاعة شهرة واسعة لذلك صدرت الى أنحاء وأقاليم أخرى من الدولة العباسية ، كما صدر منها الى دول أخرى(٤٣) •

واستعمل اسم نسيج الحـرير العتابي في اللغـة الاسانية بلفظ Attabi ، ومنهـا انتقلت الى الايطـالية والفرنسية بلفظ (تابس) Tabis ، واستعمل الانكليز لفظة Tabby للدلالة على نوع جيـد من المنسوجات الحريرية(٤٤) •

وثم سماسرة مختصون يحددون الثمـن الحقيقي للاقمشـة المـراد تصديرها ، ومنها الحرير ، في حين يوجد عمال آخـرون يختمون اللفاف المحزومة المراد تسليمها للتجار الاجانب ، حيث تتم عملية التصدير عبر الطرق المخصصة لذلك • وعادة كان هؤلاء التجار يثقون بالسماسرة ، ويشترون اللفاف الحريرية المحزومة من غير أن يفكوا حبالها ، وأحيانا تكون هذه البضائع الحريرية المصدرة مختومة بختم رسمي(٤٥) •

المبحث الثاني
طرق تسويق نسيج الحرير

توافرت جملة عوامل ، طبيعية ، وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية هيأت للعراق ظروفا ملائمة لكي تنقل السلع المنتجة في بعض مدنه وقراه ، والفائضة عن حاجة السوق المحلية ـ ومنها نسيج الحرير ـ ، من مناطق الانتاج ، الى مدن وأقاليم أخرى من الدولة العربية الاسلامية • ذلك أن العراق مد تأثيراته السياسية والحضارية والاقتصادية ، الى جميع أقاليم الدولة ، من خلال امتلاكه أهم منافذ التأثير الحضاري ، بما فيه الشـق

التجاري • ذلك أن التجارة ، كانت وما زالت ، تدر على محترفيها أرباحا طائلة(٤٦) •

ومن المؤكد ، أن التجار الذين أسهموا في نقل وتسويق نسيج الحرير ، سلكوا أسهل الطرق وأكثرها أمنا • حيث تتوفر المحطات التي تنزل بها القوافل التجارية خلال تنقلها(٤٧) •

لقد وجدت في العراق شبكة من الطرق ، تربط بين مدنه وقراه ، كما تربطها ببقية أقاليم الدولة الاخرى • ذلك أن موقعه المتميز أهله لان يكون المركز الذي يمتلك منافذ عديدة ، نحو الجنوب والشمال ، والغرب والشرق • فكان التجار يسلكون الطرق في هذه الاتجاهات في أثناء جلبهم السلع التجارية ، ومنها الحرير طبعا(٤٨) • الا أن نشاط الطرق التجارية يخضع لمتغيرات عديدة ، منها وفرة انتاج السلع المصدرة ، وقوة الدولة ، ومستواها الحضاري ، وطبيعة علاقتها مع الدول التي تريد أن تتاجر معها ، واستتباب الامن على الطرق التي يسلكها التجار ، وتطور الطرق وتسويتها ، ووسائل النقل المستخدمة فيها • وبلا ريب ، فان كل هذه العوامل تسهم ، منفردة أو متفاعلة ، في تنشيط الحركة التجارية ، وزيادة حجم السلع ، ومنها الحرير ، المنقولة عبر هذه الطرق •

وكانت الطرق المائية أنشط من الطرق البرية ، حيث كانت السفن النهرية نشطة في نقل البضائع بنهري دجلة والفرات ، وهما أبرز ظاهرة طبيعية في المنطقة ، فضلا عن نهر عيسى ، الذي كانت مياهه غزيرة بحيث يسهل على السفن التجارية المحملة بالحرير وغيره ، السير فيها(٤٩) • وكانت سعة هذه السفن تتراوح ما بين ستة عشر ذراعا ، الى عشرين ذراعا(٥٠) • وكان بالامكان تحويل السفن ـ بقرب بغداد ـ من نهر دجلة الى نهر الفرات وبالعكس(٥١) •

ونستطيع أن ندرك نشاط الطرق التجارية المائية من كثرة السفن

التجارية المصعدة والمنحدرة عبر نهر دجلة ، ما بين بغداد ومدينة البصرة(٥٢) ، أو الصاعدة الى مدينة الموصل · وقد تطلب الامر قيام مرفأ خاص في محلة باب الشعير الكائنة في القسم الشمالي من مدينة المنصور ، ترسو فيه السفن المحملة بالحرير وبضائع أخرى واردة من الموصل أو البصرة(٥٣) · ان نشاط هذه الطرق يدعونا لان نؤكد من خلاله ضخامة حجم التبادل التجاري عامة ، والحرير خاصة ·

وتوجد محطات على الطرق النهرية الهامة ، يحرسها حراس ، وتجبى فيها الضرائب ، تسمى المآصر ، اذ تؤصر السفن والقوافل التجارية ولا يسمح لها بالاجتياز ، أو المرور ، الا بعد دفع الضرائب المقررة(٥٤) · ويكون لدى الموظفين المسؤولين عن المآصر عادة سلسلة ، أو حبل ، يشد معترضا في النهر أو الطريق ، يمنع السفن من المضي(٥٥) · ولدينا اشارة الى ان عمر بن قيس كان يتولى مهمة المآصر في نهر الفرات قرب الكوفة(٥٦) ·

ويبدو أن هناك عددا من المآصر على نهر دجلة ، منها مأصر دير العاقول(٥٧) ، ومأصر صريفين قرب واسط ، الذي كان يشرف عليه الامير « مسروق » المشهور بعفته وأمانته ، ابان ولاية زياد بن أبيه · وكان (مسروق) قد اتخذ في هذا المأصر اسلاسل بدل الحبال · ويشير « بخشد » الى أن وارد هذا المأصر كان عشرين الف درهم(٥٨) ·

غير أن مثل هذه المآصر كانت ترفع أحيانا ، وتعفى السلع المنقولة ومنها الحرير ، من دفع الضرائب ، الامر الذي أدى الى رواج سوقها(٥٩) ·

ويظهر أن اسقاطها وازالتها لم يكن طويل الامد ، فقد تعود هذه المآصر والضرائب الى ما كانت عليه · وبلا ريب ، فان ذلك أثر على تجارة الحرير · غير ارتفاع شكاوى الناس ، اضطر المسؤولين الى الغائها مرة أخرى سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م(٦٠) ·

وعلى الرغم من أن أخبار المآصر البرية نزر للغاية ، لكنها مع ذلك كانت موجودة ، لاسيما بعد أن انفصلت بعض الاقاليم عن جسم الدولة العباسية • فكانت المآصر البرية تقام بين اقليم وآخر ، أو مقاطعة ومقاطعة ، وفيها يجري التفتيش وأخذ الضرائب من الوارد والصادر(٦١) •

وبلا ريب فان تحول الطرق البحرية ، عبر الخليج العربي ، كان ايذانا بزيادة أهمية الطرق التجارية عبر العراق الذي كان آنذاك يشكل مركز الخلافة العربية الاسلامية • وعندئذ تحول الخليج العربي الى بحيرة عربية ، أقاموا عليها الموانىء التي استقبلت السفن التجارية العربيـة والاجنبية على حد سواء ، بحيث كانت الابلة والبصرة تشحنان البضائع ، ومنها الحرير ، الى ميناء سيراف العربي ، وموانىء سواحل عمان ، ومن ثم الى المحيط الهندي ، باتجاه الشرق الاقصى(٦٢) •

ونستطيع أن ندرك أهمية التأثير التجاري مع الشرق الاقصى ، أن وصل عدد كبير من المسلمين الى الصين ، وكونوا هناك جالية لها مساجدها التي كانت تقام بها الصلاة ، ويدعى فيها لخليفة المسلمين في أيام الجمعة والاعياد على المنابر(٦٣) •

ونظرا لاستواء سطح العراق بشكل عام ، أصبحت المواصلات البرية سهلة ونشطة • ونستطيع أن نميز خمس طرق رئيسة تنطلق من حاضرة الخلافة العباسية بغداد هي :

١ ــ طريق شمالي يتجه نحو مدينة الموصل والجزيرة الفراتية ، مارا بالمدن المهمة التي تقع على ضفتي نهر دجلة مثل ، عكبرا وسامراء ، والسن ، والبوازيج ، والحديثة ، وتكريت • كما يوجد طريق يربط الموصل بالبحر المتوسط ، مرورا بسنجار •

٢ ــ طريق جنوبي يتجه الى البصرة ، مارا بالمدائن ، وواسط ،

وميسان وبقية المدن المهمة التي تقع على نهر دجلة جنوب بغداد ·

٣ ـ طريق جنوبي غربي يتجه نحو الكوفة ومنهـا الى مدن شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة مدن الحجاز المقدسة (مكة والمدينة) ، عبر حائل · وعرف هذا الطريق في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بطريق زبيدة ، أو طريق الحج · ويستمر هذا الطريق جنوبا حتى ينتهي بمدن اليمن ·

٤ ـ طريق غربي يتجه الى الرقة ، محاذيا لنهر الفرات ، مارا بالانبار ، وهيت ، وعنه ، ثم الرقة ، حتى يصل الى مدن بلاد الشام ، وبخاصة مدينة حلب التي تعتبر عقدة هامة للمواصلات · ومن هناك يتجه نحو مصر وشمال افريقيا(٦٤) ·

٥ ـ طريق شرقي بغداد ، الى حلوان ، ومنها الى أقاليم الدولة الشرقية من خلال منافذ تخترق جبال زاجروس ·

٦ ـ ويوجد طريق آخر يبدأ من البصرة ويسير في غربي نهر الفرات ، مبتعدا عن مجرى النهر بحدد خمسين كيلومتر ، مارا بشتاتة ، والرحالية ، وكبيسة ، ثم يخترق بعض الوديان حتى يصل الى دمشق « عبر طريق الساعي » · وتقع هذه المراكز ضمن خط العيون التي تكون مياهها ضرورية للقوافل التجارية التي تسلك هذا الطريق ·

والحق ان الدولة العربية الاسلامية اهتمت كثيرا بانشاء الطـرق وصيانتها وحمايتها ، الامر الذي جعل القوافل التجارية تصل الى الاسواق التي تقصدها بسرعة · وكانت الجمال أهم وسائل النقل في مثل هــذه الطرق ، فضلا عن الخيول والبغال والحمير ، وكان التجـار يستعينون بالادلاء حتى لا يضلوا الطريق(٦٥) ·

الهوامش :

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص٣٨ ·
(٢) الخربوطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ، ص٣٥٧ ·
(٣) ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص٣٠ ·
(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٧ ، ص١٢٧ ·
(٥) الصالح ، النظم الاسلامية ، ص٢٦٥ ·
(٦) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، ص١٧ ·
(٧) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٨٣ ·
(٨) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج٢ ، ص‌ص٦٠ـ٦١ ·
(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢ ، ص‌ص١٣ـ١٤ ·
(١٠) اليعقوبي ، البلدان ، ص٢٤٨ و٢٥١ · المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص٥٥ ·
(١١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٦٠ ·
(١٢) انظر : سورة الملك ، آية ١٥ · وسورة الجمعة ، آية ١٠ · وسورة يس ، آية ٣٠ ·
(١٣) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج٢ ، ص‌ص٦٠ـ٦١ ·
(١٤) الكتاني ، التراتيب الادارية ، ج٢ ، ص٨٣ ·
(١٥) الابشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ج٢ ، ص‌ص٥١ـ٥٢
ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢ ، ص٣١ ·
(١٦) البخاري ، صحيح البخاري ، ج٣ ، ص‌ص١٨٦ـ١٨٧ ·
الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج٢ ، ص‌ص٦٠ـ٦١ ·
ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، ص٢٧٣ ·
(١٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٣٤٩ ·
(١٨) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص٦٥ ، ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص١١٠ · الأخوة ، معالم القربة ، ص١٣٦ ·

(١٩) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص٦٥ و٧٢ ، ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص١٣٥ ، ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص٤٣ .

(٢٠) ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص١٩٦ ، ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص١٤٠ و٢٣٨ .

(٢١) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٩٢ .

(٢٢) الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص١٧ .

(٢٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٢٠٥ .

(٢٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص١٧٥ .

(٢٥) ياقوت ، معجم البلدان ، (بيروت) ، ص٦٨٣ .

(٢٦) العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص٢٤٨ .

(٢٧) الخطيب البغدادي ، بغداد ، ج١ ، ص١٠٢ و٥٢ .

(٢٨) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٨٦ .

(٢٩) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٩٦ .

(٣٠) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٩٢ .

(٣١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٤ ، ص٣٣٤ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ج١ ، ص ٢٨٩ .

(٣٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص‌ص١٣ـ١٤ .

الخربوطلي ، العراق في ظل الحكم الاموي ، ص٣٦٠ .

(٣٣) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٩٢ .

(٣٤) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص٢٥٣ .

(٣٥) الاصفهاني ، الاغاني ، ج١١ ، ص٢١٤ .

(٣٦) الخطيب البغدادي ، بغداد ، ج١ ، ص٥٢ و١٠٥ .

انظر : ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٥٣ .

المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٢٩ .

(٣٧) الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، ص٣٢ .

(٣٨) وكيع ، اخبار القضاة ، ج١ ، ص٣٥٧ ٠

(٣٩) الدمشقي ، الاشارة الى محاسن التجارة ، ص٢٤ ٠

(٤٠) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص١٧٥ ٠
المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٢٨ ، الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص٨٩ ٠

(٤١) زوزي ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ص٦٩ ٠

(٤٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣١ ٠
الشيخلي ، الاصناف ، ص١٤٦ ٠

(٤٣) لسترانج ، بغداد ، ص١٢٢ ٠

(٤٤) ن٠م ، صص١٢٢ــ١٢٣ ٠

(٤٥) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج٢ ، ص٣٥٥ ٠

(٦٤) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص١٤١ ٠ الكبيسي ، أسواق بغداد ، ص١٧٩ ٠

(٤٧) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ،ص٤١ و١٥٣ ٠

(٤٨) ابن خردازبة ، المسالك والممالك ، ص٤١ و١٥٣ ٠

(٤٩) اليعقوبي ، البلدان ، ص٢٥٠ و٢٥٣ ٠ الاصطخري ، المسالك
الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٥٨ ٠
والممالك ، ص٥٩ ٠ متز ، الحضارة الاسلامية ، ج٢ ، ص٢٩٠ ٠

(٥٠) الصابي ، الوزراء ، صص١٥٦ــ١٥٧ ٠
متز ، الحضارة الاسلامية ، ج٢ ، ص٢٩٠ ٠

(٥١) اليعقوبي ، البلدان ، ص٢٥٠ ٠ مسكويه ، تجارب الامم ، ج١ ، صص١٧٥ــ١٧٦ ٠ الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ، ج١ ، ص٥٣ ٠

(٥٢) الصولي ، الاوراق ، ص٢٠٦ ٠

(٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٠٨ ٠

(٥٤) ميخائيل عواد ، المآصر ، ص٨ ٠

(٥٥) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص٧٠ ٠

(٥٦) عواد ، المآصر ، صص٩ــ١٠ ٠

(٥٧) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص١٨٦ ٠

(٥٨) بخشل ، واسط ، صص٦ــ٧ ، نقلا عن : عواد ، المآصر ، صص ١٢ــ١٣ ٠

(٥٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص٢٢٧ــ٢٢٨ وج١٠ ، ص٧٨ــ٧٩ ٠
ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ، ص٤٧ ٠

(٦٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٠ ، ص١٤٣ ٠

(٦١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، صص١٣٣ــ١٣٤ ٠ عواد ، المآصر ، ص٢٢ ٠

(٦٢) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص١٤٦ و١٥٣ ٠

(٦٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج٢ ، صص١٥٦ــ١٥٧ ٠
الصيني ، العلاقات التجارية بين العرب والصين ، ص١٣٧ ٠

(٦٤) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص١٤٦ ٠

(٦٥) الدوري تاريخ العراق الاقتصادي ، ص١٤١ و١٤٦ ٠

أهم المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ ابن الاثير ـ علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٧ .

٣ ـ ابن بسام ـ محمد بن أحمد (عاش في القرن الثامن الهجري) .
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٨ .

٤ ـ ابن بطوطة ـ محمد بن عبدالله بن ابراهيم الطنجي (ت ٧٧٩هـ) .
رحلة ابن بطوطة ، جزءان ، مطبعة وادي النيل ، القاهرة ١٢٨٧هـ .

٥ ـ ابن الجوزي ـ عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٧٩هـ) .
المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٧هـ .

٦ ـ ابن خرداذبة ـ أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ) .
المسالك والممالك ، طبع بالاوفسيت لمكتبة المثنى ببغداد .

٧ ـ ابن خلدون ـ عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) .
مقدمة ابن خلدون ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٥ .

٨ ـ ابن رسنة ـ أحمد بن عمر (ت ٣١٠هـ) .
الاعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩١ .

٩ ـ ابن عبد ربه ـ أحمد بن محمد المرواني الاندلسي (ت ٣٢٨هـ) .
العقد الفريد ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٥٣ .

١٠ـ ابن الفقيه الهمداني ـ أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ) .
مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٥ .

١١ـ الابشيهي ـ محمد بن أحمد بن منصور (ت ٨٥٠هـ) .
المستطرف في كل فن مستظرف ، المطبعة الكستلية ، القاهرة ١٢٧٩هـ .

١٢ـ الاصطخري ـ ابراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ) .

المسالك والممالك ، مطابع دار القلم ، القاهرة ١٩٦١ ٠
١٣ـ الاصفهاني ـ أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) ٠
الاغاني ، مطابع موستاتسوماس ، القاهرة ١٩٦٣ ٠
١٤ـ الثعالبي ـ عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ) ٠
لطائف المعارف ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠ ٠
١٦ـ الجاحظ ـ عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) ٠
التبصر بالتجارة ، دمشق ١٩٣٢ ٠
١٧ـ الخربوطلي ـ علي حسني (الدكتور) ٠
تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ، القاهرة ١٩٥٩ ٠
١٨ـ الخوارزمي ـ محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٤٠٧هـ) ٠
مفاتيح العلوم ، مطبعة الشرق ، القاهرة ١٣٤٢هـ ٠
١٩ـ الدمشقي ـ جعفر بن علي (ت ٥٧٠هـ) ٠
الاشارة الى محاسن التجارة ، مطبعة المؤيد ، دمشق ١٣١٨هـ ٠
٢٠ـ الدوري ـ عبدالعزيز (الدكتور) ٠
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ١٩٤٨ ٠
٢١ـ دوزي ـ رينهارت ٠
المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، بغداد ١٩٧١ ٠
٢٢ـ الدينوري ـ أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) ٠
الاخبار الطوال ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٨ ٠
٢٣ـ الصابي ـ أبو الحسن الهلالي بن المحسن بن ابراهيم (ت ٤٤٨هـ) ٠
تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، بيروت ١٩٠٤ ٠
٢٤ـ الصولي ـ أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) ٠
اخبار الراضي بالله والمتقي لله (الاوراق) ، مصر ١٩٣٥ ٠
٢٥ـ الصيني ـ بدرالدين ٠ ص ٠
العذقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠ ٠

٢٦ـ الطبري ـ محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) ٠
تاريخ الرسل والملوك ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ ٠
٢٧ـ عواد ـ ميخائيل ٠
المآصر في بلاد الروم والاسلام ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٨ ٠
٢٨ـ الغزالي ـ أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) ٠
احياء علوم الدين ، بولاق ، مصر ١٣٠٩هـ ٠
٢٩ـ الكبيسي ـ حمدان عبدالمجيد (الدكتور) ٠
أسواق بغداد ، دار الحرية ، بغداد ١٩٧٩ ٠
٣٠ـ لسنترانج ـ غي ٠
بغداد في عهد الخلافة العباسية ، المطبعة العربية ، بغداد ١٩٣٦ ٠
٣١ـ متز ـ آدم ٠
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة ١٩٤٨ ٠
٣٢ـ المسعودي ـ علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) ٠
ـ التنبيه والاشراف ، مطبعة خياط ، بيروت ١٩٦٥ ٠
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٣٠٣هـ ٠
٣٣ـ مسكويه ـ أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ) ٠
تجارب الامم وتعاقب الهمم ، القاهرة ١٩١٥ ٠
٣٤ـ المقدسي ـ محمد بن أحمد (ت ٣٨٧هـ) ٠
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٦ ٠
٣٥ـ ياقوت ـ أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ) ٠
معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت ، (بيروت بلا) ٠
٣٦ـ اليعقوبي ـ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ) ٠
البلدان ، بريل ، ليدن ١٨٩٢ ٠

صراع السلطة بين بريطانيا والملك فيصل الاول

الدكتور محمد مظفر الادهمي
استاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية التربية ـ الجامعة المستنصرية

تعتبر احداث الفترة الواقعة بين تتويج فيصل بن الحسين ملكا على العراق في ٢٣ آب ١٩٢١ وبين الذكرى الاولى لتتويجه عام ١٩٢٢ ، من الفترات التي تمت دراستها وتغطيتها ، فقد دون احداثها المؤرخ العراقي السيد عبدالرزاق الحسني في كتابيه الوزارات العراقية وتاريخ العراق السياسي الحديث ، كما كتب عنها Ireland في كتابه المعروف عن العراق Iraq, Astuy in Political Development وتناولتها في اطروحتي للماجستير « المجلس التأسيسي العراقي » اضافة الى ما كتبه المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه تاريخ القضية العراقية .

ان احداث هذه الفترة وباختصار تتعلق بمطالب القادة السياسيين الوطنيين وعلى رأسهم الملك فيصل ، بالغاء الانتداب البريطاني على العراق واحلال معاهدة صداقة مع بريطانيا محله تعتمد مبدأ المصالح المتبادلة . وعليه فقد رفض الملك فيصل تصديق موافقة مجلس وزرائه برئاسة عبدالرحمن النقيب على المعاهدة العراقية ـ البريطانية لانها لم تلغ الانتداب البريطاني ، بل حلت بنود الانتداب فيها . وفي الواقع فأن بريطانيا كانت تريد من المعاهدة وسيلة لتنفيذ الانتداب وليست بديلا عنه كما يريد فيصل والعراقيين . ولقد أدى ذلك الى الصدام بين فيصل والبريطانيين الذين اجبروه في النهاية على التوقيع عليها بعد ان هددوه بضياع العراق كدولة وعرشه كملك ، وكذلك عرش والده في الحجاز(١) .

ان فترة الاثني عشر شهرا هذه قد شهدت انتفاضة واسعة ضد الانتداب بقيادة الملك فيصل ، كان يقدر لها ان تكون ثورة شاملة لولا اختفاء فيصل عن المسرح نتيجة اجراء عملية جراحية له ما زالت الشكوك تدور حول صحة حاجته اليها ، مما أدى بالنتيجة الى تسلم السلطة في العراق مباشرة من قبل المندوب السامي البريطاني برسي كوكس ، بعد ان كانت الوزارة النقيبية قد استقالت من قبل ، فوجه ضربة قوية الى القوى الثائرة ضد المعاهدة الانتدابية(٢) ٠

ان الموضوع الذي لم يكشف عنه النقاب لحد الان هو الصراع الشديد الذي كان دائرا بين الملك فيصل الاول والمندوب السامي ووزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل ، ذلك ان وثائق وزارتي الخارجية والمستعمرات البريطانية تكشف لنا بشكل واضح الخطط والبرامج والاهداف التي رسمها كل طرف لتحقيق مصالح بلاده والتناقض والتقاطع الذي حصل بين تلك التوجهات والاهداف المتناقضة والتي ولدت صراعا لم يكن مكشوفا امام الرأي العام في الداخل والخارج ، لكنه كان صراعا حادا على السلطة وصل الى درجة التهديد باقصاء الملك فيصل الاول عن عرش العراق(٣) ٠

لقد كانت ظروف الملك فيصل الاول خلال الاثني عشر شهرا هذه ، صعبة جدا بسبب مواقف مستشار الملك البريطاني كنهان كورنوالس والمندوب السامي البريطاني كوكس ووزير المستعمرات تشرشل ، والتي تكشفها المراسلات الرسمية للاشهر الاخيرة من عام ١٩٢٢ ، اما ما يسبق هذه الاشهر فيمكن مراجعة المصادر التي اشرت اليها في بداية للبحث ٠

في تموز ١٩٢٢ طلب الملك فيصل من المندوب السامي كوكس ان يخبر وزارة المستعمرات بوجهات نظره حول المعاهدة ٠ وقد كتب هذا الاخير الى تشرشل في ٢٨ تموز قائلا :

« لقد طلب مني الملك فيصل عرض وجهات نظره التالية اليكم :-

« انه شخصيا وبصراحة كان وما زال في الاساس معارضا لنظام الانتداب . انه الان يخشى ، فيما اذا وقع وحكومته المعاهدة بدون تحفظ صريح ومسجل ، ان تذهب بريطانيا بالمعاهدة الى عصبة الامم وتقول (هذا هو الانتداب كما صيغ أصلا ، ولكنه على شكل معاهدة . نقترح ان نستمر بالانتداب في ضوئها ، وان العراق قد قبل هذا الوضع وتطلب منكم تصديق الوثيقتين) وبذلك سيمنع العراق من تحرير نفسه من الانتداب الى أجل غير محدود . في نظره [أي الملك] انه اذا شارك والحكومة العراقية في الاجراءات التي ستجعل العراق مقيدا بالاغلال ، فأن البلد سينقلب عليه وعلى حكومته مباشرة . ان العراق في الوقت الحاضر محاط بالاعداء أو الجيران المستائين ، فاذا لم يكن الشعب واثقا من نفسه ومتحدا ، واذا لم يكن تفاهم هذا الشعب مع بريطانيا مبنيا على الصراحة والكمال فأن البلد لن يرى الاستقرار وعندها لن يكون هناك مفر من كارثة محققة . انه يعتقد اعتقادا راسخا انه بواسطة صيغة أو قرار من مجلس الوزراء أو بيان من حكومة صاحب الجلالة يجب ان يوضح للشعب العراقي ان توقيع المعاهدة لن يغلق بوجههم باب التخلص من نظام الانتداب وانهم بالتزامهم ببنودها سيتمكنون من التخلص من الانتداب بواسطة الطرق الدستورية .

ان الملك يشعر بأن انكار هذا الحق على الشعب العراقي سيؤدي بالمعاهدة ، اذا وقعت ، الى الفشل ، لذلك فأنه يطلب التأني وطول البال في معالجة وضع العراق ، بل والعالم العربي كله ، وذلك بجعل قضية العراق قضيتهم والطلب من عصبة الامم عند تقديم المعاهدة عدم المصادقة عليها كوسيلة وجزء من الانتداب بل كبديل عنه تماما » ... »

وعلق برسي كوكس قائلا ان فيصل يعتقد انه بهذه الطريقة يمكنه ايقاف الهياج القائم ضد الانتداب في البلاد · وان فيصل قال في النهاية :

« انه يجب ان يعلن بصراحة والى الابد انه وهؤلاء الذين يشاركونه تفكيره سيستمرون في كل زمان ومكان يطالبون بالغاء الانتداب بالطرق المشروعة · »(٤)

من الملاحظ ان الملك فيصل الاول قد استخدم في التعبير عن ارائه ومبادئه اسلوب التشكيك بسياسة بريطانيا في العراق وسلامة نياتها ، وكذلك التهديد غير المباشر ، انطلاقا من مبدأ لا يتهاون فيه وهو رفض الانتداب وأية معاهدة ترتبط به · فهو قد شكك بسياستها من خلال افهام البريطانيين بصراحة انهم لا يترددون ، كما هو يعرف ، باستخدام طريقه (الوجهين) أي الاتفاق مع العراقيين على شيء معين ، ونقض ذلك الاتفاق حالما يلتفتون الى جهة أخرى هي عصبة الامم مما يعيق استقلال العراق والغاء الانتداب ، بمعنى عدم وجود تعامل بريطاني مبني على الصراحة · ولاشك ان فيصل في سياسته هذه قد وضع امامه الموقف البريطاني من حكومته العربية في دمشق عندما وقفوا معه في البداية ، ثم اداروا لــه ظهورهم وتركوه لقمة سائغة للفرنسيين حالما بدأوا بتطبيق بنود الانتداب التي أقرها مؤتمر سان ريمو في ضوء اتفاقية سايكس ــ بيكو ·

وفي ضوء هذا التشكيك ذكر فيصل البريطانيين ان عليهم ان يدرسوا موقفهم جيدا ليس في العراق فقط وانما في الوطن العربي أيضا لان العراق جزءاً منه · ان هذه الاتجاهات القومية عند فيصل ، ومحاولته فيما بعد فرض التجنيد الالزامي في العراق عام ١٩٢٧ ، قــد جعلت البريطانيين يعتقدون انه يريد تكوين دولة عربية ، اطلقوا عليها « احــلام فيصــل التوسعية لتأسيس الامبريالية العربية »(٥) ·

ان استخدام التشكيك والتهديد في آن واحد هو وسيلة ذكية لزعزعة

ثبات الطرف المقابل ، لهذا نجد ان فيصل قد هدد البريطانيين بالهياج القائم في البلاد ضد المعاهدة ، والذي يمكنه السيطرة عليه اذا ما تم تنفيذ مطالبه والعراقيين ، ولكن تصديق المعاهدة كما هي عليه سيؤدي الى كارثة محققة في البلاد حسب تعبيره · انه بهـذا يذكـر البريطانيين بالمتاعب والانكسارات التي وقعت لهم قبل عامين خلال ثورة العشرين ، وهو أيضا يبين لهم ان القوى التي تسانده في مطالبه هي قوى مؤثرة لا يمكن تجاهلها ·

لقد وصل الحوار بين كوكس وفيصل الى طريق مسدود ، وتزعزت ثقة كوكس به ، ولهذا وصف الحالة الى وزارة المستعمرات بالقول بانها « مليئة بالصعوبات والتي سببها سلوك الملك الذي نحن نصبناه ··· ان التكتيكات التي يستعملها في السعي وراء هذه الاهداف هي بلاشك غير مخلصة وغير مستقيمة ، وانه من الصعوبة ان نثق به · ان الملك يقول ان الامل الوحيد للخروج من الازمة الحالية هو ان نجد نحن حلا لها · ولكن حتى اذا وجدنا الحل فأنني واثق انه سيبدأ فصلا جديدا ويستمر في لعبته »(٦) وعليه اقترح كوكس سفره وفيصل الى لنـدن للوصول الى اتفاق(٧) · وقد استحسن تشرشل الفكرة وحدد فترة الاسابيع الثلاثة الاولى من أيلول لاجراء الزيارة خلالها(٨) · الا ان فيصل رفض الخروج من العراق خلال هذه المرحلة الحاسمة واثار الشكوك حول هذا المقترح بقوله للمندوب السامي انه « يشك بانه سيطلب منه ان يستقيل اذا سافر الى بريطانيا » · ولذلك وضع شروطا لموافقتـه على الزيارة وهي تقـديم بريطانيا ضمانات بتنفيذ مطالبه حول الانتداب ، وان يسمح له بالاعلان قبل مغادرته انكلترا ، ان بريطانيا قد تنازلت عن موقفها من موضـوع انعتاق العراق من الانتداب ، وبانه عائد الى العـراق لوضع الترتيبات الخاصة بتنفيذ هذا القرار(٩) ·

لم يكن فيصل يريد الوصول الى الطريق المغلق مع بريطانيا ، لانه

اساسا كان يريد المعاهدة ، وهو الذي اقترحها(١٠) ، لكنه كان يرفض ان يكون الانتداب بصيغة معاهدة ، وتلك نقطة الخلاف الجوهرية مع بريطانيا · وعليه فأن هذه الحالة قد قادته الى طرح البدائل لايجاد مخرج للازمة دون التفريط بموقفه المبدأي في رفض الانتداب · وكان البديل هو اقتراحه احالة القضية الى المجلس التأسيسي الذي طالب العراقيون به من قبل(١١) · وكان هذا يعني اجراء الانتخابات التي ستأتي بأعضاء معارضين للانتداب والمعاهدة ما دامت الاجواء السياسية في البلاد مشحونة ضد بريطانيا ، وما دام الملك وانصاره يدفعون بهذا الاتجاه ·

وجد المندوب السامي في تنفيذ هذا المقترح خطورة كبيرة على المصالح البريطانية ، لانه كان يعتقد ان اجراء الانتخابات امر مستحيل اذا تمت على اساس مساندة فيصل للعناصر المعادية للانتداب ومساندة السلطة البريطانية لمن اسموهم بالمعتدلين ، أي مؤيدي المعاهدة · لان ذلك سيؤدي في تقديره الى ثورة مسلحة في البلاد لا تكون نهاية لها(١٢) · ومع ذلك فقد اظهر المندوب السامي بعض المرونة عندما اشترط لموافقته على المقترح عدم تدخل الملك في الانتخابات ، وقد جاءت موافقة الملك مشروطة أيضا ، كما يظهر من برقية كوكس الى وزارة المستعمرات البريطانية ، حيث ذكر ان الملك قد أعطى كلمة شرف بحضور كورنواليس بانه اذا وقف الانكليز جانبا خلال الانتخابات ولم يتدخلوا فيها ، فأنه سيقوم بالشيء نفسه تماما ، ولن يتخذ أي موقف يراد به التأثير على الشعب في موقفه من المعاهدة · واكد للمندوب السامي البريطاني انه يدرك جيدا أهمية ضرورة قبول قرار المجلس التأسيسي سواء أكان في صالح الشروط البريطانية ام ضدها ، وانه اذا قبل المجلس التأسيسي بالمعاهدة مع الانتداب ، فأنه سيعمل باخلاص في ضوء قرار المجلس(١٣) ·

لقد وجد المندوب السامي ان معالجة الموضوع بهذه الطريقة هو الحل الذي سيؤدي الى ما اسماه (الصلح مع الرأي العام والاسلام)

وستسهل موقف بريطانيا والملك أيضا ، لانها في تقديره ستأخذ المبادرة ممن اسماهم بالمتطرفين ، أي معارضي المعاهدة والانتداب ، وتجبر كل الاطراف على اتخاذ موقف واحـد · واضاف في برقيتـه الخاصة بهـذا الموضوع :ـ

« وفي حالة التصويت لصالح الشروط التي قدمناها وهو ما أتوقعه بثقة ، فأنها ستمكننا من التكاتف مع الشعب العراقي وفق شروط راسخة للصداقة · فاذا كان هذا الحل مستساغا من قبل حكومة صاحب الجلالة فأنني أحث بشدة بان ينفذ حالا ، لان الوضع هنا يتدهور يوما بعد يوم · ان المتطرفين يسعون لجعل الناس يؤمنون ان المعاهدة والانتداب سيفرضان عليهم بالقـوة ، ويقنعوهم بان الشيء الوحيد الذي يمنع فرضهما هـو الانتفاضة المنظمة · »(١٤)

ولكي يحتوي المندوب السامي الرأي العام العراقي لصالح الموقف المعتدل ، حسب تعبيره ، فقد اقترح ان توافق الحكومة البريطانية أيضا على اصدار اعلان رسمي الى الشعب العراقي تنشر معه المعاهدة ، توضح فيه الصعوبات الدولية التي تواجهها بريطانيا بشأن الانتداب ، وتؤكد الفرق الكبير بين ما تم التوصل اليه في المعاهـدة لمصلحة العـراق وبين الترتيبات التي وضعت في البداية بشأن الانتداب · وان يعلن للشعب العراقي ان هذه هي افضل الشروط لان بريطانيا لا تقرر لوحدها الامور ، وهي ترغب في البقاء والمساعدة · وان انتخابات المجلس التأسيسي ستجري قريبا دون ان يتدخل فيها أي موظف بريطاني · وفي حالة عدم قبول أكثرية المجلس هذه الترتيبات فأن انسحاب بريطانيا من العراق سيبدأ حالا ، لانها لا تريد اكراه الشعب العراقي على قبول مساعدتها ، الا انـه على الشعب العراقي ان يعرف ان هذه الشروط هي أفضل من الفوضى التي ستظهر نتيجة رحيل بريطانيا عن العراق(١٥) ·

لم يكن تشرتشل يؤمن بالتعامل مع مثل هـذه المواقف بالمرونة والتنازل سريعا امام الخصم ، ولهذا خاطب المندوب السامي قائلا « آمل ان لا تكون همتك قد اثبطت أو تعبت من هذه اللعبة الطويلة »(١٦) وأنحى باللائمة على المندوب السامي والملك فيصل على وصولهما لهـذا الموقف حين قال :ـ

« الاقتراح بأن فيصل يجب ان يأتي الينا كان اقتراحك انت وليس نحن · لا يمكن بأية حال من الاحوال اعطاء فيصل التعهد الذي يطلبه · كذلك فأن المعاهدة كانت اقتراحا من فيصل وليس من عندنا · انه من واجبه هو ان يقترح طرقا للتخلص من الورطة التي خلقها · في الوقت نفسه ونظرا لموقف الملك فأنني اوافق على احالة موضوع عرض مسألة بقاءنا في العراق على مجلس تأسيسي ، الى الوزارة البريطانية التي ستجتمع في أوائل ايلول · ارجو ان تبلغ الملك بفحوى هذه الرسالة · »(١٧)

لقد استغرق جواب تشرتشل هذا أكثر من خمسة أيام لانه كان في فرنسا عند ارسال كوكس مقترحاته (١١ ـ ١٦ آب) وخلال تلك الايام الخمسة حدثت تطورات جعلت كوكس يغير من موقفه المرن قبل وصول جواب تشرتشل اليه يوم ١٩ آب · ففي يوم ٩ آب ١٩٢٢ طلب مجلس الوزراء من الملك موازرة الوزارة(١٨) بعد ان استقال جعفر ابو التمن وزير التجارة احتجاجا على اقرار الوزارة نصوص المعاهدة في جلسة ٢٥ حزيران(١٩) والتي صاحبهـا تحـرك جماهـيري نشط ضد المعاهـدة والانتداب(٢٠) ، خصوصا بعد ان نشـرت الصحف العراقية تصـريح تشرشل في مجلس العموم البريطاني بأن الملك فيصل وحكومته لم يبلغا المنـدوب السـامي البريطاني في العـراق عن رفض الشـعب العـراقي للانتداب(٢١) ، مما دفع العديد من القادة الوطنيين الى ارسال برقيات الى الملك فيصل ومقابلته يوضحون فيها موقف الشعب العراقي المعارض

للانتداب(٢٢) . وقد أدى ذلك الى استقالة وزير الداخلية توفيق الخالدي ومطالبته الوزارة مفاتحة الملك لاتخاذ موقف موحد موازر للوزارة امام الضغط الجماهيري(٢٣) . الا ان جواب الملك فيصل يوم ١٤ آب على هذا القرار اقنع الوزارة بعدم استعداد فيصل لمساندتهم بشأن المعاهدة والانتداب . فاستقال جميع الوزراء في اليوم نفسه ، وكتب النقيب بذلك الى الملك طالبا منه منح وزرائه الثقة ، لكن فيصل رفض الاستجابة لنداء النقيب وطلب منه الاستمرار في ادارة الحكومة وكالة لحين تشكيل الوزارة الجديدة(٢٤) .

لقد تحدى الملك فيصل بهذا الموقف سلطة الانتداب البريطاني ، ووجه لها ضربة قوية ، رغم ان المندوب السامي قد طلب منه الوقوف الى جانب الوزارة ، وأكد له ضرورة بقاء النقيب في الحكم لحين تصديق المعاهدة من قبل المجلس التأسيسي . كما ذكره انه بمحاولته التخلص من النقيب فأن هذا يعني التصرف بطريقة تعود بالفائدة على المعارضة . ولقد فسر المندوب السامي موقف الملك بالقول ان المتطرفين قد ادركوا ان بقاء النقيب في الحكم سيقضي على كل أمل لهم في السيطرة على الانتخابات المقبلة وعلى التعيينات الوظيفية في الالوية ، ولذلك بدأ الملك بالتشكي من عدم فائدة الوزراء ، واعرب للمندوب السامي عن رغبته في اخراج النقيب من الوزارة . وعندما ارسل النقيب الى الملك حول استقالة الوزراء ، قابل المندوب السامي كوكس فيصل وحثه على اجابة النقيب بانه لم يكن يقصد عدم ثقته بمجلس الوزراء ، وانه يؤيد عدم قبول النقيب استقالات الوزراء ، وطلب منه ان يقول للوزارة انه (أي الملك) يأمل بان يستمروا في اعمالهم الوزارية وسيكون مسرورا للتباحث مع لجنة تشكل منهم لغرض رسم خطوط سياسة الحكومة بشكل أكثر تحديدا . لكن فيصل لم يستجب لجميع مطالب المندوب السامي وفرض على النقيب استقالة وزارته(٢٥) .

من جانب آخر رحب الوطنيون بسقوط الوزارة ، واعتبروه دليلا على فشل سياستها المؤيدة للانتداب ، واخذوا يجاهرون بأن عناصر الوزارة القادمة ستكون من المعارضة ، وان الانتداب سوف يلغى . ووزعت المنشورات التي أكدت رفض الانتداب والمطالبة باطلاق حرية الصحافة والاجتماعات وتأخير انتخاب المجلس التأسيسي لحين توفر الضمانات الكافية لاجرائها بحرية تامة ودون تدخل أو تزوير من أية جهة كانت(٢٦). وقد صاحب هذا التحرك تصاعد التظاهرات والاحتجاجات خارج العاصمة . ويقدم التقرير البريطاني السنوي المرفوع الى عصبة الامم وضعا لحالة الالوية والمتصرفيات فيقول انه كان وضعا ينذر بنشوب ثورة لا مفر منها مماثلة لثورة العشرين(٢٧) .

بناء على هذا فان قناعات كوكس بالتفاهم مع فيصل قد زالت تماما بل انه أصبح مقتنعا ان فيصل وراء هذا الهياج الجماهيري والمنشورات التي وزعت ، ولما كانت تلك المنشورات تطالب بتأخير انتخابات المجلس التأسيسي لحين ضمان الاجواء المناسبة لاجرائها بحرية ودون تزوير ، فأن هذا يعني انه ما زال لا يثق بوعود البريطانيين والتزاماتهم التي اخبره بها المندوب السامي والخاصة بالتعهد بعدم تدخلهم بالانتخابات . كما ان المندوب السامي قد فهم جيدا ان الملك يلعب بالورقة التي تلغي سلطة بريطانيا وتعزز من سلطته وسلطة القوى المعارضة للانتداب ، وهو ما زال يراهن عليها دون شك . لذلك ابرق يوم ١٦ آب الى وزارة المستعمرات قائلا بانه بايعاز من الملك فيصل قد وزعت منشورات ورسائل الى الصحف تطالب بالغاء الانتداب ورفض المعاهدة واسقاط الوزارة التي وقعتها ونقل ادارة شؤون العراق الى وزارة الخارجية البريطانية بدلا من وزارة المستعمرات . واضاف كوكس في برقيته هذه الى ان مسودة المعاهدة غير المعلنة قد وزعت من قبل الملك على (المتطرفين) لغرض انتقادها بشدة . ولذلك فأنه يرى ضرورة اتخاذ اجراءات قسرية حازمة لايقاف تدهور

الموقف ، وان هذه الاجراءات يجب ان يتخذها المندوب السامي والقوات البريطانية ، وليس الملك أو الحكومة العراقية(٢٨) ٠

وفي اليوم نفسه قابل كوكس الملك فيصل وذكره بان البيانات المعادية كانت موقعة من قبل اشخاص معروف عنهم انهم تحت تأثيره وان من السهل عليه ان يبقيهم هادئين لبضعة أيام بانتظار قرار من لندن حول ايجاد حل للازمة(٢٩) ٠ وكانت وزارة المستعمرات قد اجابته (في اليوم نفسه أيضا) على برقيته الاخيرة اليهم بان عليه الانتضار لخمسة أو ستة أيام لحين عودة تشرشل من فرنسا ٠ ومع ذلك فقد تساءلت الوزارة عن مدى ادراك فيصل لخطورة تأخير توقيع المعاهدة ، وتقديرات المندوب السامي حول نتائج استمرار النظام غير المستقر اذا لم ينفع توجيه انذار لفيصل(٣٠) ، فأجابهم موكس ان فيصل يريد توقيع المعاهدة شرط ان يسمح للحكومة العراقية بان تعلن مع المعاهدة قرارا بالغاء الانتداب ، وان لا تمنع الحكومة البريطانية العراق من الاستمرار في الدعاية والوقوف ضد الانتداب ٠ واضاف انه في حالة موافقة الحكومة البريطانية على ذلك فأنه سيطلب اعفاءه من منصبه احتجاجا ، واوضح ان توجيه انذار لفيصل خارج عن الصدد لانه سيؤدي فقط الى ان فيصل سيضحي بنفسه مما يقدم للمتطرفين حافزا جديدا ، وان الانذار الوحيد الذي يمكن ان يكون نافعا هو ما اقترحه في برقيته المرقمة ٥٥٥ في ١٠ آب بتوجيه انذار الى الشعب العراقي لان التوتر قد وصل الى مرحلة الانفجار وعليه لا يمكن تأجيل المعاهدة والاستمرار على الوضع الحالي ٠ وقدم خيارا آخر هو :

« الحل الاخر الممكن تصوره هو انه يجب ان نعلن بشكل عام ان الملك فيصل لم يتمكن من اقناعنا ، واننا لسنا مستعدين منذ الان لان نفسر الانتداب على شكل معاهدة وعليه فأننا سنعود الى نظام الحكومة المؤقتة الذي كان قائما قبل تتويج فيصل حتى نصل الى اتفاق وسلام مع تركيا ٠

ان ذلك سيتضمن ازاحة فيصل وبعض اعوانه من الساحة »(٣١) ·

اتفق تشرشل هذه المرة مع كوكس وطلب منه ابلاغ فيصل ان قرارا من الوزارة البريطانية سيتخذ في بداية ايلول ، وانه سيرسله الى فيصل شخصيا باسم الوزارة حول الموضوع · وفي الوقت نفسه فأنه ، أي فيصل ، يتحمل كامل المسؤولية في منع حدوث أي عنف تكون نتائجه مفجعة للعراق(٣٢) ·

لم يتزحزح فيصل عن موقفه رغم كل هذه التهديدات والانذارات وقد ابرق كوكس يوم ٢٣ آب ، وهو يوم الذكرى الاولى لتتويج الملك فيصل الاول ، الى تشرشل شرح فيها جميع التطورات ولحين تاريخ البرقية ، واضاف بأن استقالة النقيب قد نشرت وان فيصل « قد نجح في لعبته لصالح المتطرفين ··· وسأبذل جهدي لرجوع النقيب لمنصبه »(٣٣) ·

كان فيصل قد ارسل قبل يومين من حلول ذكرى التتويج رسالة الى المندوب السامي طالب فيها البريطانيين اتباع خط سياسي واضح في العراق ، وطلب منه ان يخبر الحكومة البريطانية ان هناك احتمال بنشوب ثورة في البلاد نتيجة الوضع الحالي ، وعليه اما ان يتحمل المندوب السامي المسؤولية ، أو ان تعطى له المسؤولية كاملة للحفاظ على الامن مع الحرية الكاملة والمباشرة لادارة شؤون البلاد(٣٤) · وهكذا وضع فيصل بريطانيا امام خيارين يكون فيه الخيار الارجح لصالحه بحكم الوضع العام ، ويبدو انه لم يتصور ان بريطانيا لا مانع لديها من تسلم المندوب السامي السلطة مباشرة ·

لقد نشر آيرلند الرسالة أعلاه في كتابه (العراق دراسة في تطوره السياسي) كما اقتبسها منه المؤرخ العراقي عبدالرزاق الحسني(٣٤) · الا ان جواب كوكس على الرسالة لم يخرج من دائرة المندوب السامي ولم

ينشر من قبل بسبب احداث يوم التتويج(٣٥) ، وهو اليوم الذي ارسلت فيه صيغة الجواب الى وزارة المستعمرات للموافقة على ارساله من قبل كوكس الى فيصل • وكان تعليق كوكس على مطلب فيصل هو انه احد المطالب التي اعلنت حاليا في بيانات ومنشورات (المتطرفين) والتي تقول باعطاء الحرية للملك فيصل لادارة شؤون البلاد ، وعليه فأن تقديم فيصل لخيارين في الموضوع هو (مجرد خديعة لنا) حسب تعبير كوكس • واقترح على وزارة المستعمرات صيغة جواب تؤكد على ان تفسير الانتداب يجب ان يتم من خلال معاهدة ، وان هذه المعاهدة قد تأخر توقيعها بسبب عدم تمكن بريطانيا من الاستجابة لرغبات الملك الخاصة بالغاء الانتداب ، وان القرار النهائي للحكومة البريطانية حول هذه المشكلة لن يكون الا في ايلول القادم • اما عن المسؤولية فهي مشتركة بين الجانبين ولا يوجد مبرر لاحالة الموضوع الى الحكومة البريطانية • ثم تبدأ صيغة الرسالة المقترحة بعد هذا بتوجيه اللوم والتهديد لفيصل على أساس ان تدهور الاوضاع في العراق يقع على عاتقه شخصيا ، وأن خير وسيلة لتجاوز هذه الازمة هي التشاور مع المندوب السامي حول الخطوات التي يجب ان تتخذ لحلها ، وفيما اذا أهمل الملك هذا الاتجاه فأن المندوب السامي « مستعد بالتشاور مع قائد القوات المسلحة البريطانية في العراق لاتخاذ التدابير الضرورية للحد من حالة التدهور » • ولما كان العراق بدون حكومة بسبب استقالة وزارة النقيب فأن الترتيبات اللازمة قد اتخذت لقيام الطائرات بخفارات دورية(٣٦) • وهذا الاجراء الاخير يمثل في حد ذاته استعراض للقوة أمام تعنت فيصل ومعارضته •

لم تصل هذه الرسالة الى فيصل لان احداث يوم التتويج قد انتهت باعلان اصابة الملك بالزائدة الدودية وبحاجته الى عملية جراحية ، وقد تناولت معظم المصادر الخاصة بهذه الفترة احداث ذلك اليوم وما صاحبه

من تجمع كبير في البلاط الملكي للاحتفال بالذكرى وللاعلان عن الوقوف ضد الانتداب ، ورفض اجراء انتخابات المجلس التأسيسي بسبب الاوضاع التي لا تسمح باجرائها بحرية تامة(٣٧) · كما ان برسي كوكس قد ابرق الى تشرشل يصف فيها احداث البلاط والهتافات المعادية التي استقبل بها عند حضوره لتقديم التهنئة للملك بالمناسبة(٣٨) ·

بعد يومين من رقود الملك فيصل في المستشفى ، أي يوم ٢٥ آب ١٩٢٢ ، قام برسي كوكس ومستشار وزارة الداخلية كورنوالس بزيارة الملك في الصباح الباكر وقبل ساعتين من اجراء العملية ، وأوضحا له كيف انهم قد أصبحوا يسيرون في طريقين متقاطعين ، وبناء على ذلك ، فقد قال له كوكس ان امامه خيارين وهما : اما ان يعلن انفصاله وعدم علاقته بمثيري الهياج ، والسير مع البريطانيين بشكل تام · أو ان يتحمل النتائج « والتي ، كما نرى ، تعني نهاية عرشه » · لان « مثيري الفتنة من جماعته قد اجتازوا الان الحدود ، وانه اذا لم يتخذ اجراء حازم ضدهم فأنه سيكون من المستحيل الحفاظ على الامن العام في البلاد » · ثم طلب منه كوكس وكورنوالس اصدار الاوامر بالقاء القبض على سبعة من قادة الحركة الوطنية المعارضة للمعاهدة الانتدابية · ويضيف كوكس في وصفه لموقف الملك تجاه هذه المطالب بالقول :

« لقد قضينا ساعة كاملة مع الملك نحاول اقناعه بأن هذه هي فرصته لينقذ نفسه وليتخلص من ايدي هؤلاء مثيري الهياج ، لكننا ، وأقولها بكل اسف فشلنا في اقناعه للقيام بذلك ، لقد حاججنا فيصل بالقول ان مثل هذا الاجراء سيؤدي الى ثورة في البلاد ولن يؤدي النتيجة التي نرغبها ، وانه ليس مستعدا لتحمل مسؤولية ذلك على عاتقه · »(٣٦) ·

واجريت العملية ، ولم يبق في البلاد حاكما سوى سلطة الانتداب التي قمعت الحركة الوطنية للمعاهدة الانتدابية ، ونفت قادتها خارج

العراق وعطلت الصحف المناوئة للانتداب واغلقت مقر الحزب الوطني العراقي كما هو معروف في المصادر(٤٠) ٠

ان رفض فيصل جميع التهديدات البريطانية ، وغيابه في الوقت نفسه عن الساحة السياسية مع عدم وجود حكومة عراقية ، كان يعني ان على بريطانيا معالجة الموقف ٠ ان السؤال الذي يقفز الى الذهن في ضوء هذه التطورات ، هو هل أن بريطانيا والمندوب السامي نفسه كانوا جادين في مسألة خلع فيصل عن العراق ؟ ٠ ان الوثائق السرية البريطانية توضح انه لم يكن هناك اتجاها للقيام بمثل هذا العمل ، لعل من أهم هذه الوثائق هما البرقيتان اللتان ارسلهما كوكس الى تشرشل خلال وجود فيصل في المستشفى قبل اجراء العملية الجراحية لفيصل بيوم واحد وبعدها بثلاثة أيام ، فقد شرح كوكس في البرقية الاولى انطباعاته الشخصية عن فيصل وعوامل المشاكل التي قامت بينهما ٠ فوصف فيصل بانه :ـ

« ذو أخلاق ساحرة في علاقاته مع الاخرين وهو لطيف ومضياف الى آخر الحدود ، لكنه الى جانب ذلك لا يمتلك ، كما يبدو لي ، المؤهلات الضرورية التي تجعله ملكا جيدا ٠ انه ضعيف وغير مستقر ٠ انه يعطي كلمته بسرعة ثم يتملص من تنفيذها بسرعة ٠ انه خبيث وضليع بتدبير المكائد ، واحكامه عن الرجال رديئة ٠ انني لا اعتقد انه يمتلك أية فكرة للعمل كملك دستوري ، بل ان طموحه هو ان يكون حاكما اوتوقراطيا عديم المسؤولية ٠ »(٤١)

ثم يبدأ كوكس بتقديم امثلة عن مواقف فيصل غير الطيبة من الادارة البريطانية في العراق ، ويذكر ان المناطق البعيدة عن العاصمة تشهد الادارة فيها (تعاونا تاما بين الموظفين البريطانيين والموظفين العرب حسب تعبيره ، اما الالوية القريبة من العاصمة بغداد فأن اختيار فيصل (الرديء للموظفين العرب وتدخله الطائش كان لهما تأثير سيء من المتعذر

تجنبه »(٤٢) ٠

ثم يصف كوكس الطريقة التي يتدخل فيها فيصل في الادارة دون اهتمام بالسلطة الانتدابية البريطانية ونتائج ذلك على الوضع العام حسب رأيه فيضيف :-

« ان الاتصال المباشر للموظفين الشوفينيين بالبلاط واستلامهم الاوامر من هناك بدلا من وزارة الداخلية قد جعلهم يعملون من خلف ظهر مستشاريهم البريطانيين ، فأهملوا واجباتهم من أجل اطلاق العنان للدعايات السياسية ٠ لقد كانت نتيجة ذلك ان توقف دفع الضرائب وانتشر العداء بين الطوائف والقوميات ٠ ان هياج المتطرفين كان نتيجة لتشجيع الملك ودعمه لهم ودعم موظفيه الذين اختارهم لادارة الالوية »(٤٣)٠

ثم ينتقل كوكس الى جانب آخر من الموضوع وهو عداء فيصل للمستشارين البريطانيين الذين يقوم اتباع الملك بتشويه سمعتهم لا لشيء الا لان ذلك الموظف البريطاني يمتلك تأثيرا شخصيا قويا جدا ٠ ولذلك رفض فيصل « ارجاع نولدر وبذل كل جهده من أجل ازالة يلتس وهو بلاشك لن يبقي ديكسون ٠ » ٠ ويشرح كوكس بعد ذلك موقف عبدالرحمن النقيب وساسون حسقيل « والاخرين من عقلاء بغداد » حسب تعبيره ويقول انهم يعتبرون فيصل انسانا غير موثوق به تماما ، وان المعتدلين ينظرون اليه « بازدراء واحتقار ، وانني اشعر دائما بالخجل تجاه هؤلاء الناس واسائل نفسي لماذا وثقنا بفيصل ولم نثق بهم ٠ »(٤٤)

لقد وصف كوكس اراءه هذه بالنتائج المخيبة للامال التي توصل اليها بعد سنة من تعاونه مع فيصل ، وان انهيار الهدف الذي جلبوا فيصل من أجله الى العراق الى جانب خذلانه لهم امام الفرنسيين « ربما يدعو الى اعادة صياغة سياستنا العربية ككل ٠ »(٤٥) ٠

اما البرقية الثانية فقد نقل فيها كوكس اراء مستشار وزارة الداخلية كنهان كورنوالس بفيصل الذي اكد اراء كوكس في البرقية الاولى واضاف :

« اما في القضايا الادارية فأنه شخص متعب كثيرا ، فهو بأستمرار يتدخل في التعيينات والمسائل الاخرى مما يجعل وضعي حرجا . لقد عيل صبري معه ، وانني واثق ان مستشاريه يحثونه على فرض نفسه لدرجة انه يرفض في بعض الاحيان النصائح المخلصة التي يقدمها لـه المندوب السامي . انني اغتنمت كل الفرص للاحتجاج عليه ، وفي الحقيقة فأن اجتماعاتي معه خلال الاشهر الاربعة الاخيرة كانت عبارة عن سلسلة من الانتقادات والتوبيخ اللذين وجهتهما اليه . لقد اخبرته انه اذا كان احدنا في الاساس لا يرغب بالاخر فأننا سنصل الى نقطة اللا عودة . انني اشعر انه يجب علي ان اعترف بفشلي في محاولتي ابقاءه داخل الحدود المطلوبة ، اعتقد ان طبيعته في العناد الشديد لا تمكن أي شخص من النجاح فيما حاولت القيام به »(٤٦) .

يمكن ان نخرج من هاتين البرقيتين بنتيجة واحدة وهي ان اخلاق فيصل وسلوكيته الشخصية والادارية المناهضة للادارة البريطانية في العراق لا تؤهله ، حسب رأي المندوب السامي ، لان يكون ملكا على العراق. ومع ذلك فأن كوكس وكورنوالس لم يوحيا بذلك ، بل ان كوكس اوضح في نهاية برقيته الاولى انه « ليس من الممكن أو المفيد ان نقوم بأي تغيير ، وان العراق وفيصل يجب ان تعطى لهما الفرصة »(٤٧) اما كورنوالس فقد قال انه بالرغم من ان فيصل ضعيف ومضلل فأنه واثق برغبة فيصل في عقد معاهدة مع بريطانيا وهو يرى ان فيصل يجب ان ينقذ من نفسه وممن يسمون بأصدقائه « واننا ، وبعد كل ما حدث ، نمتلك الفرصة للاصرار على اجراء تبديلات في حاشيته وان يعلن انه مع المعتدلين وانـه سيتقيد بنصوص دستورية ثابتة . » اما موضوع اقصائه عن العرش فقد

استبعده كورنوالس ، ليس حبا بفصيل بل لان « التخلص من الملك سيخلق وضعا لا أمل فيه • واننا يمكن فقط ان نقدر ان فيصل ، وبكل أسف ، كان خيبة أمل لنا ويجب علينا اصلاحه اذا امكن ذلك • »(٤٨) اما تعليل كوكس بشأن ابقاء فيصل ملكا على العراق ، فقد بني انه ما دامت بريطانيا قد نصبته ملكا وما دام العراقيون قد قبلوا به فأنه لن يكون من الممكن أو المفيد تغييره(٤٩) • وهكذا كان على المندوب السامي ان يوجه ضربته القوية للمعارضة من أنصار فيصل عندما انفرد بالسلطة خلال رقود الملك في المستشفى من أجل الوصول الى النتيجة المطلوبة والتي حددها في برقيتيه الى وزير المستعمرات •

وفي يوم ٢٧ آب ١٩٢٢ ابرق كوكس الى تشرشل مخبرا اياه ان اجراءاته ضد المعارضة العراقية قد تم تنفيذها ، وان فيصل يتماثل للشفاء بسرعة ، موضحا ان وضع الملك السياسي ومستقبله قد تأثر حتما بالاجراءات التي اتخذها ضد معارضي المعاهدة الانتدابية • وسيكون امام فيصل خياران فأما « ان يتقاعد احدنا عن العمل » أو أن يمد يده الى السلطة الانتدابية البريطانية ، فيصدر بيانا يؤيد فيه كافة الاجراءات التي اتخذها المندوب السامي خلال فترة مكوثه في المستشفى • واقترح كوكس ان يتحدث مع الملك وهو في المستشفى بهذا الوضوح وان يقول له أيضا ان الرأي العام العراقي لا يعلم برفضه التعاون مع البريطانيين وعليه فان تبديل موقفه لن يؤثر على سمعته امام الناس ، وان هذه هي فرصته الاخيرة • واضاف انه سيطلب منه كذلك تبديل حاشيته وان يكون اختيار سكرتيري الملك ومساعديه في البلاط من قبل الوزارة العراقية وليس من قبله شخصيا ، كما انه يجب عليه ان يقدم تعهدا خطيا بامتناعه عن التدخل في التعيينات والامور الادارية الداخلية الاخرى • « كذلك فأنني سأصر شخصيا بانه يجب عليه ان يخضع لمشورتي في انتقائه لوزارته الجديدة • »(٥٠)

في اليوم التالي ٢٨ آب ١٩٢٢ وصلت ثلاث برقيات من تشرشل طلب فيها من المندوب السامي كوكس ان ينتهز فرصة مرض الملك فيصل لاعادة الوضع الى سابقه وذلك بتشكيل عبدالرحمن النقيب وزارة جديدة تمثل « المعتدلين » بشكل واضح(٥١) . وابلغه في البرقية الثانية تأييده لاجراءاته القمعية مع التأكيد على تقليص دور فيصل بتشكيل النقيب وزارة أكثر قوة من وزارته السابقة(٥٢) . اما في البرقية الثالثة فقد نقل له تأييد اعضاء الوزارة البريطانية اللغة التي اقترحها للتحدث مع فيصل ، وهم يعلنون ثقتهم الكبيرة باحكامه ومهارته وصرامته في معالجة الوضع الصعب في العراق . ونصح تشرشل كوكس في نهاية البرقية « بعدم التورط في كردستان »(٥٣) . ان هذا الامر كان يعني انسحاب القوات البريطانية من المناطق الكردية في شمال العراق مما يخلق مشكلة جديدة للعراق خصوصا وان السليمانية واربيل رفضتا المشاركة في انتخاب فيصل لعدم حل مشكلة الموصل ، اضافة الى ان السلطات البريطانية كانت قد فضلت ارجاع الشيخ محمود البرزنجي الى العراق بعد تتويج فيصل ملكا ، بحجة انه سيتعاون مع الحكومة العراقية للوقوف بوجه الاتراك الذين كانوا يطالبون بولاية الموصل . الا ان الشيخ محمود اعلن نفسه ملكا على كردستان وبدأ بالتعاون مع الاتراك في حين كانت قضية المعاهدة والانتداب تشغل بال العراق(٥٤) .

وبعد وصول برقية تشرشل هذه انسحبت القوات البريطانية من المنطقة الكردية بعد ان سلمت السلطة الى مجلس اداري محلي في السليمانية يرأسه شقيق الشيخ محمود البرزنجي . وبذلك أصبحت المنطقة التي تقع شرقي خط أربيل – التون كبري – كركوك – كفري ، خارج السيطرة العسكرية والادارية للحكومة العراقية(٥٥) . وبهذا أصبح بيد بريطانيا سلاح جديد للضغط على العراق . ويذكر التقرير البريطاني المرفوع الى

عصبة الامم عن هـذه الفترة بأن العـرب قـد استاؤوا كثيرا لتراخي البريطانيين وتماهلهم في التصدي للعصيان وولد لديهم الشعور بأن ذلك كان متعمدا ·

كان تشرشل مع فكرة اعطاء فيصل فرصة لتغيير موقفه ، لكنه كان يميل الى ممارسة المندوب السامي ضغطا أكثر على العراق ، كما انه طلب منه يوم ٢٩ آب ان يحاول ابقاء فيصل مدة أطول في المستشفى لكي يكون بعيدا عن المسرح السياسي ولحين وصـول قرار الوزارة البريطانية في الاسبوع المقبل · وبهذا يبقى المندوب السامي مطلق اليدين في التصرف كما يشاء ، وتكون الخطوة الاولى التي يجب اتخاذها عندئذ هي اقنـاع النقيب بتشكيل وزارة مؤيدة لبريطانيا تقوم ظاهريا بالعمـل الاداري الروتيني لحين موافقة الملك بالنتيجة عليها · اما بخصوص قرار الوزارة البريطانية ، فقد اوضح تشرشل انه قد قرر تقديم توصية بنشر المعاهدة حالا واتخاذ الخطوات اللازمة لجمع المجلس التأسيسي ليقرر قبول المعاهدة كما هي · وانه سيكون من الممكن الاعلان بان المادة السادسة من المعاهدة تضمن طريقا دستوريا للتخلص من الانتداب باعتبار ان دخول عصـبة الامم سيلغي اوتوماتيكيا العلاقة الانتدابية ، وان بريطانيا لن تدعم دخول العراق عصبة الامم الا اذا وقعت المعاهدة وأصبحت المادة السادسة نافذة المفعول ، والدستور قائم وفقا للمادة الثالثة من المعاهدة نفسها · كذلك تعلن ان القرار الحالي الذي اتخذته عصبة الامم يقوم على أساس منع دخول أي دولة الى العصبة ما لم تحدد حدودها السياسية · واضاف تشرشل انه شخصيا لا يرى ان هناك سببا يمنع بريطانيا من التعهد بدخول عصبة الامم اذا وقعت المعاهدة والاتفاقيات التابعة لها ، وتم تصديق القانون الاساسي العراقي وحددت الحدود السياسية · وهنا يصل تشرشل الى النقطة المطلوبة من هذه المقدمة فيسأل سؤالا ويجيب عليـه في الوقت نفسه :ـ

« اذا تحقق ذلك الا يمكننا العمل مع أو بدون موافقة فيصل وهو بعيد عن السلطة ؟ عند ذلك يكون على فيصل مواجهة خيارين اما ان يساند وزارة النقيب في كل قرارتها أو يخلع عن العرش ، انني اعتقد انه يجب ان يوضح لفيصل تماما باننا لن تسمح له ان يحطم سياستنا جميعها بعناده وان يعود ، كما يعتقد ، الى الحجاز حرا دون عقاب . اننا لم نجلبه الى العراق ليلعب دورا اوتوقراطيا ، ولكن ليستقر كملك دستوري مقيد وصديق لنا في الوقت نفسه . »(٥٧)

وفي نهاية البرقية اوضح تشرشل لكوكس انه اذا قررت الوزارة البريطانية اجـراء انتخـابات المجلس التأسيسي فأن على وزارة النقيب الجديدة ان تبلغ جميع الموظفين العرب والبريطانيين ان يستخدموا تأثيرهم بشكل مناسب لضمان قبول المعاهدة من قبل المجلس التأسيسي(٥٧) . وفي اليوم التالي ٣٠ آب أكد تشرشل على كوكس بان يخبر فيصل ان رفضه التعاون مع بريطانيا سيتضمن على الارجح تغييرا كاملا في سياسة بريطانيا العربية ، وان يخبره انهم في وضع صعب في الوقت الحاضر بسبب المصروفات الكبيرة التي ينفقونها لمنع ابن سعود من الهجوم على الحجـاز واضاف « اننا اذا رفعنا يدنا عن هذه المناطق ، وهو ما سنقوم به ، فأن فيصل سيسقط مرة ثانية وسيحطم عائلته أيضا . »(٥٨)

وهكذا اسقط بيد فيصل ، فقد أصبح شمال العراق مهددا بالضياع في حين انتهى اعوانه الى السجون والمعتقلات والنفي ، وها هو مستقبل الجزيرة العربية والعراق مهدد من قبل بريطانيا . فكان عليه ان يرضخ لكل هذه التهديدات في النهاية ، ولكنه لم يتنازل عن مبدأ الوقوف ضد الانتداب ، فقد استمر في موقفه الداعي الى انهاء الانتداب الا انه غير اسلوبه في التعامل مع البريطانيين . وفي تقديري فان فترة هذا البحث واحداثه تمثل اوج الصراع الذي كان قائما بين فيصل والبريطانيين طيلة فترة

حكمه للعراق . وقد خرج من هذه التجربة بقناعة ثابتة ، وهي ان الصدام مع البريطانيين في ظل ظروف العراق الصعبة ، كونه دولة حديثة التكوين ، لن تمكنه من تحقيق امانيه في الاستقلال التام للعراق ، ولذلك فأن سياسة فيصل القادمة كانت تعتمد مبدأ (خذ وطالب) واعتماد المواقف الثابتة دون الاعتماد على اسلوب اثارة الشارع ضد السلطة الانتدابية . من جانب آخر فأن الاسلوب البريطاني في التهديد لم يتوقف في تعاملهم مع العراقيين، وقد ظهرا ذلك واضحا في تصديق المعاهدة العراقية ـ البريطانية من قبل المجلس التأسيسي عام ١٩٢٤ واتخاذ مشكلة الموصل ذريعة للضغط من أجل توقيع المعاهدة . وفي هذه المرة ، ورغم الصدام الذي وقع بين السلطة الانتدابية والمجلس التأسيسي ، فأن الملك فيصل قد وقف موقفا اكثر هدوءا ، ولم يظهر مساندا للمعارضة التي وقفت ضد المعاهدة ، كنه في الوقت نفسه لم يقف ضد معارضي المعاهدة . وهو في كل الاحوال قد عمل حتى وفاته سنة ١٩٣٣ على انتزاع ما يريده من البريطانيين بطريقة التحرك الذكي من خلال رجـالات السياسة العراقيين دون مواجهـة مباشرة مع البريطانيين . ودون الاعتماد على معارضي بريطانيا المعروفين بقيادتهـم للشارع أو بأمكاناتهم في التحريض ضد الانتداب باعتباره وجها للسلطة الاجنبية المهيمنة باسمه على البلاد . ولعله استفاد من تجربته هذه في جانب مهم وهو عدم الاخذ بالاراء التي يطلقها من حوله اتباعه ومريديه الا بعد تدقيقها ودراستها ، لانها قد تكون صادرة نتيجة صراعات سياسية أو مطامع شخصية أو نوازع قصيرة النظر . وفي كل الاحوال فأن الصراع بين فيصل والبريطانيين قد اتخذ بعد هذه الفترة شكل الحوار الهادىء مع استخدام القوى الضاغطة بطريقة التلويح بها دون استخدامها علانيـة وبشكل يؤدي الى الصدام .

الهوامش :

(1) From Churchill, to Cox, Tels, August. 28th, 29th, 30th, 1922. C.O. 730, 24/43045, F.O. 371, 7771/E9258. Public Record Offic, London.

(٢) بحث هذا الجانب بشكل مفصل في معظم المصادر التي تعنى بتاريخ العراق السياسي الحديث خلال فترة الانتداب البريطاني .

(3) From Charechili, to Cox, Tel., August 29th, 1922, No. 492 (Private and Personal) In: C.O. 730, 24/43045. P.R.O.

(4) From Acting High Commissioner, to Colonial Office, Secret letter, 28th July, 1927, No. S.O. 1918, In: C.O. 130, 123/40465. P.R.O.

(5) From Bourdillon, the Acting High Comissioner, Baghdad, to The Middle East Dept., C.O. London (Lether-Secret) 28th July 1927. No. S.O. 1618. In: C.O. 730, 123/40465. P.R.O.

(6) From High Comissioner, Cox, to Colonial Office, Tel., (Secret and Persond) July 29th, 1922, In: C.O. 730. 34/45078, and F.O. 371-7771/E 9258. P.R.O.

(7) Ibid.,.

(8) From Churchill, to H.C., Tel. (Personal and Secrd) Augest 3rd, 1922. In: C.O. 730, 34/45078. and F.O. 371, 7771/E 9258. P.R.O.

(9) From H.C. Cox, to C.O., August 10th, 1922 (Tel. Secret and Personal) In C.O. 730. 34, 45078. P.R.O.

(10) From Churchill, to H.C. Cox, Tel. (Private and Personal). August19th, 1922. In: C.O. 730, 34/45078 and F.O. 371, 7771/E 9258.

(١١) طالب به المندوبين الخمسة عشر من بغداد ووفود الالوية التي أيدت مطلب بغداد . انظر جريدة العراق ، ٣ حزيران ١٩٢٠ ، محمد مهدي البصير ، تاريخ القضية العراقية ، بغداد ١٩٢٤ ، ج ١ ، ص ص ١٦٢ ـ ١٧٢ .

Arnold Wilson, Loyalties Mesopotamia, London 1936, Vol. 2, pp. 255-256.

(12) From H.C. Cox, to C.O., Tel. August 10th, 1922, No. 555. In: C.O. 730, 34/45078. and F.O. 371, 7771/ E 9258. P.R.O.

(13) Ibid.,.

(14) Ibid.,.

(15) Ibid.,.

(16) From Churchill, to Cox, (Tel.) August 19th, 1922, No. Private and Personal. In: C.O. 730, 34/45078, and F.O. 371, 7771/E 9258. P.R.O.

(17) Ibid.,.

(١٨) قرارات مجلس الوزراء الصادرة في تموز ، آب ، تشرين الاول ، تشرين الثاني ، كانون أول ١٩٢٢ ، سري خاص بالحكومة العراقية فقط ، بغداد ١٩٢٩ ، ص‌ص٤٤ ـ ٤٥ .

(١٩) عبدالرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقية ، بيروت ١٩٧٨ ، ج١ ، ص‌ص١٠٣ـ١٠٤ .

(٢٠) جريدة المفيد ، ٨ آب ١٩٢٢ ، البصير ، المصدر السابق ، ج٢ .

ص ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ ٠

(٢١) الاستقلال ، ٢٨ مايس ١٩٢٢ ٠

(٢٢) الاستقلال ، ٤ شوال ١٣٤٠هـ « ٣١ مايس ١٩٢٢ » ، العراق ، ٣١ ايار ١٩٢٢ ، المفيد ، ١ حزيران ١٩٢٢ ٠

(٢٣) قرارات مجلس الوزراء ، المصدر السابق ٠

(٢٤) الحسني ، الوزارات العراقية ، ج١ ، ص ص ١٠٩ ـ ١١١ ٠

(25) Form H.C. Cox, to C.O. (Tel.) August 23rd 1922, no 594. In: C.O. 730, 34/42371. P.R.O.

(26) British Colonial Office, Report on Iraq Administralion. April 1922 - March, 1923, London 1924, P. 17.

المفيد ، ١٩ آب ١٩٢٢ ٠

(27) Ibid.,. P. 17.

(28) From H.C. Cox, to C.O., (Tel) Secret and Personal, 16th August. 1922, No. 574. In. C.O. 730, 34/45078 and F.O. 371., 7771/E 9258.

(29) From H.C. Cox, to C.O. (Tel). 17th August, 1922, No. 576. In. C.O. 730, 34/45078. and F.O. 371. 7771/E 9258.

(30) From C.O. to H.C. Cox, (Tel.) 16th Augut -922, No. 465. Prirate and Personal, In C.O. 730, 34/45078.

(31) From H.C.. Cox, to C.O. (Tel.) 17th Augut 1922, No. 567. In: C.O. 730. 34/45078. and F.O. 371, 7771/E 9258.

(32) From Churchill, to Cox, (Tel). 22nd August 1922, No. Personal In. C.O. 730. 34/45078.

(33) From H.C., to C.O. (Tel) 23rd August. No. 597. In. C.O. 730, 34/42371.

(٣٤) رسالة من الملك فيصل الى المندوب السامي بتاريخ ٢٠ آب ١٩٢٢ . ملفة المعاهدة العراقية ـ الانكليزية تسلسل ٢٩ ورقة (٨٦) ، ملفات البلاط الملكي . المركز الوطني للوثائق . بغداد .

(٣٤) الحسيني ، الوزارات ، ج١ ، ص١١١ـ١١٢ .

Philip Willard Ireland, Iraq. Astudy in Political Development. London 1937. P. 358.

(٣٥) المصدرين السابقين .

(36) From H.C., Cox, to C.O. (Tel.) 23rd August 1922. No. 594, In: C.O. 730, 34/42371.

(٣٧) للاطلاع على التفاصيل انظر جريدة المفيد ، ٢٥ آب ١٩٢٢ ، البصير ، المصدر السابق ، ج٢ ، صص٤١٩ـ٤٢٠ ، الحسني ، تاريخ العراق السياسي الحديث ، صيدا ١٩٥٧ ، ج٢ ، صص٢٣ـ٢٤ .

British Roport on Iraq Administration to the Leaque of Nations, 1922-1923, PP. 18-19; Elizabeth Burgoyne, Gertrude Bell, From Herpersonal Papers, 1914-1926, London 1961, PP. 292-293; Ireland., Op. Cit., P.P. 358-359,

(38) From H.C., to C.O. (Tel.) August 25th, 1922. No. 597. Confidential. In. C.O. 730, 24/42741.

(39) From H.C. Cox, to C.O. (Tel.) 26th August 1922, No. 605. In. C.O. 730, 24/42829.

(٤١) انظر البيان الذي أصدره المندوب السامي بهذا الشأن ونشر في جريدة العراق يوم ٢٨ آب ١٩٢٢ ونشره الحسني ، الوزارات ، ج١ ، ص ١٢٠ـ١٢٣ . والبيان مؤرخ في ٢٦ آب .

British Report to the leaque, 1922-1923, PP. 20-22.

(41) From H.C. Cox, to Shurchill, (Tel.) 24th August 1922, Secret and Personal. In: C.O. 730, 24/42997.

(42) Ibd.,.

(43) Ibid.,.

(44) Ibid.,.

(45) Ibid.,.

(46) From H.C. Cox., to Churchill (Tel.) 28th August 1922, No. 608, Private. In: C.O. 730. 34/43046.

(47) From H.C., Cox, to Churchill, (Tel.) 24th Au?est 1922, Secret and Personal. In: C.O. 730, 24/42997.

(48) From H.C. Cox, to Churchil, (Tel.) 28th August 1922, No. 608. Private. In: C.O. 730. 24/43046.

(49) From H.C. Cox, to Churchill, (Tel.) 24th August 1922, Cecret and Phersonal. In. C.O. 730, 24/42997.

(50) From H.C. Cox, to C.O. (Tel.) 27th Augest 1922. No. 607. In: C.O. 730, 24/43045.

(51) From Churchill, to Cox, (Tel.) 28th August 1922, Personal. In C.O. 730. 24/45078. and F.O. 871, 7771/E 9258.

(52) From Churchill, to Cox, (Tel.) 28th August 1922, Personal. In: C.O. 730. 24/42829.

(53) From Shurchill to Cox, (Tel.) 28th August 1922, In. C.O. 730. 24/42829.

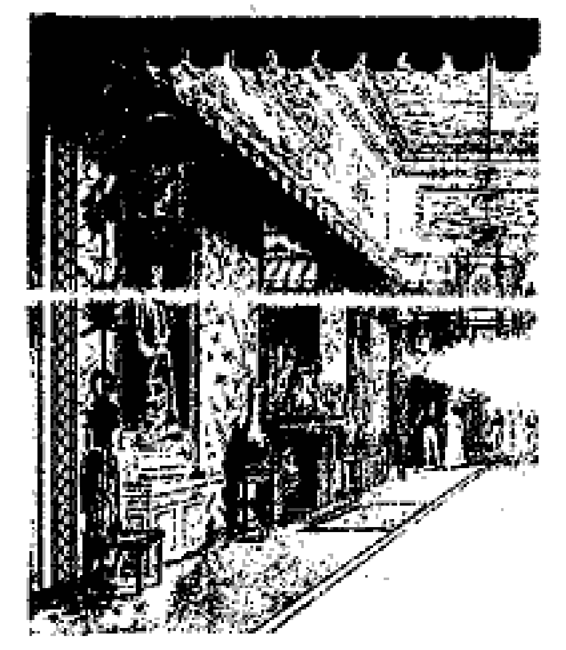
(54) British Rport to the leaque, 1922-1923, PP. 36.

(55) Ibid., P. 35.

(56) From Churchill, to Cox, (Tel.) 29th August 1922, No. 492. Private and Personal. In: C.O. 730. 24/43045.

(57) Ibid.,.

(58) From Churchill, to Cox, (Tel.) 30th August 1922, Personal and Secret. In: C.O. 730, 34/45078. and F.O. 371. 7771/E 9258.



لمؤسسة استعداده لتنفيذ كافة اعمال الديكور

مهندسين اختصاصين

نقوش اسلامية . نقوش مغربية . نقوش ايطالية . نقوش بالمرايا .

تغليف رمر وحجر . تعتيق الالوان ماربلكس .

نوافير ماء داخلية وخارجية . سقوف ثانوية . اصباغ .

اجهزة مكافحة السرقة للمساكن والسيارات

ورقائق النوافذ البرونزيه .

١ـ تحمي المنزل من حرارة الصيف وذلك بعكس اشعة الشمس الى الخارج

وتمنع تسرب الحرارة الداخلية في الشتاء من النوافذ

٢ـ تعمل كشاشة عازلة لمنع الرؤيا من الخارج وسريعة الصيانة والتنظيف

٣ـ تساعد الاجهزة المكيفة بتقليل العمل اليومي مما يوفر من مصروف الكهرباء

آملين ان تنال هذه التجارة الجديدة رضاكم والله الموفق

لمزيد من المعلومات الاتصال بهاتف ٤٢٢٥٩١٠





(٧)

مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين
في العراق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



(٧)

مجلة جمعية المؤرخين والاثاريين
في العـراق

مطبعة الامـة ــ بغداد

دراسات في التاريخ والآثار

مجلة فصلية تصدرها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

المراسلات : جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

العراق / بغداد / ص٠ب (٧٥٥٣) شارع حيفا

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير

ص.ب : (٧٥٥٣) شارع حيفا

مجلة دراسات في التاريخ والاثار ـ جمعية المؤرخين والاثاريين
ت : (٥٣٨١٣٠٤)

الاشتراكات السنوية في مجلة دراسات في التاريخ والاثار

الاشتراك السنوي

الجامعات والمؤسسات في العراق (٥٠) دينارا سنويا

اعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا

الأفراد عموما (١٠) دنانير سنويا

تدفع الاشتراكات مقدما وكالاتي :

أ ـ صكوك لامر الجمعية

ب ـ نقدا لامر الجمعية

في هذا العدد

كلمة العدد

يصدر العدد رقم (٧) من المجلة ليؤكد مسالة اساسية هي الاصرار على استمرار صدور المجلة لتكون متنفسا للمؤرخين والاثريين في العراق ينشرون من خلاله نتاجهم العلمي ، ومع ان سنة التطور تفرض تطورا في الشكل والمضمون غير ان القدرة الذاتية للمجلة وللجمعية قاصرة عن احداث هذا التطور في الشكل اما في المضمون فقد حدث تطور باتجاهات الاول دخول المؤرخ العربي ناشرا لبحوثه في المجلة وهي بادرة نامل تطورها باستمرار ، والثاني السيطرة على مشاكل الطباعة في ضمان سلامة النص والثالث تنوع في اتجاهات البحث التاريخي للمؤرخين والاثريين في العراق أعطى المجلة قدرة تحقيق توازن افضل في البحوث المنشورة ، توازن في مجال الكتابة التاريخية وتوازن في تغطية البعد الزمني للتاريخ . ان هيئة التحرير تتدارس النقلة التي ستشهدها المجلة بدا من العدد (٩) القادم وستكون بالتاكيد نقلة جوهرية لا اريد تحديد مدياتها الابداعية مسبقا وبتنبوأت محددة لكن القارىء سوف يكتشف هذه النقلة ..

يصدر هذا العدد في وقت يدخل فيه العالم في العقد الاخير من القرن العشرين وتشكل احداث هذا العقد ملامح القرن الحادي والعشرين ان لم تكن افصاحا عنه ، فعلى المستوى العالمي تسعى الشيوعية العالمية لتجاوز مأزقها التاريخي والحضاري في محاولة تعويضية لانسانها عن سنين الحرمان الديمقراطي غير ان هذا السعي لم ينطلق من توازن بين الاشتراكية والديمقراطية انما في تفضيل واحيانا استبدال ترى هل تستمر هذه الحالة ام يتحقق التوازن وتبقى للعالم الاشتراكي ملامحه ام لا ! . وبنفس الاتجاه تكتشف الراسمالية انها بدون (مسمار جحا) في مجابهة الاشتراكية وهو امر مهم على مستوى الشد في الوعي الذي تحصن به مجتمعاتها مما ينبىء باحباط ترى اين سوف تظهر نتائجه . يحدث هذا وسط تطور علمي هائل تؤشره مسارات البحوث في الالكترونات وهندسة الوراثة وابحاث الفضاء .

وعلى المستوى العربي يشهد الوطن العربي ظهور مجالس التعاون وتقليص مساحة وحجم التشرذم والتجزئة في وقت يشكل النصر العراقي في الحرب العراقية ـ الايرانية وانتفاضة عرب الارض المحتلة مستوى الثقة باليقين الذي تتزود به الامة العربية معزز بنصر آخر هو دخول العراق عالم الفضاء الخارجي من حيث انتهى الامرون • ان منظومة العابد نقلة ثقة سوف تعزز نتائجها الحقيقية في هذا العقد والقرن القادم بما حجزت للامة العربية من مكانة فيهما •

ان المؤرخ والاثري في العراق وهو يرصد هذه الملامح يدرك اخطارا تهدد مستقبل الحضارة في مقدمتها مرض الايدز ويتمنى ان يتوصل العالم الى علاج لهذا المازق البشري وعسى ان يدرك الذين يستفيدون الشعوب سعيا وراء مصالحهم فقط ان حقوق الانسان ليست تلك البنود المسطرة في وثيقة حقوق الانسان حسب انما ايضا حق الضمان ضد عبث الاستغلال الاقتصادي والصحي والثقافي ••

رئيس التحرير



★ ★ ★

المسلمون في الصين
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

د. نوري عبدالحميد خليل
كلية التربية - جامعة بغداد

١ - ملاحظات أولية :

اذا استثنينا دراسة الشيخ محمد بيرم التونسي (١٨٤٠ - ١٨٨٩) في كتابه « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار » ، وكتاب أتربي ابو العز باشا « نبذة عن الصين » المطبوع في القاهرة سنة ١٩٠٠(١) والمقالات التي كتبها الامير شكيب ارسلان بعنوان « مسلمو الصين » في مجلة المقتطف سنة ١٩٠١ والتي اعيد نشرها في كتاب « حاضر العالم الاسلامي » لمؤلفه لوثروب ستودارد الامريكي ، فان حالة المسلمين في الصين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تحظ باهتمام كبير من لدن الباحثين العرب .

ولهؤلاء الباحثين عذرهم في ذلك ، فالمتصدي لمثل هذا الموضوع يواجه صعوبات جمة يأتي في مقدمتها ندرة المعلومات والمصادر ، فعلى الرغم من توفر مئات المجلدات من السجلات الرسمية التي تناولت انتفاضات المسلمين وثوراتهم في تلك الفترة والاحداث التي رافقتها(٢) ، فأن السلطات الصينية تفرض حظرا عليها ، والباحثون الصينيون يتجنبون الكتابة عن الموضوع لانهم لا يريدون كشف المجازر الرهيبة التي نفذتها حكومة المانشو بحق المسلمين . وفي الوقت الذي يقدم فيه هؤلاء معلومات

مفصلة عن انتفاضات وثورات الصينيين ضد تلك المعركة ، فأن المعلومات التي يقدمونها عن ثورات المسلمين لا تكاد تذكر(٣) علما بان تلك الثورات قد حدثت جميعها في وقت واحد ، وأسبابها العامة واحدة وان اختلفت أساليبها •

المعلومات غير الرسمية التي تسربت عن ثورات المسلمين لا زالت محل أخذ ورد بسبب تعدد الاراء حول طبيعة تلك الثورات واهدافها وحتى أسماء قادتها وعدد ضحاياها • هذه المعلومات تستند اساسا على المذكرات والتقارير والدراسات التي سربتها الارساليات التبشيرية والرحالة والبعثات الغربية العاملة في الصين في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، مثل « تقارير بعثة اولون Ollone الفرنسية (باريس ١٩١١) التي ارسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية بين ١٩٠٦ ــ ١٩٠٩ ، وكتاب « المحمدية في الصين » لتيرسان D. Thiersant (باريس ١٨٧٨) الذي عمل قنصلا عاما لفرنسا في الصين عدة سنوات ، وكتاب مسلمو يونان (باريس ١٩٣٢) لكورديه G. Cordier عضو اكاديمية علوم المستعمرات الفرنسية الذي أقام في جنوب الصين عدة سنوات(٤) • وغيرهم كثيرون •

هذه الكتب والدراسات تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ففي المناطق التي تعرض فيها المسلمون والمسيحيون للمضايقة من قبل الوثنيين الصينيين ، مما حتم قيام نوع من التعاطف والتعاون بينهما ، فان تقارير المبشرين العاملين في تلك المناطق تعطي المسلمين كل الحق في الثورة على السلطات المنشورية ، وتثني على سلوكهم واخلاصهم • في حين نجد تقارير المبشرين والبعثات في المناطق التي تسودها غالبية اسلامية تنحى باللائمة

على سلوك المسلمين وتقلل من شأنهم وتصف تحركاتهم ضد المانشو بانها « حركات تمرد » ومحاولات « لتأسيس دولة داخل الدولة » مبعثها « الحقد والتعصب الاعمى » وان قياداتها استغلت سذاجة الجماهير وجهلها لنشر الافكار « الطائفية » والفتن « المذهبية »(٥) في الصين ٠

والحق ان هذه الاراء تفرض على الباحث تساؤلات كثيرة عليه ان يجد لها اجوبة من خلال النصوص القليلة المتوفرة ٠ فهل كان المسلمون حقا يسعون للانفصال عن الصين واقامة دولة اسلامية ؟ واذا لم يكن التمسك بالاسلام هو الباعث لتلك الثورات فما هي أسبابها الحقيقية اذاً ٠ ؟ ما طبيعتها وأهدافها ؟ كيف كانت علاقتها بالدول الكبرى ـ روسيا القيصرية ، بريطانيا ، الدولة العثمانية ؟ مثلا ٠

في الصفحات التالية سنحاول ايجاد اجوبة لهذه التساؤلات وتقديم دراسة أولية عن الموضوع ، ربما ستكون موضوعا لدراسة اكاديمية أشمل وأكثر عمقا في المستقبل ٠

اضافة لما اوردته الكتب والدراسات المذكورة في أعلاه اعتمد هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع يأتي في مقدمتها كتاب "Islam in China" المطبوع في شنغهاي سنة ١٩١٠ لمؤلفه المبشر البريطاني Marshall Broomhall الذي قضى عدة سنوات في الصين منذ أواخر القرن الماضي واتصل بعدد من الصينيين واستجوب مئتين منهم ٠ وكذلك اطلع على كتب وتقارير من سبقه من الاوربيين ، خاصة تيرسان واعتمد على شهود عيان منهم الكاتب الفرنسي Emilie Rocher الذي كان يعمل في دائرة الكمارك البحرية الصينية اثناء الثورة في يونان وزار المنطقة واتصل بقائد الثورة والمسؤلين المحليين الصينيين ووضع كتابا بعنوان « ولاية يونان الصينية » طبع في باريس سنة ١٨٧٩ ٠ وفيما

يخص الثورة في التركستان والشمال الغربي من الصين فقد اعتمد
برومهال على كتاب Boclger Demetrius وهو بعنوان
The Iife of Yakoob Beg المطبوع في لندن سنة ١٨٧٨ وكذلك
على ما كتبه رئيس البعثة الانكليزية الى كاشغر سنة ١٨٧٣ السر
Doglas Forsyth بعنوان
Report and General Description of Kashgar المطبوع في لندن
سنة ١٨٧٥ وغيرها من البحوث والدراسات المنشورة في المجلات والصحف
البريطانية المعاصرة التي ابدت اهتماما بثورات المسلمين وتابعت
احداثها ٠

ومن الكتب التي افادت هذا البحث كتاب « تأريخ المسلمين في
الصين » مؤلفه بدرالدين حي الصيني ، الذي غادر الصين لاجل الدراسة
في دلهي بالهند (١٩٢٧ – ١٩٣٣) ثم الى القاهرة (١٩٣٤ – ١٩٥٥) وعمل
ضمن الوفد الصيني في هيئة الامم المتحدة في نيويورك (١٩٣٥ – ١٩٥٥)
ثم مستشارا للسفارة الصينية في جدة ٠ وتأتي أهمية كتابه من اعتماده
على عدد من المصادر الصينية اضافة الى تقارير المبشرين والبعثات الغربية
وعلى كتب برومهال وروشر وكذلك كتاب "Tsi Tsungtang"
المطبوع في شنغهاي سنة ١٩٣٧ الذي كتبه الانكليزي W. L. Bales
عن حياة وحملات القائد الصيني تسوتسانغ تانغ الذي قضى على ثورات
المسلمين في الشمال الغربي وفي تركستان الصينية كذلك اعتمد على كتاب
بولغر « حياة يعقوب بك » ٠

ومن الكتب التي افادت بحثنا هذا كتاب « تأريخ الصين في الازمنة
الحديثة » الذي كتبه Tikhvinski عضو اكاديمية العلوم السوفيتية ٠
وقد اعتمد تيخانفسكي فيما كتبه عن ثورات المسلمين في الصين على
مذكرات الطبيب والعالم الطبيعي الروسي Plassetski الذي اقام في

الشمال الغربي من الصين عام ١٨٧٥ وكانت مذكراته بعنوان « رحلة الى الصين ١٨٧٤ – ١٨٧٥ » طبعت في موسكو سنة ١٨٨٢ وكذلك على ما دونه Skatchkov أحد القناصل الروس في أثناء الثورة في تركستان وكذلك على الوثائق الرسمية الروسية وقد استفدت من الطبعة الفرنسية من كتاب تيخانفسكي وهي بعنوان :
"Histoire de La Chine les temps modernes (Moscea 1983)

وقدمت البحوث القيمة التي كتبها استاذ السوربون Jean Chesncaux وزميلتيه "Marianne Bastid' Marie-Claira Bergers". والتي نشرت في كتاب "China From The Opium wars to The 1911 Revolution" مادة مهمة . والكتاب نشر أصلا باللغة الفرنسية ثم ترجمته الى الانكليزية Anne Destenay وطبع في نيويورك عام ١٩٧٦ وتشكل المصادر والمراجع الصينية المترجمة الى الفرنسية مادة أساسية للكتاب اضافة الى تقارير المبشرين والصحف الفرنسية .

ووجدت في دائرة المعارف الاسلامية مادة مهمة عن الموضوع وكذلك دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي ، وكتاب حاضر العالم الاسلامي ، وكتاب صفوة الاعتبار لمحمد بيرم التونسي ، اضافة الى البحوث القيمة التي نشرها المبشرون في مجلة The Moslem world بين ١٩١١ – ١٩٤٠ عن أحوال المسلمين في الصين .

٢ – الحالة السياسية في الصين ١٨٥٠ – ١٩٠٠

كانت تحكم الصين في ذلك الوقت اسرة غريبة عن الصين تلك هي اسرة الشيينغ (الطاهرة) المنشورية الاصل ، التي تمكن قائدها نورهاتشي منذ أواخر القرن السادس عشر من توحيد أحلاف القبائل التترية الساكنة في جنوب منشوريا المتحاربة فيما بينها وأقام دولة على غرار الامبراطورية

الصينية ، متخذا من موكدن أكبر مدن منشوريا عاصمة له • بدأت هــذه الدولة بدعم من بعض امراء المغول في مهاجمة مدن الصين الشمالية واحدة بعد الاخرى ، وأخيرا هاجمت العاصمة بكين واحتلتها عام ١٦٤٤ وتربعت على عرش الصين حتى عام ١٩١١ •

كان المانشو غرباء عن أهل البلاد وقد حاولوا في بداية حكمهم فرض عاداتهم وتقاليدهم على المجتمع الصيني بالقوة ونهجوا نهجــا استبداديا مع القوميات الاخرى ، لكنهم جوبهوا بحضارة أكثر عراقة وتقدما ، ونظرا لكونهم أقلية فسرعان ما أخذوا يندمجون بالمجتمع الصيني ويتقبلون نظمه وعاداته وتقاليــده • وفي أوج قوتهــم تمكنــوا من بسط ســيطرة الصين وسيادتها على منغوليا وكوريا وتركستان وانام والتيبت والهند الصينية(٦) اضافة الى منشوريا وجزيرة تايوان (فرموزا) وعدد من الجزر الاخرى في بحر الصين والقريبة من اليابان •

وكانت الصين منذ عهد اسرة المينغ السابقة (١٣٦٨ – ١٦٤٣) وهي اسرة صينية ، قد فرضت على نفسها سياسة العزلة واغلاق أبوابها بوجه الاجانب في محاولة منها لمجابهة التحدي الاوربي الذي ازداد خطره منــذ بداية القــرن السادس عشــر • وفي الوقت الذي أخــذ فيه حكم الشينغ يتداعى وعجزت الاسرة عــن حمــاية البلاد من الغزو الخارجي ، كانت الدول الاوربية قد تمكنت من بناء نهضتها واستكمال تطورها الاقتصادي وبناء ترساناتها • فأخذت تشدد هجماتها على الصين من أجل السيطرة عليها وفتح أسواقها للتجارة • وبعد حروب طويلة اجبرت كل من بريطانيا وفرنسا بدعم من روسيا القيصرية والولايات المتحدة ، الحكومة الصينية على توقيع معاهدات مذلة في السنوات ١٨٤٢ ، ١٨٥٨ ، ١٨٦٠ اجبرتها على فتح موانئها للتجارة الخارجية ودفع غرامة حربية باهظة والتنازل عن

الكثير من الاراضي التابعة لها وعن بعض جوانب سيداتها للاجانب .

وفي الاقاليم الخارجية للصين ، بدأت السلطة تنحسر تدريجيا لتقع تحت سيطرة الدول الكبرى . فبريطانيا احتلت بورما القريبة من الهند في الستينات وبدأت تتغلغل عبر هذه المنطقة الى الاقاليم الجنوبية والوسطي من الصين . وبعد ان ثبتت فرنسا أقدامها في آنام وكمبوديا والهند الصينية (١٨٦٢ – ١٨٦٣) اتخذت من هذه المناطق منطلقا للنفاذ الى داخل الصين . ومن الشمال كانت روسيا القيصرية تحاول ان تؤسس لها منطقة نفوذ في التركستان ومنشوريا والوصول الى المحيط الهادي . وفي الشرق كانت اليابان ، مدعومة من قبل الولايات المتحدة الامريكية ، تشدد من ضغطها على كوريا ومنشوريا وفرموزا (١٨٦٩ – ١٨٧١) وهي من توابع الصين ، في محاولة لاقامة امبراطوريتها . وهكذا بدأت الصين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتحول الى دولة شبه مستعمرة ، ولولا المنافسات الدولية لكادت ان تلاقي مصير الهند(٧) ، وأخذت رؤوس الاموال والاستثمارات والبضائع الاجنبية تتدفق على الصين .

وعجزت حكومة التشينغ عن مجابهة التحدي والارتفاع الى مستوى الاحداث فقد بلغت من الضعف والانحلال الذروة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مما كان ينبيء بقرب زوال حكم الاسرة . وانتشرت المكائد والمؤامرات بين الحلقات المتنفذة داخل البلاط من كبار الموظفين والخصيان والخطايا . وفي خضم تلك الصراعات تم تنصيب أطفال صغار على العرش .

ونتيجة لعجز الامبراطور شيانغ فنغ (١٨٥١ – ١٨٦١) عن مواجهة الغزو الاجنبي ، عمت الثورات والانتفاضات أنحاء البلاد حتى كادت احدى

هذه الثورات التي قادتها جمعية « عبـاد الله » ، وهي جمعية سرية ذات صبغة دينيــة مسيحية ان تطيح بـه وتسيطر على بكين خاصـة بعد ان استطاعت هذه الجمعية ان تؤسس مملكة تايبينغ (مملكة السلام السماوية ١٨٥٠ ــ ١٨٦٤) في الاقاليم الوسطى والجنوبية من الصين واتخذت من مدينة نانكنغ (عاصمة سماوية) لها • وامتدت شمالا حتى بكين حيث تمت محاصرتها •

وفي الاقاليم الشمالية انهوي ، هنان ، كيانغسو قامت ثورة أخرى قادتها جمعية نيـان فاي « حامل الشعلة » بين ١٨٥٣ ــ ١٨٦٨ وامتدت الى أنحاء أخـرى من الصين(٨) وفي الهوامش الغربية للصين قامت ثلاث ثورات للمسـلمين بين ١٨٥٥ ــ ١٨٧٧ والتي سيتناولها هـذا البحث • والواقع انه لم يكن يخلو اقليم من أقاليم الصين الثمانية عشر من ثورة في ذلك الوقت •

وفي اوج تلك الثورات توفي الامبراطور فخلفـه ابنـه تونغ تشـي (١٨٦١ ــ ١٨٧٥) ولم يكن عمره يتجـاوز الخمس سنوات ، فأصبحت السلطة بيد امه محظية الامبراطور السابق والتي عرفت باسم الامبراطورة الوصية أو الامبراطورة الوالدة تسي شي التي ظلت تحكم الصين حتى وفاتها عام ١٩٠٨ •

حكمت هذه المرأة الصين حكما رجعيا متعسفا وفرضت سيطرتهـا على قادة الجيش والوزراء وكبار الموظفين ، ووقفت بوجه كل محـاولة للاصلاح أو الانتفاع من الفكر الغربي والعلوم الحديثة • وبعد وفاة ولدها الصغير عام ١٨٧٥ نصبت غلاما آخر عمره أربع سنوات باسم الامبراطور كوانغ تشوي الذي لم يمارس الحكم اذ ما لبثت ان سـجنته عـام ١٨٩٨،

بسبب ميوله للاصلاح ورغبته في ادخال الافكار والاساليب الغربية الى البلاد وظل سجينا حتى قتلته قبل يومين من وفاتها(٩) في ١٥ تشرين الثاني ١٩٠٨ ٠

٣ ـ المسلمون في الصين :

أية محاولة لاعطاء رقم تقريبي عن عدد المسلمين في الصين في ذلك الوقت تتحول الى نوع من العبث امام انعدام الاحصاءات الرسمية وتجاهل المصادر الصينية للموضوع ٠ والارقام التي سجلها المبشرون في نهاية القرن التاسع عشر لا يمكن اعتمادها اذ ان المسلمين اعطوا أرقاما أقل من الواقع حذرا من اثارة شبهات حكومة المانشو ولفت أنظارها ، خاصة بعد ان ابيدت أعداد كثيرة منهم في اثناء الثورات ، والشيء نفسه يقال عن الارقام التي اوردتها المصادر والمراجع الاجنبية والاسلامية وعلى سبيل المثال نذكر ان الارقام التي اوردتها تلك المصادر والمراجع تتراوح بين ثلاثة ملايين وثمانين مليون(١٠) وهو شيء لا يبعث على الاطمئنان ٠ والشيء الوحيد الذي يمكن الاستشهاد به هنا هو رقم ٤٨ مليون في منتصف القرن الحالي حسبما ورد في كتاب الصين السنوي الذي نشرته الحكومة الصينية عام ١٩٤٨(١١) وهو رقم يبدو أكثر قبولا ٠

واذا تركنا هذه المسألة جانبا فان مشكلة أخرى تواجه الباحث الا وهي الطريق والزمان الذي وصل فيه الاسلام الصين ، والمتفق عليه هو ان العرب كانوا على اتصال بالصين قبل البعثة النبوية بزمن طويل ٠ والروايات الموثوقة عن تأريخ الصين القديم تشير الى ان القوافل التجارية كانت تتنقل بين الصين وغربي آسيا ، وهو ما تؤكده المصادر الرومانية أيضا ، اذ كان التجار الرومان يحصلون على ضروريات البلاط من

المصنوعات الصينية من حرير وملابس وتحف نادرة من أسواق الشام وارمينيا ونصيبين • كانت هذه البضائع تصل برا عبر اواسط آسيا على طريق الحرير العظيم أو بحرا عبر الخليج العربي والعراق ، أو البحر الاحمر ومصر(١٢) • وعلى سبيل المثال تذكر السجلات الصينية القديمة انه كان للعرب في الصين اماكن استيطان ومراكز محاسبة في كانتون سنة ٣٠٠م توسعت خلال القرن الرابع ، وان التجارة العربية مع الصين تطورت خلال القرنين السادس والسابع تطورا(١٣) ملحوظا •

ومما لاشك فيه فان هذه العلاقات قد توطدت بعد ظهور الاسلام ، وعلى الرغم من صعوبة التحقق من الادعاء بان الاسلام قد بدأ بالانتشار في الصين في عهد الرسول (ص) • لكن المؤكد هو انه بدأ بالانتشار في عهد اسرة تانغ الذي استمر ثلاثة قرون (٦١٨ ــ ٩٠٦) ، وهي فترة تغطي عصور الدولة العربية الاسلامية في عهد الرسول الكريم والراشدين والامويين والعباسيين في فترتهم الاولى والثانية ، حين أخذ المسلمون يتوافدون على الصين بحرا عن طريق الهند وبمحاذاة ساحل الصين حتى كانتون في الجنوب ومنها توغلوا داخل الصين ، أو برا بطريق آسيا الوسطى وتركستان (١٤) • ثم الاجزاء القريبة من الصين •

الواقع ان الاسلام لم ينتشر بشكل واسع الا بعد حملات القائد العربي قتيبة ابن مسلم الباهلي في بلاد ما وراء النهر والتي وصل فيها حدود الصين الغربية • وحسب بعض المصادر فانه تمكن من فتح كاشغر (شوفو الحالية) احدى مدن تركستان الصينية ومفتاح طريق الحرير الرابط بين الصين وغرب آسيا • وفي السنوات التالية ساعد المسلمون المتواجدون في اواسط آسيا الامبراطور الصيني في اخماد بعض الحركات

المقاومة بين ٧٥٤ ـ ٧٥٧ فسمح لهم الامبراطور بالاستقرار(١٥) في شمال غربي الصين خاصة في سيان العاصمة السابقة للامبراطورية واختلط هؤلاء بالصينيين ونشروا الاسلام بينهم .

هذا الانتشار حتم وجود أجناس من المسلمين في الصين . فسكان المناطق الشمالية الغربية الاصليين من الاتراك والمغول الذين اعتنقوا الاسلام خاصة في اقليمي قانصو وشينسي يقال لهم التونكان اي العائدين أو المتحولين الى الدين الحق وهو الاسلام . وصار هذا الاسم يطلق فيما بعد على مسلمي تركستان الصينية أيضا . أما المسلمون الذين ينتسبون لاصول عربية ممن توغلوا في الصين مع الجيوش الاسلامية أو ممن استقروا في الصين الداخلية وفي الشرق فيطلق عليهم الصينيون اسم « الهوي هوي »(١٦) وهو اسم يذهب الباحثون في تفسيره مذاهب(*) شتى .

واذا كان المسلمون التونكان يتركزون في الاقاليم الشمالية الغربية ، فان المسلمين الهوي ينتشرون في معظم أنحاء الصين ، بما في ذلك مدن الساحل الشرقي وحوض نهر اليانكتسي . وفي فترة حكم المغول ازداد الاسلام انتشارا بعد ان اسس هؤلاء اسرة « يوان » التي حكمت الصين بين (١٢٨٠ ـ ١٣٦٨) وابدت تسامحا تجاه الاديان فهاجرت أعداد كبيرة من العرب والاتراك المسلمين واستقروا في الصين حتى صاروا طائفة

(*) يرى البعض ان اسم الهوي مشتق من قومية مسلمي الغرب الذين ينتسبون لاصول تركية (اويغور) وكانت تلفظ قبلا هويغور ، فالمقطع الاول منه صار يطلق على المسلمين وهو شيء تشك فيه دائرة المعارف الاسلامية . انظر فهمي هويدي ، الاسلام في الصين ، (الكويت ١٩٧١) ص٢٣٧ دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٧ .

كبيرة تتمتع بمنزلة اجتماعية رفيعة وتقلد بعضهم مناصب في الادارة بما في ذلك الوزارة ، واعترف الامبراطور الصيني سنة ١٣٣٥ بان الاسلام هو « دين الحق الخالص » • وتم تأسيس عدد من المساجد • ويؤكد ذلك كل من ماركو بولو الايطالي وابن بطوطة المغربي اللذان زارا الصين في ذلك الوقت وأشارا الى تواجد المسلمين في المدن الساحلية وفي الاجزاء الجنوبية الغربية • والى ان المسلمين هناك كانوا يمارسون أنشطة مختلفة منها التجارة(١٧) والطب والهندسة والفلك وصنع السلاح •

وفي عهد اسرة المينغ التالية (١٣٦٨ – ١٦٤٣) تعرضت الصين للغزو الاوربي فأضطرت للانطواء وفرض عزلة سياسية على نفسها في محاولة لمجابهة ذلك الخطر مما أدى الى انقطاع اتصال المسلمين في الصين بأخوانهم في الغرب • ولما كانت عقائدهم وعاداتهم وحياتهم الاجتماعية لا تمت الى المجتمع الصيني بصلة حتى صارت تلك العقائد والعادات موضع النقد والسخرية من قبل الكتاب الوثنيين في الصين فقد اضطر المسلمون الى تكييف انفسهم مع المجتمع الصيني والاندماج فيه وتكييف مظاهرهم وعاداتهم مع الحياة الصينية • فتطبعوا بعادات أهل البلاد وتكلموا لغتهم ولبسوا ملابسهم وتسموا بأسمائهم وتزوجوا منهم حتى صار من الصعوبة تميزهم عن بقية أهل الصين الا من خلال تمسكهم بعقائدهم(١٨) وكان هدفهم من ذلك هو ان لا يلفتوا الانظار اليهم وان لا يظهروا دينهم بمظهر المعارض لديانة الصين •

واذا كانت هذه الاقلية الكبيرة تسعى للمحافظة على هويتها الاسلامية وسط هذا المحيط الذي تنتشر فيه تيارات فكرية متعددة غريبة عن الاسلام • فلابد ان يتعرض المسلمون للملاحقة والاضطهاد من عهد اسرة

الشينغ المنشورية التي بدأ حكمهـا عام ١٦٤٤ ، والتي اتصـفت بسـوء معاملتها للعناصر غير المنشورية بمن فيهم الصينيين انفسهم ، وباضطهادها وتعصبها فكان هذا العصر بحق هو عصر المصائب والكوارث على المسلمين هلك خلاله الملايين منهم ، وهو الشيء الذي تؤكده معظم المصادر بما في ذلك المصادر الصينية(١٩) نفسها ٠

من وجهـة نظـر المانشو كانت الاوضاع في المناطق التي تسودها غالبية اسلامية بعيدة عمـا يرغبون بـه ، اذ انهم اعتبروا الدين مسألة سياسية محضة ٠ طبقا لذلك كان على كل مواطن ان يودي الكتاو اي السجود للامبراطور ثلاث مرات وهي عادة صينية(*) قديمة ، فاذا خضع المواطن لذلك فله الحق في اختيار أي دين يشـاء ٠ وتنفيـذا لذلك فرض القانون وضع صـورة للامبراطور في كـل مسجد ليجبـر المسلمون على السجود أمامها ٠ لكن هؤلاء الذين اظهـروا استعدادهم لمسايرة السلطة ونظامها الديني السائد من أجل ان يأمنوا على حياتهم وممتلكاتهم كانوا يتهربون من تلك العـادة بشتى السبل وصار تشـدد المانشو في تطبيق التشريعات الصينية في مناطقهم شيء لا يحتمل ٠

وكان على الموظفين المسلمين ان يتبعوا العادات الصينية في الاعياد والمناسبات واداء الشعائر الخاصة على الطريقة الكونفوشيوسية(٢٠) وفي معابدها ٠ هـذا اضـافة الى الخلافات بين ما تفرضه القوانين والعادات الصينية وبين ما يوجبه الاسلام على معتنقيه فيما يتعلق بعبادة الاسلاف (الارواح) وهي الديانة السائدة في الصين ، وكذلك وضع اقدام الفتيات

(*) ظلت هذه العادات مطبقة حتى عام ١٩١١ حين الغتهـا الحكـومة الجمهورية ٠

دون العاشرة في قوالب لتبقى صغيرة رشيقة والتي كان المسلمون يجبرون على تطبيقها وكـذلك المراسيم المتعلقـة بالزواج ودفن الموتى وأكل لحـم الخنزير وشرب الخمر(٢١) وغيرها ·

لذا كان وصول المانشو الى الحكم من وجهة نظر المسلمين لا يبشر بالخير ، خاصة بعد ان تضاعف عددهم وصاروا يرغبون في تطبيق أوامر الشريعة بشكل علني ، فبعد اربع سنوات من وصول المانشو الى الحكم انتفض المسلمون في ولاية قانصو سنة ١٦٤٨ ضد ظلم الاسرة واضطهادها مطالبين بالحرية الدينية · كانت هذه هي المرة الاولى التي يشهر فيهـا المسلمون السلاح بوجه السلطة · وتمكنت حكومة المانشو من نهاية الامر من سحق تلك الانتفاضة التي هلك خلالها أكثر من خمسة آف مسلم ·

هـذه الانتفاضة ساهمت في تعميق الازمـة واثارت شكوك السلطة الجديدة حول نوايا المسلمين ومحاولتهم اقامة دولة داخل الدولة الصينية، فأخذ الموظفون وبعض رجال الدين المتعصبين من غير المسلمين يحرضون الامبراطور ضدهم وينبهونه الى ان ديانة المسلمين تختلف عن ديانة أهل البـلاد وكـذلك لغتهم ولباسهم ويتهمونهم بالغطرسة والميول الثورية ، ويحثون الامبراطور على اتخـاذ تدابير صارمة بحقهم بما في ذلك اغلاق مساجدهم ·

لم تثبت التحقيقات التي اجراها الامبراطور يونغ شينغ (١٧٢٣ ـ ١٧٣٦) صحـة تلك الاتهامات ، فأصدر مرسوما سنة ١٧٣١ حـدد فيـه سياسة الحكومة تجاه المسلمين نافيا عنهم تلك التهم ، مشيدا باخلاصهم وكفائتهم ودورهم في الحياة الدينية والمدنية والسياسية مشيراً الى ارتقاء عدد منهم أعلى المناصب المدنية والعسكرية داعيا لاطلاق الحرية الدينيـة

لهم لان دينهم « يهدف الى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة ويحترم النظم الاساسية للحكومة »(٢٢) حسبما ورد في المرسوم ٠

ان صدور هذا المرسوم لم يحل دون استمرار سياسة الملاحقة والاضطهاد فبعد صدوره بثلاثين عاما ثار مسلمو كاشغر في تركستان الشرقية وساعد اثنان من بكوات الاتراك المسلمين الامبراطور كين لونغ (١٧٣٧ - ١٧٩٦) في القضاء على الثورة فتعاطف معهم حتى قيل ان الامبراطور نفسه قد مال لاعتناق الاسلام ، لكن تدخل الوزراء قد حال دون ذلك فأكتفى باظهار عطفه عليهم ، واقامة علاقات شخصية معهم وسمح لهم ببناء مسجد في بلاطه سنة ١٧٦٢(٢٣) ٠ وبعد ذلك انتفض المسلمون في زونغاريا مطالبين بالحرية الدينية لكن الانتفاضة فشلت ونقل اليها الامبراطور سنة ١٧٧٠ عشرة آلاف من العسكريين لاقرار الامن هناك(٢٤) وقيل ان معظمهم دخلوا الاسلام ٠

ولئن ظلت اعداد المسلمين في الصين تتزايد بشكل بطيء طيلة القرن الثامن عشر فانها شهدت تزايدا ملحوظا منذ نهاية القرن بسبب توالي المحن والكوارث الطبيعية والسياسية ونشط المسلمون لالتقاط آلاف الاطفال ممن فقدوا عوائلهم أو ممن اضطر اباؤهم للتخلي عنهم أو بيعهم وهو شيء مألوف لدى الاسر الصينية الفقيرة في مثل تلك الظروف ٠ فكان المسلمون يحسنون تربيتهم ويدخلونهم الى حظيرة الاسلام ٠ هذا اضافة الى ميل المسلمين الى الزواج بالصينيات وادخالهن في الاسلام ٠

هذا الانتشار كان يثير حسد بعض الموظفين ومعتنقي الديانات الاخرى فتشددوا في ملاحقة المسلمين وتحريض الامبراطور ضدهم وصاروا يبعثون اليه التقارير يذكرون فيها احداثا ملفقة مع نماذج من الكتب

التي كانوا يعثرون عليها بحوزتهم والتي كانت تتضمن في الغالب نسخا من القرآن الكريم بالعربية(٢٥) وشروح وتفاسير بالصينية ٠

واذا اضفنا لكل هذه العوامل عامل التذمر العام الذي ساد أوساط الشعب الصيني بسبب عجز الحكومة عن مواجهة الغزو الاجنبي وتردي الاوضاع الاقتصادية وتدهور الصناعات التقليدية امام تدفق المصنوعات الالية ورؤوس الاموال الاجنبية مما ساعد على انتشار الجمعيات السرية والحركات الثورية في طول البلاد وعرضها ٠ فان انتفاضات وثورات المسلمين لم تكن تقل وطنية عن ثورات الصينيين ، بل كانت تمثل في حقيقتها ثورة الاقليات ضد التفرقة العنصرية وسياسة الاضطهاد التي مارستها حكومة المانشو وتعسف جهازها البيروقراطي وانتشار الفساد والرشوة واثقال كاهل الفلاحين بالضرائب لدفع غرامات الحرب للاجانب٠ وكانت الضرائب المفروضة على المناطق التي تسكنها أكثرية اسلامية تفوق في قيمتها الضرائب التي يدفعها الصينيون اضافة الى الاسعار الباهضة التي يستوفيها التجار عن المواد الضرورية كالشاي والملح (الذي يجبر كل فرد على شراء كمية منه في كل شهر) والاسعار البخسة التي يدفعونها مقابل المنتوجات المحلية كالجلود والصوف(٢٦) وهي أهم البضائع المنتجة في الشمال الغربي من الصين ٠

كانت هذه هي حالة المسلمين قبل الثورات وعلاقتهم بسلطة المانشو ، اما على الصعيد الاجتماعي فقد تميزت علاقتهم بالصينيين بالود والتعاون والاحترام المتبادل فلقد حاولوا جهد الامكان الاندماج بالصينيين وعدم الظهور بمظهر المتميز عنهم ٠ لم تبد منهم أية محاولة للانفصال أو تأسيس دولة خاصة بهم ولم يكن التعصب الديني معروفا بينهم بشهادة الكثير من الغربيين بمن فيهم المبشرون انفسهم ٠ فالغالبية العظمى منهم

كانت غير مطلعة على قواعد الدين بشكل مباشر • والذين يستطيعون فهم العربية لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة منهم والكتب الدينية قليلة(٢٧) • ويشهد الجميع بجدهم ونشاطهم الاجتماعي المتميز وتوفرهم على طاقات قوية وانغمارهم في ممارسة الاعمال النافعة فلقد كانت تستهويهم الحياة العسكرية فانخرط الكثير منهم في الجيش وبرز منهم قادة عسكريون ومقاتلون شجعان • كما برز منهم موظفون اداريون اكفاء ، وفرسان ماهرون اولعوا بتربية الخيول ومربوا قطعان ماشية يعتنون بها أشد العناية وامتلك العديد منهم ثروات طائلة ومنهم رحالة جريئون وتجار حاذقون يتاجرون مع مدن الصين الداخلية ومع الاقطار المجاورة خاصة مع تركستان الروسية ومنغوليا وسيبريا والتبت يتاجرون بالمواشي والخيول والجلود والصوف والفرو والاحجار الكريمة والجواهر والشاي والرز والفحم • وفي القرى والارياف يعملون في الفلاحة • وفي داخل المدن الكبيرة يتولون ادارة الخانات والمطاعم ويتاجرون باللحوم(٢٨) واشتهروا بين أوساط الصينيين والاجانب بنظافتهم وصدقهم وامانتهم في المعاملات•

ان سوء معاملة حكومة المانشو دفعهم الى الثورة ، وخلال الاعوام ١٧٥٨ ــ ١٨٧٨ قاموا بعدة ثورات نذكر منها(٢٩) :ــ

١ ــ ثورة فانصو ١٧٥٨ •

٢ ــ ثورة المسلمين السلار (اتراك) من فانصو وشينسي بقيادة مامنغ هسين (محمد امين) ١٧٨١ ــ ١٧٨٥ •

٣ ــ ثورة تركستان بقيادة جهانكير ١٨٢٥ ــ ١٨٢٧ •

٤ ــ ثورة يونان ١٨٥٥ ــ ١٨٧٣ •

٥ ــ ثورة شينسي وفانصو ١٨٦٢ ــ ١٨٧٥ •

٦ ـ ثورة يعقوب بك في تركستان ١٨٦٤ ـ ١٨٧٨ ٠

٧ ـ ثورة فانصو ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ ٠

المصادر تؤكد ان هذه الانتفاضات والثورات قد قمعت بقسوة بالغة حتى قيل ان ثورة يونان وحدها ازهقت أرواح مليون شخص ٠ وقيل أيضا ان عدد سكان ولاية فانصو انخفض من خمسة عشر مليون الى مليون واحد فقط ٠ وان الثورة في تركستان وحدها كلفت عشرة ملايين نفس(٣٠) وان مساحات واسعة من البلاد قد اقفرت واضطر الكثير من المسلمين الى الهجرة الى القرى والارياف بعد ان منعتهم الحكومة من السكنى داخل المدن ٠ ومع صعوبة التحقق من مدى صحة هذه الارقام فأنها تظهر قبل كل شيء مدى القسوة التي مارسها المانشو وحملات الابادة التي تعرض لها المسلمون ٠ وسنتناول فيما يلي هذه الثورات بالتفصيل ٠

آ ـ ثورة يونان ١٨٥٥ ـ ١٨٧٣ :ـ

يقع هذا الاقليم في الركن الجنوبي الغربي من الصين بين التبت واقليم سيشوان في الشمال ودولة بورما من الغرب ولاؤوس وفيتنام من الجنوب وهي منطقة جبلية تتوفر على عدد من البحيرات والانهار التي تتغذى من ذوبان الثلوج ومن الامطار ٠ وعلى معادن مختلفة مثل الحديد والنحاس والقصدير والفضة ومركز الاقليم هو مدينة يونان (كونمينغ في الوقت الحاضر) ٠

تسكن الاقليم قبائل تنتمي لقوميات متعددة يشكل المسلمون نسبة عالية منهم ويعرفون من قبل الاجانب باسم بانطي Panthay ومن الصعوبة التأكد من عددهم اذ انهم يخفون عددهم الحقيقي خوفا من السلطة والمصادر غير الرسمية تقدرهم بين مليون وأربعة ملايين(٣١)

ينتمي معظمهم لاصول عربية وتركية ومغولية ، جاءوا اليها من شينسي وفانصو واستقروا فيها منذ عهد اسرة يوان المغولية حينما اخضع فيلاي خان المنطقة وعين عليها (١٢٧٣ ـ ١٢٧٩) حاكما مسلما من بخارى هو عمر شمس الدين الملقب « السيد الاجل » الذي قام بانشاء عدد من المدارس والمعاهد الدينية • بينما يرى البعض الاخر ان الاسلام قد وصل قبل هذا التأريخ بزمن طويل وان عدد من الملاحين العرب الذي وصلوا كانتون قد تغلغلوا في الغرب واستقروا في يونان وتزوجوا فيها ونشروا الاسلام(٣٢) هناك •

ظهرت الاضطرابات لاول مرة في هذا الاقليم عام ١٨١٨ مسببتها خصومات نشبت بين عائلتين كبيرتين في مدينة يونغ تشانغ عقب تخريب مسجد فيها ولم ينصف المسؤولون في معالجة الامر مما اثار غضب المسلمين وجمعوا قواهم فتمكنوا من دحر القوات الامبراطورية وحاصروا العاصمة يونان • غير ان التعزيزات العسكرية التي ارسلتها الحكومة تمكنت من التغلب على المسلمين وقطعت اعناق زعمائهم واستتب الامر في السنة التالية(٣٤) ولكن بشكل موقت •

وفي الفترة ما بين ١٨٢٦ و١٨٢٨ وقعت اضطرابات أخرى وتجددت بشكل اوسع بين ١٨٣٤ ـ ١٨٤٠ ، حين اقدم بعض المسؤولين على قتل ١٦٠٠ من المسلمين من الرجال والنساء والاطفال في مدينة مينغ تينغ • ورد المسلمون على ذلك بالمثل وثم رفع الامر الى العاصمة بكين فأصدر الامبراطور مرسوما يدعو فيه الطرفين المتنازعين الى التسامح جاء فيه « المسلمون والصينيون يذبحون بعضهم البعض والمسلمون أبنائي • مثل بقية الصينيين »(٣٥) ونتيجة لتدخل الامبراطور فقد عاد السلام لفترة

قصيرة ، لكنه كان سلاما مشوبا بالترقب والحذر اذ سرعان ما تفجرت الثورة عام ١٨٥٥ لتستمر سبعة عشر عاما اي الى عام ١٨٧٣ ٠

كانت هذه الثورة اعظم ثورات المسلمين في الاقليم والمعلومات المتوفرة كنها كثيرة بفضل ما دونه الكاتب الفرنسي روشر الذي كان حاضرا في الاقليم وقت الثورة وزار قائدها كما اتصل بكبار المسؤولين المحليين وكذلك بفضل ما دونه تيرسان وغيره ممن زاروا المنطقة ٠ يذكر هؤلاء ان الثورة وقعت بعد صدام دام بين العمال المسلمين وغير المسلمين العاملين في مناجم الفضة والرصاص في منطقة شيه يانغ شانغ ٠ فالثروة هناك جلبت اليها أكثر من الفي عامل ٠ وعلى الرغم من قلة عدد العمال المسلمين فانهم كانوا أكثر نجاحا ، فتعرضوا للهجوم من قبل الاخرين الذين أرادوا الاستئثار بالفضة ومع انهم تمكنوا في بداية الامر من الدفاع عن انفسهم لكنهم اضطروا في الاخير الى اللجوء الى الغابات المجاورة بعد ان جوبهوا بقوة الخصوم الذي قتلوا العديد ممن وقع بأيديهم ٠

وحتى ذلك الوقت كان بامكان السلطات المحلية تسوية النزاع بين الطرفين لكنها بدلا من ذلك تدخلت لصالح العمال غير المسلمين واقامت في ١٩ ايار ١٨٥٦ مجزرة رهيبة بحق المسلمين ذهب ضحيتها أكثر من ٣٠٠ عائلة دفعة اولى في مدينة تينغ تشو واحرقت بيوتهم ومساجدهم بعد قتلهم ٠ وكانت السلطات المحلية منقسمة على نفسها ، فوالي الاقليم كان يفضل تسوية النزاع بين العمال المسلمين وغيرهم بالطرق السلمية وذلك بمنح المسلمين امتيازات خاصة في اعمال التعدين ٠ لكن هوانغ تشونغ نائب أركان الحرب السابق كان يضمر كراهية شديدة للمسلمين تغلب عليه ونفذ المجزرة مما دفع بالوالي وأمين الخزانة والقاضي الى الانتحار

احتجاجا على تلك المجــزرة البشــعة واستولى هوانغ تشونغ واعوانه على الحكم في الاقليم(٣٦) لمتابعة تنفيذ الخطة ٠

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد فلقد تم ذبح سبعمائة عائلة مسلمة أخرى في العاصمة يونان اضافة الى عدد كبير من الطلبة المسلمين الذين حضروا من أنحاء الاقليم لاداء الامتحان على مستوى الولاية بهدف الحصول على الوظائف العامة ٠ وشرعان ما انتشــر الرعب في أوساط المسلمين في بقية المدن في الاقليم بعد ان تسربت اليهــم اخبــار تلك المجازر والاوامر السرية التي ارسلتها السلطات الجديدة الى حكام المدن في الاقليم لتنفيذ المجزرة بحقهم فثاروا ثورة رجل واحد(٣٧) وعمت الثورة الاقليم بأجمعه ٠

قاد الثورة الشيخ ماته سينغ « محمد ته سينغ »(*) امام مســجد تالي في غربي الاقليم ٠ كان فقيها ملماً باللغة العربية وحج الى مكة المكرمة سنة ١٨٣٩ وزار الاسكندرية والاستانة ومراكز اسلامية أخرى ٠ وبعد ان اطلع على أحوال المسلمين في الغرب عاد الى بلاده عن طريق سنغافورة سنة ١٨٤٦ وانجز عدة أعمال في الفلك والجغرافية ونشر باللغة العربية مختصرا عن رحلات الحج التي قام بها مسلمو الصين الى مكة والذي ترجم الى اللغــة الصينية ٠ وبعد قيام الثورة اختاره المسلمون زعيما وقائدا عاما لها بسبب مكانته الرفيعة ٠ ولما كان كبير السن فقد اختار احد ابناء اخوته وهو ماهسيان الذي اشتهر فيما بعد باسم محمد رولنغ مساعدا له في حركاته العسكرية ٠

(*) الى جانب الاسماء الصيدية الرسمية اعتاد المسلمون في الصين ان يتخذوا لانفسهم أسماء عربية لكنهم كانوا يكتفون بذكر المقطع الاول من الاسم العــربي فـ « ما » بدلا من محمد أو محمود او مسعود و « ما » بدلا من حســن أو حســين و « باي » بدلا من بدرالدين وهكذا ٠

كان ماهسيان ضابطا متخرجا في المدرسة العسكرية ، قتل اخوه الذي كان يعمل في المناجم أثناء مجزرة سنة ١٨٥٦ هذه المزايا جعلت منه قائدا مرموقا بين المسلمين فقد امتاز بكفائته العسكرية ونشاطه الواسع متخذاً من مدينة كوان آي وهي مدينة ذات أهمية استراتيجية تقع جنوبي عاصمة الاقليم مقراً له ومركزا للعمليات العسكرية ضد السلطة الحكومية .

وفي الغرب انضم اليهم زعيم ثالث وهو تو وين شوي الذي تلقب فيما بعد باسم السلطان سليمان ، وهو رجل مرموق تمكن من الاستيلاء على مدينة تالي الحصينة والتي تتمتع بموقع استراتيجي ايضا بحكم قربها من بورما والتبت فاستقر فيها وصار الموجه والزعيم السياسي(٣٨) للثورة .

نشط تو وين شوي في تجنيد المسلمين والسكان المحليين الساخطين على حكم المانشو ورغبة منه في الحصول على مجندين مسلمين من التيبت فقد أصدر بيانا في لاسة عاصمة التبت نفسها تضمن آيات من الذكر الحكيم ودعا فيه لاسقاط حكومة المانشو وانشاء دولة للمسلمين المؤمنين في يونان « المخلصين اخلاص أبي بكر والجريئين جرئة علي » (رض)(٣٩) .

ويبدو من هذا البيان ان الثورة لم تقتصر على طابعها الديني حسب ، بل اتخذت اطارا وطنيا يتمثل بمعارضة نظام المانشو والدعوة لاسقاطه فسعى تو وين شوي لضم كل سكان الاقليم اليه دون تمييز عرقي أو ديني ، فالقسم الذي اتخذه الثوار تضمن « ان ازالة العار يتطلب اقامة وحدة بين المسلمين والصينيين ... ان المهمات الملقاة على عاتق جيشنا هي : ازاحة المانشو ، الوحدة مع الصينيين ، طرد الخونة »(٤٠) مما أدى

الى انضمام الكثير من السكان المحليين الى الثورة ٠

في ذلك الوقت لم تكن الحكومة المركزية قادرة على التدخل في الاقليم بسبب انشغالها بالثورات الاخرى التي كانت تهدد العاصمة بكين وهي ثورة تايبينغ وثورة نيان فاي اضافة الى انشغالها بحرب الافيون الثانية (١٨٥٧ – ١٨٦٠) مع بريطانيا وفرنسا مدعومتين من قبل روسيا والولايات المتحدة الامريكية ٠ وفي الشمال الغربي شرع المسلمون التونكان بثورتهم منذ عام ١٨٦٢ ٠ والى جانب كل هذه العوامل نضيف عاملا آخر الا وهو شكوك الصينيين من نوايا بريطانيا في بورما بعد ان تمكنت من الحاقها بالهند فتجنبوا الصدام معها خاصة بعد ان ابدى الانكليز اهتماما بالثورة في يونان ٠

كل هذه العوامل جعلت الحكومة المركزية تقف مكتوفة الايدي وتركت مسألة معالجة الثورة في اقليم يونان الى السلطات المحلية هناك ، خاصة وان العاصمة بكين شهدت تحولا كبيرا بعد ان تمكن الحلفاء الغربيون من دخولها عام ١٨٦٠ واضطر الامبراطور شيانغ فنغ الى الهرب الى جيهول حيث مات في السنة التالية كمداً(٤١) وتم تنصيب ابنه تونغ تسي امبراطورا وكان صغير السن لا يتجاوز عمره خمس سنوات ٠

هذه الاوضاع اعطت المسلمين في يونان الفرصة لتنظيم انفسهم والبدء بعملية هجوم شامل على مدن الاقليم بعد ان اصابهم الهلع من المجازر الوحشية فالقائد ماهسيان في الجنوب الشرقي تمكن من تحرير العديد من القرى التي كانت محاصرة من قبل القوات الحكومية ٠ ومع انه جرح عدة مرات خلال المعارك فانه واصل حملته واجبر عدة مدن على الاستسلام ٠ وفي الغرب تمكن تو وين شوي من ان يجعل نفسه سيداً على

معظم الاقليم ، وكانت لهذا التوسع نتائج إيجابية اذ انه لم يثر حماس المسلمين حسب بل وضع بين ايديهم طـاقات بشرية واقتصادية ومبـالغ مالية مكنتهم من مواصلة الثورة • وانتعشت التجارة بين تالي عاصـمة تو وين شوي وبين بورما(٤٢) ، بعد ان تمكن الثوار من شق طريق جبلي اليها لتهريب السلاح والذخائر(٤٣) •

اما مدينة يونان عاصمة الاقليم فقد شهدت تحولات خطيرة بعد ان فرض المسلمون الحصار عليهـا في محاولة للسيطرة على كل الاقليم حتى صارت الحالة داخل المدينة سيئة جدا وامتلأت الشوارع باللاجئين واضطر قائـد الجيش المنشوري الى الاتصـال بقـائد المسلمين لمعـرفة شـروط الاستسلام • اما الوالي هـوانغ تشـونغ الذي نفـذ مجزرة ١٨٥٦ فقـد انتحر كمداً •

لكن هذا النجاح وضع قادة المسلمين أمام مشكلة خطيرة ، فالقائدان ماته سينغ وماهسيان اللذان كانا يحاصران يونان ادركا ان نجاحهما لن يستمر طويلا ولابد ان تتدخل الحكومة المركزية عاجلا ام آجلا • وكانت رغبتهما هي عودة السلام وتأمين سـلامة اتباعهـم فقط دون التفكير في الثأر والانتقام • هذه الرغبة فسرت من قبل قائد الجيش الحكومي بالرغبة في حـل المسألة عن طريق التفاوض فانتهز الفرصة ليعرض على القائدين المسلمين واتباعهما من قادة الكتائب مناصب رفيعة واكراميات ثمينة ان تعاونوا مع الحكومة • وهكـذا لعبت هـذه الدسيسة دورها في تفـريق الثوار • فالقائد ماته سينغ الذي رفض جميع المناصب التي عرضت عليه قبل راتبا شهريا مقداره ٢٠٠ تايل (مثقال) فضة ، فيما عين ماهسيان قائـدا في الجيش الامبراطوري وتعين مـن تحتـه من المأمورين في رتب

مختارة . وبعد هذه التسوية دخلت قوات المسلمين مدينة يونان في تشرين الثاني ١٨٦٠ دون اعمال عنف والقى القائدان المسلمان السلاح وطلبا من اتباعهما الكف عن القتال .

ومن اجل اقناع حكومة بكين بالاجراءات الجديدة تم اقناع ماهسيان بتغيير اسمه الى مارولنغ (محمد رولنغ) حيث قدم تحت ستار هذا الاسم الى البلاط المنشوري بصفته منقذا للعاصمة يونان وليس قائدا للثوار وقد رحبت العاصمة بكين بذلك حيث كانت تتهددها الثورات(٤٤) الاخرى .

بهذه اللعبة استطاعت الحكومة الصينية ان تفرق صفوف المسلمين وتقضي على وحدتهم فانقسموا الى فريقين متناحرين فريق يتزعمه محمد رولنغ في يونان والفريق الآخر يتزعمه تو وين شوي في تالي والذي صار ينظر الى الفريق الاول باعتباره خائنا لقضية المسلمين . وقد سبب هذا الانشقاق اخفاق الثورة وتصفية قادتها جميعا دون استثناء وابادة الكثير من المسلمين .

فمحمد رولنغ الذي أصبح قائدا للقوات الامبراطورية في الاقليم وذا نفوذ واسع في السلطة المحلية تمكن من احداث تغيير في مناصب الولاية وعين أعداء المسلمين في المناصب العليا خاصة أمين الخزانة تسين يواينغ الذي صار فيما بعد والياً على الاقليم وأخذ يعامل المسلمين بوحشية . ولم تنجح المحاولة التي قام بها ماته سينغ الذي صار والياً على الاقليم بشكل موقت باعتبار مركزه كشيخ كبير السن للتاثير على تو وين شوي في تالي(٤٥) فعاد خائبا ، اذ ان الاخير قدر مواصلة الثورة وشرع بتجنيد الفلاحين والعناصر المحلية ووحدات من النساء قادتها احدى بناته .

وفي عـام ١٨٦٢ اعلن قانونا للادارة العسكرية أكـد فيـه الطبيعة الشعبية للثورة منـع بموجبـه النهب واوجب على السكان تزويد الجيش بالمؤن ومنع استغلال المناصب والنفوذ ودعا لتشجيع الحرفيين وتأسيس مدارس اسلامية(٤٦) . وفي محاولة منـه لاطلاع المسلمين في الصين على قواعد الدين الصحيح بشكل مباشر فقد امر بحفر سور القرآن الكريم على الواح من الخشب كوسيلة بدائية لطبعه وتوفيره لمن أراد وذلك بعد صبغ اللوح بالمواد الاسود ثم ضغطه على الورق أو القماش لتطبع عليه الآيات(٤٧) الكريمة واعلن نفسه حاكما مستقلا على يونان باسم « السلطان سليمان » وارسل الى الدول الاخرى يعرفها بقيام دولته وبانه تسلطن على أكثر من ستين مليون مسلم(٤٨) طالبا الاعتراف به .

في سنوات الصـراع ضغطت الحكـومة في عـدة أوقات على تالي ، والمسلمون بدورهم تمكنوا من فرض الحصار على يونان وفي عام ١٨٦٧ مات والي الاقليم مسموما فأصبح تسين يو اينغ امين الخزانة والياً وفي السنة التالية استطاع تو وين شوي وضع يده على الابار الواقعة شمالي العاصمة وبذلك حرم القوات الحكومية من مصادر مهمة للثروة وقطع مواصلاتهـا بسيشوان من الشمال فيما اخذت الاسلحة النارية والذخائر البريطانية والفرنسية والالمانية الصنع تتدفق على تالي عبر بورما . ان أهمية بورما للثوار المسلمين جعلت حكومة بكين تبدي اهتماما اكبر بالثورة والوقوف بوجه أية محاولة للاجانب لفتح منفذ الى الصين(٤٩) عبر تلك البلاد .

واذا كان الجهل بمبادى الاسلام وايمان بعض قادة الثورة ايمـانا سطحيا قـد أدى الى الانشقاق واضعاف قواهـم ، فان ضعف الكفاءات وعدم اطلاع قادة الثورة على التيارات السياسية العالمية في ذلك الوقت كان

من عوامل سقوط حكومة السلطان سليمان . فالشيخ محمد بيرم التونسي يسجل على هذه الحكومة نقطة مهمة الا وهي انحيازها التام للغرب(٥٠) خاصة بريطانيا التي ارادت من خلال سلطاتها في بورما والهند ان تحول الثورة لصالحها واقامة دولة حدودية في يونان تصد الخطر عن امبراطوريتها(٥١) الهندية خاصة وان فرنسا قد نشطت في الهند الصينية شرقي الهند وبريطانيا دخلت في صراع مع روسيا القيصرية حول الصين وكانت روسيا قد بدأت تتغلغل في تركستان . فقامت بعثة بريطانية بقيادة « سلادن » بزيارة الصين سنة ١٨٧٠ واتصلت بقادة الثورة في يونان ونصحتهم بارسال وفد الى لندن لاجراء اتصالات مباشرة مع الحكومة البريطانية .

بناء على هذه النصيحة توجه الامير حسن بن السلطان سليمان عبر بورما سنة ١٨٧١ الى لندن والتقى رئيس الوزراء البريطاني كلادستون (١٨٦٨ ـ ١٨٧٤) طالبا منه المساعدة والدعم . وكان كلادستون في ذلك الوقت يتمسك بتقاليد الاحرار في « السلام والتقتير » والاقتصاد بمصروفات الدولة ويتبع سياسة مسالمة في الشؤون الخارجية . لذا فأنه لم يكن مقتنعا بفكرة اقامة دولة اسلامية بالقرب من الهند وبورما واعتذر عن التدخل في شؤون المسلمين في الصين . وبناء على نصيحته توجه الامير حسن الى الاستانة طالبا مساعدتها . ولم يكن السلطان العثماني عبدالعزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) اقل حماسا في انتهاز مثل هذه الفرصة الثمينة التي تتيح له بسط سيادته على مسلمي الشرق لكن صراعه مع روسيا والوضع المالي المتردي للامبراطورية العثمانية وصعوبة الوصول الى تلك المناطق النائية حال دون تقديم المساعدة فاضطر الامير حسن الى العودة الى يونان

في بداية سنة ١٨٧٣(٥٢) خائبا ٠

ويعزو البعض ممن زاروا الاقليم واطلعوا على مجريات الامور فيه التعاطف الذي اظهره البريطانيون وغيرهم نحو ثورة المسلمين في يونان الى العداء الذي اظهرته السلطات الصينية المحلية تجاه الاجانب في المنطقة(٥٣) لكن الواقع يدحض ذلك اذ ان الاوربيين كانوا في ذلك الوقت في صراع مرير فيما بينهم وبين الحكومة الصينية حول السيطرة على الصين واقتسامها فكان لابد من استغلال مثل تلك الثورة التي هيأت لهم فرصة التدخل ٠

وفي الوقت الذي كانت فيه تلك السلطة الناشئة تجاهد من أجل الحصول على الدعم الخارجي أخذت تشدد حصارها على العاصمة يونان بين ١٨٦٨ - ١٨٦٩ في محاولة للسيطرة على كل الاقليم ٠ وكان بامكان تو وين شوي ان يحتل المدينة لو قاد الحصار بنفسه خاصة وان قوات المسلمين داخل المدينة والتي انحازت الى جانب الحكومة لم تكن راغبة في قتال اخوانهم المسلمين بل انهم رفضوا تنفيذ الاوامر ولم يقض القائد محمد رولنغ الذي تمسك بالاتفاق مع الحكومة على تمردهم الا بعد ان قتل عدد من قادتهم ٠ وبدلا من ان يقود تووين شوي الحصار بنفسه ظل قابعا في مقره في نالي تاركا قيادة الحصار لتاسي جونغ وهو رجل ضعيف كبير السن لم يتمكن من اظهار القوة المطلوبة ٠ وخلال الحصار الطويل تناقص حماس قواته وظهر عليها الانهاك وأخيرا اعياه المرض فمات ٠ وتمكن محمد رولنغ من كسب بعض قواته التي اخذت تتقهقر من مكان لآخر وهوجم اتباع تووين شوي من أربع جهات من قبل جيوش المانشيو التي قادها قادة اكفاء من بينهم محمد رولنغ ٠

والواقع لم تحدث حروب بين الطرفين بمعنى الكلمة بل تمت محاصرة المدن والقرى التي كان المسلمون قد استولوا عليها واستمر الحصار مدة طويلة ولقد تمكنت تلك المدن من توفير ما يكفيها من المؤونة لحصار طويل اذ ان المسلمين لم يستوفوا الضرائب من السكان نقدا بل كانوا يأخذونها عينا مما مكنهم من الصمود لمدة أطول(٥٤) . ومع ذلك فقد اخذت تلك المدن تتساقط بأيدي القوات الحكومية واحدة بعد الاخرى وتم تنفيذ مجازر رهيبة .

ويصف الكاتب الفرنسي روشر(٥٥) الذي كان يتابع تلك الاحداث سقوط احدى المدن وهي تشنغ كيانغ بقوله « ان آلافا من السيدات المسلمات قد انتحرن بالقاء انفسهن وأطفالهن في الابار بينما كانت هناك حوالي خمسة آلاف سيدة من اللواتي امتنعن عن قتل انفسهن يعانين أبشع الاعتداء من رجال الجيش ، وتعرض سكان المدينة للسلب والذبح ، ومن غير الضروري متابعة تفاصيل القصص المؤلمة الدامية التي اعقبت سقوط مدينة بعد أخرى لكن التفاصيل الكاملة لسقوط تالي ستكون كافية للكشف عن السياسة التي تم تنفيذها في المناطق الاخرى » .

ففي عام ١٨٧٢ تركزت كل قوات تو وين شوي داخل مدينة تالي وفي ضواحيها استعدادا للمعركة الفاصلة . وسرعان ما داهمتها القوات الحكومية وفرضت عليها حصارا شديدا . وفي أثناء ذلك دب الخلاف بين زعماء المسلمين داخل المدينة وانقسموا الى فريقين . الفريق الاول كان يصر على القتال حتى النهاية فيما كان الفريق الثاني من الذين تسلموا وعودا طيبة من حاكم الولاية الذي طالبهم براس تووين شوي مع فدية من المال فقط يدفع للاستسلام . ونجحت تلك الوعود في كسب ود الفريق

الثاني فأرسلوا الى قائد الحامية المانشورية بالختم(*) الذي كان يستخدمه تو وين شوى (السلطان سليمان) في اصدار الاوامر تأكيدا لاستسلامهم.

وعندئذ وجد سليمان تووين شوي الذي ظل سلطانا على نصف ولاية يونان حوالي ستة عشر عاما وحيدا ، وقبل بتسليم نفسه لانقاذ بقية المسلمين بعد ان اقدم على تسميم زوجاته الثلاث وبناته الخمس وسلم نفسه في الخامس عشر من كانون الثاني ١٨٧٣ . وامام قائد القوات المنشورية اقدم على الانتحار بتناول جرعة كبيرة من السم وتم قطع رأسه وارساله الى البلاط(٥٦) في بكين .

ثم قام الجيش الحكومي باغلاق أبواب المدينة منعا لهروب الناس منها واقتحم كل ثلاثة أو أربعة من الجنود بيتا من بيوت المسلمين وتربعوا فيه . بينما تظاهر حاكم الولاية باقامة وليمة فاخرة بمناسبة الانتصار دعا اليها قادة المسلمين جميعا . ولما وصل هؤلاء قاعة المأدبة تم القبض عليهم وضرب أعناقهم ، واطلقت المدفعية ست طلقات ايذانا ببدء المذبحة داخل المدينة ، وتولى الجنود ذبح أفراد العائلات المسلمة التي تربعوا في بيوتها حيث تم ذبح الآلاف داخل المدينة وضواحيها ، وفي القرى المجاورة ، وحين مل الجنود من الذبح اشعلوا النيران في البيوت وأخذوا يطلقون النار على الفارين ، ويمضي روشر في وصفه لهذه المجزرة فيقول انه من بين سكان المدينة البالغ عددهم خمسون الفا تم قتل ثللاثون الفا بينما فر الآخرون الى بورما . وتأكيدا لهذا النجاح بعث الحاكم بأربع وعشرين

(*) يزن هذا الختم (٨٦) اونسة من الذهب وقد قدر ثمنه بخمسئة باون صممت قبضته بصورة أسد في فمه ياقوتة وكان الختم مكتوبا بالعربية وبالصينية .

سلة مملوئة بعشرة آلاف زوج من الآذان الادمية مع سبعة عشر رأسا من رؤوس قادة الثورة من ضمنها رأس سليمان ثو وين شوي(٥٧) ٠

وتمكن ما بين خمسة آلاف وستة آلاف من التسلل تحت جنح الظلام حينما كان الجنود منشغلين بالسلب والنهب وتوجهوا الى احدى القرى القريبة من تالي وحين وجدوا ان جميع الطرق قد سدت في وجوههم وان القوات الحكومية أخذت تلاحقهم فضلوا الانتحار على تسليم انفسهم وهكذا انتهت هذه الثورة في حزيران ١٨٧٣ ٠

وطبقا لتقديرات روشر الذي كان حاضرا أثناء المجزرة فان ما لا يقل عن مليون شخص قد قتلوا وفر الآلاف الى بورما وتعطلت التجارة واقفرت مساحات واسعة من الاراضي(٥٨) اما كورديه عضو اكاديمية علوم المستعمرات الفرنسية الذي أقام في يونان مدة بعد المجزرة فقد قدر عدد ضحاياها بأكثر من ثلاثمئة الف نسمة(٥٩) والمؤرخون الصينيون الرسميون انفسهم يذكرون انه تم ابادة أكثر من نصف سكان الاقليم وان مساحات واسعة قد اقفرت وازيلت مدن وقرى من الوجود وتعطلت التجارة والصناعة ولم تشفع لماته سينغ خيانته اذ تم قتله من قبل المانشو في السنة التالية(٦٠) وشاهد بعض الاوربيين العديد من النساء والاطفال والاموال المنهوبة تباع في الأسواق ٠ وبعد اثني عشر عاما من الثورة كتب جورج كلازك(٦١) يقول « لم يعد يسمح للمسلمين في تالي حتى بفتح الحوانيت ، وحتى هذا الوقت لا تزال آثار الخراب يمكن مشاهدتها في معظم أنحاء الولاية تحكي تلك القصة المحزنة وذلك الصراع المرعب » ٠

ب ــ ثورة شينشي وقانصو ١٨٦٢ ــ ١٨٧٥

تقع المقاطعتان في الشمال الغربي من الصين ، تمتد قانصو من

الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي بين صحراء غوبي ومرتفعات هضبة التيبت وجبال نان شان ومركزها مدينة لانشو (كاولان الحالية) على النهر الاصفر الذي يمر من وسط الاقليم فهي قريبة من التيبت • والقسم الشمالي من الاقليم قرب حدود منغوليا والذي تقع معظم اراضيه خارج سور الصين العظيم يسمى ننغشيا صارت فيما بعد مقاطعة خاصة • والى الشرق من قانصو يمتد اقليم شينسي ومركزه مدينة سيان العاصمة القديمة للامبراطورية الصينية وهي مدينة سنغان في الوقت الحاضر •

تسكن المقاطعتان غالبية اسلامية خاصة غربي قانصو ويقدر برومهال عددهم من قانصو وحدها بين ٢ ـ ٣ر٥ مليون في أواخر القرن التاسع عشر ، وفي شينسي مليون مسلم قبل الثورة(٦٢) ينتمي معظمهم لاصول تركية مثل الاويغور(*) الذي اسلم رئيسهم اويغور بن قرخان بعد قتيبة بن مسلم الباهلي بزمن قليل وتسمى اتباعه الاويغوريون • ومنهم أيضا السلار ويتركزون في هسون هواتعنغ على الضفة اليمنى للنهر الاصفر وعلى طول الطريق بين هسليينغ حتى هوتشو ويتكلمون لغة تركية محرفة والى جانبهم عدد من العرب والمغول الذين ظلوا محافظين على هويتهم الاسلامية وعلى تقاليدهم ويسمي الصينيون مسلمي هذه المناطق باسم التونكان(٦٣) اي المتحولين الى الدين الحق •

ومن الصعوبة تمييز المسلمين التونكان عن غيرهم من سكان تلك المناطق لكنهم يتركزون في تجمعات تترأسها زعامات سياسية ودينية ويعمل الكثير منهم في التجارة مع التيبت وتركستان ومع مدن الصين الداخلية • اما في القرى والارياف فيعملون في الفلاحة ومنهم عسكريون

(*) تعني كلمة اويغور بالتركية المرابطة أو المعاهدة •

وموظفون اداريون لكن أعدادهم تناقصت كثيرا بعد الثورات خاصة داخل المدن حيث لم يعد يسمح لهم بالسكنى والقليل منهم يعرف العربية(٦٤) ٠

شهدت هذه المناطق اضطرابات بعد وصول المانشو الى الحكم بسبب التذمر العام وسياسة التفرقة العنصرية والاضطهاد الديني الذي مارسوه، كانت أول ثورة في المنطقة هي ثورة ١٦٤٨ أي بعد اربع سنوات من تولي هذه الاسرة الحكم ، تم خلالها مثل حاكم ولاية قانصو وقائد القوات الصينية فيها ، وتمكن الثوار من فرض سيطرتهم على معظم مدن الاقليم بل انهم حاصروا لانشو عاصمة الاقليم نفسها فسار اليهم حاكم شينسي المجاورة وتمكن من دحرهم وتقطيع اوصال زعمائهم ٠ وبعد سنتين انتفضوا مرة أخرى وتم قتل خمسة آلاف منهم(٦٥) وعاد الهدوء الى المنطقة ولكن بشكل مؤقت ٠

وتجددت الاضطرابات مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بشكل أوسع وأشد عنفا ٠ اججتها الصراعات الدينية والطائفية ٠ فلقد كانت في تركستان المجاورة منذ القرن السادس عشر فرقتان الاولى تسمى فرقة « الجبليين البيض » ومنهم اسرة الخوجات الحاكمة والثانية تنتمي لاصول تركية أيضا وتسمى فرقة « الجبليين السود » معظمهم من قبيلة السلار التي كانت تستقر جنوبي تركستان وكان بين الفرقتين صراع حول النفوذ السياسي والديني استمر طيلة الفترة التالية ٠

وفي شمال قانصو كان للجبليين السود مقر في مدينة سينينغ ، وكانت لهم ارشادات خاصة منها اداء الصلاة وقراءة القرآن بصوت خافت ٠ وفي منتصف القرن الثامن عشر ظهر بينهم زعيم اسمه مامنيغ حسين

(محمد أمين) الذي زار المراكز الاسلامية في آسيا مثل سمرقند وبخارى وفرغانة وهناك رأى الناس يجهرون في صلاتهم وفي قراءة القرآن • فلما عاد الى قانصو أخذ يدعو إلى الجهر في الصلاة وقراءة القرآن مما أدى الى ظهور انشقاقات بين المسلمين في سينينغ بين اتباع الفرقة القديمة (الخفية) أو المذهب القديم « لاوتشياو » وانصار الفرقة الجديدة (الجهرية) أو المذهب الجديد (هسين تشياو) ووقعت صدامات بين الفرقتين هاجم المسلمون خلالها مدينة لانشو مما حدا بالسلطات الصينية الى التدخل بعد ان ثارت شكوكها حول نوايا محمد أمين فاعتقلته واعدمته سنة ١٧٨١ مما اوقد نار الثورة في نفوس المسلمين فقاموا بهجوم عام على لانشو فاضطرت الحكومة المنشورية الى ارسال فرق من المدفعية لمواجهة الحالة وعززتها بفرق أخرى من مدينة سيان وتمكنت من تطويق المسلمين الذين لجأوا الى المساجد وتحصنوا فيها وأخيرا فضلوا القاء انفسهم في النار والموت على التسليم(٦٦) للقوات الحكومية •

ظل المسؤولون الصينيون يلاحقون اتباع الفرقة الجديدة وتزايدت شكوكهم حين اقدم اتباع محمد أمين على ممارسة الاعمال الرياضية والكشفية والتدريب على استعمال الاسلحة النارية بشكل سري ، وبعد ان اطلعت الحكومة الصينية على ذلك عام ١٧٨٣ أصدر قائد الجيش المنشوري امرا قاسيا ذهب على أثره الآلاف من النساء والاطفال • ولما كان هذا القائد يكن كراهية شديدة للمسلمين فقد عقد النية على ابادتهم وقام عدد من الزعماء المسلمين بتكتيل انفسهم صفاً واحدا لمواجهة الخطر المحدق • واستولوا على بعض المدن ، لكن القوات المنشورية المعززة بالمدفعية تمكنت من انهاء تلك الانتفاضة وقتل عدد كبير من انصار

الفرقة الحديثة وصدر مرسوم امبراطوري سنة ١٨٧٥ ينص على منع المسلمين من المجادلة في أمور الفرق المذهبية(٦٧) او الحج الى مكة وسحب منهم حق بناء المساجد ومنع دخول رجال الدين المسلمين الى الصين من الاقطار الاخرى(٦٨) بصورة اثارت غضب المسلمين وسخطهم ٠

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تجددت الاضطرابات بسبب تفاقم الوضع في أنحاء الامبراطورية ونشوب الثورات في معظم الاقاليم وسياسة الاستغلال التي مارسها الموظفون الرسميون والتجار في المنطقة وزيادة الضرائب من أجل تهيئة الجيوش وتجنيد المسلمين لسحق الثورات الصينية التي عمت البلاد خصوصا المناطق الوسطى والشمالية(٦٩) وبعد سنة واحدة من وفاة الامبراطور شيبانغ فنغ وتولي ابنه الصغير تونغ شي ثار المسلمون سنة ١٨٦٢ في شينسي معلنين بدء أكبر ثورة في الاقليم ٠

السبب المباشر للثورة يرجع الى حملة عسكرية قادها ثوار التايبنغ والنيان عبر سيشوان في محاولة منهم للحصول على دعم المسلمين ومشاغلة القوات الحكومية لتخفيف الضغط على تانكنغ « عاصمتهم السماوية » التي فرضت عليها القوات الصينية حصارا شديدا ٠ فوصلت تلك الحملة الى شينسي مما ساعد على اثارة حماس المسلمين في المنطقة(٧٠) وشرعوا بالثورة في هوانشيو شرقي العاصمة سيان وخلال الفترة التالية ١٨٦٢ – ١٨٦٥ امتدت لتشمل كل شينسي وقانصو والهوامش الجنوبية لمنغوليا بعد ان احتوت الحركات السرية المنتشرة هناك والتحمت مع ثورة المسلمين في التركستان المجاورة لقانصو والتي سنتناولها في الصفحات التالية ٠

ترأس الثورة رجال دين وعسكريون ومعلمون على رأسهم الزعيم

الديني ماهو الونغ أحـد رواد حركة الاصلاح التي حملت اسم الفرقـة الجديدة أو المذهب الجديد « هسين تشياو » التي اوجدها مامنغ هسين (محمد أمين) قبل قرن ويقال ان ماهو الونغ قد تتلمذ على يديه وانـه ادعى النسب الى آل البيت(٧١) فالتف حوله الانصار والاتباع وصار في نظرهم ولياً من الاولياء أو قطباً من الاقطاب وتمكن هذا القائد من التأثير على الجماهير التي لم تكن قد اطلعت على جوهـر الاسـلام بشكل مباشر بسبب جهلهم اللغة العربية فانتشرت بينهم ظاهـرة الاعتقاد في الاولياء وزيارة القبور ومبايعة شيوخ الجماعة ٠

ولكي يميز ماهو الونغ اتباعه عن غيرهم من المسلمين فقد امرهـم بالجهر في أثناء الصلاة وفي قراءة القرآن (لذا سموا بالجهرية) وكذلك ارخاء الايدي أثناء الصلاة ٠ هذه الصفات جعلت بعض الغربيين يعتقدون ان للصوفية أثراً بارزاً على المذهب الجديد والواقع ان مذهب ماهو الونغ هو المذهب السني الحق كما يؤكد ذلك دولون في تقريراته(٧٢) وليس فيه أي أثر للتأمل الصوفي ٠

اما موجـه الثورة فكان الزعيم الديني باي ين هو (محمد ايوب) الذي جمع انصاره في « واينان » حوالي ثلاثين ميلا شرقي سيان عاصمة اقليم شينسي ، وهو ابن عضو مجلس بلدي تميز بنشاطه الواسع وسعيه لتوحيد كل القوى المعادية للمانشو بمن فيهم غير المسلمين من امثـال التايبينغ والنيان ويساعد هذين الزعيمين زعماء آخرون منهم مياو باي لين ومابتسياو(٧٣) اللذين جمعا انصارهما في مدينة هواتشو وكذلك مابيتوان في سينينغ وغيرهم كثيرون ٠

ومما ساعد على ظهور هذه الزعامات في تلك المناطق هـو ضعف

الحكومة وتدخل الدول الكبرى في البلاد وانتشار الثورات وضعف السلطات المحلية في المنطقة مما أدى الى ظهور عصابات خارجة عن القانون وعم النهب والسلب خاصة بعد الحملة التي قادها التايبينغ واليونان في شينسي مما اضطر الكثير من القرويين الى تشكيل « مليشيات » من المتطوعين للدفاع عن انفسهم ، وسرعان ما اصطدم هؤلاء بالمسلمين الذين بدأوا يتدربون على السلاح أيضا لحماية انفسهم فاستغل المعادون الفرصة لتحريض السلطات المحلية ضدهم . متهمين اياهم بالقيام بنشاطات سرية وفي الوقت نفسه سرت اشاعات مفادها ان القوات الامبراطورية في طريقها لاستئصال المسلمين وابادتهم .

هذه الاخبار رفعت درجة استعداد المسلمين فتحصنوا في مدينة واينان واعلنوا الثورة سنة ١٨٦٢ وبادرت حكومة الامبراطورية لارسال حاكم جديد على شينسي يهدف تأمينها واعادة النظام اليها ولما بدأ الوالي الجديد بتصفية قادة الثورة تمكن هؤلاء من قتله وحاصروا العاصمة سيان بعد ان انضم اليهم الكثير من الجنود المسلمين العاملين في الحامية المنشورية من المدينة مما اثار ذعر العاصمة بكين وارسلت تعزيزات أخرى تمكنت من اخراج المسلمين منها سنة ١٨٦٥ وقتل الكثير منهم بينما فر الآخرون(٧٤) الى ولاية قانصو وتجمعوا في لانشو .

هذه الاحداث ادت الى انتشار الثورة في الانحاء الاخرى من شينسي وامتدت الى ولاية قانصو وننغشيا التي تورطت في الثورة أيضا . ففي أثناء الصدام بين المسلمين والقوات المنغولية طلب مسلمو شينسي المساعدة من اخوانهم في قانصو فبادروا لاعلان الثورة دعماً لهم وتم توحيد الجميع في ثورة شاملة امتدت الى ايدن والقرى كل منها ثارت تحت لواء

زعيم مسلم(٧٥) ٠

ولم تقف الثورة عند هذه الحدود فلقد انضم اليها حوالي ثلاثين الف جندي مسلم وهم يشكلون نصف مجموع الحامية المسؤولة عن حماية مدن هامي (تومول حانيا) وارومجي في تركستان الشرقية وانضم اليهم أيضا التجار والفلاحون في تلك المنطقة مما أدى الى امتداد الثورة الى تركستان ٠

ومنيت القوات الحكومية بهزائم منكرة وسيطر المسلمون على طرق التجارة المارة من شمال وجنوب تيان شان نحو الغرب ٠ وحتى ذلك الوقت كانت الحكومة الامبراطورية عاجزة عن تقديم دعمها للسلطات المحلية ٠ وعلى الرغم من تمكنها من انهاء ثورة تايبينغ سنة ١٨٦٤ لكنها اضطرت لتركيز كل جهودها لقمع الثورات الاخرى وهي ثورة النيان في الاقاليم المجاورة والتي استمرت حتى عام ١٩٦٨ وفشلت جهود قائد القوات الحكومية في شينسي من الاتفاق مع الثوار المسلمين وذلك بواسطة اثنين من رجال الدين المسلمين البارزين وحين باءت جهودهم بالفشل ثم قطع رأسيهما مما أدى الى اثارة غضب التونكان ومهاجمتهم للقوات الحكومية وقتل قائدها(٧٦) ٠

وهكذا فشلت كل الجهود لتهدئة الموقف حتى ظهر القائد الصينى تسو تسونغ تانغ (١٨١٢ ـ ١٨٨٥) الذي اخذ على عاتقه مهمة القضاء على الثورة ٠ كان تسو احد أعيان مقاطعة هونان برز اثناء الحملات الناجحة التي قادها ضد التايبينغ وطبقا لما يقوله الانكليزي W. L. Bales كاتب سيرة هذا القائد والحملات التي قادها ضد المسلمين فانه تم تعيينه

قائدا أعلى لاقرار الامن في شينسي وفانصو فوصل مدينة سيان سنة ١٨٦٧ واتخذها مقراً لقيادته • ووضع خطة تنطوي على منع قيام اي تعاون أو اتصال بين الثوار النيان وبين الثوار المسلمين(٧٧) ، ولاجل تمويل الحملة واعدادها اعدادا جيدا فقد فرض ضرائب جديدة وباع ضرائب المهنة المفروضة على السكان في دائرة نفوذه لقاء مبالغ ضخمة من الأموال • وبعد ان تمكن من اسقاط النيان سنة ١٨٦٨ رمى بكل ثقله في السنة التالية للقضاء على ثورة المسلمين(٧٨) •

وبعد ان تمكن من فك الحصار الذي فرضه المسلمون على مدينة سيان قسم قواته الى ثلاث فرق تتقدم من ثلاث طرق : فرقة شمالية للزحف نحو مدينة جنجيبو وفرقة شمالية نحو مدينة هوتي وفرقة وسطى قادها بنفسه وسار بها من شينسي التي تمكن من تهدئتها نحو فانصو وساق امامه جميع المسلمين من المناطق التي مر بها يهدف تأمين الجبهة الخلفية وحصر القتال من الجبهة الامامية(٧٩) داخل فانصو •

ووضع القائد تسوتسونغ تانغ نصب عينيه هدف ابادة المسلمين جميعا وينقل عنه قوله « اذا لم ابدهم ••• اذا تركت فرعا أو جذرا منهم فانني سأتحمل بالمقابل خطر تدميرهم لي »(٨٠) وبعد ان تمكنت قواته من الاستيلاء على عدد من حصون المسلمين وابادة أكثر من ثمانية آلاف منهم خطوة اولى توجهت قواته سنة ١٨٦٩ نحو لانشو عاصمة فانصو التي كانت تدافع عنها قوات ماهو الونغ • وفي محاولة من المسلمين لتخفيف الضغط على هذه المدينة سارت وحدات من المدن المجاورة لتقديم الدعم لكن القوات المنشورية باغتتها في منتصف الطريق وابادت خمسة آلاف منهم وسقطت لانشو سنة ١٨٧٠ واضطر ماهو الونغ الى التراجع الى

جنجيباو(٨١) ، الحصن الحصين للمسلمين ٠

ومرة أخرى تلعب الاطماع الشخصية والخيانة دورها في افشال الثورة التي اندس في صفوفها عدد من ادعياء الاسلام والموالين لحكومة المانشو ٠ لقد لعب الدور الاعظم في قتال المسلمين هذه المرة الجنرال تونغ فوشيانغ الذي تظاهر بالاسلام وجمع حوله الاتباع ممن تظاهروا بوضع العمائم البيض « باي شان » على رؤوسهم في أثناء الثورة وما ان وصلت القوات الامبراطورية حتي انحاز اليها هو واعوانه بعد ان اغري بمنصب رفيع في الجيش وتلقب بلقب القائد العام وصار أداة بيد نائب الامبراطور تسو تسونغ تانغ ٠ وتمكن هذا القائد الذي ادعى الاسلام من القاء القبض على القائد ماهو الونغ(*) الذي فر من جنجيباو بعد سقوطها بيد القوات الحكومية بعد سنة من الحصار وذلك سنة ١٨٧١ وتم تسوية المدينة بالارض وابادة سكانها بمذبحة عامة وتم اعدام ماهو الونغ والزعيم مايا تسياو ردعا للثوار وتم احتلال مدن هوشيو وسينينغ ٠

كان الاوربيون يعتقدون ان تونغ فو شيانغ كان مسلما تظهر انه من أشد أعداء الاسلام ، سعي لضرب المسلمين بعضهم ببعض من خلال التقرب لقادتهم وبمساعدته تمكن المنشوريون من أحتلال المدن التي سيطر عليها الثوار المسلمون(٨٢) الواحدة بعد الاخرى ٠

(*) فاز بهذه المناسبة بأراض واسعة اضافة لمنصب القائد العام للجيش في المنطقة وسخرته الحكومة للقضاء على ثورة المسلمين في فانصو ١٨٩٥ – ١٨٩٦ وعلى الحركة الاصلاحية التي بدأت في الصين سنة ١٨٩٨ وعلى ثورة البوكسرز سنة ١٩٠٠ وعاش في فانصو حتى وفاته سنة ١٩٠٨ بعد انجمع ثروة طائلة وكان يحيطه حرس قوامه ٥٠٠ جندي ٠

وقبل اعدام ماهو الوثغ نصح اتباعه بالهجرة الى بيتغ ليانغ جلوبي فانصو فهاجر اليها نحو عشرة آلاف مسلم ، وباعدامه تلاشت المقاومة وتمكن المنشوريون من اسقاط آخر قلعة بيد المسلمين وهي مدينة سوتشو (كيوشان الحالية) في اقصى شمال غرب فانصو في تشرين الثاني ١٨٧٣ بعد حصار استمر ثلاث سنوات وتم ابادة المسلمين فيها بعد ان فر الزعيم الديني باي ين هو (محمد أيوب) مع عدد قليل من اعوانه الى تركستان(٨٣) ليساهم في ثورة يعقوب بك هناك وانتهت الثورة في شينسي وفانصو بسنة ١٨٧٥ وعاد اليها الهدوء بعد ان استمرت ثورتها أكثر من اثنى عشر عاما ٠

وتم تنفيذ حملة تصفية شاملة للمسلمين ٠ وطبقا لما يقوله الذين زاروا المنطقة بعد القضاء على الثورة مباشرة فان الجنود دمروا ونهبوا القرى ويؤكد هؤلاء « ان عدد سكان فانصو انخفض من ١٥ مليون الى مليون واحد فقط ٠ ومن كل عشرة صينيين قتل تسعة ومن كل ثلاثة مسلمين قتل اثنان »(٨٤) ٠ وعلى الرغم من عنصر المبالغة في هذه الارقام لكن الرحالة شاهدوا اثار الدمار الذي عم المنطقة لعدة أميال وفي جميع النواحي ٠

ويؤكد المؤرخ الصيني Fan wen Lan ان بضعة ملايين من العسكريين والمدنيين قد ابيدوا أثناء تلك الحملات(٨٥) ٠ اما Piassetski العالم الطبيعي والطبيب الروسي الذي حل بالمنطقة سنة ١٨٧٥ مشاهد التدمير والقمع الوحشي الذي حل بالتونكان « لقد تهدمت كل القرى الواقعة على الطريق والتي كان بامكان الفرد مشاهدتها سابقا ، وهدمت كل المنازل حتى اننا لم نعد نرى اثراً لشجرة أو انسان بين

الانقاض ... حيث دفع الناس الى بيوتهم والى مساجدهم وثم اشعال النار فيها لحد ان القتل المفرط في النساء والشيوخ والاطفال المسلمين اثار استنكار البلاط في بكين وان السكان الذين نجوا من الموت باعجوبة قد فروا الى تركستان والى روسيا(٨٦) . والشيء نفسه أكدته بعثة اولون الفرنسية في أواخر القرن والتي استقت معلوماتها من أحد أدباء لانشيو ولاحظت النقص الذي لحق بالسكان وان الكثير من المسلمين لا زالوا تحت المراقبة(٨٧) ولم يعد يسمح لهم بامتلاك الاملاك منذ عام ١٨٦٩ وتحولت ملكية جميع الاراضي الى الدولة(٨٨) .

ثورة قانصو ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ :

ظلت الاوضاع في قانصو تسير من سيء الى اسوء فحكومة المانشو لم تدرك معنى التغيير الذي حصل في العالم ، فحتى نهاية القرن التاسع عشر ظلت منطوية على نفسها وانقسم البلاط على نفسه الى فريقين فريق يتزعمه الامبراطور الشاب كوانغ شوي ويسعى لاقامة دولة عصرية وادخال الاساليب والافكار الاوربية الى البلاد وتحقيق رغبة الامبراطور في تسلم السلطة من عمته المعروفة بالامبراطورة الوالدة . والفريق الآخر تتزعمه تلك العجوز تسي شي التي يدعمها الوزراء وكبار قادة الجيش الذي كانوا يسعون للتمسك بالسلطة والحفاظ على مصالحهم ويجدون في تحديث الجيش والادارة والتعليم ودخول الافكار الغربية الى البلاد تهديدا لمراكزهم فوقفوا بوجه أية محاولة(٨٩) للاصلاح .

والمسلمون بدورهم لم يتعضوا بما حل بهم بعد ثورة ١٨٦٢ ـ ١٨٧٥ وظلت الصراعات الطائفية تمزقهم . فانصار ماهو الونغ من اتباع المذهب الجديد (هسين تشياو) تكاثر عددهم خاصة بعد ان صار ماهو الونغ

في نظرهم شهيداً واعطي لاقاربه حق قيادة المسلمين في فانصو على الطريقة الجهرية(٩٠) • وصاروا يشددون هجومهم على أنصار المذهب القديم « لاو تشياو » أو الخفية فاشتدا الصراع بينهما وفي الوقت نفسه بدأت الافكار الاصلاحية التي شهدها العالم الاسلامي في الغرب تجد لها طريقا الى الصين بواسطة الحج • وخاصة الدعوة الاصلاحية التي نادى بها محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية • قام بنقل هذه الافكار الشيخ نوح ماكويوان (الحاج بستاني) وهو أحد أبناء قرية كويوان من فانصو والذي حج الى مكة سنة ١٨٩٤ وراقت له تلك التعاليم ووجد فيها مخرجا لانقاذ الإسلام في الصين مما علق به من بدع وشوائب فأخذ يدعو للعودة الى الدين(٩١) الخالص •

حصل هذا التطور في الوقت الذي استمرت فيه السلطات الصينية في ملاحقة المسلمين واضطهادهم كلما اقترب حكما من نهايته • فلم تمض سوى عشرون سنة عن الثورة السابقة حتى اندلعت ثورة أخرى في فانصو عام ١٨٩٥ •

كان السبب المباشر للثورة هو الصراع بين أنصار المذهب الجديد من السلار وأنصار المذهب القديم في قرية كايتسيكونغ غربي فانصو فتدخلت السلطات المحلية في المدينة المجاورة لها في النزاع مما أدى الى مقتل أحد المسلمين عندئذ وحد اتباع المذهبين جهودهما لمواجهة القوات الحكومية وشنوا حملة واسعة ضد العدو المشترك • فبادرت قيادة الجيش في المنطقة الى اصدار بيان يدعو لاقامة مذبحة عامة للسلار المسلمين • وعلى الرغم من صدور بيان آخر يدعو لابطال مفعول هذا البيان لكنه جاء متأخرا(٩٢) • وبعد ان اخذت الثورة تسرى الى المناطق الاخرى

من الاقليم ٠

كانت الحكومة الصينية في ذلك الوقت مشغولة بالحرب مع اليابان (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥) حول كوريا ورغبة كل منهما تثبيت سيادتها عليها ٠ ففي آب ١٨٩٤ اعلنت كل منهما الحرب على الاخرى ومنيت القوات الصينية بهزيمة منكرة على أيدي القوات اليابانية المسلحة تسليحا حديثا واضطرت الصين لتوقيع معاهدة شيمونسيكي المهينة في ١٧ نيسان ١٨٩٥ التي أعترفت بموجبها باستقلال كوريا وتنازلت عن عدد كبير من الجزر والموانيء الصينية لليابان ودفع غرامة(٩٣) حربية كبيرة ٠

واستغل رجال الدين المسلمون من الذين يقال لكل منهم الاهونغ (أي الامام) فرصة انشغال الحكومة الصينية بالحرب وسحب الجنود الصينيين والمسلمين من الداخل لمواجهة الغزو الياباني واعلنوا الثورة على سلطات المانشو في سينينغ والقرى المجاورة وسرعان ما امتدت الثورة الى هوتشيو والمدن الاخرى(٩٤) من الاقليم ٠

وبسبب انشغال الحكومة فقد عهدت بمهمة القضاء على الثورة الى القائد تونغ فو شيانغ وهو من قادة المذهب الجديد لكنه انحاز الى جانب الحكومة لاسباب شخصية محضة وطمعا في الحصول على المكاسب ٠ وكان قبل ذلك قد ساهم في القضاء على الثورة السابقة في شينسي وفانصو بين ١٨٧٠ و١٨٧٥ ٠ وفي خلال بضعة أشهر من الصراع بين المسلمين وبين القوات الحكومية التي يقودها تونغ فوشيانغ تم تدمير عدة قرى غربي فانصو وشاهد المبشرون الاشجار على جانبي الطريق وهي مزينة برؤوس المسلمين وعاش السكان في مدينة سينينغ فترة من الرعب امتدت عدة أشهر ٠ وفي خلال شهر واحد تم قطع رؤوس أكثر من ثمانمئة مسلم

داخل سينينغ على أيدي السلطات المحلية والقائدتونغ فو شيانغ وصارت الاضطرابات تهدد باحتمال تدخل المسلمين في تركستان الصينية في الصراع(٩٥) • ولم يعد الهدوء الى الاقليم الا بعد بضعة أشهر من التوتر والمجازر الدموية • وكانت مدينة سينينغ أكثر المدن التي عانت من تلك المذابح ، خاصة بين انصار المذهب القديم « لاوتشيو » وحالما عاد الجنود من الحرب الفاشلة مع اليابان انتهت الثورة في صيف ١٨٩٦ معوضي عن تلك الهزيمة بقمع ثورة المسلمين الذين اضطر الكثير منهم الى الهرب الى التركستان واستقروا في الواحات القريبة من بحيرة لوب نور في حين وضع المستسلمون انفسهم تحت رحمة القائد العام(٩٦) الذي كافأته الحكومة بأراض واسعة وعدد من الحصون وحرس قوامه خمسمئة جندي وعاش في فانصو حتى وفاته في شباط ١٩٠٨ •

ج – ثورة تركستان الشرقية ١٨٦٤ – ١٨٧٨ :ـ

كانت ثورة المسلمين في الواحات الغربية لاقليم تركستان من اوسع الثورات وأكثرها دقة وتنظيما بفضل قيادتها الكفوءة والظروف الجغرافية للاقليم وتواجد المصالح الاجنبية في المنطقة •

تقع تركستان الشرقية التي تتمم تركستان الغربية الروسية بين روسيا وافغانستان غربا والتيبت والهند جنوبا واقليم فانصو شرقا ومنغوليا وسيبيريا شمالا • استولت عليها الصين بين ١٧٥٧ – ١٧٥٩ وكانت مساحتها في ذلك الوقت نصف مليون ميل مربع وعدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة(٩٧) معظمهم من المسلمين • وهم مزيج معقد من الاتراك والمغول العرب منهم الاويغور والازبك والقرغيز والقازاق والطاجيك (صيغة مفرسة لقبيلة طي العربية) وقليل من الصينيين والروس

والافغان ومعظمهم لا يعرفون القراءة والكتابة(٩٨) ٠

يقسم تيان شان (جبل السماء) هذا الاقليم الى قسمين شمالي ويعرف بزونغاريا او دونغاريا وتسكنه قبائل الدونغان أو الدونغاريين (نسبة الى دونغاريا) ويمتد بين مدينة ارومجي (ليهوا الحالية) وبحيرة بلكاش ومركزه مدينة خولجا حيث مقر الحاكم المنشوري قرب الحدود الروسية ٠ ويتوفر هذا القسم على ممرات تجارية نحو الغرب ٠ اما القسم الآخر وهو الجنوبي والذي يضم حوض تاريم وصحراء تاكلاماكان فيعرف في الكتب الصينية بأرض المسلمين وفي كتب الغربيين باسم الكاشقرية وكانت مركزه مدينة يارقند منذ عهد خانات المغول ثم تحولت الى كاشغر (شوفو في الوقت الحاضر) وبهذا فأن المنطقة تتمتع بموقع ستراتيجي بين منغوليا والصين والتيبت وروسيا والهند ومنها يمر طريق الحرير العظيم الذي يصل الصين بالغرب ٠

كانت الكاشغرية تحت حكم اسرة الخوجات التركية التي تنتمي لفرقة الجبليين البيض عندما وصلتها القوات الصينية فتمكنت من دحرهم واخضاع المنطقة لحكمها سنة ١٨٥٩ وعينت عليها نائبا للامبراطور مقره كاشغر ويتولى ادارة بقية المدن بالنيابة عنه وكلاء سياسيون يتم اختيارهم من قبل السكان المحليين يقال لكل منهم « اعظم بيك » أي كبير البكوات وكانت هناك احدى عشرة مدينة للمسلمين يتبعها عدد من القرى والواحات ٠

وهكذا اجازت حكومة بكين لمنطقة الكاشغرية نوع من الاستقلال الذاتي ضمن الامبراطورية الصينية وصار لها نقد خاص ودار للضرب ٠ غير ان الحكام الجدد منعوا المسلمين من الزواج بغ)هم ، وخصصت لغير

المسلمين اماكن خاصة للسكنى في المدن الاسلامية بحيث صارت كل مدينة تتكون من قسمين : قسم قديم للمسلمين وآخر حديث لغيرهم . ولما كانت الحكومة الصينية تتوخى من هذا الاجراء فرض رقابة شديدة على المسلمين فقد عززت سلطاتها في المنطقة بعدد من القلاع والحاميات العسكرية(٩٩) بلغ تعدادها ٦٠ الف مقاتل .

ان النظام الاداري الجديد الذي دشنته السلطات الصينية لم يستمر طويلا اذ سرعان ما دب فيه الفساد وتدخلت المحسوبية والرشاوى في اختيار الاعظم بك وتولى هذا المنصب اناس لا كفاءة لهم وصارت الوظيفة مصدرا لجمع المال وتعسف الحكام وزادوا الضرائب وتعرض المسلمون للظلم والملاحقة مما دفعهم للثورة من خوقند في فرغانة التي كانت تعترف بتبعيتها للصين عام ١٨٢٥ بقيادة زعيمهم جهانكير ابن شاموك بن الخوجه الكبير بعد ان تمكن من جمع القبائل المحيطة بأطراف خوقند واستولى في السنة التالية على كاشغر لكن القوات الصينية وحرته وقضت على ثورته سنة ١٨٢٨ وعادت منطقة كاشغر الى سيطرة الحكومة الصينية التي تركت فيها حامية(١٠٠) مقدارها ثمانية آلاف جندي .

وعلى الرغم من عودة المنطقة الى الحكم الصيني المباشر فانها عانت تفككا سياسيا وانقسمت الى ثلاث مناطق يحكمها الامراء المحليون (بكوات) الاولى في هامي احدى الواحات في شرقي الاقليم وتسمى كومول الآن والثانية هي الكاشغرية في الجنوب والثالثة في ارومجي جنوبي سهل زونغاريا ، هذا التفكك نجم عن ضعف الحكومة الصينية وعجزها عن مواجهة الغزو الاجنبي وقيام الثورات وضعف قوات الحراسة المرابطة في المنطقة وظهور الطامعين في الحكم تحت حماية كل من روسيا القيصرية

وبريطانيا التي كانت كل منهما تسعى لتاسيس نفوذها في التركستان(١٠١) هذا الوضع مكن المسلمين التونكان من السيطرة على كل مدن الاقليم باستثناء يارقند وكاشغر ويانغحصار لوجود حاميات حكومية فيها . وحتى هذه الحاميات لم تعد قادرة على الحصول على دعم الحكومة المركزية فأخذوا يحصنون قلاعهم على سبيل الاحتياط وفي محاولة من حاكم يارقند لتجدب قيام الجنود التونكان الذين يشكلون نصف مجموع قواته بالانضمام الى اخوانهم المسلمين حاول التخلص منهم بقتلهم وحين شعر هؤلاء بما يدبره الحاكم تمردوا أثناء الليل وقتلوا الفين من اتباعه وفتحوا أبواب القلاع ودخلوا المدينة واوجدوا فيها حركة مستقلة . ولم يجد الحاكم وبقية الجنود الذين ظلوا معه بدأ من الانتحار(١٠٢) . هذه الثورة رافقت الثورة في الاقاليم المجاورة شينسي وفانصو التي مرت بنا قبلا فتقدم ثوار تركستان لدعمهم والالتحام معهم في ثورة شاملة قادها يعقوب بك قوشيجي أحد الامراء التابعين لاسرة الخوجات الحاكمة في خوقند .

ولد يعقوب بك الذي نسب نفسه الى آل تيمور (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) من جهة الام سنة ١٨٢٥ في بيشقند من ضواحي خوقند التي كانت تعترف بتبعيتها للصين في ذلك الوقت . وتزوج من اخت امير طشقند الخاضعة لحكم اسياده قبل استيلاء الروس عليها(١٠٣) في سنة ١٨٦٥ .

حصل على تعليمه في مدارس سمرقند ونال شهرة من خلال التعليم في كبريات مدارس بخارى وانغمر خلال ذلك في الامور السياسية وصار على اطلاع واسع على التيارات السياسية في المنطقة التي كانت ساحة للصراع بين البريطانيين والروس في محاولة للسيطرة عليها وسلخها عن الصين .

هذا اضافة الى كفائته العسكرية التي برز فيها خلال المعارك التي خاضهـا ضد روسيا عند حوض سيحون الادنى وذاعت شهرته التي اعترف بهـا الروس انفسهم بسبب ما اظهره من بطولة وجـرأة في قيادته لحصن آق مسجد سنة ١٨٥٣ مما اهله لان يكون مشيرا وساعدا ايمن لعالم قولي حاكم خوقند الذي شاركه في صد هجمات الروس على منطقة وادي ايلي شمالي تركستان (بينها وبين روسيا) وتمكـن مـن تحقيق انتصارات اكسبته شهرة بين أوساط المسلمين(١٠٤) ٠

وكانت كاشغر في ذلك الوقت تعاني اضطرابا سياسيا ورغب السكان في اقامة حكومة قوية تحفظ النظام وتحقق امالهم تحت زعامة احد امراء اسرة الخوجات وبناء على طلبهم بعث عالم قولي امير خوقند والذي كان في ذلك الوقت في طشقند منشغلا بوضع الخطط لصد الروس الذين هاجموا حدود مملكته من الشمال بعث لهم الامير بزرك خـان بن جهانكير وابن اخي ولي خان حاكم كاشغر سابقا وانتدب معه سنة ١٨٦٤ الامير يعقوب بك(١٠٥) ليساعده على تأسيس حكمه في الكاشغرية ٠

بعد ذلك بقليل وصلت الاخبـار باندحار عالم قولي امام الروس وسقوطه قتيلا في المعركة امام طشـقند سـنة ١٨٦٥ وان الروس احتلوا المدينة (التي صارت فيما بعد عاصمة لولاية تركستان الروسية) وانه قد تم تنصيب حاكم جديد على خوقند بمساعدة امير بخارى مظفرالدين بن نصرالله(١٠٦) (١٨٦٠ ـ ١٨٧٠) ٠ لكن يعقوب بك رفض البقاء في خدمة خدايار الحاكم الجديد لخوقند (١٨٦٥ ـ ١٨٧٥) فواصل سيره في صحبة بزرك خان الى كاشغر وانضم اليهما بعض المسلمين وتمكنا من دخول كاشغر في السنة نفسها (١٨٦٥) وتنصيب بزرك خان حاكما عليها

اما يعقوب بك فقد تولى سلطات عسكرية واسـعة يهدف تثبيت النظـام الجديد وبسط سيطرته على المدن والواحات المجاورة مثل كوشار وآقصو وارومجي وطرفان وغيرها واخذت الخاميات الصينية تستسلم واحـدة بعد الاخرى وتم احتلال يانغحصار ويارقند بعد ان انضم اليه الكثير من الجنود البذخشيانيين (الافغان) حتى صار في أواخر ذلك العام ملـكا مطلقا على الكاشقرية بعد ان تخلص من بزرك خان بارساله حاجا الى مكة المكرمة ووضع اساسا بمملكة واسعة جنوبي تيان شان شملت كل حوض تاريم (صحراء تاكلاماكان) من البامير غربا حتى بحيرة لوب نور شرقا واتخـذ لنفسـه لقب السلطان يعقوب بك(١٠٧) واستمر يحكمها اثنى عشر عاما ٠

ثم شرع بتوسيع نفوذه خارج المنطقة فأقام حلفا مع مظفرالدين أمير بخارى الذي انعم عليه بلقب « اتاليك غازي » وهو من القاب التشريف عند حكام بخاري وخوقند (ومعناه من يقوم مقام الاب وتطلق على النبلاء الذين يعملون كمستشارين أو وزراء) وكان مظفرالدين يواجـه أيضـا الخطر الروسي الذي أخذ يزحف بسرعة نحو بخارى ٠ فكانت مصالح الطرفين مشتركة اذ كانت القوات الروسية ترابط عند نقطة نارين على مسيرة أيام قليلة من كاشغر حيث قامت بتشييد حصون فيها(١٠٨) منذ سنة ١٨٦٨ ٠ وفي حركة مضادة قام يعقوب بك بوضع استحكامات شديدة عند مدينة آقصو ٠

كذلك توسع يعقوب بك باتجاه زونغاريا واحتل المناطق المجـاورة لمدينة ارومجي وعين عليها حاكما من قبله وتعززت قدرته في المنطقة بعد فشل ثورة المسلمين التونكان في شينسي وقانصو حين هرب محمد ايوب

باي ين هنو عام ١٨٧٣ مع سبعة آلاف مقاتل الى ارومجي واستقر فيها(١٠٩) ملتحما مع ثورة يعقوب بك •

الحق انه لا الطموح الشخصي ولا التعصب الديني كانا كفيلين بتحقيق هذا النجاح اولا حالة التذمر والسخط بين أوساط المسلمين في التركستان وهي العوامل ذاتها التي دفعت الصينيين الى الثورة ضد سلطات المانشو والتي لم تكن تخلو ولاية صينية منها يؤكد ذلك K. Skatchkov (١١٠) القنصل الروسي في Tchougoutchar في ذلك الوقت بقوله « ليس هناك تعصب ديني يدفع التونكان الى الثورة ضد المانشو بل انه السبب نفسه الذي من أجله ثار الصينيون مدة خمسة عشر عاما في كل الاقاليم الامبراطورية الا وهو الاستياء العام من الامتيازات الكثيرة التي ينعم بها المانشو ومن جشعهم وطمعهم » •

والواقع ان هذه الثورة كانت تمتلك مقومات النجاح والاستمرار أكثر من غيرها من ثورات المسلمين في الصين ، بفضل كفاءة قيادتها العسكرية وامكاناتها البشرية وموقعها الجغرافي وبعدها عن مركز الامبراطورية وعدم توفر المواصلات مع العاصمة اضافة الى الظروف الدولية التي تحيط بالمنطقة ووقوعها بين أطراف دولية متنافسة سارعت كل منها لكسب ودها وتوثيق علاقتها مع السلطان يعقوب •

فروسيا القيصرية التي استغلت ضعف الصين لتنفذ الى مناطق تركيستان الشرقية ارسلت قواتها الى منطقة وادي ايلي في القسم الشمالي في حركة مضادة لبريطانيا (التي كانت تخطط هي الاخرى لحماية امبراطوريتها الهندية) فاحتلتها واحتلت بعدها مدينة خولجا البوابة المؤدية الى زوتعاريا سنة ١٨٧١ وكانت هذه المدينة على أهمية كبيرة

للتجارة والمواصلات مع اواسط آسيا فقامت روسيا بتحصينها(١١١) ومن أجل التودد الى يعقوب بك اسرع الروس الى توقيع اتفاقية تجارية معه في العاشر من حزيران ١٨٧٢ وافقوا بموجبها على الاعتراف بسيادته على الكاشغرية وان يرسل ممثلا له من بلاط القيصر في بطرسبورغ ويقال ان الروس بذلوا لسه المال أيضا غير ان الاتفاقية لم تكن كافيـة لتطمين الروس خاصة بعد ان وصلت كاشغر بعثات انكليزية من الهند فظلت روسيا تتهيأ للقيام بعمل عسكري فأرسلت المؤن والتعزيزات الى نقطـة نارين غير ان ثورة داهمتها عام ١٨٧٥ في خوقند أكبر مدن اقليم فرغانه والتي سبق ان احتلتها روسيا في محاولة للفصل بين أمير بخارى ويعقوب بك وصارت تلك الثورة تهدد تركستان الروسية نفسها مما اضطرها لسحب قواتها(١١٢) من أجل التفرغ لتلك الثورة •

واضاع يعقوب بك فرصة ثمينة هيأتها ثورة خوقند والتي اطاحت بحكم خدايار سنة ١٨٧٥ وكان بامكانه ان يقدم دعمه للخوقنديين ويشترك معهم في قتال روسيا العدو المشترك • لكنه لم يحرك ساكنا • ولقد فسر البعض هذا الموقف من جانب يعقوب بك بانـه كان بفضل الاموال التي بذلها الروس له • وأكثر من ذلك فقد سرت اشاعات بان يعقوب بك سلم بعض المواقع للروس(١١٣) غدراً ، مما أدى الى تصدع العلاقة بينه وبين أمير بخارى وانخفاض شعبيته • بينما فسر المؤرخون الصينيون هـذا الموقف بانه كان على سبيل الاحتياط لمواجهة الموقف الناشيء من اسقاط حكومة الشينغ لحلفائه التونكان في شينسي وقانصو وتمركز القوات الصينية في هذين الاقليمين(١١٤) ، استعدادا لمهاجمة الكاشغرية •

ومهما يكن الحال فان يعقوب بك استطاع استغلال الظروف الدولية

لصالح استمرار الثورة - فمن الجنوب جاء الدعم من بريطانيا التي كانت سلطانها في الهند وبورما تضغط على الصين باتجاه التبت ويونان من أجل اقامة دولة حدودية تحمي امبراطوريتها الهندية ، وصارت على استعداد للتغلغل في التركستان بهدف اقتطاع كاشغر عن الصين واتخاذها قاعدة بوجه التوسع الروسي(١١٥) فاسرعت هي الاخرى لاقامة علاقات ودية مع السلطان يعقوب .

ومن ناحية يعقوب بك نفسه فأنه ادرك منذ وقت مبكر مزايا الدعم البريطاني وقيمة التحالف معهم في انقاذ مملكته من الخطر الروسي فأجرى اتصالات مع اللورد لورنس نائب الملك البريطاني في الهند (١٨٦٤ - ١٨٧٦) بشأن اقامة تحالف عسكري ضد روسيا وضد الصين أيضا غير ان نائب الملك رفض الدخول في مفاوضات حول الموضوع .

وبعد ان اقام يعقوب بك سلطته الواسعة التي امتدت الى حدود روسيا بدأ لورد مايو حاكم الهند الجديد سنة ١٨٦٦ يوطد علاقته معه بناء على تعليمات تلقاها من حكومته .وأخذ يمهد لعقد معاهدة صداقة بينهما . وبناء على ذلك وصل كاشغر سنة ١٨٧٣ - ١٨٧٤ وذلك للمرة الثانية السير دوكلاص فورسايت D. Forsyth على رأس وفد رسمي . وخلال هذه الزيارة لاحظ فورسايت ان ادارة مملكة يعقوب بك كانت تسير على درجة كبيرة من الضبط والنظام وان المجرمين واللصوص والعصاة لا وجود لهم ، وتم التوقيع على معاهدة ودية بين السلطان يعقوب ونائب الملك البريطاني في الهند اعترفت بريطانيا بموجبها بسيادة يعقوب بك على الكاشغرية ومقابل ذلك تم فتح أسواق هذه المناطق للتجارة البريطانية والسماح للرعايا البريطانيين بالتنقل بحرية ومنحوا حصانة دبلوماسية(١١٦) .

وكانت للانكليز مصلحة في ان يروا تركستان الشرقية تتحول الى دولة مسلمة تخضع لهم وفي اطار علاقتهم المعادية للروس ساهموا بالتقارب بين يعقوب بك والدولة العثمانية • وما عدا ذلك فانهم لم يتعهدوا بتقديم الدعم العسكري ضد روسيا أو الصين وهو ما كان يعقوب بك يسعى لتحقيقه •

ويوضح لنا بولغر D. Boulger كاتب سيرة يعقوب بك أسباب ذلك بقوله ان الغرض الاصلي لبعثة شورسايت هو تقدير الوضع السياسي في تلك البقعة من العالم ، وقد وجد يعقوب بك ان وجود السير فورسايت في كاشغر عاملا مشجعا له لانه كان في ذلك الوقت مهددا بهجوم عسكري من قبل روسيا غير ان المندوب البريطاني لم يتعهد ليعقوب بك بشيء عملي • وكان السبب واضحا لانه وجد ان مصالح بريطانيا في الهند في مأمن من الناحية الشمالية بفضل وجود جبال هملايا الفاصلة بين الهند وتركستان فاكتفى فورسايت بالتوقيع على معاهدة الصداقة دون التعهد بالدفاع العسكري المشترك •

وطبقا للمعاهدة وارضاء ليعقوب بك عمدت بريطانيا الى الضغط على الصين بواسطة وزيرها المفوض في بكين من أجل التخلي عن ثمانية مدن وهي المدن الرئيسة في الكاشغرية لسيادة يعقوب بك اي الاعتراف باستقلاله في تلك المنطقة • وفي الوقت نفسه أخذ الوزير الصيني المفوض في لندن يحث حكومته على اتخاذ مثل تلك الخطوات هذا اضافة الى وجود عدد من المستشارين في البلاط الصيني ممن كانوا يفضلون منح يعقوب بك حكما ذاتيا بسبب تدهور الوضع في الامبراطورية وتكاليف الحملات الباهضة(١١٧) على مثل تلك المنطقة النائية •

ومن اقصى الغرب جاء الدعم من الامبراطورية العثمانية التي كانت هي الاخرى في صراع مع روسيا القيصرية عشية الحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧ - ١٨٧٨ فأسرعت الى تبادل البعثات مع يعقوب بك فوصل كاشغر عدد من الضباط الاتراك للمساعدة على تنظيم الجيش وتدريبه على فنون الحرب والصناعات الهندسية ومقابل ذلك اعترف يعقوب بك بالسلطان العثماني (توفي السلطان عبدالعزيز سنة ١٨٧٦ وخلفه السلطان عبدالحميد الثاني) خليفة للمسلمين وصار يعقوب بك اميرا(١١٨) ، على الكاشغرية .

غير ان الدعم المعنوي لم يكن ذا فاعلية في مثل تلك الظروف ان لم يكن مصحوبا بالدعم المادي والعسكري ، فقيام دولة في مثل هـذا الاقليم الفقير والمعزول عن العالم يتطلب أموالا كثيرة وبريطانيا لم تعد بشيء من ذلك . وحتى الدولة العثمانية التي كان سلطانها شديد الرغبة في ان يرى نفوذه قد امتـد على مسلمي الشرق لكنـه لم يكن قادرا على تقـديم المساعدات المطلوبة بسبب ظروف الحرب مع روسيا وبعد المسافة عـن الصين والاوضاع المتردية للدولة العثمانية .

وفي محاولة من يعقوب بك لتوفير المال وشراء السلاح لادامة الثورة اعتمـادا على الطاقات الذاتيـة المحدودة لجـأ الى فرض ضرائب كثيرة لم يعتادها السكان خاصة بعد ان تدهورت اوضاعهم المعاشية بسبب انقطاع التجـارة التي هي المصـدر الاساسي لمدخولاتهـم ممـا ادى الى تناقص شعبيته(١١٩) واذا اضفنا الى ذلك الاتهامات التي وجهت اليه لعدم دعمه للثوار الخونديين ضد روسيا عام ١٨٧٥ وتسليم بعض المواقع للروس فان ذلك من العوامل المساعدة على انتشار التذمر وشـعور السكان بان الاستمرار في الثورة لم يعد يحقق مصالحهم .

ومن جهة بريطانيا وروسيا فانهم بقدر ما كانوا راغبين في رؤية الصين ضعيفة ممزقة ، فانهم لم يعودوا راغبين في قيام دولة قوية في تركستان تحول دون اطماعهم ، وصاروا يفضلون عودتها الى الصين الضعيفة بدلا من بقائها بيد يعقوب بك هذا في الوقت الذي تمكنت فيه الجيوش الامبراطورية الصينية من تصفية حساباتها مع معظم الثورات والحركات المناوئة بفضل مساعدة الاجانب • وان احتفاظ يعقوب بك بسلطته على كاشغر لم يعد يمكن السكوت عنه •

فبعد ان فرغ القائد تسو تسونغ تانغ (٦٥ عاما) من ثورات المسلمين التونكان في شينسي وفانصو سنة ١٨٧٣ رفع مذكرة الى البلاط المنشوي يحثه على اتخاذ عمل عسكري ضد يعقوب بك « ان الاضطرابات والثورات ستتوالى الى ما لا نهاية ان رفعنا ايدينا عن الامور في تركستان من الآن ••• اذا كانت بريطانيا مخلصة في اقتراحها – منح تركستان الاستقلال – وتريد كسب صداقة يعقوب بك حقا فلتتنازل له عن جزء من الهند(١٢٠) •

هذا الموقف الصلب الذي اتخذه تسو تسونغ تانغ كان عاملا في افشال خطط بريطانيا حول استقلال تركستان فقد صدرت الاوامر سنة ١٨٧٥ بتعيينه قائدا عاما لاعادة سلطة الصين وسيادتها على المنطقة ، فوصل في السنة التالية الى سوتشو غربي فانصو واتخذها مقرا لعملياته العسكرية • ومن أجل تأمين نجاح الحملة وتمويلها فقد عقد قرضا مع الاجانب مقداره ١٣٧٥٠٠٠٠ر مثقال فضة(١٢١) • ويقال ان الحملة كلفت الحكومة الصينية ثلاثين مليون باون استرليني • ثم قام بتوزيع قواته وتقسيمها الى ثلاث فرق للزحف على تركستان من ثلاثة طرق

وتمكنت هذه القوات من احتلال اورومجي وهامي مفتاح الغرب سنة ١٨٧٦ واضطرت قوات يعقوب بك الى اخلاء مواقعها وقلاعها وتراجعت نحو كاشغر . كما تمكنت القوات الحكومية من احتلال طرفان المؤدية الى جنوب تركستان التي تراجع قائدها محمد أيوب باي ين هو نحو كاشغر . واخذت المدن تتساقط الواحدة بعد الاخرى ووجد يعقوب بك ان قواته لا تتمكن من الصمود بوجه هذا الجيش المسلح تسليحا حديثا وتناقص اعوانه فاقدم على الانتحار في كورلا في الاول من ايار ١٨٧٧ وتم دفنه في كاشغر ، بعد ان استمر حكمه ثلاثة عشر عاما . ودب الشقاق بين أولاده فتمكن أكبرهم وهو تولي بك من قتل أخيه الاصغر خيرالله ونادى بنفسه ملكا على الكاشغرية وانتشر الشقاق بين الرؤساء والقادة في مدن الولاية .

وفي الوقت الذي أخذت فيه مقاومة المسلمين تتضائل كانت قوات المانشو تزحف نحو كاشغر وفر محمد أيوب نحو روسيا مع عدد قليل من اتباعه وسقطت المدينة في ١٧ كانون الاول ١٨٧٧ ثم سقطت يارقند وختن ويانغحصار وتم اعدام زوجة يعقوب بك وثلاثة من ابنائه وقتل معهم ١٢٦٦ مسلم وتم تدمير مئات القرى(١٢٢) .

وفي السنة التالية تم احتلال بقية المدن وعادت تركستان مرة أخرى تحت الادارة الصينية ويقال ان روسيا القيصرية كانت تدعم سراً الحكومة الصينية في القضاء على هذه الثورة وانها وعدت منذ احتلالها خولجا عام ١٨٧١ بالانسحاب منها حالما تتمكن الصين من استعادة سلطتها في المنطقة(١٢٣) وقد ادركت في الاخير ان نهاية يعقوب بك قريبة وان من الافضل لها ان تقيم علاقة طيبة مع جارتها الصين .

وبعد عودة الادارة الصينية الى تركستان تم تعيين حاكم صيني عام على كاشغر التي صارت مقرا للقنصلين الروسي والبريطاني ، وحاكم على كل مدينة من المدن الاحدى عشر التي تتألف منها المنطقة يساعد كل منهم قائد عسكري وقاض وفي عام ١٨٨١ ارسلت الصين وفدا الى روسيا تمكن من عقد معاهدة ايلي التي تخلت روسيا بموجبها عن منطقة وادي ايلي . وبعد سنتين اعطت الحكومة الصينية تركستان استقلالا ذاتيا وصارت تسمى سنكيانغ(١٢٤) أي الولاية الجديدة .

خلاصة ونتائج :ـ

ان النجاح الذي حققه المسلمون في الصين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد دفع بالكثير من الغربيين الى اتخاذ نظرة متشائمة حول مستقبل الصين وتوجسهم من ان الاسرة الجديدة التي ستحكمها بعد المانشو ستكون مسلمة مما يهدد بتغيير وجه العالم .

فالاستاذ الروسي Vasilev يحذر سنة ١٨٦٧ في كتابه « مسلمو الصين » من مستقبل الاسلام والاخطار التي تتهدد الصين واحتمال تحولها الى دولة اسلامية كبرى . وقد شاركه هذا الرأي كل من الدكتور Anderson عندما كتب عن يونان بعد انتهاء ثورتها وكذلك A. Wylie الذي نشرت آراءه مجلة ادنبرة Edinburyh Review ١٨٦٧(١٢٥) .

وعلى الرغم من تلك النجاحات فقد واجهت انتفاضات المسلمين وثوراتهم انتقادات شتى ولوماً كبيرا باعتبار انها كانت سببا لاضعافهم وفقدان أكثر من ربع عددهم اضافة الى أنها فرقت صفوفهم وعملت على تأخير مستواهم الثقافي بالنسبة للفئات الاخرى من المجتمع(١٢٦) الصيني .

والواقع من الصعوبة بمكان تقدير حجم الخسائر التي تعرض لها المسلمون بسبب تلك الثورات وقد قدرتها بعض الجهات خلال الفترة ١٨٦٢ ـ ١٨٧٨ بحوالي عشرة ملايين شخص وأدت الى تقييد حريتهم ولم يعد يسمح لهم بالسكنى داخل الكثير من المدن أو التملك أو فتح المتاجر(١٢٧) فتعطلت اعمالهم وتناقص عددهم بشكل واضح ٠

هذه التضحيات تتلاشى امام الوقائع التي تم استعراضها في الصفحات السابقة فتلك الثورات كان لابد منها ان اراد مسلمو الصين الحفاظ على هويتهم الاسلامية وشخصيتهم المتميزة التي حاولت حكومة المانشو طمسها ٠ ولقد اتصفت تلك الثورات بطابعها الوطني اضافة الى نهجها الديني فلم يكن تختلف بحال من الاحوال عن ثورات الصينيين انفسهم والتي لا يكاد يخلو منها اقليم من أقاليم الصين الثمانية عشر ٠ هذه الثورات كانت تمثل في حقيقتها ثورة الاقليات ضد التفرقة العنصرية والاضطهاد وتعسف الجهاز البيروقراطي للمانشو وسعيهم لمصادرة الاراضي واثقال كاهل السكان بالضرائب ٠

ان ادعاءات بعض الكتاب الصينيين والغربيين على السواء من ان التعصب الديني كان الباعث لتلك الحركات تتلاشى أمام الوقائع السابقة فلقد توفرنا على عدد من النصوص التي تدحض تلك الادعاءات ٠ فعلى سبيل يذكر كوردية Cordier ان تسعة أعشار المسلمين في يونان واعداد كبيرة منهم في المناطق الاخرى لا يعرفون من العربية سوى « سلام عليكم » و « بسم الله » و « الله اكبر »(١٢٨) مما يدل على عدم تعمقهم في الدين وفهمهم له فهما سطحيا جعلهم يتساهلون في الكثير من أوامر

لا يفكـرون ابدا في انشـاء حكـومة ولا يريدون الا الذود عن حياتهـم الشريعة • يؤكد ذلك أيضا الاب داود(١٢٩) بقوله « ان مسلمي شينسي وممتلكاتهم • وان كانت الثورة قـد اشتدت وامتدت ذاك الامن عسف العسكرية ونهبهم للاهالي • وليس مسـلمو الصين متعصبين كمسلمي الغرب وجميع اسلامهم الاعتقاد ببعض المبادي الاسلامية » • ويذهب جون اندرسون(١٣٠) الى ان ثورة يونان كان سببها ظلـم ولاة الصـين وهـو الشيء الذي أكده برومهال •

والقنصل الروسي سكانشكوف(١٣١) يؤكد « ليس هناك تعصب ديني يدفع التونكان الى التمرد ضد المانشو ولكن السبب نفسه الذي من أجله ثار الصينيون مدة خمسة عشر عامـا في كل اقاليم الامبراطورية الا وهو الاستياء العام من الامتيازات التي ينعم بهـا المانشيـو ومن جشعهم وطمعهم » وغير ذلك من النصوص •

ولكن مما يؤخذ على تلك الثورات هو طابعها المحلي وفقدان التعاون والتنسيق فيمـا بينهـا وعـدم توفرها على أهداف سياسية واضحة على العكس مما يوجهه اليها البعض من انتقادات وتهم في انها تهدف الى اقامة دولة اسلامية عالمية • هذا اضافة الى جهل بعض قادتها وعدم اطلاعهم على تيارات السياسة الدولية وافتقارهم الى الكفاءة والى الاجهزة الادارية • بل ان بعضهم لم يكن قد اطلع على جوهر الاسلام الحقيقي بشكل مباشر مما أدى الى تسلل الكثير من العناصر المعادية للاسلام والمرتبطة بالاجانب وبالتالي فقـدان تلك الثورات عنصـر الانسجام بين قادتهـا ممـا سبب انشقاقات خطيرة كانت سببا في تصفية تلك القيادات جميعا دون استثناء والحاق افدح الخسائر بالمسلمين •

ومن ناحية أخرى استغل الاجانب تلك الثورات لتحقيق اطماعهم في

الصين التي كانوا يرومون اضعافها وتقطيع أوصالها وقد هيئت لهم تلك الثورات فرصة التدخل · واعتقد المسلمون ان هؤلاء كانوا صادقين معهم فمدوا لهم ايديهم بهدف الحصول على الدعم المادي والعسكري · ولما شعر الاجانب بخطورة تنامي الحماس بين صفوف المسلمين والنجاحات التي حققوها مما يهدد بالقضاء على مصالحهم في الصين بادروا الى دعم الحكومة الصينية في القضاء عليها وتصفيتها ·

وعلى اية حال فان تلك الثورات نبهت المسلمين في الخارج الى ضرورة ابداء اهتمام اكبر بحالة اخوانهم في الصين · وقد خطر للسلطان عبدالحميد الثاني ان يتصل بهم واوفد احد رجاله « انور باشا » سنة ١٩٠٠ بقصد نشر الدعوة له بالخلافة كما انه اوفد بعد ذلك عالمين الى بكين قاما بانشاء بعض المدارس لكن شكوك الحكومة الصينية في نوايا الدولة العثمانية(١٣٢) افشل تلك الجهود ·

الهوامش :ـ

(١) استفدت مما نقله عنه محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين م٥ الصين .

(٢) محمد مكين الصيني ، الاسلام في الصين ، ضمن كتاب حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٧١ ـ ٢٨١ .

(3) W. Eberhard, Ahistory of China, (Lon. 1950) p. 313.

(٤) استفاد البحث مما نقلته دائرة المعارف الاسلامية عن هـذه الكتب والتقارير م١٥ وكذلك كتاب حاضر العالم الاسلامي الجزء الثاني .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٦ ـ ١٦ .

(6) Eberhard, op. cit. p. 279-290.

(7) N. Peffer, The Far East, Amoderm History (Michigan 1958) p. 60-80, 120-127.

(٨) مملكة تايبنيغ ، سلسلة كتاب تأريخ الصين الحديث الصادرة عن دار الشعب بشنغهاي (دار النشر باللغات الاجنبية ـ بكين ١٩٧٧) صفحات متعددة .

(٩) كتاب الحركة الاصلاحية ، سلسلة كتب تأريخ الصين الحديث ، الصادرة عن دار الشعب بشنغهاي (دار النشر باللغات الاجنبية بكين ١٩٧٨) ص ٢٨ ، ١٠٣ .

(10) M. Broomhall, Mohammedan poputation of China, in The Mos. Wor. Vol. I, 1911, p 32-34.

دائرة المعارف الاسلامية ١٥/١ ـ ٣ ، دائرة معارف القرن العشرين ٥/٦١٩ .

(11) Chinese Year. Book, Chungking 1948. Muslims in China p. 34-36.

(١٢) بدرالدين حي الصيني ، العلاقات بين العرب والصين (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٠ ـ ٢٤ .

(١٣) قيصر أديب مخول ، الاسلام في الشرق الاقصى ، ترجمة نبيل صبحي (بيروت ١٩٦٦) ص ١٧ و

Peffer, op cit, p 42.

(١٤) دائرة المعارف الاسلامية ١٤/٤٧١ .

(15) M. Broomhall, Isham in China, Aneglected problem Shanghai 1910, p. 18-27.

(١٦) بدرالدين حي الصيني ، العلاقات بين العرب والصين ص ٣٦ ـ ٢٨٧ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٨ ،

Broomhall, Islam p. 167-176.

(١٧) توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام (القاهرة ١٩٧٠) ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(١٨) بدرالدين حي الصيني ، تأريخ المسلمين في الصين (بيروت١٩٧٤) ص ٣٣ ـ ٣٥ .

(١٩) بدرالدين حي الصيني ، العلاقات بين العرب والصين ، ص ٢٨٧ .

(20) Eberhard, op cit, p. 309.

(21) Broomhall, Islam p. 228-231.

(٢٢) نص المرسوم في كتاب آرنولد ، الدعـوة الى الاسـلام ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

(23) M. Broomhall, in The Mos. Wor. Vol. I, 1911, p 34-35.

(٢٤) آرنولد ، المصدر السابق ، ص ٣٤١ .

(٢٥) آرنولد ، المصدر نفسه ص ٣٤٤ ، بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(26) Jean Chesneaux, Le mouvement Paysan Chinois. ed. du. Seuil 1978, p 41.

(27) Isaac Mason, in The Mos. Wor. Vol X, 1920 p. 164.

(28) James Huston, in The Mos. Wor. Vol X, 1920 p 252-254, Broomhall. Islam p. 224-225.

(٢٩) محمد مكين الصيني المصدر السابق ص ٢٧٢ .
Eberhard. op cit p. 313.

(30) Eberhaad op cit p 313.

(31) Broomhall. in The Mos. Wor. Vol, I, 1911, p. 46-47.

(32) Bromhall, Islam p. 124-127.

(٣٣) بدرالدين حي الصيني تاريخ المسلمين ص ٨٧ - ٨٨ نقلا عن المؤرخ الصيني
Shiao yi-shan

(34) De Thiersant, le mahometisine en chine p 122. quoted in Broomhall, Islam p. 129.

(35) De Thirsant, op cit p. 129.

(٣٦) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨٩ ـ ٩٠ ،
(37) Broomhall, Islam p. 129-131.

(٣٨) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٩٠ - ٩١ ،
Broomhall, Islam p 131-132

(٣٩) نص البيان في مجلة
Edinburyh Review, Vol. XXVII 1968
حول ذلك انظر :

Broomhall Islam p, 132.

(40) Jean Chesneaux, Marianne Bastid, Marie-Claire Bergere. China From The Opium Wars To the 1911 Revolution, Trans. From the French by Anne Destenay, (New york 1976) p 113-114.

(٤١) مملكة تايبينغ ص ١١٤ ·

(42) Broomhall. op cit, p. 133-134.

(٤٣) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٢٨ ·

(٤٤) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٩٢ ـ ٩٣ ·

(45) Broomhall, Islam p. 136-137,

(46) Chesneaux and Other, China p. 114.

٤٧ـ فهمي هويدي ، المصدر السابق ص ١١٣ ·

(٤٨) محمد بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار بمستودع الامصار (مصر ١٣٥٢) ١/٢٥ ·

(49) Broomhall, Islam p 138.

(٥٠) صفوة الاعتبار ١/٢٤ ·

(٥١) آ· ابشتاين ، مولد الصين الشعبية ترجمة حسين تمام (القاهرة ١٩٥٧) ص ٣٤ ·

(٥٢) دائرة معارف القرن العشرين ٥/٦١٨ ـ ٦١٩ ·

(53) Broomhall, Islam p. 140.

(54) Broomhall. Islam p 138-139.

(55) Rocher. La Province Chinoise du yunnan (paris 1880) quoted in Brooinhall. Islam p. 139-140.

(56) Op. Cil, p. 140.

(٥٧) مقتبسة عن :

(57) Broomhall, Islam p 142-143.

S. Tikhvinski
Histoire de La chine les temps moderns! Moscou 1983, p. 259,

(58) Bromhall, Islam, p 131, 143.

(٥٩) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٤٦ .

(60) Chesneaux. China p, 114.

(61) Bromhall. Islam p 144,

(62) Brhomhall. Mohammeran population in The Mos. Wor. Vol I, 1901, p. 36-37,

(٦٣) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٤ ـ ٨ ، حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٢٠ ، ٢٤٧ .

(64) M. E. Botham, Islam in Kansu in the Mos. Wor. Vol X. 1920, p 377-390,

(65) De Thiersaut, le Mahometisme en Chihe, p 233 quoted in Broomhall, Islam p 148.

(66) FU Thong-hsien, Chinese Muslim History. p, 140-141.

نقلا عن بدرالدين الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٦٧) بدرالدين الصيني تاريخ المسلمين ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(68) Broomhall, Islam p 150

(69) Tikhvinski. op cit p 259.

(70) Chesneaux, China, p 114.

(٧١) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/٦ ، حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٨ .

(٧٢) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/١٥ ـ ١٧ ، حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٤٠ .

(73) Tikhvinski, op cit, p. 259.

(٧٤) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٦٨ ـ ٧٠ .

(٧٥) المصدر نفسه ص ٧٠ .

(76) Broomhall, Islam p. 154.
(77) Chesneaux, China p 115.
(78) Tikhvinski op cit. p. 261.

(٧٩) بدرالدين حي الصيني : تاريخ المسلمين ص ٧١ .

(80) Chesneaux China, p 115.

(٨١) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٧١ .

(٨٢) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٥ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٥/١٠ .

(83) Tikhvinski, op cit p 259.
(84) Broomhall, Islam p 155.
(85) Chesneaux. China p 115.
(86) Tikhuinski, op cit p 260.

(٨٧) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٤ .

(88) Broomhall, in the Mos. Wor. Vol. I, 1911 p 36.

(٨٩) الحركة الاصلاحية ، مصدر سابق ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٩٠) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٤ .

(٩١) فهمي هويدي ، الاسلام في الصين ص ١١٦ ـ ١١٧ عن دراسة غير منشورة للباحث الصيني (ل٠هـ) وانظر كذلك :

H. D. Hayward, The Kansu Moslems in the Mos. Wor. Vol, XXIV 1934, p 75-77.

(92) Broomhall. Islam p 161.
(93) Peffer, op cit p 149-152.
(94) French Ridley, Moslemes of China and the Republic in the Mos. Wor. Vol, III 1913 p 386.
(95) Broomhall, Islam p 162.
(96) G. K. Harris, The Rebelion in Kansu, in the Moslem World Vol, XIX 1929 p 291; F. Ridley op cit, p 386.

(٩٧) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٣٥ .

(98) G. W. Hunter, The Chines Moslems of Turkestan in the Mos. Wor. Vol X, 1920 p 168.

محمود شاكر تركستان الصينية (بيروت ١٩٧٩) ص ٣٣ .

(٩٩) بدرالدين حي الصيني ، تأريخ المسلمين ص ٥٤ ـ ٥٨ .

(100) Tikhvinski, opcit p 260.

(101) Chesneaux. China p 191.

(102) Broomhall. Islam p 156-157.

(١٠٣) بدرالدين حي الصيني ، تأريخ المسلمين ص ٧٤ .

(١٠٤) محمد بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ٢٤/١ .

(١٠٥) بدرالدين حي الصيني ، تأريخ المسلمين ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(١٠٦) ارمينوس فاميري ، تأريخ بخارى ، ترجمة احمد محمود السامرائي (القاهرة د٠ت) ص ٤٦٥ .

(١٠٧) بدرالدين حي الصيني ، تأريخ المسلمين ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(١٠٨) فاميري ، المصدر السابق ص ٤٧١ .

(109) Tikhvinski op cit p 261.

(110) IBID. p 260.

(111) F.C.H. Clarke, Kuldja, in the Royal Geographical Society Vol, II 1880 p 491.

(١١٢) بدرالدين حي الصيني ، تأريخ المسلمين ص ٧٧ ـ ٨٠ .

(١١٣) فاميري : المصدر السابق ص ٤٧١ .

(١١٤) المورخ الصيني Pei Shao-yi نقلا عن بدرالدين حي الصيني ، تأريخ المسلمين ص ٨٠ .

(١١٥) آبشتاين ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(116) Sir D. Forsyth, Report and General Desciption of Kashgar (Lon 1865) Quoted in Tikhvinski, op cit p, 260 and in Broomhall. Islam p 158.

(117) D. G. Boulger, The life of yakoob Beg (Lon. 1878).

كما وردت عند بدرالدين الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨١ .

(١١٨) محمد بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ١/٢٤ .

(119) EBERHARD. op cit p. 314.

(١٢٠) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨٢ .

(121) Chesneaux China p. 165.

(١٢٢) بدرالدين حي الصيني ، تاريخ المسلمين ص ٨٢ ـ ٨٥ .

(123) F. C. H. Clarke, Kuldja in The Roy, Geo, Soc, Vol II 1880 p 491.

(124) EBERHARD, op cit p 315; Chesneaux Chino p 116.
Bromhall, Islam p 158.

(١٢٥) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٢٩ ، ٢٤١ ،

(١٢٦) محمود شاكر : تركستان الصينية (الشرقية) ص ٤٦ .

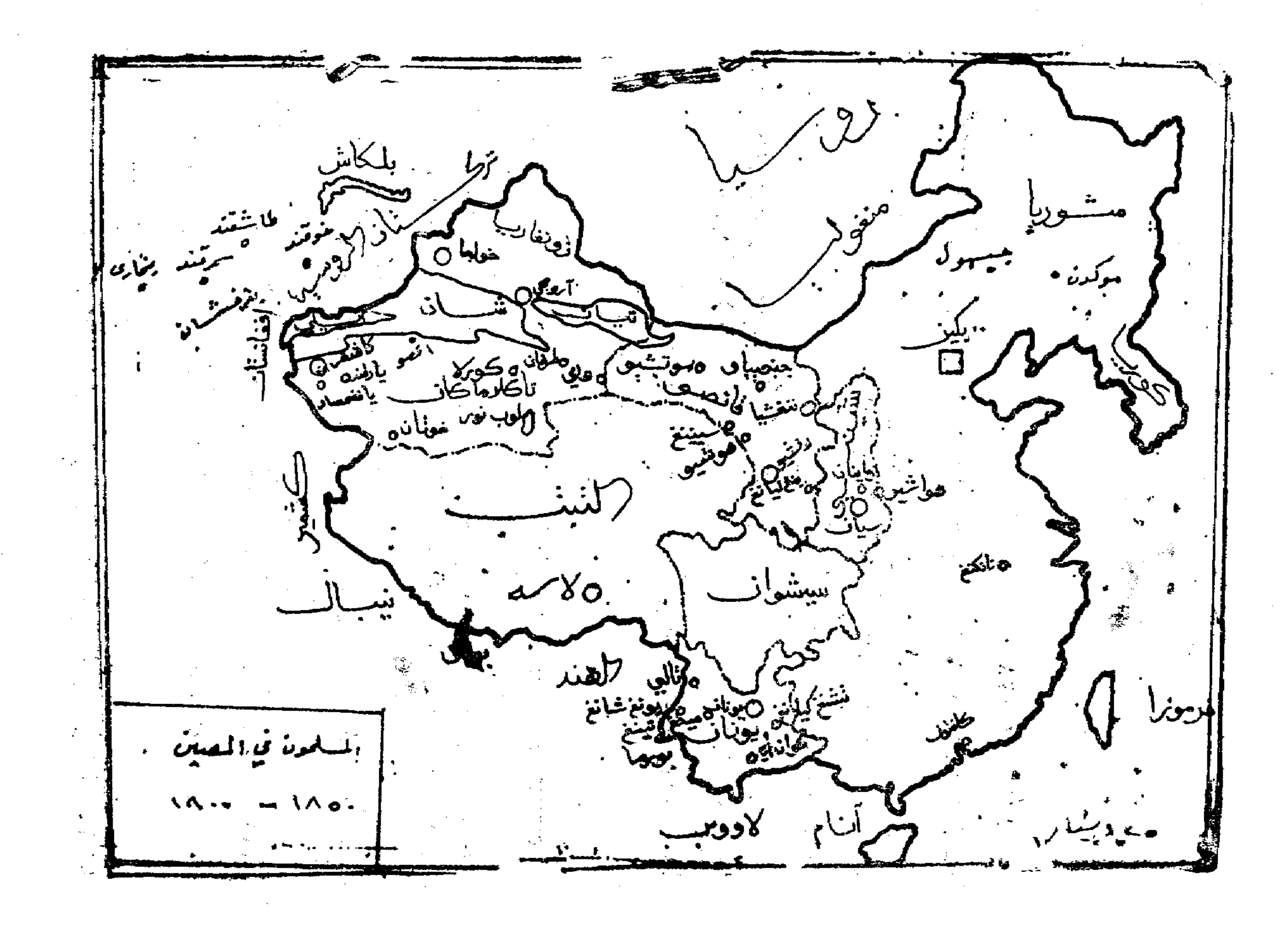
(127) Broomhall Islam p 162-163.

(١٢٨) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٥١ .

(١٢٩ ، ١٣٠) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٤٨ .

(131) Tikhvinski. ou cit p 260.

(١٣٢) دائرة المعارف الاسلامية ١٥/١٩ ، حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٣٨ ، ٢٤٠ .


المسلمون في الصين
١٨٥٠ – ١٩٠٠
روسيا
منغوليا
منشوريا
بلكاش
طاشقند
خوقند
سمرقند
بخارى
افغانستان
كشمير
نيبال
الهند
بورما
لاووس
آنام
فرموزا
كوريا
بكين
موكدن
التبت
لاسه
سيشوان
يونان
تالي
كانتون
نانكين
خولجا
تاكلاماكان
شنسي
كانصو
هواشيو
سياف

الولايات المتحدة ومسألة ملء الفراغ بعد انسحاب القوات البريطانية من الخليج العربي

الدكتور طارق نافع الحمداني
جامعة بغداد / كلية التربية

١ ـ تمهيـد :

ظل الوجود البريطاني السياسي والعسكري والاقتصادي قائما في الخليج العربي أكثر من مائـة وسبعين عاما وذلك استنادا الى معاهدات الحمـاية التي فرضتها بريطانيـا على امارات ومشايخ هـذه المنطقـة ، واعتبرت نفسها بموجبها مسؤولة عـن علاقاتها الخارجية وحمايتها ضـد أي خطر آخر(١) • وفي خلال هذه الفترة ، وبالذات منذ ثلاثينيات هذا القرن ، ازدادت أهمية منطقة الخليج في الموازين الاقتصادية والاستراتيجية البريطانية بسبب اكتشاف النفط ، مما جعلها تتشبث بالبقاء فيهـا . خصوصا وانها كانت تحصل على معظـم حاجتها من النفط من منطقـه الخليج ، وان شركاتها ـ الى جانب الشركات الامريكية ـ كانت تقـوم بمجمل عمليات انتاج النفط وتسويقه(٢) •

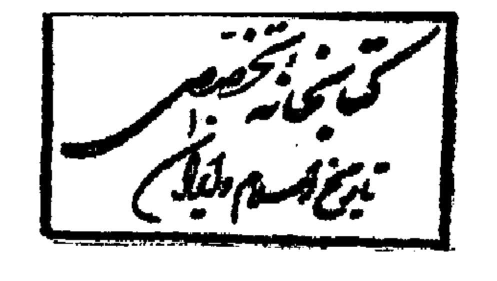
ومع هـذه الاهمية أعلنت حكومة العمال البريطانية في أوائل عام ١٩٦٨ عن قرارها بانسحاب القوات البريطانية من الخليج العربي بحلول نهاية عام ١٩٧١ • ترى ما هـو السبب وراء الانسحاب البريطاني من الخليج ، وهل سيترك هذا الانسحاب فراغا سياسيا وعسكريا ، واذا

كان الامر كذلك ، فهل ستقوم الولايات المتحدة بملىء هذا الفراغ ، أم أن بمقدور القوى المحلية في المنطقة آن تملأه ؟ للاجابة على هذه التساؤلات يجدر بنا ان نتعرف أولا على السبب أو الاسباب التي دفعت بريطانيا عام ١٩٦٨ الى ان تعلن عن نيتها في الانسحاب من منطقة الخليج العربي ٠

وجدير بالذكر ان هـذا البحث قـد اعتمد على عدد غير قليل من البحوث والمقالات الانكليزية الحديثة ، التي قد لا يعرف كثير من القراء العرب شيئا عنها ، ومن بينها تلك التي كتبها مسؤولون بريطانيون كان بيدهم الحل والعقد في شؤون منطقة الخليج (مثل السترِ وليام لوس) وهذا مما يعطي لتلك الاراء وزنا خاصا ، لكونها تعبر عن وجهات نظرهم أو بمعنى آخر - وجهات نظر الحكومة البريطانية ٠ هذا والبحث ليس أكثر من محاولة لرصـد جـذور ودوافع الانسحاب البريطاني ، وموقف الولايات المتحدة من ذلك ، سواء قبل عملية الانسحاب أو بعدها ٠

٢ - الانسحاب البريطاني من الخليج العربي : دوافعه وإسبابه :

لم يكن التغير الذي طرأ على السياسة البريطانية وتبدل اهتماماتها من الشرق الاوسط الى الجنوب والخليج العربي قد حدث بصورة عفوية ، وانما يرجع الى التدهور السريع الذي لحق بالنفوذ البريطاني في المنطقـة ككل ، بخاصة بعـد فشـل العدوان الثلاثي (البريطاني - الفرنسي - الاسرائيلي) على مصر عام ١٩٥٦ ٠ وعندئذ اعتمدت بريطانيا في سياستها الدفاعيـة على القواعد العسكرية في شرقي السويس - .وتعني المنطقـة الواقعـة بين عـدن وكينيا غـربا وسنغافورة شرقا بمـا في ذلك الخليـج العربي(٣) ٠ وقراءة لاحداث التاريخ فان هذه الخطوة الباهضة بدت نوعا



من المفارقة ازاء انهيار بريطانيا السريع بسبب احتدام مشاكلها الاقتصادية في الداخل مع نفقات الدفاع ما وراء البحار • ولما كانت الاعباء الملقاة على بريطانيا ، باهضة للغاية فانه مع تقلصها تمت تعرية تأثير بريطانيا لدى العديد من دول المنطقة ، ومن بينها دول الخليج العربي •

في خلال هذه الاحداث والتغيرات ازدادت أهمية عدن في السياسة البريطانية في الستينات ، وجرى التأكيد على ضرورة الاحتفاظ بها مهما كان الثمن ، لانها تخدم كقاعدة حيوية في ارسال المساعدات والامدادات الى كل من الخليج العربي ، وشرق افريقيا وجنوب شرق اسيا وهونك كونك(٤) • الا ان الوجود العسكري البريطاني واجه صعوبات كبيرة في عدن والجنوب العربي ، وذلك بفضل نمو الروح القومية المعادية للاستعمار وقيام الحركات الوطنية التحررية في الجنوب العربي ، مما دفع بحكومة العمال البريطانية الى اصدار عدة تصريحات تشير الى اعتزامها الانسحاب نهائيا من عدن والمحميات في موعد لا يتجاوز عام ١٩٦٧(٥) ، وقد تضمنت تلك التصريحات — على حد قول ديفيد لونك الاشارة الى القول « بأنه من الافضل لبريطانيا مغادرة المنطقة قبل ان توضع أمام الامر الواقع من قبل الحركات التحررية التي تطورت بشكل كبير في المنطقة » •

وفي ضوء ذلك أصبحت بريطانيا تعير مسألة زيادة قواتها العسكرية في الخليج العربي أهمية خاصة ، اذ لم تربط وجود هـذه القوات بقضية دفاعية فحسب وانما ربطتها بمسألة المحافظة على المصالح النفطية هناك • اذ كانت بريطانيـا في منتصف الستينيات تمتلك حـوالي ثلث حجـم الاستثمارات النفطية في منطقة الخليج ، وتحصل على حوالي ألف مليون باون سنويا ، وتستورد نصف حاجاتها من النفط من المنطقة نفسها(٦) •

ولذلك فقد ادعت بريطانيا بأن انسحابها من الخليج سيزيد من حدة الصراع الداخلي بين امارات الخليج العربي من جهة ، وبينها وبين جاراتها الاكبر منها حجما من جهة أخرى ، وهو أمر قد يحول المنطقة الى حالة شبيهة بتلك التي أصبحت عليها عدن قبل انسحاب القوات البريطانية منها(٧) . والسؤال الذي يبرز هنا : كيف زادت بريطانيا من عدد قواتها في الخليج العربي وما هو سر تراجعها المفاجيء عن هذا الامر ؟

ان زيادة الوجود العسكري البريطاني في منطقة الخليج العربي قد جاء استنادا الى الكتاب الابيض الذي أصدرته وزارة الدفاع البريطانية في عام ١٩٦٦ ، والذي تضمن الاقتراح بالتخلي عن قاعدة عدن وزيادة عدد القوات البريطانية المرابطة في الخليج(٨) . وقد كان لهذا القرار أثره الواضح في مضاعفة عدد القوات البريطانية الموجودة في منطقة الخليج ، بحيث أصبحت تتراوح ما بين سبعة آلاف الى ثمانية آلاف رجل ، وذلك بعد اضافة ثلاثة آلاف رجل من قاعدة عدن في نهاية عام ١٩٦٧(٩) . وفي غضون ذلك قامت الحكومة البريطانية بعدد من الاجراءات والترتيبات لضمان بقاء قواتها في الخليج منها قيامها بعقد عدد من الاتفاقيات مع بعض حكام منطقة الخليج ، زادت بموجبها مساعداتها المالية لهم ، وذلك مقابل استمرار وزيادة عدد القوات البريطانية ، وبقاء القواعد البرية والجوية في المنطقة(١٠) .

بيد ان بريطانيا سرعان ما تراجعت عن سياستها هذه ، وذلك في الكتاب الابيض الذي أصدرته وزارة الدفاع البريطانية في عام ١٩٦٧ ، ودعت فيه الى تخفيض القوات البريطانية من شرق السويس ومن ضمنها الخليج العربي ، واوضحت بان سبب ذلك هو الضغوط السياسية

والاقتصادية التي كانت تعاني منها بريطانيا(١١) • ولعل السبب في هذا التحول المفاجيء في سياسة بريطانيا في الخليج ، والذي كان الاساس لاعلان الانسحاب البريطاني في عام ١٩٦٨ ، هو ان الحكومة البريطانيه ادركت ان وجودها العسكري أصبح لا مبرر له ، وذلك لما يؤديه من اثارة الروح الوطنية المناهضة لها • ولهذا رأت أنه من الافضل المحافظه على مصالحها بأسلوب جديد ، كاستبدال معاهدات الحمايه القديمه بمعاهدات صداقة مع حكام المنطقة وامرائها ، أو التخلص من الحكام الذين يقفون عقبة في سبيل تنفيذ مخططها ، كما هو الشأن عند تنحيتها للشيخ صقر ابن سلطان القاسمي حاكم امارة الشارقة في عام ١٩٦٥ لتمشيه مع التيار القومي العربي ، أو تشجيع وصول بعض الحكام الاكثر استنارة كما هو الحال مع السلطان قابوس بن سعيد سلطان مسقط الذي خلف والده سعيد بن تيمور(١٢) •

ووفقا لهذا التصور فقد أصبح واضحا بان الوجود العسكري البريطاني في الخليج العربي سيكلف بريطانيا الكثير من الخسائر وسيسبب لها الكثير من المتاعب ان هي قررت البقاء فيه ، وكانت تلك هي النتيجة النهائية التي توصلت اليها حكومة العمال البريطانية عندما اعلنت اعادة النظر في سياستها الدفاعية في كانون الثاني عام ١٩٦٨(١٣)• ولهذا فقد اعلن هارولد ويلسون ، رئيس الوزراء البريطاني آنذاك ، أمام مجلس العموم البريطاني في السادس عشر من كانون الثاني ١٦٩٨ الآتي :

« لقد قررنا الاسراع بسحب قواتنا من مواقعها من الشرق الاقصى في نهاية عام ١٩٧١ • كما قررنا أيضا ان نسحب قواتنا من الخليج في نفس الوقت » •

وعلى اية حال ، فان المبرر العام لتلك السياسة ، كما اعلنتها حكومة العمال ، هي الصعوبات الاقتصادية التي كانت تواجهها بريطانيا ، وامكانية توفير أكثر من ١١٠ مليون باون سنويا(١٤) ·

وعندما جاءت حكومة المحافظين الى السلطة في بريطانيا في حزيران عام ١٩٧٠ ، حاولت اعادة النظر في قرار حكومة العمال بالانسحاب ، وذلك عن طريق تمديد الوقت الى ما بعد عام ١٩٧١ · لكن حكومة المحافظين نفسها سرعان ما أدركت بأن الرأي العام في المنطقة كان يعارض بشدة اي تأجيل لانسحاب البريطانيين ، وان اللحظة المناسبة لمثل هذا الارجاء قد فات أوانها(١٥) ·

ان المتفحص لطبيعة السياسة البريطانية هذه لا يمكنه فهمها الا اذا ما أخذ بنظر الاعتبار المتغيرات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية ذلك لان اتخاذ مثل هذا القرار المهم الذي أنهى الوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي لا يمكن ان يكون لاسباب اقتصادية محضة بل هناك العديد من الاعتبارات الاخرى · وكان من أولى هذه الاعتبارات ادراك بريطانيا ان وجودها العسكري التقليدي لم يعد له قيمة نتيجة لتطور الاسلحة وامكانية اقامة قواعد للصواريخ بعيدة المدى وحاملات الطائرات اضافة الى التطورات التقنية الاخرى التي تجعل المنطقة ضمن المخطط الشامل للاستراتيجية الامريكية وليس من الضروري الاصرار على التمسك بقواعد عسكرية تثير مشاعر السكان المحليين ونفقات لا داعي لها لحماية مصالح دول أخرى شريكة لبريطانيا في نفط الخليج كالولايات المتحدة الامريكية وفرنسا واليابان ، تلك النفقات التي وجد الراي العام البريطاني بأن لا مبرر لها ما دامت هذه المصالح لا تهم بريطانيا وحدها(١٦) ·

والاعتبار الآخر هو ان الانسحاب البريطاني كان جزءاً من خطة عامة وشاملة لاستراتيجية حلف شمال الاطلسي التي حددت لبريطانيا دور الدفاع عن وسط أوربا(١٧) ، وهذا يعني بالضرورة انهاء الوجود العسكري البريطاني في منطقة الخليج بأعتبار ان ذلك الوجود سيكون عرضة لضغوط خارجية وداخلية بسبب نمو نفوذ الاتحاد السوفيتي في المنطقة وظهور الانظمة والحركات القومية في منطقة الخليج والتي ستنظر بعين الريبة والحذر لأي نوع من أنواع الوجود العسكري الاجنبي هناك ، وهذا ما كانت تخشاه بريطانيا لانها لم تعد راغبة في ان تورط نفسها في قتال بينها وبين سكان المنطقة كما سبق وان حدث لها من قبل في عدن والجنوب العربي(١٨) .

أما الاعتبار الاقتصادي المطروح من قبل حكومة العمال وحكومة المحافظين فيما بعد ، والذي ربط مسألة الانسحاب بالنفقات الباهضة التي تصرف على التواجد العسكري البريطاني في الخليج ، فلم يكن أكثر من مجرد سبب ظاهري مقبول من قبل الرأي العام البريطاني وربما يضمن أصوات الكثير من الناخبين الانكليز له لانه يعطي الانطباع بامكانية تحسين مستوى الحياة المعاشية والتوسع في سياسة الانفاق على الخدمات في بريطانيا . والحقيقة ان نفقات الوجود العسكري البريطاني في الخليج لم يتعدى أكثر من ١٧ مليون باون سنويا ، وهو امر ضئيل بالقياس الى المردودات الاقتصادية والاستثمارات البريطانية في المنطقة والتي لم تكن تقل بأي حال من الاحوال عن الف مليون باون سنويا ، وهذا ما يظهر عدم صحة التبريرات البريطانية الخاصة بالجانب الاقتصادي(١٩) .

وبهذا يبدو من المؤكد بان الانسحاب البريطاني من الخليج لم يكن محصورا بسبب واحد ، كما اعلنته حكومة العمال البريطانية ، بل انه كان نتيجة لمتغيرات دوليـة ومحلية عديدة ، وهـذه المتغيرات هي التي اسهمت بصورة أو بأخرى في عملية الانسحاب ·

٣ ـ الولايات المتحدة وملء الفراغ في الخليج العربي :

كان اعلان الحكومة البريطانية في كانون الثاني عـام ١٩٦٨ عـن عزمها على انسحاب قواتها من الخليج العربي في نهاية عام ١٩٧١ يمثل مرحلة كبيرة ليس في السياسة البريطانية تجاه المنطقة فحسب(٢٠) ، بل في السياسة الامريكية وفي مجمل السياسات الخارجية لدول الخليج العربي ، ذلك لانـه اثار ما يسمى (بالفـراغ السـياسي والعسكري Political and Military Vacuum (٢١) الـذي سيتركه ذلـك الانسحاب صـار موضع اهتمام هـذه القوى جميعا ، وأصبح السؤال المطـروح ترى من سيملأ ذلك الفـراغ ، وهل ستملئه الولايات المتحـدة الامريكية ؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال نرى من المناسب ان نعرض لعلاقـة الولايات المتحـدة بمنطقـة الخليج ، تلك العلاقـة التي خضعت لتغير وتكييف مستمرين سواء قبـل الانسحاب أو بعـده وذلك وفقـا لجملة من المتغيرات في السياسة الامريكية المعاصرة في المنطقة · فقد ارتكزت علاقة الولايات المتحدة بالخليج قبل الانسحاب في المحافظة على مصالحهـا

واستثماراتها النفطية ، ولم تعمل على اضعاف دور بريطانيا السياسي والعسكري في حماية المصالح الغربية في المنطقة ، كما لم تقبل المشاركة فيه(٢٢) ، وقد يصح هذا الامر على منطقة الشرق الاوسط حتى قيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، حيث بدأت العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا تتخذ شكلا آخر . وظلت علاقة الولايات المتحدة بالخليج بهذه الصورة تقريبا ، اذ ارادت الولايات المتحدة ان تبقى بريطانيا في الخليج لمساعدتها ازاء مسؤولياتها الدولية ، الا ان هذه العلاقة أخذت طابعا جديدا بعد اعلان الانسحاب البريطاني من المنطقة ، فما هو وجه هذا التغير ؟ وما هي أشكاله وصوره ؟ هذه هي التساؤلات التي سنحاول الاجابة عنها في هذا الجزء من البحث .

لقد انقسم الكتاب والباحثون حول علاقة الولايات المتحدة بالانسحاب البريطاني من الخليج الى قسمين . فقسم أشار الى ترحيب الولايات المتحدة بانسحاب بريطانيا من المنطقة في فترة لا تتجاوز الثلاث سنوات « وبأن الولايات المتحدة عملت على تسريع عملية الانسحاب مستهدفة وضع الخليج العربي تحت سيطرتها »(٢٣) . وأشار القسم الثاني الى « ان الولايات المتحدة لم تحبذ سياسة الانسحاب بل لقد حاولت بمختلف الوسائل الضغط على الحكومة البريطانية لتعدل من سياستها أو على الاقل ارجاء تنفيذها »(٢٤) ، وذلك لان الظروف التي تحيط بالمنطقة لا تسمح بقرار كهذا ، خصوصا وان النفوذ السوفيتي في المحيط الهندي والخليج العربي يتنامى بسرعة بعد ان حصل الاتحاد السوفيتي على تسهيلات عديدة في المنطقة(٢٥) .

وفضلا عن ذلك فان الرأي العام الامريكي في هذا الوقت ، الذي

كان ما يزال منقسما بشكل واضح حول فشل الجهود الامريكية في حرب فيتنام ، سوف لن يؤيد أي مبادرة سياسية للمساهمة في امن الخليج بشكل فعال • وقد يكون هذا الامر سببا في التصريح الذي أدلى به مايك مانسفيلد Mike Mansfield ، المتحدث باسم الاغلبية في مجلس الشيوخ الامريكي ، في اليوم التالي لاعلان بريطانيا الانسحاب من الخليج واعرب فيه « عن أسفه لشعور البريطانيين بأنهم مجبرون على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، وانه على ثقة بانه سيطلب من الامريكيين ملأ الفراغ الى الشرق من السويس ، ولكنه لا يظن بانه لدى الولايات المتحدة الرجال ولا المصادر الكافية لذلك » •

والحقيقة ان الولايات المتحدة لم تكن وراء هذا الرأي أو ذاك وانما وراء فكرة جديدة تدعو الى ضرورة ايجاد قوة محلية تشغل الاوضاع في الخليج بعد انسحاب بريطانيا ، التي أصبح وجودها مكروها من قبل القوى الوطنية العربية ، فما هي اذن هذه القوة ؟

لقد أكد متحدث باسم وزارة الخارجية الامريكية على هذا السؤال وهو يعقب على قرار بريطانيا بالانسحاب قائلا « ان الولايات المتحدة ليس لديها أي استعداد لملء الفراغ الذي سيتركه الانسحاب البريطاني ، وبدلا عن ذلك فانها ستعتمد على الاجراءات الامنية المحلية التي ستوفرها القوى الاقليمية التي ستحل محل بريطانيا »(٢٦) • وبناء على ذلك يظهر بأن الولايات المتحدة كانت ميالة الى ضمان مصالحها في الخليج بطريقة غير مباشرة ، معتمدة في ذلك على القوى الاقليمية التي ستقوم بهذا الدور ، ومن ثم فقد ركزت الولايات المتحدة جهودها في هذا المضمار ، وكان ذلك يمثل جوهر سياستها في منطقة الخليج •

وعلى ذلك فان التغير الكبير الذي طرأ على الموقف الامريكي تجاه المنطقة العربية عامة ، والخليج خاصة ، قد حدث في مطلع إدارة الرئيس السابق نيكسون ، التي طرحت رؤية عريضة لسياسة الولايات المتحدة في منطقة الخليج ، وقد بقيت تلك الرؤية منهاج عمل للسياسة الامريكية لمدة ليست بالقصيرة • لقد رأت ادارة نيكسون وجوب تشجيع المبادرات المحلية في المنطقة وتطويرها عن طريق تقديم المعونات العسكرية والاقتصادية لدول المنطقة ، لانها ستغني الولايات المتحدة عن التدخل العسكري المباشر في منطقة الخليج وستجنب تورط القوات الامريكية في صراعات المنطقة مطبقا لهذا التصور فان الولايات المتحدة سوف لا تتحمل الا عبأ قليلا في هذه الحالة وستظل محتفظة بعلاقاتها مع دول المنطقة(٢٧) •

هذا وقد بلغت تلك السياسة ذروتها في تشرين الثاني عام ١٩٧٠، بمصادقة الرئيس نيكسون على ما أصبح معروفا « بسياسة الدعامتين Two — Pillar » • وقد عكست تلك السياسة نظرة الولايات المتحدة في تعليقها امالا عريضة على الاستراتيجية والمصالح الاقتصادية مع كل من ايران والمملكة العربية السعودية ، بالاضافة الى الاعتقاد بأن بريطانيا ما يزال بامكانها ان تلعب دورا سياسيا فعالا ومؤثرا في أمن المنطقة •

ولقد توضحت السياسة الامريكية هذه في التصريح الذي أدلى به وزير الدولة للشؤون الخارجية جوزيف سيسكو Joseph Sisco أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكونكرس الامريكي في أيلول عام ١٩٧٢ حيث وصف الموقف الامريكي ازاء منطقة الخليج بقوله :

« اذا كانت هناك ثمة منطقة درستاها بتدقيق واهتمام في السنوات الاربع الماضية فهي منطقة الخليج ، وذلك لاننا توقعنا الانسحاب البريطاني وسألنا انفسنا ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل انسجاما مع مبدأ نيكسون من أجل ان تساهم في الحفاظ على استقرار المنطقة بدون أن تتورط بشكل مباشر ، لانه من الواضح أن لنا فيها مصالح اقتصادية وسياسية هامة جدا جدا • ولقد قررنا ان نسعى لتنشيط ومساعدة الدولتين الرئيسيتين في المنطقة ، الا وهما ايران والسعودية ، وذلك لانه بقدر ما ننجح في تشجيع التعاون بين هاتين الدولتين فانهما تصبحان عنصرين هامين من عناصر الاستقرار بعد خروج البريطانيين »(٢٨) •

وفي ضوء ما جاء في التصريحات الرسمية الامريكية يبدو بأن الولايات المتحدة ، لا دول المنطقة ، كانت تخطط لمسألة تشجيع التعاون بين قوتين اقليميتين كبيرتين في الخليج العربي وهما ايران والسعودية ، وذلك لاعتقادها بأن هذا التعاون سيحقق الاستقرار في المنطقة وسيمنع اي تدخل أجنبي بعد الانسحاب البريطاني •

الا ان هذا التخطيط من جانب الولايات المتحدة كان يلتقي مع أهداف ايران في زمن الشاه محمد رضا بهلوي ولا يلتقي مع أهداف المملكة العربية السعودية • ذلك لان شاه ايران قد أظهر استعداده حتى قبل ان تنسحب القوات البريطانية من الخليج ـ بأنه يتحمل وحده عبء الدفاع عن أمن الخليج(٢٩) • وهنا برزت سياسة أخرى وطرحت نفسها على مسرح الاحداث الا وهي ان ايران من الممكن ان تلعب « دور الشرطي في الخليج » ، ولذلك فقد عمدت الولايات المتحدة الى تزويدها بكل متطلباتها من الاسلحة والمعدات الحديثة ، واعارت طلباتها العسكرية

اهتماما خاصا على غيرها من دول المنطقه بما يمكنها من ان تكون اقوى دولة فيها(٣٠) ٠

وهكذا انبثقت ايران كدعامة رئيسية من دعامتي السياسة الامريكية في الخليج ، وقد انعكس ذلك في الاتفاقات الامريكية مع ايران منـذ عام ١٩٧٢ ، وحتى نهاية حكم الشاه في مطلع ١٩٧٩(٣١) ٠

أما بالنسبة للدعـامة الثانية في السياسة الامريكيـة ، الا وهي المملكة العربية السعودية ، فقد رفضت الاخيرة ومنذ البداية المشاركة المباشرة في تحمل أي دور عسكري اقليمي بعد انسحاب القوات البريطانية ذلك لان طموحات السعودية وقدراتها كانت محدودة ومتواضعة ، وهي وان سعت الى تحديث قواتها العسكرية ، الا أن أهدافها من ذلك وعلاقاتها مع غيرها من الدول ـ بخاصة العربية ؛ كانت مختلفة تماما عن أهداف وعلاقات ايران(٣٢) ٠

هكذا كانت طبيعة السياسة الامريكية في الخليج على ضوء الانسحاب البريطاني ، وها هي مخططاتها للامن فيه ، وهي مخططات أثبتت الاحداث التاريخية فشلها ، وذلك لانها اقيمت على اسس تهدف الى تقوية وتغليب طرف على آخر ، ولهذا لم يكتب لها النجاح ولا الدوام ، حتى مع ايران ٠

الهوامش :

1 — William Luce. "Aneval Force For the Gulf: balancing inevitable Russian Penetration". The Round Table. Vol. 5, (1969), pp, 347-8.

2 — William Luce, "Britain in the (Persian) Gulf: mistaken timing over Aden", The Round Table, Vol. 57 (1967), p. 280.

3 — Donald Maclean, British Foreign Pollcy Since Suez 1956-1968 (London, 1970), pp. 179-80.

4 — Maclean, op. cit, p. 170.

5 — C. J. Barlett. The Long retreat: ashort history of Britrsh defence policy, 1945-70 (London, 1972), pp. 215-8.

6 — Barlett, op. cit, p. 222; See also Geoffery williams, The Permaneut alliance: The European-American Partuership 1945-1984 (leyden, 1977), p. 201.

7 — Anthony Verrier "British mihtary Policy in Arabia: Some lessons for the Future". Journal of the Royal united Service Institution. vol. 648 (1967), p. 355; See also Barlett, op. cit, p. 218.

8 — Maclean, op. cit, p. 183.

9 — Sir William Luce, "Britain's Withdrawal From

the Middle East and the (Persian) Gulf",
Journal of the Royal United Service Institution,
Vol. Cxiv (March, 1969), p. 7.

10 — Maclean, op. cit, p. 183.

11 — Harold Wilson, The Labour Government 1964-1970, apersonal record (London, 1971), p. 213; See also J. frankel, Fast of suez, The Aftermath, The year Book of World Affairs, 239 (1969), p. 20, 24.

١٢ـ للتفاصيل انظر الدكتور جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ ـ ١٩٧١ (القاهرة ، ١٩٧٤) ص٣٢٣ ، انظر أيضا د. صلاح العقاد ، نظرية الفراغ والخليج العربي ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٣٤ (اكتوبر ، ١٩٧٣) صص ٣-١١٤ .

13 — Parliamentary Papers. Statement of the Defence estimates 1968, Cmnd. 3240, p. 2.

١٤ـ لقد ناقش كريستوفر ماثيو قرار حكومة العمال من وجهة النظر الاقتصادية انظر في ذلك كتابه الاتي :
Christopher Mathew, Britan's role tomorrow (London, 1966) pp. 39-40.

15 — David ‡. Loug, United states Policy toward the (Persian) Gulf, Curreut History, Vol. 68. No. 402 (Feb. 1972), p. 20.

١٦ـ غسان ابراهيم حسين ، مستقبل العلاقات الدولية في الخليج العربي دراسة سياسية عسكرية ، رسالة ماجستير غير منشورة في العلوم السياسية (بغداد ، ١٩٧٨) ، ص ١٨١ .

17 — Robert R. Sullivan, "The Architecutre of Western Security in the (Persian) Gulf", Orbis, 14 (Spring, 1970), pp. 82-3.

18 — oD. C. Watt. "The decislon to Withdraw From the Gulf", Political Quarterly, 39 (July. 1968), pp. 316-9;

انظر أيضا حسين ، المصدر السابق ، صص٢ـ١٨٣ .

19 — David Holden, "The (Persian) Gulf: after The British Raj", Foreign Affairs, 4 (July, 1971), p. 725.

٢٠ـ لقد نوقشت قضية التغير في السياسة البريطانية تجـاه منطقـة الخليج أعلاه .

٢١ـ لمزيد من التفاصيل عما يسمى (بالفراغ) في الخليج العربي يراجع :

العقاد ، المصدر السابق ، ص١١٣ وما بعده ، انظر أيضا :
Jihn J. Ruszkiewicz "The Power Vacuum in the (Persian) Gulf". Military Review, (october, 1973), pp. 84-91.

22 — Alasair Buchan, "Britain in the Indian

Ocean", International Affairs, 42 (April, 1966), p. 186.

٢٣ـ انظر في هذا الجانب الدكتور محمود علي الداود ، الخليج العربي والعمل العربي المشترك (بغداد ، ١٩٨٠) ص ٢٢٨ ، انظر أيضا :

Fred Holliday, Arabia Without Sultans (1972) p. 456.

٢٤ـ انظر عن الجانب الاخر : الدكتور فيليب ستودارد ، سياسة الولايات المتحدة في منطقة الخليج العربي وابعادها المستقبلية ، بحث غير منشور القي في « الندوة الدولية للخليج العربي والعالم الخارجي » ، بغداد ٢٩ نيسان ـ ١ مايس (١٩٨٤) ص٢ ، قاسم ، المصدر السابق ، ص٣٥١ .

(٢٥) انظر عن ذلك :

J. C. Hurewitz, "The (Perslan) Gulf: British Witharawal and Western Security", The Annals of the American Accademy of Political and Social Science. 401 (May, 1972), p. 107.

٢٦ـ انظر ذلك في :

Sullivan, op. cit, p. 71.

27 — Richard Nixon. U.S foreign Policy for the 1970 (1971), pp. 184-5.

نقلا عن حسين ، المصدر السابق ، ص ص ٩٠ ـ ٣٩٣ ،

ستودارد ، المصدر السابق ، ص ٣ .

(٢٨) انظر عن ذلك التصريح المصادر الاتية :

Barry Ruybin, "Sub - Empires in the (Persian) Gulf". The Progressive, (January. 1972), p. 30;

عبدالله محمد خالد ، تكديس الاسـلحة والسياسة الامبريالية في الخليج العربي (بيروت ، ١٩٧٨) ص‌ص ٢ـ٣٢ .

29 — Ann T. Schulz, "Aleadership role for Iran in the (Persian) Gulf", Current History, (Jan. 1972), p. 25,

30 — Schulz, op. cit, p, 28; seealso: Emile A. Naichelh, Arab - American relations in the (Persian) Gulf (U.S.A. 1975), p. 51; H.A. Bazzaz, The Arab Gulf in the 1970: Stability, and turmoil, unpublished ph. D Dissertation (Claremant, 1980), p. 25.

٣١ـ الدكتور اسماعيل صبري مقلد ، أمن الخليج وتحـديات الصـراع الدولي : دراسـة للسياسات الدولية في الخليج منـذ السبعينات (شركة الربيعان للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٤) ص ٢٩ .

٣٢ـ مقلد ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، ١٠٤ .

معاهدة الحلف الالماني ـ الروسي الفاشلة لسنة ١٩٠٤

الدكتور يقظان سعدون العامر
كلية التربية ـ جامعة البصرة

كان العقد الاخير من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٠٢ فترة اعادة ترتيب في العلاقات الدولية . ولقد لعبت فرنسا دورا ملحوظا في تحقيق ذلك بخاصة بعد الهزيمة التي تلقتها على يد بريطانيا في فاشوده عام ١٨٩٨ . فقد ايقنت فرنسا انه طالما ان المانيا لن تعيد الالزاس واللورين اليها ، فانه ليس بمقدورها مواجهة المانيا وهي أكبر قوة برية في العالم وبريطانيا التي هي أكبر قوة بحرية في العالم(١) .

و « طالما ظلت الالزاس واللورين المانية ... فان الامـة الفرنسية ستعتبر المانيا عدوتها الدائميـة »(٢) . لذا أصبحت غـاية السياسية الخارجية الفرنسية بعد فاشوده هو العمل على اضعاف الحلف الالماني ـ النمساوي ـ الايطالي لعام ١٨٨٢ وعلى تعزيز حلفها الذي توصلت اليه في عام ١٨٩٤ مع روسيا التي شجعتها هي الاخرى للتوصل الى تفاهم مع بريطانيا حول مشاكلهما الاستعمارية في افريقيا(٣) . وبذلك يكون هدف فرنسا العمل على تطويق المانيا . ففيما يتعلق بأضعاف الحلف الثلاثي فقد كثفت فرنسا جهودها السابقة التي كانت قـد اثمرت عن توقيـع

اتفاقيتين : الاولى عام ١٨٩٦ حيث منحت فرنسا بموجبها الايطاليين في تونس بعض الامتيازات مقابل اعتراف ايطاليا بالحماية الفرنسية على تونس ، والثانية في عام ١٨٩٩ حيث أنهت الحرب الاقتصادية التي بدأت بين الدولتين في عام ١٨٨٨ وذلك بتوقيع معاهدة تجارية بينهما • وفي كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٠٠ تم التوصل الى « الاعلان التونسي ـ الايطالي » الذي تضمن اعلان ايطاليا بانه ليس لديها مصالح أو اهتمام في المغرب مقابل اعلان فرنسا بانه ليس لديها مصالح أو اهتمام في ليبيا • ونجحت فرنسا في التوصل الى اتفاقية سرية مع ايطاليا وذلك في حزيران ـ يونيو ١٩٠٢ حيث اتفقت بموجبها الدولتان على الوقوف على الحياد في حالة تعرض احداهما الى هجوم من قبل دولة أو أكثر(٤) • واستغلت فرنسا استياء حليفتها روسيا من مواقف المانيا تجاه مصالح روسيا وسياستها نحو الدولة العثمانية(٥) ، وكذلك موقف المانيا من الاقتراح الروسي الرامي الى نزع السلاح في العالم(٦) • ومما زاد من هذا الاستياء هو التغلغل الالماني في الدولة العثمانية المتمثل في حصول شركة سكة حديد الاناضول الالمانية في عام ١٨٩٩ على امتياز لمد سكة حديد برلين ـ بغداد(٧) وبناء على رغبة كلا الدولتين ، فقد اتفقت فرنسا وروسيا على ادخال تعديلات على بنود معاهدة الحلف لعام ١٨٩٤ بحيث أصبحت غاية الحلف أيضا الحفاظ على التوازن الاوربي(٨) • اضافة الى ذلك حاولت فرنسا منذ عام ١٨٩٩ على تحسين علاقتها مع بريطانيا ايضا من خلال مفاوضات جرت بينهما • وعلى الرغم من ان هذه المفاوضات لم تسفر عن التوصل الى اتفاقية في عام ١٩٠٢ الا انها مهدت الطريق امام الدولتين للتوصل الى اتفاقيات الوفاق الودي عام ١٩٠٤ • وبسبب مشاكل بريطانيا

العالمية المتعددة وكذلك المشاكل التي واجهتها بريطانيا جراء تبني المانيا سياسة « السياسة العالمية » تحالفت بريطانيا مع اليابان في عام ١٩٠٢ . صحيح ان هذا الحلف كان موجها ضد روسيا ، الا ان بريطانيا واليابان كانتا تواقتين في التوصل الى اتفاقية مع روسيا فيما يتعلق بمشاكلها الاستعمارية وليس الدخول في حرب ضدها(٩) . وبالفعل توصلت روسيا واليابان الى تفاهم حول منشوريا(١٠) ، واعتقدت بريطانيا ان هذا التفاهم سيمهد الطريق الى التوصل الى اتفاقية بريطانيا - روسية بشأن مشاكلها الاستعمارية في آسيا(١١) .

يحاول هذا البحث دراسة العلاقات الالمانية - الروسية خلال الاعوام ١٩٠٣ - ١٩٠٤ عندما حاولت المانيا جاهدة الى التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا . وسيحاول البحث استجلاء الاسباب التي دفعت المانيا إلى التقرب من روسيا من أجل التوصل الى معاهدة الحلف هذه . فهل ان محاولة التوصل الى هذه المعاهدة او التقرب من روسيا كانت مبدأ واساسا اعتمدت عليه سياسة المانيا الخارجية ام أنها تمثل مبادرة شخصية سرية ؟ وهل ان المسؤولين الالمان كانوا يرون ضرورة التوصل الى حلف مع روسيا ، أم التقرب من بريطانيا لاهداف اخرى ؟ وما هي الوسائل التي اتبعتها المانيا من أجل توثيق علاقتها مع روسيا ؟ هل ان الاهداف التي كانت تتوخاها المانيا من وراء هذه المعاهدة عسكرية ام سياسية ؟ هل ان حاجة المانيا الى قوة روسيا العسكرية هي التي كانت وراء المحاولة الالمانية ، ام كانت اهدافا سياسية لتكوين عصبة قارية ضد بريطانيا عن طريق القضاء على الحلف الفرنسي - الروسي والوفاق الودي البريطاني - الفرنسي ؟ ولماذا رفض القيصر الروسي التوقيع على هذه المعاهدة الا

بعد اطلاع فرنسا على بنودها ؟ هل ان نيقولا الثاني كان يشك في النوايا الالمانية ؟ ثم لماذا رفضت المانيا الاصرار الروسي على اخبار فرنسا بالمعاهدة ؟ واخيرا ماذا يعني فشل المحاولة الالمانية والتوصل الى معاهدة حلف مع روسيا ؟

كانت المانيا تحبذ توصل بريطانيا واليابان الى اتفاق بشأن الشرق الاقصى . وذكر بان المانيا كانت السبب وراء انشاء الحلف البريطاني الياباني . ويبدو ان هذا الرأي مبالغ فيه(١٢) . صحيح ان المانيا كانت تقترح على بريطانيا باستمرار التوصل الى حلف مع اليابان(١٣) ، وان بريطانيا قد أخبرت المانيا بصورة سرية عند التوقيع على الحلف في السابع من شباط – فبراير عام ١٩٠٢ ، لان بريطانيا تدرك ان الامبراطور الالماني ومستشاره وكبير مستشاري وزارة الخارجية يرحبون بالحلف(١٤) . وفي الواقع ، حاولت المانيا منذ عام ١٩٠١ توريط روسيا واليابان في حرب بسبب منشوريا وكوريا لانها تريد القضاء على أية فرصة تنهي خلافات الدولتين في الشرق الاقصى . لقد كان هدف الامبراطور الالماني هو توريط روسيا في الشرق الاقصى . فقد حث القيصر الروسي على ان تكون روسيا قوة عظمى في منطقة المحيط الهادي . وفيما يتعلق بكوريا فقد اخبر الامبراطور الالماني القيصر الروسي بانها « على شكل لسان من الارض يمكن ان تصبح نوعا جديدا من الدردنيل اذا وقعت بيد الاعداء . ويجب الا يهدد هذا الدردنيل طرق مواصلاتكم . ومن الواضح لكل ذي روية بان كوريا يجب ان تكون روسية »(١٥) وكان المسؤولون الالمان يشجعون بصورة غير مباشرة أعداء بعض المسؤولين الروس الذين كانوا ينادون بضرورة التوصل الى تفاهم مع اليابان بشأن الشرق الاقصى ، من

امثال الكونت لامسدورف Lamsdorff وزير الخارجية الذي كان يريد تجنب الحرب الذي كان مهتما بالقضايا الاوربية أكثر من اهتمامه بالشرق الاقصى ، والكونت وايت Witte وزير المالية الذي كان يريد تجنب الحرب أيضا ، على الرغم من طموحه في تحقيق سيطرة روسية على تجارة وموارد شمال الصين الاقتصادية ولكن بطرق سليمة ، والجنرال كوروباتكين Kuropatkin وزير الحرب الذي كان هدفه منع تورط روسيا في حرب في الشرق الاقصى والحفاظ على قوة روسيا العسكرية لمواجهة المخاطر التي قد تواجهها روسيا في اوربا(١٧) .

وفي الوقت نفسه كانت المانيا ترمي الى اقامة علاقات وثيقة مع روسيا من أجل محاربة الاتجاهات الفوضوية والفكرية(١٨) . ومع ذلك فان معاهدة الحلف البريطاني ـ الياباني تعتبر الخطوة الاولى من خطوات التغيير الذي بدأ يطرأ على الوضع الاوربي الذي اخذ يميل في غير صالح المانيا(١٩) . بل انه يمكن القول ان هذا الحلف يمثل « بداية مرحلة جديدة في الدبلوماسية الدولية ، وهي بدء سياسة احتواء المانيا كرد فعل لسياسة السياسة العالمية الالمانية »(٢٠) . لكن المسؤولين الالمان لم يدركوا ذلك ، بل ان الامبراطور الالماني ووزراءه هنأوا انفسهم « بأنهم قد افلتوا من الفخ البريطاني وانهم يشعرون بالارتياح من تعهد بريطانيا والتزامها تجاه اليابان »(٢٠) . لذلك رحبوا بالحلف البريطاني ـ الياباني فكانوا يرون ان بريطانيا وروسيا قد نفرتا بعضهما البعض والى الابد(٢٢) ، وان بريطانيا بدلا من ان تنظم الى الحلف الفرنسي ـ الروسي وتكون عضوا فيه فانها اختارت ان تكون عدوا لهذا الحلف ، لذلك كانوا واثقين من تزايد احتمال نشوب حرب بين بريطانيا وروسيا ،

والتي ستكون لصالح المانيا لان هـذه الحرب ستقضي على أية محاولة للتوصل الى تفاهم بريطاني ـ روسي(٢٣) أو بريطاني ـ فرنسي(٢٤) ٠ وطالما انشغلت بريطانيا في شؤون الشرق الاقصى فان مقاومتها لخطط المانيا الرامية الى تقوية اسطولها البحري وبخاصة في بحر الشمال ستضعف(٢٥) وبالتالي سيزداد اعتماد بريطانيا في الامد البعيد على المانيا(٢٦) بل ان بيلوف : المستشار الالماني كان واثقا من ان البريطانيين سيجدون انفسهم مضطرين الى الاعتراف بحاجتهم الى صداقة المانيا(٢٧) ٠ فالبريطانيون مرتبطون مع اليابانيين بحلف ، والفرنسيون مرتبطون مع الروس بحلف ايضا ، في حين لم يرتبط الالمان بأي منهما ، وفي الحقيقة ان هذا الوضع كان مشابها لوضع المانيا خلال فترة حكم مستشاريه بسمارك(٢٨) ٠ فقد سبق للمستشار السابق ان ذكر بيلوف خلال الثمانينات من القرن الماضي انه « يوجد في روسيا اضطراب وهياج كبيرين قد ينجم عنهما وبسهولة انفجار فانه من الاحسن للسلام العالمي اذا حدث الانفجار في آسيا وليس في اوربا ويجب علينا ان نكون حذرين وان لا نقف عقبة أمامها ، والا فقد نتحمل نتائجها »(٢٩) ٠ وهكذا كانت سياسة المانيا هي عدم مقاومة مشاريع روسيا في الشرق الاقصى بل تأييدها وتشجيعها ٠ اما الامبراطور الالماني فانه اتبع منذ عام ١٨٩٥ سياسة توريط روسيا في الشرق الاقصى حتى لا تثير الاضطرابات على حدود المانيا الشرقية ، وانه قد وعد القيصر الروسي نيقولا الثاني بان المانيا ستحمي حدود روسيا الغربية اذا بقيت روسيا مهتمة بشؤون آسيا ٠ ومن الجدير بالذكر ان الامبراطور الالماني قد جدد هذه الوعود من دون علم وزارة الخارجية الالمانية(٣٠) ٠ لكن هذا لا يعني انها كانت تعارض

التوسع الروسي في الشرق الاقصى ، بل على العكس فانها كانت تعارض
التوسع الروسي في الشرق الاقصى ، بل على العكس فانهـا كانت تريد توريط روسيا في تلك المنطقة ولا تعارض توسعها طالما كان هذا يلفت انتباه روسيا من اوربا الى آسيا . لكن موقف وزارة الخارجية الالمانية من اتجاهات الشرق الاقصى . فعندما طلبت بريطانيا من المانيا « الايفاء » بالتزاماتها في معاهـدة اليانغتسي المعقـودة في تشرين الاول ـ سبتمبر ١٩٠٠ وذلك بتقديم ضمان بريطاني ـ ألماني مشترك ضد روسيا أعلن بيلوف وبوضوح ان الاتفاقيـة « لا تتعلق بمنشـوريا »(٣١) وان المانيـا لا تبالي بأية أهمية لمصير منشوريا . ويتزامن هذا الاعلان في الوقت التي وضعت فيه بريطانيا مسودة معاهدة الحلف مع اليابان ضد روسيا ومن دون علـم المانيا(٣٢) . بينما ردت الخارجية الالمانيـة وعلى لسـان هولشتاين بان المعاهدة المذكورة تلزم الطرفين بأحترام حرية التجارة في وادي نهر اليانغتسي وانها ليست موجهة ضد روسيا ، وان المانيا لم تتعهد لبريطانيا بأن تقف ضد روسيا . اما فيما يتعلق بمسودة معاهدة الحلف البريطاني ـ الياباني فقد اصر هولشتاين على رأيه السابق والذي أكد فيه على انهـا « تتناقض بصورة مباشرة مع مصالحنا . وبذلك سـتجد انكلترة نفسها غير مجبرة على ربط نفسها بمعاهدة عامة مع المانيا أو مع الحلف الثلاثي » اي مع الحلف الالماني ـ النمساوي ـ الايطالي . لذا كان رأي هولشتاين واضحا وهو : انه ما لم تنظم بريطانيا الى الحلف الثلاثي فانه يجب عدم تصديع علاقات المانيا مع روسيا . لذا فان معاهدة اليانغتسي يمكن اعتبارها وفاقا بريطانيا ـ المانيا في الشرق الاقصى(٣٣) . واخبرت المانيا اليابان انها ستلتزم بالحياد التام في حالة حدوث ازمة في

الشـرق الاقصى(٣٤) • وفي الوقت نفســه رفضت الخارجية الالمانية ان تستخدم روسيا المانيا من أجل الحفاظ على المصالح الروسية في الشـرق الاقصى • فبعد ان اعتبرت روسيا الحلف البريطاني ـ الياباني تحديا له ، عملت جاهدة على اعادة التعاون الالماني – الفرنسي ـ الروسي الذي شهده عام ١٨٩٥ والذي وضع حدا لليابان • فحاولت روسيا في هـذه المرة الحصول على تأييد المانيا وانضمامها مع حليفتها فرنسا ومعها من اجل تكوين عصبة قارية ضد بريطانيا • فأقترح لامسدروف تكوين حلف ثلاثي يكون ميدان تطبيقه الشـرق الاقصى بحيث تتولى فرنسا والمانيـا الاسطول البريطاني ، بينمـا تقـوم روســيا باحتلال شمال الصين متى تشاء(٣٥) • رفضت المانيا المحاولة الروسية واقتراح لامسدورف لاسباب عديدة • فاعتقدت المانيا ان روسيا تريد استخدامها ضد بريطانيا وهذا ما ترفضه المانيا • فقد أكـد بيلوف ، وأيده في ذلك الامبراطور الالمـاني « بأنني ارى ، وأحاول ان يكون المبدأ الرئيس للدبلوماسية الالمانية بان لا يكون لنا سياسة شرقية • والا فسوف نكون كبش فـداء لاية قوة في العالم »(٣٦) • ولم تكن مصالح المانيا في الشرق الاقصى كبيرة لدرجة تتحالف المانيا مع روسيا وفرنسا • اضافة الى ان المانيا لا زالت تنتهج سياسة « اليد المطلقة »(٣٧) وانها لا تريد الاقلاع عن هذه السياسة الا اذا حصلت على تعويضات مهمة • فقد اخبرت المانيا روسيا بانها لاتستطيع تأييدها طالما لم تتخل فرنسا عن مقاطعتي الالزاس واللورين(٣٨) • هـذا وان انضمام المانيا الى روسيا وفرنسا في الشرق الاقصى سيغلق السوق الياباني أمام البضائع الالمانية • وأخيرا فان المانيا خشيت انه في حالة انضمامها الى روسيا وفرنسا في الشرق الاقصى فان الولايات المتحدة

الامريكية ستنضم الى الحلف البريطاني ـ اليذباني(٣٩) ٠

ولم تكن فرنسا ترغب التعاون مع المانيا أو رؤية حليفتها روسيا تعتمد أو تتعاون مع المانيا في الشرق الاقصى او في اي مجال آخر وبخاصة ان المانيا سبق وان اكدت موقفها السابق بعدم اعادة مقاطعتي الالزاس واللورين الى فرنسا ٠ لذا كان على فرنسا ان تساند روسيا وتقدم لها القروض لكي تمنع أي تقارب روسي ـ الماني ٠ فهي بحاجة الى الحلف مع روسيا حتى تضمن استقلالها في اوربا ٠ لقد كان موقف فرنسا حرجا ، فقد ادركت ان ردود الفعل الروسية نحو الحلف البريطاني ـ الياباني كانت غاضبة ، وكانت تخشى من اندلاع حرب بين روسيا حليفتها وبين اليابان حليفة بريطانيا في الشرق الاقصى ٠ وازداد التوتر بين بريطانيا وروسيا الى درجة كبيرة بحيث أصبحت الحرب بينهما وشيكة وانها ستجبر فرنسا على الايفاء بالتزاماتها تجاه روسيا الامر الذي سيؤدي الى عرقلة الهدف الذي يرمي اليه دلكاسيه T. Delcasse وزير الخارجية الفرنسية التوصل اليه وهو التقارب بين فرنسا وبريطانيا ٠ وبما ان العلاقات الالمانية ـ البريطانية قد تردت الى درجة لم يسبق لها مثيل وبخاصة بعد الخطب اللاذعة والتي تبادلها تشامبرلن J. Chamberlain وزير المستعمرات البريطانية وبيلوف حيث تهجم كل واحد على حكومة الاخر الى درجة ان الامبراطور الالماني شكا من الوزير البريطاني ، وهدد ملك بريطانيا ادورد السابع Edward VII بدوره المانيا بالغاء الزيارة المزمع ان يقوم بها امير ويلز الى المانيا لحضور احتفال عيد ميلاد الامبراطور الالماني « لانه من الاحسن له عدم الذهاب اينما يكون عرضة للاهانة »(٤٠) ٠ لكل ذلك ، كان امام فرنسا خياران ،

الاول التوصل الى مصالحة بين روسيا واليابان لمنع اندلاع حرب في الشرق الاقصى أو ، وهو الخيار الثاني ، ان تتقارب فرنسا من بريطانيا من أجل التوصل الى تفاهم بريطاني - فرنسي تكون من نتائجه تحييد موقف بريطانيا من حليفتها اليابان اما بالابتعاد عنها أو عدم تقديم المساعدة لها • ويبدو ان فرنسا كانت قد اجبرت على اتخاذ موقف معين من بريطانيا • أو بعبارة أخرى ، ان الحلف البريطاني - الياباني قد جعل موضوع التوصل الى تفاهم بريطاني - فرنسي امرا حتميا(٤١) •

وكان أول خطوة خطتها فرنسا هو حصولها على تأكيد من بريطانيا في ١٢ شباط - يناير يتضمن ان موقفها المتشدد من روسيا لا يعدو ان يكون الا تحذيرا ، وان بريطانيا تحاول التوصل الى اتفاقية مع روسيا وستعمل حتى النهاية من أجل تحقيق ذلك(٤٢) • وفي الواقع ان جهود المسؤولين البريطانيين كانت منصبة على منع اندلاع حرب مع روسيا على الرغم من ان مصلحة بريطانيا كانت تقضي رؤية روسيا ضعيفة في الشرق الاقصى طالما كانت الخلافات البريطانية - الفرنسية قائمة • ولكن في الوقت نفسه ، انه ليس في مصلحة بريطانيا انزال الهزيمة بروسيا لان ذلك سيعزز من قوة ومكانة المانيا وبخاصة بعد الفشل في تحقيق تفاهم بريطاني - الماني ، وان المانيا بدأت بتحقيق برنامج انشاء اسطول بحري طموح وكذلك حصلت على امتياز مد سكة حديد استراتيجية في الامبراطورية العثمانية ، وبذلك أخذت تهدد المصالح البريطانية في الشرق عاما • لذلك أصبح من الضروري على بريطانيا ان تحقق تقاربا مع فرنسا وتكبح روسيا باليابان وان تكون علاقتها ودية مع ايطاليا ، حتى تشعر بريطانيا المانيا بقوتها من أجل الحد من تسلحها البحري وان لا تهدد مصالح بريطانيا في العالم(٤٣) •

وهكذا بدأ الوضع الدولي في عام ١٩٠٢ لصالح فرنسا ضد المانيا · فبعد صدور الاعلان الفرنسي ـ الروسي في العشرين في اذار ـ مارس ١٩٠٢ بشأن الصين ، وقعت روسيا وبسبب ضغوط من بعض الدول(٤٤) ، اتفاقية في نيسان ـ ابريل من نفس العام مع الصين تعهدت روسيا بموجبها الانسحاب من منشوريا على مراحل على ان يتم اكمال الانسحاب في تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٠٣(٤٥) · ولم يكن موقف المانيا والنمسا ـ المجر موحدا من هذه الاتفاقية · ففي الوقت الذي اعلنت فيه النمسا ـ المجر تأييدها للاتفاقية عارضتها المانيا بشدة(٤٦) لانها لا تريد رؤية انفراج الوضع في الصين ، بل انها كانت تعمل ما بوسعها من أجل تعقيده · وعلى كل حال ، فقد توجت فرنسا في حزيران ـ يونيو من العام نفسه اتفاقيتها السابقة التي وقعتها مع ايطاليا عام ١٩٠٠ ، والتي حلت مشاكل الدولتين الاستعمارية في المغرب وليبيا ، باتفاقية سرية توصلت اليها في حزيران ـ يونيو عام ١٩٠٢ والتي بموجبها اتفقت الدولتان على الوقوف على الحياد في حالة اشتباك أحد الدولتين في حرب مع دولة أو أكثر · وتعتبر هذه الاتفاقية نقطة تحول مهمة فخطط ايطاليا الرامية الى التوسع في شمال افريقيا قد تعارضت مع سياسة المانيا التي تدعو قدر الامكان الى الحفاظ على كيان الامبراطورية العثمانية(٤٧) · اضافة الى ذلك ساعدت عوامل عديدة على استئناف المباحثات البريطانية ـ الفرنسية لايجاد حل وسط لمشاكلهما الاستعمارية المتنازع عليها · وبالفعل فقد بدأت هذه المحادثات التي مثلها عن بريطانيا وزير خارجيتها اللورد لانسداون Lansdowne وعن فرنسا سفيرها في لندن بول كامبون Paul Combon في تموز ـ يوليو عام ١٩٠٢ واستمرت

هذه المباحثات بصورة متقطعة حتى تم التوصل الى اتفاقيات عديدة في الثامن من نيسان ـ ابريل عام ١٩٠٤ حول مشاكلها الاستعمارية وبخاصة فيما يتعلق بمصر والمغرب(٤٨) . ومما عجل على التوصل الى هذه الاتفاقيات سببان : الاول ، تردي الاوضاع الداخلية في المغرب وخشية بريطانيا بانه ما لم يتم التوصل الى اتفاقية بريطانية ـ فرنسية بشأن المغرب فان تفاقم الوضع سيؤدي الى تعقيدات دولية . والسبب الثاني ، هو تردي الاوضاع في الشرق الاقصى بعد ان نقضت روسيا ، بسبب رجحان كفة جماعة يتزعمها وزير الداخلية V. K. Plehve والتي تعارض اتباع سياسة معتدلة(٤٩) . وكذلك نجحت هذه الجماعة في التأثير على القيصر الروسي . فبعد ان اكملت روسيا المرحلة الاولى من انسحابها من منشوريا في شهر تشرين الاول ـ اكتوبر عام ١٩٠٢ رفضت روسيا اكمال انسحابها عند حلول موعد المرحلة الثانية من انسحابها وهو شهر نيسان ـ ابريل ١٩٠٣ وطلبت ضمانات معينة من الصين بعدم منح أية دولة امتيازات في منشوريا(٥٠) واشترطت انه ما لم يتم الموافقة على هذه المطاليب فان القوات الروسية ستبقى في منشوريا . وللتعويض عن الاراضي التي انسحبت منها ، قامت روسيا باحتلال أراضي كورية . رفضت الصين التي كانت تدعمها بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، مطاليب روسيا(٥١) . فأعتقدت بريطانيا انها اذا حافظت على علاقاتها الودية مع فرنسا ، فان الاخيرة ستمنع حليفتها روسيا من اتخاذ أي اجراء ضد اليابان ربما يقود الى نشوب حرب بينهما حتى في حالة اندلاع حرب روسية ـ يابانية ، فان بقاء فرنسا على الحياد سيخلص بريطانيا من التزاماتها بموجب الحلف البريطاني ـ الياباني

والتورط في هذه الحرب • اما فرنسا فكانت هي الاخرى لا ترغب في التورط في مشاكل حليفتها ، روسيا ، في الشرق الاقصى • وكانت ترغب أيضا في تسوية المشكلة المغربية • فبعد الزيارات المتبادلة للملك البريطاني ادورد السابع لباريس والرئيس الفرنسي لوبو Loubet الى لندن في مايس – مايو عام ١٩٠٤ ، كثف وزيرا خارجية البلدين مباحثاتهما وناقشا في تموز – يوليو من نفس العام مسودة اتفاقيات بينهما تتضمن اعتراف بريطانيا بالهيمنة الفرنسية في المغرب مقابل اعتراف فرنسا بالهيمنة البريطانية في مصر ، وضمان المصالح الاستراتيجية البريطانية في طنجة ، وكذلك اتفاقيات حول نيوفاوند لاند وسيام و New Hebrides •

واظهر تردي العلاقات البريطانية – الروسية والعلاقات اليابانية – الروسية فيما يتعلق بقضايا آسيا الوسطى(٥٢) وقضايا الشرق الاقصى خلال عام ١٩٠٣ أهمية التوصل الى اتفاقية نهائية بين بريطانيا وفرنسا • فعلى الرغم من استمرار المباحثات بين بريطانيا وروسيا بشأن قضايا آسيا الوسطى والتي كان أمل التوصل الى تفاهم بين الدولتين لا بأس به ، فان المباحثات الروسية – اليابانية كانت تشير الى طريق مسدود • فمارست بريطانيا ضغوطا على اليابان من أجل قبول « عرض معقول » من روسيا فيما يتعلق بالشرق الاقصى • وحاولت اليابان جاهدة من أجل التوصل الى اتفاقية مع روسيا تتضمن اما اكمال الاخيرة انسحابها من منشوريا أو ان تطلق يد اليابان في كوريا • ولكن من دون جدوى • فالموقف الروسي أصبح متشددا الى درجة أن القيصر الروسي نيقولا الثاني اقال وزير خارجيته لامسدورف ووزير ماليته وايت في آب – اغسطس ١٩٠٣

لانهما كانا يرفضان سياسة التشدد مع اليابان ، فوزير المالية كان ضد مد سكك حديد استراتيجية في روسيا كما نصت عليه اتفاقيات القروض التي كانت تعقدها روسيا مع فرنسا وحاول استخدام هذه القروض في القطاعات غير العسكرية من الاقتصاد الروسي(٥٣) وعلى الرغم من التحذيرات المتكررة التي قدمها اليابانيون للروس الا انها لم تجد نفعا ٠ ويبدو ان تأثير جماعة Plehve ، التي ترى من الحرب وسيلة للتخلص من المشاكل الداخلية(٥٤) ، على القيصر الروسي كان كبيرا ٠ فقد اقنعت القيصر الروسي بانه يسود روسيا الان « هياج ثوري » وان نشوب حرب روسية ـ يابانية صغيرة تكون فيها روسيا المنتصرة سيؤدي الى تهدئة الوضع في روسيا(٥٥) ٠ وهكذا بدأت روسيا واليابان بالاستعداد للحرب ، الا ان اليابانيين لم يمنحوا الروس الوقت لتعبئة قواتهم ٠ فقد سبق لهم ان اعلنوا حالة التعبئة في قواتهم سرا ٠ وبعد ان فشل اليابانيون خلال الفترة من آب ـ أغسطس عام ١٩٠٣ حتى كانون الثاني ـ يناير عام ١٩٠٤ في محاولاتهم الرامية الى التوصل الى تسوية مع روسيا ، قطعوا علاقاتهم السياسية مع روسيا في الخامس من شباط ـ فبراير ، وبعد ثلاثة أيام ومن دون اعلان حالة الحرب شنت سفن الطوربيد اليابانية هجوما مفاجئا ضد السفن الحربية الروسية الراسية في ميناء بورت ارثر حيث يتواجد معظم اسطول الشرق الاقصى الروسي(٥٦) ٠

ومن الجدير بالذكر ان من أسباب اقالة القيصر الروسي لوايت هو ان الاخير كان يدرك الدوافع التي كانت تقف وراء تشجيع روسيا في التورط في الشرق الاقصى ، ولذلك أراد ان تتبنى روسيا سياسة معتدلة

تجاه اليابان(٥٧) . وفي الحقيقة ان المانيا قد عملت ما بوسعها من أجل اندلاع الحرب بين روسيا واليابان في الشرق الاقصى . ففي الاجتماعات التي تمت بين الامبراطور الالماني والقيصر الروسي في ريفال Reval ودانزك في تموز - يوليو عام ١٩٠٢ حاول الامبراطور الالماني ، يساعده مستشاره بيلوف ، ان يقنع القيصر الروسي بان المانيا ستقف على الحياد عند نشوب حرب روسية - يابانية ، وان الحياد الالماني سيجبر بريطانيا على الوقوف موقف الحياد طبقا للحلف البريطاني - الروسي ، وبذلك تسدى المانيا خدمة كبيرة لروسيا(٥٨) . ولمح الامبراطور الالماني للقيصر الروسي بان المانيا ستحمي حدود روسيا في اوربا في حالة تورطها في حرب في الشرق(٥٩) . وارسل الامبراطور الالماني برقية الى القيصر الروسي بدأها بما يلي : « من أدميرال المحيط الاطلسي الى ادميرال المحيط الهادي . » ويبدو ان الامبراطور الالماني قد وعد القيصر الروسي أكثر من الحياد . ومع ان التوتر قد تعاظم بين روسيا واليابان في خريف عام ١٩٠٣ فلم تندلع الحرب بينهما مما اثار خيبة أمل الالمان وبخاصة الامبراطور الالماني وبيلوف(٦٠) .

وبسبب تردي العلاقات الروسية - اليابانية ، استفسر السفير الروسي في برلين من وكيل وزير الخارجية الالماني اوتو فون موهلبرغ Otto von Muhlberg في تموز - يوليو عام ١٩٠٢عن موقف المانيا في حالة نشوب حرب بين روسيا واليابان وهل ان المانيا ستقدم الدعم لروسيا في هذه الحرب . أكد موهلبرغ للسفير بان المانيا ستقدم « التأييد والدعم » لروسيا في حالة اندلاع حرب في الشرق الاقصى . لكن بيلوف كان له رأي آخر اوضحه في كتابه « المانيا الامبراطورية Imperial Germany فقد ذكر :

« لقد اثار تنظيمنا للجيش وتاريخنا الحربي اعجاب هذه الامة المحاربة في الشرق الاقصى (اليابان) فبعد ان الحق اليابانيون الهزيمة بالصين ، أخذوا يتبجحون بانهم بروسيو الشرق • وتعرضت علاقاتنا معهم الى صدمة عنيفة عام ١٨٩٥ عندما قمنا نحن مع فرنسا وروسيا باجبار اليابانيين المنتصرين على تخفيف شروطهم على الصين • وهكذا فقد فقدنا الكثير من التعاطف الذي كانت تبديه اليابان لنا ولسنوات طويلة عندما تدخلنا ضدها ، ولم نحصل على أي عرفان بالجميل من فرنسا او روسيا » • ويستطرد بيلوف قائلا : « انه ليس من مصلحتنا ان نجعل من هذه الدولة الكفوءة الشجاعة عدوا لنا • فليس في نيتنا ان نسمح لليابان ان تستخدمنا ككبش فداء • وستصبح الامور سهلة جدا ليس لليابان فحسب بل لانكلترة أيضا ، اذا سمحنا لانفسنا ، ومن أجل مصالحهما في الشرق الاقصى ، بالاندفاع ضد روسيا ••• وكما اننا لم نرحب بفكرة ان نغيظ او نبعد اليابان عنا من أجل فرنسا او روسيا ، فانه يجب ان لا تتردى علاقتنا مع روسيا من أجل مصالح الدول الاخرى في الشرق الاقصى » • لقد كان بيلوف متأثرا بموقف بسمارك من اهتمام روسيا في آسيا ، وهو انه بسبب أوضاعها الداخلية المتفجرة « فانه يجب ان يحدث هذا الانفجار ، ولصالح السلام في العالم ، في آسيا وليس اوربا • وبخلاف ذلك ، فاننا يجب ان نتحمل وطأتها • ولو كنا قد سمحنا لانفسنا ان نندفع ضد روسيا قبل الحرب الروسية ـ اليابانية ، فانه كاد من الممكن ان نتحمل الوطأة العظمى ، ولقد اخبرني (بسمارك) في احدى المناسبات : لو ان السيد ن (ربما يقصد القيصر الروسي نيقولا) اقترح عليك شيئا لمصلحته وليس لمصلحتك ، فان هذا لا يعني ان السيد ن

احمق ، بل انك أحمق فيما لو وافقته »(٦١) • لقد كان موقف بيلوف واضحاً وهو يجب ان تتعامل ألمانيا بحذر ومهارة شديدين تجاه هذا الموضوع لكي لا تجد نفسها متورطة في حرب في الشرق الاقصى ، أو ان تجد روسيا نفسها مجبرة على التوصل الى تفاهم مع اليابان وبريطانيا(٦٢) لقد كان هدف بيلوف هو تفادي تورط المانيا في أية حرب « حتى تنتهي المرحلة الحرجة من البرنامج الالماني للتسليح البحري والتي حددها وزير البحرية الحربية تيربتز A. V. Tirpitz بنهاية عام ١٩٠٤(٦٣) •

واعتقدت المانيا انه في حالة اندلاع حرب بين روسيا واليابان ، فانه سينجم عنها تعقيدات اوربية فقد تصبح بحار البلطيق والشمال مسرحا للنزاع حيث يتوجب على السفن الحربية الروسية عبور الممرات الضيقة بين الدانمارك والسويد • وان الموقف الذي تتخذه الدانمارك تجاه الاطراف المتناحرة سيؤثر وبصورة مباشرة على المانيا حيث تفصل شبه جزيرة الدانمارك وجزرها سواحل المانيا المطلة على هذه البحار وكذلك أساطيلها • لذلك اخبر الامبراطور الالماني وزير بحريته في تشرين الثاني — نوفمبر عام ١٩٠٣ بان موضوع حياد الدانمارك قد تمت مناقشته مع ملك الدانمارك ومع القيصر الروسي • وكان التساؤل هو : ما هو رد فعل الدانمارك اذا انضمت بريطانيا الى اليابان في حربها ضد روسيا ؟ لقد كان للحكومة الالمانية اهتمام مباشر في حياد الدانمارك وانها كانت مصممة على ان يفسر الدانماركيون هذا الحياد بطريقة مقبولة • ومن الامور التي يجب دراستها هو موقف الدانمارك بشأن توفير واعداد مرشدين للسفن العائدة الى الاطراف المتناحرة • أجابت الحكومة

الدانماركية بان عليهما تعهد بان تبقى ممرات Belts, Sound مفتوحة ، وان عليها اعداد مرشدين عند تقاضيها رسوم طبقا لاتفاقية عام ١٨٥٧ ، وفي حالة رفضها اعداد مرشدين وبخاصة الى السفن الحربية ، فان هذه السفن قد تجنح وتغرق وبذلك يغلق الممر المائي . الا ان المانيا اوضحت للدنمارك بان هذه الممرات هي أيضا حيوية لتطوير الاسطول البحري الالماني في بحر الشمال وبحر البلطيق . وفي حالة اشتباك المانيا في حرب مع بريطانيا فانها سوف لا تسمح للدانمارك باعداد مرشدين الى سفن الاعداء . واوضح الادميرال وليم بوشل Buchsel رئيس اركان البحرية الالمانية Admiralstab der Marine من الحياد الدانماركي ، وأكد بان موقف المستشار الالماني يجب ان يفهم بانه في حالة تورط المانيا في حرب « فان توفير واعداد مرشدين الى اعدائنا يتعارض مع الحياد الدانماركي » . ولم يكن هذا الرأي يمثل البحرية الالمانية . فقد كانت هناك ثلاث ادارات بحرية المانية وجميعها على اتصال مباشر مع الامبراطور وهي : وزارة البحرية الامبراطورية Reichs marinearnt والتي لها مسؤولية وزارية والتزامات برلمانية ، ورئاسة الاركان البحرية التي تمثل اداة لتنفيذ مهام القيادة العليا للامبراطور ، وأخيرا المجلس البحري الامبراطوري Marine Kabinett والذي هو المسؤول عن أمور امانه السر والافراد لقيادة الامبراطور ، وتعتبر هذه الادارة مهمة كالادارتين السابقتين . وان مهمة نشر السفن الحربية هي من أعمال رئاسة الاركان البحرية الالمانية . وكان اسطول من السفن الحربية الالمانية يرابط في الشرق الاقصى ، وكانت رئاسة الاركان البحرية الالمانية هي المسؤولة عن مراقبة حركات اساطيل روسيا واليابان وعن احتمالات الحرب بينهما،

والنتائج المترتبة على المانيا وعلى التوازن البحري ، فأصدرت رئاسة الاركان البحرية أوامرها الى اسطول السفن الحربية الالمانية الموجودة بالقرب من الصين أن يكون متهيأ ، وان يلتزم الحياد التام ولكن عليه ان يراقب تطور الاحداث وبخاصة مراقبة البريطانيين في وادي اليانغتسي وان يبلغوا حالا أي تغيير في الوضع • واقترحت رئاسة الاركان البحرية الالمانية انه من أجل الحصول على نتائج مهمة لخطط وتحركات المانيا فان الحاق ضباط بحريين المان في مراكز القيادات البحرية الروسية واليابانية سيكون ذي قيمة كبيرة • وهكذا صدرت الاوامر الى سفيري المانيا في روسيا واليابان بالطلب من الحكومتين السماح بمراقبين المان بالتواجد في مراكز قيادتهم من أجل الاتصال والمراسلة بمراكز قيادتهم أيضا لابلاغها عن تطور الاحداث وعندما هاجمت اليابان روسيا في الثامن من شباط - يناير عام ١٩٠٤ في بورت ارثر تم تنفيذ خطة البحرية الالمانية • فكانت المانيا هي الدولة الاوربية الوحيدة التي لديها مراقبين في هذا الميناء • وكذلك لديها اسطول حربي بالقرب من ساحة الصراع تراقبه منذ اندلاعه ، بينما كانت الدول الاخرى تراقب هذا الصراع من قبل ممثليها في الصين • وهذا مما جعل جميع الدول باستثناء روسيا تشك في الوجود الالماني في المنطقة وتعتقد بان الالمان ليسوا مقتنعين بتأجير كياوجو فقط بل انهم سيقومون بعمل في شانتونغ كما فعل الروس في منشوريا • وكان اليابانيون قد ابدوا شكوكهم من التواجد الالماني الى درجة انهم اخذوا يعاملون الملحق البحري الالماني في طوكيو بحذر شديد • في حين لم يشارك الروس اليابانيين الشكوك • بل على العكس فقد طلب رئيس المجلس البحري الروسي الامير اورلوف Orloff ، وبناء على

طلب القيصر الروسي ، من الملحق البحري الالماني في العاصمة الروسية P. Hintze ان يكتب مذكرات سرية عن تطور الاحداث . « وان القيصر يريد ان يكون هو ، كما هو شأن الامبراطور الالماني ، بتطور الاحداث »(٦٤) .

لقد كان رأي بيلوف وهو لشيتاين هو ان تعمل المانيا ما بوسعها على تشجيع روسيا في التورط في الشرق الاقصى في حرب مع اليابان وان تقف على الحياد عند اندلاع الحرب بين هاتين الدولتين . فان ربحت روسيا الحرب فان المانيا ستقف الى جانبها عن طريق تقديم المشورة والنصيحة والتأييد . اما اذا منيت روسيا بالهزيمة على يد اليابان ، فستعاني من الضعف حتى تجبر بالنهاية الى توقيع معاهدة حلف مع المانيا(٦٥) . وفي كلا الحالتين فان الوجود الروسي في الشرق الاقصى يجب ان يلقى تأييد المانيا المطلق ليكون بمثابة منطقة عازلة ضد التغلغل البريطاني والياباني والاميريكي في الصين(٦٦) . وكتب الامبراطور الالماني الى القيصر الروسي يدعوه الى الدخول في حرب ضد اليابان وان يرفض أية تسوية معها . ولكن القيصر الروسي رفض هذه الدعوة لانه « كان يأمل في النهاية التوصل الى تسوية سليمة هادئة » مع اليابان . وقد اثار هذا الرد خيبة أمل الامبراطور الالماني(٦٧) ، الذي اخبر بيلوف بانه كان يأمل من ان الرسالة التي ارسلها الى القيصر الروسي « ستقنع القيصر باستخدام قواته ضد اليابان ... ويبدو انه لا يريد القتال وانه من غير المستبعد بانه سيسمح لليابانيين في النهاية أخذ منشوريا من دون اطلاق اطلاقة واحدة أو بعد مقاومة اسبوع واحد . ويجب منع مثل هذا الانعطاف في الاحداث بأي حال من الاحوال »(٦٨) .

ويبدو أن الامبراطور الالماني قد اتخذ على عاتقه سياسة المانيا الخارجية تجاه الحرب الروسية اليابانية . فقد سبق له وان أعطى روسيا ضمانات بالمحافظة على حدود روسيا الغربية مع المانيا ، ومارس ضغوطا كبيرة على النمسا ـ المجر بالكف عن أي عمل تنوى القيام به في منطقة البلقان(٦٩) . وعندما اعدت وزارة الخارجية الالمانية تصريحا رسميا يؤكد فيه حياد المانيا من هذه الحرب وعممته على مؤسساتها في الخارج في ١٧ شباط ـ فبراير ١٩٠٤ ، تضمن اغلاق قناة الامبراطور وليم بوجه السفن الحربية العائدة للدول المتحاربة . لكن هذا الاعلان أعطى هذه السفن حق الرسو في الموانيء الالمانية لمدة لا تزيد على أربع وعشرين ساعة ، وحق التزود بالوقود « ضمن بنود القانون الدولي » .

واصدر في العاشر من شباط ـ يناير أوامر الى الملحقين والمراقبين العسكريين بان يبعثوا تقاريرهم « كما يفعل قادة سفني الحربية المستقليين في الخارج ، وان يتم تداولها بين السلطات العسكرية ـ البحرية فقط » . وبدأت التقارير حول سير الحرب تترى على برلين . وكانت تقارير رئاسة الاركان البحرية الى الامبراطور خلال شهري اذار ونيسان / مارس وابريل قد اوضحت ضعف وعدم كفاءة الاساطيل البحرية الروسية . وهكذا لم يعد لبيلوف وهولشتاين أي دور في رسم السياسة الخارجية الالمانية تجاه الحرب الروسية ـ اليابانية عامة وروسيا خاصة فلو انهما عرفا بحقيقة الوضع العسكري لاتخذا سياسة اتسمت بالحذر الشديد في تعاملهما مع المساعدات التي كانت تطلبها روسيا(٧٠).

لقد سبب عدم اعلان التصريح بالحياد ، وتوجيه الامبراطور الالماني سياسة المانيا الخارجية بعض المشاكل . فأتهمت رئاسة الاركان البحرية

الالمانية وزارة الخارجية باهمال « بعض القضايا ذات الاهمية البالغة » ٠ ورفضت وزارة الخارجية الالمانيـة بدورها تأييـد الحكومة الروسية في تفسيرها لعمليات الغنائم والتهريب ، على الرغم ان التفسير الروسي كان يتطابق مع المبادىء والاسس التي تلزم بها الحكومة الالمانية وتزمع تطبيقها في حالة تورطهـا في حـرب ضـد بريطانيا ٠ وكان رأي وزارة الخارجية الالمانية ، وكما عبر عنه هولشتاين في ٢٢ شباط / فبراير ١٩٠٤ هو : « ما السبب الذي جعل المانيا ان تقف الى جانب روسيا بسهولة وتعرض نفسها للمخاطر ؟ ٠٠٠ ان المرء لا يجد الا ان يعبر عن اعجابه للشجاعة وللميزات التي يتحلى بهـا الجيش والبحرية الروسية ٠٠٠ ولكـن اذا اتخذت المانيا جانب أحد الاطراف ، فانها ستعرض تجارتها العالمية للخطر ٠ فلو ان احـدا اخـذ يداعب نمـرا فيجب عليه ان يتوقع بانه سيستخدم مخالبه » ٠ ولم يعجب موقف هولشتاين هـذا المتسم بالحـذر من قضايا القانون الدولي رئاسة الاركان البحرية التي وضحت موقف المانيا بما يلي : « ٠٠٠ اننا لا نعرف ماذا نريد ، ونحن نفترض باننا راضين عن الوضع الحالي ٠ وحقا انه امر لا يطاق »(٧١) ٠

لم يكن يخامر الامبراطور الالماني الشك من ان الروس سيلحقون الهزيمة باليابانيين ٠ الا ان التقارير التي وصلت منذ شهر اذار / مارس من رئاسة الاركان البحرية ومن الملحقين البحريين الالمان ومن المراقب الالماني في بورت آرثر الذي كان شاهد عيان على الضربة الاولى لليابانيين ضد الاسطول البحري الروسي الراسي في الميناء المذكور عن قوة الاسطول الياباني وعدم كفاءة الاسطول البحري الروسي وادارته الضعيفة والمعنويات الضعيفة والكفاءة الضعيفة للقـادة الروس ، كل هـذه المعلومات جعلت

الامبراطور يبدي استغرابه • فقد تعجب : « هل يخسر الروس انني لا اعتقد بذلك حتى في الحلم » • ومع ذلك فان المعلومات التي كانت ترى تؤكد ان الروس سيخسرون الحرب(٧٢) •

ومما زاد من حراجة موقف المانيا هو اعلان بريطانيا وفرنسا عن توصلهما الى اتفاقيات بشأن مشاكلهما الاستعمارية وبخاصة في المغرب ومصر(٧٣) • لقد كان الالمان يأملون بان اندلاع الحرب بين روسيا واليابان سيمنع من توصل بريطانيا ، حليفة اليابان ، وفرنسا ، حليفة روسيا ، الى الوفاق • لقد كانت هذه الخطوة واضحة للمسؤولين البريطانيين والفرنسيين الذين اتخذوا اجراءات احترازية وتم اعلان الوفاق(٧٤)• وبما ان الوفاق لم يقلل من احتمال تورط بريطانيا وفرنسا في الحرب الدائرة في الشرق الاقصى ، لذلك توصلت الدولتان الى قناعة كما عبر عنها رئيس وزراء بريطانية ارثر بالفور A. J. Balfour (١٩٠٢ – ١٩٠٥) ان التدخل في هذه الحرب « سيورط نصف أو أكثر من نصف العالم في حرب يكون المستفيد الاخير منها الدول المحايدة وعلى رأسها ألمانيا »(٧٥) لذا اعلنت الدولتان حالة الحياد عند اندلاع الحرب الروسية – اليابانية • وبعد التوصل الى الوفاق مع فرنسا ، كانت بريطانيا تأمل بأن هذا الوفاق ، ومن خلال توسط فرنسا التي ترتبط مع روسيا بحلف والتي هي طرف في الوفاق الودي مع بريطانيا ، سيؤدي الى التوصل الى اتفاق بريطاني – روسي • وهكذا وعلى الرغم من الحرب المشتعلة في الشرق الاقصى ، فلم تفقد بريطانيا أملها في التقرب من روسيا بهدف التوصل الى اتفاقية مشتركة لحل مشاكلهما الاستعمارية(٧٦) • واتخذت بريطانيا اولى الخطوات لتحقيق ذلك • وتم تعيين السير تشارلس

هـــار دنك C. Hardinge المتحمس لتحســـين عـــلاقات بريطانيـــا مع روسيا ، ســـفيرا لبريطانيا في سان بطرسبورغ في مايس / مايو عـــام ١٩٠٤ • ولقد نجح السفير الجديد ، حـــال وصـــوله الى مقر عمله ، في التوصل الى اتفـــاق مبـــدئي مع القيصـــر الروسي لحل مشاكلهمـــا الاستعمارية(٧٧) •

ويبدو ان الرأي الذي يرى بان المسؤولين الالمان لم يدركوا النتائج المترتبة على توقيع الوفاق الودي تعـــوزه الدقة(٧٨) • فقـــد ادى اعـــلان التوصل الى الوفاق الودي الى حـــدوث انتكاســـة كبيرة في السياســـة الخارجيـــة الالمانية بحيث اعتبر هذا الحدث بانه احد اسوء الهزائم التي منيت بها السياسة الالمانية منذ توقيع الحلف الفرنسي ـ الروسي(٧٩) • اما هولشتاين فانه لم يستبعد تكوين الوفاق الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي ـ لروسي(٨٠) • اضافة الى ذلك ، فقـــد تلقت امال المانيـــا في الهيمنـــة على اوربا صفعة قوية بعد توقيع الوفاق البريطاني ـ الفرنسي الذي شكل انحيازا بريطانيا واضحا نحو الحلف الفرنسي ـ الروسي(٨١) • صحيح ان بيلوف قد اخبر الرايخشتاغ بعد ايام قليلة من توقيع اتفاقيات الوفاق الودي بان هذا الوفاق ما هو الا اتفاقية تتعلق بالقضايا الاستعمارية التي تتعلق ببريطانيا وفرنسا ، وليس موجها ضد المانيـــا • ونفى المستشار الالماني الرأي الذي يرى بان من نتائج الوفاق الودي عزل المانيا • فقال : « فيما يتعلق بالمغرب ، والذي يشكل جوهر الاتفاقية ، فان لنا مصالح اقتصادية في ذلك البلد كما هو في باقي منطقة البحـــر المتوسط • ولنا هناك وبالدرجة الاساس مصالح تجارية ، ولذا فانه من مصلحتنا ان يسود النظام والقانون في المغرب • ولا يوجد سبب يجعلنا نعتقد بان دولة ما

ستلحق ضررا ما او تتجاهل مصالحنا في المغرب » . لكن اعلان بيلوف هذا كما اعتقد كل من سفيري فرنسا والنمسا ـ المجر في برلين ، كان نوعا من الاحتجاج الالماني ضد توقيع الوفاق ، وان الغاية من وراء هذا الاعلان هو اخفاء حالة الاخفاق والاستياء الذي سببه توقيع الوفاق الودي في المانيا . وقد ذكر السفير النمساوي ان سياسة المانيا والتي انتهجها بسمارك واتبعها من خلفه في زرع الشقاق وتعميقه بين الدول الاوربية قد تلقت اقوى صفعة بعد التقارب الروسي ـ النمساوي والتقارب الفرنسي ـ الروسي . اما الامبراطور الالماني فانه لم يخف قلقه منذ الوهلة الاولى لسماعه التوصل الى الوفاق الودي . فأبرق الى بيلوف في ١٧ نيسان / ابريل واخبره بأن من أهم نتائج توقيع الوفاق البريطاني ـ الفرنسي هو ان بريطانيا ، بعد ان تأكدت من موقف فرنسا ، ستعمل الكثير من أجل ان تتجاهل المصالح والقضايا التي تخص المانيا ، وستعطيها اعتبارات ثانوية . لقد نظر الامبراطور الالماني الى الوفاق الودي على انه نجاح فرنسي في كسب صداقة بريطانيا دون ان تضحي بحليفتها روسيا(٨٢) . اعترف بيلوف بان « الاتفاقية الفرنسية ـ الانكليزية تبدو لي وبالدرجة الأولى على انها ضمان متبادل ضد اشتراك أي من الدولتين في الشرق الاقصى . وعلى كل حال فان هاتين الدولتين وبموجب هذه الاتفاقية والتقارب قد كسبا ، وبدون شك ، أهمية دولية وحرية العمل »(٨٣) . واعتقد هولشتاين بان الوفاق سيؤثر على الطموحات الالمانية في افريقيا(٨٤) .

ومع ذلك فقد كانت وجهة نظر بيلوف في السياسة الخارجية التي يجب على المانيا ان تنتهجها وهي تجنب « اولا تصدع علاقتنا مع روسيا

بسبب الحرب ... ومن جهة أخرى عدم السماح لانفسنا بان نزج من قبل روسيا ضد اليابان والاهم من هذا ضد انكلترة »(٨٥) . بعبـــارة أخرى يجب على المانيا تجنب الحرب حتى يزف اليوم الذي تنهي فيه الفترة الحرجة من برنامج المانيا للتسلح البحري والذي حدده تيربتز بنهاية عام ١٩٠٤ وبذلك سيزول خطر قيام بريطانيا بالهجوم على المانيا ، وستصبح البحرية الالمانية قوية لدرجة تثير قلق البريطانيين الذين سيدركون ان الهجوم على المانيا عملية محفوفة المخاطر . وشارك هولشتاين رأي بيلوف هذا وكان يرى ان اكمال البرنامج البحري الالماني من دون التورط في صدام مع بريطانيا يعد نجاحا لالمانيا(٨٦) . ومع ذلك فقد طلب بيلوف من شليفن دراسة امكانية اقادة الحرب في حالة اندلاعها بين فرنسا والمانيا من دون ان تتدخل روسيا الى جانب حليفتها . رد رئيس الاركان الالمانية انه على الرغم من ان روسيا لم تسحب قواتهـــا من حدودها الغربية مع المانيا ، الا ان كفاءة هذه القوات قد قلت بسبب نقل عـدد من الضباط والمتطوعين الى الشرق الاقصى . وعلى الرغم من ان روسيا تحاول تجنب الحرب مع المانيا ، لكنها اذا وجدت نفسها مضطرة للدخول في حرب الى جانب فرنسا أيضا بتعهداتها في الحلف الفرنسي الروسي ، فان قوة روسيا سوف لا تشكل خطورة على المانيا . لم يشجع تقرير رئاسة الاركان وزارة الخارجية الالمانية على القيام بحرب ضد فرنسا ، لانها كانت تريد استغلال تورط روسيا في حربها ضد اليابان من أجل التوصل الى معاهدة تجـــارية مع روسيا تكون بنودها لصالح المانيـــا وبخاصة ان مفاوضات المعاهدة سبق لها ان وصلت الى طريق مسدود في نهـاية عـام ١٩٠٣ وكانت وزارة الخارجية الالمانية تأمل في التوصل الى معاهدة تجارية مع

روسيا(٨٧) ٠

لم يشارك الامبراطور الالماني بيلوف الرأي بان مشاكل وشيكة ستثار بين بريطانيا وفرنسا بسبب الحرب الروسية ـ اليابانية ٠ فأغتنم فرصة افتتاح جسر على نهر الماين Main فلمح الى سياسة فرنسا التي نجحت في تحسين علاقتها مع ايطاليا وبريطانيا وحذر ان هذه السياسة قد اثارت قلق وخوف المانيا الشديدين ٠ وشعر الملك ادورد السابع ملك بريطانيا الذي قام بزيارة الى المانيا في شهر حزيران / يونيو عام ١٩٠٤ بان وليم الثاني وبيلوف كانا « قلقين جدا » لعلاقات بريطانيا الحميمة بفرنسا ٠ وأعطى السفير الفرنسي في لندن ، بول كامبون تفسيرا لهذا القلق عند مقابلته للملك ادورد السابع في ١١ تموز / يوليو فقال : « ان السبب الحقيقي لهذا القلق والذي يبدو بانه الم بوليم لعدة أشهر هو انه لم يكن يتصور مطلقا امكانية تكوين اتفاق انكليزي ـ فرنسي ٠ فقد استمر يراهن على عدم التفاهم الذي كان قائما بين القوتين ، كما عمل على تغذيته وتأجيج عوامل الاختلاف القائمة بينهما ٠ لقد حاول ما باستطاعته لكي يعتبره الاخرون بانه حكم اوربا المطلق والمدافع والضامن للسلام العام ٠ بكلمة أخرى ، كان يتوقع ان يلعب دورا قائدا في العالم ٠ اما الان فهو يرى وبأمتعاض أن هذا الدور قد انتقل منه الى سيادتكم » ٠ شارك ادورد السابع رأي السفير الفرنسي وقال : « نعم ، أنه (الامبراطور الالماني) يجب ان يتكلم الاخرون عنه ؛ أن الاتفاقيات التي تباحثنا فيها من دون مشاركته وبدون ترخيص منه أو مساعدته ، قد صعقته ٠ ولقد جعلته (هذه الاتفاقيات) يشعر بالعزلة »(٨٨) ٠

وهكذا فان هدف السياسة الخارجية الالمانية ، كما ذكر السير كرو

E. Crowe مساعد وكيل وزير الخارجية البريطاني ، هو « اعتباط اي تحالف بين دولتين قد يؤدي بالاضرار بمصالح المانيـا وهيبتها ، واذا اعتقدت بان مثل هذا التحالف قد تم تشكيله ولم يظهر تأيده الفعلي بعد ، فأن المانيا سوف لا تتردد في اتخاذ الخطوات اللازمة التي تعتقـد بانها كافية للقضاء على هذا التحالف »(٨٩) ٠

لقد كان الامبراطور الالماني يحلم بقيادة الحلف الثلاثي الالماني ـ النمساوي ـ الايطـالي والحلف الثنائي الروسي ـ الفرنسـي ، وبذلك تضمن المانيا اوربا بحيث يتحسن وضعها حتى تتمكن من انتزاع السيادة البحرية من (انكلترة الخؤونة) Perfidious Albion ٠ وكان أمله ايضا ان يحاول تحسين علاقات المانيا مع روسيا وكذلك مع فرنسا بحيث تنسى جرحها السابق وتكسب المانيا صداقتها واعجابها وذلك باشغالها في المغرب حتى توجه انظارها عن الالزاس واللورين ٠ واراد الامبراطور الالماني ايضا توثيق علاقة بلده باسبانيا ٠ فبعد ان التجأت الاخيرة الى المانيا طالبة مساعدتها(٩٠) ٠

نصح الامبراطور الالماني اسبانيا الى التوصل الى تفاهم مع فرنسا فيما يتعلق بشمال افريقيا(٩١) ٠ وهكذا وضح طموح الامبراطور الالماني بان يكون امبراطورا للعالم بأجمعه(٩٢) ٠

وعلى كل حال ، فان الامبراطور الالماني وجد في الحرب الروسية ـ اليابانية فرصة لتحقيق هدف المانيا في التحالف مع روسيا الذي سيؤدي الى ضم فرنسا الى هذا الحلف في وقت لاحق ٠ فعندما اندلعت الحرب في الشرق الاقصى ، بقيت فرنسا ، حليفة روسيا على الحياد بسبب محاولات دلكاسيه تحسين علاقات فرنسا مع بريطانيا والتي توجت بالفعل بتوقيع

اتفاقيات الوفاق الودي في نيسان / ابريل عام ١٩٠٤ ولان بنود معاهدة الحلف الفرنسي ـ الروسي لعام ١٨٩٤ لم تشترط على فرنسا ان تساعد حليفتها عسكريا الا اذا تدخلت بريطانيا الى جانب حليفتها اليابان . وبما ان بريطانيا قد اعلنت حالة الحياد عند نشوب حرب بين روسيا واليابان ، لذا بقيت فرنسا على الحياد عند نشوب حرب بين روسيا واليابان ، لذا بقيت فرنسا على الحياد . ولقد سبب وقوف فرنسا المحايد من هذه الحرب وكذلك توصلها الى الوفاق الودي مع بريطانيا استياء روسيا من حليفتها فرنسا . وبدأ الرأي العام الروسي يميل ضد فرنسا . ومع ذلك ، فان روسيا كانت تتوقع ان تساعدها فرنسا ماليا وذلك بتقديم القروض من أجل تغطية نفقات حربها مع اليابان .

لقد كان الوضع المالي في روسيا عند اندلاع الحرب مع اليابان في حالة من الفوضى والارتباك بل ان الحالة الاقتصادية على العموم كانت تعاني من الازمات فالمحاصيل الزراعية لعام ١٩٠٣ لم تكن وفيرة مقارنة بمحاصيل السنوات السابقة . وجابه وزير المالية فلاديميير كوكوفتسوف Vladimir Kokvtsov مشكلة توفير الاموال لتغطية نفقات الحرب. ففي تقريره الذي قدمه الى اللجنة المالية في ١٧ اذار / مارس ١٩٠٤ ، أكد وزير المالية على ضرورة توقيع قروض أجنبية من أجل تعزيز احتياطي روسيا من الذهب لتتمكن الحكومة من زيادة اصدارها من عملة الروبل الورقية ، وكذلك الى توقيع عقود محليـة لمعالجـة التضخم . فالميزانية الروسية لعام ١٩٠٤ قد اوضحت لوزارة المالية الروسية انه يتعذر على روسيا مواصلة الحرب من دون الحصول على قروض أجنبية . فقد بلغ تقدير العوائد بـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٨٠ر٢ مليار روبل ، بينما قدرت النفقات

بـ ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٩٠ر١ مليار روبل أي بفـائض قـدره ٠٠٠ر٠٠٠ر١٨٠ مليون روبل ٠ لذلك كان على روسيا ان تلجأ الى سياسة الاقتراض لمعالجة مستحقات القروض ونفقات الحرب ٠ ومما زاد من الوضع سوءاً هو ان الحكومة الروسية سبق لها ان خصصت أو أنفقت ٠٠٠ر٧٠٠ر٨٠٣ مليون روبل للنفقات الاستثنائية ٠ وبمـا ان الفائض الذي كـان لدى الحكومه الروسية في شهر كانون الثاني / يناير عام ١٩٠٤ قد بلغ ٠٠٠ر٣٠٠ر٣٨١ مليون روبل ، فان العجز في الميزانية الروسية قد بلغ (٣٠٠) مليون روبل اضافة الى المبلغ الواجب دفعه في التعهد السنوي للقروض الاجنبية والذي بلغ (١٨٠) مليون روبل ٠ اي ان العجز كان قد بلغ (٤٨٠) مليون روبل ٠ لذا لم يكن لروسيا من سبيل آخر غير عقد القروض الاجنبية(٩٣) ٠ ولكن هل باستطاعة روسيا ان تحصل على قروض من فرنسا ؟

عندما طلبت روسيا في عام ١٩٠٢ من فرنسا قرضا جديدا ، دخلت الدولتان في مباحثات استمرت حتى عام ١٩٠٤ ، وافقت فرنسا في النهاية على منح روسـيا قرضـا شرط ان يتم استثماره في مد سـكك حـديد استراتيجية تكون موجهة ضد بريطانيا والمانيـا ، وان لا يقـدم الروس طلبا جديدا للحصول على قرض آخر لمدة ثلاثة أعوام ٠ وهكذا كان وضع روسيا محرجا بحلول عام ١٩٠٤ عند اندلاع الحرب مع اليابان ٠ فليس باستطاعتها ان تحصل على قرض من فرنسـا الا بحلول عـام ١٩٠٧ ، وليس بمقدور روسيا ان تحصل على قروض من بريطانيا والمانيا طالما ان السكك الاستراتيجية كانت موجهة ضدهما(٩٤) ٠ لذا لجأ وزير المالية الروسي كوكوفتسوف الى اسلوب التعـامل المباشر مع أصـحاب البنوك الفرنسيين ، الامر الذي أدى الى امتعاض الحكومة الفرنسية التي اصرت

على ان تقوم الحكومة الروسية باعلامها قبل القيام بمفاتحة أصحاب البنوك الفرنسيين • وبعد ان رفض الاخيرون منح روسيا عقدا طويل الاجل قدره مليار فرنك فرنسي ، أو ما يعادل (٣٧٥) مليون روبل بدعوى عدم موافقة حكومتهم على مثل هذه الصفقة ، حذر وزير المالية الروسية بأن بمقدور روسيا ان تحصل على قرض من المانيا ، الا انه الح على ان تقوم فرنسا بمنح روسيا ما تستطيع من القروض • فذكر كوكوفتسوف انه اذا كان ليس باستطاعة فرنسا مساعدة روسيا عسكريا في الحرب مع اليابان ، فانه يجب ان تساعدها ماليا • وعلى الرغم من تلميحات وزير المالية الروسية بانه قد اوصى وزيرا الحرب والبحرية الروسيين بان تقتصر طلباتهم العسكرية من فرنسا فقط ، ظل أصحاب البنوك الفرنسيين على موقفهم السابق وهو منح روسيا قرضا قصير الاجل وبمبلغ (٨٠٠) مليون فرنك ما يعادل (٣٠٠) مليون روبل وبفائدة قدرها ٥٪ • لم يكن موقف الحكومة الفرنسية مؤيدا لموقف أصحاب البنوك الفرنسيين ، ومع ذلك لم يكن بمقدورها ان تعلن عدم موافقتها لتصرف الاخيريين ولاسباب سياسية • الا انها اوضحت موقفها وهو انه اذا نجم عن هذا القرض انخفاض كبير في قيمة الضمانات الروسية أو حدثت تغييرات في سوق باريس المالي فسيتم الغاء الصفقة • وحذرت روسيا ان طلباتها العسكرية من فرنسا غير واضحة لذلك طلبت تحديدها(٩٥) • ومع ذلك فقد تم التوصل الى اتفاقية بشأن القرض في ١٢ مايس / مايو ١٩٠٤ • ولم يف الروس بتعهداتهم بشراء معدات عسكرية من فرنسا • وفي الواقع لم تكن التجارة الفرنسية مع روسيا نشطة • فقيمة ما استوردته من طلباتها من السكك والعدد والتجهيزات العسكرية والبحرية من فرنسا خلال الفترة

١٨٩٤ ـ ١٩٠٤ قد بلغت (٨٦) مليون فرنك مقارنة بـ (٧٣) مليون فرنك قيمة ما استوردته اليابان من فرنسا ٠ ولم تستلم صناعة السفن الفرنسية من روسيا الا طلبا واحدا خلال الفترة ١٨٩٧ - ١٩٠٤ ٠ وان مجموع قيمة ما استوردته روسيا من الصناعات التعدينية الفرنسية خلال العشرين عاما (١٨٨٤ ـ ١٩٠٤) كان بحدود (١٨٠) مليون فرنك ٠ اما صادرات فرنسا الكلية الى روسيا ، فقد كانت أقل بكثير من صادرات المانيا أو بريطانيا الى روسيا خلال الاعوام ١٩٠٢ و١٩٠٣ والجدول الاتي يوضح ذلك :

الدولة	عام ١٩٠٢	عام ١٩٠٣
فرنسا	٠٠٠ر٥٠٠ر٨١ روبل	٠٠٠ر٠٠٠ر١٠٤ روبل
المانيا	٠٠٠ر٥٠٠ر٤٠٦ روبل	٠٠٠ر١٠٠ر٤٦٨ روبل
بريطانيا	٠٠٠ر٠٠٠ر٢٨٩ روبل	٠٠٠ر٠٠٠ر٣٣٠ روبل

وكانت الصادرات الفرنسية الى روسيا تشكل ٢٠٪ من الصادرات الروسية الى فرنسا ٠ وبينما تراوحت نسبة استيراد روسيا من فرنسا الى المجموع الكلي لاستيرادها ٤ ـ ٥٪ ، كانت نسبة استيراد روسيا من المانيا الى المجموع الكلي تتراوح ٤٠ - ٥٠٪ ٠ وهذا أدى الى استياء الحكومة الفرنسية وأصحاب الصناعة الفرنسية الذين قدموا التماسات الى حكومتهم تؤكد « بان الوقت قد حان ٠٠٠ للطلب من روسيا بان تخصص لصناعة التعدين الفرنسية قسما من طلباتها الخارجية » ٠ وتوقع الصناعيون الفرنسيون طلبات روسية قيمتها (٢٠٠) مليون فرنك بسبب الحرب الروسية ـ اليابانية(٩٦) ٠ وبناء على تعليمات حكومة

Emile Combes الفرنسية تكلم السفير الفرنسي في سان بطرسبورغ مع المسؤولين الروسيين حول الموضوع واخذ دلكاسييه الموضوع على عاتقه عندما بدأت المباحثات مع روسيا . وعلى الرغم من ان الاخيرة قد اعترفت بان مجموع قيمة ما استوردته روسيا من فرنسا خلال الاعوام ١٨٨٤ ـ ١٩٠٤ قد بلغت (١٨٠) مليون فرنك ، الا ان روسيا رفضت ان تلزم نفسها بأية تعهدات(٩٧) . وهكذا شهدت العلاقات الفرنسية ـ الروسية توترا الى درجة اصابها التدهور بحلول شهر مايس / مايو عام ١٩٠٤ . فقد اخبر ممثل روسيا المالي في باريس في ٧ مايس / مايو حكومته بان موقف فرنسا لم يتبدل تجاه اليابان « لكنه تبدل نحونا نحو الاسوء »(٩٨) .

شجعت هذه التطورات الامبراطور الالماني ، الذي ايده بيلوف وهولشتاين(٩٩) ، على التقرب من روسيا بهدف اعادة عزل فرنسا من القارة الاوربية مرة أخرى ، وبذلك تحقق المانيا هدفين في آن واحد : القضاء على الحلف الفرنسي ـ الروسي ، وتحييد الوفاق الودي الذي تم التوقيع عليه حديثا بين بريطانيا وفرنسا . ففي آب / اغسطس ١٩٠٤ ارسل الامبراطور الالماني مذكرة الى ممثلي المانيا في الخارج جاء فيها : « ان هذه (الحرب الروسية ـ اليابانية) معركة حاسمة بين المسيحية والبوذية ، بين الغرب المتحضر والشرق شبه المتحضر . انها معركة ... حيث اجتمعت فيها اوربا متحدة كالولايات المتحدة الاوربية تحت القيادة الالمانية للدفاع عن ممتلكاتها العزيزة ، لاننا ملزمين بذلك ... لذا فان تعاطفنا بحق مع روسيا ، وعندما يكون الاسطول (الروسي) في البلطيق جاهزا ومدربا يجب ان يبحر لاخضاع السيادة على البحر

وينتزعها من اليابان ... ان مستقبل روسيا واوربا بصورة غير مباشرة في خطر . انني اعرف بان علينا ان نحارب يوما اليابان وحتى الموت ، وانني اعمل ما بوسعي لتحقيق ذلك . ان الروس سيساعدونا وبالتأكيد فيما بعد في صد اليابان ، ولكن من الافضل لو ان بمقدورهم ان يوجهوا لهم ضربة مميتة »(١٠٠) .

استغلت المانيا تردي العلاقات الفرنسية - الروسية والتي ساهمت فيها عوامل عديدة . فوقوف فرنسا على الحياد خلال الحرب الروسية - اليابانية ، وتردد فرنسا في منح روسيا قرضا جديدا لتغطية نفقات الحرب ، والحملة الشعواء التي شنتها الصحافة الفرنسية ضد روسيا والتي لم تنفع الرشوة التي قدمتها الاخيرة بناء على مشورة المسؤولين الفرنسيين ، الى هذه الصحف من تخفيف حدة هذه الحملة(١٠١) كل هذه العوامل دفعت كلا من روسيا والمانيا الى التقارب من بعضهما . فقد ذكر الملحق الفرنسي في سان بطرسبورغ في حزيران / يونيو ١٩٠٤ بان روسيا تخطط شراء معدات وأسلحة المانية وبخاصة مدافع Krupp وانه لا توجد أية طلبات روسية من فرنسا « لانه ليس في نية وزير الحرب الروسي طلب معدات (فرنسية) لاستخدامها في الحرب » . بل ان الملحق العسكري الروسي في باريس لم يستلم أية تعليمات من حكومته بشأن أية طلبات(١٠٢) . اضافة الى ذلك ذكر دبلوماسيون فرنسيون في برلين وسان بطرسبورغ انباء عن مفاوضات المانية - روسية بشأن التوصل الى معاهدة تجارية جديدة . وذكر السفير الفرنسي في برلين بول بيهورد Paul Bihourd ان المفاوضات أخذت تتعثر بسبب معارضة الروس لبنود المعاهدة المقترحة التي وصفوها بانها « قاسية »(١٠٣) . الا ان

الالمان ، الذين كان هدفهم هو جعل روسيا تعتمد اعتمادا كليا على صادراتها المصنعة(١٠٤) ، استغلوا تردد الفرنسيين في منح الروس القروض اللازمة لتغطية نفقات حربهم مع اليابان ، وكذلك استغلوا ظروف روسيا الداخلية الصعبة وموقفها الحرج في الشرق الاقصى(١٠٥) ، فوعدوا الروس انه في حالة قبولهم لبنود المعاهدة التجارية الجديدة والتوقيع عليها ، فان المانيا ستمنح روسيا قرضا . وكان الروس يعتقدون من جانبهم بان عليهم قبول المعاهدة التجارية التي اعترفوا بانها لصالح المانيا لانهم كانوا يأملون الحصول على تأييد المانيا الدبلوماسي في حربها مع اليابان(١٠٦) . وبذلك تمت الصفقة ، فمقابل قبول روسيا لبنود المعاهدة التجارية وافقت المانيا على منح روسيا قرضا . وبعد ان تم التوقيع على المعاهدة التجارية في ٢٨ تموز / يوليو ١٩٠٤ بدأت المفاوضات لمنح قرض الماني لروسيا(١٠٧) . وقد اثارت هذه الصفقة استياء فرنسا وادت الى تدهور العلاقات الفرنسية ـ الروسية(١٠٨) .

وفي الوقت نفسه وقع Albert Ballin المدير العام لشركة خط ـ هامبورغ امريكا Hamburg — Amerika Line وبتشجيع من الامبراطور الالماني ولكن من دون علم الحكومة الالمانية(١٠٩) ، عقدا مع الحكومة الروسية تتعهد الشركة الالمانية بتزويد الاسطول الروسي في بحر البلطيق الذي يعتزم التوجه الى الشرق الاقصى بكمية من الفحم تقدر بـ (٣٣٨) ألف طن خلال ابحاره من الساحل الشرقي للدانمارك وحتى جنوب شنغهاي . وعندما نشرت Shipping Gazette الصادرة في لندن نص العقد في نشرتها الصادرة في الثاني عشر من ايلول / سبتمبر عام ١٩٠٤ احتجت اليابان وطلبت من المانيا الغاءه . وحاول

بيلوف ، الذي خشي ان تتعرض سفن الوقود التابعة للشركة الالمانية لهجمات السفن الحربية اليابانية ، اجبار الشركة على ايجاد طرق ووسائل من أجل التخلص من هذا العقد ٠ لكن جهود المستشار الالماني باءت بالفشل بسبب العلاقة الحميمة التي كانت تربط مدير الشركة بالامبراطور الالماني ، وبسبب موقف الاخير المؤيد لروسيا(١١٠) ٠ وردا على الاحتجاج الياباني ، فقد اكدت المانيا انه طالما ان العقد هو (خاص وتجاري) ليس من حق الحكومة الالمانية التدخل ٠ وفي الحقيقة ان الامبراطور الالماني كان مهتما بهذا العقد ويدعمه ، لذلك اعطى الاوامر بان لا تتم اعاقة اعمال شركة خط هامبورغ – امريكا » وان تعطى الحرية للقيام بأي عمل تشاء » ، لان هذا العقد وسيلة للتقرب من روسيا ٠ ولو مارست الحكومة الالمانية ضغوطا على الشركة الالمانية واجبرتها على الغاء عقدها مع روسيا ، فان هذا ، وبالتأكيد ، سيؤدي الى استياء روسيا وبالتالي سيحبط خطط ارسال الاسطول الروسي الى الشرق(١١١) ٠ فكان الامبراطور الالماني يهدف من وراء تشجيع روسيا على ارسال اسطولها في بحر البلطيق الى الشرق الاقصى والقضاء عليه في الحرب مع اليابان الى تحقيق هيمنة بحرية المانية في هذا البحر وبدون اي منافس ولعدة سنوات قادمة والى انعاش صناعة السفن الالمانية من خلال طلبات روسيا المقدمة لالمانيا لتشييد سفن حربية تحل محل سفن اسطول بحر البلطيق الذي سيتم تدميره في الحرب مع اليابان(١١٢) ٠ وبذلك سيحصل الامبراطور الالماني على تأييد الصناعيين الالمان في الرايخشتاغ في معالجة تعاظم قوة حزب الاشتراكيين الديمقراطيين في الرايخشتاغ ٠

لقد عملت المانيا بشتى الوسائل تقديم « العون » الى روسيا ٠ فبعد

الهزائم العسكرية التي منيت بها روسيا وبخاصة في شهر آب / اغسطس عام ١٩٠٤ فقد اتخذت المانيا اجراءات عديدة لمساعدة روسيا . فوافقت على رسو السفن الحربية الروسية في ميناء كياوجو الالماني والتزود بالوقود(١١٣) . وعندما احتجت اليابان عبر سفيرها في برلين ضد هذا الاجراء ، عبر الامبراطور الالماني عن غضبه واستيائه ضد الاحتجاج الياباني ، ولمح أيضا باشارات تهديد ضد بريطانيا(١١٤) ، التي كانت قد حذرت المانيا لتقديمها التسهيلات الى روسيا . وقد استغل الامبراطور الالماني هذه الفرصة وأرسل في ١٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٠٤ برقية الى القيصر الروسي هدفها توسيع الهوه بين فرنسا وروسيا واحداث الشقاق بين بريطانيا وفرنسا وبخاصة بعد التحذير البريطاني لالمانيا . فقد طلب وليم الثاني من نيقولا الثاني « ان تذكر حليفكم بالالتزامات التي تعهدت تجاهكم في معاهدة الحلف الثنائي » . وكذلك أراد وليم الثاني تعميق الخلافات بين بريطانيا وروسيا . فقد اخبر الامبراطور الالماني القيصر الروسي ان بريطانيا قد زودت السفن الحربية اليابانية بالفحم منذ اندلاع الحرب الروسية — اليابانية ، وقامت أيضا ببيع (٣٠) ثلاثين سفينة بخارية(١١٥) ، وطلبت سفنا حربية من بريطانيا(١١٦) .

اضافة الى ذلك حاولت المانيا التأثير في سياسة روسيا البحرية خلال الحرب من خلال الامبراطور الالماني وكذلك الملحق الالماني في العاصمة الروسية . فقد نصح الامبراطور الالماني القيصر الروسي في الثامن من تشرين الاول / اكتوبر ١٩٠٤ بان يقوم الاسطول الروسي المحاصر في بورت ارثر بالهجوم على الاسطول الياباني والقضاء عليه قبل وصول اسطول بحر البلطيق وبذلك « يمهد الطريق الى نجاح مظفر

لاسطول بحر البلطيق ٠٠٠ ويتمكن من تحقيق انتصار سهل على عـدو متضرر غير قادر على اصلاح سفنه أو بناء سفن جديدة ٠ وبذلك تعـود السيادة البحرية اليكم وتصبح القوات البرية اليابانية تحت رحمتكم » ٠ واوصى وليم الثاني بان تقوم روسيا بشراء سفن حربية من المانيا « لكي يكون لديك خلال سنة أو سنتين وفي خلال مفاوضات السلام احتياطي لفـرض شروطكم وان يجعلـكم مستقلين عـن التدخل الاجنبي »(١١٧) ٠ وعنـدما طلب بيلوف من تيربتز وزير البحـرية في ١٩ ايلول / سبتمبر ارسال تعليمات الى الملحق البحري الالماني في سان بطرسبورغ يطلب منه ان ينصح الروس باخراج سفنهم الحربية من بورت ارثر ، وجد ان وزير البحرية قد سبقه في ذلك ٠ لكن الاخير وجـد ان الملحق البحري الالماني كان قد اسدى النصيحة للروس ٠ ويبدو ان الملحق البحري الالماني قـد قام بهذا العمل بناء على أوامر من الامبراطور الالماني الذي كان يتدخل في شؤون البحرية الالمانية باعتباره القائد العسكري العام الذي له علاقات مباشرة وشخصية مع الضباط والملحقين البحريين الالمان في الخارج(١١٨)٠

وعندما قام الامير هنري شقيق الامبراطور الالماني بزيارة الى روسيا في شهر آب / اغسطس طلب القيصـر الروسي من الامبراطور الالماني ان يقوم الاسطول الالماني بحماية الاسطول الروسي الذي ستقوم شركة خط هامبورغ ـ امريكا بتزويده بالفحم حتى الشرق الاقصى ، ضـد هجمات الطوربيدات اليابانية في بحر البلطيق وبحـر الشـمال ٠ ومن دون ان يستشير وزارة الخارجية امر الامبراطور الالماني وزارة البحرية ووزارة الداخلية في البحث عن يابانيين مشتبه بهم ٠ فتم وضع الموانيء ووحدات البحرية الالمانية في حالة من اليقظة والتأهب ، وبدأت الدوريات البحرية

بمراقبة المياه(١١٩) • من جهة أخرى قامت المانيا بتزويد ثلثي احتياجات روسيا من المعدات العسكرية منذ اندلاع الحرب الروسية ـ اليابانية(١٢٠)

وهكـذا ظهر التقارب الالمـاني ـ الروسي للمراقبين ، وبخاصـة البريطانيين ، وكان اتفاقية سرية تم التوصل اليها بين روسيا والمانيا بشأن الشرق الاقصى كما ادعت جريدة التايمس اللندنية في عددها الصادر يوم ١٤ ايلول / سبتمبر • بل ان بعض المسؤولين البريطانيين اعتقدوا « وجود تفاهم وثيق بين روسيا والمانيا »(١٢١) •

وعملت المانيا في الوقت نفسه على تحريض روسيا ضد بريطانيا • فقد اخبر الامبراطور الالماني القيصر الروسي بان بريطانيا قـد هددت بالتدخل الى جانب اليابان في حالة تقـديم المانيـا أية مسـاعدة لروسيا كتزويد اسطولها المتوجه الى الشرق الاقصى بالوقود • واخبر وليم الثاني نيقـولا الثـاني ايضـا بان بريطانيـا تسـتعد لارسـال حملـة الى افغانستـان(١٢٢) • وحذر الامبراطور الالماني قيصر روسيا بان يكـون الاسطول الروسي الذي ترك بحر البلطيق الذي يريد عبور بحر الشمال في طريقه الى الشرق الاقصى حذرا من وجود قوارب مجهولة الهوية ضمن قوارب صيد الاسماك البريطانية المتواجدة بالقرب من ميناء هل Hull الانكليـزي(١٢٣) • وان عمـلاء لليابان قـد زرعـوا الغـاما في بحـر الشمال(١٢٤) • وفي ليلة ٢١ تشرين الاول / اكتوبر وبينما كان الاسطول الروسي يعبر منطقة Dogger Bank في بحر الشمال ظن الاسطول الروسي (القليل التجربة) بأن قوارب صيد الاسماك البريطانية طوربيدات يابانية ففتح عليها النار خطأ مما ادى الى اغراق سفينتين واصابة سفينتين اخريين بأضرار وقتل سبعة صيادين بريطانيين • وقد نجم عن هذا الحادث

ازدياد الشعور المادي ضد روسيا في بريطانيا ووصل التوتر بين الدولتين الى درجة بدت الحرب وشيكة(١٢٥) ۰ ولم يقتصر التوتر بين روسيا وبريطانيا ووصل التوتر بين الدولتين الى درجة بدت الحرب وبريطانيا فحسب بل شمل كافة اوربا ۰ فبموجب بنود الحلف الفرنسي - الروسي ، فان على فرنسا ان تساعد روسيا في حالة نشوب حرب روسية - بريطانية ۰ وان المانيا اصبحت « متورطه » في مساعدة روسيا ، بل ازداد الاعتقاد بان المانيا هي حليفة روسيا ۰ ففي حالة قيام بريطانيا بمهاجمة روسيا فانها قد تهاجم المانيا وبذلك تنتهز هذه الفرصة للتخلص من المنافسة التجارية والبحرية الالمانية ۰ من جهة أخرى وجدت المانيا نفسها مهددة في الدخول في حرب لاجل روسيا التي لم تعد المانيا بشيء بعد ۰ ومع ذلك فان قادة المانيا وبخاصة الامبراطور ومستشاره ، اعتقدوا بان عليهم ان يحاولوا التوصل الى حلف مع روسيا ۰ فأغتنم الامبراطور الالماني فرصة التقارب بين روسيا والمانيا وبعث للقيصر الروسي برقية « شخصية » في ١٤ تشرين الاول / اكتوبر عام ١٩٠٤ اوضح فيها « بان الصحافة الانكليزية استمرت ولفترة من الوقت تهدد المانيا بسبب السماح بارسال الفحم الى اسطول البلطيق الذي هو الان في طريقه (الى الشرق الاقصى) ۰ وانه ليس من المستبعد ان تقوم الحكومة اليابانية والبريطانية بالاحتجاج معا ضد تزويدنا لسفنكم بالفحم ۰ وان الغاية من وراء مثل هذا التهديد في الدخول في حرب (الى جانب حليفتها اليابان) ستكون انزال الشلل التام باسطولكم البحري والعجز عن تحقيق غايته بسبب حاجته الى الوقود ۰ وانه يجب مواجهة هذا الخطر الجديد بالاتفاق بين روسيا والمانيا معا .

ويجب تذكير حليفتكم فرنسا بالتزاماتها التي تعهدت بها بموجب معاهدة الحلف الثنائي معكم .. وانه من المستحيل ان تحاول فرنسا التهرب من واجبها الواضح تجاه حليفتها عند دعوتها . (وان) دلكاسيه ... يدرك بان الاسطول البحري البريطاني ليس باستطاعته مطلقا ان يحمي باريس . وبهذا الاسلوب ، سيتم تشكيل تجمع من أقوى ثلاثة قوى اوربية ، وبذلك سيهاجم التجمع الانكليزي ـ الياباني الذي سيفكر مرتين قبل الاقدام على عمل ما » . وأخير وليم الثاني نيقولا الثاني ان مجموعة شركات ايطالية تطلق على نفسها The Terni Shipbuilding Trust تقوم بتشييد ثلاثة سفن حربية مدرعة زنة كل واحدة منها (١٢) الف طن الى اليابان . لذلك كرر الامبراطور الالماني لزميله الروسي اقتراحه السابق بوجوب قيام روسيا طلب سفن حربية جديدة تكون جاهزة وقت انتهاء حربها مع اليابان « وان شركاتنا الخاصة ستكون سعيدة جدا باستلام العقود »(١٢٦) . وعندما استلم القيصر الروسي برقية الامبراطور الالماني كان استياءه ضد البريطانيين كبيرا بحيث ذكر لوليم الثاني « بانه ليس لدى الكلمات لاعبر فيها عن سخطي لسلوك انكلترة » في الحادثة التي وقعت في بحر الشمال . وعلى الرغم ان نيقولا الثاني اقترح على بريطانيا تشكيل لجنة دولية للتقصي عن هذه الحادثة الا انه اخبر الامبراطور الالماني في ١٦ تشرين الاول / أكتوبر ١٩٠٤ « بانني اتفق تماما مع تذمرك من سلوك انكلترة حول قيام السفن الالمانية بتزويد سفننا بالوقود ، بينما تفهم هي (بريطانيا) وحسب طريقتها الخاصة اسس الوقوف على الحياد . وبالتأكيد فان الوقت مناسب لوضع حد لمثل هذا السلوك . وان الطريق الوحيد ، وكما تقول ، هو بضرورة توصل

المانيا وروسيا وفرنسا الى اتفاق لوضع ترتيب يهدف الى القضاء على التكبر والغطرسة الانكليزية ــ اليابانيــة • فهــل ترغب في صياغــة الخطــوط الرئيسة لمثل هذه المعاهدة وتخبرني ؟ وحالما نوافق عليهــا فان فرنســا ستكون ملزمة بالانضمام الى حليفتها • ان مثل هذا التجمع كان يدور في خلدي ، وانه يعني السلام والامن للعالم »(١٢٧) • رد الامبراطور الالماني : « اننا نعرف بان المتطرفين والجماعات المناهضة للمسيحية (في فرنسا) والتي هي الان قوية ، تميل الى انكلترة ••• ولكنها تعارض الحرب ••• وتكن الجماعة القومية والدينية الكراهية لانكلترة وتتعاطف مع روسيا الا انها لا تريد التدخل الى جانب روســيا في الحــرب الدائرة • وتقف الحكومة الجمهورية على الحياد بين هاتين الجماعتين وسوف لا تقدم على اي عمــل • وتعتمــد انكلترة على هذا الحياد وعلى ما سينجم لروسيا من عزلة • وحتى نطمئــن هؤلاء الجمهوريين فقــد اعطت انكلترة المغرب الى فرنسا • وان الدافع وراء السياسة الانكليزية في اعطاء هــذا التأكيــد الصارم هو حصولها على تأكيد مطلق يضمن بقاء فرنسا على الحياد ويضمن اعطاء تأييدها الدبلوماسي لانكلترة • ان هذا الوضع غير المعلن سيتغير نحو الاحسن حالما تجد فرنسا نفسها وجها لوجه امام ضرورة الاختيــار والاعلان صراحــة بالانضمام اما الى سان بطرسبورغ أو لندن »(١٢٨) • وفيما يخص مسودة معاهدة الحلف الالماني ــ الروسي والتي صاغ بنودها بيلوف ووافق عليها الامبراطور الالماني ، فقــد تضمنت ان تدخل حيــز التنفيذ خلال الحرب الروسية ــ اليابانية وانه اذا تعرض أحــد أطراف الحلف الى هجوم من قبل دولة اوربية فان الطرف الاخر يساعد حليفــه وان على روسيا والمانيا العمل معا عند الحاجة لتذكير فرنسا بواجباتها

التي التزمت بها في معاهـدة الحلف الفرنسي – الروسي • واقترح وليم الثاني على نيقولا الثاني أيضا التوصل الى اتفاقية دائمية بشأن تزويد اسطول روسيا المتوجه نحو الشرق الاقصى بالفحم • وعلى الرغـم من ان الامبراطور الالماني كان يدرك ان فرنسا سوف لا ترحب بهذه المعاهدة الا انه اعتقد انه عندما يتم توقيعها من قبل روسيا والمانيا فان فرنسا ستجد نفسها مضطرة لان تقرر وبسـرعة اما الانضمام الى هـذه المعاهدة ضـد بريطانيا أو انهاء الحلف الفرنسي – الروسي وبالتالي مواجهة المانيا في المستقبل القريب(١٢٩) • وان فرنسا ستدرك أيضا بانه ليس بمقدورها الوقوف على الحياد في حالة نشوب حرب روسية – بريطانية ولذا فانهـا ستمارس ضغوطا كبيرة على بريطانيا قـد تؤدي الى القضاء على الوفاق الودي(١٣٠) •

وحاول وليم الثاني اثارة غضب نيقولا الثاني ضد بريطانيا وفرنسا، واثارة حماسته ورفع معنويات روسيا بعد الهزائم التي منيت بهـا على يد اليابان حتى تحارب الى النهاية • ففي ١٩ تشرين الاول / اكتوبر ذكـر الامبراطور الالماني للقيصر الروسي بان السفير الياباني في سان بطرسبورغ Kurino موجود في باريس لاقناع فرنسا وبريطانيا بالقيام بدور الوساطة لانهـاء الحـرب الروسية ـ اليابانيـة لصالح اليابان • وعلل الامبراطور الالماني التحرك الياباني بانه دلالة عجز اليابانيين عن مواصلة الحرب وانهم يحاولون انهاء الحرب على امل الحصول على منشوريا خلال مفاوضات السلام مع روسيا التي ستجري بعـد ايقـاف الحرب « وانني اعتقد انه من واجبي اخباركم ••• بما يجري وراء الكواليس »(١٣١) • وعلى الرغم ان القيصر الروسي كان يدرك غاية الامبراطور الالماني في زرع

الشقاق بين روسيا وفرنسا وبريطانيا ، فانه أكد له بان « روسيا ستخوض هذه الحرب حتى النهاية الى ان يتم طرد آخر ياباني من منشوريا وبعد ذلك يمكن التحدث عن مفاوضات السلام وعلى ان تكون بين الطرفين المتحاربين فقط »(١٣٢) . وابدى الامبراطور الالماني امتعاضه من موقف القيصر الروسي باحالة حادثة بحر الشمال الى المحكمة الدولية . فأكد للقيصر الروسي في الثلاثين من تشرين الاول / اكتوبر بان سمع من « مصدر خاص » بان صياوي الاسماك البريطانيين قد اعترفوا بوجود قارب بخاري مجهول الهوية ضمن قوارب الصيد العائدة لهم(١٣٣) . ثم اخبر القيصر الروسي في ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر بانه علم من « مصدر موثوق في الهند » بان بريطانيا تستعد الى ارسال حملة عسكرية الى افغانستان لوضعها تحت السيادة البريطانية . وأكد وليم الثاني ما ذكره سابقا بان اليابانيين بدوا يشعرون بالتعب والملل من الحرب ، وان خسائرهم في بورت ارثر كانت خمسين الف قتيل . لذلك طلبوا من فرنسا وبريطانيا التوسط لانهاء الحرب والحصول على منشوريا وبورت ارثر ، وان هاتين الدولتين اوعزتا لصحافتهما ترويج فكرة الوساطة(١٣٤) . وبعد أيام اوضح وليم الثاني خطة الوساطة المزمع تبنيها من قبل فرنسا وبريطانيا . فذكر للقيصر الروسي ان لانسداون وزير خارجية بريطانيا قد طلب من اليابانيين ان يطلبوا من بريطانيا ان تقوم بعملية الوساطة وان يحددوا أيضا الشروط التي يجب على روسيا ان تقبلها من أجل انهاء الحرب . وقد ارسلت اليابان شروطها التي اعتبرها لانسداون قاسية ، فطلب تخفيفها . وذكر الامبراطور الالماني بان وزير خارجية بريطانيا قد أكد لليابانيين بانه يجب ابعاد روسيا من منشوريا وكوريا واعطائها

لليابان ، وانه تم اخبار فرنسا بهذه الخطط . واوضح وليم الثاني لنيقولا الثاني « بانهم سيقدمون لكم جزءا من بلاد فارس كتعويض ، ومن الطبيعي ان يكون بعيدا عن ساحل الخليج (العربي) ... الذي تريد انكلترة ضمه لنفسها ، لانها تخاف ان تحصلوا على منفذ في المياه الدافئة ، الذي يجب ان تحصلوا عليه لانه حقكم ، لان بلاد فارس على وشك السقوط تحت سيطرة الحكومة الروسية . وسيمنحكم هذا منفذا تجاريا عظيما لذلك تعمل انكلترة على منعكم من ذلك . وربما قد اخبركم دبلوماسيوكم بهذه المعلومات قبلي ، ولكن ، ومع ذلك فانني ارى انه من واجبي اخباركم بكل ما اعرفه من اخبار خطيرة وجديرة بالتصديق وانها من مصادر موثوقة تماما » . واختتم الامبراطور الالماني برقيته قائلا : « وهكذا ، فانكم ترون بان مستقبل جيشكم مشرق وسوف تتمكنون من تغيير النتيجة ضد العدو (اليابان) . وادعوا الله ان يكلل جهودكم بالانتصار التام . بينما سأستمر أنا في مراقبة كل شيء لصالحكم »(١٣٥) . وتأكيدا على الصداقة الالمانية لروسيا ، اقترح الامبراطور الالماني القيام بمظاهرة روسية ـ المانية مشتركة على الحدود الافغانية ـ الروسية(١٣٦) .

وعلى كل حال ، فقد جرت في شهر تشرين الثاني/نوفمبر مفاوضات بين المانيا وروسيا وتم تبادل مسودة معاهدة التحالف بعد ان اقترحت روسيا اجراء عدة تعديلات عليها والتي وافقت المانيا على ادخالها(١٣٧) . الا ان « المباحثات » وصلت الى طريق مسدود . فقد اراد الالمان توقيع معاهدة التحالف والدفاع مع روسيا ليجبروا فرنسا بالتالي الى الانضمام الى هذا الحلف . في حين اعلن الروس عن استعدادهم التوقيع على المعاهدة شرط اخبار فرنسا بذلك والطلب منها الانضمام اليها(١٣٨) . فقد اخبر

نيقولا الثاني وليم الثاني في ٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر انه طالما ان معاهدة التحالف لم يتم التوقيع عليها فانه يمكن ادخال بعض التعديلات الطفيفة عليها » في حين انه اذا صادقنا عليها فان هـذا يبدو وكأننا نحاول ان نفرض المعاهدة على فرنسا . والفشل في مثل هسه الحالة سيكون سهلا .. لهذا السبب اطلب موافقتكم باخبار الحكـومة الفرنسية بهـذا المشروع وسوف اعلمكم برقيا حال حصولي على ردها »(١٣٩) . ان موقف القيصر الروسي هذا يعني « رفض صريح لاية فكرة للتوصل الى تسوية من دون معرفة فرنسا المسبقة »(١٤٠) . ويرجـع التغيير الذي طـرأ على الموقف الروسي الى عاملين الاول ، ان القيصر الروسي جـابه معارضـة وزرائه وبخاصة لامسدورف ، الذين يعرفون كيف يقنعون قيصرهم فأوضحوا لـه ان يكون حذرا في تعامله مع فرنسا وان لا يضعها في هذا الموقف خشية ان تتصـرف بسلوك ليس في صالح روسـيا كأن تضعف روابط الحلف الفرنسي ـ الروسي او ان توثق علاقتها مع بريطانيا ، عدوة روسيا(١٤١) . والثاني ان التوتر الذي كان قائما بين روسيا وبريطانيا والذي وصل الى درجة اعلان الحرب بين الدولتين قد زال . فلم تنشب الحرب بسبب حادثة اطلاق النـار على قوارب الصيد البريطانية لان الدولتين لم تكـن راغبتين في الدخول في حرب ، بل انهما اتفقتا الى الاحتكام الى محكمة العدل الدولية لتسوية الموضوع(١٤٢) . واعلنت روسـيا انهـا ستنزل العقاب بضباط الاسطول الروسي الذين اطلقـوا النـار اذا ثبت تقصيرهم . امتعض الامبراطور الالماني من موقف روسيا هذا ، وعبر عن دهشته . فقد همش على رسالة السفير الالماني في لندن والمرسلة الى وزارة الخارجية الالمانية بما يلي :

« يا للخــزي ! لا يمكن لاحــد ان يسمح للاجانب بمحاكمة ضباطه الذين قاموا بعمل أثناء تأديتهم الواجب المناط بهم »(١٤٣) • اما فيمـا يتعلق بموقف القيصر الروسي من معاهدة الحلف الالماني ـ الروسي ، فقد كانت قناعة الامبراطور الالماني « الراسخة » هي « ان اخبار فرنسا بالمعاهدة قبل التوقيع عليها عملية خطـرة جـدا وان نتائجها تعـارض رغباتنا » • وانه في حالة التوقيع على هذه المعاهدة « التي تلزم كل طرف تقديم المساعدة المتبادلة ســوف تجبر فرنســا على الضغط على انكلترة لتلتزم الهدوء وان تحافظ على السلام خوفا من الحـاق الخطـر بمكانة فرنسا • ولكن اذا علمت فرنسا ان المعاهدة الروسية ـ الالمانية هي قيد الشروع ، وان التوقيع عليها لم يتم بعد ، فانها ستخبر ذلك وبسرعـة صديقتها (ان لم تكن حليفتها السرية) انكلترة والتي ترتبط معها بوفاق ودي وان نتيجة هذا الاخبار سيكون بدون شك هجوما سريعا من قبـل القوتين المتحالفتين انكلترة واليابان على المانيا في أوربا وكذلك في اسيا • وان سيطرتهم البحرية المطلقة سوف تعمل على تحجيم عمـل اسطولي الصغير ، وسيؤدي الى شل المانيا مؤقتـا • وان هـذا سيؤدي الى قلب معادلة التوازن في العالم في غير صالحنا • وبالتالي فانه عنـدما تبدأون مفاوضات الســلام فستجدون انفســكم وحيـدين وتحت رحمـة اليابان وأصدقائها القريبين والمبتهجين • انها رغبتي الخاصة ••• في الحفاظ وفي تعزيز معادلة التوازن العالمي المهددة بالخطـر من خلال اتفاقيـة بين روسيا والمانيا وفرنسا • ويمكن تحقيق ذلك فقط اذا أصبحت معاهدتنا حقيقية واذا توصلنا الى اتفاق بأي شكل كان • ان اخبار فرنسا مسبقا سيؤدي الى كارثة • ومع ذلك ، فاذا اعتقدت انه من المتعذر التوصل الى

معاهدة معنا من دون استحصال موافقة فرنسا المسبقة فان الخيار الامن هو عدم التوصل الى أية معاهدة مطلقـا ••• وستبقى علاقاتنا وشعورنا المتبادل كالسابق ، وسوف استمر في محاولتي ان أقدم لكم ما ينفعكم •• »
وهكذا توضح موقف الامبراطور الالماني : اما التوصل الى معاهدة سريه أو لا شيء(١٤٤) • ومهما يكن ، فان القيصر الروسي أكـد للامبراطور الالماني في السابع من كانون الاول / ديسمبر عام ١٩٠٤ موقفه السابق والصريح من معاهدة الحلف المقترحة وهو انه سوف لا يوقع المعاهدة ما لم تعرض على فرنسا ، حليفته لـمدة عشـرة أعـوام(١٤٥) ويتم استحصال موافقتها • وازاء الاصرار الروسي هذا اخبر وليم الثاني نيقولا الثاني في الحادي والعشرين من كانون الاول / ديسمبر انه بسبب الموقف الروسي فانه من الافضل الاكتفاء بتوقيع اتفاقية المساعدة المتبادلة التي تنص على وقوف المانيا وروسيا جنبا الى جنب في حالة اندلاع حرب مع بريطانيـا كنتيجة لقيام المانيا بتزويد الاسطول الروسي في البلطيق بالوقود وهو في طريقه الى الشرق الاقصى(١٤٦) • وهكـذا بات محـاولة الامبراطور الالماني بفصل روسيا عن فرنسا بهدف القضاء على الخلف الفرنسي ـ الروسي بالفشل والتي هي « الاخفاق الشخصي الاول في حياتى وأمل ان لا يكون الاول في سلسلة من تجارب مماثلة »(١٤٧) •

ويبدو ان القيصر الالماني ومستشاره قد وقعوا في خطأ عند تقييمهم لطبيعة العلاقات الفرنسية ـ الروسية وانعكاساتها على المانيـا ، فلـم يفترض هؤلاء ان بنود الحلف الفرنسي ـ الروسي ، والتي لم يطلعوا عليها ، كانت موجهة ضد المانيا • اضافة الى ذلك فانهم كانوا يعتقدون بامكانية اقامة علاقات ودية بين المانيا وروسيا لانهم كانوا يتصورون بان

روابط الحلف الفرنسي – الروسي ضعيفة جدا بل ان اسباب تكوين هذا الحلف قد زالت · لذلك فعندما اقترحوا معاهدة الحلف مع روسيا كانوا يأملون انه اذا أصبحت فرنسا عضوا فيه فبذلك يتم تشكيل عصبة قارية ضد بريطانيا ، واذا رفضت فان هذا سيؤدي الى حل الحلف الفرنسي – الروسي · ففي حالة موافقة فرنسا على الانضمام الى معاهدة الحلف المقترحة ، فان هذا سيدعم سياسة المانيا العالمية وسيتم تشجيع الروس ضد البريطانيين في الهند ، وستلعب فرنسا دورا في اوربا حيث سيتحمل اسطولها عبئا كبيرا في المياه الاوربية · ولو جاءت المانيا لمساعدة روسيا في محنتها هذه ، لربما رحبت روسيا بمعاهدة الحلف · وهكذا وبعد ان وجدت روسيا نفسها عاجزة عن الدخول في نزاع مع بريطانيا ، قبلت الاقتراح البريطاني على عرض حادثة بحر الشمال الى الاحتكام الدولي ، وادعت بانها هي صاحبه الاقتراح هذا وليس بريطانيا من أجل رفع سمعتها وهيبتها · اضافة الى ذلك انه ليس من مصلحة روسيا رؤية تقارب فرنسي – ألماني · فطالما بقى النزاع بين فرنسا والمانيا بسبب الالزاس واللورين ، فان هذا يؤمن لروسيا حدودها الغربية مع المانيا ، اضافة الى تدفق القروض الفرنسية · علاوة على ذلك · ان غاية روسيا في ضم فرنسا الى معاهدة الحلف مع المانيا هو احياء التعاون الالماني – الفرنسي – الروسي لعام ١٨٩٥ والذي شهدته منطقة الشرق الاقصى · لذا كانت الاهداف الروسية والالمانية بشأن توقيع الحلف متضاربة · فقد ارادت روسيا تقوية موقفها في الشرق الاقصى دون ان تتسيد المانيا على اوربا ، وارادت المانيا ان تنعم في أمن في اوربا من دون التورط في الشرق الاقصى(١٤٨) · وبفشل المانيا التوصل الى معاهدة حلف مع

روسيا في عام ١٩٠٤ تلاشت والى الابد امكانية تحقيق هيمنة المانية على اوربا بالطرق السلمية(١٤٩) ٠

ولم يكن جميع المسؤولين الالمان يؤيدون الاجراء الفردي الذي قام به الامبراطور والمستشار الالماني للتوصل الى معاهدة حلف مع روسيا ٠ فبدأ هؤلاء يتساءلون عن قيمة هذا الحلف وما ستفعله روسيا من أجل المانيا وضد من ٠ ففي الاجتماع الذي دعا اليه بيلوف جميع المستشاريين والعسكريين تمت مناقشة الموضوع من أجل التوصل الى سياسة موحدة وحضر الاجتماع تيربتز الذي كان يبدي معارضته لمشروع الحلف مع روسيا(١٥٠) ٠ لان مثل هذا الحلف سيزيد من مخاطر قيام بريطانيا بشن هجوم على الاسطول البحري الالماني الذي لا زال ضعيفا بالمقارنة مع الاسطول البريطاني(١٥١) ٠ ولم يكن وزير البحرية الالماني الوحيد الذي عارض معاهدة الحلف مع روسيا فقد عارضها كل من وزير الخارجية البارون اوزولد ريجتوفن Baron Oswald von Richthofen ورئيس أركان الجيش الكونت الفريد فون شليفن A. von Schlieffen ولقد ترك تيربتز الاجتماع قلقا ٠ وفي اليوم التالي كتب الى وزير الخارجية يحثه فيه الى العمل من أجل افشال محاولة التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا ٠ فيقول : « وكما قلت أمس ، ان الحلف مع روسيا ليس له أية قيمة عسكرية في حالة حدوث حرب في البحر فحسب بل ، وعلى ما اعتقد ، حتى في حالة حرب برية ، فان قيمته ضئيلة ٠ وحتى في أحسن الاحوال وعندما يقرر الروس اعطاءنا عدة فيالق عسكرية ضد فرنسا فانه يبدو لي بان قيمة (١٠٠) أو (٢٠٠) الف جندي في حرب يتقابل بها ملايين الجنود تكون ضئيلة وربما لا تساوي الصعوبات التي تواجهنا عند اداء

أجهزتنا العسكرية والتي هي النتيجة الحتمية للفيالق الروسية · وأخيرا دعونا ننظر الى الموضوع من ناحية حاجتنا الاتية الماسة · نفترض ان تقوم انكلترة بشن هجوم علينا ، ثم تقرر روسيا ان تدخـل الى جانبنـا فان الحلف بين روسيا وفرنسا والموجه ضدنا سيعيق أي قرار تتخذه ضد فرنسا بينما سوف لا تكـون للمساعدة الروسية أية نتيجة ··· واذا اعلن الحلف (بين المانيا وروسيا) فان الرأي العام البريطاني باجمعـه سينقلب ضدنا ··· »(١٥٢) ·

وهكذا يتضح الاختلاف الكبير بين وجهات النظر فيما يتعلق بمعاهدة الحلف الالماني – الروسي فقادة صنوف الجيش البرية والبحرية رفضوا قبول المعاهدة لاعتبارات عسكرية ، بينما أيد هولشتاين كلا من الامبراطور الالماني ومستشاره اللذين عملا ما بوسعهما من أجل توقيع هذه المعاهدة مع روسيا ، لاعتبارات سياسية هدفها اضعاف النفوذ الروسي في اوربا ، عن طريق القضاء على الحلف الفرنسي – الروسي أو تحييده ، أو تأييد الوجود الروسي في الشرق الاقصى كمنطقة حاجزه buffer بين النفوذ البريطاني والياباني والامريكي في الصين(١٥٣) ·

وعلى كل حال ، فلـم يحدث الصـراع بين بريطانيا وروسيا الذي انتظره الالمان طويلا · فلم يكن البريطانيون أو الروس تواقيين الى هذا الصراع · فالشعور المعادي لروسيا في بريطانيا أصبح الان ضد المانيا · فساد الاعتقاد في بريطانيا بأن المانيا تعمل جاهدة من أجل توريط بريطانيا في حرب مع روسيا وبخاصة بعد ان اتهمت Vanity Fair الصادرة في ١٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٤ و Army and Navy Gazette الصادرة في ١٢ تشرين الثاني / نوفمبر المانيا بانها تقف وراء حادثة بحر

الشمال(١٥٤) . وحرضت هذه المجلات على قيام بريطانيا بشن حرب وقائية ضد المانيا ، قبل ان يشكل تنامي الاسطول الالماني تهديدا لبريطانيا(١٥٥) . واتهم اللورد فيشر J. Fisher قائد البحرية البريطانية المانيا بانها تقف وراء الحادثة « وان الامبراطور الالماني يخطط كل ما يعرفه من أجل خلق حرب بيننا وبين روسيا »(١٥٦) . من جهة أخرى اخبر سفير المانيا في لندن المستشار الالماني بان البريطانيين يعتبرون المانيا عدوهم الحقيقي وانهم يعتقدون بان المانيا ستشن هجوما على بريطانيا عندما يصبح الاسطول البحري الالماني قويا وضخما . وذكر السفير لبيلوف بان البريطانيين يعتقدون أيضا بان المانيا « قد اعطت اشارات ... الى الحكومة الروسية حول المخاطر التي تهدد الاسطول الروسي عند خروجه من بحر البلطيق ... لكي يندلع صراع انكليزي — روسي »(١٥٧) وبدأ الرأي العام البريطاني يطالب بايقاف المانيا عند حدها ، وان يتم وضع حد لبرنامج التسليح البحري الالماني لان المانيا تنوي محاربة بريطانيا في المستقبل(١٥٨) . وخيم على القارة الاوربية في شتاء ١٩٠٤ — ١٩٠٥ شبح اندلاع حرب بين بريطانيا والمانيا . واتخذت بريطانيا استعدادات تهدف الى توزيع اسطولها البحري تحسبا لتدهور العلاقات مع المانيا(١٥٩) بل ان البحرية البريطانية درست امكانية القيام بعمل ضد الاسطول البحري الالماني على غرار عملية كوبنهاغن لعام ١٨٠٧ عندما وجه الاسطول البريطاني ضربة قاصمة للاسطول الدانماركي الذي كان راسيا في كوبنهاغن(١٦٠) .

اما في المانيا ، فان الامبراطور الالماني ، الذي أخذ يكن الكراهية والحقد لبريطانيا(١٦١) ، فقد عاش أياما قلقة . فكان يرى بان الحرب

ستنشب « هذا المساء ، أو الليلة ، أو فجر غد »(١٦٢) • واعرب قادة البحرية الالمانية عن مخاوفهم من قيام بريطانيا بشن هجوم بحري ضد المانيا • ووضعت المانيا الخطط الحربية الكفيلة لمواجهة مثل هذا الهجوم(١٦٣) • وعلى الرغم من ان شبح الحرب بين بريطانيا والمانيا قد زال ، الا ان المستشار الالماني حذر السفير البريطاني في برلين انه اذا أصبح هدف تحقيق علاقات ودية بين بريطانيا والمانيا متعذرا فان المانيا « ستضطر بحكم الظروف الى اتخاذ جانب روسيا »(١٦٤) • وفي الواقع ان هذا مجرد تهديد • فالقصير الالماني ومستشاره كانا يدركان جيدا ان السبب الرئيس وراء عدم حماستهما المؤقتة في التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا هو قناعتهما بان مسودة المعاهدة المقترحة ستصل الى بريطانيا عن طريق فرنسا ، وبالتالي فان هذه المعاهدة ستعمل على ازدياد الخصومة بين بريطانيا والمانيا • وكتب بيلوف الى هولشتاين في ١٣ كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٤ « ان النقطة الحاسمة دائما هي فيما اذا كان التوصل الى اتفاقية أو حلف أو أي نوع من المعاهدات مع روسيا سيقلل أو سيزيد من المخاطر التي تهددنا من جانب انكلترة ••• بينما الاتفاقية مع روسيا والتي تضمن السلام وترفع مكانتنا في العالم ستكون بمثابة نجاح عظيم لسياستنا الخارجية وسيتم الترحيب بها في جميع الدوائر وبصورة واسعة كعودة للسياسة البسماركية التقليدية ، فان أي علاقة مع روسيا والتي ستؤدي ••• الى جلب خصومة انكلترة لنا ستشجبه وبالتأكيد الامة بأكملها ••• »(١٦٥) ومع ان بيلوف كان يؤيد الامبراطور الالماني في التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا الا انه رفض سياسة الامبراطور الالماني تجاه بريطانيا • فقد القى المستشار الالماني اللوم على الامبراطور الالماني في جلب عداوة الدول الاوربية وحكامها لالمانيا • لقد جلبت سياسة

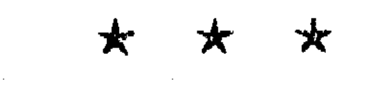
الامبراطورية الالماني ، يؤيده في ذلك بيلوف الى حد ما ، عداوة روسيا وامتعاض قيصرها أيضا • فقد أدركت روسيا ان هدف المانيا في تشجيعها في الشرق الاقصى هو من أجل تحقيق هيمنة المانية على القارة الاوربية • فبدأت الاصوات تتعالى في روسيا بان « اي شخص يطالبنا بالاستمرار في الحرب هو ليس صديقا مخلصا لروسيا »(١٦٦) • وتم اغتيال Piehve زعيم الجماعة المؤيدة لاستمرار الحرب الروسية - اليابانية(١٦٧) • يضاف الى ذلك ان توتر العلاقات البريطانية - الالمانية كان لها تأثير على العلاقات الالمانية - الروسية أيضا • وعلى الرغم من توقيع اتفاقية روسية - ألمانية بشأن قيام المانيا بتزويد السفن الحربية الروسية بالوقود في ١٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٤(١٦٨) التي اصر وليم الثاني على « ان لا تسمع قوة ثالثة أو ان تهمس عن غايتنا قبل ان نتوصل (اليها) ••• والا فان العواقب ستكون خطيرة »(١٦٩) ، فقد قام اثنان من عملاء شركة خط هامبورغ - امريكا بزيارة الى سان بطرسبورغ بهدف بيع سفن الشركة الخاصة بتزويد الوقود الى روسيا • لكن روسيا رفضت عرض الشركة بحجة عدم وجود طواقم لادارة هذه السفن • فأبدى الامبراطور استغرابه من ذلك واخبر نيقولا الثاني : « لا يمكن ان تكون هذه الحقيقة، واعتقد بان الرغبة في التوصل الى سلام وبأي ثمن كان راسخة في عقول الاطراف التي ترى بتعذر ذلك • وبالتأكيد فانه يمكن جلب بضع مئات من البحارة مع بعض الضباط والمهندسين في اسطول البحر الاسود » الذي لم يشترك في الحرب الروسية - اليابانية من أجل تشغيل سفن الوقود(١٧٠) • وعندما طلب نيقولا الثاني من الامبراطور الالماني ان يأمر شركة خط هامبورغ - امريكا بتزويد الاسطول الروسي المتوجه الى الشرق

الاقصى بالوقود بعد ان امتنع مدير الشركة المذكورة بحجة عدم استلامه تعليمات من المستشار الالماني(١٧١) ، رد وليم الثاني « بانني لا اتمكن بالقيام بشيء لامنع (الشركة) ولا استطيع اعطاء تعليمات مهما كانت بهذا الخصوص ، لانها شركة خاصة • وشركة خط هامبورغ – امريكا تدرك الوضع ويجب ان تتصرف حسب مسؤوليتها •• واعطيت الامر بأخبار بالين (مدير الشركة) بانني وحكومتي نرى بانه حر التصرف في اتخاذ أي اجراء يراه مناسب »(١٧٢) • وتعود أسباب هذا التغيير في موقف الامبراطور الالماني تجاه روسيا الى رفض القيصر الروسي توقيع معاهدة الحلف الروسي – الالماني والى تاثير بيلوف وهولشتاين والقادة العسكريين • فيرى هؤلاء ان روسيا لم تعد تعتبر دولة عظمى بسبب الهزائم التي منيت بها على يد اليابان وبسبب الوضع الداخلي المتدهور والذي تفاقم بصورة خاصة بعد اندلاع الثورة في روسيا • لذلك اعتقد هؤلاء بضرورة تحسين علاقات المانيا ببريطانيا وحاولوا تحقيق ذلك(١٧٣) • لكن اهتمام المسؤولين الالمان جميعهم بوجوب انشاء الاسطول البحري ، ذراع السياسة العالمية لتحقيق الدولة العالمية ، وبأسرع وقت اضاف عامل جديدا الى اسباب التوتر في العلاقات بين الدولتين •

وهكذا بات محاولة الامبراطور الالماني الشخصية بالتوصل الى معاهدة حلف مع روسيا يهدف القضاء على الحلف الفرنسي – الروسي الذي حتم على المانيا الحرب على جبهتين بالفشل ، لان القيصر الروسي رفض التوقيع على هذه المعاهدة الا بعد ان تكون حليفته فرنسا على علم بها • فالقيصر الروسي كان بأمس الحاجة الى القروض ولا توجد غير فرنسا مصدرا لذلك ، ولم يكن نيقولا الثاني يريد انهاء الخلافات القائمة بين

المانيا وفرنسا وعقد حلف بينهما ، لان مثل هذا الحلف سيؤدي الى ايجاد ائتلاف مماثل لائتلاف القرم . وان فشل المانيا التوصل الى معاهدة حلف مع روسيا عام ١٩٠٤ تعني تبدد حلم المانيـا في تحقيق هيمنة على القارة الاوربية بالطرق السلمية .

اقرأ الهوامش على الصفحة ٢٠٩



الامة ... التاريخ ... التحدي

الاستاذ الدكتور

حسن فاضل زعين

رئيس قسم التاريخ

كلية التربية الاولى

جامعة بغداد

المقـــدمة :

لقد مرت الامة العربية في تاريخها الطويل بفترات من الوحدة والقوة والازدهار الحضاري ، كمــا مرت بفترات من التجزئة والضعف والغــزو الاجنبي ، اظهرت الامــة فيهــا عن قدرتها وفعاليتها وتأثيرها في مجــرى الاحــداث ، وكشفت عــن ذاتهــا وهويتها القومية في اطــار خصوصيتها العربية . كماو برهنت فيها عن اصالتها الحقيقية ، تلك الاصالة المستندة الى ماض واقع عريق لا الى ماض موهوم . وهي اصالة لا زالت نابضــة بكل معاني الحياة والابداع .

وقد احتل هذا الماضي في حياة الامة وعقيدتها ، مكانا بارزا ، تجلى في محافظتها عليه ، وعنايتها به ، وتدوينها له ، حتى أصبح لا يعرف امة في التاريخ اعتنت بتاريخها قدر عناية واهتمام الامة العربية بتاريخها ، يؤكــد ذلك ، غزارة المؤلفات التاريخية لعلماء الامــة ومؤرخيها ، يقــول الكمال جعفر الادفوي « .. لقد وضع فيه السادة الحفاظ والائمة العلماء الايقاض كتبا تكاثر نجوم السماء ، ثم منهــم بيقين ن رتب على السنين ،

ومنهم من رتب على الاسماء ليكون اسني واسمى ، ثم منهم من خص بعض البلاد ، ومنهم من عم كل قطر وناد »(١) ويقول روزنثال « ان المؤلفات التاريخية العربية في كثرتها تفوق في العدد المؤلفات الاغريقية واللاتينية ومؤلفات اوربا والشرق الاوسط في العصور الوسطى »(٢) .

وثمة اصالة جديدة تضاف لمآثر تاريخ الامة ، كشفت عنها جهود علماء الامة كاليعقوبي العراقي ، والمسعودي البغدادي ، وابي الفدا وغيرهم من الذين حفظوا أخبار وتاريخ الشعوب والامم الاخرى من هنود ورومان وصينيين ويونان ، فأمدونا بمعلومات تاريخية مهمة عنها ، مبرهنين بذلك عن نزعة علمية اصيلة ، ونظرة انسانية سامية لتراث تلك الامم .

الامة في التاريخ :

ان الايمان بالامة وحقيقة ماضيها وقيمة فعله ، في اطار من التقدير المتزن والادراك الواعي ، يبعث بلا شك في النفس شعورا بالاطمئنان والثقة بها ، وبدورها الحضاري والانساني منذ فجر تكوينها في التاريخ ، ذلك التكوين الذي كانت لها فيه اسبقية معروفة على سائر الامم ، بما افرزه من فكر مبدع ، وتقدم مادي مؤثر . يقول الرئيس صدام حسين « ان الامة العربية ابتدأت التكوين والتأليف واكتشفت الكتابة بأسبقية معروفة »(٣)، ذلك « ان الحضارات الاساسية التي نشأت في الوطن العربي كانت تعبيرا عن شخصية أبناء الامة ، الذين نبعوا من أصل واحد ، واذا كانت لتلك الحضارات خصوصية وطنية ـ كحضارة وادي الرافدين ووادي النيل ـ فان خصوصيتها الوطنية هي جزء من السمة القومية الاعم والاشمل »(٤) . ذلك ان الامة العربية ، استمدت منذ وجودها ، عناصر ديمومتها وقوتها وتأثيرها ، من وعيها الذاتي وخصوصيتها القومية ، واستيعابها لدورها .

وقدرتها على محاكاة حركة الواقع والاستجابة اليه ، وتفاعلها معه ، والتعبير عنه بصيغ متجددة من التطور والابداع • وفق منطلقات فكرية وعقائدية وحضارية اثرت في مجرى التاريخ ، ورسمت خطوط شخصيتها فيه •

امة فاعلة مؤثرة ، وهي بنفس الوقت متفاعلة مع غيرها من الامم في اطار خصوصيتها التاريخية والقومية ، وقد أكد ابن خلدون هذه الخصوصية بقوله « ان العرب اقدم الامم »(٥) ، وانهم – أي العرب – « اصعب الامم انقيادا بعضهم للبعض »(٦) ، وعن انجازاتهم كأمة فاقت جميع الامم يقول « بل قد يجهل الكثير منهم – أي أفراد الامة – انهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لاحد من الامم في الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهد بذلك ثم دولة مضر في الاسلام »(٧) ، اما ابن هشام فيعتبر العرب أمة كلها من ولد اسماعيل وقحطان(٨) ، مشيرا بذلك الى خصائصها التاريخية والقومية •

ومن الطبيعي ان تكون الامة وهي بهذا الوجود القائم ، الموغل في القدم ، وذلك التأثير الفاعل ، وتلك القدرة على تجاوز واقعها • وتصاعد نهوضها ، ان يكون لها دور غير اعتيادي ، هذا الدور الذي استمدته من وعيها لذاتها ولدورها الانساني والحضاري في الحياة ، فارتفعت الى مستوى التحدي الجلل ، فردت عليه بما هو اروع وأجل ، وفي نوع ردها ذاك تجلت اصالتها في التاريخ ، تلك الاصالة التي عبرت عنها معاركها القومية كذي قار ، واليرموك ، والقادسية ونهاوند وغيرها •

ومن الجدير بالملاحظة ، ان الامة العربية في كل مراحلها التاريخية ، كانت تواجه أكثر من نوع من التحدي ، مثلته تحديات ذاتية وخارجية وفكرية شعوبية ، جميعها استهدف وجود الامة وفكرها وعقيدتها •

ففي مرحلة ما قبل الاسلام ، كان هناك التحدي الفارسي على أرض العراق والجزيرة العربية (اليمن) والرومي البيزنطي في بلاد الشام ومصر، والحبشي في اليمن ·

اما مرحلة الاسلام ، فقد شهدت تحديا ذاتيا بين الامـة وهي في فترة انبعاثها الجديد ، وبين أعدائها من المشركين ، تلاه حركات الردة ، التي تزامن معها تحديان خارجيان مثلهما كل من الفرس في العراق ، والروم في الشام ، اما العراق فكان نصيبه نوعين مختلفين من التحدي :

أولهما : قاده الفرس ابتداء من معركة ذات السلاسل وانتهاء بمعركة نهاوند ليستمر بعدها على شكل تحديات متفرقة استمرت حتى وقتنـا الحاضر ليتفجر في أضخم تحدي عنصري ليجد أروع رد قومي مثلته معركة قادسية العرب الثانية ·

وثانيهما : تتزامن مع الاول في الزمان والمكان ، مثله الروم بقيادة الانطاق الذي اتجه من الموصل فأحتل تكريت سنة ١٦هـ فتصدى لـه عبدالله بن المعتم فحررها منهم ، في الوقت الذي كانت فيه القوات العربية تتصدى للتحدي الفارسي في جلولاء بقيـادة هاشم بن عتبة ، فكسر شوكتهم ومزق شملهم(٩) ·

اما التحدي الشعوبي ، الذي استهدف طمس الذات العربية ، وقطع الجذور التاريخية والثقافية والعقائدية للامة ، فقد رافقها في كل أدوارها التاريخية ·

ان ربط تكـوين الامة وقدرتها على مواجهة الاخطار والتحديات التي واجهتها بمرحلة الاسلام فقط ، والتغافل عن وجودها وحركتها الفاعلة في المراحل التي سبقته أو فصلته عنـه ، منزلق خطير ينبغي الانتباه اليه ،

والرد عليه ، لما يحمله من نظرة احادية متطرفة لا تلامس حقيقة الامة كوجود حي فاعل ومسار تاريخي متصل لا يمكن فصل حلقاته بعضها عن البعض الآخر ، وقد أكد هذه الحقيقة كثير من المؤرخين منهم ابن هشام(١٠) ، واليعقوبي(١١) ، والطبري(١٢) ، والمسعودي(١٣) ، وابن خلدون(١٤) ، فيقول الطبري « وانا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان .. فذكرنا من تاريخ الملوك الماضيين وجمع من أخبارهم وازمان الرسل والانبياء ، ومقادير أعمارهم وأيام الخلفاء وبعض سيرهم ، ومبالغ ولاياتهم والكائن الذي كان من الاحداث في اعصارهم ، ثم انا متبع آخر ذلك كله ، ذكر صحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأسمائهم وكناهم ، ومبالغ انسابهم ومبالغ اعمارهم .. »(١٥) .

اما المسعودي فانه رغم اعترافه بالاهمية الحاسمة للاسلام في حياة الامة وانطلاقها ، الا انه لا ينكر وجودها قبله فيقول « ثم اتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة .. والقرون الخالية ، والطوائف البائدة على مر سيرهم .. الى ما في تضاعيف ذلك من اخبار الانبياء والرسل والاتقياء الى ان افضى الله بكرامته وشرف برسالته محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم، فذكرنا مولده ، ومنشأه وبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه الى اوان وفاته ، واتصال الخلافة واتساق المملكة بزمن زمن »(١٦) .

ويقرر ابن خلدون هذا النهج قوميا وتاريخيا فيقول « وتناولت في الكتاب الثاني أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدأ الخليقة الى هذا العهد »(١٧) .

امة ارتقت رغم التحديات التي واجهتها ، الى ذروة الوعي والنهوض والتوثب ، ففضلها الله على سائر الامم ، حين خصها برسالته ، وشرفها

بحملها ، والتبشير بها ، قال تعالى « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(١٨) ، وقد أكد الرئيس صدام حسين هذه الجوانب الايجابية المتحققة في الامة بقوله « ان حقيقة كبيرة يجب ان تظل امامنا ٠٠ وهي ان الثورات الاجتماعيه الكبرى لا يمكن ان تظهر في سياقات اعتيادية من النمو والتطور ، واية امة تظهر فيها تلك الثورات لا تكون ميتة أو عاجزة وغير قادرة على الحركة والعطاء ، رغم ما يبرز على السطح من عوامل التردي في المرحلة التي تنشأ فيها تلك الثورات فمن غير الممكن ان تحدث فيها هذه الثورات من الناحية العملية ، تكون لها رسالة ذات بعد انساني وثوري اذا لم تكن الامة التي تنهض بها امة حية وفي مرحلة مخاض عسير ٠٠ لان حمل مثل هذه الرسالة لايمكن ان ينهض به الا الناس الجديرون بذلك ، ولكن في نفس الوقت لابد ان يكونوا في حالة مأزق تأريخي ، في شتى مناحي الحياة ، لكي تكون عملية التجدد مطلوبة وتظهر بصيغة ثورة وبنظرة شمولية للحياة »(١٩) ٠

ويقول أيضا « اذن فان اختيار العرب لحمل رسالة الاسلام ، لم يكن لسوئهم وانما لقدرتهم على ان يكونوا قادة للانسانية جمعاء ، ليغيروا وجهها في تلك المرحلة ، وبذلك تمازجت عوامل القدرة في الامة على تأدية الرسالة مع الظواهر السلبية للممارسات العارضة في حياة العرب لتكون الارضية الصالحة والدور المطلوب حيث وضعت الرسالة »(٢٠) ٠

ومما لاشك فيه ، ان التغيير الجذري الذي أصاب الامة العربية ، وفجر طاقات الابداع والتجدد والاصالة فيها عقائديا وقوميا ، انما ارتبط بالاسلام ارتباط عضويا لا انفصام فيه ، فزادها وضوحا ، واغناها ، عمقا ، وبذلك تلاحمت العروبة والاسلام ، كتلاحم الروح والجسد ، يقول الرسول صلى

الله عليه وسلم « اذا عز العرب عز الاسلام ، واذا ذل العرب ذل الاسلام »(٢١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم « احب العرب لثلاث : لاني عربي ، القران عربي ، ولسان اهل الجنة في الجنه عربي »(٢٢) ، « ذلك ان العرب هم حماة الاسلام وروحه ومنهجه وقادته وهم اول من حمل مشاعله المضيئة الى العالم واول من رسم الطريق الى العيش الكريم والحياة الحرة »(٢٣) .

امة انجبت محمدا « كذلك ارسلناك في امة قد خلت من قبلها امم »(٢٤) ، فانجب صلى الله عليه وسلم امة واحدة متميزة ، عقيدة وفكرا ومنهجا . حين اعلن قيامها بوثيقة المدينة التي كتبها صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم « انهم امة واحدة من دون الناس »(٢٥) ، فضلا عن تشريف الله تعالى لها بقوله « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون »(٢٦) ، « وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون »(٢٧) وقوله « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين »(٢٨) .

لقد تجلت عبقرية الرسول العظيم (ص) في احكام بناء صرح الامة ، قيادته التاريخية الفذة لها ، وفي بعث الانسان العربي المناضل المؤمن بوحدتها ، المستوعب لرسالتها السماوية وقيمها الانسانية ، المتفاني في الدفاع عن وجودها وكرامتها ، المتفاعل مع مسيرتها ، المؤثر في عملية بنائها وشموخها . فحقق هذا البناء المحكم ، وذاك الانبعاث الجديد للامة المستندل الى العقيدة ، زخما عقائديا وقوميا متصاعدا ، استطاعت من خلاله الانتشار ، متجاوزة كل أشكال التحدي وصيغه ، مسجلة أروع

صفحات النص والمجد في بدر ، واحد والخندق وحنين .. وكان اروع نصر لها اعقب وفاة الرسول (ص) فضاؤها على اخطر تحد داخلي استهدف تمزيق كيانها مثلته حركات الردة التي راهن عليهـا أعـداء العـروبة والاسلام من فرس وروم ويهودا ، فعادت الامة اشد وحدة واكثر وعيـا لتواصل نضالها وتحرير أرضها بهدى من قيم رسالتها ومبادئها النبيله ، لتنجز وحدتها القومية الكبرى ، في اطار الوطـن العربي ، منهيـة كل التحديات الخارجية الفارسية والرومية الموجودة على أرضـه ، لتنطلق بعدها شرقا الى حدود الصين ، وغربا الى اوربا في اعظم انتشار انساني لها ، هدفه انقاذ البشرية من الظلم والطغيان واحلال الامن والاستقرار في ربوع تلك المناطق(٢٩) .

ان النظرة الواعية ، والتحليل الواقعي ، والتعليل العلمي ، المستلهم لروح الامة وقيمها ، خاصة في ظل الظروف الراهنة التي تشهد انبعاثا جديدا لامتنا ، وخطورة ما يرافقها من تحديات الحاضر والمستقبل تجعل النهوض بالكتابة التاريخية ، ضرورة ملحة ، تضع المؤرخ العربي اليوم أكثر من أي وقت مضى أمام مسؤولية وطنية وقومية ، تدعوه لتوظيف امكاناته وقدراته لاظهار فاعلية الامة ، وعظمة تاريخها ومآثرها الخالدة ، في اطار تدوين تريخي يخدم أغراض النضال والصمود ويعزز قدرة الامة في التقدم والتطور ، لاتخاذه نقطة انبعاث وانطلاق ، لا مجـال انكفـاء واكتفاء ، وبهذه النظرة نكون امة تتخطى على الدوام ذاتها ، وتزهو كل يوم بابداع جـديد ، يغني الحاضر بعناصر التجدد والانطلاق ، ويبعث الثقة بمستقبل متطور خلاق .

تاريخ الامة :

ان حيوية تاريخ الامة اصالتها وعراقته ، لا يتحدد ببداية ، ولا يؤرخ بحدث ، فهو مسيرة متصلة من بدايت ارتبطت بنشأة الامه وتكوينها التاريخي(٣٠) . وهو لا يزال ذاكرتها الحية ، وسجل لارادتها ومآثرها الخالدة وصورة لحركتها ، ووعاء لتجاربها ، اذ به كما يقول ابن دحية « تعرف المناقب والمفاخر ويدرك العلم الاول والاخر »(٣١) .

ويصف المسعودي أهميته قائلا بانه (يستمتع به العالم والجاهل ويستعذب موقعه الاحمق والعاقل ، فكل حكمة منه تستنبط ، ومكارم الاخلاق ومعاليها منه تقتبس ، واداب سياسة الملك والحزم منه تلتمس ، وكل غريبة منه تعرف ، وكل عجيبة منه تستطرف ، وبه يوصل كل كلام ، ويتزين به في كل محفل ومقام ، يجمع لك الاول والاخر ، والناقص والوافر والبادي والحاضر »(٣٢) .

ويذكر ابن عبدالملك بأنه « رغب في الاطلاع عليه سادة الامم والقبائل واهل المحامد والفضائل ، اذ ان الاطلاع في اخبار الناس مرآة الناظر تصدف عن المحاسن والمقابح ، ويهذب ذوي البصائر والقرائح وبها يذكر الله تعالى من عباده ما يراه اهلا لذكره ، ومستوجبا لكريم ثوابه واجره »(٣٣) ، ويقول الاصفهاني « ان القارىء اذا تأمل ما فيه لم يزل متنقلا من فائدة الى فائدة ، منصرفا بر(جد وهزل واثار واخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة واخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام ، يجمل بالمتأدبين معرفتها وتحتاج الاحداث الى دراستها »(٣٤) .

ويصف ابن خلدون اهميته أيضا بقوله « ان التاريخ من الفنون

التي تتداوله الامم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال وتتنافس فيه الملوك والاقيال ٠٠ »(٣٥)

وما دام المتاريخ هذه الاهمية ، وتلك الصلة الوثيقة التي تشدنا اليه كأفراد وكأمة لها قيمها وخصوصيتها ومزاياها الانسانية العريقة ، فذلك يفرض علينا واقعا علميا ومنهجا قوميا يكشف ويفسر صلة الامة بتاريخها ، وبنفس الوقت يبعد عن الاذهان كل التفسيرات والمناهج التقليدية القائلة بأن تاريخ الامة اختص بمرحلة ما قبل الاسلام فامتد ليشمل كل حركتها وابداعها في الوطن العربي ، أو انه ارتبط بها منذ ظهور الاسلام فقط ولا علاقة له بالمراحل التي سبقته ٠

يقول الرئيس صدام حسين « ان كلا المنهجين السابقين قد يقع في النظرة التقليدية القاصرة ، ويحاكم الامور من زاوية لا تلتقي مع أصل الحقيقة التاريخية ، فهما قد يتناولان علاقة الامة بالاسلام من اطار لا يلامس الحقيقة كما هي ، فقد يغفل منهج ما قيمة الاسلام كثورة في حياة الامة ٠ وقد يغالي منهج آخر فيتنكر لدور العرب في الرسالة الاسلامية التي انبثقت في أرضهم وحملها ابناء هذه الارض »(٣٦) ٠

لقد كشفت الوثائق التاريخية ، ان هذا التاريخ كان ولا يزال شديد الصلة بالامة ، وانه واكب مسيرتها قبل الاسلام وبعده ، فنال من الامة اهتماما وعناية تجاوزت كل وصف حفظا وتدوينا ، فقد كانت العرب قبل الاسلام ، تدون وتحفظ اخبارها وأيامها ، وتورثها لاجيالها ، وغالبا ما تؤطرها بأطار القبيلة بأعتبارها محور انتماء الانسان العربى آنذاك ، فكانت كل قبيلة تحتفظ بأخبار قادتها وزعمائها وفرسانها وحروبها وانتصاراتها للتفاخر بها ٠ مما عزز اواصر الوحدة بين أفرادها،

ورسخ في نفوسهم القيم والعادات والمثل العليا · فيقول ابن الاثير « واما قبل الاسلام ، فقد كان بنو ابراهيم يؤرخون من نار ابراهيم الى بنيان البيت حين بناه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ثم ارخ بنو اسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا ، فكان كلما خرج قوم من تهامة ارخوا بمخرجهم ، ومن بقي بتهامة من بني اسماعيل يؤرخون من خروج سعد ونهد وجهينة بني زيد من تهامة حتى مات كعب بن لؤي وارخوا من موته الى الفيل ، ثم كان التاريخ من الفيل حتى ارخ عمر بن الخطاب من الهجرة ·· وقد كان كل طائفة من العرب تؤرخ بالحادثات المشهورة فيها ولم يكن لهم تاريخ يجمعهم ، وكل واحد ارخ بحادث مشهور عندهم ، فلو كان لهم تاريخ يجمعهم لم يختلفوا في التاريخ »(٣٧) · مشيرا بذلك الى احتفاظ كل قبيلة بتاريخها الخاص بها ، وهو يمثل بشموليته تاريخ الامة قبل الاسلام ·

اما خليفة بن خياط ، فيؤكد أيضا قدم هذا التاريخ بقوله « بالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم وانقضاء عدد نسائهم ومحل ديونهم يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج ، ولم يزل للناس تاريخ كانوا يؤرخون في الدهر الاول من هبوط آدم من الجنة ·· فلم يزل كذلك حتى حرق ابراهيم فأرخوا من تحريق ابراهيم ، وارخت بنو اسماعيل من بنيان الكعبة ، فلم يزل كذلك حتى كان عام الفيل ، فأرخوا من عام الفيل ثم ارخ المسلمون بعد من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان للعرب أيضا تاريخ »(٣٨) ·

ويكشف السخاوي تفاصيل أخرى عن قدم هذا التاريخ فيقول « ان

حمير كانت تؤرخ بالتبابعة وغسانا بالسد ، واهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس ، ثم ارخت العرب بالايام المشهورة كحرب البسوس ، وداحس والغبراء وبيوم ذي قار والفجار ونحوه ‥ »(٣٩) ٠
ويذكر ايضا « وقد كانت كل طائفة من العرب تؤرخ بالحادث المشهور فيها ولم يكن لهم تاريخ يجمعهم ، فكل واحد منهم ارخ بحادث مشهور ، فلو كان لهم تاريخ يجمعهم لم يختلفوا في التاريخ » ٠

ويذكر فيليب متي « ان زنوبيا ملكة تدمر جمعت تاريخا للشرق »(٤١) ، في حين يذكر السيد عبدالعزيز سالم « انها صنفت كتابا عن تاريخ مصر »(٤٢) ‥

اما المسعودي فانه يذكر تفاصيل أدق وأوسع من تواصل تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده فيقول « وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فاما حمير وكهلان ابنا سبأ ‥ فانهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم ‥ فاما تاريخ ولد معد بن عدنان فانهم كانوا يؤرخون بغلبة جرهم العماليق واخراجهم اياهم من الحرم ‥ ثم ارخوا بالحرب بين ابني وائل ، بكر وتغلب المعروفة بحرب البسوس ‥ وبحرب الاوس والخزرج ‥ وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تؤرخ بيوم من ايامها المشهورة في حروبها كقبائل بكر وتغلب وفزارة وعبس وبنو عامر بن صعصعة واياد وتميم وأسد وخزيمة والاوس والخزرج وطي ‥ ولم يزل من وصفنا من قبائل العرب يؤرخون بالامور المشهورة من موت رؤسائهم وحروب كانت بينهم الى ان جاء الله بالاسلام فاجمع المسلمون على التاريخ من الهجرة »(٤٣) ٠

ان الايمان بحقيقة واصول هذا الماضي ، واستجلاء سياقاته الطويلة

قبل الاسلام ، انما يعزز الدور التاريخي والحضاري للعرب بعد ظهـور الاسلام ، ويكشف بوضوح التغيير الجذري الذي احدثه الاسلام في حياتهم وسلوكهم وطراز تفكيرهم ونظرتهم للحياة باعتبارهم أمة وحملة رسالة ، وأصحاب عقيدة ، عليهـم ان يصونها ويؤدوها ، وبذلك ربط الاسلام وحدة التاريخ بوحدة الامة وعقيدتها ورسالتها الانسانية في الحياة ربطـا محكمـا ٠

ومن الجدير بالذكر ، ان القرآن الكريم قد اغنى الشعور التاريخي في الامة وأصله ، بما احتواه من اخبار تاريخية عن الاقوام والامم السالفة وتوالي بعضها على اثر بعض ، موضحا سبب ذلك بعـدم التزام هـذه الامم بالرسالات والنبوءات التي ارسلها الله اليها ، اما التزام هذه الامم بالرسالات والنبوءات التي ارسلها الله اليها ، اما الاحداث التي أحاطت بالامة وقائدها الرسول العظيم ، فقد جاءت اشاراته اليها منسجمة مع دور الرسول (ص) وموقفه من التاريخ ، كموقعة بدر ، والخندق وحنين وتبوك وغيرها ، فكان لهذه الآيات أهميـة في حيـاة الامة ، استثارت البحوث التاريخية ٠

كما اضافت شخصية الرسول الكريم ، وجهاده ونضاله من أجل العقيدة والامة ، عنصرا جديدا واصالة حقيقية للتاريخ ، دفعت مؤرخي الامـة وعلمائها لاستجلاء سـيرته الشريفة وتدوينها لارتباطها بالرسالة والامة ، بتتابع زمني حسمه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) باتخاذه من هجرته صلى الله عليه سلم بداية للتقويم العربي ، الذي أصبح فيما بعد عنصرا حيويا في تدوين تاريخ الامة وارتباط حوادثها اللاحقة به ٠

لقد أدرك العلماء العرب أهمية التاريخ وتأثيره الكبير في حياة الفرد

والجماعة ، فنبهوا الى ضرورة تعلمه وتعليمه ، واستنباط حكمه وامثاله ، وتدبر سياساته وتقلب أحواله ، لتسمو النفس بمعرفتها ، وتعتبر بعد الاطلاع عليها . يقول أبو بكر محمد بن علي بن خميس في مقدمة تاريخ مالقة « ان أحسن ما يجب ان يعتني به ويلم بجانبه ، بعد الكتاب والسنة ، معرفة الاخبار وتقييد المناقب والاثار ، ففيها تذكره بتقلب الدهر بابنائه وتنبيه على أهل العلم الذين يجب ان تتبع آثارهم ، وتدون مناقبهم واخبارهم ، ليكونوا كانهم ماثلون بين عينيك مع الرجال .. »(٤٤)

ويقول ابن الساعي « وأحسن الاسماء وأطيب الاخبار ما حصل به موعظة واعتبار ، وهو علم التاريخ والاخبار ، ومنه أيضا يعلم تقلب الدول وسرعة انتقالها وتصرف الاحوال بانقضائها وزوالها .. وما زال أرباب الهمم العلية ، والنفوس الابية يتطلعون الى محاسن الاخبار ليجعلوها لقاحا لافهامهم وصقالا لاذهانهم وتذكرة لقلوبهم ورياضة لعقولهم ، ثم ان تأمل ذلك يبعث على التوحيد ، والاعتراف بوحدانية الباري جل جلاله ، اذ في تدبر مجاري الاقدار ، وتقلب الادوار ، واختلاف الليل والنهار ، وتوالي الامم وتعاقبها وتداول الدول وتناوئها عظة للمتقين وتنبيه للغافلين »(٤٥) .

ويذكر الكافيجي الحنفي « ان التاريخ من المهمات العظام ، مقبول عند الانام اشتمل على فكر وعبر ، ومنطو على مصالح ومحاسن على وجه معتبر ولولا لم يصل الينا لا خبر ولا اثر وهو غذاء الارواح والاشباح ، خزانة اخبار الناس والرجال ، معدن العجائب والغرائب والروايات والامثال ، زين الاديب وعمدة اللبيب ، عون المحدث ، وذخر الاديب يحتاج اليه الملك والقائد البصير وغيرهم ممن عز امرهم »(٤٦) .

ويقول السخاوي « لولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة ، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة ، ونعذر الاعتبار بمسالمة الايام وعقوبتها »(٤٧) ٠

ويقول أبو حنيفة « الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب الي من كثير من الفقه لانها آداب القوم »(٤٨) ٠

ويروى مصعت الزبيري قائلا « ما رأيت أحدا اعلم بأيام الناس من الشافعي »(٤٩) ٠

ويقــول الشافعي « من حفظ التاريخ زاد عقلــه »(٥٠) ٠ ويذكر ياقوت « ان المفسر ابن ابي الطيب ، لما توفي لم يوجد في خزانة كتبه الا اربع مجلدات ، احدهما فقهي ، وآخر أدبي ، ومجلدان في التاريخ »(٥١) ٠ مشيرا الى أهمية دراسة التاريخ عند المفسرين ٠

« وعده ابن حمدون وياقوت من علوم الملوك وذوي الاخطار »(٥٢)٠ فيروى المسعودي « ان معاوية كان يستمع في الثلث الاول من الليــل الى أخبار العرب وملوكها وسياستها لرعيتها ، وســير ملوك الامم وحروبهــا ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الامم السالفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقرائتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والاثار وأنواع السياسات »(٥٣) ٠

وكان الخليفة أبي جعفر المنصور معنيــا بالاسعار والاخبار وايام العرب يدني اهها يجيزهم عليها(٥٤) ٠

ويروى السخاوي « ان المؤرخ العيني كان يقرأ عند الاشرف برسباي

وغيره التاريخ ونحوه ، بحيث يقول الاشرف ما معناه انه ما عرف الاسلام الا منه »(٥٥) ٠

هذا ولم تقتصر الثقافة التاريخية على الخلفاء « للاعتبار بما مضى من الدول ومن سلف من الامم »(٥٦) ، والوزراء ، « للاعتبار بفعال من تقدم ممن حاز فضلي السيف والقلم »(٥٧) ، والقائد العسكري « للاطلاع على مكائد الحرب ومواقف الطعـن والضرب »(٥٨) ، والقضاة والفقهـاء والمفسرين والكتاب يقول ابن شاكر الكتبي « وكنت ممن اكثر لكتبـه المطالعة واستحلى من فوائده المراجعة »(٥٩) ، بل تعدى ذلك الى الاولاد ، باعتبارها تشكل عنصـرا مهمـا في تكوينهم الفكـري في مراحل سنيهم المبكرة ، لانهم كما يقول أبو القاسم محمد بن يوسف المدني « وان كانوا صغار قوم فعسى ان يكونوا كبار قوم آخرين »(٦٠) ، ويقول طاشكبري زادة « ان الطفل بعد ان يشب يرسل الى المكتب ويعلم القرآن والحديث واخبار الصالحين لينغرس في قلبـه حبهم »(٦١) ، مشيرا بذلك الى ان اخبار الصالحين هي المواضيع التاريخية الوحيدة التي قد تعلم الاطفال ٠

ويذكر القابسي بأنه « لا بأس باجازة العلـم على تعليم الشـعر والنحو والرسائل وايام العرب وما اشبه ذلك من علـم الرجال وذوي المروءات »(٦٢) ٠

ويقول الصولي (انه لما اسندت الي مهمة تعليم ولدي المقتدر بالله وهما هارون واخيه أحمد ، اكتشفت قلة معرفتهما ، فاشتريت لهما كتبا في الفقه والشعر واللغة والاخبار قطعة حسنة فتنافسا في ذلك وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه وقرأ علي الاخبار ٠٠ »(٦٣) ٠

ويذكر ابن حمدون « وكان الجندي ينصح بدراسة غزوات الاسلام الاولى والسير »(٦٤) لما فيها من اثر كبير في استنهاض الهمم في الدفاع عن العقيدة والامة ورغم هـذا الاهتمام الواسع ، والاصالة المتحققة في تاريخ الامة ، فانه لم يسلم من تحديات تسربت الى ثناياه بشكل أو آخر ، بقصد تشويهه والتقليل من أهميته في حياة الامة ، وقد نبه ابن خلدون عليها بقوله (ان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبت أخبار الامم وجمعوها ، وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها ، وزخرف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الاثار الكثيرة ممن بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل ، وطرق التنقيح في الغالب كليل ٠٠ والناقل انما يملي وينقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل ، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل »(٦٥) ٠

لم يكتف ابن خلدون بالاشارة الى التشويهات التي دست في التاريخ بل انه كشف ذلك الدس الذي مارسته الشعوبية بحق تاريخ الامة وخلفائها وقادتها وعلمائها امثال المنصور والرشيد والامام الشافعي ، ويحيى ابن أعثم القاضي ، ورد عليه بالدليل القاطع والحجة الظاهرة(٦٦) ٠

ويشير السخاوي أيضا الى تلك التحديات والتشويهات بقوله « قد ظهر الكثير من الخلل ، وانتشر من المناكير ما اشتمل على اقبح العلل ، حيث انتدب لهذا الفن الشريف من اشتمل على التحريف والتصحيف ، لعدم اتقانهم شروط الرواية والنقل ، وائتمانهم من لا يوصف بأمانة ولا

عقـل ، بل صـاروا يكتبون السمين مع الهـزيل ، والمـكين مع الزنزل العليل »(٦٧) . ويأسف السخاوي من منهج المتأخرين ، ممن لم يدقق العبارة ، ويتبصر في الرواية ويغربل الحكاية ، فقبلها بدون علم وتنقيح ودراية ، فيقول « ويا أسفي عليهم فقد جاء بعـدهم من لا يصـل ، ولو بالغ .. لكـونه من نمطهم ، وعلى شريطتهم ، سيما في العبارات ، وتلك الاشارات التي لا يرتضيها عاقل ولا يمضيها الا من هو غمر عاطل »(٦٨) .

لقد بذل مؤرخو الامة وعلمائها جهودا عظيمة بالاعتماد على التاريخ ، لبيان تلك التحديات والروايات المزورة التي ادخلت اليه لسبب او لآخر، وكشفها حرصا منهم على اصالة هـذا التاريخ ، فيقول سفيان الثوري « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ »(٦٩) . ويقول حسان ابن زيد « لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ »(٧٠) ، اما الخطيب البغدادي ، فانه « عقد بابا لوجوب بيـان أحوال الكذابين من الرواة والنكير عليهم ، وانهـاء امرهم الى السلاطين »(٧١) . في حـين تصدى آخـرون من امثـال الجاحظ ، والازدي ، والجهشياري ، وابن خلدون وغيرهم(٧٢) . للروايات الشعوبية وكشف زيفهـا دفاعا عن تاريخنـا القومي واصالته فكشف المؤرخ الازدي ، ذلك النص الذي اضافه الفرس الى وصية ابراهيم الامام لتشويه عـروبة الدعـوة العباسية ورجـالها العرب(٧٣) . كما قام الخطيب البغدادي باحباط محاولة اليهود في تزوير وثيقة عن الرسول (ص) ادعوا فيها باسقاطه الجزية عن أهـل خيبر ، فيروى ، السخاوي « انه لما اظهر بعض اليهود كتابا وادعى انـه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادة

الصحابة رضي الله عنهم ، وذكروا ان خط علي رضي الله عنه فيه ، وحمل الكتاب في سنة سبع وأربعمائة الى رئيس الرؤساء ابي القاسم علي وزير القائم ، عرضه على الحافظ الحجة ابي بكر الخطيب ، فتأمله ثم قال : هذا مزور ، فقيل له : من اين لك هذا ، قال : فيه شهادة معاوية وهو انما اسلم عام الفتح وفتح خيبر كان في سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وهو قد مات يوم بني قريضة قبل فتح خيبر بسنتين ، فاستحسن ذلك منـــه ، واعتمده وامضاه ، ولم يجز اليهود على ما في الكتاب لظهور تزويره »(٧٤) ·

كل ذلك وغيره ، دفع المؤرخين العلماء العرب ، لان يضعوا شروطا لتدوين تاريخ الامة ، وحرصا منهم على اصالته ، وحفاظا على نقاوته ، واظهارا لسماته القومية المعبرة عـن ارادة الامـة ، فاشترطوا في المؤرخ ما يأتي :ـ

١ ـ العدالة مع الضبط التام الناشيء عن مزيد من الاتقان ·

٢ ـ التحري سيما فيما يراه في كلام كثير من الجهلة ·

٣ ـ ان يكون عالما بطريق النقل ، حتى لا يجزم الا بما يتحققه ، فان لم يحصل له مستند معتمد في الرواية ، لم يجز له النقل لقوله صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء كذبا ان يحدث بكل ما سمع » ·

٤ ـ التميز بين المقبول والمردود ، وبين الرفيع والوضيع ·

٥ ـ تجنب التعرض للوقائع المنقصة الصادرة في شبوبية من صيره الله تعالى بعد ذلك مقتدى به ، فمن ذا سلم ، وقد عجب الرب عز وجل من شاب ليست له صبوة · والاعتبار بحــاله الان ، ومن هنـــا يشترط ان يكون عارفا بمقادير الناس وبأحوالهم وبمنازلهم فلا

يرفع الوضيع ، ولا يضع الرفيع ٠

٦ ـ ان يكون مصاحبا للورع والتقوى ، بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التي تختلف ، لان الورع والتقوى يحجزه ويوجب له الفحص والاجتهاد وترك المجازفة(٧٥) ٠

واجمل الكافيجي هذه الشروط بقوله « وينبغي ان يشترط في المؤرخ ما يشترط في راوي الحديث من أربعة أمور ، العقل والضبط والاسلام والعدالة ، ليكون كل واحد منهما معتمدا في امر الدين ، واميناً فيه ، ولتزداد الرغبة في تاريخه ، وللاحتراز عن المجازفة والافتيات فيحصل له الا من الوقوع في الضلالة والاضلال »(٧٦) ٠

لقد تجلت عظمة هذا التاريخ في تخطيه لكل تيارات التحدي ، التي استهدفت تشويه اصالته ، وطمس معالم ابداعاته وانجازاته الانسانية ، وهذا كله يثير فينا نوازع عديدة اصيلة متبصرة لدراسة ماضينا وتحليل حوادثه ، واستجلاء حقائقه ومدطلقات قوته وشموخه ، واستكشاف عناصره الايجابية ، لاتخاذها نقطة اشعاع ومصدر الهام ، ومبعث انطلاق وحافز على تحقيق الامال الجديدة في حاضرنا ومستقبلنا ٠

يقول العماد بن محمد الشافعي « فليست امة أو دولة الا ولها تاريخ يرجعون اليه ، ويعولون عليه ، ينقلها خلفها عن سلفها ، وحاضرها عن غابرها ، تقيد به شوارد الايام ، وتنصب به معالم الاعلام ، ولولا ذلك ، لانقطعت الوصل ، وجهلت الدول ، ومات في أيام الاواخر ذكر الاوائل »(٧٧) ٠

ولهذا اعتبر المؤرخون تدوين تاريخ الامة من الضرورات الملحة التى ترتقي الى فروض الكفايات ، فيقول السخاوي « وصرح غير واحد من علماء

المذاهب ، اولى الامانات ، بانه — اي تدوينه — من فروض الكفايات الراجح ارتقاؤه على فرض العين ، للاندفاع بقيامه به عن غيره التأثيمات ، بل ربما انحصر وتعين حسبما يعلمه من استظهر وتبين »(٧٨) . ويقول الكافيجي « ان علم التاريخ محيط بقواعد ومسائل كثيرة ، فاذن قد استحق التدوين أي استحقاق ولذلك دوناه تدوينا حسنا مقبولا ليكون منقولا الى الصدور والاقوام ، باقيا على مرور الايام والاعوام ، مذكورا باللسان ، محفوظا بالجنان ، وتذكرة وتشويقا الى اتيان مثله ، في كل مكان وزمان ، واتيانا بموجب القول الذي قد شاع ، كل خط ليس في القرطاس ضاع ، كل سر جاوز الاثنين شاع »(٧٩) .

ويقـول السخاوي « فاذا لا غنـاء عن التاريخ فينبغي ان يعتنى بشأنه ، ويكتب وينقل مع الاحتراز عن المجازفة والرجم بالغيب »(٨٠) . ويقول عمر بن فهد الهاشمي المكي « وقد اتفق الناس عليه في كل زمان وصنفوا فيه كل انواع وافنان »(٨١) ويذكر السخاوي « ولو لم يكن من شرف هذا الفن الا ان البخاري رحمه الله صنف تاريخه في المدينة المنورة عند قبر النبي عليه السلام ، وكان يكتبه في الليالي المقمرة ، وسوى بينه وبين صحيحه »(٨٢) .

وانطلاقا من واقع عمق هذه النظرة ودوافعها الاصيلة ، فان اعادة كتابة تاريخ الامة ، في ظل أوضاع وظروف التحدي المحيطة بها ، والرامية الى تشويه تاريخها ، وطمس معالم شخصيتها القومية والحضارية . هي مسؤولية وطنية وقومية ، تحتم على المؤرخين العرب النهوض بها ، وفق منطلقات فكرية واعية ، معبرة عن ارادة الامة وحركتها الثورية في مرحلة انبعاثها الجـديد ، وتصورات مستلهمة لروح الامـة وقيمها ورسالتها

الانسانية في الحياة ، وصولا لتدوين رصين أصيل ، يحفـز المشـاعر القوميه ، ويثير الوجدان ، والاحاسيس العربية ، ويستنهض الهمـم ، ويفجر طاقات الابداع الكامنة في الامة ، لبناء حاضر زاهر مجيد ، ومستقبل متطور خلاق ، مستوح من ماضينا التليد ، كل عظمته واصالته وشموخه، ليكون مثار اعتزاز واجلال واكبار لهذا الجيل والاجيال القادمة .

الاستنتاجات والتوصيات :

ان أهم ما توصل اليه البحث من استنتاجات وتوصيات وأفكار هي ما يأتي :ـ

١ ـ التأكيد على ان الامة العربية منذ فجر تكوينها كان لها وعي عـام بذاتهـا في اطـار خصوصيتها العربيـة ، وان هـذا الوعي وتلك الخصوصية هي سر حيويتها وديمومتها .

٢ ـ ان التكوين التاريخي للامة العربية ، نشـأ عن تطورات تاريخيـة امتدت الى عصور سحيقة في القدم ، عبرت فيها الامة عن شخصيتها وهويتها القومية والحضارية .

٣ ـ التأكيد على ان اختيار العرب لحمل رسالة السماء وتأديتها لم يكن لسوء عملهم وانما لقدرتهم الفائقـة على ان يكونوا قادة للانسانية جمعاء ليغيروا وجهها في تلك المرحلة ، لذلك خصهم الله برسـالته وفضلهم على سائر الامم بقوله (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

٤ ـ الايمان بأن فترة انبعاث الامة موحدة انما ارتبط بالاسلام ارتباطا محكما ، وان هذا الارتباط يكشف مدى التغيير الجذري الذي احدثه

الاسلام وشخصية الرسول (ص) في الامة عقيدة وفكرا ومنهجا .

٥ ـ ان تاريخ الامة العربية ، ارتبط ببدايات نشأتها وتكوينها التاريخي ، وهو تاريخ متصل ومستمر معها ، رغم تفاوت نهاياته العظمى واصغرى حسب الزمن والمكان ، وان هذا الاستمرار المتجدد يدل على ان الذات العربيه ذات معطيات حية تجعلها على استعداد دائم للعطاء والابداع .

٦ ـ الكشف عن أهداف الشعوبية ومقاصدها الرامية الى تشويه اصالة الامة ودورها الانساني في الحياة ، والنيل من تاريخها المجيد المعبر عن ارادتها ، وخصوصيتها العربية ، وان التصدي لهذه الحركة واسقاطها ضرورة ملحة ومسؤولية قومية ، يجب على أبناء الامة النهوض بها .

٧ ـ اظهار مقدرة الامة وحيويتها في مواجهة التحدي الجلل الذي رافق مسيرتها التاريخية وردها عليه بما هو أروع واجل ، فتجلت بذلك اصالتها في التاريخ .

٨ ـ اهتمام الامة العربية بتدوين تاريخها قبل الاسلام لاهميته وتأثيره الكبير في حياة الفرد والجماعة ، أكد ذلك جمهرة من المؤرخين العرب من امثال خليفة بن خياط ، والمسعودي ، وابن الاثير ، والسخاوي وغيرهم ، وان هذا التاريخ تأصل وتعزز بظهور الاسلام وشخصية الرسول (ص) للامة فجاء تاريخها معبرا عن ارادتها وثوريتها وعقيدتها ورسالتها السماوية .

٩ ـ التاكيد على ان مقومات النهوض في الامة كامنة في ذاتها ويمكن لها ان تنفجر في أية لحظة ، اذا ما توفرت لها قيادة ثورية واعية لقيادتها

ونأدية دورها الانساني في الحياة ، سواء أكان ذلك قبل الاسلام ، أم في فترة انبعاثه الجديد في ظل الاسلام بقيادة الرسول العظيم (ص) والخلفاء الراشدون (رض) من بعده ، واستمرت هذه الحالة مع الامة ، لتسمو في تاريخنا المعاصر بالقيادة التاريخية الفذة للرئيس صدام حسين ·

١٠ـ ان اعادة كتابة تاريخ الامة ، مسؤولية وطنية وقومية ينبغي على المؤرخين العرب وغيرهم النهوض بها وفق منطلقات فكرية واعية معبرة عن ارادة الامة وحركتها الثورية وتصورات مستلهمة لروحها وقيمها ورسالتها الانسانية في الحياة ، ليكون هذا التاريخ مثار اعتزاز واجلال واكبار لهذا الجيل والاجيال القادمة ·

الهوامش :

١ ـ السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ المطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ، ص ٤٢٤ ·

٢ ـ علم التاريخ عند المسلمين · ص ٧٢٠ ·

٣ـ حول كتابة التاريخ · ص ١٢ ·

٤ ـ المصدر السابق · ص ١٤ـ١٥ ·

٥ ـ انظر المقدمة · ص ١٤٦ـ١٤٩ ·

٦ ـ المصدر السابق · ص ١٥٢ ·

٧ ـ المصدر السابق · ص ١٥٢ ·

٨ ـ السيرة النبوية · ٧/١ ·

٩ ـ انظر التفاصيل في الطبري : تاريخ ٢٤/٤ ، ٣٥ ، ابن الاثير :

الكامل ٢/٣٦٢ و٣٦٤ وانظر البلاذري : فتوح البلدان ٢/٤١٨ وما بعدها ، اليعقوبي : تاريخ ٢ع١٣٢٣ ، ابن اعثم : الفتوح ٢/٤٨ ٠

١٠ـ السيرة ١/١ وما بعدها ٠

١١ـ تاريخ ١/١٦٨ وما بعدها ٠

١٢ـ تاريخ ١/٦٠٩ وما بعدها و ٢/٢٣٩ وما بعدها ٠

١٣ـ مروج الذهب ١/٩ ـ ١٠ ٠

١٤ـ المقدمة ٠ ص ٦ وانظر الدوري : التكوين التريخي للامة ٠ ص ١٥ وقسطنطين زريق : نحن والتاريخ ٠ ص ١٣٦ ٠

١٥ـ تاريخ : ١/٦ ـ ٧ ٠

١٦ـ مروج الذهب : ١/٩ وما بعدها ٠

١٧ـ المقدمة ٠ ص ٦ ٠

١٨ـ آل عمران ١١٠ ٠

١٩ـ حول كتابة التاريخ ٠ ص ٧ ـ ٨ ٠

٢٠ـ المصدر السابق ٠ ص ٢٤ ٠

٢١ـ رواة الطبراني : انظر ناجي معروف : الحضارة العربية ٠ ص ٢٨ ٠

٢٢ـ رواة أصحاب السنن : المصدر السابق ٠ ص ٢٨ ٠

٢٣ـ صدام حسين : البعث والثورة والانسان ٠ ص ٧٦ ٠

٢٤ـ الرعـد ٣٠ ٠

٢٥ـ ابن هشام : السيرة النبوية ١/٥٠١ ، ابن سيد النساء : عيـون الاثر ١/١٩٧ ٠

٢٦ـ الانبياء ٩٢ ٠

٢٧ـ المؤمنون ٥٢ ٠

٢٨ـ آل عمران ١٦٤ ٠

٢٩ـ انظر البلاذري مخطوط انساب الاشراف ، مكتبة الدراسات العليا، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، تحت رقم ١٦٣٧ و١٦٣٦ ، وفتوح البلدان الاجـزاء الثلاثة ، المسعودي : مروج الذهب ٢/٢٠٤ وما بعدها والجزء الثالث ٠

٣٠ـ انظر : الدوري : التكوين التاريخي للامة العربية ٠ ص ١٥ وما بعـدها ٠

٣١ـ النبراس ص ٢ ٠

٣٢ـ مروج الذهب ٢/٦٧ انظر ابن رحية : النبراس ص ٣ ٠

٣٣ـ تكملة تاريخ الطبري ١٨٧٩ ٠

٣٤ـ الاغاني ١/٢ طبعة بولاق ١٢٨٥ ٠

٣٥ـ المقدمة ٠ ص ٣ ٠

٣٦ـ حول كتابة التاريخ ص ٦ـ٧ ٠

٣٧ـ الكامل ١/١٠ انظر المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٨ ، ابن حبيب : المحبر ٠ ص ٥ ـ ٨ ٠

٣٨ـ تاريخ ٠ ص ٦ ـ ٧ ٠

٣٩ـ الاعلان بالتوبيخ ص ١٤٧ ٠

٤٠ـ المصدر السابق ٠ ص ١٤٨ـ١٤٩ ٠

٤١ـ تاريخ سورية ص ٤٣٨ ٠

٤٢ـ تاريخ العرب ص ١٠٩ ٠

٤٣ـ التنبيه والاشراف ص ١٧٢ـ١٧٨ ٠

٤٤ـ السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ص ٤٩ ٠

٤٥ـ المصدر السابق ص ٥٤ـ٥٥ ٠

٤٦ـ انظر السخاوي : الاعلان ٠ ص ٧٠ ٠

٤٧ـ المصدر السابق ٠ ص ٤٥ ٠

٤٨ـ المصدر السابق ٠ ص ٦١ ٠

٤٩ـ ابن ابي شامه : الروضتين ص ٥ ٠

٥٠ـ السخاوي : الاعلان ص ١٧٩ ٠

٥١ـ ارشاد ٥/٢٣٢ طبعه القاهرة ، انظر روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ٠ ص ٦٥ ٠

٥٢ـ التذكرة قسم ٣/٨٠ مخطوط ، انظر روزنثال ٠ ص ٧١ ـ ٧٢ ، ارشاد ١/٢٧ طبعة القاهرة ٠

٥٣ـ مروج الذهب ٣/٤٠ ـ ٤١ ٠

٥٤ـ ابن الفقيه الهمداني : مختصر كتاب البلدان ٠ ص ٢ طبعة ليدن ١٣٠٢ ٠

٥٥ـ الاعلان ٠ ص ٨١ ٠

٥٦ـ السخاوي : الاعلان ٠ ص ٧٠ ٠

٥٧ـ المصدر السابق ٠ ص ٧٠ ٠

٥٨ـ المصدر السابق ٠ ص ٧٠ ٠

٥٩ـ فوات الوفيات ٠ ص ١ ٠

٦٠ـ السخاوي : الاعلان ٠ ص ٤٣ ٠

٦١ـ مفتاح السعادة ٣/٢٨٠ طبعة حيدر اباد ١٣٢٨ ٠ انظر روزنثال : علم التاريخ ٠ ص ٦٧ ٠

٦١ـ احمد فؤاد الاهواني : التعليم في رأي القابسي : طبعة القاهرة ١٩٤٥م · ص ٢٧٨ ·

٦٣ـ اخبار الراضي بالله والمتقي بالله ص ٢٤ ـ ٢٥ طبعه بيروت ·

٦٤ـ التذكرة ٢/٨٠ انظر روزنثال : علم التاريخ · ص ٧٧ ·

٦٥ـ المقدمه · ص ٤ ·

٦٦ـ المصدر السابق · ص ١٥ و١٩ ·

٦٧ـ الاعلان بالتوبيخ · ص ١١٢ ·

٦٨ـ المصدر السابق · ص ١١٢ ـ ١١٣ ·

٦٩ـ السخاوي : الاعلان · ص ٢١ ، انظر الخطيب البغدادي : تاريخ ٩/١٥١ ، الكفاية ، طبعة الهند ١٣٥٧ · ص ١١٩ ·

٧٠ـ السخاوي : الاعلان ص ٢٢ ، انظر روزنثال : علم التاريخ ص ٣٩٠ ·

٧١ـ المصدر السابق · ص ٨٦ ·

٧٢ـ ثلاث رسائل ص ٤٤ · تاريخ الموصل ٢/٦٥ و١٠٧ · الوزراء والكتاب ص ١١٧ و٢٥٤ ، المقدمة ص ١٥ و١٩ · الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ، فاروق عمر : مباحث في الحركة الشعوبية · ص ٤١ ـ ٥٨ · حسن زعين : مؤامرة الفكر الشعوبي على الامة العربية : دراسات للاجيال ، آب ١٩٨٤ ·

٧٣ـ تاريخ الموصل ، ٢/٦٥ و١٠٧ ·

٧٤ـ الاعلان بالتوبيخ ص ٢٥ ·

٧٥ـ السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ص ١١٤ ـ ١٣٨ ·

٧٦ـ المختصر في علم التاريخ : مطبوع ضمن علم التاريخ لروزنثال ص ٣٣٦ – ٣٣٧ ٠

٧٧ـ السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ص ٤٥ ٠

٧٨ـ المصدر السابق ٠ ص ٨٣ ٠

٧٩ـ المختصر في علم التاريخ : مطبوع ضمن علم التاريخ لروزنثال ص ٣٣٦ – ٣٣٧ ٠

انظر السخاوي : الاعلان ٠ ص ٧٠ ٠

٨٠ـ الاعلان بالتوبيخ ٠ ص ٧١ ٠

٨١ـ السخاوي : الاعلان ٠ ص ٧١ – ٧٢ ٠

٨٢ـ المصدر السابق ٠ ص ٨٤ ٠

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم

★ ابن الاثير : أبو الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني ت ٦٣٠هـ

٢ ـ الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٨م

★ الازدي : ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم ت ٣٣٤هـ

٣ ـ تاريخ الموصل : تحقيق علي حبيبة ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٧م .

★ الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ

٤ ـ الاغاني : تصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي ، مطبعة التقدم ، مصر .

٥ ـ مقاتل الطالبيين ، طبعة بغداد ١٩٧٩

★ ابن اعثم الكوفي : أبو محمد أحمد بن اعثم ت ٣١٤

٦ ـ الفتوح : طبعة بيروت ، مطبعة دار الندوة الجديدة .

★ البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ

٧ ـ مخطوط انساب الاشراف ، مخطوطة مكتبة الدراسات العليا جامعة بغداد تحت رقم ١٦٣٦ و١٦٣٧

٨ ـ فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة مصر ١٩٥٧م

★ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥هـ

٩ ـ رسائل الجاحظ ، طبعة مصر ، الطبعة الاولى سنة ١٩٧٩م

★ الجهشياري : أبو عبدالله محمد بن عبدوس ت ٣٣١هـ

١٠ـ الوزراء والكتاب : تحقيق مصطفى السقا وجماعته ، مصر ١٩٣٨م

★ ابن حبيب : أبو جعفر محمد ت ٣٤٥
١١ـ كتاب المحبر ، طبعة بيروت ، دار الافاق

★ حتي : فليب
١٢ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، طبعة بيروت ، دار الثقافة

★ ابن حمدون : أبو المعالي بهاءالدين محمد بن الحسن ت ٥٦٢هـ
١٣ـ مخطوط كتاب التذكرة ، مكتبة الدراسات العليا ـ جامعة بغداد برقم ١٢٨٢

★ الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي ت ٤٦٣هـ
١٤ـ تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر سنة ١٩٣١م

★ ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ
١٥ـ المقدمة ، طبعة مصر .
١٦ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة قديمة

★ ابن خياط : خليفة ابو عمر ت ٢٤هـ
١٧ـ التاريخ : تحقيق اكرم العمري ، طبعة النجف سنة ١٩٦٧م

★ ابن دحية : أبو الخطاب عمر بن الشيخ ت ٦٣٣هـ
١٨ـ كتاب النبراس ، تحقيق عباس العزاوي طبعة بغداد ١٩٢٦م

★ الدوري : د. عبدالعزيز
١٩ـ الجذور التاريخية للشعوبية ، طبعة بيروت ١٩٨٠

٤١ـ مختصر كتاب البلدان ، مطبعة ليدن ١٣٠٢هـ

★ الهمداني : محمد بن عبدالملك

٤٢ـ ذيول تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل ، طبعة مصر ١٩٨٢م

★ الاهواني : أحمد فؤاد

٤٣ـ التعليم في رأي القابسي ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥م

★ اليعقوبي : أحمد بن ابي يعقوب ت ٢٩٢هـ

٤٤ـ كتاب التاريخ ، تحقيق محمد صادق ، طبعة النجف ١٩٦٤م

عتبة بن غزوان المازني

الاستاذ الدكتور عبدالرحمن العاني
عميد كلية التربية الاولى/جامعة بغداد

المقـــدمة :

يتركز هـذا البحث حول سيرة الصحابي الجليل عتبـة بن غزوان المازني ، والتي تمثل في مفرداتها واصالتها حياة الايمان والجهاد من أجل العروبة والاسلام ، والتي تتسم بالمبدئية والعفة ٠

فعتبة بن غزوان هو أحد السابقين الاولين ، وكان اسلامه بعـد اسلام ستة رجال ، فهو سابع سبعة في اسلامه ٠ وقد اسلم عتبة مخلصا لله في اسلامه ، فكان قويا في دينه ، صادقا في صحبته للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ٠

كان عتبة من المقاتلين الشجعان ، وهو من الرماة البارزين ، ووصفه ابن حزم بأنه « بدري أحدي » ، وقد شارك في جميع المعارك التي خاضها الرسول (ص) ضد المشركين ٠

لم يضع عتبة سلاحه يوم انتقل الرسول (ص) الى الرفيق الاعلى ، بل ضل يضرب به أعداء العروبة والاسلام ، وكانت له مواقف بطولية ضد قوات الاحتلال الفارسي في العراق ٠

ففي سنة ١٤هـ عينه الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قائدا لحركات التحرير في البصرة ، فقاد عتبة القوات العربية الاسلامية متوجها من المدينة

الى البصرة ، حيث قاتل الفرس وانتصر عليهم في عدة معارك ، وحـرر الأبلة والفرات والاحواز ، ومنـع الفـرس من ارســال مدداً لقواتهـم في المدائن • ومن أعمال عتبة المهمة تاسيس مدينة البصرة •

توفي عتبة سنة ١٥هـ في طريق عودته الى البصرة بعد اداء فريضة الحج ، وكان عمرّه يومئذ سبع وخمسين سنة • وهكـذا انتهت حيـاة الصحابي الجليل عتبة بن غزوان بعدما أعطى الكثير ، وبذل الكثير من أجل العروبة والاسلام ، وضرب أروع الامثلة في الزهد والعفة •

نسبه وكنيته وصنعته :

أما نسبه فهو عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب بن نسيب بن زيد بن مالك بن الحارث بن عوف بن مازن بن منصور بن عكـرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار المازني(١) ، وهو حليف لبني نوفل بن عبد مناف بن قصي(٢) •

أما كنيته فقد كان يكنى بأبي عبدالله(٣) ، وقد وصفه ابن سـعد بأنه « رجلا طوالا جميلا »(٤) •

اسلام عتبة وهجرته الى الحبشة :

كان عتبة بن غزوان من بين المسلمين السابقين ، وكان اسلامه بعد ستة رجال ، فهو سابع سبعة في أسلامه ، وقد قال ذلك في خطبته بالبصرة « ولقد رأيتني مع رسول الله (ص) سابع سبعة »(٥) • وقد وصفه ابن سعد بأنه قـديم الاسلام(٦) ، ووصـفه ابن حجـر بأنه من السابقين الاولين(٧) ، وذكر ابن كثير بأنه أسلم قديما(٨) •

وفي الايام الاولى للدعوة الاسلامية أيام العسرة ، صـمد عتبـة ابن غزوان مع اخوانه المسلمين ، متحدين المشركين ومتحملين الاذى في سبيل العقيـدة ٠

ولما أمر الرسول (ص) أصحابه بالهجرة الى الحبشة ، خرج عتبة مع المسلمين المهاجرين الى أرض الحبشة(٩) ، ويذكر ابن عبدالبر ان عمـره كان أربعين سنة عندما هاجر الى الحبشة(١٠) ٠

عودته الى مكة وهجرته الى المدينة :

ان شوق عتبة بن غزوان الى النبي (ص) لم يدعه يستقر في أرض الحبشة ، فسرعان ما طوى البحر والبر عائدا الى مكة حيث لبث بجوار الرسول (ص) حتى جاء ميقات الهجرة الى المدينة فهاجر عتبـة اليهـا مع المقداد بن عمرو(١١) ٠

وفي المدينة نزل عتبة على عباد بن بشر بن وقش أخي بني عبد الاشهل في دار عبد الاشهل(١٢) ، وقد آخى الرسول (ص) بين عتبـة بن غزوان وأبي دجانة سماك بن خرشة(١٣) ٠

صحبته للرسول (ص) ودوره في المدينة :

أسلم عتبة مخلصا لله في اسلامه ، فكان قويا في دينه ، صادقا في صحبته ، متفانيا في حب النبي (ص) ٠

كان عتبة في حيـاة الرسول (ص) من المقاتلين الشجعان ، وقـد وصفه ابن حزم بأنه « بدري أحدي »(١٤) ، فقد شارك في جميع المعارك التي خاضهـا الرسـول (ص) ضـد المشـركين ، وكـان مـن الرمـاة البارزين(١٥) ٠

جهاد عتبة ضد الفرس لتحرير العراق :

لم يضع عتبة بن غزوان سلاحه يوم انتقل الرسول الكريم (ص) الى الرفيق الاعلى ، بل ضل يضرب به أعداء العروبة والاسلام ، وكانت له مع قوات الاحتلال الفارسي في العراق مواقف بطولية ٠

حركات قطبة بن قتادة السدوسي ضد الفرس :

في الوقت الذي حقق فيــه العــرب الوحــدة السياسية في الجزيرة العربية ، فان عرب العراق وبدافع من شعورهم القومي قد تصدوا للفرس المحتلين وقاتلوا جيوشهم من أجل تحرير العراق من سيطرتهم البغيضة ، فيذكر البلاذري أن قطبة بن قتادة السدوسي كان « بغير في ناحية الحزيبة من البصرة على العجم ، كما كان المثنى بن حارثة الشيباني يغير بناحيــة الحيرة ، فلما قدم خالد بن الوليد البصرة يريد الكوفة سنة ١٢هـ أعانه على حرب أهل الأبلة »(١٦) ٠

يتضح من النص السابق ان قطبة كان يقوم بحركات عسكرية ضد القوات الفارسية في منطقة البصرة ، كما كان المثنى بن حارثة الشيباني يقوم بحركات عسكرية ضد قوات الفرس في منطقــة الحيرة ، وقــد قام قطبة بمن معه من المقاتلين العرب بمعاونة خالد بن الوليد في قتال العجم لتحرير الأبلة ٠

وقد تمكن خالد بن الوليد من تحرير الخريبة والحاق الهزيمة بالقوات الفارسية ، وهكذا تعاضدت جهود عرب العراق والقوات العربية الاسلامية القادمة من الجزيرة لتحرير أرض العراق والحاق الهزيمة بالفرس ٠

ونتيجة للانتصار الذي حققته القوات العربية على الفرس في الخريبة وتحريرها ، فقد قوي مركز قطبة في تلك النواحي وتوسعت حركاته ضد الفرس ، فكتب الى قائد الامة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يعلمه ذلك ويطلب منه المدد للقضاء على القوات الفارسية وبشكل نهائي ، يقول المدائني ان قطبة « كتب الى عمر يعلمه مكانه ، وانه لو كان معه عدد يسير ظفر بمن قبله من العجم ، ٠٠ وكانت الاعاجم بتلك الناحية قد هابوه بعد وقعة خالد »(١٧) ٠

ولما وصلت رسالة قطبة الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كتب اليه « انه اتاني كتابك انك تغير على من قبلك من العجم وقد اصبت ووفقت ، أقم مكانك ، واحذر على من معك من أصحابك حتى يأتيك أمري »(١٨) ٠

وقد قام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بأرسال شريح بن عامر السعدي على رأس قوة مددا لجيش قطبة ليكون له ردءاً ، وقد قام شريح بمهاجمة القوات الفارسية في الاحواز حيث استشهد هناك سنة ١٤هـ(١٩) ٠

عتبة بن غزوان يتولى قيادة جبهة البصرة :

ان استشهاد شريح لم يقلل من عزيمة الخليفة عمر بن الخطاب(رض) او اهتمامه بجبهة البصرة ، بل أسرع بتعيين الصحابي المعروف عتبة بن غزوان قائدا لحركات التحرير في البصرة ٠

وقد وردت عن تاريخ انفاذ عتبة بن غزوان روايات عديدة ، ولكن الغالبية يؤكدون انه ارسل سنة ١٤هـ ، مما يجعلنا نرجح رواياتهم ، يقول الطبري « وفي هذه السنة ـ اعني سنة اربع عشرة ـ وجه عمر بن الخطاب

تحرير الأبلة والفرات والاحواز :

اتخذ عتبة بن غزوان قاعدة حركاته في الخريبة ، حيث اقام معسكرا من الخيام والفساطيط والقصب ، وتقدم على رأس قواته نحو الأبلة لتحريرها من الفرس ، وكانت الأبلة مركزا لتجميع القوات الفارسية المحتلة ، فيذكر الطبري انه كان بها خمسمائة من الاساورة(٢٨) ، وطلب عتبة من قطبة بن قتادة وقسامة بن زهير المازني قيادة قوة مؤلفة من عشرة فرسان لحماية مؤخرة القوات العربية ومنع الجيش الفارسي من القيام بمهاجمتها من الحلف ، وكذلك منع القوات الفارسية التي تريد الهرب · وقد جرت معركة كبيرة انتصر فيها عتبة بن غزوان وهزم الفرس ، وتم تحرير الأبلة وطهرت من القوات الفارسية حيث دخلتها القوات العربية الاسلامية ، وقام عتبة بارسال نافع بن الحارث الى الخليفة عمر (رض) يعلمه بالانتصار على الفرس وتحرير الأبلة(٢٩) ·

كما أن عتبة وجه أحد قواده وهو مجاشع بن مسعود السلمي على رأس قوة الى الفرات ، وقد استطاعت تلك القوة الحاق الهزيمة بالفرس وتحرير مدينة الفرات(٣٠) ·

وبعد اتمام تحرير الأبلة سار عتبة بقواته نحو دست ميسان حيث هاجم القوات الفارسية هناك وحقق انتصارا كبيرا وحرر المنطقة ، ثم تقدم نحو منطقة أبزقباذ فحررها(٣١) ·

وهكذا استطاعت القوات العربية الاسلامية بقيادة الصحابي الجليل عتبة بن غزوان من الحاق الهزائم بالقوات الفارسية في منطقة البصرة وميسان ، وتم تحرير الأبلة ، والاحواز ، ومنع الفرس من ارسال مددا لقواتهم في المدائن ·

تأسيس البصرة :

تأسست البصرة عام ١٤هـ ، لتكون قاعدة للقوات العربية الاسلامية القادمة من الجزيرة العربية لتحرير جنوبي العراق من الاحتلال الفارسي، ومنع الفرس من ارسال قوات من جيوشهم المتواجدة في البصرة وميسان مددا لقواتهم في المدائن ·

كما ان انشاء البصرة يأتي ضمن الهدف السوقي لقائد الامة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وذلك بأستقرار القوات العربية الاسلامية في معسكرات ثابتة ، وتنظيم الادارة في المناطق المحررة · وقد أنشأ مدينة البصرة القائد عتبة بن غزوان الذي ارسله الخليفة عمر (رض) الى تلك المنطقة سنة ١٤هـ(٣٢) ·

لقد وردت عدة روايات حول الرقعة التي اختارها عتبة بن غزوان لبناء البصرة ، وتلك الروايات تظهر ان عتبة قد تنقل في أول قدومه المنطقة في عدة مواقع قبل ان يستقر في الموضع الذي نبيت فيه ، فيروي الطبري عن سيف بن عمر « لما توجه عتبة بن غزوان ··· الى فرج الهند نزل على الشاطيء بحيال جزيرة العرب فأقام قليلا ثم أرز ، ثم شكوا ذلك حتى أمره عمر بان ينزل الحجر بعد ثلاثة أوطان اذا اجتووا الطين فنزلوا في الرابعة البصرة ··· وأمر لهم بنهر يجري من دجلة فساقوا اليها نهرا للشفة »(٣٣) · وقد بين الطبري مواقع المنازل الثلاثة الاولى فقال « وأما أهل البصرة فكان مقامهم على شاطيء دجلة ثم أرزوا مرات حتى استقروا وبدءوا فخنسوا فرسخا وجروا معهم نهرا ، ثم فرسخا ثم جروه فرسخا ، ثم جروه ثم أتوا الحجر ثم جروه ، واختطت على نحو من خطط الكوفة »(٣٤) ·

ويذكر البلاذري انه عندما قدم عتبة منطقة البصرة كان فيها سبع دساكر : اثنتان بالخريبة ، واثنتان بالزابوقة ، وثلاث في مواضع الازد اليوم ، ففرق عتبة اصحابه فيها ونزل هو بالخريبة(٣٥) .

وفي رواية أخرى يذكرها البلاذري ان عمر وجه عتبة في ثمانمائة الى البصرة وامده بالرجال فنزل الناس في خيم فلما كثروا بنى رهط منهم سبع دساكر من لبن . منها بالخريبة اثنتان ، وبالزابوقة واحدة ، وفي الازد اثنتان ، وفي تميم اثنتان(٣٦) .

وقد وردت عدة روايات تؤكد نزول عتبة في الخريبة ، فيروي خليفة ابن خياط عن غنيم بن قيس انه قال « كنا مع عتبة بن غزوان فلما انتهى السير وراء منابت القصب قال : ليست هذه منازل العرب فنزل الخريبة »(٣٧) .

ويؤكد الطبري ان عتبة نزل الخريبة حيث يقول « قدم عتبة بن غزوان البصرة ... فلما رأى منابت القصب ونقيق الضفادع قال : ان امير المؤمنين امرني ان انزل اقصى البر من ارض العرب فهذا حيث واجب علينا فيه طاعة اميرنا فنزل الخريبة »(٣٨) .

وتوجد عدة روايات تؤكد ان عتبة لم يستقر بالخريبة حيث تحول منها بعد ذلك الى الموضع الذي استقر فيه نهائيا ، يروي البلاذري عن ابي عبيدة انه قال « لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة كتب الى عمر بن الخطاب يعلمه نزوله اياها وانه لابد للمسلمين من منزل يشتون به اذا شتوا ويكنسون فيه اذا انصرفوا من غزوهم ، فكتب اليه : ان اجمع أصحابك في موضع واحد وليكن قريبا من الماء والمرعى واكتب الي بصفته ، فكتب اليه أني وجدت أرضا كثيرة القصبة ، في طرق البر الى الريف ،

دونها مناقع ماء ، فيها قصباء ، فلما قرأ الكتاب قال : هذه ارض نظرة ، قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب ، وكتب اليه أن أنزلها الناس ، فانزلهم اياها فبنوا مساكن بالقصب ، وبنى عتبة مسجدا من قصب وذلك في سنة ١٤هـ ... فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حيث يرجعوا من الغزو ، واذا رجعوا أعادوا بناءه ، فلم تزل الحال كذلك ، ثم ان الناس اختطوا وبنوا المنازل »(٣٩) .

ويروي خليفة بن خياط « مر عتبة بموضع المربد فوجد الكدام الغليظ فقال هذه البصرة أنزلوها باسم الله »(٤٠) .

ان النص الذي أورده خليفة بن خياط يكمل لما سبقه من النصوص، وان الموضع الاخير الذي اختاره عتبة لبناء البصرة يمتد من موضع المسجد الجامع الى المربد(٤١) .

ان عتبة بن غزوان اتخذ البصرة قاعدة لقواته ، وكان عددها محدود في باديء الامر ، غير انه سرعان ما تزايد العديد ، فتقاطر الى البصرة وهاجر اليها فيما بعد عدد كبير من الناس ، يقول البلاذري « وقد كان الناس سألوا عتبة عن البصرة فأخبرهم بخصبها فسار اليها خلق من الناس »(٤٢) .

بناء المسجد والرحبة ودار الامارة :

انشئت البصرة لاقامة المقاتلة العرب المسلمين ، وكان أول شيء خطط هو تحديد مكان المسجد ليتسع لكافة المقاتلين وهو عبارة عن مساحة واسعة من الارض ، محددة بسياج من قصب ، وفي طرفه ظلة من قصب ، وحوله رحبة واسعة من الارض .

يقول البلاذري « وبنى عتبة مسجدا من قصب وذلك في سنة ١٤هـ، فيقال انه تولى اختطاط المسجد بيده ، ويقال اختطه محجن بن الاذرع البهزي من سليم ، ويقال اختطفه نافع بن الحارث من كدة ، حيث خط داره ، ويقال بل اختطه الاسود بن سريع التميمي وهو أول من قضى فيه »(٤٣) ·

ويقول البلاذري ايضا « وكان محجن بن الاذرع اختط مسجد البصرة ولم يبنه فكان يصلي فيه غير مبني ، فبناه عتبة من قصب »(٤٤) ·

ان اختلاف الروايات ربما يعود الى ما حدث في موقع المسجد ومساحته من تطور ، وان عتبة بن غزوان حدد موقعه ، وساهم كل من نافع ومحجن والاسود في تخطيطه(٤٥) · ثم ان عتبة بنى له حائطا من قصب ، وان الحائط لم يكن ثابتا ، فكانوا اذا ساروا للقتال نزعوا ذلك القصب وحزموه حتى يرجعوا من القتال ، فاذا رجعوا أعادوا بناءه(٤٦) ·

كما قام عتبة ببناء دار الامارة ، يذكر البلاذري ان عتبة « بنى دار الامارة دون المسجد في الرحبة التي يقال لها اليوم رحبة بني هاشم وكانت تسمى الدهناء ، وفيها السجن والديوان »(٤٧) ·

امارته ووفاته :

دامت امارة عتبر بن غزوان على البصرة ستة أشهر(٤٨) ، يفقه الناس في دينهم ، ويحكم فيهم بالعدل ، ويضرب لهم أروع مثل في الزهد والورع والبساطة ، وقد أكد تلك القيم في خطبته التي قال فيها « الحمد لله ، أحمده واستعينه ، واؤمن به واتوكل عليه ، واشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، أما بعد ايها الناس ، فان الدنيا قد

ولت حذاء ، وآذنت أهلها بوداع ، فلم يبق منها الا صبابة كصبابة الاناء ، الا وانكم ناركوها لا محالة ، فاتركوها بخير ما بحضرتكم ، الا وان من العجب ان يؤتى بالحجر الضخم فيلقى من شفير جهنم فيلق سبعين عاما حتى يبلغ قعرها . والله لتملأن ، الا وان من العجب ان للجنة سبعة أبواب ، عرض ما بين جانبي الباب مسيرة خمسين عاما ، وأيم الله لتأتين عليها ساعة وهي كظيظة من الزحام ، ولقد رأيتني مع رسول الله (ص) سابع سبعة ما لنا من طعام الا ورق البشام وشوك القتاد ، حتى قرحت أشداقنا ، ولقد التقطت بردة يومئذ فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص ، ولقد رأيتنا بعد ذلك وما منا ايها الرهط السبعة الا أمير على مصر من الامصار ، ... وأعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما وفي أنفس الناس صغيرا ، وستجربون الامراء بعدنا وتجربون فتعرفون وتنكرون »(٤٩) .

وفي موسم حج سنة ١٥هـ ، استأذن القائد عتبة بن غزوان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في تأدية فريضة الحج ، فأذن له الخليفة ، وبعد إتمام مراسيم الحج طلب من الخليفة عمر (رض) أن يعفيه من الامارة ، ولكن عمر لم يكن يفرط في هذا الطراز من الرجال فلم يوافق ، وطلب من عتبة الالتحاق بأمارته ، ولم يكن في وسع عتبر الا الطاعة ، وفي طريق عودته الى البصرة توفي في معدن بني سليم سنة ١٥هـ(٥٠) ، وكان عمره يومئذ سبع وخمسين سنة(٥١) . وهكذا انتهت حياة الصحابي الجليل عتبة بن غزوان ، بعد ما أعطى الكثير وبذل الكثير من أجل العقيدة وتحرير الارض العربية ، وضرب أروع الامثلة في الزهد والعفة .

الخاتمــة

لقد تضمنت صفحات البحث سيرة صحابي جليل وبطل من ابطال العروبة والاسلام ، وهو عتبة بن غزوان المازني ٠

لقـد كان الصحابي عتبـة نموذجا للرجال الابطـال الذين أنجبتهم الامة العربية والذين جاهدوا في سبيل نشـر العقيدة ، وتحـرير الارض العربية من الاحتلال الفارسي ، كما كانت حياته نموذجا للعفة والمبدئية ، وعتبة من السابقين الاولين ، فهو سابع سبعة في اسلامه من الرجال ، وكان صادقا في ايمانه ، تحمل أذى المشركين في مكة ، وهاجر الى الحبشة، ثم عاد الى مكة وهاجر الى المدينة مع بقية المسلمين ٠ كان عتبة مقـاتلا شجاعا ، وهو من الرماة المعروفين واشترك في جميع المعارك التي خاضها الرسول (ص) ضد المشركين ، وقد وصفته المصادر بأنه « بدري أحدي » ٠

قاد عتبة المقاتلين العرب المسلمين الذين خرجوا من جزيرة العرب نحو العراق لتحرير البصرة وما حولها من الاحتلال الفارسي ، ومنع الفرس من ارسال امدادات عسكرية من هذه المناطق الى قواتهم في المدائن ٠ وقد تمكن عتبـة ان ينتصر على الفرس في عـدة معارك ، وحرر الأبلة والفرات والاحواز ٠ ومن أعماله الخالدة تأسيس مدينة البصرة ٠

لم يكن عتبة راغبا في الامارة ، وعندما أكمل مراسيم الحج سـنة ١٥هـ طلب من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) أن يعفيه من امارة البصرة الا ان الخليفة عمر (رض) لم يكن يفرط في هذا الطراز من الرجال فلم يوافق ، فما كان من عتبة الا الطاعة ، وفي طريق العودة من المدينة الى البصرة توفي عتبة وكان عمره يومئذ سبع وخمسين سنة ٠

أن سيرة الصحابي عتبـة بن غزوان مليئة بالقيم العظيمة ، قيم البطولة والفداء من أجل العروبة والاسلام ، وقيم العفة والمدنية ونكران الذات ٠

الهوامش

(١) ابن الكلبي / جمهرة النسب / ٣٩٤ ، ابن هشام / السيرة / ١٠٧/١ ، ابن سعد / الطبقات / ٥/٧ ، الطبراني / المعجم الكبير / ١٠٦/١٧ ، البلاذري / فتوح البلدان / ٤٧٦ ، ابن حزم / جمهرة انساب العرب / ٢٦٠ ، ابن عبدالبر / الاستيعاب في معرفة الاصحاب / ١١٣/٣ ، ابن الاثير / أسد الغابة في معرفة الصحابة / ٥٦٥/٣ ، ابن حجر العسقلاني / الاصابة في تمييز الصحابة / ٤٥٥/٢ ، تهذيب التهذيب / ١٠٠/٧ ٠

(٢) خليفة بن خياط / تاريخ خليفة / ٢٦/١ ، الاستيعاب / ١١٣/٣ ، اسد الغابة / ٥٦٦/٣ ، الاصابة / ٤٥٥/٢ ، تهذيب التهذيب / ١٠٠/٧ ٠

(٣) ابن سعد / ٥/٧ ، الاستيعاب / ١١٣/٣ ، ابن الاثير / اللباب في تهذيب الانساب / ٣٢٠/٢ وبعضهم يكنيه بأبي غزوان ٠

(٤) ابن سعد / ٥/٧ ، انظر الطبراني / ١٠٦/١٧ ٠

(٥) ابن هشام / ١٠٧/٣ ، ابن سعد / ٥/٧ ، الطبراني / ١٠٧/١٧ ، الاستيعاب / ١١٣/٣ ، اسد الغابة / ٥٦٥/٣ ، ابن كثير / البداية والنهاية / ٦٨/٢ ، الاصابة / ٤٥٥/٢ ، ابن خلدون / تاريخ ابن خلدون / ٦٣٥/٢ ٠

(٦) ابن سعد / ٥/٧ ٠

(٧) الاصابة / ٤٥٥/٢ ٠

(٨) البداية والنهاية / ٥٤/٤ ٠

(٩) ابن هشام / ٣/١٠٧ ، ابن سعد / ٧/٥ ، الاصابة / ٢/٤٥٥ ٠
(١٠) الاستيعاب / ٣/١١٣ ٠
(١١) ابن هشـام / ١/٣٦٥ ، الازرقي / أخبار مكـة / ٢/٢٤٥ ، ابن دريد / الاشتقاق / ٣١١ ، الاستيعاب / ٣/١١٤ ، اسد الغابة / ٣/٥٦٥ ، ابن سيد الناس / عيون الاثر / ١/١٤٥ ، ابن كثير / ٢/٣٢٠ ، الاصابة / ٢/٤٥٥ ٠
(١٢) ابن هشام / ١/٤٧٩ ٠
(١٣) ابن حبيب / المحبر / ٧٢ ، ابن سـيد الناس / عيـون الاثر / ١/٢٤٤ ٠
(١٤) ابن حزم / جمهرة انساب العرب / ٢٦٠ ٠
(١٥) الواقدي / المغازي / ١/٢٤٣ ٠
(١٦) البلاذري / فتوح البلدان / ٤٧٥ ، انظر الطبري / ٣/٥٩٣ ٠
(١٧) الطبري / ٣/٥٩٣ ٠
(١٨) الطبري / ٣/٥٩٣ ٠
(١٩) خليفة بن خياط / تاريخ خليفة / ١/٩٥ ، الطبري / ٣/٥٩٣ ٠
(٢٠) الطبري / ٣/٥٩٠ ، انظـر فتـوح البلدان / ٣٤٦ ، المسعودي / التنبيه والاشراف / ٣٥٧ ، مروج الذهب / ٣/٢٢٨ ، الاستيعاب / ٢/٥٠٢ ٠
(٢١) الطبري / ٣/٥٩٠ـ٥٩١ ٠
(٢٢) الطبري / ٣/٥٩٣ـ٥٩٤ ٠
(٢٣) ابن سعد / ٧/٧ ، البلاذري / فتوح البلدان / ٤٧٨ ٠
(٢٤) الطبري / ٣/٥٩١ ٠

(٢٥) ن٠م٠ / ٣/٥٩٤ ٠

(٢٦) ابن سعد / ٧/٧ ٠

(٢٧) فتوح البلدان / ٤٧٦ ٠

(٢٨) الطبري / ٣/٥٩٤ ٠

(٢٩) خليفة بن خياط / تريخ خليفة / ١/٩٦ـ٩٧ ، فتوح البلدان / ٤٧٧ ، الطبري / ٣/٥٩٤ ٠

(٣٠) الطبري / ٣/٥٩٥ ٠

(٣١) ابن سعد / ٧/٧ ، فتوح البلدان / ٤٧٨ ، الطبري / ٣/٥٩٥ ٠

(٣٢) انظر : اليعقوبي / البلدان / ٢٣٥ ، الاصطخري / مسالك الممالك / ٨٠ ، ابن حوقل / صورة الارض / ٢١٢ ، المقدسي / احسن التقاسيم / ١١٧ ٠

(٣٣) الطبري / ٣/٥٩٢ ٠

(٣٤) ن٠م٠ / ٣/٥٩٢ـ٥٩٣ ٠

(٣٥) فتوح البلدان / ٤٧٦ ، انظر ياقوت / معجم البلدان / ١/٦٣٩ ٠

(٣٦) فتوح البلدان / ٤٧٨ ، انظر ابن الفقيه / البلدان / ١٨٨ ، ياقوت / معجم البلدان / ١/٦٤١ ٠

(٣٧) تاريخ خليفة / ١/٩٧ ٠

(٣٨) الطبري / ٣/٥٩٤ ٠

(٣٩) فتوح البلدان / ٤٨٣ـ٤٨٤ ، انظر ياقوت / ١/٦٤ ٠

(٤٠) خليفة بن خياط / ١/٩٧ ٠

(٤١) صالح العلي / خطط البصرة ومنطقتها / ٤٦ ٠

(٤٢) فتوح البلدان / ٤٧٩ ٠

(٤٣) فتوح البلدان / ٤٨٣ ·

(٤٤) فتوح البلدان / ٤٨٩ ·

(٤٥) العلي / خطط البصرة ومنطقتها / ٦٤ ·

(٤٦) فتوح البلدان / ٤٨٤ ·

(٤٧) فتوح البلدان / ٤٨٣ـ٤٨٤ ·

(٤٨) ابن سعد / ٧/٨ ·

(٤٩) ابن سعد / ٧/٦ـ٧ ·

(٥٠) الطبري / ٣/٤٧٨ ، ابن خلدون / ٤/٩٤٣ ·

(٥١) ابن سعد / ٧/٨ ·

المصـــادر :

ابن الاثير : أبو الحسن عزالدين علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ)
أسد الغابة في معرفة الصحابة
اللباب في تهذيب الانساب

الأزرقي : محمد بن عبدالله (ت نحو ٢٥٠هـ)
أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار

الاصطخري : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ)
مسالك الممالك

البلاذري : أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)
فتوح البلدان

ابن حبيب : أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥هـ)
المحبر

ابن حزم : أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦هـ)
جمهرة أنساب العرب

ابن حوقل : أبو القاسم ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ)
صورة الارض

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر

ابن خياط : خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ)
تاريخ خليفة بن خياط

دحلان : أحمد زيني (ت ١٣٠٤هـ)
السيرة النبوية والآثار المحمدية

ابن دريد : ابو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ)
الاشتقاق

ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠هـ)
الطبقات والسير

ابن سيد الناس : محمد بن محمد (ت ٧٣٤هـ)
عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير

الطبراني : سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ)
المعجم الكبير

الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)
تاريخ الرسل والملوك

ابن عبدالبر : أبو عمر يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣هـ)
الاستيعاب في معرفة الاصحاب

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ)

العقد الفريد

العسقلاني : شهاب‌الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)

الاصابة في تمييز الصحابة

تهذيب التهذيب

العلي : صالح أحمد

خطط البصرة ومنطقتها

القلقشندي : أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)

نهاية الارب في معرفة أنساب العرب

ابن كثير : عمادالدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)

البداية والنهاية

ابن الكلبي : هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ)

جمهرة النسب

المسعودي : علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر

التنبيه والاشراف

مصعب الزبيري : أبو عبدالله مصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦هـ)

نسب قريش

المقدسي : شمس‌الدين أبو عبيدالله محمد (ت ٣٧٥هـ)

أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

النويري : أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ)

نهاية الارب في فنون الادب

ابن هشام : أبو محمد عبدالملك (ت ٢١٨هـ)
السيرة النبوية

الواقدي : أبو محمد الحسن بن أحمد (ت ٢٠٧هـ)
المغــازي

ياقوت : شهاب‌الدين أبو عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ)
معجم البلدان

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ)
البلدان

الهوامش :

(1) Shannon, C.. The Crisis of Imperialism 1865-1915,

وعن حادثة فاشوده انظر :

(London. 1975), p. 339;

Sanderson, G.N.. England, Europe and the Upper Nile 1882-1899 (Edinburgh University press, 1965), pp. 332-380; Brown, R. N., Fashoda Reconsidered: The Impact of Domestic Politices on French Pohcy in Africa 1893-1898, (Baltimore. 1970).

(2) Bulow, Prince Bemhard von, Imperial Germany, translated by M. A. Lewnez, (London, 1914), p. 87.

(3) Seton-Watson, H., The Russian Empire 1801-1917. (Oxford Umversity Press, 1967), p. 578.

(4) Albertini, L., The Origins of the war 1914, transl atel and edited by I. M. Massey, Vol. I, (Oxford University press, 1965), pp. 102-7, 127-32.

(5) Stieve. F., Germany and Europe, (London, 1928), pp. 54-5.

(6) Langer, W.L., The Diplomacy of Imperialism 1890-1902, (New York, 1960), pp. 582-3.

(٧) عن الجذور التأريخية لامتياز مشروع سكة حديد برلين - بغداد انظر : العامر ، د. يقظان سعدون ، الاتصالات الالمانية _ العثمانية

بشأن الحصول على امتياز مد سكة حديد برلين – بغداد ١٨٨٠ – ١٨٨٢ ، المؤرخ العربي ، ١٩٨٩ ، العدد ٣٩ ، ص ٩٣ – ١٠٠ .

(8) Seton-Watson, Op. Cit., p. 578.

(9) Rolo, P.J.V.. Entente Cordile, (Glasgow University press, 1969), pp. 120-1.

(10) Nish, I.A., The Anglo-Japanese Auiance, The Diplomacy of Two Islands Empires 1894-1907, (Connecticut, 1976), pp. 216-8.

(11) Monger, G., The End of Isolation: British Foreign Policy 1900-1907, (London, 1963), p. 72.

(12) Nish, Op. Cit., pp. 321-2.

(13) Taylor, A.J.P, The Struggle for Mastery in Europe 1848-1918 (Oxford University press, 1954), p. 400.

(14) Nish, Op. Cit., p. 232.

(15) Quoted in Seton-Watson, op. cit., p. 586.

(16) Geiss, I., German Foreign Policy, (London, 1976), p. 97.

(17) Seton-Watson, op. cit., p. 587.

(18) Geiss, op. cit., p. 97.

(19) Ibid., p. 96.

(20) Balfour M., The Kaiser and His Time, (London, 1964). p. 241.

(21) Rolo, op. cit., p. 121.

(22) Fleming, D.F., The Origins and Legacies of World war I, (London, 1969), p. 80.

(23) Rolo, op. cit., p. 121.

(24) Balfour, op. cit., pp. 241, 246.

(25) Seton-Watson, op. cit, p. 286.

(26) Rolo, op. cit., p. 121.

(27) Fleming, op. cit., p. 80.

(28) Steinberg, J., Germany and the Russo-Japanese War, American Historical Review, vol. LXXV, December, 1970, p. 1967.

(29) Quoted in Bulow, op, cit., p. 44.

(30) Ludwig, E., Kaiser Wilhelm II, translated by E.C. Mayne, (London, 1928), p. 225.

(31) Quoted in Seton-Watson, op. cit., p. 586.

British Foreign Policy 1879-1902, (London, 1967), p. 241.

(33) Ibid., pp. 239-241.

(32) Lowe, C.J., The Reluctant Imperialits, vol. I,

(34) Ibid., p. 243.

(35) Taylor, op. cit., p. 404.

(36) Quoted in Pribram, A. F., England and the

Internatoicl (Oxford University press, 1971), p. 92.

(37) Stieve, op. cit., p. 72.

(38) Taylor, op. cit., p. 403.

(39) Pribram, op. cit., p. 92.

(40) Rolo, op. cit., p. 121-3.

(41) Taylor, op. cit., p. 404.

(42) Rolo, op. cit., p. 122.

(43) Pribram, op. cit., p. 94...

(44) Jelavich, B., St. Petersburg and Moscow: Tsarist and Soviet Foreign Policy 1814-1974 (Indiana University Press, 1974), p. 243.

(45) Seton-Watson, op. cit., p. 587.

(46) Nish, op. cit., p. 238.

(47) Geiss, op. cit., p. 98.
Rolo, op. cit., Chps. 7-12;

(٤٨) للمزيد من التفاصيل عن سير المباحثات انظر :
فارس ، محمد خيري ، المسألة المغربية (بيروت ، ١٩٨٠) ص ١٧٤ ـ ١٩٨ .

(49) Charques, R., The Twilight of Imperial Russia, (Oxford University Press, 1969), p. 91.

(50) Seton-Watson, op. cit., p. 589.

(51) Pares, Sis B., A History of Russia, (London, 1962). p. 487.

(52) Lowe and Dockrill, The Miroge of Power, Vol. I, British Foreign Policy 1902-1914, (London, 1972), pp. 5-7.

(53) Collins, D.N., The Franco-Russian Alliance and Russian Railways 1891-1914, The Historical Journal, Vol. XVI, 4, 1973, p. 784.
Seton-Watson, op. cit., pp. 588-9.

(٥٤) ترى بعض الدراسات ان تاثير هذه الجماعة مبالغ فيه . انظر :

(55) Jelavich, op. cit., p. 243.

(56) Charques, op. cit., p. 96.

(57) Ibid., p. 91.

(58) Geiss, op. cit., p. 97.

(59) Steinberg, op. cit., p. 1967.

(60) Geiss, op. cit., p. 97.

(61) Bulow, op. cit., pp. 43-44.

(62) Steinberg, op. cit., p. 1967.

(63) Albertin, op. cit., vol. I, p. 151,

(64) Steinberg, op. cit., pp. 1969-70.

(65) Ludwig, op. cit., p. 226.

(66) Oppel, B.F., The Waning of a Traditional Alliance:

Russia and Germasy after the Portsmouth peace ConConference, Central European History, vol. S, 1972, pp. 319-20.

(67) Dugdale, E.T., TheGerman Diplomatic Documents, vol. III, (London, 1969), p. 180. Hereafter will be cited as G.D.D. I

(68) Memorandum by the Chancellor Court von Bulow, 14 February 1904, G.D.D., pp. 180-1,

(69) Oppel, op. cit., p. 319.

(70) Steinberg, op. cit., p. 1970,

وللتفاصيل عن سير المعارك انظر :

Seton-Watson, op.cit., p. 591-3,

(72) Steinberg, op. cit., p. 1972.

(73) Lowe and Dockrill, op. cit, vol. I, p. 8,

(74) Balfour, op.cit., pp. 246-7,

(75) Balfour to Spencer Wilkinson, 3 January 1903. quoted in Lowe and Dockrill, op. cit., p. 7.

(76) Anderson, MflS., The Ascendency of Europe 1815-1914, Aspects of European History, (London, 1972), p. 29.

(77) Lowe and Dockrill, op. cit., vil. I, p, 7.

(78) Carr, W., A History of Germany 1815-1914, (London. 1969), p. 244.
(79) Fischer, F., War of Illusions: German policies from 1911-1914, translated by M. Jacksom, (London. 1975), p. 75.
(80) Berghahn, V.R., Germany and the Approach of war in 1914 (London, 1973), p. 46.
(81) Anderson, op. cit., p. 57.
(82) Pribram, op. cit., p. 100.
(83) Albertini, op. cit., vol. I, p. 149.
(84) Hale, O.J., The Great Illusion 1900-1914. (New York, 1971), p. 242.
(85) Quoted in Taylor, op. cit., p. 420.
(96) Albertini, op. cit., vol. I, p. 151.
(87) Fischer, op. cit., pp. 53-4.
(88) Albertini, op. cit., vol. I, p. 150.
(89) Quoted in Steinberg. op. cit., p. 1973.
(90) Taylor, op.cit., p. 421.
(19) Albertini, op. cit,, vol. I, p. 151.
(92) Aronson, T., The Kaisers, (London. 1973) p. 238.
(93) Long, J., France-Russian Relations during the Rsso-Japanese war. Slavoric and East European

Review, vol. 25, 1974, pp. 214-6.

(94) Collins, op. cit., pp. 783-4.

كان هناك خلاف بين وزارة المالية الروسية ورئاسة الاركان الروسية حول استخدام مبالغ القروض . فالاولى كانت تريد استخدام ولو جزء منها في المشاريع الاقتصادية ، بينما كانت الثانية تريد استخدامها في المشاريع العسكرية وبخاصة في مد سكك حديد استراتيجية . لذلك كانت وجهة نظر الملحق العسكري الفرنسي في العاصمة الروسية هي عدم مدح روسيا القروض في حالة اصرار وزارة المالية الروسية على موقفها .

Ibid., p. 785.

(95) Long, op. cit., pp. 215-8.

(96) Ibid., p. 219.

(97) Ibid., pp. 219-20.

(98) Quoted in Ibid., p. 221.

(99) Berghahn, op. cit., p. 46.

(100) Ludwig, op. cit., p. 225.

(101) Long, op. cit., pp. 221-2.

وللتفاصيل انظر :

Long, J., Manipulation of he French press, 1904-1906, Slauic Reuiew, Vol. XXXI, No. 2, June 1972, pp. 343-54.

(102) Long, Franco-Russian Relations, pp. 218-9.

(103) Carr, op. cit., p. 224.

(104) Feis, H., Europe, The world's Banker 1870-1914, (New York, 1965), pp. 226-7.

(105) Oppel, op. cit., p. 319.

(106) Charques, op. cit., p. 187.

(107) Monger, G.W., The End of Isolation, (London, 1968), p. 165.

(108) Bulow, op. cit., p. 234; Long, France-Russian Relation, p. 220.

(109) Padfield, p., The Great Naval Race, Anglo-German Naval Rivalry 1900-1914, (London, 1974), p. 119.

(110) Steinberg, op. cit., p. 1975.

(111) Ibid.

(112) Bernstein, H., The Willy-Nicky Correspondence, (New York, 1918), p. 112.

(113) Steinberg, op. cit., p. 1971.

(114) Ludwing, op. cit., p. 225; Steinberg, op. cit., p. 1971.

(115) Willy to Nicky, Neues Palais, 14 October (27 October) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 68-70.

(116) Willy to Nicky, Hubertustock, 25 September (8 October) 1904, Ibid., pp. 56-9.

(117) Ibid.

(118) Steinberg, op. cit., pp. 1971-2.

(119) Ibid., p. 1975.

(120) Long, France-Russian Relations, p. 223.

(121) Monger, op. cit., p. 165; Steinberg, Op. cit., pp. 1975-6.

(122) Willy to Nicky, Neues Palais, 2 November (15 November) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 77-8; Willy to Nicky, Neues Palais, 6 November (19 November) 1904, Ibid., pp. 78-82.

وللتفاصيل عن جذور النزاع البريطاني ـ الروسي في آسيا الوسطى انظر : العامر ، د. يقظان سعدون ، محاولات بريطانيا اشراك المانيا في مشاكلها الاستعمارية في آسيا الوسطى ١٨٨٥ ، المؤرخ العربي ، ١٩٨٩ ، العدد ٣٤ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٨ . وللباحث دراسة بعنوان « النزاع البريطاني ـ الروسي على الحدود الافغانية وموقف المانيا منه شباط ـ نيسان ١٨٨٥ » سينشر في مجلة المؤرخ العربي في عدد لاحق .

(123) Bernstein, op. cit., p. 20,

(124) Count von Metternich to the German Foreign Office, London, 13 october 1914, G.D.D., Vol. III, p. 182.

(125) Bernstein, op. cit., p. 72; Marder, A.J., The Anatomy of Bntish Sea Power, A History of British Naval Policy in the Pre-Dreadnought Era

1880-1905, (London, 1972), pp 439-40.

(126) Willy to Nicky, Neues Palais, 14 October (27 October) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 68-71.

(127) Nicky to Willy, Tzarskoe Selo, 16 October (28 October) 1904, Ibid., pp. 73-5.

(128) Quoted in Balfour, op. cit., p. 249,

(129) Bernstein, op. cit., pp. 15-6.

(130) Balfour, op. cit., p. 249.

(131) Willy to Nicky, Neues Palais, 8 Octoben (19 October) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 61-2.

(132) Nicky to Willy, Tzarskoe Selo, 10 October (23 October) 1004, Ibid., pp. 66-7.

(133) Willy to Nicky, Neues Palais, 17 october (30 october) 1904, Ibid., p. 76.

(134) Willy to Nicky, Neues Palais, 2 Nouember (15 November) 1904, Ibid., pp. 77-8.

(135) Willy to Nicky, Neues Palais, 6 November (19 November) 1904, Ibid., pp. 78-81.

(136 Balfour, op. cit., p. 249.

(137) Mbertini, op. cit., vol. I, p. 152.

(138) Stieue, op. cit., p. 76.

(139) Nicky to willy Txarskoe Selo, 10 November (23 November) 1904, Bernstein, op. cit., p. 83.

(140) The Emperor William to the Chencellor Count von Bulow, 28 Dececber 1904, G.D.D., vol. III, p. 184.

(141) Stieve, op. cit., p. 76; Pribram, op. cit., p, 101,

(142) Nicky to Willy, Tzarskoe Selo, 16 October (28 October) 1904, Bernstein, op. cit., pp. 73-5.

(143) Count Von Metternich to the German Foreign Offive, London, 27 october 1903, G.D.D., vol. III, p. 183.

(144) Willy to Nicky, Moschen b. Kujau, 13 November (26 Novemben) 1904, Bernstein, op., pp. 85-2.

(142) Steinberg, op. cit., p. 1981.

(146) Jelavich, op. cit., p. 253.

(147) The Emperor William to the Chancellor von Bulow, 28 December 1904, G.D.D., vol. III, p. 184.

(148) Taylor, op. cit., pp. 422-3; Albrecht-Carrie, A Diplomatic History of)urope Since the Congress of Vienna, (London, 1970). p. 246.

(149) Taylor, A.J.P., Europe. Grandeur and Decline (Penguim Books, 1967), p. 145.

(150) Berghahn, op.cit., p. 50.

(151) Kennedy, P.M., The Development of Germen Navol Operations Plans against Englanl 1896-1914, English Historical Review, vol. 89, Januery 1974, p. 60.

(125) Tirpitz to Richthfen. I November 1914, qusted in Steinberg. op. cit., p. 1977; Padfield, op. cit., p, 120,

(153) Oppel, op. cit., pp. 319-20.

(154) G.D.D., vol. III, p. 182; Monger, op. cit, p, 172,

(155) Padfield, op. cit., pp. 121-2.

(156) Quited in Ibid., p. 119.

(157) Metternich to Bulow, I November 1904, quoted in Steinbery, op. cit., p. 1978.

(158) Pribram, op. cit., p. 100.

(159) Metternich to Bulow, I November 1904, yuoted in Steinbearg, op. cit., p. 1978.

(160) Steinberg, J., The Copenhagen Complex, Journal of Contempirary History, vil. I, No. 3, 1966, pp. 31-40.

(161) Monger, op. cit., p. 176.

(162) Balfour, op. cit., p. 251.

(163) Kennedy, op. cit., pp. 95-6; Stinberg, Germany

and the Russo-Japanese war, pp. 1978-1881.

(164) Quoted in Monger, op. cit., p. 177.

(165) Bulow to Holstein, 13 December 1904, quoted in Steinberg, Germeny and the Russo-Japanese war, pp. 1981-2.

(166) Ibid., pp. 1982, 1985.

(167) Bernstein, op. cit., p. 112.

(168) Nicley to Wolly, Tzarskoe Selo, 28 Nouember (11 December) 1904, Ibid, pp. 24-5; Nicley to willy, Tzarskoe Sels. 29 Nouember (12 December) 1904, Ibid., p. 96.

(169) Willy to Nicky, Neues Palais, 27 November (10 December) 1904, Ibid., p. 90.

(170) Willy to Nichy (No Place, no date), Ibid., pp. 96-8.

(171) Nichy to Willy (No place, no date) Ibid., pp. 99-100.

(172) Willy to Nichy, Borlin, 2 February (15 February) 1905, Ibid., pp. 100-101.

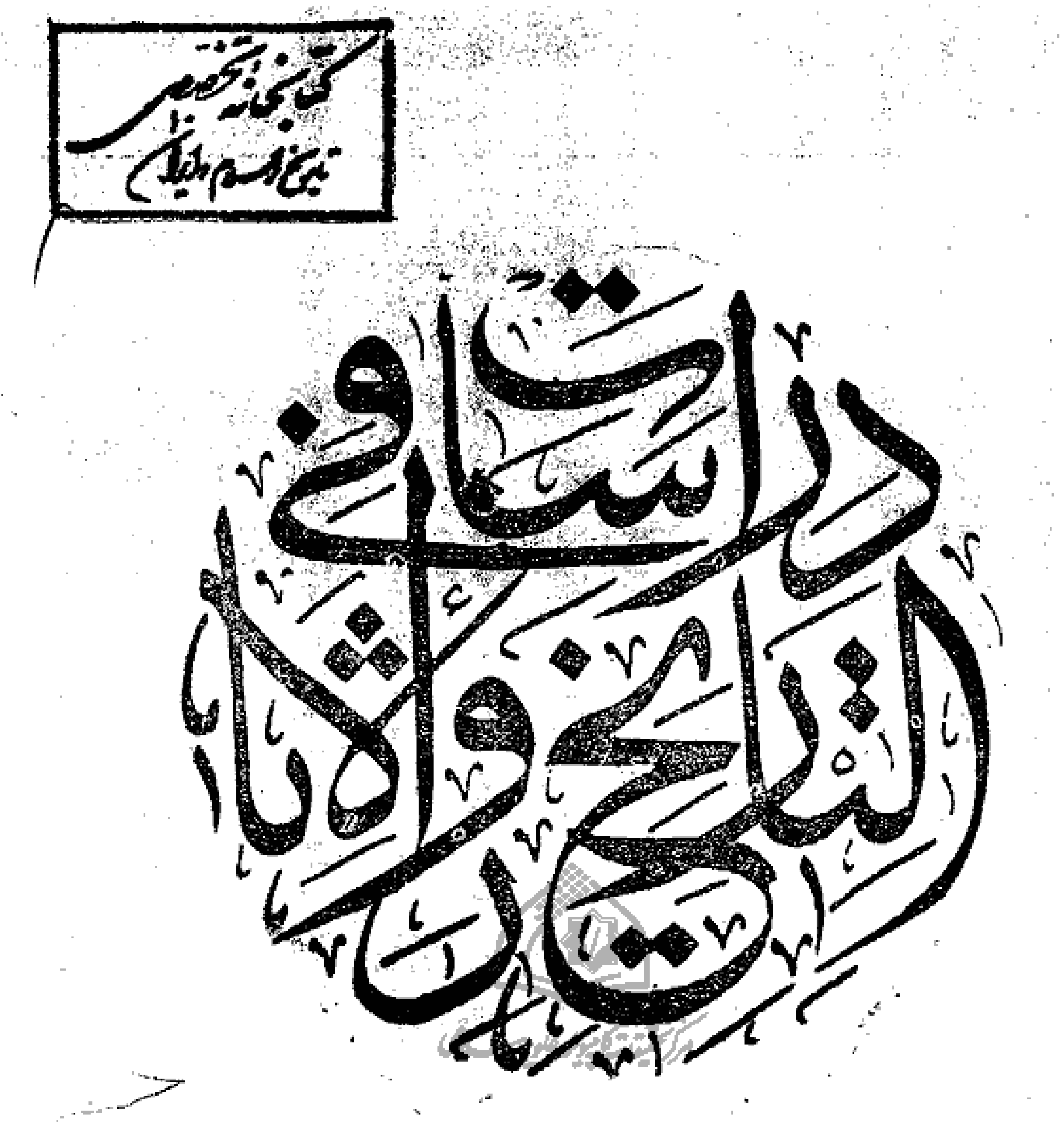
(173) Steinbary, Dermany and the Russo-Japanese War, pp. 1982-3.



رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٤٣٦ لسنة ١٩٩٠

سعر النسخة ديناران

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان



(٨)

مجلة جمعية المؤرخين والاثاريين
في العـراق

مطبعة الامـة – بغداد


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

دراسات في التاريخ والآثار

مجلة فصلية تصدرها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

هيئة التحرير

المراسلات : جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق
العراق / بغداد / ص.ب (٧٥٥٣) شارع حيفا

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير

ص.ب : (٧٥٥٢) شارع حيفا

مجلة دراسات في التاريخ والاثار ـ جمعية المؤرخين والاثاريين
ت : (٥٣٨١٣٠٤)

الاشتراكات السنوية في مجلة دراسات في التاريخ والاثار
الاشتراك السنوي

الجامعات والمؤسسات في العراق (٥٠) دينارا سنويا

اعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا

الافراد عموما (١٠) دنانير سنويا

تدفع الاشتراكات مقدما وكالاتي :

أ ـ صكوك لامر الجمعية

ب ـ نقداً لامر الجمعية

في هذا العـــدد

الصـــفحة

أصالة الحضارة العراقية القديمة وتأثيراتها

رضا جواد الهاشمي
استاذ بقسم الآثار
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تقـــديم :

لاجل الحديث عن الحضارة العراقية القديمة ودورها في رفد البناء الحضاري الانسانية ، يتوجب علينا مناقشة ثلاث نقاط أساسية هي :ـ

أولا ـ التأكيد على الاولوية والتقدم في قيـام الحضارة في العـراق القـديم ٠

ثانيا ـ متابعة الطرق والاساليب والوسائل التي عبرت من خلالها أو بواسطتها عناصر الحضارة العراقية القديمة الى خارج مركزها الرئيسي

ثالثا ـ اكتشاف عناصر حضارية في مواطن مختلفة من أقطار الشرق الادنى القديم ودراستها وتحليلها بغية البرهنة على أصولها العراقية ٠

يبدو واضحا من مطالعة هذه النقاط وترابطها مع بعضها أن كل فقرة منها لا تقل أهمية في سياق البحث عن غيرها ٠ فالبرهنة على القدم والاولوية تعد ضرورة لمدخل الحديث عن أثر أية حضارة على الاخريات ، فليس من المنطق أن نتحدث عن أثر حضارة اليونان في الحضارة المصرية أو حضارة بلاد وادي الرافدين مع ثبوت كون الحضارتين المصرية والعراقية القديمتين تسبقان مولد الحضارة اليونانية بعشـرات القـرون ٠ فالاثر ينتقل من

كلمة العدد

يصدر العدد الثالث من المجلة وسط حالة استعداد وترقب لاصدار العدد التاسع الذي سوف يشهد تطبيق الخطة الجديدة للمجلة مضموناً واخراجاً وشكلا وتقاليد بحث، ووسط نشاط واسع لحركة البحث التاريخي لعبت هيئة كتابة التاريخ دورا رائدا في اذكائه ودفعه للتطور والابداع، مع شعور بالحاجة الى المزيد من العمل في حقل الدراسات التاريخية . ومع ان قائمة محتويات العدد تشير الى استمرار نمطية العمل السابق في اصدار المجلة الا ان المراقب الدقيق يستطيع ملاحظة جملة اشياء بدأت تتغير نحو الاحسن وتبشر بامكانية تعبئة طموح الجمعية في تطوير مجلتها لتسهم في تطوير الدراسات التاريخية .

يصدر هذا العدد وسط حالة استبشار عربي توج بصمود العراق في وجه المؤامرة الامبريالية الصهيونية وأفشاله سياسة التطويق والعزل، وصمود انتفاضة شعبنا العربي الفلسطيني في وجه القمع الصهيوني والصمت والتغاضي العنصري ، وتحقيق وحدة اليمن الشقيق التي هيأت له ارضية صلدة لدور قومي وطني مبشر . لقد توجت حالة الاستبشار بانعقاد المؤتمر الشعبي العربي لمناصرة العراق وانعقاد مؤتمر القمة العربي الاستثنائي في بغداد وسط ضغوط دولية واسعة ومحاولات لئيمة لوضع العصي في عجلة الدفاع عن الامن القومي العربي ، ان الاستبشار مالم يتواصل ويتحول ارادياً الى ممارسة فعلية للمسؤولية التاريخية يبقى مجرد حالة طارئة غير ان التحول المنشود هو الاخر بدأ يفصح عن نفسه فالموقف الارادي العربي الواعي المتحمس والمتحمس لاداء مسؤوليته التاريخية هو الاخر بدأ يفصح عن نفسه في شكل تعاظم وعي وتعزيز صمود فلا بد اذن ان يقود الى النتيجة الطبيعية وهي الانتصار لمستقبل عربي يبتدأه العرب بشعار القائد العظيم صدام حسين

« التقدم التقني والعلمي عنوان الوطنية الجديد » .

رئيس التحرير


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الاجداد والآباء الى الابناء ، ومن الاقدم زمنا الى الاحدث وليس العكس .
لذلك يكون ضروريا الحديث عن البدايات الاولى لفجر الحضارة الانسانية باعتبارها الخطوة الاولى على طريق البنـاء والتقدم الحضاري . ومهمـا اقترنت الخطوة الاولى بالعثرات والصعوبات لكنها تمثل دون شك الاساس الذي شهد بعدئذ تشييد الصرح الشامخ لحضارة بني الانسان .

ويكون ضروريا أيضا عند الحديث عن أثر حضارة ما في الحضارات الاخرى أن تكتشف الطـريق الذي سلكته ، والوسائل والسـبل التى توسلت بها العناصر المختلفة في طريق انتقالها من هذا المركز أو ذاك الى غيرهما من المراكز الحضارية .

فقـد كان لزاما على عـالم الآثار النرويجي « هيريدال » أن يثبت امكانية الانتقال بحرا من مصر الى سواحل امريكا على مقربة من البيرو ، ليعزز بذلك فرضيته التي ترى بأن قدامى المصريين كانوا وراء نقل خبرة بناء الاهرامات الى مراكز حضارتي المـايا والانكا في القارة الامريكية . ويتذكر الكثيرون ، وبخاصة من الاثاريين ، رحلة رع الاولى ورع الثانية في الستينات من هذا القرن . لزورقين بناهما هيريدال على غرار الزوارق الفرعونية المعمولة من البردي ، وسار بهما مع شواطىء البحـر المتوسط ونفذ من أعمدة هيرقل (مضيق جبل طارق) وعانق مياه المحيط الاطلسي في رحلة مجازفة خطيرة فشلت الاولى من تحقيق مهمتها ، بينمـا تناقلت الاخبار نجاح الثانية تقريبا .

ومع اقرارنا بأن وجـود أسباب للاتصال بين شـعبين أو مركزين حضاريين لا تفيد بالضرورة تأكيد أنتقال عناصر حضارة من مكان لآخر ، لان ذلك يجب اقترانه بفصـل النقـاط الثلاث التي اثيرت في فاتحة هـذا

البحث ، ولكن الطريق يبقى بالضرورة أحد الاسباب المهمة في هذا السياق .

فلو أردنا الحديث عن أثر حضارة العراق القديم في بلاد ايران مثلا ، فان طرق الاتصال لا تقف حائلا دون تحقق ذلك ان لم تكن قد زادت فعلا من فرص التبادل والاتصال والانتقال الحضاري .

ومع تحقق الشرطين الاول والثاني ، يبقى الحديث عن العناصر الحضارية المنتقلة أو المتأثرة بمراكز أخرى بحاجة الى دراسة وتحليل واثبات . وتبرز أحيانا في دراسة التأثيرات الحضارية أو انتقالها بعض العناصر التي تكشف عن أصولها دونما حاجة الى طول أناة أو براهين ودلائل كثيرة ، فطقوس عبادة الآلهة عشتار وكهنتها والقصص الدينية التي تدور حول شخصها وما الى ذلك ، نجدها كاملة مع استمرار اسم الآلهة عشتار بصيغه العراقية القديمة في سوريا ، وبخاصة عند الفينيقيين(١) كما يبدو واضحا جليا نقل الاخمينيين لرمز الاله آشور واعتماده ، بعد اجراء تحوير بسيط عليه ، رمزا لآلههم امورامزاد ، وبالتالي رمزا لدولتهم(٢) .

وأخيرا فأن الكتابة المسمارية كعنصر حضاري عراقي قديم يكشف بوضوح ، لا عن انتقاله الى هذا المركز أو ذاك فحسب ، وانما يكشف أيضا عن المديات الواسعة لتأثير الحضارة العراقية القديمة ، فقد كتب العيلاميون والحثيون والخوريون بكتابات اشتقت من الخط المسماري كما كتب المصريون الفراعنة جانبا من صلاتهم السياسية الخارجية بالخط المسماري ، حيث وصلتنا منهم مجموعة من الرسائل الدبلوماسية تعرف برسائل تل العمارنة نسبة الى اسم الموقع الذي اكتشفت فيه ، وكلها

مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية ، ووضع الفينيقيون أبجديتهم بقلم اقتبسوه عن الخط المسماري(٣) ·

من الطبيعي أن تدخل الشعوب على العناصر والمقومات الحضارية التي تقيسها بعض التعديلات التي تجعل من العنصر الحضاري المستورد .. مع مجموعة الخصائص في البيئة الجديدة ، سواء كانت في الفكر او العادات والتقاليد أم في البيئة الجغرافية والطبيعيه ، ومع مرور الزمن والتطور والتغير الذي يصيب عناصر الحضارة ، تأخذ العناصر المقتبسه بالابتعاد كثيرا او قليلا عن منابعها الاصلية ، لذلك تحتاج عملية فرز مثل هذه المقومات والعناصر الى التحليل والدراسة الدقيقة والمقارنة ، وهي مهمة انبرى لها أكثر من باحث وافردت لها فصول وكتب ، أجد في الاشارة الى بعضها(٤) عذرا عن عرضها أو متابعتها في بحثي هذا ، وسأقتصر حديثي عن الفقرتين الاولى والثانية ·

الحضـــارة :

من الموضوعات التي يحتدم حولها النقاش لفظة الحضارة ، في معناها ومداولها وتحديد الخصائص والمميزات التي تنضوي في أطارها ، كما يكثر الخلاف في الفرق بينها وبين لفظتي ثقافة ومدنية · ويرتبط هذا الموضوع بالضرورة بالحديث عن بدايات الحضارة أي نشوئها ، فأن تعيين الشكل يساعد على تعيين البداية ·

ومع اقراري بتشابك الآراء واختلافها ، ولكنني أجد ميلا الى ترجيح آراء بعض كبار علماء الاثار والتاريخ القديم ، ومنهم هنري فرانكفورت الذي خصص كتابه « فجر الحضارة في الشرق الادنى » للحديث عن هذا

الموضوع ، وكذلك صموئيل نوح كريمر عالم السومريات المشهور ، الذي ناقش هـذا الموضوع في كتـابه « السومريون » ، وكـذلك عـالم الاثار البريطاني جوردن جايلد في كتابه « ماذا حدث في التاريخ » ، حيث ستتكرر الاشارة والاقتباسات من دراساتهم آنفة الذكر في مستقبل الحديث عـن هذه الفقرة ٠

أن تطرقي لهذا الموضوع الشائك لم يكن رغبة لسبر غوره أو تقديم المبررات لقبول هذا التفسير أو ذاك ، وانما يمثل موقفا محددا من الاراء المطروحة ، يكـون اعتماده ضروريا لبدء الحديث عـن الحضارة ٠ وحتى تكون الطروحات المعروضة على الصفحات المقبلة واضحة للقارىء بصرف النظر عن الاختلافات غير المحسومة بشأن موضوع الحضارة ٠

وقياسا على آراء الباحثين الثلاثة وغيرهم فأن منتصف الالف الرابع ق٠م٠ يمثـل البدايات الاولى أو الخطوات التمهيدية على درب الحضـارة العراقية القديمة ، وانهم يجمعون على كون هذا البناء المتكامل والمنسجم المتمثل بالحضارة لم يظهر فجأة ٠ وانما ولد عبر مخاض طويل وعسـير يمثله العصر الحجري الحديث ، ومن خلال أبرز التحولات الاقتصادية في هذا العصر ، تمثله الثورة الزراعية ٠

« اذن كانت (الثورة) الزراعية عاملا حاسما في تطوير حياة الانسان وكانت حدا فاصلا بين نمطين مختلفين من أساليب معيشة الانسان يعرف الاول الذي سبق الزراعة بنمط أو اسلوب جمع القـوت بينما يعـرف الثاني الذي أعقب الزراعة بأسلوب انتـاج القوت ٠ على أنـه لابد من الاشارة هنا الى أن هذه (الثورة) والمتغيرات التي رافقتها لم تشمل العالم المأهول في ذلك الوقت بأكمله ، واقتصرت آثارها في بادىء الامر على مناطق

محدودة من الشرق الادنى القديم ، وكانت المناطق الشرقيـة والشمالية الشرقيه من العراق من أولى المناطق التي شهدت تلك الثورة وما أدت اليه من تحول الانسان من حياة جمع القوت الى حياة انتاج القوت او لنقل من عصر التوحش الى عصر البربرية ، وما نتج عن ذلك من استقرار وظهور المجتمعات القروية الزراعية »(٥) ٠

أن المهم جدا في هـذا الرأي أنه يحصر بدايات الحضارة بالعصر الحجري الحديث ومتغيراته الرئيسية ، كما يضع العراق في أوائل الاقطار التي شهدت هذه البدايات ٠

و « كانت الكتابة (ثورة) ثانية بعـد الزراعة في حيـاة الانسان وعاملا حاسما نقل الانسان من حياة البربريه الى حياة التمدن ، ومن حياة القرى الصغيرة والمجتمعات الضيقة الى حيـاة المـدن الواسعة والمجتمعات الكبيرة ٠

واعتبرت الكتابة حدا فاصلا بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية وكانت القوة الدافعة العنيفة التي أطلقت الانسان في طـريق النمو والازدهار والتقنية »(٦) ٠

وهكذا يكون واضحا تحديد الحضارة ، فبعد أن اعتبر العصر الحجري الحديث بدايات الحضارة ، فأن اختراع الكتابة تعد الخطوة الاساس التي نقلت الانسان الى حياة التمدن أو التحضر ٠

« وقـد ثبت بشكل لا يترك مجـالا للشك بأن الكتـابة اخترعت واستخدمت لاول مرة في تاريخ الانسان في القسـم الجنوبي من العـراق (أي في بلاد سومر) وكان ذلك في الثلث الاخير من الالف الرابع ق٠م٠ ،

ومن هذه البقعة انتشرت الى بقية أنحاء الشرق القديم ، أو كانت عاملا في الايحاء على الاقل الى الشعوب الاخرى لتطوير كتابات خاصة بها »(٧) ٠

فاذا كان اختراع الكتابة بهذا القدر من الاهمية والخطورة على تحضر بني البشر ، ويكون الفضل والريادة في هذا الجانب للعراق بدون منازع ، فأن السؤال الذي يفرض نفسه بقوة يتوجه للبحث عن العلاقة بين الكتابة والتحضر ٠

في عام ١٩٥٦ نشر صموئيل نوح كريمر كتابه « من ألواح سومر » ثم نقحه وأعاد طبعه وترجم الى لغات عديدة تحت عنوان « التاريخ يبدأ من سومر » ٠ والكتاب يجتمع على خمس وعشرين مقالة تهدف الى تأكيد حقيقة مهمة ، فهي عندما تتحدث عن « أوائل » ما هو مدون في تاريخ الانسان وحضارته ، فأن كريمر يريد أن يقول من خلال هذه المقالات بأن « التاريخ يبدأ في سومر » ٠

ويضيف كريمر في توطئته لمؤلفه الشهير « من ألواح سومر » أن هذا الكتاب يتألف من خمسة وعشرين موضوعا ينظمها جميعا عقد واحد مشترك ، وأنها جميعها تخبرنا عن « الاوائل » (أوائل الاشياء واصولها) في تاريخ الانسان المدون ، وعلى هذا فأن أهميتها ليست بالقليلة في تاريخ الآراء وفي درس اصول الحضارة ٠ ولكن هذا ما هو الا نتاج ثانوي عرضي والهدف الاصلي لهذه المقالات هو تقديم صورة واضحة لما حققته مدنية من أقدم مدنيات الانسان وأكثرها ابداعا وخلقا وذلك من الناحيتين الروحية والثقافية »(٨) ٠

ولا أدل على أهمية هذا العمل في حياة المؤلف وانجازاته العلمية على كثرتها أنه يقول عنه « ان القسم الاكبر من المادة العلمية التي جمعت

وعرضت في هذا الكتاب ممزوجة بـ « دمي وكدي ودموعي وعرقي »(٩) ٠

لنعرج الان على الموضوعات التي قدمها كريمر في كتابه لنتعرف على ماهيتها واهميتها في تاريخ الانسان وفكره وحياته ، وهل ترقى الى المستوى الرفيع الذي وضعها كريمر فيه ، فنجد أن أول الموضوعات يتطرق الى التربيه والتعليم والمدارس الاولى في تاريخ بني الانسان ، حيث نكتشف من ثنايا العرض بأن هذه الحالة المتقدمه في تاريخ الفكر الانساني شهدت تطبيقا عمليا لاول مرة بحدود عام ٢٥٠٠ ق٠م٠(١٠) وأنها بلغت مرحلة النضج والازدهار مع أواخر الالف الثالث ق٠م٠(١١) ٠ وليست أهمية المدرسة أو أي نظم للتربية والتعليم في الادارة او القوانين أو المناهج أو الموضوعات وما الى ذلك من أمور ، على قدر ومبلغ أهميتها ، الا أنها لا ترقى الى مستوى أهمية « الكلمة ، الفكرة » المدونة وانتقالها عن طريق التعليم من جيل الى آخر ٠

ان التربية والتعليم خاصية انسانية فقط ، حيث تقف التربية الحيوانية عند حدود التقليد فقط ، بينما يتجاوز الانسان طريقة التقليد الخطرة الى التلقين الذي يتم بفضل اللغة(١٢) ٠ فاللغة هي الوسيلة لنقل تراث الاختبار الاجتماعي ، وبواسطتها يمكن جمع الاختبار ونقله ٠ ولكن التجريب يستمر خاضعا الى احتمالات الخطأ والنجاح ، ويبقى التخريب أيضا أسير التفاعل بين الانسان وبين العالم الخارجي ، لذلك يوصف استعمال العقل بأنه المقدرة على حل المشاكل بدون القيام بعملية التجريب والخطأ الفعلية(١٣) ٠

ولاجل قيام العقل بعمله الكامل لابد من الاعتماد على « رموز » الاشياء وليس بواسطة الاشياء والاعمال نفسها ويعني ذلك أيضا امكانية

تحقق التجربة عن طريق رموزها « في الرأس » بدلا من العالم الخارجي ، وعندها تبرز أهمية الكلمة التي تجسد الرمز ، فالكلمات عبارة عن مصطلحات ترمز الى أشياء مختلفه ، ولا يمكن للكلمات الرامزة ان تنتقل الا من خلال الكتابة ، ومن هنا تبرز الاهمية البالغة لاختراع الكتابة واستخدامها في حضارة العراق القديم ٠

وهكذا أصبحت « الكلمة – الفكرة » بفضل التربية والتعليم التي وضعت أسسهما في العراق القديم ، قادرة على رفد التجربة الانسانية بمصادر النمو والتقدم ، وهيأت لها أسباب التطور والازدهار ٠ ان جميع العلوم والمعارف والآداب الانسانية وقواعد السلوك والاخلاق والقوانين والتنظيمات ومبادئ العلاقات ، لم تستطع بلوغ ما حققته من ذرى الا بفضل الاستفادة من الكلمة المدونة أي الخزين لمجموع الافكار والتجارب الانسانية في المجالات الحياتية المختلفة ٠

لم تكن الكتابة وما يلتحق بها من مدونات في مجالات مختلفة حدث عرضي حققته الصدفة ، وانما كانت نتيجة حتمية لمجموعة من الشروط الاقتصادية والاجتماعية والفكرية نتلمس آثارها في بقايا المخلفات المادية أو المدونات القديمة ٠ ففي الفصل الثاني من كتاب ألواح سومر سالف الذكر ، يعرف المؤلف لاول حالة في التملق ، وهي تكشف بالضرورة عن مواقف فكرية تسببها عادة ظروف اقتصادية واجتماعية ٠ وبذلك فأن التطورات الاقتصادية وافرازات الواقع السياسي والاجتماعي أملت على الناس مواقف فكرية معينة ، وتطلبت في بعض الاحيان اجراءات عملية أو مرونة التحرك ٠

وقد يظن البعض بأن هذه الافكار المتقدمة والاحاسيس المرهفة لم

تكن حالات عامة وانما اقتصرت على قلة من المفكرين أو العباقرة ، بخاصه وأنها صدرت عن اناس يتفننون الكتابة ، ولان الكتابة وشؤونها كانت حكرا على عدد محدود من أفراد المجتمع · ومع سلامة هذا التوقع ، ولكن الشواهد الكثيرة على الخبرات المتطورة والافكار الثاقبة في مجالات مختلفه ، تدفع للاعتقاد بأن التطور الفكري وما يتبعه من أحاسيس ومواقف كانت أطارا كبيرا يضم كل الناس في صورة تختلف في وضوح تفاصيلها من مكان لآخر · فاول حرب للاعصاب ، وهو موضوع الفصل الثالث من الكتاب ، يبحث في تفاصيل العلاقات الدولية ، ويكشف النص عن حذاقة في العمل الدبلوماسي دفع الى أرجحية في العلاقة بين دولتين سببت في ثراء أحداهما على حساب الاخرى دونما حاجة الى حرب أو اقتتال وتحمل مشاقها . فكانت الحرب النفسية التي تعد من أفتك الاسلحة المعاصرة ، أو حرب الاعصاب ، وسيلة اعتمدها قادة مدينة الوركاء ضد عدوتهم مدينة « أراتا »(١٣) ·

أما موضوع الفصل الرابع والذي يقدم صورة الديمقراطية في أقدم ممارساتها ، ويؤكد صيانة حقوق المواطنين فهو دليل قوي على انخراط أعداد كبيرة من أبناء المجتمع العراقي القديم في عملية البناء الفكري وتطورها ، دون أن ننكر أهمية بعض العقول النيرة والقدرات الكبيرة في تميز بعض المفكرين ·

ففي حدود القرن الخامس والعشرين ق·م· كان لمدينة الوركاء مجلسان يتدارسان شؤون البلاد وخطط تقدمها والمشاكل التي تعترض مسيرتها · يتكون أحد المجلسين من الشيوخ وهو بمثابة برلمانات الشيوخ في بعض دول العصر الراهن ، والاخر مجلس العامة أو مجلس النواب ،

ويتألف من الرجال القادرين على حمل السلاح • ويبدو من سياق القضية التي طرحت على مجلس المدينه ، أن مجلس الشيوخ كان يدرس القضايا اولا ويصوت عليها ثم ترفع الى مجلس المحاربين أو النواب • ومما تجدر الاشارة اليه أن الموضوع الذي يعرضه النص يتعلق بتدارس تهديد تعرضت له مدينة الوركاء ، فلم يذعن أهلها وهبوا للقتال والدفاع عن الارض والسيادة ، وعندما تخاذل المسنون الشيوخ ، صوت مجلس المحاربين الى جانب الحرب ووقف إلى جانب الملك الذي اعترض بدوره على رأي مجلس الشيوخ الضعيف(١٤) •

وهكذا يكشف لنا هذا النص المهم عن أولى البرلمانات في تاريخ بني البشر ، وانها لم تنعقد في اثينا أوروما وانما في جزء من قارة اسيا وعلى أرض شهدت أقدم الحضارات الانسانية في الشرق الادنى ، في سومر جنوبي العراق • ولم يكون هذا البرلمان حالة استثنائية منقطعة ، بل اقترن بتطور النظم السياسية والادارية والاقتصادية ، وكان من صورها خضوع معظم المعاملات المدنية والاقتصادية والتجارية الى تسجيلات قانونية بهيئة عقود بيع وشراء وقرض وايجار وما الى ذلك • كما شهد القرن الرابع والعشرين ق•م• ظهور أقدم واول محاولة في التشريع واصدار القوانين في تاريخ بني البشر وذلك في محاولة الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي التي أقدم عليها الامير أوروكاجينا حاكم مدينة لجش(١٥) • وعلى الرغم من يكون قرارات أوروكاجينا لا ترقى الى مستوى القوانين التي عرفها العراق القديم فيما بعد وبخاصة قانون حمورابي ، ولكن بسبب تعرض اصلاحات أوروكاجينا لامور اقتصادية واجتماعية ، وكونها صادرة عن الملك ، وأنها تحدد العقوبات في حالة الاخلال بهذه التعليمات والاوامر ، وأخيرا لان معظم

الباحثين في تاريخ القانون يدرجون أعمال أوروكاجينا في المقام الاول رغم النواقص التي تلازمها ، لذلك تطرقنا اليها أيضا عند بدء الحديث عن النظم والتشريع(١٦) ٠

وهكـذا فأن التنظيم في مجالات الحيـاة كافـة ، وتثبيت الحقـوق والواجبات ، ومنع التجاوز والاعتداءات ، ومنح حرية الرأي والمساهمة في وضع القرارات ، وغير ذلك من أمور تتوفـر في المجتمعات الديمقراطية ، كانت حالات مألوفة في مجتمع بلاد وادي الرافدين القديم ٠

وتم التأكـد من المبادىء التي عرضنا لهـا من ترجمـات النصوص المسمارية ، وبخاصة ذلك النص الذي يعرض لاول سابقة قانونية فيما له علاقـة بتطبيق العـدالة واشـاعة الامـن والإسـتقرار وتثبيت الحقـوق والواجبات والاقتصاص من المتجاوزين ٠ يعرض النص المشار اليه لمحاكمة بعض المتهمين بجريمة قتل أحد المواطنين ، كما اتهمت زوجة المجني عليه بالتستر على القتلة ، ولكن يد العدالة ويقظة المسؤولين طالت المذنبين ، فأحيلت القضية الى محكمة في مدينة نفر ٠ وشهدت المحكمة أثناء انعقادها توصيات قرأها البعض لادانة المتهمين ، فهم في ذلك يشبهون الادعاء العام ٠ ونقرأ في الوثيقة القديمة عن محاولة رجلين لتبرئة ساحة الزوجة ، وهما في ذلك يقومان بعمل محام الدفاع ٠ ومن الامور التي تلفت الانتباه في سير المرافعة أن المحكمة اقتنعت بوجهة نظـر الدفاع التي ترى بأن المرأة لم تشترك بالقتل فعـلا ، وكان عندها من الاسباب المنطقية التي منعتها من اخبار السلطات بمقتل زوجها ، فأتخذ أعضاء المحكمة قرارا يقول « أن العقوبة ينبغي الا تشمل سوى القتلة الفاعلين »(١٧) ٠

وكانت المحاكم العراقية القديمة تستمد أحكام قراراتها من العادات

والتقاليد السائدة ، اضافة الى استفادتها من السوابق القضائية ، حيث جرت العادة أن المحاكم كانت تسجل وتحفظ الاحكام الصادرة عنها ، فيتم الرجوع اليها عند الحاجة للاسترشاد بها · وكان يجلس لتدارس القضايا في المحاكم عدد من الرجال ، بلغ في حالة القضية المعروضة في أعلاه ، تسعة رجال ، وكان العدد الكبير من الحكام والمحلفين يدفع لتفحص القضايا بروية واستذكار جميع الشروط التي تبيح أو تفيد القرار المنوي اتخاذه ·

ومع هذا كله فأن العراقيين عرفوا القوانين المدونة مع أواخر الالف الثالث ق·م· ، وكانت أقدم نماذجه في بقايا قانون الملك أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة (٢١١٣ ـ ٢٠٩٦ ق·م·)(١٨) ·

وقد يذهب البعض في تعليل هذه الظواهر المتقدمة في تاريخ الحضارة العراقية القديمة ، بأنها نزوع فكري قد نجد له مثيلا عند كثير من الشعوب القديمة ، وانما الذي يميز العراقيين عن غيرهم هو موضوع التدوين فحسب الذي أبقى على تراثهم خالدا عبر الزمن ···

ومع اقرارنا بتألق الفكر الانساني في كثير من بقاع الدنيا ولكن حضارة العراق القديم تتميز عن غيرها من الحضارات مثلما تتميز تجربة العراقيين عن غيرها من تجارب الشعوب بسمات أساسية ثلاث هي : القدم والريادة أولا · والمواصلة أو الحركية ثانيا والشمولية ثالثا ·

فقد سبق ان عرضنا لمواقع بعض عناصر الحضارة في سجل الزمن وهي تكشف بوضوح عن أسبقيتها لمعظم تجارب الشعوب القديمة · أما سمة المواصلة أو الحركية فهي سمة الحضارات الاصيلة التي تنجح في التفاعل مع المستجدات والمتغيرات وتزيد من عمق جذورها وترسم معالم التطور والتقدم · وعندما نمعن النظر ونتابع بالتحليل أحد العناصر

الحضارية في العراق القديم ، نكتشف بوضوح ازدياد التجربة العراقية غنى وتقدما ، وعلى الرغم من قدم بعض العناصر لعدة آلاف من السنين ، ولكنهـا تستمر فاعلة ومتفاعلة مع غيرها من عناصر الحضارة في صيرورة نهائية تهدف الى دفع عجلة التقدم نحو الامام • ومن أوضـح الامثلة على ذلك الديانة والمعتقدات والمراسيم والشعائر والمعابد والكهنة وما يرتبط بهذه الامور من تفاصيل الحياة اليومية للعراقيين القـدماء • فأننـا نرى بوضوح رسوخ المبادىء الاساسية للفكر الديني العراقي القديم ، وأنـه شهد متغيرات كثيرة على مر العصور ، وبخاصة فيما يتعلق بمواقع الآلهة ودورها في حيـاة الناس والملوك والدول ، ولكـن ذلك لم ينسحب بآثار سلبية ، انما تمت مفاعلة الافكار بصورة لا تشعر القارىء والمتتبع لجوانب الديانة والمعتقدات في العراق القديم بأي وقع سلبي لها على مجمل شروط الحيـاة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية • وبلغ من أمـر بعض المتغيرات أن كتبة العهـد البابلي القديم جعلوا من الاله مردوخ اله بابل الرئيس بطلا لكثير من الاساطير والقصص الدينية بدلا عن الاله أنليل ، وذلك عندما أعادوا كتابة هذه النصوص أو استنساخها(١٩) • كمـا أن مبـدأ الشرك الذي تتصف بـه الديانة العراقية القديمة ، يوحي بتهيئة أسباب الخلاف والتنابذ بين عبدة هذا الاله وذاك أو بين الكهنـة أو بين المدن ، ولكن الامر الواقع أننا لا نستشعر أي خلاف من هذا النوع في كل السجلات القديمة المتوفرة • وفي حالة تقديرنا بشكل دقيق لموقع الديانة في نفوس وحياة الشعوب القديمة ، نقدر عاليا هذا النجاح الرائع الذي حققه العراقيون في مجال الوحدة الفكرية التي تشكل غالبا أساسا راسخا لاشكال التوحد في مجالات الحياة الاخرى •

أما الحديث عن الشمولية ، فأنه يبرز واضحا وقويا عند إستعراض العناصر الحضارية المختلفة لبلاد وادي الرافدين ، فلم تكن الجوانب الفكرية التي عرضنا لها سمات متقدمة فحسب ، بل برز العراقيون في مجالات العلوم والمعارف ، وتشكل قضايا الامراض ومعالجتها وتهيئته الدواء لها من أولى المهمات التي تعالجها الحضارات المتقدمة ، فليس غريبا أن تترسخ شهرة بابل في أذهان اليونان في مجالي الطب والفلك ، ومرجعه اهتمام العراقيين بهذا الضرب من المعارف منذ زمن مبكر . وقد تعدى اهتمامهم موضوع المعالجات الى تسجيل التجربة الطبية لتكون دليلا للاجيال اللاحقة ، كما أصبحت هذه السجلات نقاط ارتكاز لمعرفة مضافة فيما بعد .

فمن أواخر الالف الثالث ق.م. دون طبيب عراقي قديم وصفات دواء لبعض الامراض ، وبذلك ، قدم أول وأقدم كتاب موجز في الطب(١٩) . ومما تجدر الاشارة اليه ان الادوية التي ذكرها هذا الطبيب العراقي جاءت على شكلين ، نوع منها يستخدم على شكل مراهم ، والاخر بصورة مقطرات، وبالتالي يكون استعمالها خارجيا وداخليا .

أما الزراعة ، عماد الاقتصاد العراقي القديم ، فقد شغلت اهتمام العراقيين كثيرا ، وتركوا لنا مدونات مختلفة تعالج الجوانب التفصيلية التي تخص الزراعة والنباتات والاعمال المتعلقة بهما . ويعد النص الذي نشره كريمر بعنوان « أول تقويم زراعي »(٢٠) واحدا من أقدمها ، ويكشف لنا هذا النص بوضوح خبرة عراقية عميقة في التعامل مع الارض والماء بغية توفير أفضل الشروط لموسم زراعي جيد وانتاج وفير . ولعل من أبرز الامور التي تلفت الانتباه في هذا الدليل الزراعي التأكيد على مواعيد الري

التي يحتاجها النبات ، وأن تقديم أو تأخير موعدها يضر بالناتج مثلما تترك أية زيادة أو نقصان مثل ذلك الاثر • كما يوصي الدليل أيضا بان يراقب الفلاح عند عملية البذار نفاذ البذور في أخاديد الحرث بعمق اصبعين ، وبعكسه فعلى الفلاح أن يبدل سكة المحراث ليوفر العمق اللازم لنفاذ البذور •

من الطبيعي جدا ان يكون لحضارة مثل الحضارة العراقية القديمة ، التي ارتقت مستويات متقدمة في المجالات الفكرية والتنظيمية والاقتصادية والعلمية ، خيالها الواسع ، الذي يعكس في كثير من جوانبه عن طموحات هذه الحضارة وتطلعاتها المستقبلية • كما يكون طبيعيا ان تمتلك مثل هذه الحضارة لغة ثرية ، قوية التعبير ، غزيرة المفردات ، لذلك يكون محتما في مثل هذه الظروف أن يزدهر الادب •

وعندما يكون الحديث عن أدب بلاد وادي الرافدين ، يشعر الباحث أو المؤرخ بالعجز عن ايصاله للقراء ، أو بالاحرى هذا ما أحس به شخصيا كما دنوت من هذا المحيط الزاخر ، عميق الغور ، شاسع المسافات ، المندفق بالحيوية والحركة ، لذلك سأنتقل بين العناوين ورموز الموضوعات التي طرقهـا أدب بلاد وادي الرافدين تاركا للقارىء فرصة التمتع والنشوة والانشراح والتألق والتفكر والتأمل وما الى ذلك من انفعالات روحية ونفسية وعقلية تبعثها القراءة المباشرة لنصوص الادب العراقي القديم(٣١) •

تتباين الموضوعات التي طرقها الادب العراقي القديم لتحتل مساحات كبيرة من مجالات العقل والخيال الانساني ، فتارة تناقش أعمق الافكار التأملية في صيغ تقرب من الطروحات الفلسفية ، كالحديث عن أصل الكون والبشر والاشياء ومبدأ الحياة ، وعلاقة الكائنات الحية بغيرها ، وتعرض

تارة أخرى للادب الوجداني في صيغة أغاني الحب الغزل ·

ويغلب على معظم القطع الادبية السرد الاسطوري ، أو شكل القصص الدينية ، حيث يختلط الواقع بالخيال ، فيلعب بعض الالهـة أو الابطال الخارقين دورا بارزا في أحداثها · كمـا تنسحب عـن موضوعة القصص الدينية بعض القطع من أدب الملاحـم ، فتعرض لجانب من تاريخ الامـة ورجالاتها العظام ·

ويبقى المحور الاساس لمعظم الموضوعات الادبية هو الانسان ، وعليه فأن بعض القطع الادبية تعالج المثـل العليا في الاخلاق وتتطرق أخرى الى الحكمة والامثال والاقوال المأثورة ، وهي في ذلك تعكس بوضوح خلاصة التجربة الانسانية التي يراد لها أن تكون مسلكا لبناء الحياة ·

وتستحوذ موضوعة الحيـاة والموت على جانب كبـير من اهتمامات الادب العراقي القديم ، فما هـو مآل الانسان بعد الموت ؟ وهل يستطيع الانسان الخلود ؟ وما هو ثواب الناس الاخيار الصالحين ، وما جزاء الاشرار والمفسدين ؟ وأخيرا ، ما هو هدف الحياة الانسانية اذا كان الموت والفناء المطلق حتف البشرية المحقق ؟ أن هذه الاسألة وعيرها كثير كانت ولا تزال تشغل الفكر الانساني · ولهذا انصرفت ملحمة جلجامش في جانب رئيس منها لمعالجة هـذا الموضوع ، مثلما ذهب لمعالجته عـدد آخـر من القطـع الادبية(٢٢) ·

ومع التشوش الفكري الذي يحيط بمعتقدات العراقيين القدماء فيما يتعلق بحياة ما بعد الموت ، ولكن بعض الخيوط الدقيقة تشكل لحمة نسيج واهن لتصورات معينة عن حياة ما بعد الموت ، يبرز جانب منهـا في ربط الحياة الدنيوية بحياة الانسان الاخروية ، مثلما تحدد موقفا أكثر وضوحا

بخصوص خلود الانسان من خلال أعماله وذريته أو بمعنى آخــر ، فان ذكرى الانسان هي أبرز أسباب الخلود « والذكر للانسان عمر ثان »(٢٣)٠

تنقلنا في الصفحات السابقة بين مجموعة من عناصر الحضارة العراقية القديمة ، حيث يقف كل عنصر منها بحد ذاته شامخا يعكس تجربة غنية تكشف عن مستويات متقدمة ٠ ويؤيد ذلك قول الاستاذ المرحوم طه باقر في تقييمه لادب العراق القديم « ولعلني لا أبالغ اذا قلت إنــه لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين ، من منجزاتها وعلومها وفنونها شيء سوى هــذه الملحمــة لكانت جــديرة بأن تبوأ تلك الحضارة مكانة ســامية بين الحضارات العالمية القديمة »(٢٤) ٠

وممــا يزيدنا اعجابا واحتراما لجهود أجدادنا العراقيين في مضامير الحياة والفكر كافة ، أن تجاربهم الغنية سبقت تجارب كل الامم القديمة ، وكانت في كثير من الاحيان بدايات الطريق لمسيرة شعوب مختلفة ، لذلك لم تكن حضارة العراق القديم ذاتية مغلقة وانما شكلت منارا غمر بشعاعه حياة وتجربة كثير من شعوب الشرق الادنى القديم ٠

أن جذوة الفكر المتقدة وعبقرية الخطوات وأصالتها وأسبقيتها دفعت بالعالم كريمر لتغيير عنوان كتابه في طبعته الثانية فجعله « التاريخ يبدأ في سومر » ، كما يقرر ذلك هنري فرانكفورت بقوله « لان ظهور الحضارة في مصر وفي ما بين النهرين يمكن اعتباره وبحق ، مولدا للحضارة بوجه عام ٠ نعم ان الانتقال من الاحوال البدائية الى الاحوال المتمدنة قد حصل أكثر من مرة في التاريخ ، ولكن هذا الانتقال وهذا الدافع أو الحافز له كان نتيجة الاحتكاك والاتصال بشعوب غريبة متمدنة » ٠ « لكننا لانستطيع ان نعلل انبثاق المجتمعات المتحضرة في مصر وما بين النهرين على أساس

شدة تفاعله مع مراكز الحضارات ومناطق استيطان الشعوب المجاورة · وقد دفعت الى بلورة هذه الحقيقة في تاريخ العراقيين القدماء بعض الاحتكاك والاتصال بالخارج ، اذ أن هاتين الميلادين كانتا الاوليتين اللتين ارتفعتا فوق المتوى العام من الوجود البدائي »(٢٥) ·

طرق الانتقال :

من بين أبرز الحقائق التي يكتشفها المتتبع لتاريخ العراق القديم الخصائص الطبيعية اضافة قدرات العراقيين الذاتية · فقد كان افتقار الارض العراقية للمعادن والاخشاب والحجارة ، سببا بارزا دفع بالعراقيين للسعي بالوسائل المختلفة لاجل توفير هذه المواد · كما دفع توفر هذه المواد في مناشيء مختلفة لاتساع دائرة الاحتكاك والتفاعل والمتاجرة ··

ومما ساعد على حرية الحركة والاتصال انعدام المعوقات الطبيعية الصعبة في حدود العراق الغربية والجنوبية ، اضافة الى توفر منافذ الطبيعة للاتصالات في الاقسام الحدودية الاخرى ، وبخاصة عند الاطراف الشرقية والشمالية الشرقية ·

لقد تهيأت على أرض العراق طرق مواصلات طبيعية خدمت حركة النقل بين أقسام العراق المختلفة ، كما وصلت الى بعض المناطق المجاورة ، وتتمثل هذه الطرق في النهرين وفروعهما وروافدهما وفي شبكة القنوات والانهر التي حفرها العراقيون لاغراض الري ، فخدمت شؤون المواصلات أيضا · لذلك ، وأقام مجموعة الشروط والعوامل المشجعة هذه لم يكن غريبا اكتشاف مواد تعكس صلات تجارية ومبادلات مع الخارج ترجع الى عصور مبكرة جدا تسبق العصور التاريخية(٢٦) ·

واذا ما اعتبرنا مجموعة العوامل والشروط سالفة الذكر عاملا واحدا دافع باتجاه تشجيع الاتصالات العراقية مع الخارج ، فأننـا نتلمس عاملا آخرا لا يقل خطورة عن سابقه يتمثل فيما تكشفه لنا السجلات الاثرية لبقايا الانشطة العراقية المختلفة ، فهي تؤكد تطور مستوى الوعي بجوانب الحياة المادية والفكرية ومنذ فترات مبكرة من تاريخ البشرية . وعليه ، فأن النقص الذي اشرنا اليه في بعض المواد الاولية لا يرقى الى أهميـة الوعي بهذا النقص والعمل على تلافيه . وهذا ما يفسر لنا ايجابية العراقيين مع النشاطات المبكرة في ميادين المبادلات السلعية والتجارة ، حيث ان الادلة المتوفرة تعكس مبادرات عراقية للاحتكاك والتفاعل وتناقل المواد والسلع المختلفة ، والتي انسحب تأثيرها بالضرورة الى تفاعلات في جوانب الفكـر ومعطيات الحياة الاخرى المختلفة ، وذلك هو الوجـه الاخـر من وجهي الاتصالات التجارية بين الشعوب ، حيث تبرز أهميـة التفاعل في جوانب الحياة والخبرات والتجارب والافكار ، بمستوى لا يقل عن فعل وأهميـة تبادل السلع والمواد التجارية .

وفي ضوء هذه الحقائق عن تجربة العراقيين المبكرة ، نتهيا لاكتشاف مناطق الاتصالات وطرقها وأساليبها .

من الطبيعي جدا أن تحتل الاقسام الجبليـة الى الشمال والشمال الشرقي من العراق اهتماما كبيرا من قبل العراقيين لكونها مواطن الانسان الاولى قبل اكتشاف الزراعة ، ولانها أيضـا مناطق وفـيرة الخيرات من محاصيل نباتية وأشجار باسقة قوية الاخشاب وحجارة صلبة وحيوانات متميزة ، وغير ذلك من مواد ومنتجات لا يجد العراقي نظيرا لها في بيئـة وديان الانهار والسهول الرسوبية لجنوبي العراق .

كما تحتل هذه الاقسام من الطرق أهمية استثنائية ، لانها تكشف عن منافذ وممرات توصل الى أعماق المناطق التي تقع خلفها ، بكل ما تكتنزه من ثروات واقوام وتجارب ، وبخاصة في بلادي ايران والاناضول · وعليه فأن حديثنا المقبل سينصب حول تعيين مسار الاتصالات وأشكالها وطرقها ووسـائلها ، وهي الشـرط الثاني الذي يجب تحققـه لعملية الانتقال الحضاري بين بلدين وشعبين ·

تنتقل العلاقة بين السهل والجبل في العراق عبر منطقة اتصال طبيعية تتحول فيها الخصائص الجغرافيـة تدريجيـا من أراض سـهلية فسيحة مكشوفة حارة وجافة وقليلـة الامطار الى أراض جبليـة مختلفة الوعورة والارتفاع ، باردة ورطبة وكثيرة الامطار · ومن الطبيعي أن يتبع هـذه الشروط الجغرافية بيئات نباتية وحيوانية مختلفة ، ولا يزال العراقيون يعيشون هذا الواقع ويتعاملون معه ايجابيا باتجاه خلق أسس الاستفادة الكاملة من الخصائص والمعطيات المتباينة للمنطقتين · ولهذا السبب أيضا قامت مراكز حضرية رئيسية عند حدود الالتقاء بين هاتين المنطقتين ، كانت وما زالت من مدن العراق الرئيسية ، ومنها الموصل وأربيل وكركوك · وتقوم مدينة الموصل على أطلال مدينة نينوى الاشورية ، ويؤكد الاثاريون أن نينوى تعد واحدة من مراكز سكنى الانسان المبكرة · وترجع دلائل آثار الاستيطان فيها الى الالف الخامسة ق·م·(٢٧) أما أربيل وكركوك ، فأن قلعتيهما تؤشران بوضوح قدم السكنى في هاتين المدينتين ، حيث أن التلـين الاصـطناعيين تكـونا بفعـل اسـتمرار السـكنى فيهمـا لآلاف السنين(٢٨) ·

ومن الملاحظات الهامة بخصوص هذه المدن أنها تفضي الى مجموعة

من المسالك الطبيعية التي تمتد بين السلاسل الجبلية وتعبرها الى ما يليها من مناطق(٢٩) . لذلك لم تكن العلاقة بين الجبل والسهل علاقة طارئة وانما نشأت مع خطوات الانسان الاولى صوب الاستقرار والزراعة وقيام القرى ، كما أنها تطورت واتسعت مع تقدم العراقيين في العهود الحضارية .

وحتى نتأكد من كون العلاقة بين العراقيين وبين هذه المناطق لم تنحصر في حدود الطبيعة ومعطياتها ، وانما مع الناس الذين كانوا يعيشون في أقسامها المختلفه ، نشير الى العلامة التي اعتمدها العراقيون للدلالة على العبد والامة في كتابتهم المسمارية ، فالعلامة في أصلها الصوري بالنسبة للعبد تتألف من علامتين ، فعلامة الذكر دلالة على الرجل ، تقرن بعلامة الجبل لتدلان سوية على تسمية العبد . ومثل ذلك بالنسبة للأماء ، حيث بقيت علامة الجبل وقرنت معها العلامة الدالة على الانثى(٣٠) . ومما تجدر الاشارة اليه أن هاتين العلامتين هما من العلامات الصورية الاولى ويرجع زمنها لحدود منتصف الالف الرابع ق.م. وسواء تمت عملية استيراد العبيد سلماً أو حربا ، فأنها استلزمت بالضرورة احتكاكا واسعا بين سكان المنطقتين ، ومعرفة دقيقة بخصائصها وأقسامها ومسالكها .

ومن الدلائل الاخرى على العلاقة مع المناطق الجبلية ، وبخصة مع أعماقها المتوغلة شرقا ، ما ترويه علينا قصيدة سومرية تتحدث عن أعمال البطالة يرجع تاريخ أحداثها الى مطلع الالف الثالثة ق.م. ، تعرف تحت عنوان « أينمركاروسيد أرتا ، وقد أشرنا اليها فيما سبق عند الحديث عن حرب الاعصاب والتعامل مع مقومات التأثير النفسي في الحرب(٣١) .

ومهما يكن من أمر هذه القصيدة وأحداثها ، فالمهم منها والذي

يتعلق بسياقات هذا البحث ، أن هذه القصيدة تتحدث عن مجابهة كادت أن تقع بين مدينة الوركاء وزعيمها أينمركار وبين زعيم مدينة أرتا ، وتبعد مدينة أرتا عن مدينة الوركاء ، كمـا يرد تفصيل ذلك في النص ، سـبع سلاسل من الجبال ، وهي فوق قمة جبل شاهق يصعب ادراكها وبلوغها· وهي مدينة مزدهرة غنية بالمعادن والاحجار ، وهي المواد التي تفتقر اليها منطقة الوركاء والاقسام القريبة منها(٣٢) ·

ويحدد النص وقوع هـذه السلاسل الجبلية الى الشرق من مدينـة الوركاء ، حيث نفهم في ضوء ذلك أنها من مجموعة سلاسل جبال زاكروس التي تفصل ما بين العراق وايران ، وانها كانت موطنا للحجارة والمعادن التي احتاج اليها العراقيون وحصلوا عليها بوسائل مختلفة ·

وعند متابعة البيانات العراقية القديمة تجدها تتحدث عن تفاصيل العلاقات بين الحكومات وملوك العراق القديم وبين سكان هذه المناطق ، ومنها مثلا المعلومات التي تركها زعماء الدولة الاكدية ، وأبرزها المعارك التي خاضهـا الملك نرام سـين ، وترك لنا سـجلات ومنحوتات تتحـدث عنهـا(٣٣) ·

واطلعتنا معلومات النصوص أيضـا على كون سكان هـذه المناطق أقواما متخلفة حضاريا تتوزع في شعب الجبال ووديانها الواسعة وأنهـا استفادت كثيرا من معطيات الحضارة العراقية القديمة ، حتى أن زعيمـا ببعض قبائلهم المعروفة باسم اللولو صنع مسلة تخلد انتصاره دونها باللغة الأكدية(٣٤) ·

ومع بداية الهجوم الكوتي على المـدن العراقية واسقاطهم للدولة الاكدية ، أخذت العلاقات بين العراق وبين المناطق الجبلية شرق العراق

تندفع صوب التأزم وكثرة الاصطدامات العسكرية · ولكن حالة العلاقات هذه تؤشر من جانب آخر سبيلا للاتصالات والتفاعل بين المنطقتين · ومع وجود الفارق الحضاري الكبير بين تجربة العراقيين المتقدمة وبين تخلف القبائل المتفرقة في مناطق الجبال شرق العراق ، فقد استمرت اشعاعات الحضارة العراقية تضيء الطريق أمام سكنة المناطق الجبلية هذه · وعن طريقهم أيضا بلغت تأثيرات الحضارة العراقية أبعد المناطق في ايران ·

أما الحدود الشرقية لجنوبي العراق ، فهي بسبب تشابه الخصائص الطبيعية والجغرافية لسهول ووديان الانهار دجلة وكرخة وكارون ، وبسبب انتشار الاهوار والمستنقعات ولتماثل درجات الحرارة والرطوبة ونسب سقوط الامطار ، فأنها كانت ولا تزال منطقة طبيعية واحدة يغلب على سكانها التشابه اللغوي والحضاري ، وهي بذلك تمثل طريقا طبيعية وسهلة العبور للاتصالات بين العراق وبين الوسط الغربي وجنوبي ايران ، مثلما تفضي صوب الاقسام النهائية لجبال زاكروس وتوصل بعد ذلك الى الاقسام الشمالية الغربية من ايران · كما تؤدي منطقة العبور هذه في نهاياتها الجنوبية الى مناطق شمالي شبه القارة الهندية ·

ومما زاد من أسباب الاتصالات بين هذه المنطقة وبين الاقسام الجنوبية من العراق ، أنهما شهدتا قيام مراكز مدنية مبكرة ، فمنذ مطلع الالف الرابع ق·م· كانت دلائل الاستيطان تشير الى قيام القرى الزراعيه في سوسه (على مقربة من الشوش) الكائنة على فرع من نهر الكرخة في منطقة الاحواز ، وكذلك في قرية العبيد في جنوبي العراق · وقد أصبحت القرية الزراعية الاولى في سوسة نواة المدينة الكبيرة التي اصبحت فيما بعد عاصمة للدولة العيلامية ، وواحدة من المراكز الحضرية الهامة في جنوب

غربي آسيا ، وبقيت كذلك لمدة تقرب من ثلاثة آلاف سنة • وشهدت قرية العبيد ، أو جاراتها قرية أور تطورا ملحوظا ، وغدت واحدة من أعظم مراكز الحضارة في المنطقة ، وعصمة للعراق لبعض الوقت ، وبقيت مدينة أور تحتل مكانة دينية وحضارية الى أواخر أيام الحكم الوطني في تاريخ العراق القـديم •

أن الذي يتابع التاريخ السياسي للعراق القديم ، يتلمس بوضوح انعكاس أثر العلاقات المختلفة بين العراقيين القدماء وبين العيلاميين(٣٥) ، وفي ذلك ما يكفي للبرهنة على توفر أسباب الصلات القوية والمستمرة بين الطرفين • وقـد تحقق بالفعل بسبب الشـروط الايجابية للاتصال بين الطرفين ، انتقاء التأثيرات الحضارية العراقية ، ويبرز الخط المسماري في مقدمة وأوضح العناصر الحضارية التي اقتبسها العيلاميون عن حضارة العراق القديم(٦٣) •

أما عن اتصالات العراق بمنطقة الخليج العربي والاقسام الشرقية من الجزيرة العربية ، فأننا نمتلك اليوم وبفضل نتائج التنقيبات الاثرية التي أجرتهـا مجموعة من البعثات العربية والاجنبية ، صورة واضحـة للعلاقات التاريخية القديمة والواسعة التي كانت تربط العـراق بالخليج العربي • وكان للمواصلات المائية الفضل الرئيس في تحقيق ذلك • فقد شجعت الشروط الطبيعية لسواحل الخليج العربي الغربية المتاخمة لارض الجزيرة العربية ، ومن أبرزها عمق المياه المحدود في هذا الجانب وانتشار الجـزر على امتـداد الساحل وكثرة التعاريج والخلجان الطبيعية وتوفر مصادر المياه العذبة في بعض الاماكن على امتداد الساحل الغربي ، وكذلك اتصـال خط الملاحـة الساحلي بالارض العربية دونما معوقات طبيعية ،

اضافة الى توفر حركة رياح سريعة التغيير في اتجاهاتها ، وأخيرا ، اتصال هذا الساحل بمصب نهري دجلة والفرات . فقد اجتمعت هذه العوامل والشروط الايجابيـــة لتدفـــع بعملية الاتصالات بين الجانبين الى الاتساع والتعمق والاستمرارية(٣٧) .

وكانت القوارب والسفن النهرية التي برع العراقيون في صناعتها واستخدامها على نطاق واسع منذ الالف الرابعة ق.م. ، واسطة النقـل والاتصالات الرئيسية بين الجانبين(٣٨) .

ان الاتصالات العراقية مع الخليج العربي هيأت فرص الاتصال مع الهند . وسواء كانت الاتصالات العراقية الهندية مباشرة أم غير مباشرة ، فأن الخليج العربي وطرق الرحلات الساحلية التي تحدثنا عن شروطها المشجعة ، يمكن استكمالها عن طريق الرحلات البحرية بين خليج عمـان وبين سواحل الهند الغربية ، مستفيدة من حركة الرياح الموسمية المناسبة، وهي الرياح التي بقيت تخدم حركة النقل البحري بين الهند وبين الجزيرة العربية والخليج العربي حتى أواخر القرن الماضي قبـل شيوع وانتشار وسائط النقل الآلية الحديثة .

ومما شجع على قيام الاتصالات بين الهند وبين العراق قيام مراكز حضرية في البلدين منذ فترات مبكرة ومثلما تعـرف مواقع العبيـد وأور والوركاء من المراكز الحضرية المبكرة في العـراق ، فأن نتائج التنقيب في موقعي خارايا وموهنجودارو تؤكد قـدم النشاط الانساني المتحضـر في مناطق وادي السند أيضا(٣٩) .

ومع أرجحية النقل والاتصالات البحرية ما بين الهند والعراق ، فان النقل البري بين الطرفين لم يكن متعذرا ، فتشير المصادر التاريخية الى أن

الاسكندر المقدوني سلك في عودته من الهند الى بابل طريقين ، أحدهما بحري ، سار بمحاذاة سواحل الهند الغربية وباتجاه مضيق هرمز ثم عبر مياه الخليج العربي ، الآخر طريق بري ، وكان الاسكندر يقود القطعات البرية ، فسارت بمحاذاة الساحل من مكران الى كرمان وصولا الى سوسة ثم بابل . لذلك رجح بعض الباحثين توفر طرق مواصلات برية بين الهند وبين جنوبي ايران كانت تفضي في استمرارها الى العراق(٤٠) .

أما طرق الاتصالات العراقية مع مناطق شرقي البحر المتوسط ومصر، فلا نرى ضرورة ملحة للحديث التفصيلي عنها ، فهي مناطق تتصل ببعضها دونما عائق طبيعي ، كما يمكن الانتقال من مكان لآخر بكافة الوسائط المتاحة ، وبخاصة على الخط الذي يربط نينوى أو الموصل لاحقا ، بحلب ومن الاخيرة الى مناطق بلاد الشام الساحلية أو الداخلية المختلفة . كما تساهم الملاحة النهرية في الفرات على توفير أسباب الاتصالات بين العراق وبين أقسا من بلاد الشام ، حيث تلعب انعطافة الفرات الكبيرة صوب الغرب دورا بارزا في ذلك(٤١) .

ان الاتصال ببلاد الشام يشكل نقطة الارتكاز للاتصالات مع مصر . حيث يتم الانتقال اليها بطريق بري يعبر أطراف برية سيناء ، أو بطريق ساحلي يمر بالموانىء السورية، كصور وأرداد وجبيل وغزه وصولا الى مشارف الدلتا ومصب نهر النيل .

وعلى الرغم من عدم توفر أداة على قيام اتصالات مباشرة بين العراق وبين مصر الا في عصر الامبراطورية المصرية ، (بحدود القرن الخامس عشر ق.م.) ولكننا نرجح بقوة قيام الاتصالات غير المباشرة ومن خلال بلاد الشام ، فقد لعبت بلاد الشام ولفترات تاريخية طويلة لاحقة دور الوسيط في العلاقات والاتصالات العراقية المصرية .

ففي أوغاريت (رأس شمرا) التقت العناصر الحضارية العراقية مع المصرية ، ووضع الكنعانيون الفينيقيون اصول أبجدية كتب نوع منها بالعلامات المسمارية ، بينما مال النوع الثاني للاقتباس من الكتابة الهيروغليفية . ويرجح الباحثون أن بعض الكتبة المصريين تعلموا اصول الكتابة المسمارية وقواعد اللغة الاكدية في مدارس ببلاد الشام ، ومثل هؤلاء الكتبة هم الذين حرروا مجموعة الرسائل التي كشف عنها في بقايا العاصمة المصرية أخت آتون (تل العمرنه) ، وهذه الرسائل تعد من أهم الوثائق القديمة التي تكشف عن جوانب العلاقات الدولية واصول الدبلوماسية ، تبادلها ملوك وامراء الشرق الادنى القديم . والمهم في هذه الرسائل مما له علاقة بسياق بحثنا ، أنها كتبت بلغة وكتابة العراقيين القدماء ، وذلك ما يؤكد توطد العلاقات وسعتها بين مصر والعراق . وعلى العموم فأن وعي الحضارتين ونضجهما الفكري وامكانياتهما الكبيرة ، هيأ لهما أسباب الاتصالات المباشرة اضافة الى استمرار فعل الاتصالات غير المباشرة(٤٢) . واذا كانت سواحل بلاد الشام تمثل أقصى المعمورة من ناحية الغرب في معارف السومريين الجغرافية بحدود الالف الثالث ق.م.(٤٣) . فأن معلومات الاشوريين شملت البحر المتوسط بشعوبه ومناطقه وجزره ، كما نلحظ بدايات الاحتكاك بين الاشوريين وبين اليونان . ومع أن معظم الاتصالات مع بلاد اليونان عبرت خلال الاناضول وعبر البسفور والارخبيل ، ولكن جانبا آخرا منها عبر البحر على متن السفن الفينيقية .

ان مسارات روافد نهري دجلة والفرات اضافة الى مسار النهرين نفسيهما ، تعد من أحسن منافذ الاتصال بين بلاد وادي الرافدين وبين

الاناضــول • وأن السلاســل الجبليــة ، سواء الجنوبيــة منهــا اوتمثلة بطوروس أو الوسطى المعروفة باسم الاناضول وامتداداتها في ناحية الشرق في جبال زاكروس وأرمينيا ، فانها جميعــا تتوفر على عــدد لا يحصى من المنافذ والممرات الطبيعية التي تهيىء أسباب الانتقال والحركة بين الاقسام المختلفة لهذه المناطق • ان احدى المنافــذ التي تخترق جبال طوروس من الاهميــة والخطورة بحيث اكتسبت شهرة تاريخيــة ، وسميت بالبوابات القيليقية ، وهي منفــذ في الجبال على مقــربة من الخط الساحلي للبحــر المتوســط ، الذي يمثــل بدوره طريقــا للاتصال والانتقــال بين ســوريا والاناضول ، وكان هذا المنفذ مسلكا رئيسيا للأقوام والتجارة والجيوش ، ووقعت عنده معركة كبيرة وحاسمة بين جنود الاسكندر البالغ عددهم حوالي (٤٠) ألفا من الفرسان ، وبين جنود دارا الثالث آخر الحكام الاخمينيين ، ويقدر عددهم بنحــو ربع مليون مقاتل من مختلف الصنوف ، وبخاصــة الفيالة منهــم • ولكن بسبب المجاز الجبلي الضيق لهذه الممرات ، فقــد نجح الاسكندر من امتلاك ناصية الحركة والمناورة بسبب قلة عدد جنوده وكونهم من الخيالة الذين يتميزون بسرعة الحركة والانتقال ، فوجه ضربة ماحقة للجيش الاخميني •

وتهيأت أيضا أسباب الاتصال مع الاناضول من خلال جزيرة ابن عمر وديار بكر وماردين ونصيبين ، ثم خلال منافذ الجبال ومسارات الانهار الى مناطق وأقسام الاناضول المختلفة • وبلغت الاتصالات مع الاناضول الى حدود قيام مستوطنات للتجار يعملون على تنظيم شؤون التجارة مع مدن العراق القديم • وقد كشفت لنا النصوص المسمارية التي عثر عليها في المستوطنة التجارية كلتيش (كولتبه) عن حجم النشاطات الاقتصاديــة

بين الطرفين ، كذلك عرفت في ضوئها عن وسائط النقل والقوافل التجارية(٤٤) ٠

أما الحوليات والتسجيلات الملكية الاشورية ، فأنها تحدثنا عن حملات آشورية بلغ بعضها منابع نهر رجلة ، واصطدم الاشوريون مرارا بمملكة أرارات التي قامت في أقصى الشمال الشرقي من الاناضول في مناطق قريبة من بحيرة وان(٤٥) ٠

وعندما يكون الحديث عن بحيرة وان والمناطق المجاورة لها فتذكر جهود الباحثين الذين نجحوا في تعيين مصدر الحجر الاوبسيدي الذي استورده العراقيون منذ الالف السابعة ق٠م٠(٤٦) ٠

توصل هذه المناطق عبر العديد من المسالك الطبيعية الى أرمينيا والقفقاس وأواسط اوربا ، حيث نرجح أن يكون بعض الاشعاعات الفكرية بلغت هذه المناطق ، وربما يكون الحديث عن اكتشاف نصوص مسمارية أو خطوط مقتبسة عنها في رومانيا ودول أوربية أخرى ، جانبا من ذلك ٠

الهوامش :

١ ـ فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٠ ترجمة جورج حداد وعبدالمنعم رافق ٠ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٥٨ ج ١ ، ص ١٢٨ ٠

٢ ـ أندريه بارو : بلاد آشور ٠ ترجمة وتعليق د٠ عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ٠ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ـ ١٩٨٠ اللوحات (٢٥٦ ـ ٢٦٤) ٠

٣ ـ طه باقر : المقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٠ طبعة ثانية بغداد ـ ١٩٥٥ ٠ ج ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢ ، ج ٢ ص ٦٧ ـ ٦٨ ، ص ٢٥٨ ٠

٤ _ هاري ساكز : عظمة بابل · ترجمة د· عامر سليمان · ١٩٧٩ فصل التراث / ص ٥٥٤ فما بعد ·
_ هنري فرانكفورت : فجر الحضارة في الشرق الادنى · ترجمة ميخائيل خوري · بيروت _ نيويورك _ ١٩٥٩ ص ١٢٧ فما بعد ·
_ صموئيل نوح كريمر : من ألواح سومر · ترجمة طه باقر · بغداد _ ١٩٥٧ ·

٥ _ صموئيل نوح كريمر : السومريون · ترجمة الدكتور فيصل الوائلي وكالة المطبوعات _ الكويت · ص د _ هـ ·

٦ _ كريمر : نفس المصدر ص و ·
ديبدو أن الدكتور فيصل الوائلي الذي ترجم هذا الكتاب يقتبس مصطلحات عصر التوحش والبربرية وحياة التمدن عن عالم الاثار جوردن جايلد ، الذي جعل هذه المسميات عناوين فصول كتابه « ماذا حدث في التاريخ » ·

٧ _ كريمر : نفس المصدر ص و ·
وانظر أيضا : فرانكفورت : المصدر السابق ص ١٣٥ فما بعد ·

٨ _ كريمر · من ألواح سومر · ص ١٥ ·

٩ _ نفس المصدر ص ١٦ ·

١٠_ نفس المصدر ص ٤٤ ·

١١_ ساكز : عظمة بابل ص ٢١٢ ·

١٢_ جوردن جايلد : ماذا حدث في التاريخ · ترجمة د· جورج حداد الشركة العربية بالقاهرة · ص ٥ ·

١٣_ نفس المصدر · ص ٧ ·

١٣*ـ كريمر : من ألواح سومر ص ٦٣ فما بعد ·

١٤ـ نفس المصدر ص ٨١ فما بعد ·

١٥ـ نفس المصدر ص ١١٥ فما بعد ·

١٦ـ د· عامر سليمان : القانون في العراق القديم · الجزء الاول مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ـ جامعة الموصل / ١٩٧٧ ص ١٤٢ فما بعد ·

١٧ـ كريمر : من ألواح سومر · الفصل الثامن ·

١٨ـ د· عامر سليمان : القانون في العراق القديم ص ١٩١ فما بعد ·

١٨*ـ طه باقر : مقدمة في أدب العراق القديم · بغداد ١٩٧٦ ص ٣٢ فما بعد ·

١٩ـ كريمر : من ألواح سومر ص ١٢٩ فما بعد ·

٢٠ـ نفس المصدر ص ١٣٧ ·

٢١ـ طه باقر : مقدمة في أدب العراق القديم : المصدر السابق ·

طه باقر : ملحمة جلجامش · وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٠ ·

د· فاضل عبدالواحد علي : الطوفان · مطبعة الاخلاق ـ بغداد ـ ١٩٧٥ ·

صموئيل نوح كريمر : من ألواح سومر · ترجمة طه باقر ·

٢٢ـ د· فاضل عبدالواحد علي : عشتار ومأساة تموز · منشورات وزارة الاعلام ـ بغداد ـ ١٩٧٣ ·

٢٣ـ طه باقر : ملحمة جلجامش ، ص ٤٢ فما بعد ·

٢٤ـ نفس المصدر ص ٤١ ·

٢٥ـ فرانكفورت : المصدر السابق ص ١٣ ·

٢٦ـ رضا جـواد الهاشمي : « الحجـارة الاوبسيدية واصول التجارة » مجلة سومر / ١٩٧٢ ص ٢٥٣ فما بعد ٠

٢٧ـ د٠ طارق عبدالوهاب مظلوم وعلي محمد مهـدي : نينوى ٠ وزارة الاعلام ـ مديرية الاثار العامة ـ بغداد ١٩٧١ ٠

ويرى البعض ان تسمية الموصل انما أخذت عن وظيفـة المدينـة في عملية الربط والاتصال التي تهيؤهـا بين السـهل والجبـل ، فهي الموصلة بين المنطقتين ٠

٢٨ـ طه باقر وفؤاد سفر : المرشد الى مواطـن الآثار والحضارة الرحلة الخامسة ـ بغداد ـ أربيل ـ وزارة الثقافة والارشاد ـ بغـداد ـ ١٩٦٦ ٠

٢٩ـ ابراهيم شريف : الموقع الجغرافي للعراق ٠ مطبعة شفيق ـ بغداد ص ٢٤٨ فما بعد ٠

٣٠ـ

٣١ـ كريمر : من الواح سومر ص ٦٢ ـ ٦٣ ٠

٣٢ـ نفس المصدر : ص ٦٣ ٠

٣٣ـ ساكز : عظمة بابل ، ص ٧٠ ٠

٣٤ـ نفس المصدر ، ص ٧١ ـ ٧٢ ٠

٣٥ـ الصراع العراقي الفارسي : بغداد ـ ١٩٨٣ ٠

٣٦ـ

٣٧ـ رضا جواد الهاشمي : آثار الخليج العربي والجزيرة العربية ٠ مطبعة جامعة بغداد ـ ١٩٨٤ ص ٣٥ فما بعد ٠

٣٨ـ رضا جواد الهاشمي : « الملاحة النهرية في بلادي وادي الرافدين » سومر / ١٩٨١ ص ٣٦ فما بعد ٠

٣٩ـ رضا الهاشمي : آثار الخليج العربي ··· ص ١٥٠ فما بعد ·
٤٠ـ كريمر : السومريون ، ص ٣٨٩ – ٤٠٧ ·
٤١ـ رضا جواد الهاشمي : « دور نهر الفرات في الامتدادات الحضارية لبلاد وادي الرافدين » بين النهرين – بغداد ٤٤/١٩٨٣ ·
٤٢ـ
٣٤ـ كريمر : السومريون · ص ٤٠٩ ·
٤٤ـ حضارة العراق · الجزء الثاني بغداد ١٩٨٥ ·
الفصل السادس ، التجارة ص ١٩٥ فما بعد ·
٤٥ـ د· سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق الادنى القديم · وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – بغداد ص ٣٣٦ – ٣٣٧ ·
٤٦ـ رضا جواد الهاشمي : « الحجارة الاوبسيدية وأصول التجارة » سومر / ١٩٧٢ ص ٢٥٣ فما بعد ·

المعتقدات السومرية والبابلية : تاثيرها في التوراة في موضوع تفسير الكوارث التاريخية

د. فاضل عبدالواحد علي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

كان انتشار حضارة بلاد وادي الرافدين واسعا ومؤثرا في بلدان عديدة من الشرق الادنى القديم . ويتجلى هذا التأثير بشكل واضح في معتقدات العراقيين حيث احتوت اسفار التوراة ، وسفر التكوين منها على وجه الخصوص ، على كثير من المعتقدات السومرية ـ لبابلية ، الى الحد الذي دفع عالم الاشوريات الالماني المعروف فريدريك دليليج (Friedrich Delitzch) الى القول في خلاصة سلسلة محاضرات له عن « بابل والثورة » بان سفر التكوين « غارق في ذنوب الانتحال » .

ومهما كان مدى تأثر العبرانيين بالنتاج الحضاري لبلاد وادي الرافدين وانعكاس ذلك بشكل واضح في التوراة ، فان تلك التأثيرات يمكن ان تكون قد وصلت بطريقتين :

الاولى منهما ذات علاقة بدون الاباء الاول (Patriarches) في نقل المعتقدات الدافدينية الى العبرانيين وهي مسألة ما تزال موضوع نقاش بين المختصين بالكتابات المسمارية والدراسات التوراتية . اذ تذكر التوراة ان ابراهيم عليه السلام كان اصلا من « اور الكلدانيين » : « انت هو الرب الاله الذي اخترت ابرام واخرجته من اور الكلدانيين وجعلت اسمه ابراهيم (سفر نحميا ٩ : ٧) . وتتخذ فئة اخرى من الباحثين

من هذه الرواية التوراتية حجة للرد على ديليج واتباعه فيقولون ان وجود اوجه تشابه بين النصوص السومرية ـ البابلية والتوراة انما هو دليل على عمق الروابط بين النتاج الحضاري الرافدين والتوراتي ٠ فاذا كان الاباء الاول جاؤا فعلا من وادي الرافدين ، كما تؤكد ذلك التوراة مرارا ، فلا نتوقع منهم الان يكونوا على اطلاع بنتاج موطنهم الاصلي ٠ ولذلك فان وجود « مادة مستوردة » في سفر التكوين انما هو ، في رأيهم « برهان على اصالة اشتقاقها وليس على كونها سرقة نكراء » ٠ ثم ان التوراة ، في رأي هؤلاء أيضا ، لـم تحاول قط اخفاء السمة الرافدينية للموروث الحضاري موضوع البحث ٠ بل انها على العكس من ذلك تسترعي الانتباه اليه مرارا : في قصة جنة عدن وانهارها الاربعة في سومر ، وفي قصة نمرود » الذي كان جبار صيد امام الرب » والذي « كان ابتداء مملكته بابل وارك واكد ومكنة في ارض شنعار » في وفي قصة بناء برج بابل (الزقورة) ٠ ثم يضيف هؤلاء بان المهاجرين الاول جلبوا معهم « متـاعا حضاريا كبـيرا من ارض مولدهم يتضمن كثيرا من التفاصيل التي هي الآن في الاصحاحات الاولى من سفر التكوين غير ان تلك الموروثات المنقولة لم تبق على حالها ، وانما حولت الى ما يتلاءم مع الغاية والمثل(١) ٠

من جانب آخر هناك من الباحثين من يبدي تحفظا على صحة الرواية التوراتية القائلة بان الموطن الاصلي لابراهيم عليه السلام كان في اور ويتساءل عما اذا كانت المدينة المذكورة في التوراة تدل فعلا على اور (في القسم الجنوب من العراق قرب الناصرية) ام انها تدل على مدينة أخرى لها نفس الاسم لكنها تقع في مكان آخر بعيدا الى الشمال ، علما بان كل الدلائل تشير الى ان عشيرة ابراهيم الخليل كانت في مدينة ناحور التي تقع من دون شك في شمالي غرب بلاد وادي الرافدين وليس في جنوبه ٠ اذ

يذكر سفر التكوين في هذا الشأن ما نصه : « فقال ابراهيم لعبده ، كبير بيته المستولي على كل ما كان لـه ، ضـع يدك تحت فخذي فاستحلفك بالرب اله السماء واله الارض ان تأخذ زوجة لابني من بنـات الكنعانيين الذين انا ساكن بينهم ، بل الى ارضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحق (تكوين ٢٤ : ٢ ـ ٤) » ثم اخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه وجميع خيرات مولاه في يده · فقـام وذهب الى ارام النهرين الى مدينـة ناحـور » (تكوين ٢٤ : ١٠ ـ ١١) · وفي ضوء هـذا النص يرى هؤلاء الباحثون ان الموطن الاصلي لابراهيم عليه السلام ينبغي ان يكون في هذه المنطقة الشمالية الغربية من وادي الرافـدين وليس في الجنوب منـه · ويحاول هؤلاء تعزيز رأيهم بالقول بان هناك مدينة أخرى مشابهة تقريبـا لاسم مدينة اور قد جاء ذكرهـا في رسالة عثر عليهـا في اوغاريت (رأس شمرة) يتحدث فيها الملك الحيثي حتوسلي (١٢٧٥ ـ ١٥٢٠ ق·م) الى نوقمتيبـا Nuqmepa ملك اوغاريت عن اوضاع تجار « من سكان مدينـة اورا Ura والتي من السهل ان تصبح اور في العبرية · اما عن وجود الكلدانيين في هذه المنطقة الشمالية الغربية من وادي الرافدين فمسألة ورد ذكرها في الكتابات التاريخية أيضا ·· اذ يذكر زينفون (في حدود ٤٠٠ ق·م) يذكر بان الكلدانيين كانوا يقطعون الطريق الى ارمينيا والمناطق المجاورة لهـا ، علمـا بان الكلدانيين هـم فرع من الاراميين ، ومعروف ان الموطن الرئيسي للاراميين كان في منطقة الجزيرة الفراتية بين العراق وسوريا(٢) · يضاف الى ذلك ان هناك رواية قديمة وشائعة عند بعض الطوائف الدينية مفادها ان ابراهيم عليه السلام كان يسكن في مدينة اورفا الواقعة في أعالي نهر البليخ الى الشمال من حران (داخل الاراضي التركية الآن) وانه ولد في المغارة الكائنة عند سفح جبل في الجنوب الشرقي

من المدينة وان هناك بركة ماء يسميها الناس بركة ابراهيم • جدير بالملاحظة ان اسم هذه المدينة بالسريانية هو « اورهي » Urhai وقد عرفها العرب بأسم الرها ثم حرف اسمها في القرن الخامس عشر الى اورفا • ولذلك فليس من غير المحتمل ان تكون مدينة اور الواردة في التوراة مختصراً عن تسمية أخرى مثل Urhai أو سابقتها Ura التي ورد ذكرها في أحد نصوص اوغاريت •

اما الطريقة الثانية ، وهي الاكيدة ، التي انتقلت بواسطتها تلك المعتقدات ، فكانت من خلال الصلات التجارية والسياسية والحملات العسكرية ، وأهم من ذلك كله من خلال وجود العبرانيين انفسهم في بابل أثناء الاسر البابلي • اذ من المعروف ان الصلات بين العراق وبلاد الشام لم تنقطع في كل العصور التاريخية • فبلاد الشام كانت مصدرا مهما للاخشاب والزيوت وكثير من المواد الغذائية والسلع التجارية ، ثم انها ذات موقع جغرافي متميز أدى في النهاية الى مواجهة عسكرية بين القوتين الكبيرتين آنئذ ، اشور وبابل • ولذلك فان وصول تأثيرات عن هذا الطريق من وادي الرافدين الى بلاد الشام امر اكيد جدا • جدير بالذكر في هذا الصدد انه تم العثور في مجدو في فلسطين على كسرة من رقيم يحتوي على جزء من ملحمة جلجامش يعود تاريخها الى العصر البابلي الوسيط ، اي الى حدود القرن الرابع عشر قبل الميلاد مما يؤكد ما قلناه سابقا من ان مظاهر حضارية عديدة من وادي الرافدين ، ومنها ملحمة جلجامش ، قد انتشرت في منطقة واسعة من الشرق الادنى القديم ، ولاشك في ان ذلك يثبت في الوقت نفسه ، انه كان هناك في مدينة مجدو الفلسطينية من يحسن قراءة الخط المسماري ويجيد اللغة البابلية ويتذوق ادابها •

اما وجود العبرانيين انفسهم في بابل أثناء الاسر البابلي الذي حدث

مرتين خلال حكم الملك البابلي نبوخذنصر الثاني (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق٠م) فقد كان له الاثر الاعظم في تعرف العبرانيين عن كثب على حضارة بلاد وادي الرافدين ٠ ففي عام ٥٩٧ ق٠م سقطت اورشليم بأيدي القوات البابلية وانتهى بذلك حكم كهوياقيم الذي لا يعرف على وجه التحديد هل انه نقل أسيرا الى بابل (سفر الايام الثاني ٣٦ : ٦) ام انه مات أو قتل (سفر ارميا ٢٢ : ١٨ : ١٩) ٠ وقد خلفه في الحكم ابنه يهوياكين الذي كان عمره ثمان سنوات ٠ وبعد ثلاثة أشهر من تنصيبه عادت قوات الملك البابلي لمحاصرة اورشليم ٠ فأسر يهوياكين وحاشيته و ٧٠٠٠ من جنده ونحو ١٠٠ من مهرة الصناع وتم نقلهم مع كثير من « آنية بيت الرب الثمينة » الى بابل وكان النبي حزقيال من بين الاسرى ٠ وقد عرف ذلك بالأسر البابلي الاول الذي وقع ، كما قلنا ، في عام ٥٩٧ قبل الميلاد ٠

امر نبوخذنصر بتنصيب صدقيا حاكما على العبرانيين وبقي الاخير سنين عديدة على ولائه للملك البابلي ٠ لكنه في نهاية الامر اعلن ثورته ضد السيادة الكلدانية مما دفع الملك البابلي الى تجريد حملة عسكرية فرضت الحصار على مدينة اورشليم ٠ وقد فشلت جهود الفرعون المصري في تقديم المساعدة للعبرنيين وانتهى الامر بسقوط المدينة بأيدي القوات الكلدية بعد حصار دام أكثر من سنة ونصف السنة وبتهديم المدينة ومعبدها وأسوارها ونقل حوالي ٥٠٠٠ شخصا الى بابل ٠ وقد حدث ذلك عام ٥٦٨ قبل الميلاد وهو ما يعرف بالاسر البابلي الثاني ٠

لقد كان لهؤلاء العبرانيين الذين وقعوا في الاسر ، وهم الذين تسميهم الكتابات المسمارية بـ « اليهود » نسبة الى مملكة يهودا التي كانوا فيها ، الدور الاكبر في تكوين الديانة اليهودية المعروفة الآن ٠ اذ استمر كهنتهم بممارسة شعائرهم الدينية وبتحرير أهم فصول التوراة أثناء وجودهم في

بابل . ويجمع الباحثون على ان الديانة اليهودية كما هي معروفة الآن قد ولدت أثناء الاسر في بابل وان الاسفار الاولى التي تبدأ بها التوراة اخذت شكلها الذي جاءنا به من خلال وجود اليهود في الاسر الذي استمر قرابة نصف قرن من الزمن وانتهى عام ٥٣٨ ق.م . ومما لاشك فيه انه كان للكهنة اليهود الدور الاساسي في تدوين هذه الاسفار التي كتبوها باللغة العبرية المعروفة بأرامية التوراة وانه كانت لهم معرفة واسعة بالنصوص السومرية والبابلية . وعلى هذا النحو كان الاسر البابلي فرصة ثمينة لرجال الدين اليهود مكنتهم من الاطلاع مباشرة على الوثائق المسمارية المدونة بالسومرية والبابلية والخاصة بخلق الكون والانسان والحياة والموت والثواب والعقاب وغيرها كثير من المعتقدات وشعائر العبادة والمفاهيم والقيم الاجتماعية السائدة في بلاد بابل . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى تأثر مدوني التوراة بالموروث السومري ـ البابلي بشكل مباشر وبالتالي الى دخول كثير من مفاهيمه الى الاسفار التوراتية .

هذا موجز بطرق انتقال التأثيرات الحضارية من وادي الرافدين الى العبرانيين . اما بخصوص موضوعنا الحالي وهو غضب الرب وانزال الكوارث في البلاد كمعتقد سومري ـ بابلي تأثر به العبرانيون ، ضمن أمور كثيرة أخرى ، فيمكن القول ان طاعة الالهة وعبادتها وتقديم القرابين لها واحترام قدسية معابدها من الامور التي آمن بها سكان وادي الرافدين ايمانا عميقا . وتدل النصوص المسمارية وخاصة الدينية والادبية منها على ان الفرد السومري والبابلي والاشوري كان حريصا كل الحرص على نيل رضا الاله لان غضبه كان في اعتقاده مدعاة لان يسبب له الفقر والمرض ومقت الناس .

هذا على الصعيد الفردي . وبالمثل فان النكبات والكوارث التي تحل

بالبلاد وفي أزمان مختلفة كانت تفسر دائما على انها تعبير عن النقمة الالهية. والشواهد على مثل هذه الكوارث عديدة سواء في النصوص المسمارية ام في التوراة ·

فالطوفان العظيم الذي ذكرت تفاصيله النصوص المسمارية كان نتيجة لغضب الاله انليل على الناس بعد ان تكاثر عددهم وشلا صخبهم وضجيجهم في الارض · وبالمثل فان التوراة تعزو الطوفان الى غضب الرب أيضا بعد ان كثر الظلم والفساد في الارض : « ورأى الرب ان سر الانسان قد كثر في الارض · وان كل تصور افكار قلبه انما هو شر كل يوم ··· فقال الرب امحو عن وجه الارض الانسان الذي خلقته · الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء (التكوين ٦ : ٥ وما بعده) ·

وقد ينزل الاله غضبه بالبلاد فيرسل على الناس سنين عجاف يقل فيها المطر والحب ومختلف أنواع القوت فينتشر الجوع ويعتري الناس الوهن والمرض ·· وقد حفظت لنا قصة الطوفان البابلية « اتراخاسيس »(٣) ، نسبة الى بطلها الذي انقذ البشرية من الفناء بسبب الطوفان تفاصيل وافية عن المجاعة التي امرت بها الالهة ان تحل بالبلاد مدة ست سنوات متعاقبة

وفي العلى جعل الاله ادد(٤) مطره نزرا
وفي الاسفل سدت الانهار وتدفن الفيضان من « العمق »
وانقصت الحقول غلاتها
ومنعت الالهة نيسابا(٥) فيض ثديها
فأصبحت الحقول السوداء بيضاء
وانتجت الحقول ملحا
وتمرد رحم الارض

فلم تنبت البقول ولم تنمو الحبوب
وأنزل مرض اسكو asakku (٦) على الناس
فأصبحت الارحام ظامرة ولم تلد مولودا
وعندما حلت السنة الثانية
اصبحوا يعانون من الجرب
وعندما حلت السنة الثالثة
تشوهت ملامح الناس بفعل الجوع
وعندما حلت السنة الرابعة
قصرت سيقانهم الطويلة
وانكمشت اكتافهم الواسعة
وصاروا يسيرون محدودبين في الشوارع
وعندما حلت السنة الخامسة
صارت الابنية تنظر الى امها وهي تدخل البيت
غير ان الام لم تفتح الباب لابنها ٠٠٠ (٧)
وعندما حلت السنة السادسة
اتخذوا من الأبنة عشاء لهم
ثم اتخذوا من الابن غداء لهم
ولم يشبعوا ، حتى التهم كل جار جاره

وتتحدث التوراة أيضا من خلال حلم فرعون الذي فسره يوسف عن سبع سنين تكون « شبعا عظيما في كل أرض مصر » وعن سبع سنين أخرى تكون « جوعا فينسى كل الشبع في أرض مصر ويتلف الجوع الارض ٠٠ » كما تتحدث التوراة عن الاجراءات التي اتخذها يوسف بخزن الحبوب خلال سنوات « السبع » لتلافي خطر المجاعة في سنين الجوع المقبلة(٨) ٠ وتذكرنا

قصة السنين العجاف هذه وما اتخذ من احتياطات لدرء أخطار المجاعة بما جاء في ملحمة جلجامش على لسان الاله اوتو الذي قال لابنه عشتار بانها اذا ما اصرت على خلق الثور السماوي للانتقام من جلجامش ورفيقه انكيدو فان ذلك سيكون نذيرا بحلول سبع سنين عجاف بالارض لا يكون فيها « حنطة للناس ولا علف للحيوانات » وان عليها (عشتار) ان تحتاط فتخزن الحنطه والعلف(٩) ·

وتتعدد أشكال الغضب والعقاب الالهيين في كل من النصوص المسمارية والتوراة غير ان ابرز تلك الاشكال هو ان ينزل الاله غضبه بالناس عن طريق ارسال جحافل من الاعداء يحتلون البلاد وينهبون خيراتها ويقتلون اهلها ··· ومن الامثلة على ذلك في النصوص المسمارية نذكر القصيدة السومرية المعروفة بين المختصين بـ « لعنة اكد »(١٠) · وتحمل هذه القصيدة في أبياتها حقدا عميقا على نرام ـ سين (٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ ق·م) رابع ملوك السلالة الاكدية الذي جوز لنفسه ، بموجب هذه القصيدة ، الاقدام على تخريب وتدنيس معبد الاله انليل في مدينة نفر والتي تعتبر من اشهر المراكز الدينية السومرية في جنوبي وادي الرافدين · وتصف القصيدة كيف ان الملك الاكدي اطلق العنان لجنوده الذين دخلوا المعبد وانتهكوا حرمته وهدموا جدرانه بالفؤوس ، وقد كان ذلك مدعاة ، من جهة نظر الشاعر السومري ، الى سخط الاله انليل وغضبه فانزل اللعنة على العاصمة أكد واهلها · ويقول الشاعر السومري بهذا الخصوص ان الاله انليل ارسل ضد العاصمة اكد جحافل الكوتيين الذين يعرف عنهم من المصادر التاريخية انهم انحدروا من مستوطناتهم في المناطق الجلبية الشمالية الشرقية واحتلوا العاصمة الاكدية واسقطوا واحدة من اعظم الامبراطوريات في ودي الرافدين في حدود ٢٢٣٠ ق·م· ونقتبس في ادناه

مقطعا من تلك القصيدة السومرية التي نحن في صددها الآن :

قوم لا يخضعون وبلاد لا يحصى اهلها
بلاد الكوثيين ، بلاد لا تكبح جحافلها
هؤلاء جاء بهم انليل من الجبال
فغطوا الارض بأعداد ضخمة كالجراد
وامتدت ايديهم الى السهول
وكأنها مصيدة للبهائم
فلم يفلت من يدهم شيء
ولم يهرب من يدهم أحد
فلا رسول على الطريق
ولا ملاح في قاربه في النهر
لقد وضعوا الرقباء على قمم الاشجار عند ضفاف الانهار ...
ووضعوا اللصوص على الطرقات
ومداخل المدينة اصبحت مداخلها تحت التراب
واطلقت البلاد صرخة حزن من داخل اسوارها

ويستمر الشاعر السومري في وصف ما حل بالعاصمة أكد من خراب ودمار وما اصاب اهلها من فقر وجوع وموت على يد الغزاة . ويذكر في الاخير ان ستة من الالهة جاؤا الاله انليل يواسونه للخراب الذي الحقه الاكديون بمعبده في مدينة نفر . وانهم اثناء ذلك راحوا ينزلون اللعنات على مدينة آكد التي آلت قصورها في نهاية الامر ، على حد قول الشاعر السومري ، الى مجرد خرائب كئيبة يسكنها ابن آوى ومعز الوحش والافاعي والاشباح ...

هكذا كان سقوط الامبراطورية الاكدية . من وجهة نظر الاديب

السومري ، الذي كان على الارجح من الكهان ، نتيجة لغضب الاله انليل الذي ارسل ضدها جحافل الكوتيين . اما من الوجهة التاريخية فانه من المعروف لدى الباحثين ان سقوط هذه الامبراطورية يكمن في جملة اسباب لعل من أهمها استنزاف قوة الامبراطورية في الحروب والحملات العسكرية الرادعة التي ستشنها ضد القبائل المستوطنة في المناطق الجبلية الى الى الحمال والشمال الشرقي من البلاد مثل قبائل لولوبو والكوتيين . وجدير بالذكر ان هذه القبائل كانت غير متحضرة لكنها تعلمت فنون الحرب والسلاح من الاكديين واستطاعت في النهاية من ان تضع نهاية لامبراطوريتهم .

وبالاضافة الى ألد ، يعتبر سقوط سلالة اور الثالثة واحدا من الاحداث السياسية البارزة في تاريخ وادي الرافدين وذلك بسبب النهاية المأساوية التي آلت اليها هذه السلالة . فنحن نعرف من لوجهة التاريخية ان هناك جملة من الاسباب السياسية والاقتصادية والعسكرية أدت مجتمعة الى سقوطها . فالوثائق السومرية المعاصرة لابي ـ سين آخر ملوك سلالة اور الثالثة تشير الى حدوث حركات انشقاق قام بها بعض حكام المدن المهمة أدت الى استقلالهم عن السلطة المركزية في العاصمة . كما تشير تلك الوثائق ايضا الى ارتفاع كبير في أسعار المواد الغذائية الاساسية كالسمن والحبوب والى حاجة شديدة للحنطة في العاصمة اور وفي غيرها من المدن الاخرى . وأخيرا تذكر الوثائق استمرار تدفق قبائل المارتو (الاموريين) على المدن السومرية واقتحامهم الاسوار والمراكز الدفاعية التي اقامها السومريون اصد هجماتهم . كل هذه الاسباب مهدت الطريق للعيلاميين لان يغزو البلاد ويسقطوا السلالة السومرية الحاكمة في اور .

هذا من وجهة النظر التاريخية . اما من الوجهة الدينية فالمسألة

تختلف تماما . اذ وصلتنا قصيدة سومرية ، تعرف بين المختصين بـ « مرثية اور »(١١) يصور فيها الشاعر المأساة التي حلت بالمدينة نتيجة لهجوم العيلاميين الذين اسقطوا السلالة الحاكمة فيها في حدود ٢٠٠٦ ق.م واخذوا آخر ملوكهم ، ابي ـ سين ، في الاسر الى عيلام . الشاعر السومري في قصيدته التي تزيد عن خمسمائة بيتا ، النكبة الى سبب آخر يختلف تماما عن الاسباب التي ذكرناها قبل قليل . فهو يرى ان الآلهة العظام آنو ، انليل ، انكي وننخرساك هم الذين قرروا ذلك المصير المأساوي للبلاد واهلها عندما عطلوا فيها سيادة القانون والعدل والحكم . واقدموا على تخريب المساكن والمدن وابادة الاغنام والماشية والمحاصيل الزراعية . ثم يذكر كيف ان الآلهة ارسلت اولا جحافل الكوتيين لينشروا الدمار والرعب في البلاد . وفي النصف الثاني من قصيدته ، ينتقل الشاعر السومري الى ذكر العاصمة ويصف ما كانت تعانيه من مجاعة قاسية بحيث اضطر اله المدينة ننا (سين) لان يدعو اباه الاله انليل للتدخل في الامر وانقاذ المدينة من محنتها . غير ان الاله انليل اخبره بان لا جدوى من ذلك وان عليه ان يهجر المدينة لانها مقبلة على مواجهة مصيرها المشؤوم على يد الغزاة . ويصور الشاعر القديم حال اهل اور فيقول :

« اور في داخلها موت وفي خارجها موت
في داخلها نموت نحن من الجوع
وفي خارجها نقتل نحن بأسلحة العيلاميين
لقد اخذ العدو اور ...
ورفعوا مزالج بواباتها ، وها هي ابوابها مشرعة الى اليوم
لقد داسها العيلاميون مثل سيل عرم

فتحطمت اور بفعل السلاح مثلما يتحطم اناء من فخار ... »

ثم تصف مرثية اور كيف امعن العيلاميون في قتل سكان المدينة وتهديمها ونهب أموالها وكيف انهم دنسوا الاماكن المقدسة وخربوا معبد الاله ننا ونهبوا كل ما فيه من كنوز ونفائس وأخذوا كهنته في الاسر .

ويتجسد الاعتقاد في غضب الرب ومقدرته على انزال الكوارث بالارض والانسان ، بشكل واضح في القصيدة البابلية التي بطلها اله الطاعون « ايرا »(١٢) ، والتي تصف كيف انه احل الدمار عن قصد بمدن رئيسية وعريقة مثل بابل مركز عبادة الاله الشهير مردوخ ومدينة الوركاء حيث كانت تعبد عشتار ، الهة الحب والحرب ، ومدينة سبار المخصصة لعبادة اله الشمس ، مصدر القانون والعدل في بلاد وادي الرافدين . ونقرأ في بداية القصيدة انه ولد لاله السماء آنو سبعة أولاد هم « الآلهة السبعة » (في البابلية Sibitti) وانه عين لكل واحد من هؤلاء مهمة خاصة به وجعله متمرسا في أساليب الهجوم والابادة ، ثم انه اعطاهم الى اله الطاعون ايرا ليكونوا جميعا سلاحا فتاكا في يديه وليسيروا دائما الى جانبه . وعلى غرار ما رأينا في قصة الطوفان حيث كان ضوضاء وصخب البشر سببا في ازعاج الآلهة وبالتالي انزال العقاب الالهي بهم ، هنا أيضا يلمح آنو ، اله السماء ، الى الاله ايرا بوجوب استخدام اسلحته الالهية السبعة فيما اذا ازعجته ضوضاء البشر في الارض واراد ابادتهم .

في الحال يبدأ « السبعة » ان صح التعبير بتحريض ايرا على نبذ الكسل وعلى النهوض لاحلال الخراب والدمار بالارض بحيث يعم الرعب والفزع بين الآلهة والملوك والشياطين وتهتز الجبال وترتجف البحار خوفا من الكارثة المنتظرة . ومن اجل استثارة الاله وتحريك رغبة الفتك

الكامنة في نفسه ، يذكر الالهة السبعة سيدهم ايرا بان التشبث بالمدينة وبيوتها من صفات الشيوخ المسنين والاطفال الصغار • اما الرجال فعليهم ان يخرجوا للحرب والقتال وان يستبشروا ويفرحوا بالغزو كما لو انهم كانوا في يوم عيد • ثم يذكرونه بانهم لم يذهبوا للغزو منـذ زمن طويل بحيث بسطت العناكب خيوطهـا على أسلحتهم وتراخت ابدان قسـيهم واوتارها وغطى الصدأ نصال سيوفهم • وكان لكلمات الالهة السبعة وقعها الحسن في نفس ايرا ، أو كما يقول الشاعر البابلي « انها كانت لذيذة كالزيت الناعـم في نفسـه » • لذلك فانـه استجاب لندائهـم وطلب من وزيره ايشسوم Ishum ان يعجل ويفتح له الطريق لبدء مهمتـه المنتظرة • وعندما حاول ايتسوم ان يثني سيده ايرا عن عزمه اشفاقا منه بالطبع على البشرية من الدمار الذي سيلحق بها ، زجره سيده بشـدة مؤكدا عزمه على معاقبة سكان المدن لانهم لم يعودوا يخشون سلطانه ولانهم أيضا نبذوا كلمة مردوخ اله بابل العظيم وأخذوا يتصرفون على هواهم •

اتجه ايرا في موكبه أول الامر الى مدينة بابل ودخل « ايساكيلا » معبدها الشهير حيث يقيم الاله مردوخ ، وطلب منه ان يهجر معبده ويخرج من المدينة • فاضطرب مردوخ واخذ يشرح لايرا كيف ان تركه لعرشـه سيؤدي الى اختلال توازن الكون واضطرابه برمته وان الفوضى ستعم في الارض • فالرياح الشريرة والشياطين وآلهة العالم الاسفل سوف تنقض كلها من أماكنها في دنيا الاموات لتحل الخراب بالارض وتقضي على كل مخلوق حي • لكن ايرا طمأنه بان شيئا من ذلك لن يحدث وانه سيتولى تصريف الامور في العاصمة بابل طيلة غيابه عنها • ولكن ما ان ترك مردوخ عرشه في معبد ايساكيلا وغادر بابل حتى التفت يرا الى وزيره ايشـوم وخاطبه قائلا :

« افتح لي الطريق لاسير على الدرب
لقد حان اليوم وازفت الساعة
اقول سأسقط اشعة الشمس
واغطي بالظلام وجه الارض
ان من ولد في يوم مطير
سيدفن في يوم عطش
ومن سار على درب كثير الماء
سيرجع على طريق ترب
سأكلم ملك الالهة (مردوخ) واقول له :
لا تخرج من البيت الذي دخلت فيه
لاني سأنجز اوامرك بكل امانة
وعندما يتضرع اليك « ذوو الرؤوس السود »
فلا تقبل دعواتهم
اني سأدمر المنازل كلها واحيلها الى خرائب
سأحطم الجبال وابيد مواشيها
واجعل البحار تضطرب وادمر ما تنتج
سأحطم كل جبال واجعل الناس صرعى وابيد كل المخلوقات »

هنا يحاول ايشوم ان يقنع سيده ايرا بالتروي والكف عن قتل الناس وتدمير بابل ولكن دون جدوى . فأله الطاعون لم يترك المدينة الا وهي خرائب متناثرة تبعث على الحزن والاسى بحيث لما رجع اليها مردوخ هاله منظرها فراح يبكي ويصرخ بأعلى صوته واسفاه على بابل ! واسفاه على بابل !

ويتابع الاله ايرا حملته ضد مدن أخرى مثل الوركاء وسبار والدير

محدثا فيها من الخراب والدمار مثلما احدث في بابل . فهاهو يتحدث الى نفسه فيقول :

« سأمعن في القتل والانتقام
سأقتل الولد
واقتل الوالد
ولن يكون له من يدفنه
من ابتنى بيتا وقال في نفسه
هوذا منزلي
لقد بنيته لاستريح فيه
ويوم يأخذني القدر سأرقد في وسطه
هذا الرجل سأميته واخرب منزل راحته
وبعد ان يصبح خرابا سأعطيه لرجل آخر ... »

ويحاول ايشوم مرة أخرى ان يهدىء من غضب سيده اله الطاعون فيذكره بتماديه في القتل والتخريب ويناشده ان يتوقف عن ذلك فورا :

« يا ايرا العظيم
لقد أمت التقي
وامت غير التقي
لقد امت من اخطأ اليك
وامت من لم يخطىء اليك
لقد امت من احرق البخور للالهة
امت الجلساء والمقربين من الملك
امت شيوخ المجلس
امت الصبايا

وها انت ترفض ان تستريح وما زلت تقول في نفسك :

سأقتل القوي

واصرع الضعيف ...

سأقتلع الصارية لتضيع السفينة

واحطم المرساة فلا تقترب قط من الشاطىء ...

سأجعل الثدي ينشف فلا يعيش وليد

واجعل المنابع تنشف فلا تجلب الانهار الفيض

سأقتلع جذور الاشجار فلا تنمو الثمار

واقتلع اسس الجدران لكي تتهاوى قممها »

تذكر القصيدة في أجزائها الاخيرة ان ايشوم استطاع من خلال استعطافه المستمر لسيده الاله ايرا ان يذهب عنه غضبه ويجعله يتوقف عن قتل الناس وتخريب منازلهم وأكثر من ذلك فقد قبل الاله ان يخص الاكديين بعنايته وحمايته دون بقية الشعوب الاخرى وان يضمن لهم تكاثرا في السكان وغلبة على الاعداء وازدهارا لمدينة بابل لكي يعلو شأنها بين كل مدن العالم .

جدير بالذكر هنا ان هذه القصيدة البابلية عن عقب اله الطاعون ايرا قد جاءت مذيلة بأسم ناظمها المسمى كبتي - ايلاني - مردوخ Kabti - iloni - Marduk بن دابيدو Daoidu الذي قال بان الاله مردوخ نفسه ظهر له في الحلم واملى عليه القصيدة وانه عندما استيقظ كتبها كما سمعها ولم يضف اليها أو ينقص منها شيئا . واغلب الظن ان القصيدة نظمت بعد غزو العيلاميين لبلاد بابل الذي انهى حكم السلالة الكشية في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد وهي بذلك تعكس ويلات الغزو الذي تعرضت لها البلاد .

وفي التوراة أيضا يجد الباحث أمثلة كثيرة جدا على غضب الرب وانزال عقابه في بني اسرائيل فيسلمهم الى جحافل الاعداء على غرار ما رأينا تفاصيله في النصوص المسمارية التي جئنا على ذكرها . ولتوضيح ذلك نكتفي باقتباس المقطع الآتي من سفر الملوك الثاني (الاصحاح ٧١) الذي يتحدث عن عصيان بني اسرائيل أوامر الرب واقترانهم أعمالا قبيحة وعبادتهم الاصنام ... مما كان سببا في غضب الرب وتسليط الاشوريين عليهم الذين سبوهم الى بلاد آشور :

« وكان ان بني اسرائيل اخطأوا الى الرب الههم الذي اصعدهم من ارض مصر وعمل بنو اسرائيل سرا ضد الرب الههم امورا ليست بمستقيمة ... وعبدوا الاصنام التي قال الرب لهم عنها لا تعملوا هذا الامر . واشهد الرب على اسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الانبياء وكل راء قائلا ارجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصايا فرائضي حسب كل الشريعة التي اوصيت بها آباءكم والتي ارسلتها اليكم على يد عبيدي الانبياء . فلم يسمعوا بل صلبوا اقضيتهم كأقضية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب الههم . ورفضوا فرائضه وعهده ... فغضب الرب جدا على اسرائيل ونحاهم من أمامه ... فرذل الرب كل نسل اسرائيل واذلهم ودفعهم ليد ناهبين حتى طرحهم من امامه ... فسبي اسرائيل من ارضه الى آشور الى هذا اليوم . واتى ملك آشور بقوم من بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم واسكنهم في مدن السامرة عوضا عن بني اسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها ... »

الهوامش :

1p Speiser, "Mesopotamia" Motifs in Early Chapters of Genesis, Expedition, vol. 5 (1962), p. 70 ff.

٣ ـ يعني اسمه في الاكدية « كثير او غزير الحكمة » وهو نظير « زيوسدرا » في قصة الطوفان السومرية و « اتنابشتم » في قصة الطوفان كما ترويها ملحمة جلجامش ٠

٤ ـ اله الرعد والامطار ٠

٥ ـ الهة الحبوب ٠

٦ ـ يراد بكلمة azag في السومرية والتي استعيرت في الاكدية بشكل azakku نوع من الشياطين أو الارواح الخبيثة ، كما استخدم اللفظ للدلالة على المرض الذي يسببه هذا النوع من الشياطين ، انظر مزيدا من التفاصيل في :
The Chicago Assyrian Dictionary, Vol. 1, Part 2, P. 325 ff.

٧ ـ يظهر ان المجاعة بلغت حدا بحيث أصبح الاباء يتركون ابناءهم خارج البيوت في الشوارع ـ وجدير بالذكر ان هناك نصوص مسمارية تتحدث عن بيع الابناء والنساء في اوقات الظروف العصيبة كان تتعرض المدينة للجاعة بسبب حصار عسكري ٠ فنحن قرأ في نصوص من نفر ان طفلة في هذه المدينة بيعت بسعر ٢٢ شغلا من الفضل (الشغل يساوي ٤ر٨ غم) وبحضور امها المسماة Ima-Nippur حول مزيد من التفاصيل انظر :
Oppenheim, "Siege documents from Nippur, Iraq XVII (1955), 69 — 89.

٨ ـ سفر التكوين ٤٦ : ٣٠ ـ ٣١ ٠

9 — Speiser, "The Epic of Gilgamesh " in ANET, P. 84 — 85 lines 101 ff.

١٠ـ حول قصيدة « لعنة اكد » انظر :
Kramer, "The Curse of Agade" in ANET, PP. 646 — 651.

١١ـ حول مرثية اور انظر :

١٢ـ بخصوص هذه القصيدة البابية عن اله الطاعون ايرا ، انظر :
Kramer, "Mythologies of the Ancient World", 1961, PP. 127 - 135.

ثم انظر الترجمة العربية للاب البير ابونا ود. وليد الجادر : المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين - مختارات من النصوص البابلية (١٩٨٨) ص ١٢٢ وما بعدها .

زيادة الخليفة العباسي المهدي
في المسجد الحرام

الاستاذ الدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الآداب - جامعة بغداد

تعتبر الاعمال المعمارية التي قام بها الخليفة العباسي محمد المهدي أهم ما اقيم في المسجد الحرام من زيادة وبناء ذلك انها تعادل عموم الزيادات التي زيدت بهذا المسجد منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حتى نهاية زيادة أبي جعفر المنصور · بالنظر لاهمية زيادة الخليفة المهدي فقد كرسنا هذا البحث في أعماله المعمارية بالمسجد الحرام · وسوف يتناول البحث النقاط الآتية :

أ ـ المسجد الحرام قبل عصر المهدي

ب ـ زيادة المهدي الاولى

حـ ـ زيادة المهدي الثانية

أ ـ المسجد الحرام قبل عصر المهدي :

تشير النصوص التأريخية التي تناولت المسجد الحرام ، أن هذا المسجد وسع قبل الخليفة المهدي ، خمس مرات ، اثنتان منها جرت في العصر الراشدي ، واثنتان في العصر الاموي ، والخامسة في العصر العباسي · وسوف نحاول أن نلم بايجاز هذه الزيادات الخمس لكي نتبين اهمية زيادة الخليفة المهدي ·

قام بالزيادة الاولى في العصر الراشدي ، الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في عام ١٧ هجرية (٦٣٨م)(١) . وقد لاحظ الخليفة أن الدور كانت محدقة بالمسجد الحرام من كل جانب وكان دخول الناس الى المسجد من أبواب بين تلك الدور (٢) . فاشترى دورا من تلك الدور الملاصقة للمسجد وهدمها ، وأدخل أرضها في أراضي المسجد . وجعل الخليفة عمر (رض) حول الكعبة حائطا قصيرا كانت توضع عليه المصابيح للانارة(٣) . والزيادة الراشدية الثانية تمت على يد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عقب زيارته للمسجد الحرام معتمرا في سنة ٢٦ هجرية . وقد لاحظ بنفسه ضيق المسجد بالمصلين ، فاشترى دورا من تلك الدور التي كانت تحدق بالمسجد الحرام ، فهدمها وأدخل أرضها في أراضي المسجد أيضا(٥) . وجعل الخليفة عثمان بن عفان (رض) لاول مرة ، للمسجد الحرام أروقة تحيط به ، بعد أن كان من قبل عبارة عن فضاء يحيط بالكعبة من غير اروقة ، ولا سقف يحمي المصلين من المطر ويقيهم لهيب أشعة الشمس(٦) .

ومقدار المساحة المضافة الى المسجد الحرام في زيادتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (رضي الله عنهما) فأننا لا نعرف تحديدها على وجه الدقة ، واذا شاء أي باحث أن يحددها فأن ذلك سيكون ضربا من التخمين .

والزيادتان الثالثة والرابعة التي جرت في المسجد الحرام في العصر الاموي فقد تمت الثالثة على يد عبدالله بن الزبير(٧) ، والرابعة على يد الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وكان الخليفة عبدالملك بن مروان قد عمر في المسجد من دون زيادة .

باشر عبدالله بن الزبير أعمال الزيدة في المسجد الحرام بعد فراغه من تجديد الكعبة المشرفه والتي تمت في سنة ٦٤ هجريه (٦٨٣م) ، بعد حدث الحريق الذي اصابها(٨) .

ويروي الازرقي(٩) ، وينقل عنه ابن ظهيرة(١٠) ، واصفا حالة المسجد الحرام قبل ان يزيد عبدالله بن الزبير فيه ، بأنه كان محاطا بجدار قصير غير مسقف [هو الحائط الذي جعله الخليفة عمر (رض) وقد اشرنا اليه] يحبس الناس حول المسجد بالغداة والعشي ، ثم يذكر الازرقي أن ابن الزبير اشترى بعض دار المؤرخ الازرقي(١١) ، التي كانت ملاصقة للمسجد الحرام . ويروى الازرقي عن جده بأنه سمع بأن ابن الزبير قد سقف المسجد ، ولكنه لا يعلم أسقفه كله أم بعضه(١٢) .

أما زيادة الخليفة الاموي الوليد بن عبدالملك ، فانها تمت على الاغلب في عام ٩١ للهجرة ، حيث أدى فيها الخليفة فريضة الحج(١٣) . وأمر بنقض ما قام به والده عبدالملك ، واعاد عمارته بصورة محكمة . ويشير الازرقي ، بأن الوليد جلب للمسجد الحرام الاساطين الرخام لاول مرة(١٤) ، وجعل له عقودا قائمة على أعمدة الرخام ، وحلى أعلى وجوه هذه الطيقان بالفسيفساء وأزر المسجد من الداخل بالرخام . وسقفه بالساج المزخرف وكسى تيجان الاعمدة بالذهب .

ويذكر الازرقي بأن الوليد جعل للمسجد شرافات ، ويؤيد ابن ظهيرة القرشي هذه الرواية ، الا أن الفاسي يذكر « سرادقات » وقد ادرك المرحوم باسلامة وقوع الفاسي في خطأ نتيجة المشابهة بين الكلمتين(١٥) . أما مقدار المساحة المضافة في زيادة الوليد هذه فلا يمكن تحديدها ، والذي يبدو أن جلب الاساطين واقامتها يوحي بأن الاضافة تمت على شكل

رواق ، أما الجهة التي اقيم فيها هذا الرواق فلا يمكن تحديد موضعها على وجه الدقة . ويشير باسلامه بأنها كانت في الجانب الشرقي(١٦) .

اما عمارة الخليفة عبدالملك فقد نفذت قبل زيادة الوليد ، وانها تمت بعد مقتل عبدالله بن الزبير ، اذ تهدمت بعض أقسام المسجد الحرام نتيجة رميه بحجارة المنجنيق التي قذف بها جيش الحصين بن نمير عليه(١٧) . ويبدو من روايات المؤرخين أن الخليفة عبدالملك لم يوسع في المسجد الحرام ، وانما قام بتسقيفه بالساج ، وزين تيجان الاعمدة بالذهب ، اذ كسى كل رأس اسطوانة بخمسين مثقالا من الذهب(١٨) .

أما الزيادة الخامسة فقد قام بها الخليفة العباسي المنصور في سنة ١٣٧ هجرية(١٩) . وتعد زيادته هذه أهم الزيادات السابقة اذ تشير الكتابة التاريخية التي تركها المنصور على باب بني جمح بأن ما اضيف للمسجد في توسعة المنصور تعدل ضعف ما كان عليه هذا المسجد من قبل(٢٠) . كما ينسب الى المنصور بناء منارة جديدة للمسجد وهي التي تعرف بأسم منارة باب العمرة(٢١) .

زيادة الخليفة المهدي :

قام الخليفة المهدي بزيادتين كبيرتين في المسجد الحرام ، الاولى في سنة ١٦٠ هجرية (٧٧٦م) ، والثانية في سنة ١٦٤ هجرية (٧٨٠م) ، وتعد زيادة المهدي أهم الزيادات التي جرت في المسجد الحرام ، بل انها تعتبر أكثر أهمية من جميعها ، اذ أن المساحة المضافة في زيادته تساوي جميع الزيادات التي اضيفت الى المسجد الحرام في الزيادات الخمس الماضية . وسنحاول تناول زيادة المهدي الأولى والثانية .

ب ـ زيادة المهدي الاولى :

روى الازرقي تفاصيل هذه الزيادة فقال : « حج المهدي سنة ستين ومائة فجرد الكعبة مما كان عليها من الثياب وأمر بعمارة المسجد الحرام ، وأمر ان يزاد في اعلاه ويشترى ما كان في ذلك الموضع من الدور ، وخلف الاموال ، وأمـر بالاشراف على العمارة وشراء الدور وتعويض أصحابها قاضي مكـة محمـد بن عبدالرحمن بن هشام الاوقص المخزومي ، فقد اشترى لاهل الصدقة بثمن دورهم مساكن في فجاج مكه عوضا عنها تكون لاهل الصدقة على نفس الشروط التي كانت عليها صدقاتهم ، واشترى كل ذراع مما في الوادي بخمسة عشر دينارا . ويذكر الازرقي بأن دار الأزرق جده كانت ضمن الـدور الداخلة في الدور المضافة ، وهي يومئـذ لاصقة بالمسجد الحرام على يمين من يخرج من باب شيبة بن عثمان ، فكان ثمنها عشرة آلاف دينار ، وكان اكثرها قد دخل في زيادة ابن الزبير حين زاد فيه ، ودخلت دار خيرة بنت سباع الخزاعية أيضا في الزيادة ، وبلغ ثمنهـا ثلاثة واربعين الف دينـار دفعت اليها وكانت تطـل على المسعى يومئذ ، ودخلت أيضا دار لآل جبير بن مطعم وبعض دار شيبة بن عثمان ، فأشترى بذلك جميع ما كان بين المسعى والمسجد من الدور وهدمها ، واضاف أراضيها الى المسجد حتى أصبح شارعا الى المسعى في عهد الازرقي وجعل موضع دار القوارير رحبة لم تـزل على ذلك حتى استقطعها جعفر ابن يحيى في خلافة الرشيد فبناها ثم صارت الى حماد البربري بعد ذلك فبنى باطنها بالزجاج وبنى ظاهرها بالرخام والفيسيفساء .

هذا ما كان من زيادة المهدي في الجانب الشرقي من المسجد الحرام

مما يلي المسعى . أما ما كان من زيادته في الجانب الغربي ، فأنه اشترى دورا في أسفل المسجد الى ان انتهى به الى باب بني سهم الذي كان حدا في توسعة والده المنصور ، هو باب العمرة الى باب الخياطين الذي هو باب ابراهيم .

وكذلك زاد في الجانب الشمالي الى منتهاه ، وزاد في الجانب الجنوبي الى قبة الشراب ، وتسمى قبة العباس أيضا(٢٢) .

وكان الخليفة المهدي ، عندما عزم على توسعة المسجد الحرام قد أمر بنقل الأساطين الرخام من الشام ومصر ، فنقلت ، وحملت بحرا الى قرب جدة في موضع كان ساحلا لمكة المكرمة قبل الاسلام يقال له الشعبية ، لان مرمداه اقرب لمكة من مرسي جدة ، ثم حملت تلك الاساطين الرخام من الساحل المذكور على العربات ذات العجل الى مكة .

ولغرض اقامة الاساطين ، فقد حفرت الاسس لها ، وزيادة في تثبيت الآساطين فقد عمد المعمار الى بناء جدارات على شكل التقاطع × . واقام كل اسطوانة على موضع التقاطع . اما اسقف أروقة المسجد الحرام فقد عملت من خشب الساج(٢٣) .

هذا ما تم في العمارة الاولى للخليفة المهدي التي استمرت اربعة سنين ، حيث انتهت في سنة اربع وستين ومائة للهجرة .

ج ـ زيادة المهدي الثانية :

يشير الازرقي أمر هذه الزيادة وسببها فيقول : « لما بنى المهدي المسجد الحرام وزاد فيه الزيادة الاولى اتسع اعلاه وأسفله وشقه الذي يلي دار الندوة الشامي ، وضاق شقه اليماني الذي يلي الوادي

والصفا »(٢٤) ·

والذي يفهم من رواية الازرقي هذه بأن الكعبة لم تكن تتوسط فناء المسجد الحرام ، اذ أصبحت أقرب الى الجهة الجنوبية بعد أن شملت التوسعة في زيادة المهدي الاولى الجهات الشرقية والشمالية والغربية ، وما أصاب الجهة الجنوبية من التوسعة قليل جدا ، وذلك لان الجهة الجنوبية من المسجد كانت مجرى سيل وادي ابراهيم · ويشير الازرقي الى ذلك بقوله : « وذلك أن الوادي كان داخلا لاصقا بالمسجد ، وكانت الدور وبيوت الناس من ورائه في موضع الوادي ، وكان يسلك من المسجد الى الصفا في بطن الوادي ثم يسلك في زقاق ضيق حتى يخرج الى الصفا من التفاف البيوت فيما بين الوادي والصفا(٢٥) ·

« وعندما حج المهدي سنة اربع وستين ومائة ، ورأى الكعبة في شق من المسجد كره ذلك وأحب أن تكون متوسطة في المسجد ، فدعا المهندسين وشاورهم في ذلك فقالوا له : لا يمكن ذلك الا بعد أن تهدم البيوت التي على حافة السيل في مقابلة الجدار اليماني من المسجد الحرام وينقل المسيل الى أرض تلك البيوت ويدخل مجرى الوادي في المسجد الحرام ، ومع ذلك فان وادي ابراهيم له سيول عارمة وهو واد حدور يخاف ان حولناه عن مكانه أن لا يثبت اساس البناء فيه على ما تريد من الاستحكام ، فتذهب به السيول وتعلو فيه فتصب في المسجد الحرام ، ويلزم هدم دور كثيرة ، وتكثر المؤنة وتكبر ، ولعل ذلك لا يتم · فقال الخليفة المهدي : لابد لي من أن أوسعه حتى أوسط الكعبة في المسجد الحرام ولو أنفقت فيه ما في بيوت الاموال ، وعظمت في ذلك نيته واشتدت رغبته ولهج بعمله ، فلما رأى المهندسون قوة عزم الخليفة وتصميمه على

الزيادة راحوا يتخذون كل سبيل في تنفيذ رغبته في جعل الكعبة المشرفة متوسطة للمسجد الحرام ، فاستعانوا بكل ما لديهم من علوم المساحة والهندسة آنذاك لتحويل مجرى سيل وادي ابراهيم عن موضعه ليصبح أمر توسعة المسجد الحرام أمرا محتما لابد منه ، فقام المهندسون والمساحون بنصب الرماح على سطوح الدور من أول الوادي الى آخره ، ثم ذرعوا المساحة من فوق الرماح وعرفوا ما يدخل ضمن مساحة المسجد منها ، وما يدخل في الوادي ، وقاسوا هذه المسافات مرة بعد أخرى حتى يتأكدوا من ضبطها(٢٦) ٠

وبعد أن تمت عملية تحديد المساحة المضافة دعا المهندسون الخليفة المهدي الى مشاهدة ما سيصبح عليه المسجد الحرام بعد الزيادة ، فصعد الى جبل أبي قبيس ، وشاهد بنفسه موقع الكعبة في وسط المسجد ٠ ورأى ما سوف يهدم من الدور ، وما سيجعل ممرا للسيل ، وقام المهندسون بقياس المسافات وضبطها امامه ، فأرتاحت نفسه ، وأيقن أن ما كان يريده ويرغب فيه أصبح حقيقة واقعة ٠

ثم غادر الخليفة المهدي الى العراق ، وخلف أموالا كثيرة لشراء الدور وتعويض أصحابها ، وتكاليف البناء ، وقد ذكر الازرقي بأن سعر الذراع المربع المضاف الى المسجد قدر بخمسة وعشرين دينارا ، وما اضيف الى الوادي قدر بخمسة عشر دينارا(٢٧) ٠

وأرسل الخليفة المهدي بطلب الرخام من الشام ومصر ، فنقلت أعمدة الرخام منهما في السفن الى جدة ثم حملت من جدة الى مكة على عربات ، ونشط العمال في هدم الدور وبدأ البناؤون في البناء(٢٨) ٠

ومما له علاقة بزيادتي الخليفة المهدي ثلاث منائر هي :

١ ـ المنارة التي على باب السلام ٠

٢ ـ المنارة التي على باب علي (كرم الله وجهه) ٠

٣ ـ المنارة التي على باب الوداع (التي كانت تعرف سابقا بباب الحزورة) ٠

وأغلب الظن أن هذه المنائر الثلاث لم يقم الخليفة المهدي ببنائها ، وانما قام بتجديدها فحسب ، وهذا واضح من بعض الرويات التأريخية المختلفة(٢٩) ٠ وعلى الارجح انها المنائر التي كانت موجودة حتى نهاية عصر الخليفة المنصور اضافه الى المناره الرابعة التي نميل الى أنه أنشأها ٠ وحينما ابتدأ الخليفة المهدي بتوسعته للمسجد الحرام وجد أن ثلاثا منها تقع ضمن المساحة التي ينبغي أن تهدم حتى تستقيم توسعته ، فهدمها ثم بناها مجددا ٠

وقد كان أمر بناء هذه المنائر الثلاث موضع نقاش بعض المؤرخين الذين اهتموا بتأريخ وعمارة المسجد الحرام ، فلقد ذكر الفاسي :

« وعمر ابو جعفر المنصور من منائر المسجد الحرام منارة العمرة ، وعمر ابنه المهدي منها المنارة التي على باب شيبة ، والمنارة التي على باب علي ، والمنارة التي على باب الحزورة »(٣٠) ٠

ويعلق ابن ظهيرة القرشي على رواية الفاسي هذه فيقول : « المفهوم من كلام الفاسي بقوله عمر المنصور باب العمرة ، وعمر ابنه المهدي ٠٠٠ الى آخره ٠ ان مراده بذلك الترميم والتجديد لا الانشاء بدليل قوله ذلك ، وعمر الجواد جمال الدين محمد بن علي وزير صاحب الموصل منائر المسجد وكذا قوله وعمرت منارة الحزورة في زمن الاشرف شعبان صاحب مصر ، وكانت سقطت في سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، وكذا قوله

وعمرت منارة بني شيبة في زمن الناصر فرج ، وذلك بعد أن سقطت في سنه تسع وثمانمائة لان السقوط يستدعي تقدم البناء قبل ذلك » (٣١) .

ويناقش باسلامة تعليق ابن ظهيرة القرشي فيقول : « لم يذكر ابن ظهيرة اسم الخليفة الذي أنشأها قبل المهدي ، ولا الزمن الذي انشئت فيه ، ولا الموضع الذي كانت بنيت فيه ، كما أنه لم يذكر الازرقي في تأريخه أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفن رضي الله عنهما ، انشاء منائر بالمسجد الحرام ، بل ولا ابن الزبير ، ولا عبدالملك ولا الوليد ، أنهم أنشئوا منائر في عمارانهم ، ولو فرض أنهم أنشئوا منائر في عماراتهم قبل أن ينشيء الخليفة المنصور المنارة التي بباب العمرة ، والخليفة المهدي المنائر الثلاث فلابد أن يكون موضعها ان فرض انشاؤها داخل المسجد الحرام وقد عمها الهدم مع الدور التي هدمت لاجل توسيع المسجد الحرام في عمارة المنصور ، أو المهدي ، وعلى ذلك يكون ما أنشأه المنصور وابنه المهدي من المنائر ، هي انشاء مبتدأ منهما ، ولم تكن تلك المنئر لغيرهما ، ولم يكن عملهما عبارة عن ترميم وتجديد لها ، كما قال ابن ظهيرة . ومما يؤيد ذلك أن عمارة المنصور وابنه المهدي اوسع نطاقا من غيرهما كما دلت على ذلك الاخبار المتقدمة ، وأن ما أنشئاه من المنائر كانت على أقصى ما وصلت اليه سعة المسجد الحرام من الزيادة(٣٢) .

الهوامش :

١ - ذكر الطبري في تأريخه ١٦٨/٣ تأريخ زيادة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في حوادث سنة ١٧ هجرية . بينما لم يذكر الازرقي

في كتابه « أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار » الى السنة · وقد اشار ابن ظهيرة القرشي في كتابه « الجامع اللطيف في فضل مكه وأهلها وبناء البيت الشريف » صفحة ١٩٨ ، الى سنة ١٧ هجرية · واشار عمر بن فهد في كتابه « اتحاف الورى بأخبار ام القرى » مخطوط ، الورقة ٢٤٩ ، الى سنة ١٧ هجرية أيضا ·

٢ ـ ابن ظهيرة القرشي ، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، طبع القاهرة ، صفحة ١٩٧ ، قطب‌الدين الحنفي الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ صفحة ٧٦ ·

٣ ـ الازرقي ، أخبار مكة وما جاء من الاثار ، طبع مكة ١٣٥٧هـ ٢/٥٤ ـ ٥٥ ، الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، طبع القاهرة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٩م ، ٣/١٦٨ ، ابن ظهيرة القرشي ، المصدر السابق ـ صفحة ١٩٧ ·

٤ ـ روى الطبري في تاريخه ٣/٣١٠ ، وابن الاثير في « الكامل في التاريخ » أمر هذه الزيادة في حوادث سنة ٢٦ هجرية ، كما أشار الى هذه السدة كل من ابن ظهيرة القرشي في الجامع اللطيف ، صفحة ١٨٩ ، والتقي الفاسي في شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ١/٢٢٤ ، وعمر بن فهد في كتابه « اتحاف الورى بأخبار ام القرى » مخطوط ، الورقة ٢٥٣ ، وقطب‌الدين ، الاعلام ـ صفحات ٧٦ ـ ٨١ ·

٥ ـ الازرقي ـ المصدر السابق ـ ٢/٥٥ ، الطبري ـ المصدر السابق ٣/٣١٠ ، ابن ظهيرة القرشي ، المصدر السابق ـ صفحات ١٩٧ ـ ١٩٨ ·

٦ ـ باسلامة ـ تأريخ عمارة المسجد الحرام صفحة ٤١ ٠

٧ ـ ادرجنا زيادة عبدالله بن الزبير ضمن زيادات العصر الاموي ٠ ذلك أن زيادته تمت في عصر الدولة الاموية فحسب ، ولم يوجه من قبل السلطة الاموية ٠

٨ ـ تشير النصوص التأريخية بان حريق الكعبة حصل اثناء حصار الجيش الاموي بقيادة الحصين بن نمير من قبل الخليفة الاموي يزيد لعبدالله بن الزبير وأتباعه حيث التجا الى المسجد الحرام معتصما به ٠ يشير الازرقي في كتابه « أخبار مكة » ١/١٢٩ الى سبب الحريق فيذكر بأن مسلم بن أبي خليفة المذحجي من اتباع ابن الزبير كان يوقد مع أصحابه في خصاص لهم حول البيت ، فأخذ نارا في زج رمحه في النفط وكان يوم ريح فطارت منه شرارة ، فأحترقت الكعبة ، ويروي الواقدي ١ / ١٢٩ مؤكدا هذه الرواية عن عبدالله بن يزيد عن عروة بن اذينة قال : قدمت مكة مع أبي يوم احترقت الكعبة ، فرأيت الخشب قد خلصت اليه النار ، ورأيتها مجردة من الحريق ورأيت الركن قد اسود فقلت ما أصاب الكعبة ؟ فأشاروا الى رجل من أصحاب ابن الزبير فقالوا : هذا احترقت الكعبة في سببه ٠ أخذ نارا في رأس رمح له فطارت به الريح فضربت أستار الكعبة فيما بين الركن اليماني والركن الاسود ٠

٩ ـ أخبار مكة ، ٢/٥٥ ـ ٥٦ ٠

١٠ـ الجامع اللطيف ، صفحة ١٩٨ ٠

١١ـ يذكر الازرقي عن جده في كتابه « أخبار مكة » ٢/٥٥ رواية شراء

هذه الدار ، وينقل عنه قطب الدين في كتابه « الاعلام » صفحة ٨٥ ، فيشير بأن عبدالله بن الزبير كتب الى أخيه مصعب بالعراق ليدفع ثمن شراء الدار ، فركب رجال منا فوجدوا مصعبا يقاتل عبدالملك بن مروان فلم يلبثوا الا يسيرا حتى قتل مصعب ، فرجعوا الى مكة ، وجعل ابن الزبير يعدنا ويدفعنا حتى جاءه الحجاج فحاصره ، فقتل فلم نأخذ شيئا ، فكلمنا في ذلك الحجاج بعد قتل ابن الزبير فقال : انا أرد عن ابن الزبير ٠

١٢ـ الازرقي ، المصدر السابق ، ٥٦/٢ ٠

١٣ ـ الطبري ٢٤٤/٥ ٠ لم يذكر المؤرخون تاريخ زيادة الوليد بن عبدالملك ، وقد رجحنا قيامه بهذه الزيادة في نفس السنة التي ادى بها مناسك الحج ٠

١٤ـ يعلق ابن ظهيرة القرشي في الجامع اللطيف ، صفحة ١٩٨ على قول الازرقي بأن الوليد أول من نقل للمسجد اساطين الرخام ، ويشير الفاسي في كتابه « شفاء الغرام » ٢٢٥/١ ـ ٢٢٦ ، خلاف ذلك مؤكدا بأن عبدالملك قد جعل في رأس كل اسطوانة خمسين مثقالا من الذهب ، وهذا معناه وجود الاساطين قبل الوليد ، ويشير بأنها ربما كانت من عمل عبدالله بن الزبير أو الخليفة عبدالملك بن مروان وقد حاول ابن ظهيرة القرشي في كتابه « الجامع اللطيف » صفحة ١٩٨ أن يجمع بين تأكيد رواية الازرقي ومخالفة التقي الفاسى لها ٠ فيقول بأن الازرقي لم يذكر بأن الاساطين التي كسيت رؤوسها بالذهب في زمن عبدالملك بن مروان كانت من الرخام ٠ أو من المحتمل أنها كانت من الحجارة أو الخشب ٠ ويستشهد

ببعض الروايات التي تشير الى ان بعض الاساطين في المسجد الحرام كانت خشبية ٠

١٥ــ باسلامه ٠ تاريخ عمارة المسجد الحرام ٠ صفحات ٤٨ ــ ٤٩ ٠

١٦ــ نفس المصدر صفحة ٤٩ ٠

١٧ــ للتفاصيل راجع : الازرقي المصدر السابق ١/١٢٩ ــ ١٣٧ ٠

١٨ــ الازرقي ، المصدر السابق ١/٥٧ ٠ ابن ظهيرة القرشي ٠ المصدر السابق صفحة ١٩٨ ٠ باسلامة ٠ المصدر السابق صفحة ١٩ ٠

١٩ــ يراجع في تفاصيل زيادة الخليفة المنصور المصادر :
الازرقي ٠ المصدر السابق ٢/٥٧ ــ ٥٩ ٠ التقي الفاسي ٠ المصدر السابق ١/٢٢٤ ــ ٢٢٥ ٠ ابن ظهيرة القرشي ٠ المصدر السابق صفحة ١٩٩ ٠ قطب الدين ٠ المصدر السابق ٠ صفحات ٨٩ ــ ٩٠ السنجاري منائح الكرم ٠ مخطوط ورقة ٢٠٥ ٠

٢٠ــ ذكرت الكتابة التذكارية التي أرخت توسعة المنصور في العديد من المصادر منها :
الازرقي ٠ المصدر السابق ٢/٥٧ ــ ٥٩ ٠
التقي الفاسي ٠ شفاء الغرام ١/٢٢٤ ــ ٢٢٥ ٠
ابن ظهيرة القرشي ٠ المصدر السابق ٠ صفحة ١٩٩ ٠
قطب الدين ٠ المصدر السابق ٠ صفحات ٨٩ ــ ٩٠ ٠
السنجاري ٠ منائح الكرم ٠ مخطوط ٠ ورقة ٢٠٥ ٠

٢١ــ الازرقي ٠ المصدر السابق ٢/٥٨ ٠ للتفاصيل راجع بحثنا الموسوم « توسيع المسجد الحرام في عهد الخليفة العباسي المنصور » مجلة المؤرخون العرب ، العدد (١٩) ــ ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م ، صفحات ٥٣ ــ ٦٠ ٠

٢٢ــ الازرقي · المصدر السابق ٢/٥٩ ــ ٦١ · باسلامة · المصدر السابق صفحة ٥٢ ــ ٥٤ ·

٢٣ــ نفس المصدر ·

٢٤ ــ الازرقي · المصدر السابق ٢/٨٠ ·

٢٥ ــ الازرقي · المصدر السابق ٢/٨٠ ·

٢٦ ــ نفس المصدر · باسلامة · المصدر السابق · صفحات ٥٥ ــ ٥٦ ·

٢٧ــ الازرقي · المصدر السابق ٢/٨٠ ·

٢٨ــ الازرقي · المصدر السابق ٢/٥٩ ــ ٦١ · باسلامه · المصدر السابق صفحة ٥٣ ·

٢٩ــ ابن ظهيرة القرشي · الجامع اللطيف · صفحة ٢٠٥ · الفاسي · شفاء الغرام ١/٢٤٠ ·

٣٠ــ الفاسي · شفاء الغرام ١/٢٤٠ ·

٣١ــ ابن ظهيرة القرشي · المصدر السابق · صفحة ٢٠٥ ·

٣٢ــ باسلامة · المصدر السابق · صفحات ٣٧ ·

مسجد الرسول (ص) في المدينة
(حتى نهاية العصر الاموي)

الدكتور غازي رجب محمد
قسم الاثار – كلية الآداب
جامعة بغداد

لعبت المساجد دورا كبيرا ومهما في حياة المسلمين وفي تطور حضاراتهم وعمارة مدنهم • ولم تكن في بداية بزوغ الاسلام في مكه مكان خاص لاقامة الصلاة والشعائر الدينية فقد كانت تقام بصورة سرية في شعاب مكة(١) أو في البيوت الخاصة(٢) كما اقيمت الصلاة قرب الكعبة(٣) وقد كانت القبله حينذاك باتجاه بيت المقدس(٤) •

وقبل هجرته (ص) كان الناس في المدينة يصلون في مكان خصص لهذا الغرض يعرف باسم « المربد »(٥) وكانت قبلتهم باتجاه بيت المقدس(٦) •

وفي طريق هجرته (ص) الى المدينة عرج على « قباء » التي تبعد حوالي ثلاثة أميال عن المدينة المنورة • وفي المكان الذي كانوا يصلون فيه قبل وصوله اسس (ص) أول مسجد فيها(٧) • واغلب الظن انه كان ساحة خالية من البناء يحيطها سياج من الحجارة غير المنتظمة(٨) • وقبلته باتجاه بيت المقدس كذلك(٩) • كما صلى النبي (ص) أول صلاة جمعة في بني سالم(١٠) •

وواصل الرسول (ص) طريقه الى المدينة المنورة ممتطيا ناقته القصواء التي بركت عند دار أبي ايوب الانصاري الذي حظي بشرف استضافة النبي (ص) في داره عدة اشهر(١١) وكان (ص) خلالها يصلي مع المسلمين في « المربد » او في الموضع الذي تدركه فيه الصلاة(١٢) ثم قرر بناء المسجد وبيوته في « المربد »(١٣) ليكون في « وسط حرم المدينة »(١٤) ·

وبعد ان ابتاع النبي (ص) « المربد » من مالكيه امر (ص) بالنخل فقطع وبالحرث فافسد وبالقبور فنبشت ثم وضع حجر الاساس(١٥) وتولى (ص) بناءه مع أصحابه من المهاجرين والانصار ليرغب المسلمين في العمل فيه(١٦) ·

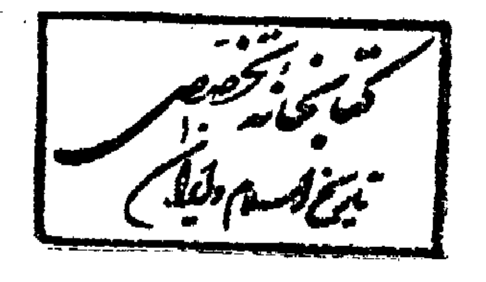
ويروى ان الرسول (ص) أحاط المسجد بجدار ولم يجعل له سقفا ولا اساطين وجعل قبلته الى بيت المقدس(١٧) · وكانت الجدران من اللبن مبنية بالسميط (لبنة على لبنة) فوق اسس من الحجارة قريبا من ثلاثة اذرع على الارض · ثم ان المسلمين كثروا فبنوه بالسعيدة (لبنة ونصف)(١٨) وكانت قياسات هذا المسجد حوالي ٧٠ × ٦٠ ذراعا(١٩) (شكل ١) ·

وشكى المسلمون شدة الحر وقت الصلاة فبنى لهم الرسول (ص) في الجهة الشمالية شقيفة من الجريد والخصف والاذخر محمولة على سوار من جذوع النخل(٢٠) · واصابت المسلمين الامطار فجعل المسجد يكف عليهم فطينوه بالطين(٢١) · وكان جداره قبل ان يظلل قامة وشيئا « فكان اذا افاء الفيء ذراعا وهو قدمان يصلي الظهر فاذا كان ضعف ذلك صلى العصر »(٢٢) ·

وفتح في سور المسجد ثلاثة مداخل ، باب عثمان (باب جبريل) في الجهة الشرقيه وباب عاتكـة (باب الرحمة) في الجدار الغربي اما الثالث فقد فتح في الجدار الجنوبي لكنه اغلق بعد تحويل القبله وفتح باب آخر عوضا عنه في الجهة الشمالية(٢٣) ٠

وكان للرسول (ص) في البداية بيتان احدهما لعائشة (رض) في الزاوية الجنوبية للجهة الشرقية والبيت الثاني لسـودة الى الشمال من الاول(٢٤) ٠ وكانت هـذه البيوت في زيادة مطردة مع زيادة عدد زوجاته (ص) لتصل الى تسع بيوت(٢٥) مرتبـة الى جانب بعضها من الجنـوب الشرقي الى الشمال الشرقي ولكل منها باب واحد شارع في المسجد عليه المسوح من شعر اسود عدا بيت عائشة فقد كان فيه بابان ثانيهما يفضي الى الخارج(٢٦) ٠ واربعة من هذه البيوت مبنية باللبن ولها حجرات من جريد النخل والخمسة الباقية مبنية بالجريد مطرورة بالطين ولا حجرات لها(٢٧) ٠ ويبدو ان هذه البيوت كان يفصلها عن المسجد حاجز(٢٨) فهي « ليست من المسجد »(٢٩) ٠

وظلت القبلة باتجـاه بيت المقـدس الى ان تحـولت الى الكعبـة المشرفة(٣٠) حينئذ اضيفت سقيفة ثانية في الجهة الجنوبية من المسجد لتظـل المصلين وتركت السقيفة الاولى لايواء من سموا « بأهل الصفة » ممن لا مأوى لهم من المهاجرين « وقبل كانت بظلته ثلاثة اروقة اي ثلاثة اساكيب وكانت بـه ست اسـاطين ثلاثا الى يميـن المنبـر وثلاثا الى يساره »(٣١) ٠ وسمي هذا المسـجد بـ « مسـجد القبلتين »(٣٢) ٠ (شكل ٢) ٠



وكان الناس في البداية يحضرون الصلاة من غير اذان وعندما نودي به لم يكن هناك متذنه يلقى من فوقها فكان بلال مؤذن الرسول (ص) يؤذن من أعلى سطح مجاور للمسجد(٣٣) ٠

وقد بقي المسجد على حالته الاولى حتى السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠م) اذ وسعه النبي (ص) وبنى جداره بالذكر والانثى (لبنتين مختلفتين)(٣٤) ٠ (شكل ٣) وأصبحت مساحته (١٠٠ × ١٠٠ ذراع) « وكانت تمتد في ظلته حينذاك ثلاثة صفوف من تسع سوار من جذوع النخل »(٣٥) وادخل اليه منبر من خشب الاثل(٣٦) ٠ (شكل ٤)

وبقي المسجد على حاله زمن الخليفة أبي بكر الصديق عدا تجديد بعض أعمدته(٣٧) وفي زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) حدث فيه تغيير مهم في السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) اذ اعاد بناءه بنفس التخطيط الذي كان عليه زمن الرسول (ص) وبنفس مادة البناء ووسعه من جميع الجهات عدا الجهة الشرقية حيث بيوت ازواج الرسول (ص)(٣٨) وفتح في جدرانه ثلاثة مداخل أخرى اضافة الى الثلاث الاولى واصبحت مساحته (١٢٠ × ١٤٠ ذراعا) (٣٩) وكان عمر (رض) أول من حصب المسجد(٤٠) ونقل اليه الحصباء من العقيق(٤١) ٠

وفي السنة التاسعة والعشرين للهجرة (٦٤٩م) اهتم الخليفة عثمان بن عفان (رض) بهذا المسجد اهتماما كبيرا ووسعه في الجهات الشمالية والجنوبية والغربية وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والقصة واعمدته من الحجارة المنقوشة وسقفه بخشب الساج وبيضه بالقصة التي كانت تحمل اليه من بطن نخل(٤٢)واصبحت مساحة المسجد ١٦٠ × ١٥٠ ذراعا(٤٣)

وجعل فيه طاقات مما يلي الشرق والغرب وبنى المقصورة بلبن وجعل فيها كوى ينظر الناس منها الى الامام ، وقد اتخذها عثمان خوفاً من الذي اصاب عمر (رض) وكانت صغيرة (٤٤) ، وجعل ابواب المسجد ستا كما كانت ايام عمر (رض)(٤٥) . ومات عثمان ولم يكن في المسجد شرافات ولا محراب مجوف(٤٦) .

يظهر مما تقدم ان هذا البناء لم يكن جزءاً من البيوت التي شيدها النبي (ص) في هذا المكان بل شيده ليكون من أول يوم مسجداً لاقامة الشعائر الدينية ومكانا لاجتماع المسلمين والتداول في شؤونهم الدينية والدنيوية(٤٧) . وهذا « لا يتفق ورأي عدد من المستشرقين والباحثين القائلين ان الرسول (ص) لم يبن مسجدا بل بنى دارا للسكن اكتسب صحنه بمرور الزمن صفة عامة ليصبح بعد مضي عشرات السنين مكانا للعبادة يعرف باسم المسجد(٤٨) والحقائق التالية تؤكد ما ذهبنا اليه :

١ ـ تشير معظم الروايات التاريخية(٤٩) الى ان المسجد كان « مربدا » يصلي فيه المسلمون قبل مقدم الرسول (ص) الى المدينة وبقي على حاله بعد وصوله (ص)(٥٠) .

٢ ـ بنى (ص) بيوته ملاصقة للمسجد ليكون على صلة دائمة بالمسلمين وكان يلاصق المسجد أيضا بيوت بعض الصحابة الذين هاجروا معه وكان لها منافذ على المسجد مما يوضح طبيعة البناء وانه ليس صحناً لبيوت النبي (ص) وواضح قبل الاسلام ان لكل قبيلة مجلسها (ديوانها) الخاص مستقلا عن دار شيخ القبيلة فحل المسجد محل الديوان في العصر الاسلامي تقام فيه الصلاة وتعقد فيه الاجتماعات .

٣ ـ بناء مسجد قباء قبل وصوله (ص) الى المدينة دليل على اهمية

المسجد وضرورة بنائه في المدينة بعد وصوله (ص) لجمع المسلمين فيه واقامة الشعائر الدينية ومنها صلاه الجمعة التي فرضت على المسلمين قبل دخوله (ص) المدينة ٠

٤ ـ لو كان هذا المسجد في الاساس صحنا خصا ببيوت النبي (ص) لما فتح في سوره ثلاثة مداخل ولاكتفى بمدخل واحد كغيره من بيوت الجزيرة العربية وبلاد الشام(٥١) ٠

٥ ـ فتح بابين في بيت عائشة الذي بني مع المسجد يؤكد خصوصيه كل منهما كما ان وجود حجرات في عدد من بيوته (ص) يوضح استقلال كل منها(٥٢) ٠

٦ ـ تغير اتجاه القبلة وما تبعه من تغييرات في مرافق البناء اضافه الى التوسعات المتتالية التي اجريت زمن النبي (ص) والخلفاء الراشدين من بعده كلها تؤكد ان الرسول (ص) بنى مسجدا مستقلا ٠

٧ ـ لو كان الذي بناه الرسول (ص) بيتا اتخذ صحنه مسجدا لاقتفى اثره الولاة في المدن والامصار الجديدة ولما بنوا دورهم مستقلة عن المساجد ٠

٨ ـ ادعى كايتاني ان المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد الاقصى في بيت المقدس هما المسجدان الوحيدان اللذان ذكرا في القرآن الكريم(٥٣) وادعى أيضا نه لا توجد كلمة واحدة حول مسجد في المدينة المنورة(٥٤) ونسي الايات التي تشير الى مسجد التقوى ومسجد الضرار(٥٥) اضافة الى الايات الكريمة التي تشجع بناء المساجد والتي جميعها تحتم بناء مسجد في المدينة(٥٦) ٠ اما اقامة صلاة عيد الاضحى في « المصلى » خارج المدينه مرة واحدة في العام(٥٧) فهي لا تعنى عدم وجود مسجد في المدينة تقام

فيه الصلوات اليومية وصلاة الجمعة ٠

ونتيجة للقلاقل والاضطرابات التي اعقبت مقتل الخليفة عثمان ابن عفان (رض) توقفت العناية بالمسجد النبوي والزيادة فيه وبدأ بضيق بالمصلين الذين كانوا يدخلون حجرات زوجات النبي (ص) بعد وفاته يصلون فيها الجمعة(٥٨) وهي « ليست من المسجد ولكن ابوابها شارعة في المسجد »(٥٩) ٠

واستمر المسجد على هذه الحال حتى زمن الخليفة الاموي الوليد ابن عبدالملك الذي يعتبر من انشط الخلفاء الامويين في ميدان البناء والتعمير ، فقد اعاد بناء هذا المسجد ووسعه واظهره بمظهر جميل فريد بما اضاف اليه من عناصر عمارية جديدة وما كسي به جدرانه من زخارف(٦٠) ٠

بدأ بتوسيع الجامع سنة ٨٧هـ أو ٨٨هـ (٧٠٦ أو ٧٠٧م)(٦١) وكان عمر بن عبدالعزيز واليا على المدينة قبل ان ينادي به خليفة « وامر الوليد بادخال حجر ازواج النبي (ص) فاشترى عمر من الدور ما زاده في ثلاث جهات من المسجد »(٦٢) ٠

وقام بهدم المسجد والدور عمال من المدينة وآخرون بعث بهم الوليد ابن عبدالملك من بلاد الشام(٦٣) فلما بلغ هدم المحراب دعا بمشايخ المهاجرين والانصار في المدينة فقال عمر « احضروا بنيان قبلتكم لا تقولوا غيرها عمر »(٦٤) وجعل لا ينزع حجرا الا وضع مكانه حجرا(٦٥) والمحراب لا يتوسط جدار القبلة بل يميل الى جهة الشرق حوالي عشرون ذراعا(٦٦) والمسجد الجديد طوله ٢٠٠ ذراعا وعرضه في مقدمه ٢٠٠ ذراعا وفي مؤخره ١٨٠ ذراعا(٦٧) ، وأصبح لبيت الصلاة خمسة أساكيب

بكل منها صف من سبعة عشر عمودا مكونة ثمان عشرة بلاطة اما الاروقة الشمالية فقد كانت اربعا بكل منها صف من سبعة عشر عمودا كما جعل للمسجد مجنبتين الشرقية من ثلاثة اروقة والغربية اربعة(٦٨) · (شكل ٥) ·

وكان البناء « بالحجارة المنقوشة المطابقة »(٦٨مكرر) وازرت جدرانه بالواح الرخام المجزع والجزء العلوي منزل كله بفصوص الذهب والفسيفساء تضمنت تصاوير الاشجار مائلة الاغصان بثمره(٦٩)

وقال بعض الذين عملوا الفسيفساء « انا عملناه على ما وجدناه من صور الجنة وقصورها وكان عمر اذا عمل العامل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء واحسن عملها نفله ثلاثين درهما »(٧٠) · ويبدو ان الوليد استعان بعمال وبفسيفساء وذهب من بلاد الروم للمساعدة في انجاز هذا العمل الضخم(٧١) ·

وجعل عمر بن عبدالعزيز في هذا المسجد محرابا مجوفا ونصب الشرافات في أعالي الجدران « بينها فرج شبه طاقات الشباك »(٧٢) وجعل المقصورة بارتفاع ذراعين من خشب الساج وكانت قبل من حجر(٧٣) واحاط الصحن بمجنبتين(٧٤) كما اضاف اربعة مآذن في الاركان الاربعة المسجد وكانت احداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبدالملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فأمر بهدمها الى ظهر المسجد(٧٥) ·

وسجل الوليد اسمه على جدران المسجد(٧٦) ليخلد ذكره بهذا العمل الجبار الذي بلغت تكاليفه أربعين الف دينار(٧٧) ·

وبعد انتهائه من مناسك الحج في مكة المكرمة زار الخليفة الوليد

برفقة ابان بن عثمان مدينة الرسول (ص) وقد كمل بنـاء المسجد سنة ٩١هـ/٧٠٩م(٧٨) . وكانا يتجولان فيه فسأله الوليد عن رأيه في البناء الجديد مفاخرا فرد عليه ابان بأباء ان والده عثمن بناه بناء المساجد وبناه عمر بن عبدالعزيز بناء الكنائس(٧٩) . وهذا الجواب يدل على تطـور كبير في التفكير ونقلة نوعية كبيرة في طـراز البنـاء والزخرفة والمـواد المستخدمة فيـه والعناصر العمـارية الجديدة التي دخلتـه اضافة الى الزخارف المتنوعة التي نفذت فيـه وهـو ما يتطابق مع قـول ابن عباس « لتزخرفنها كما زخرفت اليهاد والنصارى »(٨٠) .

ويبدو ان جدران جامع الرسول (ص) ومآذنه الاربعة قـد توجت بالشرافات المسننة التي زينت بها أعالي الجدران والمـآذن في المسـجد الحرام عنـد تجديد الخليفة الوليد لـه وفي مسجد الخيف كذلك قـرب المدينة(٨١) .

وكمـا برز الامويون بالعمائر الضخمة اشتهر العباسيون بنشاط متميز في البناء فعنوا عناية فائقة بهذا المسجد على مر العصور(٨٢) وتعتبر زيادة المهدي سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م والتي استمرت في المسجد اربع سنين ذات أهمية كبيرة في هذه العمارة فقد زاد في طوله الى جهة الشمال مائة ذراع(٨٣) ولم يزد في الجهـات الاخـرى وزخـرف مؤخـرة المسـجد بالفسيفساء(٨٤) وجعل المقصورة على اسكوب المحراب باجمعه من الشرق الى الغرب والمحراب فيها(٨٥) واستقر المسجد على نظامه وتخطيطه الجديد هذا لمئات السنين(٨٦) (شكل ٦) .

الهوامش :

١ ــ ابن هشام : السيرة ص ١٥٩ ، ١٦٦ ، الطبري ١ ص ١١٦٤ ٠

٢ ــ ابن هشام ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ١٤٦ ، ابن سعد : الطبقات ٣/١ ص ١٩٣ ٠

٣ ــ ابن هشام ص ١٩٠ ، ٢٢٤ ٠

٤ ــ ابن هشام ص١٩٠ ، ٢٢٨ ، ابن سعد ٣/٢ ص١٤٦ : السمهودي : خلاصة ص١٠٧ ٠

٥ ــ وهو الموضع الذي يحبس فيه الغنم والابل ، وهو المكان الذي يجمع فيه التمر لينشف ٠ ياقوت : معجم البدان « مربد » ٠

٦ ــ ابن سعد ٢/٢ ص٢ ، ٣/٢ ص٥٣ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٣ ٠

٧ ــ الطبري ١ ص١٢٦٠ ، المقريزي : خطط ج٢ ص٢٤٦ ، الامتاع ج١ ص٤٥ ٠

٨ ــ ابن سعد ١/٢ ص٥ ، النويري : نهاية الارب ج١٦ ص٣٤٥ ٠

٩ ــ ابن سعد ٤/٢ ص٤٣ ، البلاذري ص٢ ٠

١٠ــ ابن سعد ١/١ ص١٦٠ ، الطبري ١ ص١٢٥٦ ، ابن النجار : الدرة ص٣٥٥ ٠

١١ــ ابن سعد ١/١ ص١٦١ ، ابن هشام ٣٣٨ ٠

١٢ــ الطبري ١ ص١٢٦٠ ٠

١٣ــ ابن هشام ٣٣٦ ، ابن سعد ١/٢ ص٢ ، الطبري ١ ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ٠

١٤ــ ابن ادريس : مجتمع المدينة ص٣٠ ٠

١٥ـ ابن سعد ١/٢ ص٢ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٢٣ ، ابن النجار: الدرة ص٣٥٦ .

١٦ـ الطبري ١ / ص١٢٠ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

١٧ـ ابن سعد ١/٢ ص٢ ٣/٢ ص١٣٩ ، السمهودي : وفاء ج١ ض٢٣٣

١٨ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٩ ، ابن النجار : الدرة ص٣٥٦ .

١٩ـ العمري : مسالك ج١ ص١٢٥ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٨ ، فكري : مدخل ص١٧٠ .

٢٠ـ ابن سعد : ١/٢ ص٢ ، ابن حنبل : مسند ج٩ ص١٠ ، السمهودي: وفء ج١ ص٢٣٩ .

٢١ـ ابن النجار : الدرة ٣٥٦ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٩ .

٢٢ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٩ .

٢٣ـ ابن النجـار : الدرة ص٣٥٦ ، السمهودي : وفـاء ج١ ص٢٤٠ . النويري : نهاية ج١٤ ص٣٤٥ .

٢٤ـ السمهودي : وفـاء ج١ ص٣٢٥ ، العميد : الرسول بنى مسـجدا ودارا ، ص١٤ .

٢٥ـ ابن سعد ١/٢ ص١٨٠ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٢٦ ، ٣٩٧ .

٢٦ـ ابن سعد ج٨ ص١١٩ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٨٤ .

٢٧ـ بابن سعد ١/٢ ص١٨٠ـ١٨١ ، ج٨ ص١١٨ـ١١٩ ، ابن النجـار ص٣٥٩ . السمهودي : وفـاء ح١ ص ٣٢٧ .

٢٨ـ ابن سعد ٢/٢ ص٧٢ .

٢٩ـ ابن النجار ص٣٥٨ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٦٦ .

٣٠ـ المقريزي : الامتاع ج١ ص٦٠ ، فكري : المدخل ص١٧١ .

٣١ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٦٢ ، ٣٢١ـ٣٢٢ ، العمري : مسالك ج١ ص١٢٤ ، فكري : المدخل ص١٧٠ .

٣٢ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٥٨ ، ٢٥٩ .

٣٣ـ ابن هشام ص٣٤٧ ، اما الاسطوان الذي روى ان بلالا كان يرقى اليها على سبعة اقتاب للنداء بالاذان فلم تثبت صحة هذه الرواية التي انكرها السمهودي الذي رواها نفسه وشكك في عدالة الراوي (وفاء ج١ ص٣٧٦) .

٣٤ـ ابن النجار ص٣٥٦ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٩ .

٣٥ـ ابن النجار ص٣٥٦ ، السمهودي : وفاء ج١ ، ابن رستة : الاعلاق ص٦٤ ، فكري : مدخل ص١٧١ .

٣٦ـ الطبري ١ ص١٥٩١ ، البخاري : صحيح ج١ ص١٢٤ .

٣٧ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٣٥٥ .

٣٨ـ ابن حنبل : مسند ج٩ ص١٠ ، ابن سعد ٣/١ ص٢٠٣ ، ج٤ ص١٣ .

٣٩ـ ابن النجار ص٣٦٩ وما بعدها : السمهودي ج١ ص٣٤٩ .

٤٠ـ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص٢٤ .

٤١ـ البلاذري : فتوح (ازهر ١٩٣٢) ص٢١ .

٤٢ـ ابن النجار ص٣٧٢ .

٤٣ـ ابن حنبل : مسند ج٩ ص١٠ ، البلاذري : فتوح ص٦ ، ٣٦٢ ، ابن الاثير : الكامل ج٣ ص٧٩ ، الطبري ١ ص٢٨٣٣ ، العمري : مسالك ج١ ص١٢٤ و١٤٥ .

٤٤ـ ابن النجار ص٢٧١ـ٢٧٢ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٥٧ ، ٣٦٢ـ٣٦٣ .

٤٥ـ ابن الاثير : الكامل ج٣ ص٧٩ .

٤٦ـ ابن النجار ص٢٧٣ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧٢ .

٤٧ـ Caetani, as quoted by Creswell, E. M. A., I, p. 7.

٤٨ـ انظر : Creswell, Op. Cit., I. p 3.

٤٩ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٢ .

٥٠ـ ابن سعد ٢/٣ ص١٣٩ـ١٤٠ .

٥١ـ Creswell, Op. Cit., I. p 3.

٥٢ـ ابن سعد ٢/١ ص١٨١ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٢٧ .

٥٣ـ سورة ١٧ آية ١ .

٥٤ـ انظر : Creswell, Op. Cit., I. p 7.

٥٥ـ سورة ٩ الاية ١٠٨ـ١٠٩ .

٥٦ـ سورة ٩ الاية ١٧ـ١٨ ، سورة ٢٤ الاية ٣٦ـ٣٧ .

٥٧ـ انظر : Creswell, Op. Cit., I. p 6.

٥٨ـ ابن النجار ص٣٥٨ .

٥٩ـ ابن النجار ص٣٥٨ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٦٦ .

٦٠ـ ابن رستة ص ٧٠ ابن النجار ص ٣٧٣ .

٦١ـ ابن سعد ٢/١ ص ١٨١ ، المسعودي : مروج ج٥ ص ٣٦١ : البلاذري : فتوح ص٧ .

٦٢ـ ابن بطوطة : رحلة ج١ ص٢٧١ـ٢٧٢ .

٦٣ـ الطبري ٢ ص ١١٩٢ ـ ، السمهودي وفاء ج١ ص ٢٧٠ ، ابن سعد ٢/١ ص٨٠ وج٨ ص١١٩ .

٦٤ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ص٨٠ـ٨١ ·

٦٥ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٣٦٨ ·

٦٦ـ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ص٤٠ ·

٦٧ـ الطبري ٢ ص ١١٩٢ ـ ١١٩٣ ، ابن النجار ص ٣٧٢ ، العمري : مسالك ج١ ص١٢٥ ، ٢٧٢ ·

٦٨ـ السمهودي : وفاء ج٣ ص٨٤٥ ، ٨٥٠ ، ٨٥٢ ، فكري : المدخل ص١٧٧/١٧٨ ·

٦٩ـ ابن رستة ص ٦٩ ، السمهودي : وفاء ج١ ص ٤٨٤ـ٤٨٥ ، ياقوت : معجم ج٤ ص٤٦٦ ·

٧٠ـ ابن النجار ص٣٧٣ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٤٨٤ـ٤٨٥ ·

٧١ـ المقدسي ص٨١ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٦٧ ، ابن رسته ص٦٩ ، ابن الاثير : الكامل ج٤ ص٤٢٢ ، الدينوري : الاخبار ص٣٢٩ ·

٧٢ـ ابن النجار ص٣٧٣ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧٢ ·

٧٣ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٧٢ ، ٣٦٢ ، ابن بطوطة : رحلة ج١ ص٢٧٣ ·

٧٤ـ فكري : المدخل ص١٧٧ ·

٧٥ـ ابن رسته ص٧٠ ، ابن النجار ص٣٧٣ ، السمهودي ج١ ص٣٧٣ ·

٧٦ـ ابن الاثير : الكامل ج٦ ص ٥٧٠ ، الطبري ٣ ص ٥٣٥ ·

٧٧ـ ابن رسته ص٧١ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧١ ·

٧٨ـ ابن رسته ص٧١ـ٧٢ ·

٧٩ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧٧ ، الدينوري : الاخبار ص٣٣١ ، ابن النجار ص٣٧٣ـ٣٧٤ ·

٨٠ـ البخاري : صحيح ج١ ص١٢٣ ·

٨١ـ ياقوت : معجم ج٤ ص٤٦٦ ، الازرقي : اخبار مكة ص٣٣١ ، ٤٠٨ ، ابن رسته ص٧٠ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧٢ ·

٨٢ـ البلاذري ص٧ ، السمهودي : وفاء ج١ ص ٣٧٩ ، ٣٨٢ وبعدها ابن النجار ص٩٠ـ٩١ ·

٨٣ـ البلاذري ص٧ ، الطبري ٣ ص ٣٣٥ ، ابن رسته ٧٢ وبعدها · المقدسي ص٨١ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٨٠ ·

٨٤ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٣٨٢ ·

٨٥ـ السمهودي : وفاء ج١ص٣٦٣ ·

٨٦ـ فكري : المدخل ص١٧٩ـ١٨٠ ·

المراجـــع

١ ـ ابن الاثير (عزالدين)

الكامل في التاريخ (بريل ١٨٦٧ ـ ١٨٧٤)

٢ ـ ابن ادريس (عبدالله عبدالعزيز)

مجتمع المدينة في عهد الرسول (ص) (الرياض ١٤٠٢)

٣ ـ ابن بطوطة (عبدالله محمد)

الرحلة (باريس ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨)

٤ ـ ابن حنبل (أحمد بن محمد)

المسند (القاهرة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٣)

٥ ـ ابن رستة (أبو علي أحمد)

الاعلاق النفيسة (ليدن ١٨٩٢)

٦ ـ ابن سعد (أبو عبدالله)

كتاب الطبقات الكبير (ليدن ١٩٠٤ ـ ١٩٤٠)

٧ ـ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد)

مختصر كتاب البلدان (بريل ١٨٨٥)

٨ ـ ابن النجار (محمد)

الدرة الثمينة في اخبار المدينة (القاهرة ١٩٥٦)

٩ ـ ابن هشام (عبدالملك)

السيرة (كوتنكن ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠)

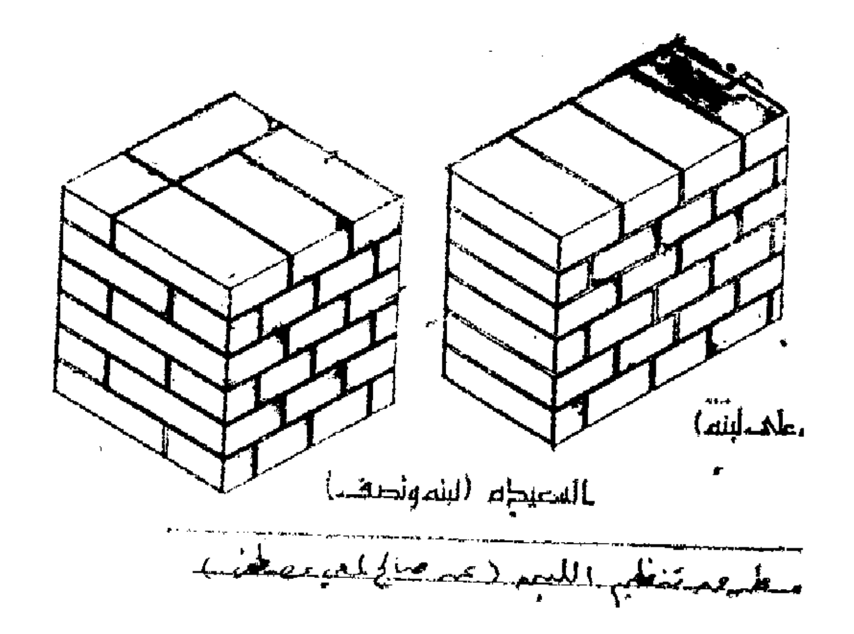
١٠ـ الازرقي (أبو الوليد محمد)

كتاب اخبار مكة (ليبزك ١٨٥٨)

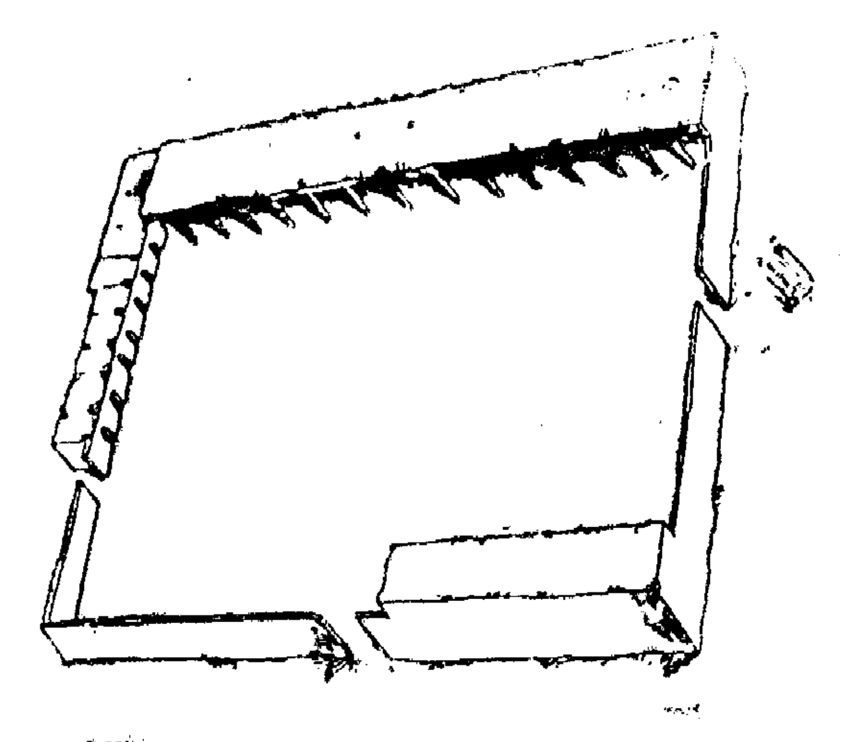
١١ـ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار (الاسكندرية ١٩٥٨)

١٢- البخاري (ابو عبدالله)
الجامع الصحيح (ليدن ١٨٦٢ - ١٩٠٨)
١٣- البلاذري (ابو العباس أحمد)
فتوح البلدان (بريل ١٨٦٦)
١٤- الدينوري (أبو حنيفة)
الاخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨ - ١٩١٢ -
١٥- السمهودي (علي بن عبدالله)
وفاء الوفا (القاهرة ١٩٠٨ - ١٩٠٩)
١٦- ____________
خلاصة الوفا (القاهرة ١٨٦٩)
١٧- الطبري (أبو جعفر)
تاريخ الامم والملوك (بريل ١٨٧٩ - ١٩٠١)
١٨- العمري (ابن فضل‌الله)
مسالك الابصار (القاهرة ١٩٢٤)
١٨*- العميد (طاهر مظفر)
« الرسول بنى مسجدا ودارا » بحث تحت النشر
١٩- فكري (أحمد)
المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها
٢٠- القرآن الكريم
٢١- المسعودي (أبو الحسن)
مروج الذهب (باريس ١٨٦١ - ١٨٧١)
٢١ - مصطفى (صالح) .

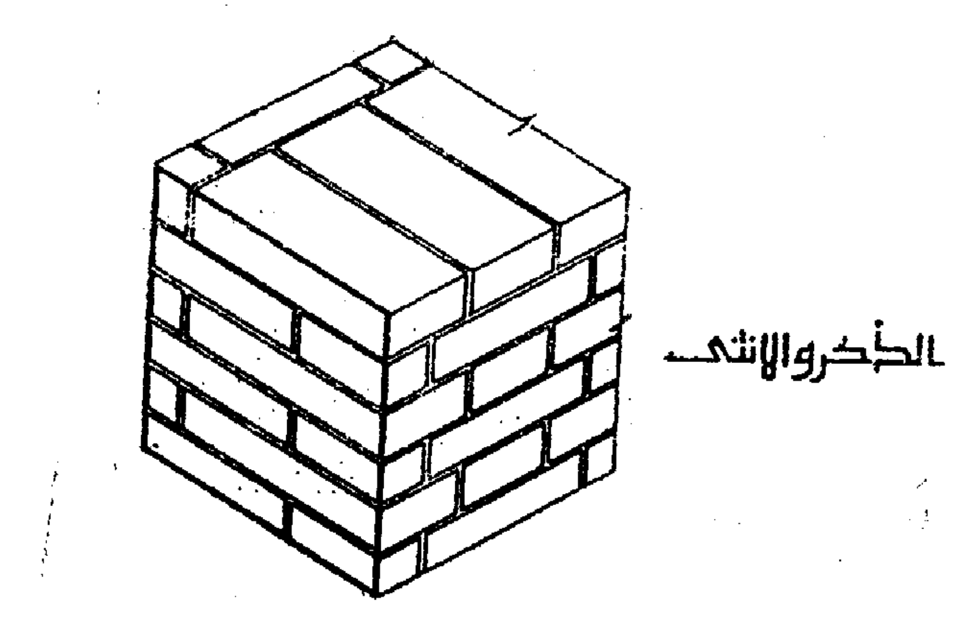
٢٢ـ المقدسي (أبو عبدالله)
أحسن التقاسيم (بريل ١٨٧٧)
٢٣ـ المقريزي (تقي‌الدين)
المواعظ والاعتبار (بولاق ١٢٧٠)
٢٤ـ ــــــــــ
امتاع الاسماع (القاهرة ١٩٤١)
٢٥ـ النويري (شهاب‌الدين أحمد)
نهاية الادب في فنون الادب (القاهرة ١٩٢٢ - ١٩٥٥)
٢٦ـ ياقوت (شهاب‌الدين)
معجم البلدان (لايبزك ١٨٦٦ - ١٨٧٠)
٢٧ـ Creswell, K.A.C.
Eavly Muslim Architecture
Oxford 1932-1940



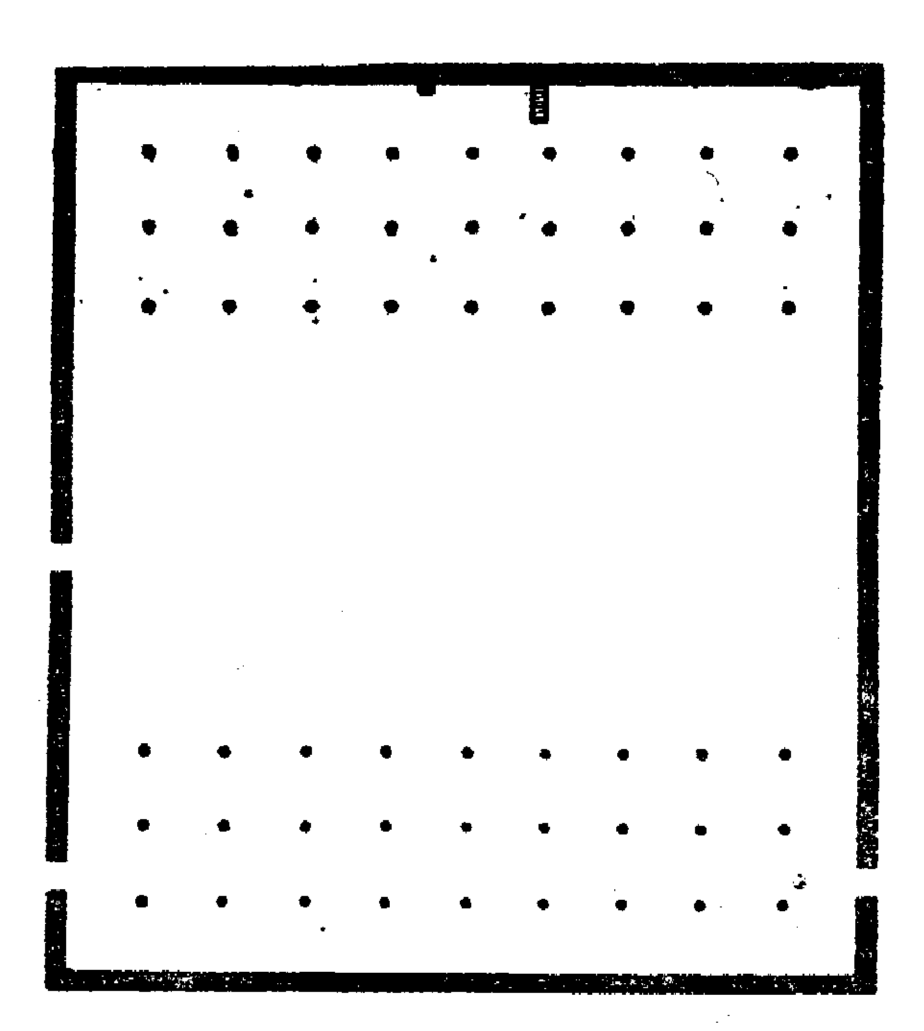
مقطع من تنظيم اللبن (عن صالح لمعي مصطفى)



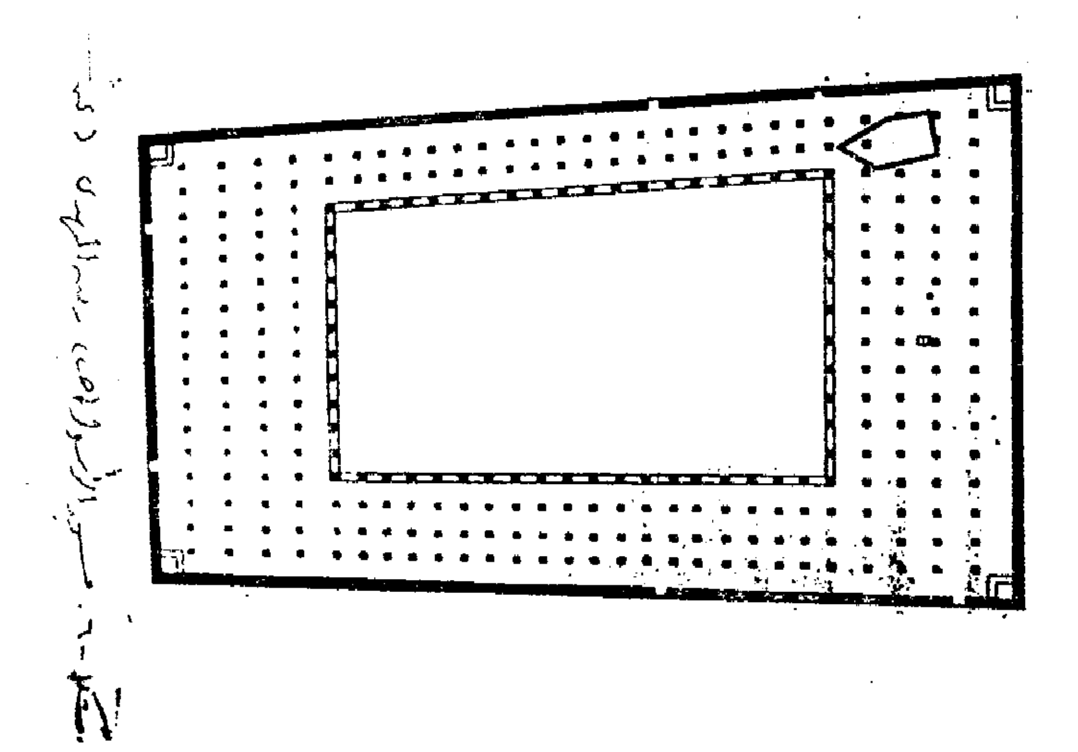
رسم تخيلي عن [illegible]



شكل -٣- طريقة تنظيم اللبن (عن صالح لمعي مصطفى



شكل ٤ - التخطيط الثاني لمسجد الرسول (ص) (عن زكري)



مؤرخ من عصر الموسوعات الاسلامية :

المقريزي

يسرى عبدالغني عبدالله
مدير تحرير مجلة (عالم الكتاب)

كان مولد أحمد بن علي المقريزي بالقاهرة سنة ١٣٦٤م ، بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالي ، والمقصود بالحارة هنا الفندق أو الخان أو الوكالة على قول المصطلح المصري في العصور الوسطى ، أو العمارة الكبيرة على حد التعبير الحديث ، ولا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم سائدا في بلاد الشام ٠

وجاءت اسرة المقريزي الى القاهرة من بعلبك في حياة أبيه علي ، وأصل نسبتها يرجع الى حارة المقارزة بتلك المدينة الشامية القديمة ، ولا يسعني هنا الا ان اشير الى الشبه الملحوظ بين هذه التسمية ولفظ مقريزي ، وهي جهة بايطاليا قرب روما ، مما يحتمل معه ان تلك الحارة البعلبكية كانت سكنا لجالية من الجاليات الايطالية التي وفدت للتجارة ببلاد الشرق الادنى زمن الحروب الصليبية ، وقد اكتسبت اسرة المقريزي هذه التسمية لحلولها بتلك الحارة بعد خلوها من أهلها الاصليين ٠

ومهما يكن فالمعروف المقطوع به أن أحمد بن علي المقريزي نشأ قاهريا ، بناحية من أعظم نواحي القاهرة امتلاء بالعمران والصخب وضوضاء الحياة(١) ، وأن جده لامه ، واسمه ابن الصايغ الحنفي ، هو

الذي كفل تعليمه ، لضيق حال أبيه على فيما يبدو قبل أن يصبح من أصحاب الاملاك والعقار · ولذا أخذ جده بتنشئته على أصول الحنفية ، وانكب هو على الدرس والتحصيل تحت ارشاد اساتذة عصره ، واظهر نجابة ومقدرة ·

ثم مات ابن الصايغ سنة ١٣٨٤م ، فترك المقريزي مذهب الحنفيه ، وانتقل الى الشافعية ، ودرس الفقه دراسة واسعة ، وأخذ من ثم يهاجم الحنفية في عنف استوجب لوم معاصريه له ·

ثم التحق المقريزي بالخدمة الحكومية ، فكان أول عهده بها ديوان الانشاء بالقلعه ، حيث ظل يعمل موقعا - أي كاتبا - حتى سنة ١٣٦٨م وقد ذكر المقريزي ذلك في المواعظ والاعتبار حيث ذكر أنه ظل في وظيفه الموقع بديوان الانشاء بالقلعة حتى تلك السنة ، بعد ذلك غدا نائبا من نواب الحكم - أي قاضيا - عند قاضي الشافعية ، فاماماً لجامع الحاكم ، ومدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية · وفي سنة ١٣٩٨م اختاره السلطان برقوق (آخر سنة من حكم برقوق) الذي كان حفيا به مشجعا اياه ، لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين ·

وفي ذلك الوقت تزوج المقريزي وأنجب ، اذ المعروف ان بنتا له ماتت بالطاعون الذي اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية سنة ١٤٠٣م في عهد عبدالعزيز بن برقوق ·

وفي سنة ١٤٠٨م انتقل المقريزي الى دمشق السورية ، ليتولى النظر على أوقاف القلانسية والمارستان النوري ، وليقوم بتدريس الحديث بالمدرستين الاشرفية والاقبالية هناك · ثم لم يلبث أن عينه السلطان

فرج بن برقوق كذلك نائبا للحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المنتظرون على اوقافها قضاة بها . لكن المقريزي أبى قبول هـذا الشرف ، على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا من قبل السلطان ، ويظهر أنه سئم الخدمة الحكومية وضاق بتكاليفها ، وأنه ملك من الموارد التي ربما ورثها عن أهله ما أغناه عن تضييع وقته في كسب العيش ، عن طريق الدواوين ومجالس الحكم .

وكيفما كان الامر ترك المقريزي دمشق واعماله بها بعد اقامتـه عليها عشر سنوات تقريبا ، وعاد الى القاهرة خاليا من عمل أو وظيفة ليتوفر على الدرس والاشتغال بالعلم ، ولاسيما التاريخ . ومن أجل ذلك رحل المقريزي وعائلته سنة ١٤٣٠م حاجا الى مكة ، وكان مجاورا بهـا قبلا ابان طلبه العلم ، بيد انه ظل مقيما بمكة تلك المرة الثانية حتى سنة ١٤٣٥م ، واشتغل بها في تلك الاثنـاء بتدريس الحديث وبالتأليف في التاريخ . ثم عاد المقريزي من بعدئذ الى القاهـرة ، حيث أمضي بقيـة حياته بحـارة برجوان التي ما برح منذ شبابه يفاخر بهـا على سـائر الحارات ، ويظهر أنه جعل من منزله بها مكانا لمدارسة تلاميذه ، وللتأليف الكثير في مختلف علوم عصره(٣) .

بدأ المقريزي نشاطه العلمي الضخم بظهور تاريخ القاهرة المسمى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار) ، وهو كتاب عني فيه صاحبه قبل كل شيء بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى الان ، وكان تاليفه اياه ما بين عامي ١٤١٧م و ١٤٣٦م .

على أنه يظهر أن المقريزي اعتمد ـ الى حد كبير ـ في تأليف هـذا الكتاب الزاخر ـ الذي يعد فخر مؤلفاته ـ على كتاب صنفه قبله الاوحدي

المؤرخ ، فنقل منه دون أن يشير اليه أو يعترف بأخـذه منـه ، وسماه السخاوي من أجل ذلك بقوله إن كتـاب الخطط « مفيـد لكـونه (أي المقريزي) ظفر بمسودة الاوحدي فأخذها وزادها زوائد غير طائلة »(٤) ، بل ذكر السخاوي في موضع آخر ان الاوحدي « كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأفـاد وأجـاد ، وبيض بعضها ، فبيضها التقى المقريزي ، ونسبها الى نفسه مع زيادات »(٥) ، وأن المقريزي نفسه اعرف بانتفاعه بتلك المسودات(٦) . ولم يستطع العلماء والمؤرخون من مستشرقي القرن التاسع عشر الميلادي أن يدفعوا تلك التهمة تماما عن المقريزي ، أو يدلي أحدهم فيها برأي حاسم ، بل قال بصددها (كاترمير) الفرنسي ان من الفطنة والصواب أن نسكت عـن هـذه القضية ، وأن الحكم فيها برأي قاطع(٧) . على أنه مما يسترعى النظـر أن المقريزي نفسه لم يدفع هذه التهمة بشيء قاطع ، ولم يستطع أن يدلي في سياق الرد عليها بأكثر من قوله : « حسب العالم أن يعلم ما قيل ـ ويقف عليه » . يضاف الى ذلك اشارة المقريزي(٨) الى اتصاله بالاوحدي . كما انه توجد بكتاب المواعظ شواهد داخلية تؤدي بالباحث الى كثير من الشك على الاقل ، ومنها خلو بعض كتب المقريزي المتأخـرة من عبـارات واردة بكتاب المواعظ ، مثل ادلائه في نسب الاكراد والايوبيين برأي هام ، وعدم تكراره لهذا الـرأي على أهميته في كتاب السلوك ، ومنها كذلك ما جاء بكتاب المواعظ بصـدد رباط البغـدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد ما نصـه : « وآخر من أدركنا فيـه الشيخة .. فاطمـة بنت عباس البغداديـة(٩) ، توفيت في ذي الحجة سـنة أربـع عشرة وسبعمائـة » وهذا التاريخ ـ ان صح المتن وصحت الوفاة ـ انما يقـع قبـل مولد

المقريزي (والاوحدي كذلك) بأزيد من خمسين سنة !!

ويلاحظ أن هذه العبارة منقولة من الطبعة الكاملة المعدودة أحسن الطبعتين المعروفتين لهذا الكتاب ، وهي عبارة تتطلب تحقيقا دقيقا بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض ، وبذلك تقضى على فكرة داخلنا تقول ان المقريزي أخذ من الاوحدي (كذلك) أخذ من رجل مجهول لا نعرفه ؟!! .

ومهما يكو من شيء فالمقريزي صدر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة ، وتناول المدن والاثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق ، مبتدئا بالاسكندرية ، وعنى عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة طبعا ، فجاء الجزء الثاني منه ـ وهو نصف الكتاب ـ ثبتا زاخرا بأحوال القاهرة وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة في العصور الوسطى . ثم اتبع المقريزي هذا الكتاب بتاليف في تاريخ الفسطاط وهو في الواقع تاريخ لمصر الاسلامية في عهد الولاة . وأتلى المقريزي ذلك بكتاب في دولة الفاطميين بمصر ، واسمه (اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا)(١٠) ، حتى اذا فرغ منه فكر في تأليف كتاب يكون تاريخا للايوبيين والمماليك ، ليتم به سلسلة مؤلفاته في التاريخ المصري الوسيط ، من الفتح العربي الى زمنه ، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذي غدا اساسا رئيسا لكل التواريخ المصرية في عصر الدولتين الايوبية والمملوكية الاولى والثانية .

ويلاحظ ان المقريزي كتب المؤلفات المتقدمة لتكون ذيلا على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد في كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدول الاسلامية المصرية التي تناولها قبلا في بكر مؤلفاته . ومن أجل

كذلك شرع المقريزي في التأليف في كتب التراجم والسير ، وأوغل في مشروعين كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير انه لم يتمهما لضخامة المقياس الذي بني عليه كلا منهما . أما أول هذين المشروعين فهو كتاب : (المقفى الكبير) ، وكان المقصود به ان يكون معجما لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين والنصارى منذ أقدم العصور الى ما قبل عصر ، وقدر له أن يكون في ثمانين مجلدا ، ولم يستطع ان ينجز منها سوى ستة عشر فقط . أما ثانيهما ، وهو كتاب (درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة) ، فكان الغرض منه أن يكون معجما لتراجم معاصريه ، غير أن المقريزي تركه كذلك دون ان يفرغ من مراجعته .

وصرف المقريزي كثيرا من نشاطه الجم في التاريخ الاسلامي العام ، فألف في السيرة النبوية ، وفي قبائل العرب التي نزلت مصر منذ الفتح العربي الاسلامي ، وفي جغرافية حضرموت بجنوب شبه الجزيرة العربية، وفي الدويلات الاسلامية بالحبشة ، كما أسهم بنصيب وافر في التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي ، حين ألف في الاوزان والاكيال ، والمقاييس والنقود ، وفي تاريخ المجاعات والطواعين . وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) وكتاب (اغاثة الامة بكشف الغمة) ، اذ رجع المقريزي ، الكتاب الاول من هذين الكتابين ، أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الامويين والهاشميين الى عصبيات الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث المريرة والحروب المستحرة ، والشخصيات المتنافرة ، التي لم تعد كلها أن تكون أسبابا طارئة على جذم ذلك الخلاف وحرثومته ، مترسما في ذلك سبيل ابن خلدون وفلسفته في المقدمة(١١) . أما الكتاب الثاني من هذين الكتابين

فتناول ، المقريزي فيه تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور الى سنة ١٤٠٥م ، وهي السنة التي ألف فيها ذلك الكتاب ، وأدى بـه البحث الى ان اسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلية انما هو « سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد »(١٢) وهو تخريج اقتصادي سليم مصدره كذلك مقدمة ابن خلدون وما جاء بها في فصل (الجباية وسبب قلتها وكثرتها) ، وما يليه من الفصول المتفرعة على هذا المعنى(١٣) بل ان تأثير ابن خلدون على المقريزي في تأليف هذا الكتاب بالذات تعـدى الى طريقـة العرض والاسلوب وفواتح الابواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة العامة(١٤) . والحقيقة أن المقريزي تأثر بابن خلدون ومقدمته في هذين الكتابين وغيرهما من مؤلفاته تأثرا فاق حد الاعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها « لم يعمل مثالها ، وانـه لعزيز ان ينال مجتهد منالها ، اذ هي زبـدة المعارف والعلوم ، ونتيجـة العقول السليمة والفهـوم ، توقف على كنـه الاشياء ، وتعرف حقيقـة الحوادث والانباء ، وتعبر من حال الوجود ، وينبيء عـن أصل كـل موجود » وهو وصف يدل في وضـوح على دراســة المقريزي لمقدمة ابن خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس الى غيرها مما عرفه خلال قراءاته الدائبـة التي يبدو أنها لم تنقطع الا بوفاته سنة ١٤٤٢م .

وفي الضوء اللامع للسخاوي (١٤٤/٤) توجد ملاحظة عابرة الى ما كان من عظيم الصلة والصداقة بين المقريزي وابن خلدون وكذلك في المواعظ والاعتبار (٥٠/١) اشار المقريزي الى ابن خلدون اشارة التلميذ لاستاذه ، ولم يتحرج ان يستشهد بعبارة لاذعة له في وصف المصريين ، ونصها حسبما

ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة : « قال لي شيخنا الاستاذ أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من يوم الحساب » .

والواقع أن المقريزي كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع ، كثير الدأب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به ما خلفه من مؤلفات لم ير النور بعضها حتى الآن ، وان نظرة واحدة الى أثبات مؤلفاته لكفيلة بايقافنا على المامه بالخطط والتاريخ والترجمة والسكة والاوزان والمقاييس ، وهذا فضلا عن معرفته بعلم الحشرات والمعادن والطب والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث . لكن أعظم اهتمامه كان موجها نحو التاريخ ، لانه كان مغرم به ، معنيا بتحقيقه والتأليف فيه ، فعرف منه جزءا كبيرا معرفة تامة ، وحفظ منه الكثير عن ظهر قلب . وأقر بذلك كله تلميذه الذي عرف معاصريه من المؤرخين ، وخليفته الذي اقتفى أثره ومنهاجه في كتابة التاريخ ، وهو ابو المحاسن يوسف بن تغري بردى ، حين قال في كتاب النجوم الزاهرة : « وفي الجملة هو أعظم من رأيناه في علم التاريخ وضربه ، مع معرفتي لمن عاصره من علماء التاريخ ، والفرق بينهم ظاهر ، وليس في التعصب فائدة »(١٦) .

أما عن أخلاق المقريزي الشخصية فالمعاصرون له أجمعوا على أنه عاش رجلا فاضلا دينا ، مجدا أمينا في عمله . حتى ان السخاوي المؤرخ المشاكس — مع شدته في كتاب المواعظ والاعتبار — يقول ان المقريزي كان على جانب عظيم من « حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة في المذاكرة ، والمداومة على التهجد والاوراد ،

وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة ، والملازمة لبيته » وانـه : « حمدت سيرته في مباشراته »(١٧) أي في الوظائف التي تولاها قبل أن ينصرف الى حياة الدرس الخالية ٠

لقد حفل عصر المقريزي بكثير من المشتغلين بالعلم والتاريخ ، وربما بدا بعضهم اوسع منـه معرفة بدخائـل ذلك العصر ، نظـرا لتقلدهم في الوظائف الكبرى بالدولة المصـرية ، ومن هؤلاء ابن حجـر العسقلاني والعيني وخليل بن شاهين وابن عرب شاه والخالدي ٠

الهوامش :

١ ـ راجـع المقريزي : المواعـظ والاعتبـار ـ طبعـة بولاق ـ ج ١ ، ص ٩٥ ـ ٩٦ ٠

٢ ـ المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٥ ٠

٣ ـ أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ـ طبعة دار الكتب ـ ج ٨ ، ص ٢١٨ ٠

٤ ـ السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ٢٢ ٠

٥ ـ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ٠

٦ ـ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ ـ ص ٣٥٩ ٠

٧ ـ

٨ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار ـ طبعـة بولاق ـ ج ١ ، ص ١٢ ، وكذلك ج ٢ ، ص ٢٥٦ ٠

٩ ـ المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار ـ طبعة بولاق ج ٢ ، ص ٢٤٨ ٠ انظر كذلك ابن حجر : الدرر الكامنة ، ٣ ٣ ، ص ٢٢٦ ، حيث ورد اسم هذه السيدة الفاضلة فاطمة بنت عباس ٠

١٠ـ نشره د٠ جمال الدين الشيال في طبعة مزيدة عن طبعته الاوربية القديمة (دار الفكر العربي ، ١٩٤٩م) ٠

١١ـ ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة بولاق ، ص ١٠٧ ، وما بعدها ٠

١٢ـ المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ـ نشر زيادة والشيال ، ص ٤ ٠

١٣ـ ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة بولاق ، ص ٢٣٣ ، وما بعدها ٠

١٤ـ المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ـ نشر زيادة والشيال صفحة (د) ٠

١٥ـ راجع كتاب نحل عبر النحل الذي نشره الدكتور جمال الدين الشيال ٠ (مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٤٦) ٠

١٦ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج٢٧ ص٢٧٩ ٠

١٧ـ السخاري : التبر المسبوك ، ص ٢٢ ، ٢٣ـ٢٤ ٠

موارد أحمد الدورقي البغدادي
عن التاريخ الاموي

د. محمد جاسم حمادي المشهداني
معهد الدراسات القدمية والاشتراكية

الجامعة المستنصرية

تعد مدرسة بغداد التاريخية من بين المدارس الرائـدة الاصـيلة في نشأتها وتطورها ، وفي الاهـداف والاغـراض التي انتهجتهـا كما تميـز كثير من مؤرخيها بدقتهم وأمانتهـم وثبـوت حـال مروياتهم اضـافة الى نتاجاتهم الغزيرة في ميدان التدوين التاريخي ، واسهاماتهم الرائدة في هذا الميدان ونريـد ان نشير هـنا الى جانـب مهم من مميـزات هذه المدرسـه مختلفة في عدالة وامانة مؤرخيهـا وعـدم انحيازهم وتعصـبهم ، مجافـاة للحقيقة تحقيقاً لاهداف سياسية او مادية ، وانمـا كانت الامانة والعدالة والتحقيق والتـدقيق رائدهم ، ونحن نعلم ان اغـلب مـرويات التاريـخ الاموى قد دونت بعد زوال دولتهم ، كما ساهمت الشعوبية بدور معروف ومشهود في تشويه حقائق التاريخ العربي عامة ، والتاريخ الاموى بصورة خاصة ، واضافة الى الردود المباشرة لمواجهة الدس الشعوبي التى قام بهـا رواد الحركة الفكرية العربية والمناصرين لهم ، نجـد ان هنـاك آخـرين ساهموا في الرد على ذلـك الدس بصـورة غير مباشرة من خـلال اظهـار الجوانب المشرقة في التاريخ الاموي ، واظهار كثير من حقائق ذلك التاريخ التى حاول الاعداء طمسها او تشويهها ، وكان مؤرخ بغداد احـمد الدوقي البغدادى احد ابرز الذين ساهموا بدور فاعل في تدوين حقـائق التاريخ الاموي ، في ظل ظروف لم تكن أموية ، وذلك بعد أفول نجم الخلافة الاموية،

كما ان كتابة من هذا النوع خالية من اى هدف يعطي صاحبها مردودا ماديا بل بالعكس كان تدوين الحقائق الايجابية قد يثير له متاعب قد تأخذ جانب التعويض من قبل اعداء الامويين مهما كانوا كما ان هذا التوجه في التدوين التاريخي لمدرسة بغداد ،يعكس مدى الروح العلمية الذى اتصفت به ، هذه المدرسة من خلال كتابة تاريخ الدول التى انتهى دورها السياسى على يد دولة لاتزال قائمة ، ولذلك تعد هذه ميزة فكرية وعلمية بل وانسانية رائعة من مميزات مدرسة بغداد التاريخية ؛ ان عناية الدور في التاريخ الاموى وبالفترة العباسية بالذات نؤكد ميزة رائعة واتصف بها التاريخ الاموى ممثله بادراكه لاهميته هذا التاريخ ، وادراكه لاهميه ومكانة هذه الاسرة في تاريخنا العربي ولايمكن لاى مؤرخ منصف اهمال دور الامويين المتميز في تاريخنا العربي ، وبالاخص في ميدان حركت التحرير العربية ، وفي الحفاظ على الهوية القومية العربيه في مشارق الارض ومغاربها وانما حملت راياتهم لنشر الاسلام ، والدفاع عن قيمة ومبادئه واذا ماعلمنا ان الشعوبية ناصبت العروبة والاسلام حرب عدوانها ولم تكن محاولاتهم لتتوقف في ضرب السيادة العربية الاسلامية التى برزت في اروع صورها على عهد الامويين ، ومن هنا يمكن ادراك قيمة مرويات احمد بن ابراهيم الدورقي البغدادى وهي تعرض الصورة الري برزت في اروع صورها على عهد الامويين ، ومن هنا يمكن ادراك قيمة مرويات احمد بن ابراهيم الدورقي البغدادى وهي تعرض الصورة الرائعة للخلافة العربية الاموية ورجالها ، هذا يبرهن مدى انصافه وعدالته وامانته كمؤرخ منصف دون التاريخ الاموي في زمن أفول دولتهم .

حياة أحمد بن ابراهيم الدورقي ومنزلته العلمية

عاصر الدورقي فترة مهمة من فترات التاريخ العباسي حفلت بأحداث تاريخية متنوعة كان ابرزها حدوث الانقسامات داخل الاسرة العباسية وبالاخص فترة الصراع بين الامين والمأمون،وذلك سنة ١٩٨هـ/٨١٤،(١) ثم ظهر تيار نفوذ الاتراك في عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ/ ٨٣٤-٨٤٢م) حيث شهدت الحالة انتقال العاصمة من بغداد الى سامراء(٢) ومن ثم ازداد نفوذ الاتراك بحدود الزمن ، وبرز دور القادة الاتراك وأخذت الاحداث تتابع ووصل الامر حداً من الخطورة ادت الى مقتل الخليفة المتوكل على الله ، بتشجيع العناصر التركية المتغلبة سنة ٢٤٧هـ /٨٦١م(٣) ومع كل ظروف هذا الوضع السياسي فان الحركة الفكرية كانت نشطة ويمكن ان تلمس هذا الازدهار الفكري من خلال الحشد الكبير من العلماء الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري ، والذين توزعو على مختلف جوانب المعرفة الانسانية ، وقد اشار الجاحظ (ت ، ٢٥٥) الى

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ (بيروت ، ١٩٦٠) ص ٤٤٠
الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، في محمد ابو الفضل ، ج٨ (القاهرة ، ١٩٧٦) ٤٧٨-٩٥ .

(٢) ابن قتيبه ، المعارف (القاهرة ، ١٩٦٩) ص ٣٩
الطبرى ، المصدر السابق ، ٩/٧١-٧٩ .
المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ (بيروت ، ١٩٦٥) ٥٣-٥٤ .

(٣) د. فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية (بغداد ، ١٩٧٤) ص ٣٩-٤٧ .

ازدهار الحركة الفكرية في النصف الاول من القرن الثالث الهجرى،والتي عاصرها الدورقي بقوله : « فما ينتظر باظهار ماعنده ؟ ومايمنع الناصر للحق في القيام بما يلزمه ؟ وقد امكن القول ، وصلح الدهر ، وهوى نجم التقيه ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم(٤) ولذلك يلاحظ هناك العشرات من العلماء في علوم القرآن ، والحديث ، وفي العربية وعلومها ، في الشعر والادب ، والزهد والتصوف، وفي التاريخ والاخبار وفي العلوم الصرمه وغيرها(٥) .

اسمه ونسبه(٦)

هو احمد بن ابراهيم بن كثير بن زيد بن أفلح بن منصور بن مزاحم العبدي مولى عبدالقيس ، أبو عبدالله البغدادي البكرى ، المعروف

---

(٤) الحيوان ، ع ، عبدالسلام هارون ، ج١ (القاهرة ، ١٩٦٧) ص ٨٦ـ٨٧ .

(٥) المشهداني ، محمد جاسم حمادى ، موارد البلاذري ، ج١ (مكة المكرمة ، ١٩٨٦) ص ٤٢ـ٤٤ .

(٦) البخارى ، التاريخ الكبير ، ج١/ق٢/٦ ، ابن ابي حاتم ، الجرح والتعديل ج١/ق١/٣٩ .
الخطيب البغدادى ، تاريخ ٤/٦ـ٧ ، ابن زبر ، تاريخ موالد العلماء ، ورقة ٣٨ أ المزي ، تهذيب الكمال ، في ، بشار عواد م١ (بيروت ، ١٩٨٠) ، ٢٤٩ـ٢٥١ ، ابن ماكولا ، الاكمال ، ٣/٣٦٥ ، ابن القيسراني الانساب المنفعة ٥٤ـ٥٥ ، السمعاني، الانساب ، ٥/٣٩٢ـ٣٩٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، ٧/٩٤ ،اللباب ١/٥١٢ ، الذهبي ، تذكره الحفاظ ، ٢/٥٠٥ ، العبر ، ١/٤٤٦ الكاشف ، ١/٥٠ ، العين في طبقات المحدثين ورقه ١٦ ب ، ابن حجر تهذيب التهذيب ١٠/١٠ـ١١ ، السيوطي،طبقات الحفاظ، ٢٢٠ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ٢/١١٠ ، سركين، تاريخ التراث ١/٣٦ ، كحاله معجم المؤلفين ١/١٤٢ .

بالدورقي(٧) ٠

اما نسبته الى النكري : بضم النون ، وسكون الكاف ، فذلك نسبته الى بني نكرة وهم بطن من عبدالقيس ، والدورقي نسبة الى الملابالدورقية، حيث ذكر الخطيب البغدادي (ت ،) قائلا « كان السراج يزعم انهم سموا دورقه لانهم يلبسون القلانس الطوال(٨) ، وذكر الحاكم بانه سمي بذلك « لتنسك ابيه،وكان من يتنسك في ذلك الزمان سمي دورقيا » رغم ان ابن الجارود يذكر في مشيخته بانه كان من اهل دورق من أعمال الاحواز(٩) ٠

عائلتـــه :

ظهر في عائلة أحمد الدورقي بعض العلماء والحفاظ ، فهم أخوة يعقوب بن ابراهيم بن كثير الدورقي الحافظ ، واخوه ابو عبدالله احمد بن ابراهيم الحافظ ، وابن اخيه عبدالله بن احمد(١٠) ٠

مولـده :

ذكرت اغلب المصادر التي ترجمت له انه ولد في سنة ١٦٨هـ ،(١١)

وفاتـــه :

توفي في مدينة العسكر يوم السبت لسبع بقين من شعبان سنة سنة واربعين ومئتين(١٢) ٠

---

(٧) المزي ، تهذيب الكمال في اسماء الرجال ، خ ، عواد معروف ، ج١ (بيروت ، ١٩٨٠) ص ٢٤٩ ٠
(٨) تاريخ بغداد ، ٤/٦-٧ ٠
(٩) ابن حجر تهذيب التهذيب ، ١/١٠ ٠
(١٠) انظر بشار في هامش ٢/ص٢٤٩ ٠
(١١) المزي ، تهذيب ، ١/٢٥١-٢٥٢ ٠
(١٢) الخطيب ، ٤-٧ ، المزي ، ١/٢٥١ ٠

ســماعه ورحــلاته

عاش الدورقي حياة حافله بالدراسة والتأليف وتتلمذ على عــدد من كبار المحدثين ، من خلال ملاحظة معظم شيوخه منهم ، مما ادى الى تأثره بأساليبهم وبعض مناهجهــم في مروياته ، وبأن ذلــك من خــلال عرضــه للمعلومات التاريخيه التى تناولها . والتى نجــد فيها اهتماما شــديدا في السند ، حيث كانت مروياته المسنده تكون بحــدود (٩٥٪) من مجمــوع المعلومات التى اوردتها ، كما ان استخدم صــيغ المحدثين والفاظهم التي كانوا يستعملونها في طرق تحمل الروايه التاليخية نحو « حدثنا وحدثني واخبرنا واخبرني ، وانبانا ٠٠ الخ ٠

اما عن رحلاته فان المصادر التى ترجمت له ، لم تقدم لنــا معلومات صريحة ورافدة عنها ولكن من خــلال دراســتنا لشيوخه ، نجد انه اخذ عن عدد من الشيوخ في عدد من المدن وبالاخــص تلك المعلومات نســتطيع ان نطلع على جانب من جوانب رحلاته في طلب العلم ، وسماعه من خلال عرض يبرز الاماكن التي تلقى بها العلم وكما يلي ٠

المــدن العراقيــة :

البصــره :

شيوخه بالبصره : اكثر احمد بن ابراهيم الــدورقي في الاخــذ عن شيوخه في البصرة وخاصة عن الاحداث التاريخية المتعلقة بالتاريخ الاموي فيها ومن ابرز هوايته الشيوخ الذين اخذ عنهم بالبصره ٠

ـــ بكير بن اسماء ابن اخي جــويرية بن اســماء البصــرى(١٢) اذا

(١٣) المزى ، تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

ماعلمنا ان جوير (ت ، ١٧٣ هـ) •

— يزيد بن زريع البصرى (ت ، ١٨٢ هـ) وهو ثقة ثبت(١٤) واكد المزى روايته عنه(١٥) •

— اسماعيل بن ابراهيم بن مقسم الاسدى مولاهم ابو بشر البصرى بابن كليه(١٦) (ت ، وهو ثقة حافظ واكد المزى روايته عنه(١٧) •

— محمد بن ابراهيم بن ابي عدى البصرى (ت،١٩٤هـ) وهو ثقه(١٨) •

— ربعي بن ابراهيم بن مقسم الاسدي ابو الحسن البصرى أخو أسماعيل بن علي وهو اصغر منه (ت ، ١٩٧هـ) وهو ثقه صالح(١٩) واكد المزى روايته عنه(٢٠) •

— عبدالرحمن بن مهدى بن حسان العبرى مولاهم ابو سعيد البصرى (ت ، ١٩٨) وهو ثقة ثبت (٢١) واكد المزى روايته عنه (٢٢) •

— يحيى بن ابي الحجاج الاهتمي المنقري ، وهو ليس بالقوى/٢٣) •

— بهز بن اسد العمي ابو الاسود البصري (ت ، بعد ٢٠٠ هـ) وهو

---

(١٤) تقريب التهذيب ، ٣٦٤/٢
(١٥) تهذيب الكمال ٢٥٠/١
(١٦) تقريب التهذيب ٦٥/١ـ٦٦
(١٧) تهذيب الكمال ٢٥/١
(١٨) الكاشف ، ١٦/٣ ـ تقريب التهذيب ، ١٤١/٢
(١٩) تقريب التهذيب ، ٣٢٤/١
(٢٠) تهذيب الكمال ٢٥٠/١
(٢١) الكاشف ، ١٨٩/٢ • تقريب التهذيب ٤٩٩/١
(٢٢) تهذيب الكمال ، ٢٥٠/١
(٢٣) الكاشف ، ٢٥٢/٣ تقريب التهذيب ، ٣٤٥/٢
(٢٤) الكاشف ، ١٦٤/١ • تقريب التهذيب ١٠٩/١

ثقة ثبت(٢٤) واكد المزى روايته عنه(٢٥) ٠

ـــ زيحان ابن سعيد الناجي البصرى (ت ، ٢٠٣) وهو صـــدوق(٢٦) واكد المزى روايته ٠

ـــ عبدالكبير بن عبدالمجيد بن عبدالله البصرى الحنفي (ت ، ٢٠٤) وهو ثقة(٢٧) واكد المزى روايته عنه(٢٨) ٠

ـــ ابو عامر عبدالملك بن عمرو العقدى القيسى البصرى (ت ، ٢٠٤) وهو ثقه(٢٩) ٠

ـــ سليمان بن الحارود أبو داود الطيالى (ت ، ٢٠٤هـ) زهير بن نسيم داود الطيالى ، اكد المزى روايته منه(٣٠) ٠

ـــ وهب بن جرير بن حـــازم الازدى البصـــرى (ت ، ٢٠٦هـ) وهـــو ثقة(٣١) واكد المزى روايته عنه ،(٣٢) ٠

ـــ صفوان بن عيسى الزهدى ابو محمد البصرى (ت ، ٢٠٦) وهـــو ثقة (٣٣) واكد المزى روايته عنه(٣٤) ٠

ـــ عبدالصمد بن عبدالوارث بن سعيد العنبرى التنورى مولاهم البصرى

---

(٢٥) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٢٦) تقريب التهذيب ، ١/٢٥٥
(٢٧) تهذيب الكمـــال ، ١/٢٥
(٢٧) تقريب التهذيب ، ١/٥١٥
(٢٨) تهـــذيب ، ١/٢٥٠
(٢٩) تقريب التهذيب ، ١/٥٢١
(٣٠) تهذيب الكمال ١/٢٥٠
(٣١) تقريب التهذيب ٢/٣٣٨
(٣٢) تهذيب الكمال ١/٢٥١
(٣٣) تقريب التهذيب ، ١/٣٦٨
(٣٤) تهذيب الكمال ١/٢٥٠

(ت ، ٢٠٧) وهو صدوق ثبت(٣٥) واكد المزى روايته عنه(٣٦)٠

— سعيد بن عامر الضبعي ابو محمد البصرى (ت ، ٢٠٨) وهو ثقه صالح(٣٧) ٠

— قريش بن انس الانصارى البصرى (ت ، ٢٠٨هـ) وهو ثقه (٣٨)٠

— الضمال بن مخلد ابو عاصم النبيل البصرى (ت ، ٢١٢) هو ثقه ثبت(٣٩)٠

— العلاء بن عبدالجبار الانصـاري مولاهم العطار البصري نزيل مـكة (ت ، ٢١٢) وهو ثقه(٤٠) واكد المزى روايته عنه(٤١) ٠

— عبدالله بن مسلمة بن قعنب العنبي الحارثي (ت ، ٢٢١) وهـو ثقه عابد(٣٤) واكد المزى روايته عنه(٤٣) ٠

— سليمان بن حرب الواشحي البصرى (ت ، ٢٢٤) وهو معه(٤٤)٠

— هشام بن عبدالملك ابو الوليد الطبالى البصرى (ت ، ٢٢٧هـ) وهو ثقه ثبت(٤٥) ٠

---

(٣٥) تقريب التهذيب ، ١/٥٠٧

(٣٦) تهذيب الكمال ١/٢٥٠

(٣٧) كاشف ، ١/٣٦٤ ٠ تقريب التهذيب ، ١/٢٩٩

(٣٨) كاشف ، ٢/٤٠٠ ، تقريب ، ٢/٢٢٥

(٣٩) تقريب التهذيب ، ١/٢٧٣

(٤٠) تقريب التهذيب ٢/٩٢

(٤١) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٤٢) تقريب التهذيب ، ١/٤٥١

(٤٣) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٤٤) كاشـف ، ١٢/٣٩١ـ٣٩٢
تقريب التهذيب ، ١/٣٢٢

(٤٥) الذهب ، الكاشف ، ٣/٢٢٣

ـــ ابو عبدالله محمد بن زياد الاعرابي الراويه (ت ، ٢٣١هـ) ٠

ـــ محمد بن مقاتل ابو جعفر العبـاداني (ت ، ٢٣٦هـ) وهـو صدوق(٤٦) واكد المزى روايته عنه(٤٧) وكانت عبادان حينذاك من نواحي البصره ٠

شيوخه بالكوفة :

اسحاق بن سعيد عمر بن سعيد الاموى الكوفي (ت ، ١٧٠هـ) وهو ثقـه(٤٨) ٠

جرير بن عبدالحميد بن قرط العنبي الكوفي (ت ، ١٨٨هـ) وهـو ثقه صحيح الكتاب(٤٩) واكد المزى روايته عنه(٥٠) ٠

عبدالله بن ادريس بن يزيـد الاووى الـكوفي (ت ، ١٩٢ هـ) وهو ثقه(٥١) ٠

حفص بن غياث النخعي الكوفي (ت ، ١٩٤هـ) وهو ثقه فقيه(٥٢) واكد المزى روايته عنه(٥٣) ٠

ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢/٣١٩

(٤٦) تقريب التهذيب ٢/٢١٠

(٤٧) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٤٨) الذهـبي ، كاشف ، ١/١٠٩
تقريب ، ١/٣٠٢

(٤٩) تقريب الت ذيب ١/١٢٧

(٥٠) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٥١) تقريب التهذيب ، ١/٤٠١

(٥٢) تقريب التهذيب ، ١/١٨٩

(٥٣) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٥٤) تقريب التهذيب ، ٢/١٣١

وكيع بن الجراح بن فليح الرواسي الكوفي (ت ، ١٩٧هـ) وهو ثقه حافظ(٥٤) واكد المزى روايته عنه(٥٥) ٠

ابو شجاع بن الوليد بن قيس السكوني ابو بدر الكوفي (ت ، ٢٠٤هـ) وهو صدوق ورع واكد المزى روايته عنه(٥٩) ٠

بكر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عيسى الانصارى الكوفي القاضي (ت ، ٢١١هـ) وهو ثقه(٦١) واكد المزى ، روايته عنه ٠

ـــ طلق بن غنام النخعي أبو محمد الكوفي (ت ، ٢١١هـ) وهو ثقه(٦٢) واكد المزى روايته عنه(٦٣) ٠

ـــ عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن محمد المحاربي ابو زياد الكوفي (ت ، ٢١١) وهو ثقه(٦٤) واكد المزى روايته عنه(٦٥) ٠

ـــ عبيدالله بن موسى العيسى الكوفي (ت ، ٢١٣هـ) وهو ثقه(٦٦)،

---

(٥٥) تهذيب الكمال ١/٢٥١
(٥٦) تقريب التهذيب ، ١/١٩٥
(٥٧) تهذيب الكمال ، ١/٢٥
(٥٨) تقريب التهذيب ، ١/٣٤٧
(٥٩) تهذيب الكمال ١/٢٥
(٦٠) كاشف ، ٣/١٥٩
تقريب التهذيب ، ٢/٢٦١
(٦١) تقريب التهذيب ، ٢/٢٦١
(٦٢) تقريب التهذيب ، ١/٣٨٠
(٦٣) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٦٤) تقريب التهذيب ، ١/٥٠٤
(٦٥) تهذيب الكمال ١/٢٥٠
(٦٦) تقريب التهذيب ، ١/٥٣٩ـ٥٤٠

واكد المزى روايته عنه(٦٧) ٠

ـــ خالد بن مخلد القطواني ابو الهيثم البجلي الكـوفي (ت ، ٢١٣-) وهو صدوق(٦٨) واكد المزى روايته عنه(٦٩) ٠

ـــ خلاد بن يحيى السلمي الكوفي نزيل مكه (ت ٢١٣) وهو صدوق(٧٠)

ـــ ابو نعيم الفضل بن دكين الكـوفي (ت ، ٢١٩هـ) وهـو ثقـه ثبت(٧١) ٠

ـــ محمد بن أبي أيوب أبو عاصم الثقفي الكوفي وهو صدوق(٧٢) ٠

ـــ عمر بن حفص بن غياث الكوفي (ت ، ٢٢٢هـ) وهو ثقه(٧٣) واكد المزى روايته عنه(٧٤) ٠

ـــ احمد بن عبدالله بن يونس التميمي اليربوعي الكوفي (ت ، ٢٢٧هـ) وهو ثقه حافظ(٧٥) واكد المزى روايته عنه(٧٦) ٠

---

(٦٨) تقريب التهذيب ٢١٨/١
(٦٩) تهذيب الكمال
(٦٧) تهذيب الكمال ، ٢٥٠/١
(٧٠) تقريب التهذيب ، ٢٣٠/١
(٧١) كاشف ، ٤٠٧/٢
(٧٢) نفســه ، ١٤٧/٢
(٧٣) نفســه ٥٣/٢
(٧٤) تهذيب الكمال ، ٢٥٠/١
(٧٦) تهذيب الكمال ، ٢٥٠/١
(٧٧) الذهبي ، كاشف ، ٢٢٤/٣
ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢٠٢/٢

مدينة واسط :

— هشيم بن بشير الواسطي (ت ، ١٨٣) وهو ثقه ثبت(٧٧) واكـد المزى عنه(٧٢) ٠

— اسحاق بن يوسف الازرق المخزومي الواسطي (ت ، ١٩٥هـ) وهو ثقه عابـد(٧٩) ٠

— يزيد بن هارون السلمي مولاهم ابو خالد الواسطي (ت ، ٢٠٦هـ) وهو ثقه متقي(٨٠) واكد المزى روايته عنه(٨١) ٠

— وهب بن بقية الواسـطي (ت ، ٢٣٩هـ) وهو ثقـه(٨٢) واكـد المزى روايته عنه(٨٣) ٠

مدينـة المدائن :

لاى فيها عن صيخها صبابة بن سوار المدائني مـولى بني فزارة ، (ت ، ٢٠٤هـ) وهو ثقه(٨٤) واكد المزى روايته(٨٥) ٠

مديـنة بغـداد :

يحيى معين البغدادى (ت ، ٢٣٣) وهو ثقه حافظ(٨٦) ٠

---

(٧٩) كاشـف ، ١١٥/١
تقريب التهذيب ٦٣/١
(٨٠) تقريب التهذيب ، ٣٧٢/٢
(٨١) تهذيب الكمال ، ٢٥١/١
(٨٢) تقريب التهذيب ، ٣٣٧/٢
(٨٣) تهذيب الكمال ، ٢٥١/١
(٨٤) تقريب التهذيب ، ٣٤٥/١
(٨٥) تهذيب الكمال ، ٢٥٠/١

مكـه المكرمـة

روى فيها عن عدد من شيوخها ، وابرزهم :

ـــ موسى بن داود الضببي المكي (ت ، ٢١٧) وهو ثقه زاهد(٨٧) ٠

ـــ محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي مولاهم المكي (ت ، ٢٢٠هـ) وهو مقبول من العباد(٨٨) واكد المزى روايته عنه(٨٩) ٠

ـــ غسان بن المفضل الغلابي المكي وهو ثقه(٩٠) ٠

الجزيرة الفراتية والشام وثغورهما :

كما روى أحمد الدورقي عن عدد من شيوخ الجزيرة الفراتية والشام وثغورهما كما يأتي ٠

مدينـة الرقـة :

١ ـ عبدالله بن جعفر بن غيـلان الرقي القرشـي (ت ، ٢٢٠) وهـو ثقه(٩١) واكد المزى روايته عنه(٩٢) ٠

٢ ـ عبدالسلام بن عبدالرحمن بن صخر الوابصي قاضي الرقه ثم بغداد

---

(٨٦) الكاشف ، ٢/٢٦٨
تقريب التهذيب ، ٢/٣٥٨
(٨٧) تهذيب الكمال ، ١٨/ورقة ٢١٦
الذهبي ، كاشف ، ٢/١٨٣
ابن حجر تقريب ، ٢٨٢
(٨٨) تقريب التهذيب ، ٢/٢١٩
(٨٩) تهذيب الكمال ، ١/٢٥١
(٩٠) الخزرجي ، خلاصة تهذيب الكمال ، ٣٠٧
(٩١) تقريب التهذيب ، ١/٤٠٦
(٩٢) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٩٣) تقريب التهذيب ، ١/٥٠٦

(ت ، ٢٤٧هـ) وهـو مقبـول الرواية(٩٣) واكـد المزى روايتـه عنه(٩٤) ·

حـلب :

جبشر بن اسـماعيل الكلبي مـولاهم الحلبي (ت ، ٢٠٠) وهـو صدوق(٩٥) واكد المزى روايته عنه(٩٦) ·

المصيصـه :

وهي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام ، وكانت من الاماكن التى يرابط بها المسلمون قديما ، وابرز الشيوخ الذين روى عنهم فيها :ـ

- حجاج بن محمد المصيصي الاعور نزل بغداد ، المصيصه (ت،٢٠٦هـ) وهو ثقه ثبت(٩٧) واكد المزى روادته عنه(٩٨) ·
- خلف بن تميم بن ابي عتاب الكوفي نزيل المصيصه (ت ، ٢٠٦هـ) وهو صدوق عابد(٩٩) ·
- محمد بن كثيـر الثقفـي المصيصـي (ت ، بعد ٢١٠هـ) وهو صدوق(١٠٠) واكد المزى روايته عنه(١٠١ ·

---

(٩٤) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٩٥) تقريب التقريب ، ٢/٢٢٨
(٩٦) تهذيب الكمال ، ١/٢٥
(٩٧) تقريب التهذيب ، ١/١٥٤
(٩٨) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٩٩) تقريب التهذيب ، ١/٢٢٥
(١٠٠) الذهبي ، الكاشف ، ٣/٩١
(١٠١) تهذيب الكمال ، ١/٢٥١
(١٠٢) تقريب التهذيب ، ١/٢٧

ـــ ابو عبدالله احمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي الشهيد المصيصي (ت ٢٣١هـ) وهو ثقه(١٠٢) واكد المزى روايته عنه(١٠٣) ٠

مؤلفاتـه :

وذكر الدهبي ، بانه « صنف التصانيف »(١٠٤ لكنه لم يذكر عناوينها ، واكد ابن خير الاشبيلي ، انه صنف سيرة عمر بن عبدالعزيز وزهده ، في خمسة أجزاء ، وكتاب زهد بن سيرين ، وايوب ، ووهيب بن الورد ، وابراهيم بن أدهم ، وسليمان الخواص(١٠٥) وذكر سزكيين بانه صنف مسند سعد بن اى وقاص ، واكد وجود نسخه منه في المكتبة الظاهرية بدمشق(١٠٦) ٠

توثيقـه :

يعد احمد بن ابراهيم الدورقي من العلماء البارزين والمبدعين ، في ميدان علم الحديث(٥٧) ٠

حيث كان مصنعا عادلا في مروياته للتاريخ الاموى بصفه خاصة ونظرا لمكانته في علم الحديث ، فقد روى عنه الامام مسلم (ت ، ٢٦١هـ) وابن ماجه (ت ، ٢٧٣) وابو داود (ت ، ٢٧٥) والترمذي (ت،٢٧٩هـ) وكثير غيرهم ٠

---

(١٠٣) تهذيب الكمال ، ١/ ٢٥٠

(١٠٤) العبر ، ١/ ٤٤٦

(١٠٦) سزكين في تاريخ التراث (١/ ٣٠٢) . والكتاب موجود ضمن مجامع رقم ١٣٧ ، من ١١٧ أ ـ ١٣٨ ب/ ٥٢٥هـ) ٠

(١٠٧) المزى ، تهذيب الكمال ، ١/ ٢٥١ ، ابن حجر تهذيب الكمال ، ١/ ١٠

وثقه صالح بن محمد المعروف بجزرة (ت ، ٢٩٣هـ) وابو جعفر محمد بن عمرو العقد (ت ، ٣٢٢) وابن حبان البستي (ت ، ٣٥٤ هـ) والخليلي (ت ، ٤٤٦) « متفق عليه »(١٠٨) وقال عبدالرحمن بن ابي حاتم الرازى (ت ، ٣٧٧هـ) سئل ابى عنه ، فقال : « صدوق »(١٠٩) وقال يعقوب بن ابى اسحاق بن محمود سألت صالح بن محمد (ت ، ٢٩٣) عن يعقوب ، واحمد الدوقي .

فقال : كان احمد اكثرهما حديثاً ، واعلمهما بالحديث ، وكان يعقوب أسندهما وكانا جميعاً ثقة(١١٠) ، وأشاد به الذهبي (ت ، ٧٤٨هـ) قائلا : « الحافظ الكبير المجود ... وكان حافظاً فهما حسن التاليف »(١١١) .

اما عن طبيعة المعلومات التي اوردها الدورقي من الامويين ، فانها كانت ذات طابع سياسي حيث تناولت بتفصيل واسع حياة الخليفة الراشد عثمان بن عفان (رض) وفضائله ، وخدمته للأسلام وجوانب مختلفه من حياته بما في ذلك ، سيرته وخلافته ، وفصل بصورة واسعة ودقيقة عن حركة التمرد على الخليفه عثمان . حيث تناول اسبابها ، والعناصر التي ساهمت بها . وموقف الصحابة جميعاً من تلك العناصر ، ومن ثم الجرأة على الخليفة عثمان من قبل المتمردين ، حتى تفاصيل استشهاده ،

(١٠٨) ابن حجر تهذيب التهذيب ، ١/ ١٠٠
(١٠٩) الجرح والتعديل ، ج١/ق١/ ٣٩
الذهبي ، تذكره الحفاظ ، ٢/ ٥٠٥
المزى ، تهذيب الكمال ١/ ٢٥١
(١١٠) نفسه ، ١/ ٢٥
(١١١) تذكرة الحفاظ ، ٢/ ٥٠٥

ومن ثم دفنه ، وفصل في هذا الموضوع تفصيلا وافياً ٠

وتطرق بعد ذلك الى النتائج البطيرة التى اعقبت حادثه استشهاد الخليفة عثمان وحدوث الانقسامات والصراعات بين العرب ، حيث توجب تلك الانقسامات عليها بقدوث واقعة الجمل وماتمخض عنها من نتائج سلبية وتناول الدورقي هذا الموضوع بأسهاب واسع ٠

ثم تناول الدورقي واقعة صفين واسباب حدوث الانقسامات بين علي ومعاويه ، وايضا اسهب في تفصيل هذا الموضوع بما في ذلك شدة القتال بصفين واقرار مسألة التحكيم وظهور الخوارج وانعقاد مؤتمر اذرح بحل المشكلة ثم تناولت معلوماته خلافة يزيد بن معاوية ، ثم خلافة معاوية بن يزيد ، حيث كانت معظم المعلومات ذات طابع سياسي ، وفي هذه الفترة فصل كثيرا في تاريخ زياد بن ابي سفيان ، وابنه عبيدالله وبالاخص الاحداث المتعلقة بالكوفة والبصره ، حيث تعتبر رواياته عنهم في هذا الميدان من بين المعلومات المهمة عن تاريخ العراق في هذه الفترة ، ولم يفصل كثير ا في معلوماته عن الفترة الاموية اللاحقة ، لهذه الفترة كخلافه مروان بن الحكم ، وابنه عبدالملك ، وكذلك حديثه عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذى كان مقحبا ايضا ولعل هذا الاقتضاب كان من انتقاء المؤرخين الذين اوردوا لنا مرويات الدورقي وبالاخص خليفة بن خياط ، والبلاذرى (ت ، ٢٧٩) ، والطبرى (ت ، ٣١٠هـ) وغيرهم وقد تكون معلوماته ومدوناته عن الفترة الاموية هذه فقد فقدت ايضاً ولم يطلع عليها المؤرخين الكبار الذين دونوا لنا المعلومات المتعلقة بهذه الحقبه ، ذلك لان الدورقي ، قد صنف « سيرة عمر بن عبدالعزيز » الذى يبدوا انه لايزال مفقـودا ٠

وفي الواقع ان معلوماته عن الامويين في هـذا الجانب تعـد من بين

المعلومات المهمة والموثوقة ، وذلك من ناحية تتبعه لتفاصيل الاحداث،ومن ناحية الاسانيد الموثوقه التى تناولها حيث تميزت اغلب اسانيد مروياته كونها موثقة ودقيقة ، ومعظمها تنتهي بأشخاص قد عاصروا الاحداث التى تحدثوا عنها واحيانا كان ينتهي السند بعدد من الصحابة الكرام الذين عاصروا الاحداث ،

ومما تجدر الاشارة اليه ان مروياته قد اعتمدت في اغلبها على رواة من البصره والكوفة وخاصة من رواة القبائل العربية فيها ، وهذا يعكس دور أهمية ومكانة مدرسة البصرة التاريخية في التدوين التاريخي ويعكس الامر كذلك ، دقة ومنهجية الدورقي في انتقاء معلوماته من مصادر قريبة من مواقع الاحداث ، حيث كانت تنتهي أسانيد مروياته الموقوفه بشيوخ كوفيين او بصريين ، رغم ان اعتماده على شيوخه البصريين كان يفوق ماعند الكوفيين ، وتعد معلوماته عن واقعة الجمل وصفين ، وعن الكوفه والبصره في عهد زياد وابنه عبيدالله من المعلومات الدقيقة من خلال اعتمادها على اسانيد معاصرة للحوادث التاريخية هذه او قريبة منها ، ويمكن القول ان مساحة المعلومات التاريخية لمعلوماته تناسب مع حجم الحوادث التى تناولها ، حيث كانت المدينة المنوره وماشهدته من حوادث خلافة عثمان بن عفان (رض) واستشهاده ، قد أخذت حصة جيده من المعلومات التاريخية التى تناولتها ، وكذلك الحال بالنسبة للبصره ، والكوفة ، وما رافقها من حوادث متعلقة بواقعتي الجمل وصفين ، حيث كانت مركزاً للخلافة الراشدية في عهد الخليفة الراشد علي بن ابي طالب، اضافة الى ماشهدته من حوادث تاريخية في عهد زياد وابنه عبدالله ، لذلك فصل في الحوادث التاريخية الواقعة فيهما ، فكانت معلوماته تفصيلية عن تواريخ المدن التى شهدت حوادث تاريخية مهمة في تاريخنا العربي ،ويمكن

ادراك حجم وقيمة مصادر معلومات الدورقي عن الحوادث التي تطرق لها، من خلال انتقاءه لتلك المصادر القريبة من مواقع الحوادث ، من خلال عدم اعتماده على شيوخ المدرسة البغدادية في التاريخية ، نظراً لبعدهم جغرافيا وزمانياً عن تواريخ ومواقع الاحداث التي وقعت في الفترة الاموية والتي تناولها ، فمن مجموع مروياته الواسعة لم يعتمد الدورقي الا على روايه مصدرها يحيى بن معين البغدادي (ت ، ٢٣٣هـ) ثم وجود علماء كبار وبارزين في مدرسة بغداد التاريخية .

ويمكن ملاحظة دقته ذلك الانتقاء لمصادر معلوماته من خلال اعتماده على مايزيد من عشرين شيخ بصري ومايزيد على عشرة شيوخ كوفيين ، اضافة الى بعض شيوخ من واسط ، والمدائن ، ومما يلاحظ ان اغلب اسانيد هؤلاء الشيوخ موثوقه ودقيقة ومهمة من ناحية ترابطها وتسلسلها التاريخي ، ومن ناحية ، درجة توثيقها من خلالها اعتمادنا على كتب الجرح والتعديل ، ونحن نعلم انه من الصعوبة بمكان تطبيق قواعد الجرح والتعديل في الحديث النبوي الشريف على المرويات التاريخية ، ومع كل ذلك فاننا حينما اعتمدنا تلك المعايير وجدنا ان هناك اكثر من ٨٠٪ من اسانيد تلك المرويات موثوقه ودقيقة وامينة ، وهذا مما يعطي اهمية كبيرة لطبيعة المعلومات التاريخية التي اوردها ومما يلاحظ على تلك المعلومات التاريخية التي اوردها ومما يلاحظ على تلك المعلومات نزاهة وأمانة الدورقي فيما اورده من معلومات حيث لم يظهر جانب الانحياز ، لاحد على حساب أحد ، كما انه لم يجرح او ينتقد أحد من الامويين الذين تحدث عنهم حيث عرض تفاصيل الحوادث وقعت قدر الامكان بدون ان يظهر انحيازاً لاحد ، وهذا مما يعطى اهمية كبيرة للمعلومات التاريخية التي اوردها عن الاسرة الاموية .

المكتبات الجامعية في التراث العربي الاسلامي من المصادر التاريخية والاثرية

د. صلاح العبيدي

للعلم في الاسلام فضيلة وللتعلم اجر وثواب تجسدت الدعوة اليه في كل صورة وتواصل الحديث عنه في كل باب حتى أصبحت مفردة (علم) من أكثر المفردات شيوعا واوسعها استعمالا واوفاها غرضا في القرآن الكريم والحديث النبوي والتشريع لما تؤديه من اغراض وتؤكده من حالات تسمو بالانسان من حالة الجهل الى حالة المعرفة ، ومن صورة التخلف الى صورة الارتقاء حتى كانت مفردة « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم(١) » وكانت « ن والقلم وما يسطرون »(٢) و « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٣) وكانت غيرها من الآيات مفاتيح لعالم المعرفة وابوابا لحديث البناء الانساني الذي يأخذ بحياة الانسان الى حيث السمو الانساني .

كما حث الرسول (ص) على طلب العلم حتى جعله فريضة على كل مسلم » وقال صلوات الله عليه « العلماء ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر »(٤) وقد جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام انه قال « اقرب الناس من درجة النبوة اهل العلم والجهاد ، اما اهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت

بة الرسل ، اما اهل الجهاد فجاهدوا باسيافهم على ما جاءت بثة الرسل »(٥) كما قال عليه الصلاة والسلام « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء »(٦) « اي ان المداد الذي ينفقه العالم في تاليف الكتب لنفع الناس يعادل دم شهيد بل يرجح عليه في بعض الروايات ٠

وقام المسجد بدور فعال في النشاط العلمي والثقافي ، والمعروف ان المساجد كانت في العصر الاسلامي الاول مراكز للتدريس والتعليم ، فلم تكن دور عبادة فحسب وانما كانت دور علم ايضا فيها تقام الصلوات وتعقد حلقات الدراسة والتدريس ، حيث كان العلماء والفقهاء والادباء يجلسون في المساجد وحولهم طلبتهم وسامعوهم فيحدثون ويوعظون ويلقون محاضرات علمية ، فلم تكن حلقاتهم اذن فقط للوعظ الديني بل كانت اشبه بالمدارس او بالكليات يلقي الاستاذ او المحاضر في المسجد ما يرغب ان يلقيه من علم كلام وتصوف ولغة وفلسفة ٠ ففي البخاري عن ابي واقد الليثي قال : « بينما رسول الله (ص) جالس في المسجد اذ اقبل ثلاثة نفر ، فاقبل اثنان الى رسول الله (ص) فوقفا على رسول الله (ص) فرأى احدهما فرجة في الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفهم »(١٢) ٠

والى جانب المسجد كانت الكتاتيب يتعلم فيها الصبيان ، القراءة والكتابة ، والمكتب هو الموضع الذي يعلم فيه الاولاد(٧) وكان يطلق على المعلم الذي يعلم الصبيان بالمكتب(٨) ٠

وكانت عناية الامويين بالقراءة والكتابة وبالتعليم بصورة عامة كبيرة وكان الخلفاء من أكثر الناس اهتماما بالتعليم ونشره ، ومما يذكر عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز انه قام بحملة على الامية ، كما كان

الحجاج بن يوسف الثقفي يقوم بتعليم الصبيان بالطائف(٩) .

وتابع الوليد بن عبدالملك الناس في تعلم القرآن وكان يعاقب الذين لايعرفون قراءته ويفرض عليهم العقاب حتى يقرأه ويكافيء الاخرين ويقضي ديون ممن عرفوا القراءة(١٠) .

وفي هذا العصر نجد اهتماما كبيرا بتوفير الكتب وايداعها في مكتبات خاصة ، وتذكر لنا النصوص التاريخية ان أول من عرفت له مكتبة هو خالد بن يزيد الذي توفى سنة ٨٥هـ/٧٠٤م وهو الذي عنى باخراج كتب القدماء وأول من ترجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء(١١) حتى سموه « حكيم آل مروان » .

كما كانت هناك كتب وصحف دينية يجمعها العلماء عن العرب وعن رجال الدين فقد روى أن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف ثم انه (تقرا) أي تنسك فاحرقها كلها »(١٢) .

أما في العصر العباسي فقد ازداد الاهتمام بالتعليم ونشر الثقافة والفنون ، ويعتبر العصر المذكور عصر النقل والترجمة ، اقيمت من أجلها الدواوين واستقدم العلماء واغدق عليهم المال والتكريم وترجمت العلوم عن اليونانية والسريانية والهندية . وكان في مقدمة من اهتموا بهذا الجانب الخليفة العباسي محمد المهدي اذ تذكر الروايات التاريخية انه أول من عنى بجمع الكتب وتابع عملية نقل التراث الاجنبي ويعتبر عصر الرشيد والمأمون العصر الذهبي للترجمة وبلغ من حبهم للعلم ان وجدنا الخليفة المأمون يطلب عقب انتصاره على ميخائيل الثالث تسليمه جميع

المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة ولم تترجم الى العربية بعد تعويضا لخسارة الحرب(١٤) ٠

وعلى العموم فقد تميز العصر العباسي بحركة علمية متميزة اعتمدت على تأسيس متين للكتاب العربي وتأصيله ليعبر عن الهويه العربية الاسلامية متمثلا بمؤلفات أصحاب الحديث والفقهاء وعلماء المنطق والطب والفلك والعلوم والفنون ، وقد اتسعت دائرة التأليف بشكل خاص بعد القرن الرابع الهجري لتكون بمتناول الجميع وخاصة بعد انتشار المدارس والمكتبات الخاصة والعامة الامر الذي أدى الى انتشار صناعة الكتاب واستنساخه ، ومما شجع على ذلك ظهور صناعة الورق تداوله على نطاق واسع الامر الذي ساعد على نشوء حرفة خاصة هي « حرفه الوراقين ، وهم أصحاب المكتبات الادبية التي تبيع وتؤجر الكتب ، وكانت حوانيت الوراقين مجتمع الادباء والكتاب والظرفاء والشعراء »(١٥) ٠

اما مراكز التعليم في العصر العباسي فقد شهدت هي الاخرى تطورا كبيرا ، فالى جانب المسجد والمكتب ظهرت المدرسة والحلقات ودور العلم والحكمة فكان التلاميذ يترددون عليها بعد ان يختموا القران ويتعلموا مباديء القراءة والكتابة والعلوم الدينية الاولية يوفدون الى المدارس والحلقات لتعلم العلوم الاخرى والتخصص في نوع منها أو التوسع في بعضها والوقوف على اخبار العرب وأيامهم ورواية الشعر والسيرة والتاريخ والحساب والفلك والعلوم الاخرى ، وتمثل هذه المرحلة مرحلة متقدمة في التعليم بعد الدراسة الاولية في الكتاتيب ٠

ومن اشهر مدارس بغداد في العصر العباسي المدرسة النظامية التي انشأها لوزير نظام الملك الذي قام بتشييدها سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م

وكانت جامعة بمعنى الكلمة .

ومن اشهر مدارس القاهرة الازهر وفي الشام شيد نورالدين زنكي بالمدرسة البادرائية . وفي شمال افريقيا انشئت مدرسة في جامع الزيتونة باجمدرسة البادرائية . وفي شمال افريقيا انشئت مدرسة في جامع الزيتونة كما انشئت في فاس بالمغرب مدرسة القزويين(١٦) .

وكانت هذه المدارس والجامعات مراكز اشعاع علمي وثقافي .

ولأجل ان تؤدي هذه المؤسسات العلمية مهمتها كان لابد من توفير المستلزمات الضرورية لها ، ومن هنا جاء الاهتمام بانشاء المكتبات وخزائن الكتب ودور الحكمة لكي يرجع اليها الاساتذة والطلبة للتزود بالمعلومات العلمية بعد ان ادركوا قيمة المكتبات وفوائدها وشدة الاحتياج اليها لذلك اعتبروها أساسا ترتكز عليه قواعد الثقافة وركنا تتوثق به دعائم الحضارة ومرجعا لاحكام الدنيا والدين .

ومع تقدم الحركة الفكرية امتلأت المكتبات بالمألوفات القيمة التي تتناول مختلف صنوف العلم والمعرفة وهكذا نشأت خزائن الكتب ودور الحكمة وانتشرت بطريقة لم تتعود عليها بقية الامم في ذلك التاريخ وبعده وتوزعت في الحواضر وكبريات المدن وتكاثرت فأصبحت تضم الالوف من المخطوطات تنافس في اقتنائها الخلفاء والامراء والاثرياء والادباء(١٧) . ويمكن ان نعتبر دور الحكمة مؤسسات علمية للثقافة العالمية أكثر كتبها في الحكمة والفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات وغيرها من الكتب العلمية(١٨) وسنشير تباعا الى هذه الدور أو الخزائن .

وكانت هذه الخزائن متنوعة الاغراض والوظائف منها الخاصة مثل مكتبة أو خزانة الجاحظ ، الذي كان له اهتمام باقتناء الكتب وجمعها

حتى صار له منها خزانة أدت الى موته ، فقد روى ان موته كان بوقوع مجلدات عليه · وكان عليلا فسقطت عليه وقتلته(١٩) ·

وهنـاك خزانة حنين بن اسـحاق الذي تجاوزت مؤلفاته المـائة والثلاثين مؤلفا ، وكانت خزانتـه حافلـة بتصانيف الاغريق والعـرب والاراميين وغيرهم قل وجودها في أية مكتبة(٢٠) ·

كما كان « لاسحاق الموصلي مكتبة فيها الف جزء من لغات العرب كلها سماعة »(٢١) ·

كما كان لدى الكندي خزانة يطلق عليها اسم الكندرية(٢٢) ·

والى جانب المكتبات الخاصة كانت هناك مكتبـات عامة كان الطـلاب وغيرهم يرتادون اليها للمطالعة والاستفادة مما تضم من أنواع المعـرفة وكان بعضها يقدم الورق وأدوات الكتابة للقـراء ، ومن خزائن الكتب المعروفة خزانة الانبار وخزانة الكتب بمدرسة الامام أبي حنيفة والخزانة الحيدرية في النجف ودار العلم بالموصل ونار العلم ببغداد ·

وهناك أنواع أخـرى من المكتبات يمكن ان نطلق عليهـا المكتبات الجامعية ، ومن اشهرها مكتبة « بيت الحكمة أو خزانة الحكمة » التي انشأها الخليفة العباسي الرشيد في بغـداد حوالي سنة ١٨٥هـ/٨٠١م وذاع صيتها في عهد الخليفة المأمون · وبيت الحكمة كانت مكتبة واسعة رتبت فيها الكتب ونضدت على رفوف خاصة بحسب لغتها وفرع العلم الذي تبحث فيه · وكانت أيضا الى جانب ذلك تضم فرقا خاصة للترجمة والنسخ وقد عين الخليفة هارون الرشيد في تلك المكتبة يوحنا بن ماسوية مترجما للكتب الطبية القديمة التي تم نقلهـا من انقـرة وعمورية وقـد توسعت خزانة الحكمة وصار بها عدة خزانات ونساخ ، وكان النساخ

يتسخون الكتب اما لقاء جراية معلومة من الخليفـة ، أو ينسخون على حساب العلماء والاغنياء لقاء أجر معلوم(٢٣) .

وعندما تولى المأمون الخـلافة وجـه همـه الى توسيع دوائر بيت الحكمة العلمية ، وجعل « سهل بن هارون » مشرفا على المكتبة لما كان من أهمية في نظر الدولة وزادت محتويات هذه المكتبة . وقال ابن نباته عند الكلام على سهل بن هارون وجعله كاتبا على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وجعل سهل بن هارون خازنا لها(٢٤) .

فكان بيت الحكمة يحـوي كل غـريب ونادر من الكتب في مختلف العلوم ، اذ كثيرا ما يضطر الراغبون في الحصول على كتاب من الكتب ان ينسخوه من بيت الحكمة لانفرادها بـه . فأصبح بيت الحكمة زمن المأمون معهـدا علميا بالمعنى الدقيق للكلمة فهي تحوي اماكن للدرس ، وأخرى لخزن الكتب واماكن للترجمة والتأليف الى جانب المرصد الفلكي والنشاط الفلكي(٢٥) .

كما اسس الاغالبة « بيت الحكمة » في القيروان لتسهيل نشر علوم الفلسفة والحكمة بين كافة الطبقات وسعى الاغالبة بجلب الكتب العلمية من العراق والشام ومصر(٢٦) .

اما دار الحكمة في طرابلس فقـد اسسها آل عمـار وهي من الاسر الكبيرة العلمية التي كانت بطرابلس الشام ، وكانت رعايتهم لها كبيرة جدا فكانوا يصرفون على الدار بسخاء فأضافوا اليها آلاف الكتب المختلفة من علمية وفلسفية وأدبية وفقهية وغير ذلك .

فشجعوا المؤلفين وانفقـوا على النساخين الذين كانوا ينسـخون

الكتب المختلفة فيها ، وتذكر الروايات التاريخية انه كان يعمل بها مائة وثمانون نساخا ينسخون لها الكتب بالجراية ، والنفقة عليهم جارية(٢٧) .

ويمكن ان نستدل على حجم هذه الدار من خلال الاعداد الهائلة من الكتب التي كانت تضمها ، ويقال انه كان بها عند أول تأسيسها مائة ألف كتاب(٢٨) .

ويبدو ان بيت الحكمة كان مجموعة خزائن كل مجموعة من الكتب خزانة وان سهل بن هارون كان مشرفا على القسم الذي احضرته بعثة القسطنطينية كذلك يغلب على الظن ان كتب الرشيد قد افردت في خزانة وكتب المأمون قد افردت في أخرى(٢٩) .

كما اسست دار حكمة أخرى في مدينة مراغة ، وتذكر الروايات التاريخية انه نقل اليها من بلاد العراق والجزيرة والشام من الكتب ما يربو على (٤٠٠٠٠٠) مجلد في شتى العلوم والمعارف(٣٠) .

ولابد ان ننوه هنا بدور الاوقاف في تأسيس المدارس والمكتبات ولدينا شواهد كثيرة تؤكد الخدمات الجليلة التي أدتها « مؤسسة الاوقاف » على الصعيدين العلمي والثقافي من تأسيس المدارس والمكتبات ووقف الكتب والمخطوطات عليها فقد ذكر الصابي انه في شهر رجب من سنة ٤٥٢هـ وقف غرس النعمة دار كتب بشارع ابن ابي عوف من غربي مدينة السلام ونقل اليها نحو الف كتاب » . ويذكر ابن الجوزي « ان غرس النعمة وقف فيها نحوا من أربعمائة مجلد في فنون العلوم ومما يذكر عن خزانة غرس النعمة هذه (مباءة للعلماء والدارسين ومكانا حسنا لمناظراتهم ومباحثاتهم ، وقد ذكر أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي المتوفى

سنة ٥١٣هـ/١١١٩م في كتـابه الموسوم « الفنون » حضرنا يوما بدار الكتـب بشـارع ابن ابي عـوف فتذاكرنا أمـر العـلم وتحسـينه وتقبيحه(٣١) .

على ان من اشـهر المكتبات في العصـر العباسي مكتبـة المدرسة المستنصرية وهي ذات قاعات واسعة للمطالعة مجهزة بما يساعد القراء على القراءة .

ويذكر المؤرخون ان أوقاف المدرسة المستنصرية من الكتب كانت كثيرة جدا فقد ذكر الذهبي في حوادث سنة ٦٣١هـ نقلا عن الساعي قال فيها « تكامل بناء المدرسة المستنصرية في بغداد ونقل اليها الكثير يوم افتتاحها من الربعـات الشريفات والكتب النفيسة المحتوية على العلـوم الدينية والادبية ما حمله مائة وستون حمالا وجعلت في خزانة الكتب سوى ما نقل اليها فيما بعد(٣٢) .

وجـاء في كتاب الحوادث الجامعة « ان هـذه الكتب رتبت أحسن ترتيب مفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها » وكانت بعضهـا بالخطوط المنسوبة الى اشهر الخطاطين العرب(٣٣) . وجـاء في عمـدة الطالب ان المستنصر « اودع خزانته في المستنصرية ٨٠ الف مجلدا »(٣٤) وجعلها على المذاهب الاربعة وانفق من المال ما يعجز عنه الحصر . ووقف عليها وقفا جليلا وقد وضع المستنصر لدار كتب المستنصرية شروطا منها ان تجعل الخزانة برسـم من يطالع ويستنسخ من الفقهـاء ورتب لهـم الورق والاقلام لمن يريد النسخ(٣٥) .

كما نظمت المكتبة حسب شرط الواقف فأصبح لها خازن ومشرف ومنـاول .

اما « دار الحكمة » فقد انشأها الفاطميون في مصر وكان الخلفاء يغذونها دائما بما يحصلون عليه من الكتب حتى ناف عدد مجلداتها على المليون ونصف مجلد(٣٦) ٠

وتذكر لنا الروايات التاريخية « انه حملت الى هذه المكتبة الكتب من خزائن القصور وحمل اليها من خزائن الحاكم من الكتب ما لم ير مثله مجتمعا لاحد الملوك أو الخلفاء قطا(٣٧) ٠

ويتحفنا المقريزي بصورة واضحة وغنية بالتفاصيل عن « دار الحكمة » اذ يقول كان البناء عظيما جدا اذ كانت عدد الخزائن برسم الكتب في سائر العلوم أربعين خزانة تتسع الواحدة منها لنحو ثمانية عشر الف كتاب وكانت الرفوف مفتوحة والكتب في متناول الجميع(٣٨) ٠ ثم ازدادت عدد الكتب حتى بلغ عددها مليون وستمائة الف مجلد ٠

ولابد ان ننوه هنا بدور مؤسسة الاوقاف في ميدان المكتبات فقد زودتنا حجج الوقفيات بمعلومات على جانب كبير من الاهمية تتعلق بفهرسة الكتب وتصنيفها وتنظيمها وطرق الاعارة وتسجيل الكتب والمحافظة عليها والعاملين فيها والشروط التي ينبغي ان تتوفر فيها وواجباتهم ٠

فقد حددت بعض الوقفيات مواصفات « خازن الكتب » أو « خازن الكتب والربعات الشريفة » حيث كان يشترط فيه ان يكون « ثقة خيرا أمينا يقظا ذكيا فطنا عاقلا مأمونا بالغا في الامانة والثقة ونزاهة النفس وقلة الطمع قادرا على القيام بخدمة الكتب عارفا بترتيبها »(٣٩) ٠ ليكون عونا للطلبة والباحثين في ارشادهم الى ما يحتاجون اليه من

وحرص الواقفون على ان يتولى هذه الوظيفة أحد العلماء أو الادباء

مراجع(٤٠) .

كما حددت بعض الوقفيات مهمة خازن الكتب وتبدأ هذه المهمة بأن يقـوم الناظر بتسليم الكتب الى أمين المكتبة ويشهد عليـه بتسلمها . ولغرض المحافظة على الكتب فقد حرص بعض الواقفين على ضرورة عزل « خازن الكتب » « ان بدا من الخازن المذكور تقصير أو خيانة في الكتب استبدل الناظر غيره »(٤١) .

كما تناولت بعض الوقفيات نظام الاطلاع والاستعارة فقد وضع الواقفون لها شروطا فكان بعضهم اذا وقف على مكتبة ابدى حرصه عليها فاشترط ان لا يخرج منها شيء خارج المدرسة .

كما امدتنا بذلك وثيقة وقف الابشادي على ان « لا يخرج شيئا من الاشياء عن الجامع الازهر برهن ولا بغيره ولا يعطي من ذلك شيئا لمن يعرف فيه التفريط »(٤٢) .

كما امدتنا وثيقة أخرى من العراق ما يشير الى مثل هذا الاجراء كما فعل سليمان باشا الجليلي عندما اوقف على المدرسة الامينية اربعمائة مجلد وهو خبر امدتنا به مخطوط الدر المكنون(٤٣) .

وبالاضافة الى ما تقدم فقد ورد خبرا آخر في احدى الوقفيات ما يلي « ومن طلب منه كتابا في علم من العلوم أو فن من الفنون يدفعه له لينتفع به في المدرسة ولا يمكنه من الخروج من المدرسة ولو دفع اليه شيئا يساوي اضعاف قيمته ، فاذا انتفع كل منهما بما طلبه في نسـخ هـذه أو مطالعـة فيه أو مقابلة عليه بالمدرسة رده الخازن الى الخزانة »(٤٤) .

اما الاعارة الخارجية فقد اختلفت بين المكتبات بعضها كانت الاعارة الخارجية متاحة فقد جاء على لسان صاحب معجم البلدان ما نصه « من

انه قضى بضع سنوات في مرو وكانت الكتب سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد واكثره بغير رهن(٤٥) .

ويروى عن أبو حيان الغرناطي قوله « اذا اردت كتابا استعرته من الاوقاف وقضيت حاجتي اذ انه لم يشتر كتابا واكدا »(٤٦) .

في حين وضع بعض الواقفين شروطا محددة للاعارة الخارجية ، فمثلا ابن خلدون اوقف نسخة من كتابه « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » على خزانة جامع القيروان وقد نص في وثيقة الاهداء والوقف انه لا يجوز اعارة الكتاب اعارة خارجية الا اذا كان المستعير شخصا ذا سمعة جيدة وأمينا وشريطة ان يدفع رهنا مناسبا وان يعيد الكتاب في مدة أقصاها شهران(٤٧) .

في حين ان بعض الوقفيات حددت مدة الاعارة بشهر واحد فقد جاء في وثيقة وقف جمال الدين الاستادار ما يشير الى ذلك « ومن حضر اليه من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاه المذكور لاستعارة شيء من الكتب المذكورة يشتغل فيه سلم اليه ان كان ثقة وان كان ممن يخشى منه منعه الا ان يضمنه نفر من أهل الخانقاة المذكورة ولا يعر شيئا من الكتب المستعارة بيد المستعير أكثر من شهر واحد في حين استعارته بل يأخذه منه عند مضي الشهر ولا يمكن أحد من اخراج شيء من الكتب لخارج الخانقاة المذكور واذا كان المستعير من غير أهل الخانقاة المذكورة سلم اليه ما يريد استعارته يطالع فيه نهارا بالخانقاه المذكورة فيه ثم يبيتها عند الخازن ثم يستعيرها منه نهارا »(٤٨) .

وبالاضافة الى ما تقدم فقد الزمت تعليمات بعض الواقفين ان يقوم الخازن بكتابه أسماء من يطلب منه كراسا ويأخذ منه ، ثم اذا اعاده

مسح أسمه »(٤٩)٠

وقد امتدت العناية بالمكتبات لتشمل نظافة المكتبه وكتبها فقد جاء بوثيقة ازبك ان يقوم أمين الكتب « احراز الكتب المذكورة بالخزانة ونفضها من الغبار وتعهدها على العادة »(٥٠) ٠

أو كما جاء في وثيقة وقف السلطان فرج « حفظها ونفضها ، ويتفقد أحوالها بالاصلاح ووضعها بمواضعها بالخزانة المرصدة لها »(٥١) ٠

ونجد مثل هذا النظام متبعا في مدارس الموصل ، فعندما انشأ الحاج حسن باشا الجليلي وزوجته فردوس خاتون مدرسة بالموصل اوقف عليها من كتبه تحوى مخطوطات متنوعة تبحث في مختلف العلوم والادب وجلب لها أول الكتب المطبوعة من الاستانة ، وقد جاءت الوقفية محتوية على شروط كان الواقفان قد اشترط ضرورة الالتزام بها مما يدل على ان الواقفين قد تنبها الى بعض المظاهر السلبية التي كانت في المكتبات الاخرى كتراكم الاتربة فوق الكتب دون ان تمد يد لتنظيفها فوضعا شرطا في ان يقوم « خازن الكتب بمسح الكتب كل ثلاثة أشهر مرة فضلا عن قيامه بكنس المكتبة »(٥٢) ٠

وورد الينا ما يعبر عن حرص الخلفاء والواقفين في المحافظة على التراث العلمي والثقافي عندما استخدموا ختما خاصا بالكتب ، فقد ذكر ابن أبي اصيبعة ان « المأمون كان له ختم خاص يوضع على أغلفة الكتب »(٥٣) وكذلك الامر بالنسبة للواقفين فقد اتخذ بعضهم ختما خاصا بالوقف يمنع ان تمتد اليه يد عابثة تحوزه الى نفسها وقد كان في نفوس الناس رهبة لكل أنواع الوقفيات فلا يتجرأ انسان ولا تسول له نفسه ان يمد يده بسوء الى أي نوع من أنواع الوقف حتى ان المعتقد

السائد بين الطبقات ان احتوى بين ما له شيئا يعود الى الوقف كان يحكم على ما له بالحرام والاثم ·

وعلى الرغم من الوازع الديني فقد جرت محاولات الا انهـا قليله للعبث بالكتب والمخطوطات الموقوفة فقد نقل الصابي عن صاحب كتاب « الفنون ·· حادثه حصلت في خزانة غرس النعمة جاء فيها « ورتب بها خازنا يقال له ابن الاقساسي العلوي وتكرر العلماء اليها سنين كثيرة ما لم تزل له اجرة ، فصرف الخازن وحك ذكر الوقف من الكتب وباعها فانكرت ذلك عليه فقال قـد استغني عنهـا بدار الكتب النظامية قـال المصنف فقلت بيع الكتب بعد وقتها محفوظة فقـال قـد صـرفت ثمنها في الصدقات »(٥٤) ·

كما حرص القوم على المحافظة على الكتب من التمزق لذا عمدوا الى تجليدها فرصدوا الاموال الطائلة للغرض المذكور ويذكر ابن النديم « ان ابن ابي الحريش كان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون »(٥٥) ·

كما رصد الواقفون مبالغ على تجليد المصاحف بالجامع الازهر وهي رزقة مقدارها عشرة أفدنة بأراضي ناحية المنصورية(٥٦) ·

ومن الابتكارات التي تنسـب الى البغـداديين في ميـدان الـكتب والمكتبـات هـو ما توصل اليه الآمدي الذي كان اسـتاذا في المدرسـة المستنصرية ، بما يعرف بالكتابة البارزة · اما قصة استنباطها فهي انه كان يحرز كتبا كثيرة اذا طلب منه كتاب وكان يعلم انه عنده نهض الى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته وان كان الكتاب عـدة مجلدات وطلب منـه الاول مثلا أو الثاني أو الثالث أو غير ذلك اخرجه بعينه وأتى به وكان يمس الكتاب أولا ثم يقول يشمل هذا الكتاب

على كذا وكذا كراسة فيكون الامر كما قال واذا امر يده على الصفحة قال عدد أسطر هذه الصفحة كذا وكذا سطرا وفيها القلم الغليظ كذا وهذا الموضوع كتب به في الوجهة – اي في الجانب – وفيها بالحمرة هذا وهذه المواضيع كتبت فيها بالحمرة وان اتفق انها كتبت بخطين أو ثلاثة قال اختلف الخط من هذا الى هنا من غير اخلال بشيء مما يمتحن به » ·

ويعرف أثمان جميع الكتب التي اقتناها بالشراء وذلك انه كان اذا اشترى كتابا بشيء معلوم اخذ قطعة ولـق خفيفة وفتل منها فتيلـة لطيفة وضعها حرفا أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الحروف ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبد فاذا شذ عن ذهنه ثمن كتاب ما من كتبه حس الموضع الذي علمه في ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه من تنبيت العدد الملصق فيه »(٥٧) ·

وهكذا يؤكد العرب والعراقيون بوجـه خاص قدرتهم على الابتكار والابداع وان ما يقال عن الذي ابتدع الكتابة البارزة للعميان رجل فرنسي اسمه برايل عام ١٨٢٩ هو ادعاء بعيد عن الحقيقة والواقع ·

وكثيرا ما كانت الدراسة تقام في المكتبات نفسها ، وقد امدتنا بعض المخطوطات المصورة بنماذج من هذه المكتبات ويعرض لنا الواسطي مثالا لمكتبة تضم استاذا مع تلاميذه وقد جلس الاستاذ بينهم وكأنه واحد منهم وراح يقرأ ويشرح لهم ما في الكتاب والتلاميذ يصغون الى استاذهم والى قوله · وقد ظهرت خلف الجميع مكتبة واجهتها مفتوحة ومقسمة الى عدد من المربعـات صف فيهـا مجموعة من الكتب بعضها فوق بعض بطريقة افقية (شكل ١) ·

وفي تصويرة أخرى من نفس المخطوط نموذج آخر من المكتبات في

العصر العباسي ، حيث تعرض التصويرة المذكورة مشهدا يمثل درسا لاستاذ يشرح لتلاميذه ويمسك كل واحد منهم نتابه المفتوح وتستقر خلف صورة الاستاذ وتلاميذه مكتبة منفذة في هيئة دولاب خائطي له طرفان مغلقان وبقي الجزء الاوسط من المكتبة مكشوفا صفت فيه من الاسفل مجموعة من الكتب بطريقة قائمة ورأسية تبدو فيها كعوبها بينما صفت الكتب العليا بطريقة عرضية بعضها فوق بعض(٥٨) (شكل ٢) ٠

وفي المتحف البريطاني بلندن تصويرة من مخطوط مقامات الحريري يرجح انها من بغداد يعود تاريخها الى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م تضم مكتبة واجهتها مفتوحة مؤلفة من صفين من الرفوف ومقسمة عموديا الى عدة أقسام صنفت في كل قسم فيها مجموعة من الكتب بعضها فوق بعض بطريقة افقية بينما جلس أسفل المكتبة مجموعة من الاشخاص ويمسك معظمهم كتبا تبدو عليها اثار كتابة بينما نرى أحدهم وقد مد يده اليمنى الى كتاب زميله المفتوح كأنه يطلب شيئا أو يستفسر عن شيء (شكل ٣) ٠

والصور المتقدمة تؤكد بان المدارس العربية كانت تضم مكتبات تحفظ فيها الكتب التي يمكن ان يرجع اليها الاستاذ أو الطالب عند الحاجة وفي متناول أيديهم ٠

ومثل هذا التقليد في استخدام المكتبة لدراسة معمولا به في معظم الجامعات الاوربية في الوقت الحاضر حيث تقام حلقات الدرس والبحث فيها والتي تقتصر على مجموعة قليلة من الطلبة وخاصة طلبة الماجستير والدكتوراه ٠

هذه لمحة بسيطة عن المكتبات في التراث العربي الاسلامي والدور الرائد الذي قدمته عبر مرحلة مزدهرة من عصورنا الذهبية حيث كان

العالم العربي مركز اشعاع لجميع العالم • ان هذه النماذج تمثل قدرة الامة التي استطاعت ان تحقق لها منهجا علميا وتضع نظاما جامعيا في كيفية التعليم وتهيء للمتعلمين الوسائل الكفيلة باستمرار تعلمهم لتدفعهم الى أخذ العلم والتزود به • وقد استطاعت من خلال ذلك ان تؤكد وجودها الحضاري والثقافي في وقت كان فيه العالم بعيدا عن العلم والثقافة •

ان هذه الامة قادرة الآن على ان تستمر فيما بدأت به اسلوبا ومنهجا لتأخذ دورها في البناء الحضاري وتؤكد أصالتها في التعليم والتعلم ونرجو ان تتاح لنا الفرصة في بحث لاحق نناقش فيه جوانب أخرى من التعليم من تراثنا العلمي العربي •

الهوامش :

١ ــ قرآن كريم ، سورة العلق ١ـ٤ •

٢ ــ قرآن كريم ، سورة القلم الآية ١ •

٣ ــ قرآن كريم : سورة الزمر ٩ •

٤ ــ انظر الترغيب والترهيب للمنذري (دار احياء التراث العربي) ج١ ص٩٤ وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ج١ ص٤٣ •

٥ ــ ابن عابدين ، رد المختار ج٣ ص٣٨٧ •

٦ ــ الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، احياء علوم الدين ، مطبعة أحمد البابي (القاهرة ١٢٩٦هـ) ص٥ •

٧ ــ العسكري ، أبو هلال • كتاب التخليص في معرفة أسماء الاشياء • تحقيق د• عزة حسن (دمشق ١٣٨٩) مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ج٢ ص٧٠٥ • وانظر ابن منظور ، جمال‌الدين محمد بن بكر • لسان العرب مادة « كتب » •

٨ ــ ابن منظور ، المصدر السابق مادة « كتب » ٠
٩ ــ العبيدي ، صلاح ، التعليم ووسائله في الآثار العربية الاسلامية مجلة كلية الآداب ــ جمعة بغداد ٠ العدد (٢٧) نيسان ١٩٧٩ ٠ ص ٤ ٠
١٠ــ الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الامم والملوك ٦/٤٩٦ ٠
١١ــ علي ، كرد ، خطط الشام (دمشق ١٣٢٣) ج٦ ص١٨٤ ٠
١٢ــ البخاري ، كتاب العلم ٠
١٣ــ أحمد ، أمين ، ضحى الاسلام ٠ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م) ج٢ ص٦١ ٠
١٤ــ هونكة ٠ سيجريد ٠ فضل العرب على اوربا (شمس الله على الغرب ترجمه وحققه وعلق عليه الدكتور فؤاد حسنين (دار النهضة بالقاهرة) ص٢٨٠ ــ ٢٨٢ ٠
١٥ــ أمين ، أحمد ، المصدر السابق ج٢ ص٦١ ٠
١٦ــ العبيدي ، صلاح ، المصدر السابق ص٦ ٠
١٧ــ فتوحي ، ميري ، مكتبات العراق ٠ الموسوعة الصغيرة (١٧٢) نشر وزارة الثقافة والاعلام في الجمهورية العراقية ص٦١ــ٦٢ ٠
١٨ــ ديوهجي ، سعيد ، بيت الحكمة ص٧ ٠
١٩ــ عواد ، كوركيس ، خزائن الكتب القديمة في العراق (بغداد ١٩٤٨) ص٢٠ ٠
٢٠ــ ابن النديم ، محمد بن اسحق (مصر ١٣٤٨) الفهرست ص٢٩٤ ٠
٢١ــ ابن خلكان ، وفيات الاعيان (مصر ١٣٦٧) ١/٩٢ ٠
٢٢ــ ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين أبو العباس ، عيون الابناء في طبقات

الاطباء شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا (منشورات مكتبة الحياة (بيروت ١٩٦٥) ١/٢٠٧ .
٢٣- الرفاعي ، انور ، تاريخ العلوم في الاسلام . دار الفكر ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ص٥١ .
٢٤- ابن بناته ، سرح العيون ص١٣٢ .
٢٥- فتوحي ، ميري ، المصدر السابق ص٧٧ .
٢٦- ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٦٤ .
٢٧- ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٦٦ .
٢٨- ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٦٧ .
٢٩- أمين ، أحمد ، المصدر السابق ج٢ ص٦٣ .
٣٠- ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٣٧ .
٣١- الصابي ، أبو الحسين هلال بن المحسن ، رسوم دار الخلافة عني بتحقيقه والتعليق عليه ونشره ميخائيل عواد ص٢٤ .
٣٢- ابن الفوطي ، أبي الفضل عبدالرزاق بن الفوطي البغدادي ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة عنيت بطبعه المكتبة العربية ببغداد ، مطبعة الفرات بغداد (١٣٥١هـ) ص٥٤ .
٣٣- ابن الفوطي ، المصدر السابق ص٥٤ .
٣٤- بن عنبة ، عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب (بومبي ١٣٨١هـ) ص١٨٢ .
٣٥- معروف ، ناجي ، تاريخ علماء المستنصرية ج٢ ص٢٣٣ .
٣٦- الرفاعي ، أنور ، المصدر السابق ص٥٢ .
٣٧- الرفاعي ، أنور ، المصدر السابق ص٥٢ .

٣٨ـ ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٥٠ / الرفاعي ، انور ، المصدر السابق ص٥٣ ٠

٣٩ـ محمد أمين محمد ، الاوقاف ونظام التعليم في العصور الوسطى ، ندوة مؤسسه الاوقاف في العالم العربي الاسلامي ٠ منشورات المنظمة العربية للتربية الثقافه والعلوم (معهد البحوث والدراسات العربية بغداد) ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م ص١٦٤ ٠

٤٠ـ محمد امين ، المصدر السابق ص١٦٤ـ١٦٥ ٠

٤١ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٦ـ١٦٧ ٠

٤٢ـ وثيقة وقف الابشاري رقم ٢٧٨ محفظة ٣٤ بالمحكمه سطر ٨٩ ، ٩٠ ٠ وانظر محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٥ ٠

٤٣ـ العمري ، ياسين ، الدار المكنون في المآثر الماضية من القرون ص١٠٦ وانظر العبيدي ، صلاح ، مؤسسة الاوقاف ودورها في الحفاظ على الاثار الاسلامية والمخطوطات ندوة مؤسسة الاوقاف في العالم العربي الاسلامي ص١٨٧ ٠

٤٤ـ محمد أمين ، محمد ، المصدر السابق ص١٦٦ ٠

٤٥ـ الحموي ، ياقوت معجم البلدان ج١ ص٣٥ـ٣٦ ٠

٤٦ـ أحمد ، شلبي ، الفكر الاسلامي منابعة وآثاره ٠ القاهرة مكتبة الانجلو المصرية (١٩٦٢) ص١٣٦ ، وانظر ، فتوحي ، ميري ، مكتبات العراق ص١٠٦ ٠

٤٧ـ فتوحي ، ميري ، المصدر السابق ص١٠٧ ٠

٤٨ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٦ ٠

٤٩ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٦ ٠

٥٠ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٥ ٠

٥١ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٥ .

٥٢ـ العبيدي ، صلاح ، مؤسسة الاوقاف ودورها في الحفاظ على الاثار الاسلامية والمخطوطات ، مؤسسة الاوقاف ص١٨٦ .

٥٣ـ ماهر ، حمادة ، المكتبات ص ٦٤ .

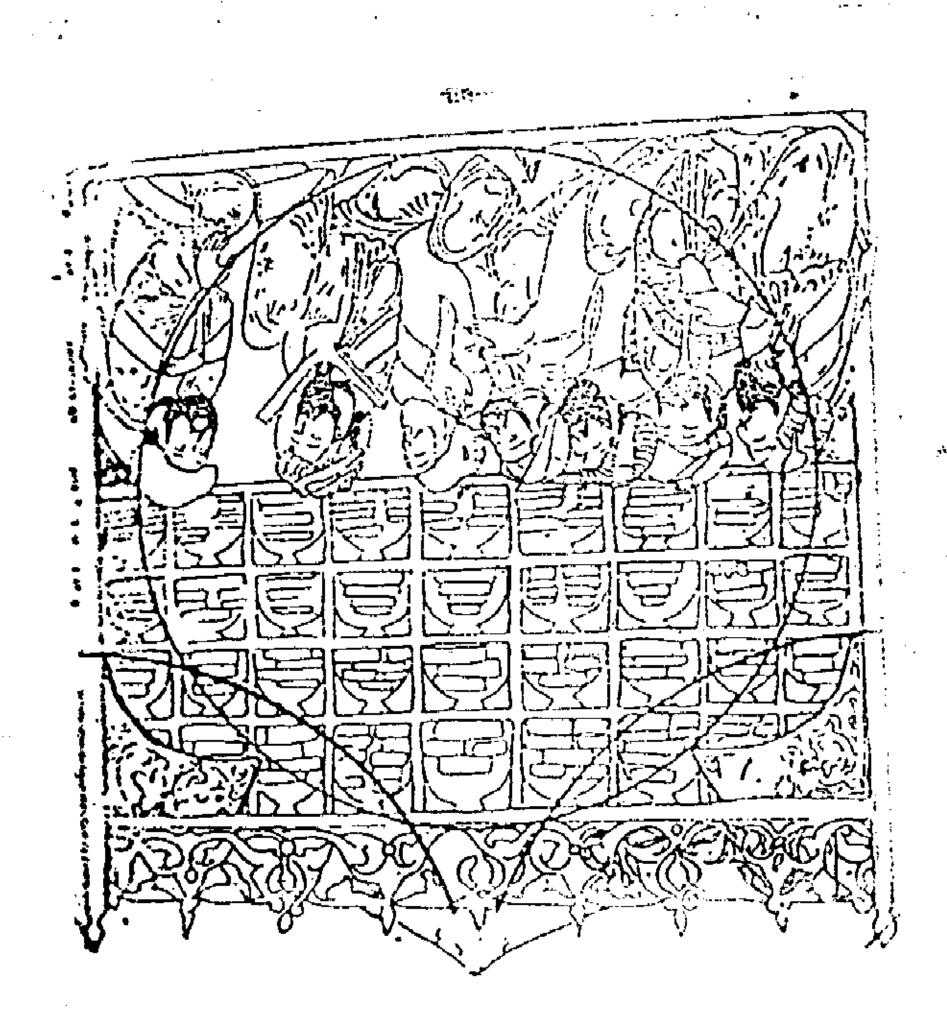
٥٤ـ الصابي ، رسوم دار الخلافة ص٢٤ـ٢٥ .

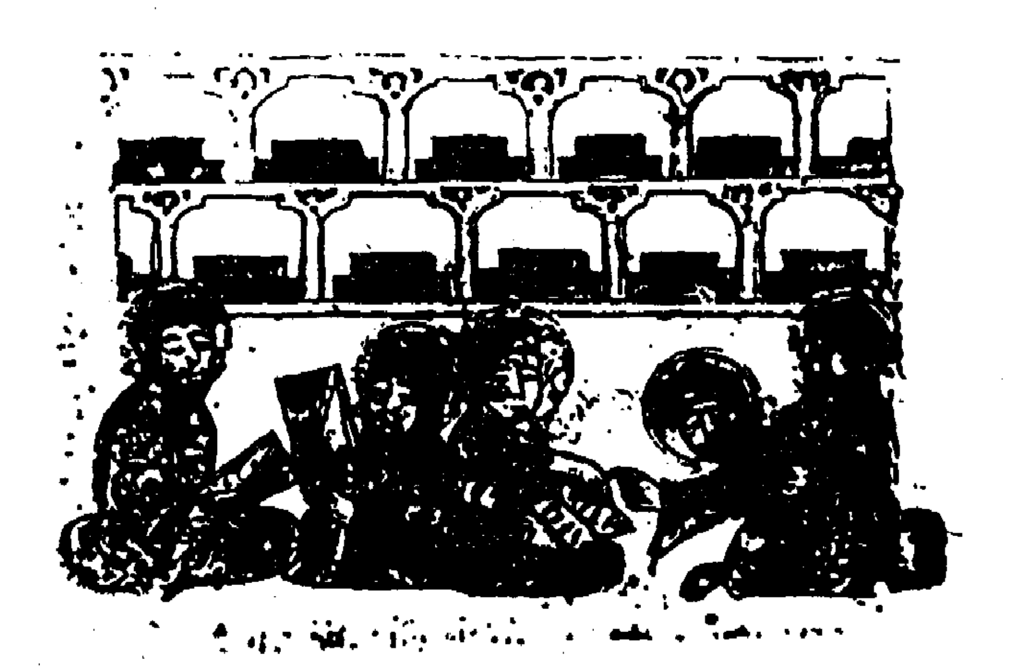
٥٥ـ ابن النديم ، الفهرست ص٤٩ .

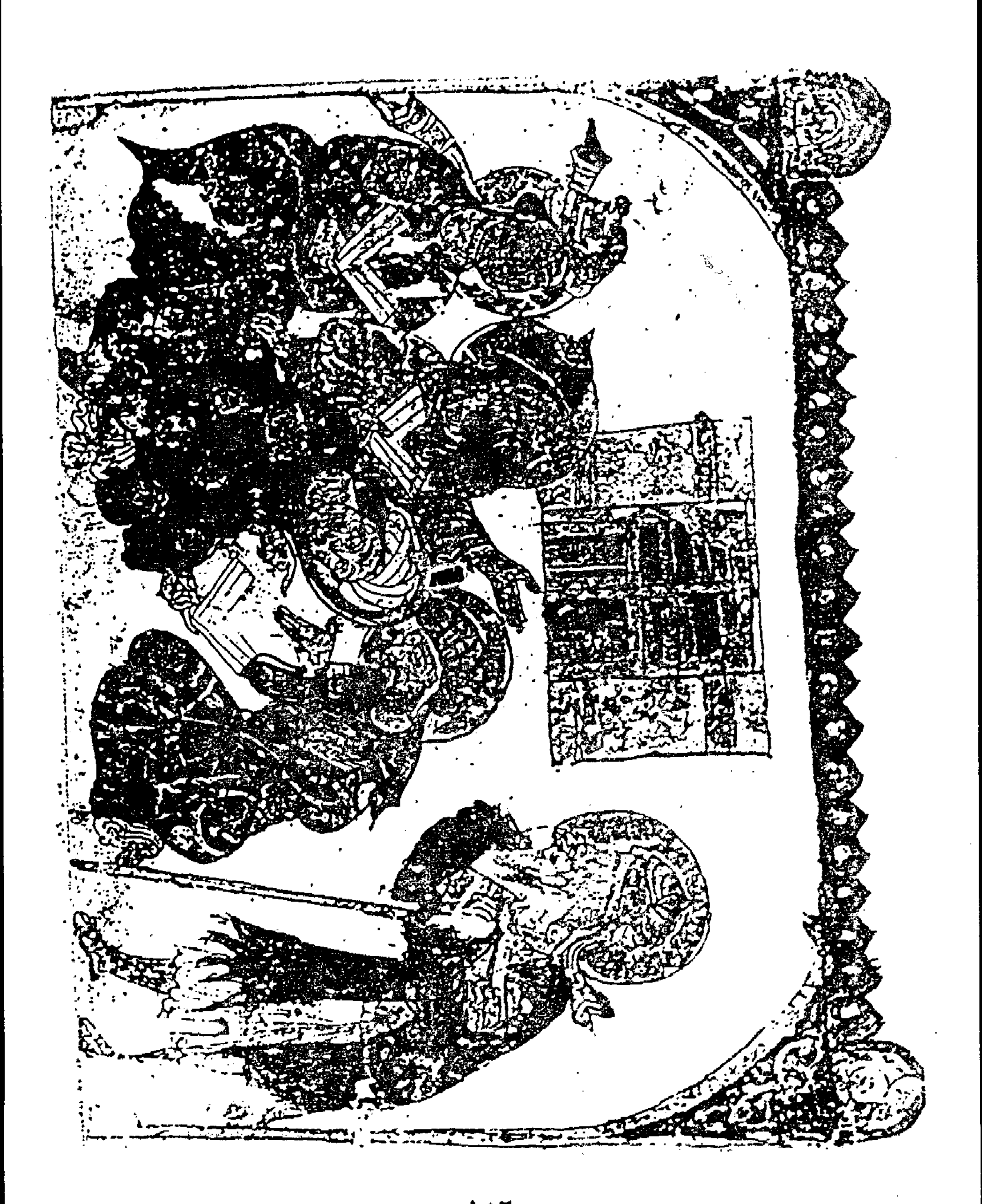
٥٦ـ رمضان محمد مصطفى ، دورة الاوقاف في دعم الازهر كمؤسسة علمية اسلامية ، ندوة مؤسسة الاوقاف ص١٢٧ .

٥٧ـ الصفدي ، صلاح الدين ، نكت الهيمان في نكت العميان . تحقيق أحمد زكي . مصر . المطبعة الجمالية ١٣٢٩هـ/١٩١١م ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ .

٥٨ـ العبيدي ، صلاح ، المصدر السابق ص١١ .







وثائق عثمانية غير منشورة
عن المقاومة العربية في النجف
أواسط القرن التاسع عشر

د. مهـدي جواد حبيب البستاني
كلية الفقه / جامعة الكوفة

حكم الاتراك العثمانيون العراق قرابة أربعة قرون (١٥٣٤ـ١٩١٧) وقسموه من الناحية الادارية الى ثلاث ولايات ، هي : بغداد ، البصرة ، الموصل . وكانت ولاية بغداد تعد الولاية الرئيسة التي غالبا ما تلحق بهـا كل من ولايتي البصـرة أو الموصل مع لواء (سنجق) شهرزور ، ويتحكم في تقرير ذلك مدى قـوة والي بغداد ونفاذ شخصيته ، وحجم الدور المطلوب منه تنفيذه ضمن سياق السياسة المركزية للدولة العثمانية كما كانت مقرا للجيش العثماني المرابط بالعراق (الفيلق السادس) . وكـان والي بغـداد يتولى – أحيـانا ـ قيـادة هـذا الجيش زيادة على مسؤولياته المدنية ، ويساعده في تصريف شؤون الولاية نائبه الذي يطلق عليه اسم « كتخدا » ، ومـدير المـال « دفتـردار » ، والقاضي ، ومـدير الخزينة « خزنهدار » ، ومجلس الولاية الذي يضم كبار موظفي الولاية المذكورين آنفا ، ووجهاء واعيان بغداد .

وبالرغم من وجود مجلس الولاية ، الذي تأسس لاول مرة في ولاية

علي رضا باشا اللاز (١٨٣١ ـ ١٨٤٢) سنة ١٨٤١ ، فان الوالي كان يمارس سلطات وصلاحيات غير محدودة ، كما ان الجهاز الاداري لم يكن يتمتع بالكفاية والنزاهة بصفة عامة ، لذا فان علاقة السلطة ورموزها بأبناء المجتمع كانت تتسم بالفتور والتوتر وعدم الثقة ، فبحكم كون غالبية الجهاز الاداري من العنصر التركي فقد كانت مشاعرهم ازاء مواطني الولاية لا تتسم بالعمق والصميمية ، بل على العكس من ذلك كانوا يظهرون التعالي عليهم ، والازدراء بهم ، ويعاملونهم بخشونة وجفاء ، زيادة على ان اهتمامات الادارة العثمانية في العراق كانت موجهة نحو تأمين طاعة المواطنين للسلطة ، استيفاء الضرائب ، والخدمة في الجيوش العثمانية فحسب ، من غير مراعاة ظروف أبناء البلاد وتأمين حاجاتهم وحقوقهم الطبيعية في الحياة •

اما مستوى الخدمات العامة الذي كانت تقدمه ادارة الولاية فقد كان متدنيا وبائسا ، ان لم يكن معدوما في جوانب معينة من الحياة الاجتماعية كالخدمات البلدية والصحية والثقافية • وازاء سياسة القهر والكبت والحرمان التي انتهجتها الادارة العثمانية مع الاهالي تعالت صيحات المقاومة العربية واندلعت الانتفاضات في أماكن متعددة من ولاية بغداد ، لاسيما في الفرات الاوسط الذي تميز بكثافته الفلاحية وروابطه العشائرية المتينة ، وطبيعة أرضه الملائمة لحرب العصابات • ومما ساعد على استمرار ديمومة اندلاع هذه الانتفاضات الدور النشط الذي لعبه المتنورون والمفكرون العرب من رجال الدين في بغداد والنجف والحلة والموصل وغيرها • وقد ظهرت روح المقاومة والتحدي واضحة في النتاجات الفكرية والادبية لعلماء وأدباء هذه الفترة ، وبرزت اتجاهات ومواقف قومية

تعبيرا عن الهوية العربية تمثلت في الاهتمام بالدراسات اللغوية والدينية والثقافية(١) •

ومن الجدير بالذكر ان حركة التنظيمات (١٨٣٩ - ١٨٥٦) والحركة الدستورية (١٨٧٦ - ١٩٠٨) التي شهدتها الدولة العثمانية لم تحدث تغييرات عميقة في جوانب الحياة السياسية والادارية والاقتصادية في ولاية بغداد ، لذا لم تحدث تبعا لذلك تغييرات وتطورات بارزة في الجوانب الاجتماعية من حياة الناس ، وذلك بسبب عدم جذرية وشمولية هذه الحركات في الاساس ، وعدم توافر النوايا الجدية في تطبيق الانظمة والقوانين الجديدة • وتستثنى من هذا السياق فترة ولاية مدحة باشا (١٨٦٩ - ١٨٧٢) وما جرى فيها من اصلاحات وتغييرات عديدة وما تركته من آثار ملحوظة في حياة الناس الاجتماعية •

لقد عاش العراق - في القرن التاسع عشر خصوصا - أحداثا جساما ، وتعرض الى تحديات خطيرة ، كان من أهمها واخطرها على مستقبله السياسي والاجتماعي اشتداد الهجمة الايرانية التوسعية عليه وتمكن النظام الايراني من اقتطاع عبادان والمحمرة وأجزاء عزيزة أخرى من الارض العربية والحاقها بدولة الفرس ، مستفيدا من ضعف الدولة العثمانية وعدم مقدرتها العسكرية على المحافظة على املاكها ، ومن تاييد روسيا وانكلترة له في سياسته العدوانية التوسعية باتجاه الحدود الشرقية للوطن العربي • وكذلك تزايد النفوذ البريطاني في شؤون العراق الداخلية ونجاح قناصل بريطانيا ببغداد ووكلائهم في البصرة والموصل في ايجاد مصالح متنوعة لدولتهم في بعض مفاصله المهمة (سراي الوالي ، النقل والتجارة ، التنقيب عن الآثار والمعادن ، البريد والتلغراف ، شؤون

العشـائر ، بعض المشاريع الزراعية والصناعية ٠٠ الخ) ، زيادة على تعرض العراق للهجمات الوهابية وعجز الادارة العثمانية عن صدها(٢) ٠

وكان لهذه الاحداث والتحديات مع استمرار الهيمنة العثمانية على العراق وركونها الى معالجة مشاكلها بالقوة الغاشمة الاثر البالغ في ايقاظ همة العراقيين وبلورة مشاعرهم وأحاسيسهم الوطنية والقومية ، وقد تبدى ذلك في حملهم السلاح وتصديهم المتواصل طـوال القـرن المذكور للهيمنة الاجنبية ، فقـد شهدت جميـع ساحات العراق ومدنه وسـهوله وبواديه وجبـاله معـارك عنيفـة من أجـل كـرامة العراقيين وعزتهـم واستقلالهم ، لذا فأن الكشف عن نضال مدينة أو منطقة من مدن ومناطق العراق هـو كشف للهوية العراقية الثائرة ، وتعبير عن ارادة الصمود والتحدي والتواصل الحضاري لابنـاء العراق على مر العصور ، وتعبير عن وحدة النضال والمصير العربي في أرجاء الوطن العربي الكبير ٠

والنجف الاشرف احدى قصبات ولاية بغداد ، كانت مدينة مفتوحة بوجه العناصر والقوميات الاسلامية كافة ، حيث يؤمها ، ويشد الرحال اليها طلاب العلم ورواد المعرفة من أقصى أنحاء البلاد العربية والاسلامية دون انقطاع منـذ مارست دورها الاصيل قبل ما ينيف على الالف عام كمدرسة عربية الروح والهوية ، اسلامية الفكر والتوجه للشريعة والعلوم الاسلامية ٠ وبحكم توافـد طلاب العلـم والزوار الى هـذه المدينة التي تحتضن رفاة الرمز الخالد حيـدرة الـكرار ، فقد تعايشت ، وتفاعلت في بيئتها مختلف القوميات والثقافات الاسلامية ، ممثلة بنخبة من أبنائها العلماء ، وطلابهم الذين وفدوا الى النجف ، ومعهم عادات وتقاليد ومعارف وفنون وأخلاق شعوبهم ٠ وكما نهلوا من علوم النجف وآدابها وفنونها

وفلسفتها ومثلها وأخلاقها ، فانهم في الوقت ذاته تركوا في النجف بعض ما يحملون من علم وادب ، وفلسفه وسلوك ، وأخلاق وتقاليد المجتمعات التي انحدروا عنها . وبذلك اصبحت هذه المدينه التاريخيه احدى أنشط مراكز الاختلاط والتفاعل الحضاري في العالم الاسلامي(١) .

والنجف التي تعد الوارث الشرعي لحيرة المناذره ودولة العرب والمسلمين ، اضافت الى ما ورثته من الحيرة والكوفه الشيء الكثير في جوانب الحياة العلمية والادبيه والفلسفية والاجتماعيه . وتركت الظروف القاسية التي مرت عليها ، كالازمات الاقتصادية ، وشحه مياه الشرب ، وتعرضها للغارات والغزو والمنازعات المحليـة ، بصماتها الواضحه في البيئه النجفيه ، مما جعلت أهالي النجف يتميزون باليقظه ، والتحفز ، والمحن ، دون ان يتناوبهم اليأس أو يجد الاحباط الى نفوسهم سبيلا . ولذا عاش الفرد النجفي في مدينته معتزا بعراقيته وعروبته ودينه ، ثابتا ..م التحديات والتيارات الدخيلة ، متمعنا بقيم ومثل الاباء والاجداد ، فلا الفرس استطاعوا طمس معالم شخصيته ، واستلاب ولائه ، وتزوير وعيه ، ولا الاتراك والبريطانيون نجحوا في اخضاعه لهيمنتهم وسطوتهم.

ومن الجدير بالذكر ان النجف ، بحكم وقوعها على حافات البادية ، ونظرا لمكانتها الدينية والعلمية ، كانت قد تعرضت الى غارات القبائل البدوية ، وغزو القوى الدخيلة والطامعة بأرض العراق عموما ، لاسيما بعد سقوط بغداد على أيدي المغول في القرن الثالث عشر الميلادي . وقد دفعت هذه الحال أهالي النجف – على اختلاف طبقاتهم وأصنافهم – الى الاستعداد بكل ما لديهم من قوة لمواجهة التحديات ، وحماية أنفسهم ومدينتهم ومقدساتهم من دنس الغزاة والطامعين . ولم يقف الامر عند

حدود النجف البلدة بل امتد بحكم المصير المشترك والروابط الوطنيه والقومية الى المدن المجاورة لها ، مثل : كربلاء والحلة والقصبات الاخرى .

فقد حث النجفيون أهالي المدن والقصبات المذكورة وما يرتبط بها من قرى وأرياف على الاتحاد وحمل السلاح ، وتنظيم الفرق القتالية دفاعا عن أنفسهم وأعراضهم وممتلكاتهم ، ومدوا لهم يد العون والمساعدة والمشورة ، وحصلت النجف بالمقابل على مساعدتهم ودعمهم ، كما نجحت في كسب تأييد ونجدة العشائر العربية الساكنة في القرى والنواحي المجاورة لها(٤) .

وفي الفترة الزمنية التي خضع فيها العراق للحكم العثماني (١٥٣٤ـ ١٩١٧) حدث فراغ اداري وسياسي في النجف نجم عن ضعف الادارة التركية في بغداد ، وعجزها عن تأمين النظام والاستقرار ، خصوصا في الاماكن البعيدة نسبيا عن المركز كالنجف وكربلاء . وكانت المدن المقدسة تعتبر حرما آمنا يعصم الناس من الاذى والملاحقة ، ويجعلهم في منأى عن طائلة العقاب ، حتى أصبحت ملاذاً لبعض الشقاة والخارجين على النظام، نملجأ للعصاة والهاربين من وجه الحكومة . وكان نفوذ والي بغداد ضعيفا ، ويكاد يكون معدوما في هاتين المدينتين بسبب احترامهم لهما ، وعدم رغبتهم في التدخل بشؤونهما ، الامر الذي أدى الى ان تمارس هاتين المدينتين نوعا من الحكم الذاتي(٥) . فاستمرت النجف تعتمد على سواعد ابنائها في مواجهة الغارات والغزوات والتصدي لها ، مما أدى الى بروز نخبة طليعية من الرجال وعلماء الدين أخذوا على عاتقهم مسؤولية الزعامة السياسية والادارية بالاضافة الى الزعامة الدينية . وكان من

أبرز هذه النخبة الشيخ جعفر خضر الجناجي(٦) صاحب كتاب « كشف الغطاء » . وقد ساند الشيخ المذكور والتف حوله رهط كبير من رجالات النجف ، وخصوصا المشتغلين منهم بالعلوم الدينية ، كالمشايخ : حسين نجف ، وخضر شلال ، ومهدي ملا كتاب ، والسيد جواد صاحب كتاب « مفتاح الكرامة » .

وقام هؤلاء بجمع الاموال ، وشراء السلاح ، وتدريب الشباب والرجال القادرين على حمل السلاح من طلبة العلوم الدينية وغيرهم(٧) ، ورتبوا العيون ونظموا الخفارات ومراكز الحراسة في داخل النجف وخارجها(٨) ، وبذلك امتلكت هذه المدينة المقدسة المقدرة الذاتية على صد الهجمات وردع الغزاة والمغيرين ، وشهدت أزقتها وشوارعها ومحلاتها اولى تجارب « المليشيات » الشعبية المسلحة - وتجلت تلك القدرة الذاتية في نجاح النجفيين في تأمين وسائل وادارة الدفاع عن مدينتهم بوجه الغارات الوهابية المتكررة التي حدثت في سنوات ١٢١٤ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٥هـ/١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، ١٨٠٢ ، ١٨٠٦ ، ١٨١٠م . اذ من المعروف ان القوات الوهابية ، بعد احكام سيطرتها على أغلب جهات الجزيرة العربية (قامت بشن الغارات على أطراف العراق بقصد السيطرة على منطقة غربي الفرات ، تمهيدا الى الامتداد نحو العراق بأسره ، فاستهدفت النجف وكربلاء في المقدمة ، لوقوعهما بمحاذاة الصحراء النجدية ، ولاهميتها السوقية والتعبوية في أطار الصراع الدائر بين الوهابيين وحلفائهم من العشائر العربية ، وبين القوى الدولية ذات المصالح الحيوية في العراق ، ومنطقة الخليج العربي ، وشبه الجزيرة العربية ، مما كالدولة العثمانية ، وايران وبريطانيا .

وفي سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م تعاظم خطر الوهابيين على النجف ، وظهر للعيان عجز الحكومة العثمانية في بغداد ، وعدم مقدرتها ، ليس على تأمين الحماية اللازمة لحدودها الشرقية فحسب ، وانما امتد ذلك العجز الى حدودها الجنوبية والغربية معا ، لذا ادرك اهالي النجف ان الوهابيين لا ينوون تركهم وشأنهم ، فاتخذوا التدابير والاجراءات الادارية والعسكرية اللازمة للمواجهة والتصدي ، وبادروا الى نقل خزانة المرقد العلوي الشريف الى بغداد تحسبا من أن تنالها ايدي المغيرين التي سبقت ان امتدت الى خزانة الحرم النبوي الشريف ، ثم باشروا بترميم سور البلد ، وأقاموا عليه الاستحكامات والتحصينات والربايا ، وبثوا الفرق الاستطلاعية والاستكشافية باتجاه البادية ، لرصد تحركات الوهابيين ، ومعرفة اتجاهاتهم بوقت مبكر(٩) ٠

وبمرور الزمن ، وتعدد التجارب الدفاعية الناجمة ، والتصدي المستمر للمغيرين والغزاة ، تجسدت في الشخصية النجفية اصالة ثورية مكتسبة بالممارسة القتالية الفعلية ، والتخطيط المدروس لكافة استعدادات الدفاع والحماية ٠ وهكذا اكتسب النجفيون الخبرة الكافية في فنون الحرب وتمرسوا على مواجهة المخاطر والمحن بارادة لا تلين ، وتجسدت فيهم الروح الجهادية الصابرة ، وتحولوا الى فصائل مقاتلة دفاعا عن أسوار مدينتهم ٠٠ وبذلك تولدت في نفوسهم مفاهيم جديدة نستطيع أن نطلق عليها تسمية أولى المفاهيم الوطنية الضيقة المقتصرة على حماية المدينة وربما محيطها الاقرب(١٠) ٠

ويبدو أن زعماء النجف المقاتلين الذين اثبتوا جدارة فائقة واقتداراً عاليا في الدفاع عن مدينتهم وحمايتها صاروا يشعرون بأحقيتهم في

حكمهم ، وتدبير شؤونها ، بدلا من رموز الحكم الاجنبي الذين لا تربطهم بهذه الارض وشعبها سوى رابطة الهيمنة والتحكم فحسب . وقد تعزز هذا الشعور – أكثر من السابق – بعدما تأكد لهؤلاء الاخيار عجز الادارة العثمانية في العراق عن توفير الأمن والحماية لمدينتهم من الغارات الخارجية والفتن والاضطرابات الداخلية .. ذلك العجز الناجم اساسا عن الضعف البنيوي للحكم العثماني في العراق ، يضاف الى ذلك بعد النجف – نسبيا – عن أماكن تمركز القوات العثمانية (الحلة ، بغداد ، الموصل) وانشغال هذه القوات بالتصدي للمداخلات العدوانية التوسعية الايرانية المتكررة ، وبقمع الثورات والانتفاضات التي اندلعت بصورة متواصلة في أغلب أنحاء العراق(١١) .. فبدأوا بالتفكير بأولى خطوات الانفصال عن الادارة العثمانية ، فأخذوا يتمردون على حكومة بغداد ، ويستولون على مقاليد السلطة في المدينة ، ويرفضون استقبال أي حاكم تركي ، أو أي قدر من القوات التركية ، ويمتنعون عن دفع الضرائب تعبيرا عن عدم اعترافهم بشرعية حكام بغداد الاتراك العاجزين عن حمايتهم(١٢) .

وكان من أبرز فتيان المقاومة النجفية كل من عباس جواد العبودي المعروف بالحداد الذي تولى متولية (مديرية) قصبة النجف ، وسدانة(١٣) الروضة الحيدرية المطهرة ، وعلي بن دبيس آل شكر رئيس فرقة الزقرت اللذان استمر عهدهما لمدة ست سنوات (١٢٢٨ – ١٢٣٤هـ/١٨١٣ – ١٨١٩م)(١٤) ، وسواد العكايشي وظاهر الملحة .

وفي خضم هذه الظروف نشأت فرقتا « الزقرت » و « الشمرت » ، انبثقتا من داخل الحركة الشعبية المسلحة التي كانت تحمي النجف ، وتصد الغارات عنها . ومن الاسباب الرئيسة التي كونت كلا منهما هو

اختلاف موقف كل من الزعامتين الدينية والدنيوية من الاحداث الجاريه حينذاك ، ولاسباب تتعلق بالصراعات الجانبيه والنزاعات القائمه بين محاور الزعامتين وأنصارهما . وكان سدنة الحرم العلوي من أسرة الملالي يحكمون البلدة باسم حكومة بغداد ، ويلتزمون جباية الضرائب والواردات الاخرى لها ، وقد مارسوا سياسة تعسفية ابتزازية مع الاهالي وناصبوا الاسر العلمية العربية العداء ، وأثاروا الفرقة والخصومات الدامية بين القبائل النجفية ووسعوها للاستئثار بحكم النجف دون منازع من ابنائها(١٥) . وعندما تعمقت الخلافات وتراكمت الخصومات بين الطرفين انتهزت الادارة العثمانية في بغداد من جهة ، والزعامات المحليه المتنافسة من جهة أخرى الفرصة ، فأججت نيران التناقضات الثانوية بينهما واستغلت كل فرقة لمحاربة الاخرى ، فكان أعوان السلطة يفتعلون الاحداث ، فينشب القتال بين أنصار الفرقتين ، وتجد القوات التركية المسوغ لاقتحام المدينة ، بحجة قمع الفتن والاضطرابات ، وقطع دابر الفساد ، فتقوم بضرب الطرفين ، وقمعهم بقسوة ، وانتزاع طاعتهم وولائهم بالاكراه ، ولو لحين من الوقت(١٦) .

فرقتا الزقرت والشمرت :

ذكرنا سابقا ان استمرار الغارات على النجف من قبل اعراب البوادي ، خصوصا الوهابيين ، أدى الى قيام الشيخ جعفر كاشف الغطاء باختيار مجموعة من شبان النجف بحدود المئة شاب ، وكان من بينم سواد العكايشي وعباس الحداد وخصص لهم المعاشات ، وجهزهم بالاسلحة وأمرهم بالمرابطة في حدود النجف من جميع جهاتها ، وعلى بعد

غدة أميال منها . وكان ينضم اليهم أثناء نشوب المعارك عدد من علماء الدين ، وطلبة العلوم الدينية ، بكامل أسلحتهم وعدتهم(١٧) . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى انقطع الغزو ، وتوقفت الغارات على النجف مما أدى الى حدوث فراغ لدى المقاتلين ، فدب النزاع بينهم ، وانقسموا الى فرقتين متنازعتين هما فرقة (الزقرت) أو (الزكرت) وفرقة (الشمرت) .

والزقرت هو الصقر ، ولعلهم كانوا يتصيدون بالصقور أو يصطادونها ، أو شبهوا أنفسهم بالصقور(١٨) . وكان عباس الحداد ومجموعة من صبيان محلته يخرجون الى خارج النجف ، ويتصيدون الطيور والظباء ويلهون في الاباطح والاوديه ، وهم يلهجون بقول : « زقرت »(١٩) أو « زقرتات » يعني نحن عدة بلا سلاح نتصيد ونستأنس . ولاستمرار لهجتهم بها أصبحت لهم بمثابة العلمية أو اسم الشهرة ، وتطور مفهومها في الاوساط الشعبية الى ان اصبحت صفة ملازمة لكل شخص مجرد عن العائلة أو المسؤولية ، ومنه يقال فلان أو أنا « زقرتي » ، أي انا بنفسي ليس لي شيء . فلما عزم الشيخ جعفر على تهيئة المرابطين ، وجمع الشبان ، جعل عباس الحداد وجماعته منهم(٢٠) . ويقيم الزقرت في محلتي العمارة والحويش والشمرت في محلتي المشراق والبراق(٢١) .

أما فرقة « الشمرت » فهي تضم تجمعا آخر من أهالي النجف الذين تسموا مقابلا للزقرت بـ « الشمردل » ، أي الفتى الشجاع والسريع الحركة ، ثم تعرضت هذه التسمية للتحوير والاختصار ـ بمرور الايام ـ وصارت « شمرت » . وكان سبب ظهور هذه الفرقة هو حادثة اغتيال السيد محمود الرحباوي(٢٢) التي جرت بقصره في الرحبة(٢٣)

سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣ ٠ والرحباوي رجل معروف بالكرم والنفوذ ، وقد ذاع صيته في البوادي والقصبات ، الا انه كان متهما بمخامرته للوهابيين الذين كانوا يحلون ضيوفا عليه أثناء قيامهم بشن الغارات والهجمات على النجف والمناطق الاخرى الواقعة غربي الفرات ، وكان يمتنع عن تقديم الاخبارات المتعلقة بوصولهم الى مشارف النجف الى الزعيم الديني الشيخ جعفر كاشف الغطاء ، معللا اقتناعه بخشيته من انتقامهم ٠ كما ثبتت عليه بعض التجاوزات الشرعية ، مما تطلب حضوره الى دار الشيخ جعفر بالنجف لمحاسبته شرعا ٠ وعندما امتنع عن الحضور ارسل اليه الشيخ المذكور زمرة من رجاله المسلحين ، وعدتهم سبعون رجلا ، لاحضاره طوعا أو كرها ، بيد انه قتل غيلة في قصره ، واتهم اصحاب الشيخ بدمه ٠ وقام ابن اخته حاكم النجف وسادن الروضة المطهرة ملا محمد طاهر بزعامة جماعة من المطالبين بدمه ، وأخذوا يتعرضون الى أصحاب الشيخ واغتالوا عددا منهم ٠ ثم قتل ملا محمد نفسه من قبل رجل من الزقرت مما أدى الى هيجان الشمرت ، واشتداد غيضهم وسخطهم على الزقرت ، فتسلحوا ولزموا « الصناكر »(٢٤) ، وصاروا يفتحون نار بنادقهم على جهة الزقرت الذين كانوا يردون عليهم بالمثل(٢٥) ٠

وبعد مقتل متولي النجف ملا محمد تولى ادارة النجف ابنه ملا سلمان ، وفي عهده استمرت الفتن والمنازعات بين الفرقتين وظلت نارها تستعر بين حين وآخر حتى أدت هذه الحال الى انتشار الفوضى والاضطراب عشرات السنين ، ذهب ضحيتها العديد من الابرياء من أهل العلم وغيرهم ومن النساء والاطفال ، وتعطلت الاسواق ٠ وهدمت الدور ونهبت الاموال حتى امست النجف مسرحا للشقاة والعابثين ، واضطر

العديد من العلماء والاغنياء الى الهجرة عن المدينة(٢٦) . ونظرا للعلاقة الودية القائمة بين الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء ، الذي تولى الزعامة والمشيخة بعد وفاة أبيه ، وبين والي بغداد داود باشا (١٨١٧ - ١٨٣١) فقد افلح الشيخ المذكور في سنة ١٢٢٨ باستصدار أمرا بعزل ملا سلمان ، وتنصيب عباس الحداد متوليا على النجف بدلا منه على ان يقوم بأخماد الفتن والاضطرابات ونشر الامن والاستقرار في هذ المدينة الهائجة • فقام الحداد من ساعته باستئصال شأفة فرقة الشمرت قتلا وتشريدا ، كما قام بنفي بعض من أصحابه الزقرت تمويها فخمدت الفتنة أياما ثم ما لبثت ان استعرت من جديد وبقيت كذلك تخمد وتستعر ، واشتد حنق الشمرت وسخطهم على عباس الحداد • دسيسة او غيلة(٢٧) • وقد سنحت لهم الفرصة عندما ثارت النجف واستحوذت على مشاعرهم نزعة الانتقام • وصار هدفهم القضاء عليه ومنطقة الفرات الاوسط بأسرها على الحكم التركي سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م •

فقد تحقق خلال السنة المذكورة تصعيد واضح وخطير في نشاط حركة المقاومة العربية للحكم العثماني حيث تمكنت عشيرة الصقور التابعة لقبيلة عنزة من الحاق هزيمة نكراء بالقوات التركية التي كان يقودها الخزنة دار يحيى آغا وذلك بعد معركة عنيفة دارت بين الطرفين في المنطقة الواقعة قرب « جرف الصخر » • وقد ألهب هذا الانتصار حماس العشائر العربية الاخرى ، ورفع من معنوياتها فنهضت عشيرة شمر بقيادة الشيخ مشكور الزوين واعلنت الثورة على الاتراك ، وراحت تناوش رموز السلطة وتقطع الطرق عليهم • كما اندلعت نيران الثورة في

الحلة والنجف والشامية والحسكة وعفك ، وامتدت لتعم مناطق الفرات الاوسط والمنتفق والدليم بأسرها(٢٨) ٠

ففي النجف حدثت اضطرابات محلية بسبب النزاعات المستعرة بين فرقتي الزقرت والشمرت سرعان ما تحولت الى انتفاضة وطنية على الحكم التركي بقيادة متولي النجف عباس الحداد(٢٩) ٠ وكانت القوات الحكومية - بقيادة نائب الوالي محمد « كتخدا » - مشغولة بقمع انتفاضات العشائر العربية في الحلة والحسكة والشامية لذا أرسل القائد المذكور من مركز تجمع قواته في الكفل قوة فرعية بأمرة صالح آغا الاندروني (الكردي) لقمع تلك الانتفاضة والقاء القبض على عباس الحداد وجلبه حيا أو ميتا ٠ ولما وصل الاندروني الى النجف اوائل سنة ١٢٣٤هـ أواخر سنة ١٨١٨م وتعذر عليه القبض على عباس الحداد دبر قتله غيلة بمساعدة عناصر من فرقة الشمرت المناوئة له داخل المدينة ٠ وبعد معارك عنيفة مع ثوار النجف تمكن من قتل علي دبيس(٣٠) أحد رجال المقاومة العربية في النجف من فرقة الزقرت(٣١) ٠ وبتصفية هذين الزعيمين تشتت بقية الثوار ، وخفتت حدة النزاع بين الشمرت والزقرت وعاد الهدوء نسبيا الى تلك الديار ، وعين متوليا على النجف ملا يوسف بن ملا سليمان بن ملا محمد طاهر مع سدانة الحرم الغروي(٣٢) ٠

استمرت النجف متمسكة بموقفها التعرضي القائم على اسس راسخة في ضمائر أهاليها والمعبر عن وعيهم الوطني والقومي - حسب مؤشرات ومتطلبات المرحلة التاريخية المذكورة ٠ فقد تمسك زعماء النجف بسياسة عدم الاعتراف بشرعية الحكم العثماني ورفضوا قبول أي حاكم تركي أو قوات تركية داخل مدينتهم وكانوا مستعدين للمواجهة المسلحة مع

العساكر التركية وما تتطلبه هذه المواجهة من عناء وتضحيات • لذا كانت النجف تمثل احدى ساحات العراق القتالية المهمة مع قوى الهيمنة الاجنبية على مر العصور والمراحل التاريخية الحديثة والمعاصرة •

ففي منتصف القرن التاسع عشر اشتدت حدة الصراع بين حركة المقاومة العربية المسلحة في النجف وأنصارها من أبناء العشائر العربية الموجودة في القرى والنواحي المجاورة ، وبين العساكر التركية المرابطة داخل المدينة — بصفة استثنائية مؤقتة — أو المرسلة من الحلة وبغداد لقمع انتفاضات أهالي النجف ومحاولة اخضاعهم بالقوة الغاشمة • وكان والي بغداد يجهز بين حين وآخر جيشا جرارا مزودا بالمدفعية ويرسله الي النجف لقمع حركة المقاومة المسلحة فيها ، فيأتي الجيش ويقبض — بعد معارك طاحنة تكبد خلالها خسائر فادحة — علي بعض رؤساء الثوار ويقتل بعضهم الآخر ، ثم يعود بالاسرى الي سجن بغداد ، فيسود الهدوء في المدينة اياما معدودات ثم يعود الاضطراب والتدهور في الموقف الى أشد مما كان عليه سابقا • وذلك اما ان يتمكن زعماء الانتفاضة الفرار من السجون وأماكن الاحتجاز والاقامة الاجبارية ويعودوا سرا الى النجف لقيادة حركة المقاومة من جديد وبعزم اشد او يقوم بزعامة هذه الحركة قادة جدد من بين صفوفها لمواصلة مسيرتها النضالية(٣٣) •

ان سياسة الولاة الاتراك في بغداد القائمة على مبدأ تجاهل المشاعر الوطنية والقومية للعراقيين ، واستخدام اسلوب البطش والتنكيل والقوة الغاشمة في معالجة مشاكلهم ومطالبهم المشروعة أدت الى تصليب عود المقاتلين من أبناء المدن العراقية ورجال العشائر العربية ، ونضج أهدافهم ووضوحها ، وحصول حالات من الاتصال والتنسيق والعمل المشترك بين

ثوار المدن وثوار البادية والقرى والارياف مما يشعر بارتقاء حركة المقاومة العربية في العراق الى مستوى تنظيمي جيد • وقد أشارت تقارير ولاة بغداد المرفوعة الى الباب العالي الى حصول مثل هذه الاحوال • وسوف نستعرض فيما بعد تقرير الوالي محمد رشيد باشا الذي أشار فيه الى ضبطه مراسلات بين زعماء النجف وزعماء المدن العراقية الاخرى ومشايخ العشائر العربية الثائرة بقصد القيام بثورة شملة في العراق على الحكم العثماني •

ومع تميز البيوت النجفية باحتوائها على سراديب عميقة واحتواء هذه السراديب على آبار أكثر عمقا في جوف الارض يرتبط الواحد بالاخر بواسطة قنوات وممرات سرية تسهل انتقال المقاتلين وغيرهم من بيت لآخر ومن محلة لاخرى الا ان اندلاع المنازعات المحلية بين رجال فرقتي الزقرت والشمرت او بينهم مجتمعين وبين القوات التركية عرضت الاهالي الى المضايقات والمكابدات الشديدة والمحاصرة داخل البيوت لمدة امتدت أحيانا لعدة أسابيع وما ترتبت على ذلك من شحة الماء وفقدان المواد الغذائية زيادة على الرعب والهلع الذي أصاب العوائل بسبب دوي المدافع وأزيز الرصاص حيث يتحصن المقاتلون في الاماكن المرتفعة المشرفة على محلات المدينة وشوارعها كالمنارتين الموجودتين في المرقد الحيدري المطهر ومنارة المسجد الهندي وسطوح الصحن الشريف والدور العالية ويتبادلون اطلاق النار بغزارة وبصورة عشوائية ـ أحيانا ـ(٣٤) •

يستفاد من التقرير المرفوع الى الباب العالي (الصدارة العظمى) في اسطنبول في التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٦٨هـ (٢٢ مايس ١٨٥٢م) من قبل مشير جيش الحجاز والعراق ووالي ايالة بغداد محمد

نامق باشا ، ان عددا من زعماء فرقة « الشمرت » الموقوفين في بغداد تمكنوا من الفرار الى النجف بحجة حماية أعوانهم.وانصارهم من تسلط وتعديات مخالفيهم من فرقة « الزقرت » ، ثم باشروا بحشد اتباعهم والعمل على زعزعة الاستقرار · ومن أجل تقصي الحقائق والاطلاع على جلية الموقف أرسل نامق باشا الى النجف القائممقام صالح بك وقائممقام كربلاء قربي أفندي وبمشاركة مدير قصبة النجف شاكر افندي · وبعد استجواب رؤشاء « الشمرت » الفارين من بغداد بدون علم الحكومة وموافقتها وبعد تعهدهم بصرف اتباعهم وعدم الاخلال بالامن تمت الموافقة على ابقائهم في بلدتهم لحين سنوح الوقت المناسب لاتحاذ الاجراءات الرادعة بحقهم · وقد انحى الوالي باللائمة على وادي الشفلح شيخ عشيرة زبيد وحمله مسؤولية الاضطرابات في منطقة الفرات الاوسط(٣٥) ·

وكان ظاهر الملحة وهو أحد أبرز رؤساء فرقة « الشمرت » في منتصف القرن التاسع عشر وقد وصفه نامق باشا في تقرير آخر مرفوع للصدارة في التاسع من شهر ذي القعدة للسنة ذاتها (٢٥ آب ١٨٥٢م) بانه رجل « مفسد ومحرك » ممن جلب الى بغداد لاحتجازه وخلال اندلاع انتفاضة عشائر الهندية بقيادة الشيخ وادي تمكن الموما اليه من الفرار الى النجف وقاد أنصاره ومؤيديه وباشر من جديد مقاومة الحكم العثماني(٣٦) ·

ومنذ ذلك الوقت أخذت مجاميع مسلحة مؤلفة من ٤٠ ــ ٥٠ رجل بالتجوال في شوارع وأسواق ومحلات المدينة ، وجمع الاموال من اصحاب الثروة بعد تخويفهم ، ووضعت نقاط لنحراسة والسيطرة ليلا في أطراف البيوت التي تجمعوا فيها . وأقاموا المتاريس أمامها استعدادا للمنازلة ،

وللحيلولة دون القاء القبض عليهم من قبل القوات الحكومية . وهنا أدرك نامق باشا خطورة الموقف وما يحمله من مضاعفات ومداخلات ، وبعد تهدئة الانتفاضة وعودة الاستقرار الى منطقة الهندية ، بادر الى ارسال قوة عسكرية الى النجف قوامها طابورين من لواء (آلاى) المشاة الثاني – وهي من الوحدات العسكرية المرابطة بالديوانية – بقيادة أمير اللواء (مير آلايى) بكر بك ، واندمجت هذه القوة بالطابور الموجود بالنجف مسبقا . وقد اثارت هذه التعزيزات العسكرية حماس الجماعات المناوئة للحكم العثماني ودفعتهم الى اعلان التمرد والقيام بأنواع الاعمال والممارسات المضادة للسلطة .

وعلى الرغم من كفاية القوات العسكرية ومقدرتها على ضرب وقمع التمرد الشعبي المذكور – حسب ما ورد في التقرير الرسمي – الا ان القائد العسكري بكر بك ومدير القصبة شاكر أفندي قررا بعد التشاور ، وتجنبا لحدوث أي ضرر قد يلحق بحق الابرياء من الاهالي وأفراد التبعة الاجنبية ، استئذان الوالي نامق باشا بخصوص كيفية معالجة الموقف . ولدى مذاكرة الموضوع في مجلس بغداد الكبير وجد ان تركه على تلك الحال من « العصيان والطغيان » مغاير « للعدالة السنية » ، لذا تقرر اتخاذ التدابير والاجراءات المقتضية والعاجلة .

ونظرا لاحتضان النجف مشهد الامام علي ، وعدد كبير من التبعة الاجنبية واحتوائها على عشرين الف بيت ، ومن أجل تجنب اراقة دماء الابرياء وعدم اثارة الشكاوى الاجنبية اوصى مجلس الولاية باتباع الوسائل السلمية وعدم استخدام القوة العسكرية الا عند الضرورة القصوى . وقد اسندت هذه المهمة الى أحد الضباط الكبار من قيادة

أركان فيلق الاناضول السلطاني الفريق سليم باشا وبصحبته نقيب اشراف بغداد السيد علي وقائممقام كربلاء وبعض السادة والعلماء ، وزود بأمر اداري (بيورلدي) موجه الى أهالي النجف ، كما اعطي التعليمات اللازمة المتعلقة بمهمته والتي تضمنت التأكيد علي عدم المساس بأموال وأملاك اي شخص في حال اللجوء الى استخدام القوة . وطلب من القنصلين الايراني والبريطاني المقيمين ببغداد ابلاغ تبعتهم بالابتعاد عن مواقع الخطر وعدم الاختلاط بالمشاغبين(٣٧) .

اما القوات العسكرية التي اصطحبها معه سليم باشا في حملته على النجف فلم يحدد نامق باشا تعدادها ، وانما اكتفى بقوله : « فقد تنسب ارساله الى النجف على رأس قوة عسكرية وافية » ، في حين ذكرت المصادر المحلية غير الرسمية ان قوام الحملة خمسة آلاف جندي مع عدة كثيرة من الاسلحة والمدافع(٣٨) .

دخل سليم باشا المدينة والطبول تقرع أمامه والمدافع تصم الآذان بدويها ، لتخويف الاهالي وارهابهم ولاظهار هيبة السلطة ، ومر على دار(٣٩) آل كاشف الغطاء الذين كانوا يمثلون الزعامة الدينية والأبوية في النجف ، وكان الشيخ محمد جعفر يتبوأ مسند المشيخة المذكورة ، فخرج لاستقبالهم امام باب داره ، ثم ذهبوا الى القشلة ونزلوا بها ، ونزل نقيب الاشراف وجماعة من الضباط ورجالات الحملة ضيوفا في دار آل كاشف الغطاء(٤٠) ، وبادر سليم باشا الى جمع مسؤولي المدينة وأعيانها ووجهائها وعلمائها وأهاليها وتلى على مسامعهم أمر وتوجيهات الوالي وطلب من الاهالي نبذ الشغب والعصيان واعلان الطاعة والولاء لجند السلطان مقابل منحهم العفو والامان ، وجاء ظاهر الملحة مسلما نفسه

بين يديه ، فعين له حراسا وأخرجه وعائلته وعدد من رفاقه من النجف للاقامة في أطراف الحلة(٤١) ٠

وبحكم تمتع دار آل كاشف الغطاء بالحصانة والاحترام والتقدير من قبل الاهالي والسلطة الحاكمة صارت ملجأ لطالبي الامن والنجاة وللهاربين من بطش السلطات الحكومية والشقاة على حد سواء ، فازدحمت الناس وتدافعت على اعتابها ومداخلها ، حتى زاد عدد من لاذ بها على الالف رجل وامرأة ٠ فلما صار العصر جاء سليم باشا مع جميع أركانه للسلام على الشيخ محمد ، وتحدث معه في كيفية معالجة حال التمرد المزمن على الحكم العثماني في النجف ٠ وقد انحى القائد التركي باللائمة علي المشايخ وعلماء الدين ، وقال في معرض كلامه : « يا شيخ محمد أفندي ليس الفساد الا منك ، فأنك تؤمن المفسدين وتؤيهم اليك » ، فرد عليه الشيخ محمد بقوله : « يا وزير ليس هو الا منكم » ٠ وهنا تدخل النقيب في الجدال مخاطبا الشيخ محمد بقوله : « يا شيخ محمد اسأت جوابا » ، فأجابه الشيخ محمد : « اسأت فهما » ٠ وطال الجدل بينهما وتشعب ، ثم خرج سليم باشا من دار الشيخ على ان لا يتعرض لمن بداخلها من المستجيرين ، بيد انه كان في قرارة نفسه يعتقد بان هؤلاء الرجال ليسوا من الفقراء والمساكين بل هم من العصاة والاشقياء المطلوبين للمثول امام حكومته في بغداد(٤٢) ٠

وبعد يومين القى القبض على خمسة أشخاص من رفاق الملحمة ورؤساء المقاومة ووضعهم في الحبس بوسيلة ما ، واعقب ذلك هجوم أنصارهم على السجن من أجل انقاذهم بالقوة ، فضربوا وجرحوا جنديين من القوات الحكومية مما حدا بالقائد سليم باشا الى اصدار أوامره بفتح

النار على الاهالي ، فاندلع القتال داخل المدينة من الساعة العاشرة بعد العصر حتى الساعة الرابعة ليلا ، وتحصن المقاومون في عدد من البيوت ، وعقبتهم القوات الحكومية وفرضت عليهم الحصار واضطرتهم الى الهرب بعد شعورهم بعدم القدرة على الاستمرار في المقاومة . وفي اليوم التالي القي القبض على اثنين وسبعين رجلا من الذين لم يتمكنوا من الهرب خارج المدينة وفضلوا الاختفاء في بعض البيوت ، ومنها بيت آل كاشف الغطاء ، وتم ارسالهم الى بغداد(٤٣) .

ذكرت المصادر المحلية غير الرسمية ان سليم باشا أمر أحد ضباطه المدعو بكر بك بمهاجمة دار آل كاشف الغطاء والقبض على من فيها من الرجال فقام الضابط بمهاجمتها صباحا ، واقتحمها منتهكا حرمتها ، وقبض على جملة من الرجال ينيف عددهم على المئة ، وجاء بهم الى القشلة ، ثم تقرر نفيهم الى بغداد والبصرة وغيرهما من الاماكن ، كما القي القبض على جماعة من الاشراف والافاضل كان من بينهم السيدان علي ومحمد تقي الطباطبائيين ، واقتيدوا مكبلين بالاصفاد ، وحبسوا في القشلة . قد أدت هذه الحادثة المروعة الى اصابة الشيخ محمد كاشف الغطاء بالقرحة المعدية ، وأخذ ينزف دماً من فمه وأنفه حتى وافاه الاجل في اليوم الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٢٦٨هـ / ٢٦ ايلول ١٨٥٢م(٤٤) .

اعترف نامق باشا في تقريره الرسمي المذكور بقيام بعض جنوده بنهب وسلب البيوت التي داهموها خلال عملية البحث والتحري عن رجال المقاومة من أجل القبض عليهم ، بيد انه استدرك وأشار الى ان جميع المنهوبات والمسلوبات اعيدت الى أصحابها باشراف مجلس المدينة وعلمائها

وساداتها . وقد نظمت المضابط - كما هي العادة الجارية يومذاك - المتضمنة ادانة العصيان واعلان الولاء لوالي بغداد وجناب السلطان ، وأرسلت الى بغداد . وبعد ابقاء قوة عسكرية مناسبه في النجف تحرك الفريق سليم باشا الى منطقة كربلاء والمسيب للقضاء على حركة الشيخ وادي .

وبالرغم من التعقيبات الشديدة والاجراءات القمعية الصارمة التي انتهجتها الادارة العثمانية في العراق في مواجهة مسلسل الانتفاضات العراقية بجميع حلقاتها وفصولها المتواصلة والمتصاعدة ، الا ان جذوة نار المقاومة العراقية للحكم العثماني لم تخمد أو تستكين ، بل كانت تستعر في النجف تارة ، وتتوهج في الهندية والشامية والحله والديوانية والرمادي أحيانا أخرى ، ثم تنطلق تارة ثالثة من البصرة وديرة المنتفك والموصل ومنطقة الجزيرة ، وفي السهل والجبل ، في الاهوار والبوادي على حد سواء . ومع وجود اتصالات ومراسلات مع زعماء العشائر العربية الرافضة للهيمنة الاجنبية ورجالات المقاومة في المدن ، بيد ان سلسلة الانتفاضات هذه كانت تفتقر الى وحدة القيادة والمنهج النضالي ، مما ساعد القوات الحكومية على قمعها الواحدة تلو الاخرى ، وقلل من خطورتها على مستقبل استمرارية الحكم العثماني في العراق .

ذكر مشير جيش العراق والحجاز ووالي بغداد محمد رشيد باشا (١٨٥٢ - ١٨٥٧) في تقريره(٤٥) المرفوع الى الصدارة بتاريخ ١٩ رجب ١٢٧٠ / ١٧ نيسان ١٨٥٤ ان أهالي قصبة النجف الاشرف ينقسمون على ثلاثة أصناف من العشائر ، الشمرت والزقرت والعامة . وان طائفتي الشمرت والزقرت مشهورتان في ايالة بغداد منذ زمن قديم بالشقاوة

والمفسدة ، ويتميز ابناؤهما بين العشائر بالجرأة والجسارة · وعلى الرغم من حدوث نزاعات دامية ـ أحيانا ـ بين عشائر وأفراد الفريقين الا ان رجال الشمرت والزقرت كانوا يتحدون معا ، ويتفقون على مقومه الحكم التركي في النجف ، ومنطقة الفرات الاوسط برمتها ، مما دعا الوالي السابق الى ارسال حملة عسكرية كبيرة معززة بالمدفعية الى النجف ، وبعد قتال عنيف تمكنت القوات التركية من طرد الثوار ، وابعادهم خارج المدينة ، ولمنع عودتهم اليها فيما بعد ، وضع الوالي المذكور قوة عسكرية ثابتة في قلعة المدينة · وعند تسلم الوالي محمد رشيد باشا مقاليد ايالة بغداد ، تقرر منح هؤلاء الثوار العفو والموافقة على اقامتهم في منطقة السماوة ، وكأجراء احتياطي بوجه التحركات العسكرية الايرانية التي ظهرت بوادرها منذ بداية ذلك العام (١٢٧٠هـ) قرر الوالي تعزيز قاطع خانقين بقوات عسكرية اضافية ، وكانت نصف القوات النظامية حينذاك موجودة في السماوة ، والنصف الباقي كان منشغلا بالحركات القمعية مع عشائر بني لام في جنوب العراق · ونظرا لعدم وجود قوات تركية قريبة يمكن تحريكها بسرعة نحو خانقين سوى القوات المرابطة في النجف وكربلاء ، لذا فقد اضطر الوالي المذكور الى ابقاء قوات رمزية هناك ، وسحب القوات الاخرى الى خانقين · وقد استغل مقاتلو النجف المبعدون في السماوة هذه الفرصة ، وتسللوا ليلا ، عن طريق الصحراء ، ووصلوا الى باب قلعة النجف مع خيوط الفجر الاول ، وعندما فتحت باب القلعة صباحا ـ كالمعتاد ـ دخل المدينة فجأة حوالي ١٥٠٠ مقاتل ، واتجهوا مباشرة الى مقر مدير المدينة (مدير قوناغي) ومقر الحامية العسكرية (عساكر شاهانه قشلة سي) ، وفرضوا الحصار

عليهما • وقد أصيب المدير بالذهول من هول المفاجأة ، وأصبح عاجزا لا يدري ماذا يفعل • أما القوات العسكرية التركية المرابطه في الحاميه ، والمكونة من بلوكين ، فانها لم تقم بهجوم معاكس ، أو اطلاق النار خوفا من تعقد الوضع الامني وتأزمه داخل المدينة • فقام المدير وآمر الحاميـة (عساكر شاهانه قول اغا سي) بمقاومة امتصاص زخم حماس القوات النجفية المهاجمة عن طريق اغراء رؤسائهم بأنهما سوف يطلبان من الوالي العفو عنهم ، وعدم محاسبتهم •

وعنـدما وصل الخبر الى الوالي ، أصدر أمره بالعفو عـن رؤساء النجف ، وأرسل أحد الوجوه من بغداد وهو المدعو سيد أحمد أفندي مع منشـور (بويرلدي) باللغـة العربيـة يتضمن الامان لاهالي النجف ، وضرورة اطاعتهـم للادارة والعساكر الشاهانية ، وفي الوقت ذاته أمـر القـوات العسكرية المرابطة بالحلـة ، والمتكونة من طـابور بالحركة الى النجف على وجه السرعة • وكقوة احتياطيـة وظهيرة أرسـل من بغـداد طابورين مع مدفع واحـد الى الحلة ، بقيادة مير آلات طاهر بك • وحالما وصل أحمد أفندي الى النجف ، قرأ منشور الوالي على الاهالي ، وقام بنصح رؤساء العشائر الثائرة ، ونبههم الى مخاطر استمرار الثورة على أمن المدينة ، وضرورة الحفاظ على أرواح الناس وممتلكاتهم ، وحثهم على المحافظـة على ما يحتويه ضريح الامام علي من تحف وجواهر ثمينـة • واتفق معهم على ارسال ممثلين عنهم الى مجلس بغـداد الكبير ، لعرض قضيتهم على المجلس الكبير ، ودرست القضية بالمجلس ، ووجد المجلس ان دخولهم مدينـة النجف بدون اذن الحكومة يسـتلزم اخراجهم بقـوة السلاح – كمـا حصل سابقا – وتأديبهم ليكونوا عبرة لغيرهم ، ولكـن

المجلس في الوقت نفسه وجد ان تنفيذ ذلك أمر صعب ، ويكلف غاليا ، لان النجف مدينة محاطة بالاسوار ، وطراز بيوتها يختلف عن طراز بيوت المدن العراقيه الاخرى ، فهي تحتوي على سراديب في أبعاد عميقة تحت الارض ، وتتصل هذه السراديب مع بعضها بواسطة قنوات وآبار أكثر عمقا منها(٤٦) . وكانت هذه السراديب ، وما تحويه من آبار وقنوات تشكل وسائل الانتقال السرية بين بيت وآخر ، وبين محلة وأخرى ، أو تؤدي الى خارج السور من جهة بحر النجف . وفي فترات اندلاع حركات المقاومة النجفية للحكم التركي كانت القوات التركية معرضة على الدوام الى ضربات القناصة الذين برعوا في دقة الاصابة ، وسرعة الانسحاب الى أوكارهم وأنفاقهم المشيدة تحت الارض ، بمهارة واحكام بالغين ، وكان لهذا الاسلوب من المقاومة المسلحة أثره الكبير في نشر الهلع والذعر في صفوف العساكر التركية التي وجدت نفسها في حالة عجز تام ، وعدم قدرة على مواجهة الثوار . وقد خسر الاتراك أعدادا كبيرة من جنودهم في شوارع النجف وأزقتها ، ولذا وجد الوالي ان استخدام القوة سوف يؤدي الى سفك مزيد من الدماء – كما حصل في السابق – وانفلات زمام السيطرة على المدينة وتعريض أموال الناس وأرواحهم الى الخطر ، فانحاز الى طريق المعالجة السلمية ، وأعطى الامان للثائرين ، ووافق على اقامتهم في النجف مقابل تسليمهم أسلحتهم ، وربطهم بكفالات تضمن عدم تمردهم في المستقبل . وقام الوالي بالباس الرؤساء منهم الخلع ، لترضيتهم وتهدئتهم ، وأعادهم الى اماكنهم . ولاجل تنفيذ قرار نزع أسلحة الثوار وربطهم بكفالات ضامنة . أرسل الوالي الى النجف أحد موظفيه المعروفين بمعلوماتهم السابقة ، ودرايتهم الكاملة بأمور النجف ، وهو ويسي بك ،

محاسب جيش العراق والحجاز السلطاني مع طابور من العساكر النظامية المرابطة بمدينة الحلة . وعندما وصل الموظف المذكور مع قواته الى النجف ، باشر بجمع السلاح بدون ردود فعل سلبية ، وتسلم حوالي عشرة بنادق ، ولكنه لم يتمكن من نزع سلاح النجفيين فعليا ، كما أخفق في الحصول على الكفالات المقرر تقديمها اليه حسب الاتفاق مع الوالي ، وبعد تقييمه للموقف الامني والعسكري داخل المدينة قرر ابقاء الطابور العسكري بالموقع المخصص لاقامته في (القشلة) ، وعاد الى بغداد .

وقد قرر الوالي تلطيف الثوار ، وعدم التدخل في أمورهم لعدة أيام على أمل قيامهم بأصلاح ذاتهم بأنفسهم ، واستكناه ما يدور في خلدهم من أفكار ونوايا مبيتة على الحكم التركي . ولكن رجال المقاومة العربية في النجف الذين رفضوا تسليم سلاحهم ، وتقديم الكفالات للسلطات التركية لم يركنوا للهدوء والسكينة ، والخضوع للحكم الاجنبي ، بل استمروا في تحديهم ومقاومتهم للقوات التركية ، وقاموا بجباية الاموال من أغنياء المدينة ، وتنظيم أمور الادارة والامن ، في حين أمسى مدير النجف وقواته عاجزين عن ممارسة صلاحياتهم الادارية والعسكرية ، مكتفين بالتفرج على ما يدور داخل النجف انتظارا لاوامر جديدة من والي بغداد . ونظرا لمهارة النجفيين وشهرتهم بحفر الانفاق تحت الارض ، وثقب الجدران ، فقد كان مدير النجف وضباط العساكر التركية يتوقعون هجوم الثوار عليهم في أي وقت ، وتعرضهم للهلاك بصورة لا تخطر على بال أو خيال ، ويعتقدون ان هدف الثوار هو القضاء على الحكم التركي ، وتحرير النجف من العساكر التركية . وكان الثوار يعملون ليل نهار لحفر نفق تحت الارض ، من منبع دار النروة الى القشلة العسكرية ، لاستخدامه في

الهجوم المباشر على القوات التركية ، في ذات الوقت الذي كانت فيه الاتصالات تجري على قدم وساق مع العشائر العربية المجاورة للنجف ، للاتحاد مع ثوار النجف والالتحاق بهم . وعندما وصلت الوالي أخبار هذه التطورات الخطيرة ، التي بدت تهدد بشكل جدي الهيمنة التركية ليس في النجف فحسب ، وانما في منطقة الفرات الاوسط بأسرها ، لما للنجف من تأثير فعال على أهالي وعشائر المنطقة المذكورة ، بسبب زعامتها الدينية والفكرية والادبيه ، سارع الى اتخاذ التدابير الجديه الممكنة لمعاجة الوضع المتدهور في النجف بما يكفل ابقاء السيطرة التركية على البلاد . فتحرك بنفسه في أواسط شهر جمادي الآخرة ١٢٧٠ على رأس قوة عسكرية كبيرة الى الحلة ، وأشاع بين الناس انه يقصد سنجق الديوانية ، لتسوية الاموال الاميرية ، والديون القديمة المتراكمة. ووجد الوالي ان ارسال ضابط من الامراء العسكريين الكبار من رتبة فريق أو لواء الى النجف سوف يؤدي الى تشكك الاهالي وتوحدهم ، وتعقيد مهمة القبض على رؤسائهم واخماد الثورة ، كما سيؤدي الى حدوث مشكلات جديدة . لذلك لجأ الى اسلوب المكر والخديعة ، للقضاء على رؤساء الثوار بدون قتال ، فأرسل آمر فوج الفرسان الاول في جيش العراق والحجاز السلطاني المدعو عمر بك الى النجف بحجة الاطلاع على حسابات بعض الملتزمين ، وتحصيل ما بذمتهم من أموال المقاطعات ، واعطاء معاشات العساكر ، وزوده بمنشور باللغة العربية يتضمن عبارات تمويهية من قبيل : ان مهمة عمر بك هي الاشراف على الامور المالية ، وتنظيم جباية الضرائب بما يمنع الزيادة والنقصان في تأديتها ، ويحقق العدالة للجميع ... وما شابه ذلك من الطروحات التمويهية التي اشاعوها بين الاهالي .

وحال وصول عمر بك الى النجف ، دعا أعضاء مجلس المدينة ووجوهها ورؤساء العشائر - ومن بينهم قادة الانتفاضة - الى حضور اجتماع يعقد لغرض قراءة اوامر الوالي ، والتداول في كيفية تنفيذها بما يحقق المصلحة العامة ، في ذات الوقت الذي رتب فيه وضع بعض القوات العسكريه في أماكن مختارة للانقضاض فجأة على المجتمعين والقبض على رؤساء الانتفاضة ، وفي حال مقاومتهم واستعمالهم السلاح ، مقابلتهم بالمثل حسب الخطة الموضوعة من قبل والي بغداد . وكان انعقاد الاجتماع بمقر مدير القصبة في مساء يوم الاثنين ٢٧ جمادى الاخرة سنة ١٢٧٠هـ(٤٧) ، وقد تم وضع بلوكين من العساكر بغاية من السرية في محلات قريبة من مقر المدير ، كما تموضع ١٨٠ عسكريا حول مرقد الامام علي ، ومجموعة أخرى مناسبة أخذت مواقعها في محلات مختارة من السوق الرئيس في المدينة . وفي الوقت الذي تكامل فيه حضور المدعوين ، اعطيت الاشارة للمساكر التي تحركت حسب الخطة المرسومة ، وطوقت مقر المدير ، وحينذاك نهض مير آلاري عمر بك وخاطب رؤساء الانتفاضة بقوله : ان ظلمكم وتعديكم وسوء أدبكم المنافي بكل الوجوه لمقام الحكومة العالي ، ولعلماء المسلمين ، جعل جميع الاهالي - هنا - في حال من الاضطراب والفزع ، ولم تثمر معكم لحد الان سياسة التأمين والتلطيف ولا التهديد والتخويف ، بل ازددتم مفسدة وملعنة ، ولاجل استرداد حقوق المظلومين ، واجراء محاكمتكم شرعا وقانونا ، فقد أمرت باحضاركم أمام المشير باشا . وعندما لفظ الضابط التركي كلماته الاخيرة انتفض ثمانية رجال مسلحين من رؤساء الانتفاضة (احدهم يحمل قامة والآخرون بشتو) ، وهاجموا الضابط المذكور ، بقصد الفتك به ، ولكن الحرس تمكنوا من مسكهم .

أما الحضور الآخرون من الاهالي ، فأنهم نهضوا جميعا ، نهضة رجل واحد ، ووقفوا بوجه القائد التركي ، وتناخوا لانقاذ اخوانهم الثمانية ، وساد الهرج والمرج داخل مقر المدير ، وكاد الزمام يفلت من أيدي الاتراك ، لولا وصول تعزيزات اضافية الى مكان الاجتماع · واقتيد الزعماء الثمانية واودعو السجن في القشلة · وبقصد امتصاص نقمة الاهالي ، والحيلولة دون التفافهم حول الثوار ، ولتطويق المضاعفات المحتملة ، أمر مدير القصبة بعض المنادين (الدلالين) بالتجوال في الاسواق والشوارع ، والاعلان عن قيام السلطة باحتجاز رؤساء « الاشقياء » ، وأنها ستصدر عفوا عن جميع أنصارهم وتابعيهم ، وغيرهم من « أصحاب القباحة » ، لينعم الجميع بالامن والاطمئنان · بيد ان هذه التدابير لم تفت عضد الثوار وأنصارهم المتواجدين قرب مقر المدير ، فهاجم مئة وخمسون مسلحا منهم القوات التركية المتموضعة أمام باب المقر المذكور ، ودارت معركة حامية بين الطرفين ، وحالما سمع الاهالي أصوات اطلاقات البنادق ، تجمع في آن واحد حوالي الف وخمس مئة مقاتل مسلح ، وقاموا بالهجوم على مقر المدير انتصاراً لاخوانهم الذين سبقوهم في الهجوم ، ولمحاولة انقاذ الزعماء الثمانية من قبضة القوات التركية · وقد استعر الحقد والغضب في قلوب العساكر التركية حينما قتل من بين أفرادهم ستة أنفار ، بينهم ضابط برتبة ملازم وجاوش ، وحينما شعروا بتصاعد حدة المقاومة الوطنية عليهم وعدم تمكنهم من الاحتفاظ بالمحتجزين الثمانية ، قاموا بعمل خسيس وجبان حيث طعنوهم بحربات البنادق ـ وهم أسرى ، وعزل من السلاح ـ وهاجموا الاهالي بكل وحشية وقساوة ، وفتحوا نيران المدفعية لتدك المحلات والبيوت ، وامتد القتال

من عصر ذلك اليوم حتى يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاخرة ١٢٧٠هـ ، وكان بحق قتال محلات وشوارع وبيوت اتسم بالضراوة من قبل العدو ، والاستبسال والصمود والتضحية من قبل العراقيين الاماجد ، ابناء النجف والعشائر العربية المجاورة للمدينة المقدسة . وقد اعترف والي بغداد في تقريره المرفوع الى الصدارة بضراوة القتال ، وقيام الثوار بشن ثلاث هجمات رئيسة خلال تلك الساعات المحدودة . وقد تمكنت القوات التركية من حسم المعركة لصالحها ، بفعل تفوقها العددي والتسليحي . وبسبب التعزيزات العسكرية التي وصلت الى النجف من الحلة ، ولما احدثته نيران المدفعية من دمار وهلع ورعب بين الناس ، فاضطر الثوار الى الانسحاب خارج المدينة عن طريق الآبار والانفاق المنحوتة في أعماق الارض . وقد استسلم رئيس فرقة « الزقرت » قاسم الحداد الى القوات التركية ، وطلب الامان من القائد العسكري التركي عمر بك ، وقد وافق القائد المذكور على اعطاء الامان الى جميع المقاتلين بشرط القاء سلاحهم ، والخروج من القلعة ، والاقامة في أماكن مناسبة تعينها الحكومة . واعترف والي بغداد بعدم حصول أية عملية نهب ، أو تجاسر من قبل الثوار على ممتلكات الناس والاجانب المقيمين بالنجف ، كما لم تتعرض محتويات المرقد العلوي المطهر الى أية غارة أو تجاسر . وأشار الى عودة حوالي خمس مئة عائلة كانت قد هجرت النجف أثناء اندلاع القتال بين الثوار والقوات التركية . كما تضمن التقرير المذكور الاشارة الى استشهاد سبعة من الزعماء الثمانية الذين تعرضوا للطعن بحراب حراسهم من الجنود الاتراك متأثرين بجراحهم وهم : ١ـ مهدي الفيخراني . ٢ـ عبود الفيخراني . ٣ـ ظاهر الملحه . ٤ـ سيد سعد . ٥ـ ظاهر الحجي .

٦ـ علي وهب ٠ ٧ـ سليمون ٠ وقد رتب القائد العسكري التركي عمر بك مضابط وقعها أعضاء مجلس المدينة ومشايخها وعلماؤها ، ووثقها بتقرير طبي عسكري يتضمن الكيفية التي أدت الى استشهاد هؤلاء الابطال حسب الرواية الرسمية ٠

وبعد قمع هذه الانتفاضة الشعبية المسلحة استولت القوات التركية على بعض رسائل وأوراق الثوار ، وكانت هذه الرسائل والاوراق تشير الى حدوث اتصالات بين زعماء الثورة في النجف وزعماء العشائر العربية في العراق ، وتهدف الى اعلان الثورة على الحكم التركي في جميع أنحاء العراق ٠ واعترف الوالي في تقريره بأن القضاء على إنتفاضة النجف أنقذ الحكم التركي في العراق من كارثة ماحقة كانت ستلحق به(٤٨) ٠

وهكذا تطور التفكير بتحرير النجف وحمايتها الى اشراك المحيط الاقرب الى النجف في استعدادات واستحضارات الحماية ، والتصدي للاعداء ، ثم اتسع هذا التفكير ليشمل القطر العراقي بأسره ، والوطن العربي برمته ٠ وتبلورت المفاهيم الوطنية والقومية ، وتطورت من أحوال عفوية وارتجالية حتى بلغت ، في مطلع القرن العشرين ، مستوى الجمعيات والاحزاب السياسية الثورية ٠ فأصبحت حاضرة العلم والادب مركزا ثوريا وقياديا ، ومصهرا لصياغة المفاهيم الوطنية والقومية الاصيلة ٠٠ تتصدى ببسالة للاتراك مذ وطئت أقدامهم أرض العراق حتى ثورة الثامن من شهر رجب ١٣٣٣هـ (٢٢ مايس ١٩١٥م) ، حيث سيطر الثوار على المدينة ، مراكز الحكومة ، واجبروا الحامية التركية على الاستسلام ، وطردوها ، وشكلوا حكومة محلية استمر حكمها أكثر من عامين ، وتثور على الاحتلال البريطاني الغاشم في السادس من شهر جمادى الثانية سنة

١٣٣٦هـ (١٩ مارت ١٩١٨م) ، وبدور متميز ومؤثر تحمارك العـراق باسره في تفجير ثورة العشرين المجيدة ، وادامة روحها العراقية والعربية، وتتعمق في هذه المدينة الصعبة المراس أهداف النضال الوطني ، وتتسع ساحاته وميادينه من المطالبة باستقلال العـراق الى المطالبـة باستقلال الوطن العربي ، والدعوة الى اقامة الدولة العربية الموحدة(٤٩) ٠

الوثائق :

الوثيقة الاولى

معروض عبدكم :

ان عدة انفار من رؤساء اشقياء « طائفة الشمرت » من أهالي قصبة النجف الموقوفين في بغداد تمكنوا من الفرار الى النجف وتجـرأوا على احداث الفساد هناك ، وقد تضمنت احدى فقرات تقريري المرفوع بالبريد السابق الى مقام الصدارة العالي كيفية مواجهة ودفع غائلتهم ٠ وعنـد الاستفسار من الافـراد المرقومين عن سبب مغادرتهم بغداد ومجيئهم الى النجف بلا رخصة ، وجمعهم زمرة من الاوغاد استعدادا للقتال اجـابوا بأنهم وصلوا النجف ودخلوها بلا استئذان بناء على سماعهم أخبارا تفيـد بتسلط مخالفيهم من « طائفـة الزقرت » على أعوانهـم وأنصـارهم من « طائفة الشمرت » ، وقد تملكهم الخوف على مصير رفاقهم بسبب ذلك ، وبعد مرور عدة أيام من الاستعداد لمحاربة أعدائهم تأكدوا من عدم صحة المعلومات التي وصلتهم في بغداد ، ولكونهم جاءوا الى مدينتهم فعلا فقـد التمسوا السماح لهم بالبقاء في بيوتهم ، وانهم صرفوا زمرة الاوغاد التى

جمعوها تحت زعامتهم ، وان أهل القصبة متشغولون الآن بكسب عيشهم، وقد استتب الامن والاستقرار من جديد ، حسب المستفاد من مآل التحريرات الواردة من المبعوث الخاص الى النجف القائمقام صالح بك ومدير القصبة شاكر أفندي وقائمقام كربلاء قربي افندي .

ونظرا لكونهم على تلك الحال فأن ما يجب اتخاذه من اجراءات رادعة سينظر فيها في الوقت المناسب ، وتبقى الاوضاع الان كما هي قائمة ، وفي حال تجاسرهم على احداث المخالفات فسوف توجه نحوهم قوة جنودية وافية من أجل القبض عليهم ، وقد ارسلت التعليمات والتوجيهات المناسبة بهذا الخصوص الى القادة العسكريين في الحلة والديوانية . اما محرك ومسبب كافة هذه الاضطرابات هو الشقي وادي ، وانشاء الله تعالى سوف تزول جميع الاضطرابات ويستتب الامن ويسود الاستقرار حال حصول تربيته .. لاطلاع مقام الصدارة العالي ، وفي كل حال فأن الامر والفرمان لحضرة من له الامر(٥٠) .

٢٩ رجب ١٢٦٨هـ /

ختم

مشير جيش الحجاز والعراق

ووالي ايالة بغداد

محمد نامق باشا

الوثيقة الثانية

معروض عبدكم :

سبق وان عرض على مقام وكالة الداخلية العالي ان المدعو طاهر الملحة ، وهو أحد رؤساء طائفة « الشمرت » في قصبة النجف الاشرف ،

رجل مفسد ومحرك ، لذا جلب مقدما الى بغداد ، وخلال فساد وادي هرب الى النجف مؤخرا ، وقام بجمع زمرة المفسدين تحت زعامته ، وتجاسر بممارسة الطغيان . ونظرا لكون غائلة المرقوم وادي لا تزال مستعرة في ذلك الوقت فقد تقرر تأجيل معاقبة الاشقياء المذكورين الى وقت آخر مناسب . ومنذ ذلك الوقت أخذت زمر من الاشقياء المذكورين مؤلفة من ٤٠ ـ ٥٠ رجل مسلح تتجول وتقوم بالحراسة ليلا في أطراف البيوت التي تجمعوا فيها ، وتجبي الاموال من أصحاب الثروة بعد تخويفهم ، وعندما راودتهم الشكوك باحتمال القبض عليهم وضعوا المتارس على أطراف البيوت المذكورة استعدادا للمقاومة المسلحة .

ومن الجانب الآخر أيضا اعطيت لهم التأمينات والاستمالة من أجل كسب الوقت ، وخلال ذلك وبفضل التوفيقات السلطانية اكتسبت أطراف الديوانية الامن المطلوب ، فتم ارسال طابورين من لواء (آلاى) المشاة الثاني الموجود في الديوانية والمنسوب الى فيلق العراق السلطانى (الهمايوني) بصحبة أمير اللواء (مير آلايي) صاحب العزة بكر بك الى النجف ملتحقا بالطابور الآخر الموجود مسبقا في القصبة المذكورة ، فنشأ من جراء ذلك عصيان المفسدين وقيامهم بارتكاب أنواع الفساد والفوضى وعلى الرغم من ان العساكر السلطانية الموجودة على درجة من الكفاية لضربهم والتنكيل بهم ، الا ان ملاحظة ما سوف يتعرض له الابرياء ورعايا التبعة الاجنبية من اضرار بسبب اندلاع القتال جعل امير اللواء الموما اليه ومدير القصبة المذكورة شاكر أفندي يطلبا الاستئذان بخصوص كيفية معالجة الموقف الراهن .

ولدى مذاكرة الموضوع في المجلس الكبير وجد ان ترك الاشقياء

المرقومين على تلك الهيئة من العصيان والطغيان مغاير للعدالة السنية ، لذا تقــرر اتخاذ ما يقتضيه الموقف من تدابير بأسرع وقت ممكن • ولا يخفى على مقام الصدارة العالي ان قصبة النجف تحتضن مشهد افندينا الامام علي رضي الله عنه ، ويسكنها عدد كبير من التبعة الاجنبية ، وهي مدينة معظمة تحتوي على عشرين ألف بيت ، ففي حــال وقوع القتــال داخلها سيصاب بعض الابرياء بالاضرار ، ويترتب على ذلك اثارة عدد من الشكاوى الاجنبية ، لذا ينبغي تجنب ذلك قــدر الامكان في حال اندلاع القتال ، مع الاخذ بنظر الاعتبار ازالة مضرات الاشقياء المرقومين الحالية والآتية كليا ، وتأمين الاستقرار الكامل — حسب مطلوب المقام العالي •

ولما كان حصول هذا الامر منوط بوجود قوة وافية مع شخص مناسب من الاركان العسكرية ، وبما ان حضرة صاحب السعادة الفريق سليم باشا من أركان فيلق الاناضول السلطاني هــو الشخص المناسب لهــذه المهمة ، فقد تنسب ارساله الى النجف على رأس قــوة عسكرية وافية ، وبصحبته نقيب بغداد وقائممقام كربلاء وبعض السادات والعلماء ، وزود بأمر اداري (بيورلدى) موجه الى الاهالي كمــا أعطى التعليمات اللازمة أي شخص في حال الاضطرار الى استعمال القوة ، وطلب من القنصلين المتضمنة كيفية معالجة الموقف ، والتأكد على عدم المساس بأموال واملاك الايراني والبريطاني المقيمين ببغداد اخبار تبعتهم والعمل على فرزهــم عن زمرة الاشقياء •

وبمنة الله تعالى ولدى وصول الفريق المشار اليه ان هناك عرضت وتليت تحريراتي وأمري على الاهالي والاشقياء المرقومين ، وجاء المرقوم ظاهر الملحة مسلما نفسه بين يديه بعد شعوره بالامان ، فعين له حراسا

للمحافظة عليه وأخرجه وعائلته وعـدد من رفاقـه من النجف للاقامة في أطراف الحلة ، وبعد يومين القى القبض على خمسة أنفار من رفاق المرقوم ورؤساء الفساد ومثيري الفوضى والاضطراب ووضعهم في الحبس بوسيلة ما ، لان بقاءهم في النجف مضـر بالامن • واعقب ذلك هجـوم انصارهم البغاة على السجن بأمل اخذهم بالقـوة ، فضربوا وجرحـوا جنديين من العساكر السلطانية ، مما حدا بالطرف الآخر الى المقابلة بالمثل ، فاندلع القتال داخل المدينة منذ الساعة العاشرة بعد العصر ، وتحصن الشـقاة في عـدد من البيوت ، وعقبتهـم العسـاكر وفرضت عليهـم الحصـار ، واستمرت المعركة حتى الساعة الرابعة ليلا ، وبعد ذلك لم يستطع الاشقياء الاستمرار في المقـاومة ، فألقوا انفسهم من البيوت وهربوا ، وفي اليوم التالي القي القبض على اثنين وسبعين نفرا من الذين لم يتمكنوا من الهرب وفضلوا الاختفاء في بعض البيوت ، وتم ارسالهم الى بغداد • وعلى الرغم من قيام بعض العساكر بنهب أشياء وأموال قليلة من البيوت التي اختفى بها هؤلاء ، أثناء التحري والقاء القبض عليهم ، الا ان هذه المنهوبات جمعت فيما بعد ودون ضياع اي شيء منها واعيدت الى أصحابها بأشراف مجلس المدينة وعلمائها وساداتها ، ونظمت بهذا الخصوص المضابط وارسلت الى بغـداد •

وحمدا لله تعالى وبفضل القدرة السلطانية اندفعت الغائلة المزبورة، وحصل الاستقرار الكامل في القصبة المذكورة • وبعد ترك مقدار مناسب من العساكر اتجه مع العساكر الى أطراف كربلاء والمسيب للقضاء بعون الله تعالى على عصيان وادي الذي يتجول في تلك الاطراف •

ونظرا لمـا اظهره الفريق المشار اليه من سعي واقدام جميلين فأن

نلطيفه محط علم الصدارة العالي ، وبهذا الخصوص وعلي أي حال فأن الامر والفرمان لحضرة من له الامر(٥١) ٠

٩ ذي القعدة ١٢٦٨هـ

ختم

مشير جيش الحجاز والعراق

ووالي ايالة بغداد

محمد نامق باشا

الوثيقة الثالثة

عريضة علماء النجف الاشرف الى والي بغداد محمد رشيد باشا »(٥٢)

معروض الدعوات الخيرية لدى مراحم الحضرة المشيرية أيدها رب البرية آمين :

هو انه يوم الاثنين المبارك سابع وعشرين من شهر الحال حضر في المجلس صاحب العزة ميي آلاي العساكر الشاهانه عمر بك لاجل تمييز رسم العبورات واحضر العلماء والاعضاء ووجوه التجار وأمر أيضا باحضار رؤساء الشمرت فحضر فيهم مهدي الفيخراني وظاهر الملحة وعبود الفيخراني والسيد سعد وظاهر الحجي وبعض اتباعهم وبعد انعقاد المجلس على هذا الوجه دخل مقدار بلك من العسكر المنصور فأمرهم حضرة البك المذكور بأن يقبضوا على المغرورين من رؤساء الشمرت المذكورين فقبضوا عليهم بأقل من لمحة طرف وادخلوهم الى القشلة ، وحين سمع بذلك رفقاء الاشقياء المزبورين ثاروا للمحاربة وثوروا التفنك وأرادوا الهجوم على صحن الحضرة الشريفة وبعض الاماكن الحصينة فوجدوا

العسكر المنصور قد سبقهم اليها وغلبهم عليهما واستمرت محاربتهم الى الليل فجاء قاسم الحداد الزمرتي ودخل على حضرة البك المومأ اليه وهو في القشلة المعمورة وطلب الامان لنفسه ورفقائه وتعهد بالاطاعة والمتابعة للعسكر المنصور فأعطاه الامان وخلع عليه فبلغ ذلك طائفة الشمرت فانحلت كلمتهم وتفرقت جماعتهم وتبرت منهم الاقارب وأخذهم الخوف من كل جانب وجعلوا يهربون خفية شيئا فشيئا الى حين الصبح من هذا اليوم المبارك وهو يوم الاربعاء تاسع وعشرين من شهر الحال لم يبق للمذكورين في البلدة خبر ولا عين ولا أثر . وقد انقطع دابر الذين ظلموا وذاقوا وبال امرهم بما قدموا واستراحت منهم البلاد وامنت مكرهم العباد ولم يقع بحمد الله تعالى وساية الدولة العلية وبركات انفاس الحضرة المشيرية أدنى ضرر أو اذية على احد من الرعية بل لم يفقد لاحد منهم شيء بالمرة ولا بقدر الذرة وعند ذلك ضج العلماء وكافة أصناف الفقراء لدى حضرة ابن عم سيد الانبياء بالدعاء للدولة الغراء وقد ادوا فروض الادعية الخيرية للحضرة المشيرية واظهروا كمال الفرح لوقوع القضية بهذه الكيفية حتى كان ذلك عندهم من أجل الاعياد السنية وقد أكثروا أيضا من شكر حضرة البك المشار اليه دامت نعم الله تعالى عليه لحسن تدبيره وسياسته ووفور عقله وشجاعته وبذل مجهوده في صيانة الحضرة الغراء وحفظ كافة الفقراء وحمايتهم من جميع الاسواء ووقوع المادة على يده بهذه الحالة الحسنة لم تيسر لغيره من قديم الزمان وذلك بالحقيقة كله من بركات أنفاس الحضرة الآصفية أيدها رب البرية . ثم لاجل اشعار المسامع الشريفة بوقوع القضية المذكورة على هذه الصورة وكون الاهالي جميعا قد أصبحوا في كمال الراحة وتمام الامنية والاستراحة تحررت

عريضة الدعاء ولا زلتم افندم بحراسة فاطر السماء ٠

الداعي لدوام حضرتكم السيد جعفي الخرسان

الداعي لدوام حضرتكم عبدالحسين ابن شيخ محمد حسن

الداعي لدوام حضرتكم مهدي ابن الشيخ علي الشيخ جعفر (كاشف الغطاء)

الداعي لدوام حضرتكم السيد محمد تقي بن محمد رضا لطباطبائي

الداعي لدوام حضرتكم الشيخ ابراهيم العاملي ٠

الوثيقة الرابعة

« عريضة مجلس النجف الاشرف الى والي بغداد »(٥٣)

معروض الدعوات الخيرية لدى مراحم الحضرة المشيرية ايدها رب البرية آمين ٠

هو انه يوم الاثنين المبارك سابع وعشرين من شهر الحال حضر في المجلس صاحب العزة ميرآلاي العساكر الشاهانه الوارية عمر بك لاجل تمييز رسم العبورات واحضر العلماء والاعضاء ووجوه التجار وامر ايضا باحضار رؤساء الشمرت فحضر منهم مهدي الفيخراني وظاهر الملحه وعبود الفيخراني والسيد سعد وظاهر الحجي وبعض اتباعهم وبعد انعقاد المجلس على هذا الوجه دخل مقدار بلك من العسكر المنصور فأمرهم حضرة البك المذكور بأن يقبضوا على المغرورين من رؤساء الشمرت المذكورين فقبضوا عليهم بأقل من لمحة طرف وادخلوهم في القشلة وحين سمع بذلك رفقاء الاشقياء المزبورين ثاروا للمحاربة وثوروا التفك وارادوا الهجـوم على صحن الحضرة الشريفة وبعض الاماكن الحصينة فوجدوا العسكر المنصور

قد سبقهم اليها وغلبهم عليها واستمرت محاربتهم الى الليل فجاء قاسم الحداد الزقرتي ودخل على حضرة البك الموما اليه وهو في القشلة المعمورة وطلب الامان لنفسه ورفقائه وتعهد بالاطاعة والمتابعة للعسكر المنصور فأعطاه الامان وخلع عليه فبلغ ذلك طائفة الشمرت فانحلت كلمتهم وتفرقت جماعتهم وتبرت منهم الاقارب واخذهم الخوف من كل جانب وجعلوا يهربون خفية شيئا فشيئا الى حين الصبح من هذا اليوم المبارك وهو يوم الاربعاء تاسع وعشرين من شهر الحال لم يبق للمذكورين في البلد خبر ولا عين ولا أثر وقد انقطع دابر الذين ظلموا وذاقوا وبال أمرهم بما قدموا واستراحت منهم البلاد وأمنت مكرهم البلاد والعباد ولم يقع بحمد الله تعالى وساية الدولة العلية وبركات انفاس الحضرة المشيرية أدنى ضرر أو أذية على أحد من الرعية بل لم يفقد لاحد منهم شيء بالمره ولا بقدر الذرة ، وعند ذلك ضج العلماء وكافة الفقراء لدى حضرة ابن عم سيد الانبياء بالدعاء للدولة الغراء ، وقد أدوا فروض الادعية الخيرية للحضرة المشيرية واظهروا كمال الفرح لوقوع القضية بهذه الكيفية حتى كأن ذلك عندهم من اجل الاعياد السنية ، وقد اكثروا أيضا من شكر حضرة البك المشار اليه دامت نعم الله تعالى عليه لحسن تدبيره وسياسته ووفور عقله وشجاعته وبذل مجهوده في صيانة الحضرة الغراء وحفظ كافة الفقراء حمايتهم من جميع الاسواء ووقوع المادة على يده بهذه الحالة الحسنة لم تتيسر لغيره من قديم الزمان وذلك بالحقيقة كله من بركات انفاس الحضرة الآصفية أيدها رب البرية ثم لاجل اشعار المسامع الشريفة بوقوع القضية المذكورة على هذه الصورة وكون الاهالي جميعا قد اصبحوا في كمال الراحة وتمام الامنية والاستراحة تحررت عريضة الدعاء ولا زلتم

أفندم بحراسة فاطر السماء ، في الثاني من شهر رجب سنة ١٧٢٠هـ / ٣١ مارت ١٨٥٤م .

نائب النجف	كليتدار (سادن)	مدير النجف
سيد علي بن سيد حسين	صابر الموسوي	عثمان بك
عضـــو	عضـــو	عضـــو
غائب	علـي	علي الحسيني
عضـــو	عضـــو	عضـــو
ناصر حسين	عبدالعزيز	محمد جواد عبد

الوثيقة الخامسة

« مضبطة مجلس النجف الاشرف الى والي بغداد »(٥٤)

المعروض لدى الحضرة المشيرية ايدها رب البرية

من خصوصي طائفة الشمرت لما تمادت معصيتهم لله عز وجل وولاة الامر ، وتجاهروا بعمل الفساد وأذية العباد ، وعلى الخصوص أهالي النجف الاشرف وسائر الفقراء والمجاورين في ذلك المكان المشرف ، واستمر عدم سماعهم لانذار الوالي واعذاره لهم مرة بعد مرة وكرة بعد كرة أقتضت ارادة الحضرة المشيرية باخراجهم من تلك القصبة الحيدرية لاجل استراحة الاهالي من غائلتهم وسوء عاقبتهم فأرسل صاحب العزة ميرالاي العساكر النظامية السواريه عمر بك لاعمال سياسة جميلة يخرج بها المذكورين من دون محاربة ولا صيحة تخيف السكنة والمجاورين وتعود بالضرر على الفقراء المساكين فعقد حضرة الامير الموما اليه مجلسا جمع فيه العلماء والاعضاء والتجار ووجوه الاخيار وأظهر في ذلك المجلس انه يريد تحقيق

مذئلة عبورات النجف الاشرف كي لا يتجاوز الملتزم لها سبيل المعتـاد ولا يحصل مغدوريه على العباد ، وانه لابد في هذا المجلس من احضـار رؤساء طائفة الشمرت لاعمال الرابطة المذكورة بأحسن صورة فجاء جماعة من رؤساء الفرقة المزبورة وهم مهدي وظاهر وعبود والسيد سعد وعلى وهب وسليمون وظاهر الحاجي ولما حصل اجتماعهم على هذا الوجه اشار الى بعض ضباط العسكرية ان يأتي بطائفة من العسكر المنصور للقبض على الاشخاص المذكورين فما كان بأسرع من ان هجمت فرقة العسكر المنصور على المجلس المسطور فأحس الاشخاص المرقومين بارادة القبض عليهم فثاروا من امكنتهم ووضعوا ايديهم على اسلحتهم وهجموا على الامير المومى اليه وعلى العسكر المنصور ، وحين رأى العسـكر المنصـور ذلك منهـم وثبوا عليهـم وجعلوا يضربونهم بالايدي والارجل وقناديق التفك وحرابها فأدى ذلك الى موت الاشخاص المزبورين بسبب جراحات اصابتهم عجز الجراحون عن علاجها ومداواتها ، وهذا الذي حل فيهم بسبب ما كسبت أيديهم ، ولاجل بيان كيفية الحال بهذا المنوال تحررت المضبطة وقدمت لدى الحضـرة المشيرية دامهـا رب البرية والامر لمن لـه الامـر افندم ٠٠ في الرابع من شهر رجب سنة ١٢٧٠هـ (٢ نيسان ١٨٥٤م) ٠

كليتدار (السادن)	نائب النجف	مدير النجف
صابر الموسوي	سيد علي بن سيد حسين	عثمان بك
عضـو	عضـو	عضـو
غـائب	علـي	علي الحسيني
عضـو	عضـو	عضـو
ناصر حسين	عبدالعزيز	محمد جواد عبد

الوثيقة السادسة

« شهادة وفاة زعماء الانتفاضة مترجمة عن اللغة التركية القديمة »(٥٥)

نظرا الى قيام رؤساء أشقياء الشمرت من أهالي النجف الاشرف ، ومنهم الاشخاص : مهدي فخراني(٥٦) وعبود فخراني(٥٧) وظاهر الملحه ، وسيد سعيد(٥٨) وطاهر الماجد(٥٩) وعلي الوهاب(٦٠) وسليمون بالفساد منذ مدة طويلة فقد تقرر القاء القبض عليهم لاجل تأديبهم وتربيتهم بالوجه النظامي والاسلوب المستحسن استنادا الى شريعة الدين والدولة ٠ وحين المباشرة بالقاء القبض عليهم لم يظهروا الطاعة لاولي الامر ، بل قاوموا وسحبوا سلاحهم توجه العساكر السلطانية وهجموا عليهم ٠ لذا وجدت العساكر السلطانية نفسها مضطرة الى طعنهم بالسلاح الابيض (حراب البنادق) ، مما أدى الى اصابة الاشقياء السبعة المذكورة اسماؤهم أعلاه بجروح بليغة ٠ ومن أجل الكشف عليهم طبيا ومعالجتهم وضعوا تحت ادارتنا واشرافنا بتوجيه من القادة العسكريين وسائر المأمورين ٠ وقد ظهر لنا بعد الكشف والمعاينة الطبية ان جروحهم غير قابلة للالتئام ، وبعد عدة أيام من المعالجة حدثت وفاتهم بأمر الله تعالى وهذه شهادتنا حررت وختمت من قبلنا ٠

٥ رجب ١٢٧٠هـ / ٣ نيسان ١٨٥٤م

ختم	ختم	ختم
جراح لواء الفرسان	طبيب لواء الفرسان الاول	طبيب اللواء الرابع
مصطفى بهجت	يوسف	عارف

الوثيقة السابعة(٦١)

« تقرير والي بغداد الى الصدارة مترجم عن اللغة التركية القديمة »

المعروض لجنابكم :

ينقسم سكان النجف الاشرف ، المسمى بقصبة الحيدرية ، والملحق بسنجق كربلاء ، والذي يضم المشهد المبارك لحضرة الامام علي رضي الله تعالى عنه ـ الذي لا يحتاج الى بيان لدى مقامكم العالي – الى ثلاثة أصناف من العشائر ، يمثل الصنف الاول عامة الناس من غير المتحزبين والمتكتلين « اهل عرض » ، والصنف الثاني « الشمرت » ، أما الصنف الثالث فهم « الزقرت » ، وهاتان الطائفتان المنجوستان اللتان يقال لهما : شمرت وزقرت ، كانتا منذ قديم الزمان مشهورتين في أيالة بغداد بالشر والشقاوة والمفسدة ، ومعروفتين بالجرأة والجسارة بين العشائر . ولذا فأنهما كانتا سبب الشر والمضرة التي لحقت بالناس ، وسبب ازالة الاستقرار ، وانعدام الامن العام ، نظرا للحروب والنزاعات الدامية التي نشبت بينهما من جهة ، ولاتفاق الفرقتين وقيامهما بحركات باغية على الحكومة ، وتجاسرهما بتعريض أرواح الناس الابرياء والتجار وأموالهم الى الغدر والضرر من جهة أخرى ، حتى انه في عهد سلفي صاحب الدولة الباشا ازدادت ملعنتهم ومفسدتهم ، مما اضطره الى ارسال قوات كثيرة من العساكر النظامية ، والنفرات الموظفة ، والمدافع الى القصبة المذكورة ، وأخرجتهم منها حربا وجبرا ، ووضع وجدة من القوات النظامية في النجف للاقامة بصورة دائمة فيها من أجل منع عودة العناصر المطرودة والمبعدة ، والمحافظة على أمنها واستقرارها .

وحين ورودي الى هذا الطرف (بغداد) ، وبناء على التماسهم

واسترحامهم ، منحوا الرأي والامان ، وتقرر اقامتهم في أطراف السماوة : وتوفير ما يؤدي الى رفاه احوالهم • قبل أربعة أو خمسة شهور وبناء على سائر الاشعارات والمسموعات المرفوعة من قبل السافرة السنية بطهران : حول ما قيل عن قيام الايرانيين بتحركات عسكرية ، وما أعقب ذلك من ضرورة سوق قـوة عسكرية كافيـة الى منطقـة خانقين المقابلة للحـدود الايرانية ، لاجل الاختباء ، ونظرا لكون نصف موجود القوات العسكرية النظامية كانت تتواجد حينذاك في منطقـة السماوة ، والنصف الباقي في منطقة بني لام ، ولعدم وجود قوات عسكرية نظامية في مواقع قريبـة ، سوى التي في كربلاء والنجف ، لذا تقرر ابقـاء قوات رمزية تتألف من بلوكين ، أو ثلاث في كل من المدينتين المذكورتين ، وسحب بقية القوات منهما وارسالهما الى خانقين • وقد اهتبلت الطائفتان المرقومتان فرصـة تقليـل القـوة العسكرية للقصبة المذكورة ، وتسللت من السماوة الى النجف سالكة الطريق الصحراوي وحينما فتحت باب قلعة النجف صباح أحد الايام هجم فجأة حوالي ألف وخمسمائة مسلح « سرسري » ، واندفعوا الى الداخل ، وتوجهوا مباشرة الى مدير القصبة ، ومقر القوات العسكرية (القشلة) وقـد وجـد المدير نفسه عاجزا عن اتخاذ أي تدبير مقابل ، واضطرت القوات العسكرية النظامية المتألفة من بلوكين الى عدم استخدام السلاح خوفا من تعرض البلد الى أعمال النهب • وتعهد المدير ، وآمر الوحدة العسكرية الى رؤساء الاشـقياء المذكورين ، بأنهما سيعملان على منحهم العفو من الحكومة ، وعدم اتخاذ أي اجراء بحقهم ، وحال اخباري بالكيفية ، أرسلت أحد وجوه اشراف بغداد ، صاحب الفضيلة سيد أحمد أفندي الى النجف ، يحمل اليهم أمرا (بويرلدي) يتضمن الامان للرؤساء

المذكورين ، وجلبهم للمثول أمامي ، وفي نفس الوقت أشعرت بأرسال طابور عساكر نظامية من الحلة الى النجف على وجه السرعة . كما وجهت من بغداد طابورين عساكر « شاهانه » ، مع مدفع بقيادة صاحب العزة ميرآلاي طاهر بك الى الحلة ، كقوة احتياطية .

وحين وصول الموما اليه السيد أحمد أفندي الى هناك قرأ أمري الذي كان يحمله معه ، وبذل مجهودا كبيرا في وعظ ونصح رؤساء الاشقياء ، وأخذ عهدا بعدم التعرض الى الاهالي ، وما تحتويه تربة أفندينا الامام المشار اليه رضي الله تعالى عنه من تحف وجواهر ، ومعلقات نفيسة ومباركة ، ودعا رؤساء الاشقياء الى المجيء معه الى هذا الطرف (بغداد) ، لعرض قضيتهم على مجلس بغداد الكبير ولكنهم لم يرسلوا من عناصرهم المهمة أحدا ، وانما اكتفوا بأرسال عدة أنفار ثانويين ، بصفة وكلاء عنهم الى هذا الطرف ، برفقة الموما اليه أحمد أفندي . وبعد مناقشة مستفيضة لهذه المسألة ، دارت في المجلس الكبير ، وجد أن دخول الاشقياء المذكورين الى القصبة الحيدرية بدون اذن الحكومة يستلزم تأديبهم وتربيتهم ، ليكونوا عبرة للسائرين ، وذلك بأخراجهم بقوة السلاح - كما حدث سابقا - دفعا للاضرار الناجمة عن بقائهم داخل القصبة . بيد ان الوضعية الداخلية للقصبة المذكورة تختلف عما متعارف عليه في سائر الاماكن والمدن الاخرى ، حيث توجد السراديب تحت كافة البيوت ، وفي كل سرداب بئر عميق يتصل بالآبار الاخرى بواسطة أنفاق وقنوات مصنعة ، مما يوفر امكانية الانتقال والمرور من بيت لآخر . والهرب الى المكان المطلوب . وفي وقت الحرب تجد الاشقياء المذكورين يستخدمون تلك المخابىء والاوكار السرية بصورة دائمية . ففي الوقت الذي لا يشاهد أحدهم في الميدان ،

يظهر البعض منهم فجأة كالجرذ الذي يخرج من حفـرة ، ويقـوم بقتـل الواحد ، والاثنين من العساكر النظامية في هـذا المكان ، أو ذاك ، ثم يعود الى مخبأه دون التمكن من القبض عليه ، أو حتى تشخيصه ، وقـد أدت هذه الحالة الى تلف عدد كبير من العساكر • وفي حالة الدخول في حرب معهم الآن ، فسوف يؤدي ذلك أيضا الى سـفك الدماء ونهب البلد ــ كما حصل سابقا ــ لذا تقرر ترجيح منح هؤلاء الامان ، والموافقة على اقامتهم في القصبة المذكورة مقابل تسليم سلاحهم وربطهم بكفالة • وتم الباس الرؤساء المذكورين الخلع ، واعيدوا الى مكانهم مكرمين • وتقرر ارسال محاسب جيش العراق والحجاز صاحب العزة ويس بك الى القصبة المذكورة ، لمـا يتمتع بـه من معلومات سابقة ، ودراية كاملة ، بصحبة طابور العساكر النظامية الذي سبقت الاشارة الى صدور ايعاز بحركته من الحلة الى النجف ، وذلك للاشراف على قيام المذكورين بتنفيذ قرار نزع أسلحتهم ، وربطهم بكفالة ، ومسألة اقامتهم • وعند وصوله الى هناك مع العساكر ، وبسبب حسن تدبيره لم يحدث أي رد فعل سلبي من قبلهم ، وانما جلبوا خمسا الى عشر بنادق ، وسلموها الى ويس بك ، ولكنهـم امتنعوا عن تقديم الكفالات المطلوبة حسب القرار السابق وقد شعر الموما اليه أنهم غير جادين في مسألة نزع سلاحهم فأبقى القوات التي جلبهـا معه مرابطة في القشلة ، ونهض عائدا الى بغداد • وهكذا تركت المسألة على هذه الحالة لعدة أيام ، على أمل ان يثوبوا الى رشـدهم • ولكـن بمقتضى الملعنة والشقاوة المركوزة في ضمائرهم الرديئة ، قام الاشقياء المذكورون ــ حسب عادتهـم السابقة ــ بتخويف عـدد من أغنياء البلد وأخذوا منهم ما طلبوا من الاموال ، والحقوا الظلم والاعتساف بالتجار

والاصناف والفقراء والمهاجرين ، ولم يشعروا أصلا بوجـود الحكومة ، وقـد شاهد كل شخص هـذه التصرفات والتعديات ، حتى ان الفقراء والمظلومين من الاهـالي بدأوا بالهجـرة من القصـبة المذكـورة وحـدانا وزرافات . اما مدير القصبة وكبار ضباط الحامية العسكرية ، فأنهـم لم يألوا جهدا في نصح هؤلاء ، ومحاولة منع تماديهم بالرفق واللين ، الا انهم بدلا من ان يرعووا ازدادوا شقاوة وطغيانا . ونظرا لكون الاشقياء المذكورين ماهرين ومشهورين بحفر الآبار ، وثقب الجدران ، فأن القوات السلطانية الموجودة هناك معرضة للابادة والفناء الماحق ، بشكل لا يسطر على بال ، كما ان التربة المطهرة ، والاهالي معرضون للنهب بلا مانع ، وان نيتهم الفاسدة اخراج النجف من يد الحكومة ، وانهم قاموا بحفـر نفق مباشر من منبع مقرهم المعروف بدار الندوة (مجمع المفسدة) الى القشلة العسكرية ، واتصلوا بالعربان المجاورين ، بقصد الاتحاد معهم ، وبسماع هذه الاخبار الموحشة أصبح التحرك بسرعة أمرا لابد منه لمعالجة وضعهم الذي بدا ينذر بخطر جدي وحقيقي .

وفي أواسط الشهر السابق توجهت بنفسي الى الحلـة المجـاورة للقصـبة المذكورة ، وعلى وجـه السـرعة ، بذريعة الذهاب الى سنجق الديوانية ، لتسوية أموال الميري ، واستيفاء الديون القديمـة . ولدى تأمل مستلزمات الموقف واحتمالات مضاعفاته وجد ان ارسـال ذات من كبار الامراء العسكريين برتبة فريق أو لواء الى هناك ، بأي صورة ، أو شائعة ، سوف يؤدي بالتأكيد الى توحش الاشقياء المذكورين استنادا الى مقولة « الخائن خائف » ، وضياع فرصة القبض على رؤسـائهم الذين يعدون أصل الفساد والعصيان ، وكسب مشكلات اضافية . لذا تقرر

ارسال آمر لواء الفرسان الاول (سواري برنجي الابي ميرالاي) من جيش العراق والحجاز السلطاني صاحب العزة عمر بك الى القصبة المذكورة ، بحجة رؤية حسابات بعض الملتزمين وتحصيل ما بذمتهم من ارسال آمر لواء الفرسان الاول (سواري برنجي الابي ميرالاي) من بأمر « بويرلدي » من قبلي ، وتمت صياغته بشكل مناسب ، وباللغة العربية · وجرى الاتفاق أن يشيع حال وصوله الى هناك بأنه جاء من أجل تنظيم الرسوم والضرائب ، ومنع تجاوز الملتزمين ، ورفع الغبن عن كاهل المواطنين ، وما شابه ذلك من الامور التي يتضمنها المنشور المذكور وانه سوف يقرأه أمام الجميع ، ويطلب احضار رؤساء الاشقياء ، واعضاء مجلس القصبة المذكورة وسائر وجوه الاهالي · وكان قد أفهم وبشكل تفصيلي ، باستحضار مقدار من العساكر والانقضاض بغتة على الرؤساء المذكورين واعتقالهم ، وفي حالة مقاومتهم ، واستعمالهم السلاح ، فينبغي المبادرة الى مقابلتهم بالمثل بالوجه النظامي ·

وعند وصول الضابط الموما اليه الى هناك ، اعلن مأموريته حسب الخطة التي وضعتها له ، ففي يوم الاربعاء التاسع والعشرين من جمادى الآخرة ، وبدعوة جميع أعضاء المجلس السالف الذكر ، ورؤساء الاشقياء المرقومين للاجتماع بمقر المدير ، من أجل قراءة المنشور ، والاطلاع على مواده ، ثم وضع بلوكين بالاماكن القريبة من مقر المدير ، ومئة وثمانين نفراً في صحن التربة المطهرة ، ومقدار مناسب في أماكن مختارة داخل السوق ، بصورة سريعة للغاية ، وفي وقت الشفق ، في اليوم المذكور ، وبتكامل حضور المدعوين المذكورين للمجلس ، وبموجب الاشارة المعطاة بعد المساء ، جلبت العساكر خفية الى مقر المدير ، وحينذاك نهض آمر

اللواء المشار اليه مخاطبا رؤساء الاشقياء بقوله : ان ظلمكم وتعديكم ، وسوء أدبكم اللامحدود ، والمنافي ــ بأي وجه من الوجوه ــ لشأن الحكومة العالي ، ولعلماء الدين ، جعل جميع الناس هنا في حالة اضطراب وهلع ، ولم تثمر معكــم ــ لحــد الآن ــ وســائل التأمين والتلطيف ، والتهديد والتخويف . ازددتم ــ مع الايام ــ فساداً وملعنة ، ولاجل اجراء محاكمتكم شرعا وقانونا مع المظلومين المطالبين بحقوقهم منكم ، فأني مأمور بأحضاركم أمام المستر باشا (الوالي) .

وحينذاك نهض ثمانية(٦٢) رجال مسلحون من الرؤساء ، احدهم يحمل قامة والآخرين بشتو ، وهجموا على الآمر الموما اليه ، ولكن حراسه تمكنوا من مسكهم من الخلف ، وحالوا دون الحاق أي ضرر بــه . اما الاخرون فقد نهضوا جملة واعلنوا التمرد ، وأثناء هذه الحالة من العربدة وصلت العساكر السلطانية ، والقت القبض على جميع الانفار الثمانية المذكورين أحياء ، وانزلوا من مقر المدير الى الاسفل من اجل أخذهم الى القشلة .

وأثناء قيام المنادين (الدلالين) بأبلاغ الناس بمسك وأخذ المخلين بالامن رؤساء الاشقياء الاشخاص الثمانية سالفي الذكر ، وأنــه سوف يعفى عن جميع تابعي الاشقياء ، وأصحاب القباحة ، وسوف تتخذ الكيفية التي تجعل كل شخص أمينا ومطمئنا ، تجمع حوالي مئة وخمسين مسلح من تابعي وأعوان الرؤساء المذكورين وباشروا فتح النــار على العساكر السلطانية .

عندما اندلعت نيران البنادق من الطــرفين ، ووصلت الى مسامع زمرة الاشقياء الموجودين داخل القصبة ، هجم في آن واحد حوالي الف

وخمس مئة شخص على مقر المدير ، لانقاذ رؤسائهم ، وتنفيذ تصميمهم الخبيث على ابادة العساكر السلطانية • وعلى الرغم من الجهد والعناية الفائقة المبذولين ، من أجل مدافعة هؤلاء ، ونقل المقبوض عليهم الى القشلة لحبسهم ، فقد بات من غير الممكن السيطرة على المحبوسين المذكورين ، وضبطهم في هـذا الجـو المضطرب ، لذا اندفعت العساكر السلطانية ـ خصوصا عندما سقط ستة شهداء من بين صفوفهـا ، بينهـم ملازم وجاوش ـ نحـو الانفـار الثمانية المقبوض عليهم وطعنهـم بالحراب ، وهاجمت جميع الاشـقياء ، وباشرت بفتـح نيران المدفعية على المحـلات والبيوت التي تعتبر مراكز لتجمعاتهم • وامتدت المحاربة من وقت عصر اليوم المذكور ، وهي تجري من محل الى محل آخر ، حتى الساعة السابعة مساء • وعلى الرغم من قيام الاشقياء المذكورين بشن ثلاث هجومات على السوق والمرقد الشريف ، لاجل الغارة ، الا انهم لم يستطيعوا تحقيق الظفر ولله الحمد والمنة •

أثناء المحاربة جاء رئيس فرقة الزقرت جاسم الحداد الى أمير اللواء الموما اليه معلنا دخالته ، فمنحت فرقـة الزقرت المذكورة الرأي والامان من قبل أمير اللواء الموما اليه • وحينذاك لم يجد الاشقياء المرقومون بدأ من القاء سلاحهم ، وطلب العفو والامان ، وأخرجوا جميعا من القلعة ، وبذلك تم دفع وطرد هؤلاء مع الزقرت ، يعني جميع الاشقياء الذين دخلوا القلعة عنوة وقتذاك ، بشرط اقامتهم في محل مناسب بعد الان • وعلى كل حال فأن تحقيق هذه الموفقية الجليلة التي نفتخر بها ، والتى تعد من الاثار النافعـة للسلطان قـديم دون أن نتعرض أموال التجـار والزوار والمهاجرين ، وسائر عامة الاهالي « اهل عرض » ، وخصوصـا

موجودات المرقد الشريف التي تعتبر مطمح نظر الاشقياء ، الى الضياع والتلف والنهب لحد الدرهم والحبة · كما لم يمس بأذى أي فرد من التبعة الاجنبية ، وصنف العامة من الاهالي ، ولم تحدث أية حادثة قد تؤدي الى مداخلات أجنبية ·· والشكر لله فقد تم تطهير القصبة الحيدرية المذكورة من لوث وجود الاشقياء بالوجه المطلوب ، وبات كل شخص آمنا على ماله وروحه وعرضه وناموسه ، وعادت الى بيوتهم جميع العوائل التي هاجرت من النجف سابقا ، بسبب تعدي ومضرة الاشقياء المرقومين ، والتي قيل انها تقدر بخمس مئة عائلة · وفي هذا الباب فأن كافة أهالي الخطة العراقية مواظبون على التشكر والدعاء بدوام أيام عمر ، واقبال وشوكة حضرة السلطان · ولاطلاع المقام العالي حول كيفية تأديب وتربية الاشقياء المرقومين ، والخدمة الرائعة الموافقة للشأن والناموس العسكري متشكرين وممتنين من حالة وحركته ، وعدم تلف ونهب أي مقدار من العالي التي أبديت من قبل امير اللواء الموما اليه ، والتي جعلت الجميع أمتعتهم وممتلكاتهم ، واضطرار العساكر السلطانية الى طعن الرؤساء المرقومين بالحراب ، ووفاتهم متأثرين بجروحهم بعد مرور عدة أيام ، بسبب عدم تقبلهم المداواة ·· نظمت المضابط المحررة باللغة العربية من قبل مجلس وعلماء ومشايخ النجف ، وشهادة الوفاة الممهورة من قبل الاطباء · واتضح من مآل بعض الرسائل والاوراق التي وقعت في اليد ، بعد قمع حركة الاشقياء المرقومين والتنكيل بهم ، ان فريقا من العصاة والمفسدين من عربان وعشائر الخطة العراقية كانوا وراء هذه القضية التي كادت أن تؤدي الى حدوث غائلة عظيمة معاذ الله تعالى ، لذا فأن تأديب الاشقياء المرقومين وتدميرهم بهذه الصورة جعلهم عبرة للجميع ·

ويتواجد الان كل شخص بمكانه ، منشغلا بعمله وكسبه في على حالة أمن وانضباط كاملة ٠

وختاما ينبغي التأكيد على ان الباعث لتقديم عريضة عبدكم هو مجرد عرض وبيان الكيفية ٠٠ وفي هذا الباب وبكل حال فأن الامر لأولي الامر ٠

١٩ رجب ١٢٧٠هـ / ١٧ نيسان ١٨٥٤

ختم

مشير جيش العراق والحجاز

ووالي ايالة بغداد

محمد رشيد باشا

الوثيقة الثامنة(٦٣)

معروض عبدكم

هو ان واديا شيخ عشيرة زبيد افسد واضل العشائر والقبائل كافة الساكنة في الخطة العراقية ، وعمد كذلك الى ارسال عدد من الرسائل والاشخاص الى عشيرة الدليم ، فأثار نخوتهم وشوش اذهانهم ولما كان هؤلاء الناس مستعدين للفساد تصادف قيام فتح‌الله بك مدير الدليم بالقاء القبض على بعض الافراد من العشيرة المذكورة واودعهم الحبس بناءا على وقوع جنحتهم ٠ وقد اتخذت هذه الحادثة وسيلة لاظهار الفساد علنا ، فتمردت العشيرة المذكورة وهاجمت قلعة الرمادي التي يقيم فيها المدير المومأ اليه ، وبعد مقتل عدة أنفار من الطرفين ، ونظرا لكون الحراس غير كافين لحماية القلعة فقد تمكن المهاجمون من اقتحامها ، وقيامهم مع عساكر

عشـيرة العقيـل بنهب أموال وممتلكات المـدير واستولوا على مدفعين والقوهما في نهر الفرات ، كما تجاسروا واغاروا على ستة مراكب محملة بالدقيق والشعير كانت مرسلة الى الجيش السلطاني المرابط بالحلة .

كما معروض في عريضتي الاخرى المفصلة فقد تم تشتيت جمعيـة وادي المضرة الباغية التي اغترت بحركاتها الافسادية ، وقدمت عائلتـه الى بغداد لاجل الدخالة ، وعندما علمـوا بذلك دب الفتـور في نفوسـهم فندموا على ما قاموا به من حركات فانطفأت نار فسادهم وبحوله تعـالى فقد تم اتخاذ التدابير والاجراءات اللازمة لتأمينهم وتهدئتهم لحين ازالة اثار تمرد الشقي المذكور ، ومن ثم اتخاذ ما يلزم من اجراءات رادعة فيما بعد .. وبالطافه تعالى عند علم المقام العالي للوكالة الموقرة فان الامـر والفرمان في هذا الموضوع وفي كل حال لحضرة من له الامر .

١٣ شعبان ١٢٦٨هـ

مشير جيش العراق والحجاز

ووالي ايالة بغداد

محمد نامق

١ ـ تنظر بحوث المؤلف التالية : الوعي القومي العربي في العراق خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مجلة كلية الفقه ، العدد الثاني لسنة ١٩٨٤ · مواقف قومية في الادب النجفي الحديث ، العدد الثالث لسنة ١٩٨٨ ، مدرسة النجف أدوارها العلمية وأطوارها الفكرية (ضمن بحوث المؤتمر العلمي الثالث في كلية الفقه لعام ١٩٨٨) ·

٢ ـ د· مهدي جواد حبيب : الصراع العثماني ـ الفارسي وأثره في العراق حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ضمن كتاب الحدود الشرقية للوطن العربي ، اصدار جمعية المؤرخين والآثاريين العراقيين (بغداد ١٩٨١) الفصل الثالث ·

٣ ـ جعفر باقر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها (النجف ١٩٥٨) ج١ ص٣٨٨ وما بعدها · كاظم محمد علي شكر : مكونات عبقرية الاديب النجفي (صحيفة العدل النجفية ، العدد الاول ، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٤) ص ٧ ·

٤ ـ جعفر باقر آل محبوبة : المصدر السابق ، ج١ ص٤٠٠ـ٤٠٢ · علي الخاقاني : شعراء الغري (النجف ١٩٥٤) ج٢ ص١١٥ـ١١٧ حسن الاسدي : ثورة النجف على الانكليز ، أو الشرارة الاولى لثورة العشرين (بغداد ١٧٩٥) ص ٤٣ وما بعدها ·

٥ ـ رحلة فريزر الى بغداد في سنة ١٨٣٤ (ترجمة جعفر خياط) ، (،) ص ١٧٤ · عبدالرزاق الحسني : تسخير كربلاء (بيروت ١٩٧٨) ص ٤ـ٧ · عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٦ ص ٢٨٧ـ٢٨٨ ·

٦ ـ توفي في شهر رجب من عام ١٢٢٨هـ/تموز ١٨١٣م · وهو جد الاسرة العلمية العربية المعروفة في النجف بـ « ال كاشف الغطاء » ·

٧ ـ كان تدريب الرجال على استعمال السلاح واكتساب المهارة في الرماية ودقة التصويب يجري في المناطق الخالية من السكان في ضواحي النجف قرب مسجد السهلة ·

٨ ـ محمد حسين كاشف الغطاء : العبقات العنبرية في طبقات الجعفرية (مخطوطة مكتبة كاشف الغطاء بالنجف الاشرف) ج١ ورقة ٥٤ ـ ٥٥ · وانظر أيضا : محسن الامين العاملي : اعيان الشيعة (دمشق ١٩٤٠) ج ١٥ ص ٤١٨ · علي الخاقاني : شعراء الغري ج٢ ص ١١١ـ١١٧ ·

٩ ـ عندما وصل عبدالله بن سعود الى النجف وجدها مسورة ومستعدة للتصدي والدفاع ، فبات ليلة قرب أسوارها على أمل مهاجمتها اقتحامها فجرا · وكان الشيخ جعفر قد امر باحكام غلق أبواب المدينة ، ثم وضع احجارا كبيرة خلف الابواب منعا لمحاولات دفعها أو قلعها ، وعين لحراسة كل باب عددا من المقاتلين المسلحين ، وأحاط باقي المقاتلين بسور المدينة من الداخل · وكان ما بين كل أربعين أو خمسين ذراع من السور حجرة تسمى « قولة » ، وكان قد وظف في كل « قولة » مجموعة من المقاتلين المسلحين · وكان جميع من في المدينة من المقاتلين لا يزيدون على مئتي مقاتل ، لان أغلب الناس خرجوا منها ، واستجاروا بالعشائر العربية المجاورة ، لما أصابهم من الرعب والهلع من سيرة الوهابيين · ولم يبق مع الشيخ جعفر الا الصفوة من علماء الدين كالمشايخ حسين نجف ،

خضر شلال ، مهدي ملا كتاب ، السيد جواد العاملي ، وطليعة من عامة الاهالي ٠

ومما يجـدر ذكره ان الشيخ جعفر كان قد حفر في داره الكبيرة سردابا ينزل في عمق الارض مقدار أربعين درجا ، ويتصل بطرق وقنوات ومداخل سرية لاخفاء عائلته عند الضرورة ، وكذلك فعـل أغلب أهالي النجف ٠ ويبدو ان القائد الوهابي وجد من المتعذر اقتحام المدينة ، او ان ذلك سيكلفه غاليا ، فرفع الحصار ، وانسحب باتجاه كربلاء التي تمكـن من اقتحامها ، وفعـل ما فعل بأهلهـا وممتلكاتها وعتباتها المقدسة ٠

انظر :- محمد حسين كاشف الغطاء : العقبات العنبرية ، ج١ ، ورقة ٥٥ وما بعدها ٠

جعفر باقر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج١ ص٢١٩ وما بعـدها ٠

محمـد حرزالدين : معـارف الرجال في تراجـم العلماء والادباء (النجف ١٩٦٥) ج٢ ص٩٢ ٠

كاظـم محمـد علي شـكر : الاصالة والتطور في المفاهيم الثورية والوطنية والقومية في العقلية النجفيـة (مقـال منشور في صحيفة العـدل النجفيـة ، العـدد : ١١ ، في الاول من شـباط ١٩٧٥ ، ص ٤) ٠

١٠- كاظم محمـد علي شكر : الاصالة والتطور ، المصـدر السابق ، العدد : ١٣ في ١٥ شباط سنة ١٩٧٥ ، ص ٥ ٠

١١- د٠ مهدي جواد حبيب البستاني : الوعي القومي العربي في العراق

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مجلة تحلية الفقه ، العدد الثاني لسنة ١٩٨٣ - ١٩٨٤ ، ص ٦٦٥ وما بعدها ٠

١٢- رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء (بيروت ١٩٦٣ ، ص ٢٨٩-٢٩٠ ٠

محمد حرز الدين : معارف الرجال (النجف ١٩٦٤) ج١ ص٨٣ ٠

كاظم محمد علي شكر : المصدر السابق ٠

٤ - السادن أو (الكليتدار) : هو الشخص المكلف بخدمة وتنظيم شؤون الحضرة الحيدرية المطهرة ٠ والسدانة من المناصب الرفيعة والوظائف الشريفة ، تعقدها الحكومة لأحد علماء النجف وأشرافها بموجب بيورلدي يصدر من والي بغداد بموافقة السلطان ٠ وهي شبه حكومة وراثية مطلقة ، خاصة عندما يكون السادن علويا فيجمع بين منصبي السدانة ونقابة العلويين ٠ في حين تقتصر سلطة السادن على الشؤون الخاصة بالحرم الشريف حينما يتقلد النقابة أحد العلويين فيكون هو الحاكم الفعلي في البلد ٠ وبمرور الزمن ضعف منصب النقابة حتى آل الى وسام فخري تمنحه الحكومة لشريف من السادات دون سلطة أو زعامة ٠ ومن أشهر الاسر التي تولت السدانة في النجف منذ القرن السابع الهجري : آل شهريار والملالي وآل الرفيعي ٠ وفي عهد المماليك (١٧٥٠ - ١٨٣١) تولى بعض السدنة حكومة النجف بدرجة متولي أو مدير القصبة ، ففي سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م قلد داود باشا ملا محمد طاهر بن ملا محمود بن الملا عبدالله - صاحب الحاشية في المنطق - بن حسين اليزدي ، وبعد مقتل ملا محمد طاهر سنة ١٢٢٢هـ صار ابنه

سليمان نقيب حرم الامام علي (ع) وخازنه ورئيس السدنة ، وقد خونته السلطات التركية حكومة النجف ، فأخذ يثير المنازعات بين القبائل النجفية وانحاز الى فرقة الشمرت واضطهد الزكرت فقتله أحد رؤسائهم المدعو عباس الحداد سنة ١٢٢٨هـ في الصحن الغروي بالقرب من تكية البكتاشية . وتولى ملا يوسف بن ملا سليمان نقابة الحرم والسدانة أيضا ، وتم عزله سنة ١٢٥٥هـ بعد ارتكابه لمزيد من الاعمال الوحشية والتعسفية بحق مواطني النجف وخاصة من فرقة الزكرت ، فأوجب ذلك سخط العلماء وطلبة العلم والمتدينين والمعارضين ، فأوعز الشيخ محمد علي جعفر كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٦٢٨هـ بأن يكتبوا مضابطا في فساد الملا يوسف في النجف ، وارسالها الى والي بغداد حتى تم عزله وتفويض الشيخ محمد كاشف الغطاء رئاسة السدنة ومفاتيح خزانة الحرم الغروي . وجعل كاشف الغطاء نائبه السيد رضا الرفيعي . وبعد ان باءت جميع محاولات ملا يوسف باستعادة مكانته بالفشل عاد الى النجف ودخل مجلس الشيخ محمد معلنا ندمه وتوبته فرد عليه الشيخ مفاتيح الحرم مجردا عن كل سلطة . ولكن الاهالي رفضوا عودته وهاجموا قصره بهدف قتله ، فهرب الى كربلاء ومات هناك سنة ١٢٧٠هـ ، وتولى ابنه ملا محمود رئاسة السدانة والخازنية مدة ستة أشهر ثم عزل . وهكذا تولى الملالي نقابة الحرم في النجف حدود القرنين ونصف وكان أول نقيب لهم هو جدهم ملا عبدالله اليزدي صاحب الحاشية في المنطق ، وقد أتى بـه الشاه الصفوي عباس الاول من ايران الى العراق ليتولى نقابة الحرم المقدس وسلمه

المفاتيح والخزانة ، ولما فتح السلطان العثماني مراد الرابع العراق وزار النجف أقر ملا عبدالله على ولايته للحرم ، وبقيت نقابة الحرم الغروي بأيدي أولاده وأحفاده الى زمن ملا يوسف . وعن أصل الملالي قيل نهم من « آل بويه » وقيل من عنزه – الروله سكن أحد أجدادهم في ايران – ثم تولى السدانة بعد الملالي آل الرفيعي الى يومنا هذا . محمد حرزالدين : المصدر السابق ، ج٢ ص ٤–٧ . ج٢ ص ٢٧٩–٣٠٥ .

٥ – علي الخاقاني : شعراء الغري ، ج٢ ص١٦١–١١٧ . كاظم محمد علي شكر : المصدر السابق .

٦ – محمد حرزالدين : المصدر السابق ، ج٣ ص٢٩٧–٣٠٥ .

٧ – ارشيف رئاسة الوزراء في اسطنبول : ارادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٥٦٥٣ ، لف ٤ ، (من مشير فيلق الحجاز والعراق ووالي ايالة بغداد محمد نامق باشا الى الصدارة ، ٢٩ رجب ١٢٦٨هـ/٢٢ مايس ١٨٥٢م) .

٨ – كان عميد الاسرة في بيت الشيخ كاشف الغطاء يشتري لطلبته ومقلديه عدة كاملة من السلاح ، توضع في مكان أمين تحت الارض في الدار الكبيرة مع البنادق والرصاص والبارود ، وتوزع عليهم عند الحاجة لاستعمال السلاح . العتبات العنبرية ج١ ورقة ٦٦ .

١٨– محسن الامين العاملي : اعيان الشيعة ، ج١٥ ص٤٢٥–٤٢٦ .

١٩– الزقر : هو الصقر . وفي اللهجة العامية الدارجة اذا قال الرجل أنا « زقرتي » يعني خفيف المؤونة لا عدة لي ولا عيال . ويحتمل ان هؤلاء كانوا بدء أمرهم كذلك لا سلاح لهم ولا عدة . ومن الامثال

الشعبية الدارجة : « أنا زكرتي ما لحكتني غير تفكتي » ٠ أي « أنا لا أملك غير سلاحي » ٠ انظر : ماضي النجف وحاضرها ، ج ١ ص ٣٣١ ، حاشية ٢ ٠

٢٠ـ محمد حسين كاشف الغطاء : العقبات العنبرية ، ج١ ، ورقة ٩٤ ٠
علي الخاقاني : شعراء الغري ، ج٢ ص١١٧ ٠

٢١ـ محسن الامين العاملي : المصدر السابق ، ج١٥ ص٤٢٦ ٠

٢٢ـ ينتمي السيد محمود أحمد الرحباوي الى اسرة علوية تعرف بـ « بيت أغا جمال » ، هاجرت من ايران الى النجف طلبا للعلم ، ولهذه الاسرة دور كثيرة في النجف منها الدار المعروفة بـ « دار الايرواني » الواقعة في محلة العمارة مع الدور التي حولها ٠ وكان السيد محمود ذا ثروة كبيرة ، فأخبره بدوي ان في الرحبة عين ماء انهال عليها الرمل فطمرها ، وهي عين غزيرة تكون عليها مزارع كثيرة ، ورغبه في الصرف عليها واستغلالها ، فبذل السيد المذكور وتدفقت العين ماء عذبا ، وبنى عليها قصرا كبيرا ، وسكن فيه ١١٩١هـ/١٧٧٧م ، وبعد زمن أصبحت الرحبة كبغداد لكثرة ما فيها من البساتين المملوءة بأشجار الفواكه من عنب ورمان ، وتين وغير ذلك من البقول والخضر : كالبطيخ والرقي ، ومن الحبوب : الحنطة والشعير والارز ، وصارت تمون النجف والمناطق المجاورة بالمحاصيل كافة ٠

أنظر : العبقات العنبرية ، ج ١ ورقة ٦٤ ٠ محمد حرزالدين : المصدر السابق ، ج٣ ص٢٩٩ـ٣٠٠ ٠
حسن الاسدي : ثورة النجف ، ص٤٥ ٠

٢٣ــ الرحبة : قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج اذا أرادوا مكة ، تقع على ضفة البرنيس بعدها عمارة ·
ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (بيروت ١٩٧٥) ج٣ ص٣٣ ·

٢٤ــ الصناكر : هي الاماكن العالية من المآذن والدور المرتفعة ·

٢٥ــ الطبقات العنبرية ، ج١ ، ورقة ٦٤ــ٦٦ · حسن الاسدي : المصدر السابق ، ص٤٤ــ٤٥ · محسن الامين العاملي : المصدر السابق ، ج١٥ ص٤٦٢ــ٤٢٨ ·
علي الخاقاني : شعراء الغري : ج٢ ص١١ ·

٢٦ــ محمد بن ونس الشويهي : براهين العقول في كشف أسرار تهذيب الاصول ، ميزان العقول ·
أحمد زوين : المسالك ج١ · خضر شلال : التحفة الغروية ·
علي الخرقاني : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٠ــ١٢٢ ·

(٢٧) محمد حسين كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ورقة ٦٦ــ٦٧ ·
ماضي النجف وحاضرها ، ج١ ص٣٣٢ــ٣٣٣ ·
علي لخاقاني : شعراء الغري ، ج٢ ص١٢٠ · حسن الاسدي : المصدر السابق ، ص٤٦ ·

(٢٨) رسول حاوي : دوحة الوزراء ، ص٢٨٨ــ٢٨٩ ·
د· مهدي البستاني : الوعي القومي العربي ، ص٦٦٥ــ٦٦٧ ·

(٢٩) وهو جد عشيرة « الحداحدة » المعروفة في النجف والكوفة ، وكان يتولى سدانة الروضة الحيدرية المطهرة ، ومتولية قصبة النجف ·
انظر ق كاظم محمد علي شكر : قبيلة الفضول اللامية وتفرعاتها العشائرية (النجف ١٩٧٥) ص١٥٩ــ١٦٠ ·

(٣٠) كان علي بن دبيس بن شكر بن حمود « محمد » بن علي « الاحسائي » آل يوسف حديد بن عروج من ابرز رجال الزقرت ، ذاع صيته في الآفاق ، وأصبح من أقوى خصوم الدولة العثمانية في منطقته . انظر : كاظم محمد علي شكر : المصدر السابق ، ص ١٥٨-١٦٠ .

(٣١) رسول حاوي : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .
محمد حسين كاشف الغطاء : العبقات العنبرية ، ج١ ، ورقة ٦٤ - ٦٧ .
محمد حرزالدين : المصدر السابق ، ج٣ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣٢) رسول حاوي : المصدر السابق ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ . عثمان بن سند البصري : مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود ، اختصار حسن بن أمين خلواني المدني ، (بومباي ١٣٠٤هـ) ص٥٠-٥١ .
عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٥٤) ج ٦ ، ص ٢٥٩ .
جعفر باقر آل محبوبة : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٨ .
كاظم محمد علي شكر : المصدر السابق ، ص ١٦٠-١٦٨ .

(٣٣) ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) الوثيقة السابقة .
محمد حسين كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ١٢٣ .

(٣٤) كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج٢ ورقة ١٢٣-١٢٤ .

(٣٥) ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) : نفس الوثيقة السابقة .

٣٦- ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) : ارادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٥٩٨٢ ، لف ٢ ، (من مشير فيلق الحجاز والعراق ووالي ايالة

بغداد محمد نامق باشا الى وكيل الداخلية ، ٩ ذي القعدة ١٢٦٨هـ/ ٢٥ آب ١٨٥٢م) .

٣٧ـ نفس **الوثيقة** .

٣٨ـ كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج٢ ورقة ١٢٤ .

٣٩ـ وهي دار كبيرة تقع في محلة العمارة ، تحتوي على مكتبة عامرة بالكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة . ومن الجدير بالذكر ان والي بغداد الاسبق نجيب باشا (١٨٤٢ ـ ١٨٤٨) أقام بهذه الدار ثلاثة أيام بضيافة الشيخ حسن بن جعفر كاشف الغطاء ، وذلك عند مروره بالنجف بعد قمعه انتفاضة كربلاء سنة ١٨٤٣ .
كاشف الغطاء : العبقات العنبرية ، ج٢ ورقة ٧٥ ـ ٧٧ ، ١٢٤ .

٤٠ـ نفس المصدر ، ج٢ ورقة ١٢٤ ـ ١٢٥ .

٤١ـ الوثيقة السابقة .

٤٢ـ كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج٢ ورقة ١٢٥ .

٤٣ـ الوثيقة السابقة .

٤٤ـ كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج٢ ورقة ١٢٥ .

٤٥ـ ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) ارادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٩١٥٧ ، لف ٢ عسكرية ، (من مشير فيلق الحجاز والعراق ووالي ايالة بغداد محمد رشيد باشا الى الصدارة ، ١٩ رجب ١٢٧٠هـ/١٧ نيسان ١٨٥٤م) .

٤٦ـ للاطلاع على تفصيلات طبيعة أرض النجف ، وكيفية قيام النجفيين بحفر السراديب والآبار ، انظر : عبدالمحسن شلاش : آبار النجف ومجاريها (النجف ١٩٤٧) ص ٥ وما بعدها .

حسن الاسدي : ثورة النجف على الانكليز · ص١٦ وما بعدها ·

٤٧ـ ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) : رقم الوثيقة ١٩١٥٧ لف ٤ ، ٦ (عسكرية) ·

٤٨ـ ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) : ارادة / داخية ، رقم الوثيقة ١٩١٥٧ ·

٤٩ـ عبدالرزاق الحسني : ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال (صيدا ١٩٧٢) ص ٣ وما بعدها · حسن الاسدي : المصدر السابق ، ص ٥ وما بعدها ·

كاظم شكر : الاصالة والتطور ، صحيفة العدل النجفية ، العدد : ١٠ ، ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٥ ، ص٤ · العدد : ١١ ، الاول من شباط ١٩٧٥ ، ص٤ ·

ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) : ارادة / داخلية ، وثيقة رقم ١٥٦٥٣ ، لف ٤ (من مشير فيلق الحجاز والعرا، ووالي ايالة بغداد محمد نامق باشا الى الصدارة ، ٢٩ رجب ١٢٦٨هـ / ٢٢ مايس ١٨٥٢م) ·

٥١ـ ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) رقم الوثيقة ١٥٩٨٢ ، لف ٢ ، (من مشير فيلق الحجاز والعراق ووالي أيالة بغداد محمد نامق باشا الى الصدارة ، ٩ ذي القعدة ١٢٦٨هـ / ٢٥ آب ١٨٢٥م) ·

٥٢ـ ارشيف رئاسة الوزراء (اسطنبول) : ارادة / داخلية ، رقم : ١٩١٥٧ ، لف ٦ (عسكرية) ·

٥٣ـ ارشيف رئاسة الوزراء التركي : ارادة / داخلية رقم : ١٩١٥٧ لف ٤ (عسكرية) ·

٥٤ـ الارشيف التركي : ارادة / داخليـة ، رقم : ١٩١٧٥ ، لف د (عسكرية) .

٥٥ـ ارشيف رئاسة الوزراء التركي : تصنيف الارادة / داخلية رقم ١٩١٥٧ ، لف ٣ (عسكرية) .

٥٦ـ الصواب « فيخراني » وليس « فخراني » .

٥٧ـ كذلك .

٥٨ـ الصواب « سعد » وليس « سعيد » .

٥٩ـ الصواب « الحجي » وليس « المساجد » .

٦٠ـ الصواب « وهب » وليس « الوهاب » .

٦١ـ ارشيف رئاسة أوزراء (اسطنبول) ارادة / داخلية ، رقم الوثيفة ١٩١٥٧ ، لف ٢ (عسكرية) .

٦٢ـ تضمنت الوثائق السابقة أسماء سبعة منهم فقط .

٦٣ـ ارشيف الباب العالي : ارادة / داخلية رقم ١٥٦٧٣ (داخلية ، لف ٣) (من مشير جيش الحجاز والعراق ووالي ايالة بغداد نامق باشـا الى وكالة الداخليـة ، ١٣ شـعبان ١٢٦٨هـ / ٢ حزيران ١٨٥٢م) .

مفهـوم العصبية القبلية

عند ابـن خلـــدون

اعـــداد الدكتـور
حبيب عبـدالقادر الشاوي
الجامعة المستنصرية ـ معهد الدراسات القومية والاشتراكية

المقدمـــة :ـ

لقد اكدت اغلب الدراسات التي تناولت فكر ابن خلدون عن اصالة وعمق هذا الفكر ، وما وصل اليه من نتائج باهرة ، تستحق التأمل والبحث، ثم الاشادة به كمفكر ابدع في الكثير من ارائه التى تـطرق اليها في شـتى ميادين الحياة من خلال ماورد في مقدمته المعروفة من مفاهيم ونظـريات في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة والقوانين المنظمة لها ٠

فدراسة الفكر الخلدوني في اطار تحديد مفاهيمه ونظرياته حـول الكثير من الظـواهر الاجتماعية انما يـؤدى الى تقييـم مثل هـذه المفاهيم والنظريات بالاتجاه العلمي الصحيح ٠ فأبن خلدون حاول من خلال ظروف تجربته الحياتية التى عاشها في واقع معين ان يعطي تصورات ذات ابعـــاد خاصة للتاريخ العربي الاسلامي والعصور التى تعاقبت عليه ٠ وكجزء من هذه التصورات فقد ابتدع نظرية العصبية التى ورد ذكرها بشكل مفصـل في مقدمته فأعتبرت من اهم النظريات التى وضعها . ونستطيع القول بأنها اصبحت المحور الذى تدور حوله معظم المباحث الاجتماعية ، حيث نجد ان العصبية في تفسير ابن خلدون ليست مجرد رابطة سايكولوجية اجتماعية انما تتحول باستمرار الى قوة للمواجهة والمطالبة ومـن ثم تأسـيس الملك

والدولة ، وبالتالي تضعف وتتلاشى بمجرد بلوغ غايتها ، **وبعد أن تسقط الدولة بفساد عصبيتها** تقوم عصبية جديدة لتأسيس دولة جديدة وهكذا ٠

ان محاولتنا للبحث في نظرية العصبية جاء من منطلق اهمية الموضوع **بالنسبة** لما توصل اليه ابن خلدون من تعليلات مهمة حول هذه النظرية وربط هذه التعليلات بحقبة طويلة من التاريخ العربي الاسلامي ٠ وعلى هذا الاساس فقد تضمن البحث المحاور الآتية :ـ

المقدمـــة :

١ ٠ منطلق الرابطة العصبية :

١ ـ ١ ـ ما المقصود بمصطلح العصبية ٠

٢ ـ ١ ـ الاساس الذى تقوم عليه العصبية القبلية ٠

٣ ـ ١ ـ غاية العصبية القبلية ٠

٢ ٠ فاعلية العصبية القبلية :

١ ـ ٢ ـ علاقة العصبية بالدولة ٠

٢ ـ ٢ ـ علاقة العصبية بالدين ٠

الخلاصـــة :

تلك هى خطوات البحث التى نأمل ان تسهم على نحوما في القـاء الضوء على مفهوم العصبية بالشكل المطلوب ٠

١ ـ منطلق الرابطة العصبية ٠

١ ـ ١ ـ ماالمقصود بمصطلح العصبية ٠

ان كلمة العصبية من المصطلحات التى كانت شائعة خاصة بعد ظهور الدين الاسلامي ، فهى اذن ليست من المصطلحات التى استخدمها ابـن

خلدون في كتاباته لاول مرة ، ومما يؤكد على ذلك :

« ان اللغة العربية تسمي ذوى القربى باسم (العصبة) وهذه الكلمة تمت بصلة الاشتقاق الى كلمة (العصـــب) بمعنى الشد والــربط وكلمة (العصابة) بمعنى الرابطة » كما انها تسمي الخصال والافعـــال الناجمة عن ذلك ـ من تعاضد وتشـــيع ـ بأســـم العصـــبية »(١) فالعصـــبة تعني بذلك الجماعة · وهذه الجماعة تتكون بالضبط من اقارب الشخص الذين يرتبطون به وان جميع هؤلاء الاقارب ليسوا بالضرورة عصبة لــه ، بل هم الذين يرتبطون به فعلا · ونفهم من هذا ان شرطا القرابة والارتباط يعدان ضروريان الى وجود العصبة ، حيث ان هذين العنصرين يميزانها من غيرها من الجماعات الاخرى · فالعصبة بهذا الاعتبار جماعة دائمة ·

فهي اذن تعد من الجماعات المؤقتة التي تتكون بشكل تلقائي وليست من الجماعات (التعاقدية) التي تقوم على اساس وجود اتفاق بين اعضائها، ووفق نظام خاص ، لغرض تحقيق احد الاهداف المطلوبة التي تبتغيها هذه الجماعة ، والتي قد تنفرط بعد تحقيق هـــدفها المطـــلوب ، أو لاى ســـبب آخــر ·(٢)

والتعصب لغة ، يعني كــما ذكــرنا التجمع ، ويعني هنـــا التجمـــع (المعنوى) وليس التجمع (الحسي) · أي شعور الفرد بأنه جزء لايتجزأ

---

(١) ـ ابو خلدون ساطع الحصري ـ دراســات عن مقدمة ابــن خلــدون ـ ط ٣ ـ ١٩٦٧ـص٣٣٤ ·

(٢) د· محمد عابد الجابري ـ فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاســلامي ـ دار الشــؤون الثقافيــة (آفاق عربية) ـ بغداد ص٢٥٣ ·

من العصبة التى ينتمي اليها(٣)٠ وان هذا الشعور العصبي يظهر بشكل جلي وواضح عندما يتعرض وجود العصبة الى الخطر الخارجي لينال من كيانها المادي والمعنوى ، وبذلك يصبح هذا الشعور فاعلا ومؤثرا ٠

فمثل هذا (الوعي العصبي) الذى يشد افراد العصبة الواحدة بعضهم الى بعض ويجعل منهم كيانا واحدا تذوب فيه جميع كيانات الافراد ماهو الا العصبية القبلية بذاتها ٠

فالعصبية هنا (رابطة اجتماعية – سيكولوجية ، شعورية ولاشعورية معا ، تربط افراد جماعة ما ، قائمة على القرابة ، ربطا مستمرا يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر دهدد اولئك الافراد ، كافراد او كجماعة(٤)٠

وفي هذا المعنى ورد في لسان العرب أن العصبية هى (أن يدعو الرجل الى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوؤهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين (٥)٠

العصبية كانت قد استقرت في أذهان الجميع بعد ظهور الاسلام على اساس انها دعوة ونصرة لغرض التفرقة والتنازع والاعتداد بالانساب وتقوم على مناصرة فريق ضد فريق آخر في حالة النزاع والخصام الحاصل بينهما ، وهذا بدوره يؤدى الى أثارة الفتنة واشعال فتيل الحرب بين القبائل ٠ بينما يقابل ذلك كله في مبادىء الدين الاسلامي الدعوة الى الوحدة والتأخي والتآلف ونكران الذات ٠

---

(٣) نفس المصدر – ص٢٥٣ ٠
(٤) نفس المصدر – ص٢٥٤ ٠
(٥) نفس المصدر – ص٢٥١

فجميع التفاسير المختلفة لمصطلح (العصبية) لايمكن أن تكون كافية بطريقة ما للاعتراف بها عن طريق الاقناع ، فنجد هناك الكثير من وجهات النظر الجوهرية في هذا المعنى الا أنها تنتهي الى تفسيرات ثلاثة اساسية لمصطلح العصبية : وجهة نظر تؤكد على اساس كون العصبية مفهوماً اجتماعيا ، يدل على (الروح الطبقي) و (التضامن) و (التكامل الاجتماعي) كما أوضح ذلك (دى سلان ، وبوتول ، وعيساوى) . ويؤيد وجهة النظر هذه كل من كامل عباد ، ومحمد عبدالله عنان و أ . روزينتال وهم الذين بحثوا في العصبية على اساس انها (قوة حيوية) ،

اما أ. كريمر ، ور . مونييه وف سيكاس ، وطه حسين فيفسرون العصبية بانها (القومية) و (الاحساس العنصرى) الذى يحدد النشاط السياسي للناس ، وكذلك تاريخ الشعوب . وقد وضع ف . جابر بيلى الحل الوسط لتفسير معنى العصبية بانها قوة روحية منظورة عن (روح القبلية) ، لكنها عاجزة عن أن تتحول الى « شعور قومي » ، لان شعوب الشرق (بخصائصها التي لاتقهر) غير قادرة على هذا الاحساس(٦) . الا ان موقف ابن خلدون من ذلك يعطي اساسا المفهوم الصحيح لمضمون مصطلح (العصبية) فجوهرها واشكالها ظاهرة تتضح عنده في العديد من فصول مقدمته : فهي اذن تتلخص بما يلي :ـ

١ ـ العصبية هى صلة الدم ، وهى بذلك تكون وراثية في المراحل الاخيرة من وجودها .

---

(٦) دكتورة سفيتلانا باتسيينا ـ العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون ـ ترجمه عن الروسية رضوان ابراهيم ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ـ ١٩٧٨ ـ ص ٢٤٤ـ٢٤٥ .

٢ ـ العصبية خاصة للمجتمع البدوى فحسب ، تحفظ نظام صلة الدم، وتحكم شكل علاقات القرابة الناشئة عن التنظيم الاجتماعي البدوى، والمجتمع الحضرى (المتمدن) ·

٣ ـ العصبية اساس التنظيم السياسي للمجتمع البدوى ، واساس النفوذ السياسي لزعماء القبائل وشيوخها ، والسلطة المحددة التي تتحقق كاملة في انسابهم ·

٤ ـ واصطلاح (العصبية) يستعمل لبيان كيفية الارتباط داخل العشيرة والقبيلة ، وكذلك مجموعات الاقرباء الذين في نفس الدرجة تماما(٧) ·

فأبن خلدون بهذا الاتجاه يتخذ من رابطة العصبية كونها موضوعا لدراسة شاملة وعميقة يستعرض اشكالها وصورها المختلفة ويتتبع الادوار التى في حياة المجتمعات بوجه عام · وفي حياة الدول بوجه خاص · فهى تعني لديه اساسا القوة الجماعية التى تمنح القدرة على المواجهة سواء كانت هذه المواجهة مطالبة بشيء أو دفاعا عن شيء ·

٣ ـ ١ ـ الاساس الذى تقوم عليه العصبية القبلية :

ان ابن خلدون تكلم اول ماتكلم ، عن العصبية وهذا يتضح عنده في العديد من فصول مقدمته · فهو يقدر (ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ماقي معناه ، وذلك لان صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الاقل · ومن صلتها النصرة على ذوى القربى واهل الارحام ان ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكه ، فأن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه

(٧) ـ نفس المصدر ـ ص ٢٤٨ـ٢٤٩ ·

او العداء عليه ، ويود لو يحول بينه وبين مايصله من المعاطب والمهالك : نزعه طبيعية في البشر منذ كانوا(٨) » فمثل هذا القول يكشف لنا بوضوح عن رأى ابن خلدون في مصدر العصبية فالعصبية مما تقدم تتولد وتنشأ ــ من حيث الاساس ــ من القرابة ، وهي تستند في هذا الى وحدة النسب في الدرجة الاولى · الا ان موضوع القرابة والنسب من المواضيع التي تحتاج الى تفسير من وجوه عديدة ، فقوة العصبية المتولدة من القرابة ، نجدهـا تختلف باختلاف درجة هذه القرابة ، فالالتحـام ، الحاصـل من وحـدة النسب الخاص يكون بطبيعة الحال اقوى من الالتحام الذى يأتى من وحدة النسب العـام : (والنعرة تقـع من اهـل نسبهم المخصـوص ومن اهل النسب العام ، الا انها في النسب الخاص اشد لقـرب اللحمة)(٩) ثم ان رابطة النسب لاتنحصر في نطاق القرابة وحدها ، ذلك لان الفرد في المجتمع قد ينفصل عن نسبه الاصلي ، وينضم الى نسب آخر ، لاسباب عديدة ، وبصور شتى اهمها :

(١) ــ القرابة · ــ (٢) ــ الحلف · ــ (٣) ــ الولاء · ــ (٤) الدخالة (١٠) · (من البيـن أن بعضـا مـن اهـل الانسـاب الى اهـل نسب آخـر · بقـرابة اليهم ، أو حـلف ، أو ولاء ، أو لفرار من قومه بجناية اصابها ، فيدعو بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته

(٨) مقدمة ابن خلدون ــ بتحقيق المستشرق الفرنسي أ·م كاترمير ــ عن طبعة باريس سنة ١٩٥٨ ــ الجزء الاول ــ المجلد الاول ــ مكتبة لبنان ــ بيروت ــ ١٩٧٠ ص٢٣٥ ·

(٩) د· محمد عابد الجابرى اخذت من مقدمة ابن خلدون ص٤٢٨ ــ جـ٢ ·

(١٠) ــ ابو خلدون ساطع الحصرى ــ نفس المصدر ــ ص٣٣٦ ·

من الثغرة والقود وحمل الديات وسائر الاحوال) (١١)· وبهذا نجد بأن ابن خلدون لايكتفي بسرد هذه الاراء بصورة اختيارية ، بل انـه يسـعى الى ايجاد التفسير والتعليل العلمي لها · حيث نلاحظ بانه قد توسع من ناحية المفهوم الخاص بالنسب من معناه الضيق الدارج الى حاله ان يدخل في اطار هذا النسب جميع الروابط التي قد تنشأ بين الافـراد مـن خلال طول واستمرار المعاشرة بينهم ·

لذلك ، نرى ابن خلدون يقول في عنوان احد الفصول (ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب أو مافي معناه) (١٢)· كما يوضح في الفصل المذكور بأن ، (اللحمة الحاصلة من الولاء ، مثل لحمة النسب ، او قريبا منها)(١٣)· فهو بهذا لايربط العصبية بالنسب بشكل مطلق ، اى لايجعل العصبية بالنسب بشكل مطلق ، أى لايجعل العصبية ملازمة للقرابة ذات الصلة بالدم بشكل مباشر ، فيرى ان العصبية هـى نتيجـة مايسـميه بـ (ثمرة النسب) وليست نتيجة للنسب نفسه (١٤)· (واذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد) (١٥)·

وهو يعني هنا بثمرة النسب ، أو فائدته : (هـذا الالتحام الـذى يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة)(١٦)· وبذلك نجـد ابن ابن خلدون لايقيد العصبية بالنسب بل بالالتحام الحاصل بسببه· ولايكتفي ابن خلدون بسرد هذه الاراء بل انه يستمر بتوضيحها عندما يقـول « ان

---

(١١) ــ المقدمة ــ ص٢٣٨ ــ جـ١
(١٢) ــ المقدمة ــ ص٢٣٥ ــ جـ١ ·
(١٣) ــ المقدمة ــ ص٢٣٥ ــ جـ١ ·
(١٤) ــ د· محمد عابد الجابرى ــ نفس المصدر ــ ص٢٥٩ ·
(١٥) ــ المقدمة ــ ص٢٣٨ ــ جـ١ ·
(١٦) ــ المقدمة ــ ص٢٣٦ ــ جـ١ ·

النسب أمر وهمي (أى ذهني ومعنوى) لاحقيقة له » (١٧)٠

والحالة هذه فليست هناك في نظرة ، دماء صافية تنتقل من الخلف الى السلف ، بل ان اختلاط الانساب هـو الظاهرة السـائدة « ومازالت الانساب تسقط من شعب الى شـعب ويلتحم قوم بأخرين في الجاهلـية والاسلام والعرب والعجم(١٨)٠ وبهذا يتضح ان الاساس الحقيقي والفعلي الذى تقوم عليه العصبية انما هو شيء اخر غير النسب ، الا وهو المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة(١٩)٠ وهذا لايعني بالضرورة وجود صله القرابة بالدم ضمن العصبة الواحدة بل انه العلاقة التى تميز جماعة معينة فقط ٠ ومن ذلك ينتج ان تعصب الفرد لعصبته انما يرجع الى تشبعه بعاداتهـا وتقاليدها ، وبروح الجماعة السائدة فيها.ومن ارتباط مصلحته بمصلحتها ويكون بذلك وجوده من وجودها أى انه (لامعنى لكونه من هؤلاء أو هؤلاء ألا جريان احكامهم واحوالهم عليه ٠ وكأنما التحم بهم)(٢٠)٠

٣ ــ ١ ــ غاية العصبية :

فكما عرفنا ان العصبيه تقوم على اساس النسب الذى يجمع افـراد العصبية الواحدة او عصائب القبيلة الواحدة ومن اجل المصـالح الواحده المشتركة ، نجده يعمل في الوقت نفسه عن اشـاعة الفرقه والتناحـر بين مصالح العصبات ٠ فالصراع العصبي هنا ، لايعد صراعا قائما بين صـلة الدم الواحدة ، ولا كونه يرجع امر مجرد حاله من الاعتداد بالانسـاب ٠

---

(١٧) ــ المقدمة ــ ص٢٣٦ ــ جـ١ ٠
(١٨) ــ المقدمة ــ ص٢٣٨ ــ ٢٣٩ ــ جـ١ ٠
(١٩) ــ د٠ محمد عابد الجابرى ــ نفس المصدر ــ ص٢٦٠ ٠
(٢٠) ــ المقدمة ــ ص٢٣٨ ــ جـ١ ٠

بل هو صراع من اجل البقاء والعيش ، وبهذا نجد ان هذه المصالح تعـــد بمثابة المحرك لقوة العصبية ، خاصة ونحـن نعلم بأن التفرقة والتوحيـد قائمة باستمرار في المجتمع العصـــبي وان ذلك كله يعـود الى جـملة امور ومعطيات تكتنف وتحيط بحياة مجتمع القبيلة او البداوة ، حيث نجد كيف أن ، العصبية تتحول من مجرد رابـطة قبلية معينـة ، الى قوة للمطالبـة والسعي وراء السلطة ، والعمل على تكوين الدولة وتأسيس الملك،فالادوار التي تلعبها العصبية في الحياة الاجتماعيـة كثيـرة ومتنوعة وذات اهمية معينة ويتضح ذلك من ، خلال مايقدمه ابن خلدون من تصور حوله وهـو مستمد من تصوره العام ل (طبائع العمران)(٢١)٠

حيث نجد بانه يقرر في ذلك (الملك انما يحصل بالتغلب ، والتغلب انما يكون بالعصبية)(٢٢) ٠ (أن المطالبات كلهـا والمدافعـات لاتتـم الا بالعصبية)(٢٣) ٠ (ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك)(٢٤)٠ ثم يقول بأن (الملك غاية طبيعية للعصبية ، ليس وقوعـه عنهـا باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه)(٢٥)٠ فعبارة (ضرورة الوجود وترتيبه) معناه عند ابن خلدون الكيفية التي اجرى الله بها العادة في الكـون(٢٦)٠ فهذه العادة قد استقرت واصبحت من الطبائع التي تلائم المجتمع ولاتفارقه ابدا ، وبذلك اصبح حدوثها من الامور الطبيعية السائدة داخل المجتمعات٠

(٢١) ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٧١ ٠
(٢٢ ـ المقدمة ـ ص٢٨٤ ـ ج١ ٠
(٢٣) ـ المقدمة ـ ص٣٣٨ ـ ج١٠
(٢٤) ـ المقدمة ـ ص٢٥٣٢ ـ ج١ ٠
(٢٥) ـ المقدمة ـ ص٣٦٤ ـ ج١ ٠
(٢٦) ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٧٢ ٠

والملاحظ ان قوة العصبية تنزع بطبعها الى الحكم والسيادة ، والتوسع فيها (وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طلب مافوقها ، فاذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ، ووجد السبيل الى التغلب والقهر ، لايتركه • لانه مطلوب للنفس • ولايتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التى يكون بها متبوعا • فالتغلب الملكي غاية العصبية)(٢٧) • وان ابن خلدون قد شرح جميع هذه الامور والتأثيرات بتفصيل يفي بالغرض المطلوب منها من خلال فصول مختلفة ، وانه قد توسع بشكل خاص في تأثير العصبية في تكوين الدولة التى سنأتي على ذكرها لاحقا وخلاصة القول هنا : (ان الملك هو غاية العصبية وانها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك ، اما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب مايسعه الوقت المقارن لذلك • وان اعاقها عن بلوغ الغاية عوائق وقفت في مقامها)(٢٨) •

فالملك اذن يحصل بهذه الصورة ، حيث يظهر من ذلك كله : أن العصبية ضرورية لتأسيس الملك والدولة ، وأن هذه الضرورة تنحصر في دور التأسيس والتمهيد •

٣ ـ فاعلية العصبية القبلية :ـ

١ ـ ٣ ـ علاقة العصبية بالدولة •

أن مفهوم الدولة عند ابن خلدون يرتبط ارتباطا عضويا بمفهوم العصبية لديه ، وعلى هذا الاساس فانه يتوسع بتعليلاته نحو تأثيس العصبية في تكوين الدول ، فالدولة كما حددها ابن خلدون هى (الامتداد

(٢٧) ـ المقدمة ـ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣ ـ جـ١ •
(٢٨) ـ المقدمة ـ ص ٢٥٤ ـ جـ١ •

المكاني والزماني لحكم عصبية ما)(٢٩)· وفي محاولتنا للوقوف على تفسير ابن خلدون في نشأة المجتمع والدولة ، نجده وقد كشف لنا على أن الدولة كمنظمة اجتماعية لها خصائص متميزة لاتتوفر في غيرها · ومن ابرز تلك الخصائص ان يكون لها من القدرة والسلطة والسيطرة مالا يملكها غيرها(٣٠)· بالاضافة الى ذلك فانه يرى ان الدولة نفسها تتأثر بالظروف الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والدينية المحيطة بالمجتمعات التى تضمها ، ومن ذلك طور البداوة الذى يمد به المجتمع ، وهذا الطور كما نعلم قوامه العصبية ، وهى قوة مادية واخلاقية ، تعمل على تكاتف وتعاضد الافراد · والتى تبتدىء بالقربى والنسب الخاص ، ثم تنتهي بالشعور العام المشترك الذى تنجم عنه روح الجماعة التى هى اساس قوة العصبية(٣١)·

وفي ذلك يقرر بن اخلدون « ان القبيل الواحد ، وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة· فلا بد من عصبية اقوى من جميعها، تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبة واحدة واحدة كبرى(٣٢)· ويؤكد ابن خلدون رأيه الاصلي في هذا المجال بقوله « ان الامر منذ اول الدولة لايتم الا لاهل العصبية، فتفطن انت له، وافهم سر الله فيه »(٣٣) ·

---

(٢٩) ــ د· محمد عابد الجابرى ــ نفس المصدر ــ ص٢١٧ ·
(٣٠) ــ د· فاضل زكي محمد ــ الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ط ٢ ــ دار الحرية للطباعة ــ بغداد ــ ١٩٧٦ ــ ص٢٩٩ ·
(٣١) ــ نفس المصدر ــ ص٣٠٠ ·
(٣٢) ــ المقدمة ــ ص٢٥٣ ــ جـ١ ·
(٣٣) ــ المقدمة ــ ص٢٨٢ ــ جـ١ ·

وهذا كله يعني ان العنصر الاساس الذى يمنح الدولة قوة التأثير في المجتمع هو العصبية ، فقوة الدولة تصبح من قوة العصبية • وبكل ماتحمله هذه الكلمة من معاني الالتحام والكثرة في العدد •

هذا وان مدى نفوذ الدولة واتساع حدودها يتوقف على وضع عصبيتها من جهة ، ووضع العصبية في المناطق التي تحت سيطرتها ، او التى تريد بسط نفوذها عليها من جهة ثانية ، فعندما تكون عصبية الدولة ملتحمة وتقوم على كثرة عددية ، ستكون سلطة هذه الدولة ذات نفوذ قوى ويقابل ذلك ان العصبيات المناوئة لها تكون ضعيفة في جميع مستوياتها ، اما اذا حصل العكس فأن نفوذ مثل هذه الدولة سيكون ضعيفا •

ولذلك كان « عظمة الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة فما كان من الدولة العامة قبيلها واهل عصبيتها اكثر ، كانت اقوى واكثر ممالك واوطانا ، وكان ملكها اوسع »(٣٤) •

وعندما يقرر ابن خلدون بأن « كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لاتزيد عليها »(٣٥)• فأن ذلك يرجع الى أن العصبية الغازية لابد وان تجد نفسها في وقت ما ومهما توسع غزوها ومهما وصلت من قوة واقتدار في مستقر لايسمح لها بمتابعة غزواتها ، ذلك لان حيز الدولة كلما اتسع ، تصبح حدود الدولة بحاجة الى حاميات اكثر وبطبيعة الحال فأن مثل هذه الحاميات لايمكن ان تكون الا من رجال الدولة وعصابتها :

ويقول بصدد ذلك : (أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين

---

(٣٤) ـ المقدمة ـ ص٢٩٣ ـ جـ١ •
(٣٥) ـ المقدمة ـ ص٢٩١ ـ جـ١ •

لها ، لابد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور فلا بد من نفاذ عددهم) وتكون الممالك قد بلغت « حينئـذ الى حد يكـون ثغرا للـدولة ، وتخمـا لوطنها ، ونطاقا لمركز ملكها . فأن تكلفت الدولـة بعـد ذلك زيـادة على مابيدها ، بقي بدون حامية . وكان موضعاً لانتهاز الفـرصة مـن العـدو والمجـاور »(٣٦) .

يتضح من كل ماتقدم ان كل شيء في الدولة يرتبط بالعصبية وحالها والدولة مثل الشخص تمر بنفس الاطوار التي يمر بها « ان الدولة لهـا اعمار طبيعية كالاشخاص »(٣٧) . اذن والحالة هذه نجد هناك اسـتمرار في الدولة وهذا يعني استمرار في الحضارة والعمران داخل حكم العصبية العامة وان انتقال الحكم من عصبية خاصة الى اخرى مماثلـة لايؤثـر لافي الحضارة ولا في العمران جمله(٣٨) .

يقول ابن خلدون : « واما الدولة الشخصية مثـل دولة أنوشـروان هرقل أو عبدالملك بن مروان او الرشيد ، فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبـة الشبه بعضـها من بعض . فلا تؤثر كثير اختلال ـ في العمران ـ لان الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران انما هي العصبية والشوكة ، وهي مستمرة على اشخاص الدولة »(٣٩) .

وكما يقرر ابن خلدون ـ من جهة ـ ان العصبية ضرورية لتأسيس

(٣٦) ـ المقدمة ـ ص٢٩١ ـ جـ١ .
(٣٧) ـ المقدمة ـ ص٣٠٥ ـ جـ١ .
(٣٨) ـ د. محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٣٢٥ .
(٣٩) ـ د. محمد عابد الجابري ـ اخذت من مقدمـة ابن خلـدون ـ ص ٨٨٤ ـ جـ١ .

الدولة فانه يقرر ـ من جهة اخرى ـ ان هذه العصبية قد تعرقل تأسيس الدولة ، حيث يقول في عنوان احد فصول مقدمته « ان الاوطان الكثيره القبائل والعصائب ، قل ان تستحكم فيها دولة »(٤٠)٠

ويستشهد ابن خلدون في ذلك بما حدث في « افريقيا والمغرب منذ او الاسلام » « فأن ساكن هذه الاوطان من البربر ، أهل قبائل وعصبيات، فلم يغن فيهم الغلب الاول ٠٠٠ شيئا وعادوا بعد ذلك الى الثورة والردة مرة بعد أخرى ، وعظم الاثخان من المسلمين فيهم٠ولما استقر الدين عندهم، عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرات عديدة »(١٤)٠٠٠ لان قبائلهم في المغرب كانت « اكثر من ان تحصى ، وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكتقبيلة عادت الاخرى الى مكانها والى دينها من الخلاف والردة ، فطال امر العرب في تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب »(٤٢)٠

ويعكس ذلك ، فأن « الاوطان الخالية من العصبيات ، يسهل تمهيد الدولة فيها لان سلطانها يكون « وادعا لقلة الهرج والانتفاض ، ولاتحتاج الدولة فيها الى كثير من العصبية »(٣)٠

وقد استشهد ابن خلدون في ذلك بما حدث في الشام والعراق آبان الفتوحات الاسلامية ٠

ويتضح من ذلك كله : ان العصبية ضرورية لتأسيس الملك والدولة بعد أن اصبح كل شيء في الدولة مرتبط بالعصبية فنجد اتساع نطاق الدولة ، واستتباب سلطانها ، ومن ثم مساهمتها المستمرة في التشييد

---

(٤٠) ـ المقدمة ـ ص٢٩٥ ـ جـ١ ٠
(٤١) ـ المقدمة ـ ص٢٩٩ ـ جـ١ ٠
(٤٢) ـ المقدمة ـ ص٢٩٩ ـ جـ١ ٠
(٤٣) ـ المقدمة ـ ص٢٩٩ ـ جـ١ ٠

والعمران • كل ذلك يرجع اساسا الى حال عصبيتها وحال عصبية الاقوام التابعة لها •

٢ ـ ٢ ـ علاقة العصبية بالدين :

لقد فهم ابن خلدون العلاقة القائمة بين العصبية والامور الدينية على اساس ان هذه العلاقة تعمل على جمع القلوب وتآلفها وتوحيد الصفوف وهذا مما يؤدى الى التخفيف من مظاهر التعصب داخل المجتمع البدوى او القبلي (والسبب في ذلك ••• أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى في اهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق ••• »(٤٤)•

فالعامل الديني أو الدعوة الدينية سواء اكانت نبوة أو رسالة او دعوة اصلاحية انما تستمد قوتها بلا شك من المبادىء التى تحملها والاساس التى تقوم عليها حيث انها تعتمد في نشاطها على مبدأ « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر »(٤٥)•

وبهذا نجد ابن خلدون لاحظ بعض العلاقات المهمة التى تربط بين قوة العصبية ، وبين الامور الدينية او الدعوة الدينية اذ يقول « ان الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم »(٤٦)• لان مثل هذه الدعوة تضمنت حمل البشر على السير وفق ماتقتضيه الاوامر الدينيه • فهى بذلك لاتخرج عن نطاق الامور التى تحتاج الى عصبية »(٤٧)• فالعلاقات القائمة على النسب بمعناه الضيق أو ماتسمى بالعلاقات العصبية داخل المجتمع البدوى ،

---

(٤٤) ـ المقدمة ـ ص٢٨٤ ـ جـ١ •
(٤٥) ـ د• محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٦ •
(٤٦) ـ المقدمة ـ ص٢٨٦ ـ جـ١ •
(٤٧) ـ ابو خلدون ساطع القصرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٤٧ •

لايمكنها ان تتطور الى عصبية جامعة تبغى الحضارة والاستقرار وسلطة الملك وثمراته ، دون حصول متغيرات في مستوى ، هذه العلاقات وهذا لايكون الا بعامل فعال ذو تأثير خاص ، وهذا العامل ماهو الا العامل الديني ، الذى يذهب عنهم الغلظه والتنافس والتحاسد ·

وبهذا يقول ابن خلدون « فاذا كان فيهم النبي أو الولى الذى يبعثهم على القيام بأمر الله تعالى ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاظهار القق ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك »(٤٨)· ويضيف ابن خلدون الى ذلك تعليلا آخر اذ يقول « وفي الحديث ··· مابعث الله نبيا : الا في منعه من قومه · واذا كان هذا في الانبياء وهم اولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم ان لاتخرق لهم العادة في الغلب بغير العصبية » (٤٩)·

فالدعوة الدينية كما يتضح قد زادت من قوة العصبية ، فأصبحت بذلك قادرة على احداث تحولات وتغييرات جذرية في جميع المستويات والاوضاع داخل المجتمع البدوى · وبهذا يقول ابن خلدون « ان الاجتماع الديني يضاعف قوة العصبية »(٥٠) · وعندما يحصل « الاجتماع الدينى » في قوم من الاقوام . بلا شك سوف يضمن لهم التغلب على من هم اوفر عددا واقوى عصبية منهم ، وعندما يفقد هؤلاء القوم بعدئذ هذا « الاجتماع الديني » أى « اذا حالت صبغة الدين وشدت »(٥١)· نجد بأن التغلب

---

(٤٨) ــ المقدمة ــ ص٢٧٣ ــ جـ١ ·
(٤٩) ــ المقدمة ــ ص٢٨٦ ــ جـ١ ·
(٥٠) ــ المقدمة ــ ص٢٨٥ ــ جـ١ ·
(٥١) ــ نفس المصدر ــ ص٢٨٥ ــ جـ١ ·

الذي كان قد حصل بفضل ذلك الاجتماع ، وبتأثير تلك الصبغة » ينتقص الامر فيصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة في الدين فتغلب على الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها » بعد ان كانت الدولة المذكورة قد « غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها وكانوا اكثر عصبية منها أو أشد بداوة »(٥٢).

وهنا يستشهد ابن خلدون بوقائع تاريخية عديدة على ذلك وهي مستنبطة من التاريخ الاسلامي . وانه يذكر بشكل خاص » ماوقع للعرب في صدر الاسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين في القادسية واليرموك » قد غلبت « جموع فارس وجموع هرقل » مع ان عددهم كان بضعة وثلاثين الفا ، في حين أن جموع فارس كانت نحو مائة وعشرون الفا بالقادسية وجموع هرقل كانت على ماقاله الواقدي ـ اربعمائة الف باليرموك »(٥٣) .

كما انه يذكر ماحدث بين المصادمة وزناته في دولة الموحدين « كما كانت زناته ابدى من المصامدة واشد توحشا ، وكان للمصامدة الدعوة الدينية بأتباع المهدي ، فلبسوا صبغتها وتضاعفت عصبيتهم . فغلبوا على زناته اولا فاستتبعوهم ، وان كانوا من حيث العصبية والبداوة اشد منهم . فلما حالوا عن تلك الصبغة الدينية انتفضت عليهم زناته من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه والله غالب على امره »(٥٤) .

وبهذا الانجاه نجد بأن ابن خلدون كان قد توسع بوجه خاص .

---

(٥٢) ـ المقدمة ـ ص٢٨٥ ـ ج١ .
(٥٣) ـ المقدمة ـ ص٢٨٥ ـ ج١ .
(٥٤) ـ المقدمة ـ ص٢٨٦ ـ ج١

في توضيح تأثير الامور الدينية على القبائل البدوية العربية فيقول في فصل « أن العرب لايحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو اثر عظيم من الدين على الجملة » « والسبب في ذلك » ان هذه القبائل العربية » اصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع اهواؤهم ، فاذا كان الدين بالنبوات أو الولاية كان الوازع لهم من انفسهم،وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس »(٥٥).

يتبين لنا مما تقدم بأن العصبية في المجتمع البدوى الذى يتألف عادة من قبائل البدو الرحل ، لايمكن لها ان تتطور الى عصبية موحدة متآلفة الا بوجود عامل آخر مضاف،الا وهو الدعوة الدينية الذى تتبناها عصبية معينة تعمل على نشرها ونصرتها مما ينتج عن ذلك ظهور تكتل أو تجمع عصبي يعمل على تأسيس الدولة والملك حيث « ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على العصبية التى كانت لها من عددها »(٥٦).

فالدولة القائمة اذا كانت تعتمد على العصبية بشكل مباشر لايمكن لها البقاء طويلا دون ان يكون استقرارها واستمرارها معززا بدعوة دينية. فأبن خلدون هنا يقول رأيه بصراحة من « أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين أما من نبوة أو دعوة حق »(٥٧).

فالقوة المعنوية التى تتجلى في العصبية حينما تتحد أو تلتحم أما مع

(٥٥) ـ المقدمة ـ ص٢٧٣ ـ جـ١ .
(٥٦) ـ المقدمة ـ ص٢٨٤ ـ جـ١ .
(٥٧) ـ المقدمة ـ ص٢٨٤ ـ جـ١ .

الدين أو مع دعوة من دعوات الحق تكتسب بذلك طابعا مذهبيا . وهـذه بلا شك تضفي على العصبية صفة خلقية ومعنوية ايضا(٥٨). بحيث تصبح من القوة والمنعة لايقف امامها أى شيء يتحداهـا .

الخلاصـــة :-

بعد أن تعرضنا في هذا البحث الى مفهوم العصبية عند ابن خلـدون وجدنا بأنه قد استطاع في مقدمته المعروفة ان يتوسع في استعمال مصطلح العصبية ولم يتصرف بها في حدود معناها اللغوى البحـث المتعارف عليها وانما تمكن من ادخال الكثير من انواع الروابط والعـلاقات الاجتماعية ، وجميع الظواهر التى تتعلق بالتعاضد والتآزر والتكاتف في مفهومها .

وهذا كله جاء من خلال تجربة ابن خلدون داخل بيئتـه الاجتماعية والسياسية التى عاش فيها واطلاعه الواسع على تفاصيل التجارب الاخرى التي سبقته والتى حاول شرحها وتعليلها في هذا المجـال حيث وجـد بأن فكرة العصبية متأتيه من كون المجتمع البدوى وهو الذى يشكل الجماعـة الاولية قائم على علاقات شخصية مباشـرة ، ومن هـذه العـلائق ينبثـق التضامن والتعاضد والتكاتف الجماعي المتين والراسخ وهذا كله ناجم عن رابطة صلة الدم بالدرجة الاولى ومن ثم تتبلور نحو وحدة المصير الواحد بينهم . اما بالنسبة الى العلاقات الاجتماعية القائمـة في المجتمع الشـامل فتقوم على اساس المصالح المتبادلة بين افراده ، فمن الناحية التاريخية ، يرى ابن خلدون ان الجماعة الاولية سابقة بوجودها لظهور المجتمع الشامل، وبذلك اصبحت مثل هذه المجتمعات داخله في نطاق تأثير القبائل والعشائر

---

(٥٨) ـ د. فاضل زكي محمد ـ نفس المصدر ـ ص٢٠١ .

البدوية فمثل هذه البيئة تمت بصلات وثيقة الى الحياة البدوية من جهـة والحياة الحضرية من جهة اخرى ، فكلما تقدم المجتمـع انتقلت الجماعات البدوية الى الجماعات المتحضرة وتكوين المجتمع الشـامل ، وبـذلك كانت الدول القائمة في مثل هذه المجتمعـات تتأثر تأثـرا كبيـرا من القبائـل والعشائر ، حتى انها كثيرا ماكانت تتكون وتنحل وتتوسـع وتتقلص وتقوم وتنهار من جراء تآلف وتوحـد العشائر أو تفرقها وتشتتها . لذلك فأن نظرية ابن خلدون في العصبية كانت من النظريات التي لامسـت واقع المجتمع الى حد كبير ، حيث اظهرت طبيعة الروابط والعلائق الاجتماعية المختلفة باجلى تلاحمها واشكالها في العهود التاريخية المختلفة ، وهي بذلك تدلل على تفكير فاحص ونافذ ، شامل ومتعمق في دراسـة ومتابعة جميـع الحالات الاجتماعية وتعليل وقائعها التاريخية .

الهـوامش :

١ ـ ابو خلدون ساطع الحصرى ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون ـ ط٣ ـ ١٩٦٧ـص٣٣٤ .

٢ ـ د. محمد عابد الجابرى ـ فكر ابن خلدون ، العصـبية والـدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ـ دار الشـؤون الثقافية (آفاق عربية) ـ بغداد ـ ص٢٥٣ .

٣ ـ د. محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٣ .

٤ ـ د. محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٤ .

٥ ـ د. محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٥١ .

٦ ـ د. سفيتلانا باتسيينا ـ العمران البشرى في مقـدمة ابن خلدون ـ

ترجمة عن الروسية رضوان ابراهيم ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ـ ١٩٧٨ ـ ص٢٤٤ ـ ص٢٤٥ ٠

٧ ـ د٠ سفيتلانا باتسييفا ـ نفس المصدر ـ ص٢٤٨ ـ ص٢٤٩ ٠

٨ ـ مقدمة ابن خلدون ـ بتحقيق المستشرق الفرنسي أ٠م٠ كاترمير ـ لبنان ـ بيروت ١٩٧٠ ـ ص٢٣٥ ٠

٩ ـ د٠ محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٤٢٨ ٠

١٠ـ ابو خلدون ساطع الحصرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٦ ٠

١١ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٨ ٠

١٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٥ ٠

١٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٢٥ ٠

١٤ـ د٠ محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٩ ٠

١٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٨ ٠

١٦ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٦ ٠

١٧ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٦ ٠

١٨ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٨ ـ ٢٣٩ ٠

١٩ـ د٠ محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٦٠ ٠

٢٠ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٨ ٠

٢١ـ د٠ محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ٢٧١ ٠

٢٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٤ ٠

٢٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٣٣٨ ٠

٢٤ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٣٦٤ ٠

٢٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٣٦٤ ٠

٢٦ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٧٢ ٠

٢٧ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٢ـ٢٥٣ ٠

٢٨ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٤ ٠

٢٩ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ٢١٧ ٠

٣٠ـ د٠ فاضل زكي محمد ـ الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ـ ط٢ ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ـ ١٩٧٦ ـ ص٢٩٩ ٠

٣١ـ د٠ فاضل زكي محمد ـ نفس المصدر ـ ص٣٠٠ ٠

٣٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٣ ٠

٣٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٢ ٠

٣٤ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٣ ٠

٣٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩١ ٠

٣٦ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩١ ٠

٣٧ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٣٠٥ ٠

٣٨ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٣٢٥ ٠

٣٩ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٨٨٤ ٠

٤٠ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٥ ٠

٤١ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٩ ٠

٤٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٩ ٠

٤٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٩ ٠

٤٤ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٤ ٠

٤٥ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٦ ٠

٤٦ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٦ ٠

٤٧_ ابو خلدون ساطع الحصري _ نفس المصدر _ ص٣٤٧ .

٤٨_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٧٣ .

٤٩_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٨٦ .

٥٠_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٨٥ .

٥١_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٨٥ .

٥٢_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٨٥ .

٥٣_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٨٥ .

٥٤_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٨٤ .

٥٥_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٧٣ .

٥٦_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ٢٨٤ .

٥٧_ مقدمة ابن خلدون _ نفس المصدر _ ص٢٨٤ .

٥٨_ د. فاضل زكي محمد _ نفس المصدر _ ص٣٠١ .

المصـــادر :

١ _ مقدمة ابن خلدون _ تحقيق المستشرق الفرنسي أ.م كاترمير عن طبعة باريس سنة ١٨٥٨ _ الجـزء الاول _ المجـلد الاول _ مكتبة لبنان _ بيروت ١٩٧٠ .

٢ _ ابو خلدون ساطع الحصري _ دراسات عن مقدمة ابـن خـلدون _ طبعة ثالثة موسعة _ مكتبة الخانجي بمصر _ القاهرة ، دار الكتاب العربي بيروت _ ١٩٦٧ .

٣ _ د. سفيتلانا باتسييفا _ العمران البشري في مقدمة ابـن خلدون _

ترجمة عن اللغة الروسية رضوان ابراهيم ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ، ١٩٧٨ ٠
٤ ـ د٠ فاضل زكي محمد ـ الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ـ ط٢ ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ـ ١٩٧٦ ٠
٥ ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ فكر ابن خلدون ـ العصبية والدولة / معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ٠

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٤٣٦ لسنة ١٩٩٠

سعادة سفير الجمهورية العربية اليمنية المحترم

م تهنئــة

المؤرخـون والاثاريون العراقيـون يهنئـن شـعب اليمن وقيادتـه الثورية المؤمنـة بحـق الامة العـربية في الوجود ٠ ان قيام الدولة اليمنية الموحـدة لهو دليـل صادق على ارادة تصـفية الاثـار الحقيقية للمرحـلة الاستعمارية ٠

وفقكم اللـه ووفقنـا لخير امـة العرب ....

الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي
رئيس جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

الاخ الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي المحترم
رئيس جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق الشقيق

تحية طيبة وبعد

تسلمت تهنئتكم الرقيقة بمناسبة اعادة توحيـد اليمـن ارجـو ان تنقلوا والأخوة المؤرخين والاثاريين في العـراق الشـقيق خالص شـكرى وتقديرى على مشاعركم الكريـمة ، كما ارجـو من الله ان يحـقق لأمتنـا العربية العزة والنصـر ٠

وتقبلوا فائق تقديرى واحترامي ٠

السفير
محمد عبدالله الشامي